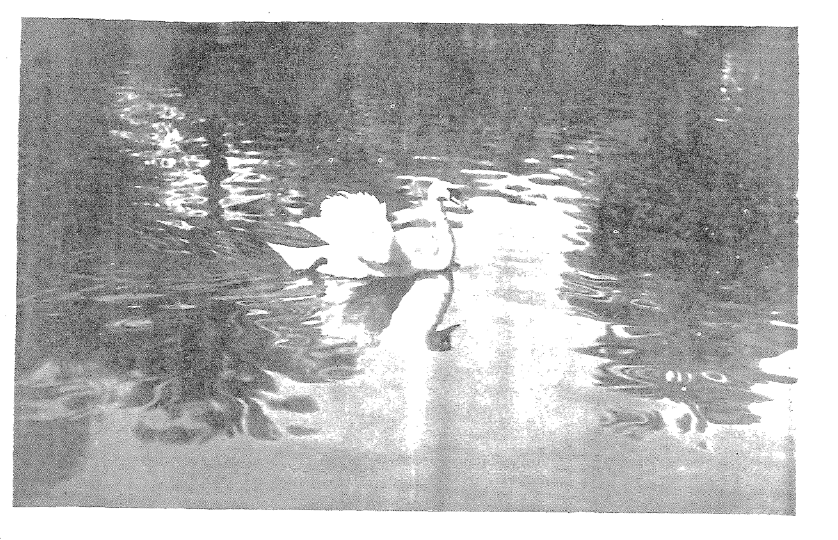


آيات من التصوير الضوئي مختارة
من المعرض السادس الذي افتتح
في دار جمعية محبي الفنون الجميلة
بالقاهرة في ٢١ دسمبر ١٩٣٨

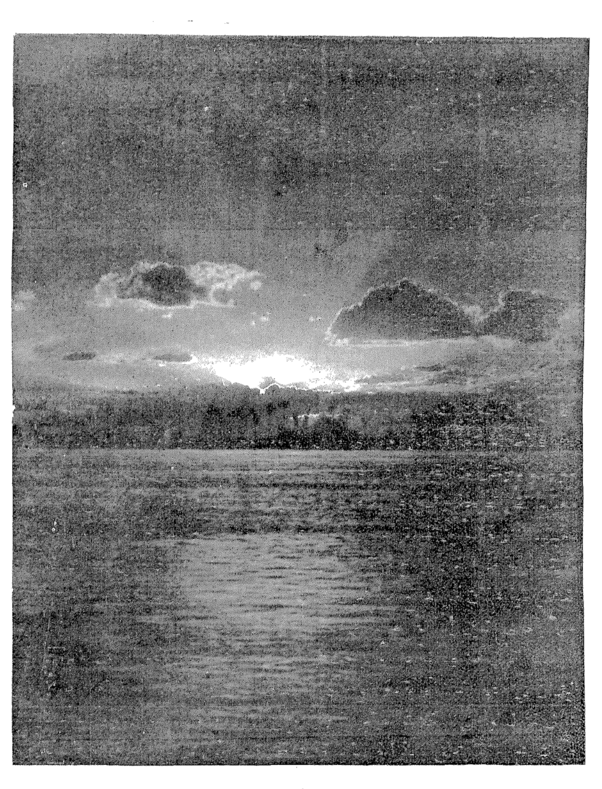
تفاؤل

[تصوير بديع فهمي]



وِحدة

[تصوير بديع فهمي]



مولد الأمل

[تصوير الدكتور أحمد موسى]

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الرابع والتسعين

١ يناير سنة ١٩٣٩ — ١٠ ذي القعدة سنة ١٣٥٧

الدمقراطية

في العصر الحاضر

موضوع الدمقراطية في هذا العصر، يشغل الافكار ويقلق النفوس ولا سيما نفوس الذين شبوا وترعرعوا على ان النظم الدمقراطية هي خير ما ابدعه الاختبار لتثقيف الروح الانسانية والسمو بها، ولتنظيم المجتمع وسياسة شؤونه، او هي خير حلّ عرف حتى الآن لتلك المشكلة الاساسية في تنظيم الجمعية السياسية، مشكلة احكام التوازن بين السيادة والحرية. فنحن عندما نلتفت يمنةً ويسرة نجد ما يحيرنا من انقسام وتخاذل وجدل في ناحية يقابلها حزم وقصد واتحاد —أو ما يبدو اتحاداً— في الناحية الاخرى. هذا الصراع بين الدول التي لا تزال آخذة بنظام الحكم الدمقراطي والدول التي عدلت عنهُ الى مبدإ الزعامة، يدور على مطامع مادية خاصة بالحدود الجغرافية والقواعد العسكرية والمصالح الاقتصادية— يسمو شأنها او يقل— ولكنهُ يبدو لنا صراعاً بين نظم الحكم نفسها. فيقف بعضنا من هذا الصراع موقفاً تمليه علينا نزعاتهُ الخاصة فيحكم حكماً حاسماً لا رادّ لهُ بصلاح هذه وفساد تلك، وبعضنا يقف محيراً يبحث ويتأمل في مزايا هذه النظم ومساويها ويحاول ان يوازن، لعلَّهُ يخرج من الموازنة برأي مستقيم

الاَّ ان الانتصارات الباهرة التي احرزتها الدول الآخذة بمبدإ الزعامة في حلبة السياسة والحرب او التهديد بها في العهد الاخير، والنكوص الذي باءت بهِ الدول الاخرى، يحملان كل من يتصدَّى لبحث الدمقراطية في هذا العصر على ان يتروَّى قبل الاقدام، لان كل بحث من هذا القبيل

يقتضي من صاحبه خلتين على الاقل : خلة الشجاعة وخلة التأني

أما الشجاعة فلأن كل كلمة تقال دفاعاً عن الدمقراطية تضع قائلها في هذا العصر في منزلة المدافع عن حقوق الملوك المنزلة إبان سورة الثورة الفرنسية في مختتم القرن الثامن عشر فيُرمى بكل هجر من القول . ذلك ان الدمقراطية تبدو الآن في حالة جزر بعد مدٍّ طال قرناً ونصف قرنٍ في طورها الحديث . واذا كان من غير العجيب ان نسمع من زعيم الكتائب السود ان الفاشستية أخذت تدوس بقدميها جثة الحرية المنتنة،فالعجيب ان نرى رجلاً كالمستر ولز الكاتب الانكليزي يعلق كل امله في مستقبل العالم بقيام فئة من رجال العلم والصناعة على ادارة شؤون البلدان كما تدار الشركات الكبيرة—وهوما يعرف في الولايات المتحدة الاميركية بالتكنوقراطية— وقد بسط رأيهُ هذا في غير واحدة من قصصهِ الاجتماعية ولا سيما قصة « عالم وليم كليسولد » . ولا يقل عنهُ عجباً برناردشو الكاتب الاشتراكي عند ما يشبهُ الانسان بسمك الاغوار ، اذا ارتفع من الغور الى السطح انتفخ حتى ينفجر . كذلك الانسانية في رأيهِ لايمكن أن تسودها المساواة ولابد من بقاء الطبقات فيها على تفاوت دائم بينها . بل اعجب من قول شو وولز ، قول نورمن آنجل ، ذلك الاشتراكي الصميم ، الثائر على الاستبداد ، المناوىء للطغاة ، فانهُ يقول على ما روى الاستاذ كاتلن ، انَّ صوت الشعب هو صوت الشيطان

فالاصداء تتجاوب من روما الى برلين الى موسكو الى طوكيو الى بعض زوايا باريس ووارسو وبوخارست وغيرها، بان القضاء على الدمقراطية ، هو الخطوة التالية لتأمين الحضارة في العالم وهو مناقض لصيحة ولسن في اثناء الحرب العالمية عندما قال ان القضاء على الروح العسكرية هو الخطوة اللازمة لتأمين الدمقراطية في العالم . فالدمقراطية في روعهم وهمٌ من أوهام الاحرار . وربة الحرية قد اسلمت الروح وانتنت جثتها . لذلك كانت الشجاعة لازمة لمن يتصدى للدفاع عن الدمقراطية ، لان من يدافع عن شر زائل — والدمقراطية في عرفهم هي هذا الشر— مرميٌّ حتماً باحدى اثنتين إما انهُ مصابٌ في عقلهِ وإما إنهُ رجعيٌّ خطِر

اما التأني فلا بد منهُ ديدناً للباحث في هذا الموضوع . لان الصراع بين نظم الحكم في البلدان التي نصفها بالدكتاتورية ، ونظم الحكم في البلدان التي جرينا على نعتها بالدمقراطية،صراع عنيف شامل يتناول نواحي المشكلات السياسية الدولية،ويزج في دردوره باقطاب الحكومات، ثم لا يتعفف عن تشريح كل ما يتعلق بالكرامة الانسانية في ظل النظامين مما يتصل باعرق النزعات الروحية والاجتماعية . فكل اشارة غير قائمة على التجرد عن الهوى والتأني في الحكم يبرم بها هؤلاء واولئك ، ولا سيما اولئك لان البحث والمناقشة والموازنة لا مكان لها في فلسفتهم

ثم من نحن حتى نتصدى للحكم ! ولست اوجِّه هذا السؤال باعتبار اننا في الشرق دون اهل الغرب لا نستطيعهُ، بل اريد ان الباحثين في الشرق والغرب جميعاً عاجزون عنهُ . فنظم الحكم

سواء أدكتاتورية كانت ام دمقراطية، مظهر من مظاهر الاجتماع والاقتصاد وثقافة الروح والذهن، والحكم الفاصل في مصيرها غير ميسور لمن يكون مغموراً بحسناتها او سيئاتها . انما الحكم للزمن والتاريخ عندما تنظر الحوادث وملابساتها وآثارها نظراً مشارفاً . فاذا اشتط الباحث في هذا البحث الدقيق، وتنكب جادة التأني وغلا في القول ، تأييداً لهذا او ذاك، او تجريحاً وهدماً ، كان مصير كلامه على الغالب من اذن الى الاذن التي تقابلها

وقبل ان أمضي في البحث الى قلب الموضوع أريد ان أقول انني لا أعتقد ان الدمقراطية هي النظام الكامل لحكم الشعوب . وسنشير الى نقائصه بغير رحمة ولا هوادة . وانما المسألة التي أمامنا ليست هل النظام الدمقراطي هو النظام الامثل ، بل هل هو أقرب الى النظام الامثل من النظم الاخرى المقترحة او لا ؟ فكثيرون من المصلحين ينسون احياناً انهُ لا يكفي ان تؤدي اصلاحاتهم الى ازالة الشرور والمساوي القائمة بل يجب ان ينظروا ايضاً الى ما قد ينبت في ظل النظام الجديد المقترح من شرور قد تكون أفدح من الشرور المزالة

وللدمقراطية معانٍ كثيرة الاَّ أننا سنستعملها في هذا البحث بمعنى النظام السياسي الذي أفضت اليه فكرة سيادة الشعب ، نعني النظام النيابي . والمجالس النيابية قائمة على فرضين ، أولهما انهُ من حق كل فرد وكل جماعة او طبقة اجتماعية ان تطالب الحكومة بتحقيق مطالبها جهد المستطاع . وثانيهما ان البحث خير طريقة لتدبير شؤون الانسان لان العقل أفضل أداة كشفها الانسان لتبين الصالح والطالح ، كما تبيَّن لهُ الصائب والخاطىء بوجهٍ عام

وليس ينكر ان المجالس النيابية في البلدان الدمقراطية تقترب احياناً من الصورة المخزية التي يرسمها بها خصومها : خطبٌ طويلة مملة ، فيها ثرثرة ، وفيها جهل ، وفيها غرض ، وفيها تحزب حتى ليسأل الباحث عندما يسمع او يطالع بعض هذه الخطب ، أحقيقة أصاب هؤلاء قسطاً من التعليم . الاَّ اننا بعد لأيٍ ، نسأل ، هل هذه الصورة تمثل النظام نفسه كما يجب ان يكون ، او هي تمثله في حالته الحاضرة الناقصة وتصف الرجال الذين يشغلون مناصب معينة فيه . والجواب بالنفي عن الشق الاول وبالايجاب عن الثاني . فالانقلابات الشعبية التي وقعت في بعض البلدان وأفضت الى قيام الحاكمين بأمرهم فيها انما وقعت لان الشعب ثار على طمع القائمين بالامر وجهلهم . وفي هذا دليل على ان الانتخاب العام ، والاعراب عن مشيئة الشعب بواسطته لا يتجه حتماً ، كما يزعم خصومهُ ، الى اختيار المشرعين الجهلة الطامعين . والنواب الذين هذه صفاتهم ليسوا جزءاً أساسيًّا من النظام التشريعي الدمقراطي . انهم في منزلة ندماء الشرّ عند الملوك ، ومشيري الخطاء عند الطغاة

ومما يستوقف النظر ، ان كل حركة معادية للدمقراطية في هذا العصر ، تتجه خاصة الى إنكار مبدإ العقل . فدعاة الملكية في فرنسا يريدون ان يحلوا محل العقل ، ما يطلقون عليه

النزعة اللاتينية ، او — التقليد اللاتيني — حتى يحتكموا اليه عندما يحزب الامر وتتوعّر الطريق. والفاشستيون الايطاليون ، يتغنون بروح الامة ، والوطنيون الاشتراكيون بالذات العنصرية ، والشيوعيون بمصالح العمال الاقتصادية . وكل محكمة من هذه المحاكم هي مجلس قائم على غير العقل . وكل منها فوق النقد . ثم يقوم فرد يزعم انهُ لسان هذه النزعة او تانك الروح او تلك الذات . وانهُ لمن العجيب وقد انقضت ثلاثة قرون من البحث العلمي ، اسفر خلالها انطلاق روح النقد عن اعظم النتائج ، ان تجد في هذا العصر من يعتقد ، ان في الوسع الوقوع على شخص فرد ، يتركز في شخصه كل العلم والحكمة والعدل ، حتى يصح ان تطلق قوتهُ السياسية من كل قيد ، وترفع فوق كل بحثٍ

***

من وجوه النقد التي توجَّه الى المجالس النيابية ، انها « جماعات مناظرة » . وهذا ما يسلم بهِ الدمقراطيون انفسهم. لانهم لا يجدون ثناء أعظم من هذا الثناء. فعندهم انهُ يندر بين مشروعات القوانين، مشروع يجب ان يقر بغير بحث ومناقشة . اذ اين نجد رئيساً لدولةٍ، او رئيساً لوزارة ، او عضواً في مجلس نيابي ، بلغ من الكمال بحيث لا تكون آراؤه في غير حاجة الى التمحيص او التوضيح او النقد .. وليس عندنا في ما نعرفه من عِبر التاريخ ما يدل على ان هذا الرجل متاح . هل الناس احكم الآن ، او اقل اثرة ، او اشد تساهلاً ، مما كانوا في سابق العصور ؟

قلّبوا النظر في نواحي الحياة الاجتماعية، تجدوا كل وجهٍ من وجوه التعصب الاجتماعي التي عرفت في الماضي ، ومن اليقين ان الحاجة الى النقد في هذا العصر اعظم جدًّا منهُ في اي عصر سلف لما تحوكه الدعاوات المغرضة، من غشاوات تلقيها على الأبصار والبصائر

من السهل ، ان نرفع الصوت بالتبرم والتذمر ، عند ما نرى عضواً في مجلس نيابي او جماعة من الاعضاء يقفون كالسد دون سير مشروع ما سيراً عاجلاً الى سجلات القوانين . ان التبرم بعمل هؤلاء قد يخيفهم لانهُ تهمة اجتماعية كبيرة قوامها عرقلة اعمال التشريع . ولكنهُ في حدّ نفسهِ دليلٌ على ضرورة العرقلة الى حد ما . لان كل مشروع صالح تقدمهُ الحكومة القائمة يجب ان يكون قادراً على الثبوت عند ما تثور حواليهِ اعاصير النقد . ولست اتصور احداً منكم يعتقد ان كمامة توضع في الفم او جرعة زيت خروع تفرغ فيهِ او سوطاً يلهب بهِ الظهر دليل يقام على صحة او خطاء ، او نفع او ضرر . انها قد ترغم ولكنها لن تقنع

ومما لا ريب فيه ان بعض اعضاء المجالس النيابية في شتى البلدان يعتمد احياناً على حقهِ في حرية البحث لعرقلة مشروعات يعرضها خصومهم عرقلة غير مجديةٍ ، ولكن يقابل هذا ان العرقلة افضت في كثير من الاحيان الى نقدٍ صالح استبعد كثيراً من وجوه النقص من القانون المعروض

أيجب ان نعتقد ان طغاة البلدان الدكتاتورية لم يخطئوا لمجرّد أنهم غير مقيّدين بمجالس نيابية او ضعف حرّية توجيه النقد الى اعمالهم ؟

ثم هناك مأخذ آخر على الحكومات النيابية وهو ضعف كفايتها inefficiency وليس ثمة ريب في انهُ اذا طلبنا الكفاية وحدها ، وقدّمناها على كل شيء آخر من شؤون المجتمع ، فالملك المطلق والزعيم الحاكم بأمره خير من الملك المقيّد ورئيس الجمهورية . فارادة رئيس الدولة المقيّد محدودة بالمجلس النيابي ، يناقشها ويؤخرها ويعدّل فيها واحياناً يأباها . وهذا يفضي ولا ريب الى ضعف الكفاية . ففي زمن الحرب تقدّم الكفاية على العدل . وليس بالشاذ ، ان يكون جميع الحاكمين بأمرهم ، او المتطلعين الى هذا النوع من الحكم ، يضربون على وتر « الخطر القومي » لكي يثيروا في اقوامهم ذلك الاحساس بالنضال الذي يقتضي تقديم الكفاية على العدل . فكل رجل عاقل يسلّم بان يحكم حكماً مطلقاً عند ما يعرّض هو وجماعته لخطر داهم . والحاكمون بأمرهم يعرفون ذلك فينقرون عليهِ . ومع ذلك فالدمقراطية نفسها لا تحول دون هذه الكفاية إطلاقاً . فنحن نجد بلاداً دمقراطية عريقة كالولايات المتحدة الاميركية تمنح رئيسها في زمن الحرب سلطة مطلقة . فالنظم الدمقراطية لا تحول دون الكفاية في الازمات والاوقات الاستثنائية

ولكن هل الكفاية هدف اجتماعي اعلى ؟ فنحن عند ما نبحثها ونحللها نجدها أخصر وأسرع طريق الى تحقيق رغبة ما . ان صاحب المصنع يعرف ما يريد وعلى مصنعه ان يخرج البضائع التي يريدها في أقصر وقت وبأقل ثمن . تلك هي الكفاية . الاّ ان الحكم على الكفاية نفسها يجب ألاّ يهمل ايضاً الغرض الذي تتجه اليهِ . ولا سيما في الشؤون الاجتماعية . فقد يكون صاحبنا سكيراً كفوءاً . او لصّاً كفوءاً . ولكن الكفاءة مقياس لقيمة الاسلوب . وليست بحال ما مقياساً لقيمة الهدف . فصاحب المصنع يريد سيارات او أحذية او غازات حربية ، فيسير في صنعها على اكفإ اسلوب بغير نظر الى هل هذه السيارات اوالاحذية او الغازات الحربية مفيدة او ضارة ، الاّ من ناحيتهِ الخاصة اي ناحية الربح المادي

أما رئيس الدولة فعليهِ ان ينظر في الاهداف . وان يقيس قيمتها من الناحية الاجتماعية القومية . والهدف الاعلى الذي يتطلع اليهِ هو العدل . فالكفاية ، مهما تبلغ من التمام ، لا تسوّغ كونها كفاءة في سبيل هدف غير عادل . لذلك لا يمكن ان يحكم على الحكومة من هذه الناحية ناحية الكفاية ، كما نحكم على مصنع او متجر . وكل تمثيل منتزع من ميدان الاقتصاد تمثيل خاطىء

ثم يأخذ على النظم الدمقراطية ان رجال المجالس النيابية أدوات تسيرها من خلف ستار جماعات منظمة من أصحاب المصالح الخاصة . هنا كتلة الفلاحين وهنا جماعة العمال وهنا ممولو وول ستريت او السّتي أو البانك دو فرانس وغيرها . ولست أدري هل هذه الظاهرة مما يمكن

الاستغناء عنها أو لا . ولكنها على كل حال حقيقة واقعة على الغالب . الاَّ ان علاجها ليس في الغاء المجالس النيابية ؟ بل في الاعتراف بوجود مصالح متباينة وتدبير نظام يتيح لها ان تمثل جميعاً ، بحيث يفصح أصحابها عما يريدون ويسعون الى تحقيقهِ بالاساليب المشروعة :

ان من يتأمل في علاقات البشر بعضهم ببعض يعلم انهُ حيث يجتمع اثنان فهناك مصلحتان ، وانهُ من المرجح ان تصطدم المصلحة الواحدة بالاخرى . ثم هو يعلم انهُ من المتعذر ان تحقق جميع هذه المصالح دائماً . بين مصالح المموِّلين والعمال اصطدام ، وبين مصالح الدولة والكنيسة اصطدام ، وبين مصالح اصحاب الارض وأصحاب المصانع اصطدام ، وفي كل هذه الاصطدامات أما ان تنتصر المصلحة الواحدة انتصاراً تامًّا ، وتخذل الاخرى خذلاناً تامًّا ، واما ان يتفق الطرفان على حلّ وسط . ولما كانت الدمقراطية في رأي جميع الذين تعمقوا في درسها قائمة على التعاون ، فعلى الدمقراطية ان تبحث عن الحلول الوسط في كل نزاع . ومن الواضح ان الحل الوسط لا يرضي أحداً تمام الرضا . لانهُ لا يحقق مطالب فريق تحقيقاً كاملاً . وهذا ما يندّد بهِ ممثلو الطوائف المختلفة التي لها مصالح معينة . فكتلة الصناع تعترض على نفوذ أصحاب المصانع . وهؤلاء يشكون سيطرة اولئك . والمستوردون يريدون ان تلغى الحواجز الجمركية او ان تكون منخفضة . وأصحاب المصانع يريدون رفعها ، صناع السلاح يرفعون صوتهم بالعقيرة على دعاة السلام الضعاف . والوالدون يجأرون الى السماء من صناع الاسلحة الذين يسمّنون بدماء أبنائهم

ضع الفلاحين في منصة الحكم ، يوجهوا أعظم عنايتهم الى الريف . أحل المموِّلين محلّهم تهمل العناية بالفلاح . خذ بقول صناع الاسلحة ، واذا أولادنا تحولوا طعماً للمدافع ، او حكّم دعاة السلام ، تصبح البلاد هدفاً سائغاً لاعتداء خصومها

ان الحكم الدكتاتوري ، يسهل عليهِ ان يحل جميع هذه العقد ، فتبهر بحلّهِ . فهو حكم جماعةٍ واحدة ، وباستئصالها الجماعات الاخرى او شلها او اخضاعها ، تحكم حكماً سداه الكفاءة ولحمتهُ النظام المستتب . ثم يعمد مفكروها الى اقامة الدليل على ان الجماعة الحاكمة هي الجماعة الاساسية في المجتمع ، وعليها تتوقف حياة الجماعات الاخرى او هلاكها ومن هنا تنشأ فلسفة هذه النظم ، وهي لا تعدو كونها قولاً يتجهُ قصداً الى تسويغ النظام القائم . والواقع ان طبيعة الاجتماع البشري ونشوء النظام السياسي يجعلان المهمة الاولى على الحكومة هي التوفيق بين اصحاب المصالح المختلفة . وذلك لا يكون بابادتهم ولا باعتقالهم . فهذه مهمة أساسها « العدل » وطريقتها « الحلّ الوسط »

ثم يؤخذ على النظم الدمقراطية أنها تتخذ من المساواة بين الناس مطية الى نفوسهم واهوائهم وكلمة المساواة وان حلا رنينها في الاذن فلا وجود لها حقيقة في الواقع ، وهذا القول فيهِ نصيب من الصحة . فقول الفرنسيين أبان ثورتهم ان الناس يولدون متساوين قول لا يقرّه العلم

البيولوجي ولا العلم الاجتماعي ، فالناس مختلفون في ملكاتهم من يوم تتكوّن نطفهم في ارحام أمهاتهم . ثم تزداد هذه الفروق ظهوراً بفعل البيئة الاقتصادية والاجتماعية . الاّ ان القول بسقوط مبدإِ المساواة على اطلاقهِ يقتضي سقوط النظم الدمقراطية القائمة عليهِ ، قول فاسد ، لانهُ اذا انعدمت المساواة البيولوجية بين الناس، ففي البلدان الدمقراطية، حيث يعترف بالشخصية، مساواة في الفرص التي تتاح للفرد ، ومساواة في الحقوق المدنية وامام القانون ، وفي هذا — اذا صين وطبّق — ما يكفي ميداناً لبروز الكفايات . ولست أنكر ان النظم الاقتصادية لا تزال على غير ما يرام ، كما انني لا أنكر ان النظم الدمقراطية مقصرة عند التطبيق عما يجب ان تكون .. ولعلّ تلازم نشوء الدمقراطية الحديثة وقيام النظام الرأسمالي أهم مواطن الضعف في دليل المدافع عن الدمقراطية[1] — ولكنني أقول ان الامل في السير نحو الهدف المقصود ، في ظلال هذه النظم اكبر منهُ في ظلال اي نظام سياسيّ آخر عرفهُ البشر حتى الآن . ان الدمقراطية لا تقوم على مبدإِ المساواة المطلقة بين الناس، بل على احترام ما بينهم من فروق ووجوه اختلاف

* * *

اذا نبذنا النظام الدمقراطي ، فماذا نحلّ محله ؟ ان الشعوب في هذا العصر مخيرة بين نظام الحكومة الدمقراطية ، وقد اشرنا الى نواحٍ من محاسنها ومعايبها . وبين نظام آخر قائم على مبدإِ الزعامة او الدكتاتورية ، ولا يهمنا في هذا المقام هل الدكتاتورية شيوعية او فاشستية لان الخيار بين حكومة نيابية من ناحية ، وحكومة رجل فردٍ من ناحية أخرى، حولهُ جماعة من الانصار والمستشارين ، لا يرجع الى الشعب الاّ لتسجيل الموافقة على أعمالهِ . فهو حاكم مطلق ، يشرّع بمراسيم . وقد مرّ بنا في عصور التاريخ المختلفة حديث ملوك وحكام مطلقين ، ففي وسعنا ، ان نرجع اليهِ نستخلص منهُ العبرة والارشاد

ولست اخال احداً منكم يعترض ، على ان الحاكم الحكيم ، الفاضل ، العادل — على ماوصفهُ الفلاسفة — جديرٌ بان يتقلد السلطة المطلقة، ويتسلّم مقدرات شعب بأسره . فحكمته وعدله يحولان دون خطائهِ أو جورهِ على فرد او على طبقةٍ من الشعب . وفي صفحات التاريخ أسماء حكام لمعت حكمتهم وأضاء عدلهم دياجير عصورهم . ولكن من يضمن لنا قيام هذا الحاكم في شعب آخذ بنظام الحاكم الفرد ، سواء أولد الملك والحكم ام ارتقى اليهِ من عامة الناس

ومع ذلك نقول من الناحية الفلسفية والعملية معاً ، انهُ يستحيل قيام حاكم يبلغ من الحكمة والعدل مرتبة تنزههُ عن الخطاء . واذن فعليهِ — اذا شاء أن يحكم بأمره — ان يسكت الناقد الذي في وسعهِ ان يبين وجه خطائهِ . وليس ثمة شعب بلغ من الانسجام مبلغاً محا الفروق بين

---

(١) استمرار هذا التلازم ليس محتوماً فالدمقراطية الانكليزية حولت جانباً غير يسير من رأسماليتها الى اشتراكية معتدلة

طبقاته وأزال كل باعث من بواعث الاصطدام بين شتى مصالحها . واذن فعلى الحاكم ان يعتقل وينفي ويضطهد كل فريق من الشعب لهُ مصالح تصطدم بمصالح الفريق الذي ينتمي اليهِ او على الاقل المصالح التي يريد ان يغلبها عن اقتناع اوعن انسياق. لان من القواعد التي استخلصها من دراسة تاريخ الحاكمين بأمرهم ، ان المهم في نظرهم ليس ان يكونوا على صواب ، بل ان تعتقد رعيتهم انهم على صواب . فأمير مكيافيلي لم يكن يخطىء لان مقرراته كانت تضع الحد بين الصواب والخطاء . القاعدة في البلدان الدمقراطية — او يجب ان تكون كذلك — انك اذا استطعت ان تقنع الناس بصحة رأيك فقد ربحت القضية . الاّ أنَّ الحاكمين بأمرهم يرغمون ولا يقنعون ، ولذلك يحكمون بما يقولون انهُ موافقة تامة فهم على ذلك أعظم الدمقراطيين !

ويرتدُّ فريق من مؤيدي الحكم الدكتاتوري ، الى الحياة الاقتصادية، يستمدون منها الدليل والاسناد ، لتأييد ذلك النظام من الحكم ، فيقولون ان في قدرة هذا النظام السيطرة على تنظيم الانتاج ، ويستشهدون بحالة الفوضى الضاربة أطنابها في ميادين الانتاج في البلدان التي ما زالت آخذة بمبدإ الاطلاق او عدم تدخل الحكومة laissez faire وكيف أفضت الى الازمة الاقتصادية التي أخذت بخناق العالم في السنوات العشر الاخيرة . وهو قول لا يستقيم على علاته . فالزعم ان هناك فيضاً في الانتاج نشأ عن عدم تنظيمه تنظيماً خاضعاً لسيطرة الدولة العليا ، وأفضى الى تدهور الاسعار وما تلاه من أزمة عالمية ، لا يثبت على كثير من النقد . فمن المعترف بهِ ان ملايين وعشرات الملايين من الناس، لا يفوزون من وسائل الحياة الا بما هو دون سد الرمق ودفع البرد . فالقول بفيض الانتاج خطأ من هذه الناحية ، والانحاء باللائمة على فيض الانتاج خطأ كذلك ، وانما اللائمة تقع على الخطط الاقتصادية المغالية في نزعتها القومية ، التي أرهقت التبادل الدولي بالحواجز والحصص وغيرها من القيود التجارية والمالية ، وعلى أثرة المموّلين وطمعهم

نعم ان الحكومة الفاشستية استطاعت ان تبتدع طريقاً يبدو عليهِ انهُ طريق حسنٌ لتنظيم العلاقة بين المال والعمل ، ولكن امتحانهُ في احوال سوية من الحياة لم يتح بعدُ ، وكذلك سيطرت الحكومة النازية على المرافق الصناعية وأخضعتها لنظام عام ففازت فوزاً كبيراً في حذف كلمتي « التعطل عن العمل » من قاموس الحياة الالمانية الآن وأحلّت محلها كلمة « الحاجة الى اليد العاملة » . ولكن أيصحُّ أن نتخذ من ذلك دليلاً على ان مشكلة الانتاج والعمل قد حُلّت ؟ أليست الحياة الاقتصادية الشاذة وصرف كل جهد من جهود الامة الى صنع السلاح ، دليلاً على اننا ما زلنا في حاجة الى الحجّة البينة على ان الحكومات الدكتاتورية اقدر على حلّ مشكلات الانتاج من الحكومات الدمقراطية

ثم هناك قول بان الدمقراطية أفلست افلاساً روحيًّا . يقول بذلك الملكيون الفرنسيون ، فيزعمون ان الفضائح المالية، والادواء الاقتصادية ، والقلق القومي ، والشذوذ الفني ، والاهمال

الديني ، كانت غير معروفة في عهد الملكية قبل الثورة ، بل كان النظام واحترامه يسودان المجتمع ، ويسيّران الرجال في سبيل الصدق والاستقامة ، الى ان عصفت بهم عواصف ١٧٨٩، ففتحت امام عيون الناس آفاقاً من السعادة الوهمية ، آفاق عهد تزول فيه الطبقات ويتساوى الناس جميعاً في مالهم وما عليهم. فاستهوت هذه الصورة مخيلات الشعب ، فانصرف عن ملوكه واقبل على اوهام السلام والحرية والمساواة والاخاء فكانت الحرب الكبرى وفضيحة ستافسكي والفن التكعيبي الساقط والالحاد والمالية الدولية التي يقبض الساميون على اعنتها

وفي اقوال الملكيين الفرنسيين غير قليل من صائب القول . وان كان ربط المقدمات بالنتائج ، على هذا المدى البعيد من الزمن ، من أشق الامور . وليس ثمة ريب بان كل عاقل يريد النظام ولكن ما مداه ؟ وما ثمنهُ ؟ فاذا امتدّ النظام الى اصغر صغيرة في حياة كل منا بحيث يقتل روح الاقدام فحينئذٍ يجب ان نسأل اي ثمن ندفع . والواقع ان النظام امر نسبيٌّ . ولا يمكن ان يبحث منفصلاً عن الغرض منهُ . وكثيراً ما نخطىء فنظنهُ غاية في حد ذاته . وهو في الواقع لا يعدو كونه وسيلة الى هدف سام هو السعادة . ومما لا ريب في ان « التنظيم الاجتماعي » ذو قيمة عظيمة في حفظ السلام ، والسلام ركن لا يستغنى عنهُ في كل ابداع او نشاط انساني. والدمقراطية تعترف بالقيود اللازمة في حياة الفرد وحياة الجماعة. الاّ انهُ كثيراً ما تكون الدعوة الى التنظيم وسيلة ، لتحقيق اغراض أفراد من المتطلعين الى السلطان او المجد او الثروة

فالحاكم بأمره يجب ان يبدو في مظهر المصيب دائماً . وقد أشرت الى احدى وسائله في تحقيق هذا المظهر. ومن وسائله كذلك الدعوة الى الطاعة . فالطاعة — في رأيه — عقيدة يجب ان تبثّ . والمسوّغ الاكبر لبثها النظام الاجتماعي وحفظ كيانه . ولما كان النظام لا غنى عنهُ لانهُ يتيح الملكات الانسانية ، بيئة تستطيع فيها ان تورق وتزهر ، فانجيل الطاعة كثيراً ما يلقى أنصاراً وأتباعاً . الاّ ان المجتمع الذي بلغت فيه الطاعة أقصى حدودها ، لا يعدو كونهُ ، مجموعة من آلات او دمى تتحرك ، بلا ارادة او عقل ، ولا يحركها الاّ الشعور بوجوب الطاعة . ولعلّ خير ما يشبّه به مجتمع من هذا القبيل ، هو قفير النحل . ولعلّ قفير النحل هو أبلغ مثل على « الجهاز الاجتماعي » الذي يسودهُ النظام التام والطاعة لمقتضياته ، ولكنهُ جهاز لا يستطيع ان يبدع قصائد ولا ان يصنع أدباً ولا ان يصور صوراً ولا ان ينحت تماثيل ، فهو مجتمع لا علم لهُ ولا فلسفة ولا فن . فهل هذا غرضنا ، وهدفنا من الاجتماع البشري ؟

قد يذهب بكم الظن الى انني اعترض على فلسفة « القفير » من الناحية الاجتماعية لانني اؤمن بأسطورة « الفرد » على اطلاقها . فالفرد ، اذا نظرنا اليه على انهُ وحدة مستقلة الاستقلال كلهُ ، مكتفية بذاتها الاكتفاء كله ، مساوية المساواة كلها لغيرها من الوحدات ،

اسطورة ، قضى عليها علم الحياة، ونشوء المجتمع الاقتصادي والصناعي. ولا فائدة من انكار اننا نعتمد على غيرنا في تعليمنا ومعيشتنا بل وفي أجسامنا نفسها ومثلنا الروحية . ولكننا مع ذلك لسنا أوعية تفرغ فيها هذه الكنوز المادية والروحية . وحياتنا ليست مقتصرة على الناحية السلبية. فنحن لا نستطيع ان نأكل طعاماً في مطعم اذا لم يكن في قائمته او موادهُ في مطبخه . ولكننا نستطيع ان نتخير ما نستطيبهُ او يوافقنا مما هو معروض علينا . فاللاعب في ميدان كرة القدم ليس حرًّا في ان يسير بالكرة الى ما وراء هدف الخصوم ، ولكنهُ في الوقت نفسه ليس بمجرد آلة لنقل الكرة من مكان الى آخر في المضمار وفقاً لقوانين الحركة . حتى في الجيوش ، حيث يقام أعظم وزن للنظام الدقيق ، لا يمكن ان يحسب الجندي آلة . وقوّاد الحرب يعترفون بأن صفة الاقدام ضرورية كصفة الطاعة . والواقع ان كل جماعة تأتلف أفرادها حول السعي لتحقيق غرض ما ، سواء أفي اللعب كان ذلك أم في السياسة أم في الفن ام في التربية ام في التجارة ، تجابهُ مشكلة أساسية هي اقامة الميزان بين الحرية والخضوع ، او بين الحرية والسلطة . وهذان اللفظان يبدوان متناقضين ، وهما متناقضان اذا طبقا على فرد واحدٍ في وقت واحد في صدد واحد . واذن فليس في الوسع ان يكون الرجل منا مستقلاً وخاضعاً لسلطة أخرى في وقت واحد في شأن واحد . وانما لا يجوز لأي رجل عاقل ان يحمل على الخضوع في جميع الاشياء مدى الحياة فيتحول عبداً ، ولا ان يكون مطلقاً في جميع الاشياء مدى الحياة فينقلب فوضويًّا . ولنتخذ مثلنا على ذلك من ميدان التربية . فالمعلم يجب ان تطلق له الحرية في تدريس الموضوع الذي يعهد اليه بتدريسه، على خير ما يرى، ولكن عليه ان يقيد تدريسه، بتدقيقه في تحري الحقيقة ، وبادراكه ان من حق الطلاب عليه ان تكون أقواله واضحة ومشوّقة

واذن فالحرية والنظام يتسقان . والقول بان الدمقراطية فوضى اجتماعية قول لا يستند الى أساس صحيح . خذوا مثلاً على ذلك الدمقراطية البريطانية ، فانها على الرغم مما يتطرّق الى حياتها من الاعمال النابية ، ليست اكثر فوضى من فرنسا الملكية في القرن السابع عشر او اية دكتاتورية في هذا العصر . فكل حكومة قد تتساهل فتجنح ناحية الفوضى الاجتماعية او قد تشتدّ وتغلو في حدّ الحرية وتغليب الطاعة والنظام الدقيق . فتجنح الى الاستبداد . وليس هناك ريب في ان الحكومات الدمقراطية اقرب الى التساهل ، لانها توفيقٌ بين مصالح طوائف مختلفة ، بدلاً من ان تكون تغليب مصالح فئة ومحو مصالح الفئات الاخرى

إلاّ ان الدمقراطية لا يجب ان تلتزم جانب الدفاع فقط . فالدمقراطية نظام للحكم وصورة للحياة تتلخص فيها اغلى ثمرات النضال الانساني منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا . فيها تتجلى قيمة الحياة الانسانية . وقيمة الكرامة الانسانية . وقيمة الفكر الانساني . وهي قيم تتنافى والنظام المقابل

لها. فهي بهذا الاعتبار حامية سر الحضارة وحاضنته. فعليها او على انصارها ان يناضلوا في سبيل تمكين قواعدها وأصولها في النفوس، بالتعليم في المدارس، والنشر في الصحف والكتب، وفي المثل يضربه الاقطاب الافذاذ لمعاصريهم وللاجيال التي تلي. ليست الدمقراطية نظاماً جامداً، بل هي سعي دائم الى مثل عالٍ من الحياة الانسانية، فعلى المؤمنين بهذا المثل ألا يتراخوا، في الدعوة اليه بل وفي الكفاح في سبيله. فالنفوس عندما تتأصل فيها معاني الكرامة الشخصية، وتطبع بأسلوب العلم الحديث الذي يتطلب الحرية المطلقة في البحث وريادة المجاهل الفكرية سعياً وراء الحقيقة، تستهين بالاهوال اذا اريد الحجر على حريتها، او امتهان كرامتها

ايها السادة. في محيط التاريخ كما في محيطات الارض نوعان من التموجات. التموجات الصغيرة التي على السطح، والتيارات القوية الدائمة المندفعة في الاغوار. وليس نظام الحكم الدكتاتوري في عصرنا هذا، او ما عرفنا من امثاله في العصور السابقة، الا احد هذه التموجات الصغيرة على سطح التاريخ. اما التيار العظيم القوي في تاريخ الانسان، فهو التيار السائر من الاستعباد للطبيعة ثم للكهان والملوك والطغاة، نحو الحرية والكرامة. ان النضال في سبيلها ينتظم حوادث التاريخ واذا كان قد اعتور هذا التيار المندفع، تموجات على السطح غطت عليه وأخفته عن الانظار، فليس ثمة شكٌّ في ان التموجات زالت وهو باقٍ سائر الى الامام

هذا هو تراث المؤمنين بالدمقراطية. وهو تراثنا. وهذه هي أهدافهم. وهي اهداف تلمع عند الفضاء الابعد. قد تقضي الاقدار — ونحن في غمار هذه الموجة الصغيرة التي تعبر سطح التاريخ — ان تنصب الاعواد ويعلق بحبالها جماعة الاحرار. ولكنني لست أرى سبباً يدعوهم الى عقد الحبال بأيديهم. اما نحن في الشرق، فلنا في الدين الاسلامي الحنيف، والمسيحي الكريم المنقى من الشوائب أعلى مُثُل الدمقراطية من احترام لكرامة الانسان وفكره وخلقه. فالسيد المسيح انتقى تلاميذه من الصيادين والنبي العربي الكريم اتاح مكاناً في الذروة لمن يصل اليه بصادق ايمانه وكامل خلقه وحسن فكره وعمله. واذا كانت الدمقراطية، من حيث هي النظام النيابي في الحكم، جديدة القيام بيننا، واذا كان طريق الدمقراطية الى السعادة الانسانية طريقاً وعراً، يقتضي اليقظة الدائمة والجهد المستمر لانها التوازن الحيّ الدقيق بين قوات المجتمع البشري، فليكن سبيلنا الى ترسيخ قواعدها، المثل الطيب، والتعليم الصحيح، وحماية الفكر الحر. وثقوا ان الفكر الحر يمضي في نضاله يغلب ويغلب حتى يثبت على كرّ الزمن ما فيه النفع او الحق او الصلاح. فجانبنا في هذا الصراع الدائر واضح وهو الوقوف الى جانب الحريات، نعززها وندفع عنها، وسيجيء يوم، يجتاز فيه العالم هذه الفترة المريضة، فتسكن الموجة السطحية الطاغية، ويبدو أثر التيار العميق القوي، وعندئذٍ نجني ثمار الكفاح

الشيوخ والشبان

بين المطرقة والسندان

للدكتور امير بقطر

« مات في الثلاثين ودفن في السبعين »
[بطلر]

بين الشيوخ والشبان عداء قد تقادم عهده. هو صراع لم يقف دولابه منذ الخليقة لحظة واحدة ، وحرب لم تكف رحاها عن الطحن والدوران منذ ان عرف العالم ذلك الشيخ الوقور الذى اصطلح الناس على تسميته آدم ، وذلك الفتى المكابر الذي شاء مؤرخو الخليقة ان يدعوه قائين. وقد يكون ذلك الصراع نزاعاً جديًّا بين الحكمة والإقدام ، كما انهُ قد يكون ضرباً لطيفاً من المداعبة والمزاح بين أنصار الماضى والقديم ، وأنداد الحاضر والجديد . وقد يكون حرباً شعواء تتغيّر أوضاعها ، فهي تارة بين الاتزان والطيش ، أو التعقل والتهور ، واخرى بين الجمود والمرونة ، أو الوقوف والحركة . ومهما يكن من شيء فان هذا الصراع سنة من سنن الطبيعة ، لن تجد لها تغييراً ولا تبديلاً ، وهو ضرورة لا مفرّ منها ، ووسيلة توسّل بها المجتمع لحفظ التوازن ، حتى لا يسفّ الشيوخ الى الحضيض ، فيجرون العالم على ظهور الدواب الى الوراء أجيالاً ، وحتى لا يجمح الشبان ، فيحملون المجتمع على أجنحة الهواء الى الامام أجيالاً

ومن الغريب أن بين الشيوخ من يأبى أن تتسلل الشعور البيض الى رأسه ، فيحارب على الدوام مع صفوف الشبان ضدّ الشيوخ ، كما أننا نجد بين الشبان من يشتعل رأسه شيباً ، وهو بعد دون العشرين ، فيعيش طيلة عمره كالجندى الخائن ، يحارب رفاقه مع صفوف الاعداء. على أن هذا امر يغلب على الظن أنه نادر الوقوع

***

ألقِ بنظرك على مصلحة من المصالح ، أو لجنة من اللجان ، أو جماعة من الجماعات ، تجد كلاًّ من الفريقين المتحاربين يتهيأ لطعن الآخر الطعنة النجلاء . فالشيخ الفخور بتاريخه الطويل ،

المثقّل ظهره باختباراته ومعارفه ، ينظر شزراً الى ذلك الشاب الغرّ ، ذى العود الرطيب . والشاب الفخور بآرائه الحديثة الحرّة الذى لا يتقيد بالماضى ، ولا يهاب المستقبل ، يهزأ بذلك الشيخ الذى تصلبت شرايينه ، وتخشّبت آراؤه . وقد اصطلح الناس مراعاة للتقاليد ان ينهزم الشبان احياناً امام الشيوخ تأدباً ، قبل ان تصبح المعركة فاصلة .واصطلحوا كذلك ان يكمّ الشيوخ (الرؤساء عادة) افواه الشبان ، حتى لا تؤدي آراؤهم إلى اطلاق السهام إيذاناً ببدء القتال ، بدعوى أن الشبان لم تنضج بعد آراؤهم ، وان ما عليهم الاّ التأمين على قول من هم اكبر منهم سنّاً وإن كانوا حقيقة يفوقونهم فطنة . والنتيجة في أغلب الاحايين مهزلة أو مأساة إذا شئت،فجميع هذه المصالح والمنشآت ، على هذا المبدأ ، تديرها اوتوقراطية من الشيوخ وتحْرم كثيراً من الصفات التي يتسم بها عادة بعض الشبان كالاقدام ، والابتكار ، والحماسة ، والحمية ، والقوّة . وكذلك نجد الشبان يخطئون كثيراً في الحكم على الشيوخ بالجمود ، والمحافظة ، والتردد ، والرجعية، فتضعف فيهم روح التعاون الصحيح ، وإن أذعنوا لرؤسائهم (الشيوخ) في الظاهر

ولا بدع إذا خشي الشاب الذكيّ المحب للعمل والاصلاح والتعاون ، أن تكون سنّهُ عقبة كؤوداً في سبيل نجاحه ، فيوهم الغير أنهُ اكبر سنّاً ، وانهُ في طريق الشيخوخة . ولا بدع إذا خشي الشيخ المحب للعمل والنشاط أن تكون سنّه عقبة في سبيل نجاحه ، فيتصابى ، ويتصنع، حتى يوهم الغير أنهُ لا يزال مرناً ، مقداماً ، في عنفوان العمر . وهذا ما فعله موسوليني أخيراً ، وقد أحسن فيما فعل . وذلك انهُ لما أوشك على الخمسين أوعز الى الصحف ألاّ تشير الى هذه « الكارثة » تصريحاً أو تلميحاً

***

ولكن ... وهذا بيت القصيد من هذا المقال — ولكن هل ترى الشباب دليل المرونة والنشاط والاقدام ، والابتكار ، والشجاعة ؟ وهل الشيخوخة دليل الجمود ، والتراخي، والتردد والمحافظة ، والرجعية ، والجبن ؟ لنترك الاجابة عن هذا السؤال الى التاريخ اولاً ، وعلم النفس ثانياً

***

يقول لنا المحاربون في صفوف الشيوخ ان الذهن لا يتماثل الى النضوج والانتاج ، والاستعداد للحكم على الأشياء احكاماً صائبة ، إلاّ في سنّ متأخرة ، ويقولون كذلك إن الحياة الجديّة لا تبدأ حقيقة إلاّ بعد الاربعين . بيد أن التاريخ يقول لنا غير ذلك ، وها كم الدليل

مات كيتس Keats بعد حياة حافلة بالادب في سن الخامسة والعشرين ، وتولى بت (Pitt)

رآسة الوزارة الانجليزية في سنّ الرابعة والعشرين ، ووضع مندلسون (Mendelssohn) روايته الموسيقية الخالدة (Midsummer's Night's Dream) في سن السابعة عشرة ، وبدأت الروائية الشهيرة جين أوستن (Jane Austin) بكتابة رواياتها الذائعة الصيت في الحادية والعشرين من عمرها . ونشر كبلنج Rudyard Kipling اثنى عشر مجلداً قبل بلوغه الثلاثين . وقطع لندبرج Lindbergh المحيط الاطلسى الى فرنسا وهو في الخامسة والعشرين ونبغ ابن سينا في الطب والعلم والادب وهو بعد دون العشرين،وبدأت انجلترا وتركيا وفرنسا ومصر،تحسب حساباً لمصطفى كامل وهو اقرب الى العشرين منهُ الى الثلاثين

وكذلك يقول لنا المحاربون في صفوف الشبان ان الشيوخ يصيبهم الهرم والهذيان والاجداب في سن معلومة ،كما تصاب المرأة بالعقم في سن معلومة ، بيد أن التاريخ يقول لنا غير ذلك وهاكم الدليل

***

وضع دانيال ديفو Daniel Defoe اكثر من ثلاثين كتاباً بعد ان جاز السابعة والستين من عمره . وكتب سرفانتيس Cervantes مؤلفهُ الذائع الصيت دون كيشوت Don Quixote الذى يصور عصر الفروسية ، وهو في سن الثامنة والستين . ووضع الفيلسوف كانت Kant أحد مصنفاته الفلسفية العظيمة في الرابعة والسبعين . وهذا تنترتو Tintoretto من اشهر فنانى البندقية لم تكف ريشته عن الرسم حتى الرمق الاخير. وقد أخرج لنا لوحته الخالدة « الفردوس » في سن الرابعة والسبعين . وهذا فردي Verdi الموسيقي الطلياني المعروف أتحف العالم بأشهر مقطوعاته الموسيقية البديعة بين الرابعة والسبعين والرابعة والثمانين . ولا تتسع صفحات هذا المقال لتدوين ما يمكن تدوينه من اعمال اولئك الشيوخ الابطال. وحسبي ان اشير الى ما الفهُ هولمز Holmes في التاسعة والسبعين . والى قصة فوست Faust الشهيرة التي انجزها غوته Goethe في الثمانين ، والى Crossing the Bar التي دبجتها يراعة تنيسون Tennyson في الثالثة والثمانين ، وأخيراً الى معجزة المعجزات ، تلك اللوحة الفنية الخالدة « معركة ليبانتو » التي وضعها الرسام الايطالى الشهير تشيان Titian في سن الثامنة والتسعين

هذا من الناحية التاريخية . أما من الناحية العلمية ، فان علم النفس قد كشف لنا أخيراً عن ظاهرة طالما أخطأ الناس في تأويلها . فقد كان من القضايا المسلم بها الى عهد قريب — لا يتجاوز

عشر سنوات — ان النشاط الذهني ، أسوة بالنشاط العضلي ، ولا نقول البدني ، يأخذ في الانحطاط بعد سن الاربعين ، ان لم يكن قبلها بكثير . ويعزى جلّ السبب في هذا الزعم الفاسد الى عدم التفريق بين ضعف الذاكرة ، وضعف الملكات الاخرى ، كملكتي الخيال والتمييز ، وقوة الابتكار ، والمقدرة على الانتاج . ومن المعلوم ان الذاكرة تأخذ في الانحطاط بين سن الاربعين والخمسين ، غير ان كثيراً من هذا الانحطاط الذي يبدو لنا كذلك في الظاهر ، انما هو في الحقيقة شيء آخر . فالرجل متى بلغ المرحلة الخامسة من عمره ، ازدحمت ذاكراته بشتى عناصر الاختبار ، من معلومات ، وافكار ، ومسائل ، وتراكمت في مخيلته حوادث الماضي ، وصور المستقبل ، فلم يعد يعبأ بتافه الامور ، أو يكترث لتفاصيل المسائل . في حين ان الشاب فقير في هذه كلها ، خليّ البال نسبيًّا ، فيستطيع بطبيعة الحال أن يستعيد الذاكرة في سهولة ، ويسرد التفاصيل في سرعة خاطر . وما يقال عن الشيخ الكثير النسيان ، يقال عن الشاب الذي يشغل مقاماً هامًّا في المجتمع . فرئيس الوزراء ، وإن كان في الثلاثين من عمره ، لا يذكر من الحوادث والارقام والمواعيد ، الا ما يتصل بمهام الدولة اتصالاً مباشراً وثيقاً ، كما ان سكرتيره وإن بلغ الخمسين قد يذكر تاريخ اليوم الذي اشترى فيه رئيسه طربوشه الجديد

هذا ما يختص بالذاكرة التي نكرر القول انها تنحط تدريجيًّا ، وان كان هذا الانحطاط يعزى الكثير منهُ الى غير السن . اما فيما يختص بالملكات والكفايات التي أومأنا اليها ، كملكات الحس . والتمييز ، والحكم على الاشياء ، والابتكار ، والانتاج ، فيقول لنا علماء النفس بالحرف الواحد « انهُ من المرجح ان هذه لا تتأثر بالسن »

***

وفي مقدمة البحوث التي كشفت لنا القناع عن هذه المسائل . ما قام بهِ ادوارد ثورنديك ، وهو من أكابر علماء النفس ، ان لم يكن في مقدمة الاحياء منهم قاطبة . وقد خصص ثورنديك ، عدداً يذكر من مؤلفاته التي أوفت على الاربعين ، لدراسة التعلم ، وكيف تتم عمليته في الجهاز العصبي ، والى التعلم بين الكبار وموازنتهِ بمثله بين الصغار . ويتبين من هذه البحوث الحقائق الآتية : —

(١) في نواحي النشاط الجثمانية التي تتطلب مرونة العضل وقوتهُ كالسباحة والرقص واللعب وأمثالها ، ليس ثمة شك في أن السن هي العامل الاكبر

(٢) ان بين سن الثانية والعشرين والثانية والاربعين لا يكاد يبلغ الانحطاط الذهني الاّ ١٥ في المائة من النهاية العظمى التي يستطيع ان يبلغها الفرد من القوة الذهنية

(٣) انهُ فيما يتعلق بتلقي العلوم ، وتحصيل المواد الدراسية في مراحل التعلم ، من الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية ، لا تنحط ملكة التعلم بين الحادية والعشرين والحادية والاربعين الاَّ بنسبة نصف الواحد في المائة في العام

(٤) اما في غير ذلك فان ليس ثمة مما يحدو الى انحطاط الكفايات ، اللهمّ الاَّ عدم الرغبة في قبول الآراء الحديثة والمحافظة ، والتعصب للماضي . غير ان هذه كلها لا يبتلى بها الشيخ الذي يتمشى مع الزمن بالمطالعة والبحث ، وتتبع الحركات الفكرية

(٥) بعد سن الاربعين او الخمسين تقل الرغبة في التعلم بطبيعة الحال ، لان الفرد يكون عندئذٍ قد كوَّن نفسه ، واستقرَّ رأيه على المهنة التي يزاولها ، والالعاب التي يمارسها ، واللغات التي يكتبها ويتكلم بها . ولكن هذا لا يقصد به ان الكفايات قد انحطت ، او ملكات الانتاج قد تدهورت ، لان التعلم شيء ، والانتاج شيء آخر . فقد ظل المخترع الشهير اديسون يبتكر ويخترع ويعمل في معمله رغم بلوغه الحلقة الثامنة من عمره ورغم ضعف حواسه

***

اذا كانت الحقيقة كما ذكرنا ، فهل هناك ما يبرر ما ذكرناه في صدر هذا المقال من الصراع بين الشيوخ والشبان ؟ وهل من العدل ان يحال الموظف العامل الى المعاش ، وهو بعد مبتكر مبتدع منتج ؟ وهب هذا النظام يعود الى عوامل اقتصادية ترمي الى إحلال الشبان العاطلين مكان هؤلاء الشيوخ ، أليس مما يؤسف له أن نرى في بلادنا بعض الموظفين الاذكياء الاقوياء تخبو انوارهم ، بمجرد احالتهم على المعاش ، فلا نعود نسمع عنهم شيئاً وكأنهم دفنوا أحياء؟

***

والحقيقة التي لا شك فيها ان السن لم تكن يوماً مقياس النشاط والعمل والانتاج . كما انها لم تكن يوماً دليل الجدب والعقم والذبول . ان الامم في حاجة الى الشيوخ والشبان على السواء ، فاذا كان الفرق بين الشيخ والشاب في التفكير كبيراً ، فان الفروق الفردية بين الشاب والشاب ، والشيخ والشيخ قد تكون اكبر . ومما يغتبط له ان تكون هناك فروق وفروق . لانهُ حيثما يكون التفكير متماثلاً . لا يكون ثمة تفكير البتة . وهنا اريد ان اختم كلمتي بعبارة مأثورة عن الفيلسوف الاجتماعي بطلر رئيس جامعة كولومبيا ، ارضاء للشيوخ والشبان على السواء . وهذه هي العبارة وحبذا الحال لو نقشت على بعض القبور « مات في الثلاثين ودفن في السبعين »



اربعون سنة على الراديوم

محسنة الى الانسانية

مشاهد رائعة من حياة مدام كوري



احتفلت الدوائر العلمية في اواخر نوفمبر الماضي بانقضاء اربعين سنة على كشف الراديوم . وقد سبق لنا ان نشرنا في المقتطف غير بحث واحدٍ في هذا العمل العلمي العظيم وسيرة الاستاذ بيير كوري وزوجتهِ ماري سكاودوفسكا كوري وضمنا كتابنا « اساطين العلم الحديث » فصلاً خاصًّا بمدام كوري . وها نحن ننشر فيما يلي مشاهد رائعة من حياة هذه السيدة العظيمة مختارة من ترجمتها التي ظهرت حديثاً بقلم احدى ابنتيها ، احتفاءً بذكرى كشف الراديوم في اواخر نوفمبر من سنة ١٨٩٨

***

لو طلب الينا ان نتمثل نبل الانسانية في انسان لتمثلناهُ في مدام كوري ، ففي عقلها عبقرية التفكير العلمي ، وفي قلبها عبقرية الشعور السامي ، وفي حياتها آيات من التضحية ، والسمو ، والبعد عن كل ما يلطخ الخلق ويهبط بهِ من الذرى الى التراب

في سيرة هذه المرأة العجيبة آيات تليها آيات تليها آيات ، حتى لقد اصبحت آيات حياتها اجزاء من اسطورة كأنها اسطورة احدى ربات الاغريق القدماء ، مع ان النبض في قلبها لم يقف الاَّ في سنة ١٩٣٤ من التاريخ الميلادي

كانت ابنة شعب مستبدٍّ بهِ ، ذكيةً فقيرةً جميلةً دعاها العلم فلبّت ، ولكنها قبل ان تصبح جديرة بأسمى تقاليد العلم ، عاشت سنوات في باريس صادفة عن كل شيء الاَّ عن التحصيل ، حتى لكثيراً ما صدفت عن الاكل والدفء ، ثم قابلت رجلاً في عبقريتهِ ما لاءم عبقريتها ، فاتحدا في الحياة وبعد الممات ، لان ماري كوري ظلت بعد موت زوجها وهي لا تزال في التاسعة والثلاثين من العمر ، لا تنسى المثل العالي الذي ضربهُ في العلم الصحيح والخلق النبيل، فما اكرمت مرة الاَّ وكان في كلامها اشارة نبل وعطف اليهِ

كشفت الراديوم، في احوال ترهق من لم يكن مثلها مندفعاً بشعلة علوية . فنفحت الانسانية بعنصر جديد عجيب، وبأسلوب جديد للعلاج ، وفتحت امام الذهن الانساني مغاليق علم جديد
واذ كانت ماري وزوجها بيير ، في أول الطريق الخارج من كهف الظلمة والانغار والفقر المدقع ، نزلت بهما آية الحزن بفقد زوجها ووالد بنتيها ، ولكنها على الرغم من الألم النفسي والوحدة الموجعة ، والتعب الجسماني ، مضت في العمل الذي بدآه معاً ووسعت آفاق العلم الذي خطَّا قواعده الاولى. وباقي حياتها يدور حول الاعطاء الدائم والمنح المستمر . لا تحفل بنفسها بل تنسى نفسها وبنتيها ،حين تقتضي منها مصلحة العلم ،او مصلحة الوطنين — بولندة وفرنسا — او مصلحة الانسانية ، بذلاً ما ، تعطي وتمنح كالشجرة الفوّاحة الشذا في الحقل ، لا تفكر في ما تفوح به ، ولا بمن يرده عليها ،لان حياتها في الفوح
قصة جديرة بموسيقي عبقري يخرج منها سمفونية « الانسانية النبيلة »

***

١ — ولدت في بولندة سنة ١٨٦٧ في بيت ترفرف في جوه اجنحة الثقافة والعلم، ويخفق في قلوب كباره وصغاره حب الوطن المظلوم . كانت صغرى ذلك البيت ، ولكنها كانت اذكى اذكيائه . فهي في المدرسة مثل يضرب في المواظبة والطاعة والوطنية وسرعة التحصيل وقوة البداهة . وهي في البيت مثل للحنو والعطف على والدها الشيخ ، والاقتصاد في ما تقتضيه من نفقات في ميزانية البيت الضئيلة . وكانت تعلم ان شقيقتها « برونيا » ترنو الى طلب الطب في باريس . وانها لا تملك نفقة ذلك الطلب، فحت « ماري » آية نفسها ، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها ، ولها في حياتها آمال ومطامح وقالت لشقيقتها اذهبي انت الى باريس بما لديك وأنا أجدُ ما أعمله هنا فأرسل اليك كل شهر جانباً من النفقات . وبقيت هذه الفتاة ست سنوات مدربة أطفال في احد بيوت الريف البولندي ، لكي تمكن شقيقتها من التعليم العالي مع انها كانت تعلم ان في عقلها ملكات مدفونة تحتاج الى صقل حتى تبرز لامعة خطافة . ترى ما كان مصير « ماري » وما كان مستقبل الراديوم، وعلاج السرطان الراديومي ، وعلم الاشعاع قاطبةً ، لو ان الزمن امتدَّ قليلاً « بماري » وهي مدربة اطفال، حتى خبت في نفسها شعلة التوق الى دراسة الطبيعة العالية ، فانشئت بقية حياتها مدرسة ممتازة في مدرسة ثانوية ببولندة ؟

إلاَّ ان في الطبيعة والحياة من الحكمة آيات تجوز عقولنا القاصرة . ومن آياتهما انهما لم يتيحا لماري أن تذهب الى باريس،الاَّ وقد تهيأ مسرح العالم لرواية « الراديوم » بكشف الاشعة السينية وأشعة بكريل

٢ — لقد كشف الراديوم وآمنت به الدوائر العلمية بعد ما انكرت وتنكرت ، آمنت بقوة التجربة والبرهان الرياضي والعملي . واستعمل هذا العنصر العجيب في شفاء الامراض السرطانية الخبيثة فذاع ذكراه في كل قطر . ولكن الغرام الواحد لا يستخرج الا من مئات من الاطنان من ركاز خاص ، وبأسلوب معقد لا تعرفهُ الا مدام كوري : أتسجل ذلك الاسلوب وتستخرج امتيازاً بهِ فلا تبيح استعماله الا لمن وفّى لها أتاوة عليهِ ، كبيرة كانت او صغيرة ؟ أنها اذا فعلت فليس في فعلها ما هو مستغرب او مستنكر . فقد قضت أربع سنوات تبحث عن الراديوم في سقيفة ينهمل من سقفها ماء المطر وتصفر في شقوق أخشابها ألسنة الرياح ، وكثيراً ما كانت تقضي أياماً كاملة وهي تحرك مزيجاً على النار بهراوة من الحديد تكاد تماثلها وزناً . كل ذلك وهي لا تعلم من أين تجيء بالنفقات اللازمة للبيت وللابنتين ؟ نعم كان زوجها يدرس الطبيعة ولكنهُ كان يستوفي مرتباً دونهُ ما يكسبهُ الحمالون

ودخل عليها زوجها في صباحٍ ما بعيد اكتشاف الراديوم ، وقال لها لنتكلم قليلاً فيه ثم بسط لها الفرق بين التسجيل والاباحة ثم قال لها ان شركة اميركية كتبت تبتغي تفصيلاً لطريقة استخراج الراديوم . فقالت (طيب) فقال وعليك ان تقرري هل نسجل هذه الطريقة كأن الراديوم من مخترعاتنا أو نبيحها للعالم بلا شرط ولا قيد ، وقبل ان تقرري لا تنسي الفرق بين التسجيل والاباحة ، لنا ولابنتينا ، فرفعت رأسها وقالت : « ان التسجيل مخالف للروح العلمية » وكذلك أبيح الراديوم للعالم !

***

٣ — وكأن الحياة أرادت ان تجلو بالموت آية الحياة في هذه المرأة ، فجيء بزوجها في أحد أيام سنة ١٩٠٦ محمولاً على الاعناق وهو لا يزال في عنفوان رجولتهِ وقد كسرت جمجمته ونثرت خلايا دماغه عجلة مركبة للنقل تقل ملابس الجنود . فكتمت لوعتها وانطوت على نفسها ، حتى خيل الى أقرب المقربين اليها ان خطراً يهدد عملها العلمي العظيم . وحينئذٍ نهضت فرنسا الى مستوى عظمة هذه المرأة الغريبة عن فرنسا فعينتها خلفاً لزوجها أستاذاً في كلية العلوم بالسربون — أول امرأة تدخل السربون نداً بين انداد من أقطاب العلماء !

واقترب يوم محاضرتها الاولى . فهرع الى مدرج السربون الحكام والامراء والعلماء والطلاب من أجانب وفرنسيين حتى ضاقت بهم رحابه . والجميع يسألون ما يكون موقف هذه السيدة بعد وفاة زوجها . أتستطيع حقًّا ان تمضي في الشوط الى نهايته وحدها ؟

وقرعت الساعة الثالثة ، ففتح باب جانبي ودخلت سيدة هزيلة شاحبة مرتدية السواد فحياها

الجمهور بالهتاف ، فوقفت مرتبكة ثم رفعت يدها فساد السكون ، ثم شرعت في القاء محاضرتها . فاذا هي تصل ما انقطع من محاضرة زوجها قبيل مصرعه . لم تشر بكلمة واحدة إلى نكبتها ولوعتها وعظم خسارتها وخسارة العلم بفقده

وهذا ضرب من الشجاعة الصامتة جدير بأن يحتذى

***

٤ — إلاّ أن الخساسة من طبيعة النفوس الصغيرة وما كان نجاح هذه السيدة ، وذيوع شهرتها إلاّ باعثاً على حملة خسيسة ديرت عليها . فشرعت الصحف تشير اليها بوصف «السيدة الاجنبية» أو «الدخيلة» ولم يتورع بعضها عن التلميح الى أنها مدمرة البيوت — وهي التي لم يكن لها متسع من الوقت إلاّ للتفكير في الراديوم اولاً فاذا كان لها شيء من الفراغ عنيت بابنتيها

وذاع نبأ هذه الحملة في وطنها الاصلي ، فاجتمع علماء بولندة وكتابها ، وأوفدوا اليها وفداً يطلب اليها العودة إلى مسقط رأسها ، حيث ينشأ لها معهد خاص بها ، تديره وتبحث فيه ، بعيدة عن الأهواء والمطامع . فأبت ، لان لفرنسا — وطنها الثاني — وللراديوم والمعهد الخاص به الذي حلمت بانشائه هي وزوجها معاً ، حقوقاً عليها لا تمحوها خساسة بعض الناس

ومع أن اكاديمية العلوم أبت ان تنتخبها عضواً فيها بحجة انها امرأة ، مع تأييد أعاظم العلماء لها ، الاّ ان اكاديمية الطب الفرنسية ، كفرت عما جنته أكاديمية العلوم بعد سنين فانتخبتها بعد الحرب ، عضواً فيها بالاجماع

***

٥ — وجاءت الحرب الكبرى ، وكانت مدام كوري قد نالت جائزة نوبل مرتين — اولاً سنة ١٩٠٣ بالاشتراك مع زوجها وبكريل — وثانياً وحدها سنة ١٩١١ — وبلغت السابعة والاربعين من العمر فتلفتت حولها ، ورأت أن تطوعها ممرضة في احد المستشفيات ، أسهل طريق لخدمة فرنسا ، فلم ترض بالطريق السهل . وبحثت في حالة المستشفيات العسكرية فرأتها خالية من أجهزة الاشعة السينية اللازمة لتشخيص كثير من العلل والاصابات التي تلازم الحياة العسكرية ، فقضت اربع سنوات من الجهد المتواصل ، في صنع هذه الاجهزة وتدريب من يستعملها ، واستعمالها ، ونظمت فرقة جوالة من السيارات بعد ما جهزتها بالمعدات اللازمة للفحص الطبي بالأشعة السينية ، ولم يثنها سنها عن تعلم سوق السيارات لكي تقود احداها بنفسها . وكثيراً ما كانت تنفق من ١٦ الى ١٨ ساعة كل يوم في التنقل من مستشفى عسكري الى آخر تعاون الاطباء في اعمال الكشف ، ولم يكن بالنادر أن تجري العمليات الجراحية والمصاب معرض للاشعة

لان ذلك يسهل معرفة مكان الرصاصة أو شظية القنبلة او العظم المكسور

وقد كانت مدام كوري تحسب نفسها جنديًا في خدمة فرنسا . فاذا ذهبت الى مستشفى من المستشفيات حيث لا تعرفها رئيسة الممرضات وعوملت معاملة امرأة عادية وبشيء من الخشونة كانت لا تباهي بمن هي ولا بما فعلت وانما كانت تتغلب على ما يساورها من شعور الخيبة بأن تتذكر ان الملكة اليصابات البلجيكية كانت مثلها تقدم مؤاساة الجرحى على المكانة والمقام

ومع ان مدام كوري أبت غير مرة ان يقترح اسمها لكي يهدى اليها وسام اللجيون دونور فالمقربون اليها يعلمون انها كانت تغتبط باهداء وسام اللجيون دونور الحربي اليها بعد الحرب ، لانها كانت تحب أن تعرف بصفة الجندي المكافح

ولكن هذه الرغبة الدفينة لم تجد من يفكر فيها ويحققها

***

٦ — وجاءتها في أحد الايام أميركية معجبة بها وفي خلال الحديث سألتها ما تبتغي لو خيرت في شيء واحد تطلبه فقالت : غرام من الراديوم أستعمله في بحوثي . فدهشت الاميركية ان تجد المرأة التي وهبت الراديوم للعالم وأباحت لهُ طرائق استخراجه المعقدة وهي لا تملك منهُ ما يكفيها للسير في بحوثها . فعادت الى أميركا وأقامت الدنيا وأقعدتها حتى اشتركت نساء أميركا في اكتتاب عام لشراء غرام من الراديوم يهدى الى مدام كوري ، ولما قدم لها رمزه في البيت الابيض في ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ قال الرئيس هاردنغ وهو يقدمه « نحن مدينون لك بمعرفتنا له (الراديوم) وملكنا اياهُ لذلك نرفعهُ اليك ونحن واثقون بأنه وهو في حيازتك لا بد ان يكون وسيلة لتوسيع نطاق العالم وتخفيف آلام الناس »

وما كادت تتسلمهُ حتى وهبته لمعهد الراديوم بباريس . ثم عادت الى اميركا بعد سنوات فوهبتها سيدات اميركا غراماً آخر فوهبتهُ لمعهد الراديوم في وارسو عاصمة بولندة

***

هذه صور خاطفة من حياة هذه المرأة الفذة في عقلها وخلقها وأثرها . ان تعديد الالقاب العلمية التي انهالت عليها من اعظم معاهد العالم وجامعاته يملأ اربع صفحات كبيرة ، ولكن لا الشهرة استهوتها ولا طلب الثروة صرفها عن سبيلها — سبيل العلم والخدمة ، فكانت حياتها سلسلة ذهبية متصلة الحلقات من الاعطاء والمنح والبذل فصحَّ فيها قول جبران « ... هؤلاء يعطون كما ينشر الريحان اريجه الفواح في ذلك الوادي . . . بمثل أيادي هؤلاء يتكلم الله ، ومن خلال عيونهم يبتسم للارض »

الالكترون (1)

نشوء فكرته وتحقيق وجوده

وبعض علاقاته بموضوع العلاج الاشعاعي

مصطفى نظيف بك

الاستاذ بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الاول

نشوء فكرة الالكترون

في علم الطبيعة

﴿النظرية المغناطيسية الكهربائية وما ظهر من النقص فيها﴾ وضع « كلارك مكسول » (C. Maxwell) في مبدىء الاعوام الثلاثين الاخيرة من القرن التاسع عشر أو قبيل ذلك ، —وكان أستاذاً للطبيعة بجامعة كمبردج في ذلك العهد— نظريتهُ المغناطيسية الكهربائية في الضوء . تلك النظرية التي يصح ان توجز فكرتها الاساسية في أنها تعد الضوء تغيراً دورياً في شدة المجال الكهربائي مصحوباً بتغير دوري في شدة مجال مغنطيسي اتجاههُ عمود على اتجاه الاول ، حيث ينتقل هذان التغيران في اتجاه عمود على الاتجاهين المذكورين ، بسرعة معينة يمكن تقديرها تكون هي سرعة الضوء

وقد كان دخول هذه النظرية في علم الطبيعة مبطلاً للنظرية القديمة في الضوء التي كانت تعد الضوء موجات عرضية تحدث في وسط موهوم هو « الاثير » أسبغت عليهِ خواص الجسم الصلب المرن فعرفت « بنظرية الصلب المرن » ، ومبطلاً للتناقض الذي نشأ عن نظرية الصلب المرن هذه بين رأي « فرينل » (Fresnel) العالم الطبيعي الفرنسي في تعيين اتجاه الاهتزازة في الضوء المستقطب بأنهُ عمود على مستوى الاستقطاب ، وبين رأي « نيومان » (Neumann) و « ماكّولاّغ » (Mac Cullagh) و « غرين » (Green) في القول بأن اتجاهها موازٍ لمستوى الاستقطاب

---

(1) موضوع الكلمة التي ألقاها مصطفى نظيف بك الاستاذ بكلية الهندسة في الاجتماع الذي عقدته الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٣٨ في كلية العلوم بمناسبة اسبوع السرطان

وفكرة الحركة الموجية التي تتضمنها النظرية المغناطيسية الكهربائية جعلتها صالحة للاحاطة بالظواهر الضوئية التي تعزى الى الحركة الموجية ، كظاهرة التداخل وظاهرة الحيود وظواهر الاستقطاب . وكانت النظرية أيضاً صالحة لشرح انعكاس الضوء ، ولشرح الانعطاف بصفة عامة . وأدت ايضاً الى نتائج كالتأثير الضغطي للضوء حققتها البحوث العملية

ولكن لم تكن للنظرية في مبدىء أمرها فيما عدا ذلك أدلة عملية مقنعة تعززها . ولم توجد صالحة لشرح ظاهرة « التشتت » (Dispersion) ولا ظاهرة « التشتت الشاذ » اذا صح ان نسميها كذلك (Anomalous Dispersion) التي كانت معروفة وقتئذ ولا علاقتها « بالامتصاص الخاص » أي « الامتصاص المميز » (Selectvie Absorption)

***

﴿اتمام نقص النظرية المغناطيسية الكهربائية بنظرية توهم فيها وجود «الكترونات»﴾ لذلك رأى « لورنتز » (Lorentz) العالم الهولندي سنة ١٨٧٨ ان يقيم بجانب النظرية المغناطيسية الكهربائية نظرية يكمل بها النقص الذي بدا فيها . ويتم بها شرح « ظاهرة التشتت » وظاهرة « التشتت الشاذ » . وبنى « لورنتز » نظريته على فروض ، فتصوّر وجود دقائق صغيرة لكل واحدة منها شحنة كهربائية بمقدار، فرضها موجودة في المادة بوجه عام. وفرضها مطلقة الحركة في الاجسام الموصلة للكهرباء . وفرضها مقيدة الحركة ، مقيدة بجزيئات المادة أو ذراتها في الأجسام العازلة

فاذا وضع العازل في مجال كهربائي ، ازيحت هذه الدقائق عن مواضعها الاولى، واذا زال المجال زالت الازاحة واذا كان المجال الكهربائي متردداً أحدث في هذه الدقائق «اهتزازة قسرية» (Forced vibration) ترددها كتردد ذلك المجال . واذا صادف ان كان تردد المجال مساوياً تردد الاهتزازة الطبيعية لهذه الدقائق ، اتسعت اهتزازتها ، وحصل « الرنين » (Resonance) وأصبحت تلك الدقائق في العازل منقادة لذلك المجال يسيّرها كما يسيّرها المجال في الأجسام الموصلة لولا أن حركتها تؤثر فيها قوة تقاومها ، فيصير لاتساع الاهتزازة حدٌّ ، وتستنفد طاقة المجال بعد ذلك في الشغل المبذول للتغلب على « قوة المقاومة » هذه

تلك بايجاز الفروض الاساسية التي بنى عليها « لورنتز » نظريته والنظرية من جراء هذه الفروض المحدودة المعاني، تصور تصويراً مقبولاً فكرة « الازاحة » في العازل، وفكرة « تيار الازاحة » اللتين كانت تنطوي عليهما نظرية مكسول ، واللتين كان غموض معناهما في مبدىء الأمر ، عائقاً الى حد ، عن انتشار النظرية وحسن قبولها لدى بعض علماء الطبيعة في ذلك العصر. وقد استطاع

« لورنتز » أن يتوصل على أساس هذه الفروض الى معادلة يقدر بها معامل انكسار الضوء في المادة العازلة ، وبينت معادلته انَّ معامل انكسار الضوء يتوقف على تردد الضوء . وذلك على صفة لا تتفق وظاهرة التشتت فحسب بل تصلح لشرح « التشتت الشاذ » وبيان علاقته بالامتصاص المميز بل والتنبؤ بظاهرة لم تك معروفة هي « الانعكاس المميز » (Selective Reflection)

وفي ابَّان ذلك العهد شغل « لارمور » (Larmor) — وكان استاذاً للرياضة بجامعة كمبردج وقتئذٍ — ببحوث رياضية تناول فيها اهتزازة الدقيقة المشحونة ، وحركتها المستديرة حول محيط دائرة وحول محيط قطع ناقص وما ينشأ عن مثل هذه الحركة من التموجات الكهربائية ، أو بالأحرى المغناطيسية الكهربائية التي من جنسها موجات الضوء

« ولورنتز » لم يتقيد في نظريته أول الامر بقدر الشحنة الكهربائية على تلك الدقائق الموهومة التي فرضها . بل ولم يتقيد بنوع الشحنة : هل هي موجبة ام سالبة ؟

ولكن بحوث « فراداي »(Faraday) في اوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر عن توصيل السوائل للكهرباء والبحوث التي تلت بحوثه من منتصف ذلك القرن ولا سيما بحوث «هتورف» (Hittorf) و « كلوسيوس» (Clausius) و« كهلراوخ» (Kohlrausch) وغيرهم من التابعين ، دلت على أن توصيل المحاليل للكهرباء يحدث بفعل «أيونات» (Ions) هي اجزاء من جزيئات المذاب مفككة ، بعضها موجب التكهرب وبعضها سالبه ، وان اصغر مقدار لشحنة هذه الايونات هي شحنة ايون الايدروجين ، وان شحنة الايونات الاخرى اما هي تساوي شحنة ايون الايدروجين مقداراً ، واما هي تساوي اضعافها ، فكأن للشحنة الكهربائية على حسب تلك البحوث ، مقدار هو اصغر مقدار توجد عليه الكهرباء ، اي كأن للكهرباء جوهراً فرداً ، او جزءًا لا يتجزأ . هذا الرأي قد تردد في قبوله بعض كبار علماء الطبيعة في ذلك الوقت ولكنهُ لقي قبولاً حسناً لدى ناشئتهم فلم يك ما يحول دون أن تعد شحنة الواحدة من الدقائق الموهومة المفروضة في نظرية « لورنتز » هي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ من الكهرباء. وكان بهذه المناسبة ان اقترح « ستوني» (Johnstone Stoney) الطبيعي الانكليزي سنة ١٨٩١ ان يطلق على الواحدة منها اسم « الكترون » فعرفت نظرية « لورنتز » بالنظرية « الالكترونية »

والنجاح الذي صادف النظرية الالكترونية من الناحية المذكورة حث كثيرين من العلماء على تطبيقها في نواحٍ اخرى من علم الطبيعة . فأخذت تطبق لشرح كيفية توصيل الموصلات للكهرباء وتوصيلها للحرارة ولشرح ظواهر اخرى لا محل للخوض فيها هنا

تلك بايجاز هي الملابسات والظروف التي افضت الى نشوء فكرة الالكترون في علم الطبيعة

اهم الكشوف والبحوث العلمية
التي مهدت الى الكشف عن الالكترون

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد . فقد اخذت بحوث وكشوف اخرى يتتالى بعضها في اثر بعض « الاشعة الكاثودية » فمن احدى النواحي انه خطر لعالم فرنسي « ماسون » (Masson) حوالي منتصف القرن التاسع عشر ان يمرر شرارة كهربائية في فراغ « تورشيلي » الذي يعلو الزئبق في انبوبة بارومترية فاستوقف نظره تغير شكل الشرارة ، واضاءة ذلك الفراغ بضوء متصل يضرب الى الاخضرار فأخذ الكثيرون يجربون امرار الشرارات في انابيب معوجة ملتوية مختلفة الاشكال ، واتخذ بعضهم هذا الامر لهواً ومتعة ، غير ان اصلاح مفرغة الهواء في ذلك العهد اتاح لفريق من العلماء دراسة الظاهرة بصفة جدية . ويكفيني ان اذكر منهم اثنين او ثلاثة ، هم « وليم كروكس » (William Crookes) في انكلترا ، و « بلوكر » (Plucker) و « جولد شتين » (Goldstein) في المانيا . وسرعان ما بيّنت بحوثهم العملية ان احداث التفريغ الكهربائي في انابيب من الزجاج قد خلخلت حتى صار ضغط فضالة الهواء أو فضالة الغازات التي بها صغيراً جدًّا ، يحدث نوعاً من الاشعة مصدره « الكاثود » أي القطب السالب ، اذا ما وقع على جدران الانبوب من الداخل أو على بعض مواد مومضة [١] توضع فيها ، جعلها تومض أو تتلون في الظلام ، واذا ما وضع حاجز أو ساتر بحيث يحول بين الكاثود وبينها ، حصل للحاجز او للساتر ظل ، دالاً ذلك على ان هذا النوع من الاشعة يصدر عن الكاثود وينتشر على سموت الخطوط المستقيمة . ولكنهم اختلفوا في طبيعة هذه الاشعة ، وانقسموا في ذلك فريقين احدهما على رأسه « كروكس » رأى ان طبيعتها مادية ، وسماها « كروكس » « المادة المشعة » والآخر يقوده « جولدشتين » رأى ان طبيعتها حركة موجية . وظل الفريقان يتنازعان . إذ لما تبين ان هذه الاشعة تنحرف بفعل المجال المغناطيسي اتخذ الفريق الاول هذا الامر عضداً لرأيه دون الآخر . ولما بيّن « هرتز » (Hertz) ثم من بعده « لنرد » (Lenard) أنها تنفذ خلال الصفائح الرقيقة من الالومنيوم وما شابهه اتخذ الفريق الثاني هذا الامر دليلاً يقيمونه على صحة رأيهم دون الرأي الاول . اذ كيف يتسنى لهذه الاشعة لو كانت حقيقة دقائق من المادة من قبيل جزيئات المادة او ذراتها ان تنفذ من مثل تلك الصفائح ؟ ثم لما بين « پران » (Perrin) في مبدىء السنوات الخمس الاخيرة من القرن التاسع عشر ان هذه الاشعة اذا ما ركزت في اناء أجوف

(١) استعمل الكاتب في دروسه وكتبه « البصريات » منذ زمن طويل لفظ « الوميض » للدلالة على الظاهرة المعروفة باسم (Phosphorescence) ولفظ « التلوّن » للدلالة على الظاهرة المعروفة باسم (Fluorescence) وللاولى فعل « أومض » وللثانية « تلون »

صغير معزول ، تكسبهُ شحنة سالبة ، عاد الرأي الاول فرجحت كفته . ولبث التنازع بين الرأيين قائماً حوالي عشرين عاماً

﴿ التأثير الكهربائي للضوء ﴾ ومن ناحية أخرى أتيح « لهرتز » وهو يجري تجاربه الخالدة في الموجات المغناطيسية الكهربائية ان لاحظ ان وقوع الضوء ، أو بالاحرى الاشعة المافوق البنفسجية منه ، على فرجة الشرارات التي تحدث خلالها الشرارة الكهربائية في تجاربه ، يساعد على مرور الشرارة . فأخذت العناية تتجه الى البحث عن حقيقة تأثير الضوء ، او الاشعة المافوق البنفسجية ، في الامر . ويكفيني ان اذكر ممن عنوا ببحث هذا الامر في ذلك الوقت اثنين او ثلاثة مثل « هلواك » (Hallwach) و « الستر » (Elster) و « جيتل » (Geitel) فقد أدت بحوثهم الى معرفة ان الموصل تنبعث منه في الفراغ بتأثير الضوء ، ولا سيما الموجات القصيرة منه ، دقائق متكهربة يدل اتجاه انحرافها في المجال المغناطيسي على ان شحنتها سالبة . وبدأ على هذه الصفة ظهور فرع من فروع الطبيعة الحديثة يعرف الآن باسم « الكهربائية الضوئية » (Photo-Electricity)

﴿ ابتعاث الاجسام المتوهجة لدقائق متكهربة ﴾ وايضاً قد كان من المعروف بوجه عام منذ اوائل القرن الثامن عشر ، ان الاجسام المشحونة المعزولة تفقد شحنتها بتأثير اللهب والتسخين الشديد . فعاد البحث عن حقيقة هذه الظاهرة يلقى شيئاً من عناية بعض العلماء في منتصف القرن التاسع عشر وقد وجدت الظاهرة في مبدىء الامر على جانب من التعقد . فلضغط الغاز ، ولدرجة الحرارة ، ولعوامل أخرى كنوع الغاز ونوع مادة الجسم وما الى ذلك ، تأثيرات مختلفة جعلت بعض النتائج الاولى متناقضة . ولكن تتبع البحث أدى في مبدىء السنوات العشر الاخيرة من القرن ، الى التوصل الى معرفة شيء عن حقيقة الظاهرة ، ويكفيني هنا ايضاً ان اذكر ممن بحثوا هذا الموضوع اثنين او ثلاثة هم « الستر » و « جيتل » و « فلمنج » (Fleming) . فقد دلت بحوثهم على انه اذا توهج سلك في اناء مفرغ من الهواء تفريغاً شديداً انبعثت منهُ دقائق وجدت هي ايضاً متحملة بشحنة سالبة . وبدأ على هذه الصفة ظهور فرع آخر من فروع الطبيعة الحديثة يعرف باسم « الايونية الحرارية » (Thermo-Ionics)

﴿ اشعة رنتجن والنشاط الراديومي [1] ﴾ وما كادت تتجمع المعلومات والكشوف السابقة حتى أعلن « رنتجن » (Rontgen) سنة ١٨٩٥ كشفه عن الاشعة المعروفة بأسمه . ثم أعقبهُ كشف آخر لا يقل عنهُ خطورة اتيح « لبكرل » (Becquerel) وهو خاصة ابتعاث بعض العناصر مثل

---

(١) تناول حديث الاستاذ الدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم في اجتماع الجمعية موضوع «أشعة رنتجن» وتناول حديث الدكتور محمد محمود غالي موضوع «النشاط الراديومي»

« الاورانيوم » لاشعاع لم يكن للعلم الطبيعي علم سابق به . ويكفينا أن نذكر هنا ان من بين هذا الاشعاع الصادر عن هذه المواد نوعاً يتكون من دقائق صغيرة متحملة بشحنات سالبة تسمى الدقائق « البائية » او الاشعة « البائية » (Beta Rays)

﴿ كيفية توصيل الغازات للكهرباء ﴾ تلك كانت حالة علم الطبيعة من الناحية التي تخصنا هنا ، عند بدء السنوات الخمس الاخيرة من القرن التاسع عشر . فقد جاءت الكشوف والبحوث المذكورة يتبع بعضها الآخر بسرعة ولكن لم يكن يتراءى بادىء الامر أن بين تلك الكشوف والبحوث رابطاً يربطها بعضها بالآخر أو سلكاً ينظمها على وتيرة مفهومة فظهر في الميدان « جوزف طمسون » (J. J. Thomson) خليفة « مكسول » في استاذية الطبيعة بمعمل « كفندش » في « كمبردج » ومعه « رذرفورد » (Rutherford) الذي خلف « طمسون » بعد اعتزاله ، وفقده العلم في السنة الماضية . وكان قد تبين إن للدقائق السالبة التي أتينا على ذكرها آنفاً ، ولاشعة « رنتجن » وللاشعة التي تنبعث من المواد الراديومية[1] خاصة هي انها تجعل الغاز الذي تنفذ فيه موصلاً للكهرباء . فبدأ « طمسون » و « رذرفورد » البحث عن كيفية توصيل الغازات للكهرباء . وبيّنا في بحوثهما ان توصيل الغازات للكهرباء يحدث من تولد دقائق بعضها موجب التكهرب وبعضها سالب التكهرب سميت قياساً على نظائرها في السوائل « ايونات » تتولد في الغازات بفعل العوامل المذكورة ، وان هذه الايونات اذا ما تركت وشأنها تتعادل من جراء انجذاب الموجب منها بالسالب ، فتزول عنها صفة الايونية . فاذا ما تولدت هذه الايونات بفعل أحد تلك العوامل ، في مقدار ما من الغاز ، يوجد بين قطبين ، وجُعل بينهما فرق في الجهد اي مجال كهربائي ، اكتسح المجال بعض الايونات السالبة نحو القطب الموجب ، وبعض الايونات الموجبة نحو القطب السالب ، فمر التيار في الغاز من جراء انتقال الايونات على هذه الصفة . وفي الوقت نفسه تتعادل الايونات الاخرى وتزول عنها صفتها الايونية . واذا كان المجال مستمرّاً والعامل الذي يولد الايونات مستمرّاً باقياً ، مرّ تيار مستمر بحيث اذا زادت شدة المجال او القوة الدافعة بين الموصلين ، عظمت نسبة ما يكتسحهُ المجال من الايونات وصغرت نسبة ما يتعادل منها ، وزادت تبعاً لذلك شدة التيار . حتى اذا بلغت شدة المجال حدّاً معيناً اكتسح جميع الايونات بمجرد تولدها وبلغ التيار حالة التشبع

ثم عقب « تونسند » (Townsend) أستاذ الطبيعة في اكسفورد على ذلك بأنهُ اذا تجاوز المجال الكهربائي الحد المذكور كثيراً ، اكتسح الايونات بشدة عظيمة ، فتزيد سرعتها كثيراً ،

(١) النسبة هنا الى الراديوم ونوثر استعمال « النشاط الراديومي » للدلالة على معنى "Radio - Activity" وتقصر استعمال الاشعاع للدلالة على معنى «Radiation»

فيحدث من جراء تصادمها بجزيئات الغاز ايونات جديدة ، وهكذا ، فيزيد عـدد الايونات زيادة عظيمة في وقت قصير فيحدث في الغاز ما يعرف بالتفريغ الفجائي المصحوب بالشرارة الكهربائية المألوفة . وسرعان ما انتشرت هذه النظرية واتسعت البحوث على هداها ، وارتبطت المعلومات السابقة شيئاً ما بعضها بالآخر . وأجريت بحوث عدة لا يسمح المجال بالخوض فيها قيست فيها سرعة الايونات ودرست فيها خواصها في الغازات المختلفة وفي الظروف العدة التي تتولد فيها بفعل تلك العوامل

الكشف عن الالكترون

وقد توج القرن التاسع عشر قبيل انصرامه بما هو من غير شك من اعظم الكشوف التي شهدها علم الطبيعة في تاريخ نموه. فقد اجرى «جوزف طمسون» خلال الثلاث السنوات الاخيرة منهُ ، سلسلة بحوث عن حقيقة الاشعة الكاثودية ، وبعض الدقائق السالبة التي أشرنا اليها فيما قبل . ففي بعض هذه البحوث حرَّف « طمسون » الاشعة الكاثودية بفعل المجال المغناطيسي ثم سلط عليها مجالاً كهربائيًّا حرفها في ضد الاتجاه ، وهيأ المجالين بحيث أبطل أحـدهما فعل الآخر ، واستنبط من معرفة شدة كل من المجالين مقدار نسبة شحنة الدقيقة الواحدة الى كتلتها ، بل واستطاع أيضاً قياس سرعتها . فقضت هذه البحوث بالحكم القاطع بصحة الرأي القائل بأن الاشعة الكاثودية هي دقائق كل واحدة منها ذات كتلة ومتحملة بشحنة سالبة ودلت نتائج طمسون على ان نسبة الشحنة الى الكتلة لهذه الدقائق واحدة ، ليست تختلف تبعاً لاختلاف نوع فضالة الغاز المتخلف في الانابيب ولا تبعاً لاختلاف نوع مادة الكاثود

ثم عقب «طمسون » على هذه البحوث بأخرى عيَّن فيها نسبة الشحنة الى الكتلة للدقائق السالبة التي تنبعث بفعل الاشعة المافوق البنفسجية ، وبأخرى عيَّن فيها تلك النسبة ايضاً للدقائق المنبعثة من الاجسام المتوهجة في الفراغ

فكانت نتائج البحوث جميعاً ان تلك النسبة واحدة . ولكنها وجدت اضعافاً مضاعفة للنسبة النظيرة لها لايون الايدروجين . فقد بلغت تلك النسبة على حسب نتائج طمسون في ذلك العهد ثمانمائة مرة قيمة النسبة الثانية وهي بحسب النتائج الحديثة حوالي ثمانمائة والف مرة . وهنا تتجلى ناحية الالهام التي لا تخلو منها الكشوف العلمية الخطيرة . فطمسون فسّر هذه النتائج بأنها أزاء دقائق شحنتها سالبة ومقدارها هو الجوهر الفرد للكهرباء او الجزء الذي لا يتجزأ منها . اي ان مقدار شحنتها كمقدار شحنة ايون الايدروجين وان كانت تختلف عنها في النوع . واذن تكون كتلة الدقيقة الواحدة منها جزءا صغيراً جدًّا من كتلة ذرة الايدروجين ، التي هي اصغر ذرة من ذرات المادة معروفة في الكيمياء ، فتكون كتلة الدقيقة الواحدة على حسب هذا التفسير هي

جزء من ثمانمائة والف جزء من كتلة ذرة الايدروجين . وقد كان لهذا التفسير ما يبرره ، فالنسبة واحدة لجميع تلك الدقائق التي يحصل عليها بالطرق المختلفة ، وليست تتوقف على نوع المادة ، والاشعة الكاثودية قد ثبت كما في تجارب « هرتز » و« لنرد » انها تنفذ من الصفائح الرقيقة، فذلك كله في مجموعه يبرّر القول ، بأنها دقائق صغيرة اصغر من ذرة المادة ، ومن مقوّمات الذرة المادية

وما كاد « طمسون » يعلن نتائج بحوثه هذه ، حتى قام « بكرل » وتبعهُ آخرون بتعيين النسبة نفسها للدقائق البائية المنبعثة من بعض المواد الراديومية . ودلت النتائج على ان النسبة لهذه الدقائق ايضاً تساوي النسبة النظيرة لها التي توصل اليها « تومسون » في تجاربهِ المختلفة

وفي ابّان الوقت الذي كان طمسون يجري فيهِ بحوثه المذكورة كشف «زيمن» (Zeeman) العالم الهولندي ظاهرة في الضوء تتلخص في ابسط حالاتها في انّ كل خط من خطي طيف الصوديوم يعرض قليلاً بفعل المجال المغناطيسي فأرسل الى « لورنتز » ينبئهُ بالامر ويستفسره فيهِ

واستطاع لورنتز ان يفسر هذه الظاهرة على اصول نظريتهِ الالكترونية بل واستطاع ان يبين الاحوال التي ينتظر ان ينشق فيها الخط الواحد من خطوط الطيف خطين ، والاحوال التي ينشق فيها ثلاثة خطوط ، واستطاع ان يتنبأ عن حالة الاستقطاب في كل واحد من هذه الخطوط ، كل ذلك على اساس انّ الضوء يحدث عن اهتزازة الالكترونات المفروضة في نظريته .

بل واستطاع « لورنتز » ان يبين كيف يمكن التحقق من نوع الشحنة على تلك الالكترونات بل وأكثر من ذلك كيف يمكن بمعادلة توصل اليها ببرهان رياضي تعيين نسبة الشحنة الى الكتلة لتلك الالكترونات من قياس الفرق في التردد بين الخطوط المنشقة الحاصلة في الظاهرة

وكان مآل ذلك ان استطاع « زيمن » تعيين نسبة الشحنة الى الكتلة للالكترونات التي توهمها « لورنتز » وبنى عليها نظريته الالكترونية ووجدت هذه النسبة ايضاً مساوية النسبة التي توصل اليها طمسون في تجاربه . على هذه الصفة تبين ان الدقائق الكاثودية والدقائق التي تنبعث من الموصلات بفعل الاشعة الضوئية لا سيما المافوق البنفسجية ، والدقائق التي تنبعث من الاجسام المتوهجة والدقائق البائية التي تنبعث من بعض المواد الراديومية ، بل والالكترونات المفروضة الموهومة في نظرية لورنتز هي جميعها دقائق كنهها واحد ، وطبيعتها واحدة ، وهي كلها بحسب تفسير « طمسون » متحملة بشحنة سالبة هي الجوهر الفرد للكهرباء ، وكتلتها جزء صغير جداً من كتلة أصغر ذرّة معروفة في الكيمياء

وان كان طمسون قد أطلق على الدقائق التي اختبرها في تجاربه اسم « ذريرات » (Corpuscles) وحاول التمسك لها بهذا الاسم ، فقد غلب اطلاق اسم « الكترونات » عليها هي أيضاً ، وصار اسم «الالكترون» يدل على جميع تلك الدقائق ويلابسها جميعاً

تعيين شحنة الالكترون

وقد أراد « طمسون » ان يتحقق بالتجربة من أنَّ رأيه القائل بأن الشحنة السالبة الموجودة على كل دقيقة من تلك الدقائق ، او على الالكترون بحسب الاسم الشائع ، هي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ للكهرباء ، أراد أن يتحقق من أنَّ رأيه هذا لا تعوزه الادلة العملية . ولما كانت الغازات توصل الكهرباء بفعل الايونات التي تتولد فيها ، فان امكن قياس شحنة الايونات التي تتولد في الغازات ، وان دلت النتائج العملية على أن لشحنتها قدراً معيناً لا يوجد اصغر منهُ ويساوي قدر شحنة ايون الايدروجين ، كان هذا دليلاً على صحة القول بأن للشحنة الكهربائية جوهراً فرداً ، وان رأي طمسون في ان شحنة الالكترون هي الجوهر الفرد للكهرباء مقبول

مضى طمسون في معالجة هذا الموضوع ، واستطاع ان يتخذ المعلومات التي كانت معروفة في عصره مطية الى الغاية التي يريدها . والقصة طويلة . ولكننا نوردها بايجاز . فقد كان من المعلوم ان وجود دقائق من الهباء أو الغبار أو الدخان في الهواء يساعد على تكاثف بخار الماء المشبع أي يساعد على تكون الضباب ثم تبين ان وجود أيونات في الهواء يساعد هو ايضاً على هذا الامر . وكان قد تبين من تجارب اجراها « ويلسون » (C.T.R. Wilson) بمعمل « كفندش » في كمبردج سنة ١٨٩٧ انهُ اذا تمدد الهواء المشبع ببخار الماء فجاءة ، تمدداً نسميه ثابت الحرارة (Adiabatic) حتى صار حجمه ما بين ١٫٢٥ ، ١٫٣٠ من حجمهِ الأصلي ، تكاثف بخار الماء على الايونات السالبة دون الموجبة ، اما اذا تمدد حجمه بمقدار اعظم من ذلك ، تكاثف بخار الماء على النوعين السالب والموجب من الايونات

على هدى هذه المعلومات رسم طمسون بحوثه . فبدأ بحجم معلوم من الهواء النقي المجرد من الهباء والغبار والدخان وما إلى ذلك ، فوق سطح قليل من الماء في اناء خاص بحيث كان الهواء مشبعاً ببخار الماء . وأحدث في الهواء ايونات بفعل اشعة رنتجن . ثم جعله يتمدد بالقدر الذي يجعل التكاثف على الايونات السالبة ، وكانت هي في بعض البحوث المقصودة ، دون الموجبة . فحدث في الاناء ضباب بالتكاثف على الايونات السالبة . فراقب الضباب وهو يرسب الى قرار الاناء ، وقاس سرعة رسوبه رأساً . ومن معرفة هذه السرعة امكنهُ من قانون كان قد اثبتهُ « ستوكس » (Stokes) ببرهان رياضي ، ان يقدّر نصف قطر قطيرة الماء في ذلك الضباب ، واذن حساب حجم القطيرة ثم حساب كتلتها . ثم قدّر بطريقة حسابية كثيراً ما تردعليها اسئلة في امتحانات الطبيعة ، كتلة بخار الماء المشبع الموجود في الهواء قبل التكاثف ثم كتلة بخار الماء المشبع الموجود فيهِ بعد

التكاثف ، واذن كتلة ما تكاثف منهُ ضباباً ، أي كتلة الضباب الحادث في التجربة . فاذا ما عرفت على هذه الكيفية كتلة الضباب الحادث وكتلة كل قطيرة منهُ . عرف عدد القطيرات . فاذا فرض ان كل قطيرة تتكاثف حول ايون واحد . كان هذا العدد هو عدد الايونات السالبة الموجودة في الهواء . فاذا قيست الشحنة الكهربائية التي تحملها جميع الايونات ، امكن معرفة شحنة كل ايون منها على حدته

كانت هذه الطريقة اول طريقة قيست بها شحنة ايون الغاز . وقد اصلحت الطريقة فيما بعد ، اصلحها «ويلسون» H. A. Wilson ، فسلط على الايونات مجالاً كهربائيًّا يجذبها الى اعلى بحيث تبقى قطيرات الضباب معلقة . ثم أصلحها من بعده «مليكان» (Millikan) استاذ الطبيعة في جامعة «شيكاغو» فاستبدل بقطيرات الضباب قطيرات من رذاذ من الزيت ، فلا تتبخر بسرعة ، وأحدث الايونات. فاذا ما اتصل بعض القطيرات ببعض الايونات اصبحت مشحونة ، فسلط عليها مجالاً يجذب المشحونة بشحنة سالبة الى اعلى أو يجذب المشحونة بشحنة موجبة الى اعلى ، وبحيث يتعادل الجذب الكهربائي الى اعلى بجذب الارض لها الى اسفل فتبقى القطيرات معلقة ، لا تهوى ولا تعلو ، واستطاع ان يرقب منها واحدة ، نظرا اليها بميكرسكوب ، فتيسر له ان يقيس قطرها ويستخرج وزنها ، ثم قدّر بعد ذلك شحنتها ، دون ان يلتجيء الى مثل ما انطوت عليه طريقة طمسون الاولى من القوانين والحسابات المختلفة

وجاءت نتائج هذه البحوث معاضدة لرأي طمسون . فالشحنة الموجودة على ايونات الغاز سواء منها الموجب أو السالب توجد بمقدار له قيمة معينة محدودة بمعنى ان الايون قد تكون شحنته مساوية هذا المقدار، أو ضعفه ، أو أضعافه ، ولكنها ليست تساوي في حال من الاحوال ، نصفهُ مثلاً أو جزءا منهُ . وذلك المقدار وجد مساوياً مقدار شحنة ايون الايدروجين ، فهو اذن الجوهر الفرد للكهرباء ، وهو اذن مقدار الشحنة السالبة للالكترون

الصفات الذاتية للالكترون

وبعض نواحيه الخاصة

وقد اتجه الفكر منذ أول نشأة النظرية الالكترونية الى تكييف معنى كتلة الالكترون تكييفاً خاصًّا . وكان « لطمسون » بحث رياضي ، بيَّن فيهِ انهُ اذا فرضت كرة ، وكانت عليها شحنة وأريد تحريكها بسرعة معينة ، فنظراً لان حركة الشحنة هي بمنزلة تيار كهربائي ، وللتيار الكهربائي مجال مغناطيسي يتطلب حدوثه مقداراً معيناً من الشغل ، فان الشغل اللازم لتحريك الكرة وهي مشحونة يساوي طاقة حركتها بصفة كونها كتلة متحركة بسرعة معينة والطاقة

اللازمة لاحداث المجال المغناطيسي المذكور . واذن الشغل اللازم لتحريك كرة معينة ذات كتلة معينة وهي مشحونة أكبر من الشغل اللازم لتحريك الكرة نفسها بالسرعة نفسها اذا كانت مجردة عن الشحنة . فكأن وجود الشحنة على الكرة يزيد من قصورها الذاتي ، أو هو يزيد من كتلتها . أي كأن للجسم المشحون كتلة تعرض عليه من جراء وجود الشحنة الكهربائية عليه . وأيضاً اذا فرضنا شحنة كهربائية معينة متكاثفة في حجم كري صغير ، وموجودة مجردة عن وجود كرة مادية تشغل ذلك الحجم ، فانهُ يلزم لتحريكها بسرعة معينة مقدار من الشغل يساوي الطاقة الموجودة في المجال المغناطيسي الذي يحدث من جراء حركتها ، ومن السهل حساب الكتلة التي يلزم لها المقدار نفسه من الطاقة لكي تتحرك بالسرعة نفسها . على هذا الاساس وبهذا المعنى يمكن ان تعد كتلة الالكترون ، كتلة عارضة من جراء حركة شحنة الالكترون بالسرعة التي يتحرك بها ، وليست كتلة مادية من جراء كونه دقيقة من المادة لها كتلة . وهذا هو المعنى المقصود من القول بأن ماهية كتلة الالكترون هي « مغناطيسية كهربائية » وينتظر على هذا الاعتبار ان تتغير كتلة الالكترون تبعاً لتغير سرعته ، فتزداد تبعاً لزيادة السرعة على وتيرة معينة تتعين ببرهان رياضي . وقد دلت التجارب فعلاً على ذلك . بل يمكن أيضاً على أساس كون كتلة الالكترون « كتلة مغناطيسية كهربائية » تعيين نصف قطره . وبذلك يتم تعيين الصفات الذاتية للالكترون . فيكون الالكترون شيئاً لهُ شحنة سالبة معينة معلومة ولهُ كتلة معينة معلومة ولهُ حجم معلوم . وبحسب التقديرات الحديثة

شحنة الالكترون = ٤٫٧٧ × ١٠$^{-١٠}$ من الوحدات الاستاتيكية الكهربائية

أو = ١٫٥٩ × ١٠$^{-٢٠}$ من الوحدات المغناطيسية الكهربائية

وكتلته = ٩ × ١٠$^{-٢٨}$ من الجرام

ونصف قطره = ١٫٩ × ١٠$^{-١٣}$ من السنتمتر بالتقريب

في حين ان ذرة الايدروجين كتلتها تسعة وثلاثون وثمانمائة وألف مرة كتلة الالكترون ونصف قطرها حوالي خمسين الف مرة نصف قطر الالكترون

ولا يسمح المجال بالاسترسال في بيان ما يقال عن ان الكتلة بوجه عام وضمناً كتلة الالكترون مظهر من مظاهر الطاقة ، بالمعنى المفهوم من نظرية « الاضافة [١] » ولا في بيان ما يدور من الآراء الحديثة حول « هوية » الالكترون وكنه طبيعته . هل هو

(١) استعمل الكاتب منذ زمن طويل لفظ « الاضافة » للدلالة على نظرية « اينشتين » في النسبية . وذلك احياء لاصطلاح استخدم قديماً في الفلسفة العربية في معنى قريب من الفكرة الاساسية التي بنى عليها اينشتين أول الامر نظريته

كتلة ذات شحنة ؟ ام هل هو مجموعة من الموجات ؟ ام هويته وكنهه ووجوده ، ثنائية ، يبدو في ظروف معينة كدقيقة ذات كتلة وذات شحنة ، ويبدو في ظروف اخرى كمجموعة من الموجات ؟

ولا يسمح المجال بالاسترسال في بيان ما تم منذ خمس سنوات من الكشف عن شقيق الالكترون . ذلك الذي كتلته ككتلة الالكترون ، وشحنته كشحنة الالكترون في المقدار ولكنها تخالفها في النوع . ذلك الذي يسمونه (Positron) ويصح ان نسميه « الموجبرون » ونضع للالكترون اسماً مرادفاً ونسميه «السالبرون» فيختص كل منهما باسم يدل عليه يميزه عن الآخر . ولا يسمح المجال ايضاً بالتوسع في بيان الرأي القائل بأن « الكم الجيمي » ذا الطاقة الشديدة والتردد المرتفع اذا صدم ذرة من ذرات المادة، انفجر شقين، احدهما «السالبرون» والآخر شقيقه « الموجبرون » . ولا يسمح المجال بتفصيل الكشف الذي اتيح خلال هذا العام عن «الكترون» ، ولا يزالون يسمونه الكتروناً ، كتلته ستون ومائة مرة او يزيد كتلة الالكترون الذي هو موضوعنا في هذا المقام . ولنكتف بذكر هذه الامور ولنشر اشارة موجزة الى الدور الذي يؤديه الالكترون في العالم الطبيعي . هو لا شك ركن من اركان الذرة او بالاحرى هو كذلك على حسب المعلومات الحالية . وهو مصدر النور والحرارة وجميع الاشعاع (الاثيري) اذا جاز لنا الآن ان نستعير من علم الطبيعة القديم احد اصطلاحاته ، او فلنقل هو مصدر جميع الموجات المغناطيسية الكهربائية سواء منها ما طالت موجته فكانت اذرعها عشرات الكيلومترات ، او ما قصرت فكان ذرعها جزءاً من عشرة اس عشرة من السنتمتر الواحد

هذا الالكترون الخطير الشأن في عالم الوجود استطاع الانسان ان يتسيطر عليه ويسخره في مآربه . استطاع ان يستخدمه لاحداث موجات اللاسلكي ولاستقبالها وما الى ذلك (١) واستطاع ايضاً ان يستخدمه لضبط اللصوص ، ولحصر عدد الارغفة التي تخبز في الافران الكبيرة ، ولتوقيت الزمن سواء في حلبات السباق او في المراصد ، ولايقاف القطرات او تحويل مجراها بل ولقياس طمي النيل ولتقدير (عكارة) السوائل ومقادير الدخان والغبار المنتشر في اجواء المصانع والمعامل (٢)

ولكن ما علاقة هذا الالكترون بموضوع العلاج الاشعاعي عامة وموضوع السرطان خاصة .

---

(١) الاشارة هنا الى الصمام الايوني الحراري وتطبيقه في اللاسلكي وغيره

(٢) الاشارة هنا الى الخلية الضوئية (Photo-cell) وتطبيقها في الاغراض المذكورة ومنها ما نشر من تجارب للدكتور محمد محمود غالي في تقدير طمي النيل

بعض علاقات الالكترون

بموضوع العلاج الاشعاعي

لندع جانباً القول بأن الالكترونات هي الوسيلة العملية للحصول على أشعة رنتجن التي يعالج بها السرطان . ولندع جانباً القول بأن الالكترونات ذات علاقة وثيقة بحدوث الاشعة الجيمية التي يعالج بها هي أيضاً هذا الداء ، وسواء لدينا أكان انطلاق الالكترونات من ذرات المادة هو الذي يسبب صدور الاشعة الجيمية أم كان صدور الاشعة الجيمية هو الذي يسبب انطلاق الالكترونات . فالعلة والنتيجة من الالفاظ التي تغيرت معانيها في الوقت الحاضر

ولنقل انهُ من الثابت المؤكد ان للالكترونات تأثيراً حيويًّا في الانساج وفي الخلايا . وان لم تكن الالكترونات قد تم استخدامها كطريقة من طرق العلاج الاشعاعي فان دراسة تأثيرها الحيوي اخذت تسترعي في الوقت الحاضر انتباه فريق من العلماء لا سيما في اميركا.وما يدرينا لعلها أصلح فعلاً وامعن تأثيراً

ولربما تكون علاقة الالكترونات بالعلاج الاشعاعي اشد صلة في الواقع مما يبدو في الظاهر فان كان التأثير الطبيعي لاشعة رنتجن مثلاً وهو تأيين الغاز ، انما هو بفعل الالكترونات الثانوية التي تحدثها هذه الاشعة ، وبالمثل ان كان التأثير الطبيعي للاشعة المافوق البنفسجية كذلك،ألا يصح التساؤل هل التأثير العلاجي لهذه الاشعة هو ايضاً بفعل الالكترونات الثانوية التي تحدثها وهل معنى المثل القائل « ان الاسم لطوبه والفعل لامشير » ينطبق هنا ايضاً

وايضاً ان كان «الكم الجيمي» كما اشرنا الى ذلك من قبل، ينفجر عند تصادمه بذرة المادة شقين احدها « السالبرون » والثاني « الموجبرون » ألا يصح التساؤل هل لهذا الموجبرون ايضاً علاقة بالفعل العلاجي للاشعة الجيمية ، تلك خواطر اكتفي بذكرها مجردة عن التعليق عليها بالنفي او الاثبات

***

وعلاوة على كل هذا فقد تبين ان للالكترونات علاقة بموضوع العلاج الاشعاعي من ناحية اخرى . في سنة ١٩٣٣ كشف عما يسمونه (Neutron) ويصح ان نسميه « المتعادلرون » وهو دقيقة كتلتها كذرة الايدروجين ولكنها في حالة تعادل كهربائي ليست لها شحنة كهربائية وقد وجد ان للنيوترونات خواص تميزها تجعل لها شأناً خاصًّا في موضوع العلاج الاشعاعي. فمثلاً من خواصها ان المواد الايدروجينية اى المركبات التي تحتوي على عنصر الايدروجين تمتصها بشدة دون غيرها . فهي من جراء ذلك تمتصها الانسجة الايدروجينية بشدة دون العظام وايضاً

فان الفعل التأييني لهذه النيوترونات أشد كثيراً من نظيره لاشعة رنتجن او الاشعة الجيمية وتجارب «لورنس» (Lawrence) وزملائه في اميركا في الوقت الحاضر تدل على ان فعلها الحيوي ايضاً اشد كثيراً من نظيره لاشعة رنتجن او الاشعة الجيمية بل وتدل علاوة على ذلك على ان فعلها الحيوي مميز[1]، وهو من هذه الناحية أشد تمييزاً من نظيره لتلك الاشعة ولهذه النيوترونات خاصة اخرى هي انها تثير في المواد التي ليست لها بطبيعتها خاصة « الراديومية » ، هذه الخاصة وتكسبها هذه الخاصة بشدة

والمواد التي تثار فيها هذه الخاصة بالطرق الصناعية نسميها « مواد راديومية صناعية »ومن المرجح كثيراً انه سيكون لها في القريب العاجل شأن عظيم ربما يتجاوز حد التصور في وقتنا الحاضر لا في علاج السرطان وغيره من الامراض فحسب ، بل في نواحي شتى كثيرة منها ما يتعلق بالطب بوجه عام ، ومنها مايتعلق بالصناعة وغيرها

***

وللحصول على هذه النيوترونات في الوقت الحاضر طرق مختلفة . والذى يعنينا امره هنا ان من هذه الطرق طريقة تسدد فيها اشعة رنتجن ذات طاقة عظيمة الى مادة « البريليوم » والوسيلة لتوليد هذه الاشعة الرنتجنية ذات الطاقة العظيمة ان تصوب الكترونات هي الاخرى ذات طاقة عظيمة تتجاوز مليوناً من الفولطات الى هدف من مادة « الطنجستن » ومما يستعان به للحصول على هذه الالكترونات جهاز خاص اخترع حديثاً نسميه «المولد الدفعي»[2] يولد قوة دافعة كهربائية فجائية تبلغ مليوناً ومليونين أو يزيد من الفولطات . ويكفيني في هذا المقام ان اذكر ان من بين ما يُعدّ به الآن الاستاذ « جوليو » (Joliot) ، معمله الحديث بباريس ، جهازاً من هذا القبيل من المنتظر ان تبلغ القوة الدافعة التي تتولد منه ثلاثة ملايين فولط او اكثر ، فيحدث الكترونات ذات طاقة عظيمة تقع على هدف من الطنجستن ، واذا احيط حوله بمادة البريليوم انتشرت خلال هذه المادة الاشعة الرنتجينية التي تتولد فتحدث النيوترونات ، حيث تستخدم هذه النيوترونات بعد ذلك للاغراض المطلوبة ، كاثارة الرديومية الصناعية في المواد التي يراد اختبارها او استعمالها ، وما الى ذلك

---

(١) نعني بمميز هنا انها تبيد أو تتلف الخلايا أو الانسجة المريضة وتنشط السليمة

(٢) هو Impulse Generator ويسمى احياناً Surge Generator واول مانشر عن توليد النيوترونات بهذه الطريقة خطاب في مجلة Nature في العدد الصادر في ٨ دسمبر سنة ١٩٣٤ وكان مذيلا بسبعة اسماء وكان من بينها اسم « عدنان والي » المدرس الآن بقسم الطبيعة بكلية الهندسة

الدولة والفرد

توطئة لبحث المذاهب السياسية

في هذا العصر

لعلي ادهم

مسألة سيادة الدولة ومدى علاقة الفرد بتلك السيادة في طليعة المسائل التي يقوم حولها الجدل ويستفيض البحث في العصر الحديث ، وقد كانت فكرة سيادة الدولة على الدوام من الافكار التي يتناولها قادة المفكرين ويعرض لها الباحثون في السياسة والاجتماع ، وقد تناوبت العصر الحاضر صروف سياسية واحداث جمة استوجبت اعادة النظر في هذه الفكرة وعرضها من جديد على محك البحث. وسيادة الدولة عند الفاشيين والنازيين ليست مثاراً للجدل والمناقشة وانما هي من الامور المقطوع بصحتها والمسلم بها ، وقد كان ذلك مما زاد العناية ببحثها والاقبال على تدبرها حتى اصبح الحديث عنها غير مقصور على رجال السياسة وعمداء القانون

والفكرة القائلة بسيادة الدولة المطلقة تستمد قوتها من مصدرين مختلفين من مصادر التفكير اليوناني ، فقد كان في التفكير اليوناني نزعة ترمي الى اعتبار الدولة وحدة كلية قائمة بذاتها مكتفية بنفسها مستغرقة للمجتمع بأسره ، وافلاطون نفسه يأخذ بهذا المذهب ، وارسطو يعلن في بحوثه السياسية ان من طبيعة الدولة الاكتفاء بنفسها ، والعلاقة الوحيدة عندهما بين الدولة والدول الاخرى هي علاقة العداء والمنافسة والكراهة المتأصلة ، ولذا كانت علاقات الحكومات اليونانية بعضها ببعض قائمة على العداء المستمر والتربص الدائم ، وقد ردد الفيلسوف هوبز ذلك حين قال « الدول بطبيعتها اعداء »

ونلمح من ثنايا ذلك ان ما يعتبره بعض المفكرين علاقتين متمايزتين وهما علاقة الفرد بالدولة من ناحية ، وعلاقته بالنوع الانساني من ناحية أخرى ، لا وجود له في هذا النمط من التفكير لان الدولة مستوعبة لجميع الافراد وحقوقها مقدمة على حقوقهم ومكانتها هي المكانة السامية المرموقة فهي ملاذ الفرد وكهف رجائه

وتصور مفكري اليونان للطبيعة الانسانية هو المصدر الثاني الذي تستمد منهُ النظرية قوتها، وذلك لان الكثيرين ممن تحدثوا عن النظريات السياسية يستمسكون بالرأي الذي يذهب الى ان حقيقة الفرد هي تلك الشخصية المنفردة الحائرة التي يعرفها الفرد في تلك الحالة الافتراضية المسماة « حالة الطبيعة » وذلك قبل ان يدخل المجتمع ويخضع لاحكامه ويحمل اعباءه، والمجتمع في زعم اصحاب هذه النظرية بناء صناعي متكاثف قائم على تعاقد محدود دخل بموجبه الفرد الى المجتمع ليضع حدًّا للحالة الطبيعية التي كان يرتع في بحبوحتها وينعم في ظلالها حيث لا ترهقهُ سلطة ولا يقيدهُ قانون ، وهذه النظرية في تعليل نشوء المجتمع هي نظرية « العقد الاجتماعي »

ولكن افلاطون وارسطو يريان غير ذلك ويذهبان مذهباً آخر ، فالانسان عندهما حيوان اجتماعي ، وما دام الانسان مدنيًّا بالطبع فمن الطبيعي له ان يعيش في المجتمع ، وحياة الفرد في عزلة عن بني الانسان حياة غير طبيعية ولا مألوفة ، وطبيعة الفرد لا يسترسل نماؤها ويطرد تقدمها الا بين احضان المجتمع ، والمجتمع يتيح للانسان الفرصة لاختبار طاقته وتحقيق مطالبه ، والانسان في مخالطته لانداده وزملائه في المجتمع يحفز مواهبه وينمي قدراته ويستكمل شخصيته فهو فضلاً عما يشعر به من الامن والطمأنينة في كنف المجتمع وحمى الدولة مدين لها بواجب الشكر لانها تمنحهُ شخصية في تراثها الجم وقوتها الفياضة

***

وعلى أساس فكرة الدولة من حيث هي ضامنة لحقوق الفرد ومجيرة له من اخطار الفوضى ودياجير الحرية السلبية وخالقة لشخصيته أقام الفيلسوف الالماني هجل بناءً فلسفيًّا محبوك الاطراف متسق المنطق ، وعند هجل ان القوم في المجتمع يستمتعون بحرية اصدق أثراً وأعظم وقعاً من تلك الحرية الغارقة في الفوضى التي خلعوا ثوبها عند ما غادروا حالتهم الطبيعية الافتراضية الطليقة من القانون ، والحرية الصادقة هي تلك الحرية التي يظفر بها الفرد في حدود المجتمع ، فهي ثمرة من ثمراته مظهرها الخارجي القوانين المرعية ومظهرها الداخلي تلك الآداب التي يتلقاها الفرد من المجتمع ، فالدولة تُسلِّمُ للفرد حرية لا يظفر بها في غيرها وهي انما تفعل ذلك لان لها شخصية حقيقية وارادة مستقلة ، وتمثيلها لرغبات اعضائها يكسبها ارادة عامة فوق كل ارادة ، وارادة الفرد تسمو وتزداد نبلاً باندماجها في تلك الارادة العامة ، ويتبع ذلك ان اعمال الدولة المنبعثة عن تلك الارادة العامة يلزم ان تكون على الدوام مسلمة من العيوب بريئة من الاخطاء لانها تمثل خير ما في ارادات الافراد

وللدولة شخصية ولهذه الشخصية حقوقها التي تسمو فوق كل خلاف وتعلو على حقوق

الافراد المزعومة — وأقول المزعومة لان الفرد بموجب هذه النظرية لا يمكن ان تكون له حقوق حقيقية متعارضة مع حقوق الدولة ، وذلك لان حقوق الفرد الحقيقية ليست هي تلك الحقوق التي حملها معها عند دخوله المجتمع عقب انتهاء تلك الحالة الطبيعية الافتراضية الدابرة وانما هي حقوق في العمل لتحقيق تلك الغايات التي تنزع اليها طبيعته التي كونها المجتمع وصقلها وهذبتها الدولة وسمت بها ، وهي طبيعة هو مدين بها للمجتمع ومن واجبه ان يقفها على خدمة الدولة ، وما دام الفرد يتلقى حقوقه وواجباته من الدولة فلا يمكن ان تكون له حقوق تتعارض مع حقوقها

***

وبجميع هذه الاعتبارات وبناء على ما يمكن استنباطهُ من فكرة طبيعة « الارادة العامة » و« شخصية الدولة » يعتبر هجل الدولة مادة اخلاقية شاعرة بنفسها ويرى ان العلاقة التي تربط الفرد بالدولة في كليتها الشاملة هي نفسها جزءٌ من شخصية الفرد ، فهو نبت يدها وثمرة غرسها وهو من ثمَّ لا يستطيع ان يعمل في عزلة عنها ولا يمكن ان تنبعث له ارادة او يتسق له امل الاَّ بجزء من ارادة الدولة ونصيب من آمالها ، ويرى بوزانكيه ان الفرد حتى في ثورته وانتفاضه على الدولة انما يثور بارادة مستمدة من ارادة الدولة فالدولة في حالة الثورة تعد منشقة على نفسها .

وقوة الدولة المتسامية فوق الافراد وما تطلبهُ من ولاء متصل وتضحيات مستمرة توسع شخصيات الافراد وتنقيها من شوائب الاغراض الحقيرة والغايات المسفة وتنقل محور حياة الفرد من دائرة الاثرة الضيقة الى ميدان الحياة العامة ، والدولة اكبر ممثل للآداب الاجتماعية وان كان ذلك لا يستلزم انها مقيدة في اعمالها باتباع شريعة الاخلاق ، والعلاقات الاخلاقية تقتضي وجود طرفين ولا يمكن ان يكون للدولة طرف آخر لانها جماع الاحزاب

وفي وسع الدولة ان تسيطر نظريًّا في ايام السلم وعمليًّا في ابان الحرب على حياة الافراد وتوجههم الوجهة التي تريدها ، ولا سند من القانون لمصادمة احكامها لان الافراد الذين تبسط عليهم سلطانها لا يختلفون عن الافراد الذين يباشرون سير الاحوال ويتقلدون السلطة ، واوامر الحكومة موحاة من الرغبات الحقيقية لهؤلاء الذين يطيعونها ويلبون رغباتها حتى عندما يطيعونها رغم ارادتهم

***

والدولة هي التي تتصدى لحل المشكلات وتصمد للملمات ، ومن حقها ان تطلب الى الافراد ان يضعوا حياتهم رهن تصرفها وطوع يدها . قال هجل « حالة الحرب تكشف عن قوة الدولة

وتبين مدى سطوتها وعظيم بطشها والوطن حينذاك هو القوة التي تقضي بفناء استقلال الافراد»

وقد اقتفى اثر هجل في الاشادة بسيادة الدولة المطلقة بعض المفكرين الالمان وتطوح فريق منهم تطوحاً بعيداً وأسرف كل الاسراف ، وفي مقدمة المجلين في هذا الميدان المؤرخ الالماني المشهور تريتشيكه والكاتب السياسي برناردي ، ومفكرو الانجليز على وجه الاجمال لم يقبلوا نظرية سيادة الدولة المطلقة بالحماسة والتطرف والمغالاة التي قبلها بها الالمان

ونظرية سيادة الدولة المطلقة على ما يبدو بها من مظاهر التماسك الفكري والاتساق المنطقي نظرية غير سليمة ولا مطابقة للواقع ، بل هي نظرية خطرة لانها تمنح الحكومة المسوغات التي من شأنها ان تجعلها تنهج في السياسة الخارجية منهجاً غير متردد لا يبالي بسنن الاخلاق ولا اصول الآداب ، وقد تطرف بعض الغلاة من منكري سيادة الدولة المطلقة حتى قالوا بعدم ضرورة وجود الدولة

***

والعيب الواضح في نظرية سيادة الدولة هو ان الدولة تبعاً لتلك النظرية تعتبر نفسها ممثلة للنوع الانساني باسره وهو افتراض منافر للحقيقة. واذا كان للدولة السلطة التامة والقدرة الكاملة من حيث علاقتها بافرادها فانهُ من الأمور المسلم بها ان هذا الحق لا يمكن ان ينهض الاّ على افتراض ان الدولة تمثل ارادات جميع الافراد الذين تتكون منهم الدولة وليس هناك ما يوحي الى الفكر ان الدولة تمثل ارادات افراد الدول الاخرى فهي من ثمَّ غير قادرة على كل شيء وليست ارادتها اذن فوق كل ارادة وما دام ادعاء القدرة على كل شيء والسمو فوق كل ارادة يتخذ وسيلة لتبرير حق الدولة في الانعتاق من الواجب الادبي فانهُ يتبع ذلك ان هذا الانعتاق لا يمتد الى العلاقات بين الدولة والدول الاخرى، فليس هناك اذن ما يبرر خروج الدولة عن الاداب في معاملتها للغير من الدول، واذا كانت قواعد الآداب مرعية في علاقات الافراد بعضهم ببعض فليس هناك ما يمنع العمل بمقتضاها في علاقات الدول بعضها ببعض

***

ومع تسليمنا بان الفرد في المجتمع يتمكن من انماء طبيعته واظهار قدراته ويظفر بحريته لان الرجل الشريد في جزيرة نائية يملك حريته ولكنها حرية مجردة سلبية لانهُ وان كان في وسعه أن يعمل كل شيء ولكنهُ في الحقيقة لا يستطيع ان يعمل شيئاً اقول ان تسليمنا بذلك لا يقتضي كون الحكومة قادرة على كل شيء ولا ينفي ان الدولة موجودة لاجل الفرد وان الفرد لم يوجد لاجل الدولة وسعادة المجتمع ، وليس للدولة معنى ان لم تعمل على اسعاد الفرد لان الدولة ليست

غرضاً من أجل ذاتها ، واذا سلمنا بذلك اتضح لنا ماينطوي عليه مذهب سيادة الدولة المطلقة من مغالطة ووضع للأمور في غير نصابها

ويرى بعض أنصار نظرية سيادة الدولة انهُ غير ميسور للدولة أن تبني مجدها وعزها على أنقاض حياة الفرد او ان تستبد به وتطغى عليه لان مصلحة الدولة هي بذاتها مصلحة الفرد وإرادة الدولة حتى في حالة الاستبداد والطغيان هي إرادة الفرد ولكنهُ دفاع غير مستقيم لان الفصل في قضية من القضايا لا يعد فصلاً بمعرفة الفرد واتفاقه لمجرد ان القائمين بأمره أفراد في المجتمع الذي يشمله ، ونظرية السيادة المطلقة تناقض فكرة الحرية الشخصية لانهُ عندما ينشب أي خلاف بين الدولة والفرد فانهُ يفترض مقدماً ان الدولة في جانب الصواب وان الفرد حقيق باللوم ولا سبيل له لرفع صوته واسماع كلمته

وتقدم المواصلات السريع في العصر الحاضر قد أنمى العلاقات وزاد الروابط الاقتصادية والثقافية بين مختلف الامم ، وهذه العوامل الجديدة في الاجتماع الانساني قد أخذت ترسم الاتجاه الى تنظيم شؤون العالم على أساس اقتصادي ينسخ النظام الحاضر القائم على الحدود الجغرافية . واذا سلمنا انه من اللازم ان يعرف الفرد ان هناك مصلحة اسمى من مصلحته وهي مصلحة المجتمع فليس هناك مايمنع من السير بذلك الى نهايته المنطقية والوقوف عند فكرة ان مصلحة النوع الانساني فوق مصلحة الدولة.وكما ان اخلاص الفرد لاسرته او لقبيلته قد اتسعت آفاقه وترامت حدوده وأصبح اخلاصاً للدولة فانهُ من المنظور ان يزداد اتساعاً وشمولاً ويصبح اخلاصاً وولاءً لبني الانسان ، وليس هناك ما يثبت ان الدولة هي أقصى مرحلة من مراحل التدرج الاجتماعي ، وتستمد الدولة قوتها من وجود عادات وتقاليد مشتركة وبقاؤها رهن الى حد كبير بالاحتفاظ بتلك العادات والتقاليد وسيكون لسهولة المواصلات ولتقوية الروابط بين الامم اثره المحتوم في تغيير تلك العادات والتقاليد ، ومع ضرورة الاحتفاظ بالدولة باعتبارها عاملاً اصيلاً في صيانة النظام واستتباب الامن فان العالم سيتجه وزها الى تصور اسمى للدولية يضمن سلامة الدولة ووقايتها من الاخطار الطارئة والصدمات المباغتة كما ضمنت الحكومة سلامة الفرد واستنقذتهُ من حالة الطبيعة غير المحتملة ولا المرضية. وأمل الانسانية في العصر الحاضر معقود بتلك الغريزة التي اوحت المجتمع وساقت الفرد الى الاجتماع بالفرد لتكوين القبيلة وقادت القبيلة الى الاجتماع بسائر القبائل لتكوين الامة. وليس من المستنكر ان تسير سيرها وتتابع خطواتها وتجمع بين الامم في ساحة الاممية الشاملة حيث تبطل فكرة الدولة المتطلقة من قيود الاخلاق والتي تجعل عصبة الامم امراً عديم الجدوى ضعيف الاثر

وجوه التباين بين

ثقافة الغرب

وثقافة الشرق الادنى

للدكتور ستيوارت ضد . د . ف .
استاذ العلوم الاجتماعية بجامعة بيروت الاميركية

— ١ —

توطئة — الثقافة وحدودها — الاستمرار الثقافي — التحول الثقافي

اذا رأيتَ جماعة تأكل الثريد وأخرى تأكل الضفادع ، ففعل الاكل أمر فسيولوجي شائع في كل البشر غير ان شيوع النوع الواحد من الطعام في جماعة خاصة والنوع الآخر في جماعة أخرى مظهر من مظاهر صفات الثقافة المختلفة في الجماعتين. وعلى هذا نقيس كثيراً من العادات والتقاليد السائدة في قوم دون سواهم كعادات اللبس والشرب والملهى . فكل هذا يبين وجهاً من ثقافة الامة الواحدة المتعلقة بعاداتها

ثم ان الاختلاف في الالفاظ الانكليزية والالفاظ العربية اختلاف ثقافي فقط لان الاوتار الصوتية وقابليتها للنطق بأصوات مختلفة هي واحدة في الشعوب التي تتكلم الانكليزية والشعوب التي تتكلم العربية . ونجد الثقافة ايضاً ظاهرة في نوع الحرفة التي يتبعها المرء . فوجود زيد معلماً وعمر طبيباً وخالد محامياً وبكر تاجراً يدل على مقدار ثقافة كل منهم بحسب الاستعداد الذي تهيأ لهُ منذ حداثته بينما نجد في كل بشر غريزة تدفع بهِ للعمل هرباً من الجوع والعري . فثقافة قوم هي مجموع طرقهم في التفكير والعمل وما ينتجهُ التفكير والعمل ماديًّا كالآلات والبيوت او نفسيًّا ومعنويًّا كالمعتقدات والاقتناعات

وكثيراً ما نعبر بالقول «صفة ثقافية» عن جزء صغير من الثقافة العامة، وبالقول «المركب الثقافي» عن مجموع هذه الصفات الثقافية الصغيرة . وهذا ظاهر في لغة كل قوم وما اللغة سوى جزء من ثقافة القوم الذين يتكلمونها . فجميع المركبات الثقافية في أمة ما مجموعة معاً هي ثقافة الامة . وهذا التعبير يتناول مدنية الامة وطرق تفكيرها وأعمالها وما ينتج عنها من المظاهر المادية والمعنوية النفسية

والعلماء حتى الآن لا يمكنهم ان يعينوا حدًّا للصفة التي يطلق عليها «الصفة الثقافية» ولم يتفقوا أيضاً على قاعدة يمكن اتباعها في تحديد عدد الصفات الثقافية لتكوين «مركب ثقافي» . غير ان استعمال هذين الاصطلاحين في التعبير عن الثقافة مفيد جدًّا . وعليه قد اكسب الاصطلاح والاستعمال هذين التعبيرين معنىً خاصًّا بهما في بحوث الثقافة ، وايضاحاً للامر نسرد ما يلي : —

اذا أردنا الوقوف على معرفة قوم بأسباب الملاريا مثلاً فلنطرح عليهم أسئلة لنعرف بأجوبتهم عنها هل يعرفون الملاريا او سمعوا بها ، ثم اذا سألناهم عن سببها فاننا نجد البيئة التي يكثر فيها المثقفون المتعلمون تقول بأن البعوض ينقل طفيليات الملاريا من المريض الى السليم وفي الجماعات الاخرى نجد الاجوبة تدور حول أحد الامور التالية على الغالب : —

الاصابة بالعين او سرعة تغيير الهواء من بارد الى حار والعكس بالعكس ان ليلاً او نهاراً او القضاء والقدر من الله او لا اعرف

﴿الاستمرار الثقافي﴾ يجب ان لا يعزب عن البال ان الثقافة من الامور المكتسبة ولا دخل لها البتة في الامور الفطرية واذا عدنا الى الحد الذي أوردناه وجدنا الثقافة مجموع امور يتعلمها الفرد في حياته من اسلافه والمتقدمين منا في محيطه ولا علاقة للوراثة الحيوانية بها . هذا وانا نجد من الوجهة الاخرى ان ثقافة المرء تتوقف كثيراً على ما يرثهُ في تركيب جسمه ووظيفة اعضاء جسده . ونجد ايضاً ان الطبيعة والتطبع لهما شأن كبير في ثقافة الافراد فمن هذه الوجهة يكمل الواحد منهما الآخر فلا يمكن انفصال احدهما عن الآخر ابداً . ولكنهما غير هذا في الجماعات . فمن السهل فيها فصل احدهما عن الآخر . وهذا يتم بتغيير العامل الوراثي والنظر الى عامل البيئة مستمر التأثير ، او ان تعكس الآية فتنظر الى العامل الوراثي مستمر التأثير وتغيير عامل البيئة وهذا يكون في درس توأمين متماثلين في كل أمر فيمكن تغيير بيئتهما تغييراً كليًّا عند تربيتهما . ويلجأ العلماء الى هذه الطريقة في تعيين ما هو ثقافي بحت وما هو فطري فسيولوجي . ولما كان درس ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب بهذه الطريقة قليلاً جدًّا فالاختلافات بين الثقافتين التي سأذكرها في هذا الصدد فروض فقط ولست اذكرها كحقائق راهنة . فالاختلافات التي سأذكرها على انها فروض قد تكون حقائق راهنة . وقد ينشب حولها مباحثات ومجادلات . ولكن لا يحق لرجل العلم المدقق ان يقول كلمة فصل فيها بوجه من الوجوه . بل عليه ان يؤجل البت في الامر حتى يتسع نطاق علمه ، بالحوادث المثبتة التي تؤيدها والوقوف على اختبارات اخرى . وعلى كل اذا كان الاختلاف الذي سأذكرهُ حقيقة راهنة ام لم يكن فيجب ان لا يسهى عن بالنا أن الثقافة كما حددناها سابقاً هي ما يتلقفهُ الفرد والمجموع من المعلومات في جيله وما يرثهُ من معلومات الجيل الذي سبقهُ . وعلى هذا نقول ان الثقافة بكليتها تعتمد في تكوينها على

البيئة والتدريب والتربية والتهذيب في اوسع معانيها ولهذا يمكن تغيير الثقافة او ابقاؤها على حالها بالتهذيب الواسع المذكور

﴿التغيير الثقافي﴾ فعلى ماتقدم في وسعنا القول بان الحقائق الثقافية قابلة التغيير بسرعة اذا تغيرت بيئتها الاجتماعية تغييراً كلياً . هذا يتم حتى ولو كانت الحقائق الثقافية المتغيرة قد سادت الامة الواحدة زمناً طويلاً وظهرت فيها بمظهر لايمكن تغييره. ولنا في حوادث روسيا بعد الحرب وفي اليابان عند فتح ابوابها لتأثير المدنية الغربية خير برهان على صحة هذا القول . فالثقافة في كل قطر ومكان حتى وفي الصين تتغير بتغيير العوامل المؤثرة فيها. غير ان المسألة هي معرفة مدى هذا التغيير وسرعته

ثم ان الاختراعات توجد عاملاً وسيطاً لهذا التغيير وندعوهذا العامل «تمييزاً» لانهُ يميز حالة عن اخرى واذا شئت فقل يميز طرق تفكير الامة وعملها وما ينتجهُ هذان مادياً ونفسياً قبل الاختراعات عنها بعد الاختراعات . وانواع تمييز حالة الواحدة عن الاخرى عديدة ولكن ما يهمنا منها في هذا البحث هو التمييز الاقليمي نعني بهِ الفرق بين الاقليمين الشرق والغرب . فالجماعة التي تنفرد في اقليم واحد وتحصر نفسها في هذا الاقليم ولا ترتبط بغيرها من الجماعات في الاقاليم الاخرى تكتسب بما يظهر فيها من اختراعات وغيرها ثقافة تختص بها وتميزها عن ثقافات الجماعات في الاقاليم الاخرى. وهذا التباين يزداد بطول مدى انفراد هذه الجماعة عن غيرها . ولهذا كانت اوربا والعالم الجديد في القرون السالفة تسيران متقدمتين في جهة تختلف عن تقدم الشرق الادنى سرعة وثقافة

ومن عوامل التغيير في ثقافة الاقوام تقدم طرق المواصلات ووسائل النقل وهذا مما يسهل انتقال ثقافة الجماعة المنفردة النائية الى غيرها من الجماعات وبعده تقترب الثقافات المختلفة بعضها من بعض وعندئذٍ يبتدىء عمل تفاعلها الواحدة في الاخرى وهذا التفاعل يكون احد العوامل الثلاثة العامة التالية: اما عامل تناقض وصراع وإما عامل موافقة وتلاؤم وإما عامل تشبه واندماج. فمثلنا في العامل الاول مثل امرأة تركب الدراجة (بسكليت) وتسير في شوارع بعض مدن الشرق فعملها يثير استهجان القوم حتى لقد يندفعون الى رمي المرأة بالحجارة. هذا مظهر التناقض والصراع. ومثل العامل الثاني مثل دخول اللغة الارمنية الى الاقطار العربية فهي لم تمط اللغة العربية ولم تأخذ منها بل بقيت مظهر ثقافة مستقلة عن ثقافة القوم الذي تعيش في وسطه كل الاستقلال ومع هذا لم تثر شيئاً من الاستهجان او التناقض والصراع. فهذا مظهر الموافقة والتلاؤم . ومثل العامل الثالث مثل الالبسة الاوربية او ركوب السيارات او تحديد الاسعار في المتاجر او غيرها من بعض الصفات الغربية التي تزداد تطرقاً كلَّ يومٍ الى عادات اهل الشرق ويزداد تأثيرها في ثقافتهم وهذا مظهر التشبه والاندماج

— ٢ — تباين الثقافتين

لقد تقدم البحث عن الثقافة بوجهٍ عام وبعده يجدر بنا ان نبحث في الاختلافات الواضحة التي نفرض وقوعها بين الثقافة في الشرق الادنى والثقافة في الغرب . وهذا التباين بين الثقافتين وليد القرون السالفة. غير انا نرى الثقافتين في هذه الايام تزدادان اقتراباً الواحدة من الاخرى ويزداد تفاعلهما الواحدة في الاخرى. ومن الخطأ الفادح ان نطبع هذا التباين بطابع الشرق والغرب . والاصح ان نقول ان الواحدة ثقافة الاجيال الوسطى وهذه عامة في الشرق الادنى . والاخرى ثقافة العصر الحديث وهذه شائعة في اوربا وأميركا وأخيراً في بلاد اليابان . وفي درسنا التباين بين الثقافتين يجب ان نعتمد على معدل كل ثقافة منهما اذ لا يمكن ان تختلف ثقافة الامة الواحدة عن ثقافة الامة الاخرى اختلافاً مطلقاً . ففي الشرق الادنى وفي الغرب صفات ثقافية مشتركة . ومن بواعث الاسف ان الناس عند ما يقابلون جماعة بأخرى ينطقون بألفاظ يستدل بها على البعد بين الجماعتين لان الالفاظ التي ينطقون بها متناقضة المعنى كقولهم ابيض وأسود وما شابه . والحقيقة ان في الامتين صفات متشابهة وأشدّ اقتراباً الواحدة من الاخرى مما تعبر عنهُ المفردات الوصفية المتناقضة

﴿ ا — المميزات الزراعية مقابل المميزات الصناعية ﴾ الفرض الاول ان الزراعة اكثر ظهوراً في الشرق الادنى منها في الغرب والصناعة اكثر شيوعاً في الغرب منها في الشرق الادنى. فهذا التباين الاقتصادي قاعدة كل صورة من صور ثقافة الامتين . فالصفات الثقافية في البدوي ترتكز على بداوته وعملهِ كراعٍ يسير وراء المواشي . وما يصح على البدوي من هذا القبيل يصح على الفلاح والعامل والتاجر وصاحب كل مهنة حرة وصاحب المعمل الى ما هنالك من الحرف المعروفة واسباب الارتزاق المألوفة . فثقافة كل صنف من اصناف البشر يجب ان تتفق وحالتهُ الاقتصادية اي مع مهنته وما تدر عليهِ هذه المهنة من المال. وهذا التباين الثقافي بالقياس الى المهن جلي وواضح وما الحاجة في اثباته الاّ الى حوادث معينة تتخذ شاهداً مميّزاً . وللدلالة على الامر أقول ان مستر كيلي (كان قنصل الولايات المتحدة في بيروت) أحب ان يعرف النسبة بين قوة الاحصنة (من الجياد) وقوة الاحصنة الآلية المستخدمة في الامة الواحدة لمعرفة درجة شيوع الصناعة في تلك الامة. واتخذ لذلك فلسطين والولايات المتحدة اساساً للمقابلة. فأحصى عدد الحيوانات المستخدمة في هذين البلدين وقسم هذا العدد على مجموع قوة الاحصنة المستخدمة من البخار والكهرباء وما يتولد بواسطة الاحتراق. فوجد ان ٤٧ في المائة من الولايات المتحدة كان في سنة ١٩٢٥ تسودهُ الصناعة اي أنهم استعاضوا في شؤونهم الاقتصادية عن الحيوانات بآلات الى الدرجة المذكورة بينما النسبة في فلسطين من هذه الوجهة كانت اقل من ٤ في المائة . غير

ان نسبة الزيادة السنوية في هذين البلدين كانت اكثر في فلسطين منها في الولايات المتحدة وهذا يدل على ان التقدم الصناعي في فلسطين كان يزداد سنويًّا اكثر منهُ في الولايات المتحدة اذا راعينا النسبة

نمو القرى وازدحامها بالسكان شيء وشيوع الصناعة والتحلي بمزايا الغرب شيء آخر فيجب ان لا يخلط هذا بذاك وها قسط وافر من الثقافة في مدن الشرق الادنى يتغير بنمو هذه المدن وازدياد سكانها . فالناس ينزحون من الصحراء الى القرى ومنها الى المدن فيكثر الازدحام في هذه وتزيد العلاقات الثقافية في المدن تعقيداً وتزيد السرعة في الحياة وهلم جرًّا. وينسب الناس هذا التعقيد في الثقافة الى دخول الثقافة الغربية الى المدن المتعلق بها الامر فلا صحة لهذا الاعتقاد. فالامر مستقل في ذاته كل الاستقلال . وايضاحاً لهذا نقول : ان كثيرين يعتقدون ان سبب ضعف صفة الثقافة الشرقية المعروفة بحسن الضيافة دخول الثقافة الغربية الى هذه البلاد. اما انا فلا اعتقد بصحة هذا القول فلا دخل للمدنية الغربية بالامر . والسبب كل السبب هو نمو القرى والمدن وازدياد سكانها . واذا درسنا المسألة بالتدقيق وجدنا ان منشأ صفة حسن الضيافة في الصحراء كانت في بادىء امرها صفة لازمة للبقاء والوجود ولكنها تضعف في القرى ويزداد ضعفها في المدن . ومن الامور الجلية انهُ لا يمكن لساكن المدن ان يفتح بابه لكل طارق وكفيه لكل مستعطٍ والعدد في المدن الف او اكثر . ولكن اذا انتقل الشخص نفسه الى مكان منفرد وسكن الخيام في الصحراء ، نراه وقد انقلب في الامر كل الانقلاب فتتوق نفسه الى غريب يجالسه ويقاسمهُ الحياة المملة في الصحراء . واذا راجعنا تاريخ الولايات المتحدة وجدنا ان صفة حسن الضيافة كانت شائعة كل الشيوع بين النازحين الاولين اليها عند ما كانت العائلة الواحدة تبني لنفسها اكواخاً من جذوع الاشجار التي تقطعها من الحراج . وكان الكوخ الواحد يبعد عن الآخر اميالاً . فكان كل قادم جديد الى البلاد يجد بيوتاً مفتوحة لاستقباله وطعاماً لغذائه ، بل كان المضيف يشعر ان عليهِ من باب حسن الضيافة ان يساعد ضيفهُ في بناء كوخ لهُ . ولكن لما تقلص ظل هذه الحالات بانشاء المدن ونمو القرى تقلصت معها هذه الصفة : ويظهر ان القدر كتب لهذه الصفة في الشرق عمراً اطول جدًّا من عمرها في الغرب وهي ستبقى في الشرق الى مستقبل بعيد جدًّا . ولذلك سببان الاول ان الصحراء الحارة القريبة ستبقى صحراء. والثاني أن هذه الصفة تعمل عملها منذ احيال وقرون فصارت بكثرة التكرار عادة وتقليداً وصار التقليد قوة محركة تدفع هذه الصفة لتستمر في عملها على الرغم من تقلب الاحوال

﴿ب — الميزة التقليدية مقابل الميزة المبنية على الاختبار﴾ التباين الصناعي في القطرين يعزى بالاكثر الى تباين في العلوم الصناعية او الى تباين في تطبيق المعارف العلمية . فالموارد الطبيعية في

بعض اقسام الشرق الادنى تمتاز عنها في بعض اقسام الغرب . ولكن النقص في العلوم الصناعية حال دون استغلال هذه الموارد. ولنا في موضوع زيت النفط في العراق خير برهان. وهذا النقص في العلوم الصناعية يحول ايضاً دون شيوع الصناعة في الشرق الادنى . ولنتعمق في بحثنا في هذه الناحية من التباين بين القطرين متخذين طرق التفكير الفني الذي هو أساس العلوم الصناعية اساساً لبحثنا ولنضرب صفحاً عن عرض التباين في العلوم الصناعية بين الثقافتين بمقابلة عدد المعامل التي في القطر الواحد بها في القطر الآخر . وطرق التفكير هذه مبنية ايضاً على طرق علمية والطرق العلمية تتناول عمليات عديدة منها دقة ملاحظة الحقائق ثم استقراء المبادىء ثم معرفة العلاقة بين الامرين لتكون هذه الحقائق نظاماً ينسج على منواله ثم تطبيق المبادىء بطريق الاستدلال حتى تثبت اما باختبار شخصي وإما باحصاء مشاهدات اخرى وملاحظة حقائق جديدة. المهم في الطرق العلمية الاستقراء والاختبار وهذا عكس القول بان الوصول الى الحقائق اما بطرق تقليدية أكسبها الزمن صفة العادة المتبعة وإما بالالتجاء الى ثقات معروفين ان في الزمن الماضي او معاصرين لنا. وها همُ الكثيرون يستدلون على علاج الحالات الحاضرة بأقوال زعيم غابر نقلت الكتبُ المقدسة او غيرها قوله المتبع . فالالتجاء الى الثقات لمعرفة الحقائق اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب . بينما الالتجاء الى الاختبار الشخصي لمعرفة الحقائق أعم في الغرب منهُ في الشرق الادنى . واكبر برهان على صحة هذا نظام الرئيس روزفلت النظام الاقتصادي . فان الرئيس عند ما اذاعهُ قال انهُ تجربة وقد يظهر لنا الاختبار عدم صلاحه للبقاء

﴿ج — ميزة الاستقرار مقابل ميزة التغيير﴾ ان فرضنا السابق أن ميزة التقليد اكثر شيوعاً في الشرق منها في الغرب يقودنا حتماً الى فرض ان الثقافة في الشرق الادنى اكثر استقراراً على حالة واحدة منها في الغرب لان الحالتين متحدتان معاً لا تنفك الواحدة منهما عن الاخرى . أجل ان الاستقرار على حالة واحدة اشد في الشرق الاقصى كبلاد الصين مثلاً منهُ في الشرق الادنى. ولكن هذا لا ينفي ان الشرق الادنى في الاجيال الغابرة كان اكثر استقراراً على حالة واحدة في ثقافته من الغرب. هذا اذا قابلناه بسرعة التطور الثقافي في الغرب وبالاخص تلك السرعة الهائلة التي عمت اوربا بالانقلاب الصناعي الذي ظهر في السنوات الاخيرة . غير ان الحالة قد تغيرت حديثاً وصار الشرق الادنى اسرع تغييراً منهُ في الماضي وهذا ظاهر في تركيا في عهد كمال اتاتورك وفي غيرها من بلدان الشرق الادنى . غير ان هناك خلال هذا التطور الثقافي نزعة تعمل لابقاء القديم على قدمه . وايضاحاً للأمر نستعين بالمركب الثقافي الزراعي . الفلاح في بلدان الشرق الادنى يحجم عن استعمال الطرق الحديثة في عمله . بينما الفلاح في بلاد الغرب لا يتأخر عن نبذ ماورثهُ من الاجيال الوسطى فيأخذ بالطرق الحديثة

سواء في ذلك، طرق تسميد الارض او ارواء غليلها او حرثها فسخر العلم لكل هذه وزاد بأنه جعل العلم يغير اموراً طبيعية كتفقيس البيض واستخدام الكهرباء ليلاً لاغواء الدجاج بان الوقت نهار فيكثر بيضها. وقد جاءت الاخبار مؤخراً انهم يحاولون في المانيا وأميركا استخدام سائل كيمياوي يضعونه في احواض يزرعونها حبوباً وما شاكل عوض ان يغرسوها في الارض. وهم يؤملون ان يجنوا من هذه فوائد زراعية جمة منها ازدياد الخصب في المواسم وتحسين نوع الحبوب والعمل على تخليصها من الحليات المضرة. وزد على هذا انهم يؤملون أنْ يمكنهم إستخدام حرارة اصطناعية وضوء اصطناعي من ان يزرعوا الاوعية ويستغلون ما يزرعون في مدة لا تتجاوز العشرة ايام وبعد هذا يحق لنا ان نحلق بتصورنا في جو المستقبل فنجد ابناء ذلك الزمن ينشئون المعامل للزراعة ويضعون ضمن المعامل براميل ينسقونها على الرفوف صفوفاً صفوفاً كما تنسق الكتب هذه الايام في المكاتب العامة ويزرعون في البراميل الحبوب ويحصدون المواسم بسرعة كلية وفي كل هذا يتمشى الفلاح بين هذه الصفوف وعمله منحصر في الاطلاع على حرارة كل برميل وتعديلها بقطع المجرى الكهربائي او غير هذا كما تقتضيه الحال. وسيترك ابناء الاجيال المقبلة الارض لتكون جنائن فيحاء للتنزه والتمتع بالملذات او دور للعب والقفز والعدو هذا اذا كان لهم رادع اجتماعي والاَّ سينمون ويكثرون ويملأون الارض ويجعلونها مدينة واحدة لاحد لاطرافها

لا بل يحق لنا ان نقول ان زمن هذا النوع من الزراعة سيكون قصيراً لان علماء الكيمياء يزدادون اعتقاداً بان في مقدور الانسان ان يجمع المواد النشائية وغيرها من المواد الغذائية رأساً مما يحيط به من الهواء والماء ونور الشمس وغيرها من المواد الغذائية فالاحداث في الغرب يهللون لهذه الاخبار ويرحبون بها اشد ترحيب ويندفعون حبّاً بها وولهاً بنتائجها الى درس الكيمياء والفنون الزراعية آملين ان يتاح لاحدهم تحقيق هذا الحلم. وخلاصة القول في هذا التباين ووضع سكان الاقليمين تجاه هذه الحالات ان سكان الشرق الادنى يفرحون بما لديهم وما اعتادوه الى أبعد مدى يمكنهم ، بينما سكان الغرب يهللون لكل تغيير وحادث جديد

***

والذين يرغبون في التغيير والتبدل يقولون ان هذا تقدم ونجاح وبقولهم هذا يضعون قيمة معنوية ومادية للتغيير والتبدل المذكورين. والمجتمع يرغب في ان يكون للتغيير والتبدل قيمة اضافية لما فيهما من معنى علمي. ونحن لم نحاول في كل ماقلناه من التباين والاختلاف ان نفاضل بين الثقافتين فنمدح الواحدة ونذم الاخرى لا ننا لا نود ان نقيم للواحدة قيمة نحرم الاخرى منها

ولا نرغب في ان نسمي الواحدة تقدماً والاخرى تأخراً او رجعية. ونحن نأمل ان نفسح بتجردنا هذا مجالاً لقارئي مقالتنا هذه لكي يبحثوا فيما بينهم الفروض التي قدمناها وان يتأملوا بها

ايكوّنوا هم لانفسهم رأياً يتعلق بقيمة التباين في الثقافتين الغربية والشرقية ويبدون آراءهم في المرغوب فيهِ منهما وأيهما يرفضون

***

واذا نظرنا الى هذا التباين في حالتي الاستقرار والتبدل من وجهة أُخرى وجدنا النتائج ذاتها فالشرق الادنى كان حتى السنوات الاخيرة اكثر تسليماً للقضاء والقدر من الغرب بينما هذا كان اكثر نشاطاً واضطراباً من ذاك . ولايضاح الامر نستعمل القواعد الجبرية فنقول ان في كل قوم رغبة شديدة في الحصول على الاشياء التي قيمها كبيرة ونشير اليها برموز

ثم ان جميع الرغائب لا تنال كلها بل يُنال منها قدر كافٍ لاشباع الميول اليها فنسبة الرغبة الكاملة الى ما يمكن الحصول عليهِ منها يتخذ قياساً للقوى السيكولوجية التي تدفع القوم الى العمل والقيام بمفاخر الاعمال . وهذه النسبة ندعوها «الشد» او «عدم الاكتفاء» فمن هذا يتم معنا المعادلة الجبرية التالية $\frac{ر}{م} =$ ش اي بقسمة الرغبة على مفاخر الاعمال يحصل لنا نسبة الشد وتقاس هذه الصور بعض الاحيان بوحدات كنظام العرض والطلب في الرغبات الاقتصادية أو في موقف القوم المتعلق بهِ الامر تجاه رغبات اخرى . فنسبة الشد هذه ما هي الاّ دليل الى العوامل التي تدفع كل حي للعمل في تحقيق رغباته وتخفيض الشد والمد في اعماله . فالسعادة مثلاً زيادة في تحقيق الرغبات وتخفيض في الشد والمد في حياة الفرد هذا بصرف النظر عن كون الرغبات مادية او روحية . وفي العالم فلسفتان في كيفية الحصول على السعادة البشرية وهما طرفا نقيض . الاولى واضحة في تعاليم بوذا عن نيرفانا . والثانية جلية في العقلية الاميركية القائلة جد وحصل . فبوذا يقول ان على من اراد ان يخلص وينقص الشد والمد في حياته ان يتحرر من كل رغباته وذلك بتحويل صورة المعادلة اعلاه له الى الصفر حتى متى حم انتقاله الى نيرفانا يحصل على غبطة تامة لانهُ تخلص من كل رغباته تخلصاً كاملاً . اما الاميركي فيقول عكس هذا تماماً فهو ينادي بان يندفع المرء في العالم عاملاً مجدًّا وتملأ رغباته الارض من اقصاها الى اقصاها فكلمة « لا استطيع » لاوجود لها في قواميس الشبان الذين يريدون كل شيء مبهجاً مفرحاً وفي هذا تتحول قوى الامة جميعاً الى زيادة الانتاج تأسيس معامل ومؤسسات اكثر تعقداً من التي سبقتها . فهذه الفلسفة فلسفة ازدياد الرغبات والجد في طلبها تخفض الشد وتزيد الحصول على الغبطة والسعادة وهذا يكون بتحويل صورة المعادلة أعلاه الى حد لا يحصى ولا يدرك . وبالنتيجة تنخفض نسبة الشد والمد الى الصفر والعدم . ومن الامور المؤكدة ان الوصول الى هذه النتيجة بما يصفهُ الفريقان مستحيل لسببين الاول ان للبشر رغبات فسيولوجية ما زالوا احياء . والثاني ان رغبات البشر

تزداد بسرعة تفوق السرعة التي يتاح بها للمرء ان يتغلب على الحواجز الطبيعية التي تحول دون تحقيق رغباته وأشباع مطامحه

أما اذا عمدنا على تطبيق المعادلة المارذكرها على حياة الافراد فانا نرى الشرق والغرب متحدين متحالفين رغم هذا التباين بين الحد الاقصى في الشرق الادنى والحد الاقصى في الغرب . والنزعة اليوم في الشرق الادنى الى زيادة مخرج المعادلة اي الزيادة في الاعمال عوض عن الاهتمام بتخفيض صورة المعادلة اي الرغبات . ولكننا اذا قابلنا حياة كلّ من الامتين مجموعة بالمعادلة المار ذكرها بحيث تشمل المعادلة كل السكان في القطر الواحد وجدنا قضية القضاء والقدر تلعب في الشرق الادنى دوراً مهمًّا في وضع سكان هذه البلاد تجاه الحالات التي ليس بمقدورهم تغييرها . وقد يكون السبب في هذا الزمن الطويل الذي قضاه الشرق الادنى تحت الحكم التركي مما ساعد على رسوخ قدم هذه العقيدة في هذه البلاد. ولا يزال القرويون في هذه البلاد يعملون على انقاص رغباتهم وتسليم كل ارادتهم لله معتقدين بان لا فائدة من انتظار تقدم ونجاح عظيمين

***

واذا نظرنا الى الفلسفة الاميركية القائلة بالجد وتعداد الرغبات للفوز بالسعادة بحسب ما تقدم معنا في المعادلة المذكورة وجدنا الإخفاق بادياً في كل محاولات الاميركيين لزيادة مخرج المعادلة حتى يتم لهم تخفيض الشد والمد والتوتر في حياتهم . فالنتيجة جاءت معكوسة . فالمدنيـة الاميركية اكثر مدنيات العالم في شدة توترها واضطراب اعصابها وتهيج نشاطها فالنازحون الاولون الى اميركا قـد استفزوا كل رغباتهم ودخلوا البلاد باحلام وآمال عديدة ولكنهم اضطروا في بادىء الامر ان يعيشوا بكل بساطة في اكواخ من جذوع الشجر وهذا ما جعل الفرق بين صورة المعادلة ومخرجها عظيماً جدًّا. وبالنتيجة كثر الشد والمد في حياتهم وهذا كان يدفعهم الى بذل جهود جبارة ونشاط مضطرب حتى يتغلبوا على حياة القفر والوحدة . اما رغباتهم وطموحهم التي جاءوا بها من اوربا فتحررت بنزوحهم الى الولايات المتحدة من القوانين التي جعلت فرقاً بين صف من صفوف البشر وصف آخر . وهذه الحرية جعلت رغائبهم تتوسع تدريجاً وبتوسعها ازداد الميل في الناس الى الاعمال الكبيرة وتعميم الصناعة وهذا الامر قد ساعد على بقاء الشد والمد عاليين . ثم هذا عامل نفسي سيكولوجي يدفع الى مانراه اليوم في مدينة الولايات المتحدة من الانقلاب والنشاط والتهيج وتوتر الاعصاب (وعلى كلٍّ هنالك عوامل أخرى كالمناخ الذي يزيد في نشاط الامة ومواد البلاد الطبيعية وتزاوج الامم المختلفة التي تنزح الى الولايات المتحدة فـكل هذه تحمل على زيادة النشاط في الامة) [للبحث تتمة]

تحويل العناصر

اسلوب المختبرات العلمية

في صنع ذرات جديدة

تحويل العناصر في شكله الحديث قريب العهد ، وهو يختلف عن تحويل العناصر في شكله القديم ، في أنهُ قائم على فهم تركيب الذرّة ، ومعرفة الاساليب التي يمكن التوسل بها الى احداث تغيير في هذا التركيب حذفاً واضافة ، فتتحول ذرة عنصر ما الى ذرة عنصر آخر . واذا كان علماء العصر الحديث قد فاتهم تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، ففي وسعهم الآن ان يحوّلوا الفصفور مثلاً الى ألومنيوم مُشِعٍ ، والنتروجين الى بورون . واهمُّ من التحويل نفسه في نطاقه الضيق المحصور الآن ، ما تسفر عنهُ المباحث الدائرة حول موضوع التحويل في شتى المعاهد العلمية ، من توسيع نطاق المعرفة بتركيب المادة على صحته . وهذا قد يكون في آخر الامر سبيلنا — في حياتنا او بعدها — الى تناول جسيمات المادة الاساسية وصنع ما نريد منها

وتحويل العناصر يقوم في اسلوب العلم الحديث على احداث تحويل في نواة الذرّة . فكل ذرّة على ما تعلم ، قوامها نواة مركزية موجبة الشحنة ، تحيط بها كهيربات (الكترونات) سالبتها ومجموع شحنات الكهيربات مساوٍ لشحنات النواة فتبطل هذه فعل تلك فتتعادل كهربائية الذرة . ولا يخفى ان الجانب الاكبر من كتلة الذرّة مركّز في النواة والنسبة بين كتلة الكهيرب وكتلة البروتون (وهو نواة اخف الذرّات) كنسبة ١ الى ١٨٠٠ . فتحويل ذرّة عنصر من شكل الى آخر يقتضي احداث تغيير في نواة الذرّة . وليس هذا بالعمل الهيّن . وذلك اولاً لان النواة صغيرة الحجم جداً فيصعب أن تصيبها بقذيفة ما . ثم ان الجسيمات التي تتكون منها النواة مترابطة ترابطاً وثيقاً جداً بقوى كهربائية عظيمة حتى لتجد ان فصْلها بعضها عن بعض من اشقّ الامور . فاذا كان قطر نواة الذرة جزءاً من عشرة آلاف جزء من قطر الذرة نفسها ، فساحة مقطوع النواة لا تزيد على جزء من مائة مليون جزء من مساحة الذرة ، فاذا اطلقنا على الذرة قذيفةً ما بغية ان تصيب النواة كان احتمال النجاح واحداً على مائة مليون

ولذلك نُضيع سدى الجانب الاكبر من القذائف التي نطلقها بغية أن نصيب بها النواة .

ولنفرض اننا اطلقنا قذيفة وهي نواة الايدروجين (اى بروتون) — على هدف من مادة معيّنة بقوة مليون فولط ، فانها تقبل على هذا الهدف بقوتها هذه فتخترق الطبقة الاولى من كهرباتها فاذا اتفق واصابت في هذه الطبقة نواة، فبها ، والاّ فانها تخترق هذه الطبقة الى مايليها وقد خسرت من قوة اندفاعها ، بما اخذتهُ منها الكهيربات التي اخترقت منطقتها ، وهكذا ، حتى اذا اصابت نواة في الطبقة العاشرة فانها تصيبها وقد فقدت جانباً كبيراً من قوتها فلا تكون الاصابة فعالة . فاذا لم تصبها ومضت في سبيلها على هذا المنوال تبقى سائرة حتى تفقد قوتها وتستقر . وما زال العلماء عاجزين عن ابتداع وسيلة تمكنهم من تسديد القذائف حتى تكثر النوى التي يصيبونها بها وعلى ذلك فمعظم الطاقة التي تستنفد في اطلاق القذائف بقوة عظيمة لاحداث التحويل ، يضيع هباء . ولذلك يعتقد علماء الطبيعة ان هذه الطريقة لن تفضي الى مصدر جديد من مصادر الطاقة مع ان الطاقة الكامنة في الذرات عظيمة جدًّا . الاّ ان هذا لا يعني انّ بحث طبيعة النواة لا يفيد فالمواد الجديدة التي تولد بهذا الاسلوب تستعمل كثيراً في البحث الطبي والبيولوجي

فلننظر الآن مايحدث في النواة عند ما تصيبها القذيفة ، لعلنا نستطيع ان نتبين السرّ في اقبال طوائف من العلماء على هذا النوع من البحث . ولكي نستوضح مايحدث يجب ان نتذكر انّ النواة قوامها نوعان من الدقائق او الجسيمات هما البروتونات والنوترونات . فالبروتون موجب الشحنة والنوترون متعادلها او هو محايد من الناحية الكهربائية . وقدر الشحنة الموجبة على البروتون مساوٍ لقدر الشحنة السالبة على الالكترون مع أنّ كتلة الاول تفوق كتلة الثاني نحو ١٨٠٠ ضعف . واذن فالشحنة الكهربائية العامة للنواة ، موجبة وهي مجموعة شحنات البروتونات التي فيها . اما كتلة النواة فهي مجموع كتل البروتونات والنوترونات التي تتألف منها

هذا في مايتعلق بالذرة . اما القذيفة فعلى انواع . منها الاشعة الجمية Gamma او الاشعة السينية العالية التردد القصيرة الامواج ، ثم البروتونات التي تكتسب زخماً عظيماً وطاقة كبيرة بواسطة احد الاجهزة الخاصة بذلك . ثم الدوتونات وهي نوى ذرات الايدروجين الثقيل ويمكن الحصول عليها واكسابها الطاقة والزخم بالطريقة المتقدمة . ومثلها جسيمات الفا . اما النوترونات فيحصل عليها الباحثون في التفاعلات التي تطلق فيها احدى القذائف المتقدمة على اهداف من مواد معينة فتؤثر فيها تأثيراً من شأنه اطلاق نوترونات فيزاد زخمها وتستعمل بدورها قذائف في هذا النوع من البحث . اما الكهيربات (الالكترونات) فيظهر انها لا تصلح قذائف من هذا القبيل

الاشعة الجميّة أقل هذه القذائف فعلاً في احداث التغيير المبتغى . ويصدق هذا القول بوجه خاص لان مصادر الاشعة الجمية القوية نادرة . الاّ ان تأثيرها شبيه بتأثير الضوء عند وقوعه على بصاصة (خلية ضوئية كهربائية) أي ان الاشعة الجمية تقذف من النواة التي تمتصها

او تتأثر بها نوترونا على نحو ما يقذف الضوء الكترونا من البوتاسيوم الذي في البصاصة . فاستعمال الاشعة الجمية ذو شأن نظري من حيث دراسة النواة ، ولكنها لن تكون ذات شأن في صنع المواد المتصفة بالنشاط الاشعاعي الصناعي Artificial-radio-activity

وأما النوترونات فمن القذائف التي تسترعي العناية لانها لا تحمل شحنة كهربائية ولذلك فلا تدفعها النواة الموجبة الشحنة عندما تقترب منها واذن فلا يلزم النوترونات ان تصيب المادة التي تسدد بها بقوة عظيمة نسبيًّا حتى تخترق طبقات الالكترونات الى النواة . فالنوترون المطلق بقوة يسيرة — نسبيًّا — يستطيع ان يسير الى النواة فتعتقله ويشأ عن ذلك تفاعل يفضي الى تغيير النواة اما وقد ارتقت الاجهزة لتوليد النوترونات وقذفها ، فمن المحتمل ان تغدو هذه الطريقة لتوليد المواد المشعة اشعاعاً صناعيًّا ذات شأن عظيم في المستقبل . والسهولة التي يمكن بها اجتذاب النوترون الى النواة ولو كان سائراً سيراً بطيئاً ، يفسر انتفاء وجودها حرة في الطبيعة . فاذا اطلقت النوترونات حرة بوسيلة من الوسائل ، فأنها تخترق المادة ولا تلبث حتى تجتذبها نواة

والفضل في فهم مايحدث في النواة عند ما تصيبها احدى هذه القذائف يعود الى العالم الدنماركي نيلز بور Bohr صاحب الفضل ايضاً في فهم بناء المنطقة الخارجية في الذرة وهي المنطقة التي قوامها الكهيربات (الالكترونات) . فهو يذهب الى أن الدقائق التي تتألف منها النواة تجذب بعضها بعضاً بقوة حتى اذا دخلت قذيفة ما النواة ، تقسمت هذه الدقائق طاقة القذيفة ، فتؤسر القذيفة ، لانهُ لايوجد في هذه الحالة دقيقة واحدة تفوق طاقتها طاقة زميلاتها فلا تستطيع أن تفلت من الأسر . وينشأ عن ذلك نواة قوامها جميع الدقائق التي كانت فيها وكذلك القذيفة . ولكنها تختلف عن النواة العادية ، في انها تحتوي على مقدار من الطاقة اكثر مما تحتوي عليه النواة المستقرة البناء . وهذه الطاقة هي طاقة حركة موزعة على دقائق النواة . ثم بعد قليل ، (وبسلسلة من الحوادث لا يمكن حسبانها الآن) تفوز احدهذه الدقائق بمقدار من الطاقة يفوق مقدار اخواتها ، فتفلت من جذبها وتقذف الى الخارج

فاذا كانت الذرة التي اصيبت ، والقذيفة ، والدقيقة التي تنطلق ، مما يجعل الذرة المتبقية مستقرة البناء ، فالتغير ينتهي عند هذا الحدّ اي ان الذرة تحولت الى ذرة اخرى . ولكن اذا كانت النواة المتبقية غير مستقرَّة البناء ، فانها لا تلبث بعد ايام او بعد ساعات ، حتى تحاول الوصول الى الاستقرار ، فتطلق كهيرباً سالباً او كهيرباً موجباً (بوزيترون)

وقد تقدَّم البحث في هذه الناحية تقدماً سريعاً في بضع السنوات الاخيرة ، حتى لقد غدا في وسع العلماء ان يذكروا مئات من الحوادث تتغيَّر فيها ذرات مادة واحدة تغيراً يتباين بتباين القذائف التي تسدَّد اليها . والعناية الآن متجهة خاصةً الى دراسة تفصيلات الافعال التي تقع عند حدوث التحوُّل

والآن نضرب للقارىء امثلة على التفاعلات التي تدلُّ على تحوُّل ذرّة الى اخرى مفرغة في قالب المعادلات الرمزية المعتمدة بين العلماء. فالطريقة المتّبعة هي ان يستعمل الرمز الكيمياوي للعنصر ويوضع قبله من اسفل رقم يدلُّ على عدد البروتونات في نواة ذرة ذلك العنصر ثم بعد رمز الذرة من فوق رقم يدلُّ على مجموع عدد البروتونات والنوترونات في النواة

***

فالبريليوم يرمز اليهِ بالحرفين (بر) . فيظهر في هذه المعادلات الخاصة بتحويل العناصر $_{٤}\text{بر}^{٩}$ فالرمز (بر) هنا يراد بهِ نواة ذرّة البريليوم . والرقم ٤ يدل على عدد البروتونات في هذه النواة . والرقم ٩ يدل على مجموع عدد البروتونات والنوترونات اي ان النوترونات ٥ وعلى ذلك يمكن افراغ التحوُّلات في نوى الذرّات في قوالب معادلات . خذ مثلاً على ذلك المثل التالي : —

$$_{٤}\text{بر}^{٩} + {}_{٢}\text{هل}^{٤} \rightarrow {}_{٦}\text{كر}^{١٣} \rightarrow {}_{٦}\text{كر}^{١٢} + {}_{٠}\text{نو}^{١}$$

ما معنى هذه المعادلة ؟ نواة البريليوم يطلق عليها نوى الهليوم بعد اسراعها (والهليوم مدلول عليهِ هنا بالرمز «هل» قبلهُ ٢ أي في نواته بروتونان وبعدهُ ٤ اي في نواته بروتونان ونوترونان) فيقع التحوُّل فينشأ عنهُ ذرّة كربون ، بروتونات نواتها ٦ ومجموع بروتوناتها ونتروناتها ١٣ ثم تتحوّل ذرّة الكربون هذه — وهي غير مستقرّة في الطبيعة — الى ذرّة نوع آخر من الكربون في نواتها ٦ بروتونات و٦ نوترونات وذلك باطلاق نوترون واحد

***

والمعادلة التالية تبين كيف تتحوَّل مادة غير مشعة الى مادة مشعة

$$_{١٥}\text{فو}^{٣١} + {}_{٠}\text{نو}^{١} \rightarrow {}_{١٣}\text{لو}^{٢٨} + {}_{٢}\text{هل}^{٤}$$

فهنا نواة ذرة فصفور أُطلق عليها نوترون فتحولت الى نواة ذرة ألومنيوم ونواة هليوم. هذا الضرب من الالومنيوم مشع لانهُ غير مستقرّ (الالومنيوم العادي رمزه $_{١٣}\text{لو}^{٢٧}$) فتنحلّ نواتهُ فيتحول احد نوتروناتهِ الى بروتون وكهيرب ينطلق منها. والتحول من الالومنيوم المشعّ الى الالومنيوم العادي سريع الحدوث بحيث لا يكون مدى حياة الالومنيوم المشع اكثر من ١٢٧ ثانية

هذا النوع من الالومنيوم المشع يمكن الفوز بهِ بأسلوب آخر وذلك باطلاق النوترونات على الالومنيوم العادي فتكون معادلة التحول كما يلي $_{١٣}\text{لو}^{٢٧} + {}_{٠}\text{نو}^{١} \rightarrow {}_{١٣}\text{لو}^{٢٨}$

فالالومنيوم المشع المولد بهذه الطريقة ينحل كما ينحل الالومنيوم المشع المتولد من اطلاق النوترون على الفصفور

البحث الاول

خليل مطران

شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الاسلامية

النقد الادبي والشعر والشعراء

(توطئة) الشاعر هو ذلك الانسان الذي يستوعب الحياة في الاشياء ملء نفسه ويفيض بها من شعوره ووجدانه فتخرج نابضة بأسرار الحياة الروحية. ورسالة الشاعر — ان كان ثمة رسالة له — لا تخرج عن التعبير عن الحياة في سرّها الروحي ، ومن هنا لا يختلف الشاعر في رسالته عن رسالة الفنان مصوراً كان او نحاتاً او موسيقياً ولذا — نرى عن حق — ان الشعر غاية في ذاته ، لانهُ يتضمن اغراضه في نفسه ، من حيث هو شعور يخالط الحياة فيجيء منها

ولما كان الشعر تجربة الدنيا تملي على الشاعر صوراً من الحياة ، فهذه الصور من حيث تخالط شعور الشاعر وتجيء من وجدانه ، فانها تجعل اغراض الشعر منتهية عند حدّ التعبير عما في الوجدان من معاني الحياة وصورها التي خالطته

هذا ... ولما كانت الحياة تأخذ صوراً مختلفة في نفوس الشعراء ، متكافئة وأمزجتهم الخاصة ، فان الشعر يبدو للوهلة الاولى وكأنهُ خاضع لاغراض خارجة عنهُ ، والواقع ان هذه الاغراض مسبغة على الاتجاه الشعري من مزاج الشاعر الخاص ، لذا كانت مخالطة وجدان الشاعر للحياة تسبغ على الحياة صوراً فتظهر نظام الاشياء الروحي في متناقضات مظاهرها الخارجية ، غير أن هذه الصور باتجاهاتها لا تحد من الشعر من حيث هو فيض الوجدان ، وانما تلوّن الموضوع الذي يخالطهُ الوجدان بلون خاص ، نتيجة للتكافؤ القائم بين مزاج الشاعر والحياة التي تبدو في طيات ذاته

من هنا لنا ان نحدّد وجهة نظرنا الى موضوع الشعر والشعراء . فالشاعر انسان لا يعنى بالجمال الاّ قدر ما هو منبث في تضاعيف الحياة التي تبدو معكوسة في اطار ذاته ، وهو الى هذا لا يعنى بابراز اللذة والالم في شعره الاّ بالمقدار الذي يخالط شعوره منها . وهو لا يعالج مشكلة ولا

موضوعاً ، ولا يتقيد بشيء غير الحياة نفسها كما جاءت مخالطة وجدانه . وعمق استيعاب الشاعر للحياة ومنحى ابرازه وعرضه لمشاعره واحساساته تحدّد معنا قيمة شعر الشاعر من الشاعرية الصحيحة

ولما كان الشاعر يقيم كل ما له من الشاعرية على شيئين : الاول عمق مخالطة وجدانه للحياة والثاني منحى عرضه الاحساسات والمشاعر التي يخلص بها من هذه المخالطة فان شاعريته تتأثر باوضاع المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية من حيث تؤثر في مزاجه وبالتالي في مخالطته فتأتي شاعريته ذات نمط يكافىء ما في المحيط الطبيعي من عوامل وما يكتنفهُ في بيئتهِ الاجتماعية من مؤثرات تنحو بعقليته وتأثره بالاشياء منحىً خاصًّا

ولما كان الشاعر يستوعب الحياة عن طريق وجدانه ، فانسحاب ذاتية الشاعر على الحياة، ويجيء شعره من مخالطة وجدانه لها ، تستمد خطوطها من نفس الشاعر وطبيعته ، وبلغة أخرى لما كان الشعر — من حيث الموضوع — قطعة من الحياة يعرضها لنا الشاعر من خلال مزاجه الخاص ، وهو بما أوتي من مقدرة على الابراز والعرض يقدر على اثارة احساساتنا ومشاعرنا وينقلنا الى الجو الذي خلقهُ في شعره فنشعر وكأنّنا نحيا فيهِ ونتحرك . فالعرض عنده يستمد خطوطه من طبيعة مزاجه وذاتيته التي تأثرت بأوضاع المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية . فمن هنا لنا ان نعتبر الشعر مظهراً نفسيًّا يدل على وجه تفهم الحياة والاحساس بها

وطبيعة الشاعر أظهر ما تكون في تأثرها بأحكام البيئة الاجتماعية والمحيط الطبيعي في منحى انسحابها على صفحة الحياة ووجه عرضها من خلال مزاجها الخاص قطعاً من الحياة . بيان ذلك ان الاوضاع التى تقيد الانسان في نظره للعالم تقيد انسحابه على الحياة بأشكال وأنماط . فالذهن الانساني في غرارتهِ الاولى كان مدفوعاً بعجزه عن الافصاح عن تفهُّم المظاهر الطبيعية وصور الحياة الى خلع احساساته البشرية على الطبيعة وتضمينها فيها وتشخيصها. مثال ذلك شعراء اغريقية الاقدمين ، ولهذا جاء شعرهم اسطوريًّا . فلما كدّ الذهن مستنبطاً أوضاع الحياة، شغل الانسان بالعوالم المحسوسة وصارت خلجات النفس تصدر مصوغة في قوالب فكانت (كلاسيكية) الادب والفن . ومن هنا لنا ان نعرف المذهب «الاتباعي» في الشعر بأنهُ صوغ خلجات الشعور والنفس في قوالب من فعل العقل المحض وعمل الذهن الصرف (١). غير ان الاغراق في استنباط أوضاع العالم المحسوس ووضع صيغه واستخراج قيمه اقام ثورة ضد المذهب (الاتباعي) تمثّلت في الحركة (الرومانسية) التي عملت على تحطيم القوالب والصيغ (الكلاسيكية)

ولما كانت الحركة (الرومانسية) ردّ فعل للاتجاه (الكلاسيكي) ، فقد قامت على تغليب ماوراء

---

(١) ابن خلدون في المقدمة فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول الشعر صناعة وسبيل هذه الصناعة كثرة مطالعة دواوين الشعراء فيحصل مع كثرة القراءة والمرانة على اساليب صوغ الشعر قالب من التراكيب يتركز في ذهن الشاعر فيفرغ فيه صور ما ينظم من الشعر وهذا القالب كالمنوال الذي ينسج عليه

المحسوس على المحسوس ، ومن هنا جاء ارسال الخلجات النفسية المترعة من القلب في النزعة (الرومانسية) ومن هنا كانت الرومانسية حركة « ابداعية » في تاريخ الفن والأدب

غير انهُ نتيجة للاغراق في تغليب المشاعر وما وراء الحس على العقل والعالم المحسوس من جهة ولا كمال الدعوة العقلية في الغرب من جهة أخرى ، استنبط الفكر متأثراً بالعقل (واقعية) الأدب . فكان النقل المجرد عن الطبيعة في المحسوس والمدى الظاهر من الاشياء . غير ان طغيان عالم الحس على عالم ماوراء الحس لم يقض عليها ، فكانت لها يقظة في العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر تمثلت في الحركة (الرمزية) التي هي مظهر مكتمل من الحالة الاسطورية . فكأن الاتجاهات الأدبية في الشعر مقيدة بالاوضاع التي اخذتها الحياة الانسانية في اطوارها المختلفة

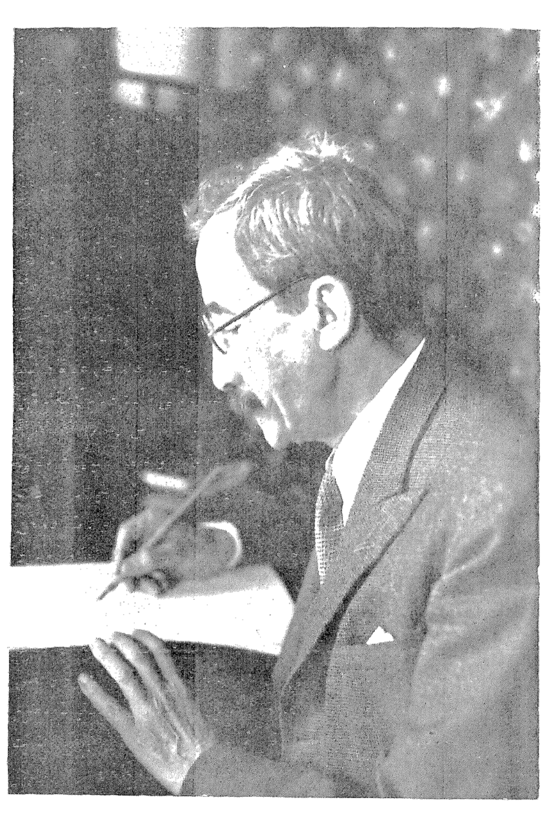
اما الشعر نفسه فيعلو عن التقيد بالاوضاع من حيث هو فيض الوجدان والشعور . وان كانت الأوضاع تبدو مع الشعر فائضة من وجدان الشاعر

— ١ —

لما كان الشعر من حيث هو فيض الشعور والوجدان نتيجة اهتزاز اوتار النفس البشرية أمام الحياة الكامنة في الاشياء ، فانه على قدر الاهتزاز وقوته يكون مقدار عمق الشاعرية في الشعر ، ذلك ان الهزة التي تستولي على نفس الشاعر كلما كانت قوية تكشفت اسرار الحياة ومعانيها لوجدان الشاعر في حقيقتها . فتجعل الشاعر قادراً على النفوذ ، عن طريق وجدانه الى ما وراء المظاهر الخارجية للأشياء ، ومن هنا يمكن ان يقال ان الطبيعة تلقي جانباً من معانيها الخالدة لنفس الشاعر في اهتزازات أوتار نفسه أمامها . فالشاعر أشبهُ بآلة موسيقية أمام الطبيعة . والطبيعة كالانامل التي توقع عليها ، والأنغام التي تخرجها الآلة أشبهُ ما تكون بالشعر الذي يفيض به وجدان الشاعر

غير انهُ من المهم ان نضع موضع النظر حقيقة كون الحياة في الاشياء مرتبطة بالنسبة الينا مع العمل . و لما كان العمل يتعلق بالجانب الكمي من الحياة ، فاننا نجد ان حياتنا العملية تتعلق بالأشكال الخارجية للحياة . اما الحياة نفسها في حقيقتها فتعلو عن تناول تجاربنا اليومية [1] والشاعر من حيث هو صاحب فنّ هو ذلك الانسان الذي ينفذ بوجدانه وبصيرته الى ما وراء الاشكال الخارجية للحياة مصروفاً عن العمل بالتعلق ملء نفسه بالحياة في اعماق الاشياء . غير ان الحياة لا تؤاتي الشاعر بأكثر من هزات تصلهُ بجانب من جوانب الحياة الداخلية للأشياء رافعة جانباً من الوشاح الذي بين الشاعر وبين الحياة الداخلية للأشياء فيفيض الشاعر من وجدانه

(١) هنري برجسون في كتابه رسالة الشواهد المباشرة للشعور . باريس ١٨٨٩ . وفيها يقول ان ما اعرفه من نفسي ليس الا ما يتجلى للنظر أي ما يشترك في العمل . واذاً فان حواسي ووجداني لا تكشف لي الا عن ناحية موجزة من نواحي الحقيقة العملية للاشياء



خليل مطران بك

[تصوير الدكتور أحمد موسى]

بخلجات طالما ترددت في اعماق نفسه القصية كلحن موسيقي . غير انَّ هذه الخلجات في خروجها من العالم المضمر في نفس الشاعر الى العالم الخارجي ، تستعير الانغام لتبدو لحناً كلاميًّا ملحوظاً

من هنا لنا ان نعتبر الوزن والقافية في الشعر اشياء ان لم تتصل بروح الشعر فانها هي كل مظهرها الخارجي ، ومن هنا يصح قولنا ان التعبير عن الشاعرية هو كل اغراض الشاعر . ذلك ان الشاعرية تستعين بالاوزان او القوافي او مايقوم مقامها لتخرج الى العالم الظاهر متميزة بنبرات يتميز بها الشعر عن بقية ضروب الكلام . فالشاعر حين يستعير الاوزان او القوافي او ما يقوم مقامها فهو يستعين بها ليؤلف وحدة موسيقية يتمكن ان يصب فيها الخلجات التي تتردد في وجدانه ، وهو حين يصب هذه الخلجات في الالفاظ فانها تتصاعد فتكون وحدة لا يمكن ان تفصل الالفاظ فيها عن الشعور ، والشاعر في ذلك كالموسيقي ، « وكما أنهُ لا يوجد في الموسيقى أنغام في جانب ومعانٍ يعبر عنها بهذه الانغام في جانب آخر ، بل يوجد هناك فقط صوت تعبيري » (١) كذلك في الشعر لا يوجد ألفاظ وحدها ومعانٍ وحدها ، انما يوجد ألفاظ تعبيرية عما في وجدان الشاعر ، هي مظهر الشاعرية والشعور نفسه

ولما كان الشعر يفيض من وجدان الشاعر متخذاً لنفسه القالب اللفظي الدال عليه ، فان الجو الذي في نفس الشاعر يتخذ الالفاظ التي تخلق بذاتها في عالم الشعر نفس الجو الذي يحس به الشاعر في عالمه الداخلي مجرداً . وعن طريق هذا الجو الذي يخلقهُ الشاعر من الالفاظ في شعره ننتقل الى الجوّ الذي كان هو فيه ، فنشعر وكأُننا نحيا فيه معهُ ونتحرك

والشاعر حين يستعين بأصوات الكلام ليؤلف الوحدة الموسيقية الدالة على المعنى ، انما يعتمد على انتظام اصوات الالفاظ وتلازم نبراتها ، وانشاد الشاعر لشعره وطريقة انشاده تظهر لك حقيقة هذه الموسيقية التي تخلق الجو الشعري فنشعر بروح الشعر في القصيد

— ٢ —

تفيض شاعرية الشاعر من وجدانه متخذة من الكلام شكلاً تظهر فيه من العالم المضمر الى عالم الاشكال ، والاتساق في الشاعرية يحمّل الشكل اتساقاً يوحي بالجو الذي اضطربت فيه الشاعرية ، من هنا يمكننا ان نتكلم في الشعر : عن الشاعرية التي تجتاح الوجدان وتضطرب في نفس الشاعر حتى تفيضها ، وعن الشكل الذي اتخذته الشاعرية لتظهر ، وعن الجو الذي تخلقهُ الشاعرية باتساقها في الشكل . على اعتبار ان جميع هذه الاشياء تنصهر في بوتقة واحدة لينبعث منها شيء واحد — ذلك الذي نسميه شعراً

(١) برادلي في محاضرته « الشعر للشعر » ، ألقيت في الخامس من يونيـة سنة ١٩٠١ بجامعة اكسفورد وينظر تلخيص عربي لهـا من قلم الدكتور احمد زكي ابو شادي في كتابه « قطرة من يراع في الادب والاجتماع » القاهرة ١٩٢٧ ج ٢ ص ١٠ — ٣٣ وعلى وجه خاص ص ٢٠ — ٢١

ومن المهم ان نقول ان هذه الاشياء ان كانت تنصهر في بوتقة واحدة لتخلق ذلك الشيء الذي نسميه الشعر ، فانها كـكلٍّ تقابل الموضوع الذي تدور حول الشاعرية ،وتستنزل منهُ اخيلتها الشعرية ومجازاتها التعبيرية . إذاً فيجب ألاّ نبحث عن موضوع الشعر في نفس قطعة الشعر، ذلك ان الموضوع خارج عن الشعر . غير انهُ من جهة اخرى يقابله ، ذلك من حيث كون الشعر شعوراً اتخذ شكلاً وجوًّا تعبيريًّا خاصًّا ليظهر فيه . فمثلاً موضوع « الممات » الذي اتخذه حامد شاعر الترك الاعظم موضوعاً يستنزل منهُ أخيلته ويستمد منهُ تأملاته الشعرية في رثائهِ لزوجته الشابة فاطمة شيء والمقبرة التي شيدها حامد شعراً من العواطف والمشاعر والتأملات شيء آخر ، ذلك ان الشعر شيء يتصل بنفس الشاعر وفيض وجدانه ومنحى تعبيراته،والموضوع شيء يتصل بنفس الشاعر من حيث تغشاه الشاعرية وتنسحب عليهِ مستنزلة أخيلتها ومجازاتها التعبيرية . واذاً تكون الصلة بين موضوع الشعر والشعر نفسه مرتبطة باستنزال الشاعرية من الموضوع مادة الشعر

ويجب ان نضع موضع النظر هنا هذه المسألة : المادة والشكل من جهة والموضوع من جهة اخرى . ولا يمكن ان يتخذ الموضوع قاعدة للبحث في الشاعرية وطاقتها الاّ من ناحية واحدة تتصل بالمدى الذي تسمح بهِ للتواردات الشعرية.فمثلاً موضوع « الممات » يحمل الذهن الى عالم ما وراء المنظور رابطاً بهِ العالم المنظور ويسمح بتواردات شعرية تنقل الذهن الى عوالم الشهادة والغيب . اما موضوع « الكروان » مثلاً فان تواردات الشعرية وان كانت تحسب شيئاً غير قليل الاَّ انها في مداها لا تقاس بالمدى الذي يعطيه لنفس الشاعر موضوع « الحياة » او « الممات » . فنحن ان امكن لنا ان ندخل في مقارنة جيته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) شاعر الالمان الفيلسوف الذي اتخذ الحياة موضوعاً لدراماته الشعرية وبين عبد الحق حامد (١٨٥١ — ١٩٣٧) شاعر الترك الفيلسوف الذي اتخذ الممات موضوعاً ، فان الموضوع من حيث هو متكافىء مع الآخر في مداه الشعري ، ومن حيث يحتوي على الآخر يسمح بمثل هذه المقارنة

ومع هذا يجب ألاَّ ننسى ان الشاعرية من حيث تتصل بسر الاشياء الروحي ومنها تتخذ لنفسها الموضوع الذي تستنزل منهُ اخيلتها الشعرية وتعبيراتها المجازية،يمكنها ان تلج من الموضوعات المحدودة ظاهريًّا الحياة كلها عن طريق رفعها الستر القائم بين الموضوع المحدود في عالم الاشكال وبين الحياة نفسها . مثال ذلك ان طائر الكروان موضوع محدود ظاهريًّا ، لكن الشاعرية النافذة حين تنسحب عليه يمكنها ان تنفذ من عنصر الحياة القائم فيهِ الى الحياة العامة . ذلك من حيث تتخذ الحياة الكروان شكلاً من الاشكال تبدو فيها

من هنا يجب ان نكون على شيء غير يسير من الحيطة في اتخاذ موضوع الشعر اساساً للنظر في الشاعرية ومداها وقيمتها ، ذلك ان الشاعرية تبدو بكل معانيها في القطعة الشعرية ،من حيث

تصب الشاعرية فيها معانيها المستنزلة من الموضوع الذي تنسحب عليه . وهكذا يتبين معنا معنى كون الشاعرية تبدو في منحى انسحاب الشاعر على الحياة

وهنالك بضعة نماذج فردية قوية في تاريخ الشعر العربي تتميز بمنحى خاص في انسحاب شاعريتها على مواضيع الحياة ، وهذه النماذج يمكن ان تردها الى ثلاثة نماذج تعود لطبائع الشعوب وعقلياتها وامزجتها من حيث تفاعلت فكانت من تفاعلها عقلية المدنية الاسلامية ومزاجها . هذه النماذج الثلاثة هي : النموذج المصري والنموذج العربي والنموذج اليوناني . ولكل من هذه النماذج أثر في تكييف اتجاه الشعر العربي في مصر في هذا الجيل

اما النموذج العربي فتبدو منهُ الحياة — كما يقول الرافعي — « كأنها قطع مبتورة من الكون داخلة في الحدود لابسة الثياب . ومن ذلك تجد الشاعر العربي يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود . فلا تجد في طبعه قوة الاحاطة والتبسطُ والشمول والتدقيق ولا تؤاتيه طبيعته ان يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فاذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه واذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره واذا نفسه تمر على الكون مرًّا سريعاً واذا شعرهُ مقطع قطعاً واذا آلامه وافراحه أوصاف لا شعور وكلمات لا حقائق وظل طامس ماقي على الارض اذا قابلتهُ بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض[1] » وسر هذا كما يقول برجسون[2] « اتصال نفس العربي بتبسطها الظاهر . فهو لا يدرك من مشاعره غير مظهرها الغريب عنهُ ، والذي حدد اللفظ معناه كليةً لانهُ يكاد يكون متشابهاً دائماً ، وظروفه تكاد تكون واحدة عند جميع الناس وهكذا فان الفردية تغيب عن العربي حتى في شخصه[3] »

أما النموذج المصري ، فالحياة تبدو — كما يقول توفيق الحكيم —[4] عند الفنان المصري « فكرة مجردة » مستقلة عن شكلها ، وهي من هنا تتميز بأنها من أغمض النماذج الفنية التي عرفها تاريخ الفن الانساني . وهي تقاطب النموذج العربي الذي يقف عند حدّ الشكل من حيث تقف عند حدّ القوانين المستترة التي تسيطر على الاشكال » . من هنا تجد الشاعر المصرى يقع على

(١) المقتطف م ٨١ ج ٤ (نوفمبر) ١٩٣٢ ص ٣٨٥—٣٩٧ وعلى وجه خاص ص ٣٨٩ ، ويمكنك ان تقابل هذا الكلام بما جاء في كتاب « تحت شمس الفكر » لتوفيق الحكيم ص ٦٤ حيث يقول : « الادب نثر وشعر عند العرب ، لا يقوم على البناء فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، انما هو وشي مرصع جميل يلذ الحس فسيفساء اللفظ والمعنى ، و « آرابسك » العبارات والجمل ، كل مقامة للحريري كأنها باب للجامع المؤيد ، تقطيع هندسي بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب

(٢) هنري برجسون في الفن ومذاهبه عند الامم ، باريس ١٩٣٣ ص ٣٣—٣٤

(٣) الفردية التي يتكلم عنها برجسون هنا تعني فردية الاشياء التى تعود لصنف واحد او نوع واحد

(٤) تحت شمس الفكر ، ص ٥٥—٧٦

المعاني المستترة للاشياء ، لكن طبيعته الخفية لا تؤاتيه القدرة على ربط هذه المعاني المستترة بما تتخذ من أشكال لها في العالم الظاهر . ذلك ان الطبيعة المصرية تدور مع الحياة في تبسطها الداخلي ، ومن هنا لا يدرك المصري من مشاعره الا معانيها الخفية ، وهذا الاغراق في معاني الاشياء الخفية وقوانينها المستترة أبعدت بين المصري والحياة في أشكالها الخارجية ، واظهر ما تكون هذه الحقيقة في الفن الفرعوني القديم (١)

أما النموذج اليوناني فتبدو الحياة — كما يقول فردريك نيتشه — (٢) من مزاجه مرتبطة « هندستها المنظورة بقوانينها المستترة » . من هنا تجد الشاعر الاغريقي يعمد الى المعنى المحدود فيحطم حدوده ويصله بتيار المعاني في عالم المشاعر والاحساسات، وهكذا ينتهي الى العالم المضمر وهو في هذا أشمل نظراً من العربي الذي يقف عند أشكال الاشياء. ومن المصري الذي يقف عند المضمر من الاشياء فالشاعر اليوناني لا يقف عند الظاهر لانهُ ينسحب على الباطن

— ٣ —

الباطن في جانب مصر والظاهر في جانب العرب ، والاثنان يدور حولها المزاج اليوناني ليخلص بالتناسق الذي يربط هندسة الاشياء المنظورة بقوانينها المستترة. وهذه الامزجة الثلاث تجدها قائمة في عالم الشعر العربي ، وخليل مطران يمثل ثالثها . وبعد ذلك فعندنا المادة والتعبير والجو الشعري في الشعر مما يتأثر بالمزاج الشخصي للشاعر

اما المادة في الشعر فهي الاخيلة والمعاني والتأملات والصور والعواطف والاحساسات والمشاعر ، مما تعمد الشاعرية الى استنزالها من الموضوع عن طريق غشيانها والانسحاب عليها . ومن هنا نجد ان مادة الشعر ملك خاص للشاعر يمنحاها الذي يتصل بوجه استنزالها (٣) . بيان ذلك ان التأملات والمعاني والاخيلة والصور والاختلاجات التي تجدها في « المقبرة » (٤) التي شيدها من الشعر الخالص شاعر الترك الاعظم عبد الحق حامد ملك شخصي له، لا ينازعه فيها أحد لان مزاجه الشعري وحده هو الذي استنزلها (٥) كذلك مادة القصيدة القصصية « الجنين الشهيد (٦) » لخليل مطران شاعر العربية الابداعي من الاخيلة والتأملات والمعاني الشعرية ملكه الشخصي

(١) ڤون بيسنج Von Bissing في Denkmaler Agyptien sculptien في مجلدين ، م ١ ص ٢٧ وما بعد وخاصة الملخص الاخير (٢) مولد المأساة من روح الموسيقى ، ١٨٨٢ ص ١٣ وما بعده

(٣) Addison في نقده للفردوس المفقود (٤) المقبرة ديوان من الشعر الرثائي تبلغ أبياتها نحو الف ومائتي بيت كتبها عبد الحق حامد أعظم شعراء الترك في رثاء زوجته ، وتعتبر من أروع الشعر الرثائي الذي عرفه تاريخ الامم ، وهذا الديوان لا يخرج عن كونه مقبرة شيدها الشاعر لزوجته المتوفاة ، ولكنها مشيدة من التأملات والاخيلة والخلجات والعواطف الشعرية (٥) أنظر لنا دراسة وتحليل عن عبد الحق حامد الشاعر الاعظم، حلب ١٩٣٧ ص ٢٢ — ٢٣ وكذا ص ٣٥ — ٣٩ (٦) أنظر ديوان الخليل ص ١٩٩ وما بعده

لانهُ وحده الذي استنزلها من الموضوع لصحة وجدانه ثم فاض بها شعراً من الوجدان . فاذا كان هذا هو مادة الشعر في الشعر فالشكل من حيث يتصل بالتعبير كله يقابل المادة من جهة ، ويتصل بهِ عن طريق ابرازه له من جهة اخرى

ومن المهم ان نقول ان مادة الشعر خاضعة لمزاج الشاعر فان من الامزجة ما تعلق بالالوان والاشكال ، ونظراً لكونها تحب الالوان لمجرد الالوان والاشكال لمجرد الاشكال ، فانها تستنزل لصفحة وجدانها أشكال الاشياء وألوانها اطيافاً وظلالاً ونوراً . ومن الامزجة ما تحب ان تنطوي على نفسها وتقف جهدها على التعلق بالخلجات المنتزعة من الشعور فلا تعرف غير عوالم النفس والاحساس ولهذا نجد مادة شعرها خلجات مرسلة من الشعور والوجدان . كما ان هنالك من الامزجة ما يعلق بمعاني الاشياء وروحها الداخلية ، فترى الحياة الداخلية للاشياء تضطرب من خلال تعبيراتها في شعرها . وهكذا اختلفت مواد الشعر من شاعر لآخر باختلاف أمزجة الشعراء

ولما كانت مادة الشعر لا يمكن ان توجد منفصلة عن شكل خارجي لانهُ لا يوجد مادة بلا شكل مصور ، فان مادة الشعر حتماً يتبعها تعبيرها الخاص الدال عليها المستنزل من مقدرة الشاعر التعبيرية . الاَّ انهُ من الممكن الى حدٍّ ، النظر في مادة الشعر مجردة عن التعبير الذي تأخذه ذلك من وجهة التجربة الشعرية ، أعني من وجه استنزال الشاعرية مادة الشعر الى صفحة الوجدان من الموضوع الذي تغشاه الشاعرية وتنسحب عليه . فمثلاً موضوع «زهرة الفول» الذي نظم فيهِ الرافعي قطعة من الشعر ، الاخيلة والصور الشعرية التي استنزلها الى صفحة وجدانه عن طريق غشيان شاعريته موضوع زهرة الفول يمكن دراستها مجردة الى حدٍّ ما عن الشكل التعبيري الذي اتخذتهُ الاخيلة والصور الشعرية . ومن هنا يمكن النظر في القيمة الشعرية لمادة الشعر [1]

غير اننا في مثل هذه الدراسة يجب ان نكون محتاطين في ملاحظة أثر التعبير في منحى الاخيلة والتأملات الشعرية ، فان القليل من الشعر في آداب الامم ، تتميز مادتهُ عن الشكل او تبقى مادته وشكله متمايزين . والشاعر بعد محتاج الى الكثير من الفقرات البيانية لاجل ان يحرك نسج قطعته الشعرية ويوطيء بين المعاني والاخيلة والتأملات الشعرية حتى تنتهي الى وحدة متسلسلة الحلقات في القصيد اذاً ففي الشعر الكثير من الفقرات المتميزة بتعبيرها وشكلها ، وهي من هنا ليست من فيض الوجدان . وانما هي أثر من آثار زخرفة الشاعر البيانية . وشكسبير نفسه المعدود من أعظم شعراء الارض قاطبة لم يخل شعره من مثل هذه الفقرات المتميزة بتعبيرها والتي لم تخرج عن كونها زخرفة بيانية [2] . وبعد ذلك تبقى كمية لا يستهان بها من الفقرات في شعر شكسبير

---

(١) Coleridge في Lectures on Shakespeare و Hazlitt في Shakespear's Characters ورضا توفيق في عبد الحق حامد وملاحظات فلسفية ، وسيد قطب في غزل العقاد بمجلة الرسالة ، السنة السادسة

(٢) انظر Lamb في Tales from Shakespear طبعة Dent

وهي وحي شاعريته ، والتي جعلت له مقامه في عالم الفن

هذه الفقرات وان تميزت بمادتها او تميز تعبيرها ومادتها كل على حدة بخصائص ذاتية ، فان الحيطة توحي الينا بالحذر — ولو مع مثل هذه الحالات — اذا اردنا ان ندرس مادة شعر مجردة عن شكلها التعبيري ، لانهُ لا يمكن القطع بان المادة يمكن ان توجد مجردة عن شكلها

فاذا عدنا الى الشكل في الشعر ، فالواقع انهُ ليس هنالك شكل محض ، ذلك أن الشكل من حيث هو التعبير ، يحتوي ضمناً على ما يعبر عنهُ (٢). واذاً كل ما يمكن الكلام عنهُ ، انهُ يوجد في الشعر فقرات تتميز بتعبيرها أعني شكلها دون مادتها ، او تتميز بتعبيرها بجانب تميزها من ناحية المادة . غير انَّ هذا التميز من جهة الشكل لا يخرج عن حد الزخرفة البيانية

من هنا في الامكان دراسة الأُسلوب في الشعر من حيث هو مظهر التعبير من ناحية دلالته على مايعبر عنهُ من جهة ، كما انه في الامكان أن يدرس الأُسلوب لذاته من جهة أُخرى . على ان دراسة الأُسلوب لذاته لكونها تقوم على أساس تجريد الأُسلوب مما يحمله من المعاني والتأملات والأَخيلة ، فسوف يكون قصراً على النظر في تلاؤم نبرات الكلام ونسق الالفاظ وسهولة العبارات ووضوح التعبير ، الى جانب تميز الاسلوب بالدقة والحركة والوحدة . غير ان مثل هذه الدراسة تظل قاصرة حتى يلاحظ المعنى الذي يحملهُ الأُسلوب ، لأن المعنى احياناً يحمل الاسلوب شكلاً خاصًّا يتفق وجوَّه الخاص ، وهذا اكثر ما يرى في الشعر . ذلك انَّ الشاعرية حين تفيض من الوجدان بمعانٍ وتأملات وأخيلة وخلجات ، فان هذه التأملات والصور والمعاني تأخذ قوالبها بما يتفق وجوَّ الشاعرية ، وكم من قالب افسد على المعنى جلاله وعلى الجوّ الشعري علويته من حيث تنافره مع المعنى وجوّه الشعري . ومن هنا نرى ان الشعر الصحيح هو ذلك الشعر الذي يتفق قالبه الخارجي مع الجو الذي يحمله المعنى معهُ ، والذي تتماسك فيه المادة مع الشكل

خاتمة

اذا كان الشعر الصحيح ، هو ذلك الشعر الذي يتفق قالبه أعني شكله مع المعنى من جهة والجو الشعري الذي يحمله المعنى مع القالب من جهة أُخرى ، فان في الشعر الصحيح يظهر المعنى مع القالب والقالب مع الجو الشعري في بوتقة واحدة تتماسك فيها اللبنات في بناء واحد ليتمخض عن الشعر . ومن الصعوبة بمكان أن نتكلم في الشعر الصحيح عن معنى مجرد لذاته وعن قالب مجرد لذاته وعن جو شعري مجرد لذاته ، ان كل ما يمكن أن نتكلم عنه كيان حي اتخذت

(٢) Matthew Arnold في Essays طبعة Dent الدراسة الخامسة في Bradley Poetry for Poetry

فيه الشاعرية من القالب شكلاً . لان الشاعرية لما كانت فيضاً من الوجدان مما احتشد في صفحته من الاخيلة والتأملات والمعاني والصور الشعرية التي استنزلها الوجدان في غشيانه الموضوع الذي دارت حوله الشاعرية او انسحبت عليه،فان هذا الحشد يفيض مع الشعور الدافق من الوجدان متخذاً قالبهُ الاسلوبي تامًّـا وشكله التعبيري كاملاً مبدعاً جوًّا شعريًّـا يتفق مع الجو الذي كان عليه الحشد في الوجدان . غير ان اتخاذ الشعور الدافق من الوجدان القالبَ لا يكون دفعة واحدة ، لان الحشد الذي يفيض معهُ أشبه ما يكون بروح بدائية ، تبحث عن جسمها البدائي لتحل فيه اذا جاز مثل هذا التعبير ، اما نموها حتى قوامها الـكامل وهيئتها التامة فذلك يكون عن طريق التداعي عادة حيث يستنزل من صفحة الوجدان ما تبقَّى فيها من حشد الاخيلة والتأملات والمعاني الشعرية ، ويتدرج مع القالب حتى يبلغ به الى التمام(١)

من هنا نرى ان الشعر الخالص يبدو لنا ذا تأثير ساحر من حيث انهُ يظهر وكأنهُ فيض الالهام ، والواقع انهُ لا يخرج عن كونه فيضاً للوجدان من حيث المصدر الاّ ان الصناعة من حيث تتبعهُ — نظراً لانها تابعة وليست أصلاً — تتلاشى في الفيض العام ، ومن هنا يبدو وكأنهُ فيض الالهام . هذا وانت تجد الشاعر الذي يتخذ شكلاً من الاشكال موضوعاً لشعره ويتصورهُ في ذهنه ويتصرف بما فيه من الزخرف مأخوذاً بهندسته المنظورة ، فتجده يلبس اخيلته التي يستنزلها الى صفحة وجدانه من هذا الموضوع لغة ايقاعية تتراقص فيها الاطياف والالوان والاضواء. من هنا لا يمكن ان نخدع في حقيقة هذا الشعر . غير انهُ كثيراً ما يحتوي على جديد اصيل في شاعريته من حيث ينفذ وجدان الشاعر الى ما وراء الاشكال ويتصل بروحها التي تتظاهر في قوانين مستترة تتحكم في هندسة الأشكال المنظورة .

وبعد ما الشعر ؟ وما الشاعر ؟ وما هي القواعد التي نرجع اليها في دراسة الشعر والشعراء؟

أما ان الشعر يمكن تحديده فهذا ما لا نعتقده لانهُ نفحة علوية تعلو عن التحديد . وأما أنهُ يمكن تعريفه فهذا ما لا نراه ، لانهُ أوسع من أن يشمله تعريف . فلنكتفِ لفهم الشعر بتحليل ماهيته كما فعلنا . ولنقل أنها نفحة علوية وكفى ! . . . أما الشاعر فهو الذي يفيض بالشعر وينظم الشعر ويقول الشعر ، وهكذا نعود للشعر ! والشعر نفحة علوية ! . . .

أما القواعد التي يرجع اليها في دراسة الشعر والشعراء فهي تستمد خطوطها من تحليل الشعر وهي دراسة ذاتية اكثر منها موضوعية ، وفنية اكثر منها علمية

(١) Bradley في Poetry for Poetry و W. Pater في Studies in Art & Poetry: The Renaissance و G.W.F. Hegel في Philosophy of Fine Art م ٣ ص ٢١٧

من شعر الهمشري(١)

العودة..

الابيات التالية مختارة من قصيدة العودة ، وهي في ستين بيتا يصور فيها الشاعر ريفياً جذبته المدينة وأغرته فلما عاد الى قريته ومغاني طفولته وجدها قد صوحت أشجارها ورحـــل عنها أهلها

رجعت اليك اليوم من بعد غربتي ... وفي النفس آلام تفيض ثوائر
رجعت وعقلي تائه الفكر شارد ... وأبت وقلبي واهن الخفق خائر
فيا ارض احلامي ! أألقى طفولتي ... ويسعدني يوم من العمر آخر ؟
تعسفت فيك الليل.. والريح صرصر ... وخضتُ اليك الموج .. والنهر ثائر
أتيت لألقى في ظلالك راحة ... فيهدأ قلبي وهو لهفان حائر
أموت قرير العين فيك منعماً ... يخدرني نفح من المرج عاطر
ويلحفني هذا البنفسج ... ولتكن ... مسارح عيني الربا والمخاضر
وآخر ما أصغى اليه من الصدى ... خريرك يفنى وهو في الموت سائر

* * *

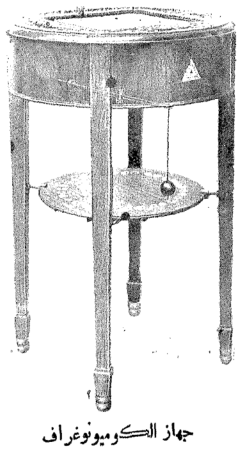
ولكن بلاجدوى.. أتيت فلم أجد ... سوى قفرة أشباحها تتكاثر
وقد نصبت أيدي الشتاء سياجها ... عليها ! وأسوار الظلام تحاصر
وقد خيم الصمتُ المتوف مع البلى ... عليك ، وأرواح الدجى تتنافر
وقد هاجم الغابُ الكثيف غياضها ... ليغزوها ، والموج يزبد هادر
وهبَّ نسيم بارد من كهوفها ... تجاوبهُ في الريح هذا المغاور
وقد رفرف الخفاش فيها وحومت ... على الشط غربان الفناء الكواسر
وداوية للبوم من فوق سرحة ... قضى فوقها من قارس البرد طائر
ترتّل لحن الموت في معبد الدجى ... وتروى أساطيراً روتها الدياجر
كأنك في سفر الليالي ملاحم ! ... يرتلها في جانب الموت شاعر

وخاتمتها .

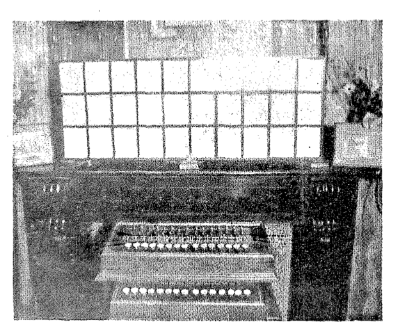
لقد خفق نسم الصبح يهمس ناعياً ... الى السهل... أن قد فارق الكون شاعر
لذا نفّس النحل الزهور فجلجلت ... ونابت عن الاجراس هذي الازاهر

---

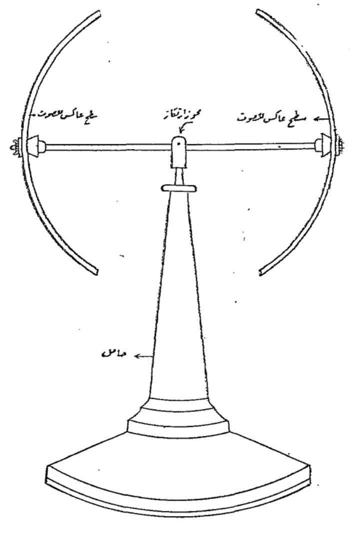
(١) هو الشاعر م. ع. الهمشري توفي الى رحمة ربه في ١٤ ديسمبر الماضي عن ثلاثين سنة



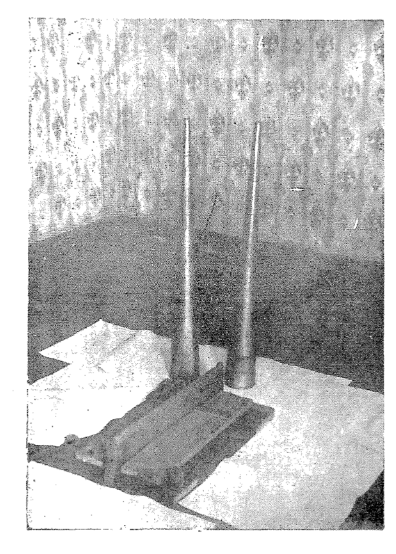
جهاز الكوميونوغراف



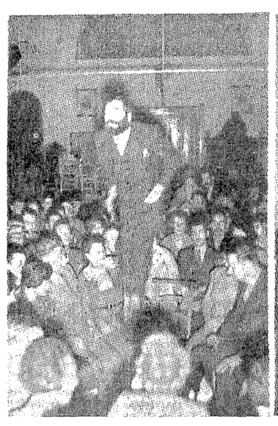
جهاز الرفلكتوغراف



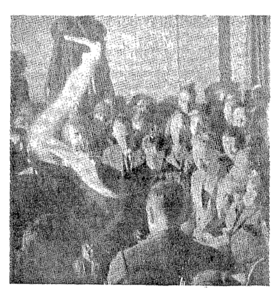
جهاز التلفوكس



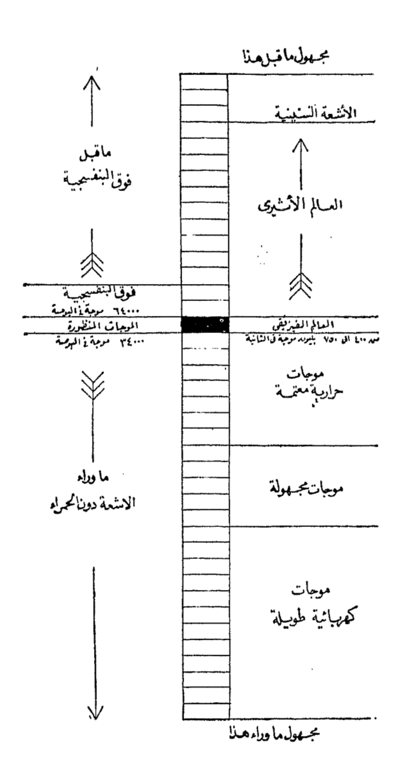
جهاز البوقين

صورتان فوتوغرافيتان مأخوذتان بالاشعة تحت الحمراء
ويظهر فيهما الوسيط ايفانز وقد طار في الجو وهو في غيبوبة

صورتان للوسيط ايفانز وقد انبثق الاكتو بلازم منه



مجهول ما قبل هذا
الأشعة السينية
ماقبل
فوق البنفسجية
العالم الأثيري
فوق البنفسجية
٦٤٠٠٠ موجة في البوصة
الموجات المنظورة
العالم الفيزيقي
٣٤٠٠٠ موجة في البوصة
من ٤٠٠ الى ٧٥٠ بليون موجة في الثانية
موجات
حرارية معتمة
ما وراء
الاشعة دون الحمراء
موجات مجهولة
موجات
كهربائية طويلة
مجهول ما وراء هذا

عالم الروح

والعلم الحديث

لاحمد فهمي ابو الخير

عالم الروح موجود ، لا ينكره الا ملحد او متعنت ، وهو قديم منذ الازل . واتصال عالمنا به قديم ايضاً ، ولكن قدم الانسان . ولقد كان هذا الاتصال سبباً في حدوث مآسي كثيرة استشهد فيها كثيرون . نعم لقد استشهد رسل وانبياء وقديسون وشهداء . وما حرق من سموهم السحرة والساحرات في القرون الوسطى إلا مثل من امثلة هذه المآسي المفجعة . وما كان هؤلاء جميعهم إلا قوماً كشف الحجاب عن اسماعهم وأبصارهم فسمعوا غير المسموع ورأوا غير المنظور وهم الذين يسميهم العلم الروحي الحديث «وسطاء» . وظل الحجاب بين العالمين منسدلاً ، يتزايد كثافة من حين الى حين . ولم تكن الكشوف العلمية تقدمت ، بل حتى حين تقدمت الكشوف لم تتجه العلوم صوب هذه الناحية وبحثها إلا في النصف الثاني من القرن الماضي او قبل ذلك بقليل

وكان المعول الأول في ثغر هذا الحجاب كشف غاليليو المنظار (التلسكوب) فقد رأى بهِ دنا جديدة لم تكن ظاهرة للعيان ، ووسع بهِ مجال المنظور أمام عين الانسان — ولقد اضطهد الرجل وسجن لانهُ جهر بآرائه ، ومنها ان الكواكب السيارة اكثر من سبعة . وقد عارضهُ معارضوه محتجين بأن في رأس الانسان سبع فتحات ، وبان في الاسبوع سبعة ايام ، وعلى ذلك فلا يوجد الا سبعة كواكب سيارة . بل ذهبوا في التدليل الى اغرب من هذا فقالوا ان تلك الكواكب السيارة التي يقول بها غاليليو لاتراها العين العارية ، فلا تأثير لها إذن في الارض وما دام لا يرجى منها نفع فهي إذن غير موجودة . بل ذهب المتعنتون الى اكثر من هذا رافضين أن يروها خلال المنظار . فلما ان وافى احد اولئك المعارضين اجلهُ قال غاليليو « انهُ لم يشأ ان يرى وهو على هذه الارض تلك الاجرام السماوية الضئيلة فلعله يراها الآن وقد صعد الى السماء»

وتلا كشف المنظار كشف المجهر (الميكروسكوب) وبهِ اتسع مجال الابصار لدى الانسان فرأى به عالماً آخر من مخلوقات صغيرة لاتراها العين العارية رغم وجودها

(١) المقتطف : ننشر هذا البحث النفيس على انه بسط لوجهة نظر اصبح لها انصار كثر بقلم عالم بحاثة له في علوم الطبيعة وتدريسها مكانة . الا انه لا يعني أكثر من ان المقتطف محايد حيال الرأي الذي ينطوي عليه

ثم جاء نيوتن بعد ذلك وحلل ضوء الشمس الابيض الى الوانه السبعة التي نراها في قوس قزح . وتتالت البحوث في هذا الصدد فكشفوا اشعاعات اخرى غير منظورة فوق احد اللونين المتطرفين وهو اللون البنفسجي ، وتحت اللون الآخر وهو الاحمر ، واطلقوا عليهما الاشعاعات فوق البنفسجية وتحت الحمراء . ولم تقف كشوف الاشعاع عند هذا الحد ، فكشفوا في المنطقة التي تعلو فوق البنفسجية الاشعاع السيني (اشعة اكس) ، وفي المنطقة التي تسبق في سلم الاشعاعات الاشعة الحرارية المعتمة ، والاشعة اللاسلكية

وكان العلماء من جهة اخرى يبحثون في المادة ، فكشفوا العناصر الاثنين والتسعين بعد ان كانت العناصر في رأيهم اربعة : الهواء والماء والنار والتراب . ثم وصلوا في تقسيم المادة الى اصغر اجزائها مما سموه ذرة وجزيئاً

وعندئذ اتجهت عقول العلماء الى غزو الذرة التي كانت اذ ذاك لا يمكن أن تغزى ولا تحطم فاستعانوا بالاشعاعات الكهربائية ذات الضغط المرتفع جداً وسلطوها على الذرة فتحطمت الى مكوناتها ، وانتهوا الى أن الذرة متألفة من كهارب، الموجب منها هي البروتونات (جمع بروتون) وهي كائنة في نواة الذرة وتعين وزنها ، والسالب منها هي الالكترونات (جمع الكترون) وهذه تدور حول النواة في افلاك بسرعة هائلة ، وهي التي تسبب اللون وتعين النوع . وانتهى الامر عند بعضهم الى أن الذرة نموذج مصغر للمجموعة الشمسية

على ان بحوث العلماء لم تقف عند هذا الحد فراحوا يبحثون في حقيقة هذه الكهارب، وأدى بحثهم الى كشف جسيمات أخرى لا داعي لذكرها ، ثم انتقلوا الى أن هذه الكهارب عقد في الاثير، وهو ذلك الخضم الذي يشغل الكون كله، والذي لولاه ما رأينا ضوء الشمس ولا أحسسنا بحرارتها، بل لولاه ما وجدت حياة في أي ركن من اركان الكون — لا مادية ولا روحية

وزاد واضعو العلم الروحي الحديث على ذلك ، أنَّ الاثير في اهتزازاته المختلفة يعطينا اشعاعات مختلفة ويعطينا مواد مختلفة . وأنه مادة لا تستجيب مشاعرنا لاهتزازها فلا ندركها. وان المادة التي تدركها حواسنا المحدودة المدى ما هي إلاّ أثير في حالة اهتزاز خاصة . فالمادة بجميع انواعها وصيغها ، حية كانت أو غير حية ، ترجع الى أصل واحد وهو الاثير . واذا كان اصلها واحداً فهي اذن قابلة للتحول . ولقد استطاع العلماء أخيراً أن يحولوا بعض العناصر الى غيرها والى أن يستحدثوا عناصر مشعة جديدة. فلقد استطاعوا تحويل الازوت الى اكسيجين، وكلاًّ من البورون والبريليوم الى هليوم، ولقد استحدثوا من الالومنيوم عنصراً مشعاً هو نظير للفصفور ومن المغنسيوم عنصراً مشعاً آخر هو نظير للسلكون ، واستطاعوا ان يستحدثوا أيضاً العنصر الذي ترتيبه الثالث والتسعون في الجدول الدوري ، فاذا به نظير للارانيوم أثقل العناصر جميعها

وكل هذا بأجهزة كهربائية تحدث ضغوطاً كهربائية تزيد على خمسة ملايين فولط في بعض الحالات ونجد كل هذا مشروحاً مع الاجهزة في مؤلفات الدكتور أندريد استاذ الفيزيقا في جامعة لندن حالاً ، فاذا لم تكن المادة ترجع في جملها الى اصل واحد أكان يمكن تحول بعض العناصر الى عناصر أخرى ؟

ولطالما خدعتنا ظواهر عالمنا المادي فأخفت عنا حقيقتها. وخير مثل قريب أقدمه هو شمسنا. أليست هى المتحركة ظاهرياً ؟ ألم يخدعنا هذا المظهر فظن آباؤنا ان الشمس تدور حول الارض على حين ان الارض هي التي تدور حول الشمس ؟ هذا مثل من جملة امثلة من مثل الخداع . والمادة مثل آخر . فتلك التي تبدو لنا جامدة صلبة ليست في الواقع شيئاً من هذا القبيل فلا هي جامدة ولا صلبة ، بل هي كما مرّ بنا ، وكما يقول العلم الحديث بسرعة كل اليسر. أليست هي كهارب كلها كما قلنا ؟ فخشب المنضدة ، وجدران هذا المكان ، وجسومنا كلها بخلاياها الحية — كل هذا كهربائية ، او بعبارة أدق اثير في حالة اهتزاز خاصة تدركها المشاعر . ولو كانت اعضاء الحس عند الانسان من رتبة اعلى درجة اهتزازٍ من رتبتها الحالية لاستجابت لما لا تدركه حواسه الحالية ، ولتكشف أمامها عالم غير منظور فيه الحياة وفيه الجمال وفيه الكمال

فلنفكر اذن بدلالة الاهتزازات ، ولندرب عقولنا على فهم هذه الاهتزازات ، فاذا تم هذا استقام كل شيء وفهمنا عالم الروح ، وعينا موقعه في خريطة الكون . وكما أنهُ توجد أضواء لا تراها العين اذا انعكست من أمثال الضوء فوق البنفسجي والاشعة السينية ، والاشعة الحرارية واللاسلكية ، كذلك توجد أصوات لا تدركها الاذن لارتفاع درجتها . وقد استطاع الاستاذ وود Wood الاميركي استحداث موجات صوتية صامتة ، وهي موجات قصيرة جداً لا تستطيع الاذن ادراكها قوية التضاغط والتخلخل بحيث اذا أطلقت في الماء رفعت درجة حرارته وقتلت صدمتها الاسماك الصغيرة . ولا يمكن الاذن ان تدركها إلاّ اذا تداخلت موجتان منها اختلفتا الدرجة

والروح من هذا الطراز . هي مادة اثيرية مرتفعة درجة الاهتزاز ، فلا نراها ولا نسمعها ولا نحس بها إلاّ بتوافر شروط خاصة . هي كالموجة اللاسلكية ، لا تعترف بمادية الجسوم الصلبة تنفذ منها وتتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء او اللاسلكي بمراحل ، تهتك أمامها حجب الزمان والمكان وتعيش في رحاب الخالق جل شأنهُ خالدة ما اراد الله لها الخلود

فعالم الروح اذن يحيط بنا، ويتخلل عالمنا ، يرانا سكانه متى ارادوا ، ويحاولون مخاطبتنا وكثيراً ما يهزون الواحد منا من كتفه أو من يده ولكننا لا نحس بهم ، وهل نحس بموجة الراديو وهي تخترق جسومنا ؟ هل نحس بالاشعاعات الاخرى التي تغمرنا من جميع الجهات ليلاً ونهاراً ؟ على أن الذين رزقوا منا الشفافية الروحية ، اولئك الذين عيونهم وآذانهم ومشاعرهم أعلى درجة اهتزاز من عيوننا وآذاننا ومشاعرنا العادية اولئك الذين رزقوا الجلاء في العين وفي الاذن وفي المشاعر

يحسون بهم ويخاطبونهم واولاء هم الوسطاء الذين لولاهم لظللنا نجهل هذا العالم مادمنا في عالمنا المادي ، وسيظل الكثيرون منا بمعزل عن هذا العالم الى ان يدركهم ذلك التغير المسمى الموت وما هو في الواقع الا ولادة لحياة أخرى أرق وأرقى كما سيجيء . وما لم يبحث في الروح بدلالة الاهتزازات فاننا لا نستطيع فهمها ، ولا فهم طبيعة العالم الذي نعيش فيه

قال القس ج . موريس اليوت في كتابه «حياة المسيح الروحية» بصدد الاهتزازات ما يأتي :—

«كل شيء في الكون يهتز ، وكل شيء له طول موجي خاص به . كل شيء في الدنا المنظورة والدنا غير المنظورة يهتز . وعلى مقتضى السرعة التي يهتز بها الشيء يكون هذا الشيء مرئيًّا أو غير مرئي ، جامداً او ليناً ، صلباً أو سائلاً أو غازاً

« اننا نجعل قطعة الثلج تذوب — أو تضمحل — وذلك فقط باحاطتها بما يزيد في سرعة اهتزازها . وحينما يستحيل الثلج ماء أو بخاراً أوضباباً أوغازاً فنحن لا نقول : انظروا ! تلك معجزة ! لاننا نعلم ان ذلك راجع الى قانون يسري ويعمل

« وليسمح لي قرائي ، وقد تناولت موضوع الاهتزاز هذا ، أن أذكرهم بأن الكهربائية اهتزاز وان للالوان والروائح أيضاً اهتزازاتها

« والموسيقى اهتزاز . والمرض (انعدام الراحة) معناه ان اهتزازات الجسم ليست متآلفة ولا متناسقة . وما المرض العقلي الا اختلال اهتزازات العقل واضطرابها . وها نحن نزداد ، يوماً بعد يوم، علماً بالاثر المبرىء الشافي لكل من اللون والعطر والموسيقى في الاجسام والعقول المريضة . ان الاهتزاز هو سر الظواهر الروحية جميعها »

﴿ كيف نتصل بعالم الروح ﴾ ليس لهذا الاتصال الا طريق من ثلاث : الاول ان ننتقل الى عالم الروح ، وهذا ما لا يرغب فيه أحد منا ، اذ ان معناه انقطاع هذه الحياة المادية فنحن على الرغم من ايماننا بأن الحياة الاخرى خير وأبقى من هذه الحياة الدنيا الا أننا نفزع من الموت ونرهبه . فهذا الاتصال الكلي بعالم الروح مكروه منا جميعاً ، او هو على الاقل غير مرغوب فيه . والثاني ان نرفع من درجة اهتزازتنا لكي تنسجم مع اهتزازات العالم الروحي ، وهذا غير ميسور — وسنعلم فيما بعد ان الذين ارتقوا الى المستويات العليا يستطيعون الانخفاض الى المستويات الدنيا . أما العكس فغير ممكن . والثالث ان يخفض سكان العالم الروحي درجة اهتزازاتهم بحيث تصبح في مستوى درجة اهتزازات عالمنا فنراهم ونسمع اصواتهم . وفي جهاز الراديو والتلفزة ما يقرّب هذه العملية الى الذهن . فالمستقبل يجب ان يكون متوافقاً مع المرسل والا عجز المستقبل عن التقاط الرسالة . وفي الموسيقى أيضاً ما يقرّب ذلك الى الذهن . فلو أنك شددت على الكمان وتراً يعطي نغمةً تتحد في الدرجة مع أحد أوتار البيانو مثلاً ، ثم أمسكت

بالكمان ودق أحد صحبك على وتر البيانو اهتز وتر الكمان واهتزت الكمان كلها واعطتك صوتاً يستجيب لصوت البيانو . فكيف اذن يخفض سكان العالم الروحي درجة اهتزازهم ؟ انهم من مادة أرق من مادة جسومنا وأعلى درجة اهتزاز منها . واذن لا بد من مادة تساعد على تكثيف مادتهم ، او بعبارة أصح على جعلها تطامن من حدة اهتزازها فتتباطأ حتى تصير في منسوب درجة اهتزاز عالمنا ، ومن ثم تستجيب لها مشاعرنا اي نراها ونسمعها ونحس بها

وهذه المادة هي الاكتوبلازم الذي يعرفهُ الفسيولوجيون من تكوين الخلية ، وهي الجزء الخارجي من البروتوبلازم . فهذا الاكتوبلازم هو العامل المساعد على التواصل لأنهُ يجسد الى حدٍّ ما أعضاء الجسم الروحي او الاثيري،وذلك بتخفيضهِ اهتزازات هذه الاعضاء فتستجيب لها مشاعرنا.ويستعير الروح الراغب في التواصل هذا الاكتوبلازم من الجالسين جميعهم،فاذا ما انتهت الجلسة رد الاكتوبلازم الى الجالسين . وعند الكلام على حجرة التحضير الحديثة سنعلم ان اوزان الجالسين تنقص عند حدوث التواصل ، ثم تعود في نهاية الجلسة كما كانت والتجارب في هذا الصدد كمية أيضاً لا وصفية فقط

والوسيط شخص كثرت في جسمهِ مادة الاكتوبلازم تلك . وقد يسأل سائل ولماذا يمتاز الوسيط بهذه الميزة ؟ وجوابنا على ذلك ولماذا يكون شخص أحد بصراً او أرهف سمعاً من غيره بل لماذا يولد بعض الناس ولهم في اليد ست أصابع لا خمس ؟ بل لماذا يتفاوت الناس في قوة الجسم والعقل ، وفي الفهم والحزم والعزم ؟ بل لماذا يتفاوت الاشقاء في كثير ؟

لقد دلت الصور الفوتوغرافية على انبثاق هذه المادة بوفرة في جسم الوسيط ، ووجد بالتجربة أنها في جسمهِ أكثر منها في جسم غيره . ولذلك فالظواهر الروحية تكون في وجوده أشد وضوحاً منها في غيابه . ويتم الاتصال بعدة طرق: المائدة - الاجهزة الكهربائية — الصوت المباشر — التجسد . فأما المائدة فعلى ثلاثة أوجهٍ : الاول المائدة وحدها — الثاني المائدة والكوب — الثالث المائدة وجهاز البسايكوجراف

وفي كل من هذه الحالات يجلس الحضور ليلاً ذكوراً واناثاً على التناوب وقد وضعوا أكفهم مبسوطة فوق المائدة ، ثم يضاء ضوء احمر خفيف ، ويدار فونوغراف ينصت الحضور الى موسيقاه انصاتاً تامًّا . فاذا تحركت المائدة الى أعلى او اهتزت من تلقاء نفسها كان ذلك بمثابة اعلان بأن روحاً قد حضر . وليقم أحد الجالسين نفسهُ رئيساً للدائرة ونائباً عنهم في الكلام مبدياً الى الروح غير المنظور الرغبة في الاتفاق على قانون للتخاطب ، كأنْ تهتز المائدة او يحدث فوقها نقر مسموع عند النطق بكل حرف من الحروف الهجائية التي منها تتألف الكلمة التي يريد الروح تهجئتها ... وهكذا.وهذه الطريقة مضجرة متعبة قد ينجم عنها خطأ في التواصل

اما في حالة المائدة والكوب فان التواصل يكون أيسر وأسهل . وفي هذه الحالة يؤتى بالمائدة وتكتب الحروف الابجدية على شكل دائرة ، وكذلك تكتب الارقام ، ويكتب اللفظان « نعم » « ولا » فبعد انتهاء الموسيقى كما مر بنا قد يهتز الكوب الذي يكون موضوعاً في مركز الدائرة فاذا اهتز يضع شخصان او ثلاثة السبابة على حافة الكوب بحيث يكاد يلمس الكوب ، ويلاحظ ألاّ يكون ضغط او اندفاع بالاصابع لحركة ارادية . ويحسن عصب أعين واضعي الاصابع لكي تكون الحركة بريئة بعيدة عن الشبهات العلمية . عندئذٍ يسأل الروح من هو . فيتحرك الكوب نحو الحروف التي يتكوّن منها اسم الروح ، فاذا كان الاسم « علي » مثلاً ذهب الكوب الى الحرف ع اولاً ثم عاد الى مركز الدائرة ، ثم الى الحرف ل ثم الى الحرف ي وهكذا . ثم يلقى السؤال ويتلقى الجواب على هذا النمط . وفي الوقت نفسه يدون بعض الحاضرين على الورق الحروف المختلفة فتتكوّن كلمات تكون جملاً مفهومة . ويستمر الحديث

وهذه الطريقة أيسر من سابقتها وأكثر استعمالاً

اما المائدة وجهاز البسايكوجراف او البلانشتا الى آخر ما هنالك ، فالغرض من هذه الاجهزة التي توضع فوق المائدة تسهيل الحركة على الروح . الحروف موجودة كما مضى ، والاجهزة في مجموعها تحتوي على مؤشر يتحرك على هذه الحرف ، والمؤشر اما ان يكون فوق كرات في اغلفة لتسهيل الحركة ، او فوق عجلات . وكلما كانت المائدة ملساء كانت الظواهر اتم

وفي هذه الاحوال كلها لايحتاج الى وسيط قوي

وأما الاجهزة الكهربائية فنوعان : نوع يحتاج الى وسيط قوي ونوع لايحتاج الى وسيط

وجهاز الرفلكتوجراف من النوع الاول ، وهو أشبهُ شيء بالآلة الكاتبة وانما المفاتيح متصلة بمصابيح تضاء اذا تحركت هذه المفاتيح كما تضاء المصابيح الكهربائية العادية . وكل مصباح مسلط على حرف من الحروف الابجدية ، فاذا اضيء المصباح ظهر الحرف واضحاً فوق لوحة معدة لذلك

ولاستعمال هذا الجهاز يجلس الوسيط فوق كرسي بعيداً عن هذا الجهاز ، ثم يشد وثاقه شداً محكماً ، فعند انتهاء الموسيقى يقع الوسيط في غيبوبة ، ويحسن أن يبدأ بالتجربة في الظلام ثم يضاء بعد ضوء أحمر خفيف . وبعد وقوع الوسيط في الغيبوبة يرى الحاضرون الاكتوبلازم وقد انبثق من جسم الوسيط ثم امتد حتى جاور الرفلكتوجراف . ويتكاثف حتى يكون على شكل قضيب مضيء . وسرعان ما يصبح هذا القضيب يد انسان كاملة يستطيع الحاضرون امساكها والتسليم عليها . فهي يد الروح الذي يريد الكلام وقد تجسدت إذ وضعت في غلاف أو قفاز من الاكتوبلازم واحياناً تتجسد اليدان والوجه والجسم فاذا بالروح بشر سوي . ويكون جهاز الرفلكتوجراف قد وصل بالتيار الكهربائي ، أي وصل باسلاك التيار الموجودة في المنزل .

وبعدئذٍ يبدأ الروح حديثه فيحرك المفاتيح ، وتظهر الحروف وعلامات الترقيم فوق اللوحة . وعند البدء في الحديث يحرك الروح مفتاحاً فيدق جرس ينبه الحضور الى أن الحديث قد بدأ ، وعند الانتهاء يدق الروح هذا الجرس الكهربائي معلناً نهاية الحديث

ومن النوع الثاني الذي لا يحتاج الى وسيط جهاز الكوميوجراف ، وهو مائدة من سطحين علوي وسفلي . العلوي لوحة شفافة ، والسفلي سطح به جملة ثقوب مستديرة موزعة على محيطه . و بين السطحين قب ميزان يتدلى من أحد طرفيه خيط يحمل كرة ، والميزان دقيق جدًّا وسهل الحركة جدًّا ، فاذا مال هذا الطرف سقطت الكرة في احد الثقوب ، فاحدثت تماساً كهربائيًّا يكفي لاضاءة مصباح كهربائي مسلط على حرف من الحروف الابجدية ، فتظهر لهذا الحرف صورة فوق اللوحة . وكما هو الحال في الرفلكتوجراف توجد علامات الترقيم وجرس التنبيه

وبهذا الجهاز الاخير كتب روح سير فنست كيلارد الكتاب المسمى « رأي جديد عن الحب » وكان سير فنست هذا مهندساً كبيراً من رجال الاعمال في انكلترا

والغريب ان تصميم هذا الجهاز جاء من عالم الروح . أملاه بالصوت المباشر روح ذلك المخترع الانكليزي الشهير المسمى جبسون Jobson ثم أشرف من عالم الروح على بنائه . وذلك لكي يقطع على المعترضين العلميين كل سبيل للشك ، نافياً كل ما يمكن ان يقام من الشبهات

واما الصوت المباشر فهو من احسن صيغ التواصل وأنفاها للشبهات . فالروح بعد وقوع الوسيط في الغيبوبة تصوغ من الاكتوبلازم قناعاً يخفض من اهتزازات اعضاء الصوت عندها حتى تستطيع هز جوناً واحداث الصوت فيه . فنسمع الصوت . وقد سهل المخترعون الروحيون هذا السبيل باختراعهم البوق المفصفر لكي يرى في الظلام وهو يسبح في جو الحجرة ، ثم جهاز النلفوكس الذي يجمع الموجات الصوتية ويعكسها الى بؤرة . وهو يفوق البوق بمراحل

وأما التجسد الكامل فهو بلا نزاع أبلغ صيغ التواصل كلها . فالروح يستطيع أن يتجسد كله ، ثم يجلس اليك وتجلس اليه ، ويحدثك وتحدثه كأنما هو بشر سوي ، بل يقبل تحيتك ويشرب الشاي او القهوة التي تقدمها اليه . فاذا ما ضعفت القوة تلاشى جسمه شيئاً فشيئاً حتى يختفي . ويختفي معهُ ما أكل وما شرب . ولا يحدث هذا الا اذا كان الوسيط — ذكراً كان أم انثى — قوي القدرة الروحية وبهذه المناسبة نقول ان الروح الحارس للوسيطة الشهيرة استل روبرتس ، وهو المسمى نفسه Red Cloud أي السحاب الاحمر ، قد تجسد في جلسة عقدت في أوائل نوفمبر ١٩٣٨ أمام خمسة وستين شخصاً بعد ان أتى بالصوت المباشر حديثاً طويلاً نشرتهُ له مجلة بسايكك نيوز في العدد رقم ٣٣٧ الصادر في يوم ٥ نوفمبر الماضي . وقد أعلن هذا الروح انهُ سيتجسد عند بدء كل حديث بالصوت المباشر

لعبد الرحمن شكري

السكون بعد النغم

أَفخمَ الشجوُ مقولَ النغمِ العذ ب فأمسى هذا السكون المهيبا
مثلما تفحيمُ الشجونُ خطيباً صار في صمتهِ قؤولاً خطيبا
كسكوتِ العشاقِ في نشوة الحب تناجي فيهِ القلوبُ القلوبا
او سكوت اللهيف فوجيءَ بالبشـرى ويخشى من حسنها ان تخيبا
او سكوت الشباب في حُلُمِ الآ مال من قبل ان تعاني المشيبا
او سكوت الخشوع في صلوات الـقلب صار البعيد منهُ قريبا
او سكوت الأمِّ الرؤوم حنانا وابنها نائم حَمَتْهُ الخطوبا
حلمت حلمها بما سوف يسعى في مساعيهِ جيئة وذهوبا
من ثمار الحياة تختار أحلا ها له نعمة وسعدا وطيبا

* * *

نغمةٌ خلّفت بواطن لحن دق عن أَن يصيب سمعا طروبا
وكأَنْ لم تزل بسمع مسحو رٍ من اللحن آملٍ أنْ تؤوبا
فهو يُصغي لعودة الصوت منها وهي في نفسهِ تدبُّ دبيبا
سحرَ القلبَ شدوُها ام سكون خلّفتهُ فكان سحراً حبيبا
عجباً يسحر السكوت ام اللحـن وايٌّ الحالين يصبي القلوبا
وكأنَّ المسحور من اثر اللحـن يناجي في ذا السكون الغيوبا
وكأنّ الاصداء من بَعدها في الـنفس تشدو وتستثير الوجيبا
هامسات في النفس همس مسرٍّ بائحٍ بالهوى ويخشى الرقيبا
في سكون كأنما هدأ الكو نُ خشوعاً لها وسحراً عجيبا
هدأةَ الكون في المساء وقد يخـشع راءٍ والشمس تُحدى غروبا
فكأن الحياة عادت سكوناً كسكون الردى رهيباً مهيبا
تحسب الدهر ساعةً دقُّها قد منع الصمتُ صوتَه ان يجوبا
ساعةٌ توهم الورى ان هذا الـسكونَ قلبٌ ما إن يحسُّ وجيبا
تحسب الدهرَ مسقطَ الماء غال الـبرد فيهِ جمودهُ أن يصوبا
فدويٌّ بالذكر في النفس منهُ وسكوتٌ في الاذن يسبي القلوبا

من ايام اسماعيل العظيم

ضباط اميركيون
في الجيش المصري

للبوزباشي عبد الرحمن زكي

كتب القاضي الاميركي بيير كرابيتس أثناء الاعوام الاخيرة سلسلة من المؤلفات التي تبحث في التاريخ المصري خلال القرن الماضي ، نذكر من بينها « البطل ابراهيم » و « جوردون والسودان والرقيق » و « الخديو اسماعيل المفترى عليه » و « استرداد السودان »

وأخيراً أخرج كتاباً عنوانه « ضباط أميركيون في الجيش المصري »(1) فروى فيه قصة ضباط البعثة العسكرية الاميركية التي استدعاها المغفور له الخديو اسماعيل عام ١٨٦٩ لتنظيم الجيش المصري ولتدريب هيئة اركان حربه بوجهٍ خاص (2)

ولليوم الذي نشر فيه القاضي كرابيتس كتابه الذي نحن بصدده ، كانت معلوماتنا عن أعمال البعثة العسكرية المذكورة مبعثرة بين أوراق المحفوظات الرسمية ومجلدات نشرة الجمعية الجغرافية الملكية وأعداد جريدة اركان حرب الجيش المصري التي كانت تصدر في عصر المغفور له الخديو اسماعيل ، او في المؤلفات التي كتبها بعض أفراد البعثة المذكورة كالضابط داي (Dye)(3) وزميله لورنج(4)

ومنذ أعوام نشط القاضي كرابيتس للبحث في المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ومحفوظات وزارة الحربية والمفوضية الاميركية بمصر، فكشف لنا الستار عما كان لا يزال مجهولاً من أعمال البعثة الاميركية . ونظم أخبارها . وسرد ما خفي من أعمالها الفنية التي امتدت من البحر

(1) Pierre Crabitès — Americans in the Egyptian Army. George Routledge London وعدد صفحاته ٢٧٧

(2) راجع أعداد المقتطف يوليو ١٩٣٧ مقال « صفحة من تاريخ الجيش المصري » . وعدد ابريل ومايو ١٩٣٨ مقال « الجيش المصري والاستكشاف في افريقية » . للملازم الاول عبد الرحمن زكي

(3) Col. William Mce Dye - Moslem Egypt and Christian Egypt

(4) Gen. Loring—A.Confederate Soldier in Egypt

المتوسط الى منابع النيل. وليس هناك أدنى شك في ان القاضي كرابيتس قد ألف كتابه وهو مغتبط بما كتبهُ عن مواطنيه الاميركيين . على انهُ لم يسرد بايضاح ذلك الاثر العظيم الذي اشترك فيه هؤلاء مع زملائهم من الضباط المصريين ، وقد تكاتفوا جميعاً على العمل الرائع كما سنرى

كنا نعلم الى عهد قريب ان أول ضابط أميركي طلب اليه الخدمة في الجيش المصري أثناء حكم اسماعيل العظيم هو الماجور جنرال موط Thaddeus P. Mott ، الى ان قرأنا في صدر الفصل الثاني من كتاب القاضي كرابيتس ان منصب قيادة الجيش المصري عرض في بادىء الامر على الجنرال الاميركي جوستاف بوريجارد Gustave Beauregard وقد عثر القاضي في أوراق المحفوظات التاريخية الملكية على خطاب كتبهُ الجنرال المذكور بالفرنسية الى موظف مصري كبير أوضح فيه رغبته في الحضور الى مصر لكي يشغل المنصب الذي عرض عليه . وقد بين استعداده ليجعل الجيش المصري قوة دفاعية يتحدى بها اي جيش اوربي لدولة ثانوية (الدرجة الثانية) وان يجعل موانىء القطر المصري في حالة منيعة لتقاوم بنجاح تام كل الهجمات التي تقوم بها ضدها اقوى الاساطيل العالمية (١)

لكننا لا نعلم ما تمَّ عليه الامر مع هذا القائد . لاننا نقرأ فيما بعد عن وصول الماجور جنرال موط الى القاهرة وصدور مرسوم بالانعام عليه برتبة الفريق في ٢٤ سبتمبر ١٨٦٩ ومنحه مرتب مبلغهُ مائة جنيه في الشهر . ولم يلبث الجنرال موط طويلاً حتى غادر مصر الى الولايات المتحدة للبحث عن نخبة من الضباط الاميركيين يضطلعون معهُ بالمهمة التي كاف القيام بها . ومن حسن الحظ ان كانت الحرب الاهلية الاميركية قد انتهت فسهلت المهمة أمامهُ . واختار من أراد من الضباط ، ومن رشحتهم الحكومة الاميركية

وقبل قدوم هؤلاء الضباط الى مصر وقعوا عقوداً مع الحكومة المصرية التي كان يمثلها « موط » . وجاء في الشروط ان يشهروا الحرب على عدو الفريق الاول (مصر) ، كائناً من كان وان يواصلوا تلك الحرب بكل شدة، على ان يعفوا من حمل السلاح في وجه الولايات المتحدة

كان في مقدمة الذين رشحهم الجنرال شيرمان Sherman القائد المشهور الاميركي ، ضابط ممتاز هو البريجادير جنرال ستون Charles Pomery Stone. ومن زملائه في الجنرالية ثلاثة ضباط كبار وهم:

البريجادير جنرال ويليام لورنج William Loring من فلوريدا — والبريجادير جنرال سيبلي Henry Sibley — والبريجادير جنرال كارول تفيس Carrol Tevis

---

(١) المحفوظات التاريخية الملكية بقصر عابدين وقد ورد في هذا التقرير ما يلي :

"comme officier de Génie je pourrais mettre tout les forts de Son Altesse en condition de combattre avec succès les attaques des flottes les plus puissantes du monde etc..."

ولنقف هنا لحظة لكي نعرف كيف انتهى الامر بالجنرال موط . فقد كان أقدم الضباط الاميركيين في خدمة الحكومة المصرية . لكنهُ كان يتحاشى الاندماج مع زملائه لانهُ لم يكن من هيئة اركان الحرب . فضلاً عن انهُ لم يكن « ضابط ميدان » . وقد اطلع القاضي كرابيتس على عدة خطابات كتبها موط الى بعض اصدقائهِ يشتم منها عدم توفيقه مع زملائه . ففضّل اخيراً الاستقالة بعد وصول افراد البعثة بأشهر قلائل . وقد أهـدى اليهِ الخديو اسماعيل قطعتين نفيستين من الماس . أهداها الجنرال فيما بعد الى شقيقته « المسز إيزاك بل »

وكان عدد الضباط الذين برتبة كولونيل عشرين وهم :

شاييه لونج — وويليام ماك داي — وسبارو بوردي — وه. براوت — وه. ريد — وروبرت روجرز — وڤندربلت آلين — والمهندس العسكري كولستون — ودريك — وشارلزفيلد — وا. جنيفر — وبيفرلي كينون — وصموئيل لوكيت — والكسندر ماسون الكسندر — ورينلدز وريت — وجون سافدج — وه. وارد — والكولونيل ماكيفور

وكان عدد الضباط من رتبة الليفتننت كولونيل ثلاثة وهم: جيمس باسيل — وجريفز — ودنلوب

وكان الماجورات كامبل وهنت وهول وهوايت وجيمس مورجان ودنيسون وشارلز لوش وروبرت شولر لامسون والماجور باركيز . وكان بين افراد البعثة أربعة ضباط برتبة كابتن وهم : ايرجين ، وايسكس بورتر ، وفريمان ، وكوبنجر

وهناك أيضا ثلاثة من الجراحين : جولسون وويلسون ووارين . كما ألحق المهندس ليبنز ميتشيل للعمل في الابحاث العلمية الخاصة بهيئة اركان الحرب برتبة تعادل ليفتننت كولونيل . وانتخب ايضاً بعض الموظفين للقيام بالاعمال العلمية والفنية . وهؤلاء هم برنارد (السكرتير الخاص للجنرال ستون) وميدلتون وكيللي . وقد بلغ عدد أفراد البعثة الاميركية ثمانية وأربعين أوصى بانتخاب عشرين منهم الجنرال موط

وفي الفصل الرابع سرد القاضي كرابيتس الظروف التي وصلت فيها النخبة الأُولى من رجال البعثة . فقد وصل هؤلاء في خامس ابريل عام ١٨٧٠ على السفينة التي أقلت اللورد نابيير الى الهند ليتسلم قيادة الجيوش البريطانية فيها

وكان الجنرال موط في انتظار مواطنيهِ الجدد على الميناءِ . ثم صحبهم الى «أوتيل دوريان» Hotel d'Orient حيث اقاموا فيها . وفي اليوم التالي قدَّمهم الى شاهين باشا ناظر الحربية فدعاهم الى مرافقته في عربتهِ الخصوصة الى القاهرة . فلما وصلوا الى العاصمة ومضت بضعة أيام استقبلهم الخديو اسماعيل في ١٥ ابريل ١٨٧٠ . وقد قدمهم الى سموه ذو الفقار باشا كبير الأُمناء وكان يحلي صدره بمجموعة نفيسة من النياشين والميداليات (١)

(١) والد صاحب المعالي سعيد ذو الفقار باشا كبير الامناء الحالي لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

وقد وصف المؤلف كيف أدخلوا قاعة الاستقبالات العظيمة وكيف قابلهم عاهل مصر اذ ذاك فحيَّاهم تحية طيبة بدون ان يتكلم . وحيوا التحية العسكرية ثم امرهم بالجلوس على يمينه وظلَّ الصمت سائداً لحظة الى ان نظر الخديو نحوهم ثم تكلم باللغة الفرنسية قائلاً : —

انني وبلادي ارحب بكم أيها السادة . وأود ان اعبر لكم عن اغتباطي لإجابتكم السريعة لدعوتي . وقد استطيع ان اقول لكم وبثقة كاملة انه من المنتظر ان تدعوا للخدمة في الميدان بأسرع ما يمكن . وان تجاربكم في الحرب الاميركية الاخيرة ، وعدم وجود مصالح خاصة لدولتكم في مصر هما اللذان اوحيا اليَّ ان استدعيكم لتلك الخدمة . وسيحسدكم بعض الضباط المصريين على الحالة التي ستجدون انفسكم فيها . لذلك اسألكم ان تتحملوا هذه المظاهر بالصبر والتسامح . فاذا وصل الامر ولم تتحملوا فلا تترددوا في الحضور اليَّ لانصافكم . وانني اعتمد على حبكم واخلاصكم ومراعاتكم لشروط الكتمان لتعينوني على تحقيق استقلال مصر . ومتى تمَّ ذلك وسيتم باذن الله فسأكافئكم اعظم مكافأة[٢]

لكنهم لم يستلوا سيوفهم لمحاربة السلطان تحقيقاً لمطامع الخديو . لان اوربا ارادت ذلك على نحو ما وقفت امام محمد علي ... وكانت فرنسا وانجلترا يقظتين لجميع مشروعات اسماعيل

ولعلَّ اهم يوم في تاريخ خدمة الضباط الاميركيين في الجيش المصري هو يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ ففي ذلك اليوم عين الجنرال ستون رئيساً لاركان حرب الجيش المصري . وكان هذا التعيين نذيراً بانتهاء السيادة الفرنسية في الجيش بعد ان كانت هيئة اركان حربه معظمها ان لم يكن كلها في ايدي الضباط الفرنسيين

فأننا نعلم جيداً ان عقب حرب القرم (١٨٥٣—١٨٥٥) وبوفاة الجنرال سليمان باشا الفرنساوي رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصري في أيام محمد علي الكبير والبطل ابراهيم وعباس الاول وسعيد باشا ، اندثرت هذه الهيئة الى ان حاول اسماعيل بعثها

بدأ الجنرال ستون عمله في ربيع عام ١٨٧٠ . وقصد نظارة الحربية ليدرس ويكتب تقاريره فقسَّم هيئة اركان الحرب الى سبعة أقسام أو ادارات لكل منها رئيس أميركي . وأوصى بانشاء مدرسة لاركان الحرب . ففتحت أبوابها وانتخب لها عشرون طالباً من نابهي طلبة المدارس العالية وكان لتلك المدرسة الفضل الاول في اخراج طائفة مختارة من شبان الضباط المتعلمين بين الاعوام ١٨٧٣ و١٨٧٨ . فوزعهم على الاقسام العسكرية لهيئة اركان الحرب والاسلحة المختلفة [للبحث تتمة]

(٢) راجع كتاب شاييه لونج . ج ١ ص ٣٢ وعنوانه « حياتي في القارات الاربع »

السرطان والمرأة

أعراضه وتشخيصه

للدكتور فيليب الاشقر

﴿ اعراض السرطان ﴾ أعراض السرطان الرحمي سواء أفي جسم الرحم كان ام في عنقه متشابهة ولهذا سنذكرها هنا تاركين التفريق عند الكلام عن تشخيص الداء . وهذه الاعراض تختلف حدة باختلاف درجة السرطان فان اجتمعت كلها كان الداء في درجاته الاخيرة فعلى كل امرأة عندما تلاحظ شيئاً غير طبيعي في وظائف اعضائها الجنسية ان تراجع طبيبها وعلى الطبيب ان يجتهد في معرفة سبب هذه الاعراض هل هي سرطانية او لا . العارض الاول والمهم سيل الدم من المهبل . كل امرأة بمر على انقطاع طمثها فترة من الزمن ثم تعود ترى دماً يسيل من المهبل يجب ان تشتبه في وجود ورم سرطاني في رحمها . ولكي تستوثق من ذلك يجب ان تراجع طبيبها في الحال . اما في النساء اللواتي لم يزلن في سن التوالد فللنزيف المهبلي عدة اسباب غير السرطان فعليها ان تراجع الطبيب حالاً وعلى الطبيب ان يجد سبب هذا النزيف . وللنزيف الناتج عن وجود السرطان خصائص يجب معرفتها منها أنه يحدث على أثر استعمال حقنة مهبلية او مباشرة جنسية او رض ما والنزيف في الابتداء لا يكون متواصلاً بل يظهر مدة ثم ينقطع ومن خصائصه ايضاً ان يكون شديداً عند الحيض دون ان يكون هنالك سبب آخر لهذه الزيادة

﴿ العارض الثاني السيلان المهبلي المخاطي ﴾ السيلان المهبلي المخاطي كثير الحدوث في النساء واسبابه عديدة وكل امرأة تعودت ان تراه ، فوجوده بحد ذاته لا يدل على شيء مهم إلا اذا تغيرت طبيعة هذا السيلان فازداد مقداره او اصبح ذا رائحة كريهة أو غدا مصحوباً بألم شديد او ممزوجاً بخيوط دموية فالسيلان المهبلي بحد ذاته كاف لحمل المصابة به على استشارة طبيبها فكيف بها اذا لاحظت ان طبيعته قد تغيرت عما تعودته

﴿ العارض الثالث : الالم ﴾ وهذا العارض لا يظهر الا متأخراً عندما يمتد الورم السرطاني الى النسيج المجاور للرحم وهذا النسيج تكثر فيه الاعصاب فعدم وجود الالم لا يدل على عدم وجود الداء ووجوده دليل على ان الداء اصبح في ادواره الاخيرة

﴿ الاعراض المتأخرة ﴾ تظهر الاعراض عندما يصيب السرطان الاعضاء المجاورة كالمثانة والمستقيم ومجرى البول من الكليتين الى المثانة او الاعضاء البعيدة كالكبد والرئتين والسلسلة الفقرية وما شاكل

﴿ اعراض عمومية ﴾ وظهور هذه الاعراض يدل على قرب اجل المصاب وهي اصفرار شديد يقرب من لون الليمون الحامض وهزال ونقص في الوزن وفقر دم شديد واعياء عام وضعف الشهية للاكل ثم الاغماء والاسهال عند قرب النهاية

﴿ تشخيص داء السرطان الرحمي ﴾ سرطان الجسم او قعر الرحم — سبق وقلنا ان سرطان قعر الرحم اقل وقوعاً من سرطان العنق واكثر ما يصيب المرأة في العقد الرابع من عمرها وما فوق غير ان وجوده داخل الرحم لا يمكن لمسه عند الكشف الطبي ولا رؤيته بالعين المجردة فعند ما يشتبه في وجود السرطان يجب على الطبيب ان يجري على المريضة عملية القحط[1] وان يفحص المادة التي تأتي بها القاحطة فحصاً مكروسكوبيًّا وعملية القحط لاجل التشخيص ضرورية جدًّا في كل امرأة في سن الاربعين وما فوق تشكو نزيفاً مهبليًّا غير طبيعي وبالاخص اذا كان هذا النزيف بعد انقطاع الطمث عدة . ورغبة في زيادة الاستيثاق يجب تصوير داخل الرحم بعد حقنه بمادة لا تخترقها الاشعة المجهولة فأدنى تغيير في شكل الرحم المعروف يدل على وجود ورم طبيعي يجب ان يحقق نوعه . والسيلان المائي الدموي في سرطان قعر الرحم لا يكون مستديماً كما هي الحال في سرطان العنق بل متقطعاً فقد يأتي في فترات بين الواحدة والاخرى عشرة أيام او خمسة عشر يوماً ولربما كان ذلك ناشئاً عن تضيق في عنق الرحم

ومما يجب الانتباه لهُ في هذا العمر هو وجود الاورام الليفية في الرحم فهذه الاورام لا تسبب نزيفاً بعد انقطاع الطمث فان أصيبت امرأة بنزيف دموي بعد انقطاع طمثها وكان في رحمها أورام ليفية يجب ان لا تعالج هذه الاورام بالكهرباء ما لم يستوثق الطبيب من عدم وجود ورم سرطاني في قعر الرحم وذلك عند اجراء عملية القحط وفحص المادة التي تأتي بها القاحطة

ومن خصائص سرطان القعر الرحمي انهُ بطيء الانتشار وهذا ما يجعل معالجتهُ اكثر نجاحاً من سرطان العنق

﴿ تشخيص سرطان عنق الرحم ﴾ يمكن ان نقسم سرطان عنق الرحم من الوجهة التشخيصية الى ثلاثة أقسام الورم الظاهر بجميع أعراضه والورم الذي يمكن ان يشخصه الطبيب عند الكشف البسيط والورم في ابتدائه الذي لا يمكن تشخيصه الاَّ بعد الفحص الدقيق واستعمال جميع الوسائل الفنية لمعرفته

﴿ النوع الاول ﴾ امرأة في العقد الثالث فما فوق تشكو نزيفاً مهبليًّا متواصلاً ذا رائحة

(١) بمعنى الجرف وهي عامية في لبنان وتقابل لفظ Curettage

كريهة. قد يكون هذا النزيف مصحوباً بألم في أسفل البطن وأسفل الظهر او بدون ألم . يلمس الطبيب عند الكشف المهبلي ورماً يملأ المهبل سريع التفتت يدمى بسهولة ولا يجد أثراً للعنق بل يجد مكان العنق قروحاً وأوراماً لحمية مغطاة بأغشية التهابية صديدية وكل من يفحص هذه المرأة يعرف أنها مصابة بالسرطان

﴿ النوع الثاني ﴾ امرأة في الثلاثين من عمرها صحيحة الجسم لا تشكو الا من سيلان مهبلي مصحوب بقليل من الدم وهذا النزيف لا يظهر الا عند المباشرة او عند استعمال الحقن المهبلية بالفحص المهبلي يلمس الطبيب بأصبعه تضخماً في عنق الرحم وهذا التضخم نوعان حلمي او ليفي صلب ففي النوع الحلمي يظهر عند فوهة الرحم حلمات متعددة بعضها متعرج وهذه تنتشر الى الانسجة العميقة والى الغشاء المجاور

وفي النوع الليفي يكون عنق الرحم متضخماً على الشفة الواحدة نتوء قاس كقطعة الخشب وهذا النوع قلما يتقرح وهو كالنوع الاول يمتد الى الانسجة العميقة والى فوهة الرحم الداخلية ونمو هذا الورم يؤدي الى تآكل العنق وقد يكون العنق كله ورماً سرطانياً

﴿ النوع الثالث ﴾ ومن الصعب جداً معرفته بالفحص المنظاري او الكشف الطبي فهو بمظهره الخارجي لا يختلف عن الالتهابات العادية وهو احمرار موضعي او بقع منتشرة حول الفوهة وهذا النوع يستدعي دقة في الفحص الكلينيكي والفحص الميكروسكوبي

﴿ الفحص ﴾ الكشف اليدوي — علامات السرطان باللمس اليدوي هي القساوة وتفتت الانسجة والتضخم ونزف الدم من هذا اللمس ويستحسن في الحوادث المشبوهة ان يجري الفحص بدون قفاز ليتمكن الطبيب من الشعور بالتصلب والقساوة . والفحص اليدوي ضروري ليس لتشخيص الداء فقط بل لمعرفة مقدار انتشاره الى الانسجة المجاورة للرحم ففي كل حادثة سرطان رحمي يجب اجراء فحص المستقيم والمثانة وعلى مقدار انتشار الداء يتوقف امر المعالجة ونوعها والمنفعة التي يمكن ان ترجى من هذا الفحص

﴿ الفحص المنظاري ﴾ وهذا يكون بواسطة العين المجردة وبواسطة المكبر المعروف باسم Colposcope . الآفات التي تنظرها العين هي القروح ، والاورام والنتوآت واللطخ البيض Leukoplakia وتآكل رحمي ومن هذه الآفات ينزف مقدار من الدم يتفاوت بين النزف الشديد وبعض قطرات وهذا يتوقف على نوع الآفة وعلى مقدار انتشارها

ماتقدم ذكره يصدق على السرطان المتقدم اما السرطان في دوره الاول فيظهر كقرحة عادية او التهاب موضعي في شفة العنق او نتوء مرتفع قليلاً عن مستوى النسيج المجاور ففي هذه الحوادث يجب الاستعانة بالمكبر وبالتعامل الكيمياوي . المكبر يكبر الصورة اربعين مرة فتظهر

القروح واللطخ البيض ومقدار انتشارها. والتعامل الكيمياوي هو ان يوضع على العنق قليل من محلول (Lugal) يود ١ يودور البوتاس ٢ ماء ٣٠٠ فالنسيج السليم يصطبغ بهذا المحلول اصطباغاً كستانويًّا قاتماً. اما النسيج السرطاني فيبقى بلونه الاصلي اصفر وهذا الاصطباغ هو نتيجة للتعامل الكيمياوي الذي يحدث بين مادة اليود والمادة الكلكوجينية فالخلايا السرطانية تقدر ان تحول المادة الكلكوجينية اكثر من سواها فلا تصطبغ بمحلول اليود

﴿الفحص الميكروسكوبي﴾ كل طبيب يشتبه في وجود ورم سرطاني في الرحم او في عنقه ولا يأخذ قطعة صغيرة للفحص الميكروسكوبي يكون مقصراً في ما يجب عليه من الناحية الفنية نحو المريضة وأخذ القطعة عملية في غاية البساطة لا تحتاج الى اختبار جراحي ولكن المهم — وذلك في الادوار الاولى — ان تؤخذ القطعة من النسيج السليم قبل ان يكون الداء قد وصل اليها فاذا لم يتمكن الفاحص من معرفة المكان المشبوه بالفحص العادي فعليه ان يستعين اما بالمكبر واما بالتعامل الكيمياوي بمحلول Luzol

﴿فحص داخل العنق﴾ يبتدىء السرطان في بعض الحوادث في مجرى العنق بين الفوهة الداخلية والفوهة الخارجية فلا يمكن لمسه في بدائته او رؤيته ولكي يكون الفحص كاملاً يجب ان يشمل هذا المجرى حتى ولو ادى الى شق العنق شقاً مستطيلاً واظهار المجرى وفحصهُ فحصاً دقيقاً

﴿سير داء السرطان﴾ كثيراً ما تكون المرأة مصابة بورم سرطاني في رحمها وهي جاهلة وجوده فالاعراض في اولها مما لا تنتبه لهُ فليس هنالك عارض خاص بالداء فللسيلان الملوث بقليل من الدم او للازدياد اليسير في مقدار الحيض اسباب عديدة غير السرطان فان لم تراجع المرأة الطبيب في فترات معينة لمشاهدة سير العلة التي تسبب هذه الاعراض فان السرطان ينمو نموًّا مضطرداً الى أن يصل الى النسيج المجاور للرحم فعلى مقدار هذا الانتشار يتوقف نوع المعالجة والامل بنجاحها وقد قسمت لجنة درس السرطان في جامعة الامم سرطان العنق من جهة انتشاره الى النسيج المجاور الى اربع درجات

١ — الدرجة الاولى السرطان لا يتعدى عنق الرحم وعند الفحص يمكن ان يتحرك جسم الرحم بسهولة ولا أثر لتصلب في النسيج المجاور

٢ — الدرجة الثانية حيث يكون السرطان قد وصل بنموّه الى الجدار المهبلي غير ان الرحم والانسجة المجاورة لم تزل سليمة

٣— الدرجة الثالثة حيث يكون السرطان قد لحق بالنسيج المجاور للرحم فيكون الرحم ملتصقاً ولا يمكن معالجة هذا النوع معالجة جراحية . ٤— الدرجة الرابعة حيث يكون السرطان قد لحق بالاعضاء المجاورة كالمستقيم والمثانة والحالب او قد يكون قد انتقل الى عضو بعيد



العوامل الفعالة

في

الادب العربي الحديث

بهذا الفصل النفيس — في ما كان لكفاح القومية المصرية ، والثورتين العراقية والسورية ، والمشكلة الفلسطينية من تأثير في الادب العربي الحديث ولا سيما الشعر — يختتم العلاّمة الاستاذ أنيس المقدسي ، أستاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية ، الحلقة الاولى من دراسته الممتعة في «العوامل الفعّالة في الادب العربي الحديث» . وقد كان الموضوع الخاص بهذه الحلقة « بحث العوامل السياسية في المواطن الرئيسية للنهضة أي مصر والعراق والاقطار السورية من منتصف القرن الماضي الى الوقت الحاضر » . أما العوامل الاجتماعية والفكرية فلها فصول أخرى

ومن بواعث اغتباط المقتطف ان أتيح لهُ نشر هذه الفصول النفيسة الممتازة بالانصاف والتحليل العلمي التاريخي ووصف تقلب الحالة النفسية في الشعوب العربية خلال الفترة التي تناولها والتقصّي الدقيق . ولا يخفى على القارىء المتبصر ما تكبدهُ الاستاذ المقدسي من مشقّة في مراجعة الصحف والمجلات لاستخراج ما نشر فيها من انباء النهضة القومية العربية في شتى مراحلها وما قيل فيها من الشعر ثم في مراجعة الدواوين العربية التي طبعت ونشرت في سوريا ولبنان والعراق والمهاجر الاميركية فجاءت هذه الفصول «ديوان النهضة العربية» او هي مهّدت الطريق لوضع هذا الديوان ، لان الاستاذ المقدسي اضطر في معظم الاحيان الى الاكتفاء بمختارات من القصائد او حتى بمطالعها او أبيات منها فقط مراعاة لمقتضى الحال

ويسرنا ان نذيع ان هذه الفصول ستظهر قريباً مجموعة في كتاب على حدة يسهل اقتناؤه على جمهور المعجبين بها [المقتطف]

المشادة

بين الانتداب والاستقلال

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

وضعت الحرب الكبرى أوزارها وللوطنيين في البلدان العربية ، ولا سيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على ان عصبة الامم لم تلبث ان قررت ان هذه البلدان لا تزال في حاجة الى وصاية او ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب او الحماية (سمّهِ ما شئت) . فاعترى الشرق العربي شعور عام بالخيبة واستفزّ ذلك العناصر الوطنية فهبّت تسعى لنيل أمانيها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم أثر سياسي في شعر الحقبة الاخيرة . وهي تظهر في أربع ظواهر رئيسية : —

١ — كفاح القومية المصرية
٢ — الثورة العراقية
٣ — الثورة السورية
٤ — المشكلة الفلسطينية

ولنلق نظرة عجلى على كلّ منها

﴿كفاح القومية المصرية﴾ وهو قديم يرجع عهده الى بدء الاحتلال البريطاني ، على ان أول من نظمهُ وأول من وحد الاتجاهات الوطنية مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق أمين الرافعي إذ قال[1] — « تبددت بمصطفى كامل كلّ الاباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الامة بجنازته أروعَ مظهر اثبتت بهِ مصر أنها أمة حية لا تستطيع ان تعيش الاَّ أمة مستقلة »

(١) أبطال الوطنية (رضا) ١٩٢٣ ص ١٥

وقد ألهب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وجرّأ الشعراء على مهاجمة المحتلين ومطالبتهم بالجلاء ، كما دفعهم الى التغني بالحرية والكرامة القومية

فلا بدع ان نرى في الشعر العربي عند موته اتقاداً تتأجج فيه العواطف القومية كقول حافظ ابراهيم من يائيته المشهورة في ذلك الزعيم (١) : —

هنيئاً لهم فليأمنوا كلَّ صائح فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقهُ الى المجد فاستحيا النفوس البواليا
شهيد العلى لا زال صوتك بيننا يرنُّ كما قد كان بالامس عاليا
يناشدنا بالله ان لا تفرّقوا وكونوا رجالاً لاتسرّوا الاعاديا

وأشد من ذلك قصيدته في حفلة تأبينه ومطلعها (٢) : —

نثروا عليك نوادي الازهار وأتيتُ انثر بينهم أشعاري
زين الشباب وزين طلاّب العلى هل أنت بالمهج الحزينة داري
غادرتنا والحادثات بمرصدٍ والعيش عيش مذلةٍ وإسار
ما كان أحوجنا اليك اذا عدا عادٍ وصاح الصائحون بدارِ

ومنها : قم وامح ما خطت يمين كرومرٍ جهلاً بدين الواحد القهّار
جزع الهلال عليك يوم تركتهُ ما بين حرّ أسىً وحر أوار
متلفتاً متحيّراً متخيّراً رجلاً يناضل عنهُ يوم فخار

وقصيدته الذكرى ومطلعها: (٣)

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الذمم

ومنها : هنا الكميُّ الذي شادت عزائمه لطالب الحقّ ركناً ليس ينهدم
لبيك نحن الألى حرّكت أنفسهم لما سكنت ولما غالك العدم
قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
لبيك إنا على ما كنت تعهده حتى نسود وحتى تشهد الامم
فيعلم النيل أنا خير من وردوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم
يا أيها النشء سيروا في طريقته وثابروا رضيَ الاعداء أم نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته وكلكم كامل لو جازه السأم

(١) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١٠٧ (٢) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٠
(٣) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٧

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها —

المشرقان عليك ينتحبانِ في مأتم قاصيها والداني

وهي من عيون الشعر ويدور اكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب الناس. ومثلها قصيدة لخليل المطران تجدها في ذيل ديوانه (مطلعها « اعلى مكانتك الاله وشرّفا ») وهي اكثر من تسعين بيتاً عامراً وتُصوّر الفقيد زعيماً وطنيًّا ضحى بحياته في سبيل بلاده كقوله

مصر التي كافحتَ أُلدّ عُداتها متصدّراً لرُماتها مستهدفا

مصر التي سقت الجيوش مناقباً ومُنىً لتكفيها المُغير المجحفا

عرّفت اهليها حقيقة قدرهم وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرفا

ومن المراثي التي تذكر قصيدة احمد نسيم — ما بال دمعك لا هامٍ ولا جارِ[1] —

وبمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوقي قصيدة تنضح بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد[2]

لك الخُطبُ التي غصَّ الاعادي بسورتها وساغت للندامى

فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بغاما

بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافة او مناما

بنيت قضية الاوطان فيها وصيّرت الجلاء لها دِعاما

وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى البحث فيما تحتاج اليه من وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً عن الحركة الادبية التي احدثها موت مصطفى كامل فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨ . والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد

***

وينتقل لواء الجهاد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسّمت خوالج الامة المصرية وامانيّها بعد الحرب الكبرى . وقد اصبح مثالاً في الجهاد القومي لكل الامم العربية المجاورة فها هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال ، وها هو يُنفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل . ولما افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشترك فيه اكثر الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني واضرابهم . وبموت سعد بلغت الحماسة الشعرية اعلى درجاتها . فنظم في مصر ، كما نظم في سورية ولبنان والعراق والمهاجر

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣ (٢) الشوقيات ١ — ٢٧٧

ما لا يستطاع حصره الا في مجلد خاص ، من مراث تصف مناقبه العالية وكفاحه الوطني المجيد . وقد اقيمت له حفلات تذكارية متعددة نذكر منها على سبيل التمثيل تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهجر البرازيلي في سانبولو سنة ١٩٢٨ وقد اشترك فيهما أبرز الادباء في تلك الاقطار

ولم تمت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظل خلفاؤه يناضلون . وقد استطاعوا بثباتهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة فتم لهم تنظيم شؤونهم . ولم يلبثوا ان دخلوا عصبة الامم

وقد تخلل هذا النزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شتى كان لها أثرها الخاص في الشعر كحادثة دنشواي ورفع الحماية ، واعلان الملكية ، وثورة ١٩١٩ ، ومسألة الامتيازات الاجنبية، وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الا حلقات من سلسلة المشادة بين الانتداب والاستقلال

﴿ الثورة العراقية ﴾ من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت للعراقيين (كما نُشر لسواهم من ابناء العربية) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انما تقصد تحرير العرب لا فتح بلادهم . واليك نص هذا المنشور :—(١)

« إن الغاية التي ترمي اليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي اثارتها مطامع الالمان هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن تحت نير الاستبداد التركي تحريراً تامًّا وتشييد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد اتفقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وإن بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلديهما قط ارغام هذه البلدان على قبول نظامات معينة من اي نوع وجل اهتمامهما هو ان تضمنا لهذه البلدان بمساعدتهما الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخذونها عن محض ارادتهم سيراً منتظماً الخ الخ »

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلاليًّا تامًّا . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً (أيام فيصل) بالاستقلال وبالملك وهم لايزالون تحت نير الانتداب . ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سرًّا في موقفهم

(١) راجعه في « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسني ص ٨٥

واتفق الوجهاء ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من انجال الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادّت الى مؤتمر عام قدّم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي :— [١]

١ — الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامّة العراقية ليعين مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ — منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وأفكاره

٣ — رفع الحواجز البريدية بين انحاء القطر اولاً وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع بعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعذراً فعمدت السلطة الى سياسة الإرهاق، وقبضت على بعض الزعماء فنفت بعضاً واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الاّ بعكس المطلوب . فقد أحرجت الوطنيين ولا سيما سكان وادي الفرات حتى افتى امامهم الكبير محمد تقي الشيرازي بجواز امتشاق الحسام في وجه السلطة دفاعاً عن الحقوق القومية[٢]

وهكذا نمت فكرة اعلان الثورة . وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة حماسية وانشد قصيدة منها [٣]

بني يعربٍ لا تأمنوا للعدى مكرا خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا اضاليلهم في الهند والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح اذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول الجواهري من قصيدة [٤]

إلام التواني في الحياة وقد قضى على المتواني الموتَ هذا التنازعُ

وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها نهضات في سائر البلدان العربية يقول عن الثائرين

ويوم نضتْ فيه الفحول غطارفٌ يصان الحمى فيهم وتحمى المطالع
تشوّقهم للعز نهضة ثائر حنين ظماء اسلمتها المشارع
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانما على قدر اهليها تكون الوقائع
وما ضرهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع

(١) نقلاً عن العراق للحسني ص ٩٠
(٢) العراق — ص ١٠٣ (٣) العراق — ص ١٠٧ (٤) ديوانه (١٩٣٥) ص ٤٩

اذا استكرهوا طعم الممات فأبطأوا أُتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم ، ويعدد مناقب موري شرارتها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه : —

تثور به للموت نفسٌ أبيّة وتأبى سوى عاداتهن الطبائع

يطارحهُ وقع السيوف اذا مشى كما طارح المشتاق في الأيك ساجع

والقصيدة أكثر من ٧٥ بيتاً وكلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة أخرى في الثورة مطلعها (١)

ان كان طال الامدُ فبعد ذا اليوم غـدُ

ولخيري الهنداوي في الثورة قصيدة طويلة نارية الروح مطلعها (٢) — ايها الشرق هل فقدت الشروقا — ومنها مخاطباً وطنه

أنت أذنبتَ ام بنوك ام الظـــلاّم شاءوا ان يغصبوكَ الحقوقا

بيّتوا امرهم بليـلٍ وجاءوك جميعاً يتـلو فريق فريقـا

حاولوا — لا أبا لهم — ان يكون الـــشرق كالعبد مستضاماً رقيقا

فنهضنا كالأسد في اوجـه الـــقوم لنجتثّ بغيهم والفسوقا

ومنها : ويك لا ارتضي الحياة بذلٍّ قم فمزّقْ إهابها تمزيقـــا

وأدرْ لي في الرافدين حميّا الـــحرب صرفاً وكسّر الابريقا

ان موتاً يكون في ساحة العزّ لموتٌ أجدرْ به ان يروقا

الى ان يقول —

ليت شعري هل مبصر انا يوماً عَلَمَ ابن الحسين فيها خفوقا

تلك أمنيّتي فلا عيش الاّ ان أراها تهتزّ غصناً وريقا

ومن موقدي الشعور الوطني يومئذ الشيخ مهدي البصير شاعر الحلّة وهو من الذين اعتقلوا ونفوا . ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيدته « لبيك ايها الوطن » . ومطلعها (٣) —

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا فلتتسعْ بي للامام خطاكا

ومنها بك همتُ اوبالموت دونك في الوغى روحي فداك متى اكون فداكا ؟

ثق أنني سأذبُّ دونك باذلاً روحي لارخصها فما اغلاكا

فليسخط الغربيّ أني ناهضٌ أقصى رجائي ان أنال رضاكا

كذبتك أقطاب السياسة عهدها فلتضمننَّ لك الحياة ظُباكا

(١) راجعها في ديوانه ٢٣٦ (٢) الادب العصري (بطي) ١ — ١٦٦ (٣) الادب العصري ٢ — ٩٦

أفيطلبون لك الرعاية ضلة ماكان أقصرهم وما احجاكا
لو أنصفوك لحرروك لانهم ربحوا قضيتهم بظل لواكا

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري ، ومحمد ابي المحاسن، وعلي الشرقي، ومحمد الهاشمي، وسواهم . اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

***

اشتعلت الثورة فوقع من ضحاياها مئات من الطرفين . ولم تر بريطانيا بدًّا من مصالحة الثوار . فأصدرت منشوراً بالعفو العام . ثم « شكلت » للعراق حكومة وطنية موقتة الى ان يتم انعقاد مؤتمر عربي عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها

وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق ، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام على ان الشعب استفتي في امر انتخابه فنال ٩٦ بالمئة من الأصوات وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد القي فيه من الخطب والقصائد ما لم يتسع المقام لذكره . واليك انموذجاً منهُ قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد[1] وفيها يقول :—

إنا محيوك فاسلم ايها الملك ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفي تأييده الشعب والأحزاب تشترك
الناس من فرح إذ جئت ترأسهم من بعد ما قد بكوا من يأسهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهنأ بدولته الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعم الرافدين غداً فلا دمٌ بعد هذا اليوم ينسفك
جرى ليلحق ناس بابن فاطمةٍ حتى اذا تعبوا في جريهم بركوا
من هاشم من قريش من ذوائبها حيث الوشائج والارحام تشتبك

ومنها :
لله يا فيصلٌ ما انت مورثه للعُرب من شرف في شكره اشتركوا
في نهضة برجال كنت ترأسهم حيناً لتحرير اوطان بها انسبكوا
عش للرقيّ فانّ الشعب اجمعهُ مذ هبّ يفتح عينيه به شدكُ

***

ولا ينكر انهُ بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الاماني القومية لم تصل

(١) الادب العصري (بطي) ١ — ٤١

وثبة واحدة الى غايتها . فكان موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتوثبة لكنّ فيصلاً كان ربّاناً ماهراً فسيّر المركب بين اللجج برفق وحكمة ، واستطاع قبيل موته ان يوقّع معاهدة الاستقلال التام وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح التبرم فبرغم النهضة السياسية في العراق وبرغم ما كان يضيء في العهد الفيصلي من انوار الامل والاستبشار ظلّ فريق من كبار ادبائه يغلب عليهم التشاؤم فينفثونهُ شعراً قاتم اللون ناقماً سوء الحال . وزعيم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيدته للريحاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول (١) —

أأمين جئت الى العراق لكي ترى ما فيه من غُرر العلى وحجوله
عفواً فذاك النجم أصبح آفلاً والقوم محتربون بعد افوله

ومنها : واذا وقفت بدارسٍ من مجده فكوقفة الباكين بين طلوله
وانحبْ كما نحب الحزين مكفكفاً غُرب الدموع بجانبي منديله

ومنها : حال لو افتكر الحكيم بكنهه طولَ الزمان لعيَّ من تعليله
من ذا يبدله فان قوارعي يئست لعمر الله من تبديله

الى ان يقول : —

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطنٍ يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله

وتظهر هذه الروح في قصيدته في حفلة الحزب الوطني البغدادي للمستر كراين الاميركي (سنة ١٩٢٩) اذ يقول (٢)

واذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضّرع غربي الملابن
وطني الاسم لكن انكليزيّ الشناشن
قد ملكنا كلّ شيء نحن في الظاهر لكن...
نحن في الباطن لا نملك تحريكاً لساكن

ومثل ذلك قصيدته « الحرية في سياسة المستعمرين » (ديوانه ٤٢٦) وغادة الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧)

(١) ديوانه ٤٠٣ (٢) ديوانه ٤١٤

هذا الشعر المتبرّم الناقم كان شائعاً في الاوساط القومية المتشددة ويقابله شعر وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهضة الجديدة واثقاً بتقدمها . ومن امثلته ما قيل في العَلَم العراقي . والنهضة العربية ، وآمال الشباب والملك العربي والسيادة القوميـة وما الى ذلك كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فيصل الى جنيف (١٩٣١) تمهيداً لدخول العراق عصبة الامم (١) يفتتحها بوصف مناقب فيصل وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا أدعي انْ قد أتم نموه ... من كان امس بشكل طفل حاب
فلتلك ليست بالبعيد منالها ... عن كل شعبٍ طامحٍ وثاب
لكن اقول أريته مستقبلاً ... لا بالعديم سناً ولا الخلاب
كالشهد اول ما تذوّقهُ فمٌ ... ما زال بين لهاه طعم الصاب
فاليوم هاهو ذا بظلك يحتمي ... مثل احتماء العين بالاهداب

ومثل هذا القول بل واكثر منهُ استبشاراً وايماناً بالمستقبل يتجلى لك في كثير من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعهد خلفه الملك غازي الأول

﴿ الثورة السورية ﴾ ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى أول عاصمة خارج الحجاز نودي فيها بالاستقلال العربي . وهاك اول برقية وردت الى بيروت بعد دخول العرب دمشق (وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد الجزائري) — « بناء على تسليمات الترك فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

ومعلوم ان سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل . ثم حدثت حوادث وجرت مفاوضات سياسية لا مجال لذكرها الآن . وفي خلال ذلك تم لحكومة دمشق تنظيم المؤتمر السوري ممثلاً لجميع الاقطار السورية ومنها فلسطين فأعلن في ٧ اذار (مارس) سنة ١٩٢٠ المناداة بالامير فيصل ملكاً دستوريًّا على البلاد السورية (٢)

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده . ففي ٢٥ تموز (يوليو) من السنة نفسها دخل الجيش الفرنسي دمشق فاضطرَّ فيصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخمدت تلك الثائرة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغتبطون بها . فبعد ان كان الشعر العربي في حماهم شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية الخفاقة اصبح ذكريات مؤلمة كقول حليم دموس من قصيدة في وداع فيصل مطلعها : —

اضاعوه وكان فتىً هاماً ... وبالأوطان صبًّا مستهاما

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٠٦ (٢) راجع الثورة العربية (سعيد) ٢ — ٣٠

(أضاعوه واي فتىً أضاعوا) أضاعوا القلبَ واليدَ والحساما
فودّع في الدجى تاجاً وعرشاً ومملكةً وآمالاً جساما
هو التاريخ عاد فمُدّ اليه وصف غرناطةً تصف الشآما
سلاماً يا أبا الغازي سلاما يعزُّ على المروءة ان تضاما
أطعتَ عصابةً ضلّت فكانت بصدر جهادك الماضي كلاما
ولولا ذاك كُنت الملك فينا ولكن ابعدوا عنك الكراما
فسادت في رحاب القصر فوضى فلا رأياً هناك ولا نظاما

***

وكقول الغلاييني من قصيدة نظمها في دمشق (٢ك ١٩٢٠) ومطلعها — وقفت على الاطلال اطلال قحطان (١) —

لئن كنتمُ من قبل في يد غاصب ضعيف القوى من خمرة الجهل نشوانِ (٢)
فانكم ذا اليوم نهبٌ مقسّم بأيدٍ شدادٍ شرّها منكم دانِ
وقدتم وسيف القوم يرهف حدّه وما غمده الاّ طُلى آل عدنانِ

وله كثير مثل ذلك

وكذلك لخير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان (٣)

أبكي دياراً خلقتْ للجمال
ابهى مثال
أبكي تراث العزّ والعزُّ غال
صعب المنال
أبكي نفوساً قعدتْ بالرجال
عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال
الى خيال

وله قصيدة سماها الفاجعة (٤) نظمها على اثر واقعة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي الشام ومطلعها —

الله للحدثان كيف يكيد بَرَدى يغيض وقاسيون يميدُ

(١) ديوانه ص ٧١ (٢) يقصد الاتراك (٣) راجعها في ديوانه ٢٤ (٤) ديوانه ٤٢

ومنها ما في دمشق لناهض من عزّةٍ وبها سرادق غاصب ممدود
بلد تبوأهُ الشقاء فكلما قدم استقام له به تجديد

وبعد ان يصف الجيش وانخذال السوريين لتنافر زعمائهم يقول —

خدعوكِ يا أمَّ الحضارة فارتمتْ تجني عليك فيالقٌ وجنود
من ذا يكفكف أدمعاً مهراقة كالغيث تهطل حسرة وتجود
تسقي بها في الغوطتين مباسم ذهب النواح بمائها، وخدودُ

ولو راجعنا ما نظمهُ كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش الفيصلي، كخليل مردم وفارس الخوري وشفيق جبري، ومحمد البزم وفؤاد الخطيب ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واضرابهم وما نظمه زملاؤهم في سائر الأقطار العربية والمهاجر لوجدنا عليه مسحة من الألم تشف عن أسفهم على ماضاع من اماني وتبدَّد من احلام

***

في خلال ذلك كانت العراق (كما مرَّ معنا) تتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء سعد. وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري، فكان ذلك دافعاً لهم الى تنظيم الكلمة ومناوأة الانتداب

ولم تلبث هذه المناوأة ان انجلت عن ثورة ١٩٢٥

ولسنا نبحث الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها، على أننا نقرر هنا انها كانت خطوة كبرى في سبيل الهدف المنشود. فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية. ثم باعلان الجمهورية (سنة ١٩٣٢) وبالاتفاق مبدئيًّا على معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثير اشتركت فيه جميع الاقطار العربية. فمن مصر مثلاً شوقي وحافظ، ومن العراق الرصافي والجواهري، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي، والياس فرحات، والدكتور جورج صوايا، والياس قنصل، وابو الفضل الوليد

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلاييني وعلي الحوماني وابراهيم طوقان وفتى الجبل وسواهم فاذا أضفت هذه الاسماء الى أسماء شعراء سوريا الذين مرَّ ذكرهم والى اسماء كثيرين في انحاء البلاد العربية ممن لم يذكروا استطعت ان تقدر ما كان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي وانما نشير هنا اشارة خاصة الى دواوين الغلاييني، والحوماني، والشاعر القروي، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتأجج فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

﴿ الجامعة العربية والروح الاقليمية ﴾ رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة للعربية لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى. فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً ادارياً

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة الحجازية باسم العرب والملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة للجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في الهشيم ، وكانت ترمي الى احياء مجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والحجازية ثم تتدرّج الى سواها

حلمٌ جميل استعذبهُ السواد الاعظم من سكان تلك الاقطار ، وقد كان مصدر الهام لكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية. ولن ننسى يوم نُشر العَلَم العربي في بيروت وقد استولى فيه على الناس شعور غريب لا عهد لهم بهِ من قبل شعور الكرامة القومية الحرة . وكان الاحتفال في دار الحكومة. وهاك بعض ما قاله الخطيب « الرسمي » مخاطباً الشعب العربي (١) —

« ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالك وستكون خافقة فوق رأسك ما خفق فؤادك لها ، فان بقاءها هو اليوم في يديك . فان احببت لها البقاء فاستمت في حبها واعمل على اعلائها بين الامم . ان البلاد العربية اليوم هي بمثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها وملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول . واننا لا ننسى ابداً لحلفائنا ونخص منهم دولة انكلترا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها نحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى »

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية . ولم يشكك احد يومئذٍ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الحلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطيده

ودارت الايام فاذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية . واذا بالحكومات العربية الاقليمية تحل محل الدولة المتحدة ، واذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم ، الجامعة العربية والروح الاقليمية : —

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨) . وقد رأينا

(١) راجع جريدة صوت الاحرار ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٧

كيف برزت بعد الثورة ، وعبثاً حاول دعاة التقسيم اماتتها . فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد والتاريخ . وقد ساعد على احيائها في الادب بضع حوادث هامة — منها المشكلة الفلسطينية ، وموت الحسين ، وموت فيصل ، وتقدم الروح القومية في العراق وسوريا ، واتجاه مصر نحو الاخاء العربي

***

فالعرب عموماً يعدون مسألة فلسطين مسألة عربية عامة ولذا ترى الشعر العربي في كل قطر يعطف عليها كقول مهدي الجواهري (النجف) من قصيدة موضوعها فلسطين الدامية (١) —

فيا فلسطين ان نعدمك زاهرةً فلست أولَ حقٍّ غِيلةً هُضما
سورٌ من الوحدة العصماء راعهم فاستحدثوا ثغرة جوفاء فانثلما
ثار الشباب ومن مثل الشباب اذا ربع الحمى وشُواظ الغيرة احتدما
يأبى دمٌ عربيٌّ في عروقهم ان يصبح العربيُّ الحرّ مهتضما

وقول بشاره الخوري (بيروت) من قصيدة موضوعها جهاد الجبابرة (٢) —

يا جهاداً صفق المجد له لبس الغارُ عليه الارجوانا
شرف باهت فلسطين به وبناءٌ للمعالي لايدانى
إن جرحاً سال من جبهتها لثمته بخشوع شفتانا

والشاعر القروي (البرازيل) في اعاصيره من قصيدة موضوعها « وعد بلفور » —

الحق منك ومن وعودك اكبر فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازها مهج العباد خسئت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن من جيب غيرك محسناً يابلفرُ
عد من تشاء بما تشاء فانما دعواك خاسرة ووعدك اخسر
فلقد نفوز ونحن اضعف امة وتؤوب مغلوباً وأنت الاقدر

ولعل شعر ابراهيم طوقان (نابلس) اصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية ولولا حرج الحال لاثبتنا هنا كثيراً من نفثاته الوطنية المستمدة من شقاء فلسطين وسوء احوالها . وهي منشورة في مختلف الصحف السيارة كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها

اما الحسين ملك الحجاز ففي نقله الى قبرص ، ثم مبايعته بالخلافة في عمان ، ثم موته في تلك المدينة عبر أثارت الشعر العربي وأذكت فيه روح الرسالة القومية واننا نكتفي هنا بالاشارة

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٧٦ (٢) ملحق جريدة المعرض عدد ١١٠٥

الى بعض القصائد التي قيلت فيه وهي قلّ من كثر ، بل وشل من بحر

فلشوقي مرثاته : —

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها ابو الملائك هاشم

ولفؤاد الخطيب : —

هي المواكب فاشهد كيف تبتدر كالسيل مصطخب التيار ينحدر

اوفت تودع جثمان الذي نُعيت الى الجزيرة في اكفانه مضر

ولشفيق جبري : —

تلكم قريش وما جفت عواليها على الحطيم ولم تنشف مواضيها

من ذاكر في ظلال البيت ثورتها والعهد غير بعيد عن لياليها

ولابراهيم طوقان — ذكرى ثورة الحسين : —

اطلقي ذاك العيارا قدك ضيماً واصطبارا

يُطلب العز ابتدارا يدرك المجـد اقتسارا

ولبدر الدين حامد — في خلافته

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي

كم لبثنا السنين في وجل وذرفنا مدامع الحرَب

وله في منفاه الى قبرص: —

اسرفت فيما جئته يا زمانْ فما لعهدٍ منك يوماً امانْ

وللجواهري في ذلك : —

هي الحياة باحلاء وامرار تمضي شعاعاً كزند القادح الواري

وله مرحباً بالحسين الى العراق: —

أرى الشعب في اشواقه كالمعاق لما حدثوماً عنك يرجو ويتقي

وشبيهٌ بما قيل في الحسين ماقيل في ابنه الملك علي فقد نظمت فيه مراث وطنية تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلي ملاط : —

أمن جرح على جرح دميّ الامَ يصاب بيت الهاشميّ

فما كاد الحسين يغيب حتى تهاوت شهب فيصلَ والعلي

وأما فيصل فان موته كان عند أدباء العرب الفجيعة الكبرى وقد أقيمت له مآتم في مختلف الاقطار العربية وفي المهاجر . ولو جمع ما نظم في أعماله وفي تعداد مناقبه لملأت مجلداً ضخماً فهو عند الجميع بطل العروبة وحامل لوائها . واليك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المراثي فيه: —

لجميل الزهاوي — فجع المشرقين خطبٌ جليلٌ وعرى المغربين حزن طويل
لامين الريحاني — حلق النسر في الفضاء بعيداً — (وهي قطعة من الشعر المنثور)
لبشاره الخوري — لبستْ بعدك السواد العواصمْ واستقلت لك الدموع المآتمْ
لمحمد البزم — رُم عظيماً اذا أردت خلوداً وامتط الشهب في السماء صعودا
للدكتور أبي شادي — : هكذا هكذا شعوب تيتَّم أيها الموت ساء غنمك مغنم
لعلي محمود طه — تألق كالبرقة الخاطفهْ وجلجل كالرعدة القاصفهْ
للشاعر القروي — أقصِ التجلد ان العقل منهزمُ وأهون الخطب ان الدمع منك دم
لوديع البستاني — قمرٌ وبنت الفجر والثقلان يوم الخميس بحضرة الجثمان
لحليم دموس — هوى من سما علياته بعد ان سما فسالت عليه دمعة الارض والسما
لابراهيم طوقان — شيعي الليل وقومي استقبلي طلعة الشمس وراء الكرمل
لصلاح اللبابيدي —
كفكف دموعك وأعد شجو المأتم فالموت من جند المليك الاعظم
لصلاح الرفاعي — علم العروبة غار في العلياء لهفي على الاسلام والعرباء
لعبد المسيح محفوظ : — عبقري الملوك أي فؤاد اسكتتهُ يد الزمان العادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجية وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد الكشاف المسلم في صيدا : —

دافعت بالصدق عن حرمة الحق
والناس قد كانت في الغرب والشرق
تراك يا فيصل
تراك يا فيصل
اليأس قد أبلى في الناس واستولى
في رحبة الوادي عروبة ثكلى
تفديك يا فيصل
تفديك يا فيصل

***

﴿ الاقليمية والقومية العربية ﴾ يظهر ان اشتداد الاقليمية مقرونٌ باشتداد السلطة الانتدابية في العراق وفي سوريا ولبنان وفلسطين نشأت هذه الفكرة كما رأينا بعد استقرار الانتداب ، وهي ترمي الى فصل الاقطار العربية بعضها عن بعض روحيًّا وماديًّا وتطويق كل منها بحواجز اقتصادية وسياسية تجعل اتصالها بسائر الاقطار العربية أمراً متعذراً أو شاقًّا

وللوصول الى هذه الغاية اخذوا يبنون نظام التربية الوطنية والادارة الملكية والعسكرية على اساس الوحدة الاقليمية لا على اساس الجامعة القومية العربية . فالسورية مثلاً واللبنانية والفلسطينية والعراقية والمصرية والحجازية واليمنية وحدات مستقلة لا ترتبط بعضها ببعض الا كما ترتبط الصين بالهند او ايران وتركيا ، اللهمّ الاّ ما كان منها تحت انتداب واحد او ما كان منها مرتبطاً بمعاهدة خاصة فقد تظهر النزعة الاقليمية فيه في اخف الوانها

على ان ما نالتهُ مصر والعراق من السيادة الملكية ، وما يملأ صدور السوريين من آمال بالاستقلال قد انشأ من كل من هذه الاقطار شخصية مستقلة . شخصية تستطيع ان تفكر بما لها وما عليها بحاضرها ومستقبلها ولذلك تراها تقترب من فكرة التضامن القومي

وقد رأينا ان الادب المصري الصميم كان من قبل نفوراً من فكرة الجامعة العربية . ولكنهُ اخذ الآن يجاري الادب العراقي والسوري . بل اخذ ساسة مصر اليوم ينظرون بعين العطف الى ما كان اسلافهم قبل عشرين سنة يرمقونهُ شزراً . وها نحن نرى شيوخ الامة المصرية ونوابها يتحركون لنصرة فلسطين ويدعون الى عقد مؤتمر برلماني عربي (يمثل جميع الاقطار العربية) للبحث في هذه المسألة (١)

ولا ينكر ان السياسة لا تزال في جانب الاقليمية وربما ظلّت كذلك أحقاباً طويلة . اما شعور الامم العربية فانهُ يتّجه ببطء وثبات نحو التآخي العام . وقد كان الشعر العربي ولا يزال افضل وسيلة لإنماء هذا الشعور وتقويته . الشعر العربي اليوم سواء كان في مصر او العراق او الاقطار السورية أميل الى مصارعة الاقليمية فلا غرابة ان نرى لبنانيًّا في حفلة اقيمت له ببغداد (١٩٢٤) يقول من قصيدة مطلعها(٢)

غريبٌ قد طوى الفلوات سعياً الى هذي الربوع السندسيه

سلاماً نهر بغدادٍ فاني احيي في حماك الاريحيه
احيي فيك عن قومي اخاءً فسوريا شقيقتك الوفيه
إخاءً بين اهل الضاد يحيي امانيَ في نفوسهم الفتيه
ألا ان الزمان لقد دهاهم بما تهوى النفوس الاشعبيه
وفرّق شملهم حتى كأن الـ ـتخاذل بينهم امسى مزيه

---

(١) راجع تفصيل ذلك في صوت الاحرار ٢ تموز ١٩٣٨ (وما بعده)

(٢) للكاتب راجعها في مجلة الطلبة (بيروت) حزيران ١٩٢٤

وهل همغير اخوانفيحظوا ويشقوا في مساعيهم سويه
لنا بلساننا وطن كريم وفي تاريخه صلة قويه

وان نرى شاعراً مصريّاً كبيراً كاحمدمحرم ينادي الامة العربية بقوله من قصيدة مطلعها(١)

حيِّ المنازل واسأل امة العرب ما بال سهمك لم يظفر ولم يصب
بني العروبة هذا صوت شاعركم يرمي بهِ عربي الدار والنسب
يطوي البلاد اليكم لا يغالبه تحنان مرتحل او شوق مغترب
انا الذي ان شكوتم وقع نائبة نظرت حولي هل تهوي البسيطة بي
أعززْ عليَّ بما تلقون من عنتٍ وما تذوقون من همٍّ ومن نصب

ولا يمنع ذلك تغزّل اللبناني بلبنان والمصري بمصر والعراقي بالعراق ولكن يمنع هذا التنافر الاقليمي الذي ليس فيهِ الاَّ الضرر الجسيم على الشرق العربي . والذي يلوح لنا من تحليل العواطف الشعرية في مختلف البيئات العربية ان العراق وسوريا وفلسطين في مقدمة الداعين الى تعزيز القومية العربية العامة . أما في لبنان ومصر فلا يزال الصراع الروحي قائماً بين الفكرتين وقد بدأت الاقليمية تتراجع قليلاً الى الوراء . وانما هذا التراجع لما طرأ على فكرة الوحدة العربية من تطور في هذه الحقبة الاخيرة

فمعظم الداعين الى الوحدة الآن لا يؤمنون بما كان يؤمن به الدعاة الاول من توحيد الاقطار العربية في مملكة واحدة. ذلك أمر يرونهُ بعيد المنال . وانما هم يدعون الى تعاون عام، الى تحالف اخوي يشد أزر كل اقليم ولا يمس استقلاله التام . فمصر في رسالة الشعر العربي الحديث ستبقى مصر وكذلك العراق وسوريا وسواها . وستصير كل منها في طريق الحياة مستقلة عن الاخرى ولكنها ستمد الى جارتها يد الاخاء فتهدم من بين هذه الاقطار الحواجز الاقتصادية والسياسية بحيث يشعر كل عربي اللسان أن كل بلاد عربية هي بلاده وانه اذا اصاب اي قطر عربي حيف فعلى سائر الاقطار ان تهبّ لمساعدته

ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض استقلالاً ادارياً واقتصادياً ولكن بينهم رابطة لا تزول هي رابطة الاسرة التي تجعل منهم اخوة مهما تكن اختلافاتهم في الحياة حتى اذا ألمت بهم ملمة كانوا يداً واحدة فلا يتسنى لغريب ان يستعبدهم او يستذلهم

تلك هي رسالة الشعر اليوم فهل يحققها الزمان أو يمزقها ثم يحمل الى الاقطار رسالة بغير هذا العنوان ؟

(١) جريدة النداء (بيروت) ٧ حزيران ١٩٣٣

حديقة المقتطف

باقة اشعار

ابتهال

—

القيود

—

أفراح هائمة

—

على صفحة الماء

—

اذا استطعت

للشاعر الفرنسي سولي برودوم
[نقلها خليل هنداوي]



باقة اشعار

ابتهال

—

القيود

—

أفراح هائمة

—

على صفحة الماء

—

اذا استطعت

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

[نقلها خليل هنداوي]

حياة الناس في الدنيا غرورة

لكن النصرة في النوم حلمُ

اذا ما اصحت ضحكت عليه

وكانت تعلم قد كان وهمُ ؟

[illegible] .-

باقة اشعار

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

[نقلها خليل هنداوي]

ابتهال

آه لو تعلمين كيف أبكي وحدتي ووحشتي !
اذاً لخطرت مرة تجاه منزلي

آه لو تدرين ما عسى تولده نظرة بريئة في النفس الحزينة !
اذاً لتطلعت علي صدفة الى نافذتي

آه لو تعرفين أي طيب يحمله الى الفؤاد وجود فؤاد !
اذاً لجلست على بابي كشقيقة .

آه لو تدركين أنني أُحبكِ ، أو تعلمين كيف حبي !
اذاً لدخلت عليَّ ببساطة وسلام .

***

القيود

أردت أن احبَّ كل شيء
وإنّي لشقي لأنني عددتُ أسباب شقائي .
انَّ قيوداً لا تُحصى عدداً ، قيوداً واهية شقية في العالم الكامل ،
تذهب من نفسي الى الاشياء .

كل شيء يجذبني اليه في خطرة واحدة ، بجاذبية متعادلة .
الحقيقي يجذبني بلمعاته ، والمجهول بأستاره
ولمعة ذهبية مرتعشة تربط قلبي بالشمس
وخيوط طويلة ناعمة تجمعهُ بالنجوم .

الايقاع يقيدني باللحن الجميل
ورقة المخمل بالورود التي أمسّها
وببسمة أضع قيد عيني ،
وبقبلة أنصبُ قيد فمي .

حياتي متعلقة بهذه العُقد الواهية
وأنا أسير ألوف من الكائنات التي أحبها
وبأضعف رجفة تثيرها نفخة فيها
أحس ان قليلاً مني ينفصل عني . . .

***

أفراح هائمة

يدرك الانسان دائماً اسباب شقائه
ولكنهُ يفتش أحياناً عن أسباب سروره
واني لأتيقظ حيناً ساطع النفس
يؤثر فيها رقة غريبة لا أستطيع امساكها

سماء وردية تسطع على وجودي ومنزلي
فأحب كل الوجود ، ودون ان أدري لماذا ؟ اراني أشع !
لكن هذا لا يدوم الا ساعة ، ثم أحس تسرّب الظلمات الى نفسي

من أين تقبل انوار هذا الفرح الفجائية ؟
وهذه الفراديس المتفتحة التي لا تُرى الا استشفافاً .
وهذه الكواكب المجهولةُ في ليل الاعوام ،
التي تجري تاركة أعماق الفؤاد أشد سواداً ؟

هل نيسان قديم يضيء لونه
وربيع يولد من رماد الأيام ؟
كنار خامدة تطرح لمعة . . .
ام هو التفاؤل السعيد لأيام الحب المقبلة ؟

لا . ان هذا الأثر الخفي السريع
ليس له ذكرى ولا شعور به
قد يمكن ان يكون سعادة هائمة تسافر ،
وهي — ضالة الفؤاد — ولا تضيء علينا الاّ لحظة . . .

***

على صفة الماء

جلسا على ضفة موجـة جارية ، ينظرانها تجري
اذا سرت سحـابة في الفضـاء ، يبصر انها تسري
واذا سطع دخان خلل السقوف ، يرمقان الدخان
واذا عبق حولهما أريج من زهرة ، ملأ نفسيهما بالأريج
وإذا فتنتهما ثمرة يأكل منها النحل ، اكلا منها
واذا غرد عصفور في الغابة المصغية اليه ، أنصتا لتغريده
واذا هدر الماء حيث يهدر تحت الصفصافة ، سمعا هديره
وهما لا يحسان — ما دام هذا الحلم — ، بدوام الزمان
ولا يحملان من الهوى العميق ، الاّ عبادة متبادلة
دون ان يتبرما بخصومات الوجود ، لانهما يجهلانها
وهما وحدهما سعيدان تجاه كل ما يحمل السأم ، دون أن يسأما
ويشعران بالحب ازاء كل ما يمشي ، دون أن يمشيا .

اذا استطعت

آه لو استطيع الرواح اليه لأقول له :
« انها لك . وانها لم تمنحني شيئاً ، حتى ولا صداقة .
ليس عندي منها شيء لهذه الناكثة ...
لكنها صفراء شاحبة ...
كن مشفقاً عليها ، رؤوفاً بها .

أصغ الي دون ماغيرة
لأن جناح هواها لم يستطع شيئاً — ووالهفاه — الا أن يمسني خفيفاً
وانني أدري كيف تدفع يدها !
ولكن ما أرق نفسها على من تهوى !
لا تتركها تبكي أبداً . . .

آه لو استطعت الغدوّ اليه لأقول له .
« انها كئيبة ، متأنية الابتسام ،
أعطها أزاهير كل يوم .
وليكن الزهر الأزرق أكثر من الورود .
لان أعطية الاشياء الحقيرة تؤدي الحب .

أستطيع ان أحيا بالفكرة التي هي عزيزة
عليكما — لا أنا — ولكن قلبي .
أيتها الطفلة اللئيمة التي هجرتني أنظري الألم الذي أورثتنيه .
لا أقدر على شيء يعطيك السعادة . . .

يبدأ المقتطف في الشهر القادم في نشر سلسلة من المقالات موضوعها «الحركة الادبية في سوريا ولبنان» بقلم الكاتب والشاعر اللبناني الياس ابي شبكة

سير الزمان

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٨

حوادث فبراير

استقالة ايدن واتفاق روما

الانشلوس

اضطراب الوزارات الفرنسية

الطريق الى مونيخ ومنها

من وشنطن الى ليما

الحربان في أسبانيا والصين

جنون التسلح

أقطاب الرجال

الشؤون الدولية

في سنة ١٩٣٨

توطئة

انتهت سنة ١٩٣٧ وأهلّت سنة ١٩٣٨ وليس في أفق السياسة الدولية غيوم تبعث على القلق والجزع الا غيمة الحرب الاهلية الاسبانية. وكان الامل معقوداً حينئذٍ بامكان الاتفاق على تنفيذ مشروع عدم التدخل بسحب المتطوعين الاجانب من اسبانيا، على ان يلي ذلك توسط يزيل اسبانيا من حلبة السياسة الدولية كباعث من بواعث الاضطراب. الا ان الكتّاب السياسيين الذين ظنوا هذا الظن ما كان في وسعهم أن يتصوروا ما سوف تجيء به السنة الجديدة من الحوادث الجسام، التي غيرت من الخارطة الاوربية وبدلت من أوضاعها السياسية، واقتربت بدول اوربا الكبرى من شفير حرب عامة. فسنة ١٩٣٨ تتصف بأنها كانت أقتم سنة مرت بالعالم بعد انتهاء الحرب الكبرى، ولولا مقت الشعوب الصادق للحرب وويلاتها، وبقية حكمة وتساهل في رؤوس بعض الاقطاب لكنّا الآن نعاني من هذه الويلات، ما لا يتصوره خيال

حوادث فبراير

لعل شهر فبراير من سنة ١٩٣٨ كان أهم شهر في السنة الماضية ما عدا شهر سبتمبر، من ناحية الحوادث التي حدثت فيهما. بل لعل الحوادث الخطيرة التي حدثت في سبتمبر وكادت تزج العالم في حرب طاحنة، ترتد الى الحوادث التي حدثت في شهر فبراير

كانت عادة الهر هتلر ان يدعو الرخستاج في يوم ٣٠ يناير من كل سنة — وهو عيد تقلده منصب المستشار وكان ذلك في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ — فيلقي عليه خطبة يلخص فيها اعماله واحوال المانيا في عهد النظام الوطني الاشتراكي، ثم يلمح أو يصرح ببعض ما ينويه في المستقبل. ولكن انقضى ٣٠ يناير من سنة ١٩٣٨ والرخستاج لم يجتمع لسماع الخطبة التي جرت بها التقاليد، فأخذ الناس يسألون عما يدور في طي الخفاء في المانيا، ولكنهم لم يلبثوا بضعة أيام حتى انكشف الغطاء اذ أعلن في يوم ٤ فبراير ان المارشال فون بلومبرج، وزير الحربية، والجنرال فون فرتش قائد الجيش قد استقالا وان سبعة من قواد الجيش وستة من قواد سلاح الجو قد أحيلوا على المعاش: وعين الجنرال فون براوشتش قائداً للجيش وتقلد الهر هتلر نفسه القيادة العليا للقوات المسلحة وعين الجنرال فون كايتل رئيساً لاركان حربه

ولم يقتصر عمل « التطهير » على ضباط الجيش بل امتدت يد النقل والتبديل الى وزارة الخارجية ، فنقل البارون فون نوراث وزير الخارجية رئيساً لمجلس سري يستشيره الهر هتلر في الشؤون الدبلوماسية وعين الهر فون ربنتروب سفير المانيا في لندن وزيراً للخارجية واجري تبديل في مناصب السفراء والوزراء المفوضين

فكانت هذه الحوادث ايذاناً بتفوق العنصر المتطرف في مجالس الحزب الوطني الاشتراكي على العنصر المعتدل واشارة الى ما قد يحدث في المستقبل القريب . وفعلاً لم ينقض اسبوع على هذا الحادث حتى دعي الدكتور شوشنج مستشار النمسا الى برختسجادن حيث أبلغهُ الهر هتلر — وكان يحيط بهِ اقطاب الحزب والجيش — ان النمسا تتصرف تصرفاً لا يليق بدولة جرمانية او هو تصرف مناقض لاتفاق ١١ يوليو ١٩٣٦ وأملى عليهِ وجوب تعديل وزارته بحيث يدخلها الهر تسايس انكوارت النازي النمسوي وزيراً للداخلية . وقد حاول الدكتور شوشنج في هذا الاجتماع أن يؤيد موقف حكومته والدفاع عن استقلال النمسا بابراز مشروع لاخذ النمسا بالعنف قيل انهُ وجد في مقر الحزب النازي النمسوي ، ولكن الغضب البادي في حملة الهر هتلر عليهِ ، ومظاهر القوة ممثلة في اقطاب الجيش أقنعاه بالخطر الذي يواجههُ فخرج من برختسجادن ، عائداً الى فينا وهو مغلوب على أمره

وأعلن في المانيا ، ان الخطبة التي كان ينتظر ان يلقيها الهر هتلر يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٨ سيلقيها في ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ وما كاد مساء عشرين فبراير المذكور ينتهي حتى كانت الخطبة قد ألقيت ، ولكن اسلاك العالم البرقية كانت مشغولة حينئذٍ بنبإٍ حجبها ، نعني نبأ استقالة المستر انطوني ايدن من وزارة الخارجية البريطانية

استقالة ايدن واتفاق روما

كان الخلاف بين المستر ايدن والمستر تشمبرلين قد بلغ أشده في ذلك اليوم على موضوع التفاهم مع ايطاليا . فايدن من اولئك الساسة المثاليين الذين أملت عليهم معرفتهم بوقائع الحالة الدولية ان يقف موقفاً حازماً ، من مطامع البلدان الدكتاتورية ، والوعود التي تقطعها ثم تتنكر لها . والمستر تشمبرلين من اولئك الساسة العمليين ، الذين يعتبرون الاعمال السياسية كالاعمال التجارية التي ترعرع في احضانها . فالاول لا يريد أن يتفق مع ايطاليا الا اذا أقامت الدليل الفعال على حسن نيتها بتصفية المسألة الاسبانية ، والثاني يعتقد ان التفاهم معها مستطاع بقليل من حسن النية . وتعذر على المستر ايدن ان يقتنع بموقف رئيسهِ ، فاستقال فهزت استقالتـه الوزارة البريطانية ، ولكن ما لبثت الحالة الداخلية في بريطانيا حتى استعادت استقرارها وعين لورد هاليفاكس — نائب الملك سابقاً في الهند — وزيراً للخارجية محل المستر ايدن

ومن ثم أقبل المستر تشمبرلين على بذل السعي للتفاهم مع ايطاليا (٢١ فبراير)، وعهدباجراء المفاوضات الى لورد بيرث سفير بريطانيا في روما ، فاتصل بالكونت تشانو وزير خارجية ايطاليا لهذا الغرض مدى شهرين تقريباً . فلما حدث حادث ضم النمسا الى الريخ الثالث في أواسط مارس — وسيجيء ذكره فيما يلي —كان لهذا الحادث صدى كبير في نفوس الايطاليين ، فاستعجلت المفاوضات الدائرة بين بيرث وتشانو حتى انتهت الى اتفاق روما المشهور الذي وقع في روما يوم ١٦ ابريل قبيل أحد الفصح المجيد ،

وقد انطوى هذا الاتفاق على بروتوكول وثمانية ذيول واتفاق حسن جوار تشترك فيه مصر ورسائل عدة تبادلها الكونت تشانو ولورد بيرث ووزير مصر المفوض في روما . أما البروتوكول فقد أكدت فيه رغبة الدولتين في وضع العلاقة بينهما على أساس دائم يعزز قضية السلام وانه متى وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ تجري مفاوضات لوضع اتفاقات خاصة بحدود السودان وكنيا والصومال البريطاني من ناحية وشرق افريقية الايطالي من ناحية أخرى . أما الذيول فأحدها أكد الاتفاق الانكليزي الايطالي الذي وقع في روما في ٢ يناير ١٩٣٧ خاصًّا بالبحر المتوسط وبالمحافظة على الحالة الراهنة فيه ونفى نية ايطاليا أن تبدل من موقف اسبانيا وممتلكاتها، ونص آخر على تبادل المعلومات الخاصة بالاعمال الادارية وتبديل توزيع القوات البحرية والجوية والبرية في الاراضي الواقعة على سواحل البحر المتوسط والبحر الاحمر وخليج عدن وغيرها اجتناباً لسوء الظن، وفي ذيل آخر تعهدت الدولتان باحترام وحدة واستقلال المملكة السعوية العربية واليمن واتفقتا على أنهُ من مصلحتهما ألاَّ تتدخل دولة ثالثة هناك . وعالج الرابع موضوع الدعاية في الشرق الادنى وخامس موضوع بحيرة تانا وفي السابع والثامن تعهدت ايطاليا بألاَّ تجند من الاحباش الاَّ ما يلزمها لاعمال البوليس والدفاع المحلي

أما في المذكرات التي تبودلت فقد تعهدت ايطاليا بنقص قواتها في لوبيا بمعدل الف في الاسبوع حتى تصبح قواتها هناك في منزلة القوات المألوفة إبَّان السلام . وتعهدت بريطانيا بأن تبذل المساعي اللازمة في مجلس العصبة للاعتراف بالسيادة الايطالية أو لازالة العراقيل التي تحول دون الاعتراف بالسيادة الايطالية في الحبشة . واشترطت بريطانيا ألاَّ ينفذ الاتفاق الاَّ بعد تسوية المسألة الاسبانية ، ولكن لم يعين معنى « التسوية » وكيف تكون

وعلى هذا وقع اتفاق روما في ١٦ ابريل ، وبدا لمتتبعي السياسة البريطانية ان تشمبرلين نجح حيث اخفق ايدن مع ان كثيرين ظلوا يعتقدون ، ان اسبانيا — وهي المحك لحسن نية ايطاليا — ستوقظ اتباع تشمبرلين الى خطإهم وتنبههم الى حقيقة الحال ، وفعلاً ظلوا على رأيهم هذا ، حتى ١٧ نوفمبر عندما اقترح المستر تشمبرلين تنفيذ الاتفاق . فانهم اعترضوا عليه ، بأن سحب

عشرة آلاف من المشاة الايطاليين من اسبانيا ، لا يمكن ان يعتبره عاقل حلاً او تسوية للمسألة الاسبانية وما تنطوي عليه في حالتها الحاضرة من المخاطر الاستراتيجية لانكلترا وفرنسا . الاّ ان المستر تشمبرلين فاز على منتقديه في مجلس النواب ، فأقر اقتراح ابرام الاتفاق وتنفيذه،لان الحزب المحافظ كان من ورائه يشد أزره

وبعد توقيع الاتفاق في ابريل ، عقد مجلس العصبة اجتماعه الدوري في مايو ، وحضره لورد هاليفاكس واقترح فيه ان يُحَلّ أعضاء العصبة من القرار السابق الذي مداره « عدم الاعتراف » بأي تبديل جغرافي يتم بالقوة ، فقبل الاقتراح ، وكذلك حلت بريطانيا وفرنسا من قيد« عدم الاعتراف»، وفي نوفمبر أرسلت الاولى اوراق اعتماد جديدة الى سفيرها في روما موجهة الى « الملك والامبراطور » فكان ذلك ايذاناً بالاعتراف الموعود ، وجارتها فرنسا فعينت المسيو فرنسوى بونسيه سفيرها سابقاً في برلين سفيراً في روما وارسلته بأوراق اعتماد موجهة الى الملك والامبراطور كذلك ، بعد ان ظلت سفارتها في روما نحو سنتين لا يشغلها الاّ موظف من درجة قائم بأعمال

الانشلوس

عودة يسيرة الى الوراء . فقد قلنا في ما تقدم ان الهر هتلر أنذر الدكتور شوشنج بوجوب تعيين الهر تسايس انكوارت وزيراً للداخلية فعينه في ١٦ فبراير . ولكن ما عاد شوشنج الى فينا مغلوباً على أمره ، واتصل ببعض العناصر الراغبة في المحافظة على استقلال النمسا ، حتى استرد قليلاً من شجاعته وقوته المفقودتين في برختسجادن أمام مظاهر القوة الغاشمة،وأعلن في خطبة حازمة اللهجة ان التسليم له حدود يقول عندها « الى هنا وكفى » . وكان ذلك اشارة منهُ الى نشاط النازي النمسوي . ثم اعلن انه ينوي اجراء استفتاء يدور حول استقلال النمسا في ١٣ مارس ، فأحدث هذا القرار صدى غريباً في دوائر النازي الالمانية ، التي كانت تطالب دائماً بالاستفتاء اعتماداً على قوة اتباعها من النمسويين . ولكنها أبت ان توافق عليه الآن ، واعتمدت في ابائها على ان قرار الاستفتاء ليس من حق رئيس الحكومة ، وعلى ذلك ارسل الهر هتلر انذارين في ١١ مارس الى فينا طلب في الاول الغاء الاستفتاء وفي الثاني طلب استقالة الدكتور شوشنج وتأليف وزارة اخرى محل وزارته يكون ثلثاها من النازي النمسوي ، فاستقال الدكتور شوشنج في مساء يوم ١١ مارس منعاً للحرب وحقناً للدماء لعلمه بما يتوقع اذا أصرّ على البقاء في منصبه والدفاع عن استقلال النمسا.وفي يوم ١٢ مارس اجتازت الجيوش الالمانية الحدود النمسوية ودخل الهر هتلر مدينة لنز دخول الظافرين وصدرت في يوم ١٣ مارس مراسيم في برلين وفينا

أعلنت ان النمسا اصبحت جزءاً من الريخ الالماني وفي يوم ١٤ مارس دخل الهر هتلر فينا . وفي ١١ ابريل اي بعد انقضاء شهر على استتباب الامر للنازي في النمسا حدث الاستفتاء النمسوي الخاص بالانضمام الى الريخ فكانت الموافقة على هذا الانضمام ٩٩ في المائة

اضطراب الوزارات الفرنسية

حدثت حوادث النمسا،وفرنسا بغير وزارة . ذلك ان المسيو شوطان كان قد استقال للمرة الثانية في سنة ١٩٣٨ وقد كانت استقالته الاولى في ١٤ يناير فقبلت وقضى رئيس الجمهورية خمسة ايام في استشارة الزعماء وعهد الى غير قطب واحد بتأليف الوزارة التي تليها . فعجزوا وأخيراً تمكن شوطان من تأليفها ثانية في يوم ١٨ يناير ، فكان تأليف هذه الوزارة الشوطانية قائماً على حزب الراديكاليين الاشتراكيين دون الاشتراكيين ، اي ان وزارة شوطان هذه كانت دليلاً على تصدع الجبهة الشعبية التي تألفت في سنة ١٩٣٦ وفازت في الانتخابات النيابية تلك السنة وكان قوامها الراديكاليين الاشتراكيين والاشتراكيين والشيوعيين . الا ان وزارة شوطان التي تألفت في ١٨ يناير لم تلبث حتى سقطت في ١١ مارس—يوم الانذار الالماني للنمسا— وفي اليوم التالي والذي يليه تم « الانشلوس » ، وكان الرئيس قد عهد الى المسيو بلوم زعيم الاشتراكيين ، فحاول ان يؤلف وزارة قومية يمتد أساسها من يمين الوسط الى يسار الاشتراكيين فأخفق في ذلك فاكتفى بتأليف وزارة على طراز وزارته الاولى أي وزارة مستندة الى تأييد الاشتراكيين والراديكاليين الاشتراكيين . ولكنها لم تعمر لانها اصطدمت بمجلس الشيوخ الذي عارض في برنامجها الاقتصادي المالي وأبى ان يمنحها السلطة المطلوبة فآثرت الاستقالة على احداث ازمة دستورية في حين ان الاخطار الخارجية كانت تهدد البلاد ، وكان ذلك بعد انقضاء شهر او نحو شهر على تأليفها ، فدعي المسيو دالادييه الى تأليف الوزارة الجديدة ، فأسسها من الراديكاليين الاشتراكيين وبعض من أيدهم من أحزاب الوسط ، وبذلك زاد ظهور الصدع في الجبهة الشعبية ، فلما تقدمت هذه الوزارة الى المجلس في دسمبر بعد عودته الى الاجتماع ، تم انهيار الجبهة الشعبية عندما اقترع الاشتراكيون والشيوعيون ضد دالادييه ، ولم تفز الوزارة على خصومها في المجلس الا بتأييد احزاب الوسط واليمين

هذا التقلب في الوزارات الفرنسية مظهر للقلق الذي يسود البلاد . فالحالة الاقتصادية متفاقمة فيها ، العمال لايرضون بديلاً عن التشريعات التي تمت لمصلحتهم في عهد بلوم الاول ، واصحاب الاموال يرون في هذه التشريعات سبيل الخطر على أموالهم ، فلا يرضون بابقائها في فرنسا خوفاً عليها والحكومة واقعة بين المطرقة والسندان ، تريد زيادة العمل في المعامل لكي تنجز أعمال

الدفاع بحيث تصبح القوة الحربية متكافئة ومكانة البلاد الدولية ، وهذا لا يكون الاّ بزيادة ساعات العمل ، وبعودة رؤوس الاموال ، ومن هنا المراسيم التي استصدرها المسيو رينو وزير المالية الجديد ، التي حملت اتحاد العمال على اعلان اعتصاب عام عالجهُ المسيو دالادييه بالحزم فلم يصب القائلون بالاضراب الاّ قسطاً يسيراً من النجاح ، وكان القسط الاكبر من النجاح في جانب الحكومة . ولكن هذا لا يعني ان وزارة دالادييه ثابتة ، مستقرة ، وانما الحوادث الخارجية تقضي على الفرنسيين بالاتحاد ، والاتحاد الصادق غير مستطاع ما زال هناك شعور بالجور ولولا الخطر الخارجي لما رأينا في فرنسا حتى مظاهر الاتحاد . فالمستقبل في فرنسا قائم على ما يلوح لنا الآن

ومما لا ريب فيه الآن ان فرنسا غدت بعد حوادث السنة الماضية دولة من الطبقة الثانية في اوربا ولا سيما بعد ضم النمسا وانهيار نظام محالفتها في اوربا الوسطى والشرقية على أثر مونيخ

الطريق الى مونيخ ومنها

الطريق الى مونيخ مرَّ بمكدن في منشوكو ثم بأديس ابابا في الحبشة ثم ببلباو في اسبانيا ثم بفينا عندما تم الانشلوس . وكان الطريق محفوفاً على جانبيه بألواح كتب عليها «لانخفض السلاح الاّ بعد ضمان السلامة» (فرنسا) و « أطلقوا الرصاص على هؤلاء الكلاب» (روسيا) و« احرصوا على الابتعاد عن اوربا » (اميركا) و «انقذوا العالم من الحرب » (دعاة السلام في كل ارض)

هذا الطريق المفروش بصرعى منشوكو والحبشة وأسبانيا الجمهورية والعقوبات هو الطريق الذي أفضى الى مونيخ ، فأضيف الى الاشلاء التي فرش بها شلو تشيكوسلوفاكيا

لم يطل المطال على ضم النمسا حتى بدأ كل مشتغل بالسياسة الدولية يقول ومتى يجيء دور الالمان السوديت. والواقع ان دور السوديت جاء في مايو ولكن حزم الحكومة التشيكوسلوفاكية حال حينئذٍ دون المأساة التي مثلت في سبتمبر ، إذ سارعت الى التعبئة ولو وقعت حوادث على الحدود حينئذٍ لأفضت الى نشوب الحرب ، ولخاضتها فرنسا حتماً . وانقضت أزمة مايو ولكن مشكلة السوديت لم تنقض

ما العمل ؟ بريطانيا تعلن بلسان رئيس وزرائها انها لا تستطيع ان تقف بمعزل عن حوادث أوربا الشرقية . وفرنسا تؤكد غير مرة لوزير تشيكوسلوفاكيا في باريس ، بأنها عازمة على تنفيذ المعاهدة التي تربطها ببراج . والصحف الالمانية ، ومحطات الاذاعة الالمانية لا حديث لها الاّ مصائب السوديت وما يتعرضون له كل يوم من صنوف الاضطهاد . والهر هنلين يخطب فيطلب ان تكون السوديت دولة داخل دولة . ولكنهُ لم يشر مرة الى الضم الصريح حتى تكرم به المستر تشمبرلين بعد اشارة اليه في التيمس

يوليو مضى على ذلك وأغسطس ثم جاء شهر سبتمبر الضغط من ناحية المانيا يزداد . واللورد رنصيمن يحاول ان يبدع حلولاً بغية التوفيق . ولكن ما فعله رنصيمن في الواقع كان ان عود التشيكوسلوفاكيين فكرة التسليم بقليل هنا ثم بقليل هناك ، حتى اذا جاءتهم الضربة الكبرى ، كانت مشيئة المقاومة فيهم قد انكسرت ،وكذلك ضمن تشمبرلين ودلادييه سلامة لندن وباريس ، على حساب تشيكوسلوفاكيا . بين رحلة تشمبرلين الى برختسجادن ورحلته الى جودسبرج تراوح الامل بين الشعوب ، بأن يغلب الحل المعقول او تقابل القوة بالقوة ، فلما كانت رحلة مونيخ ، كان التسليم فيها بأكثر مما طلبه الهر هتلر في مذكرة جودسبرج التي أبلغها تشمبرلين الى براج وأبى ان يتحمل تبعة الاشارة بقبولها

وكذلك تغيرت خارطة أوربا للمرة الثانية في خلال ستة أشهر فضمت الى المانيا مناطق من تشيكوسلوفاكيا فيها المان وفيها تشكيون وفيها صناعات ومناجم وخط من الحصون عظيمة الشأن. « وتشن » بولندة منطقة تشن . وأخذت هنغاريا منطقة في الجنوب . ومنحت سلوفاكيا استقلالاً ذاتياً . وأصبحت تشيكوسلوفاكيا المبتورة تابعاً يدور في فلك المانيا السياسي والاقتصادي وغدت بلدان أوربا الوسطى وشرقها الجنوبي ، تترامى على أقدام المانيا ، لانها وقد كانت في الماضي تعتمد على فرنسا في الغالب ، أمست وهي لا تستطيع الاعتماد عليها ، بعد تحصين منطقة الرين وانهيار قلعة التشيك

وما نالت انكلترا ؟ سلاماً مؤقتاً وتصريحاً بأن المشكلات تحل بعد الآن بالمباحثة وبغير حرب وبأن الهر هتلر لا مطالب لهُ في اوربا خاصة بالاراضي وأن مشكلة المستعمرات لن تحل بالقوة. ثم ذهب فون ربنتروب الى باريس ووقع تصريحاً من هذا القبيل مع المسيو بونيه وزير خارجية فرنسا

ولكن لم يكد يجف حبر التصريح الاول - هتلر تشمبرلين — حتى شرع الهر هتلر واقطاب حكومته يخطبون فيحملون في خطبهم على ايدن وتشرتشل ودف كوبر وجرينوود ثم أخيراً على بلدوين . فلما علم من عهد قريب ان خطبة المستر تشمبرلين في مأدبة الصحافيين الاجانب بلندن ستنطوي على تقريع بسيط للصحف الالمانية لانها حملت على بلدوين ، قاطع جميع الالمان من دبلوماسيين وصحافيين — المأدبة التي كانوا قد دعوا اليها وقبلوا الدعوة !

اما ايطاليا فما كادت تفوز بعد مونيخ بالاعتراف بامبراطوريتها بالحبشة من قبل انكلترا وفرنسا على ما مرَّ بك ، حتى شرعت تطالب بتونس وكورسيكا وسافويا ونيس وتعديل نظام ترعة السويس ، في مظاهرات عامة في مجلس النواب الايطالي وفي الشوارع وفي الصحف ، في الوقت الذي كان فيه الهر ربنتروب يوقع مع المسيو بونيه تصريح « لا حرب » في باريس

وهذا ليس الا ّ قليلاً مما يقال في الطريق الذي افضى الى مونيخ والطريق الذي يمتدُّ منها الى المستقبل

من وشنطن الى ليما

الاتجاه بين جمهوريات القارتين الاميركيتين الى عقد الخناصر على الاستعداد لمقاومة كل تدخل سياسي أو ايديولوجي في نصف الكرة الغربي . وهذا يفسر النفقات الهائلة التي أقرتها حكومة الولايات المتحدة الاميركية في خلال السنة الماضية لتعزيز اسطولها الجوي بحيث يبلغ عشرة آلاف طيارة للخط الامامي أو اكثر ، وتعزيز اسطولها البحري بحيث يصبح لها اسطولان كبيران احدهما في المحيط الهادىء والثاني في المحيط الاطلنطيقي

ولا ريب في ان نداءي الرئيس روزفلت كانا ذا شأن كبير في حسم ازمة سبتمبر بغير امتشاق الحسام ، ولكن الرئيس أعرب مع ذلك — بعيد عقد اتفاق مونيخ — عن رأيهِ في ان السلام لا يستقرُّ في نصابهِ الحقيقي بالتهديد بالحرب. ثم لمح وصرّح غير مرة ، هو وبعض اعضاء وزارته الى الشدة في معاملة اليهود في المانيا ولا سيما ماروي عن المصائب التي عرضوا لها بعد مقتل فون راس في باريس . وقد استدعي السفير الاميركي من برلين ، ليشاوره الرئيس عن كثب ، ولكن قيل انهُ قد لا يرجع الآ ن الى برلين ، فكان هذا العمل من جانب وشنطن تقريعاً للحكومة الالمانية فاستدعت هي الاخرى سفيرها في وشنطن متوسلة بالعذر نفسهِ . والعلاقات الالمانية الاميركية سائرة بوجهٍ عام نحو التوتر والجفاء

ويلوح من تتبع الرأي العام الاميركي انه بدأ يتحجر ضد المانيا يدلك على ذلك رد وكيل وزارة الخارجية الاميركية المستر سومنر وليز على القائم باعمال السفارة الالمانية في وشنطن عندما جاء اليهِ يحتج على ما قاله وزير الداخلية الاميركية — هارولد ايكس — من تعريض برجال الحكومة الالمانية في خطبة لهُ . فقد رد عليهِ المستر وليز بأنهُ لا يرى وجه الحق في احتجاجه حالة ان كتاب الصحف الالمانية المقيدة بأوامر الحكومة ، بل ورجال النظام القائم أنفسهم يكتبون ويخطبون ويطوون كتاباتهم وخطبهم على اقوال فيها أشد تعريض بالرئيس وبرجال الحكومة الاميركية ، ثم وجه نظر القائم بأعمال السفارة الالمانية الى ان اقوال المستر ايكس تعرب عن رأي وشعور الاكثرية الساحقة من الاميركيين

فاذا أضيف الى ذلك استدعاء البرازيل لسفيرها من برلين واجتماع مؤتمر الجامعة الاميركية في عاصمة بيرو (٩ديسمبر وبعده) حيث أجمع الرأي على استنكار التغلغل النازي والفاشيستي في العالم الجديد أثبت لنا ذلك ان الاتجاه العام في جمهوريات القارتين الاميركيتين ضدّ الدكتاتوريات الاوربية الكبيرة فاذا استمر على ذلك في السنة الجديدة كان ذا أثر حاسم في موقف انكلترا وفرنسا

الحربان في أسبانيا والصين

في ٧ يوليو انقضت سنة على غزوة اليابان للصين ، وفي ١٨ يوليو انقضت سنتان على بدأ الحرب الاهلية الاسبانية . ولا تزال الحربان تقتضيان من البشرية ضحايا كثيرة . فاليابان ماضية في غزوتها ، حتى غدت اكبر مدن الصين في قبضتها . فقد ختمت سنة ١٩٣٧ باحتلال مدينة نانكين واحتلت في اواخر سنة ١٩٣٨ مدينتي كانتون في الجنوب ، وهانكو في القلب وهي المدينة التي اتخذها الصينيون مقرًّا لحكومتهم بعد احتلال نانكين . ولكن موقفها العمومي في الصين لايزال على ماكان بوجهٍ عام . فهي لاتحتل مناطق وانما تحتل نقطاً وخطوطاً . النقط هي المدن وعقد المواصلات . والخطوط هي السكك الحديدية . اما هدفها العسكري الاصيل وهو كسر شوكة الجيش الصيني ، واقصاء شانغ كاي شيك عن مقام الزعامة في الصين فما تزال بعيدة عنهُ . وهي لذلك تواجه في الصين مشكلة يواجهها كل غاز عسكري لبلاد واسعة مترامية الاطراف وهي مشكلة ابقاء جيش عظيم في المناطق الواسعة التي تحتلها لحفظ الامن فيها لان الشعب غير مطمئن الى الغزاة والعصابات كثيرة منبثة في طول البلاد وعرضها تضرب هنا ثم هناك ثم تختفي لتظهر في مكان آخر وعلى الرغم من مظهر النجاح الباهر الذي يبدو على اعمال اليابان العسكرية في الصين ، لا تزال مهددة في مصيرها . فهي لاتزال عاجزة عن كسر مشيئة المقاومة في الشعب الصيني ، وفصم الصلة بين الزعيم وشعبه . فالغزوة الصينية قد تحولت الآن الى نضال صبرٍ بين صبر الصينيين على ويلات الغزوة ، وبين صبر اليابانيين على ما تقتضيه هذه الغزوة من النفقات والمتاعب المالية والاقتصادية

اما في اسبانيا ، فقد أحرز الجنرال فرانكو في مارس ومستهل ابريل انتصارات باهرة مكنت جيوشه من الوصول الى ساحل البحر المتوسط بين برشلونة وبلنسية وكان الرأي ان الحكومة الاسبانية لا تستطيع ان تصمد طويلاً في وجه هذا التيار العسكري الحاسم ، ولكن قوات الحكومة الجمهورية صمدت لقوات الجنرال فرانكو عند نهر الابرو وكبدتها خسائر كبيرة بل وفازت عليها غير مرة وقد انقضى الصيف والخريف ودخل الشتاء ببرده القارس وأمطاره وثلوجه والموقف من الناحية العسكرية جامد بين الفريقين ، لولا بعض تحول غير حاسم فيه

أما من الناحية الدولية فلا تزال مهزلة عدم التدخل قائمة واذا كان سحب العشرة الآلاف من المشاة الايطاليين مهد لتنفيذ اتفاق روماءفلا تزال الحكومتان البريطانية والفرنسية تعارضان في منح الجنرال فرانكو حقوق المحاربين ، يقابل هذا ان رغبة ايطاليا وألمانيا في فوز الجنرال النهائي ما فتئت قائمة ولذلك ستبقى الحرب الاهلية الاسبانية حافلة بالخطر من الناحية الدولية

جنون التسلح

بلغت برامج التسلح خلال السنة الماضية حدها الاقصى بعد الحرب الكبرى . ولسنا نغالي اذا قلنا ان الدول انفقت عليها خلال هذه السنة عشرة آلاف مليون جنيه . ولماذا لانها جميعاً كما تزعم تبغي ان تعزز قوى الدفاع لكي تذب عن حياضها اذا هاجمها مهاجم . واذا كانت جميع الدول لا تنوي الاعتداء فمن يجيء الخطر اذن ؟

وليس الباحث بحاجة الى الحكمة الخالصة والنظر النافذ الى المستقبل لكي يدرك ان هذه الاموال التي تنفق في مواد لا تصلح للتبادل ، تصرف الصناعات عن عملها الحقيقي ، وتشغل الوفاً وعشرات الالوف من العمال بصنع بضائع — واي بضائع ! — ليست من البضائع المألوفة في عهد استتباب الطمأنينة والسلام . فغدت الحكومات الآن بين المطرقة والسندان . صنع الاسلحة والذخائر يحل مشكلة التعطل عن العمل في بلدانها — على تفاوت بينها — فلا يسعها الانصراف عنهُ الى اعمال الصناعة والتجارة المألوفة فجأة ، حتى لا تتلقفها موجة طاغية من التعطل عن العمل قد تفضي الى ثورة اجتماعية ، ولا يسعها في الوقت نفسه ان تمضي في هذا الانفاق الهائل الذي يكاد يقض ظهور دافعي الضرائب ، وهذا علاوة على ما يبثهُ تكدس الاسلحة من روح الحرب او وجوبها

وليست الدول الكبيرة ، التي لها موارد غنية من الثروة هي وحدها المقبلة على هذا النوع من الترف الجنوني — كان مشروع المستر تشمبرلين قبيل تقلده رئاسة الوزارة ان تنفق بريطانيا على تعزيز قوى دفاعها ١٥٠٠ مليون جنيه في ثلاث سنوات فتبين خلال هذه السنة ان المبلغ سيكون اقرب الى ٢٥٠٠ مليون جنيه منهُ الى ١٥٠٠ مليون ومع ذلك عاد المستر تشمبرلين من مونيخ وهو يقول انهُ لا بد من القوة حتى نستطيع ان نعزز كلمة انكلترا بالمقام اللازم في مجامع الدول وهذا يعني ان انكلترا لم تكن على جانب كاف من الاستعداد الحربي عندما اشتدت ازمة سبتمبر الماضي — بل الدول الصغيرة ترهق جميع مواردها وترهن هي والكبيرة ، مستقبل الاجيال القادمة لكي تكدس طائرات وقنابل واسلحة ، يعلم جميع متتبعي العلوم والمخترعات الحديثة انها اذا كانت من الطبقة الاولى الآن فانها ستصبح قديمة لا يؤبه لها كثيراً بعد سنوات . وقد اصيب القطر المصري بهذه الموجة الطاغية فتعرض من ناحية ما يقضيه الواجب وتحتمه المصلحة القومية لاعباء مالية ثقيلة ، وقد تكون مرهقة

كانت الحضارة تباهي بأن رفع مستوى المعيشة غرض تطلبه الحكومات بكل ما في جهدها ولكن الجهد عاد لا يجدي كثيراً في هذه الايام ، لان ما ينفق جزافاً على التسلح ، قد بدأ يؤثر

في دول بعينها حيث هبط مستوى المعيشة هبوطاً محسوساً ، ولا بد ان يؤثر عاجلاً ام آجلاً في الشعوب الاخرى . وهذا وحده كاف — اذا لم تنشب حرب تحصد الاخضر وتشعل اليابس — لان يراجع اهل الحل والربط انفسهم في ما يكيدونه لشعوبهم وللاجيال التي تليهم ، في حين يعتقدون انهم يعززون الهيبة ويرفعون العلم . ان ذرة واحدة من الفلسفة تكفي لاقناعهم بأن كل ذلك باطل ولكن اينها ، في بلاد كانت وهيجل ؟ أينها في بلاد مرقس اوريليوس وتوما الاكويني ؟ اينها في قارة افلاطون ؟ أإلى هذا تنتهي تعاليم الفلاسفة وغيرهم من بناة الحضارة ؟ إما الى هدنة مسلحة واما الى قتال مدمر ؟ انكلترا تنفق ما يزيد على ٥٠٠ مليون جنيه في السنة ، وفرنسا مايقرب من ذلك ، والمانيا ما هو اقرب الى الالف منهُ الى نصفه ، وأميركا لا تتكلم على عادتها الا بالارقام الفلكية . حتى بولندة قررت انفاق ثمانين مليوناً من الجنيهات علاوة على ميزانية الدفاع العادية ، وايطاليا المرهقة بتعمير الحبشة وتوفية نفقات حربها فيها ونفقات متطوعيها في أسبانيا ، ماضية في الاضافة اضافات كبيرة الى أسطولها الجوي وأسطولها البحري معاً . لقد غدا العالم وهو في غمرة التسلح هذه ، وهو كانهُ طائرة سريعة مندفعة بأقصى سرعتها . فاما ان تمضي في سبيلها لتبقى في الجو واما ان تهبط وتتحطم اذا وقف محركها فجأة اما الحل الوسط ، وهو ان يأخذها سائقها بالرفق فيخفف من سرعتها قليلاً قليلاً حتى اذا استطاع الهبوط الى الارض فعل ذلك آمناً مطمئناً — فأين من يعنى بهِ من أقطاب الحكومات ؟ ان حوادث السنة الماضية تقنعنا بان صوت العقل قد خفت — خلالها على الاقل — وارتفع صوت الغريزة المسعورة

اقطاب الرجال

— كانت الخسارة الكبرى بين اقطاب الامم ، في السنة الماضية في وفاة كمال اتاتورك منشىء تركيا الحديثة . ومن غريب ما يسجله التاريخ ، انه مرض في اكتوبر مرضاً أشفى فيه وقطع الامل منه ، ولكنه تغلب على المرض بعزمه ان لم يكن بسليم جسمه ، فاستطاع ان يعيد مع امته العيد الخامس عشر للجمهورية التركية في ٢٩ اكتوبر الماضي ، ثم عاوده المرض ، وكأنه قضى آخر لبانته من الحياة باشتراكه في هذا العيد ، فأسلم الجسد النخر الى التراب والروح الى خالقها

— وخسر جميع المشتغلين بالشؤون العالمية على اساس التعاون الممثل في عصبة الامم الدكتور ادوار بنش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، الذي استقال بعد ان رأى الصرح الذي بناه على محالفة فرنسا وصداقة انكلترا قد انهار بموطها . ولعله حين يخرج من عزلته يكون وهو خارج منصة الحكم عاملاً افعل في العودة بالعالم الى مهيع العقل والتعقل منه وهو فيهما

— اما تزاور رجال السياسة فقد اصبح عاديًّا لا نعلم مدى ما نعلقه به من شأن ولكن زيارة الملك جورج والملكة اليزابث لفرنسا تخرج عن الزيارة المألوفة وكذلك زيارة الهر هتلر لايطاليا . فالثانية كانت في مايو والاولى في يوليو ، وكان لكلتيهما مغزى سياسي واضح

***

من الطبيعي ألاَّ نكون قد اجملنا في هذه الصفحات الموجزة جميع حوادث السنة الماضية ولكننا نعتقد اننا اجملنا اهم الحوادث التي كانت ذات شأن في التيارات السياسية العامة ، فنحن لم نشر بكلمة واحدة مثلاً الى حادث الخلاف بين روسيا واليابان في اغسطس الماضي على موقع فوكنيج ، ولا على خلافهما المتجدد في آخر كل سنة على المصايد . وقد اهملنا كذلك رحلة الملك كارول الى غرب اوربا ، ومصرع رئيس الحرس الحديدي الروماني كودريانو،ونشر تقرير لجنة ودهد الفلسطينية ونبذ الحكومة البريطانية مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة بيل الملكية والدعوة الى مؤتمر يعقد في لندن لحل المشكلة الفلسطينية ، ولمحنا الى غيرها تلميحاً فقط، والعذر في ذلك باد . فالغرض ليس ان نعد سجلاً للحوادث المختلفة بل ان ننظر نظرة عامة الى الاتجاهات الرئيسية

وكذلك ختمت السنة الماضية ، وفي جوها غيمة قاتمة — غيمة الخلاف بين ايطاليا وفرنسا — تنذر بأن تتسع رقعة وتزداد قتاماً في مستهل السنة الجديدة ، ولذلك تتوقع الدوائر السياسية ازمة دولية من الدرجة الاولى بين يناير وأوائل الربيع ، اخلف الله ظنهم، ووقى العالم شر هذه الازمات المتكررة

كلما أنبت الزمان قناة ركَّب المرء في القناة سنانا
ومرادُ النفوس أصغر من ان نتعادى فيه وان نتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحيٍّ لعددنا اضلَّنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموت جبانا
كلُّ ما لم يكن من الصعب في الانفس ، سهل فيها ، اذا هو كانا

باب المراسلة والمناظرة

الطبيعة الميتافيزيقية
والعلوم التجريبية

ان بعض ما يعاب على العلوم الحديثة هو تغليب ما يعبر عنهُ بكلمة ال Experimentulisme اي النزعة التجريبية فكون العلوم الحديثة تخضع العقل الانساني للتجربة والحس قد يكون مقبولاً اذا كان الحس هو ارقى ما في الكائن البشري الذي يتميز بالادراك قبل تميزه بالحس

نحن لا ننكر التقدم العظيم الذي وصلت اليه العلوم الحديثة وما بلغتهُ العلوم التجريبية من ايغال في الكشف عن حقائق المظاهر الطبيعية وما جنتهُ البشرية من ثمار هذه العلوم غير اننا هنا نتكلم عن المعرفة من الوجهة النظرية البحتة فنقول ان الوصول الى معرفة حقائق الكون يكون منطقياً من نصيب المواهب الانسانية العليا وان الـ Experimentalisme Scientifique وهي الصفة المميزة للعلوم الحديثة تقيم للمشاهدة الوزن الاول وتخضع الادراك البدهي المشاهدة وربما كان هذا الامر وحده ممكناً في التحقيق العلمي المتداول غير انهُ ليس الطريق الصحيح لاستنباط الحقائق العلمية فما يعبر عنهُ بكلمة ال Intuitive Knowledge اي المعرفة البدهية لا يحظى بنصيب في الميدان العلمي وكل ما يصنع العلماء هو بناء نظريات خاصة بالاستناد الى مشاهدات حسية والحس كثيراً ما يخطىء بل ان لفظة الحس قد تكون مرادفة للخداع الادراكي والحقائق التي تأتي عن هذا الطريق حقائق نسبية محدودة وهي ان كانت نافعة حقًّا الا انها لا تمت بصلة كبيرة للمعرفة الصائبة لماهية المظاهر الكونية لانها لا تدخل في حسابها القابليات الاولى للفرد الانساني وهي الوصول الى معرفة الحقائق العامة بطريقة مباشرة ولا يجب ان نترك مسألة المعرفة الادراكية لطبقات المتصوفة وحدها بل من اللازم ان يجعل لها نصيب في استنباط الحقائق العلمية او على الاقل اذا لم نفعل ذلك ان لا نسمي ما لدينا حقائق علمية مطلقة ولا أقول ان طرق العلم الحديث عقيمة ولكنني أعني انها استعجل المعرفة وقد طغت عليها فكرة ال Phenomenalisme التي تتلخص في تعليل الظواهر الكونية بظواهر أخرى وينتهي الامر بألاّ يجد العلماء أنفسهم على بينة من أمر اي ظاهرة طبيعية ولا على قدرة على معرفة طبيعية اي قوة او مادة بالنسبة لذاتها فالعلم التجريبي يعرف الطبيعة التفاعلية والتحليلية للعناصر ولا يعرف طبيعتها الميتافيزيقية التي هي العلة في الطبيعة التفاعلية والتحليلية(١)

خطأ العلم التجريبي سيتضح في عجزه الظاهر عن جمع شتات العلوم الانسانية في كلّ واحد

---

(١) مذكرات عن الطبيعة الميتافيزيقية (خاصة)

هو المعرفة الحقة فالعلم او المعرفة كلٌّ روحي لا يجزأ ومبلغ المرء ومنهُ يقدر بموضوع المعرفة في ظهورها له فهي لا تقسم من حيث الكمية ولكن من حيث الظهور

والعلم الحقيقي على ما اعتقد هو الذي يعطي الـ Intuition مكانته التي يستحقها في استنباط الحقائق لان المعرفة الادراكية هي الطريقة المثالية للاتصال بالكون وحل معمياته وليست المعرفة الحسية وربما احتج البعض بان هذا غير عملي ولكنني اقول ان المعرفة لا يمكن ان تكون الاّ كذلك

نحن نقترح ايجاد علم جديد هو La Physique Metaphysique او الميتافيزيقا الطبيعية[1] الذي يمكن تعريفه بأنهُ العلم الذي يرجع الظواهر الطبيعية الى اسبابها فيما وراء الطبيعة ولا يعللها مظاهر طبيعية بأخرى كما يفعل العلم التجريبي . واسم آخر يمكن ان يطلق على الطبيعة الميتافيزيقية هو Science formulaire او علم الصيغ لاننا اذا مضينا في التحقيق العلمي بهذه الطريقة فنجد لكل تفاعل بين عنصرين صيغة خاصة هي الصيغة الميتافيزيقية فالعلم التجريبي عندما يرى تبخر الماء بسبب الحرارة يقول انهُ يحدث لانهُ كذلك فيعجز عن معرفة الطبيعة الميتافيزيقية للماء والنار وهو ان أفلح في معرفة الطبيعة التحليلية لكلاهما فانهُ يقف عند ذلك[2]

فال formula تشرح العلاقة بين عنصرين في تفاعلهما من الوجهة الميتافيزيقية وال Inter formula تبحث في الصلة بين صيغة وأخرى وال Conjunction تبحث في صيغة واحدة في حالة تبديل أحد العناصر المشتركة فتفاعل الماء والحرارة ينتج عنهُ صيغة وتفاعل الاكسجين والهيدروجين ينتج عنه صيغة مخالفة والعلاقة بين الصيغتين هي ال Inter formula. بينما تفاعل الماء والبرودة ينتج عنه ال Conjunction بينهُ وبين تفاعليته مع الحرارة وهكذا[3]

وستجد أننا نصل بالتحقيق الى معرفة السر الميتافيزيقي للعناصر والطبيعة الغير مادية للمادة فنعرف كنهها وهذا على ما أظن هو الطريقة الوحيدة للوقوف على أسرار الطبائع الكونية ومعرفة الماهية لذاتها لان العلم التجريبي يبحث عن الماهية التحليلية والتفاعلية ولا يعرف الماهية الذاتية للعناصر . وما اسميه الكيمياء الخالقة سوف تكون إحدى نتائج التوسع في دراسة الطبيعة الميتافيزيقية[4]

هذه كلمة موجزة عما اعتقده طريقة علمية صائبة تكشف عن سر المادة والقوة[5] وهو ما اشتغل ببحثه منذ زمن وأراني على استعداد لبحث الموضوع مع من يهمهم هذا الامر ويسرني ان انشر صفحات من مذكراتي عن الطبيعة الميتافيزيقية والحركة الدائمة وسر التكوين المادي والميكانيكا غير المتوازنة وغيره مما ترون اشارة اليه في اسفل الصفحة

علي حافظ

(١) الكلمة مكونة من جزئين — الطبيعة التي تبحث الظواهر المادية والميتافيزيقا تهتم بما وراء الطبيعة والميتافيزيقا الطبيعية علم مقارنة

(2) Inter—formulas & Nature of Elements.
(3) The metaphysical physics and non experimentalism (notes)
(4) Light on Creative Chemistry and Existence of Elements.
(5) Secrets of Force and Material Constitution.



القنادس كعامل جيولوجيّ

القندس حيوان من القوارض المائية موطنهُ الأنهار الشمالية من آسيا واميركا ويرى الفريق امين المعلوف باشا في معجمهِ « معجم الحيوان » ان القندس او الحارود يجب ان يستعملا مقابلاً للفظ Beaver الانكليزي وكلب الماء لـ otter

هذا الحيوان ثدييٌّ مائي قارض كالسنجاب صغير القد كالكلب طولهُ نحو قدمين ونصف قدم وارتفاعهُ اقل من قدم ولهُ ذنبٌ عريض صفيق طوله نحو قدم يستعمله للسباحة وتمليط سدّهِ بالطين وتمليسهِ . ومن مزاياه ان اسنانهُ القواطع كالازاميل فيقطع بها سوق الاشجار ويبني ببعضها سدًّا في مجاري المياه لتتكون فوق السدّ بركة يقيم فيها . ويحتفظ بالبعض الآخر مؤونة للشتاء لانهُ يأكل طعامهُ من لحاء الاشجار

وقد روى الباحثان رويدمان وسكوغمايكر في العدد الاخير من مجلة العلم (٢ دسمبر ١٩٣٨) ان اولها شاهد في الصيف الماضي سدًّا بنتهُ القنادس فهدم السيل جانباً منهُ فأقبلت القنادس حالاً على اصلاحهِ ثم انتقلت الى مجرى النهر فوقهُ فبنت سدًّا آخر . ثم شرعت في بناء ثالث لتقي بهِ الثاني من شرّ السيل . والحكومة الاميركية تعتمد الآن على عمل القنادس في بناء السدود حيث تشتدُّ الحاجة اليها لوقاية مناطق من الفيضان ، فتنقل طوائف كبيرة منها من حيث تكثر الى حيث تندر ، ويبدأ رجال الحكومة ببناء السدود في اماكن معينة من مجاري الانهر فتكمل القنادس بناءها . وقد وضع المستر ايكس وزير الداخلية تقريراً أثبت فيهِ ان عملاً قيمتهُ ستون جنيهاً تصنعهُ القنادس بنفقة لا تزيد على جنيه واحد

ومن أغرب ما روي عن هذه السدود أن باحثاً يدعى ملز وصف سدًّا صنعتهُ القنادس في ولاية مونتانا فاذا طوله ٢١٤٠ قدماً (نحو سبعمائة ذراع) . ولكن هذا نادر . أما المألوف فهو سدود يتفاوت طولها بين ٥٠ قدماً و ٢٠٠ قدم . وقد كتب باحث يدعى شيراس Shiras ان الضفة اليسرى من بحيرة ايكو في جزيرة جراند الواقعة في بحيرة سوبيريور الاميركية أصلها سدّ قنادس طولهُ ١٥٠٠ قدم ويرجع الى ٤٠٠ سنة على الغالب . وطول السد الذي كوّن بحيرة بيفر في حديقة يلوستون بأميركا طولهُ ٧٠٠ قدم

والغالب ان يكون علو السدّ خمس أقدام أو ستًّا ، ولكن منها ما يرتفع الى ما يزيد

على عشر أقدام . فالسدّ الطويل الذي وصفهُ كان علوه ١٤ قدماً وهناك سدٌّ وصفهُ مورغن فقال ان طولهُ ٣٥ قدماً وارتفاعه ١٢ قدماً

أما البحيرات التي تتكون فوق هذه السدود فتختلف مساحة . فقد روى ورن ان سدًّا طوله ١٠٣ اقدام كوّن بحيرة مساحة سطحها نحو ٧٨ الف قدم مربعة . وان سدًّا طولهُ ١٦٥ قدماً كوَّن بطيحة مساحتها ٣٧٢ الف قدم مربعة . اما السدود الصغيرة فتكوّن بركاً من الماء تختلف مساحةً باختلاف طبيعة الارض والمجرى

ثم أن القنادس لا تكتفي ببناء سدّ واحد يعترض مجرى النهر ، وليس بالنادر أن تجد ستة سدود في ما طولهُ ميل من مجرى النهر. وقد عدَّ هوك Houk ٤٦ سدًّا في ماطوله خمسة اميالٍ وثلاثة أرباع الميل من نهرفي كولورادو وكان متوسط المسافة بين كل اثنين منها ٦٦٠ قدماً . وكان عمق البركة المكونة وراء بعض هذه السدود خمس اقدام ونصف قدم

فحيوانات هذه بعض آثارها لا بدَّ أن تكون عاملاً ذا شأن في تغيير سطح الارض. فالماء الذي يجري في هذه الانهر يحمل دقائق من التراب ترسب الى القعر عندما يسدُّ النهر وتتكوّن بركة فوق السدّ .وما زالت القنادس تقطن هذه البقعة فانها تمضي في رفع السدّ كلما ارتفع مستوى قعر البحيرة برسوب الطمي عليهِ . فاذا هجرتها القنادس شقَّ الماء مجرى لهُ ويترك ارضاً مرتفعة تصبح مرجاً ولذلك كثيراً ما تقع في اميركا حيث أُجري هذا البحث على مناطق تعرف بين الاهلين باسم مروج القنادس

جائزة نوبل الطبيعية ١٩٣٨

للعالم الايطالي أنريكو فرمي

منحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٨ للباحث الايطالي انريكو فرمي المختص بدراسة الذرة وتركيبها وأحد الاساتذة بمعهد الطبيعة في الجامعة الملكية بروما

ولد فرمي في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ وحاز شهرة عالمية في الطبيعة العملية والنظرية فكان اول باحث تنبأ بأن اطلاق النوترونات على العناصر يحدث تحويلاً فيها . فلما اكتشف الاستاذ كوري جوليو وزوجته النشاط الاشعاعي الصناعي أقبل الاستاذ فرمي على دراسة ستين عنصراً باطلاق النوترونات عليها فثبت لهُ ان اربعين عنصراً منها ظهرت فيهِ ظاهرة النشاط الاشعاعي . ثم انهُ كان أول من بيَّن ان إبطاء سرعة النوترونات يساعد على اعتقالها عند اختراقها الذرَّة . وهذه الحقيقة من أهم ما يعتمد عليهِ في دراسة تحوُّل العناصر

أما في الطبيعة النظرية فقد اشتهر ببحث الاحصاءات الرياضية التي يعتمد عليها في التنبؤ بتركيب الذرة وتصرفها . وله في الطبيعة الرياضية نظرية خاصة بانحلال أشعة بيتا ليفسّر

بها التوفيق بين النوترينو (المحايد الصغير) وانطلاق أشعة بيتا (الالكترونات) من المواد المشعة ، ومع ان هذه النظرية بعيدة عن الصواب ، الاّ أنها لا تزال الوحيدة بين النظريات المختلفة الخاصة بهذه المشكلة التي عليها سمة من الاحتمال

واذ كان الاستاذ انريكو يطلق النوترونات على عنصر الاورانيوم تمكن من ان يجعل النوترون يلصق بنواة الاورانيوم او يندمج فيها فتكون نواة ذرة اثقل من ذرة الاورانيوم فذاع حينئذٍ ان فرمي اكتشف العنصر الثالث والتسعين فشك بعضهم في ذلك ، ولكن البحث العلمي اثبت صحة قوله بل وأثبت كذلك ان في الامكان توليد العنصرين ٩٤ و ٩٥ وهي عناصر صحيحة من الوجهة العلمية اي ان نوى ذراتها أثقل من نوى ذرات الاورانيوم — وهو أثقل العناصر كما لا يخفى — الاّ أنها من الناحية العملية لا شأن كبير لها لان مدى حياة هذه العناصر قصير جدًّا

جائزة نوبل الكيمياوية

وقد قرر معهد كارولين ان لا يمنح جائزة نوبل الكيمياوية عن سنة ١٩٣٨

جائزة نوبل الادبية

منحت جائزة نوبل الادبية عن سنة ١٩٣٨ للكاتبة الاميركية المسز پرل بَك Pearl Buck ولدت پرل بَك سنة ١٨٩٢ وكان والداها مرسلين في داخلية الصين فقضت سني حداثتها فيها حيث كان من النادر الالتقاء بأحد من البيض . وطبعتها والدتها بحبّ الفن وتقديره ولا سيما الموسيقى . وكانت منذ صغرها تدوّن ما تراه وتسمعه وتشعر به فكانت امها تنقده وتدلها على مواطن الضعف والخطأ

وكان لنشأتها في داخل الصين أثر في نفسها لانها تعلمت عن حياة الشعب الصيني ما قلما يتاح للبيض فلما كانت في الخامسة عشرة من العمر طلبت العلم في مدرسة بشنغاي حيث التقت بطبقة من الصينيين والصينيات مختلفة عن الطبقة التي نشأت فيها في الداخل . ومع ذلك كانت لا تحسب نفسها مختلفة عن هذه الطبقة او تلك . وكان والدها كثيراً ما يروي لها حديث رحلاته فاتسعت دائرة معارفها الصينية

ثم طلبت العلم في احدى كليات اميركا حيث احسّت غريبة عن زميلاتها من الاميركيات لتأثرها بالتقاليد الصينية وبعد تخرجها عادت الى الصين حيث بدأت تعاون والدتها في العناية بالمرضى وهناك تزوجت بمرسل اميركي وعاشت في منطقة اصابها الجوع وعصفت بها الثورة . وكان زوجها يدرّس في جامعة نانكين فدرّست اللغة الانكليزية في غير جامعة صينية واحدة . ولكنها انتقلت من عهد قريب الى اميركا لتسكن فيها ، وقد طلقت زوجها المستر بك وتزوجت رئيس تحرير مجلة « آسيا »

نشرت روايتها الاولى في سنة ١٩٣٠ وكان عنوانها « ريح الشرق : ريح الغرب .. » فلم تفز

بعناية خاصة من النقاد والكتاب. وفي السنة التالية نشرت روايتها «الارض الطيبة» وكانت قد وضعتها سنة ١٩٢٧ فاحرزت نجاحاً باهراً وفي السنة الماضية صنعت فلماً رآه قراء المقتطف في مصر وغيرها من البلدان — ومنحت جائزة بولتزر وهي الجائزة التي تمنح لافضل رواية اميركية كل سنة واتبعتها برواية «الابناء» سنة ١٩٣٢ وبترجمة لرواية صينية عنوانها «جميع الناس اخوان». ومن رواياتها ايضاً «الام» و«الملاك المكافح» و«المنفي»

ويعتقد النقاد الاميركيون انها منحت جائزة نوبل مكافأة لها على روايتها «الارض الطيبة» في المقام الاول ، وهي دراسة في حياة الشعب الصيني تجمع بين الفهم الدقيق والعطف والقوة فنبهت الغرب الى حياة الامة الصينية

ولعل السويد ارادت بهذا المنح ان تعرب عن عطفها على الصين الديمقراطية المتألمة التي تصفها پرل بك في قصتها

زرع سرطان بشري

في عيون الارانب

عني قراء الصحف اليومية في الاسبوع الاخير من شهر نوفمبر الماضي باسبوع السرطان وما التي فيه من المحاضرات الطبية والعلمية في انواعه واصله واساليب علاجه . وفي مكان آخر من هذا الجزء جانب من فصل نفيس عن السرطان والمرأة للدكتور فيليب الاشقر . الا اننا اطلعنا والمقتطف ماثل للطبع على نبإ علمي خطير الشأن خاص باصل السرطان وسره وهو ان الدكتور هاري جرين احد الاطباء الباحثين في معهد ركفلر الطبي بنيويورك تمكن من نقل قطعة من سرطان الثدي في المرأة وزرعه في عيون الارانب فنجح النقل والزرع. وغرضه من هذه التجربة على ما جاء في تصريح له « السعي الى معرفة طبيعة البروتين الذي في النمو السرطاني . فنحن نريد ان نعلم هل يبقى بروتين السرطان بعد نقله بشرياً او يتخذ خصائص الارانب فاذا استطعنا ان نحصن الارنب ضد النسيج البشري السوي بحيث يبقى السرطان المنقول الى الارنب آخذاً في النمو فنكون عندئذٍ قد خطونا خطوة كبيرة نحو فهم طبيعة السرطان » . وقد اوضح الدكتور جرين ان الغرض من هذه التجربة محاولة النفوذ الى سبب السرطان لا كشف طريقة لعلاجه

وليس الدكتور جرين باول من حاول زرع السرطان البشري في الحيوانات . ولكن تجارب من سبقه الى ذلك لم تفز بالتأييد العلمي اللازم. وقد تمكن في اثناء تجربته من نقل سرطان الثدي الى اثني عشر ارنباً فنما في سبعة منها. وقد مضى عليه ثمانون يوماً وهو يتدرج تدرجاً بطيئاً في نموه . وبعض هذه الاورام السرطانية قد بلغ حجمه في بعض الارانب خمسة اضعاف ما كان عليه عند نقله وزرعه



رائدان

كرنيليوس فانديك — جورج بوست — رسالتان باللغة الانكليزية في حياتهما واعمالهما
بقلم لطفي سعدي

وضع الاديب الباحث لطفي سعدي رسالتين باللغة الانكليزية اورد فيهما سيرة الدكتور كرنيليوس ڤانديك والدكتور جورج بوست. وقد نشرت الرسالة الاولى (فانديك) في عدد مايو ١٩٣٧ من مجلة ازيس (ISIS) التي اسسها العلامة الكبير الدكتور جورج سارطون ووقفها على البحث في تاريخ العلوم باعتبارها لساناً لجمعية تاريخ العلم والاكاديمية الدولية لتاريخ العلم. اما الرسالة الثانية (بوست) فقد نشرت في عدد مايو ١٩٣٨ من المجلة نفسها

يعلم قراء المقتطف مما نشر فيه ان الدكتور كرنيليوس فانديك والدكتور جورج بوست من اركان النهضة العلمية الحديثة في البلاد السورية. وهما مرسلان اميركيان جاءا تلك البلاد بغية التعليم والتثقيف ومؤاساة المرضى والعناية بهم. وكانا كذلك من الاركان التي قامت عليها جامعة بيروت الاميركية. وفضلهما على المقتطف — ولاسيما فضل الاول — لا يمكن المغالاة في تقديره فقد كان الدكتور فانديك استاذاً لمنشئيه، وهو اول من شجعهما على اصداره واختار لهما اسمهُ وكتب فصلاً — نشر في اول عددٍ صدر منهُ — ، تلته فصول

تعلم فانديك وبوست اللغة العربية فاجاداها وخلفا فيها تراثاً علميًّا في الطبقة الاولى قلما جاراهما فيه احد بعدهما من الاجانب. فوضع الاول مؤلفات جليلة القدر في الهندسة والهيئة والجبر والمثلثات والتمام والتفاضل والكيمياء وسلسلة من الكتب الصغيرة في بسائط العلوم لا تزال مشهورة باسم النقش في الحجر علاوة على اشتراكه في ترجمة العهد الجديد من الكتاب المقدس

اما الدكتور بوست فقد اشتغل بالتاريخ الطبيعي خاصة فوضع كتاب نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات، وآخر في علم النبات وشرح بنيتهِ ووظائفهِ ووصف الفصائل الطبيعية. ولاريب في ان اهم آثاره في هذه الناحية اخراجهُ ذلك المجلد الضخم الواسع العلم الدقيق التحرّي في نبات سورية وفلسطين ومصر. والف كذلك كتاباً في الجراحة وانشأ مجلة الطبيب وحررها ووضع قاموساً للكتاب المقدس (ترجمة وتأليفاً) لا يزال على ما نعلم المرجع في هذا الباب

وقد الف هذان العالمان الجليلان الكتب المتقدم ذكرها وهما قائمان باعباء التدريس في الكلية الطبية بجامعة بيروت الاميركية (وكانت تعرف باسم الكلية السورية الانجيلية) فاحياء ذكرهما وتعيين مقامهما في نهضة الشرق العلمية خدمة اسداها المؤلف الحورثةهذه الاعمال العلمية المجيدة

وزارة الدعاية

للدكتور احمد فريد رفاعي — مدير مصلحة الصحافة والنشر سابقاً —
صفحاته ٢١١ بالقطع الكبير — مطبوع على ورق صقيل فاخر

هذا سفر في حاجة مصر الى وزارة دعاية وضعهُ خبير بشؤونها ورفعهُ الى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

والدكتور رفاعي عالج شؤون الصحافة والنشر صحفيًّا بارعاً ومؤلفاً قديراً وموظفاً ممتازاً وأتيح لهُ خلال القيام بأعماله الرسمية زيارة اوربا لحضور مؤتمر الصحافة الدولي المنعقد في مدينة كولونيا فدرس في المؤتمر نفسهِ وفي مختلف البلدان التي زارها النظم المتبعة فيها حيال هذا الموضوع الخطير في حياة الشعوب في هذا العصر. وقد أودع خلاصة اختباره ودرسهِ في هذا الكتاب الفخم، وهو في الواقع ليس الاَّ منهجاً للنهوض بحياة البلاد الثقافية في الصحافة والتأليف والفنون، وعنده ان خير السبل الى بث الحياة في نواحي هذه الاعمال الثقافية هو تركيزها في وزارة مختصة بها

يرى الدكتور الرفاعي «ان مصر المحبوبة وقد كتب لها في مستهل عهد «فاروقها» السعيد استكمال استقلال البلاد، فتمت — ولله الحمد على متواصل نعمائه وجزيل فواضله — مفاوضاتها بمعاهدة الشرف والاستقلال — والغيت الامتيازات وقيودها وتبوأت البلاد مكانتها اللائقة بكرامتها بين مصاف الدول الحرة المستقلة في عصبة الامم، وأخذت النهضة الاصلاحية تتمشى في مختلف مرافقها الحيوية ....» غدت في حاجة الى وزارة دعاية من الناحية الزراعية تلفت الانظار الى فواكهها وخضراواتها ومختلف منتجاتها، واستكشاف اسواق عالمية لها، والعمل على ترقية مراتب زراعتها ... الخ

ومن الناحية التاريخية لان «مصر القديمة ذات الآثار النفيسة والتاريخ المجيد والزعامة العلمية والحضارة القديمة» يجب ان تكون قبلة لافواج السياح من شتى بلدان الغرب والشرق. وكذلك من الناحية الاسلامية والعربية والاصلاحية وغيرها

والكتاب قسمان. أما القسم الاول فبيان ما تعملهُ مصلحة الصحافة والنشر والثقافة العامة، وما يرجوهُ لها من توسيع نطاق عملها في ما يخصّ الصحافة وتشجيع التأليف واحياء الادب العربي القديم ونقل المؤلفات الغربية البليغة. وأما القسم الثاني فبيان ما شاهده المؤلف خلال سياحتهِ من النظم المتبعة في ألمانيا وايطاليا خاصة في مثل هذه الاحوال

ويقترح الدكتور رفاعي في الصفحة ٢٧ ان يضمّ الى الوزارة المقترحة المطبعة الاميرية بما في ذلك الوقائع الرسمية — على ان تصدرها الوزارة فتعيدها الى ما كانت عليهِ من المقام في

عهد المغفور لهُ الشيخ محمد عبده — وكذلك ضمّ دار الكتب المصرية وادارة الملاهي ومصلحة السياحة وضم الفرقة الحكومية الى رقابة التمثيل وانشاء فرع للدعاية بواسطة السينما والمسرح على غرار النظام المتبع في ايطاليا وهو نظام « لونشي » وضمهُ الى رقابة السينما . . .

ومما يقترحهُ ان يعين ملحقون صحفيون مصريون في السفارات والمفوضيات المصرية في الخارج ، فتكون مهمتهم من ناحيةٍ موافاة الوزارة المصرية بما يجد من الشؤون وما يكتب في الصحف الاجنبية عن شؤون مصر المختلفة ، ومن ناحية اخرى تصحيح ما يكتب في الصحف الاجنبية عن مصر وامدادهم ادارات تحريرها« بالدعايات الموفقة عن مصر ومصالحها ونشاطها وحيويتها واستجلاب الرضاء لها وعنها واستدعاء الزوار اليها وتجنيد المدافعين عن نهضتها الشادين بمجدها المتاجرين مع بيوتاتها المؤيدين لمقامها في الحياة والرقي .... »

وحبذا الحال لو عني الدكتور رفاعي بنشر موجز هذا السفر النفيس في كتيب حتى يسهل تداوله واطلاع الشعب على مقترحاته بثًّا للفكرة التي ينطوي عليها . وليس هناك شكٌّ في ان عناية الحكومة المصرية بالحياة الثقافية العامة ، لم تسر على نظام واحد ، بل كانت تتراوح بين النشاط والفتور ، وفقاً للاحوال السياسية وشخصية القائمين في مقاعد الحكم . فاذا استطاعت الدولة ان تنظم هذه العلاقة ، بحيث تجري على قواعد معينة ثابتة من شأنها التشجيع على الانتاج الادبي والعلمي والفني بغير ان يكون ذلك التشجيع مقيداً بقيود سياسية مرهقة فان مصر تجني من ذلك خيراً كبيراً

أناشيد عسكرية لمحمود ابو الوفا

امامنا مجموعة من الاناشيد العسكرية نظمها هذا الشاعر بوحي فطرتهِ وليس له ماينسج على منوالهِ سوى ما هيأت لهُ نفسهُ الوثابة وعاهة شعر بانها تقعده عن ان يطير مع الطير ويشارك سواه مشاركة عملية في هذه الخدمة العسكرية وهذه النهضة القومية فهو يجود بما في ضميره ليضطلع بقسطهِ من هذا الفرض القومي

والاناشيد العسكرية في العربية قليلة في الشعر «الرسمي» (اذا استثنينا اشعار الحماسة في العصور القديمة) ولكنها شائعة في المواليا واشباههِ من الغناء العربي في مختلف بلدانهِ ففي هذه الاناشيد القومية مايقطر حماسة وحمية ونشاطاً وشوقاً الى بذل الروح فداء للاهل والوطن ولو انصفنا لاحللنا جانباً منها محل الغناء المخنث الذي ابتلينا بهِ في هذا العصر وهو غناء «ألليل» « والعين » وسواها

فاناشيد محمود ابو الوفا تسد ناحية من نواحي هذا الفراغ وتصلح في رأي الذين طالعوها

لان تنشد في المدارس والكليات والاجتماعات الشعبية وفي المناسبات التي يحتاج المجتمعون فيها الى موسيقى قومية وأناشيد تؤجج نار الحماسة في صدورهم او تطابق مايخامر نفوسهم من شعور يسمى الجميع الى إنمائه وتعزيزه في نفوس النشء فيستقبل العصر الجديد بالتزاماته ومظاهره ومزاياه بما يجب أن يستقبل به

وما برحت الموسيقي ممثلة في الشعر والغناء والالحان من أفعل العوامل في تحريك العواطف وتوجيه القوي ورفع مستوى الخلق حتى صارت جزءاً من مراسم العبادات كما هو مشهود في في ترتيل القرآن والترانيم الشائعة في بيع المسيحيين وكنائس اليهود ومعابد البراهمة والبوذيين

لهذا نرحب كل ترحيب بهذه الاناشيد معتقدين بانها من باكورة اتجاه شديد الفائدة في حياة الامة المصرية

ولسنا مبالغين اذا قلنا ان ترويج هذه الاغاني القومية يجب ان يكون في طليعة الوسائل التي يتوسل بها رجال التربية والتعليم ورجال الجيش معاً

واذا كنا نشاهد الآن في دوائر وزارتي المعارف والحربية اهتماماً خاصاً بالجهة الرياضية والعسكرية فما أحوج هذا الاهتمام الى مثل هذه الاناشيد لتكون نفوس الشباب مهيأة لما تدعى اليه وحتى يكون اقدامها على التمرن العسكري ونحوه بدافع نفسي قوي فلا تشعر فيه بانه نوع من التكليف لان كل تكليف ممقوت

---

١ — نشوء اللغة العربية
ونموها واكتهالها

بقلم الاب أنستاس ماري الكرملي — طبع بالمطبعة العصرية بمصر

وهذا كتاب آخر من كتب عام ١٩٣٨ يبحث في اللغة العربية، ألفهُ حضرة العلامة الفاضل الاب انستاس ماري الكرملي أحد اعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية . وحضرة الاب غني عن التعريف فجهاده الطويل في حياته المباركة في سبيل لغة الضاد جهاد مقرون دائماً بالتوفيق

وكتاب اليوم هو رأي للأب المحترم تفتحت لهُ وجوه البحث فيه منذ بدأ بدراسة اللاتينية في التاسع عشرة ثم بدراسة اللاتينية واليونانية في العشرين من عمره . لاحظ ان كل كلمة ذات هجاء او هجاءين في الرومية اليونانية ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل ، اوتوقيفي فلا بد من ان يكون لها مقابل في العربية

ولما اقتنع الاب بفكرته أخذ يدعو لها في الصحف والوضائع والمجلات ، ويكتب الفصول الطوال والقصار مدعماً رأيه بالامثلة الكثيرة — فهو يقول ان كلمة Deus الرومانية للفظ

الجلالة أصلها الحقيقي Deu . وهو يوافق كلمة « ضوء » العربية لفظاً ومعنى . فان أمماً كثيرة عبدت الضوء وجعلته الهاً . ويقول ان كلمة « حداء » العربية أصل لكلمة Hode اليونانية بالمعنى نفسه. وكلمة «تنوّس» اليونانية بمعنى القصيع الذي قصعه المرض فلا يشبُّ ، أصلها كلمة «التنّ» العربية . وقد أخذ المؤلف يعد كثيراً من الكلمات اليونانية والرومانية ويرجعها الى أصل عربي

ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابته وبنائه على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدة ومتعة . واذا كانت لجنة التحرير في المجمع اللغوي لم تقر حضرة الاب على آرائه فان ذلك لم يثنه عن الدعوة لها بنشرها في الكتاب الذي نتكلم عنه اليوم — وهي محاولة تدل على اقتناعه بما ذهب اليه . وفي الكتاب فصول كثيرة عن نشوء لغة قحطان . وتناظر العربية واليونانية. وتناظر الفارسية واللغات المندثرة القديمة للعربية ، والمعرب او الدخيل، وشروط الاخذ من لغة ، وغيرها وبعض هذه الفصول معروف لدى الذين يعرفون شيئاً من فقه اللغة العربية . وبعضها — وهو الخاص بتناظر العربية مع غيرها — يرجع الى اجتهاد الاب الفاضل

أما الفصل عن الحرب بين الكلم العربية والغربية والفصل الذي يليه عن الدخيل وأيه يُقتل وأيه يستحيا ، فلنا فيه كلمة صغيرة . فان الاب الفاضل يفرض على اللغة العربية بعض الدخيل ككلمة « بنك » و « تَلَفون » بفتحتين . ويستقبح — في ذوقه هنا — كلمة التلفزة للرؤية عن بعد وأصلها Television ويفضل عليها كلمة المباصرة ، وكلمة تلغراف مع انهما جاريتان على الوزن العربي فالاولى على وزن فَعْلَلة والثانية على وزن فِعِلاَّل

ولا ادري لماذا يُحل الاب شيئاً ويحرم شيئاً آخر أحل مثله ؟ على ان المسألة مسألة ذوق واستعمال . وقد سارت الآن كلمة التلفزة والفعل تلفز وخفت على السمع فلا معنى لتحريمها

وما دامت الكلمة عن العربية فاننا نسأل الاب الفاضل — مع الاحترام العظيم — لماذا يدخل اللام على جواب لو المنفي بما والافصح والاصح تجريده منها ؟ هل يذهب حضرته مذهب القائل — وهو ضعيف — « ولو نعطى الخيار لما افترقنا »

ولماذا يستعمل عدة بمعنى كثيرة والمعروف ان عدة معناها عدد قال تعالى « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » . ولماذا يقول (أن نفس الكلمة اليونانية) ولا يقول (أن الكلمة اليونانية نفسها) حتى يتم التوكيد المعنوي على اصله ؟

لقد تعوّد حضرة الاب سماع النقد حتى مرد عليه كما يقول في اول كتابه ونحن نرجو ان تثير المناقشة حول هذا الكتاب ما يجلو الحقيقة فان آراء مؤلفه بنيت على الافتراض اكثر مما بنيت على اليقين . . . ولعل هذا هو السر في عدم موافقة المستشرقين عليها

[المقتطف] يرى الاب انستاس ان لفظ « تلفزة » تعريباً للتلفزيون الاعجمية وضعهُ من

«من فسد ذوقه العربي» وسيادته يفضل لفظ المباصرة استناداً الى الجوهري في صحاحه قال : « باصرتهُ اذا اشرفت تنظر اليه من بعيد » . ولما كان المقتطف اول من استعمل « التلفزة » فيجدر بنا ان نقول ان التعريب جرى عليه العرب في القرون الاولى فقالوا قاطغورياس ومالنخوليا وايساغوجي وارثماطيقا والاسطرلاب والاقرباذين وغيرها . وغني عن البيان ان هذه الالفاظ أثقل وقعاً على اللسان العربي من « تلفزة » الجارية على الاوزان العربية اسماً وفعلاً ومصدراً مع عدم تنافر حروفها . اما المباصرة فقد جاء في اللسان . باصره نظاره أي شيء أيهما يبصره قبل صاحبه . واورد ابن منظور ايضاً قول الجوهري الذي اورده الاب المحترم . ومن السهل ان تقول « المباصرة » تقابل « التلفزة » ولكن هل للاب المحترم ان يستعمل هذا اللفظ او ما يشتق منهُ للدلالة على عمل رجل ينقل مشهد وصول جلالة الملك الى قصر عابدين مثلاً ، بالتلفاز المرسل فيُرى المشهد في التلافيز المستقبلة في دائرة واسعة . ويقول الاب ان الفيزياء « مسخ شنيع » لعلم الطبيعيات Physics فما قوله في الكيمياء ؟ ويقول ان الفسيولوجية «علم مظاهر الحياة » والذي نعلمهُ ان تعريف هذا العلم في كتب العلماء هو علم وظائف الاعضاء . راجع مادة Physiology في معجم دورلند الطبي

ويقول ان الفونوغراف آلة تلقط الصوت وتلفظهُ فهي « اللاقطة » . ولكن الآلة اللاسلكية التي تلتقط الامواج اللاسلكية وتحولها أصواتاً « لاقطة » أيضاً ولكنها ليست فونغرافاً. والآلة اللاقطة في « التلفزة » تلقط الامواج اللاسلكية ويحولها نقطاً من الضوء تجتمع صورة واضحة . فهل نستعمل لفظ لاقطة لجميع هذه الاجهزة المختلفة ؟ وماذا نفعل بلاقطة المثل العربي : « لكل ساقطة لاقطة » !

٢ — مقدمة لدرس لغة العرب

تأليف عبد الله العلايلي — عدد صفحاته ٢٥٦ طبع بالمطبعة العصرية

الرغبة في اصلاح اللغة العربية وتيسير قواعدها وجعلها موافقة لمقتضيات العصر الحاضر هي رغبة أخذت من اللغويين والمصلحين محلها من العناية . ومتى انعقدت النية على الاصلاح واتفقت الآراء على التيسير فان الطريق الى تنفيذ هذه النية — طال أم قصر — موصل الى نتيجة يرضى لها ابناء العروبة

والكلام في اصلاح اللغة العربية يشمل نواحي كثيرة : يشمل الخط العربي والاستغناء عن الشكل بحروف تقوم مقامه كما في اللغات الاوربية . ويشمل قواعد الاملاء نفسها والاتفاق على توحيدها . ويشمل تعريب الالفاظ الاعجمية او ادخالها في اللغة العربية مع ملاحظة جعلها ملائمة للاوزان العربية . ويشمل تيسير قواعد النحو والصرف تيسيراً يسهل دراسة اللغة ويزيل

الصعوبة القائمة الآن في سبيل تدريسها . ويشمل تدريس علمي المعاني والبيان على طريقة يتبين بها جمال الاسلوب العربي لا على طريقة ميكانيكية يسقم معها الاسلوب ويفسد بها الذوق الادبي

وكتاب الاستاذ عبد الله العلايلي يعد محاولة في سبيل الاصلاح اللغوي . وموضوعات الكتاب تدل على احاطة مؤلفه بأطراف الموضوع احاطة واسعة . ولا شك ان حضرة المؤلف الفاضل قد قرأ كثيراً من كتب اللغة والنحو . ولمس كثيراً من الصعوبة البادية فيها. ولذا كانت آراؤه آراء الخبير العارف والمطلع الواقف

ومؤلف هذا الكتاب من أنصار مذهب التوسع والسماحة في اللغة . يدل على ذلك المقدمة التي كتبها حضرة الاستاذ اسماعيل مظهر . ويدل على ذلك أيضاً الروح التي تنساب في خلال الكتاب . ولكنني أخشى ان تفضي كثرة التوسع في اللغة الى فوضى في استعمالها وعدم احترام لقواعدها . وأخشى ان تكون الاخطاء النحوية في هذا الكتاب نتيجة لهذا التوسع ! وأحسن الظن بالمؤلف الفاضل وأقول لعل هذه الاخطاء مطبعية .. ولو لم يشر اليها في ذيل الكتاب ...

وفي الكتاب فصل عن تخصيص الموازين في العربية . ولعله احق فصول الكتاب بأن نقف عنده . فالمؤلف الفاضل — كما قلنا — من انصار التوسع في اللغة . إنهُ يميل الى الاشتقاق على اوزان وان كانت عربية الاّ انها ثقيلة النطق ثقيلة على السمع . ويكفي للدلالة على ثقلها ونبوها ان كثيراً من هذه الموازين لم يحظ بأكثر من بضع كلمات في العربية

خذ مثلاً وزن «فعنعل» . فأشهر الكلمات الواردة منه غضنفر وسجنجل (المرآة) . وهذه الثانية لا تستعمل . ولن يكتب لها الاستعمال والبقاء في اللغة . ولولا ورودها في معلقة امرىء القيس ما سمع لها احد . ويخيل اليّ ان الواضعين الاولين لهذه الاوزان الغريبة في اللغة العربية قصدوا منها الى التوسع والاثراء اللغوي . كما يقصد حضرة الاستاذ الفاضل مؤلف كتاب اليوم. الاّ انهم خضعوا في النهاية لاذواق الناس . ولم يُخضعوا ذوق الناس لاشتقاقاتهم الغريبة .... والاّ فما الحكمة في ان تموت مئات كثيرة من وزان هذه الموازين ويتناساها المتكلم العربي ويودعها غير آسف على فراقها ؟ ؟

الحق ان بعض الموازين التي يرى المؤلف صوغ كلمات جديدة على مثالها مألوف مقبول . وأنا ابشره ان مثل هذه الموازين لو وجدت من يدعو لها لكانت ثروة تنسب الى يده. و الحق أيضاً ان بعض هذه الموازين غير مألوف وغير مقبول في السمع ، ولعلي أجد كثيرين يوافقونني على ان كلمات سخطخاث، صوَرْني (لمن يتصور بكل صورة أرادها) » حركّان (للبالغ الحركة) وعُسجهّاة (المتكبر) ، اجَنْدَب (المعدن المغنط) لا تحلو في النطق ولا السمع

عني المؤلف بمسألة الخط العربي ومسألة الشكل بالحروف . ومن المصادفات السعيدة ان

يكون من قرارات مجمع فؤاد الاول للغة العربية في دورته الخامسة قرار بتأليف لجنة « مهمتها وضع طريقة لكتابة الكلمات العربية بدون شكل بحيث يكون النطق بها صحيحاً خالياً من اللحن وتحديد مهمتها على ألاّ تخرج في ابتكارها على الاصول العامة في اوضاع كتابة العربية »

وطريقة المؤلف ان يؤلف الخط الجديد من خطوط اربعة : الثلث للحروف المضمومة والنسخ للمفتوحة . وخط الرقعة للساكنة والفارسي المكسورة ... ومعنى ذلك أن كلمة « منزل » مثلاً تكتب بأربعة انواع من الخط في آن واحد !! ولا يخفى ما في ذلك ايضاً من الصعوبة التي أحسها حضرة المؤلف ثم اعتذر لها بالتعبيد مع المرانة

وأنا لا أحيل الاستاذ على شيء اكثر من ذوقه السليم وأسأله ان يلقي نظرة اخرى على النموذج الذي وضعهُ في صفحة ٣٨ ليرى انعدام التناسق والجمال الخطي فيه ...

والمؤلف الفاضل اقتراح في سبيل توحيد الثقافة العربية ووجوب اشتراكها في امور ثلاثة اللغة والقانون والثقافة العامة . والغاية من هذا الاقتراح سامية نبيلة . ولكن قد يكون تحقيقها حلماً . فليست الصعوبة كما اعترض عليه بعضهم — في انشاء مركز لهذه المؤسسات فحسب ولكن الصعوبة في المال وفي فقدان الاستقلال وفي اختلاف حالات التقاضي باختلاف البلدان العربية

اما المعجم الجديد الذي ينوي المؤلف الفاضل اخراجه ، واتى بنماذج منهُ في ذيل كتابه فهو خطوة اخرى من خطوات الاصلاح الذي يفيض به قلبه واذا جاز ان يكون لنا رأي فيه — كما هي الغاية من عرض بعض نماذجه — فاننا نشير بأن يكون مصوراً . وبذلك يخرج المؤلف ويخرجنا جميعاً من مأزق يعرفهُ الذين يكشفون عن المعاني في المعاجم العربية . وتضيع هذه العبارة « حيوان معروف — أو نبات معروف » ويشهد الله أنهما مجهولان حتى لواضع المعجم

وهناك مسألة أخرى وهي الاسم والصفة فقد خلط المؤلف بينهما خلطاً نرى من الخير أن نشير اليه قبل ان يمضي حضرته في انفاذ المعجم فهو يقول أن (الأبدوان) صفة وهو اسم . يقول (الابتوة) صفة وهي اسم لانها تؤلولة الحروق . ويقول انّ (المثبت) بكسر الميم صفة وهو اسم ايضاً لأنهُ الحديدة لاذكاء النار . واذا كان حضرته يقول في نموذج معجمه ان « المثبر » اسم وهو آلة حفر الآبار فما باله يقول ان « المثبت » صفة مع انها آلة اذكاء النار ؟؟

في النماذج التي عرضها حضرته كثير من هذا . وهو بلا شك سيراجع عقله فيها قبل انجازها . وأرجو ألاّ يحمل رأينا في كتابه الاّ على حسن الظن ، وخلوص النية . فنيته في سبيل العربية نيتنا . وغايته غايتنا . وما دمنا قد اجتمعنا في النية واتحدنا في الغاية ، فالطريق على اختلافها لأمّة . والجوادّ جامعة . والله يوفقه ويوفق كل مصلح

٣ — مروج الذهب ومعادن الجوهر

للمؤرخ العربي الكبير ابي الحسن بن علي المسعودي
طبع في دار الرجاء للطبع والنشر بالقاهرة

تاريخ المسعودي من التواريخ المعتمد عليها في الدوائر التاريخية عند المسلمين وغيرهم ، وقد استحق مؤلفه بجدارة لقب امام المؤرخين كما ذكر ذلك صاحب تاريخ ابن خلدون . واطلق عليه بعضهم لقب « هيرودوت العرب » وهو خليق بذلك كله . فانهُ — على غير غرار بعض المؤرخين والرحالين — يميل كثيراً الى التحقيق العلمي ولا يقبل مايسمعهُ على علاته وانما يناقشهُ مناقشة العالم المفكر فيقبله أو يرفضهُ . ومما يؤيد ذلك الفصل الممتع الذي كتبهُ عن اخبار انتقال البحار واخبار الانهار . فهو فصل يعد مقدمة لآراء الجغرافيين المعاصرين أمثال ددلي ستامب ولايك في المحيطات والقارات

وقد سخر المسعودي في هذا الفصل من الجاحظ لزعمه أن نهر السند يأخذ مياهه من النيل ورماه بأنهُ حاطب ليل . وذكر منابع السند ومنابع النيل والاقاليم التي يمران فيها ووصف جنادل النيل وبحيرات الدلتا

والبروفسور نيكلسون من المعجبين كثيراً بالمسعودي وكتابهِ وقد خصهُ بأكثر من موضع في كتابه المشهور (تاريخ الادب العربي) . ويقول فيهِ [١] « كل ما كتبهُ المسعودي ولو انهُ تعوزه وحدة الجمال التي تميز كتابات مؤرخي اليونان الا انهُ يرينا روح التحقيق واتساع العقل والميل الى تسجيل الحقائق من غير هوى ووصف العجائب التي رآها او سمع بها والتجارب الناضجة ونظرته الواسعة الى الحاضر والماضي »

وقد اطلعني المستشرق الفاضل المسيو ب. ه ستريكو الهولندي على كتاب الاستاذ Gibb في الادب العربي وفيه وصف لمروج الذهب (بانهُ ليس في اللغة العربية أمتع من هذا الكتاب)

والطبعة التي بين ايدينا الآن لهذا الكتاب النفيس أشرف عليها بالتصحيح والضبط والتعليق حضرة الاستاذ محيي الدين عبد الحميد المدرس بالازهر . وهو عالم فاضل عرف بنشاطه في عالم النشر والتأليف

ولم أطلع على غير هذه الطبعة التي اتكلم عليها اليوم حتى يمكن المقارنة بينها وبين ما طبع قبل ذلك . ولكني سمعت من المسيو ب . ستريكو ثناء عظيماً على طبعة المستشرق باربيه دي‌مينار في باريس سنة ١٨٧٢ . فعسى ان تلقى هذه الطبعة الجديدة ما تستحقه من عناية الباحثين والقراء

محمد عبد الغني حسن

(١) تاريخ الادب العربي لنيكلسون ص ٣٥٣ طبعة ثالثة

اعترافات فتى العصر — لالفريد دي موسيه

هكذا تكلم زرادشت — لفريدريك نيتشه

ظاهرة جديدة في اتجاهنا الادبي خليقة بالتسجيل لدلالتها على يقظة النفس وشعورها بالحاجة الماسة الى النقل عن الغرب والنهل من ينابيع آدابه المتفجرة وعلومه الفياضة ، وهذه الظاهرة التي نسجلها بفرح واطمئنان هي كطلائع الربيع ، زهرات جميلة تفتقت براعيمها فأبرزت بعض وجوه من جمال أنوارها في الموسم السعيد الذي يحق ان نسميهُ « موسم الترجمة »

أمامي عشرة كتب في الادب ، والفلسفة ، وعلم النفس ، وفن الرواية ترجمها ادباء أفاضل عن اللغات الاجنبية لاعاظم أعلام الفكر من معاصرين وخالدين . قرأت بعضها ، وإذ كنت أتصفح البعض الآخر ، حضرني خاطر فقلت : أليس واجب الناقد ان يقف طويلاً حيال هذه الكتب المترجمة يأخذ مترجميها بالقسط ، يحاسبهم بالدقة والضبط ، لا يتهاون إلاَّ فيما لا حيلة لهُ الاَّ فيهِ ؟ وهل يحول بعد صيت المؤلف والمترجم دون مناقشتهما وقد ساهما في زيادة ثروة المكتبة العربية ؟ وهل اذا انتصب شيطان الشك وقامت قيامة الظنون فلا ادفعها او أردها الاَّ بنهوض الدليل على صدق الترجمة وصحتها وهي الاصل في عمل الترجمة ؟ هذا ما سألتزمه مع صديقي الفاضل الاستاذ فليكس فارس مترجم « اعترافات فتى العصر » لالفريد دي موسيه و« هكذا تكلم زرادشت » لفريدريك نيتشه

لقد وقفت من قبل مع الاستاذ فارس حين ترجم قصيدة « رولا »[1] لموسيه ، ولقد وقفت طويلاً عند هذين الكتابين اراجع الاصل الفرنسي واقارنهُ بالترجمة العربية نظير ما فعلت من قبل ، فتبيّن لي ان مترجم « رولا » الصادق ، الذي استطاع ان يتداخل روح الشاعر ويلبس ذاتيته ، ويسير معهُ على نفس واحد في مراحل القصيدة الكبيرة كلها ، لم يؤاته التوفيق كله في هذه المرة ، ولم يسعفهُ الاستعداد النفساني ، فاختفى المؤلف وبرز المترجم

تساءلت عن بواعث هذا الاضطراب ، فبدا لي ما يبرر عمل الاستاذ فارس في ترجمة نيتشه ، وما يضاعف تبعتهُ في ترجمة موسيه . لقد انساق صاحبنا ، ولا أدري كيف تمَّ ذلك ، الى ترجمة « هكذا تكلم زرادشت » دون الرجوع الى كتب نيتشه الذي يعدها كبار النقاد كمفاتيح لابواب المسالك المؤدية الى كتاب زرادشت ، فاختزل له الطريق بتخطي الحواجز ، ألقاه وجهاً لوجه أمام نيتشه الشاعر المجنح الرمزي العويص ، الفيلسوف العميق المعقد المتمرد والثائر الذي « لم يكن مفكراً منطقيًّا وانما كان مفكراً يرسل الكلمات مجنحة والحكم الجامعة في أسلوب قوي حار تشرق في جوانبه لمعات العبقرية واضواء الالهام » فأخذ عاشي نيتشه الجبار العملاق وآثار الاعياء

(١) المقتطف شهر مايو ١٩٣٨

بادية في خطواته . واكبر الظن انهُ لو تيسر للاستاذ فارس قراءة بعض مؤلفات نيتشه «كفجر الاصنام ، والمسيح الدجال ، وماوراء الخير والشر ، ومشيئة القدرة ، والمسافر وظله ، وانسان كثير الانسانية» لاستطاع بسهولة مماشاة نيتشه الجبار العملاق جنباً الى جنب بعض المرحلة لا كلها إذ يتعذر انسجام انسان منكر ، ملحد ، خالق مع من تكون خواصه النفسية والثقافية عكس ذلك

أما ما لا يمكن تسويغهُ ، فهو تهاونه في ترجمة «اعترافات فتى العصر» تهاوناً لا يرضاه مترجم قصيدة «رولا» الخالدة ، وليس لناقد مهما تكن صلة الود وثيقة العرى بينه وبين صديقه المترجم ان يصيخ بسمعه الى الاعتذار (بالوقت) لانه كان يترجم الفصل بنصف ساعة تلبية لداعي النشر ، وأحسب ان الاستاذ فارس سيغير ويبدل جملاً برمتها من كتاب الاعترافات متى تيسر له طبعه طبعة ثانية وعسى ان يتاح له ذلك

بقي لي ان اقول انهُ طاب لصديقنا الاستاذ فارس ان يمهد للكتابين بما لا نقره على بعض ما جاء فيهما ، فحالة جيلنا الحاضر بناشئته الجديدة ليست في مثل ما كانت عليه الناشئة الفرنسية قبل مائة عام في حيرة وألم ، وان جيلنا لم يلابسهُ روح الالحاد واليأس والشكوك كذلك الروح الذي بثهُ فولتير ، وجيته ، وبيرون في القرن الماضي وما قبله

والذي يهمني ان اقوله في التمهيد لكتاب نيتشه أن ليس للمرحوم مصطفى صادق الرافعي ولا لسواه ممن ذكر من اسماء ادباء معاصرين ان يكونوا حافزين على ترجمة كتاب زرادشت ، فان كان ثمة من واجب لذكر الحافز فمرجعه بلا ريب الى الاديب الفاضل المرحوم فرح انطون فرح الذي هدانا الى نيتشه ورينان واضرابهما من جبابرة الفكر ، وأما في ما خلا ذلك فكتاب زرادشت سيبقى منهلاً صافياً عذباً يرده آلاف من العطاش لا ترويهم سوى الكتب المترجمة حبيب الزحلاوي

الفؤاديات

للمرحوم فؤاد محمد بك — صفحاته ١٥٩ من القطع الوسط

جمع الاديب عبد القادر يوسف شهاب الدين الطالب بكلية الحقوق الملكية قصائد المرحوم فؤاد محمد بك في ديوان اسماه الفؤاديات استهلها بكلمة عن حياة صاحب الديوان وشعره وثقافته ونظرة في الديوان تدلنا على شاعرية صاحبه وأريحيته وشدة حبه وتفانيه في خدمة اهله واصدقائه ونذكر على سبيل المثال ابياتاً قالها تدل على سمو أخلاقه

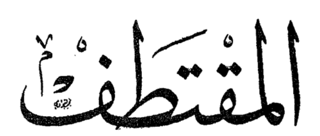
أيلذ لي يسري وغيري معسر ويطيب لي نومي وغيري يسهر؟
وأبيت ما بين الحرير منعماً وسواي يفترش التراب ويصبر؟
سبحانك اللهم انك مالك الملك تعطي من تشاء وتقدر

فهرس الجزء الاول

من المجلد الرابع والتسعين

وجه

June—December 1938 يونيو الى ديسمبر سنة ١٩٣٨



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

انشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الثالث والتسعون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by: FUÂD SARRUF

VOL. 93

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الثالث والتسعين

من المقتطف

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع والتسعين

١ فبراير سنة ١٩٣٩ — ١٢ ذي الحجة سنة ١٣٥٧

النوم والارق

بحث علمي عملي جديد

الأرق والخبل

منذ عهد قريب ذهب رجل شيخ الى مستشفى لتعمل لهُ عملية جراحية في الحبل الشوكي. وبعد اجراء العملية ، وضع في حجرة خاصة في طابقٍ يسوده السكون ليقضي فيها فترة الشفاء والنقه . ولـكنهُ على الرغم من سكون الحجرة كان يقضي لياليَ متوالية أرقاً . فعولج بالعقاقير المنومة إلاَّ أنهُ لم تنقض أيام حتى ظهرت عليهِ أعراض تنذر بالخطر ، إذ كان يصاب في ساعات اليقظة بضرب من الخبَـل . وفي مثل هذه الحالات يعرض المصاب على الطبيب العقلي . ففحصهُ وأمر بالتوقف عن معالجته بالعقاقير المنومة . وانقضى يوم ونصف يوم قبل أن زالت آثار العقاقير. ثم قال لهُ الطبيب العقليُّ «لا تخف ، ان العقاقير كان تقسرك على أخذ قسطٍ من النوم اكبر مما أنت في حاجةٍ اليه . أنك في الثامنة والستين من العمر ، والرجل في مثل عمرك لايحتاج إلاَّ الى بضع ساعات من النوم . وأنت ملقى في سريرك أربع وعشرين ساعة ، لا تنفق جهداً عقليًّا أو عضليًّا ، يقتضي منك الراحة التي تصيبها في النوم . أعمل ذهنك . اقرأ متى شئت . اقرأ في الساعة الثالثة صباحاً اذا طاب لك ذلك . اشعر بالحاجة الى النوم تنم نوماً طيباً هانئاً »

فقال المريض دهشاً . ان في قولك شيئاً جديداً لم أفكر فيه من قبل. فلما زاره الطبيب صباح اليوم

التالي وجد أنه كان قد نام سبع ساعات، وقضى بعد ذلك أياماً في المستشفى لم يصب في خلالها بأرق ما

وليس ثمة ريب في أن أحد العوامل في إطالة الارق اعتقاد المصابين به ان في الارق خطراً على الصحة قد يؤدي بالعقل الى الخبل . الهم يؤرق الانسان ، فاذا أدرك انه مؤرق تفاقم همه . بل لقد أشار أحد نطس الاطباء الانكليز الى ذلك بقوله ان المصابين بالأرق تنتابهم مخاوف عظيمة حتى ليأبون أن يعرضوا أنفسهم على طبيب خشية أن يؤيد مخاوفهم. اما من حيث الخطر الذي يجلبه الأرق على العقل فقد قال هذا الطبيب انه لم ير بعد مخبولاً يرتد خبله الى الأرق . ومن الذين عني بهم أناس لم ينـاموا إلاَّ بضع ساعات كل ليلة مدى سنوات ومع ذلك لم يصابوا بالخبل

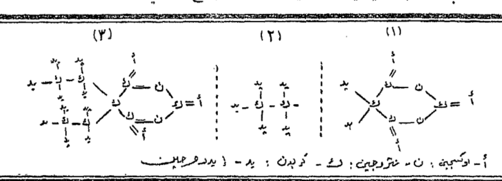
ويروى عن الفيلسوف پامر Palmer استاذ الفلسفة سابقاً في جامعة هارفرد أنه كان يقول لطلبته انهُ لم ينم ليلة كاملة منذ شبابه. وقلما نام أكثر من ساعتين متواليتين . وبعد ذلك يأرق ساعة أوساعتين . ثم ينـام . ولكنهُ تعلم بالاختبار أن يسترخي في ساعة الأرق ويجتنب التفكير في ما يشغل البال ، فيقضي الليلة بين النوم واليقظة من غير أن يصاب بتعب ما ، ثم ينهض في الصباح ، وافر النشاط كأنهُ نام نوماً هانئاً طوال الليل . وقد عاش على ذلك حتى بلغ الحادية والتسعين

الاَّ ان الأرق اذا اصاب رجلاً عصيَّ المزاج مرهف الاحساس شديد الأنفعال ، فعندئذٍ يتعرَّض ذلك الرجل لما يضعف صحتهُ ، لان قلة النوم في هذه الحالة ليست اساس المشكلة التي تواجههُ وانما اساسها تلك الساعات التي يقضيها يقظاً في سواد الليل . وقد كتب طبيب من هذا القبيل يصف ارقهُ فقال : اذا كنت وانا طبيب اعتقد انَّ فكرة الارق خرافة يجب ألاَّ تقتضي همًّا وغمًّا ، فقد تبدَّد ذلك الاعتقاد في خلال السنوات التي اصبت فيها بارق شديد فعلمت حينئذٍ انهُ من اشدّ ما ينزل بالانسان، حتى ولو كان عقلهُ يملي عليهِ انَّ قلة النوم وحدها لا تضرُّ كثيراً. اني اعلم ان الطبيب يشير على المؤرق بأن يضبط نفسهُ في ساعة الارق ويحجب عن ذهنهِ الافكار التي تعي المفكر فيها ، وانا ذو مشيئة صلبة واعرف قيمة هذا النصح الطبّـي وطالما اشرت بهِ على من اعالج ، ولكنني لم اكن ادري ما افعل بعد ان اقضي يوماً كاملاً في مؤتمر طبي وساعة في القاءِ محاضرة والمناقشة فيها ، ذلك اني كنت عند ما آوي الى فراشي ، احسُّ فكري سباقاً الى اشياء ومعانٍ لاحيلة لي في حجبها عنهُ وكنت احاول ان اقنع نفسي بأنَّ المسائل التي تتركز فيها عناية فكري من المسائل التي استطيع ان انظر فيها في غدٍ ومع ذلك كان فكري يأبى الاَّ ان يبقيها في المركز من وعي

ان رجلاً من هذا القبيل في حاجةٍ الى عقار « الباربيتورات » اذا شاء ان ينهض بعملهِ على الوجهِ الذي يرضيه في اليوم التالي

الارق والعقاقير

لا بدَّ لحديث الارق من ان يتصل عاجلاً ام آجلاً بحديث العقاقير . والغالب ان يسعى المؤرق الى التغلُّب على ارقهِ باساليب مختلفة لانهُ سمع في الاندية والمجتمعات ان فلاناً اصيب بضعف في قلبهِ بعد تناوله المساحيق المنومة . او ان آخر استعبدتهُ عادة الاعتماد على هذه العقاقير فغدا هو وعبد المورفين او عبد الكوكايين سواء . او ان آخر اخذ من احد هذه العقاقير جرعة كبيرة فقضت عليهِ . والروايات التي من هذا القبيل كثيرة ، وهي لا تخلو من نصيب من الصحة . الاَّ انَّ الدكتور سوما فيس Weiss الاستاذ بكلية هارفرد الطبية قرأ رسالة من عهد قريب (١٩٣٦) في الجمعية الطبية الاميركية ، بين فيها الاضطرابات المختلفة التي قد تنشأ عن تناول العقاقير المنومة ولكنهُ عزاها الى اساءة استعمال تلك العقاقير . قال : اذا احسن استعمالها وكان الطبيب عارفاً معرفةً تامَّة بخصائصها الصيدلية والسمّية ففوائدها ترجح مساويها



ان حديث كشف المواد المختلفة التي تحدث هذا التأثير حديث طويل . واقدمها يرتدُّ الى ألوف من السنين عند ما تبين الانسان التأثير المنوم للكحول والافيون . ثم اضيف اليها بعد ذلك مواد طبيعية وكيمياوية منوعة تشترك على تفاوت بينها في تأثيرها المنوّم . فمن اربعين سنة كان مواد البرومور Bromides اكثر هذه العقاقير استعمالاً في الطب لهذا الغرض . اما الآن فقد اخذت مواد « الباربيتورات » Barbiturates تحلُّ محلّها

هذه المواد تصنع من الحامض الباربيتوريك[1] وهو ليس بالحامض الجديد في علم الكيمياء . جزيئهُ لا يرى بالمجهر لصغره ، ولكن الكيمياويين توصلوا الى معرفة تركيب الذرات فيهِ فاذا هو كما ترى في الشكل الاول

ان الجزء الخاص من هذا الجزيء الذي يهمنا بوجهٍ خاص في هذا المقال هو ذرّتا

(١) الحامض الباربيتوريك Barbituric Acid مركب عضوي مبلور ابيض قوامه اربع ذرات من الكربون واربع من الايدروجين وذرتان من النتروجين وثلاث من الاوكسجين وجزيئان من الماء و ($C_4 H_4 N_2 O_3 \cdot 2H_2O$)

الايدروجين المفردتان . ففي مستهلّ هذا القرن ،كان الـكيمياوي الالماني اميل فيشر يجرّب التجارب بجزيء هذا الحامض محاولاً ، ان يحذف ذرّتي الايدروجين ليحلّ محلهما ذرتي (او مجموعتين من الذرات) مادة اخرى لعلّهُ يتوصل الى تركيب مادة جديدة ،لها خاصة التنويم ومع ان الحامض لهُ ليس له هذه الخاصة رأى فيهِ فيشر اساساً لمادة جديدة منوّمة

وقد تحقق ما يبغيهِ فيشر في سنة ١٩٠٣ اذ تمكن من ان يحلّ محلّ كلّ ذرّة من الايدروجين مجموعة من الذرّات ، توجد في الايثر. وكانت كل مجموعة مؤلفة من خمس ذرات ايدروجين وذرّتي كربون (ترى رسمها وتركيبها في الشكل الثاني) فلما تمّ الحذف والتركيب ، اصبحت ذرة الحامض المذكور ، وهي كما تراها (الشكل الثالث) ، اي انها غدت ذرة مادة جديدة كان فيشر يتوقع ان تكون المادة المنومة المتوقعة

كان فيشر يتوقع أن تكون هذه المادة الجديدة ذات تأثير مخدّر وذلك بما لها من ألفة للمادة الدهنية (ليپويد) في خلايا الدماغ فتجعل أغشيتها الخارجية أصفق مما هي . وقبل أن يتمكن من الفصل في هذه المسألة دعي الى رحلة فقام معاونهُ بالتجارب وانبأهُ بنجاحها . وكان فيشر عند بلوغه نبأ نجاحها في مدينة فيرونا الايطالية فدعا هذه المادة الجديدة «فيرو نال» Verona . هذا العقار يعرف في الاقراباذين الانكليزي باسم « باربيتون » Barbitone وفي الاقراباذين الاميركي باسم « باربيتال » Barbital . وهو الأول من سلسلة من العقاقير المنوّمة المستخرجة من الحامض الباربيتوريك وذلك بحذف ذرتي الايدروجين من جزيئهِ واحلال مجموعة من الذرات محلّ كلّ منهما. فاذا أحللنا محلّ ذرة واحدة مجموعة من نوع الاثيل Ethyl ومحل الأخرى مجموعة من نوع الفنيل Phenyl كان المادة ذلك العقار المعروف باسم لومينال luminal وهو عقار يؤثر تأثيرهُ المنوم في بعض الناس في نصف الوقت الذي يستغرقه الڤيرونال . وعلى هذا النسق صنعت عقاقير أخرى منومّة مثل « النيونال » و « الافيپال » وهي لا تتفاوت في تركيبها فقط بل تتفاوت كذلك في سرعة تأثيرها ومدى النوم الذي تحدثهُ

هل استعمال هذه العقاقير ينطوي على خطرٍ وكيف تتفاوت من حيث تأثيرها في مختلف الناس ؟ ان التجارب التي أجريت للاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها مما هو من قبيلها ، أجريت على الأرانب والخنازير الهندية . ولكن اجراء التجارب على هذه الحيوانات لا يمكن أن يحسب دليلاً أكيداً الى الحقيقة ، لان الأحوال النفسية تؤثر أعظم التأثير في شؤون الأرق والنوم ، بل ان الانفعال الناشيء من رؤية ولد وحيد أصيب بحادثة اصطدام يؤثر في احوال الجسم الكيمياوية ، ومن هنا لا يمكن الاعتماد كلّ الاعتماد على نتيجة التجارب بالحيوانات . ولكن المشاهدات السريرية تبين للباحث بوناً شاسعاً بين الناس من ناحية تأثرهم بأحد هذه العقاقير .

فالجرعة السليمة من« الفيرونال» تتفاوت بين ٣ قمحات و ١٠ قمحات . ولكن أحد اطباء لندن عرف فتاة شفيت بعد تناولها ٩٠ قمحة وعرف كذلك شاباً توفي بعد تناوله ١٥ قمحة . ثم يختلف الناس من حيث كبر الجرعة التي يحتاجون اليها لكي يناموا . بل هنالك من تحدث فيه أحد هذه العقاقير تهيجاً بدلاً من التخدير . وهذا الضرب من التأثير يغلب في النساء . ويقول الدكتور « القـارنز » أحد اطباء عيادة مايو باميركا انهُ لايذكر انهُ رأى رجلاً تأثر بالبار بيتورات على هذا النمط

من الصفات التي تغلب على المرهفي الاحساس المعرَّضين للأرق الشديد تعرضهم للكابوس عندما ينامون، او للاحساس ان بعضهم أعضائهم مصاب بتخدير شديد او بورم ومنهم من يبقى ساعات وأياماً وهو متنبه الذهن يقظ الشعور على حين ان السواد من الناس يكون قد نام إعياءً. ومن المعروف ان التأثير الأول للتخدير قبل العمليات الجراحية هو التهيج . ولتفسير ذلك يذهب « القارنز » الى ان المخدّر البطيء الفعل عندما يصل الى الدماغ ويحدث تأثيره الأول وهو التهيج ، يجتاز المصاب فترة صعبة جدًّا قبل ان يرين الكرى عليه ويستولى التخدير على أعصابه. ولعلَّ الجهاز العصبي يتأثر بهذه الفترة فيبطل تأثير المخدّر بفعل كيمياوي حيوي . فيبقى الشخص متنبهاً يقظاً . ويقيم القارنز الدليل على رأيه هذا بقول ان «الكلورال» من خير العقاقير لمعالجة هذا الطراز من الناس وذلك لأنهُ سريع الفعل جدًّا فيحدث التخدير اوالتنويم قبل ان يجتاز الانسان تلك الفترة الصعبة التي تحفز الجهاز العصبي الى إبطال فعل المخدّر . على ان السواد من الناس يتأثر بالعقاقير المنومة كالفيرونال والشاذ منهم يحتاج الى عقار من قبيل «الكلورال »

وهناك نوع من الأرق يصاب به صاحبهُ بعد نوم قصير . أي انهُ لا يجد صعوبة ما في أن ينام ولكنهُ بعد قليل يستيقظ ويتقلَّب في فراشه . وخير علاج لهذه الحالة هو عقار منوّم لا يستمرُّ فعله أكثر من أربع ساعات . ولكن الطبيب الذي يصفهُ يجب الاَّ يصفهُ الاَّ بعد ان يتبين تركيب المرء العصبي ونوع الأرق الذي يصاب به، لأن الغرض من وصف العقاقير المنوّمة هو حمل المرء على أن يتعود النوم الصحيح بغير أن يتعوّد تناول العقار فلا يستغني عنهُ

وكان زعم الباحثين في مبدىء الأمر ان المركبات المستخرجة من الحامض الباربيتوريك لا تنشىء عادة الادمان في متناولها . ومما لا ريب فيه أنها في طبقة من العقاقير تختلف عن طبقة المورفين والكوكايين والافيون. ولكن هناك مدمنون للفيرونال بمعنى أنهم أصبحوا لا يستغنون عن برشان الفيرونال قبل النوم كلَّ ليلة . وقد روي ان أحد الاطباء وضع في البرشان مسحوق سكر اللبن بدلاً من مسحوق الفيرونال فأحدث تناول هذا البرشان التأثير المنوّم المطلوب في شخص تعوَّد أخذها كلَّ ليلة . ولكن ليس جميع مدمني الفيرونال من هذا النوع القائم على الوهم . ومع ذلك

فعدد هؤلاء المدمنين قليل . ويقول الفارنز انهُ لم يرَ اكثر من سبعة مدمنين من هذا الطراز خلال ثلاثين سنة من الممارسة الطبية . ويقول جلسبي Gillespie انهُ لم يعثر في جميع الرسائل والمؤلفات الطبية المنشورة في ربع قرن قبل سنة ١٩٢٩ على اكثر من اربعمائة مدمن من هذا النوع

والخلاصة انَّ هذا النوع من العقاقير قد يولّد عادة الادمان في الضعاف المصابين بجهاز عصبيّ مضطرب ولذلك يجدر بالطبيب ان يستوثق من ان تناول العقار سيبقى خاضعاً لسيطرته وامرهِ قبل الاشارة باستعمالهِ ، وان يقنع المصاب بانَّ تناولهُ من تلقاءِ نفسهِ ينطوي على خطر

مركز النوم في الدماغ

يتفق الشعراء في جميع اللغات على وصف النوم بانه ضرب من الموت او هو «الموت الاصغر» ومع ان الكتب الطبية لا تحتوي على ذكر امرىءٍ مات بقلة النوم او انتفائه فالصينيون والاسكتلنديون كانوا — على ما يقال — يعاقبون المجرم بفرض اليقظة الدائمة عليه حتى يموت. اما التجارب في الحيوانات فقد اثبتت ان كلاباً نفقت بعد ١٤ يوماً من اليقظة الدائمة المفروضة عليها والارانب بعد ثلاثة أسابيع

ولعل هناك فرقاً بين اليقظة المفروضة على الكائن الحي من الخارج بمنبهات دائمة واليقظة الذاتية التي ندعوها «الأرق» . ومما روي في هذا الصدد ان العالم الهولندي هرمان بورهاف الاستاذ في جامعة ليدن في مستهل القرن الثامن عشر ، قضى مرة ستة أسابيع دائم اليقظة لانشغاله ببحث خطير يهمه . ويروي « فوربز ونسلو » قصة رجل كان يسير على قدميه مسافات طويلة في النهار ثم يشغل ليلاً في مناقشات محتدمة مع أشخاص موهومين ، وانه قضى على ذلك ثلاثة أشهر لا ينام . وفي مذكرات احد الاطباء ان رجلا أصيب بالأرق خمسة عشر يوماً متوالية فكان ينهض من فراشه في الليل ويسوق مركبة تجرها ثلاثة جياد حتى ينهكها إعياء لعله بذلك ينهك جسمه فينام

يقابل هذا ان الدكتور هرتزلر — مؤلف كتاب « طبيب العربة والجواد » أي طبيب الريف — روي عن نفسه انه دعي في احدى الليالي وهو متعب جدًّا لعلاج حالة طارئة فاستقل عربته وحقيبة أجهزته وعندما وصل الى الكوخ الذي دعي اليهِ أعد مبضعهُ لشق خراج خبيث ثم ران الكرى فجأة على عينيهِ ، فاعاد المبضع الى الحقيبة وعاد الى دارهِ ولم يتذكر إلاَّ في الصباح ان الخرَّاج لم يشقّ

وكذلك نرى من هذه المقارنة في مسألة النوم ان النوم يأخذ بأجفان أناس وهم في أشد الحاجة الى اليقظة ويجتنب غيرهم وهم في أمس الحاجة اليه

وليس ثمة ريب في ان احدى الفجوات الكبيرة في علم الحياة الانسانية ، جهلنا سرَّ النوم . فنحن نعلم علماً لا بأس به أساليب التنفس ودوران الدم والهضم والاتصال العصبيّ في الجسم

واسرارها. اما النوم فلا نجد رأياً واحداً في تفسيره وفهمه يفوز باجماع العلماء او بما يقرب من اجماعهم في الآراء المطروحة على بساط البحث رأي يعزو النوم الى تغيّر في مقدار الدم او محتوياته. ولعلّ القول بان سبب النوم هو فقر وقتي في دم الدماغ من اقدم الآراء في فهم النوم وقد وصفهُ « الكميون » اليوناني من ٢٥٠ سنة بقوله « ارتداد الدم من الدماغ الى الشرايين » . الاّ ان جماعة من الاطباء في مستشفى مدينة بوسطن الاميركية حاولوا من عهد قريب قياس ما يجري من الدم من الدماغ الى الأوردة . فوضعوا في حبل الوريد الداخلي — وهو الوريد الذي يفرغ فيهِ الدماغ دمه — اجهزة كهربائية دقيقة لا تسبب لصاحب الوريد المـاً ما ، فقاسوا بها سرعة جريان الدم من الدماغ الى الوريد مدى ساعتين . واخذ الكرى بمعاقد اجفان الرجل في خلال التجربة ، فلم يحدث تبديل ما في سرعة جريان الدم لا في بدءِ النوم ولا في اثنائه ولا قبيل الافاقة منهُ . وقد اعيدت التجربة في غيره فاسفرت عن النتائج نفسها

واذن ليس في الوسع ان يقال ان هناك سنداً للرأي القائل بوجود صلة بين مقدار الدم في الدماغ والنوم . ولكن هناك ما يدل على وجود صلة بين النوم ومحتويات الدم . فمن سنوات ذهب احد علماءِ الفسيولوجيا الى ان الدم المأخوذ من الاوردة المحيطة Periphera في اثناءِ النوم يحتوي على مقدار من الكلسيوم اقل من مقداره في دم الأوردة نفسها في اثناءِ اليقظة . فحفز هذا القول العلماء الى البحث وهم يسألون ، ترى هل يتجمع الكلسيوم في اثناء النوم في الدماغ ؟

وكان من ابرع من تقدّم لبحث هذا الموضوع عالم سويسري يدعى ديمول Demole فحقن ملحاً من املاح الكالسيوم في ادماغ الهررة وجعل الحقن في جذر الدماغ المعروف باسم المهاد (عن شرف: thalamus) فران النوم على الهررة. ووجد ديمول بالتجربة انهُ يستطيع ان يجعل مدة النوم متفاوتة من دقائق الى ساعات بزيادة مقدار الحقنة او نقصها . وعرف بالاختبار انهُ في مكنتهِ ان يوقظها من نومها هذا ولكنهُ عرف كذلك انها اذا استيقظت من تلقاءِ نفسها بدا عليها النشاط والانتعاش كأنها نامت نوماً طبيعياً

واجريت تجارب اخرى من قبيل تجارب ديمول فثبت منها انّ املاح الفلزات لها فعل منوّم كفعل ملح الكلسيوم اذا حقن في « مهاد » الهررة وهناك ما يدلّ على ان للكلسيوم تأثيراً في منطقة الدماغ التي تحت المهاد (التالاموس) ومن المعروف ان الكلسيوم تأثيراً خاصًّا في الخلايا الحيّة . اذ يلوح انهُ يجعل جدرانها اقل شفوفاً واشدّ مقاومة فتغدو اقلّ تنبهاً او تأثراً بالمنبهات. واذن يمكن ان يحسب الكالسيوم ضابطاً (فرملة) كيماويًّا حيويًّا وهذا يفضي بنا الى ان نقول ماقالهُ جلسبي في رسالتهِ « النوم » انّ العقاقير المنوّمة (المخدرة) تؤثر باضعاف شفوف الاغشية الخلوية في الجهاز العصبي المركزي

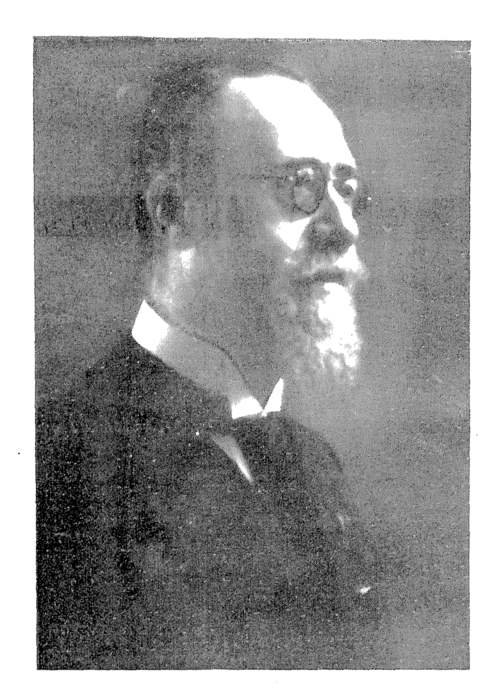
وتدلُّ الدراسات المختلفة على ان الجسم يتلقى من هذه المنطقة في قاعدة الدماغ الأوامر العصبية الخاصة بالنوم واليقظة

ومن بضع سنوات قام الاستاذ هس العالم الفسيولوجي المشهور بجامعة زوريخ ببحث طريف اذ غرزَ اقطاباً كهربائية دقيقة كالابر في أدمغة الهررة وأحدث بوساطتها صدمات كهربائية فسبَّب ذلك النوم في الهررة . وعني ايكونومو النمسوي العالم بالأعصاب بدراسة أدمغة المتوفين بالتهاب الدماغ السحائي (مرض النوم) عندما فشا هذا الوبأ في أوربا خلال الحرب الكبرى فوجد التصاقات او كتلاً من النسيج المؤوف في المنطقة التي عند قاعدة الدماغ في كل حادثة تولاها بالبحث .
ومن عهد قريب قام جماعة من علماء شيكاغو ببحث دقيق ثبت لهم منهُ ان الجزء الخاص الذي يصاب في قاعدة الدماغ هو الجزء المعروف باسم «هيبو تالاموس» (وهو الجزء الذي تحت المهاد اي تالاموس) . فوجدوا ان تهييج هذا الجزء من الدماغ في الهر تهييجاً يسيراً يفضي بالهر الى رفع رأسهِ واتساع بؤبؤهِ وازدياد تنفسهِ ونشاطهِ حالة ان تهييج مناطق أخرى من الدماغ لا يفضي الى مثل هذه النتائج . يقابل ذلك انه اذا أُصيب هذا الجزء من دماغ الهرّ بآفةٍ او باصابةٍ أحدث ذلك سباتاً في الهر ، فاذا هيج بعد حدوث النوم عجز التهييج عن ايقاظ الهرّ من سباتهِ

وتحوَّلت جماعة شيكاغو بعد ذلك الى حيوان اعظم نشاطاً وأقل نوماً من الهرّ فاتخذوا نوعاً من القرد لا يستقرُّ على حال عندما يكون امام الناس ، فاحدثوا التصاقات في ذلك الجزءِ من دماغهِ المعروف باسم (هيبو تالاموس) فتحوَّل هذا الحيوان الصاخب الذي لا يستقرّ الى حيوان متراخٍ يغالبهُ النعاس فيغلبهُ حتى لقد يرين النوم عليهِ وهو يتناول طعامهُ . ولم يندر ان تستمرَّ هذه الحالة بضعة اسابيع . فاذا عاد القرد المعالج بهذه الطريقة الى اليقظة التامة كان أكثر استقراراً وأنساً منهُ قبلها . واللائح ان الآفة التي أصيب بها «الهيبو تالاموس» غيَّرت من طبيعتهِ الانفعالية ، وهذا يتفق والنتائج التي أسفرت عنها مباحث العلماءِ الآخرين ، وهي ان «الهيبو تالاموس» هو مركز الانفعالات

وقد تناولت تجارب جماعة شيكاغو عدداً كبيراً من الهررة وخمسة وخمسين قرداً ، فكانت النتائج التي اسفرت عنها يؤيد بعضها بعضاً . ذلك بان الاصابة في الهيبو تالاموس تفضي الى النوم . اما اذا كانت في جزءٍ آخر من الدماغ فانها لا تفضي اليهِ . ومما يجب ذكره في هذا الصدد ان الالتصاقات التي كانت تصيب هذا الجزءَ من الدماغ لم تمسّ مسالك الاعصاب الرئيسية الممتدة من الجسم الى الدماغ ومن ذلك خلص رئيس هذه الجماعة الى القول بأنَّ النوم في هذه الحيوانات لم ينشأ عن قطع سبل الرسائل العصبيَّة الحسيَّة السائرة من الجسم الى قشرة الدماغ . ومهما يكن من امرهِ فهو مقتنع بأن «الهيبو تالاموس» متصل اتصالاً وثيقاً بتنظيم اليقظة والنوم وان كونهُ مركز الانفعالات يجعله عاملاً فعالاً في المحافظة على اليقظة

[ملخص بتصرف يسير عن مجلة هاربرز]



المستشرق نلينو

| تفضلت الآنسة ماريا نلينو كريمة
المغفور له الاستاذ نلينو باهداء
هذه الصورة الينا وهي من تصوير
« أونغاريا » بروما ونقلها محظور

المستشرق نلينو

حياته وآثاره

للعلامة المستشرق البروفسور ليتمان
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الاستاذ كارلو الفونسو نلّينو (C. A. Nallino) علم من أعلام الاستشراق وإمام المشتغلين بالمشرقيات في ايطاليا . عرفهُ طلبة الجامعة المصرية أمس واليوم أستاذاً وصديقاً وعالماً وديعاً فأحبوه وأحبهم وقد زاد تعلقهم بهِ على قدر رعايته لهم وتثقيفهم .

حول الاستاذ نلينو أعين تلاميذه المصريين الى القطب الآخر الذي يغيب عنهم . ذلك أنهُ عرف فيهم النباهة وسرعة الخاطر وحب الاطلاع وقوة الذاكرة ثم كشف عن النقص فلاحظ ما يحتاجون اليهِ من تنظيم معلوماتهم وحصرها وضبطها حتى يتهيأ لهم التأليف بعد البحث فتعمد في درسهِ الدقة العلمية الشديدة ووقف على كل مسئلة يوفيها قدرها من الفحص ليصلح ما انحرف وليجعل من هذا النبات الملتف شجراً مثمراً . فوصل الى غايته دون ان يزهق تلاميذه أو يكلفهم شططاً وهم يعترفون له على اختلاف مناحيهم بالفضل والأثر .

وكذلك كان له خير ذكر عند زملائه علماء المشرقيات في أوربا والشرق العربي .

واليك المرثية التي كتبها المستشرق ليتمن من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة توبنجن بألمانيا . وهذه المرثية تبرز — على الطريقة الألمانية في المراثي — خصائص الراحل ومناحي مباحثه وألوان تأثيره .

مراد كامل

— ١ —

خسر العلم بفقدان زميلنا الاستاذ نلّينو نابغة من اعظم العلماء وأجلهم قدراً . وقد ظهر نبوغ الاستاذ نلينو في علم المشرقيات وعلى الخصوص في العلوم الاسلامية ، ويندر ان نجد عالماً مثله بين اولاء الذين درسوا العلوم الاسلامية : بحث في كل فروع هذه العلوم المتشعبة فكشف لنا عن حقائق علمية جديدة في كل ناحية من نواحيها . وقد قال الاستاذ نلينو مرة لزميل من زملائهِ في مدينة پلرْمو « لا يحوّلني عن دراسة العرب كائن ما كان ولكني أحاول أن

أعرف كل شيء عن العرب » . وفضلاً عن ان اللغة العربية والعلوم الاسلامية على تعدّد فروعها كانت موضع عنايته الخاصة فقد كان على علم يقين ومعرفة ثابتة بسائر لغات الشرق الأدنى وآدابها وقد عرف كيف يستعملها عند الحاجة فكان يتقن الآرامية والعبرية والفارسية والتركية ، وفي مؤلفاته شواهد باللغة الارمنية واللغة الحبشية . ولكنهُ حصر جهده في دراسة العربية كزميله المستشرق الهولندي ده غويه de Goeje (بينما نبغ زميلاه الاستاذ نولدكه Noeldeke الالماني وكذلك الاستاذ جويدي Ignazio Guidi الايطالي في علم اللغات السامية عامة بل تعدياها احياناً الى فقه لغات اخرى) وأتقن الاستاذ نلينو دراسة علوم اخرى : فدرس علم الفلك والرياضيات والفلسفة والفقه وتاريخ الاديان دراسة محقق ٍ ليستعملها في مباحثه المختلفة . وكان يتعمق في الدرس ويتعقب اغلاط العلماء المتقدمين وينقّي الحبَّ من التبن — كما نقول — ويحل المشكلات العلمية على وجه جديد صحيح . وقال عن نفسه مرة « اذا صادفتني مسألة علمية فلا بدّ لي أن أتعمق في بحثها فأنا لا اكتفي بمعرفة نصف الشيء » . وبدأ احياناً بدراسة نقطة ظنّ انها تافهة فوصل منها الى مسائل مهمة حقّقها على اتمّ وجه . وقال في معرض الكلام عن هذا النوع من الدراسة في رسالة له تقع في خمس وعشرين صفحة عنوانها (أفلسفة مشرقية أم مُشرِقية عند ابن سينا) : « إنَّ المسألة التي اقصد حلها تظهر تافهة ولغويّة بعينها ولكن حلها في الحقيقة على غاية من الاهمية فهو يعيّن باطن فكر ابن سينا ومنصبه الحقيقي في تاريخ الفلسفة عند مسلمي الشرق، فأملي ان اكون على حق ٍ في توسعي في هذا المقال والتدقيق في بحثه »

كان الأستاذ نلينو يملك زمام اللغة العربية كاتباً وناطقاً ، فقد الف بعض مؤلفاته بالعربية وألقى محاضرات في الجامعة المصرية بها من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٢ ثم من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣١ . وكان في جلسات مجمع فؤاد الاول للغة العربية كثيراً ماينوب عن الاعضاء الأوربيين في الكلام . وقد قرأتُ في جريدة مصرية « أن الاستاذ نلينو يعرف العربية كأنها لغة آبائه »

ولد الاستاذ نلينو في السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٢ في مدينة تورينو من اعمال بيمونت Piemonte ونشأ في أودِينه Udine من أعمال البندقية ، ثم درس في مسقط رأسه تورينو تحت اشراف الاستاذ بتزي Italo Pizzi وحصل في سنة ١٨٩٣ على درجة الدكتوراه في الآداب وكان الاستاذ Pizzi يؤثر تدريس اللغة الفارسية فالغالب على الظن أن الاستاذ نلينو انتفع من تعليمه لتلك اللغة . أمَّا الفضل في دراسته للغات الشرقية الأخرى فيرجع لنفسه واجتهاده . وقد ارسلتهُ وزارة المعارف الايطالية على نفقتها الى القاهرة في شهر ديسمبر سنة ١٨٩٣ فأقام بها الى شهر مايو من السنة التالية ليستزيد من العلم . وفي خريف تلك السنة بعثهُ مرصد ميلانو الى الاسكوريال في اسبانيا لدراسة المخطوطات العربية فيها . وكان قد سافر سنة ١٨٩١ وهو ابن تسع عشرة سنة

الى مونيخ في باڤاريا لـكي يفحص عن بعض المخطوطات العربية وينسخها . ثم صار معلماً وهو ابن احدى وعشرين سنة أي في سنة ١٨٩٤ حين عيّن لتدريس اللغة العربية في المعهد الشرقي بمدينة نابولي ، وبقي في هذا المنصب الى سنة ١٨٩٩.ثم رقي في المعهد نفسه الى منصب استاذ مساعد وظل كذلك ثلاث سنوات . وكان في الوقت عينه مدرساً للغة العربية وآدابها في جامعة روما الملكية ، ثم دعي في سنة ١٩٠٢ الى الجامعة الملكية في بلرمو كأستاذ مساعد ، وبعد ثلاث سنوات عيّن أستاذاً للغة العربية بها حتى سنة ١٩١٤ ، وكذلك ألقى محاضرات في الجامعة المصرية القديمة من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٢ عن تأريخ علم الفلك عند العرب وعن تأريخ الآداب العربية ، ثم عُيّن أستاذاً بالجامعة الملكية في روما للتاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية فأنتج في التعليم والبحث والادارة ، والقى محاضرات في تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام في الجامعة المصرية كأستاذ زائر من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣١ . وكلفتهُ حكومته بعد الحرب التي شبت بين ايطاليا وتركيّا ان يقوم بتنظيم ما تبقى من الأوراق الرسمية التركية السياسية وتأسيس مكتب للترجمة ، وكان ذلك في أواخر عام ١٩١٢ ، ثم عهدت اليه وزارة المستعمرات بأعمال مختلفة منها أن يكون مندوب الملك في تنظيم المعهد الشرقي في نابولي تنظيماً جديداً ، وكان ذلك فيما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٤ فنرى أن الاستاذ نلينو لم يكن صاحب علم نظريّ فحسب ، بل اكتسب تجارب عملية مفيدة من أسفاره العديدة ومناصبه المختلفة أهّلتهُ كوطنيّ غيور لاستخدامها بفطنة زائدة في منفعة وطنه ، فكان كذلك عضو المجلس الأعلى للتعليم من سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٢٨ وقد عُيّن سنة ١٩٢١ مديراً للمعهد الشرقيّ بجامعة روما فقام بادارته خير قيام إلى أن وافتهُ المنية . وفي اثناء ذلك أسّس مجلة (الشرق العصري) Oriente Moderno وكان رئيس تحريرها . وهي مجلة فريدة في بابها يحق للمستشرقين الايطاليين ان يفخروا بها إذ لا مجلة هنالك على اسلوبها في العالم يُذكر فيها كل ما يتعلق بالشرق العصري بمثل هذه الدقة والأمانة العلمية ، وبجانب هذا كلّه أسندت اليه ادارة القسم الشرقي من دائرة المعارف الايطالية وكذلك نيابة رآسة المجمع العلمي بروما

عرف الاستاذ نلينو في اسفاره المتعدّدة البلدان ، التي حول البحر المتوسط من المغرب الاقصى الى بلاد الشام ، فبعد ان زار القاهرة للمرة الاولى في سنة ١٨٩٣ سافر مراراً الى بلدان إفريقية الشمالية ثم حملتهُ الرغبة في البحث على زيارة بلاد السودان والعراق فسافر اليها عقب إقاماته في القاهرة ، واخيراً شاهد بلاد العرب التي طالما بحث عنها نظريًّا ، فبينما كنا الى مائدة طعام في يوم من ايام شهر يناير في السنة الماضية اذ بادرني بقوله « اني سأسافر مع كريمتي الى جدة » وقد ودّعتهُ في اوائل شهر فبراير ونحن نجهل ما يخبأه لنا القدر وأننا لن نتقابل مرة اخرى . أقلته

سيارة السفير الايطالي مع كريمته من القاهرة الى السويس ومنها سارا على باخرة صغيرة الى جدة فظلاَّ هناك الى اواخر شهر مارس، فسنحت لهما الفرصة فسافرا بالسيارة الى داخل الجزيرة مارين بالطائف، وقد كتبت إليَّ الآنسة ماريا نلينو عن هذه الرحلة قالت: — «اضطررنا في رحلتنا هذه ان نلبس ملابس العرب فلبس أبي المشلح والصمادة. أما أنا فلبست الجلباب الأسود ووشاحاً مضاعفاً يغطي الوجه كله، وبتنا في طريقنا في قرية السيل في غرفة صغيرة خالية من الأثاث لا نافذة فيها، بها باب بدون مصراع تطل على السهل الواسع فتسمح للكلاب والقطط وما اليها أن تدخلها وكل ما كان لدينا من الترف كرسيان من القش اضطجعنا عليهما بملابسنا». ومع ان الاستاذ نلينو كان يتحمل متاعب الاسفار ومشاقها فأنا أظن أن متاعب تلك الرحلة اضرت بصحته ولكنهُ رجع الى روما فرحاً مرحاً فبدأ عمله هناك بما عهد فيه من النشاط. وكان يريد أن يشترك في مؤتمر المستشرقين في بروكسل ولكن توفاه الله في الخامس والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٣٨ بسكتة قلبية، فحزنت عليه ايطاليا اذ كان من أعظم علمائها وحزن عليه جميع علماء المشرقيات وحزن عليه اصدقاؤه وتلاميذه الكثيرون في الشرق والغرب، وكذلك كان حزن أعضاء مجمع فؤاد الاول شديداً عندما ارسل اليهم معالي رئيسه خبر الوفاة قال: «مع عظيم الأسى وبالغ الحزن أبلغ حضراتكم نبأ وفاة زميلنا المغفور له السنيور نلينو. ولا شك أننا جميعاً نشعر بأن المجمع قد خسر بوفاته عضواً غزير العلم جليل النفع كريم الخلق، نسأل الله أن يلهمنا وإياكم جميل الصبر ويهبنا جميعاً العزاء»

—٢—

أما مؤلفات الاستاذ نلينو الاولى فأظهرت تشعُّب دراساته واتساع أفقه العقلي، فقد كتب أول مؤلفاته وهو ابن عشرين سنة وكان موضوعهُ جغرافيًّا، وكتابه الثاني عنوانه «منتخبات قرآنية» أضاف اليها معجماً له شأنهُ في علم اللغة، وكان موضوع رسالته الثالثة تاريخيًّا والرابعة فلكيًّا، ثم أفاضت علينا مؤلفاته الواناً وانواعاً فشملت تقريباً كل علوم اللغة العربية والثقافة الاسلامية العربية. واهم ما نشر وأوسعه يخص علم الفلك عند العرب وتاريخ الفقه الاسلامي وفتح له هذا البحث باباً الى دراسة الفقه عند مسيحيي الشرق وهو أول من دلنا على حقيقة الكتاب المسمى (بكتاب الفقه السرياني الروماني)

والآن أحب أن أعرض مجملاً تآليف الاستاذ نلينو، ولما كان فهرست مؤلفاته المطبوع لم يُذكر فيه نقده العامي للكتب المختلفة ولا مقالاته المنشورة في دائرة المعارف الاسلامية ولا الايطالية فأنا لا يمكنني أن أتكلم عنها كلها هنا، وكل ما في وسعي أن أقوله إن نقده للكتب المختلفة كان في دائرة الموضوعات التي يبحث فيها وقد يتعدَّاها أحياناً، ولم يكن الاستاذ نلينو ممن يكرر القول في نقده بل يوضح المسائل بأفكار جديدة، وكثيراً ما أظهر بنقده اخطاء المتقدمين

وحدّد واجب الناقد والحاكم بقوله « أجتهد ان أقوم بهذا الواجب على وجه محايد كما يجب على كل من دعي ان يحكم حكماً »

أما أول كتبه في اللغة وتاريخ اللغة فهو (منتخبات قرآنية) كتبهُ في سنة ١٨٩٢ ونشرهُ في السنة التالية ، وقد رتّب السور المختلفة بحسب تاريخ نزولها كما أثبت ذلك الاستاذ نولدكه Noeldeke في كتابهِ عن تاريخ القرآن ، لقراءة النصوص القرآنية ومسائل أخرى ظهرت بعد ما نشر برجشترسر Bergstraesser وجفري Jeffery وبرتزل Pretzl ابحاثهم ولكن قصد الاستاذ نلينو ان يكتفي بالنصّ المعروض ، وأضاف الى كتابهِ تعليقات وملاحظات ومعجماً على غاية من الدقة ذكر فيهِ اشتقاق الكلمات كما كانت معروفة في ذلك الزمان ، وقال في ذلك « إني أعرضت أحياناً عن المعاجم العربية وبذلت جهدي لكي أعرض في معجمي هذا معاني الكلمات كما دارت في خلد النبي » . فهذا يظهر لنا الروح العاميّة الصحيحة لعالمنا الشاب ، وقد سمحت له اسفاره في افريقية أن يتعلم اللهجات العربية الحديثة فكان يتكلم باللهجة المصرية بطلاقة كما كان يتكلم بالعربية الفصحى ، فنشر أولاً (ملاحظات في اللهجة العربية التونسية على كتاب قواعد هذه اللغة الذي نشره الاستاذ Stumme) ، وتلا ذلك كتابه المشهور الذي عنوانه (اللهجة العربية في مصر) وهو يحتوي على قواعد اللغة العامية المصرية ومحادثات وستة آلاف كلمة تقريباً . وكتابه هذا عمدة لكل من أراد ان يدرس اللهجة المصرية فنفدت طبعتهُ الأولى لكثرة الاقبال عليهِ ثم ظهرت طبعة ثانية منقحة واقبل الاستاذ نلينو بعد ذلك بهمة عالية على إكمال هذا الكتاب وكذلك اعتنى بعلم النقوش العربية فنشر مقالتين عن رُجمتين عربيتين منقوشتين وجدتا في ايطاليا الجنوبية ، ونشر ايضاً في مجلة الهلال مقالة عنوانها (كيف نشأت اللغة العربية) ثم مقالة أخرى عنوانها (الحروف اللاتينية هل تصلح للكتابة العربية) ونشر في مجلة المجمع العربي بدمشق مقالة سماها (تصحيفات غريبة في معجمات اللغة) وكتب في مجلة الدراسات الشرقية عن المعنى الاصلي لكلمة « نِصْبَة » واستعمالها عند الفلاسفة وعلماء الفلك بناءً على شواهد عربية مختلفة .ومقالة أخرى عن كلمة « بياض » بمعنى « قار » ، وردت في معاهدات بين مصر وأهل أرغون في القرن الثالث عشر الميلادي ، ونجد في بقية كتاباته الكثيرة ملاحظات شتى مفيدة عن تاريخ اللغة ومعاني الكلمات ، مثلاً كلمة «هاهنا» التي استعملها ابن رشد بمعنى «يوجد» كما تستعمل لفظة «فيه» في العاميّة ، وكذلك نجد في كتابه الفلكي المشهور عن البتاني قسماً لغويًّا على غاية من الأهمية ، وله مقالة عن كتابين في اللغة العربية الجنوبية قبل الاسلام وهما كتاب قواعد اللغة العربية الجنوبية للاستاذ جويدي Ignazio Guidi والمنتخبات العربية الجنوبية للاستاذ كونتي روسيني Conti Rossini اوضح فيها مسائل لغوية وتاريخية هامّة .

أما الآداب العربية وتاريخها فكان الاستاذ نلينو على معرفة يقينية بها فكان يعرف مئات من المطبوعات العربية من جميع البلدان الاسلامية القريبة منها والبعيدة ويحفظ مضمونها في ذاكرته بدون حاجة الى الجذاذات ، وكان لا يكلّ عن جمع الكتب ويأخذ معهُ من القاهرة كلما جاءها صناديق عديدة من الكتب إلى روما ، وكتب عن موضوعات أدبية منها (حيقر الحكيم وكتاب طوبيا) — (تاريخ آداب اللغة العربية) — (نقص تاريخ آداب اللغة والعلوم التاريخية عند العرب) — (بيت النابغة عن الإله ودّ) — (آثار كتب يونانية وصلت العرب عن طريق البهلوية) — (عمّ متولى ، حكاية عربية تأليف محمود تيمور مترجمة مع مقدمة وتعليقات) — (ملاحظات عن ابن المقفع وابنه) . ومن أهم مقالاته تلك التي كتبها عن الكتب اليونانية التي وصلت العرب عن طريق البهلوية دلّ فيها على أنّ كتب Cassianus Bassus Scholasticus و Vettius Valens و Teukros نقلت الى اللغة البهلوية أولاً ومنها الى العربية ،وفسّر بنظره الثاقب الأسماء المصحفة عند العرب بتعدّد دلالات الحروف البهلوية ، فحصل من ذلك ان تينكلوس وطينقروس وتنكلوشا صيغ مختلفة لاسم Teukros وان كتاب تنكلوشا تزوير كما هو كتاب الفلاحة النبطية المعروف ، وبذلك يستدلّ القارىء على مقدرة الاستاذ نلينو في اللغة البهلوية وما عدا ذلك فلهُ نقد كتب كثيرة عن الآداب العربية

من أهم أعمال الاستاذ نلينو التاريخية نشره كتاب تاريخ مسلمي صقلية الذي ألفهُ Michele Amari . فقد نشر الجزء الأول في سنة ١٩٣٣ والثاني في سنة ١٩٣٥ ونصف الجزء الثالث في سنة ١٩٣٧ . ووافتهُ المنية قبل ان يتم طبع الكتاب كله ، ولا شكّ أنهُ كان العالم المستعدّ للاعتناء بمثل هذا العمل لما لهُ من تجارب طويلة في بلرمو مع معلوماته التاريخية الفذة . ونحن نتبين من مقدمة هذا الكتاب التي تقع في ثلاث وثلاثين صفحة قيمة هذا العمل الجسيم وما يحتاج اليه الانسان من عناء واجهاد . أما أعماله التاريخية الأخرى فيتعلق معظمها بتاريخ العرب قبل الاسلام لا سيما بتاريخ العرب الجنوبيين الذين ألقى عنهم محاضراته الدقيقة في الجامعة المصرية . أما الرسائل التي كتبها فهي (عن تشريع القبائل العربية قبل الاسلام) — (البندقية وسفاقس في القرن الثامن عشر حسب وصف المؤرخ العربي مقديش) — (تاريخ اليمن قبل الاسلام) — (روّاد اليمن من الأوربيين) — (هل كانت مصر تتعامل رأساً مع جنوب جزيرة العرب قبل عصر البطالسة) — (علاقة العالم الاسلامي بأوربا) — (عن العرب والبربر في بلاد برقة) — (مخطوطان عربيان عن تاريخ بلاد اليمن موجودان في مجموعة كايتاني Caetani)

أما الجغرافية ، فكان اول ما نشره الأستاذ نلينو فيها (القياس الميتري لدرجة دائرة نصف

النهار عند جغرافيي العرب) وأهم ما كتبهُ من هذه الناحية مقالة عنوانها (الخوارزمي وتجديده لجغرافية بطلميوس) ، وقد ترجم ملخص هذه المقالة الى اللغة الفرنسية ، وهو المستشرق الوحيد الذي قارن من نواحي عديدة مختلف العلوم الاسلامية العربية بالعلوم اليونانية وبين علاقة بعضها ببعض لفهم الواحد من الآخر ، فاهتمّ بالأسماء الجغرافية وكتب عنها رسائل شتى وهي (كيفية كتابة الأسماء الجغرافية باللغة العربية والفارسية والتركية) — (الأسماء الجغرافية في العالم الاسلامي في بعض مؤلفات عربية جديدة) — (كيف تكتب الأسماء الجغرافية في طرابلس الغرب وبرقة باللغة الايطالية واللغة العربية) . وبينما كان ينشر ويترجم كتاب البتاني بحث أيضاً عن جداوله الجغرافية وألّف رسالة عنوانها (الجداول الجغرافية للبتاني مترجمة ومفسَّرة) ، وكتب بياناً عن المكتبة الجغرافية التي نشرها الاستاذ de Goeje وكتب أيضاً في خارطة عربية من القرن السادس عشر الميلادي لعلي بن أحمد من مدينة سفاقس وعن رحلة سائح في ليبيا في القرن الثامن عشر ، وبهذه المعلومات الفذّة للأسماء الجغرافية استطاع ان يساعدنا كل المساعدة في جلسات مجمع فؤاد الأول عند المناقشة في هذه المسائل .

— ٣ —

أما علم الفلك عند العرب فالاستاذ نلينو هو العمدة فيه ، وكتب أحد المستشرقين عن كتابه المسمى بالبتاني الذي يقع في ثلاثة مجلدات (إنهُ الحجر الأساسي لعلم الفلك ومن يعرف استعماله يجد فيه ملاحظات في هذا العلم الصعب وهو فوق ذلك يهيء للقارىء ابحاثاً أعمَّ منها) ، وعنوان هذا الكتاب لاتيني وترجمتهُ (كتاب البتانيّ الفلكيّ منشور بالعربية عن المخطوط الموجود في الاسكوريال ومنقول الى اللاتينية ومفسَّر بتعليقات) ، طبع المجلد الاول في سنة ١٩٠٣ ويقع في سبع واربعمائة صفحة من القطع الكبير ويحتوي هذا المجلد على ترجمة الكتاب والشروح وعلى مقدمة يخبر المؤلف فيها بحياة البتانيّ الحرانيّ وبرسائله والكتب التي نسبت اليه خطأً ، ثم تكلم عن الكتاب نفسه ، فطبع المجلد الثاني بعد اربع سنين ويقع في اربع وأربعين وأربعمائة صفحة وهو ترجمة كل الجداول مع تعليقات ومعجم وفهارس ، والمعجم العربي فيه مقدمة نحوية قصيرة ثم ملاحظات كثيرة عن الاصطلاحات الفلكية العربية وهي تهمنا جداً من الجهة النحوية واللغوية . ويلي ذلك فهرس جغرافي وآخر تاريخي . اما المجلد الثالث ويقع في تسع وسبعين ومائتي صفحة فطبع قبل المجلد الاول بأربع سنين وهو المتن العربي . وله كتاب فلكي مشهور كتبهُ بالعربية وهو (علم الفلك : تاريخهُ عند العرب في القرون الوسطى) ويقع في احدى وسبعين وثلاثمائة صفحة وهو نص الاربعين محاضرة التي القاها الاستاذ نلينو في الجامعة المصرية القديمة فنشر قسماً منها كاملاً وقسماً مختصراً ، وأضاف اليها ملاحظات اخرى عديدة وثمانية عشر ملحقاً لمختلف

طولاً وقصراً وفهرست المواضيع وفهرست اسماء العلماء الاوربيين المذكورين في الكتاب وقائمات المضمون في كل محاضرة ، وكثيراً ما كان الاستاذ نلينو يضيف مثل هذه المختصرات الى مؤلفاته وهي تدل على تنظيم عمله وترتيب افكاره وهي فوق ذلك تسهل على القارىء سرعة فهم الكتاب . وهذه المحاضرات تشمل جميع الكتب العربية في علم الفلك ، فنقدها المؤلف وحدّد علاقتها بعلم الفلك عند اليونان والفرس والهند وأظهر ايضاً المعلومات الفلكية عند العرب قبل الاسلام ، وألّف فيما عدا ذلك رسائل قصيرة في علم الفلك واصطلاحاته وتاريخه ، منها (علم الفلك عند جغميني) — (الاشتقاق العربي للكلمتين الايطاليتين asub و azimut وملحق عن كلمة almucantarat — (هل يقال زَرْق أم رزق في علم الفلك الدارج عند العرب) — (كلمة قطْع في علم الفلك عند العرب) — (الشمس والقمر والكواكب عند المسلمين) ، وله فوق هذا نقد كثير لكتب فلكية عربية .

— ٤ —

درس الاستاذ نلينو تاريخ الفقه الاسلامي وكذلك فقه الشرق القديم والشرق المسيحي كما انهُ درس كل فروع الثقافة الاسلامية فألف رسالة عن (كتاب البيان لابن رشد الفقيه) وهو جد ابن رشد الفيلسوف . وكان هذا في سنة ١٩٠٤ ثم ابتدأ منذ سنة ١٩٢١ بتأليف كتب ورسائل عن علم الفقه الذي كان يملك ناصيته ، وكان السبب الذي دعاه الى هذا هو ان الاستاذ E. Carusi الذي عينتهُ الحكومة لتدريس الفقه الشرقي في كلية الحقوق بجامعة روما ادعى انهُ عضو المدرسة الشرقية فردته المدرسة ولكنها لم تعلن ذلك الاّ مضطرة ، ثم فوّضت الى الاستاذ نلينو هذا الواجب الثقيل أن ينتقد ما كتبه الاستاذ كاروزي في تاريخ الفقه الشرقي مع قلة كفايته وضعف معلوماته في اللغات الشرقية فقام الاستاذ نلينو بهذا الواجب الصعب بما عهد فيه من دقة في البحث وعدل في الحكم ، ولهذا السبب وجب عليه أن يدرس كتاب الفقه الملقب بالسرياني الروماني وكذلك كتاب الهدايات أي القوانين لابي الفرج بن العبريّ وفتحت له دراسة هذه الكتب ابواباً مختلفة الى ابحاث مهمة ، ورفض على حقّ مازعمهُ الاستاذ كاروزي من ان هناك فقه سامي أصليّ ، ثم اقتفى أثر كتب الفقه السريانية والعربيـة وقارنها بالفقه اليهوديّ ، فبدأ بكتابة رسائل في مسائل مختلفة منها (الفقه الاسلامي في القوانين السريانية المسيحية لابن العبري) وبرهن فيها على أن ابن العبري اقتبس قسماً من قوانينه من الفقه الاسلامي دون ان يشير الى ذلك ، ورسالة (Parrhesia والزواج بلا عقد كتابي حسب الكتاب السرياني الروماني) ثم (ملاحظات جديدة عن الكتاب السرياني الروماني وابن العبري) — (كُتُب فقه رومية في تراجم عربية مسيحية) — (Apokeryxis والمنع من الميراث في كتاب الفقه السرياني الروماني) — (بعض مواضيع تتعلق بالفرائض في الكتاب السرياني الروماني) — (Pherne بمعنى مهر في كتب سريانية ويهودية)

ثم كلل هذه الرسائل كلها برسالته (عن الكتاب السرياني الروماني وعن الفقه السرياني الوهمي) وقد كان علماء تاريخ الفقه قد عرفوا أن بعض أبواب كتب الفقه السريانية التي نشرها الاستاذ Sachau ترجمت من كتب فقه يونانية — رومانية ، ولكنهم ظنوا أن باب الفرائض هو فقه سرياني محض معمول به في بلاد الشام وأن هذا الفقه أصله موجود في الشرق القديم وأخذ الاستاذ نلينو في الفصل الذي سماه (مراجعة الافكار الشائعة من كتاب الفقه السرياني) يقول «لو أردنا أن نظهر ونصلح كل الآراء الخاطئة والأغلاط والالتباسات التي وقعت في درس هذا الكتاب لوجب علينا أن نكتب سفراً ضخماً». ولكنهُ أثبت أن الجزء الذي كان يظنه العلماء سريانيًّا بحتاً هو في الحقيقة يحتوي على قوانين رومانية قديمة من قبل زمن يوستنيانوس قيصر الروم المعروف عند العرب بهرقل وأن كتب الفقه هذه لم يكن معمولاً بها عند السريان ومن الواضح أنها ترجمت من اليونانية ، وقد برهن الاستاذ نلينو أن قصد مؤلفها — الذي يجهل اسمه — كان تعليميًّا لا عمليًّا وانه انما أراد ان يكتب كتاباً تعليميًّا مختصراً وأثبت كذلك ان الكتاب الملقب بالفقه السرياني الروماني لم يترجم في القرن الخامس بعد الميلاد بل في القرن الثامن وان هذا الكتاب لم يستعمل قط لمجموع القوانين عند الأساقفة بل اعتبروه تحفة لمسيحي الغرب . هذه هي النتائج الجديدة المفاجئة لابحاث الاستاذ نلينو في مسألة كثر البحث فيها ولم تفهم قبله . أما رسائله الأخرى في الفقه فهي التالية (الكفالة في الفقه الحنفي) — (تحريم المؤاخاة في الفقه الروماني القيصري وما يماثله عند العرب) ، وكذلك كتب مقالات عن (الفقه الاسلامي) و (بيت المال) و (القاضي) في المجموع الايطالي الجديد .

وكان الاستاذ نلينو يفهم جيداً الدين الاسلامي والفكر الاسلامي وأمور المسلمين وكلّ ما يتعلق بهم ، وكتب رسالة عن الاسلام في العصر الحاضر سماها (مقاصد الاسلام العصرية)، وفسّر تسمية فرقتين إسلاميتين تفسيراً جديداً بناءً على بحث لغوي تاريخي دقيق فبيّن ان كلمة المعتزلة معناها « المحايدون » لا « المفصولون » كما يظن العلماء وقال إن القدرية الذين لم يقبلوا القدر بل رفضوه سموا بذلك الاسم لأنهم اشتغلوا بالقدر ، ووصف أيضاً الصلة بين كلام المعتزلة وكلام فرقة الاباضية في إفريقية الشمالية وشرح العلاقة بين الاثنين شرحاً واضحاً ولكنهُ ترك هذه المسألة دون ان يفصل فيها ، ثم نشر مقالة مفيدة عن رأي غريب منسوب الى الجاحظ يخصّ القرآن الشريف بأن القرآن جسد ينقلب تارة إنساناً وتارة حيواناً ، فلم يفهم العلماء هذا الرأي بل أولوه على أوجه مستحيلة شتى ، وشرحه الاستاذ نلينو على وجه بسيط قائلاً انهُ اذا زعم ان القرآن مخلوق فهذا الرأي لا يقصد تبديلاً بديهيًّا وحقيقيًّا بل تغيراً محتملاً نظريًّا بقدرة الله لأن الله يقدر ان يغير ما خلق . وكتب أيضاً عما نشر في العراق

منذ زمن قليل عن مجادلة سياسية دينية ، وفي السنة الماضية ظهرت لهُ مقالتان « الحديث » و « الاجماع » في الموسوعة الايطالية الجديدة ، أما النبي فكتب عنهُ مقالتين الأولى عنوانها (الأستاذ Gabrieli ورسالة لم تنشر عن مصدر عربي للسيرة) والثانية سماها (في القرن الثالث عشر لوفاة النبي) ، ومقالتاه عن الخلافة احداهما (ملاحظات عن الخلافة عامة وعن الخلافة العثمانية المزعومة) فنقلت هذه المقالة الى الفرنسية والانكليزية ، والثانية (انتهاء الخلافة المسماة بالعثمانية) ، وما نشره عن التصوف في الاسلام أهميته عظيمة ، ولهُ رسالتان عن هذا الموضوع أولاهما (القصيدة الصوفية العربية لابن الفارض مترجمة الى الايطالية) والثانية (ملاحظات أخرى على ابن الفارض وعلى التصوف الاسلامي) . ولتمكنه من الأدب الصوفيّ الشرقيّ والغربيّ أمكنهُ ان يشرح جليًّا الفرق بين تصور الشاعر وبين المذهب الفلسفي وبيّن أيضاً كيف يمكن ان يكون المسلم الصوفي ثابت العقيدة ، وتوصل بمعرفته التامة لعلم النفس والفلسفة الى ان يفهم نفسية الشاعر فهماً متقناً ، فحدَّد معانيه وفسّر لغته ، وصوَّر « خيال الظلّ » عندما ذكر في الأدب الصوفي تصوراً حيًّا لأنهُ كان يعرف كل ما نشر عن هذا اللون في المسرح. واذا نقد كتب المؤلفين العرب أظهر مقدرة أدبية فنية في الحكم على مؤلفاتهم فيصف الأسلوب أحياناً بأنهُ جامد لا حياة فيهِ وأحياناً بأنهُ جميل ظريف .

كان الاستاذ نلينو خبيراً بالفلسفة الاسلامية ولكنهُ لم ينشر عنها الاَّ قليلاً ، ومن أهم أبحاثه المقالة التي نشرها عن كلمة مَشْرِقية أم مُشْرِقية عند ابن سينا ، وقد قرأها بعض العلماء مشرقية أي مضيئة وبنوا على هذه القراءة آراء شتى وبرهن الاستاذ نلينو ان قراءة مُشرقية مستحيلة صيغة ومعنى وقرأها مَشرقية فشرح معنى الفلسفة الشرقية وتاريخها شرحاً مفصلاً ، وأصبح هذا الشرح ذا شأن عظيم في طريقته ومضمونهِ وهو باب دقيق من أبواب تاريخ الفلسفة الاسلامية . ونشر أيضاً بحثاً عن كلمة استعملها ابن سينا وفسّرها العالم الايطالي I. Campanella خطأ ، ونقد ترجمة اسبانية لكتاب ابن طفيل الذي تكلم عنهُ في رسالتهِ المشهورة عن الفلسفة المشرقية ، وله ما عدا ذلك نقد لكتب اخرى عديدة عن الفلسفة العربية .

أما علم الآثار القديمة فدرسهُ الاستاذ نلينو ايضاً ونقد كتباً تتعلق بهذا العلم بنفس المقدرة التي نقد بها كتباً أخرى ، وألَّف رسالة عنوانها (الأساطير التي تدور حول قبر النبيّ داود ووجوده تحت المكان المقدس للعشاء السريّ)

وقد ظهر من كل مؤلفاته انه كان يلمّ بعلم الكتب وتاريخ العلوم والف ايضاً في هذين العلمين رسائل كثيرة ، منها (ملاحظات على علم الكتب الشرقية) —(المخطوطات العربية والفارسية والسريانية والتركية في دار الكتب الوطنية ودار الكتب للمجمع العلمي في تورينو) —

(فهرست كتب تخص العربية الشمالية) — (طبع المؤلفات العربية وقانون حمايتها)—(رسالة من ايطاليا) وهو تقرير عن حالة دراسة اللغة العربية والعلوم الاسلامية في ايطاليا من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٠٥ (عن تاريخ العلوم : رسالة في تاريخ الرياضيات)—(المخطوطات العربية التي استعملها Ludovico Marracci كمصدر له في كتابه عن القرآن) — (هل كان أبو أفلح سيراقوسياً أم سرقسطياً) — (أهم النتائج التي وصل اليها E. Cerulli في رحلته الى بلاد الحبش الغربية في سنة ١٩٢٧ و١٩٢٨ و١٩٢٩ . وأضاف ذيولاً كثيرة الى كتاب المؤرخ الرياضيّ الفلكيّ المشهور H. Suter المسمى بتاريخ علماء الرياضة والفلك عند العرب ومؤلفاتهم »

كان الاستاذ نلينو على معرفة يقينية باللغات الايرانية ولكن لم يؤلف فيها إلاّ رسالتين إحداهما عن الشاعر ميرزا فتح علي آخند زاده من اذربيجان الذي الف روايات تمثيلية غريبة في بابها بلهجته التركية ونالت هذه الروايات اهتمام المستشرقين وأنا اذكر أيام كنت ادرس على الأستاذ G. Jacob أنه وقف جهده على هذه الروايات ، ومنها رواية اسمها مسيو ژوردان مترجمة الى الفرنسية وكتب عنها الأستاذ نلينو ، وكذلك ألقى في الاحتفال التذكاري للفردوسي محاضرة عن هذا الشاعر المشهور ، وكان فوق ذلك يستعمل معلوماته في اللغات الايرانية لحل مسائل في تأريخ الادب ، وأظهر نقده لكتاب الأب بيدار في قواعد اللغة الكردية معرفته اللغات الهندية الايرانية » . وكتب ايضاً لخدمة الادارة الايطالية في المستعمرات مذكرتين احداهما «التعليم في المستعمرات» . والثانية «معاملة الوطنيين واشتراكهم في ادارة المستعمرات» . وقام دائماً بالواجب نحو زملائه واصدقائه بعد فراقهم لهذه الدنيا فأبنهم بكلمات موافقة أخص بالذكر الايطالي Caetani والاستاذ Snouck Hurgronje الهولندي الذي سمي في الحجاز الحاج عبد الغفار .

وكان الأستاذ نلينو عالماً نابغاً وعاملاً فذّاً وجمع الى هذا البساطة والوداعة وهاتان الصفتان أحسن زينة لعظماء الرجال ، وكان له مراكز مختلفة كنائب رئيس المجمع العلمي في روما وكذلك عضو أو عضو شرف في كثير من الجمعيات العلمية في ايطاليا وفي بلدان اخرى وحاز نياشين ورتباً كثيرة فكان officier للمجمع الفرنسي ، ومن لم يعرفه حقاً لم يكن يظن ان هذا العالم المتواضع صاحب سعادة وحامل لوسام النجمة الايطالية . عاش للعلم ولابنته ولأخته ولوطنه بعد ما انتزع الموت منه قرينته وابنه ، وقد جمعتني به صداقة ثلاثين سنة لم يعكر صفوها وكنا اذا التقينا في القاهرة سكنا في دار واحدة واجتمعنا كل يوم ، وكما قدم كتابه عن البتاني بهذه الالفاظ « الى والديّ العزيزين اللذين اذكرهما دائماً واللذين لا اقدر أن اعبر عن مقدار شكري لهما » أقدم أنا هذه المرثية لصديقي العزيز الذي اذكره دائماً والذي لا أقدر أن أعبّر عن مقدار شكري له .

لحسن كامل الصيرفي

دمعة الحسناء

دموعُك أغلَى من الأُمنيَاتِ فصُوني دموعَك يا غاليَه !
ولا تحزَني للغيوم الثقالِ تمرُّ بقبَّتِك الصافيه
ولا تحسبي ظُلُماتِ الحياة ستمتدُّ أمواجُها الطاغيه
فشمسُكِ تحلمُ في خِدْرِها ببهجةِ غُدْوَتِها الصاحيه
ستنفض عنها خمولَ الدُّجى وتنهض سافرةً لاهيه
وتُرسِلُ فوق عَراءِ الوجودِ خيوطَ أشعَّتِها كاسيه
وتوقظُ من غمَراتِ السكونِ أمانيَّكِ الحُلْوَةَ الغافيه
وتختالُ في موكبٍ من ضياء يبدِّدُ أشجانَكِ الداجيه
صباحُكِ يُنبُوعُهُ القُدسيُّ يفيضُ على روحيَ العافيه
فكيف تظنِّين أن الظلامَ ستخلدُ رايَتُهُ الساجيه ؟
يدُ الفجرِ تغسلُ ما ترهبينَ وتُطلِقُ أطيارَها الشاديه

وتمسحُ أعيُنَنَا الدامعاتِ وتشفي جراحاتِنا الداميهْ

* * *

رأيتُكِ تبكين في عَشْيَةٍ من اليأس مُوحِشَةٍ قاسيهْ
كأنكِ زَنْبَقَةٌ في الدُّجَى تقطِّر أنداءها الباكيهْ
فأحسستُ كَفَّ الظلام العَتِيَّة تُطْفِىءُ أحلاميَ الزاهيهْ
وأحسستُ أَنَّاتكِ الشاردات تُرَجِّعها نَسْمَةٌ حانيهْ
تمزّقُ سِتْرَ الدجى والسكونِ وتُقْلِقُ أنْجُمَهُ الراعيهْ
وتبعث في خَفَقاتِ القلوبِ كَوامِنَ أشجانها الماضيهْ
فذُودي عن النفس أشجانها تُعيدي ابتسامَتكِ الشافيهْ
وإنْ عَبَسَتْ في السماءِ الغيومُ فضِنّي بأدْمُعِكِ الغاليهْ
فما قَطَراتُ دموعِ الحسانِ سوى سُبْحَةِ الخالقِ الساميهْ
اذا فَرَطتْ حبَّةٌ من عُراها تُدكُّ لها الأجْبُلُ الراسيهْ
وتُغْلَقُ أبوابُ فِرْدَوْسِهِ وتَنْضُبُ أنهارها الجاريهْ
وتسكتُ أطيارُها الصادحاتُ وتَخْفُتُ أصداؤها الساريهْ !

البحث الثاني

خليل مطران

شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

الشعر العربي : طبيعته وتطوره

يقول الازهري : « الشعر القريض المحدود بعلامات لايجاوزها . والجمع اشعار ، وقائله الشاعر ، لأنهُ يشعر ما لا يشعر غيره » . والكلمة استعملت بمعنى العلم والمعرفة عند العرب في الجاهلية من حيث ان الشعور مقدمة للمعرفة والعلم ، فتقول شعرت به أي علمت ، وليت شعري ماكان اي ليت علمي محيط بما كان ، وشعرت بكذا فطنت له

وفي القرآن الكريم « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » بمعنى ما يدريكم . فالأصل في الكلمة الشعور ومنها نقل اللفظ لباب المعرفة والعلم . ومن هنا لانجد بدّاً من رفض ماوهمه البعض من أن أصل الكلمة العلم . اما ما يراه بعض علماء المشرقيات في أوروبا من ان الكلمة ذات اصل في لغة العبريين بمعنى الترتيلة والتسبيحة المقدسة فهذا وهمٌ سببه ان الكلمة استعملت بهذا المعنى في بعض مواضع من العهد القديم . وهي في الأصل تفيد معنى الشعور ، ومنها نقل اللفظ لباب العلم والمعرفة في لغة العبريين . فلفظة «شار»العبرية تستعمل بمعنى المسكة من العقل والمعرفة كما هو في ملاخي — اصحاح ثان فقرة ١٥ . وهذا الأستعمال المقابل في العبرية للاستعمال العربي ، يحمل في نفسه أصلاً يدل على الشعور . ولاشك ان نقل اللفظ من معنى الشعور الى معنى العلم والمعرفة في العبرية والعربية قديم حتى اشتركت فيه كل من اللغتين

والشعر عند العرب شعر من حيث هو فيض الشعور . وهذا وجه تفرقة الشعر عن بقية ضروب الكلام في الأصل عند العرب

والشاعر وجمعهُ شعراء ، لفظ يطلق عند العرب على من يقرض الشعر . ومن حيث ان لفظة الشعر نقلت من باب الشعور بالشيء الى العلم به فان لفظ شاعر استعمل للدلالة على أهل الحجى من العرب من حيث هم اصحاب المعرفة والعلم ، ولما كان العلم والمعرفة عند العرب لهما أصل مستمد

من الغيب ، فان اصحاب الحجى هم أصحاب المعرفة من المتصلين بقوى الغيب من الجن والشياطين ومن هنا جاء ان لكل شاعر شيطاناً يوحي اليه بما يقول . والارتباط الذي حدث بين معنى الشعور والعلم نظراً لأنه قديم أفضى الى تداخلهما وأصبح الشاعر يتطلب منهُ تمثيل الحياة الجاهلية في كلامه

والواقع ان الشعر الجاهلي قد نجح في تمثيل الحياة الاجتماعية والشعورية والعقلية عند عرب الجاهلية تمثيلا قويًّا الى الحدّ الذي تسمح به القريحة العربية

هذا وقد نشأ الشعر العربي كما نشأ الشعر عند بقية الأمم السامية مقفى ولكن بلا وزن ، وأقدم ما وصلنا من شعر الأمم السامية ، مقطوعات من الشعر العبري يرجع تاريخها الى القرن الثامن والتاسع قبل ميلاد المسيح . وهي مقفاة لكنها ليست موزونة ، وقافيتها قائمة على نغمة بدائية تقوم فيها ، وهذا ما يظهر للباحث من مراجعة سريعة لسفر الخروج اصحاح ١٥ من الفقرة الثانية وما بعدها حيث ترنم موسى وبنو اسرائيل للربّ عند الخروج ، ومن نظرة خاطفة لسفر العدد اصحاح ٢١ فقرة ١٧ وما بعدها . فهنا في هذين المصدرين يجري الكلام على أساس الصلاحية للغناء . ومن هنا يمكنك ان تجد ان هذه الترنيمات منتهية بمقاطع متقاربة كانت مقدمة لنشأة القافية ، او بتعبير أدق هي صورة بدائية للقافية . مثال ذلك — aromenhu — في العبرية . فهنا نجد hu مقطعاً يتكرر بنغمة واحدة في أواخر الفقرات ، وهذا ما يمكنك ان تلحظه في القرآن الكريم وفي سوره المكية على وجه خاص ، ولا شك ان العرب حين لحظوا روح التصور الشعري في القرآن الكريم مع التزام مقاطع واحدة في أواخر العبارات مما يقرب من القافية ، قالوا هذا شعر بالقياس على الشعر في كلامهم . وبعد فالقرآن الكريم — كما يرى الدكتور زكي مبارك — نثر روحي في كتابته أساس الغناء . وهذا ان دلنا على شيء فانما يدل على ان العرب الى عهد الرسول كانوا ينظمون الشعر مقفى ولكن بلا وزن كما كان يفعل قدماء العبريين غير أنهُ يظهر ان مثل هذا الشعر فقد في تنقله في خلال الأجيال فلم ينتهِ الى العصر الثاني من الهجرة حتى يدون [1] . ولا شك ان الوزن مستحدث في الشعر العربي بعد ان تكاملت فيه القافية ، نشأ من ملاحظة تكرار المقاطع اللفظية ، كما هو الحال في الشعر العبري ، ومن هنا لنا ان نحكم بأنهُ لا صلة بين نشأة الوزن وحدو الجمال كما ظن وتوهم بعض باحثي الافرنج والعرب [2]

---

(١) « القرآن والشعر » في Z.R.G.I. م ٣٦ ج ١ ص ٧٢ — ٩٦ وج ٢ ص ١١٤ — ١٣٨ وكذا زيدان في الهلال م ١٤ ج ٤ ص ٣١٦

(٢) Dr. G. Jacob في Haft-Studien in Arabischen Dichtern ٣ ص ١٧٩ والزهاوي في مبحثه « تولد الغناء والشعر » بالمقتطف م ٨٥ ج ٥ ص ٤٩٤ — ٤٩٧

— ١ —

تباينت نظرات الباحثين الى الشعر العربي تبايناً كبيراً ، فبينما ترى نفراً من أعلام المدرسة القديمة يرفعون من شأن الشعر العربي حتى يصل بهم الغلو الى جعله فوق شعر أمم الارض قاطبة ، ذاهبين الى ذلك بوحي اعتقادهم أن كل ما أتى منسوباً الى العرب فهو عظيم لم يأت له مثيل في الدنيا ، حتى أنك تراهم بهذا الوهم يسيرون خبباً في جميع ساحات المعرفة [1] ، فانك لواجد من جانب آخر نفراً من رجال المدرسة الحديثة وقد نزلوا عند وحي العقل وآمنوا بالعلم والمنطق الغربي فمضوا للمقارنة بين آداب العرب وبقية الأمم كالاغريق واللاتين والجرمان والسكسون والفرس ، وخرجوا من مقارنتهم باصغار شأن الشعر العربي وانزاله دون بقية شعر الأمم . وأنت من وراء هذا كله تقف على تضارب في الرأي ومغالاة في التصور ونكران للواقع . والحقيقة ان موضوع الشعر العربي ساحة فسيحة تمتد على الزمان حقبة متطاولة يقصر معها جدّ الباحث دون تبيُّن أجزائها معاً حتى يمكنهُ ابداء رأي صحيح فيها . إلاَّ أنهُ يخيل اليّ أن في الامكان ابداء رأي يطمئن اليه العقل وترتاح له النفس في الشعر العربي عن طريق دراسة خصائصه ومميزاته في الطبيعة العربية من حيث ان الشعر العربي مظهر لتلك الطبيعة والفطرة ، ودراسة هذه الخصائص هامة لانها التكأة التي تستند اليها الاتجاهات الحديثة في الشعر العربي وتمضي استناداً اليها متطورة في الزمان الى حالات جديدة

ولا ريب في ان خصائص اي أدب لأية أمة لا يمكن تخليصها من العوامل والمؤثرات التي كونت طبيعة هذه الامة وجعلت لها روحاً ثابتة تميزها عن غيرها من الامم . ودراسة هذه الروح الثابتة التي نعبر عنها بروح الامة والتي تظهر في جميع ادوار تاريخها وفي مختلف صور حياتها العقلية والشعورية والمعاشية ملونة اياها بلون خاص ، شيء لا غنية عنه للباحث في الآداب وتاريخها . لان الفنون والآداب تتأثر بالعوامل والمؤثرات التي تتكيف تبعاً لها النفس البشرية ، فإذن دراسة خصائص الشعر العربي لا يمكن ان يخلص بها الباحث مجردة عن دراسة روح العنصر العربي

والعنصر العربي يتميز بانهُ في التفكير والعمل يبدأ من ذاته لينتهي عندها ، فهو يعيش في الحاضر ولا يلحظ تحول الماضي وارتباطهُ بالحاضر وتمخض المستقبل ، فهو في تجليه غير تاريخي إذ يرى التفاصيل في الظواهر جنباً الى جنب ولكن يفوته تطورها وتحولها المتنقل دائماً . فهو من هنا يجمع الاشياء متناسبة وغير متناسبة ، من غير رباط يصلها فتبقى منفصلة . وهو الى هذا صاحب خيال مطرد فهو في حكم العقل بلا توثب ولا عمق . ومن هنا تجد الشعر العربي من حيث هو صورة لنفسية العنصر العربي لا يصور ولا يحكي صور الحالات التي يعرض لها في طبيعتها الموضوعية ،

(١) مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب ، القاهرة ١٩١١ ص ٣٥ وما بعده

وانما يعرب عن اثرها في النفس وصداها ، فهو تعوزهُ الطاقة على التجرد من الذاتية وجعل الظواهر الموضوعية في طبيعتها الموضوعية ، ذلك ان طبيعة العربي تأثرت بفكرة الوحدة والاطراد التي غرستها فيه طبيعة البلاد التي نشأ فيها ، ومن هنا كانت أغراض العربي فردية في ان يتفتح عن نفسه وان يصور اعجابه ومقته وبسالته وشجاعته وأنفته وشغفه بالحرية . ولهذا كانت كل آدابه خلواً من الروح الفنية التي تلقي نوراً شعريًّا على دائرة غنية من الفكر . ومن هنا كان غرض الشاعر العربي رسم الحياة والطبيعة كما هما بالنسبة اليهِ مع اضافة القليل من الخيال . ولقد عبّر عن هذه الحقيقة الشاعر العربي قديماً حين قال :

وانَّ أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته : صدقا !

وهذا الروح من حيث هو حسيٌّ طبع الشعر العربي بالسكون ، فهو أدب يلخص التفاصيل بدقة متناهية . مثال ذلك واضح في وصف طرفة جمل إذ يصفهُ بدقة تشريحية ولكن تعوزه الطاقة على التجرد عن الذاتية . وأنت لو طالعت في الالياذة كيف يصف هوميروس درع أخيلوس حيث تصهر الدرع وتطرق وتنحت وتصقل أمام بصر السامعين الذهني ، لأمكنك ان تعرف الفارق الكبير بين طبيعة الشعر العربي وطبيعة الشعر الغربي ، فان الاخيرة زخمة dynamic في قوتها ونشوئها الدرامي(١).

من هنا وحده أمكننا ان نقف على السبب الذي قعد بالشعر العربي عن التصوير ، لان التصوير يستلزم التجرد عن الذاتية والعرض للظواهر الطبيعية في طبيعتها الموضوعية ، وهذه بعيدة عن طبيعة العقل العربي . ولا يجب ان ينسينا هذا النقص استكمال الشعر العربي من ناحية اخرى — ناحية الذاتية — حتى لقد بلغ تفنن العرب ، مبلغ القمة من هذه الناحية الغنائية ، وهذا ما يظهر عنهُ شاعر قوي الروح العربية كالمتنبي

ومن المهم ان نقول انهُ لا يجب ان نخلط بين شعر ابن الرومي وبشار بن برد وأبي نواس وغيرهم من الذين لهم أصل أعجمي وبين شعر شعراء العربية الخالصين ، فان ما في ادب هؤلاء من الطلاقة الموضوعية راجع لوراثاتهم ، وإن اضعف منها بعض الشيء تأثرهم بالأخيلة العربية

ولقد خيل الى كثيرين من نابهي الباحثين الافرنج والعرب ان هنالك سرًّا تكمن وراءه اسباب خفية ، جعلت العرب يتقبلون تراث الهيلنيين الثقافي في الفلسفة والعلوم ويرفضون تقبل آدابهم ، ولقد ذهب الوهم بالبعض الى حد أنهم حملوا هذا على معاندة طبيعة الآداب الاغريقية

(١) I. A. Edham في Al-Zahhawy, the Poet ١٩٣٧ ص ٩ — ١٢ و Germanus في Apollo مجلد ١ ج ٧ (مارس) ١٩٣٣ ص ٣٨٣ و Gauthier في Introductionà l'ethode de la philosophie Musulmane — التوطئة

والشعر اليوناني للدين الاسلامي(١) والواقع انهم توهموا خطأ ان العرب هضموا تراث اليونان في الفلسفة والعلوم ، اذ الحقيقة ان الصور العلمية والفلسفية التي قامت في نطاق المدنية الاسلامية ليست الا امتداداً للحركات العلمية والفلسفية في الشرق الادنى التي كانت قبل الاسلام (٢) وجاء الاسلام يحتضنها بعد المسيحية . ونظراً لان اللغة العربية كانت لغة الاسلام الرسمية ، فان هذه الحركة في صورتيها العلمية والفلسفية كانت قد احلت العربية لغة لها بدلاً من السريانية. من هنا يمكننا ان نعرف سر عدم معرفة العرب للشعر اليوناني خاصة والادب اليوناني عامة . فتحدر الثقافة اليونانية للعرب لم يحمل للعرب أدب الأغريق وشعرهم (٣). ومن اتصل من العارفين بالعربية باللسان الاغريقي ووقع على الآثار الأدبية في لغة اليونان ، انصرف عنها لأنهُ وجد نفسه أمام عوالم لا تقوم لها في نفسه قائمة ولا تستند من ذاته الى أساس . وهكذا قدر للعرب ألاَّ يعرفوا الآداب اليونانية فلا يتأثرون بها ولا يعمدون الى محاكاتها حتى كانت النهضة الحديثة فوقفوا على بعض آثارها في آداب الافرنج ، ثم نقلت الى لغتهم الملحمة الرائعة «الالياذة» في اوائل القرن العشرين ، فكانت مقدمة تحول عظيم

هذا ووقفت طبيعة العرب المحافظة من جهة ، وعدم التأثر بآداب الامم الاخرى من جهة أخرى ، مع الطابع الخالد الذي اعطاه القرآن للغة العربية ، فكان سبب تبلور الشعر العربي عند صور معينة، تقف عندها اغراض الشاعر العربي . وهذا مايظهر في اغراض الشعر الاتباعي العربي

— ٢ —

يقول ابن خلدون منذ نيف وخمسمائة عام في المقدمة حين عرض لذكر الأدب والشعر ما ملخصه:

(الشعر في لسان العرب كلام مفصل قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً ، ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روياً وقافية وتسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة . وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه حتى كأنه كلام مستقل عما قبله ومابعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح او نسيب او رثاء ، فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك ، ويستطرد من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطىء المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني ، ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من النسيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب او الخيل او الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الدماء الى التأثر وأمثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من ان تباهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من أجل المقاربة على أكثر الناس ولهذه الاوزان شروط وأحكام تضمنها علم العروض. . . .وفن الشعر ملكة

(١) اسماعيل مظهر في مبحثه «تأثر الثقافة العربية بالثقافة اليونانية» ص ٣١ —— ٣٢ من كتاب « نواح مجيدة من التاريخ الاسلامي » نشر المقتطف القاهرة ١٩٣٨

(٢) اسماعيل أحمد أدهم في « تحدر الفلسفة والفكر اليوناني الى العرب في القرون الوسطى » ص ١ — ١٨ على وجه خاص (٣) Margoliouth في Journal of the Royal Asiatic Society of London ١٩٠٥ ص ٤١٧ وما بعد

تكتسب بالصناعة والارتياض في كلام العرب حتى يحصل شبه في تلك الملكة وحيث ينزل الكلام في قوالبه، ولا يكفي في الشعر ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلطف ومحاولة في رعاية الاساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها حيث ان الاساليب عندهم عبارة عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب الذي يفرغ فيه . ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعاني الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن صناعة الشعر ، وهي انما ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصور ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب او المنوال. ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصاً كما يفعل البناء في القالب او النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام . ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه . فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقول الشاعر : (يا دارمية بالعلياء فالسند) ، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) ، او يكون باستبكاء الصحب على الطلل كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ، او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقول الشاعر ، (ألم تسأل فتخبرك الرسوم) ، ومثل تحية الطلول بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله : (حي الديار بجانب الغزل) ، او بالدعاء لها بالسقيا كقوله

أسقى طلولهم أجش هــزيم   وغدت عليهم نضرة ونعيم

او سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلا بالابرق   واحد السحاب لها حداء الاينق

وأمثال ذلك .... ، فمن أراد قرض الشعر كان هو كالبناء او النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبنى فيه او كالمنوال الذي ينسج عليه ، فان خرج عن القالب في بنائه او عن المنوال في نسجه كان شعراً فاسداً)(١)

وهذا كلام له خطره في الدلالة على روح الاتجاه الاتباعي في الشعر العربي. فان الأغراض التي قال فيها الشعر والأساليب التي اتخذها لصيغ هذه الاغراض شعراء العربية المتقدمون في الجاهلية ، أصبحت منوالاً لمن اتى بعدهم يصوغون شعرهم بالنظر اليه وينسجونه عليه . ولاشك ان انصراف شعراء العربية عن قول الشعر على اعتبار ان الشعر فيض الشعور والوجدان ، الى جعله صناعة تقوم على كثرة مطالعة دواوين الشعراء المتقدمين حيث ينشأ من كثرة القراءة والمرانة على مراجعة اساليب صوغ الشعر ، قالب كلي من التراكيب يتركز في ذهن الشاعر فيفرغ فيه صورما ينظم من الشعر . وهكذا قدر في ظل الاتجاه الاتباعي للشعر العربي ان يخرج عن دائرته الفنية لينتهي منها الى دائرة الصنعة . ومع الزمن اصبح الشعر العربي يفقد عناصره الوجدانية والشعورية ويتحجر عند صور وأشكال ويضحى مجرد وشي وزخرف كما انتهى في يد البحتري والشعراء الذين أتوا من بعده

ولاشك ان لطبيعة الذهن العربي من حيث تعرب عن آثار الأشياء في النفس وصداها يداً كبرى في هذا التحول من جهة قيام الحاسة الفنيّة عند العرب مرتبطة بأشكال الأشياء لذاتها فان ذلك مهد السبيل لمثل هذا الاتجاه ، عن طريق الترابط السببي بين اشكال الاشياء والتعبير عنها.

(١) ابن خلدون في المقدمة — طبع استانبول ٦٠٢ — ٦٠٤

ذلك ان طبيعة العربي « لما كانت لا تستوعب كل صورة شعرية بخصائصها. فاذا الشاعر على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن ان يوغل فيه واذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره . واذا هو يمرّ على الحياة الداخلية للأشياء مرًّا سريعاً . واذا كل آثاره الشعرية أوصاف لا شعور »(١) وكان هذا سبباً لجعل العقل العربي يقف عند صور الأشياء وأشكالها دون ان ينفذ الى ما وراءها ، فلما كدّ الذهن في استنباط أوضاع أشكال الأشياء في صداها وأثرها في النفس كان ان نشأ من ذلك القوالب التي هي من صنع العقل المحض وصوغ الذهن الصرف ولهذا خرج الشعر العربي في عمومه زخرفاً ووشياً مرصعاً حتى أن ابا العلاء وهو اكبر شعراء العربية العقليين التزم ما لا يلزم في الشعر جرياً وراء المحسنات اللفظية وانواع البديع من جناس وتورية ومطابقة وما اليها من محاسن التعبيرات وهذا ان كان يدل على شيء فانما يدلّ على استحكام الروح التقليدية من جهة الخضوع لاتجاه الذهنية العربية . وكان ذلك من أسباب ابتعاد الشعر العربي عن البناء فلم ينمُ محتوياً على ملاحم ولا قصص ولا تمثيل

وخرج الشعر العربي « وشياً مرصعاً يلذ الحس فسيفساء اللفظ والمعنى و « أرابسك » العبارات والجمل كل بيت شعر للبحتري كأنه باب الجامع المؤيد تقطيع هندسي بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الانسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب (٢)

— ٣ —

ظل الشعر العربي في أيام الامويين حتى ايام ازدهار الحكم العباسي يرسف في القيود التي وضع مبادءها شعراء العربية في الجاهلية فسار في ركابهم الشعراء المخضرمون فشعراء الاسلام . فلما اخذت المدنية الاسلامية تتفتح في ميادين الثقافة العامة عن صور لم يعرفها الفكر العربي من قبل تحت تأثير الفكر اليوناني ، تجرأ بعض شعراء العربية على القوالب التي يصاغ بالقياس لها الشعر فخرجوا عليها ، فكان ذلك سبباً لانقلاب كبير غير انهُ لم يكن كبير الاثر في تاريخ الادب العربي ذلك ان الروح الاتباعية عند العرب طغت على هذه المحاولة ، فجعلت من وجه عرض هذا النفر من الشعراء لكلامهم منوالاً قاس الشعراء المتأخرون عليه شعرهم من بعدهم

كانت هذه الحركة الجديدة ثورة على القوالب التي قيّد الشعور العربي بها في الشعر القديم ، وكان رائد هذه الحركة المتنبي وسار في ركابه الكثيرون من بعده. فكان المعري في سوريا من جهة الشرق الأدنى وابن هانيء في الاندلس من جهة المغرب . غير ان هذه الحركة من حيث قامت على أساس الرجوع بالتعبير في الشعر باعتبار افادته أصل المعنى والشعور في صيغة كاملة ، تعرضت لحملة شيوخ الادب في ذلك العصر فأنكرت عليهم شاعريتهم وكان كما يقول — ابن خلدون — ان

(١) مصطفى صادق الرافعي في المقتطف نوفمبر ١٩٣٢ ص ٣٨٩
(٢) • توفيق الحكيم في كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٥ — ٦٦

اعتبر شعرهم نظماً ينزل دون مرتبة الشعر ومنزلته

هذه الحركة الجديدة تعتبر اول خروج على القديم في تاريخ الادب العربي ، وكان رائدها المتنبي ، غير ان شعراء الاندلس ساروا بها الى ابعد الشوط ، بيد أن هذه الحركة نظراً لان ثورتها تنال القوالب الاتباعية في الشعر العربي ، لم تبلغ في جرأتها حد الخروج على الزخرف والوشي البياني . ذلك ان الزخرف البياني من مستلزمات الروح العربية في الشعر ولا يعترض علينا بأن الشعر العربي احتوى على مقطوعات رائعة المعنى صادقة في وصف الشعور الى الحدّ الذي تسمح به الطبيعة العربية — التي تصف آثار الاشياء في النفس وصداها — فان معظم هذه المقطوعات يرتبط ما فيها من المعاني بالالفاظ .آية ذلك أنك لو جردت تلك المقطوعات التي تعتز بها العربية من مشرق اللفظ ومونق المعنى المرتبط لزاماً بذلك اللفظ ، لوقفت حيراناً لا تعرف وجهاً لها ولا غرضاً . وهذه حقيقة لمسها الباحثون من رجال الاستشراق في أوربا حين عمدوا لنقل الشعر العربي الى لغاتهم وقد اعترف بهذه الحقيقة النابهون من أدباء العربية وكتابها (١)

من هنا نجد ان القواعد التي عرفها الغربيون في نقد الشعر لا تصلح كل الصلاحية في نقد الشعر العربي فان له خصائصه التي ينفرد بها مما يستلزم أن ينظر اليه من قواعد خاصة به في النقد الادبي تتكافأ مع خصائصه . والواقع ان القدماء من شيوخ الادب العربي وضعوا مبادىء في نقد الشعر مهما تظهر لنا اليوم جوفاء من جهة نظرتنا المتأثرة بمبادىء النقد الاوربي . فانها بلا شك مقياس صحيح الى حدٍّ كبير لنقد الشعر العربي وتمحيصه ، ذلك ان الشعر العربي ان كان باعتراف أعلام الباحثين فيه من افرنج وعرب ، ومن مختلف المدارس الاوربية اليوم ، مستنزل من النظر في صورة الاشياء دون ان ينفذ الى ما وراءها فالقليل الذي في الشعر العربي من النافذ الى ما وراء الصور الخارجية للأشياء راجع لقوة في الطبيعة الشاعرية ، تغلب بها الشاعر على الاتجاه العام الشعري في الوقوف عند أشكال الأشياء فنفذ الى ما وراءها واتصل بالروح الداخلية التي تتظاهر في قوانين مستترة تتحكم في هندسة الاشكال المنظورة والصور المحسوسة.

ومن هنا فالنقد الادبي من حيث يتصل بالطابع العام ، سيراعي قيام الشعر العربي على أساس انصرافه لاشكال الاشياء الاّ أن القليل الذي لا يقف عند أشكال الاشياء فينفذ الى ما وراءها سيستقل بقاعدة من النقد الادبي تباين القاعدة العامة المتكافئة مع الطابع العام للشعر العربي الاتباعي

وهكذا قامت صعوبة دراسة الشعر العربي الاتباعي . غير ان هذه الصعوبة في الامكان التغلب عليها بشيء من الصبر والامعان والتدبر ، حيث يعطى الانسان كل شعر من الشعر العربي

(١) خليل مطران في الهلال م ٤٦ ج ٨ (يونيو ١٩٣٨) ص ٩٠٥ وكذلك طه حسين في المكشوف ، السنة الرابعة ، العدد ١٧٧ ص ٢ عمود ٣

ينفرد بطابع خاص له منهجاً في النقد يكافئه . غير ان هذه المناهج ستشترك في قاعدة عمومية تلك التي تستنزل من فهم حقيقة نوع ذلك وطابعه . وهكذا يمكن الوصول للعنصر الشعري المتميز في المقطوعات المدروسة وان اختلفت طوابعها الظاهريّة

هذا المتنبي الذي يمثل كمال الاتجاه الشعري العربي[1] ، وهذا ابن الرومي الذي يمثل كمال الاتجاه الشعري الاعجمي الآخذ بأسباب العربية في الشعر العربي[2] فان في الامكان دراسة شعرهما من قاعدة مشتركة في النقد الادبي مع ملاحظة طابع كل شعر هذه القاعدة هي قاعدة الشعر العامة

على ضوء هذا الكلام يمكننا ان نعطي قواعد القدماء في نقد الشعر قيمتها الحقيقية دون ان نقع في خطأ المغالاة في اتهامها . اذ الحق ان القواعد التي رسمها شيوخ الادب من القدماء للنقد الادبي للشعر من وجهة النظر لكيفية استنزال الشاعر لمعانيه ، وملاحظة اوجه التوارد بينه وبين من نظموا في الاغراض الذي نظم هو فيها ، تتفق الى حدٍّ كبير مع حقيقة كون الشعر العربي يقوم على اساس اتباعي . وما دام سبيل الشاعر العربي الاتباعي في قوله الشعر راجعاً لمراتبه على أساليب صوغ الشعر حتى يحصل معه قالب كليٌّ من التراكيب يتركز في ذهنه فيفرغ فيه صور ما ينظم من الشعر ، فان ملاحظة تأثر الشاعر بأساليب الشعراء المتقدمين ومعانيهم ووجه هذا التأثر مهمة لأنها مقياس للتكلف الشعري اذا بدا التأثر واضحاً بقوالب من التراكيب جزئية للشعراء المتقدمين ، كما انها مقياس للاصالة الشعرية ان كان الشاعر يصوغ شعره في قالب كليّ وان استحصل عليه بالصناعة التي تماشت مع شاعريته

غير ان الجانب الصناعي طغا على الشعوري في الشعر العربي حينما اخذ الشعر العربي يتدهور ويفقد عناصره القوية حين مال ميزان العرب الى الغرب وسقطوا عن عرش الخلافة . وكان هذا التدهور سبباً لتحجر الشعر العربي عند صور لفظية وضروب من البديع والمحسنات الكلامية . وفقد بهذا التحجر والجمود الشيء القليل من الجمال الفني الذي كان يحمله في الاسلوب والذي كان يقوم على الطلاقة في استخلاص الأشكال والصور . واصبح الشعر العربي ميتاً من حيث فقد مع هذا الجمود اللغة التي كانت تتراقص فيها الأطياف والألوان والأضواء وكانت أظهر ميزة في الشعر العربي القديم

وبلغ التدهور في الشعر العربي غايته في عصور الظلام ايام حكم الاتراك العثمانيين إذ كان من وراء العكوف على طرائق القدامى وتقليدهم من جهة وضعف ملكة الابتكار من جهة أخرى ان تحجرت القوالب الشعرية في يد الشعراء المتأخرين . وكان من ذلك ان خفتت شخصيتهم وتلاشت ملكة الابتكار فيهم في التقليد والمحاكاة . فأصبح الشعر صناعة . ولكن صناعة مبتذلة وسائطها معرفة العروض

---

(١) طه حسين في كتاب مع المتنبي وشفيق جبري في المتنبي وكذا أنظر R. Blachére في — About Tayyib al-Motanabbi

(٢) عباس محمود العقاد في كتابه ابن الرومي

والبديع والبيان بدون اعتبار للسليقة الشعرية من حيث تهذب بأساليب وصور الشعر العربي القديم الرائع وكان نتيجة ذلك ان كثر التجنيس والتورية والمطابقة وما اليها من محاسن النظم في منظومات الشعراء واصبحت تطلبها لذاتها ففسد الشعر وانحط

خاتمة

أخذ العالم العربي في مستهل القرن التاسع عشر ينفض عن نفسه ماعلق به من غبار الجمود ويعمل على استعادة ماكان له من اثيل المجد في القرون الوسطى فكان من ذلك نهضة الشرق العربي الحديثة . وقد قامت هذه النهضة في الاصل بعثاً لتراث العباسيين والاندلسيين في الادب والشعر واللغة . فكانت من ذلك امتدداً لثقافة العرب الاتباعية . غير ان المدنية الأوروبية التي كانت مركز الثقل في حياة العصور التي يتكون من مجموعها التاريخ الحديث ، عملت على غزو الشرق الناطق بالعربية مع حملة نابليون (١٧٩٨—١٨٠١) فقامت من ذلك الحين للثقافة الاوروبية مراكز في الشرق الادنى ، وكان من اهم هذه المراكز مصر ولبنان وهكذا ظهر مقترناً بحركة البعث لتراث الماضي حركة اخرى تعمد الى الأخذ بآثار المدنية الاوروبية في مختلف ميادين الثقافة ، وكان الانفصال بين القديم وهو رجوع لينابيع الماضي وبين الجديد الذي هو اخذ بما انتهت اليه المدنية الاوروبية الحديثة [١] غير ان هذا الانفصال لم يتميز حتى اواخر القرن التاسع عشر

اما مصر فقد بدأت تاريخها الجديد بقدوم نابليون على رأس الحملة الفرنسية لفتحها في اواخر القرن الثامن عشر ، كما أنها وجدت بعده في شخص محمد علي من يبدأ فيها عصر نهضة قامت عملية في عهده، لتنتهي علمية في عهد حفيده اسماعيل . وكان من مظاهر هذه النهضة تأسيس مدرسة الالسن عام ١٨٣٦ وارسال البعوث العلمية والصناعية الى أوروبا وعلى وجه خاص لفرنسا . وكان نتيجة ذلك ان خرج جيل من شباب مصر ينزع منزع الغربيين في تفكيرهم ومنطقهم . غير ان هذا الجيل لم يتمكن من القيام بشيء ذي أثر من حيث رجع الى بيئة وقفت جامدة . على انهم نقلوا جانباً من تراث أوروبا العلمي والفكري الى العربية والتركية ، وكان ابراهيم باشا ادهم ثاني وزير للمعارف المصرية شاملاً هذه الحركة بعنايته . غير ان هذه الحركة لم يكن لها تأثير مباشر في الادب العربي . ذلك أنها قامت عملية في اغراضها فكانت وجهاتها المسائل الصناعية الصرفة والعلمية العملية . فلما جاء اسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ حول حركة اتجاه الترجمة بعد ان كانت قد أخذت في التلاشي في عهد سلفيه الى

(٢) H. A.R. Gibb في The Nineteenth Cnturye من مجموعته Studies in Contemporary Arabic Literature في مذكرات مدرسة اللغات الشرقية بلندن م ٤ (١٩٢٨) ص ٣٤٥—٧٦٠

الدائرة العلمية،فكان نتيجة ذلك ان ترجمت الى العربية بعض الآثار الاوروبية وأخذ الادب العربي في مصر يتأثر بمتجه الآداب الغربية ، وكان من الاسباب غير المباشرة لهذا التأثر تطور الادب العثماني تطوراً كبيراً على يد شناسي ونامق كمال واخذه صورة قريبة من الآداب الغربية .وكان أثر ذلك غير قليل على جيل أدباء العربية في منتصف القرن التاسع عشر من حيث كانت اللغة التركية اللغة السائدة في مصر . وهكذا أخذ الجديد يستجمع الأسباب مستقلاً بمصدره وغاياته عن حركة بعث القديم التي كانت وقفاً على الرجوع لينابيع العرب الأصلية في الادب والشعر والفنون وارجاعها لعالم الحياة بعد أن طوتها يد الزمان خمسة قرون فارسلت عليها غباراً من النسيان وكان يساعد حركة بعث القديم في الشرق العربي محاولات رجال من الغربيين اوقفوا انفسهم على درس آثار الشرق في عصوره المختلفة من حيث عمدوا لنشر جانب عظيم من المكتبة الادبية العربية من وسائل التحقيق العلمى

اما في لبنان وسوريا ، حيث كانت الهيئات الدينية على صلات وثيقة بأوربا منذ القرن الخامس عشر ، فقد ساعد ترابط الشرق الادنى بالوسائل الصناعية التي انتهى اليها الغرب بالعالم الاوروبي على توافد البعوث اليها ، وأصبح لبنـان مركز نشاط عظيم وتنافس بين البعوث المختلفة التي ترجو نشر ثقافاتها ولغاتها الخاصة والتبشير بمذاهبها الدينية وتقوية نفوذ دولاتها سياسيًّا واقتصاديًّـا . فكان من أثر هذه المحاولات ان شرعت العقلية العربية في لبنان وسوريا وخصوصاً في بيئاتها المسيحية تنفض عن نفسها غبار الجمود وتعمد لمسايرة المدنية الغربية في اتجاهاتها ومظاهر ارتقائهـا . وحدث ردّ فعل لهذه الحركة تمثلت في الرجوع لينابيع الماضي في الادب والشعر واللغة ، فكان من ذلك حركة بعث عظيمة للقديم في لبنان تمثلت حيناً في مدرسة اليازجي

وكان أثر هذا التطور كبيراً في الشعر العربي الذي أخذ بدءاة ذي بدء يتحرر من المحاكاة الصرفة الى محاكاة فيها شيء من التحرر والشخصية وهذا ما يظهر في شعر معظم شعراء القرن التاسع عشر، في شعر اليازجي والبستاني في لبنان وسوريا وفي شعر الساعاتي وعبد الله نديم في مصر . وكان من آثار هذا التحرر وبروز الشخصية ان وجد الشعر الاوربي سبيلاً للتأثير في شعراء العربية ، وهذا التأثير يبدو واضحاً في شعر عبد الله فكري من شعراء مصر وشعر سليم عنحوري صاحب آية العصر من شعراء الشام غير ان هذا التأثر كان في العموم بالمدرسة الرومانسية الفرنسية التي بلغت القمة في شعر لامارتين إلاّ ان هذا التأثر لم يبد قويًّا في الاغراض الشعرية وفي التحرر من روح النظم العربي ولكنهُ كان السبيل لانقلاب خطير تمثل في محاولة خليل مطران نقل الشعر العربي من ناحية الاغراض العربية لناحية الاغراض الاوروبية . وبهذه المحاولة تميز الانفصال بين المذهب القديم الاتباعي في الشعر والمذهب الجديد الابداعي .

الاخلاق والحضارة

« الحضارة كالخمر تظهر المناقب والمثالب »

لعبد الرحمن شكري

يقولون إن الحضارة مفسدة للاخلاق وهذا قول نصفهُ حق ونصفهُ باطل كما هو شأن الجمل العامة التي تطلق على علاتها فان الحضارات يختلف مستواها الخلقي وللحضارات محاسن خلقية كما ان لها رذائل والحضارات تختلف مظاهر الأخلاق فيها في أطوارها وعلى حسب الآساس التي بنيت عليها ولنقيض الحضارة مفاسد خلقية ايضاً والمتحضر يبالغ في مفاسد نقيض الحضارة قدر مبالغة غير المتحضر في مفاسد الحضارة أو انهما لا يكادان يريان غير المفاسد وهو الاصح لأن النفس البشرية هي التي قد تبالغ في اظهار مفاسدها . ويقولون ان علوم الحضارة الحديثة مفسدة للاخلاق متلفة للمناقب والصواب انها تنشىء فرصاً لاظهار ما استسر في النفس من خير لا يرجو جزاءً ومن شر لا يخشى عقاباً وانما مثلها مثل الخمر التي تظهر المناقب والمثالب من خير وشر فمن كان كريماً اظهرت كرمه ومن كان لئيماً كشفت عن لؤمه . ففكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الاضعف او ببقاء الأصلح للحياة وهلاك الأقل صلاحاً لها (لأن الاضعف جثمانيًّا قد يكون في لبه من الهبات الصالحة للحياة أكثر مما في لب الأقوى) أقول هذه الفكرة قد أولت تأويلاً يعذر القوي في استعباد الضعيف ويعذر الضعيف عند نفسه في خنوعهِ ويسخر من المبادىء السامية . قال الاستاذ هولاند روز المؤرخ الانكليزي في اسباب تغلب حب الاستعمار والسيطرة (انهُ لما ذاعت فكرة صلاح الكون ببقاء الأقوى وهلاك الأضعف جعل الناس يتساءلون لماذا يُحْمَى الضعيف اذا كان صلاح الكون في ضياعهِ وهلاكهِ) . فكانت هذه الفكرة كالخمر زادت وأبرزت ما في النفس من حب الاستعلاء . وقد بالغ المفكرون حتى ظهر بينهم من يقول ان التشبث بالجنس والوطن لا يؤلف القلوب كي تتعاون في نشر السلم والحضارة العالمية والامن والسعادة وكي تسعى في رقي الانسان والانسانية عامة . وقال المؤرخون ان التشبث بمبادىء المحافظة على الجنس والوطن سرعان ماينقلب الى ضراوة استعمارية ورغبة في السيطرة والحروب كما ظهر مراراً في تاريخ أوربا

الحديث كلما قويت جنسية من الاجناس التي كانت تنادي بمبادىء العدل العام والسلم عندما كانت مقهورة مغلوبة على أمرها فانها اذا قويت لا تلبث ان تنادي بأن الحضارة العالمية لا تتحقق الاَّ بتناحر الأجناس وتقاتلها حتى وإن كان في آلات القتال الحديثة ما يهدد العالم بالخراب

وقد ارتاع بعض المفكرين وخافوا على أممهم من تفشي مبادىء الفلسفة الهادمة وقد جعل بعضهم يروّج العقائد الدينية بوسائل قديمة جديدة مثل تشجيع تحضير الارواح وذلك لأنهم خافوا على الحضارة من مبادىء الفلسفة المادية وخافوا على الأخلاق منها وكان تشجيعهم تحضير الأرواح كي يثبتوا بأدلة مادية عقيدة خلود الروح تلك العقيدة التي كانت تدفع بالمجاهدين من المسلمين في صدر الاسلام في لهوات الموت غير مكترثين له موقنين ان الموت ليس لهُ سلطان على الروح وأنهم اذا خسروا هذه الحياة الدنيا الفانية فقد ربحوا الحياة الباقية فكان من وراء ذلك الاعتقاد استعلاء أمتهم وسيطرتها. ولعل من أسباب زيادة نصرة المفكرين لمذهب استحضار الأرواح ومكالمتها وذيوعه في السنين الأخيرة رغبتهم في مواساة من مات لهُ قريب او حبيب في الحرب العالمية الكبرى (مواساته او ابتزاز ماله) ورغبتهم في حث الجماهير على ان يجودوا بحياتهم لنصرة أمتهم إذ ان لهم وراء هذه الحياة حياة باقية. فان المرء لا يجود بحياة ليس لهُ غيرها قدر ما يجود بحياة وراءها حياة خير منها و بقدر يقين المرء وإيمانه بالحياة الأخرى يكون جوده بهذه الحياة . على ان الدفاع عن الأهل والوطن أصبح طبيعة لا يلبث المفكر طويلاً حتى يؤوب اليها وقد وصف الكاتب الفرنسي موريس لو بلان هذه الحقيقة في قصته المسماة (على الحدود) وقلما تجد من له شجاعة او عناد يمكنهُ من ان يمتنع عن الدفاع عن بلده وان يقف موقف رومان رولان الكاتب الفرنسي الشهير في اثناء الحرب العالمية وان كان قد حاكاه في انجلترا أناس صاروا يسمون بطائفة «اعتراض الضمير». نعم إن هذا الدفاع يصير اندفاعاً آليًّا باعثه الخوف وللخوف شجاعة وحماسة في اندفاعه ولكن شتان بين شجاعة اندفاع الخوف وشجاعة العقيدة والأمل والرغبة في الحياة الباقية الأخرى

لكن الباعث عند جمهور الناس هو ان يفدي المرء وطنه بحياته محافظة على عاداته ومبادئهِ والفوائد التي يشترك فيها اهل الوطن. والشجاعة مزاج في النفس وقد تتوافر بالرغم من اعتناقهِ آراء الفلسفة الهادمة كما أنها قد لا تتوافر بالرغم من اعتقاده في خلود الروح. فاذا كان المسلمون قد أقدموا على الموت في حروبهم في صدر الاسلام فقد أقدموا لأن اعتقادهم في خلود الروح كان مقروناً عندهم بمزاج الشجاع القوي ولوفرة نصيبهم من الحيوية . وكم من جيوش قد هُزِمت وجبنت بالرغم من اعتقادها في خلود الروح. وتحضرنا الآن ذكرى قصة شائقة من قصص الكاتب الاميركي جاك لندن وعنوانها (دين آبائهِ) وفيها يصف كيف ان قسيساً ضعيف الاعصاب

والارادة عند ما هدده رجل مجرم ثائر من سلالة التزاوج بين البيض والهنود الحمر، وخيَّره بين الحياة مع انكار المسيح وشتمه وبين الموت اختار الحياة مع انكار المسيح بالرغم من انهُ كان من المبشرين. ولما خيَّرَ رجلاً آخر من العتاة الملحدين فضل القتال حتى الموت واستحيا من ان يجعل انكار دين آبائهِ وسيلة للنجاة من الموت

وقس على ذلك أثر الحضارة في المعتقدات الاخرى فان بين الناس من ينصر الفضيلة بالرغم من اعتناقهِ الآراء المادية الهادمة ومنهم من ينصر الرذيلة بالرغم من اعتقاده في الحياة الاخرى والجزاء والعقاب. ولكن مما لا شك فيهِ ان الكفر بالحياة الاخرى قد أصبح مثل الخمر التي تظهر مكامن النفس وكثير من النفوس لا تمتنع عن الاثم والجرم الاَّ رغبة في جزاء في الآخرة او خشية عقاب. فالالحاد كالخمر يظهر ما كمن من الشر فيها وما تعالج من ميوله. فالفضائل والرذائل طبائع في النفوس وقد ترى في الناس من يفخر بالرذيلة وهو منها اقل نصيباً مما يقول اذا شجعتهُ بيئتهُ على ذلك الفخر كما ان من الناس من يفخر بالفضيلة وهو قليل النصيب منها ولكننا نسرع الى تصديق الاول ونسرع الى تكذيب الثاني في كثير من الاحايين وان كان للخداع مجال في الحالتين

وبين الناس طائفة اخذتهم نشوة بعض الآراء الفلسفية فقالوا ان الفضائل من مظاهر الضعف كالولاء والامانة والوفاء والعدل والذمة وقالوا ان النفوس القوية لا تتقيد بها ويسمون الفضائل اخلاق الضعفاء وسجايا العبيد وهم انما يقولون هذا القول كي يقضوا على النظام الاجتماعي الحاضر لمخالفتهم نظمه ومبادئهِ الاقتصادية. فقولهم انما هو سلاحٌ مؤقت لا حقيقة ثابتة ويسرُّ باستخدام سلاحهم هذا المجرمون الذين تدفعهم رذيلتهم الى اعتناق هذه النظريات الهادمة، لا ان هذه النظريات الهادمة هي التي تخلق رذائلهم. ويقولون ماذا يهمنا ان يلحق الضر غيرنا من الناس ولماذا نبالي الناس ويقولون انهُ فُرض عليهم ان ينمّوا انفسهم بأن يطلقوا لها العنان فتسترسل فيما تريد ويقولون سيان ارتكابك الشر وغشيانك الخير ما دامت الحياة فانية. ويقولون ان حياة الملايين من البشر ليست اعظم عند الطبيعة من حياة الضفادع او الحشرات. وتنتشر هذه المبادىء اذا اشتد التناحر على المعاش وقلت الثقة بالنظام الاقتصادي او النظام الحكومي ويزيدها الشعور بالغبن وقلة الانصاف. على ان المرء لو لم يراع اخلاق الكمال هذه بعض المراعاة في معاملة من لا يؤمن بها لارتاع ذلك الجاحد لها وذم نفوس الناس. والضرر الذي يلحق الجاحد لها لا يأتيه من ناحية ابناء قومه فحسب بل يلحقهُ ايضاً من الضعف الذي يذل امته بسبب تفشي هذه الاخلاق فيها ولكنهم يقولون اذا كانت الامم تستبيح غشيان الرذائل في معاملة الامم الاخرى فلماذا لا تجيز الأفراد ذلك في معاملة الواحد للواحد منهم كي يبقى الأصلح للبقاء وهم لو فعلوا

ذلك وساروا على هذه الخطة كل السير لاهتضمهم قوم آخرون لتخاذلهم. واما بقاء الأصلح فيكون باتباع مثل الكمال ولو الى حد ما. ومما يجلب الوهن ايضاً والتخاذل وانعدام الثقة بالاخلاق والفضائل تقديس الحقوق الفردية الى حد ان يكون كلُّ فردٍ كجزيرة مستقلة في بحر الانسانية لاشأن له بغيره. ومبدأ الفردية هذا قد يكون من نتائج المغالاة بالحرية الشخصية التي تسنها المبادىء الديمقراطية ولكنهُ ايضاً قد يكون من مظاهر التخاذل والاثرة في الامم القديمة التي مرت بها عصور حكومات مستبدة جعلت كل انسان لا يفكر الاَّ في نفسه وجعلت كل انسان من المحكومين المقهورين على طبائع الحكام فيصير كل انسان من المقهورين مستبدًّا صغيراً يعامل المقهور مثله بطباع الاستبداد في الرأي والفعل والمشيئة. فاذا أتيحت فرصة عمت فوضى شاملة لأن كل انسان في تلك البيئة على طبع الاستبداد لا يقدس غير أثرته وهو يظن ان طبعه هذا فضيلة التمسك بالحرية وبالمبادىء الديمقراطية لنفسه ويمدح نفسه لدى نفسه ولدى غيره اذا لجَّ في فوضى الاستبداد وطبائعه زاعماً أنهُ بطل من أبطال الحرية وهو ضحية عصور الاستبداد القديمة وطبائعه الراسخة في نفسه. واذا انتشرت في بيئة هذا الانسان المبادىء المضللة التي تزري بالفضائل والاخلاق وتعدها من سجايا العبيد كان الاضمحلال أعظم والخطر أشد. ولا سيما اذا تكاثر السكان واشتد التقاتل على المعاش وأبرز هذا التقاتل غثاء النفس كما تبرز القدر الفائرة قذاها ويفوت هؤلاء ان حدود الاخلاق هي من تجارب الانسان ومن ثمرات خبرته وهي تراثه الطارف والتليد وذخره النفيس وقد سمعت انساناً يتغنى بقصيدة لشاعر أوربي هو على ما أذكر من الشعراء الاغريق الحديثين ويقول الشاعر في قصيدتهِ (خذ معولاً واهدم بهِ كل ما يعتقد الناس انهُ جميل او جليل او مقدس من الآراء والانظمة والفروض والاخلاق واهدم ماضي الانسانية كله ولا تذرف عليهِ دمعة) وهذه هي الفوضوية بعينها وقد نسي امثال هذا انهُ لو اتيح للفوضوية ان تنشىء حكومة ثابتة لكان اول همّ هذه الحكومة كي تتمكن من البقاء ان تقضي على الفوضوية ذاتها

وكل مذهب من المذاهب الهادمة للاخلاق قد جرب فيما مضى من الزمن ونبذ بعد حين حتى المذهب الذي يغري بالشرور كي تعرف الانسانية ان الحياة شر وتنقطع عن التناسل

ومهما تعظم شرور الحياة فان في النفوس قلعة للايمان بها وبارادة الله فيها وكلما دُكَّت قلعة في النفس لذلك الايمان بنيت على انقاضها قلعة أخرى أو كما قال امرسون الاميركي (ان في قلب المرء معبداً كلما تهدم بنى الله على انقاضهِ معبداً آخر) وقد يلوّث هذا المعبد ما في النفس من شر ولؤم حتى تحسب النفس ان شرها ولؤمها خير لا ينفصل عن ذلك المعبد ولكن من الايمان بالحياة وبارادة الله فيها أن نعتقد ان شر النفس ولؤمها سيطهر منهما ذلك المعبد



توافق الخواطر

بين العلماء والمخترعين (1)

لمحمد عاطف البرقوقي

لتوافق الخواطر بين العلماء امثلة كبيرة في تاريخ العلوم والعلماء، ولا غرو فأن الخواطر العلمية نتيجة تسلسل طبيعي، ومقدمات ثابتة، وحقائق علمية، وتثار بين عدد من العلماء مناسبات، وحيث ان هذه المناسبات علنية وتنشر في المجلات العلمية وتعرف في بيئاتها، فيضطر كثير من العلماء عند الوقوف على اختراع جديد أو نظرية جديدة الى أن يدلوا دلوهم في الدلاء، ويتجه عدد منهم نفس الاتجاه، وهنا تقع منازعات وربما تؤدي الى الدخول في المحاكم وطلب رأي القضاء، واني اتشرف هذا المساء بذكر بعض امثلة من هذه الحالات الشائقة، لعل ذكرها ينفع المؤمنين، ويوجه الشرق نحو العناية بالعلماء والمخترعين

***

« بين فراداي وهنري » : وأول مثال أذكره هو ذلك المثال الذي وقع بين فراداي الانكليزي وهنري الاميركي، وليس بمستغرب ان يقع بينهما توافق الخواطر مع أن المحيط الاطلسي يفصل بينهما، وشتان بين العالم القديم والعالم الجديد

وفراداي هو ذلك العالم الطبيعي الكبير الذي ولد في انكلترا سنة ١٧٩١، ولم ينل من التعليم الا قسطاً يسيراً كما اعترف هو عن نفسه، ولكنهُ لم يكد يخرج من المدرسة في سن مبكرة حتى التحق كعامل في مكتبة قريبة من بيتهِ يمتلكها رجل انكليزي اسمهُ « جورج ريبو » فعهد اليهِ هذا أول الامر بمهمة نقل الكتب الى اصحابها، أي كساعٍ او «مراسلة»، يقضي حاجات المكتبة في الخارج. وفي السنة التالية عهد اليهِ بعمل تجليد الكتب، ومن هذا الوقت تملكه حب الاطلاع واستهوى لبه قراءة الكتب العلمية التي كانت تقع تحت يديه، وكان اول كتاب اطلع عليهِ هو كتاب عن « العقل » The Mind ولعل هذا الكتاب هو الذي أنار له سبل التفكير، وجاء

(١) من محاضرة القيت في اجتماع دسمبر ١٩٣٨ عقده المجمع المصري للثقافة العلمية والاستاذ البرقوقي خريج قسم العلوم بجامعة برستول ثم تولى بعد ذلك تدريس العلوم الطبيعية في مدارس الحكومة المصرية ثم عين مفتشاً لها واخيراً نقل مديراً لادارة السينما

بعد ذلك دور تجليد دائرة المعارف البريطانية ، واستوقف نظره فيها موضوع «الكهرباء» أو الكهربية كما قرر مجمع فؤاد الاول للغة العربية » والى هذا العهد لم يكن معروفاً عن الكهربية الا القليل ، وقد لاحظ فراداي ذلك من المقدار البسيط الذي كتب في الدائرة ولعله قال في نفسه « ان المعلومات الأولية القليلة في هذا الموضوع الجديد لن يستغرق استيعابها مني وقتاً طويلاً » ولم يمض وقت طويل حتى وقف على ما تمَّ في العهود السابقة عن الكهربية . ولعله لم يدُر بخلده عندئذٍ انهُ هو المنتظر لأن يرفع علم الكهربية عالياً ، ويتقدم بهِ خطوات واسعة ، ويضيف الى حقائقها معلومات جديدة توسع في نطاقها وتبعد في مداها

حقّاً ان فراداي كان نابغة يمهد لنفسهِ طريق المجد ، ويصارع الجهل والفقر معاً ، وقد تغلب على الجهل بجهوده في دراسة الكتب بنفسهِ ، والتزود بما فيها من المعلومات . اما الفقر فقد بقي عقبة كأداء في سبيله الى ان انتشله العالم الطبيعي والكيميائي الكبير السر همفري دافي وعينهُ في منصبٍ اشبه بمحضر في دار المعهد الملكي بلندن او مايقرب من صبي محضر اي «فراش» ينظف القارورات ويعد الاجهزة لتجارب العلماء ، فقبلها فراداي راضياً ، وهيأت له الفرصة التي كثيراً ما كانت تتوق اليها نفسه ، ووجد في المعهد معملاً كامل الاجهزة ووافر المواد ، فصار يجري التجارب التي يريد تحقيقها من الكتب ، او يستمع اليها من محاضرات اكبر علماء عصره ، وقد ظهر استعداد فراداي لدافي فشجعهُ وكافأه على ذكائهِ باستصحابهِ لهُ في رحلة في أوربا قابل فيها اعظم علماء اوربا في هذا العصر ، وما ان رجع فراداي من رحلته الطويلة سنة ١٨١٥ حتى بدأ ابحاثاً مستقلة ، وزادت ثقتهُ بنفسهِ ، وقد كان فراداي بجانب عقله الراجح ، طلق اللسان واضح البيان ، فذاع صيته وطار ذكره ، ووفق الى كشوف كثيرة في الكهربية هي اساس توليد الكهربية بالمولدات واستخدام المحركات بالكهربية ، وبحث في المكثفات والمحولات ، والعلاقات بين الضوء والكهربية ، وبين المغنطيسية والكهربية ، والكيمياء والكهربية ، وقد خلد العلماء اسمهُ فاطلقوه على وحدة السعة الكهربية فاصبحنا نقول الى الآن سعة المكثف كذا « فراد » او كذا « ميكروفراد »

وبينما كان فراداي هذا يعمل ويجد ويبحث في اسرار الكهربية في انجلترا ، كان في الناحية الأخرى من المحيط الاطلسي باميركا العالم يوسف هنري ، الذي أعتبره صورة طبق الأصل لفراداي ، من حيث نشأتهِ وعصاميتهِ ، وتفكيره وابحاثه ، وقد ولد بعد ميلاد فراداي بثماني سنوات اي سنة ١٧٩٩ ، وتوفى بعد وفاة فراداي بتسع سنوات اي سنة ١٨٧٨ ، فما اعجب الصدف وما اتم التوافق ! وقد بدأ هنري حياتهُ في سنة الخامسة عشرة ، أي في سن مبكرة ايضاً والتحق بحانوت ساعاتي للتمرن على اعمال هذا الفن الدقيق ، وقد كان يميل بطبعه الى فن التمثيل ورغب

فعلاً في الاشتغال بهِ ، ولكن صدفة غريبة غيرت اتجاهه ، وبدّلت مجرى حياته ، فلم تجعل منهُ ساعاتيًّا ولا ممثلاً ، وهذه الصدفة هي أنهُ اطلع على كتاب جديد في الفلسفة التجريبية Experimentai Philosophy ، وقد أثار فيهِ هذا الكتاب حب البحث العلمي ، وفي هذا أكبر الشبه بحالة فراداي الذي هوى البحث العلمي من الكتب أيضاً ، ولكن هنري أراد ان يتزود بالعلم بالتحاقهِ بأكاديمية الباني ، وبعد ست سنوات أي سنة ١٨٣٢ عين أستاذاً للفلسفة الطبيعية في كلية برنستون

وقد هوى هنري البحث العلمي في أسرار الكهربية وأول ما استرعى نظر هنري من الابحاث هو المغنطيس الكهربي فأدخل عليهِ تحسينات كثيرة ولاشتغاله بهذا البحث خطر لهُ رأي جديد فقال في نفسه « هل يمكن ان نولد التيار الكهربي بوساطة المغنطيس ؟ » وهذه الفكرة هي هي التي خطرت لفراداي في انجلترا . وهناك ما يثبت ان هنري بدأ تجاربه لبحث هذا الرأي قبل فراداي ، وذلك في أغسطس سنة ١٨٣٠ ، ولكن فراداي بعد ما أتم بحثه في هذا الموضوع قرأه أمام الجمعية الملكية بلندن في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ ، واطلع هنري اتفاقاً في إحدى المجلات العامية على نبإٍ وصول فراداي الى النتيجة التي كان يسعى اليها، ولم تكن المجلة قد فصّلت تجارب فراداي ، ولذلك بادر هنري إلى اتمام بحثه ، فبكر في العمل سنة ١٨٣٢ ، إذ بدأ في يونيه بدلاً من أغسطس كعادته في كل عام ، وأتم بحثه ونشره في يوليه سنة ١٨٣٢ ، أي بعد تسجيل فراداي بثمانية أشهر ، فكان هنري سابقاً في التفكير ، وفراداي سابقاً في التسجيل ، وقد تعارف العلماء على ان الكشف او الاختراع يجب ان ينسب الى السابق في التسجيل ، ومن هنا تنسب فكرة توليد التيار الكهربي بالتأثير الى فراداي

وأكثر من هذا ، فقد خطر لهنري تفكير جديد ، أثبتت الأيام ان فراداي فكر هو أيضاً فيهِ ، ولكن هذه المرة سبق هنري في نشر بحثه عن التأثيرات الذاتية للتيار الكهربي وتأخر فراداي في نشره ومن هنا كان الفضل في هذا الموضوع يعزى الى هنري، وكأن الطبيعة أرادت ان تحقق المثل المعروف « دقة بدقة ، والبادي أظلم »

وقد بعث الشوق هنري لملاقاة فراداي الذي يشابههُ في التفكير ، فسافر الى انكلترا سنة ١٨٣٧ وتعرّف بفراداي الذي أكرم وفادته ، وقضيا مع هويتستون العالم الطبيعي الانكليزي أيضاً أسعد الأوقات في مباحثة أسرار العلم واجراء التجارب

***

﴿ اختراع يؤدي الى المحاكم ﴾ ومن أمثلة توافق الخواطر بين المخترعين هو مثال اختراع التلفون ، وقد وصلت هذه القضية الى المحاكم لتفصل فيها . ومن المعلوم ان التلغراف اخترع قبل

التلفون وقد نشر أحد عمال التلغراف مقالاً في إحدى المجلات يقول أنهُ يجب على العلماء أن يتمكنوا من اختراع آلة تنقل الكلام وان لا تكتفي بنقل الاشارات فحسب ، وصار يفصل رأيه ويبنيه على الحقائق العامية المعروفة عن الكهربية والصوت ، ولم يحاول هذا العامل تنفيذ فكرته ، وفي سنة ١٨٦٠ قام أحد أساتذة الطلبة من الألمان هو الاستاذ رايس باختراع أول تلفون ، ولكنهُ لم يكن وافياً بالغرض ، ولم تشجعهُ حكومته ، فمات فقيراً بل مات كمداً ، وعرض جهازه في المانيا وانكلترا ، وفي سنة ١٨٦٨ احضر أحد علماء الطبيعة نموذجاً من تليفون رايس الى اميركا وعرضهُ على بعض علماء الطبيعة في نيويورك ، ووصفهُ في إحدى الصحف العامية ، فأثار ذلك كلهُ اهتمام العلماء ، ومنهم العالم الاميركي هنري الذي سبق ذكره ، ومنهم أيضاً «جراهام بل» الذي سجّل اختراعه للتلفون الشائع استعماله الآن كمستقبل سنة ١٨٧٦ ، ومن غرائب الصدف أنهُ في نفس اليوم الذي تقدم فيه جراهام بل لتسجيل اختراعه ، وهو يوم ١١ من فبراير سنة ١٨٧٦ ، تقدم عالم آخر من شيكاغو وهو اليشا غراي لتسجيل جهاز مشابهٍ كل المشابهة لجهاز جراهام بل ، وقد شغلت المحاكم بهذه القضية العالمية لتقضي في ايهما احق بالتلفون ، وقد تولت إحدى الشركات استثمار الجهازين معاً حسماً للنزاع

***

﴿ اديسون وهيوز ﴾ وها كم مثالاً آخر لتوافق الخواطر بين العلماء والمخترعين وهذا التوافق أدى الى نزاع بين العالمين اديسون الاميركي وهيوز الانكليزي

واديسون هو ذلك المخترع الاميركي النابغة الفذ ، الذي ارتفع في سماء العلم الى السماكين ، ووصل بمخترعاته الى ما يزيد على الألف بل ما يقرب من الألفين ، ولم يصل الى هذا العدد مخترع من قبل ولا من بعد ، فهو بذلك وصل الى الذروة ، وتفوّق على غيره في عدد المخترعات . تدرَّج بنبوغه وعبقريته من بائع صحف الى عامل تلغراف فمخترع الى أكبر المخترعين فلهُ مخترعات في التلغراف ثم في التلفون ، وهو الذي اخترع الحاكي والمصباح الكهربي واشترك في اختراع المولد الكهربي وأقام أول محطة اضاءة كهربية لتمد البلاد بالتيار فكان بذلك أول مهندس كهربي

والاختراع الذي اتفق فيهِ الخاطران هو الميكروفون وهو ذلك الجزء من التلفون الذي يوجه اليهِ الكلام أي المرسل بتعبير العلماء . وتفصيل ذلك ان العلماء والناس لاحظوا على تلفون جراهام بل ان صوته خافت غير جلي ، وقد اعترف بذلك « بل » نفسه قائلاً ان جهازه غير واف بالغرض ، وهنا دخل ميدان البحث في تحسين التليفون كثير من العلماء منهم

أديسون الاميركي وهيوز الانجليزي وغيرهما ، ولاحظ أديسون ان العيب في جهاز « بل » هو في الجزء المستعمل كمرسل، ولذلك اخترع أديسون سنة ١٨٧٧ مرسلاً جديداً هو الميكروفون واستعمل فيهِ حبيبات من الكربون ، فصار الصوت عند المستقبل واضحاً جليًّا مسموعاً ، وناهيك من جهاز يستمع بهِ أديسون الأصم ، أو ما يقرب من ان يكون كذلك

وقد صنع أديسون ستة أجهزة من الميكروفون الحبيبي ، وأرسلها كنماذج الى إحدى الشركات في انجلترا فقوبلت بترحيب كبير ، حتى لقد طلبت الشركة عقب ذلك مائة أخرى

وفي سنة ١٨٧٨ اخترع الاستاذ هيوز الميكروفون الكربوني ، وقرأ بحثاً في ذلك أمام الجمعية الملكية بلندن في شهر مايو من تلك السنة ، ومن التجارب التي كان يهواها هيوز لبيان أثر جهازه تلك التجربة التي كان قوامها ذبابة من الذباب المنزلي العادي يضعها في علبة كبريت ويضع هذه بالقرب من الميكروفون ، ويقال ان وقع أرجل هذه الطائرة الدقيقة على خشب العلبة كان يسمع في الطرف الآخر كأنهُ وقع أقدام فيل ضخم على أرض الغابة

وهيوز كان أستاذاً لعلم الموسيقى ، ولكنهُ هوى الكهربية وابحاثها ، واخترع كثيراً من الاجهزة ، وبمجرد ان سمع أديسون باختراع هيوز وتشابه جهازه والجهاز الذي اخترعه قبله بعام ثار أديسون غضباً ، واحتج بأن هيوز بنى فكرته على فكرة اديسون دون اية اشارة أو تلميح الى ذلك ، واتهمهُ بانهُ اطلع على نموذج جهازه الذي ارسله الى انكلترا

ومن غريب الصدف ايضاً أن اديسون اشتغل ببحوث اللاسلكي وكذلك هيوز وكلاهما له مخترعات في التلغراف فما اشد توافق الخواطر بين هذين العالمين

***

﴿بين هرتز ولودج﴾ وهاكم مثالاً أخيراً لتوافق الخواطر بين العلماء وهو الذي وقع بين هرتز الالماني والسر اوليفر لودج الانكليزي ، وكلاهما مشهود له بالتفوق والنبوغ في بحوث الكهربية واللاسلكي

وتفصيل هذا التوافق ان جيمس كلارك مكسويل العالم الاسكتلندي الذي يعتبر بحق زعيم علماء الطبيعة النظرية في القرن التاسع عشر ، تنبأ بموجات اللاسلكي من قوانينه الرياضية العالية الى درجة تحديد سرعتها وبيان خواصها ، ولا عجب في ذلك من حيث قدرة القوانين الرياضية على التكهن والتنجيم ، فالرياضي اذا عرف سرعة قطار او طائرة او سيارة ، عرف ميعاد وصولها في مكان ما بالثانية اذا عرفت سرعتها والمسافة التي تقطعها وميعاد بدء حركتها ، ولا اطيل في شرح هذا فان علم حضراتكم جدير بادراك ما اقصد واكثر مما اقصد . . . . والشاهد . . . .

انهُ بمجرد ما اعلن مكسويل نبوءته دهش العلماء اية دهشة ، وحفزوا الى السعي وراء تحقيقها ، والعمل على توليد هذه الموجات الحديثة والكشف عن خواصها واختبار مدى صحة آراء مكسويل فيها ، ولعلهم ماكانوا يعلمون انهم بذلك انما يعملون على كشف اللاسلكي والتعجيل بخيره العميم ، بل أؤكد انهم كانوا يعملون للعلم الخالص

وقد حقق هرتز الالماني نبوءة مكسويل كاملة غير منقوصة ، وذلك في سنة ١٨٨٧ المتداخلة في سنة ١٨٨٨ ، وقد اثارت تجاربه وتحقيقاتهُ اعجاب العلماء ، حتى سموا الموجات الجديدة باسمه فاطلقوا عليها اسم « الموجات الهرتزية » واطلق عليهِ البعض الآخر فيما بعد اسم « اب اللاسلكي »

وكان هرتز طالباً في جامعة برلين وتتلمذ لهلمهولتز عالم الطبيعة الالماني الاشهر . فنال هرتز التلميذ اعجاب استاذه وحسن تقديره ، وكان احب تلاميذه اليهِ وانجبهم ، وقد نال الدكتوراه سنة ١٨٨٠ ، فاختاره هلمهولتز مساعداً له ، واقترح عليهِ في اثناء ذلك ان يعمل بحثاً في تحقيق نبوءة مكسويل النظرية بتجارب عملية ، فكان التلميذ الدكتور — عند حسن ظن استاذه وفي سنة ١٨٨٧ ، سنة ١٨٨٨ وفّق بعد بحث مستفيض الى اعلان تجاربه التاريخية في توليد موجات اللاسلكي واختبار خواصها وصفاتها فوجدها مطابقة تمام المطابقة لما تنبَّأ به مكسويل اذ وجد سرعتها مساوية لسرعة الضوء ، وانها تنعكس وتنكسر وتتداخل كما يحدث لموجات الضوء فكأنما اصبح الخيال حقيقة والنبوءة صادقة واصبح الضوء ظاهرة مغنطيسية كهربية ، وهي حقيقةٌ اغرب من الخيال

وقد قال هرتز عقب كشفهِ الخطير عن السر اوليفر لودج ما يأتي « وارجو ان اسجل هنا ذلك العمل المجيد الذي قام بهِ عالمان انكليزيان في نفس البحث الذي كنت اجريهِ بنفسي ، وكانا يحاولان جهدهما في الوصول الى نفس الغرض الذي كنت ارمي اليهِ ففي نفس السنة التي بدأت فيها بحثي ، بدأ السير اوليفر لودج في ليفربول نظرية مانعة الصواعق وما يتصل بها من نظريات وتجارب في تفريغ المكثفات الصغيرة ، وادت به هذه الابحاث الى ملاحظة اهتزازات وموجات في الاسلاك ، فقد كان يعتقد بصحة نظريات مكسويل ، وقد حاول جهده العمل على تحقيقها ولو لم اصل الى نتائجي ، لنجح هو في الحصول على الموجات في الهواء وفي اقامة الدليل على انتقال القوة الكهربية » فلو تأخر هرتز لفاز لودج — كما اعترف بذلك هرتز نفسهُ وكما فصل ذلك السير أوليفر لودج شارحاً الخطوات التي اتبعها : قال : —

« هذا الكشف النظري العظيم حرَّك فينا نحن الذين كنا في مقتبل العمر شوقاً شديداً الى البحث والتحرّي ، واتذكر اني تباحثت فيهِ مع من نحترمهُ كلنا الآن « جيمس فلمنج » وذلك سنة

١٨٧١ ، سنة ١٨٧٢ ، وكنا نتلقى العلم معاً ، وبعد سنة او سنتين درست كتاب مكسويل في هيدلبرج وعزمت من ذلك الوقت على توليد الامواج الكهربية التي قال عنها مكسويل والعمل على ابتداع طريقة للشعور بها ، وتكلمت انا في هذا الموضوع في المجمع البريطاني سنة ١٨٧٩، سنة ١٨٨٠، وفي جمعية دبلن الملكية سنة ١٨٨٢ ، وكان رأي فتزجرالد « ان توليد الاضطرابات الموجية الاثيرية بوساطة القوى الكهربية غير ممكن » ثم اصلح فتزجرالد خطأه وحذف كلمة « غير » من عباراته المتقدمة ، وبين سنة ١٨٨٣ كيف يمكن ان تولد هذه الامواج — ولو استطعنا حينئذ ان نصنع آلة تلتقط الامواج الكهربية لوصلنا الى التلغراف اللاسلكي »

***

﴿ ماركوني خشي توافق الخواطر ﴾ وآخر مثال أسوقه لحضراتكم هو ماركوني الذي خشي توافق الخواطر ، وتفصيل ذلك ان تجارب هرتز كانت تكرر في كل مكان ، ومنها ايطاليا وكان استاذ الطبيعة في جامعة بولونا هو الاستاذ ريغي ، وبولونا هي بلدة ماركوني ، وحضر ماركوني محاضرة ريغي في الموجات الهرتزية فأعجب بها ، وجال في نفسه خاطر يكاد يكون الهاماً ، اذ رأى بثاقب نظره وعميق تفكيره ان هذه الموجات لا يصح ان تترك للأبحاث العلمية المحضة فقط ، بل يجب ان تستغل للاعمال التجارية ايضاً ، فقال ماركوني لنفسه « ألا يمكن أن استعمل هذه الموجات الجديدة لمواصلات بدون اسلاك ؟ » واذا كانت تستطيع ان تقطع عرض غرفة فلم لا تقطع عرض البحار والمحيطات

بدت الفكرة سهلة كأنها بدهية ، وخشي ان يكون غيره من العلماء قد خطر له نفس الخاطر ويجدّ في العمل لتنفيذها ، وقد اشار الى ذلك فيما بعد ذلك فقال وكان قلقي ناشئاً من ظني بان الفكرة كانت اولية وبسيطة الى درجة يصعب معها الاعتقاد بأن انساناً آخر لم يحاول اخراجها الى طور التنفيذ ، وحاججت نفسي بأنهُ ولا بدّ وأن يكون هناك علماء ارسخ قدماً مني قد اتبعوا خط التفكير نفسه ووصلوا الى النتائج عينها تقريباً ، وبدت لي الفكرة منذ اول وهلة حقيقية او بدهية الى درجة كبيرة لم تدع لي مجالاً للظن بأن هذه النظرية قد تلوح لآخرين عجيبة غريبة وهمية

ولكنها ارادة ماركوني القوية ، وعزيمته الوثابة دفعتاهُ فلم يتردد في تسجيل فكرته والعمل على تنفيذها ، فكان النجاح حليفه ، والنصر اليفه ، فليكن لنا اذن من ذلك عبر ، ولنتخذ منها قدوة ولنعمل على ان يكون في مصر تشجيع العلماء ، وسبل لتسجيل نظرياتهم واختراعاتهم ، وسنجد بعد ذلك استقلالاً علمياً ، كما نلنا استقلالاً سياسياً

صقر قريش

بحث نفيس

في إحدى هديتي المقتطف السنويتين (١)

« اذا ابتعد المسافر عن مدينة اخذت تظهر له من بعيد الامكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لايرى الا اكثر الامكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في تاريخ الامة العربية في عهد الأسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن وتلفت الركب الى الوراء صرنا لا نلمح إلاَّ الشخصيات البارزة المتسامية اللائحة في الجو التاريخي للماضي ، ويمكننا ان نرد اكثر ما نلمحهُ من تلك الشخصيات الى بيتين لعبا اكبر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم ، وهما الشعبتان النابعتان من صلب عبد مناف »

***

قدم الكاتب المحقق الأستاذ علي ادهم فصلاً من فصول رسالته « صقر قريش » بهذه الكلمة الصادقة في تصويرها ومجازها — ونعني برسالته تلك التي اجازتها مجلة « المقتطف » الزاهرة واختارتها لنشرها واهدائها إلى قرائها ، من بين الآثار العربية التي تكفل بطبعها السري المعني بالادب والعلم صاحب السعادة أسعد باسيلي باشا ، تقدمة لذكرى منشىء المقتطف العلامة الدكتور يعقوب صرُّوف

الحق ان تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام حافل بالسير العظيمة التي لاتزال مغبونة مجهولة المقدار في موازين التاريخ الحديث ، لم تصب ما اصابهُ ابطال اليونان والرومان الاقدمين من درس واستقصاء ، ولم تصب ما اصابه ابطال العصر الحاضر من تنويه وذيوع بين عامة القراء وانها مع ذلك لتتسع للمراجعة والتحليل وتخرج من بوتقة الامتحان على مثال يضارع احسن الامثلة ، ويوافق جميع المشارب والاذواق ، ايًّا كانت المقاصد التي تبتغيها من القراءة

واليك مثلاً «صقر قريش» الذي كتب عنهُ الاستاذ ادهم رسالته القيمة، وهو عبد الرحمن

(١) كتب الاستاذ عباس محمود العقاد مقالا في كتاب « صقر قريش » تأليف الاستاذ علي أدهم — وقد كان احدى هديتي المقتطف السنويتين (١٩٣٨) — في جريدة الدستور فاستأذنا حضرته في اثباته في المقتطف

الداخل منشيء الدولة الاموية في الاقطار الاندلسية ، فأي ذوق من الاذواق لايجد كفايته ومتعته في تاريخ هذا الرجل المقدام

من كان يطلب المغامرات القصصية فهذا بطل يقل نظيره بين ابطال القصص التي تقوم وقائعها كلها على المطاردة والتعقب والنجاح في الهرب والتخفي بين المشرق والمغرب والحضر والبادية والاصدقاء والاعداء : رجل نجا من جيوش الدولة القائمة سابحاً في الماء وهو يكاد يعمى من الرمد ، ورأى بعينيه من هربوا مثله سابحين يتعبون فيعودون فيقتلون ، ويذهب هو في الآفاق شريداً منبوذاً يعاني الجوع والشظف حتى يتاح له ملك دولة باذخة يهابها شارلمان والمنصور

ومن كان يطلب الحوادث والعظائم فهذه سيرة لاتنطوي صفحة منها إلاّ على حادث يطيح بأمير ويرتفع بأمير، ويتردد في حوادثها جميعاً كل ماينفتق به عقل الانسان من حيلة وتدبير وتقدير

ومن كان يطلب العبرة الاجتماعية فمعرض العبرة هنالك واسع جد السعة بين اطوار التاريخ في الاندلس وهي متداعية ، وبين اطوار التاريخ في امم الاسلام وهي ناهضة كابية ، وبين عرب وبربر وفرنجه ويهود ومسيحيين تتشعب بهم الغايات فتلتقي ساعة وتفترق ساعات، وحسبك من ذاك انقسام المسلمين وحدهم الى مشارقة ومغاربة والى مضرية ويمنية والى شيع من كل قبيل، يتبعون اليوم هذا القائد وينحرفون غداً الى ذلك القائد ، ولا يثبتون على نهج طويل

ومن كان يطلب تحليل النفوس ودخائل السرائر فهذا مجال تتكرر فيه عشرات الاسماء كل اسم منها يشتمل على صورة آدمية تخالف سائر الصور وتنبعث في أعمالها بغير بواعث الآخرين

***

ذخيرة لا تنفد من ثروة المعرفة لجميع الطالبين والمريدين ، وقد جاءت هذه الرسالة مثلاً يحتذى في استخراج النفائس من هذه الذخيرة الوافرة ، لأن كاتبها الفاضل رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف وروية العالم وحماسة الأديب ، ويعرف من مذاهب الفلاسفة العظام في أسرار التاريخ ما ليس يعرفهُ عندنا غير افراد معدودين

فاذا تناول قبيلاً او رجلاً او دولة نفذ الى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله في مذاهب التعليل والتحليل . فيقول مثلاً في التفرقة بين اخلاق العرب واخلاق البربر : « والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب ان العربي بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك . أما البربري فانهُ عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية في الأشياء »

ويقول في التفرقة بين بني هاشم وبني أمية من قريش : « كان بنو هاشم في مكة سدنة

الـكعبة وأصحاب السلطة الدينية . أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم ، وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتحال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة البيزنطية مستفيض . وقد أكسبتهم التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس ، وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية،وكان نفوذهم السياسي في مكة ينضج فيهم ملـكات الرياسة وتدبير الأمور . وقد كانوا أقدر من بني هاشم على تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال اعباء الحـكم ، وقد قوى فيهم نفوذهم ورحلتهم للشـام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش كما زادتهم وفرة الثروة اقداماً وصلفاً ، وكانوا شديدي التمسك بالأرض ليس لهم أحلام متطايرة ولا خواطر محلقة ، والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة فهم لا ينظرون الى الدنيا في ضوء فكرة مقدسة او في ظل مبدإ سام ، وليست نفوسهم من تلك النفوس التي تحاول أبداً ان تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الأبدية الباقية وتحرص على ان تستمسك بصخرة من اليقين في بحر الحياة القلب ، بل كانوا يأخذون الحياة كما هي ويقبلونها على علاتها ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها ، والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء واحراز الغايات واشباع الشهوات ، وقد قاوموا الاسلام في اول نشأته وكانوا اشد اعداء صاحب الرسالة حرداً عليهِ ونالوه بألوان من الاذى والاضطهاد شأن الارستقراطية في عداوتها للنظم الجديدة ومستحدث الافكار خشية ان تتزحزح عن مركزها وتفقد نفوذها، ولـكنهم ادركوا بغريزة الرجال العمليين ان اليوم للاسلام فلانوا للعاصفة وتكيفوا مع الظروف . وبمهارة فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن بيتهم »

***

وبعد ان وصف الطبيعة الاموية هذا الوصف المبين اخذ في وصف « المزايا الشخصية » التي نفعت ذلك الاموي الـكبير — عبد الرحمن — في مغامراته ومحاولاتهِ حتى حققت له ما يطمع في تحقيقه رجل طموح ولد من اناس جبلوا على المداورة والعزم واغتنام الفرص والمتعة بالحياة ، فلا تزال ترى هذا الباقعة وهو يجترىء حيناً ويروغ حيناً ويصانع الاعداء تارة ويعتو على الاصحاب والاقرباء تارة ، ويختفي ثم يظهر ويظهر ثم يختفي ، ويرضى بمقدار ويغضب بمقدار ويستيئس استيئاس المجانين حين لا مناص ، ويتماوت تماوت الثعلب حين لا جدوى من الهجوم ، ويعامل كل انسان بما ينبغي ان يعامل بهِ من ثقة أو حذر ومن محاسنة او مخاشنة ، حتى بلغ

ما يريد او بلغ ما تريده له غريزة التاريخ — كما يسميها الاستاذ ادهم من توجيه الحوادث وتحويل مجرى الحضارة واقامة النظام في مقام الفوضى

وعندنا ان الرجل قد كشف عن نفسه ببيت واحد من نظمه فوق ما كشفته منهُ الأعمال والمساعي حيث قال

سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادر بلغت وحال حائل

وكان قد سمع ما يتقوله عليهِ بعض حاسديه اذ يستكثرون عليهِ ما فاء ويستصغرون ما عمل ويزعمون « انها الحظوظ والمصادفات » فجمع لهم اسباب فلاحه في هذا البيت الذي لم يدع سبباً من اسباب نجاحه وعلو نجمه ، وهي توفيق الحوادث وطبيعة العزم وقوة الجيش ، وتحول المقادير باحوال الامم التي نشأ فيها والتي رحل اليها ، فلو نقص سبب واحد من هذه الأسباب لما كان « عبد الرحمن » داخل ولا كانت دولة ولا كان فلاح

***

والاَّ فهل كان عبد الرحمن ينجح هذا النجاح لو لم يكن مولوداً في بيت الملك وكان من طبيعة القبائل البربرية والعربية ان تدين بالطاعة لمن لهُ هذه السابقة في الرئاسة والأمارة ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يسمع نبوءة العراف الذي قال لكبرائهِ في صباه ان هذا الصبي هو امل العترة الأموية في ظهور السلطان بعد افول النجم وادبار الدولة ؟؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يكن بربريًّا بما ورث من امهِ وعربيًّا بما ورث من آبائهِ فهو بهذه المثابة مولود لسياسة البربر والعرب على السواء ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو رحل الى المغرب في زمان استقرار وصولة ولم يرحل اليه في ذلك الزمان الذي تفرق فيه كل فريق حتى اوشك ان يمتنع الوفاق بين رجلين اثنين مدى ايام بله الشهور والاعوام

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يخطىء اعداؤه كلما احتاج الى خطئهم على النحو الذي يشتهيه كأنما هو الموحى اليهم بالخطأ وهو المفكر لهم بما يرمي اليهِ هو لا بما يرمون هم اليه؟

وكل هذا وأشباهه يقال عن نابليون ويوليوس قيصر وتيمورلنك وموسوليني وهتلر وستالين وسائر هذه العصبة من المغامرين الناجحين : اسباب تكفي في ازمانهم لبلوغ ما بلغوه بالقدرة التي فطروا عليها وعشرة اضعاف هذه القدرة لا تكفي لبلوغ ذلك المبلغ في زمان آخر ، وهذا هو الشأن في جميع عظماء الفتوح والمغامرات حيثما نبغوا بين مشارقة او مغاربة ، وفي عصر قديم او حديث

وخلاصة ما يقال ان هؤلاءِ المغامرين يولدون وعندهم مرجح صغير في كل مزية من المزايا ينفردون به عند ما يتعادل الميزان للترجيح والتفضيل

فالذين كانوا في ذكاء عبد الرحمن وشجاعته ودهائه كثيرون ، ولكنهم لم ينشئوا الدول ولم يغلبوا الأقران اما لأنهم اخطأوا العصر في الميلاد ، واما لأنهم ولدوا في غير البيت المطلوب ومرة لأن اعداءهم كانوا على خلاف الحالة التي تهون بها مغالبة الاعداء ، ومرة لأنهم غابوا حيث كان ينبغي ان يحضروا او حضروا حيث كان ينبغي ان يغيبوا ، فلو تأخر انتباه عبد الرحمن هنيهة وجيزة للجيش العباسي الداهم لما سمعنا به في الحاكمين ولكان الآن في غمار الألوف الذين فشلوا لأن اعداءهم ادركوهم لحظة من اللحظات قبل الانتباه ، لا لأنهم اقل في الذكاء أو اضعف في العزم او اجهل باسباب النجاح

والعجيب في أمر هؤلاءِ المغامرين أنهم ما خلوا قط من عنصر الخرافة والتنجيم والتعويل على امثال النبوءة والفأل التي كان يعول عليها عبد الرحمن ، ونحسب ان الامر طبيعي — بل ضروري — في كل من يعاملون القدر او يعاملون الغيب المحجوب ، ونعني بهم كل من تحتاج مساعيهم الى عنصر غير العناصر المعروفة المكشوفة التي تدخل في الحساب فيبقى في عقولهم مكان خال لحساب المجهول الذي يأتي بما ليس في الحسبان ، ويستوي في ذلك من يخوضون غمار الحوادث ومن يخوضون غمار الحروب ومن يخوضون غمار البحار ويركبون مطايا الأخطار . فسلامتهم جميعاً من هذه المهالك لا ترجع الى شيء من تدبيرهم ولا فرق فيها بين حيطتهم واقتحامهم ، ولهذا تنطبع عقولهم على الحيلة والحيطة من جانب وعلى المجازفة والتسليم للمقادير من جانب ... وبغير ذلك لا ينجح ذو مطمع من هذه المطامع كائناً ما كان ذكاؤه واقتداره وحسن بلائه ، وكفى بذلك دليلاً على قدرة الفطرة الانسانية على خلق الايمان الذي هي محتاجة اليه

نصف من المعلوم ونصف من المجهول
نصف من التدبير ونصف من التوفيق
نصف من الأصدقاء ونصف من الأعداء
نصف من الماضي ونصف من الحاضر
نصف من الخير والمعرفة ونصف من الشر والجهالة
نصف من العظيم ونصف من الناس والاحداث
نصف من الرجاء ونصف من القنوط

ذلك هو « المزيج » الذي لا غنى عنهُ في اقامة الدول وفلاح المغامرين في هذا الميدان ، وهو في تاريخ عبد الرحمن الداخل وتاريخ عصره كأظهر ما يكون

وجوه التباين بين

ثقافة الغرب

وثقافة الشرق الادنى

للدكتور ستيوارت ضد . د.ف.
استاذ العلوم الاجتماعية بجامعة بيروت الاميركية

٣ — وجوه اخرى للتباين بين ثقافتي الغرب والشرق الادنى

﴿ الميزة الشخصية مقابل الميزة غير الشخصية اي العامة ﴾ فرضنا الرابع في التباين بين الشعبين ان سكان الشرق الادنى ينظرون الى الحياة نظرة شخصية بينما الشعب الغربي يتبع الوجهة العامة غير الشخصية . وايضاحاً لهذا نقول انهُ لو دار حديث بين فرد من سكان الشرق الادنى ورجل من بلاد الغرب ثم سألتهما بعد حين عن الحديث الذي دار بينهما لاجابك الاول بصيغة المتكلم « سررت بهِ جدًّا واستفدت منهُ كثيراً » وبالاجمال يكون وصف الامر بصيغة المتكلم . أما الثاني فيقول « كان الحديث لذيذاً مفيداً » ويكون وصف الامر بصيغة الغائب اي ان نظرة القائل غير شخصية بل عامة . ثم اذا أراد الاثنان طلب أمر من رجل يعتمد الاول في طلبه على العلاقة الشخصية ويظهر الحاجه بقوله « افعل هـذا لخاطري » . بينما لا نجد أثراً لهذه الاتجاه في الثاني . « فافعل هذا لخاطري » تعبير غير مستحب في الغرب ولا يأتي بالفائدة المطلوبة . فابن الغرب اذا طلب الى رجل ان يترأس عملاً خيريًّا او مشروعاً اجتماعيًّا يعتمد في طلبه على اثارة عناية الرجل بالعمل المقصود واقناعه بصحة المشروع . والاختبار يعلمنا ان ابناء الشرق الادنى يعتمدون في عرض أمورهم على رجال الحكومة ، على واسطة تعارف بينهم وبين الموظف الذي يتعلق بهِ الامر ويقوم بالتعارف صديق الطرفين إما بالرسائل وإما بالذات . اما الحالة في الغرب فعلى ضدّ ذلك . فابن الغرب يشعر بأنهُ يدفع ضرائب وهذا يخوله الحق بأن يستفيد من معرفة الموظف ووقته ولذلك يذهب اليهِ في قضاء حاجاتهِ دون واسطة . والولايات المتحدة تفاخر بأن حكومتها حكومة شرائع وليست حكومة رجال . والاحزاب السياسية في الغرب تقوم وتعمر طويلاً بصرف النظر عن القائمين بها وكثيراً ما تعيش زمناً طويلاً بغير زعيم . أما في الشرق الادنى فالاحزاب مرتبطة بزعمائها فتفور وتغور وفقاً لفور زعمائها

او غورهم . وكثيراً ما تموت الاحزاب بموت مؤسسيها وزعمائها. والحالة شخصية بحتة كذلك في الاعمال التجارية العملية في الشرق الادنى . فاذا تألفت شركة في الشرق الادنى كان أعضاؤها أفراداً قليلين جميعهم أقارب وأصحاب. أما الاعمال في الغرب فتقوم بها شركات واسعة النطاق ، في نظامها صفة عامة غير شخصية. خذ مثلاً شركة التليفون والتلغراف الاميركية، أعضاؤها يعدون بألوف الالوف لان كل حامل سهم شريك فكثير من الشركاء لا يعرف الواحد منهم الآخر ولا يعرفون مديري الشركة والقائمين باعمالها . والعاملون فيها يعدون بمئات الالوف وبعضهم لا يعرف رؤساء العمل اسماً او وجهاً ومع كل هذا تسير الاعمال بدقة ونظام بحسب تعليمات وجداول وقوانين مطبوعة . واذا اجتنا نعدد الشواهد على اثبات هذا الرأي في الغرب ضاق بنا المكان والزمان

ولنبحث فرضنا هذا مسترشدين بالفرض السابق تحت عنوان الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي. فاننا اذا اردنا ان نعرف اي الامرين اكثر شيوعاً في الغرب او في الشرق الميزة الشخصية او الميزة العامية ، فالشرقي في حالة كهذه يعتمد على الثقات وفي كلامه عن الامر يسرد اقوالهم لانهم واقفون على ثقافة الشرق الادنى وثقافة الغرب ويمكنهم ان يقولوا القول الفصل في الموضوع . اما الغربي فيدرس الامر بنفسه فيضع مقياساً عن أوضاع كلٍّ من الشعبين تجاه الاعمال الشخصية والاعمال غير الشخصية ويقوم باحصاء يتناول عدداً وافراً من الامثين وللقيام بهذه التجارب قواعد وأساليب معروفة عن علماء الاجتماع المجرّبين

وهذا الدرس العلمي الذي يقوم بهِ المدققون لمعرفة الحقائق واثبات فرضٍ ما ، يظهر فساد ما يلجأ اليهِ الذين يتباحثون في الامور على أساس نظريٍّ فيسردون الامثلة والشواهد التي تدعم آراءهم وفي الوقت نفسه يسردون أمثلة تفسد آراء معارضيهم وبكلمة أخرى ينتقون من الحدّ الاقصى في كل من الحالتين امثلة يستندون اليها في أبحاثهم ويقدمونها بطريقة تفسد عليهم الوصول الى الحقيقة في معرفة مقدار التباين بين الفريقين اذا كان هنالك ثمت تباين . أما الطرق العلمية المبنية على ملاحظة الامور بدقة متناهية بالوسائط التي اشرنا اليها سالفاً في معرفة وضع الامة الواحدة تجاه حالة خاصة فتظهر فساد الحجج المبنية على امثلة شائعة مما يستند اليه الافراد لدعم رأي يأخذون به . وهذه الطرق العلمية تظهر ايضاً ضرورة مقابلة وضع الامة الواحدة بوضع الامة الاخرى تجاه حالة واحدة وذلك يسهل تعيين نوع التباين ومقداره . ولنا في التباين بين الالتجاء الى الثقات والالتجاء الى الاختبار الشخصي مثال ننسج على منواله لمعرفة صحة كل من الفروض الآنف ذكرها وهي تبين التباين بين الغرب والشرق الادنى

﴿ الميزة الاقطاعية مقابل الميزة الدمقراطية ﴾ فرضنا الخامس ان التباين الثقافي بين الشرق الادنى والغرب ظاهر في الصفات الاقطاعية الشائعة في الشرق الادنى والصفات الدمقراطية المنتشرة في الغرب مع بعض الشذوذ للقاعدتين. وقولنا الاقطاعية يعني ان الفرق الاجتماعي والبون الاقتصادي

بين أصحاب الاملاك والذين يعملون فيها شاسع وصارم وفي الوقت نفسه يظهر في كل من الفريقين ميل للبقاء حيث هو دون محاولة التغلّب على هذه الحواجز . وقولنا الدمقراطية يشمل المساواة بين ابناء الامة الواحدة في الفرص التي تتاح لهم وهذا يتناول ايضاً المساواة بين الجنسين النشيط والضعيف ويتناول المساواة في جميع الحالات الاقتصادية بحيث تتاح في البلاد الواحدة فرص لابن الفلاح ان يتبوأ أعلى منصب حكومي في بلاده او ان يصير مدير اعمال تجارية أو اقتصادية كبيرة . ويتم هذا الامر بالتعليم المجاني العام الذي تقوم به الحكومات . وزبدة القول ان هذا التباين ظاهر في الثقافتين كل الظهور في عدم التساوي بين الرجل والمرأة وعدم المساواة اقتصاديًّا بين طبقات سكان الشرق الادنى . بينما المجال في الغرب واسع للمساواة بين الرجل والمرأة وفي جميع طبقات البشر. ورب قائلٍ يقول ان الدمقراطية التامة ليست من صفات المدنية الغربية على ما هو ظاهر في ايطاليا الفاشستية والمانيا النازية وروسيا البولشفية واليابان العسكرية كما وان الاقطاعية غير شاملة بعض اقطار الشرق الادنى وهذا واضح في نواحٍ كثيرة من جبل لبنان حيث الاملاك ملك الفلاح يستغلّها لحسابه . ولكننا نعود ونقول اننا في بحثنا هذا لا نتناول الحوادث الفردية ونقابلها الواحدة بالاخرى بل نقابل المعدّلين الغالبين ، لان الحوادث الفردية قد تكون الحد الاقصى لاحدى الثقافتين ولا تظهر المعدل الذي نتوخاه في الابحاث العلمية ونحن لا نود انتقاء حوادث فردية خصوصية يستعين بها الغير لاثبات نظرية ينادون بها

﴿ الجمود مقابل السير في التقدم الديني ﴾ فرضنا السادس في التباين الثقافي يتناول تأثير المركب الثقافي الديني في تغيير الحالة الثقافية كلها . فالديانة في الشرق الادنى عامل قوي ولكنها قوة جامدة نوعاً وفي سكان الشرق الادنى ميل للمحافظة على الانظمة الدينية وإبقاء الطقوس على ما كانت عليه قديماً بحيث تكون مستقرة على حالة واحدة فلا تتحول تحولاً يقتضيه الحال لتساعد على حل المشكلات الاجتماعية الحديثة وما ينجم عن هذه المشكلات من الشرور . واذا نظرنا الى البواعث الفعالة التي دفعت بالبعض في الشرق الادنى الى محاربة الشرور والامراض الناجمة عنها او الى مكافحة التأخر الزراعي او البغاء او الجشع الاقتصادي او غيرها من الامور التي لا يريدها الشعب نجد أنها لم تصدر من الكنيسة الارثوذكسية او الكنيسة المارونية اوالهيئات الدينية الاسلامية او غيرها بينما الحالة في الغرب عكس هذا تماماً فزعماء كل ثورة ضد شرور الحرب او ضد التحكم الصناعي او الفساد الادبيّ في السينما وغير ذلك من الشرور التي تعرقل تقدم الامة هم رجال الدين والعاملون في الكنيسة كالكهنة والقسيسين والمرسلين وغيرهم . والمال اللازم لنجاح كل من المشروعات المذكورة يجمع من الشعب بواسطة الكنائس ولا دخل لجمعيات فردية او مؤسسات اخرى فيه. اجل ان في بعض كنائس الغرب محافظة قصوى ورد فعل

قويًّا ولكن الفرض الذي نحن في صدده يوضح لنا ان الكنيسة في الغرب عامل قوي في تسديد خطوات التطور الثقافي في مناهج التقدم بينما الكنيسة في الشرق الادنى جامدة وكثيراً ما تنتمي الكنيسة الجامدة في الشرق الى الكنيسة العاملة المندفعة في الغرب

﴿ الميزة الفردية مقابل ميزة السهولة لتأليف الجماعات ﴾ فرضنا السابع والاخير في التباين بين ثقافة الشرق الادنى والثقافة في الغرب ان العمل الفردي اكثر شيوعاً في الشرق الادنى منهُ في الغرب بينما العمل بواسطة الجماعات اكثر انتشاراً في الغرب منهُ في الشرق الادنى. وانمي بهذا ان اهل الغرب اقدر على ضم كلمتهم للعمل كجماعات موحدة الغاية والمرمى وانهُ بامكانهم ان يعملوا كجماعات زمناً طويلاً وان يكون عدد الافراد في الجماعة الواحدة وافراً . ولايضاح الامر نوجّه نظر القارىء الى الشركات التجارية في الشرق الادنى وهي كناية عن افراد قليلين اجتمعوا لمدة وجيزة بينما نرى الشركات الاقتصادية في الغرب تشمل العدد الوافر والوافر جدًّا من المساهمين وتكون آجالها طويلة مديدة وهذه الشركات إما ان تكون مجموع اصحاب رؤوس المال كشركة الفولاذ في الولايات المتحدة United States Steel Company والشركة المشهورة في تاريخ بريطانيا العظمى المعروفة باسم شركة الهند الشرقية East India Company وإما تكون مؤلفة من غير اصحاب رؤوس المال كالشركة التعاونية الانكليزية لبيع الجمل British Wholesale Cooperatives او تعم جميع ابناء البلاد كما هي الحالة في روسيا. فالبلاد الروسية كلها شركة اقتصادية واحدة .ومن يتصفح الكتاب السنوي الذي يصدر في الولايات المتحدة باسماء الجمعيات الاجتماعية يجد المؤلف كبير الحجم فيه الالوف من اسماء الجمعيات وكلها تبين ان الالوف من سكان البلاد قد اتحدوا معاً تحت اسم جمعية واحدة للعمل معاً نهوضاً البلاد باحدى الخدمات المعروفة عندهم. وهذا التباين في الميزة الفردية مقابل ميزة القابلية للعمل جماعات جماعات هو في رأيي وليد ثقافة خاصة شأنها شأن اخواتها الست المار ذكرها ولا دخل للفطرة في هذه الميزة بل هي تتأثر بالمحيط والبيئة. فالاولاد في الغرب يربون منذ حداثتهم على العمل جماعات جماعات بطرق مختلفة تعد بالمئات فبعضهم يكافون قبل ان يبلغوا الثامنة من عمرهم ان يترأسوا لجاناً تتعلق بصفوفهم المدرسية وللمقابلة نقول قمنا باحصاء في صف المبتدئين في القسم العلمي في الجامعة الاميركية في بيروت (Freshmen) لنعرف مدى هذا الاختبار في هذا الصف وعدده مائتان فوجدنا انه لم تتح لواحد منهم فرصة ليترأس لجنة ما مع ان المعروف انهم بوصولهم الى هذا الصف قد اجتازوا مرحلة واسعة من مراحل التهذيب العالي ومعدل العمر فيهم خمس عشرة سنة. والكل يعرف ما في هذه الناحية من التهذيب من الفوائد اذ تعلم اساليب تسيير الامور باحترام القرارات الصادرة من الاكثرية وخضوع الاقلية لقرار الاكثرية رغم الاختلاف والتباين في الرأي . ومعلوم ايضاً ان هذا غلبة على روح التحاسد

ومن يحص عدد الجمعيات التي قامت في الشرق الادنى في السنوات العشر الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ويدرس معدل عمرها يجد الشواهد العديدة التي تتعلق بفرضنا هذا نعني به التباين بين العمل الفردي والقابلية للعمل جماعات جماعات . واذا نظرنا الى الفروض الاول والثالث والرابع المتعلقة بالتباين الثقافي ان في ادخال الصناعات او في ادخال تغيير ثقافي مرغوب فيه في الانتقال من الميزة الشخصية الى الميزة العامة غير الشخصية وكان نظرنا اليها بدقة وامعان لم نجد فيها تصادماً أو تعارضاً بل نراها تطابق الواحدة منها الاخرى وتلائم الثقافة الاولى الثقافة الاخرى وان في الامكان تشابهها وامتزاجها الواحدة منها بالاخرى

وقد يعجب القارىء لعدم ذكرنا التصادم بين وطنية الشرق في طلب الاستقلال واستعمار الغرب الدافع به الى الرغبة في التوسع والتسلط . والسبب في هذا لا تنا لا نرى هذا التباين ثقافيًّا لانهُ ليس تبايناً في طرق التفكير والعمل في الحكومة . وهو ليس نزاعاً في الثقافة بل هو نزاع بين جماعات في الشرق الادنى وجماعات في الغرب على من منها يتولى امر هذه الثقافة . فالفريقان وطنيان والجماعات في الشرق الادنى والغرب تود ان تكون مستعمرة وترغب في التسلط على جماعات أُخرى اذا وافق الامر مصالحها وفي الوسع تنفيذ هذه الرغائب وعليه يكون هذا النزاع بين فئة وطنية في الشرق الادنى وفئة وطنية في الغرب ولا دخل للتباين الثقافي في الامر . فها هي تركيًّا مثلاً قد خلعت عنها كل ما يمت الى الاستعمار الغربيّ ولكنها بالوقت نفسه تعمل بكل قواها لتقتبس الثقافة الغربية

ومع ان النزاع المذكور ليس نزاعاً بين الثقافتين نجد ان تسلط قوم على قوم آخرين بالاستعمار واسطة لنشر ثقافة الأُمة المتسلطة في الأُمة المتسلطة عليها . ولنا في اللغة خير برهان . ولا يسهى عن البال أن هذا التسلط السياسي بطبيعته يخلق جوًّا ملائماً للمعارضة يحول دون انتشار بعض الصفات الثقافية في الامة المتسلطة بين افراد الامة المتسلطة عليها ويساعد بالاكثر على ان تقتبس الامة المتسلط عليها ثقافة امة ثالثة غير استعمارية ومن هذا يتبين لنا أن التسلط الاستعماري يوجد طريقاً لبعض الصفات الثقافية ويقطع الطريق على البعض الآخر وعليه يجب ان ندرس هذا التصادم وهذا التلاؤم مستقلين عن ابحاثنا السابقة ، عوضاً عن درسها تحت مقابلة الميزة الوطنية بالميزة الاستعمارية لان الامر يقتضي الجلاء والوضوح في التفكير والبحث

٤ — اختلاط الثقافتين

﴿ المهارة الفنية في تحليل التصادم في الثقافة ﴾ عند وقوع تصادم في الثقافات يمكن اتباع مبادىء خاصة معينة لتحليل التصادم . هذا اذا كان من يعنيهم الامر راغبين في التخلص من التصادم والنزاع . ولكي لا نشغل محلاً واسعاً في تطبيق هذه المبادىء على كل من النقط السالف ذكرها من التباين الثقافي نجيء على سردها بكل ايجاز

(١) — اذا عاكس البالغون بعض الصفات الثقافية وحاولوا منعها من التطرُّق الى صفوفهم فعلى من يعملون على ادخال هذه الصفات ان يلجأوا الى الصغار فيهذبوهم في الثقافة المنوي ادخالها وعلى ذلك لا يمضي وقت الاَّ وتعم الثقافة الجديدة كل البلاد والامر معروف في كل العالم ان المدارس هي الواسطة الفعالة لاذاعة الثقافات ونشرها

(٢) — المبدأ الثاني للتخلص من النزاع والتصادم في ادخال صفات ثقافية جديدة لامة ما على من يهمهم الامر ان يعتمدوا على الوقت فلا يعملوا على نشر الامر بسرعة مستخدمين لذلك الاعلانات والدعايات . لان ذلك يساعد على ازدياد المعارضة بينما الامر يكون عكس هذا اذا سار هؤلاء الهوينا وتركوا للوقت مجاله للعمل. مثلاً لو قام محبذو السفور بنشره بالسكينة والهدوء لانتشر بدون ضجة ومعارضة وان كانت هناك معارضة فبأقل ما يمكن منها . ولكن الامر يستلزم وقتاً أطول منهُ اذا هم فرضوه على الامة بالقوة. فالمرأة التي تود ان تظهر سافرة يمكنها ان تكون مع السافرات سافرة وتبقى في محيط محبذي الحجاب محجبة او اذا شاءت ففي وسعها ان تنقص ثخانة حجابها شيئاً فشيئاً فهي بهذا تخمد نيران كل رغبة للمعارضة او الثورة ضدها بينما نراها تثير من النزاع والضجة الشيء الكثير اذا وثبت وثبة واحدة من الحجاب الثخين الى السفور المطلق

(٣) المبدأ الثالث ان تربط الصفة الثقافية غير المرغوب فيها بحالة يسعى الجميع اليها . مثلاً اذا قاومت امة الاقبال على لغة الامة المستعمرة بلادها فان افراد الامة المقاومة يقبلون على درس اللغة غير المرغوب فيها اذا جعلت واسطة للفوز بالمناصب الحكومية

(٤) المبدأ الرابع زيادة الامور المشتركة بين المتصادمين وتوسيع نطاقها وتقليل النقط التي يصير الاختلاف عليها . وما اصح الشعار الذي اتخذتهُ جمعية «الاخاء» في جامعة بيروت الاميركية لانقاص الاختلافات المذهبية في اعضائها والشعار المشار اليهِ سابقاً هو « ان العالم الذي تتقاسم بركاته لاوسع جدًّا من العالم الذي نختلف على ذراته » وبكلمة أخرى نقول في هذا المبدإ « ان تتمم غايات الجماعات المتصادمة غايةً اوسع وأنفع هي غاية الغايات » ففي الاعمال البرلمانية فئتان لكل منهما وجهة نظر في درس الامور وتقريرها ولكن الخلاف بينهما يحسم بقرار الاكثرية النافذ على الاكثرية والاقلية معاً . فخضوع الاقلية لقرار الاكثرية في تقرير مركب ثقافي خاص وصل اليهم للبحث اما باستدعاء وإما بلائحة تشريعية هو واسطة للوصول الى غاية الغايات وهذه الواسطة معروفة باسم نظام الاكثرية ولكن الفريقين يستخدمان اختلافهما لغاية أوسع وقصد أفضل وهو الاستمرار في العمل للوصول الى قرارات عديدة بحسب نظام الاكثرية . وعندما ترى الاقلية في الاعمال البرلمانية تنفصل عن الاكثرية فتخفق الابحاث البرلمانية فقل ان اعضاء البرلمان لا يؤمنون بهذه الغاية الواسعة ولا يعتقدون في النتائج العامة الفضلى

الناجمة عن نظام الاكثرية. فعلى رجال الادارة اولاً ان يوجدوا غاية الغايات وان يقدموها الى البرلمان بطريقة يعرفون انها تتمم غايات الفئتين المثقفتين. وما زال لكل فئة الحق ان تصادق على قبول بعض الصفات والمركبات الثقافية ورفضها بصرف النظر عن اشتراكها في بحثها فيجب ان يعرف المجموع الذي يدرس هذه الثقافات انه بحاجة الى الاتفاق على غاية الغايات لكي يحل كل خلاف وتصادم. ولايضاح الامر نضرب المثل التالي : اذا كانت غاية الغايات التقرير بان بناء الجبلة البشرية يجب ان يكون اسياد محيطهم لا عبيده وقد تم هذا فما نراه من التباين والتصادم في الميزة التقليدية مقابل ميزة الاختبار الشخصي لا يطول امره لان الصناعات العلمية تجلو للانسان تدريجيًّا بانها تخوله سلطة واسعة على الطبيعة تعجز عنها اقوال الثقات

ثم اذا فرضنا ايضاً ان قد تم الاتفاق على ان تكون الشخصية واحدة من الغايات المنشودة — ونعني بالشخصية ان ترتقي النفس البشرية وتكون حرة كثيرة الاختبار وجزيلة الفائدة للمجتمع البشري وهذا اعلى ما يصبو اليهِ المرء في حياتهِ البشرية — فاننا اذا درسنا نقط الخلاف بين الذين يقولون بالنظر الى الحياة من وجهة شخصية والذين يقولون بها من وجهة عامة غير شخصية وفهمنا الامر بدقة وامعان مسترشدين بالفرض الذي قلنا قد تم الاتفاق عليهِ من حيث الشخصية السامية كان في وسعنا ان نقرب بين وجهتي نظر الفريقين وقد يتسنى لنا ان نوفق بينهما توفيقاً تامًّا. فهذه الغايات المنشودة كسلطة المرء على محيطهِ وإنشاء شخصية مولدة مفيدة ، هي القانون الذي يسير عليهِ التقدم والنجاح وهي المقياس الذي به نعرف الزمن الذي به تصير الصفات الثقافية تقدماً ونجاحاً في الامة التي تصبو الى هذه الغايات الفضلى

فالمسألة امامنا ان يتم الاتفاق على تعيين غايات فضلى اكثر عدداً من المعروف وتحديدها قبل اضاعة الوقت وبذل الجهود في درس امور ثانوية هي التباين في الثقافات وهذا ما يضع امامنا السؤال التالي: «ما هي الغايات الفضلى التي يمكن اتخاذها واسطة للوصول الى أبعد مدى ممكن من الاتفاق بين الشرق الادنى والغرب » . وقد اشار بعضهم الى الغايات التالية كالغايات الفضلى المنشودة « ارادة الله » « الشخصية السامية » « ان يحصل اكبر عدد ممكن على اعظم قسط من السعادة » « الحصول على افضل عافية واوفر ثروة ممكنة والوصول الى ابعد مدى من الرغد والرفاهية وبالفوز بأوفر قسط من المعرفة في طريقة الحياة لتحقيق معين »

لم نقصد فيما جئنا عليهِ من المباحث ان نحل المشكلات الظاهرة في مقالنا ولكن قصدنا ان نبث في قارئي مقالتنا هذه التأمل العميق في هذه الامور الحيوية والمعروف ان حل المشكلات الناجمة عن التصادم في الثقافات وكيفية تلاؤم الثقافات المختلفة لا يكون عن طريق الاقوال بل يتم بما يفكر فيهِ اصحاب هذه الثقافات ويعملونهُ

[نقلها جورج الاشقر عن الانكليزية]

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشد سيفين

الرموز في الديانة القديمة

﴿تمهيد﴾ يحسن قبل الكلام عن الرموز ان أمهد لذلك بكلمة عن معبودات قدمائنا ومعتقداتهم

تقوم الديانة المصرية على ركنين عظيمين : عبادة القوة ممثلة في مظاهرها في الكون كالشمس والقمر والنيل وعبادة السلف الذين اهتدوا الى الزراعة وكان لهم فضل اخراجهم من ظلمات البداوة الى نور الحضارة. وقد مثلوا لهؤلاء السلف بالأسرة الرمزية المكونة من الثالوث المشهور أوزيريس الأب وإيزيس الأم وحورس الابن الوارث للعرش . ثم انتقلت هذه الصفة الى الملوك من بعدهم فكان الملك هو الوارث لعرش حورس ويلقب بحورس الحي حتى اذا انضم اليهم في العالم الثاني عبد كاله . ولهذا أنشئت المعابد للملوك في الغرب حيث مقابرهم ليحج اليها أتباع حورس من شعبهم لتقديم فروض العبادة لهم

وقد اهتدوا الى البعث من النظر الى الشمس فهي تولد في الصباح وتبلغ غاية قوتها في الظهر ثم تنحدر وتصفر وأخيراً تغرب ثم تبعث في اليوم الثاني . وكانوا يزعمون ان «را» وهو اله الشمس اذا بلغ المغرب أخذ هيئة الموتى ليجتاز «الدوات» وهو العالم الثاني ولذلك كان الذين في الشرق عند آون يعبدون الشمس وهي في الاوج باسم «را» والذين في الغرب عند منف يعبدونها وهي في الدوات باسم «بتاح» وكانوا يصورونه لذلك في هيئة مومياء

وقد جعلوا أوزيريس آية على البعث ودليلاً فقالوا انه جاء معلماً للناس وهادياً فعلمهم الزراعة وهداهم الى الدين وأعطاهم الشرائع ثم قتل وبعث ورفع الى « را » في السماء وانحدر معه الى العالم الثاني وهو هناك اله الموتى

ويلاحظ انه كان لهذه المعبودات مناطق تتركز فيها عبادتها فلرا اون وهي هليوبوليس باليونانية ومعناها مدينة الشمس ولآمن طيبة ولبتاح منف ومكانها الآن ميت رهينة عند البدرشين حيث يوجد تمثال ضخم لرعمسيس ملقى على ظهره وكان في الاصل قائماً عند معبد بتاح. ولأوزيريس

أبيدوس ومكانها الآن العرابة المدفونة عند البلينا . ولتوت خيمنو وهي الاشمونين . ولحورس ادفو . وذلك يدل على أنهُ في الزمن السابق للاسرات لما كانت البلاد منقسمة الى أقاليم مستقلة تحت حكم أمرائها كان الشعب موحّداً اذكان لكل إقليم معبوده الخاص . فلما صارت البلاد مملكة متحدة تحت حكم مينا واتخذ منف العاصمة وكانت العادة منذ أقدم العصور ان يتولى الأمراء الملك في أقاليمهم كورثة للاله كان طبيعيًّا وقد أصبحت منف حاضرة المملكة المتحدة ان ينتسب ملوكها الى الشمس معبود هذه المنطقة في الشرق باسم «را» وفي الغرب باسم «بتاح» ليكون الملك لهم حقًّا الهيًّا بأنهم ابناء الاله وورثتهُ وخلفاؤه في الارض وان يصير اله الشمس ملك الآلهة ورب الأرباب وان تفرض عبادته من ثمَّ على سائر افراد الشعب يعبدونهُ الى جانب معبوداتهم الخاصة في اقاليمهم . وكان هذا بداءة الشرك وتعدد الآلهة

ومع الزمن أصبحت المعبودات جميعها معروفة في سائر أنحاء البلاد فما كان منها متشابهاً في صفاتها عبدوها معاً وخلطوا بين اسمائها في قصصهم الديني حتى ليتعذر ان تفرق بينها . فكثيراً ما تذكر هاتور مثلاً ويراد غيرها من اناث المعبودات مثل ايزيس وسيخت وكذلك «بتاح» لكونه يمثل «را» في العالم الثاني فقد عبد كصورة من صور أوزيريس أو آسار وسمي بتاح سيكر آسار وجعلت في معبده حظيرة للعجل ابيس وهو رمز آسار كما سأبينهُ بعد

ولما نجح احمس رأس الأسرة الثامنة عشرة وكان من طيبة، في تخليص البلاد من حكم الهكسوس واستقل بالبلاد متخذاً طيبة عاصمة لملكه أصبح لآمن معبودها المقام الأعلى في البلاد وأدمج فيه «را» وصار يدعى «آمن را»

وفي زمن بطلميوس الاول سوتير مؤسس أسرة البطالسة جيء الى مصر من اليونان بتمثال صنع على هيئة العجل وعلى رأسه شارة مصر المكونة من قرص مجنح يكتنفه أفعوان وعقاب وقيل لتزكيته عند المصريين واليونان انه يمثل اتحاد كل من بلوتو اله العالم السفلي عند اليونان وآسار اله الموتى عند المصريين وسمي سيرابيس وشيّد له في الاسكندرية معبد فخم ظل قائماً الى دخول المسيحية . وكانت الغاية من ذلك اضعاف القومية المصرية وخضد شوكة المقاومة فيهم للحكم الاجنبي من طريق افساد عقائدهم باحلال آلهة غريبة مكان آلهتهم التي ألهمتهم اياها طبيعة الاشياء في مصر وضرورات الحياة واصطبغت بصبغة البلاد وصرفهم عن معابدهم التي تتمثل فيها عظمة الماضي ومجد ملوكهم الاقدمين

ونظراً لهذا الامتزاج بين المعبودات فاني في دراستي هذه سأحرص على ان أبين هل كان الرمز للمعبود الذي ادرسه في الاصل او كان لآخر نظيره ثم أضيف اليه بعد ادماجه به

﴿الرموز﴾ الرمز أداة يستعان بها لتقريب المعاني المجردة الى الاذهان وتجسيمها لابرازها

للعيان . وقد استعمل قديماً لتعريف الآلهة وتمثيل صفاتهم . وقد اتخذت اكثر الرموز لهذه الغاية من الحيوان لان لاجناسها صفات وغرائز معروفة تتميز بها

ومن اجناس الحيوان التي استعملت رموزاً في الديانة القديمة الأيبس والقرد والعجل والبقرة والكبش والجعران . وقد تكلمت في المقال السابق عن الأيبس والقرد . وأضيف الآن اني بعد ارسال المقال قرأت في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري عن طائر اسمه بوقير «انه طائر ابيض تجيء منه طائفة كل سنة في وقت معلوم الى جبل يقال له جبل الطير بصعيد مصر بقرب انصنا» . وهذا الجبل بمديرية المنيا ولا يبعد كثيراً عن الاشمونين . ولعل هذا الطائر هو الايبس كانت تجيء منه طائفة كل سنة عند ارتفاع ماء النيل فتفاءل به الناس واعتبروه بشيراً بالخير وموقتاً يدلهم على وقت الفيضان . ومن ذلك كان تقديسه في هذه المنطقة واتخاذه رمزاً لتوت الاله الذي أرشدهم الى معرفة الاوقات والفصول

وسأتناول في هذا المقال آلهة ورموزاً أخرى وأرجو ان أوفق الى ادراك الصلات المعنوية بين هذه المعبودات ورموزها

﴿آلهة الشمس﴾ أنشأ الناس منذ أدركوا عظمة الكون يتأملون في الكائنات مما في السماء وما في الارض وما بينهما ويتساءلون عن مصدر القوة فيها وانتهوا من ذلك الى معرفة الخالق

ولقد صور صاحب المزامير هذا المعنى أحسن تصوير وأبلغه في المزمور التاسع عشر حيث يقول «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه .... في كل الارض خرج منطقهم والى أقصى المسكونة كلماتهم . جعل للشمس مسكناً فيها وهي مثل العروس الخارج من حجلته (مخدعه) يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق . من اقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها . ولا شيء يختفي من حرّها»

وكانت الشمس التي اختصها صاحب المزامير بالذكر أعظم وسيلة الى معرفة الاله ، والآية الكبرى على قوته فعبدت منذ أقدم العصور زلفى اليه . وقد بقيت من عبادة الشمس بعض عبارات لا تزال تطلق على الله مجازاً وهي من صفات الشمس أصلاً كالآية «الله نور السموات والأرض» وقولنا السماء كرسيه والارض موطىء قدميه

ومما كان له أثره في خيال الأولين ومعتقداتهم منظر الشمس وهي ترتفع في الأفق من وراء الجبال تتهادى لتأخذ مكانها في كبد السماء ثم تأخذ في الانحدار حتى تختفي كذلك خلف الجبال التي في المغرب .فقد اختلف الرأي في تفسير ذلك مما ترتب عليه اختلاف الرموز وتنوّع العبادات

فنهم من توهم ان للشمس مسكناً خفيًّا في الجبال وبناء على ذلك بنيت المعابد عليها في بلاد كثيرة تقرّباً لها. ومن هذا القبيل الاكروبوليس بقرب آثينا ومعنى الاسم مدينة الرأس لانها

قائمة على رأس جبل . وكذلك المرتفعات التي جاء في سفر الملوك من أسفار التوراة ان العمونيين والموابيين من سكان فلسطين الأولين كانوا يقيمونها لكموش ومولك آلهة الشمس عندهم. وأصبحت الجبال التي أقيمت عليها تلك المعابد مقدسة ولا يزال لبعضها حرمة الى الآن عند بعض الامم

ومنهم من اعتقد ان الشمس تهبط من المغرب الى العالم الثاني عالم الارواح ثم تبعث من المشرق في اليوم الثاني

واختلفوا كذلك في وصفها فمنهم من شبهها في شروقها والأفق من حولها يتلألأ بأشعتها الذهبية بمركبة تحمل الأله من الشرق الى الغرب . وفي مصر شبهت بالثور القوي ينطلق من حظيرته في الجبل الشرقي هائجاً يتقدمه قرناه يكنى بهما عن أشعتها وأول ما يبدو منها . وشبهت أيضاً بالباشق وكني عن أشعتها بجناحيه .كما شبهت بالسفينة وقيل لذلك ان في السماء نهراً أعد لها تقطعه في رحلتها اليومية من الشرق الى الغرب

وسأجتزىء من ذلك كله بآلهة الشمس في مصر ورموزها فأجعلها موضوع دراستي في هـذا المقال

﴿المعبود « را »﴾ « را » هو اسم اله الشمس في أون . ومن هذا الاسم فيما أظن اشتق الفعل « رأى » ولفظة ray بمعنى اشعة . وكان يطلق على الأله اذا كانت الشمس في كبد السماء فاذا ولدت من المشرق في يوم جديد سمي حور ماشيس وهو من أسماء حورس الابن ومن المرجح ان لفظة horizon بمعنى أفق مشتقة من هذا الاسم فاذا انحدرت الى المغرب وآذنت بالغياب في عالم الارواح أطلق على الأله اسم « تمو » أو « أتمو » ولعله في نطقه الصحيح كان اقرب الى لفظة «عتمة» العربية

وبديهي ان هذا الثالوث من الاسماء لم يكن يعني عند الاقدمين ان للشمس آلهة ثلاثة . فالشمس سواء أكانت في كبد السماء أم في المشرق أم في المغرب هي واحدة والهها كذلك واحد. أما هذه الأسماء فهي اكثر ما تكون شبهاً بالاقانيم الثلاثة للاله الواحد في اعتقاد المسيحيين

ويظهر ذلك جليًّا في صلواتهم .وحسبي برهاناً على قولي ان أنقل بضع فقرات من صلاة نشرها مرييت باشا بأصلها الهيراطيقي وترجمت منها الى اللغات الاوربية . وفيما يلي ترجمتها من الانكليزية :

« ايها الكائن الواحد خالق الخلق كله . الواحد الاحد .موجد الكائنات » ومنها « ايها الأله آمن وهو (را) وأتمو وحورماشيس موجد الكائنات كلها . ان جميع الناس يسبحونك قائلين انا نمجدك لانك في وسطنا ونسجد لك لانك خلقتنا » ومنها «انه يسمع صلاة المستضعفين ويستجيب دعاء الداعي اذا دعا . وهو ينقذ الودعاء من ايدي قساة القلوب . ويقضي بالحق

بين الاقوياء والضعفاء» ومنها «ان عينه على الناس وهم نيام وهو يكفل لادنى خليقته احتياجاتها»

﴿ رموزه ﴾ تقدم القول ان الاوائل في فطرتهم شبهوا الشمس في شروقها بالثور وبالباشق وبالسفينة. وقد احتفظ قدماؤنا ــ والمصريون محافظون بطبعهم ــ بتلك الصور جميعها كذخيرة مقدسة

أما الثور فقد اتخذوه باسم منفس رمزاً حيًّا لرا ووسيلة للزلفى اليه . وقد جاء في حجر رشيد المشهور ان بطاميوس الخامس أغدق عليه وعلى الحيوانات الأخرى المقدسة الخير وأجزل لها العطاء تقرُّباً للآلهة

وأما الباشق فهو رمز حورس الابن وهو حورماشيس الشمس المشرقة وكان يصنع تمثاله من الذهب الخالص لمطابقة لونه لأشعة الشمس عند الشروق . وقد جعل رأس الباشق يتوجه قرص الشمس في موضع الرأس من تمثال « را » وهو على هيئة رجل يقبض باحدى يديه على علامة الحياة وبالأخرى على رمز القوة

وأما السفينة فهي رمز آمن اله الشمس في طيبة وسيأتي الكلام عنها بعد

ولما كانت سلسلة الجبال المحاذية للنيل على امتداده تبعد اكثر اجزائها عن الوادي المعمور ويتعذر لذلك اقامة المعابد للشمس عليها او في سفوحها كما فعلت الأمم الأخرى فقد اصطنع قدماؤنا المسلة التي أصبحت عنواناً على مصر في هذا العصر لتكون رمزاً للأفق وجعلوها مرتفعة لتستقبل أول ما يبزغ من أشعة الشمس وجعلت رؤوسها هرمية الشكل وطليت بصفائح مصقولة من الذهب والنحاس لتنعكس عنها ولها لون الأشعة في المشرق وتوهجها ، واتخذوا لها بيتاً في داخل المعبد اطلقوا عليه اسم «هات بن بن» اي بيت المسلات وجعلوه قبلتهم . أما ما كان منها في غير هذا البيت فأريد به الزلفى الى الاله. وقد تنافس الملوك خلال آلاف السنين في اقامتها وحرصوا على ان يسجلوا عليها ما قدموا من صالح الاعمال لمجد أبيهم الاله وعظمة الوطن. لكن لم يبق من ذلك الاَّ عدد يسير

***

وقد بلغت هليوبوليس شأواً عظيماً واصبحت من اعظم المدن في زمانها . وكان معبدها من أكبر المعابد في مصر وأغناها واكثرها حاشية حتى قيل أنه في زمن الأسرة العشرين بلغت الحاشية عدة آلاف . الاَّ انها بسبب موقعها في الشرق كانت في طريق الغزاة الذين جاؤا من آسيا الى منف العاصمة . فداسوها واحداً أثر آخر وأعملوا فيها يد الخراب حتى لم يبق من المدينة العظيمة ومعبدها حجر على حجر الاَّ المسلة اليتيمة القائمة في وسط الحقول في قرية المطرية. وهي ثانية اثنتين أقامهما اوزرتسن الاول من ملوك الاسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٤٣٣ ق . م . اما اختها فقد ظلت في مكانها الى القرن السابع ثم اندرست آثارها

[للبحث صلة]

لمحات حول نشرة دار الآثار العراقية عن

تاريخ قصر الاخيضر

لتوفيق الفكيكي
حاكم منفرد كربلاء

﴿ تأييد وتفنيد ﴾ لقد جالت اقلام الكتاب وتشعبت آراء الباحثين ممن شغفوا بالبحوث التاريخية بخصوص الوقوف على حقيقة تاريخ الاخيضر ذلك القصر الشامخ المنيف . وقد تتالت الهيئات الأثرية في ادوار مختلفة على زيارة هذا الأثر الخالد الدال على عظمة بانيه وواضع حجر اساسه فعادت دهشة وفي حيرة من امره واسراره المجهولة في مطاوي الزمن . وآخر ما ظهر في شأنه ما نشرته دار الآثار العربية عندنا في نشرتها المعنونة (بالاخيضر) . وقد اسدت بذلك خدمة جليلة يقدرها لها هواة التاريخ حق قدرها ويشكرها عليها كل عراقي حريص على احياء مآثر السلف الصالح وهي وان بذلت جهداً كبيراً لاستجلاء ما غمض من أمره وتبسطت في عرض آراء ومذاهب المؤرخين والمنقبين بقصد كشف النقاب عن حقيقته التاريخية، فانها لم تنج من الورطة ويا للاسف لانها أهملت أهم ناحية من نواحي التحقيق العلمي في أمثال هذه الموضوعات الهامة ألا وهي تمحيص الآراء والمذاهب التي أدلت بها بشأن تاريخ الاخيضر فقد اثبتها على علاتها وضعف اسانيدها وغاية ما تذرعت بهِ قولها في صحيفة (٣٣) :

« من الغريب ان تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط ، بالرغم من ضخامة بنائهِ ودقة تخطيطه واهمية موقعه . لانه لا يوجد في القصر او الحصن كتابة تدل على شيء من تاريخه كما لا يوجد من كتب التاريخ والجغرافيا القديمة اشارات صريحة تدل عليه» . واعتبرت دار الآثار ان اقدم الاشارات التي تدل على الاخيضر بصورة اكيدة ترجع الى القرن السابع عشر حيث شاهده بعض الرواد من الاوربيين ثم اسرفت دار الآثار في حكمها على تاريخ الاخيضر بقولها

« ان كل ما يعرف عن تاريخ الاخيضر لا يتعدى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات» ثم سرعان ما تهدم حكمها هذا وتتراجع عنهُ بصورة عجيبة بعد بسطها اجتهاد الباحثين والمحققين من المستشرقين وغيرهم وتتفق معهم فيما ذهبوا اليه وأجمعوا عليه من ان قصر الاخيضر هو من الآثار العربية الاسلامية بدون شك وريب كما يجده القارىء في صفحة

٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ من النشرة المطبوعة في مطبعة الحكومة في سنة ١٩٣٧ باهمال التاريخ الهجري مع انها بحثت عن أثر عربي اسمه بالخط الكوفي والناشرة له تسمى دار الآثار العربية في العراق

وأغرب من هذا هو استغراب دار الآثار ان قصر الاخيضر بالرغم من ضخامته ودقة تخطيطه الخ ..غير معلوم فكأن الضخامة ودقة التخطيط من لوازم معرفة تاريخ الآثار والمنشئين لها ومواقيت الانشاء

وجل ما اعتمدت عليه من المصادر في استنتاجاتها التاريخية هي اقوال من نقلت عنهم فقط. وسنأتي على تفنيد معظمها وأهمها . مع انها لو رجعت الى اسفار التاريخ العربي الاسلامي لوجدت ضالتها وسقطت على الخبير ولتخلصت من الشكوك ونجت من الورطة على قدر الامكان ولكانت نتائج مجهودها أقرب الى الصحة وأبعد عن الخطأ وحدود الظن

والآن نثبت الآراء التي استندت اليها الدائرة المشار اليها ثم نقيم الحجة على زيف بعضها وتصحيح البعض الآخر منها وهاهي ذي على الترتيب

التحقيق التاريخي

قال السيد شكري الالوسي ان كلمة (الاخيضر محرفة من اسم (الاكيدر) وهو اسم امير من أمراء كندة أسلم في صدر الاسلام. فالقصر يجب ان يكون قد شيد من قبل الامير المبحوث عنه قبل الاسلام

وقال (موزيل) ان كلمة الأخيضر من القاب شخص معروف في التاريخ وهو اسماعيل بن يوسف (الاخيضر) حاكم اليمامة على الكوفة من قبل القرامطة (في اوائل القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي) وقال ان الاخيضر يجب ان يكون (دار الهجرة) التي اسست من قبل الحاكم المشار اليه

وقد لاحظ (ماسينيون) عند زيارته الاخيضر ان ريازته تشابه الريازة الساسانية فاعتقد لذلك انهُ يجب ان يكون قد شيد من قبل معمار ايراني قبل العهد الاسلامي في العراق ، لاجل احد ملوك الحيرة من اللخميين . وقال ربما كان (قصر السدير) الذي تغنَّى بهِ الشعراء هو الاخيضر نفسه .وقد أيد (ديولافوا) رأي ماسينيون من حيث الاساس واعتبر الاخيضر من المباني المشيدة قبل الاسلام في أواخر القرن السادس للميلاد. وقد قررت (المس جرترود بل) المستشرقة عند زيارتها الاخيضر سنة ١٩٠٩ انهُ من المباني الاسلامية لانها اكتشفت المسجد ولاحظت المحراب ورجحت ان يكون دومة الحيرة التي شيدت في عهد الامويين. اما موزيل واسكار روتير، وكرسويل فقد أيدوا رأي (المس بل) من حيث الاساس فاعتبروا الاخيضر من المباني الاسلامية . غير انهم اختلفوا في امر تثبيت تاريخ البناء بين اواخر القرن الاول واوائل القرن الرابع للهجرة

ولكن (كرسويل) لم يوافق على رأي (المس بل)في اعتبار الاخيضر من عهد الامويين بل قرر انهُ من عهد العباسيين ورجح ان يكون قد شيد في عهد عيسى بن موسى ابن اخي السفاح

والمنصور وابن عم المهدي وولي عهد المنصور وكان والياً على الكوفة . واما هوسفيلد فقال — يجب ان يكون من مباني اوائل القرن الثالث للهجرة لانهُ وجد شبهاً بين ريازة الاخيضر وريازة سامراء . هذا كل ما جاء في النشرة من الاستدلال على تاريخ الاخيضر وان القائم بطبعها اكتفى بسرد هذه المطالعات على عواهنها قائلاً في صفحة ٤٢ منها (ان العلماء اصبحوا مجمعين تقريباً على القول بان الاخيضر من مباني العهد العربي الاسلامي وان اختلفوا في تقرير العصر الذي تم فيه تشييده)

ان البحث العلمي يقضي على الناشر تمحيص وتفنيد تلك المطالعات والملاحظات على ضوء التاريخ العربي الاسلامي وتثبيت النتيجة الصحيحة التي يدعمها البرهان التاريخي مهما امكن وذلك لئلاَّ يقع طلاب الابحاث التاريخية والذين يهمهم معرفة آثار الماضين في حمأة الخطل

على أننا لا ننكر أهمية النقاط المفيدة القيمة المثبتة في صفحة ٤٤و٤٥ من النشرة حول الريازة العربية الاسلامية واستنباط الحكم منها على عروبة الاخيضر

نقول : ان القول ما قاله المرحوم العلامة السيد شكري الآلوسي الاَّ في جهة واحدة وهي تعيين العصر الذي شيد فيه الاخيضر لانهُ قطع بأن التشييد كان قبل الاسلام مع ان الحقيقة التاريخية كانت خلاف ذلك كما سيطلع القارىء عليها مفصلاً حيث ذكر صاحب معجم البلدان في الجزء الرابع وفي الصفحة ١٠٧و١٠٨ ما يأتي

(وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في كتابه الفتوح وأنا حاكٍ جميع ماقاله على الوجه قال: بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد (رض) سنة تسع الى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل [1] فأخذه أسيراً وقتل أخاه وقدم بأكيدر على النبي (ص) وعليه قباء ديباج بالذهب فأسلم أكيدر وصالح النبي (ص) على أرضه وكتب لهُ ولأهل دومة كتاباً وهو: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب الى الاسلام وخلع الانداد والاصنام ولأهل دومة ان لنا الضاحية [2] من الضحل [3] والبور والمعامي [4] واغفال [5] الارض والحلقة [6] والسلاح والحافر والحصن [7] ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر النبات تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم بهِ الصدق والوفاء تشهد الله ومن حضر من المسلمين. ثم عاد أكيدر الى دومة فلما مات رسول الله (ص) منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء وسماه دومة واسلم حريث بن عبد الملك أخوه على مافي يده فسلم له ذلك وعلى ذلك قال سويد بن الكاي

(١) تقع في وادي القرى بين الشام والمدينة (٢) الضاحي البارز (٣) الماء القليل (٤) المعامي الارض المجهولة (٥) التي لا آثار فيها (٦) الدروع (٧) هو دومة الجندل المشار اليها

فلا يأمنْ قوم زوال جدودهم كما زال عن خبتٍ ظعائن أكدرا

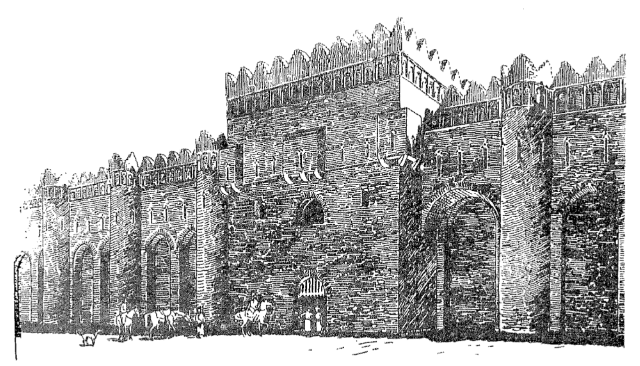
ثم قال صاحب المعجم : وقد روى ان أكيدر كان منزله أولاً بدومة الحيرة وهي كانت منازله وكانوا يزورون أخوالهم من كلب وأنهُ لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الاّ حيطانها وهي مبنية بالجندل فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة وكان أكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة وهذا يزيل الاختلاف . ثم زاد صاحب المعجم قائلاً . وقد ذهب بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل وبذلك يقول الأعور الشني

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبد الله مختلفان
وليس بهادي امة من ضلالة بدومة شيخا فتنة عميان

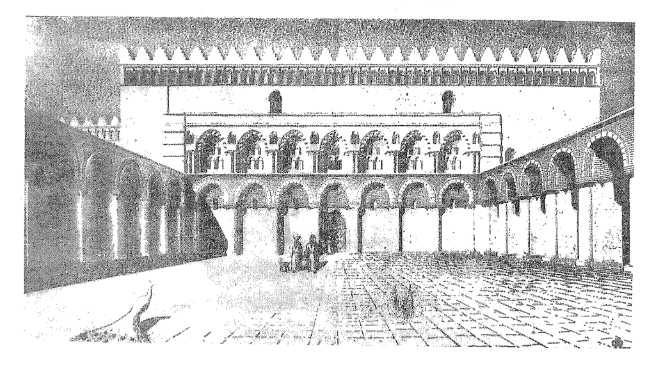
هذا ما اثبته ياقوت في معجمه حول دومة الجندل اي الاخيضر وقد ايد ذلك شيخ المؤرخين الطبري في الجزء الرابع والصفحة ٢٢ من تاريخه في خبر فتح دومة الجندل من قبل خالد بن الوليد. ومما قاله: ولما بلغ اهل دومة مسير خالد اليهم بعد فتح عين التمر بعثوا الى احزابهم من كلب وغسان وتنوخ والضجاعم وهم على رئيسين اكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة وقد خالف اكيدر جماعته واعتزل الحرب مع خالد ولكن لم ينج منهُ وقد امر بهِ فضربت عنقهُ ثم جعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض. وكان النصارى الذي امدوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة وبالاخير تغلب عليهم المسلمون وتحصن اهل دومة في الحصن فلم يحصنهم حتى قتلهم خالد وسد بهم باب الحصن واقام خالد بدومة ثم رجع الى الحيرة وكان منها قريباً حيث يصبحها

ونظراً لما تقدم علم ان تاريخ دومة الجندل او قصر الاخيضر كان بعد الاسلام وبعد ارتداد اكيدر وعدم دفعهِ الصدقة اي الزكاة ومجيئه الى الحيرة في عهد ابي بكر الصديق . وبهذه الرواية التاريخية الموثقة بقول ثقاة المؤرخين يبطل قول المرحوم الألوسي في ان قصر الاخيضر شيده (الاكيدر) قبل الاسلام . وكذلك رأيُ المستشرق (ماسينيون) الذي بسطناه آنفاً والمتضمن ان هذا القصر قد شيد من قبل معمار ايراني قبل العهد الاسلامي في العراق لاجل احد ملوك الحيرة من اللخميين اصبح مفنداً ولا قيمة له ازاء هذه الحقيقة الناصعة

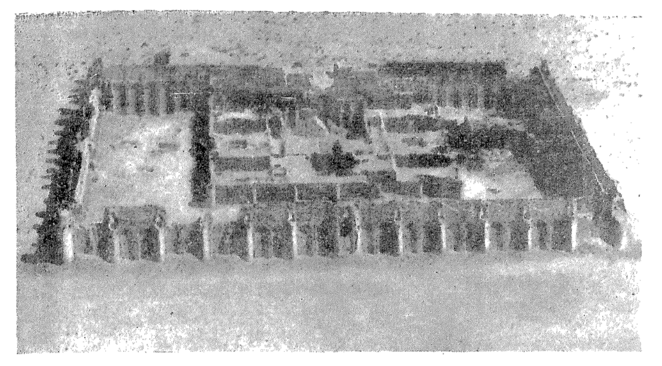
اما قول ماسينيون (او ربما كان قصر السدير الذي تغنى بهِ الشعراء هو الاخيضر نفسه) فلا صحة لهُ ايضاً حيث ان قصر السدير هو الخورنق ومحل هذا القصر قرب ابي صخير اليوم ولم تزل اطلاله عبرة المعتبرين ويوجد ايضاً قصر (السديري) في منطقة الحياد بين العراق ونجد يعود الى عبد العزيز السديري احد عمال الحكومة السعودية والقصر الآن خربٌ. واما السدير الذي تغنى به الشعراء فلم يكن قصراً بل احد انهار الكوفة ومثله بارق وهو الذي عناه المتنبي بقوله



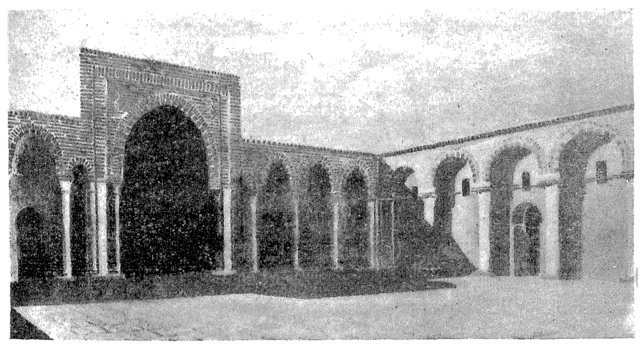
منظر تصوري لجبهة الحصن الخارجية (عن أسكار رويتر)



رحبة قصر الاخيضر (منظر تصوري للقسم الشمالي)



منظر جوّي للقصر والحصن مأخوذ من الجنوب



رحبة قصر الاخيضر (منظر تصوري للقسم الجنوبي)

[نقلت جميع هذه الصور عن نشرة دار الآثار العربية بالعراق]

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

وبهذا دحضنا قول كل من المستشرق (ديولافوا) مؤيد (ماسنيون) والمستشرقة (المس بل) فيما يتعلق بقولها : في ان الاخيضر هو دومة الحيرة المؤسسة في العهد الاموي في حيرة المناذرة. وعلى هذا سقط ايضاً ما فكر به المستشرق الشهير هرسفيلد الالماني من ان قصر الاخيضر من جملة اعمال الحكومة العباسية التي قامت بها في القرن الثالث والرابع من الهجرة لوجود الشبه بين ريازة بناء قصور سامراء والاخيضر . وبالوقت نفسه دفعنا شبهة المستشرق (كره سويل) التي دفعته الى القول بان الاخيضر قد شيد في عهد عيسى بن موسى بن اخي السفاح والمنصور الذي كان واليا على الكوفة مع ان عيسى بن موسى لم يكن ابن اخي السفاح وانما هو عيسى بن موسى الذي حكم الكوفة وطرد عمالها في عهد الخليفة المعتمد على الله وهو ابن أخت عبدان صاحب دعوة القرامطة بسواد الكوفة وهو الذي رأس طائفة القرامطة التي نجم قرنها في بلد عين التمر (شفاثه) بلد ابي العتاهية الشاعر الزاهد المشهور والقائل

لهفي على الزمن القصير بين الخورنق والسدير

أما المستشرق موزيل فقد أخطأ خطأً كبيراً في ما قام به من التحقيق عن تاريخ الاخيضر وكدنا ان نقع في ما وقع فيه الاستاذ موزيل وكادت رواية المؤرخ العربي المسعودي تجعلنا في ضلال مبين كما أضلت موزيل من قبلنا ورواية المسعودي كما رواها في كتابه (التنبيه والأشراف) صفحة ٣٣٠ و ٣٣١ هي : —

ان القرمطي سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي صاحب البحرين قد سار سنة ٣١٣ الى الكوفة وبعد ان عمل بها ما عمل بالبصرة من سفك الدماء والتخريب قفل الى الاحساء بالذرية والثقلة وسلم البلد الى اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر صاحب اليمامة بن ابراهيم بن موسى ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الخ

ثم ان المسعودي أيد في صفحة ٤٣٠ و ٥١٣ من كتابه مروج الذهب قيام « عقبة » المعروف ببني الاخيضر مقام محمد بن يوسف في اليمامة والبحرين بعد هروب محمد بن يوسف أخي إسماعيل بن يوسف المار الذكر من مكة المكرمة من وجه ابن الساج الأشروسي الذي بعثه الخليفة المعتز لأجل خلاص مكة من شره وشر أخيه اسماعيل الذي توفي قبله

وقد عزز هذه الرواية الاخيرة أيضاً الكامل لابن الأثير في صفحة ٥٣ من الجزء السابع وكذلك تاريخ الطبري من قبله في صفحة ١٣٦ و ١٥٢ من الجزء الحادي عشر الا أنهما لم يؤيدا المسعودي في ما ذكره عن تسليم بلد الكوفة الى اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر ولم يتفقا معه في تسميته (بالاخيضر) بل لقباه (بالطالبي) فقط . وبنتيجة استقصاء البحث ظهر

ان الحق كان بجانب الطبري وابن الأثير بتأييد المسعودي نفسه فقد ذكر في كتابيهِ (مروج الذهب) و (التنبيه والاشراف) ان وفاة اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر كانت في سنة ٢٥٢ هـ في حين ذكر ان في سنة ٣١٣ هـ سلَّم أبو طاهر سليمان القرمطي بلد الكوفة الى المومأ اليهِ . مع ان اسماعيل بن يوسف توفي في مكة المكرمة بعد أن فعل فيها الافاعيل المنكرة وخلفه بعده اخوه محمد بن يوسف والذي هرب من وجه ابن الساج الاشروسي قائد الخليفة المعتز . فأي الروايتين أصح يا ترى . واعتماداً على هذه الرواية قطع المستشرق «موزيل» في ان كلمة الاخيضر اسم شخص معروف في التاريخ . وهو اسماعيل بن يوسف المعروف بالاخيضر حاكم اليمامة على الكوفة من قبل القرامطة (في اوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) فقال ان الاخيضر يجب ان يكون دار الهجرة التي اسست من قبل الحاكم المشار اليهِ

وقد مرَّ بالقارىء الكريم كيف أثبت التاريخ فساد هذا الرأي وبطلانه وهناك برهان آخر على سقمهِ وهو ان دار الهجرة التي أسسها القرامطة ، لم تكن هي الاخيضر ولا في الكوفة او الحيرة وانما كانت في واسط على نهر « الموفقيّ » وذلك كما جاء في الجزء الثامن صفحة ٥٨ من كامل ابن الاثير . حيث ذكر ان من حوادث سنة ٣١٦ هـ . بناء دار الهجرة من قبل أحد زعماء القرامطة يدعى حريث بن مسعود وكان يتقلد الحرب في واسط والتحق بهِ أكثر من عشرة آلاف من سواد الكوفة من الذين كانوا يخفون اعتقادهم مع طائفة أخرى تسكن عين التمر كانت تحت أمرة عيس بن موس الذي استولى على الكوفة وهزم عمالها في عهد الخليفة المقتدر بالله وهو ابن أخت عبدان صاحب دعوة القرامطة بسواد الكوفة وكان بناء دار الهجرة في (الموفقيّ) — بالضم ثم الفتح — منسوب الى الموفق ابن أحمد الناصر لدين الله بن المتوكل على الله وأخي المعتمد على الله ووالد المعتضد بالله وكان قد ولي عهد أخيه. والموفقي نهر كبير حفره الموفق وفي أعلاه (قصر بزوفر) وفي أسفله قصبة خسرو سابور قرب واسط وخسرو فيروز . كما جاء في معجم ياقوت صفحة ١٩٨ من المجلد الثامن

فأين هذا مما ذهب اليهِ المستشرق الاستاذ « موزيل »

هذا ولا يعزب عن بال الالباء ان حركات القرامطة في العراق وسورية والحجاز ومصر كانت عبارة عن اعمال عصابات وقطَّاع طريق لم يتسع لهم الوقت او تستقر لهم حالة ليقوموا بعمل جبار مثل تشييد (دومة الجندل) او الاخيضر تلك المباني والآثار الخالدة . خاصة وقد استؤصلت مادتهم وذبحوا عن بكرة ابيهم في العراق بعد سنة ٣١٧ هـ كما يخبرنا التاريخ . ومما يؤيد ايضاً زيف رأي موزيل ومن يذهب مذهبه ما نقله صاحب المعجم عن بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل وبذلك يقول الأعور الشنيّ

رضينا بحكم الله في كل موطن وعمرو وعبد الله مختلفان
وليس بهادي امة من ضلالة بدومة شيخا فتنة عميان

اما المسجد والمحراب فقد احدثا بعد فتح دومة الجندل اي الاخيضر من قبل خالد بن الوليد وقيام عويم بن الكاهل الاسلمي والياً على عين التمر وعليها بعد مسير خالد الى الحيرة والدليل ان المحراب لا يتناسب وضخامة القصر وحصنه . اما ماجاء في آخر صحفة (٣٦) من نشرة دار الآثار وهو (فليس من المعقول والحالة هذه الاقدام على استدلال تاريخ الاخيضر من اسمه فغير وجيه لان الآثار قد تسمى باسماء مشيديها كاسمي قصر الجعفري نسبة الى جعفر المتوكل على الله و (الماحوزة) التي شيد فيها الجعفري وغيره من قصور المتوكل (بالمتوكلية) او (الجعفرية) وكما يطلق البغداديون اليوم على جامع مرجان كلمة (مرجان) فقط وعلى قضاء الهاشمية التابعة الى لواء الحلة (الهاشمية) نسبة الى الهاشمي عبد الله السفاح و (اشناس) اى قصر اشناس قائد المعتصم المشهور وهكذا (المستنصرية) الى المستنصر بالله (والنظامية) الى النظام . واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر

على اننا نوافق دار الآثار على ما اوردته من الملاحظات الاخرى في اعلى الصفحة المذكورة وبسطنا بعضها في ما تقدم من البحث ولكننا لا نتفق معها في اتخاذها العقل حجة لاستدلالها على نفي نسبة (الاخيضر) المحرفة عن (الاكيدر) الى الملك اكيدر بن عبد الملك بن عبد الحى بن اعيا ابن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن ابامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن اشمرس بن ثور ابن عفير وهو كندة السكوني السكندي كما قدمنا وان كان اعتمادها على حجة العقل تؤيد ما ذهبنا اليه لأن العقل يصدق هذه النسبة ويبررها مع ان العقل لا يركن اليه في دراسة الآثار . لهذا كان على دار الآثار ان تصل الى معرفة (دومة الجندل) ومشيدها (اكيدر) من طريق البحث التاريخي وألاَّ تكتفي بتسجيل استغرابها في صفحة (٣٣) بقولها (من الغريب ان تاريخ هذا القصر والحصن غير معلوم بالضبط الخ) ثم تعلل ذلك بحجة انهُ لا يوجد في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة اشارات صريحة تدل عليه واخيراً تردف قولها هذا بالجملة الآتية :

(ولهذا نستطيع ان نقول ان كل ما يعرف عن تاريخ الاخيضر لا يتعدى في الحالة الحاضرة حدود التخمينات والفرضيات » ولكن نقول لمن نشر نشرة (الاخيضر) لو اجهدت نفسك قليلاً في البحث والاستقصاء في الكتب الصفراء كما ينعتها المجددون لوجدت ضالتك في كتب التاريخ والجغرافيا القديمة كما نوهنا عنها آنفاً ولعلمت ان قصر الاخيضر هو (دومة الجندل) وان مشيده هو (اكيدر) وإن عصر تشييده هو العصر الاول من تاريخ الاسلام وفي عهد الخليفة الاول من الخلفاء الراشدين وليس هناك اية شبهة او تضليل . بيد ان الضلال هو تقليدنا واتباعنا كل ما يقول المستشرقون كوحي منزل بلا تمحيص وروية وآسفاه

لمحمد عبد الغني حسن

أرض شكسبير

زار الشاعر قرية استرادفورد اون آفون بانجلترا . وهي المهد الاول لاحلام شكسبير. وأرض طفولته . فقال هذه الابيات

خفق القلبُ خفقةً في حماكِ   وتلقّى الخيالَ من دنياكِ
قسماً بالذي براكِ من الشعْـــر وبثَّ الجمال فوق ثراكِ
ما عرفت الجمال في غير ناديـــك ولا ذقتهُ بغير رباكِ

* * *

ها هنا شاعرٌ أقام وغنَّى   صبٌّ في مزهر الطبيعة لحنا
كلما شدَّ عُودَهُ وتغنّى   ملأ الكون والعوالم فنّا
وصف النفس وهو أفصح لفظاً   والأحاسيس وهو أصدق معنى

* * *

بقعة أنتِ من بقاع الجمالِ   مسرح الشعر و الهوى والخيالِ
رقَّ فيك الاصيل تحت الروابي   والمساء الحزينُ خلفَ التلالِ
والحشيشُ الذي حواليك يهـــتز اذا داعبتْهُ ريح الشمالِ

* * *

وجرى الماء كاللجين الجاري   عاكساً ظلَّ هذه الاشجارِ
وسمعنا السنين تنغم فيهِ   هازئاتٍ بنغمة الاوتارِ
وسكرنا هنا بغير شرابٍ   وانتشينا هنا بغير عقارِ !

* * *

ثم قالوا : هنا تنفَّس شاعرْ   وهنا رفَّ في الخمائل طائرْ
وهنا فاض خاطر عبقريٌّ   لم يفض قبله من الشعر خاطرْ
وهنا في ظلال تلك الروابي   سحرتني من الجمال مناظرْ



ترقيع العيون البشرية
والكهربائية في العين

لعوض جندي

« ليست العين عرضة للادواءِ التي تعتري اجزاءها الباطنية المختلفة فحسب ، بل قد تتأثر من أمراض غيرها من أعضاءِ الجسم ، فتظهر اعراض تلك الاسقام جلية في العيون . ونعني بها الامراض التسممية ، والتسمم ببعض العقاقير ، وكذلك الاصابة ببعض امراض الدم وغيرها من الامراض العامة كالبول الزلالي والبول السكري وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم ، اذ تتبيَّن أعراض تلك العلل جميعها لنقريس العين[1] وذلك حينما يلجأ اليهِ المريض مستشفياً عينيه . ويشفى كل سنة في انكلترا وغيرها من البلدان المتحضرة ألوف من العميان اذ يستعيدون حاسة البصر عقب العمليات الجراحية البديعة التي يعملها لهم الجراحون الرمديون . وغدت ازالة السحابة «الكتراكتا» —أو اظلام عدسة العين— على أيدي مهرة الجراحين ، من اعظم ضروب الظفر التي احرزتها الجراحة الحديثة وقد استطاع أحدهم من عهد قريب نزع قرنية[2] امرىءٍ وترقيع عين آخر بها . وأضحى من الميسور اجتناب كثير من حوادث العمى وذلك باتخاذ الحيطة الواجبة منذ الطفولة »

هذا بعض ما روته مجلة طبيب العائلة الانكليزية منذ بضع سنين وعقبت عليهِ بقولها ايضاً : —

أصيبت بالعمى من سنوات الآنسة «دافني ده موريه الروائية الانكليزية المشهورة وذلك عقب حادثة استهدفت فيها قرنيتا عينيها للضرر ، فقام احد اطباء العيون بترقيع عينيها بقرنيتين جديدتين فاستعادت بصرها» . وجاء في الانباء البرقية من لندن في ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ما يأتي : —

عملت في اوائل الشهر الماضي عمليتان مدهشتان في مستشفى لندن الرمدي المركزي ، وهما تطعيم قرنية العين . وقد أسفرتا عن نجاح باهر . وكان أحد اللذين أجريت لهما هذه العملية كفيفاً منذ ولادته والآخر منذ ٢٨ سنة . ويؤمل ان يعاد اليهما بصرهما قريباً . ففي حالة الذي ولد أعمى منهما ، لا بدَّ ان يمضي بعض الوقت حتى يتسنى تدريبه على أن يحل حاسة النظر محل

---

(١) النقريس الطبيب الماهر المدقق (٢) القرنية — السواد الذي في وسط البياض

حاسة الادراك باللمس ، غير انهُ صار الآن قادراً أن يعدَّ أصابعهُ ويميز بين الالوان

قرأنا هذه الانباء ثم نشرت صحفنا المحلية من عهد قريب حوادث تضارعها غرابة فتذكرنا ما كتبناه في هذا الموضوع الخطير من ربع قرن وذلك في مجلة المحيط التي صدرت في شهر مارس سنة ١٩١٣ لصاحبها المرحوم الاستاذ عوض واصف فآثرنا اقتباسه لقرائنا تمهيداً لهذا البحث الطبي الجراحي المستفيض : —

من معجزات العمليات الجراحية الحديثة غير ما سبق أن ذكرناه في الاجزاء الماضية من المحيط — عملية تطعيم العيون اي ترقيعها — فقد قرأنا في احدى المجلات العلمية الانكليزية أن بعض الجراحين أمكنهُ صيانة بصر مريض كان مصاباً بعلةٍ في احدى عينيه وذلك باستئصال الجزء المصاب واستبداله بجزءٍ سليم من عين انسان آخر

وأول ما يخطر على بال القارىء عند قراءة هذا النبأ أن العملية المشار اليها تقتضي تضحية عين من عيون الاصحاء والحقيقة نقيض ذلك لانهُ لو كان اتلاف السليم ضرورياً لنجاح هذه العملية ، لاصبحت عقيمة . والواقع انه من الميسور استعمال عيون ، مما تنزع من الناس لاسباب مختلفة ، بشرط ان يكون الجزء الخاص المطلوب لأجل اجراء الترقيع خالياً من المرض . وهذا العمل لا يستوجب التضحية بعيون الأصحاء . والدليل على ذلك انه قد اجريت حديثاً عملية على أيدي جراح فرنسي لشابٍّ كان فاقداً تقريباً حاسة البصر من احدى عينيهِ من احتراقها بحبر سخن ، ونشأ عن ذلك الاحتراق كون قرنية عين الشاب « وهي الجزء الشفاف من غطاء المقلة الذي يعلو القزحية والبؤبؤ » أصيب اصابة بليغة كوَّنت غشاءً منع الضوء منعاً كليًّا من الوصول الى شبكية العين. ولذلك ثقب الجراح هذا الغشاء وادخل في الثقب قطعة من قرنية أُخذت من عين مريض آخر كان مصاباً بداء الغلوكوما [1]. وبعد مضي ثمانية ايام التحمت الأغشية وتمت عملية الترقيع ، وبعد مضي شهر واحد رُفعت العصائب عن العين المرقعة وتمكن المصاب من الابصار قليلاً ، وفي خلال سبعة أشهر تحسن بصره تدريجاً حتى صار معادلاً لعشر قوة العين الطبيعية أي انها غدت منطبقاً عليها المثل السائر — نصف العمى ولا العمى كله

وهذه العملية غريبة في حد ذاتها لأن قرنية العين من الأغشية الرقيقة التي تفقد شفوفها بعيد موت الأنسان غير انه يمكن حفظها شفافة باستخراجها توًّا ووضعها في محاليل معينة تكون درجة حرارتها معادلة للحرارة البشرية فيتيسر حفظها « حية » عدة ايام كما يتضح من الحادثة الآتية وهي التي روتها جريدة «فرنسيسكوكول» التي تصدر بمدينة سان فرنسيسكو بالولايات المتحدة الأميركية وتعدُّ من اغرب ماحدث في تاريخ الطب وهي : —

---

(١) الماء الازرق Glaucoma

« ان رجلاً كفيفاً من أهالي دنفر بالولايات المتحدة اسمهُ آبرام طلب الى ولاة الأمور هناك أن يمنحوه عينيّ قاتل سجين في تلك المدينة رهين الحكم عليه باعدام حياته وقد ألحق الأعمى عريضته التي اشرنا اليها بتقرير من أحد اطباء المدينة عينها قال فيه الطبيب إنه فحص عيني آبرام وإنهُ يرى اجراء العملية المطلوبة وأن نجاحها ممكن »

وعقبت الجريدة المذكورة آنفاً على ذلك النبأ بقولها « واذا اجابت الحكومة طلب آبرام حضر الطبيب المذكور مصحوباً بالجراحين اللازمين ، عند اعدام حياة المجرم ليتمكنوا من اخراج عينيه عقب موته في الحال ، قبل نقل الجثة من غرفة الأعدام . وبعد اخراج العينين يضعونهما في محلول ملحي ثم يهرعون من فورهم الى المستشفى القريب من السجن حيث يرقعون قرنيَّتي الكفيف فيبصر. فان تحققت هذه الآمال ، كان هذا العمل خطوة في سبيل ارتقاء الطب والجراحة ومقللاً للعاهات البصرية » . تمَّ ما نشرتهُ في مجلة المحيط

ثم جاء في جريدة الأهرام المؤرخة في ١١ سبتمبر سنة ١٩٣٨ ما يأتي : —

الأحياء يبصرون بعيون الموتى — مدير مستشفى الرمد بروض الفرج يحدثنا عن دقائق عملية استبدال القرنية المعتمة بقرنية شفافة. اجراء العملية في مصر في اثناء اجتماع المؤتمر الدولي للرمد

نشرنا منذ أيام رسالة لمراسل الاهرام في نيويورك تحدث فيها على العملية العجيبة التي أجريت لقسيس ولفتى من طلاَّب فن الموسيقى فارتدَّ اليهما بصرهما وانفتحت عيناهما — وذلك في الاسبوع الماضي — على عالم لم ينظراه منذ أعوام كثيرة وهذه العملية هي استبدال القرنية المعتمة بقرنية شفافة ترد الأعمى بصيراً . ولما كان المعروف عن مصر انها « بلاد العميان » لكثرة العمي . وأمراض العيون فيها ، فقد رأينا ان نحاول الوقوف على أصل هذه العملية وتفاصيلها ومقدار علم الطب الرمدي في مصر بها . ولهذا قصد مندوب الاهرام الى مستشفى الرمد بروض الفرج بصفة كونه أكبر مستشفى للرمد في مصر وطلب الى حضرة الدكتور محمد بكري مديره ، الادلاء ببعض البيانات على هذه العملية فتفضل حضرته بالمعلومات القيمة التالية ، قال : —

﴿ تاريخ العملية ﴾ ترجع فكرة مكافحة العمى باستبدال القرنية المعتمة بأخرى شفافة الى سنة ١٨٨٨ إذ بدأ بعض العلماء في التفكير فيها .ومنذ عشرين سنة تقريباً اتخذت المسألة — راجع ما قلناه في مقالنا الذي نشرناه منذ خمس وعشرين سنة في مجلة المحيط وأعدنا نشره في صدر هذا البحث — شكلاً جديًّا وبحجت بعض العمليات . وفي مقدمة الأطباء الذين توفروا على دراسة هذه العملية ثلاثة وهم : تودور تومس » وهو انكليزي و « الشنج » وهو الماني و « كاسترو نيشو » وهو أميركي وهو من الأطباء المعاصرين الذين نجحوا في تجاربهم ولا يزالون يوالون الدرس والبحث للتقدم في هذه العملية

﴿ الصعوبات التي تعترض العملية ﴾ والعملية مع خطورتها ودقتها ليست صعبة ولكن الصعوبة الجدية هي في إيجاد الحالات التي تستوفي شروط العملية إذ هي نادرة جداً إذ يشترط ان تكون عتامة القرنية تامة وغير لاصقة بالقزحية . وهذا نادر جداً وعلى الاخص في مصر لأن الأغلبية العظمى في العتامات التي تصيب العين عندنا تكون نتيجة قُرح لا تكاد تحتل نصف القرنية حتى تكون قد دمَّرت طبقاتها وأحدثت ثقباً فالتصاقاً بالقزحية . ولا تزال التجارب مستمرة للتغلب على عقبة الالتصاق حتى يتمكن أكبر عدد ممكن من ضحايا السحابات التامة ، من الأنتفاع بهذه العملية التي تردُّ اليهم البصر بعد فقده . اما السحابات غير التامة وهي المركزية فيمكن أن يبصر المريض بها بعملية « النني الصناعي » وهي عملية معروفة وسهلة ويقوم بها كثير من الأطباء — وهذه العملية (ترقيع القرنية) معروفة تماماً لكثير من الاطباء الرمديين في مصر. وتوجد في مصر أحدث الآلات المستعملة لها ، وهي في مستشفى الرمد بروض الفرج . بل ان هذه العملية قد اجريت في مصر في اثناء انعقاد مؤتمر الرمد الدولي الحديث ، اذ قام بها استاذ بلغاري في مستشفى قلاوون أمام بعض اعضاء المؤتمر يوم زيارتهم للمستشفى . وكان الطبيب يحمل الآلات اللازمة للعملية ، وكانت المريضة سيدة . وكان بصرها بعد العملية وعقب خروجها من المستشفى جزئيًّا . وكان المفروض أن تتردد على المستشفى لملاحظة (التطور) في نظرها، ولكنها انقطعت فجأة . وحاولت ادارة المستشفى البحث عنها فلم تعثر عليها حتى الآن . وهناك تجارب جديدة تجري الآن في بعض الحيوانات ونحن نترقب العثور على مريض تتوافر فيه الشروط المطلوبة لاجراء هذه العملية له ونحواها : — استبدال قرص مربع من العتامة بقرص مربع شفاف من قرنية شفافة من ميت ، على أن يجري هذا الاستبدال بعد فترة قصيرة من الوفاة . اي حوالي نصف ساعة . وقد كانت العملية في بدء أمرها تجري بالاستبدال من حيوان الى انسان ثم تطورت من انسان الى انسان آخر ثم من ميت حديثاً الى الحي — تم ماروتهُ الأهرام وسنزيد هذا البحث وضوحاً في فرصة أخرى

***

﴿ الكهربائية البشرية في العين وسائر أعضاء العيون ﴾ كهربائية العين — « وهي مصدر قول الشعراء سحر العيون » — جاء في صددها في أحدث الانباء من اميركا ما يأتي : —

يعتقد ولتر مَيلز Walter R. Miles الأستاذ في جامعة Yale يايل أن العين البشرية بطارية كهربائية مقدَّمها مشحون بكهربائية ايجابية ، ومؤخرها ، حيث توجد الشبكية، مشحون بكهربائية سلبية . وأن الفرق بين طاقتي تينك الكهربائيتين ، يمكن اكتشافه وقياسه بلصق قطع رقيقة من الاوراق المعدنية على الجلد العلوي والسفلي للعين ثم وصل الأسلاك الكهربائية

بفولتمتر voltmeter اي مقياس الـكهربائية الفلطائية وذلك بعد تقوية التيار في دائرة كهربائية في باطن صمام مفرغ من الهواء

ومتى تتحرك العين ، تجيء المجالات المشحونة بالشحنات الـكهربائية المختلفة ، تحت القطبين الـكهربائيين اللذين يوصلان بالعين فتتجلى ذبذبات التيار الـكهربائي بنفسها على ميناء المقياس

ومقدار الضوء الذي يسقط على العين ، عند قياس كهربائيتها ، يحدث فرقاً طفيفاً في النتيجة. وقد تختلف العين الواحدة عن اختها اختلافاً بيناً كاختلاف الورى بعضهم عن بعض. أما العاهات البصرية الصغرى فتحدث اختلافاً ضعيفاً

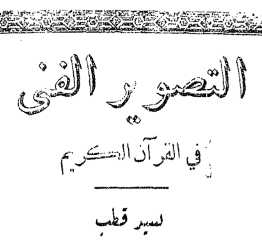
أما كون الحدقة نفسها ، لا العضلة المحدقة بها، هي مصدر التيار الـكهربائي ، فقد ثبت ثبوتاً قاطعاً وذلك عند اعادة التجارب في الأشخاص العور . فاذا ما زالت الحدقة ، لا يتولد التيار الـكهربائي ، بغض النظر عن محجر العين ، سواء أشاغراً كان أم مشغولاً بعين زجاجية

والدماغ مصدر لتلك القوة الـكهربائية ، وفروعهُ التي تعدُّ بالالوف المؤلفة ، أي الاعصاب الدقيقة ، وهي بمنزلة اسلاك كهربائية معزولة ، تحمل التيارات من الدماغ الى اعضاءِ الجسد قاطبة « بيد ان تلك الاسلاك الدقيقة يختلف فعل بعضها عن بعض ، فمنها طائفة تسمى الاعصاب المحركة لانها تنقل النبضات الي العضلات ، وزمرة اخرى تنقل الاحساس بالألم من الجلد الى الدماغ وفي الجسم جماعة من الاعصاب تنقل نبضات الضوءِ ، واخرى تنقل النبضات التي تتولد من تموجات الهواءِ حول الاذان وهي ما يترجمهُ المخ ، بالصوت . ومن الاعصاب فرقة تنقل النبضات من اللسان ، ويسمى ذلك الفعل بالذوق . بل ان خلايا الاعصاب تحمل تيارات كهربائية . وقد تبين حديثاً ان كل خلية حية ، بطارية تخزن . وأن في وسع العلماءِ إحصاء طاقات هاتيك الخلايا وذلك بمقاييس «عدادات» كما تقدم القول اذن يثبت لنا ان للـكهربائية شأناً جليلاً في التقلبات الـكيميائية التي تطرأ على النسج الجسمية

ولـكهربائية الحياة مظهر آخر يتبين في ضرب من السمك ولاسيما في الرعَّاد البرازيلي وفي طوائف سمك القرموط والشلبة والبياض الافريقية التي تصيد فريساتها بصقعها برعداتها الكهربائية

وفي تلك الانواع الواح عظمية كهربائية تَسكُنُ شحنات ذات قوة تمغنط الابر وتحلل المركبات الـكيميائية وتقذف الشرر — ومبعث تلك الظواهر جميعها محرك عصبي يمتد من مخ السمكة الى سائر بدنها . وقد تـكفي طاقة التيار الـكهربائي الذي يصدر من الورنك الذي يتفاوت طوله من قدمين الى ثلاث اقدام ، لوهن عزيمة رجل صنديد

وقد فصلنا ذلك كله في مقالنا على «العلم واحياء الموتى» في مقتطف ابريل سنة ١٩٣٥ وفي مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ وفي مقال «الـكهربائية البشرية» في ديسمبر سنة ١٩٣٦



منذ نيف وثلاثة عشر قرناً، تمَّ القرآن، واصبح المرجع الأول للمسلمين في امور دينهم ودنياهم. وفي خلال هذه الفترة الطويلة درس القرآن دراسة لا بأس بها من نواحي التشريع ، واللغة ، والتاريخ . ولكنهُ لم يدرس من الناحية الفنية دراسة حقيقية

نعم تناوله بعض الباحثين في البلاغة، وفي اولهم عبد القاهر والزمخشري، الأول في «اعجاز القرآن» والثاني في تفسيره «الكشاف» . ولكن الدراسة الفنية الكاملة، التي تتناول هذا الكتاب الكريم كسجل لأبلغ أسلوب عربي ، وتكشف عما حوى من الجمال التصويري ، وتشرح خصائصه الفنية، ولوازم أسلوبه ، وحيوية تعبيره ، وروحانية اتجاهه ، هذه الدراسة الواجبة ، لم توجد حتى اليوم ، ومن الواجب ان توجد في القريب. والذي يلوح غريباً في هذا ، ان الناحية المهملة ، هي الناحية التي نزل القرآن من أجلها فميزة القرآن الاولى هي اعجازه الفنيّ وعلى هذا الأساس واجه العرب، وبهذه القوة كانت فتوحه في الصحراء . ولكن لا غرابة في الحقيقة . فالبحوث الفنية ترفٌ عقلي ونفسي لا يكونِ في طفولة الأمم، ولا في أوائل فتوتها . بل يجيء بعد أن تستكمل ضرورياتها ، وتستكفي من حاجاتها وتشبع بنيتها ، ثم تأخذ في الترف ، وقد فرغت من مطالب الضرورة

فأذا هي عنيت بالنواحي الفنية قبل ذلك، فهي عناية المتملي، أو عناية المتذوق ، اوعناية المأخوذ ولن تكون عناية الناقد الذي يحلل ويعلل ويحتاج الى قدر لا بد منه من النضوج . لذلك عني العرب ، وعني المسلمون بدراسة القرآن من وجهة التشريع أولاً ، لأنهُ أهم عنصر من عناصر حياتهم اليومية . ثم عنوا بالنواحي اللغوية والتاريخية ، وببعض النواحي الفنية ، في أطوار متعاقبة من نموهم الطبيعي . ولعلنا اليوم قد صرنا الى المرحلة التي نتناول فيها القرآن الكريم ككتاب أدبي ، وننظر فيه من الوجهة الفنية الحرة ، ونتملى ما فيهِ من جمال روحي غير مقيد بقيود الضرورة ، ونحلل ماحواه من مذاهب فنية (١)

(١) وجه الاستاذ الفاضل محرر المقتطف نظري الى ان التوراة والانجيل طبعا في أميركا ليدرسا دراسة أدبية بحتة . والقرآن بأسلوبه العربي أولى بهذا

جرّد القرآن — مؤقتاً — من قداسته الدينية ، وجرّده من انهُ كتاب تشريع ونظام حكم ، تجد فيه بعد هذا وذلك كتاباً أدبيًّا ، فيه فن ، وفيه جمال ، وفي كثير من أساليبه سحر خاص ، وخيال خصب . وطبيعي أنك لا تنتظر هذا السحر ، وهذا الخيال في كل آية وكل سورة ، لأن فيه ما هو تشريع ونظام حكم ، وفيه ما هو تاريخ وتسجيل ، وهذا وذلك ليس مستحسناً أن يكون فيهما سحر وخيال ، فانما يستمدان بلاغتهما من صفات أخرى . من الحكمة والسداد في النظم ، ومن الصدق والدقة في التاريخ . وفي القرآن صور فنية كاملة تحتاج تارة الى ريشة المصور الماهر ، تبرزها في مظهر خلاَّب وتارةً لقلم الروائي القدير ، يخرجها في قالب كامل

وهي في كلتا الحالتين تتطلب خيالاً قويًّا يتتبع صورها ويكمل اجزاءها التي حذفت بمهارة كي تدع للخيال فرصة وفسحة يعمل فيها ويستشعر اللذة والجمال

وهذا التصوير الفني في القرآن أربعة أقسام :

صور فنية مجردة ، وقصص فنيّ تتتابع فيه الصور وتتلاحق ، ونوع بينهما هو الحوار يميل الى القصة تارةً ، والى الصور المجردة تارةً ، وتعبيرات فنية عن حالات نفسية ، أو مناظر طبيعية ... الخ

١ — صور فنية

١ — « والذين كفروا بربهم . أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ ، يحسبهُ الظمآنُ ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد اللهَ عنده ، فوفاه حسابه والله سريعُ الحسابِ

« أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍّ ، يغشاهُ موج ، من فوقهِ موج ، من فوقهِ سحابٌ : ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

هنا صورة فنية ساحرة ، فيها روح القصص ، وفيها خيال قوي ، وهي بعد في حاجة إلى ريشة مبدعة لابراز الظلمات ، في بحر لجيٍّ ، « يغشاهُ موجٌ ، من فوقه موجٌ ، من فوقه سحابٌ »

وفيها متعة للخيال يتتبع هذا الظمآن ، يسير وراء السراب ، « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ووجد مفاجأة عجيبة لا تخطر على البال ، « وجد الله عنده فوفاه حسابه » . ثم يتتبع الظلمات ويتخيل الرجل الضال فيها « إذا أخرج يده لم يكد يراها »

ولست في حاجة الى تطبيق هذا المثل على « الذين كفروا بربهم » وبيان صدق تصويره لحالتهم ، فذلك بحث ديني ، لا يعني الناقد الفني كثيراً ، فأنما نريد من الدراسة الفنية أن تستقل بنفسها ، وألاّ تقع في الغلطة التي وقعت فيها الدراسات السالفة ، وحسبنا أن ننوه عن الجمال الفني في الصورة ذاتها ، كتعبير أدبي مستقل

٢ — « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولهُ ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات

لا يبصرون. صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون . أو كصيِّبٍ من السماء ، فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم . كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا اظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير »

ها هنا صور متتابعة ، في كل منها خيال ، ومجال لعمل الخيال . ولا سيما تلك الصورة الفريدة: « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا » بعد التمهيد لها بأنهم « يجعلون أصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت » . ولو سجلت الصور المتحركة منظراً كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع ، لكانت موفقة جد التوفيق ، فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ، فلا تنقص منهُ حركة واحدة، تستطيع الصور المتحركة إثباتها . لا بل تبزها وتفضلها في أنها تدع متعة للخيال ، وهو يخلق الصور ويمحوها ، ويكمل الحركات ويتبعها ، بينما الصور المتحركة تحرم الخيال نشاطه لأنها تبرز المناظر كاملة للعين ، فلا يكون فيها من الجمال ، إلاّ جمالها الذاتي

٣ — ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمَّا يعملُ الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين ، مُقنعي رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء »

إنني لا أمل ترديد هذه الآية ، واستحضار تلك الصورة ، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام : «مهطعين . مقنعي رءوسهم . لا يرتد إليهم طرفهم . وأفئدتهم هواء »

أربع صور متتابعة متواكبة ، أو أربعة أجزاء في صورة واحدة ، وإن فيها لغذاء للخيال الخصب ، وإن فيها لمتعة فنية راقية

٤ — وتقرب من هذه في الروعة ، وتزيد عليها في قسوة الفزع : « إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد »

وعلى الرغم من العنف في تصوير الهول هنا ، وعلى الرغم من الجمال الذي لا شك فيه في هذا التصوير، فان الصورة السابقة أجمل وأسحر ، وأدخل في المعاني الشعرية والصور الفنية

والفرق بينهما، هو الفرق بين صورة الخائف تضطرب أوصاله ، وترتجف أعضاؤه ، وصورة الخائف لا يترك له الفزع قدرة على اضطراب الأوصال وارتجاف الأعضاء

والفرق بينهما أن الثانية مجرد تصوير للفزع المذهل، بينما تزيد الأولى معاني الطاعة الذليلة الذاهلة «مهطعين مقنعي رءوسهم» ومعاني الرهبة الصامتة الواجمة «لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء »

٥ — ومن هذا النحو قوله في يوم الحشر : « لكلّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه »

فما يوجد أخصر من هذا ، ولا ادق ، في بيان اشتغال القلب والفكر ، بالهم الحاضر القاهر حتى لا موضع لسواه ، ولا التفات لغيره في هذا الزحام

٦ — ومن الصور العنيفة الصاخبة : « هذان خصمان اختصموا في ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر بهِ ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق »

والروح الفنية تهبط في هذه عن سابقتيها معاً ، ولكنها ترتفع فتكاد توازيهما عند « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » لأن الصورة هنا تحيا وتتحرك ، فتغذي الخيال

٧ — وهناك صور أقل فنيَّة من هذه المثل جميعاً ، لأنها موكلة بالخيال الساذج ، وذات وجه واحد ، أو حركة واحدة ، يستجليها الخيال في لمحة واحدة . ومثال ذلك

« القارعةُ ما القارعةُ ، وما أدراكَ ما القارعةُ ، يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ »

أو « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب». أو « يومَ تكونُ السماءُ كالمهلِ ، وتكونُ الجبالُ كالعهنِ ، ولا يسألُ حميمٌ حميما » . وفي هذا المثال الاخير ارتفاع عند : « ولا يسأل حميم حميما » يمت بصلةٍ إلى « لكلّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه » ولكنهُ لا يبلغ مبلغه من الناحية الفنية

وفيما عدا هذا ، : منظر واحد تعرضهُ كل آية ، لايحوج الخيال إلى اكثر من لمحة واحدة وهذا هو الفارق بين المثل الأخير والأمثلة الأولى المركبة المتحركة

٢ — قصص فني

في القرآن قصص كثير ، وهو تارةً قصص تاريخي ، وتارةً قصص تمثيلي ، (لتمثيل حالة ولو لم تقع) وتارةً يصلح لهذا ويصلح لذاك (١) ومن أمثلة القسم الاول: قصص ابرهيم وموسى وعيسى ونوح ، وقصص عاد وثمود ومدين.. الخ ومن امثلة القسم الثاني : قصة الرجلين « جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعا ... الخ » في سورة الكهف

ومن أمثلة القسم الثالث : قصة ابليس وآدم ، وقصة ابني آدم

على أن اكمل ما يمثل بهِ للقصص الفني في القرآن ، هو قصة مريم ، وذلك رغم أن قصة يوسف مثلاً أطول واكثر مناظر . ولكن الأولى أحيا وأدخل في الحبكة الروائية ، وفيها مجال أوسع لشتى الانفعالات النفسية ، وهي تحتوي مشاهد مدهشة لرواية « سينمائية » تتخللها فجوات تترك للخيال الخصب مجالاً متسعاً للتصور ولتكملة الحلقات المحذوفة بمهارة عجيبة

وتبدأ القصة هكذا : « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إني أعوذ بالرحمن

(١) يتسع هذا الموضوع لبحث مطول خاص بالقصة في القرآن

منك إن كنت تقيا» وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة العذراء ، الطيبة القلب ، وهي من اسرة صالحة ذات تقاليد ، عارية أو شبه عارية ، يفجؤها رجل . . . وهذا هو المنظر الاول من القصة

« قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ! قالت : أنى يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيا ؟ »

ثم ليتمثل الخيال مرة اخرى مقدار الفزع والخجل الذي يعتور هذه الفتاة ، وذلك الرجل الغريب يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو انهُ يريد ان يهب لها « غلاماً » . ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها : « أنَّى يكون لي غلامٌ ، ولم يمسسني بشرٌ ، ولم أكُ بغيا » هكذا صراحة ! وبالالفاظ المكشوفة ، فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار واضحاً وما يخفف من وقعه أن يقول لها : « إنما أنا رسول ربك » فهي جديرة أن تكذب هذا القول ، الذي لا يقوم عليهِ دليل لديها ، وأن تعتصم بالشجاعة والصراحة ، فالحياء لا يجدي في مثل هذه الاحوال ، ومن هنا كانت صراحتها في ألفاظ ردها وفي لهجتها

« قال : كذلك قال ربك : هو عليَّ هيِّنٌ ، ولنجعله آيةً للناس ، ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيا » !

ثم ماذا ؟ هنا تجد في القصة فجوة فنية كبيرة ، تدع لخيالك أن ينطلق ، وان يتصور عشرات الصور والأوضاع ، التي تناسب ما انعكس في نفسك من المواقف الأولى

ثم تمضي قصتنا في طريقها بعد هذه الفجوة العميقة :

«فحملتهُ ، فانتبذت بهِ مكاناً قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت : يا ليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا » . يا ألله . يا للمسكينة !

لئن كانت في الموقف الأول تواجه الأخلاق والحصانة ، بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع ، وهي الآن تواجه الألم الجسمي الحاد ، تمثلهُ في دقة «فأجاءها المخاض» بجانب ما تتوقعهُ من الفضيحة ، وبجانب هذا كله حيرة العذراء في أول مخاض وهي وحيدة جاهلة بكل مايتعلق بهذه الناحية من تحضير وتدبير

كل أولئك يجتمع على فتاة ، لم تك بغيا ، كما قالت هي بحق . فأي هول ، وأي ألم ، وأي عذاب ، يتمثل في قولها : « ياليتني متُّ قبل هذا ، وكنت نسياً منسيًّا »

« فناداها من تحتها ألاَّ تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريًّا ، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا ، فكلي واشربي وقرّي عيناً ، فإمَّا ترينَّ من البشر احداً ، فقولي : اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا »

وسواء كان « عيسى » هو الذي ناداها ، أو كان الروح الامين ، أو كان ذلك هاجساً

هجس في ضميرها ، فحسبته طيفاً مسموعاً ... (وهو مايقع كثيراً للانسان في مثل هذه الحالات التي يغفل فيها العقل الواعي ، فيتنبه العقل الباطن ويتصرف). سواء كان هذا او ذاك أو ذلك لقد هدَّأ من روعها ، وطمأن قليلاً من رجفتها ، وأعادها الى التفكير العملي في مواجهة الموقف

وهذا التحليل لم تذكره القصة ، لأنها تركت للخيال تكملة المقال

ثم تحس بفجوة صغيرة بين هذا الحديث ، وبين ذهابها الى القرية ، فلا تدري كم مرَّ من الزمان ، ولا كم تتابع من الافكار . وبعدها

« فأتت به قومها تحمله ! قالوا : يامريم ، لقد جئت شيئاً فريًّا ، يا أخت هرون !. ماكان أبوكِ امرأ سوءٍ ، وما كانت أمك بغيًّا »

وهنا يعود للقصة عنفها ، وللموقف رهبتهُ . فها هي ذي تواجه قومها بطفل . وهاهم اولاء لا يقتصدون في تعنيفها ، والتهكم بها ، وتذكيرها بخروجها على تقاليد أسرتها « يا أخت هرون ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ ، وما كانت أمك بغيا »

فيا لها من مسكينة !

«فأشارت إليهِ ! قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا » ؟

ولعل التهكم الذي بدا في حركاتهم ونظراتهم ، حين أشارت إليهِ أضعاف ما حملتهُ ألفاظهم واستنكارهم «كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟ »

وإن المسكينة لتحتمل الموقف ، وتواجه التهكم ، وإنك لتلمسها من وراء سطور القصة ، تردد مرة ومرة : « يا ليتني مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا »

وما أنقذها من هذا الهول ، إلاَّ أن :

«قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيًّا ، وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا،وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيًّا ، والسلام عليَّ يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيًّا »

وهنا يسدل الستار على ذلك الموقف الرهيب العجيب ، والأفئدة ترجف في الصدور ، والأعين تدمع للانتصار ، والأيدي تدوي بالتصفيق

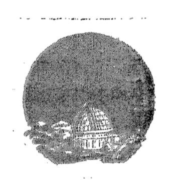
وفي هذا الوقت تسمع في لهجة التقرير ، في أنسب فرصة للاقناع والاقتناع :

«ذلكعيسى بن مريم قول الحق الذي فيهِ يمترون . ماكان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه . إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون »

إنها قصة فنية ، ذات مناظر مشوقة ، وفيها متعة للذهن والخيال ، ومجال للتحليل النفسي ، والنظرات الفلسفية

[التتمة في العدد القادم]

مطالعات فلكية



سر البقعة الحمراء

على سطح المشتري

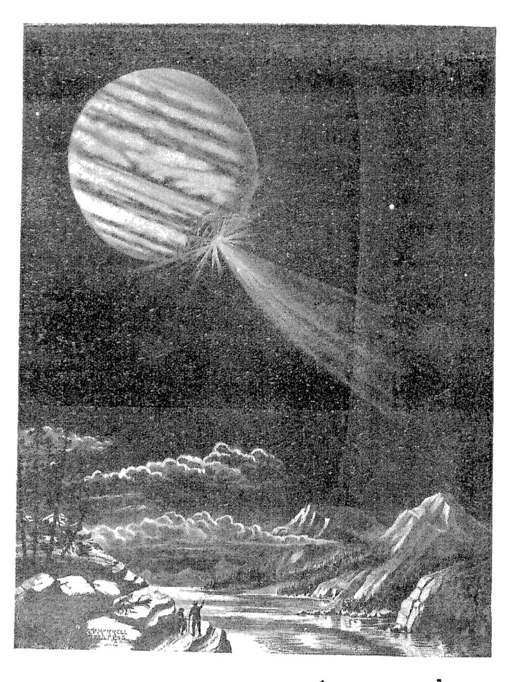
حرارة الشمس آخذة في الارتفاع

المشتري اكبر السيارات التابعة للنظام الشمسي . سماه العرب بهذا الاسم لانه اشترى الحسن لنفسه كما قالوا . ويسمي الغربيون هذا السيّار باسم « جوبيتر » وهو اسم كبير آلهة الرومان يقابله زفس عند اليونان قبلهم ومردوخ عند البابليين والاشوريين . ولعلهم سمّوه بهذا الاسم تشبيهاً له بكبير آلهتهم او لأنهم حسبوه أليق الاماكن بسكنى كبير آلهتهم فسمّوه باسمه .

وليس همّنا في هذا المقال ان نصف المشتري من حيث هو كوكب سيّار وصفاً عامّاً ، وانما همّنا ان ننظر نظرة خاصة في البقعة الحمراء التي تعلو سطحه والرأي الحديث في تفسير سرّها بعد ان اختلفت الآراء في ذلك .

كتب العالم الفلكي موريل Morrell في مجلة « انباء لندن المصوّرة » مقالاً في هذا الموضوع ، قال فيه ان قوام المشتري كتلة مركزية من الصخر او المعدن قطرها ٤٤ الف ميل يحيط بها طبقة كثيفة من الجمد ثخانتها ١٦ الف ميل ثم طبقة جوية كثيرة الغيم ثخانتها ستة آلاف ميل . والبقعة الحمراء شاسعة المساحة طولها نحو ٣٠ الف ميل وعرضها نحو سبعة آلاف ميل فمساحتها تعدل مساحة قارات الارض ومحيطاتها مجتمعة . وهي في رأيه تمثل حادثاً كونيّاً خطيراً اصيب به المشتري في الزمن الغابر قد يكون قبل قرنين او ثلاثة قرون . وهنا يخطر لنا : اذا اصيب المشتري من قرنين او ثلاثة قرون بحادث اصطدام خطير ترك فيه هذا الأثر ، أفلا يجوز ان يقع للارض ما وقع للمشتري ؟ والجواب ان ما وقع للمشتري — اذا صحّ هذا الرأي — يجوز ان يقع للارض . ولكن دع عنك التأمل في مصيرنا جانباً وهلمّ بنا ننظر في هذه البقعة الحمراء وسرّها

ان علماء الفلك يعلمون انه جاء وقت لم يكن فيه أثر للبقعة الحمراء على سطح المشتري . وفي ١٩ مايو سنة ١٦٦٤ رآها الفلكي هوك (وهو من معاصري نيوتن) . ومن ثمّ اكبّ العلماء على دراستها دراسة مدققة مفصلة رصداً وحساباً . فأسفرت هذه الدراسة عن ان البقعة الحمراء



صورة تخيلية تمثل اصطداماً بين المشتري ومذنب احدث « البقعة الحمراء »
على سطح المشتري بحسب رأي الفلكي موريل . نقلاً عن مجلة «انباء لندن المصورة»



صورة متخيَّلة لعبد الرحمن الداخل منقولة عن كتاب أسباني «تاريخ العرب في أسبانيا» تأليف كونديه (الترجمة الانكليزية)

ليست مستقرَّة في مكان ثابت على سطح المشتري وانها تسير بسرعة متفاوتة بالقياس الى مناطق الغيوم والتيارات التي على سطح السيَّار فكأنها طافية عليه ثم لاحظوا ان منطقة من مناطق التيارات العنيفة على سطح المشتري – وهي التي تعرف باسم الاضطراب الاستوائي الجنوبي South Tropical Disturbance – تمرُّ كالاعصار بسرعة ١٦ ميلاً في الساعة امام البقعة الحمراء من دون ان تؤثر في قوامها ، فقالوا ان مادة البقعة يجب ان تكون متصفة بخواص عجيبة تمكنها من الاحتفاظ بقوامها

وكان الرأي قبل بضع سنين انها قارة على سطح المريخ في دور التكوين والتجمد ، فكأنها جزيرة متجمدة طافية في منطقة نصف مصهورة . وهو تفسير بارع سهل ولكنهُ لم يتفق والحقائق الفلكية والرياضية المعروفة . وقد زاد سرُّ هذه البقعة غموضاً وتعقداً في العهد الاخير منذ أخذ فريق من علماء الفلك كجينز الانكليزي ورسل الاميركي بان قوام المريخ ليس كما كان يظن كتلة حامية يحيط بها غشاء كثيف ثخين من الغيوم تحدث فيه اعاصير وانفجارات، بل هو في رأيهم كما قدمنا من قول موزيل كتلة صلبة جامدة باردة

والحسابات الرياضية القائمة على ما يعرف من حرارة سطح الطبقة الغيمية التي تحيط بالمشتري ومعدَّل كثافة موادّه – وهي اقرب في ثقلها النوعي الى الجمد منها الى الحديد او البازلت – حملت العلماء على القول بانَّ داخل المشتري كتلة صلبة من مواد كثيفة وانهُ يحيط بها غلاف ثخانتهُ ١٦ الف ميل من الجمد ice ويحيط بهذا الغلاف جو مثقل بالغيوم ثخانتهُ ستة الآف ميل. ومن الطبيعي ان تكون الطبقات السفلى في جوٍّ هذه ثخانتهُ شديدة الكثافة لشدَّة الضغط الواقع عليها . فاذا اجتمع الضغط الشديد والبرد الشديد سالت بعض الغازات كالأيدروجين وبقي بعضها غازيًّا فتكون نتيجة ذلك ان تجد مقادير من العناصر السائلة طافية على العناصر الغازية . وهذا يفسّر الاضطراب الدائم المشاهد في المشتري حتى لقد وصفهُ بعضهم بقوله انهُ دائماً في حالة مخاض

هذا الرأي الجديد يفسر مايصاب بهِ المشتري من الاعاصير الشديدة تثور وتتحرك ثم تزول ويتلوها غيرها. الاَّ ان البقعة الحمراء ليست من هذ القبيل . بل ان وجودها من المصاعب التي مافتئت تحول دون قبول هذا الرأي الجديد القائل بان المشتري كوكب متجمّد . كان اسهل على العلماء ان يقولوا انها شقٌّ في جسم نصف مصهور . اما ان يقولوا انها شقٌّ في طبقة من الجمد ثخانتها ١٦ الف ميل فتعذّر . ثم ان احتفاظها بقوامها من دون تغيير يصيبهُ مدة ٢٧٤ سنة يحول دون التسليم بانها اضطراب جوّي

الغموض يحيط بنشأتها وثبوتها . واذا اخذنا برأي جينز ورسل في ان المشتري كتلة متجمدة غدونا ونحن لا نجد حلاًّ لنشأة « البقعة الحمراء » الاَّ بان تكون أثراً لاصطدام بين المريخ وجسم سموي آخر . وقد يكون هذا الاصطدام بين المشتري وأحد المذنبات

(انظر الصورة التي امام هذه المقالة) او بين المشتري وإحدى النجيات Asteroids التي اقتربت من المشتري حتى اصبحت على قرب وافر منهُ فجذبها اليهِ فسقطت على سطحهِ وهذا يفسّر مساحة البقعة الحمراء واحتفاظها بقوامها

والرأي الغالب عند موريل ان احتمال نشوء البقعة الحمراء عن اصطدام احدى النجيات بالمشتري اكبر من احتمال حدوثها باصطدام احد المذنبات بهِ. ولا يخفى على القرّاء ان النجيات في عرف علماء الفلك نثار سيّار تفتت، وهي واقعة بين فلك المريخ وفلك المشتري ولكثير منها افلاك شاذّة، وقصة اكتشاف اولاها ثم تعدُّد المكتشف منها حتى ليُحصى بالآلاف من اروع القصص الفلكية . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان بعض العلماء يظنّ ان اربعة من اقمار المشتري الصغيرة لم تنشأ كما نشأ قمر الارض او اقمار المشتري الاخرى بل اصلها نجيات اقتربت من المشتري فجذبت اليهِ واخذت تدور حولهُ مع اقمارهِ الاصلية. ثم هناك للمشتري قمر آخر صغير لا يزيد قطرهُ على ١٦٠ ميلاً يدور حول المشتري على ٦٨ الف ميل من سطحهِ وهي مسافة قصيرة بالقياس الى الابعاد الفلكية، ولذلك لا يستحيل ان يحدث ما يدخل هذا القمر في منطقة الخطر فاما ان يتفتت كما تفتت بعض اقمار زحل فاصبحت حلقات واما ان يجذب الى سطح المشتري فيكون جذبهُ واثره مثلاً حادثاً على نشوءِ « بقعة المشتري الحمراء »

***

هل حرارة الشمس آخذة في الازدياد ؟

يذهب الدكتور جورج جامو Gamow استاذ الطبيعة النظرية بجامعة جورج وشنطن الاميركية الى ان حرارة الشمس آخذة في الازدياد، وانها ستبلغ مبلغاً من الحرارة تذوب فيهِ الارض ومن عليها — او بالحرى تتبخر — كما تذوب قطعة من الجمد في فرنٍ حامٍ. الاّ ان الزمن الذي ينتظر ان تبلغ فيهِ الشمس هذه الدرجة من الحرارة بعيد جدًّا وحالة الارض الجوية لن تتأثر بهذه الزيادة قبل انقضاءِ بضعة ملايين من السنين

هذا الرأي الجديد، توصل اليهِ الاستاذ جامو من نظرية جديدة ابتدعها لتفسير مصدر الحرارة في الشمس وهي نظرية تقلب معظم ما يقال عن نقصان طاقة الشمس وفقد حرارتها رأساً على عقب . وعند هذا الباحث ان اكثر المصادر احتمالاً لتوليد حرارة الشمس هو فعل تولّد الهليوم من الايدروجين في قلب الشمس حيث الضغط والحرارة على درجة عظيمة من الارتفاع ونحن نعلم ان تحويل الايدروجين الى هليوم على سطح الارض يتمّ باطلاق ذرات الايدروجين

على عناصر اخرى بسرعة وطاقة عظيمتين .اما في قلب الشمس فحرارتها العالية البالغة ٢٠مليون درجة مئوية تحل محل الطاقة الكهربائية العظيمة التي تطلق بها ذرات الايدروجين في المعامل على الارض

والحرارة تتوقف على حركة الذرات والجزيئات ، فاذا ازدادت سرعتها في حركتها ارتفعت حرارتها واذا كانت الحرارة نحو ٢٠ مليون درجة مئوية فهذه الدقائق تنطلق متحركة بسرعة تقرب من سرعة الضوء . فاذا اصطدمت ذرتان من الايدروجين وهما سائرتان بهذه السرعة لصقت احداها بالاخرى او اندمجت فيها فينشأ من ذلك ذرة هليوم ووزنها كما لا يخفى مجموع وزن ذرتين من الايدروجين الاَّ قليلاً جداً . اي انهُ عند ما تندمج ذرتان من الايدروجين لتوليد ذرة من الهليوم يضيع مقدار صغير جداً من كتلة ذرتي الايدروجين. فأين يذهب ؟ والرأي ان هذا القدر من الكتلة يتحوَّل حرارة بقوة الاصطدام العنيفة . وكلما زادت سرعة التحوُّل من ايدروجين الى هليوم زادت حرارة الشمس وبازدياد حرارة الشمس تزداد سرعة التحوُّل وبذلك تمضي الشمس في زيادة حرارتها كأنها تسير في دائرة

ولم يكتف الدكتور جامو بدراسة تولد الهليوم من اصطدام ذرات الايدروجين بعضها ببعض بل عمل حساباً لتولدها من اصطدام ذرات الهليوم بالليثيوم وغيره من العناصر وفي جميع هذه الحالات تتولد ذرات هليوم ويتحوَّل مقدار يسير من الكتلة الى حرارة

ويرى الدكتور جامو ان في الشمس من المواد الكافية لتوليد الحرارة مائة مليون مليون سنة . اما ما يحدث للشمس بعد ذلك فليس لنا ان نفكر فيهِ الآن

وقد كانت الشمس في بدئها — بحسب رأيه — كتلة من غاز الايدروجين. فتحول جانب من هذا الغاز الى الهليوم بالطريقة المتقدمة خلال ثلاثة آلاف او اربعة آلاف مليون سنة بحيث لا نجد من الايدروجين في كتلة الشمس الآن اكثر من ٦٠ في المائة منها . والقول الأخير مؤيد بالبحث الطيفي . وبنقص مقدار الايدروجين في النجم يزداد النجم تألقاً الى ان ينفد الايدروجين ثم يبدأ النجم في التقلص فيصبح كثيفاً ويقل اشراقهُ . والنجوم الصغيرة الحجم الكثيفة المادة الضعيفة الاشراق معروفة لعلماء الفلك الحديث وهم يطلقون عليها اسم « الاقزام البيض » وهي تتصف عادة بصغر الحجم وارتفاع حرارة السطح وقلة الضياء واول نجم كشف من هذا القبيل هو النجم المعروف باسم « رفيق الشعرى » . فكثافة مادتهِ تزيد مائتي الف ضعف على كثافة الماء . وهنالك نجم آخر من هذا القبيل تزيد كثافتهُ على كثافة الماء سبعة ملايين ضعف. ولا تزال « الاقزام البيض » تشع اشعاعاً ضعيفاً وبهِ نراها ولولاهُ لما رؤيت . فهي في المراتب الأخيرة من حياتها الاشعاعية قبل ان تتحوَّل اجراماً مظلمة . وهذا هو مصير شمسنا بعد ان يتحوَّل كل ما فيها من الايدروجين الى هليوم



لعمر ابو ريشة

أفقتِ مع الحُلُم المسفر على نغمٍ شاردٍ مسكرِ

تدفَّقَ يسكب في قلبك الـــــطريِّ ربيعَ الحياة الطري

فألفيتِ دنياك غير التي درجت عليها ... ولم تشعري

مفاتن ريّـا الجمال الحيّ مجنَّحة بالهوى المبكرِ

وأنت عليها انفلات الحبيس من الطيب في البرعم الأخضرِ

***

رويدك لا ترحمي بالرؤى خيالك يا عَفَّة المئزرِ

أنا حفنة من رماد المنى على مجمر الزمن الأزورِ

هويتكِ في غصة المؤمنين الى جرعة من فم الـكوثرِ

وفوق جفوني عصاب الذهول فلم أتبصر ولم أبصرِ

ظلمتُك ظـلم انهيار الخيال على يقظة الشاعر العبقري

دعيني طروباً أزجي الخطى على مخصب الوهم والمقْـفرِ

[نقلا عن مجلة الجمهور البيروتية]

عالم الروح

والعلم الحديث(١)

لاحمد فهمي أبو الخير

﴿ تعليمات بخصوص عقد الجلسات ﴾ عند ما يكون التواصل ملائماً ومرضياً يسأل الروح المتكلم هل كان الحاضرون مرتبين في جلوسهم ترتيباً صحيحاً . فاذا لم يكونوا كذلك فما هو الترتيب الواجب اتباعه . بعد هذا يسأل الروح من هو . وأي الموجودين هو الوسيط . وما الى ذلك . فاذا حدث اضطراب او اختلال فسبب ذلك يرجع الى تعسر توجيه الحركة في مبدأ الامر التوجيه الصحيح . وعلاج ذلك الصبر والاناة

واذا رؤي ميل الى ابداء الظواهر بوسائل عنيفة ، أو الى ايقاع الوسيط في الغيبوبة فليطلب الى الروح ان يؤجل هذا الى ان يحضر احد الروحيين المدربين . فاذا لم يلتفت الى هذا الطلب يحسن ايقاف الجلسة . فعملية تدريب وسيط الغيبوبة تكون احياناً عملية مخيبة لامل الباحث غير المدرب

واختبر النتائج التي تحصل عليها بالحجة والبرهان السليم ، واحتفظ لنفسك بالعقل الراجح والمنطق الصحيح ، ولا تصدق كل ما يقال لك ، لأن العالم الكبير غير المنظور يضم عدا الكثيرين من أهل الحجا والعقل مجموعة من أهل الخرق والجهل والغرور — وأولاء أقرب الى سطحنا من العقلاء الأخيار . ولا تثق بالاسماء الضخمة اذا ذكرت لك مالم تكن مستوثقاً منها . ولا تتوان لحظة عن اعمال الفكر ووزن الأمور بالعقل . وحذار ان تدخل في بحث خطير مع روح فضولي أو سخيف . ونم في نفسك الرغبة في كل ماهو تقي طيب صادق . وسوف تتقدم بسرعة في هذا السبيل اذا انت اقتنعت تماماً اقتناعاً مسبباً بأن هناك بعد الموت حياة أخرى ، وان خير طريقة لأن يعد الأنسان نفسه لهذه الحياة هي أن تكون حياته هنا قبل الموت حياة طيبة طاهرة نقية

ويزيد على ذلك العلامة الروحي دلاس H. A. Dallas ما يأتي : —

---

(١) بقية مانشر في العدد الماضي من المحاضرة التي القيت في القاعة الشرقية بالجامعة الاميركية

(١) لا تكثر من عمل التجارب . وليكن ذلك بمعدل مرتين في الاسبوع على الاكثر ، على ألا يكون في أيام متتالية

(٢) وكقاعدة عامة حذار أن تقبل على اجراء التجارب وأنت في غير صحة جيدة ، أو كنت متعب الجسم منهوك القوى ، وعلى الاخص اذا كان المجموع العصبي مضطرباً . فلا يمكن أن يرجى تقدم روحي ما لم يكن المجموع العصبي سليماً والمخ متزناً هادئاً

(٣) حذار أن تجري التجارب عرضاً . حدد يوماً وساعة ، وليكن لكل تجربة وقت معين محدود — هو ساعة في العادة — واحتفظ بهذا التحديد وأصر عليه

(٤) واذا طلب اليك الحراس ، وهم الارواح المهيمنون ، أن توقف الجلسة فأوقفها على الفور ، فان في اطالة التجارب بعد أن يعلن الارواح المهيمنون انهاءها عمل غير مجد ، لان القوة الروحية لا يوجهها عندئذٍ اولئك الذين برهنوا على أنهم مهيمنون قادرون ، بل قد تستخدمها أرواح غير مسئولة ، وقد تكون خبيثة شريرة ، ما دامت فرصة التواصل تكون لا تزال سانحة

(٥) حذار من اجراء التجارب في الاماكن العامة التي يغشاها مختلف الناس حيث تكون التأثيرات مختلطة . وهذا فيما عدا تجارب الجلاء البصري والسمعي — أي رؤية غير المنظور وسماع غير المسموع — فالوسيط عندئذٍ لا يكون في حالة الغيبوبة ، ثم هو يرى ويخاطب الارواح التي تريد مخاطبة بعض الحاضرين . وقد يبلغ الحاضرون الوفاً كما يحدث في الاجتماعات في قاعة البرت هول الملكية بانكلترا

(٦) لا تلتحق بدائرة ما لم تعرف شيئاً عن أخلاق اعضائها

(٧) ابدأ كل تجربة بروح خالصة راغبة في حماية الله وهدايته وارشاده ، واجتهد دائماً أن تحتفظ بعقلك هادئاً رزيناً

(٨) حاول أن تعرف أي الارواح الحارسة المرشدة اكثر ارتباطاً بك من غيرها ، وسلها حمايتك ومساعدتك . فهؤلاء يصدون عنك الارواح غير المرغوب فيها والتي قد تتدخل دون استدعاء . وأولاء المساعدون قد يشيرون عليك بما يرون من تفصيلات ، كأن يخبروك مثلاً عن الأشخاص الذين تدعوهم الى دائرتك ، وعن عدد مرات هذه الاجتماعات وما إلى ذلك

﴿حجرة التحضير الحديثة﴾ هي حجرة مبنية بالطوب . مربعة الشكل . طول ضلعها ثمان ياردات وارتفاعها أربع ياردات . صفت في وسطها كراسي تسجل وزن الجالس ابتداء من جلوسه الى قيامه بطريقة الباروجراف

وفي وسط السقف هزاز كهربائي يهز جو الحجرة باستمرار وبه يمكن الاستغناء عن الفونوغراف . وبجوار هذا الهزاز فتحة ركبت عليها آلة فوتوغرافية . وفي ركنين من الحجرة

توجد آلتان أخريان للتصوير السينماتوغرافي تلتقطان باستمرار صوراً طيلة الجلسة

وتوجد على الجانبين آلتان تبعثان بأشعة الضوء تحت الاحمر لتشغيل آلات التصوير الثلاث هذه

وتوجد على الحائط بين الآلتين الفوتوغرافيتين آلة ثالثة يليها ضوء فوق البنفسجي . ولا تتأثر لوحات هذه الآلة بالاشعة تحت الحمراء . وتستعمل لتصوير كل ما يمكن للضوء البنفسجي التقاطه . وعلى الاخص البناء الاكتوبلازمي

وفي الركن الثالث توجد آلة لتسجيل الصوت تسجل كل ما يدور من أحاديث خلال الجلسة

أما الثرموجراف الموجود في الركن الرابع فلتسجيل درجة الحرارة . ففي أثناء الجلسة تنخفض درجة الحرارة مع ان الواجب ان ترتفع بسبب حرارة الموجودين . ولذلك وضعت أنبوبة للتسخين لا ينبعث منها ضوء البتة . وتثبت درجة الحرارة عند درجة ٦٠ على مقياس فهرنهيت ما انعدم حدوث الظواهر الروحية . فاذا حدثت الظواهر انخفضت الدرجة الى ٤٠ ولعل العلماء العاميين يستطيعون تعليل هذه الظاهرة وتفسيرها . ذلك بالاختصار هو وصف حجرة التحضير الحديثة

﴿ عالم الارواح ما هو ؟ ﴾ بعد ان تم الاتصال بالعالم الروحي او العالم الاثيري أمكن الاستفسار عن حقيقته من العلماء المقيمين فيه . وما سأذكره من المعلومات خلاصة لما نقل عنهم

يتألف عالم الروح من سبعة مستويات . أو سبع كرات متحدة المركز ، الذي هو مركز أرضنا . وهذه الكرات الاثيرية السبع مع الكرة الارضية الثامنة متداخلة بعضها في بعض ، وتمتد في الفضاء الى ابعاد شاسعة ، وليست هناك مسافة بين السطوح بالمعنى الذي نفهمه ، وانما هي أشبه شيء بالمسافة الموسيقية أي درجة اهتزاز

وتحدث أرضنا في البوصة الواحدة من ٣٤٠٠٠ الى ٦٤٠٠٠ موجة اهتزازية ، نحس بها نحن الكائنات الفيزيقية . ولكل سطح او لكل كرة مجال اهتزاز خاص بها لا يحس به الا المترنمون مع اهتزازاته . ويلي كل مجال تاليه في زيادة السرعة الاهتزازية . وعلى ذلك فأعلى الاهتزازات الارضية درجة تمس أقل اهتزازات السطح الثاني أو الكرة الثانية درجة وهكذا

وتتلقى كل كرة ضوءها وحرارتها من شمس اثيرية متحدة مع شمسنا في المركز . فالشمس كالعالم الاثيري مكونة من ثمان كرات أي ثمان شموس . شمسنا إحداها . وكل سطح من هذه السطوح الشمسية الاثيرية يهتز مترنماً مع السطح المقابل في السطوح المحيطة بأرضنا ليمده بالضوء والحرارة . ولكل سطح في العالم الأثيري جو يحيط به يؤثر فيه كما يؤثر جونا فينا ، إلاّ أن أحوال المناخ هناك أكثر اعتدالاً . وهناك تتغير الفصول ايضاً ، وانما في السطوح الثلاثة الأولى التي تعلو سطح الارض درجة اهتزاز ، وابتداء من السطح الرابع فما فوق تختفي التغيرات المناخية تماماً . ولا يوجد ليل فوق أي سطح من السطوح بل يوجد شفق . والالوان هناك أجمل كثيراً

منها في عالمنا ، وأكثر تنوعاً وتلألؤاً ، ولذا كانت المناظر هناك أجمل منها هنا لدينا

وحسبي هذا القدر من التفصيل هنا ومن رغب زيادة في التفصيل فليقرأ التعقيب الذي عقبت به على ترجمتي العربية لكتاب « على حافة العالم الاثيري » لمؤلفه العلامة فندلاي رئيس المعهد الدولي للبحث الروحي بلندن . على ان هناك حقائق تجب علينا معرفتها ، ضمنها العلامة فندلاي الفصل الرابع عشر من هذا الكتاب(١)

﴿ العلاج الروحي ﴾ بقيت كلمة لا بد منها عن العلاج الروحي ، وأرجو ان أوفق لبسطه في محاضرة أخرى . هذا العلاج بعيد كل البعد عن الشعوذة والدجل لانه مبني في الواقع على أحدث طرق العلاج ، ونعني بها طرق العلاج بالاشعاع

ان الكون في الواقع مملوء باشعاعات كثيرة لم نوفق نحن الآ الى كشف جزء ضئيل منها . وقد تحدث علماء العالم الروحي عن هذه الاشعاعات ذاكرين أننا نحن سكان الارض لم نستكشفها بعد

فالاطباء المقيمون في عالم الروح بتسليطهم هذه الاشعة النفاذة قد استطاعوا ابراء كثير من الامراض المستعصية ، وفي مقدمتها السرطان . ولا يخفى ان احدث علاج للسرطان هو العلاج باشعَّة الراديوم ، ولكن هذه قد أخفقت في حالات كثيرة ، وعلى الأخص حالة سرطان المخ .

فالمريض يحضر في الجلسة التي يعمل فيها الوسيط المعالج وقد غشيته الغيبوبة ، وبمعاونة مساعدين ذوي قوة روحية ، ولكن في غير غيبوبة ، يتم العلاج باللمس والتدليك يقوم بهما الوسيط أو مساعدوه . وتشخيص المرض لازم لاتقان العلاج . وفي الحالات الخطيرة يدفع المريض الى النوم الطبيب الأثيري الذي يعمل بطريق الوسيط ، فلا يشعر المريض من ثمَّ بأي ألم . وقد برىء من المرض ألوف باستخدام الاشعة الروحية التي تسلط على الجسم الأثيري للمريض لأن برء الجسم الفيزيقي انما يكون عن طريق الجسم الاثيري . ولقد رد البصر والسمع الى كثيرين ممن فقدوهما ، بل لقد ردت الحياة الى كثيرين ممن حار فيهم الطب والأطباء ، وذلك بالعلاج الروحي

وأغرب مافي العلاج الروحي نوع يسمى العلاج الغيابي . وفيه يكون المريض في بلد ناء عن بلد المعالج الروحي ، ومع ذلك تصل الاشعاعات الروحية وينقه المريض . ولقد حدث علاج من هذا القبيل لمرضى مقيمين في مصر ، والمعالج الروحي في لندن ، وقد كتب الله الحياة لهؤلاء بعد ان عجز الطب والاطباء عن علاجهم(٢)

---

(١) تراجع هذه الاقوال في كتاب « على حافة العالم الاثيري » صفحة ١١١ ـــ ١١٥

(٢) المقتطف : وقد روى المحاضر بعد ذلك حادث اصابة بالسرطان في مصر شفيت صاحبتها بهذه الطريقة وعندنا أنه لا يمكن الاخذ بهذا الرأي حتى تتولاه جماعة من نطس الاطباء بالبحث والامتحان فيفحص المرضى حتى يتيقن الاطباء من صحة الاصابة ثم يعاد فحصهم بعد شفائهم بطريقة العلاج الروحي حتى يتيقنوا انهم شفوا

حديقة المقتطف

الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

لالياس ابي شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابي النصر احمد الحسيني

مرتجي ظل الغمامة

من قصيدة لكثير

حديقة المقتطف

الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

لالياس ابي شبكة

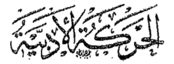
الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني

مرتجي ظل الغمامة

من قصيدة لكيتس



الحركة الأدبية

في سورية ولبنان

لم تعرف الحركة الأدبية في لبنان وسوريا ، منذ عشرين سنة ، نشاطاً قائماً على عقيدةٍ صحيحةٍ وايمانٍ راسخ كالنشاط الذي عرفتهُ في السنوات العشر الاخيرة. ففي هذه السنوات العشر انتقل الادب في هذه البلاد من مرحلة اللهو والتردد الى مرحلة الجدّ والعزم ، فلم يبق ألهيَّة يتفرغ لها الاديب على هامش مشاغل الحياة كما يتفرغُ الصانع او التاجر للعبة النرد او الشطرنج

على انَّ الانتاجُ مايزال ضعيفاً بالقياس الى قوة اليقظة الادبيَّة في مجموع الأمَّة لابالقياس اليه قبل اليوم. فقبل اليوم — ولنحصر كلامنا في هذا الثلث من القرن العشرين — كان القلم لا يثمر على الغالب الكثير الاّ في الصحف والمجلاّت وقصارى مايطمح اليه القارىء ان يقع في الصحف على مقال أدبي في كلّ اسبوع او قصيدةٌ في كلّ شهر أو شهرين . فبشارة الخوري مثلاً ، هذا الشاعر الذي ملأت شهرتهُ الاقطار العربية ، لم تتعرف اليه المطابع حتى الآن ، فقصائده مشتتة هنا وهناك وقد لا يُفلح — اذا استثنى المأثورة منها — في مهر الادب بأكثر من مائة صفحةٍ ، ومهما تكن هذه المائة الصفحة بليغة فلا يصحّ ان تعدّ انتاجاً في حياة اديب . وما نقوله عن بشاره الخوري نقوله عن شبلي الملاط والمرحومين امين تقي الدين والياس فياض ومعظم الذين حملوا أعلام الحركة الادبية في مطلع هذا القرن.

فشبلي الملاّط لم ينشر الاّ ثلاث مسرحيَّات او اربع منقولة عن الفرنسية وديوان شعر فيه الغثّ وفيه السمين واذا نحن ضربنا صفحاً عما في ديوان الملاط من شعر المناسبات العارضة ، هذه المناسبات التي كثيراً ماظهرت على اقلام الشعراء العرب في كل عصر فكانت حائلاً دون انطلاق الفكر الاستقلاليّ مع العاطفة الغريزية ، لا يبقى

لنا في هذا الديوان الاّ بضع قصائد لا يصحّ ان تعدّ انتاجاً في حياة اديب . ولم ينشر الياس فياض الاّ بضع مسرحيّات منقولة عن الفرنجة وديواناً صغيراً قد لا يليق فيه بكرامة الشاعر أكثر من اربع قصائد او خمس . اما أمين تقي الدين فقد يكون الأديب الوحيد الذي لم يعتمد في تلك الحقبة خصلة غيره في الاغارة على تريكة الغير . على انهُ — لسوء الطالع — لم يخلّف من النثر والشعر ما يملأ كتاباً حسنَ العرض

ولا نريد بهذا ان ننكر فضل هؤلاء الأدباء، فقد كانوا فاتحةً حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبة الشعر على غفلة القرن التاسع عشر ، وان قصروا في حلبة النثر وفي التوسع الفكري والابداع عن بعض جهابذته كاليازجي والشدياق واديب اسحق . واذا حقّ لنا أن نلومهم فعلى كونهم شهدوا أوجع مأساة عرفها التاريخ ولم تشهد لأقلامهم منظراً موجعاً من هذه المأساة ، اللهمّ إلاّ بعضً قطع لا قيمة لها . أيمرّ بنا المنجل الاسود على شفرته المقدّسة كجناح الموت سحن الجوع والمرض والذل والظلم والحقد ولا يقوم فينا شاعر أو ناثر يغمس ريشتهُ في هذا البؤس ؟ ألا يقوم فينا شاعر او ناثر اجترّت عيناهُ حصيدَ تلك الشهادة فيطبع على جبين التاريخ الادبي لوحةً خالدة مما انطبع على عينيه ؟

كانت الحركة الادبية التي نشطت في جريدة « البرق » عام ١٩٠٨ على يد طائفة من رجال العلم كالشيخ اسكندر العازار وفليكس فارس والغلاييني وداود مجاعص وبشاره الخوري وشبلي الملاط وغيرهم مستهلّ النهضة التي حاولت قبل الحرب الكبرى النزوع عن القديم المألوف ، عن الادب البطريركي والسلطاني الذي تفشى في ذلك الحين . على ان هذه النهضة لم تُعطِ أُكُلها لقرب ما بينها وبين الحرب ، الحرب التي عطّلت الصحف إلاّ المملوكة منها وغضّت شرف الفكرة الحرّة في البعض الكثير من رجال العلم فاصبح الأدب سلعة تباع على أبواب الحكام بخوراً وقرابين

وبعد أربع سنوات مرّت على السُبات السياسي والادبي في لبنان وسوريا لم تجرؤ الناشئة على النظر الى الماضي لهول المشهد ، ولا الى الحاضر لفراغه الموجع .

فاستسلمت الى الغرب الفاتح المتفذ وراحت تعبّ ماهبّ ودبّ من صادراته،مؤمنة بكل مايشحنه حتى بحواشيه . ولشدّ ماتأثرت في ذلك الحين بموجة الأدب المهاجر حامل الروح الشرقية في الجسد الغربي ، واذا هي اصداء مشوهة لذلك الانتاج السماعيّ الخصب . وان يكن الأدب المهاجر قد نفخ في الناشئة اللبنانية والسورية روحاً لاعهد لها بمثله فقد استعبدها للغته المضعوفة وسيّرها في طريق متحيّرة بين الفوضى والتقليد

وفيما هذه الناشئة تضطرب بين الغرب والغرب ، بين الاصوات الشرقية المغرَّبة في الاميركيتين والشمالية منهما بوجه خاص ، وما تشحنهُ اوربَّا الفاتحة ، سيدةُ مصائر الناس ، كان حملة الاقلام المخضرمون — اولئك الذين لبسوا الوجهين قبل الدستور العثماني وبعده — يحاولون لباس الوجه الثالث باسم التحرر السياسي

***

ولكن ... فيما هؤلاء منصرفون عن الادب الى استثمار السياسة في العهد الجديد كان بعض المفكرين الأحرار في الشباب يلقون في الناشئة بذرة التحرر الأدبي .كان الاستاذ عمر فاخوري في جريدتي « المعرض » « والبيان » ببيروت والمرحوم احمد شاكر الكرمي في « الزمان» بدمشق يقودان طليعة هذه الحركة التحريرية المباركة

وهذه الحركة لم تنقبض الى هدفها الا في جريدة « المعرض » الاسبوعية فلعشر سنوات الا قليلا تألفت في هذه الجريدة رابطة من أدباء الشباب وراحت تذيع مبادئها الأدبية فتقسط حيناً وتظلم حيناً ، تهتدي تارةً وتضلّ أخرى ، وبين تطرفها واعتدالها قامت في الشباب نهضة لم يخرج الادب منها لاخاسراً ولا مغبوناً

وكانت جريدة « البرق » ماتزال سياسية فحوّلها منشئها الاستاذ بشاره الخوري الى جريدة أدبية أسبوعية . على أن الاعصاب الادبية التي ساهمت في تحريرها لم تكن من العنف بحيث تستطيع مجاراة « المعرض » — وكان الشباب في ذلك الحين أميل الى التطرف والفوضى منه الى الاعتدال والنظام — فلم يُقسَط للبرق

في النجاح فوقفت في منتصف الطريق واستغنى صاحبها بشهرته عنها وأغنى العالم الادبي بشعره عن صحيفته. واذا حق لنا أن نلومه فعلى انصرافه في الكثير الغالب الى التغني بما يُحمَل عليه لا بما يندفع اليه. ولا نزاع في أن الاستاذ بشاره الخوري يشرف في احساسه العاطفي الصرف على العالم الذي عاش قبل الحرب والعالم الذي يعيش بعدها، فهو انتقال حي من عهد الى عهد، من عهد رزح فيه الادب تحت ثقلين: الضغط السياسي الحميديّ والرشادي والضغط الروحيّ الناشىء عن ضعف اليقين بالنفس، الى عهد تحاول فيه الناشئة توطيدَ استقلالها الروحي توطئة لاستقلالها السياسي الصحيح. فهل يستطيع سبيلاً الى تأدية الرسالة الملقاة على عاتقه؟ فشاعر الأمة يجب أن يكون عظيماً كالأمة

وفي ذلك الحين، فيما الحركة الأدبية ماضية في نشاطها بجريدة «المعرض» وبعض الصحف اليومية — ومعظمُ صحف بيروت تخص الأدب بصفحة في كل اسبوع — كانت حركة أدبية رصينة تنشط في سوريا، بمجلة «الحديث» الشهرية في حلب، وبجريدة «فتى العرب» وغيرها في دمشق. وما عتّمت هذه الحركة أن أعطت ثمارها فأصدرت المطابع مؤلفاً نفيساً عن المتنبيء للاستاذ شفيق جبري ومؤلفاً آخر عن سيد قريش للاستاذ معروف الارناؤط. وأذكر أن المغفور له شوقي قال لي يوماً إنه سلخ ثلاثة أيام على قراءة «سيد قريش». والواقع أن هذا الأثر الخالد الذي يضارع بلغته وألوانه ملحمة «الشهداء» لشاتو بريان هو، على ما في إخراجه الفنّي من الهنات، أفضل كتاب أدبي ظُهرت به المكتبة العربية في سوريا. ولم يقف جهد معروف الارناؤط عند «سيد قريش» بل تجاوزه الى كتاب آخر قد يقلّ عنه خطراً هو «عمر بن الخطاب»

وفي تلك الحقبة الطيبة من حياة سوريا الأدبية صدر في بيروت أول جزء من «أدباء العرب» للاستاذ بطرس البستاني، وتبعه الجزء الثاني فالثالث. وكانت المطابع في الوقت نفسه تصدر كتاب «المراحل» للاستاذ ميخائيل نعيمه و «جبران خليل جبران» للمؤلف نفسه. وقد أحدث هذا المؤلف الأخير ضجة صحفية وخطابية لم يسبق لها مثيل إلاّ في النادر القليل. ويرجع السبب في هذه

الضجة الى بعض حقائق أوردها الاستاذ نعيمه في كتابه الخالد ودرس على ضوئها سلوك جبران في حياته الخاصة وعلاقة هذه الأخيرة بحياته الأدبية .

وكان الاستاذ أمين الريحاني قد بدأ منذ سنوات يقلد جيد المكتبة العربية بروائعه ، فبعد الجزء الرابع من الريحانيات « ملوك العرب » وبعد ملوك العرب « النكبات » وبعد النكبات « نجد الجديدة » وبعد نجد الجديدة « قلب العراق » ويعدّ الآن كتاباً عنوانه « قلب لبنان » وأمين الريحاني يقف اليوم على هضبة الانبعاث الفكري موقف نبيٍّ من أنبياء المجتمع الآتي ، ففي أدبه إيمان بالشباب ، إيمان بالوطن وإيمان بالمستقبل

* * *

في بيروت اليوم جريدتان اسبوعيتان يغلب عليهما الطابع الأدبي هما « الجمهور » و« المكشوف » ولكلٍّ من هاتين الجريدتين أقلام وهدف تلتقي على صعيد الأدب ومهما بعدت بينهما شقة السياسة الشخصية التي تخلقها أحوال الادباء في كل بلد فلا تستطيعان الاساءة الى الغاية التي تسعيان وراءها . وقد يكون هذا التباعد باعثاً لاحياء الحركة الأدبية وإضرام اللهب في عروقها . واذا نحن قابلنا بين قوتي الاقلام التي تساهم في هاتين الجريدتين رأيناهما متعادلتين . على أن جريدة « المكشوف » داراً للطباعة ما فتئت منذ سنتين تغذي المكتبة العربية بنتاج مرجوّ الفائدة . ويكفي جريدة « المكشوف » فضلاً أنها أفسحت لكثيرين من الأدباء المغمورين سبيل الظهور وشجعت الادباء الآخرين على العمل فنشطوا الى الانتاج نشاطاً لم يُعرَف مثله قبل اليوم

ولا نريد أن نختم هذه التوطئة للفصول المقبلة في « الحركة الادبية بسوريا ولبنان » قبل أن نأتي على عرضٍ سريع لأبطال هذه الحركة . ففي سوريا طائفة من حملة الاقلام قطعت الدليل على إدراكها رسالة الادب وخطرها في حياة الأمة بزرعها البذور المرجوّة الثمر ، في تربةٍ ملائمة وجوّ صالح . وقد ذكرنا من هذه الطائفة الاستاذين جبري والارناؤوط . ونذكر الآن الشاعر خليل مردم بك في دمشق ، والشاعر عمر أبو ريشه في حلب ، والشاعر محمد سليمان الأحمد

المعروف ببدوي الجبل في بلاد العلويين . فللاستاذ مردم وبدوي الجبل قصائد لم تجمع حتى الآن في كتاب ولكنها أحلّت شاعريها محلاً موفور الكرامة بين شعراء العصر . أما الاستاذ أبو ريشه فله ديوان حافل بأطيب الشعر ، وقد يكون أبو ريشه الأديب السوري الوحيد المنصرف الى الانتاج في هذه الايام ، فهو يعدّ ملحمة بعنوان « الاساطير » تم مقدمتها التي اتصلت بنا على مجموعها . وقد شاء الشاعر ان يفتتح ملحمتهُ بمثل ما كان شعراء الملاحم الاغريق والرومان يفتتحون ملاحمهم بمخاطبة ربة الشعر . قال :

لا تنامي يا راويات الزمان فهو لولاك موجةٌ في دخان
تتوالى عصورها وبها منك ظلالٌ طريّة الالوان
ابداً تبسم الحياة عليها بسمة المطمئنّ للحدثان
اسمعيني حفيف اجنحة الالهام من افقك القصيّ الداني
وانثري حولي الاساطير فالروحُ على شبه غصّة الظمآن
حسبك أن اردّها لك من قلبي صلاةً ومن شفاهي أغاني

وفي سوريا ادباء مهيّأوا التربة لانتاج حسن كالدكتور منير العجلاني في دمشق والاستاذ سامي الكيالي،صاحب مجلة « الحديث » الحلبية التي ما برحت منذ سنوات تطلع علينا كل شهر بنماذج طريفة من أدب صاحبها وسائر ادباء العرب

وفي لبنان رهط من حملة الاقلام اكثر انتاجاً وانصرافاً الى الادب من اخوانهِ في سوريا على ان المذاهب الغربيّة ما تزال تسطو على بعض الادباءِ اللبنانيين سطواً يقصيهم عن جوهر نفوسهم ، ولكن هذا البعض بدأ بتحرّر من ربقة الغرب ويخلق لنفسهِ عالماً روحيًّا له طابعه وله تقاليدهُ .وقد ذكرنا من ادباء لبنان اكثر من واحد ، ونذكر الآن الشاعر امين نخله الذي عرف ان يبدع لنفسه سواء في الشعر او النثر رمزية عربية التعبير متزنة التفكير لا يشقى العقل في تفهم اغراضها ومعانيها وصورها . والشاعر الدكتور حبيب ثابت الذي نفض القلم اخيراً من طرفتهِ الشعريّة « ادونيس » والشاعر سعيد عقل الذي امتاز برغبته في التسلل الى دياميس اللاوعي... والاستاذ صلاح لبكي ، شاعر « أرجوحة القمر » الذي ينعطف على

القلب البشري بخشوع موجع. والشاعر الياس خليل زخريا صاحب القلم اللازوردي. والشاعر نقولا بسترس النافخ من الشعر في ناي. والشاعر ميشال طراد الذي ابدع في الشعر الريفيّ طريقةً هو أقرب فيها الى جاسمان منهُ الى ميسترال. وعمر الزعني، بيرانجه هذا الزمن. والاستاذ بطرس البستاني، صاحب «ادباء العرب» وفي طليعة المنشئين والنقادين. والاستاذ عمر الفاخوري، صاحب «الباب المرصود» الذي يرجع اليهِ فضل المتقدم في توجيه النقد الفنّي. والاستاذ فؤاد افرام البستاني صاحب «الروائع» الذي ملك على حداثة سنه ناصية العلم واحتلّ مكاناً رفيعاً في عالم الادب. والاستاذ مارون عبود، الاديب الجبّار وأحد أئمة النقد الأدبي في هذا العصر. والاستاذ ميخائيل نعيمه، الأديب الذي وقف من قمم الفكر على واحدة لم يبلغها من نوابغ الشرق إلاّ نفرٌ قليل. والاستاذ رئيف خوري الذي ساهم بقسط وافر في الحركة الفكرية الحديثة. والاستاذ لطفي حيدر الذي عرف في قصتهِ «عمر افندي» أن يحفظ التوازن بين التقاليد الشرقية والغربية فلم تنقطع معهُ شعرة معاوية. والاستاذ توفيق يوسف عواد الذي يحاول مع الاستاذ خليل تقي الدين رفع القصة الى المستوى المنشود. وقد بذل حتى الآن جهداً محموداً في «الصبي الاعرج» و«قميص الصوف» و«عشر قصص». والاستاذ يوسف غصوب، شاعر «العوسجة الملتهبة» وناسج الفصول الجميلة في مختلف نواحي الادب. والدكتور نقولا فياض، الشاعر الخطيب الذي يرجع اليه فضل التقدم في الشعر الوجداني السائد الى يومنا هذا. والاستاذ عيسى اسكندر المعلوف، حجة التاريخ في هذا العصر. والاستاذ انيس المقدسي صاحب المباحث الرصينة في تطور الأدب العربي. والدكتور أسد رستم صاحب المؤلفات التاريخية القيمة. والدكتور قسطنطين زريق الكاتب الاجتماعي الرصين

***

ومعظم هذه الصراصير المذهبة يدندن في جريدة «المكشوف» للشيخ فؤاد حبيش وجريدة «الجمهور» للاستاذ ميشال ابو شهلا

الياس أبو شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

— ١ —

لم تصب الهند كلها بوابل العرب الثادق ، ولا بسهم سلطانهم الخارق ، غير الموجة التي مست سواحلها الغربية ، مثل السند وما جاورها ، حتى لم يضرب فيها ايضاً حكمهم بجرانه الى مدة طويلة ، والاّ لكان مصير الهند من جهة وحدة اللغة والثقافة كمصير مصر ، وإن كان العامل الهام الآخر لتلك الوحدة في مصر هو قربها من جزيرة العرب واتصالها المباشر بها

على ان سكان الهند الوثنيين مع مناعة السياج الطبيعي حول بلادهم وجسامته — اذ يحدق بهم شمالاً همالايا وهو أعلى الجبال في العالم قاطبةً ، ويحفهم جنوباً وشرقاً وغرباً المحيط الهندي وهو الثالث في العالم في العمق والسعة — لم يقدروا ان يحافظوا على سكون بالهم ، وركود حالهم من تعكير النزيل ، وتشويش الغريب . فقدطرق ابوابهم النازحون، وقهر بلادهم الفاتحون من اليونان ، والسيث [1] والافغان والعرب ، والترك ، والمغول حيناً بعد حين . فلم يكن للهندي الوثني الغارق في تفكيره الفلسفي العميق بدٌّ من ان يتأثر في لغته وثقافته وافكاره وآرائه بمن احتك بهم . فاليونان ، والسيث ، والعرب ، والترك ، والافغان ، والمغول وغيرهم جميعاً لعبوا دوراً هامّاً في تاريخ الهند في صوغ الفكر الهندي على طابعهم الخاص بعض الصوغ فكما ان الهند تأثرت بتلك القوى الخارجية في عاداتها واطوارها واديانها واخلاقها كذلك تأثرت منها بلغاتها ولهجاتها

ولا يمكنك ان تقشع غمام ذلك الاثر في لغات الهند ولهجاتها ، ولا ان تدرك مبلغه وتستقصي مداه اذا لم تسبر غور ما وصل اليه مجهود الهنود الوثنيين في اجادة لغات هؤلاء النازحين الى بلادهم ، ولم تختبر حال تضلعهم من فنون الآداب فيها

(١) Scythians

حيث اصبحوا خبيرين بقرض الشعر ، بصيرين بمذاهب الكلام ، عارفين بمواضع النقد ، متصرفين في ضروب الأنشاء فيها مسددين فيها بالامر ، وموفقين بالمراد

من تلك اللغات اللغة الفارسية التي حملها الافغان والترك والمغول الى الهند فكانت لغة رسمية طيلة مدة حكومتهم فيها . وللفارسية علاقة دانية وقرابة وطيدة الى أسرة اللغات الآرية التي اليها يمت جميع اللغات واللهجات الهندية . لذلك يجوز انه لم يجد الهندي الوثني تعلمها عزيزاً مُعتاصاً ، ولا الخوض في ادبها شروداً منحاصاً بالقياس الى اللغات الاجنبية الاخرى ، فأطاعتهُ امورُها بأعنتها ، وانقادت له مطالبها بازمتها

كان لهؤلاء الهنود مع جيرانهم في الشمال علائق الجوار الحسنة ، وصلات التجارة المتينة من الزمن الغابر الى قبل عهد سبكتكين [١] اي قبل ان تعبر جيوش ابنهِ السلطان محمود الغزنوي [٢] نهر اندس — الحد الفاصل حينئذ بين الهند والدولة الغزنوية — في غاراته الشهيرة على الهند . بيد ان الداعي القوي الذي أهب بهم الى صرف عنايتهم في اتقان لغة هؤلاء الفاتحين النازحين الى بلادهم ، والضاربين فيها بجرانهم ، والذي أجأهم الى بذل وسعهم وطاقتهم لحوز قصب السبق في حلبة آدابها واحراز فوق النضال في ميدان نظمها ونثرها ، كان طبعاً في العهد الاخير . وهو عهد — القرن العاشر الميلادي — نجد فيه العلامة الفيلسوف ابو ريحان البيروني مكبًّا بين ظهرانيهم على دراسة لغتهم وفلسفتهم وعاداتهم واخلاقهم وعلومهم وفنونهم وجامعاً لكتابه الشهير عن الهند ، أوضاعه المحكمة ، واغراضهُ المتشعبة ، ومناهجه السديدة ، وفوائده الكثيرة. وهو ايضاً عهد بدأت فيه الكلمات الفارسية والعربية تدخل اللغات الدارجة في شمال الهند ، اذ ترى الشاعر الهندي الذائع الصيت « شاندكيو » وهو شاعر بلاط الملك « برثيوي راج » يستعمل في رثائهِ الشهير لممدوحه الملك كلمة « برودكار [١] » و« سلطان »

(١) تولى سبكتكين من سنة ٩٧٦ الى سنة ٩٩٧ ميلادية (٢) تولى السلطان محمود الغزنوي من سنة ٩٩٨ الى سنة ١٠٣٠ ميلادية وأغار على الهند من سنة ١٠٠١ الى سنة ١٠٢٤ ميلادية اثنتا عشر مرة الى ان ضم الى حكومته اقليمي البنجاب والكجرات (٣) ومعناه باللغة الفارسية « الرب »

ولكن مما يؤسف له ان مصادر المعلومات عندنا في هذا المبحث من مباحث التاريخ الهندي قليلة . لان علماء اللغة الفارسية سواء أكانوا فارسيين أم الذين ترعرعوا في الهند لم يروها في مصنفاتهم — كما يظهر لنا — جديراً بان يوكلوا بها رعايتهم ، ويوفوا عليها عنايتهم ، ويلقوا ضوءاً على هاته الظاهرة من جد الهنود الوثنيين ونشاطهم . فواله داغستاني مثلاً صاحب الكتاب الشهير « رياض الشعراء » في تراجم شعراء اللغة الفارسية يفتخر باهماله في كتابه ذكر الشعراء الهنود الوثنيين باللغة الفارسية . وعليه فاهمال داغستاني المشرب بالكبرياء ومن حذا حذوه قد جعل جمع المواد لهذا الباب الغامض من تاريخ الفكر الهندي صعب المرام ووعر الملتمس . لذلك فالقرون الاولى من استيلاء المسلمين على الهند لا تقدم لنا مراجع تستحق الاعتبار للبحث

على انهُ في الاخير حين رجحت الاعتبارات السياسية والاجتماعية كفة الموقف لمصلحة هؤلاءِ الهنود في تعلم اللغة الفارسية واتقانها ، حملوا إصره ، وتكفلوا عبئه ، فبرعوا فيها وحذقوها . لذلك نجد في « تاريخ فرشته » انهم في عهد دولة لودية[1] في الهند كانوا كلفين بلغة حكامهم ومشغوفين بدراستها ، فمن ذلك الزمن ثابروا عليها كلباً ، واظهروا لها طلباً حتى بلغوا من الاتقان فيها غاية استحقوا بها أعلى المناصب وأرفع المراتب في الدولة فيما بعد . فكان مثلاً لدى اغارة ملك المغول ظهير الدين بابر وابنهُ نصير الدين همايون[2] على الهند ، يتشرف برياسة الوزارة في الدولة الافغانية[3] الآئلة الى الانحلال حينئذٍ ، هندي وثني مسمى « هيمو بقال »

اختار المغول بعد فتحهم الهند وطناً لهم — وهي ميزة تميز بها الفاتح المسلم الشرقي عن الفاتح المستعمر الغربي . فان الغربي مهما كانت البلاد المفتوحة أغنى ثروة ، وأعذب ماءً ، واجود هواءً من بلاده ، لا ينقل مركزه منها الى تلك البلاد ، فتتدفق ثروتها

---

(١) دام عهدها في الهند من سنة ٨٥٥ الى سنة ٩٢٣ هجرية

(٢) تولى ظهير الدين بابر الامر من سنة ١٥٢٦ الى ١٥٣٠ ميلادية وأما ابنه نصير الدين همايون فمن ١٥٣٠ الى ١٥٥٦

(٣) دامت هذه الدولة في ناحية من نواحي الهند من سنة ١٥٣٩ الى ١٥٥٤ حتى استولى عليها المغول

الى الخارج ، فيستحيل ظلها الذي اتسق فيهِ الخفض حروراً ، وماؤها الذي اطرد فيهِ النعيم مهلاً ، وجوها الذي ابلج فيهِ الأنس وحشةً فينذ أهاليها من البؤس والفقر بذذاً ، تتفجر في وجوههم الاهوال ، وتغبر في عيونهم الآمال ، لاشريك من اوليائهم في عواطفهم ، ولا حليف من ساداتهم في مصائبهم ، ولا نصير من حكامهم في حاجاتهم ، ولا مغيث من ولاتهم في استغاثتهم — لذلك لابسهم المغول بحكم اخوة الوطن الواحد ، ومازجوا ، وتزاوجوا ، وعاشروهم مجتمعي الشمل ومتصلي الحبل ، مصيخين لكل أنة العاني ، ومصغين الى كل نشجة الباكي، ومغيثين لكل لهفة المستغيث ، فبلغوا بهِ في قلوبهم منزلة لا تساوى ورتبة لا تدانى

بهذا التمازج والخلطة والمعاملة الحسنة أغرى المغول الهنود الوثنيين ، وأوقدوا في قلوبهم نار الشوق الى التمكن من اللغة الفارسية والتضلع من علومها وفنونها ، أضف الى ذلك ما زاد نزوعهم اليهِ وهو المشابهة والمماثلة بين افكار التصوف الاسلامي بالفارسية وبين أفكار ويدنتا[1] بالسنسكريتية . فكان اكبر مظهر أشرق بهاؤه ، ولاح علاؤه لهذا التمازج بين الحاكم والمحكوم في عهد العاهل العظيم جلال الدين اكبر[2] اذ اصبح الادب الفارسي العربي الذي حمله المسلمون الى الهند في هذا العصر الذهبي مصدراً عامًّا لالهام الجميع . ولقد بلغ تقرير الهنود الوثنيين في هذا العهد الزاهر للثقافة الأسلامية مبلغاً حملهم على تعلم العلوم الاسلامية الشرعية واجادة اللغة الفارسية والعربية ، وايضاً على بناء المساجد للمسلمين كما بناها لهم «راجا بهكوان داس» وابنه الشهير «راجا بان سنغ»

لم يكن تشجيع الملك العظيم جلال الدين اكبر وعونه للادباء في بلاطه مقصورين على المسلمين ، فقد ترجم بأمره العلماء الهنود البراهمة البارعون في ادب السنسكريتية وعلومها مع اشتراك العالم المسلم المؤرخ الشهير عبد القادر البدايوني كتباً نفيسة من اللغة السنسكريتية وادبها الى اللغة الفارسية مثل «سنكهاسن بتّيسي» و«رامايانا» «وويدات» فاصبحوا بهذا على اتصال بعلماء اللغة الفارسية المسلمين في بلاط

(١) اسم كتاب مقدس عند الهنود الوثنيين (٢) أكبر ملوك المغول في الهند تولى الامر من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٠٦ ميلادية

الملك وأسلم بعضهم على أثره مثل « بهون » . فشاعر بلاط الملك « فيضي » وشقيقهُ الوزير الشهير والعالم الجليل « ابو الفضل » صاحب الكتابين القيمين « اكبرنامه » « وآئين اكبري » كانا هنديي الاصل . « وفيضي » هذا مع كونه شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية اذ له فيها ديوان عظيم معترف بهِ من الادباء والشعراء ، كان عالماً نحريراً باللغة السنسكريتية فان القصة « نالا دامايانتي » التي كتبها نظماً باللغة الفارسية تدل على استقائه اياها من المصادر السنسكريتية وطول باعهِ فيها ، وكذلك كان اديباً متفنناً باللغة العربية فان تفسير القرآن الكريم الذي صنفهُ بالعربية بالحروف الغير المنقوطة وسماه « سواطع الالهام » يشهد على براعتهِ وقدرتهِ فيها

***

وعليهِ فما لاشك فيهِ انهُ في مثل هذه الاحوال الموفقة في بلاط الملك برع الامراء الهنود الوثنيون في لغة البلاط الفارسية شعراء وكتاباً . فالملك نور الدين جهانكير (١) ينوه في مذكراتهِ « تزك جهانكيري » باميرٍ راجبوتي (٢) وثني مسمى « راجا منوهرداس » الذي كان محبوباً عند والده الملك جلال الدين اكبر لعلمهِ الغزير واطلاعه الواسع باللغة الفارسية . فهو يجمل ذكره ، وينشر مناقبهُ مظهراً تقديره الكامل لبراعة هذا الامير في الشعر الفارسي مستشهداً لرأيهِ فيهِ بالشواهد الكثيرة من شعره . ولم يرفع هذا التقدير الملكي والعطف السامي « راجا منوهرداس » الى الصف الأول من العلماء الهنود الوثنيين الذين ساهموا في ارتقاء الأدب الفارسي وتقدمهِ في الهند بل ما أحرزه من الأعتراف والتقدير من علماء ايران وادبائها وشعرائها بأنفسهم كالعالم الاديب والشاعر المطبوع بالفارسية لذلك ارتفع بشعره الصوت وسار في البلاد الى ما وراء الحدود الهندية فتداوله الناس بالذكر الجميل ونال اعجابهم حيث ادرج الشاعر الفارسي الكبير الذائع الصيت

(١) تولى الامر من سنة ١٦٠٦ الى ١٦٢٨ ميلادية (٢) نسبة الى قبيلة « راجبوت » في الهند وهي من قبائل الهنود الوثنيين الشهيرة

« صائب » بعض اياته في مجموعته المختارة من الشعراء المختلفين ، وهو عزةٌ رنت اليها حينئذٍ الابصار وطمحت اليها القلوب . وكان شعره رائق الاسلوب يتدفق طبعاً وسلاسةً مشبَّعاً بالافكار الصوفية الرقيقة واليك ترجمة. بعض الابيات المختارة منهُ قال : —

ينبغي لك ان تتعلم الانفراد والاتحاد من عينيك
فانهُ وان كانت كلٌّ منهما منفردة ولكنهما لا تنظران الاَّ بالاتحاد

وقال أيضاً : إن الشيخ يطمئن الى إيمانهِ ، والبرهمني يفتخر بكفره
ولكن سكران جمال الحبيب لا يبالي بالايمان ولا بالكفر

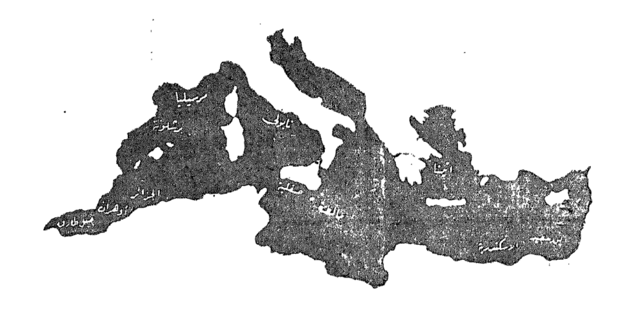
ومن شعره الصوفي ما يلي ترجمته : —
يا ربي اشرح صدري بالحب
واعطني قلباً كنز الأسرار
واطبع قلبي بالحب الخالد
واجعل شعار حبك روحي
أنا أسألك يا ربي فضلك العام
فان القنوط منك حرام
إن أذنبت بان اروي غلتي من بحر وحدتك
فذلك لا ينقص شيئاً منهُ
اعطني النطق لحمدك
والقوة للمشي في سبيلك
أنا لا أعرف يا ربي ! ما هو الايمان والكفر ؟
ولا الواقع في شرك هذا أو ذاك
فان كنتُ كافراً فاعطني الإيمان
اعطني اليقين يا ربي فاني اطلبهُ منك

(يتبع) السيد ابو النصر أحمد الحسيني الهندي

«مرتجي ظل الغمامة»

من قصيدة لكثيّر :

وما كنت أدري قبل عزّة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولّت
فوالله ما قاربتُ الاّ تباعدت بصرمٍ ولا أكثرت الاّ أقلّت
وكنا سلكنا في صَعودٍ من الهوى فلما توافينا ثبتُّ وزلّت
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا فلما تواثقنا شددتُ وحلّت
فان تكن العُتبى فاهلاً ومرحباً وحقَّت لها العُتبى لدينا وقلّت
وإن تكن الأخرى فان وراءنا منادح لو سارت بها العيس كلّت
فاني وان صدَّت لمثنٍ وصادقٌ عليها بما كانت الينا أزلّت
فما أنا بالداعي لعزَّةَ بالجوى ولا شامتٍ إنْ نعل عزَّة زلّت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي بعزَّة كانت غمرةً فتجلَّت
فوالله ثم الله ما حلَّ قبلها ولا بعدها من خُلَّة حيث حلّت
وما مرَّ من يوم عليّ كيومها وان عظمت أيامُ أخرى وجلت
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وُطّئت كيف ذلّت
وللعين أسرار اذا ما ذكرتها وللقلب وسواس إذا العين ملَّت
واني وتهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلَّت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأت منها للمقيل اضمحلّت



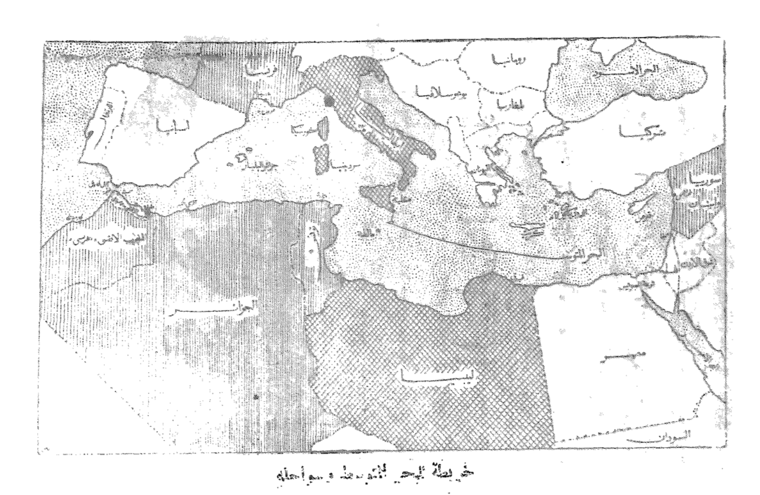
السياسة الدولية

في البحر المتوسط

ملخص محاضرة ألقاها

محمد رفعت بك

المراقب المساعد لتعليم البنات بوزارة المعارف
ومؤلف « تاريخ مصر السياسي الحديث »



خريطة البحر الأبيض المتوسط وسواحله

السياسة الدولية

في البحر المتوسط(١)

يشاهد الباحث المحقق في السياسة الدولية في البحر المتوسط أربعة عوامل مهمة تتحكم في الموقف الحاضر بين الدول

﴿العامل الأول﴾ : التسلح الذي تتسابق فيه الدول الكبرى والصغرى تسابقاً لم يشهد العالم مثله قبل الآن . واذا كان التاريخ يذكر عهد الفروسية في العصور الوسطى حين كان العرف يقضي على كل رجل حر نبيل بان يتسلح ويتعلم فنون السلاح والقتال فان عهدنا الحاضر سيذكره التاريخ بأنه العصر الذي تسلحت فيه الامم بجميع طبقاتها من قمة رأسها الى اخمص قدمها وان التسلح قد شمل كل شيء وذللت له العناصر جميعها من ارض وماء وهواء

اما اسباب هذه المغالاة في التسلح فكثيرة وتختلف بحسب احوال كل دولة ولكن هناك أسباب عامة تفسر ظاهرة التسلح الحديثة منها ضعف اداة السلم التي تمخضت عنها الحرب العظمى وهي عصبة الامم وضياع الثقة بمبدأ التضامن الدولي للتأمين ضد الحرب الذي يسمونه Collective Security فمعظم الدول التي كانت تؤمن بهذا المبدأ لم تر في اول الأمر ضرورة قصوى تدعوها الى زيادة التسلح فلما تفتحت العيون عن مشهد انهيار هذا المبدأ منذ سنتين حين وقفت دولة واحدة تتحدى الجميع زالت الغشاوة من فوق اعينهم وأخذ الجميع يتسلحون معتمدين على انفسهم

ومن هذه الأسباب ان العالم الحديث قد فقد الثقة فيما كانوا يسمونه بالمحالفات والمعاهدات فقد برهنت الحوادث قبل الحرب العظمى وفي اثنائها وبعدها الى الآن ان المعاهدات ماهي الا قصاصات من الورق يرمى بها في سلة المهملات اذا لم تخدم اغراض صاحبها في الوقت الذي يشاؤه وان القداسة التي كانت للعهود والمواثيق قديماً قد حل بها الهوان كما حل بكثير من النظم والتقاليد التي كان يعتز بها قديماً فجاء التيار الحديث فجرفها ومزقها فيما مزق شذر مذر

وأظن ان الاتجاه الحديث في العلاقات بين الدول سينحرف تدريجاً عن المحالفات والمعاهدات ويتحول الى اتفاقات وقتية تؤلف سريعاً لعلاج حالات معينة ثم تزول وتحل محلها اتفاقات أخرى

---

(١) خلاصة المحاضرة التي ألقيت بقاعة يورت بالجامعة الاميركية في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨

كما حصل بين دول البحر الأبيض المتوسطحين اشتدت وطأة حركة الغواصات المجهولة والقرصنة فعقدوا مؤتمر « نيون » في سبتمبر سنة ١٩٣٧ وكما حصل في مونيخ في سبتمبر الماضي بين الدول الأربع لحل مشكلة تشيكوسلوفاكيا

لذلك كان من خطر الشأن بمكان عظيم ان تكون كل دولة مستعدة لأية مفاجأة حتى يخشى جانبها ويعمل حسابها فيرتفع سعرها في السوق السياسي الدولي متى أزفت ساعة المساومة

ولهذا كانت المسابقة القائمة الآن بين الدول في التسلح وكان هذا النشاط العصبي الذي نلحظه كل يوم بل كل ساعة في العلاقات السياسية بين الدول

﴿ العامل الثاني ﴾ : اضطراب مياه البحر المتوسط — مضى وقت كان فيه البحر المتوسط قبلة أنظار السياح من مختلف أنحاء العالم لما حبته الطبيعة به من جو منعش وسماء صافية وشمس دافئة تبعث الحياة والنشوة في النفوس ومن ألوان زاهية ساحرة وفاكهة وأعناب ونخيل وما أنشأهُ الانسان على سواحله من آثار خالدات ومعابد ومساجد وكنائس ومآذن وتماثيل هي آيات من الفن والذوق والجمال أبدعتها شعوب البحر المتوسط في مختلف العصور واتخذتها المدنية الحديثة نماذج تحاكيها وتقتبس منها. لقد انطفأ فجأة جمال هذه المناظر وكأن عصا سحرية قد حولت هذه المباهج التي كانت ملتقى السياح من جميع أرجاء العالم ومبعث الجمال والشاعرية في نفوسهم الى مناظر حربية تسود سواحل البحر وتعج بها شواطئه فمن قواعد حربية وبحرية تنشأ من جديد الى أخرى قديمة تجدد وتعزّز ومن دبابات تسد الطرق الى طائرات تملأ الجو بهديرها ومن مطارات ومصانع وثكنات الى مبان شامخة ظاهرها خدمة العلم وباطنها تغذية الحرب

هذا الى العواصف السياسية التي تهتاجه بين حين وآخر فتجعل خطر الحرب والدمار قريب النزول وحينئذ تغشى موجة الاضطراب هذه الشعوب الوادعة التي تتفيأ منذ القدم ظلال أغصان الزيتون رمز السلام والسعادة في العالم

وليست هذه اول مرة تهب فيها على هذا البحر العواصف والاعاصير. فقد سار البحر الشعوب التي تسكن ارجاءه في رقيها وتدهورها فكان نصيبهُ تارة الهدوء والسلام وتارة تجتذب مياهه وسواحله التيارات السياسية والاجتماعية فتعرضهُ لأشد ما عرفهُ التاريخ من اخطار

ولا اظن انني بحاجة الى تعداد ما قام في البحر المتوسط من كفاح وحروب بين الشعوب في عصور التاريخ المختلفة ففي البحر المتوسط قام النزاع بين الفرس والاغريق ، وبين روما وقرطاجنة ، وبين الصليب والهلال في عهد الحروب الصليبية ، وظلت هذه الحروب تختفي وتظهر في البلاد المقدسة تارةً وتارةً في مصر واخرى في صقلية واسبانيا الى ان تسلط الهلال في شرق البحر وجنوبه وتسلطت المسيحية في الغرب والشمال

ثم جاءت حركة الاستكشافات الحديثة فكشف كولمبس عن القارة الجديدة وساح فاسكوده جاما حول رأس الرجاء الصالح الى الشرق فأحدث هذان الاستكشافان انقلاباً اقتصادياً هائلاً انتقل على أثره ميدان النشاط في الملاحة والتجارة الى المحيط الاطلسي واتجه مركز الثقل في العالم غرباً تاركاً البحر المتوسط ومدنه ودوله في ركود لم تعكره سوى أعمال القرصنة التي انتشرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر قرب سواحل الجزائر وما جاورها . وظلت شعوب البحر المتوسط تغط في نوم عميق استمر الى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين أيقظها من سباتها دوي الثورة الفرنسية وصرخة نابليون في الشرق

ولقد بلغ من قلة اكتراث الدول الكبرى بشأن البحر المتوسط أن نابليون حين قام بحملته الشهيرة سنة ١٧٩٨ قاصداً مصر أمكنه أن يفلت بأسطوله من رقابة انجلترا سيدة البحار رغم ما ارصدته لمراقبته من سفن وقوات ذلك لأنها لم تدرك قصد نابليون من حملته البحرية ولم تفطن الى انه يريد احتلال مصر . وأخيراً ظهر للبحرية الانجليزية ان نابليون نزل مصر واحتل في طريقه اليها مالطة . عند ذلك تنبهت الدول الى مكانة البحر المتوسط في العصر الحديث وعادت الحركة والنشاط الى مياهه وأعقب الحركة اضطراب سرعان ما أدى الى معارك حربية عنيفة . ثم سكنت العواصف نوعاً واهتمت الدول في منتصف القرن التاسع عشر بالبحر المتوسط لغرض واحد هو منع روسيا من اختراق البوغازات والخروج منها جنوباً مهددة مصالح الدول الأخرى

واستمر الحال كذلك حتى بعد فتح قناة السويس واحتلال انجلترا مصر الى ان نمت قوة ايطاليا في اوائل القرن العشرين واخذت تصبو الى الاستعمار كغيرها من دول أوربا وكان أن تحركت في سنة ١٩١٠ للاستيلاء على طرابلس فاهتاجت مياه البحر المتوسط من جديد وهاهي العواصف السياسيَّة تهب على البحر المتوسط من الشرق ومن الغرب ومن الوسط بسبب ايطاليا — في الشرق باستيلائها على الحبشة واهتمامها بطريق القناة . وفي الغرب بتدخلها الى جانب الوطنيين في اسبانيا . وفي الوسط بتهديدها تونس . وبفضل هذا النشاط الايطالي اصبح البحر المتوسط من أهم مواطن القلق والاضطراب في العالم في الوقت الحاضر

﴿ العامل الثالث ﴾ : نهضة الشعوب المحكومة — تختلف الشعوب التي تسكن سواحل البحر المتوسط عن الشعوب الأخرى التي تحكمها الدول الاوربية في افريقيا وآسيا . فشعوب البحر المتوسط شعوب راقية لها قوانين وأديان الهية ولغات وأدبيات وكان لها في الماضي تاريخ مجيد ومدنيات اقتبست منها المدنية الحديثة نوراً وعرفاناً ولها آثار تعتز بها وتحفزها الى العمل على استرداد مجدها الغابر لذلك كان الشعور القومي والوطني بين الشعوب المحكومة في البحر المتوسط قويًّا وكان عمل الحاكم الاجنبي في اخضاع هذه الشعوب عملاً محفوفاً بأشد الاخطار فن اضطرابات

الى قلاقل وثورات وحروب قد تقهر فيها الشعوب المحكومة فتسكن فترة من الزمن تستجم في أثنائها لتقوم ثانية تواصل جهادها في سبيل الاستقلال. لذلك ما كادت تعرف نقط الرئيس ولسون الاربع عشرة وتعلن الهدنة في نهاية الحرب العظمى حتى أخذت الشعوب المحكومة تسعى لتحقيق امانيها

وكان من جراء ظهور هذه الروح القومية بين شعوب البحر المتوسط ان اضطرت بريطانيا ثم فرنسا اخيراً الى تصحيح علاقاتها مع الشعوب التي كانت تحت وصايتها او حمايتها بعقد محالفات يعترف فيها باستقلال هذه الشعوب وتحتفظ فيها لدولة الحاكمة بمزايا الدفاع عن ارضها وقت الحرب او عند خطر الحرب وذلك باستعمال طرقها وسككها الحديدية وموانيها ومطاراتها. وكانت المحالفة البريطانية العراقية اولى هذه المحالفات سنة ١٩٣١ ثم اعقبتها مصر سنة ١٩٣٦ وها هما سوريا ولبنان تعقدان مع فرنسا مثل هذه المحالفات والشعوب الاخرى التي لا تزال تجاهد في سبيل استقلالها تطالب بعقد مثلها

والمهم ان الشعوب الاسلامية التي تسكن سواحل البحر المتوسط في حالة تطور جديد يصعب معهُ ان تستكين الى حكم او تدخل اجنبي

﴿ العامل الرابع ﴾ التيارات السياسية المتعارضة في البحر المتوسط — اقليم البحر الابيض المتوسط تعبير جغرافي صرف فليست هناك وحدة تجمع بين شعوبه سوى الوحدة الجغرافية اذ تشترك هذه الشعوب في مظاهر وصفات خاصة تميز جو هذه الاقاليم ونباتها وطبائع سكانها ، كما تشترك في ان المعادن في هذه المنطقة قليلة وان موارد الخامات ليست كثيرة. وان محصولات هذه الاقاليم متشابهة. اما فيما عدا ذلك فالتباين بين هذه الشعوب عظيم

ففي الشرق والجنوب نجد الشعوب التي تعتنق الاسلام والتي تعمل جهدها للتخلص من نفوذ الاجنبي وفي الشمال والغرب نجد الدول المسيحية ذات الأثر الكبير في توجيه السياسة الدولية في البحر المتوسط. ومن هذه الدول ظهرت الآراء الجديدة التي كانت سبباً في اضطراب مياه هذا البحر. وتتلخص هذه الآراء في مبدأين هامين : الاول مبدأ التوسع والتسلط في الحكم وتنادي بهِ ايطاليا : والثاني مبدأ الاحتفاظ بالحالة الحاضرة والديمقراطية في الحكم وتنادي بهِ انكلترا وفرنسا. ويعمل الجانبان جهد طاقتهما في اكتساب الانصار فينحاز الى ايطاليا من دول البحر المتوسط المستقلة البانيا وحكومة فرنكو في اسبانيا وينحاز الى جانب بريطانيا وفرنسا اليونان وتركيا ويوغسلافيا ومصر وحكومة اسبانيا الجمهورية. والكفاح بين هذه الآراء قد بلغ منتهى الشدة وليس أدل على شدتهِ مما نرى الآن في اسبانيا من استماتة الجانبين في سبيل النصر. وهو كفاح سيزداد على مرّ الايام وسيعيد الى الاذهان ما كان بين الصليب والهلال في العصور الوسطى

ولا يتطرق الى الذهن ان مجرد التباين في الآراء والمعتقدات بين الامم كاف لاثارة الحروب بل لا بد من اسباب اقتصادية او استراتيجية أي حربية تستند اليها هذه الآراء فتدفع بمعتنقيها الى الحرب. على هذه الاسس قامت الحروب في الماضي وعليها ستقوم في المستقبل. وسنرى عند بحثنا في سياسة الدول المختلفة ما للعوامل الاقتصادية من أثر في توجيه سياستها غير ان هناك حقيقة ظاهرة وهي انهُ ما دامت الدول التوسعية مصممة على تنفيذ سياستها وما دامت الدول الديمقراطية لا تريد ان تمس الحالة الحاضرة بأي تغيير فان النزاع بين الفريقين لا بد ان يؤدي يوماً الى الحرب

قواعد السياسة البريطانية

ولنبحث الآن في سياسة الدول التي يهمها البحر المتوسط ولنكتفِ في هذه المقالة بسياسة كل من بريطانيا وايطاليا

﴿بريطانيا﴾ يقولون ان البحر المتوسط هو في منزلة الشريان للامبراطورية البريطانية واظن ان هذا التشبيه مبالغ فيه كثيراً لأنه اذا انقطع هذا الشريان فلن تموت الامبراطورية البريطانية لأن هناك طرقاً اخرى تربط انجلترا بمستعمراتها واهمها طريق رأس الرجا الصالح الذي استخدمه الانجليز في اثناء الحرب العظمى خوفاً من الغواصات الالمانية التي كانت تملأ البحر المتوسط فأسفر استعماله عن نجاح تام. حقاً ان السرعة عامل مهم في عالم التجارة والحركات العسكرية ولكن الوقت الذي يستغرقه طريق رأس الرجا الصالح الآن لا يزيد كثيراً عمّا كان يستغرقه طريق البحر المتوسط وقناة السويس عند بدء استعمالها

ولكننا اذا انتقدنا قولهم ان البحر المتوسط شريان للامبراطورية البريطانية فلا نستطيع ان ننكر انه طريق سلطاني مهم يقرب المسافة بين بريطانيا واجزاء امبراطوريتها تقريباً تتوقف عليها سلامة هذه الأجزاء في وقت الحرب. فبواسطة البحر المتوسط وقناة السويس تستطيع انجلترا ارسال جيوشها في زمن قريب الى نقط الضعف التي تتطلب المدد والمعونة

لذلك كان من الطبيعي ان تعمل انجلترا على المحافظة على هذا الطريق بانشاء محطات تكون لها بمنزلة نقط بوليس لتأمين الطريق ضد العابثين. ومن حسن حظها ان جاءت مواقع المحطات في نقط استراتيجية على درجة عظيمة من خطر الشأن فلها جبل طارق على الباب الغربي وعدن وجزيرة برين عند مدخل باب البحر الاحمر ولها عند مدخل البحر المتوسط من الشرق فلسطين وحليفتها مصر التي تملك قناة السويس. ولها وسط البحر جزيرة مالطة ثم لها قبرص

وامتلاك انجلترا لكل من هذه المحطات علامة على تطور خاص في الموقف الدولي ويكفي ان نقول كلمة عن كل منها

﴿ جبل طارق ﴾ اما جبل طارق فقد احتلته انجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة اترخت التي انتهت بها حرب الوراثة الاسبانية وكانت انجلترا قد خشيت انضمام قوات فرنسا واسبانيا ضدها بعد ان صار حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانيا كذلك ارادت انجلترا ان يكون لها قاعدة بحرية بعد ان اتسع ملكها في الشرق على أثر إنشاء شركة الهند الشرقية

ويعتبر جبل طارق معقلاً متيناً للانجليز يضربون به المثل في الثبات والمتانة ويبلغ عدد سكانه ٢١،٠٠٠ منهم ١٥،٠٠٠ تقريباً من الاسبان والايطاليين واليهود وهم جميعاً موالون لبريطانيا ولا خوف منهم في أي وقت . وأهم عيب في هذا الحصن أن أرضهُ جبلية ولا تصلح لاقامة المطارات ضماناً لمكانة انجلترا في جبل طارق راعت حكومتها عند توزيع مناطق النفوذ بين فرنسا وأسبانيا أن (سبتة) والأقليم المقابل لجبل طارق في يد اسبانيا وهي الدولة الضعيفة حتى لا تقوم قاعدة بحرية فرنسية تنافس جبل طارق وتعرقل سير الملاحة البريطانية في مضيقه

﴿مالطة﴾ لما إتجهت أنظار الانجليز الى مصر وطريق البر الى الشرق رأوا ضرورة أخذ مالطة من الفرنسيين بعد أن احتلها نابليون لتكون قاعدة بين جبل طارق ومصر وفعلاً لم يجد الانجليز صعوبة في احتلالها سنة ١٨٠٠ وقد تأيَّد احتلال انجلترا لها في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥

ولقد سار الانجليز في حكم مالطة وفق خطتهم التقليدية فلم يتدخلوا في شئون الدين الكاثوليكي وهو السائد بين السكان كما لم يتدخلوا في استعمال اللغة الايطالية مع الانجليز . وبما أنهُ لا يفصل مالطة عن صقليَّة سوى ٧٠ ميلاً تقريباً فان أثر ايطاليا في مالطة كان عظيماً ويكفي أن تكون الكنيسة ورجالها تابعين لايطاليا أو للبابا وأن تكون اللغة الايطالية لغة الثقافة بين الأهالي واللغة الرسمية في المحاكم مع اللغة الانجليزية لندرك مدى تغلغل النفوذ الايطالي في مالطة . ولم تكن انجلترا لتهتم بذلك كثيراً حين كانت تربط انجلترا بايطاليا أواصر المودة القديمة، ولكن لما تبيَّنت انجلترا ما تكنُّهُ ايطاليا من سياسة توسعيَّة ظهرت آثارها للعيان في حرب الحبشة أعادت انجلترا النظر في سياستها في مالطة فأغلقت المدارس والاندية الايطالية ومنعت اللغة الايطالية من المحاكم واستبدلت بها اللغة المالطية وأبعدت كثيرين من المعروفين بميولهم الايطالية . واندمج الانجليز مع المالطيين وقبلوهم في أنديتهم وحفلاتهم فاذا أضفنا الى ذلك أن ثروة الجزيرة متوقفة على ما تنفقهُ بريطانيا على قواتها وما تنفقهُ الشركات الانجليزية على سفنها التي ترسو بها أدركنا بسهولة سبب ولاء المالطيين لانجلترا واستقرار الحالة في هذا الحصن البحري استقراراً يدعو الى الاطمئنان

وهناك رأي بأن مكانة مالطة كقاعدة بحرية منذ أن قوي سلاح الطيران قد أخذت تتناقص ويستدلون على ذلك بأن انجلترا لما حشدت أسطولها في أثناء الأزمة الحبشية وأزمة سبتمبر

الماضي فضّلت أن يكون ذلك في ميناء الاسكندرية بدلاً من مالطة حتى لا يتعرض الاسطول لهجوم سلاح الطيران الايطالي. ولكن هذا لا يؤثر في مكانة موقع مالطة الحربي وسط منطقة تشتبك فيها مصالح ايطاليا في صقلية وفرنسا في تونس وقد اهتمت بريطانيا أخيراً بتحصين الجزيرة وتعزيز حاميتها وانشاء مطار بها

أما قبرص فعهد انجلترا بحكمها حديث نوعاً . استأجرتها من تركيا سنة ١٨٧٨ عقب انتهاء مؤتمر برلين الذي وضع حدًّا لمطامع روسيا في تركيا وكانت قناة السويس قد افتتحت سنة ١٨٦٩ واشترى دزرائيلي أسهم الخديو سنة ١٨٧٥ فكان لا بد لانجلترا من قاعدة بحرية قريبة من القناة وتشرف منها على أملاك الدولة العثمانية في الشرق . والقبرصيون من صميم اليونان جنساً ولغةً وميولاً سياسية ويودّون لو أمكنهم الانضمام الى أمهم الكبرى بلاد الاغريق ويعزز مقام الانكليز بالجزيرة وجود أقلية من الاتراك يبلغ عددهم ٦١،٠٠٠ وهم موالون للانكليز وعدد القبرصيين ٣١٠،٠٠٠

ولم يكن في قبرص مايدعو الى اهتمام انكلترا بها فاتبعت فيها أيضاً سياسة ترك الأمور تجري في أعنتها وتركت الدعوة ينشرها القساوسة الأغريق لنصرة سياسة الضم الى اليونان فقامت الثورة سنة ١٩٣١ وهجم الثوار على بيت الحكومة فأحرقوه عند ذلك تنبهت انكلترا فاشتدت في حكمها وأخضعت الثوار وأبعدت الاساقفة المحرضين على الثورة ومنعت الأعلام الأغريقية من الظهور وقضت على حركة الدعاية لليونان . ثم جاءت الازمة الحبشية فهدأت كثيراً من حماسة القبرصيين لحركة الانضمام الى اليونان إذ وجدوا أنهم في الحقيقة مخيرون لا بين انكلترا واليونان ولكن بين انكلترا وايطاليا. وليس بين ايطاليا واليونان حب مفقود أو غير مفقود فقد حرصت الكنيسة الارثوذكسية على تنشئة الشعب على كره ايطاليا كما أن الاغريق لم ينسوا ضرب ايطاليا جزيرة كورفو سنة ١٩٢٣ تهديداً لليونان . لذلك يكتفي القبرصيون الآن بالعلاقة الروحية وبالحب الافلاطوني بينهم وبين أمهم . وأما العلاقة السياسية فيختصون بها انكلترا لانها أقدر على ملء جيوبهم مالاً وقلوبهم طمأنينة

﴿ فلسطين ﴾ : والآن نصل الى صخرة تصطخب حولها مياه البحر المتوسط وتتكسر عليها أمواجه ألا وهي صخرة فلسطين فقد أصبحت فلسطين منذ الثورة الاخيرة التي قامت سنة ١٩٣٦ أضعف نقطة في جسم الامبراطورية البريطانية. والمدهش أن بريطانيا لا تناهض الفلسطينيين دفاعاً عن كيان الامبراطورية ولكن مدفوعة بعوامل تاريخية وانسانية نحو طائفة معينة

ويرجع تاريخ هذه المسألة الى سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب العظمى إذ استغل الحلفاء شعور العرب بالجامعة العربية ضد الاتراك حلفاء الالمان واستمالوهم الى جانبهم فعقد السر هنري ماكماهون

معتمد انكلترا في مصر مع الملك حسين اتفاقاً سريًّا وعد فيه العرب بالاستقلال بعد الحرب. وفي سنة ١٩١٦ عقدت معاهدة سرية أيضاً بين انكلترا وفرنسا تعرف باسم منشئيها Sykes-Picot وبمقتضاها تأخذ انكلترا من أملاك تركيا في الشرق،العراق بما فيه بغداد والبصرة وتأخذ فرنسا سوريا بما فيها اسكندرونة وعكا. وفي سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور ويقضي بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين

ويلاحظ ان هذه الاتفاقات السرية والعلنية كانت مبهمة وغير محدودة المعنى ففي الاتفاق مع العرب لم تبيّن حدود الدولة العربية المستقلة كما أن الاتفاق مع فرنسا على ان تأخذ سورية لم يكن ليتفق مع الوعد بانشاء دولة عربية مستقلة

اما وعد بلفور فلم يبين فيه المساحة التي سيشغلها الوطن القومي ولا عدد اليهود الذي يسمح بهجرته الى هذا الوطن

وقد كان من رأي اليهود في ذلك الوقت ان يأخذوا تصريحاً بأن تكون فلسطين وطناً قوميًّا فلم يفوزوا الا بانشاء وطن قومي في فلسطين والفرق بين المعنيين ظاهر. ولو انّ الحلفاء بروا بوعدهم للعرب فأقاموا دولة عربية واحدة او اتحاداً عربيًّا من سوريا وفلسطين وشرق الأردن لما قامت مشكلة الصهيونيين الحالية لأن اليهود الذين عاشوا مع العرب كأصدقاء قروناً طويلة كانوا يستطيعون ان يوزعوا انفسهم في جهات عدة من الدول الجديدة بدلاً من حصرهم في هذا الاقليم الضيق من الأرض

ويظهر ان الانكليز ارادوا ان يتخلصوا من الفلسطينيين واليهود مرة واحدة فوضعوهما في هذا المأزق كما كان يفعل قضاة العصور الوسطى اذا ارادوا عقاب النساء المشاغبات فكانوا يحجزون كل اثنتين في حجرة واحدة فامَّا ان تصطلحا واما ان تمزق إحداهما شعور الأخرى!

وتواجه انكلترا الآن في فلسطين مشكلة من أعقد المشكلات اذ كما يهم انكلترا ارضاء العالم الاسلامي بانصاف اهل فلسطين فكذلك يهمها ألاّ تغضب ملوك المال من اليهود في اوربَّا واميركا

والخلاصة ان مركز بريطانيا في البحر المتوسط لا خوف عليه مادامت اسبانيا بحالتها الحاضرة ولا يضعف من مركز بريطانيا سوى مشكلة فلسطين ولذا يبدو ان حلها سيكون سريعاً

اما ما يقول بعضهم من ان بريطانيا بالمحافظة على نفوذها وممتلكاتها في البحر المتوسط تعرض نفسها لهجوم منافسيها وتحمل نفقات باهظة هي اولى بصرفها في جهات اخرى ولذلك فهم ينصحون بانسحاب بريطانيا من البحر المتوسط فقول لا قيمة له

١ — لأن بريطانيا اذا تركت البحر المتوسط رغبة في صون السلم فأنها بذلك تمهد الطريق فوراً لأحلال دولة اخرى محلها وبذلك يختل التوازن الدولي وتقوم الحرب التي تعمل على تفاديها

٢ — اذا تركت انكلترا البحر المتوسط تركها حلفاؤها فيه وصعب عليها ايجاد غيرهم اذا قامت الحرب

٣ — ان اقتصار انجلترا على ممتلكاتها فيما وراء البحار من غير ان يكون لها في البحر المتوسط مصالح حيوية يحولها في الحال الى دولة ساحلية من الدرجة الثانية في المقام وتصبح اشبه بهولندا في اوربا وهي تمتلك مستعمرات كثيرة وراء البحار

٤ — ولا ننسينَّ ان طريق البحر المتوسط يمر على سواحل دول متعددة واستمرار الملاحة والتجارة من هذا الطريق يكون في منزلة اعلان للعالم بعظم نفوذها ورواج بضائعها

٥ — وأخيراً لا ننسينَّ ان بريطانيا تعتبر نفسها دولة عالمية وقد اصبح البحر المتوسط بعد ان اعلنت اميركا مبدأ عزلتها السياسية عن القارة واتبعت سياسة الحواجز الجمركية في الداخل من اهم المراكز السياسية والاقتصادية في العالم فاذا نزلت بريطانيا عن نفوذها في البحر المتوسط فكأنها نزلت عن مكانتها الممتازة بين الدول

اتجاه السياسة الايطالية

ننتقل الآن الى سياسة ايطاليا في البحر المتوسط وهنا تزعجنا صيحة ايطاليا التي لا تنقطع فهي تنادي بكل صوتها ان البحر المتوسط هو بحرها وعليه يطلقون في كتبهم ومقالاتهم وكلامهم Mare Mostrum اي بحرنا ويعتمدون في ذلك على ان سواحل ايطاليا تغمرها مياه البحر المتوسط . ولكن في هذه التسمية مبالغة كما قلنا في حكاية الشريان بالقياس الى الامبراطورية البريطانية

حقًّا ان لايطاليا سواحل يبلغ طولها ٢٥٠٠ ميل مغمورة بالبحر وان الرومان القدماء سيطروا على البحر المتوسط وأقاموا على سواحله دولة رومانية استمرت عدة قرون حتى انك لتحفر في اي ناحية من سواحل البحر فلا بد انك واجد أثراً رومانيًّا

وحقيقة ان الخلق الايطالي ومستوى معيشة الايطالي وقدرته على الاندماج في شعوب البحر المتوسط تقربه الى نفوس هذه الشعوب وتميزه عن اهل الدول الكبرى الاخرى ، ولكن قولهم «بحرنا» فيه مس لشعور دولة صديقة كمصر يمتد ساحلها من السلوم الى جنوبي سواكن اذ البحر الاحمر ليس الاَّ امتداداً للبحر المتوسط ، ولمصر في البحر المتوسط والبحر الأحمر تاريخ مجيد قديماً وحديثاً — قديماً حين كانت مصر ترسل اساطيلها في عهد الملكة حتشبسوت تمخر عباب البحر الى بلاد «پنت» وهي ارض الصومال التي تحتلها ايطاليا الآن — وحديثاً حين كانت مصر في عهد محمد علي ثالث دولة بحرية في البحر المتوسط بعد انجلترا وفرنسا وحين كانت تحكم سوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب وجزءاً من آسيا الصغرى وكريد

وحين احتلت جنودها في عهد الخديو اسماعيل مصوع وهرر وزيلع وبربرة ووصلت مناراتها السبع على ساحل البحر الاحمر جنوباً الى بربره

واذا كان الايطالي يمتاز على الآخرين بأنه أقرب الى قلوب أهالي البحر الابيض من غيره فأنا من هذه الشعوب نفسها لحماً ودماً ودينها دين الاكثرية وثقافتنا قد نفذت الى قلوب هذه الشعوب قبل أن تنفذ الكتب الايطالية الى حوانيتهم

تقول ايطاليا أنها في البحر وسط الطريق وهذا حق اذا اعتبرنا البحر المتوسط وحده ولكننا اذا اعتبرنا البحر الاحمر امتداداً للبحر المتوسط فتكون مصر لا ايطاليا هي القابضة على أوسط مكان في البحر وليس أدل على مكانها المتوسط من وجودها في مفترق الطرق بين القارات الثلاث ويكفي أن تكون مصر هي المالكة لقناة السويس التي هي مصدر الحياة والنشاط السياسي والتجاري لهذا البحر لتقول بملء فيها أن البحر المتوسط لها قبل أن يكون لغيرها

كانت ايطاليا تقول منذ سنتين مضتا أن البحر المتوسط يجب أن يكون بحيرة ايطالية ولكنها الآن بعد أن ضمت الحبشة فقد أصبح البحر لها كما هو لانكلترا وفرنسا طريق مواصلات قبل أن يكون بحيرة. ولهذا اتجهت أنظارها أخيراً الى التدخل في شؤون قناة السويس وغيره من المسائل الخاصة بالمواصلات

والحقيقة أن ايطاليا من حيث موقعها في البحر المتوسط في موقع لا تحسد عليه اللهم إلاّ اذا كانت السيادة البحرية لها فهي كباقي بلاد البحر المتوسط تحتاج الى كثير من المعادن والخامات الاولية ولا يمكنها الاعتماد كلية على ماتنتجهُ البلاد القريبة منها كالمانيا مثلاً بل لا بد لها من استيراد أشياء كثيرة مثل الفحم وزيت البترول والقطن والمطاط والبن والقصدير. وهذه الاشياء ترد اليها اما عن طريق القناة واما عن طريق جبل طارق وتبلغ نسبة مايرد الى ايطاليا من خارج البحر المتوسط ٧٥٪ من وارداتها ونسبة مايرد من ذلك عن طريق جبل طارق ٧٠٪ وعن طريق السويس ١٧٪ وعن طريق الدردنيل ١٣٪ لذلك تضطر ايطاليا الى أن تولي وجهها شرقاً نحو السويس وغرباً نحو جبل طارق والمفتاحان بيد بريطانيا أو حلفائها ولاجل ان تكون ايطاليا على استعداد وجب أن تكون لها قوة دولتين بحريتين حتى تستطيع مراقبة الموقعين من الشرق والغرب وهيهات أن يتم لها ذلك لاسيما وأن التسلح في بريطانيا وفرنسا جار على قدم وساق

وكل ما تستطيعهُ ايطاليا في مركزها الحالي اذا جاءت ساعة الخطر ان تعرقل حركة المرور في البحر المتوسط وذلك بالاكثار من السفن السريعة الخفيفة والغواصات التي ثبت في الحرب العظمى أنها تستطيع ان تعوق الملاحة في البحر المتوسط ولكن سلاح الغواصات تستطيع استعماله أية دولة ولو لم يكن لها سواحل على البحر المتوسط بدليل ما قامت بهِ الغواصات الالمانية

في هذا البحر في أثناء الحرب ، كذلك تستطيع إيطاليا الضغط على انجلترا وحليفتها مصر غرباً من طريق ليبيا ومن الجنوب الشرقي من طريق الحبشة وأرترية والصومال وبذلك تكون مصر والسودان مهددتين بعدو واحد من جهتين مختلفتين وهذا يفسر اهتمام إيطاليا بحشد قواتها في ليبيا والحبشة في اثناء الأزمات . يقابل ذلك انهُ اذا اعلنت بريطانيا الحصر البحري على ايطاليا تعذر عليها استيراد ما تحتاج اليه من الخارج كما يتعذر عليها الدفاع عن مستعمراتها خارج البحر المتوسط بدليل ان المانيا لم تستطع الاحتفاظ بمستعمراتها امام قوة انجلترا البحرية

لذلك كان اهتمام ايطاليا بمساعدة القوات الوطنية في اسبانيا اذ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها ايطاليا ان تنفذ الى خارج البحر المتوسط ما دامت القناة وجبل طارق في ايدي الآخرين . وتستند قوة ايطاليا في البحر المتوسط الى الدعامات الآتية :

١ — ﴿ البانيا ﴾ : وهي مرتبطة منذ سنة ١٩٢٧ مع ايطاليا بمعاهدة دفاعية لمدة عشرين سنة ولايطاليا في البانيا رؤوس اموال كبيرة معظمها في السكك الحديدية والطرق والاشغال العامة ولها خبراء في المصالح الحكومية

ومكانة البانيا من الوجهة الحربية ان مرتفعاتها تتحكم في بوغاز اترنتو مفتاح البحر الادرياتي الى البحر المتوسط وبوغاز اترنتو الذي يفصل ايطاليا عن البلقان هو المنفذ الوحيد ليوغوسلافيا الى البحر المتوسط وعرضهُ ٤٥ ميلاً . ولالبانيا ميناءان حربيان فالونا ودورازو . وفضلاً عن ذلك فقد كشفت اخيراً آبار لزيت البترول تستغلها ايطاليا وتنتج مقدار ٣٠٠٫٠٠٠ طن سنويًّا وهو ١٠ ٪ مما تستهلكهُ ايطاليا سنويًّا من البترول . وتتبع البانيا سياسة موالية لايطاليا فهي لم تشترك في ميثاق البلقان الذي يجمع بين تركيا ورومانيا واليونان ويوغوسلافيا كما انها لم تشترك في تنفيذ العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا في اثناء ازمة الحبشة

٢ — ﴿ جزيرة بنتلاريا ﴾ وقد ظهر ما لهذه الجزيرة من الشأن الكبير في السنوات الثلاث الأخيرة إذ تقع هذه الجزيرة في موقع استراتيجي هام بين صقلية وتونس ويبلغ ارتفاع صخورها ٢٥٠٠ قدم وبالجزيرة بحيرة صغيرة تصلح لاقامة قاعدة جوية للطائرات البحرية وقد سارعت إيطاليا في تحصين هذه الجزيرة فأصبحت من أهم قواعدها البحرية في البحر المتوسط . وقد حظرت مرور الطائرات من فوقها

٣ — ﴿ جزيرة رودس وجزر الدوذكانيز ﴾ ومركز إيطاليا في هذه الجزر مهدد من ناحية تركيا التي كانت تملك هذه الجزر ولا تزال ترنو اليها لقربها من سواحل آسيا الصغرى ولوجود أقلية تركية في رودس . وكذلك يميل سكان هذه الجزر من الاغريق الى الانضمام الى امهم الكبرى اليونان . وأهمية هذه الجزر وباقي جزر الأرخبيل في الحرب أنها تصلح ان

تكون مخابىء للغواصات والمدمرات وغيرها من السفن الصغيرة السريعة

٤ — ﴿ ليبيا ﴾ وقد اصبح الآن مركز ايطاليا فيها آمناً وقويًّا بعد ان كان مهدداً في الداخل بقيام السنوسيين ضدّهم . وقد انشأوا اخيراً طريقاً ممهداً قرب الساحل من حدود تونس الى حدود مصر يبلغ طوله ١٢٠٠ ميل كما انهم اقاموا اسلاكاً شائكة مزدوجة على الحدود الشرقية يبلغ طولها ٢٢٠ ميلاً ويحاول الايطاليون الآن بمختلف الطرق كسب قلوب الأهالي

***

وليس لايطاليا خطة سياسية معينه تنتهجها فليس بينها وبين احدى الدول عداوة مقيمة كما انهُ ليست لها صداقة مقيمة مع احـداها رغم قيام محور برلين روما . ولا يزال موسوليني بعد فتح الحبشة متردداً بين رأيين الاول يقول بضرورة التفاهم مع الديمقراطيات الكبرى حفظاً للامبراطورية الايطالية الناشئة التي لاتستطيع البقاء اذا قامت الحرب وكانت ايطاليافي غير صف بريطانيا وفرنساء وحجة انصار هذا الرأي مايتوجسونه من اثر زيادة قوة المانيا عند حدود ايطاليا الشمالية بعد ضم النمسا والسوديت وبعد تغلغلها سياسيًّا وتجاريًّا في وسط اورباوشرقها. والرأي الثاني يقول بضرورة استغلال الفرص والمحافظة على محور برلين روما وخلق الاهداف والغايات امام الشعب الايطالي حتى لاتخمد حماستهُ وتضعف رسالة الفاشستية

ولايطاليا على سواحل البحر المتوسط أكثر من ٢٠٠٠٠٠ر٢ ايطالي يسكنون ارجاءها المختلفة من هؤلاء نحو ٩٠٠٠٠ر٩٠ في تونس و٦٠٠٠٠ر٦٠ في مصر ومعظم هؤلاء من العمال والميكانيكيين واصحاب المطاعم والفنادق وليست لهم مصالح حقيقية ذات قيمة اذا قوبلوا بالفرنسيين أو البريطانيين ولكن ايطاليا تعنى برجالها الآن أشد عناية وتعمل على تدريبهم وتزويدهم بمختلف المساعدات من سياحات الى ايطاليا ودخول في جامعاتها الى إنشاء الأندية وإقامة المباني لهم

وقد ارتفع ذكر إيطاليا أخيراً وصارت لها مكانة بين الأهالي تداني مكانة بريطانيا وفرنسا لا بسبب الدعاية التي ينشرونها في الصحف ولا بواسطة الراديو ولا بسبب المدارس والجامعات التي يفتحون أبوابها لمن يريد ولكن لسبب واحد له أثره الفعال في نفوس عامة الناس وهو النصر الذي أحرزتهُ في حرب الحبشة والموقف الذي وقفتهُ إيطاليا وتحدت بهِ اجماع الدول تقريباً ضدها

وهناك سبب معنوي آخر له قيمته بين الشعوب التي تعمل على التوسع وهو روح الثقة والايمان التي تملأ الشعب الايطالي الآن اينما وجد فالجميع لهم قبلة واحدة هي دولة روما ولهم دين وطني واحد هو الفاشستية ورسول واحد يقودهم الى النصر ويكاد في نظرهم يكون معصوماً من الخطأ

باب المراسلة والمناظرة

بين النقد والتقرير

حول « اعترافات فتى العصر » و« هكذا تكلم زرادشت »

في الصفحة ١٣٠ من مقتطف يناير كلمة للاستاذ حبيب الزحلاوي عن ترجمتي لزرادشت ولاعترافات فتى العصر اوردها بعد مقدمة أعلن فيها ان لديه عشرة كتب مترجمة يعد العدة للوقوف حيالها وقفة الناقد الصارم ليحاسب مترجميها « بالدقة والضبط دون هوادة ولا تحيز »

وقد توقعت بعد هذه المقدمة ان اجد ما اتوق اليه من درس وتحليل للترجمة يظهران نواحي الشطط والضعف فيها

وعهدي بالزحلاوي طامحاً الى مجاراة كبار الناقدين فاذا به يأخذ بتقدير مطلق فيقول انه وقف طويلاً عند كتابي يراجع الأصل الفرنسي ويقارنه بالترجمة العربية فتبيَّن له ان مترجم « رولا » الصادق الذي استطاع ان يسير مع موسيه على نفس واحد في مراحل القصيدة الكبيرة كلها لم يؤاته التوفيق كله هذه المرة . اما عن ترجمة نيتشه فيقول ان المترجم لم يتيسر له قراءة سائر كتب المؤلف ولو انه فعل لاستطاع ان يماشيه بعض المرحلة

هذا هو النقد الذي وعد به الأخ الزحلاوي وما هو في الواقع الاّ تعبير عن شعور او ابداء رأي مجرد او افصاح عن ذوق له خاصته وكل هذا له قيمته ولكن في غير مجال النقد الصحيح الذي يقوم عليه اصلاح الاخطاء ومعارضة الشذوذ في كل فن

ولو ان الاستاذ الزحلاوي من طغمة القراء المتمتعين لا من عداد الكتاب المفكرين لكنا نغتفر له ابداءه التحبيذ وبذله الاستهجان دون ان يعلم سبباً لتحبيذه واستهجانه

ومن غرائب النقد أن يقول لك كاتب ما قاله صديقنا من انه لا يرد شكه وظنونه « الاّ بقيام الدليل على صدق الترجمة وصحتها وهما الاصل في عمل الترجمة »

وما نعلم ان الشك والظنون المبنية على التوهم يحق لها المطالبة بقيام الدليل على بطلانها

> تلقينا من العلامة اللغوي الاب انستاس ماري الكرملي رسالة يناقش فيها ما جاء في المقتطف الماضي عن كتابه « نشوء اللغة العربية » فأرجأنا نشرها للعدد القادم آسفين لضيق المقام

في شرعة اي بلد أو أي عصر ورد النص على تكليف المدعى عليهِ إقامة الدليل ان الاصل المترجم عنهُ والترجمة امام ناظري حضرة الناقد وما نحن ممن يدَّعون العصمة عن الزلل فليتفضل وليدلنا اين « لم يسعفنا استعدادنا النفساني » على نفوذ فكرة المؤلف واين برزنا نحن لنخفيه ...

لو ان صديقنا الناقد أتى بأمثلة على ما يقرر ودلنا على المواضع التي قصّرنا فيها والمواقف التي طغينا فيها على نيتشه وموسيه لكان تفضل على الأدب وهدانا الى التصحيح وما يستكبر على المنطق والدليل الحق إلاَّ الجاهلون

وعسى الصديق يبذل شيئاً من جهده في هذا السبيل وعساه يتخذ هذه الطريقة المثلى في نقده للكتب الثمانية الباقية فلا يتعسَّف في احكامه على مترجميها ، إن للأدب محاكمهُ وقضاته فلا يقوم طاغية في دولتهِ

***

وأخيراً نستميح صديقنا الحاكم علينا بمثل هذا التسرع ان نسأله عما دعاه الى الظن «الكبير» باننا لم نقرأ من نيتشه الاَّ كتاب زرادشت الذي أقدمنا على ترجمتهِ واكثر مؤلفات هذا الفيلسوف موجودة في مكتبتنا منذ عهد بعيد ثم ما لناقد يهم بسائر كتب المؤلف فاذا كان يعتقد أننا لم نفهم زرادشت فكيف يحسن بنا الظن ويتراءى له أننا كنا سنفهم كتاب « ما وراء الخير والشر » مثلاً ؟ ان نيتشه هو نيتشه في كل مؤلفاتهِ ومن يقصر في فهم زرادشت فلا بدَّ له من الوقوف عاجزاً أمام « مشيئة القدرة » و« فجر الاصنام ».ونحن لم نعثر فيما طالعنا لكبار النقاد على ماقاله ناقدنا من ان جميع مؤلفات نيتشه تعد كمفاتيح لزرادشت وهب أن أحدهم قال بهذا فان لنا نحن أيضاً ان نقول ان في زرادشت من الجلاء في بعض فصوله ما يعين القارىء على فهم الغامض في سائر مؤلفاتهِ الاساسية.وليس في هذه المؤلفات كلها ما يجلو عنك ما غمض من أقوال زرادشت ولصديقي الزحلاوي ان يقرأ كتاب السيدة لو أندرياس سالومه عن عاشقها فردريك نيتشه فقد حللت هذه الكاتبة التي خشعت عبقرية الجبار أمام عبقريتها فلسفة محبها ورفيقها تحليلاً لم نقرأ خيراً منهُ فكانت كلما وقفت أمام عقبة من تعاريج هذه الفلسفة ترجع الى زرادشت أولاً ثم الى سائر الكتب لتذليل صعابها

وعلى كل فما كنا ملزمين نحن بالرجوع الى أي تأليف لنيتشه عند ترجمتنا زرادشت

لان مهمتنا كانت قاصرة على نقل ما في هذا الكتاب الى العربية دون أن تتخطى دائرته تفكيراً وتعبيراً

***

أما ما يقوله الناقد في ترجمتنا للاعترافات من أننا تهاونا فيها تهاوناً لا نرضاه لنفسنا لاننا كنا على زعمهِ نترجم الفصل منها بنصف ساعة فقول مجرد عن كل دليل ونحن نصرحهنا أننا لو اعدنا طبع الاعترافات فلن نستطيع تبديل شيء فيهِ كما يظن لاننا ترجمنا الكتاب وطبعناه تحت اشرافنا وراجعنا نماذجه ثلاث مرات ، هذا ماوصلنا اليهِ وهذه هي طاقتنا فان تفضل الناقد أو أي أديب آخر بتصحيح فاننا نأخذ بهِ ونشير الى مصدره شاكرين له معاونتنا في عمل ان كان منه فائدة فهي ذاهبة الى محجة كلّ اديب ومستقرة في رغباته لا في الزمان

ثم ان الناقد يلومنا زاعماً اننا اتهمنا شبيبتنا بضلالات عصر موسيه وشكوكه والحاده ، ولو انه رجع الى تمهيدنا لوفر على نفسه هذا النقد الفاشل لاننا قلنا بصراحة : اما هنا فداء العصر « عصر موسيه » لم يزل يراود الشبيبة وعواطفها مراودة لاتستسلم لها العقول والقلوب فانّ شمس هذه السماء لم تشرق يوماً على جيل جحد ربه وقتل صيانة حبهِ بالقضاء على غيرته المقدسة

وقد اختتم صديقنا جميع هذه الانتقادات بقوله انه لم يكن لمصطفى صادق الرافعي او لسواهُ ممن ذكرنا في تمهيدنا لترجمة زرادشت ان يحفزنا الى هذه الترجمة فان من هدانا الى نيتشه ورينان واضرابهما انما هو فرح انطون

فهل يريد الناقد ان يقول ان احداً لم يكن ليعرف فلاسفة الغرب لولا المرحوم فرح؟ ان هذا العبقري الكبير عاش قبلنا فكان من الطبيعي ان يقرأ نيتشه وغيره قبل ان قرأه من جاؤا بعده ولا نعلم لماذا يريدالصديق الزحلاوي ان ينكر على أعلام من الأدب العربي ان يكونوا هم من رغبوا الينا في ترجمة زرادشت أثناء محادثة جرت بيننا كما ذكرت في تمهيد الترجمة

***

هذا ما رأينا إيراده بصدد نقد صديقنا الزحلاوي الذي كتبهُ ولاشك في ساعة ملال في حين كنا ننتظر منهُ نقداً يهدينا الى مواطن الخطأ ولعله فاعل في عودة الى زرادشت والاعترافات او لعله على الأقل يأخذ بما عرضناه على رويته عندما يتناول بنقده الكتب الباقية

الاسكندرية فليكس فارس

كيف تدور الارض حول الشمس

اذا تأملنا في أي رسم للفصول الاربعة نجد ان ميل محور الارض الثابت في جهة واحدة له تغييرات اربعة بالنسبة للمدار وهي أولاً مائل داخل المدار وثانياً مائل جهة السير في المدار وثالثاً مائل خارج المدار ورابعاً مائل جهة عكس السير في المدار—ولو طبقنا هذا الفرض على العمل لما وجدناه ينطبق تمام الانطباق . مثال ذلك : اذا نظرنا الى السماء ورأينا الطيور والطائرات وهي طائرة في الفضاء (هذان مثلان يمثلان الحقيقة لدوران الارض لحدوثهما في الفضاء كالارض) ثم نظرنا على الارض ورأينا القطار والترام نجدها كلها اذا دارت في دوائر او في انحناء او في مدار كمدار الارض ان محاورها جميعاً تكون مائلة داخل هذه الدوائر ما دامت تسير فيها واذا غيرت مثلاً هذا الميل لمحاورها من داخلها الى خارجها (وهذه صفة من الصفات الاربع التي اختص بها ميل محور الارض وهو في نفس المدار كما بينا سابقاً) خرجت من السير او الدوران فيها الى اخرى غيرها اي الى دوائر او انحناء أو مدارات اخرى . هذه امثلة نجد فيها الطبيعي كالطيور والصناعي كالطائرات التي هي وليدة العلم وتطبيق العلم على العمل والتي فيها اثبت العلم بصفة عملية انهُ لا يمكن ايجاد دوران او انحناء بدون ميل لمحاورها داخلها ولم يكن العلم قد أثبت هذا في الفضاء فقط وانما أثبتهُ أيضاً على الارض في قضبان الترام والسكك الحديدية في جعلها منخفضة قليلاً عن الأخرى المقابلة لها والخارجية للدوران او الانحناء

نرى مما تقدم ان ما جعل مهندسي الطائرات والترام والقطار ان يميلوا محاورها داخل الدوران او الانحناء كي يحصل الدوران او الانحناء لم يكن عن جهل وانما أمالوها عن علم درسوه فهو ميل اجباري لا اختياري . ومن حيث ان مجرد ميل محور الارض لا دخل للجاذبية فيه ولا هو طبيعي لان الطبيعي هو الاستواء فميل محورها اذن مسبَّب لذلك يجب ان تخضع للنظام السابق وهو ان يكون محورها دائماً مائلاً داخل المدار مادامت هي الارض تدور في نفس المدار حول الشمس . وبالتجربة نجد ان هذا الميل لم يكن كافياً في تكوين الفصول الاربعة اذن يجب ان نبحث عن كل ما يسبب الميل لنجد سبباً آخر نتم به الميل الاول وهو الناتج من الدوران والذي هو جزء من الحقيقة حتى تحصل الفصول — أما أهم ما يسبب الميل فالآتي : —

(١) ميل ناتج من عدم تساوي أجزاء الاخرى مقابلة لها (٢) ميل ناتج من الدوران (٣) ميل ناتج من وضع أشياء على سطح غير مستو (٤) ميل ناتج من الصعود والهبوط في منحدر (ويحصل في الفضاء وعلى الارض وفي الماء) وبعد الاختبار نجد رقم (٤) متمماً لرقم (٢) حتى تحصل الفصول

اذن مدار الارض يجب ان يكون منحدراً لا أفقيًّا . مرتفع من جهة فصل الربيع والصيف ومنخفض من جهة فصل الخريف والشتاء . فاذا سارت الارض في ارتفاع تدريجي من الخط الفاصل بين الشتاء والخريف حتى تصل المستوى الافقي للشمس ليحصل الربيع ومن هناك تأخذ في الارتفاع تدريجيًّا عن هذا المستوى حتى تصل الى الخط الفاصل بين الربيع والصيف ومن عنده تأخذ في الهبوط تدريجيًّا حتى تصل الى المكان الذي بدأت منه السير . يلاحظ ان السير في هذا المدار المائل مستواه يجعل محور الارض يميل الى اسفل اي الى جهة واحدة مهما صعدت الارض وهبطت فيه ويجعل له نفس التغييرات الاربعة بالنسبة للمدار وهي السابق شرحها ولكن حاصله هنا بصفة علمية عملية لا بصفة فرضية . بقي اشياء اخرى يجب ان اشرحها . سبق ان ذكرنا ان الانحناء او الدوران يسبب الميل ولكن ميل الانحناء يكون اقل بكثير من ميل الدوران ويمكن ملاحظة ذلك في الامثلة السابقة . ولما كان مدار الارض عبارة عن خطين بهما انحناء قليل عند الاعتدالين فالسير عندهما يسبب ميلاً قليلاً وكذلك السير عند الانقلابين يسبب ميلاً كثيراً لانهما جزءين من دائرتين فيميل محور الارض الثابت في جهة واحدة يميل قليلاً من نمرة (٢) داخل المدار عند الاعتدالين . ويميل منها اكثر (٢) عند الانقلابين ولكن يكون عندهما صالحاً في تكوينهما لاني قد وجدت بالتجربة ان بعد الكرة الارضية في ارتفاع او في هبوط عن المستوى الافقي للشمس يسبب هبوط اشعة الشمس قليلاً من عاليها الى اسفل عما لو كانت على استواءهي والشمس فالميل الناتج من الدوران وهو نمرة (٢) يكون معوضاً لما فقدتهُ من نقص في اشعة الشمس عند الصيف الذي احدثتهُ نمرة (٤) وتنقص نمرة (٢) ايضاً ماقد زادتهُ الارض من ظلام عندالشتاء الذي احدثتهُ ايضاً نمرة (٤) فميل المحور اذن لم يكن مستقرًّا على حالة واحدة . بقي شيء آخر مهم تقوم به أيضاً نمرة (٢) وهو ان الارض اذا كانت مثلاً على مدارها وقت الخريف ومددنا محورها المائل في جهة واحدة الى اعلا المدار في خط مستقيم ثم مددناه بالوصف السابق وهي في الربيع الى اعلا المدار في خط مستقيم لتقابلا المستقيمان بالنسبة لميل كل منهما جهة الآخر من نمرة (٢) فيحصل من التلاقي وجود نجمة قطبية شمالية بالنسبة لوجودها عندهما . واما اذا مددنا المستقيمين الى اسفل من نفس المكانين السابقين فلن يتقابلا مهما مددناهما وعدم التلاقي او التقابل لا يعارض طبعاً عدم وجود نجمة قطبية جنوبية بل يكون هناك فقط نجوم تدور في دوائر ولا تغرب عند القطب الجنوبي كالتي حول النجم القطبي الشمالي وجميع السيارات تتصف بهذا الوصف لدورانها في شبه دوائر حول الشمس

سراي القبة محمود متولي علي



مستقبل الثقافة في مصر

للدكتور طه حسين بك

جزآن في ٥٥٠ صفحة ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لا نعرف موضوعاً متعلقاً بالناحية الفكرية اعظم خطراً من موضوع الثقافة في مصر ولون اتجاهها فضلاً عن انهُ مشكلة الساعة . ونظن الدكتور طه حسين بك من احق الناس في معالجته وأقدرهم على النظر فيه ، ذلك بأنهُ عميد كلية الآداب ومعنى هذا انهُ من اصحاب أمر الثقافة العالية وبأنهُ واقف على الطبائع العقلية لابناء مصر ومطلع على ما يجري في ميدان الفكر في البلدان الاوربية

والكتاب غزير المادة مشبع الفصول مسيّر الى نتائج قائمة

يستهل المؤلف الكلام بحديث الملاءمة بين الحياة المصرية الحديثة ومجد مصر القديم ويجره هذا الى الفحص عن العقل المصري فيفصل في أن هذا العقل ليس بشرقي بل هو أقرب الى العقل اليوناني للصلات التي قامت بين ارض الفراعنة والبطالسة وارض الاغريق ، وفي رأيه ان الحضارة الاسلامية لم تبعد الذهنية المصرية عن الذهنية الاوربية من حيث ان العقل الاسلامي كالعقل الاوربي يرد الى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين . ولولا ان يكون الامر هكذا لما سلخنا من الاوربيين في هذا الزمان الوان حياتهم المعنوية وما تأثرنا بنظمهم السياسية وما اخذنا بطرائقهم التعليمية . ويستخلص المؤلف ان مصر ينبغي لها أن تأخذ بأسباب الحضارة الاوربية «في كل نواحي الحياة» من غير تردد ولا مماطلة

ثم ينتقل المؤلف الى مسئلة التعليم فيطالب بإشراف الدولة على التعليم العام في جميع المعاهد سواء كانت وطنية او أجنبية ، حرّة او دينية، على شرط ان يكون المشرفون من صفوة الامة . ويجب ان ينبسط التعليم الاولي على الفقير والغني لان التعليم امر ديموقراطي ، واذا خشي احد البطالة فانما المعالجة من طريقي اصلاح النظام الاجتماعي والموافقة بين التعليم النظري والحياة العملية لا من طريق ايقاف التعليم العام أو تفضيل فئة على فئة

ثم ينظر المؤلف في اضطراب التعليم وينسبه الى رجال الوزارة الفنيين والى المركزية في وزارة المعارف والى اعتداد الناس بالامتحانات وانزالها منزلة الغاية لا الوسيلة والى احتكار التأليف المدرسي . ثم يعرض البرنامج الصالح فيطلب تعليم جغرافية البلاد وتاريخها ، واللغات الاجنبية ، وفرض اللاتينية واليونانية على طلبة العلم الخاص ، واصلاح علوم العربية وتيسيرها

ثم يشير الى اعداد المعلمين وواجب الوزارة في سبيل ذلك . كل هذا تمهيداً لاعلاء شأن الجامعة وجعلها مستقر الحضارة العالية ولا يكون هذا الاَّ اذا استقلت ماليًّا وعلميًّا ، والجامعة قد بذلت جهوداً محسوسة نافعة . ويجري الكلام بعد هذا على التعليم الديني في الأزهر وعلى مجاراة الأزهر للتحول الاجتماعي على ان يقف عند الاشتراك في الحياة العملية . والتعليم الديني واجب للاقباط كما هو واجب للمسلمين لأن الكنيسة القبطية مصدر ثقافة دينية . ويتلو هذا حديث قوي عن الانتاج في العلم والادب من تأليف وترجمة ونقل . ومما يراهُ المؤلف ان حظ المشتغلين بالكتابة في مصر ضئيل فعلى الحكومة ان تعاونهم وتشجعهم على التأليف . وأما الاقطار العربية الشقيقة فعلى مصر ان تمد يداً اليها بان تعلم ابناءها سواء في مصر او فيها وان تسعى في نشر ثقافتها في ارجائها وان تعاون على توحيد البرامج لانها مركز من اهم مراكز التعاون الفكري . ويختم المؤلف كتابه بقوله « فان مصر التي انتصرت على الخطوب وثبتت للأحداث ، وظفرت بحقها من اعظم قوة في الأرض في هدوء وأناة وثقة بالنفس وايمان بالحق ، خليقة ان تنتصر على نفسها وتظهر على مايعترض طريقها من العقبات وترد الى نفسها مجداً قديماً عظيماً لم تنسه ولن تنساه »

كتاب كله جرأة واقدام لا يعرف التردد ولا المراوغة سيغضب ناساً ويحفظ فئة من قادة الرأي في مصر . غير انهُ سيقع عند المستنيرين والتواقين الى المضيّ قُدُماً موقعاً جليلاً . ومهما يُقال في هذا الكتاب الزاخر فانهُ يقرر حقائق ويدفع اوهاماً ويدافع عن الثقافة ويطالب بالتعليم العام للفقير والغني ويعلي من شأن الأديب والعالم والمفكر ثم يجري الى تعزيز مكانة مصر وتثبيت خطى اهليها

رجعة أبي العلاء

للاستاذ عباس محمود العقاد — ٢٧٤ صفحة من القطع المتوسط
طبع مطبعة حجازي بالقاهرة

ناحية طريفة تلك التي اتجه اليها الاستاذ عباس محمود العقاد في دراسة فلسفة أبي العلاء وتطبيقها على مشكلات العصر الحديث وتياراتهِ الفكرية أو تطبيق هذه المشكلات والتيارات على هذه الفلسفة بمعنى أدق

ولا شك — كما يقول الاستاذ العقاد — ان أحوالاً كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودةً في أيام أبي العلاء ، ولاشك أننا واجدون في كلامهِ حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً

على جميع تلك الأحوال فأما مايختلف من شؤون زماننا وزمانه فهل يستطاع قياسهُ والنفاذ الى رأي أبي العلاء فيه وفاقاً لذلك القياس ؟ وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم الى الجهر برأيه فيه ؟ ذلك ما أراده الاستاذ العقاد

وليس موضوع كهذا بالسهل الهيّن ، فان التصدي له يحتاج الى احاطة شاملة بفلسفة أبي العلاء مع تقليب لمختلف الآراء التي تناولت هذه الفلسفة وتدقيق في الاغراض التي رمى اليها الشاعر أو ظُنّ أنه رمى اليها واستخراج الابيات التي يمكن الاستشهاد بها من مختلف قصائده في ذلك . كما انه يحتاج الى أن يكون القائم بهذا بصيراً بالتيارات الفكرية الحديثة واتجاهات كل منها ومزاياها وعيوبها . والاستاذ العقاد خير من يمثّل كل هذا

فقد بعث الاستاذ المؤلف حكيمَ معرّة النعمان من مرقده وردّه الى هذه الحياة وطوّف به في هذا العالم شرقيّه وغربيّه وأطلعه على مشاعر العصر ومخترعاته ومظاهر تقدّمه وتيارات فكره وادبه وأنطقه بما يراه في كل منها بالتطبيق على شعره وبالتفسير الذي رآه الاستاذ العقاد في البعض منها كما أوضحه في تفسير قول أبي العلاء :

لو كان لي أو لغيري قدر أنملةٍ   من البسيطة خلت الامر مشتركا

أنهُ انما يعني بهِ التوحيد الالهي ويريد بهِ ان الناس أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون في جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ... فمن أين — يقول المؤلف — تسربت الاشتراكية الى معناه ؟ فما أراد إلاَّ الرفق بالناس بل ما أراد إلاَّ الرفق بجميع الاحياء . راجعاً في ذلك الى كثير من أقوال أبي العلاء

***

وقد وضع الاستاذ العقاد عن لسان المعرّي ،هذا الحكيمَ موضعه بين أبي نواس وعمر الخيام فأعطانا رأيه في فلسفة هذا وفلسفة ذاك

ومن فصوله النفيسة فصل له في المقارنة والمشابهة بين فلسفة أبي العلاء وفلسفة شوبنهور مؤيداً ذلك بأقوالها انتهى بهِ — عن لسان المعرّي — الى « ان هذه قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذي يوحي بالقول الواحد الى أفواه الكثيرين ، أما المتشابهون في العقول فقلما يتفقون ، وقد يتنابذون لأنهم متشابهون »

وفي الكتاب فصلٌ عن دانتزيو رسم فيه الاستاذ العقاد صورة للشاعر الايطالي فيها تحليل رائع وسخرية لاذعة

واذا شئنا أن نستطرد الى كل فصل من فصول الكتاب استغرق ذلك منّا الحيّز والوقت فهو معرض حافلٌ لآثار الذهن العربيّ حين ينظر الى حقائق العالم في زماننا الحديث

ديوان ابن الساعاتي

الجزء الاول — قام بتحقيقه ونشره الاستاذ أنيس المقدسي — ٣١٠ صفحة من القطع الكبير — طبع بالمطبعة الاميركانية — بيروت

يعرف أدباء العربية عامة وقراء المقتطف خاصة العلاّمة أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي بجامعة بيروت الاميركية من مؤلفاته النفيسة وبحوثه القيمة . فقد أخرج كتابيه « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي » و « تطوُّر الأساليب النثرية » فلقيا من أندية الأدب تقديراً سامياً . وقد تناول المقتطف الكتابة عن الكتابين وقت إخراجها . ثم طلع الاستاذ المقدسي في العام الماضي على قراء هذه المجلة بالبحث الرائع « العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث » الذي نشر في أعداد متتالية فلمس القراء في فصوله دقة في البحث واحاطة شاملة لنواحي الأدب العربي الحديث في مختلف أقطاره ونفوذ الى أعماق التيارات السياسية التي مرَّت بالعالم العربي ، وكان لها أثر في خلق ناحية قوية في الادب كما كان لهذا الادب أثره القوي في بعث الروح الوطنية في أبناء العروبة

وان جهد الاستاذ المقدسي الذي تشغله مهام الدرس أبى عليه إلاَّ ان يخرج للناس ديوان بهاء الدين أبي الحسن عليّ بن رستم بن هَرْدُوز الخراساني المعروف بابن الساعاتي وهو الشاعر الوصَّاف المعاصر لابن الفارض والذي اتصل بكثير من ملوك الامويين وامرائهم وعظماء هذا العصر ونظم الكثير من المدائح فيهم . وقد بذل الاستاذ المقدسي جهداً بعيد الغاية في تحقيق شعر هذا الديوان الضخم بعد مراجعات عديدة على نسخ مختلفة لعبت بكلماتها تحريف النساخ فردّ كل بيت الى حقيقته بعد طول الموازنة والروية وقدم لهذا الديوان بمقدمة رائعة في أربع وأربعين صفحة — سينشر في عدد ابريل القادم من المقتطف ملخص لها — تناول فيها نشأة الشاعر وشخصيته وشعره بما عرف فيه من دقة البحث والاستقصاء

ولعلَّ الاستاذ — بعد أن يخرج الجزء الثاني من هذا الديوان — يخدم الآداب العربية ببعث دواوين فحول الشعراء بالدقة التامة التي حظى بها ديوان ابن الساعاتي — الصيرفي —

« مكارم الاخلاق الاسلامية »

للدكتور بشر فارس

اهدى الينا صديقنا الدكتور بشر فارس بحثاً جديداً له عنوانه « مكارم الأخلاق الاسلامية » نشرته له باللغة الفرنسية « مجلة المجمع الوطني للعلوم » Rindiconti della Reale Academia Nazionale dei Lincei. Vol. XIII, 193 في مدينة روما وهي من ارفع المجلات الأدبية قدراً وقد كان الدكتور بشر القى هذا البحث محاضرة في مؤتمر المستشرقين المنعقد في روما سنة ١٩٣٥

رأي المغفور له الاستاذ نلينو ان ينشره في تلك المجلة . والبحث قائم على الفحص عن عدة مخطوطات مجهولة والتنقيب عن نصوص مطبوعة لم تستثمر قبل اليوم وهو مسوق على طريقة علمية بدقة وتحقيق وخرج صاحبه بنتائج تتصل بالاخلاقيات الاسلامية تزدان بالجدّة والاستقامة

وكان في نيتنا ان نلخص هذا البحث للقراء ، ولكنه بلغنا ان الدكتور بشر فارس سينشره باللغة العربية مع زيادات في كتاب سيصدره بعد اسابيع عنوانه « مباحث عربية » وسيضم هذا الكتاب غير « مكارم الاخلاق الاسلامية » مما سبق للمقتطف ان يصفه وينقده لقرائهِ ومما لم ينشر من قبل سواء بالعربية ام باللغات الاجنبية

حياة الطفل

تأليف الدكتور مصطفى الديواني — ١٧٦ قطع وسط — مطبعة فتح الله الياس نوري بمصر

لسنا نغالي اذا قلنا ان هذا الكتاب يجب ان تقتنيه كل ربة عائلة في الشرق العربي . ففن رعاية الطفل — على ما يقول المؤلف في مقدمتهِ — اصبح « موضع اهتمام وعناية جميع حكومات العالم الراقية ، اذ بهِ تكفل لاجيال النشء القادمة صحة جيدة كاملة تمكنها وتؤهلها في المستقبل لخدمة الوطن العزيز » والمؤلف عالم عامل وطبيب ممارس مختصٌّ بامراض الاطفال وحائز لاعلى الشهادات في هذا العلم من كليات الطب الكبرى في بلاد الانكليز . وطريقة معالجتهِ للموضوع قائمة على قاعدتين من السهولة وتوخي الفائدة العملية وذلك باسلوب عربي يجمع بين السلامة والسلاسة

هنا تجد ربة البيت اهم ما تهمُّها معرفتهُ مما يتعلَّق بها وهي حامل ثم اهم ما تهمها معرفتهُ عن تغذية الطفل ونظافتهِ وملابسهِ ورياضته ونظامهِ واسنانهِ وشهيتهِ . والبحث في هذه الموضوعات متدرج تدرجاً وفقاً لنمو الجنين فنمو الطفل ، يبتدىء بالحامل وينتهي بتمريض الطفل

واذا كان القارىء في حاجة اقامة الدليل على ما تقدم فلنسق اليهِ فقرات خاصة بالرضاعة من الفصل الذي وقفهُ المؤلف الفاضل على هذا الموضوع . قال على طريقة السؤال والجواب

—كيف تحمل الأم طفلها أثناء الرضاعة ؟

هناك وضعان . الوضع الأفقي وفيه تضع الأم طفلها في حجرها أفقيًّا بحيث تكون رأسه أعلى قليلاً من بقية جسمه وقد يمنع هذا الوضع حركة ابتلاع اللبن والتنفس ، أما في الوضع العمودي فان الأم تجلس وتضع الطفل عموديًّا على فخذها ، وبذلك يرضع وهو جالس ، وهذا هو الوضع الأصح فهو يسهل حركة الامتصاص والابتلاع والتنفس

—ما هي المدة التي يجب أن يرضعها الطفل كل مرة ؟

مدة الرضاعة لا يمكن تحديدها بالضبط لأنها تختلف حسب قوة امتصاص الطفل . فالطفل

القوي اذا ما رضع ثدياً يحتوي على كمية وافرة من اللبن تكفيه خمس دقائق . أما اذا كان ضعيفاً هزيلاً أو كانت كمية اللبن غير كافية فانهُ يستمر في الرضاعة عشرين دقيقة أو أكثر يترك في خلالها الثدي مراراً ليستريح

وعلى العموم فان متوسط الرضعة هي ١٥ دقيقة تقسم على الثديين . ويجب أن لا تزيد على عشرين دقيقة لأن الطفل يحصل على أكبر كمية من اللبن الموجود بالثدي في الخمس الى العشر دقائق الأولى . فاذا لوحظ أن الطفل بعد الخمسة عشر دقيقة الأولى لا يزال يمتص الثدي بقوة فهذا دليل على أن لبن الأم غير كاف

— هل يجب اعطاء الطفل الثديين في كل مرة ؟

اذا كان افراز اللبن غزيراً وكافياً فيكفي ارضاعه من ثدي واحد في كل مرة . وإلاَّ فيجب أن يرضع الثديين ليحصل على كفايته من اللبن واذا ابتدىء بأحد الثديين في رضاعة ما يبتدأ بالثدي الآخر في الرضاعة التالية

مصطفى كامل

تأليف عبد الرحمن الرافعي بك — ٥٣٠ صفحة قطع المقتطف — ثمنه ١٥ قرشاً

ليس ثمة ريب في ان دراسة مصطفى كامل وما يدور حول اسمهِ من الحوادث السياسية في تاريخ مصر الحديث ، امر لا يستغني عنهُ من يريد ان يفهم الارتقاء السياسي الوطني في مصر من اواخر القرن الماضي الى مستهل الحرب الكبرى . فهو الذي عزز الشعور الوطني ، بخطبهِ ومقالاتهِ النارية ، وبمساعيهِ التي بذلها في مختلف بلدان اوربا ، لبسط المشكلة المصرية امام الرأي العام الدولي وذلك في مقالات نشرها في الصحف الغربية ورسائل تبادلها مع الحكام والوزراء . وقد خدمتهُ الظروف في حادثة دنشواي فكان في فرنسا عند وقوعها وصدور الحكم فيها ، فكتب مقالهُ الرنَّان فيها فنشرتهُ جريدة الفيغارو في صدرها ، وذهب الى انكلترا فتحدث مع ممثلي صحافتها ، فأبلغ الى العالم شعور مصر المتألمة المنطوية على ألمها . واذا لم يكن لمصطفى كامل من أثر باق الاَّ تنبيه الشعور بالوطنية والكرامة الوطنية ، في وقت قضى فيهِ الاحتلال على هذا الشعور على أثر هزيمة التل الكبير ، فذلك حسبهُ . ولكن للرجل مآثر اخرى تراها هي وآثارهُ السياسية الوطنية مفصَّلة احسن تفصيل في كتاب عبد الرحمن الرافعي بك . هنا نشأتهُ الاولى ودراسته وتفتح قلبهِ على حبّ مصر وخدمة قضيتها — فقد دوّن اسمهُ بعد تخرجه من مدرسة الحقوق في سجل المحامين ولكنهُ لم يمارس المحاماة لانهُ كان محامياً عن قضية مصر . ولما عاد من رحلتهِ الاولى الى اوربَّا عاد ومعهُ صناديق حافلة بالكتب عن المسألة

المصرية فأكبَّ على دراستها وفقاً لبرنامج منظم ، وذلك لأنه ادرك ان المحامي القوي الحجة هو المحامي الذي يتوفر على دراسة قضيته . وحبذا الحال لو فاز هذا الكتاب من عناية الطابع والناشر بقسط اوفر من القسط الذي فاز بهِ فان ما يحتوي عليهِ من دراسة مفصلة لحياة مصطفى كامل وعمله ، وما تنطوي عليهِ صفحاتهُ من مقالات ومختارات ورسائل لم تنشر قبلاً ، دبجها جميعاً يراعة ذلك الزعيم الوطني ، لجديرة بكتاب افخر ورقاً وغلافاً وأتقن طبعاً من هذا الكتاب. وان كنا نعلم ان قيمة الكتاب ليست في مظهره المادي

مجلة الثقافة

من دلائل إقبال الجمهور العربي على القراءة المفيدة السهلة في آن واحد أن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » رأت ان تخرج مجلة اسبوعية وسمتها بالثقافة . وقد برز منها حتى اليوم أربعة اعداد وهي سلعة نافقة لما هي عليه من تغاير الابواب ولما تضمه من المقالات النفيسة على الغالب. أما الابواب فالأدب الصرف ونقد الادب والقصص والرحلة والعلم الخالص والفن على ألوانه . وأما المقالات فمما نذكره « مع أدبائنا المعاصرين » للدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب وهي سلسلة نظرات بعيدة المرمى في مؤلفات المحدثين من الكتَّاب والشعراء و « مباحث تمهيدية في الفن » للدكتور زكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية و « تحت مصباحي الأخضر » للقصصي الاستاذ توفيق الحكيم و « على هامش العلوم » للدكتور أحمد زكي بك . ثم مقالات أُخر لامثال الأساتذة شفيق جبري ومحمد كرد علي وأحمد ضيف وابراهيم عبد القادر المازني

ثم اليك بعض ما جاء في تصدير المجلة بقلم رئيس تحريرها الاستاذ احمد امين « أصبح الشرق مرتبطاً بالغرب ارتباطاً وثيقاً في كل مرفق من مرافق الحياة : في الحركات السياسية ، في الحركة العلمية والأدبية والفنية ... ومن الخير للشرق أن يقف على هذه الحركات فيتصرف فيها عن خبرة ويحكم فيها عن علم ... » ثم « لا نريد حرباً إلا حرب الآراء ، فهي حرب خير من سلم، وصراع خير من مهادنة ... أما حرب شخص لشخص في شخصيته وجماعة لجماعةٍ في ذاتها لا في آرائها ، فسخافة نربأ بأنفسنا عنها ... » . فهذان أمران : الأول العناية بما يجري في الغرب والثاني نبذ البواعث الشخصية والتشبث بالآراء لذاتها . وللأمرين جلالتهما

بقي ان مجلة « الثقافة » ضاربة الى بذل الأدب والعلم وقد أراد أصحابها ان تكون كذلك رغبةً في التهذيب . وها هم أولاء يشاركون غيرهم من المخلصين للآداب العربية في خدمة مصر وأخواتها من ناحية الفكر

ب . ف

مقابر الفجر

صاحب هذا الديوان محمد رشاد راضي شاعر برم بالحياة ضيق الصدر فيها كما يقول هو في آخر الديوان عن نفسهِ . وهذا التبرم قد اعطى لشعره طابعاً خاصًّا يلوح الحزن والضجر في كل سطر من سطوره ولا ادري سر هذه النظرة القاتمة الى الحياة مع ان الشاعر لا يزال على عتبة الصبا وفي شرخ الشباب . واذا كان يضيق بهذه الحياة وهو لا يزال طريّ العود فما باله اذا تعاقبت عليه السنون واصطلحت عليه الايام وهي قاسية لا ترحم ، شديدة لا تلين ؟

وهو يبكي كما يقول النهاية التي وصل اليها في صباه . ولا ادري هذا الشر الذي تحمله هذه النهاية . فامامه السنون تستقبله وتنتظر ما يعد لها من نضال . وما نحب لشاعر ان يستخذى في الحياة او يلقي السلاح او يشعر الناس بأنهُ شقي . ففي استطاعتهِ ان يخلق لنفسهِ اجواء من السعادة يحلق فيها . اسمعه وهو يقول في قصيدة الهاتف

ايها الشاعر يا عصفور قد جاء الخريفْ
الربيع انسل كالمسكين خلف المهرجانْ
ما التقت من بعـده في قبلات شفتانْ
لا ولم يسمع همس الريح في الغصن حفيفْ

عجائز الليلاتْ في أبرد الغاباتْ جلسنَ ندابات صبا ربيع مات
واهاً على ما فات

فهو هنا يبكي الربيع الفائت او ربيعه هو . وهذه الابيات على شيوع الحزن فيها هي تصوير جميل للجمال العابر . وهي ككل شعر الديوان رقيق جميل

وتعبير الشاعر في شعره صادق رقيق لولا غلبة الاحزان عليه ولهذا الحزن الشائع في نفسه اختار للديوان اسم مقابر الفجر « كأنما دفن فيها املاً ضائعاً . فهو يقول في قصيدته أكفان الذكرى

لما فقدت عزيزتي وحييت في الدنيا وحيدا
عفت الوجود لانها كانت لديَّ هي الوجودا

والديوان مجموعة من السهرات والاماسي الحزينة . وقد لا يميل كثير من الناس الى الأدب الحزين لانهُ يضيف الى هموم الحياة هموماً . ولكن من يقرأ هذا الديوان يجد في قراءة الحزن لذة لانهُ يصور النفس المتألمة اصدق تصوير . نرجو أن تبتسم الحياة للشاعر الفتيّ . فيظهر أثر ذلك في شعره المقبل . فان حراماً أن يقضى على هذه النفس الشاعرة وهذا القلم الفنان بالألم العميق . ونرجو منه أن يحاول تحطيم نايه الحزين ويصنع لنفسه ناياً جديداً تشيع الفرحة والابتسامة في ألحانه

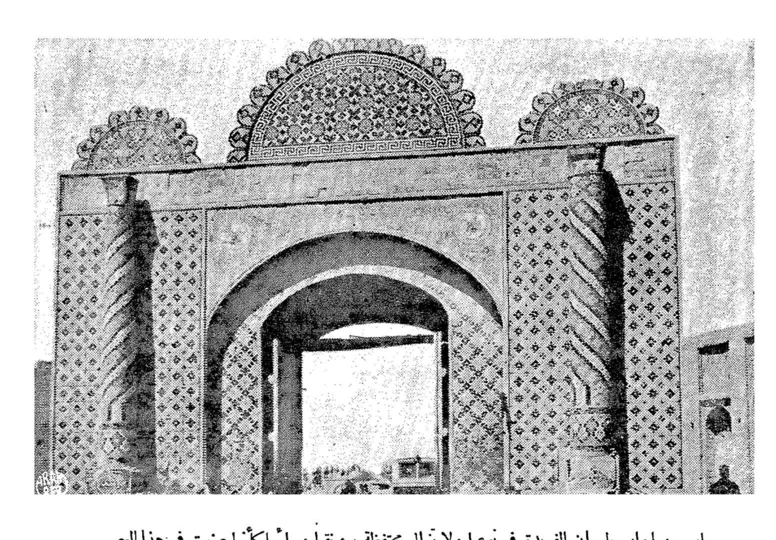
واذا كنا نحن لا نستطيع أن نسعده فنرجو أن تهب له الايام السعادة التي ينشدها

محمد عبد الغني حسن

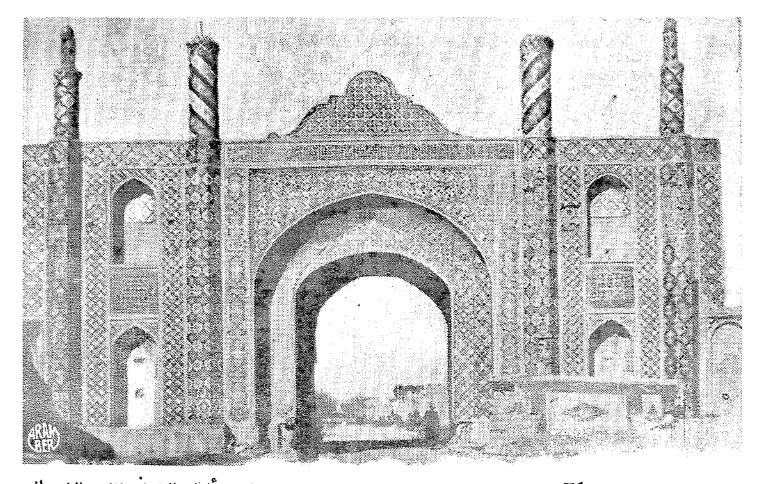
فهرس الجزء الثاني

من المجلد الرابع والتسعين

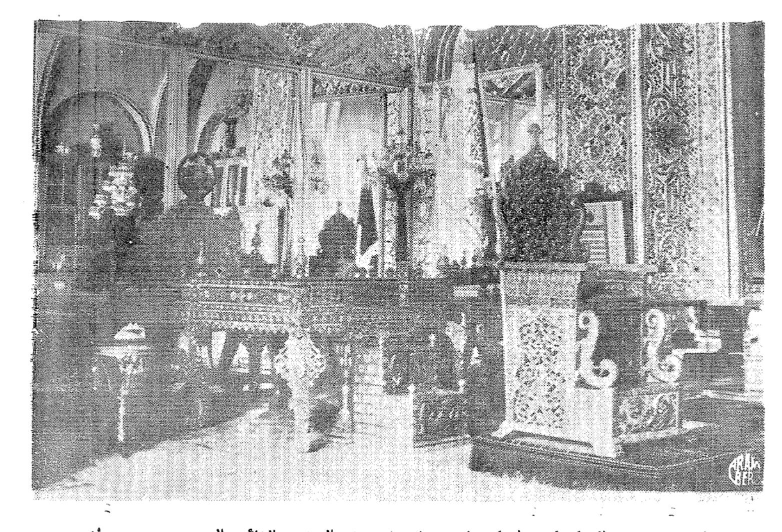
ثلاث صور لمشاهد تاريخية
فخمة في طهران عاصمة ايران



باب من ابواب طهران الفريدة في نوعها ولا تزال محتفظة برونقها وبهائها كأنها صنعت في هذا العصر



تمثل هذه الصورة باباً آخر من ابواب مدينة طهران القديمة وقد زخرفت كلها بألواح القاشاني الملون النادر الوجود



احدى صور بهو العرش في سراي كلستان ويشاهد فيه بعض التحف والنفائس التي جمعت بين جدرانه

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع والتسعين

١ مارس سنة ١٩٣٩ — ١٠ محرم سنة ١٣٥٨

الاستهداف

لحالات مرضية غريبة

حقائق جديدة تفسّر كثيراً مما كان غامضاً في شؤون الصحة والمرض

في اليوم الرابع من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ كان احد العلماء الاميركيين المقيمين في فرنسا جالساً في مقهى بباريس وامامهُ طبق يحتوي على طعام مصنوع من حيوان مائي يدعى الكركند أو السرطان البحري Lobster . كان ذلك العالم في السابعة والاربعين من عمره وكان يستطيب هذا الطعام فأكثر تلك الليلة من اكله . فلما تنفس الصباح استيقظ الرجل وقد تورمت اصابعهُ حتى غدت ضعف حجمها العادي ، ولم يقتصر الورم على الاصابع بل شمل الشفتين والخدين والعينين كذلك

ومنذ ذلك اليوم تبيَّن الرجل انهُ لا يستطيع ان يأكل السرطان البحري او المحار او الاربيان (القريدس في بيروت والجمبري في مصر) او اي نوع آخر من السمك بغير ان يصاب هذه الاصابة العنيفة في جلده . ثم تبيَّن بعد ذلك ان هناك اطعمة اخرى تؤثر فيه هذا التأثير منها اللحم والبيض حتى الخبز . فقضى بعد ذلك تسعة اشهر وهو لا يأكل الاَّ الخضراوات . ثم ارتدَّ الى اكل البيض فاستطاعهُ بغير ان يتورَّم ، فبدأ يأكل قطعة صغيرة من زلال بيضة مسلوقة ثم زادها رويداً رويداً حتى ثبت لهُ ان جسمهُ أصبح قابلاً لهذا الطعام وصحب ذلك قبول جسمه

للحم . وطعامهُ الآن — على مايروي جورج غراي الكاتب العلمي في مجلة هاربرز الاميركية وعنها نلخص هذا الفصل — يشتمل على البيض واللحم

***

وفي شهر يونيو كان هذا العالم يتناول طعام الافطار وكان على مائدته قليل من مربَّى الشُّليك strawberries فاكلهُ فعقب ذلك تأثر جلدهِ تأثراً عنيفاً على نحو ما تمَّ لهُ عندما أكل السمك قبلاً ، وقضى بضعة اشهر وهو ممتنع عن الشليك غضراً او مربياً ، ثم عاد الى تناولهِ فلم يصب بضررٍ ، وانقضت ستة اشهر وكان يأكلهُ على جاري عادتهِ ،فما كاد يفعل حتى اصيب بالحُـاق (وهو شبه الجدري يتنفط بهِ الجسم ويعرف عادة باسم الشري hives) فتنبَّـه ذهنه العاميُّ الى حالته الشاذة وكيف يصاب احياناً ولا يصاب اخرى ، فجعل يدوّن في دفتر خاص متى يصاب ومتى لا يصاب،فثبت لهُ ان ثمار الشليك التي كانت تؤذيهِ كان يأكلها في الصيف . فاذا اكلها في الشتاء لم يصبهُ ضررٌ ما من أكلها ، فكأَن هناك عاملاً متقلباً في درجة احساس الجسم بها بين الفصلين

ومع ذلك لا يزال استهداف هذا العالم للتأثر بالسمك كاملاً حتى كتابة هذه السطور لم ينقص ولم يتقلب منذ ذلك اليوم في سنة ١٩٣٢ . ومن الغريب ان اقل اثارة من اي نوع من السمك يثير جسمهُ فيتورَّم . وقد روى لي انهُ كان في جنيف وذهب الى مطعم فطلب البيض مقلوًّا بشكل خاص فجاءهُ الخادم وعلى الطبق مع البيض قطعتان من البلم (الانشوفي) فقال للخادم أعـد الطبق واصنع لي طبقاً جديداً من البيض واحذر ان يمسهُ البلم فانني لا أستطيع ان آكل السمك. ان مجرد لمسهُ يؤذيني . وعاد الخادم بعد قليل فأكلَ الرجل واستطاب ما أكل ولكنهُ عاد في الصباح التالي ونادى الخادم وقال لهُ « تعال وانظر ما فعلت » . ومدَّ يدهُ فاذا اصابعهُ متورمة ورفع قدمه فاذا كعبهُ متورم كذلك . ثم قال : عندما طلبت امس ان تصنع لي طبقاً جديداً من البيض لم اكن واهماً ولا متعنتاً ولكنك رفعت البلم عن الطبق ، وعدت اليَّ بهِ زاعماً انهُ طبق جديد . فاعترف الخادم السويسري بما فعل واعتذر

وكان مع صاحبنا في اليوم التالي صديق طبيب فأعرب عن شكهِ في صحة القول عندماروِيت لهُ الرواية . فعرض صاحبنا ان يقيم الدليل. وبعد ايام اجتمعا وكانا الاثنان على خير مايرام فأكل صاحبنا قطعة من سمك التونة بحجم حبَّـة الحمص ، وفي اليوم التالي عرض اصابعهُ على صديقهِ الطبيب فاذا هي متورمة تكاد ثخانة الاصبع تفوق الثخانة الطبيعية ثلاثة اضعاف.فالحالة حتماً ليست حالة سوءِ هضم عادية . وذلك بأن المادة المثيرة لهذه الحالة مادة معيَّـنة ، وجسم الرجل شديد الاحساس بفعلها،والتأثير واضح معيَّـن . فيجب ان توضع هذه الحالة في طبقة على حدة مفصولة

عن طبقة الحالات الناشئة عن الاطعمة التي لا تؤاتي بعض آكليها كما لا يؤاتي الفلفل الاخضر كاتب هذه السطور

وقد يقال ان صاحبنا العالم الاميركي عرف انهُ اكل قطعة التونة فأثر وهمه في اعصابه فأحدث هذا التأثير في جلده . ويردُّ على هذا القول بوقوع التأثير من غير ان يدري الآكل انهُ يتناول مادة تؤثر فيهِ . ويروى في هذا الصدد ان اميراً هندياً قصد الى معهد باستور في باريس لزيارته ، وكان مشهوراً عنهُ انهُ يستهدف لحالة مرضية لشدة تأثره بفرو الارنب ، ولكن احد المساعدين في المعهد لم يصدّق ، فأخفى في احدى الحجر فرو ارنب فما كاد الامير يدخل تلك الحجرة حتى اصيب . ويروى ايضاً عن جرَّاح اميركي مشهور انهُ يصاب بحماق شديد اذا دخل طعامه يسيرٌ من زيت بذر الكتان ، ولذلك كان يصطحب طاهيهُ كلما اضطرَّ ان يغيب عن بيتهِ اياماً . وكان مرَّة في فلوريدا فاستيقظ في الليل وهو يحسُّ بتنفطات الحماق تؤلمهُ ، فراجع كلَّ ما اكل في اليوم السابق . فاستوثق من ان جميع العناصر التي دخلت في غذائهِ كانت مما لا مأخذ عليهِ ، الا قليلاً من الرطب اشتراه من دكان ، فذهب اليهِ وسأل صاحبهُ هل يجوز ان يكون البلح قد لوّث بزيت بزر الكتان فأجابهُ انهُ يمسح البلح كل صباح بزيت بزر الكتان لأن الناس تريد البلح لامعاً

ويؤيد القول بأن هذا الفعل فسيولوجي ، ليس من خلق الوهم ، حدوثه في الاطفال . فقد روي عن طفل كان يستهدف لحالة مرضية اذا دخل البيض في طعامهِ ، فكانت امهُ تشرف بنفسها على ما يأكل حتى لا يتصل البيض بطريقة من الطرق بطعام الطفل . ودعيت السيدة وابنها الى عشاء عيد الميلاد عند صديقة في الجيرة ، وكانت هذه السيدة تعلم شذوذ الطفل من هذا القبيل فأكدت لوالدتهِ ان البيض لم يدخل الخبز ولا الكعك ولا حشوة الديك ، ولكنها نسيت ان خادمتها كانت قد استعملت قليلاً من زلال البيض في صنع البطاطس «البوريه» فما كاد الطفل يأكلها حتى اصيب اصابة عنيفة ، فثقل تنفسه ثم اغمي عليهِ وظل كذلك بضع ساعات[(١)]

***

اين نضع هذا النوع من الاصابات بين اصابات الجسم المنوعة وكيف نعلّلها ؟ فمن الواضح ان حالة الجسم عامل اساسيٌّ في ذلك . ان المادة الواحدة تكون في حالة معينة غذاء وفي حالة اخرى كالسم . ولا يصح لنا ان نقول انها سمٌّ لأن التأثر بها فرديٌّ خاصّ . حالة ان السمّ — كمركب السيانور — يحدث نفس التأثير في جميع متناوليهِ

فتأثير زلال البيض ليس تأثيراً سمياً . لان السواد من الناس يتناولونهُ فيهضمونهُ ويمثلونهُ .

---

(١) راجع مقتطف يناير سنة ١٩٣٨ صفحة ٦٦ — ٦٩ ففيها أمثلة كثيرة منوعة لهذا النوع من الاصابات وشتى البواعث عليها ومنها ما عرفناه في أصدقائنا واقاربنا

ولكن تأثير زلال البيض لا يكون طبيعيًّا في جميع الناس على الاطلاق . فقد يكون الوليد سويًّا من حيث تأثره بزلال البيض — أي يهضمهُ ويمثلهُ — ولكنهُ بعد قليل او كثير ، قد يتغير تأثره بهِ ، فيصبح زلال البيض وكأنهُ سمٌّ ، فلا يكاد يدخل الجسم ، حتى يسرع النبض كأنهُ سمٌّ آخذ في الانتشار في انساج الجسم ، ويثقل التنفس ، ويصاب جهاز التنفس بما يشبه الربو ، وقد تحدث الوفاة في الاصابات الشديدة . هذا التأثير يختلف باختلاف الناس . ففي المعرضين لهُ يبدو التأثير في ثقل التنفس وفي غيرهم في العطاس ومايعرف بحمى التبن وفي آخرين في القيء ، ومنهم من يصاب بالاسهال او بغيره من اضطرابات الجهاز الهضمي ، او بالحماق

والاستهداف للاصابة بحالة مرضية من قبيل الحالات التي تقدَّم ذكرها ، نوع واحد من الاستهداف . فمن الناس من لا يتأثر بالمواد الغذائية ولكنهُ يستهدف للتأثر بحبيبات اللقاح النباتي والروائح وغيرها من دقائق الاشياء التي تسبح في الهواء . ومعظم الذين يصابون بحمى التبن يرتدون باصابتهم الى لقاح نبات معين يدعى Ragweed (عشبة الخرقة : شرف) اما في اوربا حيث لا توجد هذه العشبة الاَّ في مناطق محصورة ضيقة ، فالسبب يردُّ الى لقاح اعشاب اخرى . ولكن طائفة غير يسيرة من حوادث حمى التبن لم تنشأ من حبيبات اللقاح . فثمة رجل مثلاً يغمس ذراعه في حوض من زيت التربنتين فلا يؤثر ذلك فيه تأثيراً مستغرباً ، لكنهُ اذا سار في مصنع يكرر فيه هذا الزيت واستنشق ابخرته اصيب بعطاس عنيف وسال الدمع من عينيه والمخاط في أنفه وعطس وتنفط جسمه تنفطاً شديداً . وقد عرف عن سيدة لا تتأثر بحبوب اللقاح ولكنها شديدة التأثر بالحرير ، فوجود ثوب من الحرير في غرفة ما يملأ جوه بدقائق غبار الحرير فلا تكاد المرأة تدخلها حتى تصاب اصابة شديدة بمثل هذه الاعراض

وهناك فريق من الناس لا يتأثر بالمواد التي تؤكل او دقائق المواد التي تدخل جهاز التنفس بل يتأثر بما يمس الجلد من حبيبات اللقاح وأوراق النبات والزيوت وغيرها من المواد العضوية وغير العضوية كاليود والنوفوكايين والمواد المتفجرة والباكليت . وقد روي ان فتاة في ولاية فرجينيا اصيبت بلطعة اكزيما في حلقها حيث كانت تتقلد عقداً من البلاتين اهداه اليها خطيبها . فأثبت البحث انها شديدة التأثر بالنكل لا بالبلاتين ، ففحص العقد فظهر انهُ خليط

ومن الناس من يتأثر هذا النوع من التأثر بمجرد لمس شيء بارد ، فاذا لمس احدهم قطعة من الجمد ، اصيب بورم في مكان اللمس . وفي السجلات الطبية بيانات اصابات كثيرة بين المستحمين والمستحمات اصيبوا اصابات شديدة على اثر تعرضهم للبرد الشديد . وبعض الذين اصيبوا باعتقال في عضلات افخاذهم في اثناء السباحة فعجزوا عنها فانقذهم الحراس فتبين انهم شديدو الاستهداف للتأثر بالبرد

وهناك فريق من الناس شديد التأثر بالعقاقير . وغيرهم بالاحياء الدقيقة كالبكتيريا والعفن. وغيرهم بالحقن التي تقتضيها ضروب مختلفة من العلاج

***

يرتدُّ منشأ البحث في هذه الحالة الفسيولوجية الغريبة الى سنة ١٨٩٩ . في تلك السنة كان الباحثان الفسيولوجيان الفرنسيان شارل ريشيه Richet وهريكور Hericourt ضيفين على امير موناكو ، في رحلة الى الشرق الاقصى . فخطر لريشيه في اثناء اجتيازهم للمحيط الهندي ، ان يقوم بتجربة معيَّنة. ذلك بان المجلات التي تعنى بعلوم الاحياء كانت حافلة في العقد الاخير من القرن التاسع عشر بوصف التجارب الخاصة بموضوع المناعة وكانت التجربة النمط في هذا الموضوع ان يؤخذ قليل من سم افعىً ويُحقن في حمامةٍ بعد حلّهِ وتخفيفهِ فتحدث بذلك مناعة في جسم الحمامة ضدَّ لدغ الافعى . وعلى هذا الاساس كان أحدُ الباحثين قد اكتشف المصل المضاد للدفثيريا . فخطر لريشيه ان يجري تجربة بسائل مهيج للجلد يستخرج من حيوان بحري يعرف باسم «البارجة البرتوغالية » . فتبين البحث مشتركاً مع هريكور . وبعد عودتهما الى فرنسا استأنف ريشيه البحث مشتركاً مع بورتييه Porteir ولكنهُ غيَّر المادة التي جرَّب تجاربهُ بها اذ بدَّلها بخلاصة مستخرجة من شقائق البحر . فتبين انهُ اذا حقنت هذه المادة في الكلب لم يتأثر جسمهُ بها تأثراً ظاهراً . ولكنهُ اذا اعاد حقن الكلب بها بعد ايام اصيب اصابة شديدة. ومن الكلاب التي اجرى عليها تجاربهُ ما مات . وكان غيره قد لاحظ الملاحظة نفسها ولكن تفسيرها ظلَّ مغلقاً الى ان قام ريشيه ببحثه هذا

وفي سنة ١٩٠٢ نشر ريشيه ومعاونوهُ نتائج بحثهم . وقد بينوا في رسالتهم حقيقتين تستوقفان النظر . الاولى : اذا دخلت مادة غريبة جسماً ما لم تحدث ضرراً ولكن اذ اعيد حقن الجسم بها ظهرت اعراض التسمم وحدث الموت احياناً . والثانية : يجب انقضاء فترة ايام بين الحقنة الاولى والثانية

وكان رأيهم ان تحوُّلاً يطرأ على الجسم في خلال هذه الفترة ، فتفقد الانسجة وسيلة معيَّنة من وسائل الدفاع عن نفسها فيصبح الجسم هدفاً لتأثير هذه المادة الغريبة . ولذلك اطلقوا على هذه الحالة لفظ «انافيلكسيس » Anaphylaxis ومعناهُ الحرفي « بغير حماية »

وكان رأي ريشيه واعوانهِ ان سبب الاصابة ينجم عن المادة السامة نفسها لان تجاربها كانت بها. ولكن باحثاً فرنسيًّا آخر يدعى ارتوس Arthus اجرى التجربة نفسها بحقن المصل المأخوذ من دم حصان في جسم ارنب ، فنشأت حالة « الانافيلكسيس » مع ان المصل غير سامّ . وتلا ذلك

سلسلة من التجارب ثبت منها ان كلَّ مادة غريبة تقريباً تحدث هذا التأثير

وكان الدكتور فون بيركيه يراقب سلوك المصابين بالامراض العفنة خلال العلاج فلاحظ انهُ اذا حقن مصلاً مضادًّا للسمّ — سم الميكروب — كان رَجْعُ ذلك في جسم المريض على نمطٍ معيَّن. ثم اذا اعاد حقن المصل نفسهِ كان رجعه في جسم المريض مختلفاً عن الرجع الاول على الغالب . وقد ظهر تأثير الحقن في اجسام بعضهم في تنفط الجلد ، وفي آخرين في تأثُّر الاعصاب وتورد الجلد ، وفي آخرين في ظهور حالة تشبه الربو . وبعضهم مات بعد الحقنة الثانية. ونشر فون بيركيه Von Pirquet وشيك Schick رسالة في سنة ١٩٠٥ بيَّنا فيها نتائج بحثهما في ما سمي « مرض المصل » وفي سنة ١٩٠٦ نشر فون بيركيه رسالة اقترح فيها اسماً جديداً لهذه الظاهرة وهو Allergy وهو يدل على تحوُّل حدث في احساس الجسم ومبلغ تأثره. وهذا اللفظ هو السائد الآن وقد انتقل من الاستعمال الطبي العلمي باللغة الانكليزية الى ألسنة الشعب

ماذا يحدث في نسيج الخلايا عند ما يلتقي المرء المستهدف بالمادة التي تؤثر فيهِ ؟ ماذا يحدث في خلايا السيدة المستهدفة لحمى التبن عند ما يدخل انفها حبيبات عشبة الخرقة ، او للفتاة المستهدفة للحماق عند ما تأكل الجمبري ؟ إنَّ العلماء لا يعرفون معرفة وافية ما يحدث ، ولكنهم يعلمون ان اربعة اصناف من انساج الجسم تشترك في هذه الظاهرة

اولاً — هناك نسيج شبيه بالشبكة يغطي المسالك اللمفاوية والاوعية الدموية وغيرها وخلايا هذا النسيج لها صلة بتوليد المواد التي تحدث المناعة في الجسم

ثانياً — تتأثر الاوعية الشعرية فتتخلخل خلاياها ، فتصبح جدرانها كأنها غربال يخرج من عيونهِ مصل الدم الى الفراغ الذي بين الخلايا . وقد اجريت تجارب دقيقة في جامعة ستانفورد فظهر ان الاوعية الشعرية فقدت ثلاثة ارباع محتوياتها عند اصابتها بهذا التخلخل في خلايا جدرانها . وهذا يفسّر الى حدٍّ ما التورّم والتورُّد اللذين يحصلان عند الاصابة

ثالثاً — تنقبض العضلات غير الارادية . فاذا اخذت قطعة من عضلة غير ارادية من خنزير هندي وعلقتها في محلول متعادل مضت في حركة انقباضها وانبساطها الدورية فاذا اضفت الى المحلول قليلا من مادَّة «اليرجية» — اي المادة التي يستهدف جسم الخنزير الهندي الذي اخذت منهُ القطعة للتأثر بها على النمط الذي تقدم ذكرهُ — ترى العضلة وقد انقبضت انقباضاً عنيفاً . وبهذا تفسر حالة الربو مثلاً في مثل هذه الحوادث

٤ — ثم ثبت ان للكبد شأناً كبيراً في هذه الحالة . فوجود المادة الاليرجية في تيار الدم يؤثر في الكبد فتهيج خلاياهُ فتطلق مادة قوية الفعل في الدم . ويرى الدكتورماينوارنغ Mainwaring — صاحب هذه الأبحاث — ان هذه المادة هي التي تؤثر في جدران الأوعية الشعرية فتتخلخل خلاياها

ما هي هذه المادة ؟

هناك مادة عضوية كيمياوية تعرف باسم الهستامين Histamine تحدث اعراضاً مثل الاعراض التي تحدثها المادة الاليرجية . فاذا حقن الهستامين في الحيوانات ، سبب انقباضاً في العضل غير الارادي ، وهبوطاً في ضغط الدم ، وتأخيراً في تخثر الدم ، وتورماً في انساج الشعيبات (Bronchioles) ثم يحدث صدمة انافيلكتية (اي زوال قدرة الجسم على حمايته وشدة استهدافه) فالموت . وقد اقترح الباحثان الكيمياوان الانكليزيان ديل Dale ولايدلو Laidlaw — وهما رائدا هذا البحث التجريبي الدقيق — ان مادة الهستامين هي المادة التي تنطلق في الدم عند التأثر بالمادة الاليرجية فتحدث فيه حالة الانافيلكسيس (اي زوال قدرته على الحماية) ومن المعروف ان الهستامين موجود في كثير من انساج الجسم وانهُ مركَّز بوجه خاص في خلايا الرئتين والكبد والغشاء المخاطي في الامعاء والجلد وهي الأعضاء التي تظهر فيها اعراض « الاليرجي » على الغالب

وجاء باحث آخر يدعى السر توماس لويس فاستخرج سوائل من اورام المصابين باعراض اليرجية في الجلد وحقن بها حيوانات فاحدثت ما يحدثهُ الهستامين من التأثير . فخلص من ذلك الى النتيجة التالية وهي ان هناك مادة شبيهة بالهستامين في هذه الاصابات وسمَّاها مادة — ه H

واثبت باحث اميركي آخر يدعى كود Charles Code في بحث لهُ بدأهُ في جامعة لندن سنة ١٩٣٦ واتمهُ في معهد مايو بجامعة مينسوتا الاميركية ، ان الهستامين لا يوجد في الخلايا فقط بل في الدم كذلك ، وانهُ في حالة الصدمة الانافيلكتية تنطلق مقادير منهُ في تيار الدم . وقد تمكن من استفراد هذه المادة وبلورتها . وتدل مباحثهُ على ان كريات الدم البيض تحتوي على الهستامين او تحملهُ . والراجح من قرن مباحث كود بمباحث السر توماس لويس ان المادة H هي الهستامين

***

واذن نحن امام حالة فسيولوجية معقدة لم يتمكن العلماء من الاجماع حتى الآن على رأي واحد شامل لتفسيرها ، وانما يعلم ان بعض الخلايا في بعض الناس تصبح شديدة الاحساس بمواد معيَّنة غريبة عن الجسم (تدعى مواد اليرجية allergens) فاذا دخلت الجسم تأثرت بها الخلايا الشديدة الاحساس بها تأثراً مرَضيًّا ومن نتائج دخولها الجسم انطلاق مواد مضادة في الجسم (لم يثبت انطلاق هذه المواد في بعض حالات الاليرجي) . ونتيجة اخرى انطلاق الهستامين او المادة الشبيهة بهِ ، وتأثير هذا التفاعل يظهر في اعضاء معيَّنة تعرف « باعضاء الصدمة » . كالجلد فيتنفط ويصاب بالحماق والتورُّد والشعيبات فيتأثر عضلها غير الارادي فتحدث حالة شبيهة بالربو او المسالك الانفية فتتخلخل خلايا اغشيتها فيكثر سيلان المخاط المائي من الأنف

****

علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

لحسين عنان بك
وكيل وزارة الزراعة (١)

****

قوة الامة بقوة أفرادها وما ينتجون من مجهود جسماني وعقلي وهذا يتوقف على مقدار ما يتناوله الفرد من الغذاء وقيمته الغذائية . ولما كانت الامة عبارة عن مجموعة أفراد كانت سلامتها بسلامة أفرادها فلا يمكن للامة ان تفوز في ميدان التطاحن إلاّ اذا توفر لأفرادها الغذاء الجيد ولا يتأتى ذلك إلاّ اذا اعتمدت الاعتماد الكلي على تموين نفسها بمنتجات أرضها لتضمن القيام بأود الشعب إبان الحرب وانقطاع السبل الخارجية عنها وهذه سياسة تعمل الأمم في عهدنا الحالي بكل جهدها على تنفيذها وإذا كانت الأمم التي حالتها الزراعية شاذة قد نجحت نجاحاً باهراً في ذلك فان بلادنا وقد خصها الله بتربة خصبة وماء وافر وشمس ساطعة وأيد عاملة رخيصة يمكنها بلا شك ان تستغني عن غيرها

ولم تهتم الامم الاّ من عهد قريب بدراسة ما يحتاج اليه الانسان من الغذاء دراسة علمية وعلاقة ذلك بالزراعة والصحة العامة ولم يشذ القطر المصري في ذلك وان كان قد بدأ متأخراً عن غيره من الاقطار وذلك لأنه كان قبل ان يتبوأ محمد علي عرش مصر يرتع في بيداء الفوضى وكان الشعب المصري معرضاً دائماً للامراض الوبائية تكتسحه اكتساحاً للفقر وانعدام الوسائل الصحية فبادر هذا المصلح بمعونة علماء الغرب ومن تخرج عليهم من المصريين في وضع أسس لمكافحة الأمراض الوبائية بالوسائل المتيسرة لديهم وقد لاقوا في ذلك صعوبات شديدة لجهل الشعب وفقره وخلو المدن من الوسائل الصحية الحديثة كالمياه المرشحة والمجاري وانعدام الرقابة على الاغذية

ولم يحل القرن العشرون إلاّ وقد خطت البلاد خطوات واسعة في سبيل التقدم في شتى مرافقها وأمنت البلاد شر الأوبئة ولكنها لا تزال تشكو من انخفاض أعمارها وضعف الصحة العام بسبب الامراض المتوطنة وسوء التغذية لانحطاط مستوى المعيشة بين عامة الشعب الى درجة

---

(١) القاها الدكتور مأمون عبد السلام في المؤتمر الطبي الشرقي بالقاهرة نائباً عن عنان بك

البهيمية الجائعة . وقد فتح القرن العشرون باب الامل على مصراعيه للعمل على تحسين صحة الجنس الانساني بالتقدم العظيم الذي أحرزه علماء الفسيولوجيا وكيمياء الاحياء فقدكانت الابحاث التي أخرجها السير جولاند هوبكنز على الفيتامينات للعالم سنة ١٩١٠ أعظم هدية قدمت للجنس البشري إذ أنها بينت فائدة الاغذية من حيث قيمتها الحقيقية في حياة الانسان وصحته وتعرضه للامراض ومقاومته لها

فالتغذية من الوجهة العلمية الحديثة ليست مسألة مقدار بل هي عبارة عن توافر المواد التي تحسن الصحة وتحافظ عليها كالفيتامينات والاملاح المعدنية والبروتينات المركبة الموجودة في شتى الأغذية. فقدكان الراسخ في اذهان البشر من اقدم العصور ان الانسان يشبع اذا التهم ما يكفي نهمه من الغذاء فكان الطب الى نحو ثلاثين سنة مضت ينسب كثيراً من الامراض الى اسباب لا علاقة لها بالتغذية

والخدمة الجليلة التي يؤديها لنا علماء التغذية الآن هي انهم يضعون لنا معايير الاغذية standards التي يصلح بها الجسم كاللبن والجبن والزبد وكافة مشتقات الألبان والخضر والفواكه الطازجة والبيض والاسماك واللحوم وكلها اغذية واقية Protective إذ تتوقف صحة الجماهير على ما تستهلكه منها. ولا نزاع في أن الطبقات الغنية في مختلف اقطار الارض تتمتع بما يزيد عن حاجتها بل بما يتخمها من هذه الاغذية أما الطبقات العاملة فلا يتيسر لها ذلك . لذلك دأبت الحكومات الحديثة حفظاً على كيان امها ان توفر الغذاء الصالح الكامل لكافة أفرادها فكانت أول خطوة خطتها في هذا المضمار ان عملت على رفع مستوى المعيشة للشعب وهذه مسألة من الصعوبة بمكان اذ لا بد لرفع مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة العاملة ان تكون الأمة قاطبة غنية في مواردها وان تكون ثروتها موزعة توزيعاً عادلاً

فالمملكة البريطانية على الرغم مما هو مشهور عنها من الغنى وارتفاع مستوى المعيشة للفرد العادي ارتفاعاً يحسدها عليه أغلب الامم فان نصف سكانها الفقراء لم يصلوا بعد باعتراف اقطاب علماء التغذية عندهم الى درجة التغذية الصحيحة التي يحتمها العلم الحديث ليضمنوا للفرد بها الصحة ومقاومة المرض — ويكفيك ان تقرأ تقرير السير جون اور عن الغذاء والصحة والدخل لتعلم أن نسبة قليلة من سكان بريطانيا لا يحصلون على ما يكفيهم من الاغذية المولدة للطاقة وان هناك نقصاً ذريعاً في الاغذية الواقية كاللبن والبيض والفواكه الطازجة والخضر والزبد واللحم

وفي سنة ١٩٢١ أعلن الرئيس هوفر ان بالولايات المتحدة — وغناها وثروتها مضرب الامثال كما تعلمون — تسعة ملايين طفل يشكون سوء التغذية كما اتضح من الكشف الطبي على الاولاد في المدارس وما ظهر فيهم من امراض الاسنان وتشوه العظام وضعف البنية . وقد اتضح ان

عدداً كبيراً من الذين يسقطون في امتحان القرعة في كافة الممالك الاوربية سقطوا بسبب سوء التغذية في ايام طفولتهم

فاذا كان هذا ما يحصل في بلاد الانكليز فما بالك بالحالة في بلادنا حيث مستوى المعيشة للفرد العادي في درجة من الانحطاط لا تصدَّق . وهذه تستدعي من غير شك دراسات عاجلة وعلاجاً أسرع إذ ان الاغذية الناقصة تضعف حيوية الشخص وتقلل من مقاومته للامراض وتعرضهُ لأمراض خطرة كمرض البلاجرا الذي يموت بسببهِ أربعة آلاف سنويًّا في جنوب الولايات المتحدة وثلاثة آلاف في رومانيا حيث يعتمد الفلاحون في غذائهم على الذرة الشامية وكمرض البري بري المتفشي في البلاد التي يعتمد سكانها على الارز في غذائهم

ويرجع سوء التغذية الى سببين اساسيين (١) الفقر (٢) الجهل . فالفقر هو بلا شك السبب الاول والاهم وعلاجه كما قلنا رفع مستوى المعيشة برفع اجرة العامل . اما الجهل فلهُ شأن خطير هامٌّ في سوء التغذية لجهل الافراد بانتخاب ما يصلح منها وعلى الحكومة أن تعمل على ازالته بالارشاد والدعاية بكافة الطرق كالتعليم الالزامي والنصائح بالراديو واشرطة الخيال (السينما)

ومن الوسائل الفعالة التي تتخذها الحكومات لمكافحة سوء التغذية في الطبقات الفقيرة

١ — تنظيم الاسعار بحيث يكون بين ثمن الجملة والقطاعي فرق يسير جدًّا

٢ — ضمان عدم غش الاغذية

٣ — اعطاء غذاء كامل العناصر مرة في الاسبوع للاطفال في المدارس

٤ — اعطاء وجبات مجانية لأولاد المدارس ليستعيدوا بها ما ينقص أجسامهم من اجزاء التغذية الناقصة بمنزلهم .

وقد أنشأت الحكومة الفرنسية سنة ١٩٣٦ باشارة المسيو بول بونكور لجنة لدراسة تغذية الشعب بفرنسا فوضعت برنامجاً قسمتهُ الى ثلاثة أقسام هي

١ — تقدير ما يحتاج اليهِ الشعب الفرنسي من المواد الغذائية (وقد قامت الحكومة الفرنسية بحصر دقيق لمقاديرها)

٢ — معرفة ما ينال الشخص الواحد رجلاً كان او امرأة أو طفلاً ممن يعيشون سويًّا أي في مجاميع من الأغذية

٣ — معرفة نوع التغذية التي تتناولها بعض العائلات في الريف وفي المدن طول مدة الفصول الأربعة ومرة كل اسبوع ، وهذه العائلات تنتخب بحسب مركزها الاجتماعي ووظيفة عميدها

وقد وزعت هذه اللجنة اعمالها على اربع لجان فرعية هي

١ : اللجنة العلمية ٢ : اللجنة الاقتصادية ٣ : لجنة الدعاية والإرشاد ٤ : لجنة المراقبة (الكونترول)

وقد سارعت بولونيا وهي قطر زراعي الى مثل هذه الدراسات وقدرت ما يستهلكه الفرد الواحد منها بالكيلوجرامات في العام من الدقيق والخبز والبسلة والارز والبطاطس والخضر والفاكهة والعسل واللحم والدهن والطيور واللبن والزبد والجبن والقشدة والبيض والسمك والسكر والملح والبن والشاي والحلويات

هذا بعض ما تمَّ في البلاد الاجنبية وها قد بدأنا ندرك مكانة التغذية وخطورتها في حياة امتنا المصرية وقبل ان أبسط مقدار انتاجنا الزراعي وكفايته لتغذية الشعب المصري تغذية كافية اودُّ ان استعرض حالة التغذية الحالية عندنا

ينقسم الشعب المصري كغيره من الشعوب الى ثلاث طبقات. الغنية والمتوسطة والفقيرة اي العاملة

فالطبقة الغنية يتوفر لها كافة انواع الغذاء . والمتوسطة يتوفر لها الضروري منه لاحتفاظها بصحتها ولكن افرادها لا يتناولون اللبن الاَّ في الحلواي كأرز بلبن او مهلبية او اذا كانوا مرضى . اما الفقيرة فهي التي يجب ان تكون محط الدراسة وموضع العناية

وتشمل الطبقة الفقيرة جمهور الفلاحين في الأرياف والصناع والخدم والباعة المتجولين وأمثالهم في المدن وسكان الصحاري وهم فريق مهم من الامة المصرية لهم حق في رقابنا

فالفلاحون وهم سواد الامة المصرية من اتعس مخلوقات الله حالاً وأسوأهم تغذية فهم في جوع مستمر لفقرهم المدقع فترى الكثير منهم لجوعه يقطع جذور النخيل من الارض ويمتص ما هو مختزن فيها من الغذاء

ويقتات الفلاح على العموم بخبز الذرة الشامية في الوجه البحري ومصر الوسطى وبالذرة الرفيعة في الصعيد بعد خلطهما بالحلبة وفي بلاد النوبة بالذرة الرفيعة او بخبز الدخن او الشعير او بخبز مصنوع من دقيق الدخن والكشرنجيج واللوبيا السودانية مع قليل من البامية المسحوقة ويفضل الفلاح جميع اصناف هذا الخبز على خبز القمح . ويقول في ذلك ان القمح لا يمكث في المعدة طويلاً فهو يرغب في اكل مادة جافة صعبة الهضم تمكث في معدته اطول مدة ممكنة حتى لا يشعر سريعاً بالجوع

ويأتدم الفلاح الذي ليس عنده ماشية بالمخللات من البطيخ الصغير والبصل واللفت والخيار الكبير الحجم والفلفل والباذنجان والليمون وما الى ذلك

ويأتدم كذلك بما يجمعه من الحقول من النباتات الحمقاء الشيطانية التي تنمو من تلقاء نفسها كالسريس والجعضيض والخبيزة والكبر والحميض والسلق والبسلة الشيطانية والملوخية والرجلة ونبات عنب الديب . أو يشتري البامية أو قرع الكوسة أو الباذنجان عندما يكبر حجمها كثيراً ويرخص ثمنها فيطبخها مع البصل المقلي في الزيت من غير لحم مرتين في الاسبوع على الاكثر . ويعمد فلاحو

الصعيد الى طهي العدس واوراق الكشرنجيج وهو ضرب من اللبلاب

اما الفلاح الذي يقتني الماشية فانهُ يبيع سمنها ويأكل جزءا من اللبن الرايب وما يتبقى منهُ يصنعهُ جبناً قريشاً فيبيع جزءا منهُ ويخزن الباقي ليكون جبناً قديماً يبيع منهُ جزءا بالبلاص ويتغذى بالباقي

والفلاح العادي اي عامل الحقل لا يأكل اللحم الاَّ في المواسم والاعياد وهي العيدالاضحى ويوم عاشورا ، ومولد النبي وليلة نصف شعبان و٢٧ رجب وبعض ايام قليلة جدًّا في رمضان إذ من عادته في رمضان ان يأكل في السحور العسل الاسود واللبن الرايب وهو في العادة لا يأكل سوى اللحم الجملي أو الخشن العجالي وما يستهلكهُ الفرد منهُ حوالي ربع رطل على الاكثر في كل موسم . وإذا تصادف ومرضت احدى مواشي القرية بمرض اقعدها عن العمل وجعل شفاءها مستحيلاً فانهم يبادرون الى ذبحها وهي في آخر رمق من حياتها ويوزعون لحمها بالكوم بأبخس الأثمان على جمهور القرية فيقبلون عليها بروح تعاونية مساعدة لصاحبها وبذا يمكننا أن نقدر ما يستهلكه الفرد الواحد من جمهور الفلاحين في العام بنحو ثلاثة أرطال الى خمسة على الاكثر من اللحم معظمهُ مريض نحيل وقد يكون فاسداً

***

والعادة ان مقدار استهلاك اللحوم يتمشى مع الحالة المالية للفرد والمجموع — لذلك نرى الذبيح في الارياف اكثر في الشتاء منهُ في الصيف ليسر الفلاح في اثنائهِ وعقب موسم القطن

ويعمد الفلاحون في مناطق الارز الى اصطياد السمك الصغير من قنوات الارز وحقوله قبيل نضجه ويقتاتون بلحمهِ وكذلك يصطادون الطيور البرية يأكلونها مع الأرز

وفي الصعيد عند ارتفاع النيل وملء الحياض تكثر البسارية وهي ضرب من السمك الصغير فيجمعونها ليقتاتوا بها مقلوَّة في الزيت أو مسلوقة أو مشوية أو يحفظونها بشكل ملوحة — ومنهم من يصطاد فيران الحقل والقطط البرية ويقتاتون بها بعد شيّها

والفلاح العادي لا يأكل البيض الاَّ اذا جاءه ضيف وهذا نادر — والبيض عنده عملة يشتري بها البترول والملح والكبريت

اما من حيث الفاكهة فيأكل منها البلح وخاصة الرامخ منه والجوافة التالفة الرخيصة والبطيخ الرخيص الأقرع والحرش والفقوس والعجور والجميز والنبق إذا وجد والبرتقال واليوسفي الرخيص جدًّا

وأما الطبقة الفقيرة في المدن فغذاؤها في الصباح الفول أو العدس المدمس بالزيت أو العسل الأسود المغمس بالخبز او الفطير المفتوح بالزيت مع السكر الناعم أو العسل الاسود والطعمية أو

الكشري . وفي الظهر يأكلون الطعمية والباذنجان المقلوّ بالزيت مع سلطة القوطة وسلطة الطحينة المصنوعة من كسب السمسم والفجل والكرات والبصل والخس والعدس والبصارة والجبن مع الفول الاخضر او البطيخ والخيار صيفاً مع خبز القمح او القمح مخلوطاً بالذرة وفي العشاء يأكلون الفول المقلوّ بالزيت مع القوطة أو السلق وكذلك الفول النابت والسمك المقلوّ بالزيت والأرز المسلوق بالدهن مع الطرشي أي المخللات المختلفة وربما أكلوا اللحم إذا تيسر لهم مرة في الاسبوع مطبوخاً بالخضر كالملوخية والقرع والباذنجان والبامية والفول الاخضر والسبانخ والرجلة والخبيزة والكرنب والطماطم وغير ذلك مما هو متوفر في مصر

أما من حيث الفاكهة فهم أحسن حالاً من الفلاح

أما اللبن فلا يدخل بطونهم إلاّ في حالة المرض فقط

***

وسكان الصحراء إما بدو متنقلون وراء المرعى كسكان الصحراء الغربية والصحراء الشرقية من العرب الساميين والحاميين كالبجاه من العابدة والبشاريين او قابعون كسكان الواحات الداخلية والخارجية والبحرية وسيوه والفرافرة وسكان وادي فاران وغيره من أودية جنوب سينا العامرة بالحدائق والبساتين وسكان وادي الجديرات ومنطقة الساحل بشمال سينا وأغلب هؤلاء يعتمدون على التمر في غذائهم — ويعتمد سكان الواحات عدا سيوة والفرافرة على الأرز إذ يزرعونهُ بكثرة فيأكلهُ فقراؤهم مسلوقاً في الماء فقط ومعهُ فلفل أو ليمون مخلل وبعضهم يطبخ العدس بالملوخية ويسمونهُ بصارة ويأكل أهل البحرية البقلية (وينطقونها البغلية) وهي أرز مطبوخ مع العدس المقشور وهي ما نسميها بمصر بالكشري — أما الأغنياء فيطبخون الارز بمرق اللحم أو مع لحم الطيور وتقلية البصل ويسمونهُ أرزاً أبا زفر — ويأكل سكان الواحات قاطبة وسكان الطور ووادي فاران وشمال سينا دبس البلح وهو عسله الذي يعتصر منهُ بالضغط — وأطعمة سكان الواحات وأودية جنوب سينا أحسن حالاً وأكثر تنوعاً إذ يكثر عندهم الخضر كالطماطم والشمام والبطيخ والخيار والملوخية والبامية والقرع والرجلة والخبيزة والسبانخ والسلق والشمر والمقدونس (البقدونس) والكرفس والشبت واللوبيا والحمص وكلها لاكلهم الخصوصي والفاكهة التين والعنب والكمثرى واللوز والزيتون والموالح والتفاح والنخل والمشمش والتوت والنبق

اما عرب الساحل الشمالي للصحراء الغربية فيأكلون التمر كما هو يجلبونه في غرارات من من واحة سيوة او يصنعون منهُ ما يسمونهُ سمنة محلية أي محلاة وذلك بطبخه في الماء الى ان يكثف قوامه ويضيفون اليهِ السمن ثم يخزنونه في قرب من الجلد

ومن اطعمتهم المخروطة ويسمونها عيشاً مقطعاً وهي تشبه الرشته عندنا أي رقاق من العجين يقطع شرائح رقيقة تطبخ في ماء يغلي ومعها قليل من السمن أو شحم الغنم أو الزيت مع قليل من الملح والفلفل . ومنها العصيدة من دقيق الشعير ويأكلونها مع الطماطم أو الفلفل واللحم

ومنها الكسكاس المجهز بالطماطم والقرع ومنها المفروكة ويأكلونها في الربيع وقت كثرة السمن أو يخبزون على لوح من الصاج رقاقاً رفيعاً بدون خميرة يسمونهُ الجردق أو يخبزون القراصة وهي عجينة تخبز فوق الرمل أو الزلط المحمي

ومن أطعمتهم الزقزوق وهو لبن متجمد فيذيبونهُ في الماء ويسمى اذن الشنيشة ويأكلونها مع البلح والخبز وهم يجففون اللحم ويسمونهُ القديد ويطبخونهُ مع البصل ويصنعون منهُ الثريد

ويلوّن عرب الصحراء الغربية طعامهم وخاصة الارز المسلوق والعدس بالبذار كما نستعمل نحن الطماطم . والبذار مخلوط من الكركم والكزبرة والكمون والشطيطة والفلفل الاسود وكثيراً ما يلجأون في سني المحل الى أكل الكلاب والقطط والثعالب والذئاب

اما سكان الصحراء من العبابدة فقسمان عبابدة ساحليون وعبابدة جبليون . فالساحليون صيادو سمك يتغذون بالسمك المجفف بالملح وبما يجلبونهُ من وادي النيل من الذرة الرفيعة والجبليون يرعون الأغنام والماعز والابل وهؤلاء لايختلفون في غذائهم عن اقربائهم البشاريين فخبزهم من الذرة العويجة أو الفترتية وأحياناً يمضغون حب الذرة جافًّا كما هو ويخبز العبابدة نوعاً من الخبز من الذرة الرفيعة يسمونهُ السنسان او الدوكة

ويفطر العبابدة بالشاي واللبن مع الخبز بعد صلاة الصبح وإذا لم يوجد اللبن يضعون السمن مع الشاي والسكر

اما البشاريون فيفطرون بلبن النياق وبالتمر المجلوب من السودان او بلاد النوبة ويشربون الشاي او القهوة المصنوعة في الجبنة من البن والفلفل الاسود بمقدار الثلثين والثلث . ولا يتناول العبابدة والبشاريون عادة طعاماً في الغداء — اما في العشاء فيأكلون القراصة (وهي الخبز) مع اللبن دائماً في الشتاء . اما في الصيف فيأكلون العصيدة مع حب الذرة ويطبخها المقتدر منهم وخاصة العبابدة مع العدس او الارز او الملوخية الناشفة او البامية الناشفة مع الشطة او الفلفل وفي الموسم يأكلون الفول المدشوش بعد طهيه بزيت الخس او زيت بذرة القطن والأرز المسلوق باللحم أو اللبن او السمن يصنعونه من لبن النعاج او الماعز ويشربون اللبن الحامض المتخلف بعد استخراج الزبد . والعادة انهم لا يأكلون اللحم الاَّ نادراً وذلك في الافراح والمواسم عند ما يتجمعون عند قبور اوليائهم فيذبحون الغنم ويطهون لحمها شيًّا بطريقة السلات وهي حفرة يملأونها بالخشب وفوقه زلط كبير يشوون اللحم فوقه عند ما يصبح كالجمر ويأكلون ما يصطادونهُ

من الغزلان والماعز الجبلي البدن — ومن عادتهم انهم يأكلون الامعاء نيئة بعد ان يعصروا عليها مرارة الذبيحة ولا يأكل البشاريون الطيور والسحالي ولا السمك الذي يعتبرونه بعكس عبابدة الساحل رمة جيفاء ويحتقرون من يأكله

وبدو الصحراء الشرقية الشمالية وأواسط سينا في درجة من الفقر والاعدام لا تتصوّر فقد رأيت بعيني رأسي نساءهم في وادي الكنتلة يفركون بعر الجمال ويلتقطن منها ما لم يهتضم من حب الذرة الرفيعة ثم يجففنها ويسحقنها ويصنعن منها خبزاً او عصيدة .اما البعر نفسه فيدخنه رجالهم في الشبك بدل الدخان .وقد كان بوادي الكنتلة بأواسط سينا ست عائلات انقرضت كلها في مدى سنتين من الجوع عدا عائلة واحدة

ويصنع البجاة من العبابدة والبشاريين وكذلك عرب الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا خبزاً من بذور نباتات برية يجمعونها في الصحراء وهي نباتات السمح Mesembrianthymum Forskaeli ونباتات الحداق Aizoon Canariensis كما يصنع عرب أولاد علي بالساحل الشمالي للصحراء الغربية الخبز من حبوب نبات نجيلي يسمونهُ البشنين وهو الكوراكان Elensine Corakana

***

الآن وقد استعرضنا ما تتناوله الطبقات المختلفة من الاطعمة في بلادنا وجب علينا ان نعرف قيمتها الغذائية وهذه الأغذية على اختلافها تقع في قسمين عظيمين

(ا) أغذية من أصل نباتي

١ — حبوب نجيلية (غلال) ٢ — حبوب بقولية ٣ — خضر (طازجة أو مسلوقة أو مخللة) ٤ — فواكه (طازجة أو مطبوخة أو محفوظة أو مجففة) ٥ — زيوت نباتية ٦ — النقل

(ب) — أغذية من أصل حيواني

١ — لحوم الحيوانات الثديية ٢ — لحوم الطيور ٣ — الاسماك الطازجة والمجففة (كالبكلاه) والمملحة كالفسيخ والملوحة والصبوغة والرنجة والمحفوظة في العلب كالسردين والتونة ٤ — الحيوانات القشرية كالجنبري واللانجوست ٥ — المحار كأم الخلول ٦ — اللبن والزبدة والقشدة والسمن والجبن بأنواعه واللبن الزبادي والحامض والشرش والسرسوب ٧ — البيض

وهذه الأغذية تحتوي على أملاح معدنية هامة من الوجهة الحيوية وهذه الاملاح أما قلوية أي ذات فعل قلوي كأملاح البوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والمغنسيوم والمنجنيز والحديد والألومنيوم أو أملاح حمضية لها فعل حمضي كاملاح الفُصفور والكبريت والسلسيوم والكلورين

[تجد تتمة الجانب الاول من هذا البحث النفيس في آخر باب الاخبار العلمية] .

قيد الماضي

لعبد الرحمن شكري

أخذنا عن الماضي قليلاً من النهى … واكثر ما نلنا الهواجسُ في النفس
فَمِنْ غامض لا يُدْرِكُ الفهمُ فهمَهُ … ومن واضح كالخط في صفحة الطِرس
فمن قَسْوِ ذي خوف من الموت والأذى … ومن ضغن مهموم من الفكر والحَدْسِ (١)
ومن حقدِ ذي حقد يَرَى العيشَ كلَّهُ … ظلامَة مغلوبٍ على الغد والأمس
ومن كيد لاءٍ أشْرَبَ العيشُ قلْبَهُ … لذاذةَ صنعِ الشر في الجهر والهمس
لَنِلْنَا وما زال الذي كان كائناً … يدافع عنهُ المرء بالسيف والفَلْسِ
يدافع عنهُ المرء بالحق والهوى … ويسعى له الأضداد ندْباً الى نِكْسِ (٢)
ويغرى بهِ حتى الذين شقاؤهم … بان يخذل الاصلاحَ ضغنُ ذوي النحس
حقود قلوبٍ لا يُدَاوى فسادُها … فتدعو ذوي الآمال فيهم الى اليأس

***

يريدون منع الحرب والحرب سُنَّةٌ … الى ان تُفيقَ النفسُ من إثْرة النفس
فهل يدركون الطُهْرَ من قبل غمرة … وطِينَتُهُمْ معجونة الدم بالرِجس
ويا ويلهم شبت عن الطوق حَرْبُهُمْ … وأزرت بفعل السهم والرمح والترس
وظلوا حيارى خشيةً من دمارها … وكلٌّ يرجّي نفع احداثها الحُمْس (٣)

---

(١) الحدس : الظن او الفراسة (٢) الندب : الشهم الذي ينتدب للامور و النكس : المرذول الذي لا خير فيه والهوى هنا الميل الى الباطل (٣) الحمس : الشديدة

وكلٌّ يعاف العدل الاّ لنفسه سجية لؤم هل تزول من الجنس ؟
وتأبى سجايا الشر طهرةَ عادلٍ تغيّرُ فيهم مأتمَ العيش بالعُرْس
سواءٌ لعمري طبع فردٍ وامـةٍ همُ الإنسُ ما أبدوا سوى نجَس الغرْس
وكيف تزول الحرب والسلم بينهم كحرب طغت بالقهر والمكر والخلس
وكم قدَّسُوا قُدْساً لتطهر أنفس فأزرى بجوَّارُ النفس بالدين والقدس
خميرة عيش شرهم وحقودهم فكيف يرادُ العيشُ للأمن والأُنس
بناء المعالي كان بالشرّ قائماً وما طربوا إلاّ الى نغم النحس
وما شربوا من لذة العيش شربةً صفا ماؤها من كدرة الهم في الكأس

***

غفلنا ونام الهامدون وفوقنا نجوم الدجا زَهْرٌ على قبة الرمس
فان كان خَلْقُ الناس للعجز والأسى ولم يستطيعوا البرء من خَطل المسّ (٤)
وأعجَزَ أوصافَ الأطباءِ داؤهم ولم يَشْفِهِمْ من شرهم عملُ النَّطس (٥)
وإن قبسوا من شعلة القدس قبسةً فما صانها العادي ولا فاز بالقَبْس
فان ارتهانَ المرءِ في سجن شره إذا جدَّت الاحداث شرٌّ من الحبس
وإن انغماسَ المرء في لجّ أمسه كما يغرق الغوّاصُ من نهكة القمس (٦)
وإن رسيف النفس في قيد شرها كما يخلد المحموم في خطأ الحِسّ
يقولون ان الحق في الناس قوةٌ وأقوى من الحق الجهالةُ في النفس

---

(٤) المس : الجنون (٥) النطس : بفتح فسكون العالم المجرب مثل النَّطس
(٦) القمس : الغمس في الماء

باحث يقظان في كهف عميق لكي يعرف

كيف نستيقظ

وكيف ننام

الصلة بين العضلات والحرارة والنوم

عرفنا ان مركز النوم واليقظة في الدماغ ، وانه ذلك الجزء منهُ المعروف باسم « الهيبوتالاموس » (١) ولكننا لم نعرف كيف يسيطر على حالي اليقظة والنوم . هذا الموضوع كان مداراً لتجارب قام بها البحاثة Kleitman وقاعدته فيها دراسة طبائع اليقظة والنوم في الكلاب والنساء والرجال ، حتى وفي الاطفال . ففي بعض تجاربهِ مثلاً كان يبقي طائفة من الرجال يقظين ثلاثة ايام او اربعة ايام متوالية لكي يتتبع سلوكهم في اثناء اليقظة المفروضة عليهم بالقوة . ثم انهُ لم يستثن نفسه من هذا البحث فاستأجر حرَّاساً لمراقبته — شأنهُ في ذلك شأن بقية الرجال — حتى لا يغفو، وذلك لكي يدرس تأثير اليقظة الطويلة في نفسهِ. وقد بقي يقظاً في احدى هذه التجارب مدى مائة وخمس عشرة ساعة متوالية اي اقل قليلاً من خمسة ايام

وقد خرج الدكتور كليتمان من بحثهِ هذا بأنهُ في وسع الرجال البقاء يقظين اذا كانوا يفعلون شيئاً يقتضي منهم نشاطاً عضليًّا . فاذا انقطع الفعل العضلي بالجلوس مثلاً استولى النوم عليهم حالاً . فالتحدث مع رجل لا يكفي لابقائهِ يقظاً ولكنهُ اذا كان هو المتكلم كفى ذلك لصد النعاس عنهُ . اما الغناء والمشي فأفعل من الحديث . وفي احدى هذه التجارب تبين انهُ عندما بلغ الرجل اليوم الثالث من اليقظة زادت متاعبهُ . فكان يقول لحارسهِ مثلاً « سأمشي قليلاً في البهو لاستنشق الهواء » فيوافقهُ الحارس على ذلك ثم يتبعهُ بعد هنيهة فيجده جالساً في كرسي وهو يغط ويهوّم فيوقظهُ ويقول لهُ « لم اكن نائماً وانما كنت اريح عينيَّ فقط » . وبازدياد مدة اليقظة المفتعلة ازداد توتر اعصابهِ — وليس في ذلك عجب — واشتدت حاجتهُ الى النوم

---

(١) راجع مقال «النوم والارق» في صدر مقتطف فبراير ١٩٣٩

ولكن حاجتهُ الى النوم لم تزدد ازدياداً مضطرداً ، بل كانت تزداد وتنقص كأنها تسير في خطٍّ مطرد التعاريج ، ففي بعد ظهر اليوم الثالث كان اشد نعاساً منهُ في بعد ظهر اليوم الثاني — وهذا طبيعي — ولكنهُ كان اقل نعاساً منهُ في مساءِ اليوم الثاني . وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم الثاني كان في اشدّ الحاجة الى التحدُّث والتمشي لكي يصد النعاس عن عينيهِ حالة انهُ في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثالث لم يكن في حاجة ماسة الى ذلك . فالنعاس فيهِ كان متقلباً حالة ان الحاجة الى النوم كانت في ازديادٍ مستمرٍّ . الاَّ انها كانت تتفاوت بين الليل والنهار فهي على اشدّها في الأول وعلى اضعفها في الثاني

***

ومن محاسن الاتفاق ان حرارة الجسم متقلبة كذلك ، في حدود ضيقة . فعندما يقول الطبيب ان حرارة الجسم السوية ٩٨ درجة بميزان فارنهيت فهو يعني ان متوسط حرارة الجسم هو ٩٨°. ولكن اذا قيست حرارة الجسم في فترات قصيرة ظهر تقلّب يسير فيها في الانسان الواحد ، وقد يبلغ هذا الفرق بين اعلاها وأوطاها درجتين ونصف درجة بميزان فارنهيت ، وقد يكون اقلَّ من ذلك

وكانت حرارة الرجال في تجارب كليتمان تقاس مرة كلَّ ساعتين . وكان الغرض من قياسها تتبع التغيُّر الحادث في الجسم بسبب اليقظة المفروضة عليهِ . وما لبث الباحثون حتى تبيَّنوا ان التقلّب في الحرارة موافق ومتسق مع التقلُّب في شدة الحاجة الى النوم . فالحاجة الى النوم كانت على اشدّها عند ما كانت حرارة الجسم على اوطاها ، وعلى الضدّ من ذلك كانت الحاجة الى النوم على اقلها عندما كانت حرارة الجسم الطبيعية على اعلاها

واراد كليتمن ان يستشفَّ تأثير اليقظة الطويلة المفروضة على الجسم بالقوة ، في قدرة الرجال على القيام باعمال مختلفة . فعهد اليهم في اوقات متفاوتة ، بالقيام باعمال شتى منها العضلي ومنها العقلي ومنها ما يحتاج الى ثبات اليد والسيطرة سيطرة تامة على حركتها . فوجد هنا كما وجد قبلاً ان القدرة بوجهٍ عام تنقص بازدياد الحاجة الى النوم ولكن النقص متقلب تقلباً دوريًّا وفقاً لتقلب الحرارة

فسأل الباحث نفسَهُ هل في الوسع ان نحدث تغييراً في دورة اليقظة والنوم . ولم يشأ ان يجيب عن هذا السؤال إجابة عقلية ، فاستنبط سلسلة من التجارب سعياً وراء الحقيقة . فجاء بأسرَّة الى حجرات المختبرات وطلب الى الرجال ان يناموا عند منتصف الليل وان يستيقظوا في ساعات يقظتهم المألوفة . وان يمضوا في ذلك مدى شهر كامل . إلاَّ انهُ طلب منهم ان يؤخروا وقت نومهم اربع ساعات كلَّ يوم . فاذا ناموا في منتصف الليل في اليوم الاول فيجب ان يناموا في

الساعة الرابعة صباحاً في اليوم الثاني وفي الساعة الثامنة صباحاً في اليوم الثالث وان يمضوا على ذلك الى آخر الاسبوع . ثم يبدأ اسبوع جديد ويبتدىء النوم فيه عند منتصف الليل

تقدم ستة رجال لهذه التجربة ، فعجز خمسة عن ان يلائموا بين حاجتهم الجثمانية وهذا اليوم المستطيل الذي يزداد اربع ساعات كلّ يوم . ولكن السادس تمكن من ذلك فكانت حرارتهُ تتغيّر وفقاً لمقتضى الحال ، فينام عند الظهر بنفس السهولة التي ينام بها عند منتصف الليل . اما الخمسة الباقون فظلت دورة حرارتهم على ماهي بغير تحوُّل او ملاءمة لساعات النوم المتبدلة . فكان النعاس يرين على عيونهم في الليل عند ماكانت حرارة اجسامهم على اوطاها وكان يصعب عليهم الاستسلام لهُ في النهار عند ماكانت حرارة اجسامهم عالية

***

بذل القائمون بهذا البحث كلَّ جهدٍ ليحجبوا عن حجر المختبر العوامل الطبيعية المتقلبة من نور وحرارة وضجيج فعجزوا عن تحقيق ذلك كاملاً ولذلك قرَّر كليتمان نفسهُ وبروس رتشردسن في ربيع سنة ١٩٣٨ ان ينقلا المختبر من مدينة شيكاغو الى كهف مموث في ولاية كنتكي فاستأذنا حكومة الولاية في ان يمكثا في الكهف المدَّة التي تقتضيها التجربة ، واختارا لمكثهما فجوةً واسعة من فجواتها عمقها ١٢٨ قدماً تحت سطح الارض واثثاها بما يلزم من اسرَّة وكراسٍ وخوان واتفقا مع حارسٍ يسكن مضرباً خارج الكهف ان يأتيهما بالطعام وفقاً لجدول معيَّن وضعاهُ على اساس الدورة الاسبوعية التي تقدم ذكرها

والكهف مظلم دائماً ساكن بارد حرارتهُ ٥٤ درجة بميزان فارنهيت (١٤ درجة مئوية) لا تتغير نهاراً ولا ليلاً فجوّه بارد يقتضي اللباس الدافىء في النهار والتدثُّر الدافىء في الليل

فماذا حدث لكليتمان ورتشردسن ؟

ما لبث رتشردسن حتى لاءم بين حاجتهِ الجسمية ونظام معيشتهِ الجديدة في سكون الكهف وظلامهِ . فكان ينام وفقاً للجدول وكان نومهُ ملء عينيهِ . اما كليتمان فوجد ان نظام نومهِ لا يمكن ان يتلاءم ونظام الجدول المفروض المقرر عليهِ

وهذه التجربة تدلُّ على ان نظام دورة النوم اليومية أرسخ في أجسام بعض الناس منهُ في أجسام البعض الآخر . ونحن نعلم ان هذه الدورة ليست خاصة موروثة . فالوليد ينام عشرين ساعة او أكثر ، كل يوم . وكذلك جراء الهررة الكلاب وغيرها من الحيوانات . ويستيقظ الوليد ليرضع او استجابة لحاجة أخرى من حاجات الجسم . فاذا اشبع حاجتهُ الى الغذاءِ ، او حاجتهُ الى التبول مثلاً عاد الى النوم . وليس في ساعات نومهِ ويقظتهِ دورة

منتظمة كأن يكون النوم ليلاً واليقظة نهاراً. ولذلك عمد كليتمان الى البحث في طبائع النوم واليقظة في الاطفال . فوجد ان دورة الحرارة لا أثر لها في الوليد . ولكنها ترسخ رويداً رويداً في الجسم ، الى ان تتركز فيهِ في السنة الثانية على الغالب ، وهي السنة التي يبدأ فيها الطفل بالمشي

ولكن رسوخ دورة الحرارة في الجسم ، لا يعني ثبوتها الدائم . فقد يصاب أحد الاطفال باصابة في قشرة الدماغ، إما من رجة وإما من خراج وإما بتأثير التهاب الدماغ السحائي فينام معظم الوقت ، وتنتفي دورة الحرارة من حياتهِ. وهناك أطفال ولدوا وفي أدمغتهم تشويه خلقي ، فثبت ان أجسامهم لم تكتسب نظام الدورة اليومية . وقد لاحظ باحث ألماني يدعى جولتز من عهد قريب انهُ اذا أزيلت قشرة الدماغ من دماغ الكلاب أصبحت تدمن النوم . فأعاد كليتمن هذه التجربة بأربعة كلاب فوجد ان طبائعها من حيث النوم جعلتها كأنها جراء

واذاً فالدورة اليومية للنوم واليقظة مكتسبة . نُطلُّ على الحياة والنوم راجح رجحاناً كثيراً في حياتنا خلال الشهور الاولى . ثم تبدأ فترات اليقظة تطول رويداً رويداً حتى تصبح اليقظة وهي الغالبة ، وينحصر النوم في ساعات الظلام

***

والعامل الاول في هذا التحوُّل هو قشرة الدماغ . فالقشرة في دماغ طفل الوليد رقيقة غير نامية ولذلك يمكن أن يحسب دماغهُ بغير قشرة كدماغ الكلب الذي نزعت قشرتهُ . وتتوالى الرسائل الحسيَّة على دماغ الوليد فتسجل فيهِ وتدعى القشرة الى تنسيقها فتنمو بالاستعمال ثم يبدأ الدماغ يدرك رويداً رويداً ان بعض اعمال الجسم يقتضي اليقظة فيقصي النوم عنهُ رويداً رويداً الى ان تستتب للجسم دورة النوم بين الليل والنهار

وعند الدكتور كليتمن ان النشاط العضلي من اهم العوامل تأثيراً في صدّ النوم عن الجسم فالرجال الذين اجرى عليهم تجاربهُ كانوا اذا قضوا يومين او ثلاثة ايام بغير نومٍ استولى عليهم ميل شديد الى القعود . فاذا قعدوا ناموا. وكانت طريقة حرّاسهم في ابقائهم يقظين ، محادثتهم وحملهم على المشي والغناء — وجميع هذه الاعمال تقتضي نشاطاً عضليًّا . ويزعم كليتمن اننا اذا صرفنا النظر عن العقاقير المنبهة فليس في وسع احدٍ ان يبقي رجلاً في حال اليقظة بغير ان يحملهُ على اتفاق نشاطٍ عضلي . وليس النشاط العضلي مقتصراً على النشاط العضلي الارادي بل يشمل كذلك عضلات اخرى غير خاضعة للأرادة

ان الرسائل العصبية من العضلات هي آخر ما ينقطع عن التوارد على الدماغ . فاذا اقبل آخر النهار تنخفض حرارة الجسم ، وتتراخى الاعضاء ، ويأخذ منهُ الاعياء كلَّ مأخذ . الدماغ متعب

والعضلات متعبة ، والحرارة منخفضة ، وهذه العوامل مجتمعة تفضي الى الاسترخاء . فاذا واجه الجسم حالة طارئة استطاع ان يحشد قوتهُ ويتغلّب على تراخيهِ . ولكن في ماعدا ذلك فالنشاط متعذر. الكتاب قلّما يستوي في يديك . والقلم يسقط من بين اصابعك. بانخفاض درجة الحرارة تقلّ الرسائل العصبية الواردة على الدماغ من اعضاء الحسّ ثم من العضلات وعقب ذلك يقع انفصال بين قشرة الدماغ وسائر الجهاز العصبي ومنهُ مركز النوم واليقظة المعروف باسم « هيبوتالاموس » . هذه هي الطريقة التي يستولى بها النوم علينا — في رأي كليتمن

***

وعلى ذكر العلاقة بين العضلات والنوم نقول ان باحثاً يُدعى جاكوبسون انشأ مختبراً في شيكاغو لبحث هذا الموضوع . ويؤخذ من مباحثهِ ان العضلات العاملة تولد كهربائية وان قوة التيار مقياس لتوتّر الياف العضلة. وقد اتخذ جاكوبسون هذه الحقيقة اساساً لجهاز وثيق الاحساس صنع لهُ في مختبرات شركة بل التلفونية

يستلقي رجل مثلاً على فراش ويوضع قطبان كهربائيان مصنوعان من احد اخلاط البلاتين على جانبي عضلة من عضلات الذراع او الوجه او اية عضلةٍ اخرى . ويوصل القطبان بالسلك الى الجهاز الحسّاس ، فيقاس فيهِ مقدار التيار المتولد في العضلة ، وبذلك يعرف مقدار التوتر في اليافها . فاذا استرخت العضلة ضعف التيار حتى اذا انقطع قيل ان العضلة في حالة استرخاء تام او راحة تامة . وكثيراً ما حدث عندما بلغت العضلة هذه الحالة ، ان ران النوم على صاحبها

حتى عند ما يكون الفكر مشغولاً بموضوع ما ، تتوتر الالياف في طائفة من العضلات . وجاكوبسون يفسّر ذلك في كتابهِ « في وسعك ان تنام نوماً هادئاً » . فقد ثبت في مختبره انهُ اذا فكر الرجل في عملٍ من الاعمال التي تقتضي تحريك العضلات ، ولّد ذلك تياراً كهربائيًّا في الوسع قياسهُ . فاتخذ ذلك دليلاً على ان التفكير اثر في العضلات تأثيراً غير واعٍ . واثبت بالبحث الدقيق انهُ اذا قال الانسان لنفسهِ قولاً ما فعضلات الشفتين واللسان والحلق تتحرّك كأنها تستعدُّ لتقول ذلك القول . وما يصحُّ على الشفتين واللسان والحلق يصحّ على العينين مثلاً . ولذلك يشير على من يستعصي عليهِ النوم لتهيج عقلهِ بان يدرّب نفسه على استرخاءِ جميع العضلات الخارجية في الجسم . قال : دع عضلات العينين والشفتين تسترخي تماماً ولو لمدة قصيرة ، وعندئذٍ تنام . وستبقى نائماً نوماً هانئاً ما زالت العضلات غير متوترة . ومن هنا نستطيع ان نفهم تأثير الحمامات الفاترة في إحداث النوم ، فانها تفضي الى استرخاءِ العضلات الخارجية

تحديد النسل

ومشكلة السكان

للدكتور شريف عسيران

تستمد فكرة تحديد النسل اصلها من مفكري اليونان الاقدمين فقد ذكر فلوطوخس مؤرخ العظماء الاقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل الاطفال الضعاف البنية رغبة منهُ في تنشئة شعب قوي . وادرك افلاطون وارسطو طاليس الخطر الناجم عن كثرة الولد وخصوصاً ماكان منها في الاسر الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لضبطه[1] ويظهر ان الرجال عند الشعوب البدائية لم يهتموا بتحديد النسل بل كانوا على الضد من ذلك يميلون الى كثرته ولكنهم يفضلون الذكور على الأناث. فالمرأة هي التي ابتدعت تحديد النسل لتتخلص من عناء تربية الاولاد وتحتفظ بنضارة صباها وتخفي عار علاقاتها خارج الزواج فراراً من الموت وغير ذلك من الدوافع . فكانت ترفض الرجل في اثناء الرضاع الذي يمتد احيانا الى العشر السنوات . واكثر الشعوب البدائية كانت تقتل الوليد اذا كان مشوهاً او مريضاً او لقيطاً اواذا ماتت امهُ في اثناء الولادة . وكثير من القبائل كانت تقتل الأطفال الذين يولدون في اوقات نحس . وكانت بعض القبائل تحسب ولادة تئمين ضرباً من الزنا اذ لا يعقل في عرفها ان يكون نفس الأب والداً لولدين في وقت واحد فلا بد من قتل احدهما وكان الاليبو نيزيون (Alipones) لا يحتفظون الا بصبي وبنت ويقضون على بقية النسل وعند ماكانت المجاعات تهدد بعض القبائل كانوا يخنقون المواليد الجدد وبعضهم يأكلهم [٢]

وقد وصف كتاب عربي في القرن السادس عشر من العصور الوسطى بعض الطرق الكيمياوية لتحديد النسل . وذكر فالوبيس المشرح الايطالي الشهير بعض الاغلفة المصنوعة من الكتان الدقيق او امعاء الحمل . وظهر اول نص باللغة الانكليزية سنة ١٨٢٣ ونسب الى

---

(١) المقتطف م ٧٦ ص ١٣٢ راجع ايضاً المقتطف م ٩٢ ص ٣٤

(٢) قصة المدنية لول دورانت The Story or Civilization. By Will Durant p. 49-50 1935

Francis Place وأعقبهُ «كتاب كل امرأة» لكارليل Carlyle's Every Woman's Book[١]

وكتبت الملكة فكتوريا الى خالها ملك البلجيكيين سنة ١٨٤١ النبذة الآتية :

اظن يا خالي العزيز انك لا ترغب لي في ان اكون والدة اسرة كثيرة العدد . واخالك تدرك معي سوء مغبة الاسرة الكبيرة لنا جميعاً ولبلادنا بنوع خاص بصرف النظر عما احمله شخصيًّا من المشاق . ان الرجال لا يشعرون ابداً او نادراً ما يشعرون مع المرأة او يقدرون المشاق التي تعانيها من تعدد الاولاد[٢]

﴿ اصل اللفظة ﴾ المرجح ان اول من استنبط هذه اللفظة Margaret Sanger سنة ١٩١٤ وهي ممرضة اميركية رأت ما يقاسيه النساء من الآلام والتعس في تربية اولادهنَّ وادركت الخطر الناجم عن كثرة النسل فأخذت تدعو الى مبدأ تحديده وتعمل على نشره خاصة بين الطبقات الفقيرة التي لا تساعدها احوالها الاقتصادية على اعالة اولاد كثيرين وسردت في كتابها «كفاحي في تحديد النسل» قصة امرأة عانت ما عانت من كثرة الاولاد وماتت ضحية الجهل بتعمدها الاسقاط بطرق غير فنية وكانت قضايا كهذه حافزاً لها ومسوغاً للدعاية لتحديد النسل. وقد اضطهدت وحوكمت في سبيل مبدئها وصودرت مؤلفاتها ولا سيما نشرتها لنساء العوام التي موضوعها «ثورة المرأة» وسجنت شهراً سنة ١٩١٧ لفتحها مستوصفاً لتحديد النسل . وتجولت في انكلترا وفرنسا وانحاء اوروبا للتبشير بمبدئها ولاقت دعايتها هوى في نفوس الكثيرين ونفوراً من غيرهم ولاسيما طبقة الاكليروس الذين قاوموا هذه الفكرة بمختلف الاساليب

﴿ انصار تحديد النسل ﴾ طبعت سنة ١٨٦٧ مطبعة جريدة الفكر باميركا طبعة جديدة من كتاب ثمار الفلسفة تأليف الدكتور نولتن Dr. Knowlton من بوسطن الذي الفهُ سنة ١٨٣٣ وذكر فيهِ طرق تحديد النسل المعروفة في ذلك الوقت فصادرتهُ الحكومة وحاكمت الناشر والبائع فتحمس مصلحان اجتماعيان لهذه الحادثة وهما Char hlesBradlaugh و Annie Besant دفاعاً عن حرية الرأي وتوعدا الشرطة بطبع الكتاب وتوزيعه مجاناً فصادرتهُ السلطة واحالت الناشر الى المحكمة وقد دافع برادلو دفاعاً بليغاً عن هذا الكتاب[٣] ومن اشهر انصار هذه الحركة الدكتور جورج درزديل Dr. George Drysdale فقد نشر سنة ١٨٥٤ كتابه «مبادىء علم الاجتماع» وبسط فيه نظرية منع الحمل من الوجهة الاقتصادية والفلسفية وصار فيما بعد رئيساً للعصبة الملثوسية التي بدأت عملها المجيد في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٧ وصارت اني بيزانت كاتمة سرها

(١) غسق الابوة The Twilight of Parenthood,, By Enid, Charles 1934, p. 174 للدكتورة اينيد تشارلس (٢) The Eugenic Review, April, 1935, p. 16

(٣) تاريخ الاخلاق الحديثة History of Modern Morals, by Max Hodann 1937,p. 180

وبيع في السنة التي حوكم فيها برادلو ١٨٥٠٠٠ نسخة من كتاب « ثمار الفلسفة » و ١٧٥٠٠٠ نسخة من كتاب آني بيزانت « شريعة السكان »

وقد نطق الروائي الشهير ولز بالكلمات التالية في عشاء العيد السنوي سنة ١٩٢٧ :—« تعتبر هذه المحاكمة تاريخاً في حياة البشر . ونرى الناس لأول مرة يسيطرون على مقدراتهم الاحيائية وقد مضى خمسون سنة على تأسيس عصبتنا التي بدأت أعظم انقلاب في كل تاريخ البشر إذ هذه أول مرة يتخلص النوع الانساني فيها من ضغط السكان أي تنازع البقاء الذي كان متسلطاً منذ وجوده على كياننا الاحيائي(١) »

﴿ النظرية الملثوسية ﴾ ومن أبطال هذه الحركة الذين يشار اليهم بالبنان ملثوس وقد ترك اكبر أثر يذكر لأنهُ لم يتسلح بسلاح العاطفة شأن الذين سبقوه بل بنى نظريته على أسس علمية معتبرة في عصره وتعرف هذه النظرية باسمه «النظرية الملثوسية» . وقد ساعده على نشر مبادئه في ذلك الوقت فقر الطبقة العاملة فقد كتب رسالته في أثناء حروب نابليون التي كانت سبباً في فقر الناس المدقع وعاملاً في قبولهم هذا المذهب (٢)

وجديرٌ بنا ان نلمّ قليلاً بهذه الشخصية البارزة التي كانت المحرك الأكبر لتحديد النسل. الأب ملثوس واسمهُ الكامل Robert Thomas Malthus اقتصادي انكليزي من المعروفين في عصره ولد سنة ١٧٦٦ وتوفي سنة ١٨٣٤ وأبوه دانيال ملثوس من أصدقاء روسو الفرنسي الشهير. وقد نشر ملثوس أول رسالة عن مبادىء السكان سنة ١٧٩٨ وأعاد طبعها مراراً وظهرت آخر طبعة وهي السادسة سنة ١٨٢٦ وكانت هذه الرسالة نتيجة مباحثاته مع والده الذي كان موافقاً لرأيه وهو الذي حثهُ على اخراج فكرته الى حيّز العمل. وخلاصة نظريته أنهُ اذا استمر السكان يزدادون عدداً فتكون زيادتهم بنسبة هندسية بينا وسائط العيش تزداد بنسبة حسابية وان هناك حواجز تحول دون تجاوز السكان هذه النسبة وهي الحروب والمجاعات والأوبئة والفقر وتدهور الآداب. وقد حمل حملة شعواء على القوانين الانكليزية المرعية في ذلك العهد وما تغدقه من المنح لحماية الاسر زاعماً ان زيادة السكان وبالٌ على الامة وقد احدثت رسالتهُ ضجة في مختلف الاوساط وانبرى كثيرون للرد عليه وتفنيد آرائه . وقد اضاف الى مذهبه فيما بعد عاملاً جديداً سماه الرادع الادبي Moral Restraint وعنى بذلك تأخير سن الزواج بغية تحديد النسل (٣)

(١) تاريخ الاخلاق الحديثة The History of Modern Morals, p. 183
(٢) نظرية السكان لكار صوندرز Theory of Population, Carr-Saunders, 1931, p. 23
(٣) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت عنوان Birth-Control .

ومن رأي East ان ملثوس لم يبتدع هذه الفكرة بل استمدها من كتابات بنجامين فرانكلين وهيوم وولسن وطونسند (١)

﴿مجددو الملثوسية﴾ وظهرت بعده فئة من العلماء اطلق عليهم « مجددو الملثوسية » امثال درزديل وزوجه ومنهم هافلوك اليس الشهير وولز ومَري وغيرهم . ومن شهيرات المتحمسات لهذا المذهب والعاملين به في هذا العصر الدكتورة الانكليزية الشهيرة ماري ستوبس ولها مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع آخرها حسبما اعلم « تحديد النسل اليوم » طبع سنة ١٩٣٤ وقد انشأت جمعية في انكلترا لهذه الغاية سنة ١٩٢١ وفتحت عيادات استشارية لارشاد الامهات وهو نظام منتشر اليوم في اكثر انحاء اوروبا واميركا ويمارس علناً

﴿ردّ نظرية ملثوس﴾ نظر ملثوس الى العالم نظرة جمود وحسبهُ كياناً لا يتغير ولا يتطور وفاتهُ ان البشر يتطورون في حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية بغذائهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم في التغلب على المحيط واخضاعه لراحتهم وسعادتهم وأبلغ من رد هذه النظرية بالطرق العلمية الصحيحة الدكتورة بالفلسفة ايند تشارلس الانكليزية Enid Charles في كتابها « غسق الابوة » The Twilight of Parenthood الذي قال عنهُ جوليان هاكسلي الشهير « ان هذا الكتاب من اثبت الكتب عن شؤون السكان منذ الفكار صوندرز Carr Saunders كتابه « مشكلة السكان » فعلى كل من يهتم بالقضايا الاجتماعية والسياسية ان يطالعهُ » . وقد اقتطفنا كثيراً من آرائها الناضجة بهذا الصدد لانها مبنية على البحث المجرد عن العاطفة وعلى المنطق الصحيح . وقد وصفت هذه العالمة القديرة نظرية ملثوس بانها ملذة فقط لمؤرخ اخطاء البشر

الانسان سيد المخلوقات واكثرها سيطرة على المحيط وقد حبتهُ الطبيعة مواهب لم يتمتع بها غيره فهو الوحيد بين الاحياء الذي يتمكن من استعمال الآلات والاستعانة بها في السيطرة على المحيط الى ما يؤول لحفظه وسعادته فتمكن ان يقي نفسهُ قارس البرد ولاهب الحر ببناء البيوت وارتداء الثياب واستخدم لهذه الغايات غيره من انواع المخلوقات النباتية والحيوانية وسخرها لحفظ حياته وراحته فبنى من الاحجار سكناً واتخذ من الحراج وقوداً وصنع من الياف النبات وصوف الحيوانات وجلودها لباساً وجعل انواع النباتات والحيوانات مصدراً لغذائه فنشأت العلاقة بين الانسان وغيره من المخلوقات الحية . فالانسان يعيش على النبات والحيوان ويعيش الحيوان على النباتات وغيره من الحيوانات . والنبات يعيش على المواد النيتروجينية غير العضوية التي في الهواء والتراب التي تتحول بفعل البكتيريا الى مواد عضوية وعلى المواد

(١) East, Mankind at the Cross Roads, 1926 p. 46

العضوية المتولدة من تفسخ الحيوانات بفعل (البكتيريا) وتعيش الجراثيم على اشلاء الحيوانات والنباتات فهذه العلاقة المتبادلة في الغذاء والتناسل والتنازع والانتشار وغير ذلك بين الانسان والحيوان والنبات هي ما يعبر عنهُ بالمساكنة (١) Ecology . واول من تنبأ عن هذه العلاقة الروائي الانكليزي الشهير ولز

تحكم الانسان بالحيوانات والنباتات وجعلها تكثر وتقل وفقاً لرغائبه وكان يعول على الخيل والجمال والحمير والبقر في قضاء حاجاته وكانت الخيل من الوسائط الاولية في اخراج قواه الحيلية (الميكانيكية) كحمل الاحمال وجر الاثقال والحرث والري وما اشبه . ولما اكتشف البخار واهتدى الى الكهرباء اخذ يستغني عن الخيل وغيرها فقل عددها اليوم بالقياس الى الأمس وليس من المستبعد ان تصبح اثراً بعد عين في خلال قرن او تنقرض كما انقرض غيرها من الحيوانات . كان الناس يستضيئون منذ قرن بانواع الشحوم والزيوت فاعتنوا بمصادرها ولكنهم استعاضوا عنها اليوم بالغازات التي يستخرجونها من باطن الارض والكهرباء التي يسخرون لتوليدها القوى الطبيعية كالماء والمعادن الكيمياوية . وبالامس كانوا يستخرجون الحرير من دود الحرير فاستعاضوا عنهُ اليوم بالحرير الصناعي وكذلك المطاط والنيلة وغيرها من المواد الصناعية التي استطاعوا استخراجها بالتركيب الكيمياوي . وليس من المستبعد كما قال الاستاذ هالدين ان نتمكن من استخراج مقادير كبيرة من السكر بتأثير البكتيريا المجزئة للمواد الخيطية في نفايا الخضر . هذه بعض الأمثلة من تسلط الانسان على النبات والحيوان .

وقد لخص جون رسل الناحية الغذائية في الخطاب الذي ألقاه أمام المجمع العلمي البريطاني بقوله : نجح العلم الحديث بتزييد قوة سلطة الانسان على الطبيعة حتى كثر الانتاج كثرة تربي عن حاجته فاضطر ان يتلف مقادير من محاصيل الحنطة والبن والقطن لأنها زادت عما يستطيع تصريفه في الاقطار الصناعية . فقد زاد محصول قصب السكر في جاوا الهولاندية أربعة اضعاف وانخفض ثمن السكر في الهند الغربية وهدد صناعة هذا الصنف في بريطانيا العظمى وأشار اللورد Bledisloe الى بعض المشكلات الزراعية بالعبارة الآتية : —

إن حرق مقادير كبيرة من الحنطة في بعض مراكز هذا الصنف بسبب زيادتها عن الحاجة المطلوبة تحملنا على ان نفكر في تحديد زراعته كي لا يؤول طغيانهُ الى إفلاس الكثيرين من زراعه (٢)

وظهر من الأرقام التي نشرها مجلس زراعة انكلترا بشأن الامبراطورية البريطانية وأوربا

(١) لفظة يونانية مركبة من لفظتين ايكس ومعناها البيت ولوجي العلم فيكون معناها الحرفي علم البيت ولم أجد لها مرادفاً عربياً فاخترت لفظة مساكنة للتعبير عنها

(٢) Twilight of Parenthood p. 9

وغيرها من الامصار ومن ضمنها الارجنتين والولايات المتحدة وسيبيريا واليابان والجزائر ان مجموع مساحات الحنطة زاد بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩١١ من ٢٠٠٫٩٣٠٫٠٠٠ اكر الى ٤٧٫٠٠٠٫٠٠٠ أي زيادة ٢٣ بالمائة . وقال السر هنري رو ان هذه الزيادة نذير للانبياء ! [١]

وتتلخص طرق تحكم الانسان في الاحياء المساكنة له بما يلي : (١) السيطرة على العوامل الطبيعية التي تحدد مقدار الأنواع الصالحة لمنفعته ونوعها (٢) ابادة الأنواع التي تنازعه البقاء بالقضاء عليها مباشرة او بالواسطة (٣) انتخاب الانواع الصالحة له وتحسينها وفقاً لحاجته . فيدخل تحت العامل الأول مختلف المواد الكيماوية التي استنبطها الانسان لخصب الارض واستعمال الحرارةاللازمة لأنواع النباتات والحيوانات . ولا حاجة ان نتوسع في تفننه في طرق الري وتحويل البراري القاحلة الى ارض خصبة وحدائق غناء . وقد توصل الى اختيار انواع النباتات والحيوانات التي تقاوم الجفاف . وزيادة محصول الحنطة في كندا وحدها حمل بعض العلماء على القول الآتي : لا خطر على العالم من قلة الطعام لمدة قرن على الاقل اذا استمرت زيادة السكان بالمعدل الحاضر

ومن مستنبطات العلم الحديث خزن العلف الذي تقتات بهِ المواشي كالحشيش الأخضر وما اشبه دون ان يهرأ . وقد اكتشف الأستاذ منرو حديثاً ان تلف الحراج ناشيء عن الزنابير التي تضر اشجارها . وتعيش هذه الزنابير على ضرب من العفن (Fungi) يسكن الاشجار ولا ينمو العفن اذا كانت الاشجار في ارض جافة فتجفيف الماء من التراب يقضي على الزنابير ويحفظ الاشجار

﴿ الاسمدة ﴾ اما الاسمدةالصناعية فحدّث عنها ولا حرج فالنيتروجين من العناصر الاساسية في الحيوان والنباتات . وقد زاد معدل مركباتهِ بين سنة ١٩٠٣ و ١٩٢٨ ثلاثة اضعاف وكان مصدرها الوحيد قبل سنة ١٩٠٣ المعادن التي في جوف الارض . وقد تنبأ بيرل Pearl عن قرب نفاد النيتروجين فلم تمضِ عشر سنوات على نبوءتهِ حتى تمكن العلم من استخراجه من الهواء [٢] مباشرةً ونصف مركباته تستخرج الآن من هذا المعين الذي لا ينضب . وقد تمكن الانسان من تحسين الاعشاب التي تقتات بها المواشي في المراعي والتفت الى ضرورة المواد غير العضوية للنباتات كالحديد والمنغنيز والكلس (الجير) والبوتاس وغيرها فعالج فقر التفاح بالحديد مثلاً بشبك مسامير الحديد في جذوع الشجر وزاد محصول الليمون باضافة البوتاس اليه . وتستعمل الاسمدة الكيماوية في اصناف الخضر والفواكه والبقول والحبوب فتأتي بالمدهشات

(١) Population : Carr-Saunders p. 71
(٢) Twilight of Parenthood . p 187

﴿الحرارة﴾ وقد صنعوا سقوفاً من زجاج لزرائب الخنازير تخترقها اشعة تحت البنفسجي لمقاومة داء الكساح الذي ينتاب هذه الحيوانات وعوضوا نقص اليود في غذائها فزاد نتاجها زيادة كبيرة لانها حساسة جداً لنقص هذا المعدن وصنعوا بيوتاً زجاجية لوقاية مختلف البقول والخضر والعلف وغيرها مما يقتات به الانسان والحيوان . وتمكنوا بواسطة الحرارة الصناعية من انقاص غذاء الخنازير ٢٠ بالمائة . وزادوا معدل بيض الطيور بتعريضها للانوار الكهربائية . ويضيق بنا المقام اذا اردنا التوسع بهذه الناحية

﴿ابادة الحشرات﴾ لقد تمكن الانسان من القضاء على كثير من انواع الحشرات التي تفتك بالحبوب والخضر والفواكه وغيرها مما يقتات به الانسان فتحسنت زراعتها وزاد نتاجها اضعاف الاضعاف. فقدقدروا الاضرار التي تصيب الزراعة من الاعشاب المضرة والرواشن فقط بـ ٢٥ بالمائة من محصولها فاستنبطوا طرقاً متعددة لتلافي تلك الاضرار اهمها اولاً ذر المساحيق الكيمياوية. ثانياً تسليط مضادات الحشرات التي تؤذي الزرع. وثالثاً توليد انواع من النباتات ذات مناعة خاصة ضد الامراض النباتية وامثلة ذلك القضاء على كثير من الحشرات التي تفتك بانواع البرتقال والعنب والتمر والقطن والحنطة وغيرها وقد قدر خسارة الاذرة الصفراء والقطن في الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ بخمسمائة مليون دولار . وقد تمكن الدكتور سولمان من استنبات نوع من البطاطس منيع ضد الجراثيم التي تفتك به واستنبت غيره أنواعاً من الفاكهة منيعة ضد أمراضها . وتمكنوا من تضريب الحنطة في السويد وتحسينها فزاد حاصلها ثلاثين بالمائة وتمكن سوندرس من توليد نوع حنطة يعطي حاصلاً بمدة ١٠٣ ايام

﴿الناحية الاحيائية﴾ لقد اعلن المشتغلون في المختبر الحيواني بجامعة انديانا سنة ١٩٣٤ أنهم استطاعوا التحكم في نوع الشق (الجنس) وتمكنوا من زيادة نسبة الاناث بحقن الفسحات الهوائية بأعقاب البيض بمادة الثايلين خلاصة البيض . وتمكن الباحث الروسي كولتسوف Koltsov من تفريق النطف المنوية التي تكوّن الانثى في الارانب عن التي تكوّن الذكر بواسطة الكهربائية وتزييد الاناث عن الذكور (١) ولا ندري ما يحمله الغد من عجائب العلم

وقد زادوا انتاج الحيوانات والطيور بتحسين نسلها والقضاء على الامراض التي تفتك بها كانواع الجراثيم والديدان وغيرها فزادت زيادة عظيمة

هذه نظرة عامة ترينا ضعف النظرية الملثوسية وعدم انطباقها على البشر الذين يكيفون انفسهم وفقاً للظروف ويتحكمون بمحيطهم كما يشاؤون فلا خوف على الانسان مهما قلت المواد الغذائية وتعقدت المشاكل الاجتماعية فانه واجد لنفسه مخرجاً

(١) Outposts of Science, 1935, p. 191 By Bernard Jaffe

فلسفة الفاشية

لعلي أدهم

﴿ نظرة عامة ﴾ كان مفكرو اليونان يرون ان الحياة الفاضلة لا تتهيأ أسبابها وتستوفى شرائطها وتستكمل عناصرها الا في كنف الدولة ، وان الدولة هي اقوى الذرائع واقرب السبل الى تحقيق تلك الحياة وتمهيد مقدماتها ، وكانت الاخلاق في رأيهم مرتبطة بالحياة العامة متصلة بالسياسة ، وتصورنا للدولة ووظيفتها يجب ان يلون باللون الاخلاقي ويمتزج بادراكنا للفضيلة ، ثم جاءت المسيحية فباعدت مابين الاخلاق والسياسة وصرفت عناية الانسان الى العالم الآخر ووجهت جهوده الى الحرص على استنقاذ الروح من مفاتن الحياة ومغريات الحواس واغرت النفوس بالزهادة والاستهانة بامور الدنيا واحوالها المتقلبة الفانية ، ومنذ عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وسار كل منهما في طريقه واول من اعلن انفصالهما في جراءة وصراحة هو مكيافلي في كتاب الامير

وقد عادت السياسة الى الاتصال بالاخلاق في العصور الحديثة ويتجلى ذلك في المذاهب السياسية السائدة التي تناوىء الديمقراطية واخصها الفاشية والشيوعية

ونظرية سيادة الدولة المطلقة هي اكبر ينابيع الفاشية واقوى اصولها وامتن دعائمها ، والفاشية الى حدّ كبير تحقيق عملي لتلك النظرية ، ويزعم شراح المذهب الفاشي ان الفاشية ليست نظرية للدولة فحسب ، وانما هي رأي في طريقة الحكم وموقف تجاه الحياة ونظرة خاصة للكون والمجتمع واسلوب مستحدث في علاج مشكلاته وتفريج ازماته وليست هي مقتصرة على نبذ الديمقراطية والقضاء على الاشتراكية وانما هي في منزلة بعث جديد للروح الانسانية .

والمذهب الشيوعي لا يغالي في ادعاءاته الاخلاقية الشاملة كما تفعل الفاشية ، ولكنهُ مع ذلك يتطلب نظراً معيناً للاخلاق ، والشيوعية تحبذ اسلوباً خاصًّا للحياة وترجحهُ وتؤثره على غيره وتدعو الى الاخذ بهِ والسير بمقتضاه ، ورأيها مستمد من التصور الشيوعي للمجتمع وطبيعة القوى التي تحرك التاريخ وتؤثر في الحركات الاجتماعية ، ومسائل الأخلاق تبحث عند الشيوعيين

من ناحية علاقتها بالعوامل السياسية والاعتبارات التاريخية والظروف الاقتصادية

وكلا الشيوعية والفاشية يفرض على الأفراد الشيوعيين — او الفاشيين — ان يعيشوا على نهج خاص واسلوب يزيد رفعة الدولة ومجدها ، وعليهم ان يعلنوا محاسن ذلك الاسلوب وينشروا مزاياه ويبشروا به ، وهم في سبيل ذلك لا يحجمون عن ايذاء مخالفيهم واضطهادهم ، والشيوعية والفاشية فلسفتان عمليتان ومثل هاتين الفلسفتين قد يحتمل المعارضة ويتسع صدره للمناقشة في ساحات التفكير وميادين البحث ، ولكن عند ما يدين بمبادئه حزب من الاحزاب ويصل عن طريقها الى مراكز الحكم ومقاليد السلطة ومعاقل النفوذ يصبح لا يحتمل المعارضة ولا يطيق المناظرة

والشيوعية والفاشية — على نقيض الديمقراطية والفردية — يميلان الى توحيد السياسة والاخلاق ويحاولان ان يجعلا الوطنية قوة ايجابية فعالة عاملة على تحقيق المثل العليا والغايات المنشودة ويتطلعان الى القضاء على كل الاحزاب والشيع التي تخالفهما في الرأي وينكران عليها كل حق من حقوق التعبير عن آرائها ، وغايتهما ان يصيرا عقائد شاملة مستوعبة لنواحي الحياة جميعها مسيطرة على كل فكرة وكل عاطفة وبذلك تصير السياسة والاخلاق شيئاً واحداً

ونظرية الفاشيين في الحكومة هي نظرية سيادة الدولة المطلقة ، فالدولة اعظم من الفرد وحقها في الوجود يفوق حقوق الافراد ويسمو عليها ، وللدولة غاية تبغي طلابها وواجب الافراد معاونتها على اداء تلك الغاية ، ونمو شخصيتهم ونضج ملكاتهم رهن بالمشاركة في النهوض بذلك الواجب ، وخدمة الدولة تسمو بالفرد وترفعه الى الذروة وتحلق به فوق المآرب الشخصية وهي لا تحيل الفرد عبداً وانما تعلمه الكفاح والعدوان وتأكيد النفس والاعتزاز بالشخصية في سبيل خدمة الاغراض السامية ، وطاعة الزعيم تربأ به عن الانغماس في الصغائر والاستغراق في الانانية والغرور

والدولة عند الفاشيين ليست مدينة للفرد بشيء لانها اسمى منه والكفة بينهما غير متساوية والمقام متفاوت ، بل هي منبع كيان الفرد واصل آدابه ، وهي حرة من الالتزامات الادبية مع غيرها من الدول لانها قوة لا يتطاول اليها احد ولا يساميها انسان وهي من ثم لا تقبل الخضوع لعصبة الامم . والنظام الفاشي او الشيوعي يتطلب الحجر على حرية الفكر وحرية النقد وحرية الخيال لأن هذا الحجر في زعمه لصالح الدولة وصالح الدولة هو ما تريده الارادة العامة اي « الارادة الحقيقية » للشعب وهذه الارادة يفسرها في المانيا اعضاء الحزب الوطني الاشتراكي وينطق عن لسانها في ايطاليا الحزب الفاشي !

﴿ تعليل ظهور الفاشية ﴾ — يرد بعض الباحثين اسباب ظهور الفاشية الى ظهور حالة عاطفية جديدة مصدرها ان العالم الحديث فيه رجال كثيرون لهم همة ماضية وعقول ثاقبة ولكنهم لا يجدون مجالاً لهمتهم ولا ميداناً لتدريب مواهبهم وهم من ثم تائقون الى النفوذ والقوة ولا يحجمون عن

اصطناع القسوة لبلوغها ، وقد سلبهم العصر الحديث قوتهم وغمطهم حقهم وفوَّت عليهم فرص النجاح ، وشلَّ حركة القادرين على الابتكار والتجديد وقيد نشاطهم واوصد في وجوههم ابواب المغامرة والمخاطرة وسلط عليهم الملل والسأم ، وامثال هؤلاء يجدون في الفاشية خير منقذ

ويرى البعض في الفاشية بديلاً من الدين في عصر وهنت فيه العقائد وضعف سلطانها على النفوس ودالت دولتها ، والطبيعة تكره الفراغ فغير عجيب ان تحل الفاشية محلها وتقوم بمهمتها

ويعللها البعض بأنها ثورة على الحضارة ، وذلك لان حركة التقدم تحدث ضغطاً على العقل وتستحثهُ على ان يلائم بين نفسه وبين الوسط المتجدد ، وهذه الملاءمة تستدعي لذلك كبحاً من ناحية وطول احتمال لافكار جديدة واساليب لا عهد له بها ، من ناحية اخرى ، وعندما تسرع حركة التقدم ويشتد ضغطها يبدأ الذين يشعرون بنقصهم وتخلفهم أزاء ذلك التطور المتتابع والتقدم المستمر يحسدون المتفوقين البارزين ويتولد في نفوسهم الميل الى رد فعل لايقاف ذلك التقدم واعتراض سيره والعودة الى اساليب ادنى الى البساطة وأيسر للفهم وأقرب الى اظهار الشجاعة والاقدام والطاعة والثقة بالحكام ، وهكذا عندما يفوق تطور الحضارة مقدرة الانسان على التكيف بحسب الاحوال الجديدة يصبح خطر العودة الى الاحوال القديمة والطرق المهجورة ماثلاً ويشتد كره المستوى العالي والحياة المركبة المعقدة ويبدو ذلك في صور مختلفة منها صورة الرغبة في الاحتفاظ بالتقاليد القديمة والعودة الى أساليب الحياة البسيطة الساذجة ومحاولة الحرص على نقاوة الشعب والعمل على استئصال الفساد السياسي والانحلال الاخلاقي

ويعلل الشيوعيون الفاشية بأنها آخر مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي ، وهي في عرفهم رأسمالية عجزت عن اجابة مطالب العمال ومواجهة قوتهم النامية دون أن تهدم أساسها وتكشف عن زيفها ولذلك خلعت عن وجهها النقاب وأعرضت عن ادعاء الديمقراطية السياسية

اما انصار الفاشية فيفسرونها بأنها يقظة جديدة وبعث للروح ، ويشبهونها بنهضة احياء العلوم ووجهة نظرهم ان اوربا قد استولى عليها منذ عهد الحضارة القديمة تياران فكريان ، احدهما تيار الفكر اليوناني والآخر تيار الفكر الروماني ، فالتيار اليوناني هو الذي عمل على تقوية التفكير وشجّع نزعة الشك واوحى الميل الى التجربة وألهم الفردية ، والتيار الروماني هو الذي أوحى الولاء وحب التعاون الاجتماعي والرغبة في النظام واحترام التقاليد ، وقد أعاد عصر احياء العلوم للقيم اليونانية مكانتها ورد عليها سالف قوتها لانهُ هو الذي بدأ عهد حرية التفكير وأعاد في عالم البحث طريقة التجربة والاستقراء التي انتهت بانتصار العلوم من ناحية وتحطيم الاديان من ناحية اخرى ، وبدأ في عالم السياسة عهد الديمقراطية والحرية والمساواة وأوجد فكرة أن الحكومة هي وسيلة لاسعاد الفرد ، ولم تجد الروح اليونانية كابحاً فتطوحت وتغالت حتى أشاعت الفوضى

في الآداب والسياسة وعصفت باليقين وثمرتها المرة هي الشيوعية والفوضى في المسائل الجنسية والكفر والتمرد وقد استلزم ذلك العودة إلى حركة بنائية في السياسة والآداب لترجيح جانب التيار الفكري الروماني . وقد تحققت هذه الحركة في الفاشية لأنها عودة الى الفضائل الرومانية ، فضائل الولاء والنظام ، وهي لا تعنى بتقدم الفرد وانما تعنى بالتضامن الاجتماعي ، والمثل الأعلى عندها ليس هو العالم في معمله ولا المفكر في مكتبه وانما هو المجاهد الشجاع الصبور الذي يسحق أهواءه ويغالب شهواته ويتعمق في تدينه ويدافع عن الضعيف ويناضل عن الحق وينتصر للتقاليد ويذود عنها ، ورجل العمل عند الفاشيين أقرب الى فهم الحياة وادراك كنهها من المفكرين لان المفكر يفهم الحياة عن طريق العقل والتحليل في حين ان حقائق الحياة الحيوية انما تفهم بالبداهة الموفقة والألمعية اللامحة ، والفلسفة الفاشية لا تعول على العقل وانما تعتمد على الغريزة والايمان والحياة في نظر الفاشيين تحدٍّ دائم وجهاد متصل يرهف الحواس ويشد أوتار الاعصاب ويشحذ الهمة ويغري بحب المخاطرة ، وليست السعادة عند الفاشيين هي غاية الحياة وانما غايتها المجد والكفاح

﴿ آباء الفاشية ﴾ من المفكرين الذين مهدوا السبيل للفاشية والنازية الفيلسوف الالماني نخت ، فقد كان يرمي الى ضم صفوف الالمان لمقاومة نابليون وحاول ان يثير الشعور القومي وان يعزز في النفوس الولاء للوطن فذهب الى ان التربية يجب ان تتجه الى تنشئة الشعب الالماني على منوال يوحد أفكاره وأمانيه ، وأشار الى ان الوسيلة الوحيدة لذلك هي التدريب العسكري والنظام الحربي ، فكل فرد يلزم ان يخضع لهذا النظام ويتناول بهذه الطريقة ، والوطن في زعمه رداء الأبدية وعلى الافراد ان يجودوا بأنفسهم في سبيله ، وهو يقسم الناس الى قسمين كبيرين وهما النبلاء وغير النبلاء ، وغير النبلاء انما يعيشون ليخدموا النبلاء ويلبوا مطالبهم وينقادوا لهم ، وميزة النبيل قوة الارادة ومضاء العزم والارادة عنده أساس الرجل ومحور الشخصية ، وجميع ضروب الفاشية تقوم على إكبار الارادة والاشادة بها ، والارادة في رأي الفاشيين هي العامل الحاسم في التاريخ . ولكن الى أي غرض يوجه الرجل الأسمى ارادته ؟ يرى نخت ان الرجل الاسمى انما يوجه ارادته الى عمل الخير ومصلحة الشعب ونفع الوطن وقد جاء بعده نيتشه ليؤكد ان القوة في نفسها هي غرض الرجل الاسمى

ونيتشه ينكر المساواة ويرى ان البشر غير متساوين وهو يهاجم آداب المسيحية في شدة وقسوة ، وعنده ان التواضع والخشوع من آداب العبيد ، وان الانسانية والعطف والرحمة من علامات الضعف ، وهو من أجل ذلك يعتبر المسيحية ديانة الضعف وهي تؤكد للفاشلين في الدنيا أنهم سيظفرون بالسعادة في العالم الآخر وتقاوم صفات الرجولة والكبرياء وتأكيد النفس ،

والواقع ان نيتشه في تفكيره الاخلاقي قد تأثر بتصور دارون للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء ، وقد ذهب دارون الى ان البقاء للانسب فجاء نيتشه واستنبط من ذلك حكمة اخلاقية فقال ان الانسب يجب ان يبقى اي انهُ حاول ان يستخرج قانون الاخلاق من نظرية التطور ، ومن طبيعة الآداب القائمة على اساس هذه النظرية انها ترى ان الصالح هو ماساعد على التطور وان الشر هو كل ماعاق حركة التطور ومن طبيعة الحياة انها تحاول على الدوام ان تفوق نفسها وان تخرج صوراً ارقى واكمل من ناحية الصفات العضوية ومن جانب الاخلاق ولكن كيف يعرف التفوق الاخلاقي والسمو الروحي ؟ سمات الامتياز الاخلاقي والنبوغ الروحي هي رغبة الفرد الممتاز في ان يخضع لارادته الغير وانما ظهرت الديمقراطية لمقاومة ذلك وعكس آيته وابدال سنته وحب القوة عند نيتشه هو أقوى العواطف ، وقد يكون الانسان موفور الصحة وفي نعمة سابغة ولكنهُ يظل مع ذلك تعساً محزوناً لأنهُ ظامىء الى القوة متطلع الى النفوذ والسلطان، والميل الى القوة هو الزلزال الذي يهدم الفاسد ويبعثر القبور ، واعلاء ارادة القوة وتمجيدها أدى بنيتشه الى تصور نوعين من الآداب آداب العبيد الذين يمقتون القوة وعدم المساواة وآداب السادة التي تعتبر القوة هي غاية الحياة وتحفز السادة على طلب الاستزادة من القوة وتقوية الصفات التي تعين على تحصيلها ، وعنده ان الفرق بين الخير والشر معناه الفرق بين النبل والضعة في حين انهُ عند العبيد هو الفرق بين النافع والخطر ، وآداب العبيد في رأيه آداب نفعية، وكما ارتقى الانسان وجاوز مستوى القردة فكذلك سيرتقي الانسان الاعلى ويسمو على مستوى الانسانية والانسان الاعلى هو هدف التطور وغايته ، ويمتدح نيتشه الكفاح والغلاب ، وقد كان هجل يمتدح الحرب ويكبر من شأنها لأنها تزيد الدولة قوة وبأساً ونفوذاً ، أما نيتشه فانهُ يمتدح الكفاح لأن الشجاعة وقوة الارادة ومضاء العزيمة هي فضائل الانسان البارزة ، والكفاح يستلزم الشجاعة ويقوي الارادة ويهيء الفرصة للرجل القوي ليظهر قوته وتفوقه وقد التفت لذلك مكيافلي فأوصى أميرهُ ان يجعل فن الحرب واجبه وشغله الشاغل لأنهُ علم الذين يباشرون صناعة الحكم ، والحرب عند نيتشه دواء ناجع للامم المستضعفة الواهنة اذا كانت تحرص على الحياة وترغب في البقاء

وقد سار في غبار نيتشه جماعة من كتاب الالمان رددوا هذه النغمة وأطالوا فيها واسرفوا اسرافاً لامزيد عليه في طليعتهم تريتشكة وبرناردي ، وكل من يقبل آراء نيتشه ونحت يصبح يعتقد بنبل نفسه وسموها ، والفاشية تعلي الارادة وبمجد القوة وتقسم الناس الى فريقين فريق من حقه ان يسعى الى القوة وفريق ينقصه قوة العزيمة فواجبه طاعة الأقوياء والأنقياد لهم وخطب الفاشيين وأحاديثهم ورسائلهم تنمُّ على نبذ فضائل المسيحية والاخذ بالآداب الوثنية

البحث الثالث

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

نشأة الاتجاه الإبداعي في الشعر العربي

﴿ توطئة ﴾ يقوم اصطلاح « الرومانسية » في الآداب الغربية من أصل في لغة اللاتين بمعنى غلبة الخيال والشعور على الاحساس والعقل . ومن هنا جاء الاتجاه الإبداعي في الآداب الغربية ارسالاً للخلجات النفسية مترعة بالوجدان بغير تقييدها بأحكام الفكر وقوانين العقل . ولهذا كان الاتجاه الابداعي يحتوي على بذور حركة مضادة للاتجاه الاتباعي من حيث يقوم هذا الاتجاه على أساس من القوالب والتراكيب التي هي من فعل الذهن الصرف ، والتي تصاغ فيها خلجات النفس والوجدان فتخرج خافتة النبرات

على أن الإبداعية في الأدب العربي لم تقم — كما هو الحال في شعر الابداعيين — على أساس الثورة على القوالب والتراكيب العربية ، وانما قامت قبل كل شيء على أساس من نقل الشعر من الأغراض العربية الإتباعية الى الأغراض الأوربية الابداعية ، فبذلك كان اتجاه الحركة الابداعية في الآداب العربية أقرب في روحها الى الحركة « البرناسية » في الآداب الغربية ، آية ذلك أن خليل مطران أول الإبداعيين في الشعر العربي يقول في توضيح المذهب الجديد في الشعر : —

« اللغة غير التصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتماً ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا . ولهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم ، وان كان مفرغاً في قوالبهم محتذياً مذاهبهم اللفظية » (١)

فخليل مطران يرى أن قوالب العرب في نظم الشعر ومذاهبهم في صوغ الكلام أساس إتباعي

---

(١) خليل مطران في المجلة المصرية ، السنة الاولى ج ٣ (يوليو ١٩٠٠) ص ٨٥

تقوم عليهِ لغة الضاد ، وأن المذهب الجديد ليس عليهِ أن يخرج على هذه الأصول . وإن كانت له كل الحرية من جهة صرف المعاني وتوجيه الأغراض الى السبيل الذي يشاء ، غير مقيد بشيء إلاَّ أن تكون هذه المعاني والأغراض مستنزلة من روح العصر الذي يعيش الناطقون بالعربية فيهِ اليوم ، ذلك ليكون هذا الشعر عصريًّا من حيث تنعكس من صفحتهِ ظلال روح العصر

على هذا الأساس يتضح جليًّا لنا الاتجاه الجديد الذي استحدثهُ خليل مطران في الشعر العربي ، والذي سار في ركابه من بعد ما تميزت خطوطه الشاعر السوري خليل شيبوب والشاعر المصري علي محمود طه ، وقد كانا أمينين على أغراض المذهب الذي استحدثهُ خليل مطران في الشعر العربي من بين كل المجددين

هذا الاتجاه الجديد بثورتهِ على الأغراض الإتباعية في الشعر العربي كان اعظم ثورة في تاريخ الأدب العربي، وكانت هذه الثورة بما تركت من آثار، مقدمة لعهد جديد في تاريخ آداب اللغة العربية منفصلاً كل الانفصال عن القديم . غير أن العهد القديم لم ينقض بهذه الثورة ، وإنما نشأ بجانب امتداده اتجاه جديد ، كان المقدمة للعهد الجديد . ومهما تكن حقيقة الأسباب التي دفعت خليل مطران إلى هذه الثورة ، فلا شك أنها مستنزلة أسبابها من بيئتهِ الشعرية . إلاَّ أن هذه البيئة مستقلة بحدودها عن البيئة الشعرية العربية العامة . ذلك أن حركة خليل مطران الأدبية تستند الى قوة من الفكر الفردي فيه تغلبت على قوة الفكر العام . وهذه القوة تخطت حدود التطور في هذا الشرق النائم في بعض أفراده النابغين ووثبت وثبات الى الامام متصلة بالفكر العربي بغير أن تجد في الشرق ما يهيء لها أسباب القيام من الفكر العام(١)

آية ذلك أن حركة خليل مطران الابداعية في الشعر ، وكثيراً من الحركات الفردية التي شهد قيامها الجيل الذي انقضى بقيام الحرب العظمى لم تحظ بشيء كبير من الذيوع ، وان لاقت بعض الاهتمام في بيئات فردية منعزلة عن المحيط العام

هذا وان كانت قوة الفكر الفردي وجدت في خليل مطران وبيئته الشعرية ما تجعله مهيأ الأسباب لرسالة جديدة في الأدب العربي تقوم على محاولة جريئة في نقل دائرة الشعر العربي من الأغراض العربية البدوية الى دائرة الأغراض الأوروبية العصرية ، تلك الأغراض التي كانت تقوّم حياة جيل من الشباب في العالم الناطق بالعربية ، اتصلت به الأسباب الثقافية بالغرب فتشرّب آدابها في مدارس الارساليات وكليات الأميركان ببيروت ، فكانت من تلك الأسباب التي دفعت هؤلاء الشباب أينما حلُّوا ونزلوا الى احتضان حركة الجديد ودفعها الى الامام وخرج من صفوف هؤلاء الشباب مطران محاولاً استحداث انقلاب في الشعر العربي . كما خرج من نفس

(١) I. A. Edham في Al-Zahhawy The Poet ص ١٤ وكذا في Abushâdy The Poet ص ١–٢

الصفوف زيدان منصرفاً الى ميدان التاريخ محاولاً ان يجنح به الى الطرائق الغربية . وكانت حركة صرّوف في العلم وفرح انطون في الأدب تستمد الأسباب من نفس هذا الاتجاه ، بحكم كونها من صفوف هؤلاء الشباب

غير ان قوة الفكر العام في العالم الناطق بالعربية من حيث كانت تتصل بالقديم وتمضي خبباً في تطورها ، أخذت تسير بالمجتمع الشرقي في خطوات تدريجية متصلة الأسباب بالقديم ، ومن هنا كانت تقف حائلاً دون تقبل الحركة التي قام بها هؤلاء النفر الذين تخطوا أسباب عصرهم المتصلة بالماضي واتصلوا بالغرب فالتحقوا بقافلة العصور التي لاتزال جنين الدهر في الشرق ، ولم تتمخض عنهم رحم الشرق بعد الى هذا اليوم . وهكذا كان هؤلاء اكبر من العصر الذي نشأوا فيه ، كما كانوا اكبر من العصر الذي لحقوه . ولهذا ذهبوا طي الزمن دون ان يلتفت اليهم ابناء عصرهم الالتفات الذي يتكافأ مع خصائصهم الممتازة .

اما تلك الخطوات التدريجية فقد ارتكزت عليها روح الإحياء والبعث لتراث الأدب العربي القديم في جميع الاقطار الناطقة بالعربية . فكانت حركة البارودي وولي الدين يكن وحافظ ابراهيم واحمد شوقي في مصر ، والكاظمي والرصافي في العراق ، وشبلي الملاط وداوود عمون وامين تقي الدين في سوريا ولبنان وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة والشهرة . وكان روح هذا الفريق اتباعيّـا يقوم على الأغراض العربية البدوية في الشعر العربي من حيث بعثت للحياة من جديد وان رقق منها الحواشي حياة العصر .

—١—

يقوم الاتجاه الاتباعي في الشعر العربي على أساس الاغراض النموذجية المصوغة في قوالب من عمل الذهن : وخيرُ الشعر عند العرب ما سبق دبيبه في النفس دبيب الغناء ثم سبح بها في عالم الخيال ، ذلك ان الشعر العربي غنائي في روحه اتباعي في مبناه . ومن هنا « ان كان غزلاً . مرّ بها على مسارح الظباء وكنس الآرام وطاف بها على أودية العشق والغرام فأراها أسراب الارواح ترفرف على نواحيها غاديات رائحات في مروج الهوى سانحات سارحات في رياض المنى طائرات سابحات في أجواء الهيام حافات بأرواح اولئك الذين قضوا شهداء العيون وصرعى الجفون وأراها جميلاً وهو يرنو الى بثينة وابن حزام وهو يهفو الى عفرائه والمجنون وهو يضرع الى ليلاه ثم ردّها بعد ذلك وقد أذابها رقة وأسالها شوقاً »(١) وهكذا تتجلى شاعرية الشاعر العربي من بين هذه الاغراض

وفي الاتجاه الاتباعي يقوم البيت من الشعر محلّ القصيد ، وتنتهي عندها اغراض الشاعر . ومن هنا لا تجد في الشعر العربي « ارتباطاً بين المعاني التي يتضمنها القصيد الواحد ولا تلاحم بين

(١) حافظ ابراهيم : في مقدمة الديوان — القاهرة ١٩٠٠

اجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها ابنيتها وتوطد بها اركانها، وربما اجتمع في القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس ولكن بلا صلة ولا تسلسل . وناهيك عمّا في الغزل العربي من الاغراض الاتباعية التي لا تجتمع الاّ لتتنافر وتتناكب في ذهن القارىء . ولولا اختيار الالفاظ وحسن الاسلوب وبدائع الصور التركيبية . وكذلك لولا مؤالفة أذهان العرب لصيغة القريض وتركيبه من هذه القدد المتنافرة لتناكرت وجوه الشعر عند العرب وهم يرون التقطع بين قول كبير شعرائهم المتنبي :

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم   علمت بما بي بين تلك المعالم

وما يليهِ من الابيات ذوات الاغراض الغزلية ، وبين قوله مفاجأة على أثر ذلك :

فمالي وللدنيا طلابي نجومها   ومسعاي منها في شدوق الأراقم

من الحلم ان تستعمل الجهل دونهُ   اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

الى آخر هذه الاغراض المنتهية عند الحكمة. ثم بين قوله بعدها في الفخر :

اذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك   وان قلت لم أترك مجالاً لعالم

وبين قوله في التخلص الى الممدوح :

والاّ تخانتي القوافي وعاقني   عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

ولا جرم ان هذه القصيدة نظمت لابن عبد الله . فما الذي كان يعنيه من كل الامور التي تقدمت ذكره فيها ، وهل حق عليهِ سلفاً من جزاء ما مدح بهِ ان يسمع شكوى غرام الشاعر ويرى رسم حبيبته الموصوفة ثم يثب من هنالك الى النجوم التي جعلها ابو الطيب المتنبي طلابه من الدنيا ثم يرتقع الى مهبط وحيه ومستنزل حكمته ليسمو الى قمة فخره بسيفهِ وقلمهِ ثم يعود الى داره، الى المجلس الذي هو فيهِ منها وبين يديهِ ابو الطيب ينشده ويسمع عندئذٍ ما أثنى عليهِ بهِ»[1]

وهكذا وقفت وحدة البيت محل وحدة القصيد في الشعر العربي لتجعل الشعر عند العرب ينحلُّ الى صور ، كل بيت شعر تحتله صورة كاملة ، لا تصور في الواقع ولا تحكي صور الاشياء التي يعرض لها الشاعر في طبيعتها الموضوعية وانما تعرب عن أثرها في النفس وصداها. ومن هنا كانت ذاتية الشعر العربي ووقوفه عند الضرب الغنائي من الشعر . غير ان هذه الصور الذاتية في الشعر العربي وان اكتملت صورتها من ظاهر آثار الأشياء وصداها في النفس التي تقف في عالم الحس ، فانها لم تكن لتنفذ الى ما وراء الحس فتتصل بعالم المشاعر الداخلية في أعماقها . آية ذلك ما تراه من الصور الحسية المحضة للعواطف والميول عند شعراء العرب ، وحتى أنك تجد

(١) خليل مطران : في المجلة المصرية — السنة الاولى ج ٢. (١٦ يونيو ١٩٠٠) ص ٤٢—٤٤

عمر بن الفارض سلطان العاشقين عند شعراء التصوف لا يتعدى بخياله الشعري الصور الحسية،[1] وإن كانت هذه الصور في شعره رموزاً لمعانٍ روحية، إلاّ ان ظهور الجانب الحسي في المواقف المعنوية المحضة يستدعي النظر ، خصوصاً اذا كانت هذه المعنويات ميولاً وعواطف ، وهي تنزل من وراء الحس عادة ، فاذا ظهرت حسية ، فذلك ينهض دليلاً على الطبيعة الحسية عند العرب

هذه الطبيعة الحسية جعلت الخيال العربي ماديًّا . فلم تسمح له بالتحليق في أودية عالم الابهام والانطلاق في عوالم التخيل ، ذلك ان خيال العرب آت من قبل الحس لا من قبل الوهم Fancy ولذلك كانت صور خيال العرب هواتف وأصداء تسمعها الأذن وصوراً تراها العين ، ولم تكن أشباحاً تبرز للمخيلة مكتملة أسباب تجسدها من العالم الموضوعي

ولا شك ان ضيق خيال العرب[2] وما لوحظ من عدم التنوع والزخامة نتيجة لهذه الطبيعة الحسية عندهم ، التي تقف كل شيء من آثار العرب دليلاً عليها ، حتى ليمكنك ان تجد على ذلك الدليل في لغتها من حيث الاستعارات ، التي يمتزج في الغالب معنويها بحسيها ، ناهيك بالألفاظ الدالة على الميول والعواطف في اللغة العربية كلمات لم تتغلب عليها الصبغة المعنوية الى يومنا هذا . [3]

من هنا كانت ثورة الابداعية على الاتجاه الاتباعي ، من حيث تترسم الابداعية الأغراض الأوربية في الشعر ، ثورة على الأغراض العربية ، ومحاولة للخروج على الروح العربية ، ولما كانت هذه الثورة قائمة في حدود اللغة العربية ، فانها لم تقدر على استيعاب الأغراض الأوربية كاملة ، من حيث ارتبطت بعض الأغراض العربية من جهة المعاني بالألفاظ العربية . مثال ذلك ان الالفاظ الدالة على المعنويات في العربية تتغلب عليها الصبغة الحسية ، ومهما كانت أغراض الشاعر الابداعي معنوية فانها تكتسب الصبغة الحسية من مدلولات الالفاظ. هذا ولما كانت الحركة الابداعية التي قام بها مطران تقوم على الأغراض الشعرية المتصلة بالمعنى دون المبنى . فان المبنى الاتباعي كان يحمل الشعر الابداعي كثيراً من صوره. مثال ذلك قول خليل شيبوب من الشعراء الابداعيين من قصيدته « الشاطىء الخالي » : —

كأنما الريح لما رفَّ ناسمها سالت حنيناً بها أرواح من عشقوا

فهنا مرور الشاعر على أسراب الأرواح وتضمينها في الطبيعة ، لم يخلص فيها من ناحية الكلام عن أرواح العاشقين من الغرض الاتباعي في الغزل العربي

هذه مسائل تستوقف النظر في دراسة الاتجاه الابداعي في الشعر العربي. والحقيقة ان الحركة

(١) زكي مبارك — أبولو ، م ٣ ج ٤ (ديسمبر ١٩٣٤) ص ٤٢٢ — ٤٢٣

(٢) De Lacy O'Leary في كتابه Arabia Before Mohammed وكذا فجر الاسلام لاحمد أمين — الطبعة الثالثة ص ٣٧ — ٤٧ (٣) عباس محمود العقاد في الفصول ص ٣٨

الابداعية التي قام بها خليل مطران لم تكن في جميع نواحيها تجديداً وخروجاً على القديم وثورة عليه . انما كانت في بعض النواحي ، وأكثرها يتصل بالاغراض العامة للشعر دون المبنى ، مثال ذلك قيام حركة مطران الابداعية على اساس ادخال الشعر القصصي والتصويري للادب العربي فهذين الضربين يخلو منهما في الاصل الشعر العربي القديم ، كما يخلو منها الشعر الاتباعي الحديث. ولا شك ان ادخال هذين الضربين كان على اساس خطير . هو محاكاة الأشياء في صورها الخارجية محاكاة موضوعيّة . وهذه كانت نتيجة للأخذ بالخيال الأوروبي ، ولهذا تطور في الشعر الابداعي الحديث الخيال الشعري من الهواتف والأصداء التي تسمعها الآذان والصور التي تراها العين ، الى صور أشباح تبرز للمخيلة وتتمثل للذهن مستكملة أسباب وجودها الموضوعي في الخارج عن الشاعر

ولا شك ان لخيال مطران المنقطع النظير في تاريخ الآداب العربية يداً كبرى في هذا التحول وأيًّا كانت الاسباب التي ترجع لها قوة الخيال الشعري عند مطران ، فانه عن طريق خياله الغير المحدود والمتنوع تمكن من ان يجعل الشعر العربي يحمل صوراً وضروباً من الشعر لم تكن العربية تحتويها من قبل . وسرعان ما أخذ بهذه الصور والضروب بعض الشعراء العرب المتأثرين بمدّ الآداب الغربية فحاولوا محاكاتها ، وكان من ذلك مع الزمن مدّ الحركة الابداعية التي تمثلت في مصر في عبد الرحمن شكري واحمد زكي ابوشادي وابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وفي سوريا ولبنان في علي الناصر وعمر ابو ريشه والياس ابو شبكه وسعيد عقل وفي المهجر في جبران ونعيمه والريحاني والمعلوف وابو ماضي والشاعر القروي

— ٢ —

قامت الابداعية العربية على أساس الأخذ بالتناول الرومانسي للموضوعات الشعرية ، وذهبت في تعريف اسلوب الكلام بحسب ذوق العصر ، ولو ادى ذلك الى استخدام الألفاظ والتراكيب احياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب عند العرب[١] غير انها في العموم كانت تدعو الى احترام أصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها . ولما كان العرب يعرفون الشعر على انهُ الكلام الموزون المقفى الذي يجري على أساليب العرب ويقصد به الجمال الفني فهذا جعلهم يعتبرون الشعر صناعة تتبع المعاني فيها الاوزان والقوافي ، بيان ذلك عندهم ان الوزن والقافية اصل اداتهُ الشاعرية . على ان الابداعية قامت قبل كل شيء تحارب مثل هذه الفكرة معتبرة الشاعرية الأصل ولها ان تستعين بالاوزان والقوافي او ما يقوم مقامها لتكون لها تلك النبرات الموسيقية التي تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام . وبين هذا التناول للشعر وتناول العرب للشعر

(١) أبو شادي في أصداء الحياة ، ١٩٣٧ ص ١١

يقوم الفرق بين الاتجاه الاتباعي والاتجاه الابداعي . لأن اعتبار الوزن والقافية اصلاً اداتهما الشاعرية يجعل البيت وحدة مستقلة في مبناها ومعناها عما بعدها وعما قبلها ، وفي هذا يقول ابن خلدون في المقدمة

«وينفرد كل بيت من القصيدة بافادته في تركيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وعما بعده ، واذا أفرد كان تاماً في بابه ، فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر ويستطرد الخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطىء المقصود الاول ومعانيه الى ان تتناسب مع المقصود الثاني ويبعد بذلك الكلام عن التنافر »

وعلى هذا الاساس يمكنك ان تعدّل وتبدل في ترتيب ابيات شعر الاتباعيين بدون ان تخشى ان يؤثر هذا التبديل على معاني القصيدة واغراضها ، لأن لكل بيت في الشعر العربي وحدته

وبعكس هذا قيام الاتجاه الابداعي على أساس ان الشاعرية هي الاصل ، وان من أدواتها الوزن والقافية ، لذلك تجد تسلسلاً مقبولاً في الشعر الابداعي ، أساسه ان الشاعر يعبر عن خواطر متناسقة في ذهنه وعن عاطفة متمشية في صدره ، ومن هنا كانت وحدة القصيد في شعر الابداعيين أظهر شيء

وعندك الاغراض الشعرية عند الابداعيين ، فهم يرون الشعر فنًّا منبهاً للتصور والحس عن طريق الرمز . وان الشعر يفترق عن الرسم في ان الرسم فن منبه للتصور والحس عن طريق النظر . وهما يفترقان عن الموسيقى في انها تنبه التصور والحس عن طريق السمع (١) ، فالاساس عندهم واحد في جميع الفنون وان اختلفت ضروبها بطرائقها . فمثلاً الشاعر الذي يتحدث عن عاصفة يصف لك شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يغتالها الى ان تنطفىء فيشمل الظلام ويكون مهيباً . وينتشر سحائب سوداء كثيفة ترسل في الجو رعوداً قاصفة ثم صادعة ، وبروقاً ملطفة اللمعان ثم ساطعة . ويطلق ريحاً عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهي مبانيه وتنسف أشجاره وتصفع وجوه زجاجه بالبرد ويجري بطرقه سيولاً فاذا بلغ الهول منتهاه ، وصف لك في خلال هذه الروائع كلها طفلاً يتيماً هائماً على وجهه وقد لجأ الناس الى مساكنهم جزعاً واطمأن الاطفال بين أيدي آبائهم وامهاتهم في مأمنهم وهو يقف بذلك الطفل الصغير في ذلك الموقف الرهيب ليحرك في القلب وتر الحنان والرفق خلال خفقان الهلع وثورة الدهشة. ومن يذهب مع الشاعر في تسلسل خياله واطراد خواطره ، يرَ ما قيل محسوساً بين يديه ينظره بعينه ويسمعه بأذنيه مع انهُ في الحقيقة لم ير ولم يسمع شيئاً من ذلك . وانما احتال الشاعر عن طريق الرموز الى ما ينبه عند القارىء هذه التصورات الشتى ويجمعها على الشكل الذي احبهُ ،

(١) خليل مطران ، فى المجلة المصرية ، السنة الثانية ج ١ (يونيو ١٩٠١) ص ١٢

ويتم لهُ ما أراد على قدر مهارتهِ ، وللالفاظ في بلاغ قصده رنة لا تتكرر وللتركيب امتزاج بالنفس لا يجحد ، وان كان كل هذا من المتمّمات (١)

ولا شك ان الاغراض الشعرية بلغت الغاية في يد الابداعيين من جهة تسلسل المشاعر واطراد الخواطر واتساق الخيال ، حتى ان مطران انتهى الى روائع من الشعر آية في الإعجاز في السنين الاولى من قيامه بحركته التجديدية ، ومن أبلغ هذه الروائع قصيدتهُ القصصية «الجنين الشهيد» التي لا يوجد لها مثيل في كل تاريخ الشعر العربي

ومن الخطورة في مكان ، التحول الذي حدث على يد مطران من ناحية الاغراض العامة العربية الى ناحية الأغراض الاوربية العامة ، وعلى وجه خاص من جهة الخيال الشعري . ومما لا ريبة فيهِ ان لنشأة مطران يداً كبرى في هذا التحول من جهة بيئته الطبيعية ومحيطهِ الاجتماعي ، فلقد وجدت العقلية السورية اللبنانية في ربوع الشام وفي جبل لبنان تحت تأثير الاتصال بالفكر الغربي ما يجعل الفكر العربي يتقطع في كثير من البيئات الفردية ، فنشأ الخيال في هذه البيئات متقلباً على الأوضاع الطبيعية التي تتركها أجواء القطر الشامي وجبل لبنان فيهِ . وهذه مسألة هامة ، وأهميتها راجعة الى ان الخيال الشعري انطلق في هذه الربوع للمرة الأولى في تاريخ الآداب العربية حرًّا من تأثير الذهن العربي فانطلق الشعور بالحياة والخيال هناك بدائيًّا يستوحي الطبيعة والحياة في فطرته . فكان ذلك سبباً لأن تكون لبنان وسوريا موطناً للشعر الابداعي في العالم الناطق بالعربية (٢) هذا القطر السوري يقول مطران فيه عند لقاء الشام :

هذي رؤوس القمم الشماء نواهضاً بالقبة الزرقاء
نواصع العمائم البيضاء روائع المناطق الخضراء
ياحسن هذي الرملة الوعساء وهذه الاودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء راقية معارج العلاء
وهذه الخطوط في البيداء كأنها أسرة العذراء
وذلك التدبيج في الصحراء من كل رسم باهر للرائي
مشوش النظام في جلاء منتسق بالحسن والرواء
وهذه المياه في الصفاء آناً وفي الازباد والارغاء
تنساب في الروض على التواء خفية ظاهرة اللألاء
ونسم قواتل للداء يشفين كل فاقد الشفاء
ومعشر كأنجم الجوزاء يلتمسون سترة المساء
في ملعب للطيب والهواء ومرتع للنفس والاهواء
ومبعث للفكر والذكاء ومنتدى للشعر والغناء

وأنت لتلمس في هذا الوصف طبيعة الشام وتستحضر في ذهنك صورة محسوسة بين يديك

(١) خليل مطران في المجلة المصرية السنة الثانية جزء ١ ص ١٠ — ١١ (٢) انظر الفقرة ٣ من هذا البحث

منها ، حيث تقوم القمم الشماء التي تناهض السماء والتي يغطي شواهقها الثلج ، بينما تكتسي قواعدها بالخضرة و تتجلل بالاشجار . الى تلك الاودية التي تفصل بين هذه الشواهق و تغيب في منعرج الجبال . الى تلك المجاري التي تصفو في بعض الاوقات و تزبد فيها الماء و يرغو في الحين الآخر . مما يسبغ على الطبيعة جواً كله اسرار تجسم في الذهن الوهم الخفيف و تفسح للمخيلة مجال التصوير

وهكذا كان ابناء القطر الشامي اصحاب طبيعة فياضة بالشعور وروح نابضة بصور الاشياء غير ان هذه الطبيعة كانت تحت تأثير البيئة الاجتماعية الآخذة الاسباب بالروح العربية تغيب في طيات النفس حتى تفتقده ، فلما تقطعت الاسباب بالفكر العربي ظهرت هذه الطبيعة في فيض شعورها وفي نبضات روحها آخذة الاسباب بأجواء المحيط الطبيعي

— ٣ —

نشرت الابداعية صفحتها الأولى في القطر الشامي في تلك البيئات التي تقطعت فيها اسباب الحياة والذهنية العربية . والواقع ان العالم العربي وعلى وجه خاص لبنان كان في العصر الماضي مسرحاً لبيئات متباينة إن اختلفت في مظاهرها ، الا انها متكافئة مع المؤثرات التي وجدت السبيل للعالم العربي في ذلك العصر . وبعض هذه البيئات انقطع فيها كل اسباب الاتصال بالقديم وأكثر ما كانت هذه البيئات تقوم في ربوع الشام في البيئات المسيحية حيث انطلق نفر من الشباب السوري هنالك من آثار القديم واتصلوا بموجة الجديد التي حملها الغرب بقوة الى الشرق الادنى تحت تأثير الاتصال الذي توثق بين العالمين في ذلك الحين

ومن خطر الشأن في مكان ان نلاحظ ان الانسان من حيث يولد وهو طفل ، فافعاله العكسية الاصيلة هي التي تستحكم في سلوكه مستنزلة الأسباب مباشرة من الجهاز العصبي . تلك الافعال — التي كانت تعرف فيما مضى بقواسر الطبع والغريزة — والتي تكون مطواعة في طفولة الانسان للمؤثرات التي تنطوي عليها بيئته الطبيعية ومحيطه الاجتماعي والدوافع الاولية المستنزلة من هذه المؤثرات . والانسان عادة يخرج من طفولته تحت تأثير هذه المؤثرات مصبوباً في قالب معين يكافىء الحالات التي احاطته . ونظراً لأنهُ في الحالات الاعتيادية تكون الاسباب الطبيعية في تداخلها بالمؤثرات الاجتماعية منتهية الى حالة واحدة . عامة بالنسبة لافراد الجماعة البشرية . فان الناس يخرجون مصبوبين في قالب معين ، ولما كانت المؤثرات الاجتماعية لا تثبت على صورة واحدة وتتحول من جيل الى جيل ومن قبيل الى آخر بما يستجد في محيط الجماعة من عوامل ومؤثرات فان الحالات الخارجية بالنسبة للانسان تتغاير وتأخذ صوراً شتى تتكافأ مع كل صورة الجماعة التي يعيشون في ظلها ويتنفسون في اجوائها

والشرق الناطق بالعربية تحت تأثير المدنية الغربية أخذ في التطور ، وكان من آثار تطوره

ان تقطعت في بعض مجتمعاته الاسباب التي تربطهُ بالحياة العربية وتصله بذهنية العرب التقليدية . فكان من ذلك نشوء اجواء جديدة ، تقومت باسبابها الاتجاهات المستحدثة في تاريخ هذا الشرق

على انهُ من المهم لنا في بحثنا هذا ان نلاحظ ان وراثة الاتجاهات الادبية والميول الذهنية مهما تنوزع في حقيقتها من الناحية البيولوجية . فلا ريب في انها تتقوم بالاسباب التي تستنزل من التكافؤ الحادث بين محيط الجماعة البشرية والدوافع التي تحرك الانسان في طفولته في اجوائها. ولا شك انه في الامكان ، عن طريق استقلال العوامل المتصلة الاسباب بالمحيط الطبيعي عن العوامل التقليدية المتصلة بالجماعة ، يمكن قيام الاتجاهات الطبيعية في الانسان مستقلة عن التأثر بالعوامل التقليدية التي تكوّن قرارة الجماعات الاَّ ان هذا كما هو واضح وقف على شيء واحد ، هو تقطع العوامل التقليدية في المجتمع . وفي ذلك الحين تحت تأثير الجو الطبيعي الذي يفعل فعله مباشراً وتحت ظل التكافؤ بين هذا الجو الطبيعي والعوامل الجديدة في المجتمع . يستحدث محيط جديد يتأثر باسبابه ما يقوم في عالمه من الاتجاهات والميول (١)

الاَّ انهُ في الشرق الناطق بالعربية حدث تحت تأثير مدّ الموجة الغربية ، ان أخذت بعض المجتمعات وخصوصاً في الشام تفقد كل اسباب اتصالها بالحياة والذهنية العربية التقليدية التي تكونت قائمة على كرّ الدهور . واختلاف التأثيرات والتواردات على هذه المجتمعات ، خلق اجواء جديدة متباينة ،لكل جماعة لها جوها الخاص . الاَّ انها في جماعها تكافىء الحالات العامة التي وجدت طريقها للمحيط الاجتماعي (٢)

في احد هذه الاجواء التي استقلت عن تأثير الماضي عن طريق التفاعل بمدنية الغرب نشرت الابداعية صفحتها الاولى متأثرة باسباب البيئة الطبيعية المتفاعلة مع الجو الجديد .ومما يلاحظ ان تفاعل الشرق بالغرب كان على اشده في لبنان وسوريا ، ومن هنا كانت لبنان وسوريا موطن الاتجاهات الجديدة في الادب والفكر العربي

بدأ الاتجاه الجديد في الشعر العربي وجوده في الشام في شعر سليم عنحوري (المولود عام ١٨٥٥ م)صاحب ديوان « آية العصر »

غير ان هذا الاتجاه قام عنده على اساس تغليب الفن على الصنعة فقط ، ومن هنا جاء ارسال الخلجات النفسية مترعة عنده من الوجدان ، دون ان يحد منها التكلف الصناعي الذي اخذت به العصور المتأخرة في قول الشعر . ولم يقدر عنحوري ان يخرج على الاغراض الاتباعية

(١) اسماعيل أحمد أدهم : « بين الغرب والشرق » مجلة الرسالة،السنة السادسة،العدد ٢٧١ ص١٤٩٣
(٢) ستيوارت ضد في المقتطف ، م ٩٤ ج١ص ٤١ — ٤٩ و ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٧

العربية، من هنا كانت محاولته حركة محدودة المدى والنتائج الا انها كانت خطوة واسعة الى الامام من الخطوة التي خطاها رفاعة رافع الطهطاوي في اوائل القرن التاسع عشر حين اخذ ينظم في العربية أوسع المعاني الاوربية، فحمل الشعر العربي بخصائصه التقليدية المعاني الاوربية التي ناء تحتها النظم العربي وفي ذلك يقول الدكتور احمد ضيف ما مؤداه :

« ولكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر في القرن التاسع عشر كان أول من أدخل في الشعر المصري نوعاً جديداً نقله من الشعر الفرنسي ، ذلك هو الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١—١٨٧٢) الذي أوفده محمد علي باشا الى باريس مع طلبة الارسالية . على ان الشيخ رفاعة لم يكن شاعراً ممتازاً بين شعراء عصره من شيوخ الازهر ، ولكنه كان شغوفاً بالادب فتعلم الفرنسية وكان أول ما نقله منها الى العربية قصيدة نظمها في مدح الامير محمد علي أحد أساتذة اللغة الذين أرسلوا مع البعثة الى فرنسا

هذا الى ان الشيخ رفاعة أول من أدخل النشيد الوطني الى مصر. فقد نقل المارسيليز الفرنسية الى العربية في شعر حمل فيه النظم العربي معاني المارسيليز الفرنسية ، وتصرف فيها بعض التصرف . ومنها :

فهيا يابني الاوطان هيا فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا سويا

ونسج على منوال هذا النشيد قصائد أخرى مزج بعضها بمدح الامراء وولاة مصر

وكان هذا أول ما حدث من أثر جديد في الشعر المصري - بل العربي — وكان هـذا سبباً في انتقال الشعر الى أسلوب حديث وطريقة عصرية لو أن الشعراء نسجوا على منواله ، ولكن النهضة التي قامت في عهده كانت عملية لذلك لم تتأثر بهذا الاتجاه الادبي فضلا عن ان الحركة الادبية وقتئذ كانت فردية ، يتأثر الشاعر وحده او الكاتب وحده بأثر خاص ، ينهج منهاجاً خاصاً . ومع هذا لم يقدر الشيخ رفاعة ان يستقل عن القديم فمدح الامراء بقصائد هي من صميم أساليب الشعر العربي المعروف » (١)

وبعكس الشيخ رفاعة كان سليم عنحوري الذي نجح نجاحاً يذكر في تحميل الشعر العربي الاغراض الاوربية من ناحية الروح الشعرية ، فكان نجاحه دليلاً على انه في الامكان القيام بحركة جديدة في الشعر العربي لا ترجع الى احتذاء اساليب الفحول من شعراء العرب المتقدمين كما كان امير الشعر العربي في ذلك الحين سامي البارودي يفعل في مصر

هذه الحركة التي قام بها عنحوري مهدت السبيل لخليل مطران او قل جعلته يجرؤ على تحميل الشعر العربي تلك الصور والاغراض الجديدة التي لم تعرف لها العربية من مثيل في كل تاريخها الأدبي على اساس من اطراد المشاعر وتسلسل الخواطر وانتظام الخيال. ومهما يكن رأي البعض في شعر مطران ، وان مذهبه الشعري ليس واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار . فان اتجاهات الرجل الفنية في الشعر واضحة جلية فيما قدمنا وستكون اساساً لدراستنا لفنه الشعري

﴿ خاتمة ﴾ طوى الشعر العربي صفحته المجيدة بسقوط الدولة العربية عن عرش الخلافة الاسلامية . وظلت هذه الصفحة مطوية طيلة خمس قرون من عصور الانحطاط، حتى قدر لها ان تنشر في القرن التاسع عشر صفحة جديدة على يد سامي البارودي ، غير ان هذه الصفحة نشرت من الصفحة القديمة لهذا كانت اتباعية الاتجاه . وفي عام ١٨٩٤ طلع مطران ينشر للشعر

(١) المقتطف ، المجلد ٦٨ ج ٦ (يونيو ١٩٢٦) ص ٦٣٧ — ٦٣٩

العربي صفحة جديدة من الاغراض الجديدة المستلهمة من روح العصر ، ومن ذلك التاريخ وقف مطران في تاريخ الادب العربي الحديث رافعاً مشعل الابداعية وممثلاً للاتجاه الاول للتجديد في الشعر العربي غير ان حركة الجديد التي قام بها مطران عام ١٩٠٨ في الشعر ، حيث نشر ديوانه « الخليل » لم تكن الحد الفاصل بين القديم والجديد ، لان هذا الحد يرجع بضع سنين الى الوراء الى عام ١٨٩٤ ، حين نظم مطران القطعة الاولى من ديوانه من الاغراض الابداعية

ومطران وان سلك مسلك الجديد من ذلك الحين ، فهو من قبل سلك طريق القدماء في نظم الشعر فلم تعجبهُ فأعرض عن الشعر ثم عاد اليها مجدداً . وجمع شعره الذي نشره على فترة تقرب من خمسة عشر عاماً في « ديوان الخليل » تبين لك مقدار ما انتهى اليه من التجديد بالنسبة لما كان عليهِ من قبل ، وهو يعرض لك نموذجاً لما قاله من الاغراض الاتباعية . وبعد فقد تأثر باتجاهات مطران الجديدة نفر من شعراء العربية ، وهذا التأثير وان ظهر بقوة من بعد نشر ديوانه ، الا انهُ كان يستجمع الأسباب للظهور في شعراء ذلك العصر ، من اليوم الذي اعلن فيهِ ثورته على الأغراض الاتباعية . وأنت يمكنك ان تلمس هذا التأثير واضحاً فيما نظمهُ شاعر مثل ابراهيم بك رمزي عام ١٩٠٠ في الاغراض القصصية ، خصوصاً في منظومة «سيرة يوسف الصديق» التي نظمها شعراً في اثنتي عشرة قصيدة من اروع الشعر القصصي العربي هذا الى انك تلمس معالم تأثر شعراء العقد الاول من القرن العشرين بالاغراض الجديدة التي ينظم على اساسها الشعر خليل مطران ، من مراجعته لشعر نفر من شعراء ذلك العصر ، نذكر منهم نقولا رزق الله الذي يعود تأثره بمطران الى عام ١٩٠٠ حين نظم منظومة «كليوباترة» من الاسلوب العصري الذي استحدثهُ الخليل . ثم عندك القصائد التي قفى بها منظومته والتي انتثرت على مر السنين في فترة تزيد على عشرة اعوام ، كلها تنطق بآثار الحركة الجديدة التي استحدثها الخليل

على ان هذا الأثر توضح واستبان في العقد الثاني من قرننا هذا ، اذ ظهر في مصر شاعران كبيران هما الدكتور احمد زكي ابو شادي وعبد الرحمن شكري ثم ظهر في اواخر الحرب خليل شيبوب الذي هبط مصر عام ١٩٠٨ من موطنه باللاذقية ، والذي ينفرد من بين المتأثرين باتجاهات مطران . بأنهُ لا يزال الى يومنا هذا أميناً للعناصر التي يقوم عليها مذهب مطران في نظم الشعر . وهو في ذلك عكس زميليهِ اللذين استقلا بمذهب لهما في قول الشعر مع الزمن ، وان كان مذهبهما يتقوم على أساس من مذهب الخليل . فعبد الرحمن شكري كان ذهابه الى انكلترا سبباً لوقوعه تحت تأثير المذهب الطبيعي الانجليزي وكان ان تغلبت عليه نزعة التشاؤم نتيجة لعوامل تتصل بنفسه فاستقل بمذهب في الشعر يقوم على اساس التأمل والتفكير الخصب الذي يماشي الشعر العميق الذي يشوبه مسحة من الكآبة وسرعان ما اجتذب شكري لاتجاههِ شخصيتين صارتا من اعلام

الأدب العربي اليوم ، هما عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني الاَّ ان العقاد استقل مع الزمن باتجاه جديد عن اتجاه شكري ، وضحت خطوطه وتمايزت في دواوينه الأخيرة بينما ظل المازني حتى اللحظة التي انصرف فيها عن الشعر تحت تأثير اتجاهات شكري الفنية في الشعر

اما الدكتور أبو شادي فهو تفاؤلي النزعة وقد أقام مدرسة شعرية عام ١٩٣٢ عرفت بمدرسة « أبولو » ونجح في ان يجعل شعره محور حلقة أدبية قوية ، تأثر بلونها الشعري بعض شعراء الشباب ، الاَّ ان انفراط عقد المدرسة باحتجاب مجلتها الشعرية « أبولو » وبانصراف مؤسسها عن العربية الى الانجليزية كانت سبباً لان يفقد شعر ابي شادي تأثيره المتواصل في العالم العربي . هذا الى انهُ في الوقت الحاضر ينظم الشعر في الانجليزية (١)

هذا ... ومحاولة الخليل ان كانت في قيامها قد استندت الى أساس من الاحتفاظ باصول اللغة وأساليبها فهي في الشام وفي المهجر السوري اللبناني بالاميركيتين . انطلقت من قيود اللغة ، وكان من ذلك الأدب الأميركي الذي فرض سيطرتهُ على العالم العربي فترة ما قبل الحرب العظمى . فلما انقضت سنوات الحرب وانتثر عقد زعماء المدرسة العربية بأميركا ، قامت في القطر الشامي ومصر تحت تأثير الاخيرين محاولات شعرية وسطاً بين مذهب مطران ومذهب أدباء المهجر الذي ذهبوا في التطرف مذهباً جريئاً خرجوا بهِ على الاسلوب العربي وأصول اللغة ، هذه المحاولات تتمثل اليوم في آثار عمر ابو ريشه وعلي الناصر بسوريا والياس فياض وأمين نخله والدكتور حبيب ثابت وسعيد عقل وصلاح لبكي وخليل زخريا ونقولا بسترس في لبنان وحسن كامل الصيرفي وبشر فارس في مصر

على ان موجة التجديد ان كانت قوية في القطر الشامي لأسباب سبق اليها الاشارة في هذا البحث . إلاَّ إنها خافتة في مصر ، حيث لا يزال الى اليوم المذهب القديم يتحكم في الأذهان . خصوصاً بعد وفاة الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٦ . وهذا يرجح عندنا ان تكون لبنان وسوريا موطن الشعر الحديث في العالم العربي في المستقبل ، كما هما اليوم موطنه (٢)

اما ما يزعمهُ بعض الناقدين من ان مطران لم يؤثر بعبارتهِ أوبروحه فيمن أتى بعده من المصريين من الشعراء ، لان هؤلاءِ كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من مصدره ويطلعون على الأدب الاوربي من مصادره الكثيرة ، وانهُ ليس للاستاذ مطران مكان الوساطة في الأمرين (٣) فهذه دعوة يردُّها الواقع من جهة ، كما يثبت زيفها اعترافات أكابر شعراء العربية من الآخذين بأسباب الجديد كأبي شادي وشكري والمازني بأثر شعر مطران في شعرهم (٤)

(١) Leonard S. Harker في كتابه Blazing the Trail -- ١٩٣٨ ص ١٢٩
(٢) I. A. Edham في Romantic Current in Modern Arabic Literature بمجلة Z. R G.I. م ٣٨ ص ٣١١ — ٣٣٤ و ٤١٦ — ٤٣٧ (٣) عباس محمود العقاد في «شعراء مصر وبيئاتهم» ص ١٩٩ — ٢٠٠ (٤) أبو شادي في أنداء الفجر ص ١٢٨ وفي قطرة من يراع في الادب والاجتماع ج ٢ ص ٣



للشاعر الانكليزي اللورد تنيسون

(١٨٠٩ — ١٨٩١)

جلست الحرية في القِدَم على الاعالي ، وكان الرعد يلعلع عند قدميها وكانت السموات المكوكبة تَرتجّ فوق رأسها ، وفي أذنيها صخب اصطدام التيارات

جلست هناك مغتبطةً ، قنوعاً بعقلها الكشّاف . ولكنَّ مقاطع من صوتها المدوّي جاءت محمولة على أجنحة الرياح .

ثم هبطت الى الحقول والمدائن ، واختلطت بالبشر وأزاحت النقاب رويداً رويداً ، وأشرقت بوجهها الكامل على الناس.

يا أمَّ الاعمال الجليلة الفخمة ، الرانية الينا من مذبحها .
يا من تحمل كالأرباب الشوكة المثلثة ، وتلبس التاج كالملوك

إن عينيك الصريحتين تطلبان الحقيقة . إن فيهما ألف سنة من الحكمة ! ياليت الشباب الدائم يحفظ بنورهما متلألئاً فلا تغشيه الدموع .

يا ليت قوامك الحسن يظل منتصباً لامعاً يضيء أيامنا، ويخفف قتام أحلامنا ، ويحقّر بشفتيه القدسيتين أكاذيب المتطرفين

نبات بلا تراب

تطور جديد عجيب
في علوم الزراعة(١)

اذا زعمت ان هناك طريقة جديدة للزراعة تمكن الزارع من ان يحصل من بقعة معينة على ٢١٧ طناً من الطماطم حيث كان لا يفوز الاَّ بخمسة اطنان ، فالغالب انكم ستحملون كلامي على محمل المبالغة ، على الاقل . ولكنني اطلب اصغاءكم لاروي لكم قصة هذه العجيبة الحديثة :

من الامور المشهودة في بلد زراعي كمصر ان النباتات تنمو نمواً طبيعياً اذا اشتمل غذاؤها على العناصر الاساسية . واكثر هذه العناصر يوجد في الهواء والتراب والماء والاسمدة الطبيعية والكيمياوية . والفلاحون يعرفون ان النترات والفصفات والسلفات وغيرها من المركبات الكيمياوية تحتوي على عناصر لا بدَّ منها في تغذية النبات وكثيراً ما يطالعون اسماءها في الاعلانات المنشورة في الصحف والاذاعات والنشرات التي تذيعها المكاتب الحكومية المختصة . يقابل ذلك في غذاء الانسان ، المواد الزلالية كالبيض والنشوية كالسكر والدهنية كالزيوت ، ثم الاملاح على اختلافها

الاَّ ان العلم الحديث اثبت ان الانسان يحتاج علاوة على ما تقدم الى مقادير يسيرة جداً من مواد حيوية تدعى الفيتامينات اذا كانت غير موجودة في غذائهِ افضى ذلك الى اصابتهِ بامراض مختلفة

هذا الاكتشاف وما تفرَّع عليهِ من عجائب البحث والتركيب والشفاءِ في الانسان ، نبَّه علماء النبات الى ضرورة البحث بحثاً علمياً في حياة النبات وهل غذاؤها يعتمد على العناصر الاساسية المعروفة او يجب ان يشتمل كذلك على مقادير صغيرة من بعض المواد الكيمياوية الحيوية لكي يكون نموُّه صحيحاً وما هي تلك المواد

وكان السؤال الاول الذي تجب الاجابة عنهُ في هذا الصدد ، كيف السبيل الى معرفة العناصر اللازمة وتمييزها عن العناصر غير اللازمة في حياة النبات . والجواب البدَهيُّ هو زرع نبتة معيَّنة في تربة خالية من ذلك العنصر ومراقبة نموّها مدَّة . ثم اضافة ذلك العنصر الى غذائها اي الى المواد التي تُسمَّد بها تُربتها ومراقبة نموّها كذلك ثمَّ الموازنة بين نموّها اولاً ونموّها

(١) من حديث في العلوم المبسطة اذاعه رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة المصرية

ثانية وهذه الطريقة هي المتبعة في دراسة انواع الفيتامينات باجراءِ تجاربها على الجرذان

الاَّ ان هنالك صعوبة تعترض البحث في مايخص النبات. فالتربة كثيراً ماتحتوي على مقادير صغيرة جدًّا من عناصر ومركَّبات كيمياوية تتعذَّر ازالتها . بل قد يتعذَّر الكشف عنها بالكواشف المعروفة . ولما كان الغرض من هذه التجربة ازالة كلّ اثر من آثار المادة التي تجرَّب التجربة بها من التربة ، حتى لايختلط اثرها علينا ، فالتربة لا تصلح وسطاً لهذه التجربة

فعمد العلماءِ حينئذٍ الى زرع النبتة في ماءٍ قطّر اولاً تقطيراً دقيقاً ثم اضيفت اليهِ مركبات العناصر الاساسية اللازمة لنموّ النبات مثل نترات الصودا وسلفات النشادر وغيرها . ثم تزرع النبتة في هذا الوسط ويُراقب نموُّها . ثم يضاف الى الماءِ مقدار صغير من عنصر معيَّن ويراقب تأثيرهُ في حياة النبات . هذا هو المبدأ

***

كان الناس يعتقدون حوالي القرن السادس قبل المسيح ان النبات يستمدُّ كل غذائهِ من الماءِ. ولكن النبات إذا امتصَّ الماءَ بواسطة جذورهِ ، امتصَّ معهُ المعادن المحلولة فيهِ. حتى في هذا العصر ترى مَن لا يصدق ان النبات يستطيع ان يتناول دقائق الاسمدة بواسطة جذورهِ ذلك بان هذه المواد الجامدة يجب ان تنحلَّ في الماءِ اولاً قبل ان تستطيع النفوذ من خلال الاغشية النباتية الرقيقة في الجذور . واذن نستطيع ان نحيط الجذور بمحلولٍ مائي ، وتستطيع هذه الجذور أن تستمدَّ منهُ جميع العناصر اللازمة للنمو اذا كانت تلك المواد والعناصر محلولة في الماءِ ، واذن ففي وسعنا ان نقول ان التُربة ، من الناحية النظرية غير لازمة لنموّ النبات . ولم تكشف هذه الحقيقة الاَّ سنة ١٦٩٩ اذ زرعت نباتات في الماءِ لاول مرة في التاريخ على ما نعلم . ذلك ان باحثاً يدعى ودورد زرع نوعاً من النعناع وآخر من البطاطس في ماءٍ من قناة ، وفي ماءٍ من نهر ، وفي ماءٍ من نبعٍ وفي ماءٍ مقطَّر . ولم يكن غرضهُ البحث في المواد الخفية الحيوية اللازمة لنموّ النبات بل ان يعلم هل يحتوي الماءِ على موادَّ محلولة فيهِ تكفي لغذاءِ النبات وخرج بان الماءَ غير المقطَّر يحمل بعض « المادة الارضية » اللازمة لنموّ النبات

وكان الخطوة الطبيعية التالية ، ولو جاءَت متأخرة في حساب الزمان ، ان يضيف الانسانُ الباحث الى الماءِ المقطَّر العناصر المختلفة حتى يعيّن منها ما يجد النبات لا يستغني عنهُ . فجاءَت سلسلة من التجارب قام بها الباحثون لتحديد المقادير المختلفة من العناصر التي تجعل نموَّ نباتٍ ما اتمَّ ما يمكن ان يكون . ونحن نعلم الآن من هذه التجارب ان النبات يحتاج الى مقادير يسيرة جدًّا من عناصر معيَّنة علاوة على المركبات الكيمياوية المشهورة مثل الفصفات والنترات وغيرها

ومن هذه العناصر البور (البورون باللغة الانكليزية). وهو عنصر مشهور يستعمل في محلول

الحامض البوريك لغسل العيون وتطهيرها وفي مسحوق البورق لمعالجة الجراح ومنع التقرح بين الابهام وهو كذلك سامٌّ في بعض الاحيان . فانك اذا رششت بضعة ارطال من البورق في ما مساحتهُ فدان من الارض المزروعة بالبطاطس فتك بالمزروعات جميعاً . وقد حدثت نكبة من هذا القبيل من بضع سنوات اذ رشَّ في ارض مزروعة بطاطس ، سمادٌ معين ثبت فيما بعد انهُ يحتوي على بورق فتلفت المزروعات كلها

ومع ذلك ، فالنباتات تحتاج الى مقادير يسيرة جداً منه لكي يكون غذاؤها كاملاً ونموها صحيحاً وقد ثبتت حاجة نبات الطماطم الى هذا العنصر بالطريقة التالية : —

اخذت نبتتان من نبات الطماطم من اصل واحد . وزرعت كل منهما في سائل مغذٍّ يشتمل على العناصر الغذائية التي تحسب عادة لازمة لنمو النباتات وكان السائلان متماثلين في كل شيء الاّ في شيء واحد . ذلك ان احدهما كان يحتوي على مقدار صغير من عنصر البور، وأما الآخر فكان لا يحتوي على أثارة منهُ . وقد بلغ هذا المقدار الصغير جزءاً من ٢٠٠٠٠٠٠ (مليوني) جزء من السائل . فكانت النتيجة ان النبتة التي في الاول اي السائل المحتوي على البور نمت نموًّا طبيعيًّا وأورقت . وأما الثانية وهي التي زرعت في السائل الخالي من البور فكانت ضامرة سقيمة . ثم قلبت الآية . فنُقلت النبتة التي في السائل الاول الى السائل الثاني فسقمت وضمرت ، ونُقلت الثانية الى السائل الاول فنمت نموًّا سويًّا

قلنا ان البور في السائل كانت نسبته ١ الى مليوني جزء من السائل . ومع ذلك استطاعت النبتة ان تحس بوجوده وتستفيد بهِ . فمثلها في ذلك مثل رجل يتناول حساءً (شوربة) فلا يجد في مرجل يتسع لثلاثين لتراً من الحساءِ الاّ حبة حمّص واحدة او كتلة واحدة من اللحم

بل الغريب في هذا ، انهُ اذا زاد مقدار البور عما تقدم أصبح وجوده ذا أثر ضارٍّ. ولكن النبتة تكون اسوأ حالاً اذا كان سائلها من غير بورٍ على الاطلاق ، منها اذا كان مقدار البور منهُ غير صالح . والنبتة التي في سائل خالٍ من البورق تصاب اذا تركت فيهِ ، بما يأتي : يقف جذعها عن النمو طولاً وتموت انساج الجذع الموصلة للسوائل الحيوية ، وهي مؤلفة كما لا يخفى من انابيب دقيقة تنقل فيما تنقلهُ السكر الذي يركب في الاوراق الى الجذع ليخزن فيهِ . فاذا عجزت الانابيب عن نقل السكر من الاوراق تحول فيها نشاءً فتكثف الاوراق وتلتفُّ وهذه الحالة تشبه مرضاً نباتيًّا يدعى بالانكليزية «رول ليف» أي «التفاف الاوراق»

وللنبات دهاء عجيب في انتزاع البور اين يجدهُ . فقد زرع من سنوات نبات البطاطس في إناءٍ خزفيٍّ مُلىءَ برمل الكوارتز المغسول . وكان هذا النبات يتغذى بما يرش بهِ الرمل من السوائل المغذية . فنما النبات نموًّا صحيحاً. ثم استؤصل هذا النبات وزرع غيره فلم ينمُ مثلهُ . وبعد

ما عرف مقام البور في تغذية النباتات عرف الباحثون ان طلاء الاناء الخزفي كان يحتوي على قليل من البور فامتصته النبتة الاولى ولم تبق عليه . ثم زرعت النبتة الثانية فلم تجد في المحلول المغذي بوراً ، لا في رمل الكوارتز ولا في طلاء الاناء فجفت وذوت

هذه التجارب التي كانت علمية محضة ، افضت كما يفضي كل بحث عاجلاً او آجلاً ، الى التطبيق العملي . وهذا التطبيق العملي قائم على زرع النباتات التجارية المستعملة في الغذاء خاصة في ماء تضاف اليه المحلولات الغذائية اللازمة لها حتى يكون نموها أتم ما يكون ومحصولها اكبر ما يكون

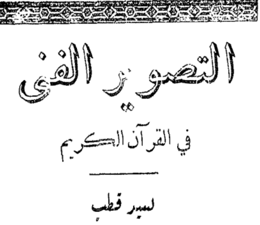
فقد قرأت في المجلات العلمية الاميركية والانكليزية ، ان نبات الطماطم زرع بهذا الاسلوب المستحدث فارتفع حتى اضطر قاطف ثمره ان يستعمل السلم في الوصول الى الثمر الذي في اعاليه وكان محصوله عظيماً . ففي تلك المنطقة كان محصول فدان المزروع طماطم خمسة اطنان من الطماطم ولكن الطماطم الذي زرع في الماء اعطى محصولاً — لو عدل بسطح الحوض الذي زرع فيه — لبلغ محصول الفدان ٢١٧ طناً اي نحو ٤٣ ضعفاً . ويبلغ اعظم محصول البطاطس في الفدان بالولايات المتحدة الاميركية ١١٦ بشلاً وكان ذلك في سنة ١٩٣٤ . ولكن البطاطس المزروع في الماء المغذى بافضل محلول لتغذية البطاطس اعطى محصولاً بلغ معدله ٢٤٦٥ بشلاً بالفدان . اي اكثر من ٢١ ضعفاً . وزرع نبات التبغ (اي الدخان) فبلغ ارتفاعه ٢٢ قدماً . وهذا بصرف النظر عن تحسن الصنف او تأخره بازدياد النمو في النبات

وقد زرع البنجر والجزر بالطريقة نفسها فكان المحصول مما يبعث على الدهشة والاستغراب لكبره

وقد الفت شركات في اميركا لزراعة الطماطم والفراولة بهذه الطريقة . وتجرب التجارب الآن بطائفة مختلفة من النباتات الزهرية والثمرية

اما الاسلوب المتبع الآن في هذا الفرع الجديد العجيب من فروع الزراعة فقد استنبطه واتقنه الدكتور جريك Gericke المساعد لأستاذ فسيولوجيا النبات في جامعة كاليفورنيا الاميركية، بعد سبع سنوات من البحث والتجربة . وأساس هذه الطريقة استعمال الماء الفاتر في احواض من الخشب المتين او الاسمنت المسلح واضافة العناصر اللازمة لنمو النبات على اتم وجه — كما اثبتتها تجارب من قبيل التجارب التي اشرنا اليها . وحرارة الماء تختلف على الاكثر بين ٢٢ درجة مئوية (سنتغراد) و٣٠ درجة مئوية ويحتفظ بحرارته بواسطة سلك تجري فيه الكهربائية ، وهو الغالب او بطرق اخرى . ويوضع على سطح الحوض مشبك من السلك الدقيق يغطى بطبقة من القش او ما هو شبيه به فتزرع فيه البذور حتى لا تقع في الماء فاذا انتشت (اي افرخت) تدلت الجذور الى المحلول فتمتص منه الغذاء

وهذه الطريقة نفحة جديدة من نفحات البحث العلمي للعمران . ولنا اليها عودة



في المقال الاول تحدثنا عن نوعين من أنواع التصوير الفني في القرآن الكريم : « صور فنية ، وقصص فني » . وفي هذا المقال نتحدث عن النوعين الاخيرين

٣ — حوار فني

في القرآن كثير جدًّا من الحوار ، وهو صلب كل قصصه تقريباً ، وكل مناقشاته لمخالفيه في العقيدة . ولكن الحوار الفني الذي سأضرب له الامثال هنا ، هو ما يشتمل على عنصر الخيال ، ويجتاز بهذا الخيال ، إلى دارة الفنون الحرة ، وميدان الآداب الطليق (١)

١ — « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهدينا كم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمُصْرِخِكُمْ ، وما أنتم بمصرخيَّ إني كفرتُ بما اشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » . وفي هذا الحوار البارع ، يبدو لك المنظر مؤلفاً من ثلاث فرق :

اولاً : الضعفاء الذين كانوا تبعاً للاقوياء . وهم ما يزالون في ضعفهم ، وقصر عقولهم وإحساسهم ، يلجئون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، أو يعتبون عليهم إغواءهم متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة

ثانياً : الذين استكبروا ، وقد ذلت كبرياؤهم ، وواجهوا عاقبتهم وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لأنفسهم خلاصاً أو يذكرونهم بجريمتهم معهم حيث لا تنفع الذكرى ، فما يزيدون على أن يقولوا لهم : « لو هدانا الله لهدينا كم »

ثالثاً : الشيطان . بكل ما في طباعه من مراوغة ومغالطة واستهتار وتبجح و (شيطنة) يعترف لأتباعه

(١) يصلح هذا الموضوع لبحث مستقل ، يتناول الحوار في القرآن وعلاقته بالعقلية العربية العامة ، ووسائلها في البرهنة

— الآن فقط — أن الله وعدهم وعد الحق ، وأنهُ هو وعدهم فأخلفهم ثم يمضهم ويؤلمهم وهو ينفض يديه من تبعاتهم : « وما كان لي عليكم من سلطان ، إلاَّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم »لا بل يزيد في تبجحه فيقول « إني كفرت بما اشركتمون من قبل » الله . الله . يأيها الشيطان !

في الحق إن هذا إبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتنكر فيه المتبوع للتابع ، ويتخلى الولي عن الاولياء ، حيث لا يجدي احداً منهم أن يتخلى أو يستمسك ، ولكنها طبيعة كل فريق تسيره دون تفكير . وفي الحق إن الشيطان هنا منطقي مع نفسه ، ومع الصورة التي يرسمها القرآن له ، وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذا التلاعب والتبجح والانكار . والموقف بما فيه من هذا الحوار التصويري ، موقف فريد من الوجهة الفنية البحتة ، وله أثره العميق في النفوس ، ولولا أن هذا البحث فني خالص ، لتوسعت في بيان قيمته من وجهة الدعاية الدينية ، ولكن حسبنا الاشارة

٢ — « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً ، فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : انا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد » . وفي هذه الصورة ملامح من تلك ، وهي تكرار لبعضها ، مع تغيير طفيف حين تبدو الملالة في قول المستكبرين : « انا كل فيها » فهي قولة الضَّجر وحرج الصدور ، الذي لا يطيق كلاماً ولا جواباً

٣ — ومن هذا النحو : « اذ تبرأ الذين اتَّبعوا من الذين اتَّبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبعوا لو ان لنا كرَّةً ، فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ! »

وفيها ما يشير الى الغيظ وحب الانتقام يجيش في صدور الضعفاء ، فيتمنون لو يجازون اولياءهم صاعاً بصاع . ولكن هيهات !

٤ وفي موقف نوح من ابنه عند الطوفان : « وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ، ونادى نوح ابنَهُ وكان في معزل : يا بنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي الى جبلٍ يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الاَّ من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

في اللحظة الرهيبة تتنبه عاطفة الأبوة ، ومع اعتقاد نوح كنبيٍّ ان ابنه مغرق لأنهُ لم يؤمن فقد طغت عليه عاطفة الابوة ، وراح في لهفةٍ وضراعة يدعو ابنه . ولكن البنوة العاقة ، لاتحفل هذه العاطفة ، والفتوة القوية ، لاترى الخلاص الاَّ في عملها وفتوتها : « سآوي الى جبل »

وفي لحظةٍ اخرى تتغير صفحة الموقف ، في تعبير خاطف ، يصور الموجة العاتية ، تبتلع كل شيء في لحظة « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

وللحوار بقية بين الله ونوح ، ولكن الجزء الذي اثبتناه ، لم يدع مجالاً للنظر فيما وراءه بما تركه في النفس من روعة خاطفة وخيعة ساهمة

٥ — ومن الحوار الممتع المصور للحالة النفسية ، ما يدور بين اهل الجنة واهل النار: « ونادى اصحابُ الجنة اصحابَ النار : ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . واذَّن مؤذِّن بينهم ان لعنة الله على الظالمين »

« ونادى اصحابُ النار أصحابَ الجنة ! ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا : انَّ الله حرَّمهما على الكافرين »

فهذا الحوار المختصر في ذينك الشأنين بليغ في اختصاره ، مصور لحالتي الفريقين اتم تصوير وفي مبدئه تهكم خفيٌّ من المؤمنين ، بأولئك الذين كانوا يكذبون بما وعدهم الله ، حتى اذا تم « اذَّن مؤذِّن بينهم » . وبين النداءين تصوير للأعراف ، وما يقع عندها من احداث يضم الى القسم الأول من اقسام التصوير الفنيّ ، ويصلح مادة لملاحم خصبة[1] ، ومناظر سينمائية

٤ — تعبيرات فنية

في القرآن غير الأنواع الثلاثة التي مرَّ ذكرها ، تعبيرات فنية مختصرة ، ترتفع الى الذروة في دقة التعبير وجماله ، وافصاحه عما يتصدى له من مناظر طبيعية ، او خطرات نفسية ، او طبائع خلقية . وفيما يلي نماذج منها

١ — « والصُّبحِ اذا تنفَّس »... فمن ذا الذي يقرأ هذا التعبير ، ثم لا تنبعث في نفسهِ خيالات شتى ، تصور له كل حي في هذه الدنيا ، ينفض عن نفسه رداء النوم ، عند انبلاج الصباح ، وتدب فيه الحياة والحركة ، وتشيع فيه النشوة واليقظة ؟

وهي بعد جملة واحدة ، بل لفظة واحدة ، تخلق هذا المثال النادر من الاشعاع ، وتمد الخيال بذخيرة ، تنشط لها النفس الحية ، وتستشعر التفتح والاسترواح

٢ - « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »... تقرؤها فتتصور التهالك على الحياة في احط صورها ، وأقل مراتبها ، بلا شرط ، ولا تمييز بين حياة وحياة . فوراء هذا التنكير والتجهيل ماوراءه من تحقير وتصغير ، يهبط بالحياة التي يحرص عليها هؤلاءِ الناس المقصودون ، الى مرتبة حياة الديدان والحشرات والهوام ، دون أن يساق لهذا المعنى لفظ ناب ، ولا تعبير مستكره !

٣ — « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرَقون ، لو يجدون ملجأً أو مغارات او مُدَّخلاً لولوا اليه وهم يجمحون » . فأي تعبير عن الجبن ، وتأصل الخوف ، وسقوط الهمة ، واعتياد التخلف ، أبين من هذا التعبير المختصر المصور ، الذي لا يواجهك بالوصف ، بل يترك لك استنباطه ، بعد متعة للخيال في التصور اللطيف ؟

---

(١) كتب الشاعر المبدع المرحوم الاستاذ محمد عبد المعطي الهمشري ملحمة بعنوان « شاطىء الاعراف »

٤ — «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض : هل يراكم من احد ؟ ثم انصرفوا» ! يا للسخرية من قوم لا يحتملون تبعة رأيهم ، ولا يحبون أن يقوم الدليل عليهم ، فيهربون من مواجهته ، وهم يتخافتون بينهم ، ليتأكدوا أن أحداً لم يرهم وهم يهربون

ويا للخيال الممتع يبصر بهم ، وهم يتسللون ، بعد أن نظر بعضهم الى بعض ، وقد أمنوا الرقيب

٥ — « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سُكِّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ! . وهذه صورة للمكابرين الصغار ، الذين لا تنبع مكابرتهم من اعتداد بالنفس والرأي ، بل تنبع من الجهل والاستغلاق والعناد المطموس فلا يبالون وضوح الدليل ، ولا نصاعة الحجة ، ولا يخافون سقوطهم بسبب هذا العناد المفضوح

٦ — « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ . ضعف الطالب والمطلوب » . أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره بما يفضي الى السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ؟

« لن يخلقوا ذباباً » هذه درجة . « ولو اجتمعوا له » وهذه اخرى ، « وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ» وهذه انكى وأشد ، وليس وراء ذلك من ضعف حقير

ولكن ! اهذه مبالغة ؟ او هل البلاغة فيها هي الغلو ، كما يفهم الكثيرون ان ذلك مدار الاستحسان فيما يقرءون !

كلاَّ ، فهذه حقيقة واقعة بسيطة ، فهؤلاء الآلهة الذين عبدوا من دون الله — وأرقاهم ما كان انساناً — « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ، ولكن الاعجاز في خلقهِ هو الاعجاز في خلق « الحياة » وهي اكبر شيء واعظم شيء في الوجود . وما تزال الحياة في اول صورها مستهوَلة مستعظمة ، بجانب الموت الجامد ، والفناء المترامي

ولكن البراعة هنا في عرض هذه الحقيقة ، بصورة تكشف العجز عن بلوغ مسألة هينة صغيرة في ظاهرها

ولعل في هذا ابداء سريعاً لرأي في المبالغة وعلاقتها بالبلاغة وان كان الموضوع يتسع لبحث كبير

٧ —«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاَّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلاَّ يعلمها ، ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ الاَّ في كتاب مبين »

في هذه الكلمات القليلة تعبير قوي رهيب عن شمول علم الاله ، مختار له افضل الألفاظ المعبرة ، فضلاً على التركيب كلهُ ، فليس عبثاً أن يقال : « وما تسقطُ من ورقةٍ الاَّ يعلمها » وليس لغواً ان يقال : « ولا حبَّة في ظلمات الارض » وان الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ومجاهلها ، ليتتبع هذه الاوراق الساقطة ، وتلك الحبات المخبوءة المشمولة في مخابئها بعلم الاله

٨ — « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح » . شريط سريع العرض جدًّا للحياة ، يفي بالغرض المقصود من تجسيم قصرها وسرعتها ، وهو غرض ديني ليس من شأننا ان نبحثه هنا ، ولكنا نبحث الصورة وحدها في جمل ثلاث قصيرة ، تتضمن ثلاث حالات سريعة متداخلة ، ينتهي عرض « شريط » الحياة!

ماء نازل من السماء ، اختلاط هذا الماء بالنبات، النبات هشيم تذروه الرياح!

وبين هذه المراحل الثلاث الخاطفة ، مراحل اخرى طويلة ، ولكنها في الواقع ثانوية في الصورة وفي حياة النبات،ولهذا يعتبر ذلك التصوير صادقاً مع اغفاله المراحل الطويلة الثانوية التي لا حاجة اليها في الغرض الحاضر ، وإثباته المراحل القصيرة الاساسية

وتلك هي المهارة في التعبير ، مع الصدق في المحو والاثبات

كلمة تحليلية

لم يكن قصدي مما قدمت الاّ ضرب الأمثلة ، ولفت النظر ، فلم أكن أنوي الاستقصاء ، وما يزال وراء ما ذكرت كثير مما لم أذكر ، والموضوع خصب وصالح للدراسات المستفيضة ، والمنتهون في دراسة الآداب ، بالجامعة والازهر ودار العلوم (بعد اصلاحها) يستطيعون ان يضمنوا هذا البحث ، رسالة قيمة للنقاش والدراسة

ولكن من الحق ان اقرر ان ما لم اذكره صورة مما ذكرته ، وكلاهما يلتقي عند لون واحد من ألوان الأدب الفني . وهذه الانواع الاربعة التي مثلت لها ، تلتقي كذلك عند هذا الاصل ولهذا لا يعد من الابتسار والتعجل ، الكلام على التصوير الفني في القرآن ، هنا من وجهة النقد الادبي .[يميل الادب العربي كله الى«الكلاسيك» حينما يميل الى الصور الذهنية ، والتقاليد التعبيرية ذات القوالب المصبوبة المحدودة ، التي تستعار من حالة ، الى كل حالة تشابهها . ولذلك مال النقاد والعرب ، الى تحديد صور العواطف والانفعالات ، وتحديد صور التعبير عنها كذلك

ولذلك غلا بعض ادبائهم ، فانكر نفسهُ وزمانه في سبيل الجري وراء الصور الذهنية والصور التعبيريّة ، في مخلفات الاجيال السابقة واعتبروها نوعاً من الطقوس لا ينزع عنها !

ولكن الأدب العربي لم يعدم التنويع في اساليبه واتجاهه الى حدّ ما

فقد دخلت فيه « الرمزية » عن طريق « الصوفية » التي ترمز بالظاهر للباطن ، وترى خلف كل محسوس ظاهر ، معنويًّا مغيباً وراء الحجب ، تتملاه البصائر « بالاشراق » وتقصر دونه الابصار . وهذا اساس لا بأس به للرمزية في الأدب

ولكن حدث أن « الصوفية » ظلت طريقة دينية اكثر منها طريقة أدبية . وظلت بمعزل عن الادب العام ، فلم تؤثر رمزيتها فيه الاّ بمقدار ، ولم تستطع تحويلهُ عن مجراه الاصلي ، وعن

وجهته الـكلاسيكية . ويعتبر ابن الفارض أبرز مثل لرمزية الأدب العربي ، وهي كما يراها الباحث رمزية خفيفة ، مناسبة للوسط العربي

وقد دخلت « الرومانتيكية » كذلك دخولاً خفيفاً جدًّا في الأدب العربي في العهد العباسي وفي الاندلس ، وازدادت الى حدٍّ ما في أيامنا هذه وإن كانت آخذة في الانحسار ، تبعاً لانتشار المذهب « الواقعي »

دخلت الصور الموشاة المظللة في الشعر ، ورسمت صور الأبطال والمواقف والمناظر ، ذلك الرسم الهين تحت اشعَّة ساجية ، وأحاطت الهالات المرسومة عن قصد بالعواطف والمرائي، وتبع ذلك ظهور التهارض والاصطناع وهما من عيوب الرومانتيكية ، حين تغلو في طريقتها

أما « الواقعية » فقد استعاض عنها الادب العربي قديماً ببساطته وحسيته ، ولو انحرف قليلاً لصار اليها ، وإن الباحث في بعض الانتاج الادبي في الجاهلية ، وفي الشعر الماجن ايام العهد العباسي ، ليجد في كليهما ملامح من « الريالزم » الحديث

الى اي هذه الألوان الاربعة يجنح التصوير الفنّي في القرآن ؟ إ يجد الباحث مشابه كثيرة فيه من « الرومانتيكية » وان كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في اوربا وفي الشرق طبعاً ولـكنها «الرومانتيكية» الخفيفة ، البعيدة عن التكلف والاصطناع

فتلك الصور الفنية التي يرسمها ليست « كلاسيكية » ذات قوالب وحدود . وليست « رمزية » ولا تميل الى الرمزية ، فليس وراءها ما ترمز اليه ، وإنما هي مقصودة لذاتها . وليست «واقعية» مجردة من الخيال والتوشية والظلال . ولـكنها أشبه ماتـكون بالرومانتيكية

وليس في ذلك كله من عجيب .. فالقرآن يمثل العقلية العربية والاتجاه العربي في التعبير ، إذ كان خطاباً للعرب أولاً ، وسجلاً لارقى طبقة معجزة من بلاغتهم

والعقلية العربية لا تميل الى الرمز ، ولا تجد حاجة اليه وهي تكره التوشية والظلال والاغراق في البعد عن المحسوس الملموس ، والرومانتيكية لايهمها المحسوس بمقدار ما تهمها الصورة الخيالية

فلا غرابة أن تنأى العربية عن الرومانتيكية الموغلة ، ويكتفي القرآن بالصور الاولى منها في تصويره الفنّي

اما لماذا لاتميل العقلية العربية الى الرموز والخيالات، ففي طبيعة بلادها تأويل ذلك . فليس في هذه البلاد محجوب ، ولا مستهول مجهول ، فلا داعي إذن لاغراق الخيال ، ولا ضرورة حينئذ للرمز ، وكل شيء مكشوف معروف . ثم إن الصراحة التي جبل عليها العربي نتيجة عدم خضوعه لنظم سياسيَّة او اجتماعية او اقتصادية قاهرة تميل به عن الرمز الى التصريح

تلك عجالة في هذا البحث البكر الخصيب ، ولعلها تكون مقدمة لبحث شامل كبير ان شاء الله

كشف ناحية جديدة في علم :

تولد الامراض

والدفاع ضدها والمناعة

للدكتور نجيب فرح (١)

— ١ —

« تأثير اليرقان في شفاء الالتهاب المفصلي الشبيه بالروماتيزم » في المؤتمر العالمي للأمراض الروماتيزمية الذي عقد في مدينة باث في انجلترا في ابريل سنة ١٩٣٨ عرض هنش Hench أحد أطباء عيادة مايو الاميركية ما لاحظهُ من تأثير ناجع لليرقان في الالتهاب المفصلي الشبيه بالروماتيزم وفي الروماتيزم العضلي. وقد دونت هذه الملاحظة في محضر المؤتمر صفحة ٣١٥ فأثارت أشد الاهتمام بين المؤتمرين . وتلخص هذه الملاحظات السريرية في ان حالة المصابين بالروماتيزم تتحسن بمجرد ظهور اليرقان الذاتي او الناتج من الانسداد تحسناً سريعاً وعظيماً لمدة تتفاوت بين الثلاثة أسابيع وأشهر عديدة دون ان يبلغ هذا التحسين في أية حالة مبلغ الشفاء التام . غير ان ظهور هذا اليرقان لم يكن يتبعه أي تحسن في بعض حالات الروماتيزم ولا سيما النقرس

إن ظاهرة التحسن هذه قد شوهدت عرضاً فلاحظها بعض الأطباء ومنهم ويشارت Wishart سنة ١٩٠٣ وجاء بعده من أيدها أمثال هنش نفسه سنة ١٩٣٣ وسيدل Sidel وناتان Nathan وابرامس Abrams سنة ١٩٣٤ وبورمان Borman سنة ١٩٣٦ وطمسن Thompson ووياب Wyatt سنة ١٩٣٨ وقد حاول هذان الأخيران، بل توصلا منذ عهد قريب الى معالجة المصابين بالالتهابات المفصلية الشبيهة بالروماتيزم معالجة ناجعة بحقنهم في الوريد بالمادة الملونة للصفراء (المعروفة عامياً باسم بليروبين Bilirubin) والأملاح الصفراوية

وقد جاء البروفسور ڤيل Veil ببيان في مؤتمر باث نفسه أدرج في صفحة ٣٣٢ من محضره في أثناء مناقشة هذه المسألة فأيد ملاحظات هنش بذكره حادثة حمى روماتيزمية تضاعفت بالتهاب

(١) هذا ملخص المحاضرة الطبية العلمية النفيسة التي القاها الدكتور نجيب فرح في المؤتمر السنوي الحادي عشر للجمعية الطبية المصرية والمؤتمر الطبي العربي الثاني المنعقد في القاهرة من ٢٩ يناير الى ٢ فبراير سنة ١٩٣٩ وينتظر ان يطبع نص هذه المحاضرة كاملا باللغة الفرنسية في مجلة الجمعية الطبية المصرية

سحائي وحالما ظهرت اعراض اليرقان في العليل تقهقرت جميع أعراض هذه الحمى وهذا الالتهاب

ومما يدلُّ أبلغ الدلالة على هذه الظاهرة الطبية ان المصابين أصبحوا يقولون — على ما جاء في مقالة هنش في المؤتمر — « إذا دخل اليرقان من الباب الأمامي خرج الروماتيزم من الباب الخلفي » او « أبيع روماتيزمي باليرقان في أي يوم »

وقد تسنَّى لنا في المؤتمر نفسهِ [١] ان نوجه النظر الى ان المشاهدات مدار البحث قد تجد تعليلاً من اختبارات قمنا بها وعرضناها على المؤتمر التاسع للجمعية الطبية المصرية (القاهرة، دسمبر ١٩٣٦) ثم نشرت في مجلة اللانسيت [٢] مما يؤيد اكتشافنا في سنة ١٩٣٣ أن النوموكوك يحدث الروماتيزم الحقيقي وهي تتناول «ما تؤمنهُ المادة الملونة للصفراء من دفاع في حالات الاصابة بالنوموكوك» . ثم انتا بحثنا موضوع تأثير هذه المادة في دفاع الجسم عند الاصابة بالحمى التيفودية [٣] وكذلك موضوع « وجود المادة الملونة الصفراوية في الدم والتشخيص المميز بين الروماتيزم الحقيقي والرماتيزم الدرني — بونسيه Poncet » [٤]

— ٢ —

﴿ ماهي المادة الملوَّنة الصفراوية — بليروبين ﴾ هي المادة الملوَّنة التي تدخل في تركيب الصفراء والصفراء سائل يفرزه الكبد . ولكن ثبت ان المادة الملوَّنة الصفراوية يفرزها في انساج الجسم جهاز يعرف باسم جهاز اشوف الفارسي Reticulo-endothelial system وهو عبارة عن شبكة تحوط اعضاء الجسم جميعها احاطة تجعل هذه الاعضاء على اهبة الدفاع عن اي مكان بالجسم عند الاقتضاء

ورأينا القائم على اختباراتنا وتجاربنا حتى في ما يتعلَّق بهذه الظاهرة المستغربة — ظاهرة شفاء التهاب المفاصل الشعبية بالروماتيزم عند حدوث اليرقان — تقوم على ان للمادة الملونة الصفراوية سواءٌ منها ما تكوَّن بهِ موضعيًّا (ريتش Rich ١٩٢٥) او ما انقذف منها في دورة الدم (Bilirubinaenemia) تأثيراً له شأنهُ في المقاومة والمناعة ، وما المقاومة والمناعة في الواقع الا عمل هضمي يسطو على الجراثيم التي تقتحم الجسم فيتغلب عليها ويهضمها

— ٣ —

﴿ تكاثر المادة الملونة الصفراوية او تناقصها في الدم ﴾ يختلف تولد المادة الملوَّنة الصفراوية في الدم باختلاف الناس . ثم يختلف في الانسان الواحد في حالتي الصحة والمرض . فيزداد مقدارها او يسير الى النقصان في الدم بحسب طبيعة الجرثومة التي يجب على الجسم ان يكافحها [٥]

(١) محضر المؤتمر صفحة ٣٣٢ (٢) ٢٧ فبراير ١٩٣٧ (٣) جريدة امراض البلدان الحارة والوقاية في لندن ١ فبراير ١٩٣٨ (٤) محضر مؤتمر اكسفورد العالمي للامراض الروماتيزمية والمعالجة المائية ١٩٣٨ صفحة ٢٠٦
(٥) نجيب فرح ١٩٣٨ — جريدة امراض البلدان الحارة وعلم الصحة بلندن ج ٣ ص ٤٠

مثال ذلك ان هذه المادة تزيد في الدم عند ما يصاب الجسم بجرثومة « النوموكوك » فتؤثر فيها تأثيراً يدفعها الى التلبُّد فالانحلال [(١)]

ومن الغريب ان المادة الملوَّنة الصفراوية تقلُّ غالباً في الدم بدلاً من ان تزيد اذا كانت الاصابة بباشلس ايبرث Eberth المسبب للحمى التيفودية . ولكن هذا الامر الغريب يفهم على صحته متى علمنا ان المادة الملونة الصفراوية من خير الموادالتي يتغذَّى بها هذا الباشلس ، واذن فالجسم يقلّل من مقدارها في الدم دفاعاً عن كيانهِ لئلاَّ تكون كثرتها في الدم باعثاً على تكاثر الباشلس ونموّه وتعريض الجسم لفتكهِ . وعندنا ان هذا الاسلوب الدقيق الذي يكيف بهِ الجسم مقدار المادة الملوَّنة في الدم وفقاً لحالتهِ يرجع الى سيطرة نظام الغدد الصم في الجسم ولكن هذا الموضوع في حاجة الى مزيد من البحث والاستقصاء

ثبتت صحة هذه الملاحظة بقياس مقدار المادة الملوَّنة الصفراوية في الدم بطريقة فاندنبرج Van Den Bergh ثم تأيدت بنتيجة التجارب التي اجريناها على الارانب

فالارنب لا توجد في دمهِ —على ما أثبتنا—هذه المادة الملوَّنة الصفراوية[(٢)] ولذلك لا يؤثر فيهِ باشلس ايبرث المسبب للتيفود على الغالب . غير ان الارانب التي حقناها بهذا الباشلس ثم حقناها يوميًّا بالمادة الملونة الصفراوية ماتت جميعاً بمرض التيفود اذ انشأت فيها حالة مفتعلة لوجود المادة الملوَّنة الصفراوية في دمها induced Bilirubinaemia يؤيد هذا ان المصابين بالتيفود تتفاقم اصابتهم اذا صاحبتها الاصابة باليرقان . فاذا ما حقنت الارانب وهي في حالتها الطبيعية بهذا الباشلس في اوردتها تلاشى بسرعة وافية وذلك لعدم وجود المادة الملونة الصفراوية في الدم على نحو ما اثبتناهُ ، ولذلك لا يصلح دمها لنمو هذا الباشلس وتكاثره ، يدلُّ على ذلك وجود الباشلس عادة بعد حقن من هذا القبيل في المرارة ، وهذا يجعل الارنب في حالتهِ الطبيعية ناقلاً للتيفود وان كان لا يصاب بها فيكون من اسباب العدوى بها في الانسان

﴿ ماذا يحدث في حالة الاصابة بالسل ؟ ﴾ — ومن جهة اخرى نرى انهُ في حالة الاصابة بالسل الرئوي — وما هذا الداء الاَّ علة تصيب جهاز التنفس كما تصيبهُ ذات الرئة الناشئة عن جرثومة النوموكوك وحيث تتعرَّض انسجة الرئة للاندثار مع ارتفاع درجة الحرارة كثيراً ويتضخم الكبد احياناً — يتناقص مقدار المادة الملونة الصفراوية في الدم . ويلوح لنا ان هذا النقص قد نشأ من التفاعل الذي يتذرع بهِ الجسم للتغلُّب على باشلس كوخ . ويؤيد رأينا هذا ان الارانب — ودمها على ما اثبتنا خلو من المادة الملونة الصفراوية — لا تصاب عادة بالسل في حالتها الطبيعية . ثم يؤيدهُ ان ظهور اليرقان في مصاب بالسل يتبعهُ تقدم في سير العلة على

(١) نجيب فرح ١٩٣٧ اللانسيت ج ١ ص ٥٠٥ (٢) نجيب فرح مجلة اللانسيت ١٩٣٧ عدد ١ ص ٥٠٥

اتجاه الى نزف الدم مما ينذر دائماً بسوءِ العاقبة

فاذا كانت هذه الوقائع حقيقية — كما نعتقد — فان بالأخذ بها تقدماً كبير الشأن في علم تولد الامراض كما انها تضيف وسيلة من وسائل دفاع الجسم ضدَّ الجراثيم التي تجتاحهُ ولا ريب في ان هذا النجاح سيوجه الاستقراء الطبي على سبيل سوي محجتهُ خير الفرد والمجموع

— ٤ —

﴿عجائب الملاءمة في نظام دفاع الجسم﴾ قلنا انهُ ثبت لنا بالتجربة ان المادة الملونة الصفراوية تزداد في الدم عند ما تهاجم الجسم جراثيم النوموكوك الثائرة فتلبدها توطئة لحلها وهضمها . ولكن من غريب طبائع هذه الجراثيم ، انها تكون حيناً ثائرة وحيناً مستكينة . فاذا كانت ثائرة قاومتها المادة الملونة الصفراوية على الوجه المتقدم . اما اذا كانت مستكينة فليس لهذه المادة تأثير فيها . حتى ولو ازداد مقدارها في الدم ازدياداً كبيراً يفضي الى اليرقان . وهذا يثبت ان جراثيم النوموكوك قادرة على الملاءمة بين نفسها وبين الوسط الذي تكون فيهِ. فاذا كانت ثائرة وتعرضت لفعل المادة الملونة الصفراوية عمدت الى التغير فتتحول مستكينة بعد ان يكون فريق كبير منها قد سقط في ميدان الكفاح بفعل المادة الملونة الصفراوية . وفي حالة استكانتها لا تحدث اعراضاً مرضية ما . يؤيد هذا ان ما قمنا بهِ من ابحاث حتى اليوم اثبت بغير عناءٍ وجود النوموكوك بصورة اكيدة في كل انف وفم وحلق وبصاق وبراز كل شخص سواء اكبيراً كان ام صغيراً كما ثبت وجوده ايضاً في بول النساء وسوائل ارحامهنَّ وهو يوجد غالباً في بول الرجال كما تحققنا من الابحاث التي اجريناها في حالتي الصحة والمرض منذ بدأنا باستعمال مصل الارنب الصغير السائل النقي بانتظام لانماء الجراثيم ففي السائل تتكشف لنا هذه الجرثومة عن هيئتها الحقيقية

كان الظن عند كشف جراثيم النوموكوك انها تحدث ذات الرئة Pneumonia فقط ثم اثبت فريق من الباحثين انها تحدث حالات مرضية اخرى مثل التهاب البريطون النوموكوكي الخ ولكننا نرى أن تشكل هذه الجرثومة في اشكال متعددة — وجدت المس كوبر ان هناك مثلاً ٣٢ صنفاً من النوموكوك — قد يكون مسبباً لاصابات منوَّعة مثل الروماتزم على نحو ما اثبتناه في سنة ١٩٣٣[1] وذلك وفقاً لدرجات ثورانه. ومن الممكن ان يكون سبباً لامراض اخرى لم تزل جرثومتها الاصلية مجهولة او يفترض انها من نوع الڤيروس (كالانفلونزا مثلاً يظن ان سببها ڤيروس) .والڤيروس يكون اما جزيئاً كبيراً من البروتين او من البوليساكاريد . ولا يخفى ان جرثومة النوموكوك تنحلُّ عند ما تفعل فيها المادة الملونة الصفراوية الى مواد بروتينية او بوليساكاريدية ، وعلى ذلك فقد تكون المواد السامة الناجمة عن انحلالها سبباً في احداث امراض من النوع الذي يعزى الى الڤيروس

(١) في مجلتي اللانسيت وامراض البلدان الحارة ١٩٣٤

****

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشر سبفبن

****

﴿ آمن ﴾ — آمن ومعناه الخفي هو اله الشمس في طيبة ولا يزال هذا الاسم حيًّا الى اليوم على ألسنة المتدينين من سائر الامم يختمون بهِ صلواتهم وادعيتهم سائلين المولى ان تستجاب بقولهم آمن وآمين . ولما اتسع ملك مصر وأصبحت امبراطورية في زمن الاسرة الثامنة عشرة أصبح آمن لذلك امبراطور الآلهة ورب الارباب كافة فعزيت اليهِ صفات الآلهة المشابهة وخصوصاً را وأدمج الاسمان معاً فصار يعرف باسم « آمن را »

﴿ رموزه — ١ — السفينة ﴾ — شبهت الشمس في حركتها اليومية المستمرة بالسفينة وسميت لذلك سفينة ملايين السنين . وكان يصنع رمز على هذا المثال ويخطط من الخارج بألوان الجمشت وهو حجر كريم لونهُ بنفسجي والزمرد ولونه نيلي واليشب ولونه أخضر واللازورد وهو أزرق والذهب وهو اصفر فيكون من تآلف هذه الالوان ما يشبه الشفق زيادة في احكام التمثيل . وتوضع هذه السفينة في الهيكل على اعتبار أنها المسكن الرمزي للاله . وكان الملوك يتقربون اليهِ بأهداء هذا الرمز الى المعابد ويحرصون على ان يسجلوا ذلك على جدرانها . وممن سجلوا لانفسهم هذا الفخر « حرحور » اول ملك من الكهنة مؤسس الاسرة الحادية والعشرين فانهُ أوفد كاهناً يدعى أونو آمن الى سوريا لشراء الخشب اللازم لأنشاء سفينة جديدة للاله

ولا يزال لهذا الرمز حرمة عند العامة وكثيراً ما يرى في اضرحة الأولياء وهم يروون الروايات المختلفة في سبب اسناده اليهم ووضعه في أضرحتهم

وأشهر تلك الأضرحة ضريح السيد ابي الحجاج الأقصري وهو والمسجد قائمان على اطلال معبد آمن . والسفينة التي فيهِ مخططة بالألوان المأثورة عن سفينة آمن . فاذا كان يوم عيد صاحب الضريح وضعت السفينة على عربة ويطاف بها في المدينة ومن حولها جموع الناس يهتفون . وأغلب الظن ان ذلك كان من عادة أهل طيبة الأولين في أعياد آمن

وكما شبّـه الأقدمون الشمس بالسفينة فقد شبّـهوا فلكها كذلك بالنهر للمطابقة وقالوا في تفسير تعاقب الليل والنهار ان اله الشمس عند ما تنحدر بهِ السفينة من المغرب الى العالم الثاني يموت فيسود الظلام . ثم يبعث ويخرج من المشرق فيملأ الدنيا بنوره ولذلك العالم الثاني واسمه عندهم دوات آلهته وعلى رأسهم آسارو اليهم مآب الارواح وعندهم الميزان لحسابها . ووصف بانه ينقسم الى اثنتي عشر منطقة والنهر يجري في سائرها الاّ الأخيرة ولكل منطقة باب عليه آلهة لا تأذن لأحد باجتيازه الاّ ان يذكر اسمها . وقد حرص القدماء لهذا على ان يضعوا مع موتاهم رقعاً من البردي فيها اسماء سدنة الأبواب وكثير من الادعية لكيلا ينسوا .وقد اجتمع لدى الأثريين من هذه الرقاع مجموعة كبيرة أطلق عليها اسم كتاب الموتى

وعلى جدران مقبرة سيتي الاول بطيبة اخبار رحلة را في ذلك العالم وصورها

والذي يعنينا منها في هذا المقام ما جاء فيها عن موت را وبعثه وخلاصة ذلك ان را عند ما تنحدر به السفينة الى العالم الثاني من المغرب تنتقل روحه ونفسه الى « خيبر ــ را » الاله الذي يرمز له بالحشرة المعروفة بالجعل أو الجعران . وعند ذلك يتولى لفيف من الآلهة اقتياد السفينة الى نهاية النهر في المنطقة الحادية عشرة . اما المنطقة الأخيرة المسماة « بشائر الميلاد » « لأن فيها يبعث را فهي بالرحم اشبه . اذ قيل في وصفها انها عبارة عن جوف ثعبان هائل فاذا صارت السفينة في اولها وقف خيبر را على المقدمة متهيئاً لبعث را وتولى اثنا عشر نفراً من المؤمنين جرها بالحبال حتى اذا دنت من الفم وهو نهاية الدوات تسلم الحبال من المؤمنين اثنتا عشرة آلهة وهؤلاء يجرونها الى الافق الشرقي . وهناك يذرّى جسد را العتيق من السفينة كما تذرّى العصافة من الحب . اما روحه ونفسه فتمكثان في خيبر را الى النهاية حتى يبعث من المشرق فيستقبل بالهتاف والنشيد

ولا يزال كثير من هذه الأناشيد محفوظاً وفي إحداها يشبه الشروق بالخروج من الرحم في اول فقراتها وهذه ترجمتها «سلاماً ايها السيد الخارج من الرحم » وفي نشيد آخر يخاطب را بما معناه «ان الآلهة تسر برأيته عند ما ينبثق من الطلّ آتياً من بلاد العرب (أي الشرق) »

ومن العجيب ان تكون خلاصة هاتين الفقرتين في فقرة من المزمور العاشر بعد المائة وهي «شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة من رحم الفجر لك طلّ حداثتك »

وقد نسجت قصص كثيرة على منوال هذه الأسطورة اقدمها رؤيا يوحنا . وقد أثبت ان فيها كثيراً من الاقتباس من الاسطورة في مقال عنوانه « الكوميديا الالهية» نشر في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ . واجتزىء هنا من هذا المقال بمقارنة بين المدينة المقدسة النازلة من السماء في الرؤيا وبين سفينة الشمس الخارجة من المشرق في رحلة را

يقول صاحب الرؤيا في الأصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي - اي الملك - الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله ولمعانها شبه اكرم حجر كحجر يشب بللوري » ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم : الأساس الاول يشب،الثاني ياقوت أزرق ، الثالث عقيق أبيض ، الرابع زمرّد ذبابي، الخامس جزع عقيقي،السادس عقيق أحمر،السابع زبرجد،الثامن زمرد سلقي،التاسع ياقوت أصفر، العاشر عقيق أخضر،الحادي عشر اسمانجوني،الثاني عشر جمشت »

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل عال سفينة را لدى مطلعها في الأفق من المشرق وهي مزدانة بأبهى الألوان تتلألأ بالانوار

ويقول الرسول بعدذلك «والمدينة لاتحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لان مجدالله قد أنارها » ويقول ايضاً « سمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم »

وهذا الوصف لا ينطبق على شيء انطباقه على سفينة را فانها بحسب اعتقاد الأقدمين مسكن اله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الأفق يصبح الأله مع الناس

ومن هذه الرحلة الخيالية استلهمت عقيدة البعث اذ قيل ان الموت ليس نهاية الأنسان ولكنه كغروب الشمس فراق الى حين يعقبه بعث ونشور في عالم أفضل من هذا العالم . وقد انكسرت شوكة الموت وخفت مرارته منذ كان للناس في هذه العقيدة مصطبر وعزاء جميل

٢ — ﴿ الكبش ﴾ — في الصحراء حيث النهر والسفينة هما أبعد الاشياء عن خيال سكانها رمز لآمن بحيوان مما يألفون وهو الكبش للتنويه بمقامه كرب الارباب . لان الكبش عند اهل البادية عنوان على الزعامة كما في قول العرب فلان كبش قومه اي سيدهم وزعيمهم . ذلك لان من خليقته اذا خرج في قطيع من الغنم ان ينفصل عنهُ ويتقدم عليهِ كعادة الزعماء والقادة

ولهذا فان آمن يصوَّر وعلى رأسهِ تاج من قرون . ولما زار الاسكندر المقدوني معبد آمن في واحة سيوه ولقبهُ الكهنة هناك بابن الاله اتخذ لنفسه لباساً للرأس على هيئة قرني الكبش محاكياً بذلك تاج الاله وكان يظهر بهِ في الاحتفالات الرسمية فكان من ذلك تلقيبه بذي القرنين

ومن الآثار الباقية لهذا الرمز في طيبة تماثيل الكباش التي على جانبي الطريق المعروف باسمها الذي انشأه امينوفيس الثالث ليصل بين الكرنك ومعبده الذي شيده لآمن في الاقصر وزاد في عمارته رمسيس الثاني وفي القرن الرابع عشر شيد مسجد ابي الحجاج على جانب من البهو الذي بناه هذا الملك

﴿ انتشار الديانة المصرية ﴾ — انتشرت عبادة آمن را في الأقاليم الجنوبية مع امتداد النفوذ المصري

فيها . ولا يزال في مروى وهي في موضع نباتا التي كانت عاصمة مملكة النوبة في الزمن الحالي أطلال معابد باسم آمن را واهرام . وهي في سفح جبل يعرف الآن باسم بركل وكان اسمهُ باللغة القديمة تواب اي المقدس

ومن الآثار الثمينة التي وجدت فيهِ لوحة للملك بيعنخي ملك النوبة الذي غزا مصر في زمن اوسركن الثالث من ملوك الاسرة الثالثة والعشرين وفي هذه اللوحة وصف شامل لهذه الغزوة وآيات على تدينه وشدة تمسكه بعبادة آمن را . من ذلك انهُ لما دخل طيبة قدّم الذبائح للأله وامر عسكره اذا ما بلغوا ابواب الكرنك ان يغتسلوا في النهر ثم يلبسوا ثيابهم عند الشاطىء وأوصاهم ان يلقوا سهامهم ويرخوا قسيّهم وان يكف الرؤساء عن التفاخر بقوتهم ما داموا امام آمن فانهُ لن تدوم للاقوياء قوتهم الاّ أن يخضعوا له. وهو يقوّي الضعفاء ويشدّ اذرعهم المرتخية ويدخل الرعب في الجيش الكبير فيولـي الأدبار امام فئة قليلة . ويعطي قوة للرجل الواحد فيغلب الفاً

ولما تمّ له اخضاع سائر الامراء واستتب له الأمر في البلاد ذهب بنفسه الى بيت الشمس العتيق في هليوبوليس ليقدّم الشكر للأله را على ما أوتيه من النصر « دخل المعبد بالفرح والتهليل . وبعد الانتهاء من مراسم العبادة للشمس المشرقة ألبس الملك العباءة وتطهّر بالطيب والماء البارد . ثم جيء له بأزهار للهايت بن بن . فأخذ الأزهار وهبط الدرج الموصل الى النافذة الكبيرة التي يعاين منها را . وقف الملك وحده ووضع المفتاح في القفل وفتح مصراعي الباب فرأى أباه را في مطلعه »

آلهة العالم الثاني

﴿ خيبر را ﴾ معنى خيبر باللغة القديمة المدحرج وهي تطلق على الحشرة المعروفة بالجعران لكونها تضع بيضها في الجعر وهو ما يخرج من الامعاء ولا تزال تدحرجهُ وتضيف عليهِ حتى يكون من ذلك كرة كبيرة فتدفنها في حفرة وتتركها فيها حتى تتم حضانة البيض فاذا خرجت صغارها وجدت الجعر الذي جعل حولها فتغذت بهِ

وقد اضيف هذا الاسم الى را لانهُ مثلها يدحرج بيضته وهي الشمس من مشرقها الى مكانها الخفي في المغرب فسمي خيبر را . ولما كان اكثر ما يطلق هذا الاسم على را عند بعثه من المشرق فقد جعل من آلهة العالم الثاني وعزي اليهِ انهُ هو الذي يعيد را الى الحياة ويبعثهُ من الأفق

وكان من أثر ذلك عند الأقدمين ان اصبح الجعران رمزاً للبعث فكانوا يصنعون من انواع الحجر المختلفة والخزف مثل هيئة الجعارين وينقشون عليها ماشاءوا من الأدعية والرموز الموافقة لرغباتهم في طول البقاء وحسن المآل ويجعلونها حلية في أصابعهم او على صدورهم او يكتبون

عليها شذرة من كتاب الموتى ويضعونها مع موتاهم لينتفعوا بها في العالم الثاني . ومن هذه الانواع المختلفة الشيء الكثير في المتاحف وعند الافراد

﴿ آسار ﴾ تروي الأساطير ان آسار او عازار وباليونانية اوزيريس هو الذي علّم الناس فلاحة الأرض وزرعها واستنبط المحراث واستأنس الثور وروّضه على جرّه فأخرجهم بذلك من حالة الفطرة وشق لهم طريق الحضارة . غير انه كان له أخ اسمه ست حسده على المقام الذي صار له بين الناس بصالح الأعمال فأسرَّ في نفسه ان يقتله واتفق مع نفر من انصاره على ذلك فما زالوا به حتى استدرجوه الى حفل لهم ثم اغروه على ان ينام في صندوق أعدوه لذلك فلما فعل اطبقوه عليه فمات ثم قطع ارباً ونثرت اشلاؤه في انحاء البلاد

ولما علمت إيزيس وهي زوجه بما اصابه جزعت عليه جزعاً شديداً وتملكها الحزن ثم اصطنعت من البردي زورقاً طافت به في النيل باحثة عن اشلاء زوجها . وكانت كلما وجدت جزءاً خبأته عندها ثم اقامت معبداً حيث وجدته ايهاماً للعدو بانها دفنتهُ في هذا المكان . وقيل انها وجدت الرأس عند أبيدوس فاعتبرت هذه المدينة لذلك منذ أقدم العصور اهم مركز لعبادته وشيد فيها انخم معابده ولما اجتمعت لدى ايزيس سائر الأشلاء ردت اليهِ الحياة بقدرتها ومكث معها وقتاً قصيراً أوصى في خلاله هيرو وهو حورس ابنه ان ينتقم من ست فلما بلغ أشده عمل بوصية ابيهِ وأخذ بثاره فدعي لذلك المنتقم لابيهِ وأصبح عنوان البطولة عند الاقدمين واني اظن لهذا السبب ان لفظة hero الافرنجية بمعنى بطل هي من اسم هذا البطل المصري . وفي يوم وقد آذن را بالمغيب ودع زوجه وابنه وداعاً مؤثراً ثم رفعه را اليهِ في السماء وحمله معه في سفينته الى العالم الثاني . ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكته هناك وهو الذي يحاسب الموتى على أعمالهم في الدنيا فالذين اطاعوا وعملوا صالحاً لهم جنات النعيم والذين عصوا وخالفوا شرائعه لهم النار خالدين فيها وعذاب شديد . وصار لذلك يعبد على هذا الاعتبار وترجى رحمته وشفاعة ايزيس زوجه يوم الحساب . وأصبح العجل الذي روّضهُ لخدمة بني الانسان الأثر الدال على فضله والرمز الحي للسيد الذي عاش بينهم لهدايتهم

ومما يلاحظ مع العجب ان الأسماء التي يقترن ذكرها في كتبنا بالبعث وبالعالم الثاني مثل لعازر الذي قيل ان المسيح اقامه من الموت وعزرائيل ملك الموت واسرافيل الملك الموكل بالصور ينفخ فيه يوم القيامة . هذه الاسماء جميعها كثيرة الشبه بالاسم القديم عازار او اسار والاحرى انها مستحدثة منهُ

والعجل المقدس كان يدعى حاب واسارحاب وفي زمن البطالسة سمي سيرابيس وأوزيريس ابيس ثم اختصر الى ابيس وقد غلب عليه الاسم الاخير ولا يزال يعرف بهِ الى الآن .

وقد وصفه هيرودوت المؤرخ اليوناني المشهور وكانت زيارته لمصر في زمن الفرس بقوله انهُ عجل اسود في جبهته مربع ابيض وعلى ظهره رسم نسر وفي ذيله شعرات مزدوجة وعلى لسانه جعل

ويلوح لغرابة هذه العلامات واستحالة توفرها ان الوصف خيالي لكن هذا لا ينفي انهُ كان لاختياره شروط وان ذلك كان لحكمة هي ان يقتصر التقديس على افراد من العجول دون سائر الجنس تفادياً مما وقع فيه الذين يقدسون البقر اطلاقاً من الهنود ويحرمون لذلك ذبحه

ووصف هيرودوت احتفال المصريين بهِ حين تجليه لهم وعثورهم عليه فقال ان البلاد تصبح لهذه المناسبة في عيد شامل ويلبس المصريون أفخر ملبوسهم . وحدث مرة انهُ تجلّى لهم وقمبيز عائد من حرب خسر فيها معظم جيشهِ : واذ رأى قمبيز ان البلاد يشملها السرور هجس بنفسهِ ان المصريين انما يقيمون الافراح نكاية بهِ وشماتة فيه . فاستقدم عماله الى منف . ولما مثلوا بين يديه سألهم لماذا لم يصنع المصريون شيئاً من ذلك من قبل وهو في منف ولم تطب لهم أقامة الافراح الا هذا اليوم لما عاد اليها وقد مني جيشه بخسارة كبيرة . فاجابوا بقولهم : ان القوم انما فعلوا ذلك لأن معبودهم قد تجلى لهم اليوم وكانوا في انتظار ذلك منذ زمان بعيد . فقال في نفسه انهم يأفكون . وبناء على هذا الظن أمر بقتلهم ثم استدعى الكهنة وسألهم عن جليّة الامر فكان جوابهم كمن سبق . فقال انه يريد ان يرى بنفسهِ هذا الاله الذي ظهر للمصريين. فانصرف الكهنة لاحضاره واذ دخلوا به عليهِ كان يبدو كأنهُ فاقد الوعي فاستل سيفه وطعن العجل يريد بقر بطنه فاصابهُ في فخذه وانفجر عند ذلك يقهقه ثم قال مخاطباً الكهنة : « ايها الأغبياء كيف تكون الآلهة من لحم ودم وينال منها الحديد . حقًّا انهُ لأله جدير بالمصريين . اني لا أخالكم تمكرون بي من غير مبالاة ولن أذركم على ذلك بعد الآن . وعند ذلك أصدر أمره الى الموكلين بذلك من رجاله ان يجلدوا الكهنة ويقتلوا كل مصري يجدونه في لباس العيد . ومات العجل متأثراً من الجرح ودفن خفية من قمبيز

وللعجول المقدسة جبانة عظيمة في سقاره لايزال فيها كثير من النواويس الضخمة التي كانت تضم رفاتها . وقد وجد اسم قمبيز منقوشاً على احدها ولعلّهُ ناووس العجل الذي قتله

آلهة أخرى

﴿ هاتور ﴾ معنى هاتور او « هت هيرو » مسكن هيرو . قيل سبب هذه التسمية ان هيرو سكن اليها في طفولتهِ فأرضعتهُ اذ كانت ايزيس أمه في شغل عنهُ بالبحث عن اشلاء زوجها

وهي في حقيقتها رمز الرحمة والعناية الربانية . وهذه القصة تصوير للرحمة كيف تكون وللعناية كيف لا تغفل عن الضعيف والطفل الرضيع . ورمز لها في هذه القصة بالبقرة لأنها تعطي من ضرعها للاطفال وتسخو عليهم بلبنها لأشباعهم

ونسبت لها شجرة الجميز فكان من اسماء هاتور سيدة الجميزة لان هذه الشجرة اعتبرت آية من آيات الرحمة يلجأ اليها العاملون في الحقل وعابرو السبيل فيجدون في ظلها الوارف فيئاً ووقاية من أشعة الشمس المحرقة . ولا تزال لبعض اشجار الجميز القديمة حرمة عند العامة يسندون اليها الكرامات وينسبون لها الفائدة في شفاء بعض الامراض ويتقربون الى الله بوضع الازيار تحتها ويملأونها بالماء من الرحمة ليستقي منها عابرو السبيل

وقد جعلت هاتور في موضع الرحمة في اسطورة انتقام را التي لخصتها في المقال السابق . فان الاله لما أراد إهلاك الناس لعصيانهم أرسل أداة النقمة وهي سيخت التي تصور في التماثيل على هيئة أنثى لها رأس لبؤة وهي من اشرس الوحوش . فأثخنت في الناس حتى أدركت الاله الرحمة فعفا عنهم وأمرهم أن يصنعوا من عصير العنب والشعير شراباً مسكراً ويسكبوه في الانحاء التي وقعت فيها المذبحة . وهنا استبدلت سيخت رمز النقمة بهاتور رمز الرحمة فقيل ان هاتور أرسلت كرسول انتقام فشربت من تلك الخمر حتى ثملت ونامت فنجا الناس من الهلاك . وجعل الاله على الناس الاحتفال بهذه الذكرى وشرب الخمر في تلك المناسبة باسم هاتور فريضة لذكرى الخلاص

في مقال عنوانه أثر الاساطير في قصة خروج بني اسرائيل نشر في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ أوضحت أثر هذه الاسطورة في قصة الخروج . وقلت أن التمثال الذي صنعهُ بنو اسرائيل في برية سينا . كان تمثال بقرة وكان ذلك لمناسبة الاحتفال بعيد هاتور . وبنيت رأيي على ماجاء في التوراة انهم اخرجوا في شهر أبيب وصنعوا التمثال في الشهر الثالث من ذلك التاريخ وهو يوافق توت اول الشهور الذي يحتفل فيه بعيد هاتور . وهو العيد الذي اشتق منه بنو اسرائيل الفصح والمصريون شم النسيم

﴿ الخاتمة ﴾ ألمحت في دراستي للرموز بأشهر ما عرف منها عند قدمائنا . وخلاصة الرأي فيها انها كانت من خيال الفطرة لتعريف الله وتمثيل صفاته . واحتفظ بها على مر العصور كميراث قومي من الماضي السحيق وذخيرة مقدسة . وجمد الاقدمون لذلك عن تناولها بالتهذيب فأصبحت نابية بأزاء رموز الامم المجاورة التي يتجلى فيها قوة التخيل وجمال التصوير

وبالرغم من ذلك كان الدين ينطوي على اسمى المعتقدات وأكثرها روحانية فانتشر في اليونان وألف بلوتارك رسالة عن أوزيريس هي اوفى ما كتب عن هذا المعبود المصري . وأنشئت المعابد في روما للثالوث المؤلف من اسرة اوزيريس المقدسة . وانتقلت مع الفلسفة اليونانية الى سوريا وفلسطين وهناك تلقحت بالديانة اليهودية وفلسفتها وكانت نتيجة ذلك ثورة التجديد في الدين التي اجتاحت مصر وسائر العالم المتحضر . وانجلت المعركة بين القديم والجديد عن زوال الرموز التي لاخير فيها وبقاء المعتقدات لان فيها ما ينفع الناس وستكون هذه المعتقدات موضوع دراستي في المقال التالي

ابن الساعاتي (١)

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿نشأة الشاعر﴾ ليس في المصادر التي بين أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الاَّ بضعة أسطر لابن خلكان وابن ابي أصيبعة وسواهما تذكر لنا ان اباه محمد بن علي بن رستم بن هردوز خراساني الأصل والمنشأ وقد انتقل الى الشام وفيها عُرف بعلم النجوم وصنع الساعات وهوالذي صنع الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق في عهد نور الدين محمد بن زنكي وقد انعم عليهِ من أجلها ، وخلف هذا الرجل ولدين احدهما الشاعر بهاء الدين ابو الحسن علي والآخر فخر الدين رضوان وكان طبيباً لخدمته الايام فوزر للملكين الايوبيين العادل والمعظم

ولد الشاعر بهاء الدين في دمشق وقضى فيها الشطر الاكبر من حياته ثم رحل الى مصر فقضى الشطر الثاني هناك حيث توفي وهو في الحادية والخمسين، والظاهر انهُ لم يرحل عن وطنه الاَّ كارهاً مدفوعاً بطلب المال وحسن الحال . ولقد يشتم من نفثاته في تلك الآونة ان نفسه كانت مرة من فقره وعدم تقدير مواطنيه إياه

وقد اتصل بكثير من امراء الايوبيين ورجالهم من اعلام عصره فمدحهم ...وبرغم كل ذلك لم ينل منهم أيام اقامته في الشام ماكان يصبو اليهِ من تقدم وثروة ، ولم يحمل معهُ الى مصر غير الحاجة والمرارة والشعور بظلم الزمان . وبقي على ذلك مدة في وطنهِ الجديد ثم بدأت حالتهُ تتحسن . وفي السنوات العشر الاخيرة إصبح ذا بسطة ويسار

ولا نعلم هل اذا كان شاعرنا قد تعاطى شيئاً غير حرفة الادب فليس في شعره ولا فيما ترجم له ما يدل على ذلك . والذي نعرفهُ من شعره انهُ كان ربَّ عائلة وكان يقيم بالمحلة الكبرى وانهُ فقد في مصر ثلاثة من اولاده منهم اثنان ماتا حدثين فبكاهما في شعره بكاء الوالد الحزين ولم

---

(١) تلخيص للمقدمة التي وضعها الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية لديوان ابن الساعاتي الذي قام بتحقيقه ونشره . راجع باب مكتبة المقتطف في عدد فبراير الماضي

يعش بعدها اكثر من ثماني سنوات قضاها مصدوع الفؤاد ،وكان قد تجاوز الاربعين فاصبح أميل الى الجد والتفكير مخالفاً فلسفته الاولى في الحياة فبعد ان كان القائل :

عجباً تخاف الفقر أو ترجو الغنى ويداك تأخذ ما تشاء وتترك
فاهجر معاتبة الليالي واصـــلاً دم كرمة في عرس لهوٍ يسفك

أمسى يقول في الدنيا وصروفها :

فلا تثقنْ منها بعهدٍ فانها لأغدرُ أنثى لا تدوم على إلّ
أقل وفاءً من شباب مودّعٌ وأخضع في وقت الظهيرة من ظل
لايامها فينا ونحن رعيةٌ ولاية سوءٍ لا تؤول الى عدل
نؤمل من آجالنا واهن القوى وتمسك من آمالنا واهن الحبل
ونسعى لها والحظ من زخرف المنى وخضرتها خط السوام من البقل

﴿ شخصيته ﴾ لا بد للحكم على شخصية رجل ما من النظر في علاقاته الاجتماعية والاطلاع ولو جزئيًّا على طرف من حياته الفردية والعائلية . فاذا كان من الغابرين عمدنا الى دراسة سيرته وتحليل اقوال الناس فيهِ ، ولاسيما الذين عاصروه وعاشروه وقابلنا كل ذلك بما ينعكس عن اقوالهِ من عواطف وما يتجلى فيها من ميول . على انهُ ليس لدينا في دراسة ابن الساعاتي وتصوير شخصيته غير ما نستنتجهُ من خوالجهِ الشعرية ،وهذه وحدها قد تحيد بنا عن سواء السبيل .فلا بدّ لنا من التأني والتحرز لئلاَّ نرسم للشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليهِ تمام الانطباق

والذي يلوح لنا أنهُ كان من الظرفاء يحب مجالس اللهو والطرب ، وهذا الظرف بارز في قصائده الشامية وقد ظلت فيهِ هذه النزعة في مصر ، ولم يكن الغنى الذي يسعى اليهِ على ما يظهر إلاَّ سبيلاً للحصول على المشتهيات والتمتع بأسباب السرور واذا كان هذا الميل قد خفّ فيهِ بعد موت أولاده فهو لم يخبت في شعره تماماً ولم تتجرد منهُ طبيعته كل التجرد

ومما يبرز في ديوانهِ ميله الى التباهي بشعره وآله على طريقة المتقدمين ويساوق تباهيه بنفسه تهجمه على حساده ومنافسيه ولا سيما بعض أدباء الشام ، ولم يكن شاعرنا من ذوي الطباع الهادئة بل كان شديد الحرص على كرامتهِ سريع الانفعال مما يمس سمعته فهو يرد لمنافسيه كيدهم ويطعنهم بأمضى من حرابهم وفي ذلك يذكرنا بالمتنبي وهو في حلب ، ولعل بين جوانح ابن الساعاتي شيئاً من تلك الروح الادبية التي كانت لأمير الشعراء ، فهو مثله نشأ في الشام ومثله قصد مصر بعد ان ضاقت بهِ جوانب العيش وأصابهُ كيد الأعداء . على ان المتنبي كان أصلب نفساً وأبعد مرمى لا يحفل بالملاهي ولا تشغله عن أعز غاياته الشهوات

والمتتبع لمدائح ابن الساعاتي يلمح فيهـا تطوراً محسوساً من حيث المطالب والمرامي . فكان

أولاً ذا فاقة الى المال فلا غرو ان يصرح في قصائده الشامية بما يؤمله من نوال الممدوح كقوله :

إن ضاقت الآفاق عن ذي فاقةٍ فله سبيلٌ من نوالك مَهْيَعُ

ولما أمَّ مصر لم ينقطع عن الاستجداء ولا سيما في المدة الأولى. على أنهُ صار بعد ان تحسنت أحواله يكثر من اللهج بذكر المجد والعلى ، وأنهُ انما يطلبهما لا المال كقوله : —

سرتُ دون الوفود ألتمس المجـــد وساروا للنائـــل المسماحِ

﴿ شعره ﴾ شعر ابن الساعاتي صورة صادقة لعصره الذي بلغت فيهِ الصناعة البديعية في النثر والنظم أقصى مداها وكان هو وابن الفارض فارسي هذا المضمار وانما يختلفان في ان ابن الفارض قصر شعره على الحب والتصوف. أما ابن الساعاتي فسار في سنن الشعراء من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف ومجون على أنهُ لم يأت بروائع توقد الشعور العالي بل قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية

ومن الانصاف ان ننوه بمقدرته التخيلية التي تظهر في تشابيهه واستعاراته كقوله واصفاً حياته :

لا تعجبنَّ لطالب بلغ المنى كهلاً وأخفق في الشباب المقبلِ

فالخمر تحكم في العقول مسنّةً وتداسُ أول عصرها بالأرجلِ

ومن ظواهر هذه المقدرة شغفه بايهام التناقض. وذلك بأن يأتيك بمعنى ذي وجهين متضادين يستحيل الجمع بينهما بحسب الظاهر كقوله :

عجباً لسيف اللحظ يجرح مغمداً ولسهمهِ يمضي وليس يفوّقُ

ولهُ الكثير في هذا الباب . والحق يقال إننا قلما رأينا لشاعر ما لابن الساعاتي من التفطن لمثل هذه الدقائق والتوفر عليها . وقد تؤخذ عليهِ كغيره اصطناع بعض معان عرفت للمتقدمين من الشعراء وما ذلك عند التحقيق إلاَّ لوفرة المدخر في حافظتهِ من أقوالهم ولحرصه الشديد على التفنن في ضروب المعاني فتأتي عفواً دون ان يفطن انهُ مسبوق اليها . أما أهم مزاياه فهي :

١ — إسرافه في الاناقة الفنية فهو شديد الولع بضروب البديع المعنوي واللفظي من تشبيه واستعارة وجناس وطباق وما الى ذلك . ومن ولعه بهذه الاناقة انهُ كتب الى القاضي الفاضل تسعة أبيات ولزم ان تكون قافية كل بيت منه وصف لون ، على ان هذا الولع بالبديع قد دفعه احياناً الى التصنع الذميم

٢ — ميله الى وصف الطبيعة ، وهو وصاف ماهر واكثر وصفه يدور على دمشق وغوطتها يصف الرياض وما فيها من مياه واشجار وازهار وظلال ونسيم ، ويصف الظواهر الجوية من غيث وسحاب وبرق وثلج وشمس وقمر ونجوم وظلام ، ومجالس الانس والشراب وما فيها من اسباب اللهو ومجالي الشراب

على ان اوصافه المصرية لا تضاهي اوصافه في جمال الطبيعة الشامية ، ولعلّ ذلك لأنهُ قضى زمن الصبا والشباب بين غياض دمشق فكان لها التأثير الاعظم في نفسه . وقد بقي هذا التأثير في نفسه طيلة اقامته في مصر ، فلم ينس المطر والثلج والغدران والحدائق والغمام وما الى ذلك مما يألفهُ اهل الشام . واوصافه الشامية مقرونة ابداً بالحنين اليها والولع بمحاسنها

٣ — ولعه بالغزل ، ولهُ في هذا الفن سهم وافر ، ولا نعلم شاعراً عني عنايته بأن يجمع القطع الغزلية التي صدَّر بها قصائد المديح ويفرد لها ديواناً خاصًّا . وهو شديد الحرص على ان يكون التخلص من الغزل الى المديح تام الاتصال ، وفي ذلك يخالف البحتري الذي عُرف بالاقتضاب أو قطع الكلام واستئناف غيره بلا علاقة بينهما

على ان غزل ابن الساعاتي عموماً — على بلاغته الفنية — لا يستثير في النفس ما يستثيره غزل المحبين المدنفين الذين خاضوا غمرات الغرام وعرفوا بالاختبار تلك اللواعج المحرقة وما تسببهُ من اضطرابات وآلام . بل هو من نوع الغزل الذي شاع كثيراً في العصر العباسي وسواه ويتجه الى وصف المحبوب وظواهر الحب وصفاً ينسج على منوال البديع ، فيكثر الشاعر من ذكر الدموع والجوى والسهاد والفراق والمطال والخيال والعهود والعذَّال ، ويلهج بوصف الخدود والقدود والعيون والذوائب والثغور . ولشاعرنا في هذا الباب نَفَس طويل قلما يجاريه فيه أحد حتى تكاد تكون مقدماتهُ الغزلية قصائد قائمة بذاتها اكثرها يتجاوز العشرين بيتاً أو الثلاثين ومنها ما يتجاوز الاربعين . وفي جميعها تشعر بمقدرته اكثر من شعورك بروحه ، وباسلوبها اكثر من عواطفه

وغزله في اكثر الاحيان صنعة يبرز فيها جهد الشاعر وحرصه على الاتيان بالمحسنات البيانية وليس في ديوانه ما يشعر بانصرافه الى فتاة وقف صبابته واشواقه عليها ، بل هو حبٌّ عامٌّ سداه ولحمته الوصف فهو يصدق على كل شخص وفي كل حال . ولم يكن غزله الاَّ توطئة للمديح لم ينظمه مدفوعاً اليه بشعور الجوى أو جمال الحبيب بل هو نسيج كلامي يتكلف حياكته واتقانه فلا يتجلى فيه تواجد جميل بن معمر وقيس بن الملوح وعمر بن ابي ربيعة وكثيّر عزة ، والعباس بن الاحنف وابن زيدون وابن زريق والبها زهير وسواهم ممن كان لهم القدح المعلى في هذا المضمار ولم يقتصر غزله على النساء بل تناول الغلمان

والخلاصة ان ابن الساعاتي فنان ماهر طويل الباع في استخدام الالفاظ للتعبير عن مقاصده واسع الحيلة في التلاعب بالمعاني البيانية . ولا شك انه في ذلك وفي المدح خاصة يقابل بالطبقة الاولى من شعراء العصر العباسي . على اننا اذا وازنّا بينهُ وبين معاصره الاصغر ابن الفارض وجدنا ان الثاني — برغم انصرافه كالأول الى البديع والى الغزل — أرقُّ حسًّا وأبعد خيالاً وله في الشعر رسالة خاصة لا نراها عادةً لامثاله من البديعيين

****

مجالى الفكر

الحديث

في الاجتماع والفن والاقتصاد والتاريخ

****

١ — السلطان في العالم الحديث

تأليف الفيلسوف برتراند رسل (١)

قال احد الكتّاب المشهورين في برتراند رسل : « انهُ فيلسوف متصوف والفلاسفة كالصوفيين يرون رؤىً . على ان اصحاب الرؤى ليسوا اضعف القوى التي تسيّر هذا العالم ولا اخمل الناس في ما يبذلونهُ من السعي لرفع مستوى الحياة » . وقال رسل نفسهُ : « ان نظري الى الكون والحياة كنظر سائر الناس وليد الحوادث والايام قدر ما هو وليد الطبع الموروث»

هذا الفيلسوف الاجتماعيُّ الكبير ، نشأ عالماً رياضيًّا من الطبقة الاولى ، وقد وضع مع الفيلسوف هويتهد كتاباً في الرياضيات — مبادىء الرياضيات — يعدُّ من اهم مراجع هذا العلم في العصر الحديث . ولكن الحوادث والايام وجهتهُ الى الناحية الاجتماعية . وقد قال نفسهُ انهُ بقي ثلاث سنوات متردداً — بعد اتمام كتاب المبادىء — في ما عساهُ ان يتجه اليهِ من المباحث والاعمال . وكان حينئذٍ يدرّس في جامعة كمبردج ولكنهُ ايقن — وكأن يداً خفية كانت تحركه — ان لا بدَّ لهُ ان ينقلب من بحث المنطق الرياضي الى ميدانٍ آخر . وكانت الحرب الكبرى العامل الحاسم في توجيههِ الجديد . قال : « ولاول مرة في حياتي وجدت شيئاً يشغل طبيعتي بأسرها . ذلك ان اشتغالي بالمجرَّدات من قبل كان قد ترك غرائزي الاجتماعية دون ما يكفيها .... ان الفطرة الوالدية التي لم تكن محققة فيَّ حينئذٍ ، حملتني على ان أغضب وأنفر لمنظر شبان اوربا يخدعون ويساقون الى المجزرة لا كفاءِ الشهوات الشديدة التي تكتسح صدور كبارهم

(١) POWER. A New Social Analysis. By Bertrand Russell, Allen & Unwin London 7/6

واستقامتي الفكرية منعتني من تصديق الخرافات التي اتخذتها الدول المتحاربة عذراً تسوّغ به إثارة الفتن . والواقع ان المفكرين الذين صدقوا هذه الخرافات كانوا قد تخلّوا عن عملهم الصحيح لينعموا بالشعور أنهم واحدٌ من القطيع . وهذا كان في نظري عملاً غير شريف . لانهُ اذا كان للمفكر عملٌ في المجتمع فعمله الاحتفاظ بحكم هادىء مجرّدٍ حين ثورة العواطف والشهوات. ولكنني وجدت اكثر المفكرين لا يثقون بفائدة العقل الاَّ في ايام السلم »

وكذلك انقلب العالم الرياضيُّ داعية للسلام فاخرج من كمبردج فتمّ التحوُّل من الفلسفة الرياضية العالية الى الفلسفة الاجتماعية العالية . فنفح الفيلسوفُ الاجتماعي العالمَ بطائفة من الكتب الممتازة في « التعليم » و« الزواج » و« مبادىء التنظيم الاجتماعي » و «غزو السعادة» و «طرق الحرية » و« الفكر الحرّ والدعاية الرسمية »

الاّ ان البذرة الصغيرة الحية التي تتبينها في بعض كتاباته السابقة وهي « ان اساس الفوضى الدولية هو ميل الناس الى الخوف والبغض وهـــذا هو اساس النزاعات الاقتصادية لان حب الاستئثار بالقوة والسلطة—وهو اساس كل نزاع اقتصادي—ليس الاَّ صورة جديدة لفطرة الخوف . فالناس يريدون ان يتسلطوا لأنهم يخشون ان يستعمل سلطان الغير لهدم مصلحتهم »— هذه البذر تراها وقد تحوَّلت في كتابه الجديد الذي عنوانهُ «السلطان» Power شجرة عتيَّة كثيرة الاغصان والورق

والغالب ان حسَّ رسل الاجتماعي هداهُ الى بحث هذا الموضوع الخطير في عصرٍ هو اشدُّ ما يكون حاجةً الى فهمهِ . وقد توصل في بحثهِ الى قاعدة جديدة توضح كثيراً من الغامض على الفهم وهو ان «السلطان» فكرة اساسية في علم الاجتماع على نحو ما نجد «الطاقة» فكرة اساسية في علم الطبيعة . والسلطان كالطاقة يبدو في اشكال متباينة ، كالثروة والسلاح والمعتقدات والسلطة الحكومية والتأثير في آراءِ الغير ، وليس في الوسع ان تقول ان احد هذه الاشكال مقدم على الآخر ، او ان إحدها اصل والآخر فرع ، فمعالجة الشكل الواحد بمعزل عن الاشكال الأخرى لا يفضي الى الفهم المستقيم ، على نحو ما يتعذر بحث شكل من اشكال الطاقة بحثاً كاملاً من جميع نواحيهِ الاَّ اذا اقترن ببحث اشكال الطاقة الأخرى

قد تنشأ الثروة من السلطان العسكري او من السلطان على الرأي العام ، كما ان السلطان العسكري والسلطان على الرأي العام قد ينشآن من الثروة . ان نواميس التركيب الاجتماعي لايمكن ان تفرغ الاَّ في قالبٍ اساسهُ فهم فكرة السلطان . ففي العصور الماضية كان السلطان العسكري بمعزل عن غيرهِ من الاشكال الاخرى ، فكان يبدو ان النصر او الخذلان رهن بصفة القائد . ولكننا في هذا العصر نميل الى حسبان السلطان الاقتصادي اصلاً تنبع منهُ صور السلطان

الاخرى ، وهذا في رأي برتراند رسل خطأ يماثل خطأ المفكرين الذين يحسبون الدعاية والسيطرة على العقول والنفوس منبع السلطان . لاريب في انهُ اذا استطاعت الدعاية ان تنشىء اجماعاً عامًّا ولدت قوة لاترد . ولكن الذي في ايديهم زمام السلطان العسكري او السلطان الاقتصادي يستطيعون ان يستعملوا سلطانهم للدعاية . ولذلك يرتدُّ الفيلسوف الى التمثيل بين السلطان والطاقة فيقول ان الفهم الصحيح لطبيعة السلطان يقتضي منا ان نحسبهُ كالطاقة دائم التحوُّل من شكلٍ الى آخر ، وان همَّ العلم الاجتماعي يجب ان يتجه الى كشف نواميس هذا التحوُّل وفهمها

هنا يصحّح الفيلسوف الانكليزي ما يذهب اليهِ متطرفو الماركسيين من تفسير التاريخ ونشوءِ الاجتماع تفسيراً ماديًّا محضاً . فهو يقول : انهم يخطئون في حسبان المصلحة الاقتصادية باعثاً اساسيًّا في علم الاجتماع . ان الرغبة في اقتناءِ العروض رغبة لها حدٌّ اذا فصلت عن السلطان او المجد اللذين يقترنان بها . وفي الوسع اشباعها بيسير . فالرغبة في الترف لا يمليها حب الرفاهة المادية . والرجل الذي يرغب في جمع طائفة من صور اعلام المصورين القدماءِ انما يرغب فيها، لما يوليهِ اقتناؤها من مجد او سلطان لا رغبة منهُ في جعل البهو الذي يضعها فيهِ بهواً للراحة . فاذا استوثق الفرد — او الجماعة — من قدر معتدل من الرفاهة ، سعى الى السلطان بدلاً من الثروة . قد يطلب الثروة كوسيلة للسلطان ، او قد يتخلى عن قدر من الثروة ليزيد نصيبه من السلطان، ولكن الباعث في الحالين ليس باعثاً اقتصاديًّا

ولعله من الخير ان نضرب للقارىء مثلاً في هذا الموضوع ساقهُ المستر رسل في كتابهِ في الصفحة ١٢٨ قال : — ان السلطان الاقتصادي في الدولة مع ارتداده الى القانون والرأي العام يسهل عليهِ الفوز باستقلال خاص . فهو يستطيع ان يؤثر في القانون بالإِفساد والارتكاب وفي الرأي العام بالدعاية . وفي وسعه ان يجعل رجال السياسة مدينين لهُ فيحدُّ من حريتهم . ويستطيع ان يهدد باحداث ازمة مالية . ولكنَّ هناك حدوداً لتأثيره . فقد رفع قيصر الى مقام السلطان بعون دائنيه الذين ادركوا ان لا امل لهم في استيفاء ما لهم عليهِ إلاَّ بنجاحهِ . فلما اصاب النجاح احسَّ بقوة مكنتهُ من تحديهم . وشارل الخامس اقترض من « آل فوجرز » المال الذي احتاج اليهِ ليبتاع منصب الامبراطور . فلما اصبح امبراطوراً تنكر لهم فخسروا المال الذي اقرضوه اياه . وقد حل بالستي (حي الاعمال المالية بلندن) شيء من هذا القبيل في عصرنا عند ما ساهمت في انعاش المانيا ، وكذلك حلَّ بتيسن الالماني عندما اشترك في رفع هتلر الى مقام السلطان

الاَّ اننا نخطىء الغرض من حديثنا عن هذا الكتاب ، اذا حملنا القارىء على الظن ان الكتاب بحث فقهيٌّ في موضوع « السلطان » وبسط لمذهب خاص فيهِ . لانهُ في الواقع وعلى الغالب بحث واقعي في صور « السلطان » المختلفة . كيف تنشأ وترعرع ثم تضعف وتدول .

والامثلة عليها مستمدة من تاريخ الكنيسة وتاريخ الدول القديمة والحديثة . وعلى ذلك عقد الفيلسوف رسل فصولاً متتالية في سلطان الكهان والملوك والطغاة والزعماء الثوريين والطبقات الاقتصادية ثم تليها فصول في السلطان على الرأي وفي المعتقدات بوصف كونها ينابيع للسلطان ثم الاساس البيولوجي للتنظيم الاجتماعي والعلاقة بين الفرد والجماعة وصلة السلطان بنظم آداب النفس وأخيراً «ترويض السلطان»

فغرض الكتاب ، ان يحلل صاحبهُ التحول الاجتماعي ، تحليلاً أوفى مما تنطوي عليهِ تعاليم الاقتصاديين . وهذا التحليل قائم على ان شهوة السلطان هي الباعث الرئيسي على التحولات التي يتجه علم الاجتماع الى دراستها . والسلطان الاقتصادي هو نوع السلطان الرفيع المكانة في هذا العصر ، واسباب ذلك كثيرة . منها ان الجماعة الثرية الماضية في سبيل زيادة ثروتها ، تتيح للشبان منفذاً لإِشباع شهوة السلطان فيهم . اما الجماعة الفقيرة الماضية الى الادقاع فتحدُّ من هذه الشهوة في النشيط القوي من الشبان ، فتضطرب اعصابهم وعقولهم فيبحثون في العنف بدلاً من الاكتفاء الاقتصادي عن منفذ لنزعاتهم الاصيلة . وفي اوربا كثير من هذه الجماعات الآن

ولا يذهب بك الظن الى ان شهوة السلطان ضارَّة حتماً . فهي طبع في كل قويّ النفس والجسد وبتدريبها في الصغر يمكن توجيهها في مسالك نافعة . وبرتراند رسل يعتقد أن القاسي الظالم بين الناس نادرٌ اذا احكم تدريبه في صغرهِ ولم يلق مشقة كبيرة في الفوز بعمل يستنفد جانباً من نشاطهِ . ولذلك يرى ان استعمال السلطان استعمالاً نافعاً يقتضي توافر ثلاثة شروط . يجب على السلطان ان يقترن بهدفٍ معيَّن اي ان لا يطلب السلطان لذاتهِ . ثانياً يجب على هذه الاهداف ان تكون مما يشبع رغبات الغير كهدف الفنان او المخترع او البحَّاثة العلمي . ثالثاً حتى اذا صلحت اهداف السلطان فيجب ألاَّ تكون وسائله بحيث يتغلَّب فيها الضارُّ على المفيد او الطالح على الصالح. هنا موطن الخطر في استعمال السلطان ، واشهر مظاهرهِ في نشوب الحروب. فالحروب التي تبدأ لاغراض سامية بوساطة رجال من الصُلاَّح مقتنعين اشدَّ الاقتناع بانهم على صواب ، يختمها رجال اخذ منهم الغضب والحقد كلَّ مأخذ فلا همَّ لهم الاَّ الثأر او اذلال الخصوم

وعند الفيلسوف رسل ، ان اهم صور السلطان ثلاث هي التقاليد والسلطان العاري والسلطان الثوري . فسلطان التقاليد قائم على العادة والمعتقدات العامة والتسليم بالآراءِ السائدة ، اما السلطان العاري فتعريفهُ ان الآخذين بهِ يحترمونهُ لانهُ سلطان لا لأي سبب آخر ، والفترات التي يسودها السلطان العاري هي الفترات التي يميل فيها سلطان التقاليد الى الانحلال بتطرُّق الضعف الى المعتقدات والعادات في شؤون الدين وأدب النفس . ولذلك نجد في فترات الفكر الحرّ والنقد المطلق تمهيداً لقيام السلطان العاري . لقد حدث هذا في اثينا في القرن الخامس . وفي ايطاليا في عهد

الاحياء . وهو حادث — على ما يلوح لرسل — في عهدنا هذا

ويقين الفيلسوف رسل ان القيم الادبية مستقرة في الافراد لا في الجماعات وان سلطان الدولة الحديثة اكبر مهدد لسعادة الفرد . ولذلك تراه يبني فصله الاخير في «ترويض السلطان» على تربية الفرد وتدريبه . وانما نسي على ما يقول المستر جود ان السياسيين فقط يفوقون المعلمين في شهوتهم للسلطان والتحكّم . والمستر رسل كاتب بليغ على ما تتبين من الفقرات التالية، ولكنهُ يبلغ اوج بلاغته عند ما يتحدث عن الشروط النفسية لترويض السلطان . قال : الخوف والغضب وجميع ضروب التهيج في الجماعات ، يميل بالناس الى ان يسيروا سيراً اعمى وراء الزعيم الذي يغتنم الفرصة في معظم الاحيان ليقيم نفسهُ طاغية . . . اذكر احد البلاشفة لقيته في باكين سنة ١٩٢٠ واتذكرهُ يسير في غرفته ذهاباً واياباً وهو يقول صادقاً « اذ لم نقتلهم قتلونا » . ان هذه الحالة النفسية في الفريق الواحد تولد حالة مثلها في الفريق المقابل . والعاقبة قتال الى النهاية ، يخضع كل شيء فيه للنصر . في خلال القتال ، تتقلد الحكومة سلطاناً استبداديًّا لاسباب حربية. فاذا جاء النصر استعملت سلطانها الاستبدادي لسحق ما تبقى من العدو اولاً ، ثم لتأكيد استمرار تحكمها بمؤيديها . فمن الحمق ان نعجب بحماسة الجماعة واندفاعها لان ثمراتها القسوة والحرب والموت والاستعباد

ويقول ايضاً وفي قوله سمة السخرية اللاذعة التي تبدو في غير يسير من كتاباته : « ان الرجال الذين يسمحون لشهوة السلطان ان تشوّه نظرهم الى العالم تجدهم في كل مستشفى عقلي . فيظن احدهم انهُ مدير بنك انكلترا وآخر انهُ الملك وثالث انهُ الله عزَّ وجلَّ . فاذا افرغت هذه الاوهام في كلام غامض افضت بقائليه الى مناصب اساتذة الفلسفة في الجامعات . واذا افرغها في قالب فصيح رجال تحرّكهم الانفعالات الشديدة أدَّت الى الدكتاتوريات . ان المجانين الرسميين توصد الابواب عليهم لميلهم الى العنف عندما يشكُّ احدٌ في ما يزعمون . اما الذين لم تصدر بجنونهم شهادات رسمية فيمنحون السيطرة على جيوش عظيمة . وفي وسعهم ان ينزلوا الموت والخراب بجميع العقلاء الذين في متناولهم . ان نجاح الجنون، في الادب والفلسفة والسياسة من خواص هذا العصر ، والجنون في شكله الناجح ينبع كلّهُ تقريباً من شهوة السلطان

ويقول كذلك : كان الناس في العصور الغابرة يبيعون انفسهم للشيطان ليفوزوا بقوى السحر. ولكنهم يفوزون بهذه القوى الآن عن طريق العلم فيلفون انفسهم مضطرين ان يغدوا شياطين، وليس للعالم امل الاَّ بترويض السلطان ، ووقفه على الخدمة — لا خدمة هذه الجماعة من الطغاة المتعصبين او تلك — بل على خدمة البشر بيضاً وسوداً وصفراً ، فاشيين وشيوعيين ودمقراطيين ، لان العلم اوقعنا في مأزق فاما ان نحيا جميعاً واما ان نموت ..

٢ — دراسة بعض المنسوجات الاسلامية القديمة
في متحف الفنون الجميلة في بُسْطن

صناعة النسيج من أقدم الصناعات التي نشأت مع الانسـان وكانت وليدة حاجته الى وقاية نفسه من العوامل الجوية . وقد تدرَّج فيهـا في سلم التطوُّر كما تدرَّج في غيرها من الصناعات ، فاتخذ ملابسه من ورق الشجر ، ومن جلود الحيوان،ثم ألهمتهُ الطبيعـة فنسجها من الحشـائش والاغصـان ثم اهتدى الى عمل الخيوط من الـكتان والصوف والحرير والقطن بل ومن الذهب والفضة والورق ولب الاخشاب . ومن هذه الخيوط نسج جميع ما يحتاج اليهِ من المنسوجات

ولم يقف بمنسوجاته عند حد نفعهـا المادي فحسب ، بل عمل على أن تكون الى جانب ذلك أثراً فنيـًّا يشعر بالجمال ، ترتاح اليهِ عيناه ، ويبعث الاعجاب في نفوس اخوانه وعشيرته ، فزينهـا بوسائل مختلفـة : تارةً بأن رقم عليهـا بالاصباغ (painting) زخارف شتى ، وتارةً بنسجها من خيوط متباينة الالوان (woven pattern) ، وطوراً بتطريز (embroidery) اشكال هندسية او نباتية او حيوانية فوق اديمها وطوراً بتزيينها بشرائط ينسجها في صميمها tapestry ويضمنها رسوماً وصوراً مختلفة

ولاتصال المنسوجات بحياة الانسان ، وملازمتها له في كل أدوار حياته ، كانت عناية علماء الآثار بدراستها عظيمة ، لانها تبين بطريقة نسجها مدى رقي الصناعة، وتعكس بزخارفها مقدار ما بلغتهُ الامة من الذوق الفني . وكثيراً ما كانت هذه الدراسة نبراساً اهتدى الباحثون بنوره الى الوقوف على درجة رقي الامم وحضارتها ، ومدى تأثرها بغيرها من الامم او تأثيرها فيها من الناحية الفنية ، وعرفوا ماكان قائماً من العلاقات التجارية بين البلاد المختلفة في شتى العصور

وكما اقرت مصر البـاحث في آثار فجر التـاريخ بما امدته به من التراث الفني الخالد الذي احتفظت به على سطحها واختزنتهُ في جوفها فاستطاع ان يقف على اعرق مدنية عرفها الانسان، فانها لم تبخل على علماء آثار ضُحى التاريخ بما اماط لهم اللثام عن حضارة تلك العصور، وعرَّفهم مدى ما بلغته هذه البلاد على الخصوص من الرقي في الصناعة ، والسمو في الفن ، في وقت كانت تسود فيه ظلمات الجهل معظم بقاع العالم ، والفضل كل الفضل في ذلك اما يرجع الى ذلك الجو الجاف الذي حبتنا به الطبيعة والى الارض أمنا الرؤوم ، التي حافظت بطبيعتها على الآثار الفنية لابنائها الاولين ، وكانت حريصة اشد الحرص على العناية بها لتسلمها لنا ، لكي ترينا عظمة السلف الـكريم ، وقد أدت هذه الامانة على احسن وجه اذ كان من اهم تلك الآثار بل لعلها اهمها

(1) A Study of Some Islamic Textiles in The Museum of Fine Arts (Boston). By Nancy Pence Britton.

جميعاً تلك المجموعة النفيسة من المنسوجات الأثرية التي كشف ولم يزل يكشف عنها المشتغلون بالآثار منذ الحملة الفرنسية حتى الآن ، والتي لا تعدو في الحقيقة ان تكون سجلاً كاملاً لتاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى العصر الاسلامي ، لا تنقصهُ سوى صفحات قليلة ، قد يكشف عنها البحث في مستقبل الأيام . على أن هذا النقص ليس بطاعن في قيمة هذا التاريخ الصادق المكتوب بيد الفن الذي لا ينطق عن الهوى وليس بقلم المؤرخ الذي قلما يبرأ من الغرض

***

واذا نحن استعرضنا هذا التاريخ الحي رأينا عظمة مصر الفرعونية متجلية في القطع التي عثر عليها في مقبرتي تحتمس الرابع وتوتعنخ آمون والتي تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال تلوينها، على انها نتاج مجهودات طويلة ، وتطورات متعددة ، تقلب فيها فن النسيج قبل سنة ١٤٤٧ ق . م . وتكاد تنطق بمقدار ما بلغتهُ مصر من الدرجة السامية من الرقي في ذلك العصر عند ما كانت من غير شك تقود غيرها من الامم في مدارج التقدم الفني

وتعترضنا بعد ذلك فترة انقطاع هي تلك التي نأمل ان ينكشف عنها الغطاء عما قريب. ثم تجيء تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات التي استخرجتها البعثات الأثرية من بقاع شتى من البلاد ، والتي نلمس في زخارفها دخول عوامل جديدة على الحياة المصرية كان لها ابعد الاثر في كيانها السياسي والديني ، وفي حضارتها وفنونها ، ونقرأ في نقوشها مدى تغلغل النفوذ الاجنبي في البلاد ، وتحكمهِ في توجيه الفنون فيها ، وتأثيره في عناصرها الزخرفية ، فمنها ما تم زخرفته على التأثير اليوناني ، وفيها ما يتجلى فيهِ أثر المدنية الرومانية ، وبعضها يذكرنا بظهور الديانة المسيحية ، وبعضها ينطق بسيطرة الفن البيزنطي ، وبعضها يدل على انتشار الفن الساساني ، وطائفة كبيرة منها تبدو فيها زخارف الفن الاسلامي

وايضاح ذلك كله ولو في شيء من الايجاز لا يتسع لهُ فصل كهذا ، وتكفينا هذه الاشارة لندرك ما لدراسة المنسوجات الأثرية من مقام

ولئن كان الكثير من هذه المنسوجات تزدان بهِ اليوم متاحف مصر ولا سيما دار الآثار العربية التي لا تزال حتى اليوم توالي حفرياتها في البقاع التي اتخذها المسلمون في العصور الوسطى مكاناً لدفن موتاهم ، وتستخرج من هنالك كميات وفيرة من المنسوجات الاسلامية ، حتى اضحت اغنى متاحف العالم في هذه الناحية ، يستطيع ان يجد الباحث فيها سلسلة متصلة الحلقات من تلك التحف تمكنهُ من دراستها وتطلعهُ على مدى التطور التدريجي فيها ، فان طائفة كبيرة منها قد تسربت بطرق شتى من وطنها العزيز واتخذت طريقها الى عواصم اوربا واميركا واستقرت في متاحفها . ولئن كان يؤسفنا حقّاً انها بعيدة عنا ، فان لنا عزاء في انها سفير دائم لنا ، يطلع علماء

الغرب على مجدنا ، وينبههم الى عظمة اجدادنا ، فضلاً عما تناله في مواطن غربتها من التقدير والاجلال ، اذ كانت ولا تزال موضع دراستهم وبحثهم ، فاظهروا لنا ما انطوى فيها من آيات المهارة في الصنعة والسمو في الفن . ولا ريب ان لذلك من الأثر البعيد في اذكاء الحنين في نفوسنا الى استعادة مجد السلف ما لا سبيل الى انكاره

والكتاب الذي نعرّف به القراء اليوم ليس في الواقع الاّ اثراً من آثار هذا التمجيد لتراثنا الفني القديم . تناولت بالدراسة فيه مؤلفته — السيدة نانسي بنس بريتون — طائفةً من المنسوجات الاثرية الاسلامية المحفوظة بمتحف بُسطن بأميركا الذي كانت تشتغل فيه

وقد قسمتهُ الى خمسة اجزاء تحدثت في الاول منها عن نشأة الفن الاسلامي وعن الكتابة العربية ، وعن الطراز ونظامه ، وختمت هذا الجزء بكلمة موجزة عن الناحية الفنية لصناعة النسيج ، وبينت ما لهذه الناحية من مكانة عند مؤرخي الفن ، اذ هي تساعدهم على تأريخ التحف المختلفة عند ما يتعذر عليهم ذلك من الكتابة التي عليها ، او من طراز حروفها ، او زخرفها

ولقد وفقت الكاتبة في تلخيص هذه الموضوعات تلخيصاً لا يشفع فيه الاّ كون الكتاب — على حدّ قولها — دليلاً موجزاً للأنواع المختلفة للمنسوجات الاسلامية التي اختارتها من مجموعة متحف الفنون الجميلة في مدينة بُسطن ، ولكن كلمتها عن الطراز ونظامه ، لا يصح المرور بها دون التنبيه الى انها في حاجة الى شيء كثير من التدقيق ، اذ تسرعت في الحكم على ان «طراز العامة كان يملكه التجار الذين يبيعون بضائعهم للجمهور او يصدرونها للبلاد الأخرى» (ص ١٩) واعتمدت في قولها هذا — كما اشارت في هامش هذه الصفحة — على نص ورد في كتاب الخطط للمقريزي ، ولكن هذا النص لا يحتمل التأويل الذي ذهبت اليهِ بأي حال ، وموضوع دور الطراز ونشأتها ونظمها لم تزل الى اليوم من الامور الغامضة في الفن الاسلامي

وتكلمت في القسم الثاني على المنسوجات العراقية ، بادئة بموجز تاريخي يبصر المطلع بالظروف المختلفة التي نسجت فيها تلك المنسوجات ، ثم عقبت على ذلك بدراسة اثنتي عشرة قطعة دراسة تدل على اتساع أفق اطلاعها ، وقدرتها على مناقشة الآراء بصدد تاريخ بعضها

وتناولت في القسم الثالث المنسوجات العصرية . والواقع ان هذا القسم يعتبر درّة في تاج كتابها ، اذ اجادت كل الاجادة في عرض سلسلة تطور هذه المنسوجات عرضاً تاريخيًّا فنيًّا جديراً بكل اعجاب وتقدير ، وتنقلت مع القارىء من فترة الانتقال من العصر القبطي الى عصر صدر الاسلام ، ثم الى العصر العباسي فالعصر الفاطمي . بينت في وضوح لا لُبس فيهِ مميزات كل عصر ، في شكل الكتابة والزخرفة ، واشارت الى ما في المتاحف الأخرى من القطع التي قد تمتُّ اليها بسبب ، واوضحت ما أثير من آراء علماء الآثار حول بعض القطع وأيدت

منها ما استحق التأييد — في نظرها — ووردت على مااستوجب الرد . ثم درست مجموعة الفيوم والقطع المنسوبة الى طراز الصعيد ، وكانت في دراستها واضحة مفهومة بعيدة عن التعقيد ، مما يدل على حسن فهمها للموضوع الذي تصدت لبحثهِ . وقد ختمت هذا القسم بدراسة ثلاث قطع لم تتوفر الاسباب ولا القرائن للاستيثاق من أصلها ، أو تاريخها ، فاحسنت عرضها وتحليلها

اما القسم الرابع فقد اختصت بهِ منسوجات بلاد اليمن فأوضحت في جلاء طريقة نسج العصب اليمنية Ikat ثم عقبت على ذلك بدراسة ثلاثة قطع من هذا النوع . وتكلمت في الفصل الأخير على قطعة من الحرير الايرانية الاصل عليها زخارف بعضها مطبوع وبعضها منقوش ، وقد قدمت لهذا الفصل بكلمة موجزة بينت فيها طريقة عمل ذا لـكما النوعين من الزخرفة

اعدّت السيدة نانسي بريتون كتابها هذا على الصورة التي بسطناها هنا ، ثم حضرت الى دار الآثار العربية ، التي لا غنى عنها لباحث في المنسوجات الاسلامية ، وقضت فترة ليست بالقصيرة ، درست فيها مجموعتها النفيسة مسترشدة بآراء العالم الكبير المسيو جاستون فييت مدير الدار ، والاستاذ الدكتور زكي محمد حسن امينها . ثم نظرت في كتابها بعد هذا الدرس ، وعدلت فيه ما رأت الحاجة ماسة الى تعديله ، وعهدت بهِ بعد ذلك الى الدكتور زكي حسن فقرأه ، واضاف اليهِ ، وحذف منهُ ، حتى خرج الكتاب على الصورة التي بين ايدينا . وما جحدت الكاتبة هذا الفضل بل سجلتهُ

وبعد فالكتاب في الحقيقة دراسة أثرية نفيسة لطائفة من المنسوجات الاسلامية ، امتاز فوق ذلك بأناقة طباعتهِ ، وحسن ترتيب فهارسه ، ولئن كنا نختلف مع المؤلفة في بعض آرائها ، فليس ذلك بمانعنا من الاعتراف بأنها قد دلت ببحثها على سعة اطلاعها ، واعتمادها على المراجع الموثوق بها ، وتملكها من مادتها ، واجادتها تحليل ما يعترضها من الآراء المختلفة

دار الآثار العربية محمد عبد العزيز
الملحق الفني لدار الآثار العربية

٣ — التقدم الاقتصادي في مصر الحديثة(١)

اما ومصر تجتاز مرحلة خطيرة من مراحل تقدمها الاقتصادي فليس ثمة ريب في ان كتاباً يعالج موضوع تقدمها هذا من ايام محمد علي الكبير الى يومنا هذا يغدو مرجعاً ذا شأن في دراسة الاتجاهات الاقتصادية العامة فلا يستغني عنهُ الصحافي او النائب او الاستاذ او الطالب. فاقدام المستر كروتشلي الاستاذ بكلية التجارة في جامعة فؤاد الاول على وضع هذا الكتاب عمل يستحق كل ثناء

ويلوح لنا من مطالعة هذا الكتاب ودراسة بعض فصوله ان الاستاذ كروتشلي اعد المعدات

(١) The Economic Development of Modern Egypt. By A. E. Crouchley, Longmans Green & Co. London

الوافية للاضطلاع بهذه المهمة . ولا نعلم مدى خدمته في مصر ولكن اسلوبه في معالجة الموضوع من الناحية التاريخية وبحثه في الاتجاهات الحديثة يدلان على سعة علم ودقة بحث مقرونتين بذهن منظم فأخرج كتاباً جامعاً لأهم الحقائق والاتجاهات الاقتصادية حسن التبويب والترتيب

قال في توطئته « هذا البحث سعي الى تتبع السمات الغالبة على تقدم مصر الحديثة من الناحية الاقتصادية تتبعاً موجزاً وطالما شعر الطلاب وغيرهم من المهتمين بحياة مصر واحوالها بحاجتهم الى هذا الكتاب وقد مضت سنوات منذ بين المستر كريج ... الحاجة الى بحث من هذا القبيل فكان بحثي في الاموال الاجنبية المثمرة في هذه البلاد — وهو بحث نشرته وزارة المالية — سعياً الى تمهيد الطريق واستجلاء بعض النواحي الغامضة في هذا التقدم . فلما انشئت دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادي في الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الاول الآن) اصبح من الضروري وضع كتاب يحتوي على تاريخ مصر الاقتصادي في العهد الحديث وقد وضع هذا الكتاب تحقيقاً لهذا الغرض والأمل ان يكون مفيداً لجميع المهتمين بتقدم مصر في العهد الحديث »

والكتاب على ما يقول مؤلفه وعلى ما يتبينه القارىء بالمطالعة مستند الى الوثائق الاصلية سواء أكانت رسمية ام شبيهة بالرسمية فكان عليه ان يغربل شتى الحقائق المودعة في تقارير اللجان والوزارات ومحفوظات قصر عابدين ومحفوظات وزارة الخارجية بلندن وتنسيقها ولذلك يعتذر المؤلف عما يبدو في كتابه من وجوه النقص بتنوع الحقائق وتعارض بعضها والحدود التي رسمها لكتابه مما اقتضى منه الاختصار في غير قسم منهُ

الكتاب ستة فصول تملأ مع الذيول وثبت المراجع ٢٨٦ صفحة من القطع الوسط فالفصل الاول يحتوي على ملخص لتاريخ مصر الاقتصادي من الفتح الاسلامي الى اواخر القرن الثامن عشر والفصل نفسه مبوب تبويباً حسناً شأنه في ذلك شأن سائر الفصول . فبعد ان اوجز المؤلف تاريخ مصر (وقد اورد خطأ تاريخ الفتح الاسلامي فجعله ٦٣٩ م وهو ٦٤٠ م وتاريخ فتح السلطان سليم لمصر فجعله ١٤١٥م وهو ١٥١٧م) عالج حالة الزراعة في العقد الاخير من القرن الثامن عشر والمحصولات المختلفة كالقمح والذرة والشعير والرز والبصل والنيلة والتبغ وغيرها . اما القطن فقد قال فيه انه كان يزرع حينئذٍ في الوجهين القبلي والبحري زراعة واسعة النطاق وان القطن في الوجه القبلي كان يجنى من شجرة تعمر من ثماني سنوات الى عشر سنوات وانها في السنوات الثلاث الاولى من حياتها كانت تنتج ثلاثة قناطير في الفدان . ثم يقل محصولها وتهبط جودة قطنها . ثم عالج الصناعة في الحقبة نفسها من حيث تنظيمها من ناحية، ومن حيث تنوعها وانتشارها من ناحية اخرى . وكانت صناعة النسج اهم هذه الصناعات ففي صناعة نسج الصوف مثلاً كان اجود الصوف ينسج في الفيوم وكان القطن ينسج في اسنا وقوص وقنا وبني سويف والكتان في الدلتا

والفيوم وكان نسيجه يباع في الاسواق الاسبوعية في طنطا وسمنود وكان الحرير المستورد من سوريا ينسج في الدلتا ولاسيما المحلة الكبرى

على هذا النمط الطيب في التحقيق والتبويب عالج المؤلف موضوع التجارة والمواصلات في ذلك العهد ثم اتبع بهِ ما كان للحملة الفرنسية من التأثير الاقتصادي في مصر . قال : ان الحملة الفرنسية وجهت ضربة قاضية الى النظام الاقتصادي والسياسي القديم وفتحت البلاد لتيار المؤثرات الخارجية بعد ان قضت البلاد اربعة قرون وهي في عزلة عن نمو الحضارة والثقافة في العالم الغربي

وعند المؤلف ان البواعث على الحملة الفرنسية اقتصادية وسياسية معاً ولكنهُ اهمل الاهمال من حسابهِ العامل الشخصي ايضاً وهو مطامح بونابرت القائد الذي احرز الانتصارات العظيمة في شمال ايطاليا في اواخر القرن الثاني عشر وعاد الى باريس وهو يأبى ان يغدو فيها نسياً منسياً

الفصل الخاص بحالة البلاد الاقتصادية وتقدمها في عهد محمد علي اطول فصول الكتاب اذ يشمل ستين صفحة منهُ عالج فيها المؤلف احوال الزراعة والصناعة ونظم التجارة وملكية الاراضي في عهد مؤسس الاسرة العلوية . ومن الخيران نقول هنا — وقد نقلت الصحف من اسابيع نبأ عقد النية على بناء سفن الاسطول البحري المصري في مصر — ان ساكن الجنان محمد علي باشا بنى الاسطول المصري الثاني — بعد ما دمر معظم أسطوله الاول في معركة نفارين ١٨٢٧ — في الاسكندرية وان من السفن التي بناها سفناً كانت في الصف الاول بين سفن الأساطيل العالمية قطرَ مدافعَ واتقانَ صنعةٍ . بدأ بناء هذا الأسطول في يونيو من سنة ١٨٢٩ فما جاءت سنة ١٨٤٠ حتى كان الأسطول المصري أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط . أنشأ محمد علي الجيوش وبنى الأساطيل وحارب الحروب بغير ان يستدين مالاً من الخارج ولكن الذي خلفوه في الأريكة المصرية كانوا أقل حرصاً منهُ من هذه الناحية فامتدت يد المرابين الدوليين الى مصر مما جلب عليها الكوارث . والحديث في الفصل الثالث وهو الفصل الذي يتناول عهد عباس الاول وسعيد واسماعيل يجلو لك هذا الموضوع ولكنهُ لا يقتصر عليهِ . هنا حديث سكة الحديد الأولى في مصر في بدء النصف الثاني من القرن الماضي وقصة امتياز قناة السويس وشقها والاحتفال بافتتاحها وأعمال الري المختلفة وزيادة الاراضي الصالحة للزراعة وارتفاع قيمة الصادر من البلاد واتساع شبكة المواصلات الحديدية وانشاء خطوط التلغراف (أنشيء الخط التلغرافي الاول سنة ١٨٥٤ بين القاهرة والاسكندرية)

ثم كانت ثورة عرابي وعهد الاحتلال . واذا صرفنا النظر عن نواحي الحياة السياسية في عهد الاحتلال الى مستهل الحرب العامة ، وحصرناه في الحياة الاقتصادية رأينا تقدماً مطرداً وقف عليهِ المؤلف فصله الرابع وجعل عنوانه « السدود والقناطر » وهو عنوان موافق لأن

صور فريق من الضباط الاميركيين

في الجيش المصري في عهد اسماعيل باشا

وهي مهداة من الجمعية الجغرافية الملكية



بردي باشا



محمد رءوف باشا



الكولونيل شاييه لونج بك



الجنرال ستون



الكولونيل كولستون



الكولونيل براوت

حديث التقدم في حياة مصر الاقتصادية فيما بين ١٨٨٠—١٩١٤ انما هو حديث توسيع مرافق البلاد الزراعية من الري الصيفي او ري الاحواض الى الري المستديم. وكذلك زادت محصولات البلاد الزراعية ولا سيما محصول القطن . وارتفع مقدار الصادر من البلاد ارتفاعاً كبير الشأن. هنا حديث تقوية القناطر الخيرية وجعلها صالحة للسيطرة على ري الوجه البحري وبناء خزان اسوان وخزان أسيوط وقناطر اسنا فزادت مساحة الاراضي الصالحة للزراعة من ١٧٨ر٧٦٢ر٤ فدان في سنة ١٧٨٩ الى ٤١٢ر٧١٢ر٧ في سنة ١٩١٣

ثم عالج المؤلف موضوع الصرف والسكان (زاد السكان من نحو ٧ ملايين سنة ١٨٨٠ الى أكثر من ١٢ مليوناً سنة ١٩١٤) وتوزيع زراعة المحصولات وارتقاء التجارة الخارجية (زاد قيمة الصادر من نحو ١٣ مليوناً سنة ١٨٨٠ الى نحو ٣٢ مليوناً في سنة ١٩١٤) والأموال الأجنبية المثمرة في البلاد ، معالجة سداها التحقيق والاحصاء ولحمتها البيان الواضح وحسن التبويب

وعقب على هذه الفصول بفصلين في حالة مصر الاقتصادية في خلال الحرب الكبرى ثم في العشرين سنة التي انقضت على انتهائها وختم كتابه بفصل موجز في الاتجاهات العامة الخاصة بالسكان وانتشار الصناعة ومشروعات الري الكبيرة وألحق به ذيولاً فيها جداول احصائية عظيمة الفائدة

٤ — ضباط اميركيون في الجيش المصري (١)

كانت اهم اقسام هيئة اركان حرب الجيش المصري — القسم الجغرافي — وكان اول ما اضطلع به استكشاف الصحارى المصرية. ففي عام ١٨٧٠ قام الكولونيل بوردي على رأس نخبة من الضباط المصريين لاستكشاف المنطقة الصحراوية بين النيل والبحر الاحمر . وقد استغرقت اعمال هذه البعثة عاماً عادت بعده بحقائق وافية . ورسمت الطرق الصالحة لمرور القوات . وفي عام ١٨٧٣ قام الكولونيل المذكور ببعثته الثانية الى ميناء برنيقة عن طريق البحر الاحمر . والتقى مع بعثة الكولونيل كولستون الى الميناء المذكور عن طريق قنا . ثم اشتركت البعثتان في كشف البقاع التي بين برنيقة وبربر . وفي عام ١٨٧٤ قامت ثلاث بعثات هامة باشراف هيئة اركان الحرب . الاولى — بعثة الكولونيل بوردي في دارفور . وقد تكلم عن اعمالها ، القاضي كرابيتس في الفصل الخامس من الكتاب . الثانية — بعثة الكولونيل كولستون في كوردفان . وقد وصف أعمالها في الفصلين السابع والثامن . الثالثة — بعثة المهندس ميشيل للقيام بأعمال جيولوجية في المنطقة بين النيل والبحر الاحمر . وهنا نلاحظ ان القاضي العادل كرابيتس لم يذكر اسماً واحداً من الضباط المصريين الذين زاملوا رؤساء البعثات الثلاث السابقة مع ان أسماءهم تحتوي

(١) Americans in the Egyptian Army. By Pierre Crabitès راجع القسم الاول من هذا البحث في مقتطف يناير سنة ١٩٣٩

عليها المصادر التي استقى منها القاضي كل معلوماته . فهل أراد القاضي كرابيتس ان يكون أميركيًّا فقط فلا يذكر اسماً مصريًّا إلا فيما ندر لكي يطابق بحثهُ اسم الكتاب ؟

لقد كان حريًّا بالقاضي كرابيتس ان يذكر أسماء ضباط البعثة الأولى من المصريين الذين زاملوا الكولونيل بوردي هكذا : الملازمون الأوَل محمود صبري ومحمد سامي وسعيد نصر والملازم الثاني خليل حلمي والطبيب محمد أمين والاثنا عشر صف ضابط وجندي من قوة أركان الحرب . وللكولونيل ميسون بحث لخص فيهِ أعمال هذه البعثة

واشترك في البعثة الثانية مع الكولونيل كولستون — وكان قدعين في المدرسة الحربية لتدريس الجيولوجيا — الملازمون الأول عمر رشدي ومحمد ماهر وأحمد حمدي ويوسف حلمي وخليل فوزي وأربعة ضباط آخرون. ووصلت هذه البعثة الى مدينة الأبيض في ١٢ يونيو ١٨٧٥. وفي هذه الرحلة أصيب الكولونيل كولستون بمرض شديد . فعهد بقيادة البعثة الى الميجور بروت (Major Prout) الذي قام بمهمته خير قيام . وكتب تقريراً فخماً عن بعثته

أما البعثة الثالثة ففيها اصطحب المهندس ميشيل،الضابطَ عبد الفتاح حلمي . وكان غرض البعثة كشف المعادن بين النيل والبحر الاحمر . وقد كشف مناجم الذهب في الحمامات شمالي قنا . ثم عرجت الى ثغور البحر الاحمر وخليج عدن كالقصير ومصوع تاجورة وزيلع . وأوغلت في الداخل ثم عادت الى مصوع . وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

وقد ذكر القاضي كرابيتس (ص ٥١ من كتابهِ النفيس) ان الجنرال ستون رفع في ٢٥ سبتمبر عام ١٨٧٥ تقريراً الى الخديو اشتمل على دراسة فنية عن كيفية استخدام ترع الري كجزء من مشروعات الدفاع الداخلية والانتفاع بالمواد الطينية التي تزال من الترع عند تطهيرها وذلك بعمل جسور يمكن الاستفادة بها في وقت الحاجة

وفي ١١ نوفمبر ١٨٧١ رفع الجنرال تقريراً اتبعه بآخر في ٢٨ سبتمبر ١٨٧٣ أشار فيهما الى حرب الغواصات واقتراحه إنشاء سلاح للغواصات والانتفاع بالطوربيد. ولم يفت المؤلف ان يذكر لنا شيئاً عن الضيق المالي الذي وقع فيه الجنرال ستون وهو يجد في ابحاثه العسكرية في مصر . فقد تسلَّم الجنرال بواسطة قنصل أميركا بالقاهرة دعوة رفعها عليه الكولونيل أليسون طالبهُ فيها بما عليهِ من بعض المال،وقد أورد لنا فقرة من الخطاب الذي كتبهُ ستون باشا للقنصل يعد فيهِ بدفع المبلغ مع ضآلة مرتبهِ الذي لا يكاد يكفيهِ

وتضمن الفصل التاسع الحديث عن وصول غوردن الى مصر بعد استقالة السير « صمويل باكر » من خدمة الحكومة المصرية واختيار الليفتننت كولونيل شاييه لونج للخدمة معهُ في مديرية خط الاستواء لمحاربة تجارة الرقيق في أقاليم أعالي النيل وتعزيز سلطة الحكومة المصرية . ثم

وصف في الفصلين العاشر والحادي عشر كيف وطّد شاييه لونج صلاته بالملك « متيثا » وسفره فيما بعد الى اوغنده وقصته الطويلة في توطيد علاقة مصر في تلك البلاد والحملات التأديبية التي قادها لاخضاع الوطنيين والنتائج التي أفضى اليها تولي غوردن حكم تلك المناطق . وكان من أهمها رسم خارطة النيل الأبيض من الخرطوم الى الرجاف والاضرار بتجارة النخاسة وسيادة السلام حوالي غندكرو وتشييد مراكز للحكومة في تلك الانحاء مع تنظيم المواصلات بين النقط البعيدة وأهم من كل ذلك اكتشاف شاييه لونج لبحيرة ابراهيم

وفي الفصول التالية يصف القاضي كرابيتس ، بالتفصيل المقابلات والأحاديث التي كانت تدور بين شاييه وغوردن وحذرهما المتبادل مما اقتبسهُ المؤلف من كتابات الضابط الاميركي وجريدة اركان الحزب الجيش المصري ونشرة الجمعية الجغرافية . وفيما كتبهُ الجنرال ستون في تقرير معروف لهُ قدَّمه لأعضاء الجمعية الجغرافية في ٨ ديسمبر عام ١٨٨٢ . ونجد الآن من حسن الحظ تفصيلات هذه الحوادث في كتاب « تاريخ مديرية خط الاستواء » الذي أخرجهُ سمو الأمير الجليل عمر طوسون

وفي الفصلين الرابع عشر والخامس عشر يصف القاضي كرابيتس المعارك الذي اشتبك فيها شاييه لونج مع الاونيوريين والينباريين. وتجريدة مكراكا بنيام نيام (٣٠ يناير — ١٤ مارس) ووصولها الى مدينة لادو في ١٤ مارس وكيف استقبله استقبالاً عسكريًّا قائد المحطة الضابط المصري البكباشي علي لطفي . وكان شاييه لونج في ذلك الحين قد تسلَّم خطاباً ورد اليهِ من غوردن وفيهِ رضاء الخديو عنه ومنحه رتبة الاميرالاي . ونحن ننشر هذا الخطاب تسجيلاً للدور الكبير الذي لعبهُ هذا الضابط الاميركي في سبيل مصر

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية مكتب الناظر

يا حضرة الأميرالاي

لقد تعطف سمو الخديو وأراد ان يظهر للقائمقام لونج التفاته وحسن رضاه نظراً لما ابداه من حسن السلوك والاقدام والثبات في الموقعتين اللتين حدثتا عند مرولي بالقرب من خط الاستواء فمنحهُ رتبة الاميرالاي مع النيشان المجيدي وتجدون مع هذا الفيرمان الصادر بذلك فارجوكم ان تسلموه لأمير الآلاي لونج بك وتقدموا له في الوقت ذاته من قبلي التهانيء

وتفضل يا حضرة الميرالاي بقبول تمنياتي الطيبة امضاء حسين كامل

ثم يصف لنا القاضي وصول شاييه لونج الى محطة العاصمة وامتطائه حماراً الى الفندق « نيوجراند هوتيل » وكان أرقى فنادق القاهرة . وبلغ الخديو خبر قدومهِ غداة اليوم الذي وصل فيهِ .

فأرسل يقول لهُ انهُ مستعد لمقابلتهِ في الحال بقصر عابدين . وعند ما أدخل عليهِ تقدم نحوه وصافحهُ وشكرله بعبارات مؤثرة الخدمات التي أداها في افريقية الوسطى(١)

وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاهُ مرة اخرى الى قصر النيل حيث كان الخديو يحيط بهِ وزراؤه وكبار موظفي البلاط وضباط الجيش . فقابله بالايناس والبشر والمجاملة وانتهز شاييه لونج هذه الفرصة لتقديم مجموعة الأسلاب والغنائم التي رجع بها من حملاته

وفي ٣٠ مايو ارسل الخديو يستدعيه مرة ثالثة الى قصر النيل حيث اجتمع عدد كبير من الموظفين ملكيين وعسكريين والجنديان السودانيان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوي اللذان أُمرا بمرافقته . وقد ألقى الخديو خطبة حافلة بعبارات فصيحة مؤثرة ردد فيها عبارات المدح والثناء على ما أبدوه من الاخلاص والبسالة في واقعة مرولي

وقد اورد القاضي في الفصل السابع عشر حوادث الحملة المصرية في بلاد الحبشة واشتراك الضباط الاميركيين فيها . ووصف أهم العوامل التي أدت الى الهزيمة المنكرة التي مني بها الجيش في تلك البلاد . وكانت تلك الحملة بقيادة راتب باشا ورئيس هيئة اركان حربهِ الكولونيل داي ومعهُ الكولونيل شارلز فيلد وزملاؤهُ دريك ولوش ولامسون وغيرهم . ثم وصف كرابيتس في الفصل التالي الاعمال الطبوغرافية التي قام بها الأميرالاي لوكيت والمهندس ميشيل ثم أتمها فيما بعد ضباط مصريون وكانت أهم أعمال هذا الضابط اشرافه على رسم خارطة افريقية مبيناً عليها جميع الاستكشافات المصرية . وهذه الخارطة النفيسة ما زالت الى اليوم في مكتبة قصر عابدين العامر

وقد خصص المؤلف الفصلين التاسع عشر والعشرين لوصف اعمال الليفتنت كولونيل اسكندر ماسون وأهمها كشفه لنهر السمليكي عقب رحلته في ١٤ يونيو عام ١٨٧٧ على ظهر الباخرة نيانزا وللمهمة التي عهد بها الخديو اسماعيل الى الكولونيل « جريفز » Col. Graves والقائمقام محمد مختار وهي ارتياد شواطىء الصومال لاختيار موقع يقام عليه فنار لارشاد السفن . نخطّط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردفوي

وفي الفصول الثلاثة الختامية للكتاب لخص الكاتب اهم اعمال الضباط الاميركيين الباقية وحوادث مصر في عهد اسماعيل وتوفيق الى انتهاء خدمة اعضاء البعثة وسفر رئيسها الجنرال ستون عقب الاحتلال البريطاني بعد ما ادوا خدمة سامية لمصر ولجيشها

لقد كنا ننتظر صدور مثل هذا الكتاب منذ زمان بعيد . الى ان أتيح للقاضي الاميركي بيير كرابيتس تحقيق امنية طالما سعينا الى تحقيقها . فنحن نهنئه ونشكره لأنهُ اتاح لنا مطالعة صفحات مجيدة من تاريخ مصر

عبد الرحمن زكي

(١) راجع تاريخ مديرية خط الاستواء لسمو الامير الجليل عمر طوسون ص ٢١٨ — ٢٢٠

حديقة المقتطف

الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

لالياس ابي شبكة

—

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني



في سورية ولبنان

قال احد الكتّاب وأظنه لوسيان ديكاف ان الكتب ، والقصص منها بوجه خاص ، « تتقدم في السن » كمؤلفيها . فمنها ما يموت في شبابه لا يتجاوز الحداثة الاّ قليلاً ، ومنها — وهو قليل — ما يبلغ الكهولة ، على ان صحته لا تلبث ان تسوء فتشيع القلق على حياته

وهذا صحيح ، واكثر ما ينطبق على أدب هذا العصر سواء في الشرق أو الغرب . فمعظم ما ينتجهُ الأدب في هذا العصر مموّه بزخارف لا توائم طبيعة الأدب وليس الجمال في التزيّد والاسراف بالزخرف بل هو في بساطة الأداء والصدق ، شعراً كان أم كان نثراً ، والبساطة هي أمُّ الجمال وهي أظهر مزايا النبوغ ، فعظماء الفنّيين في العالم على تباين نزعاتهم لم يكتفوا يوماً ببساطة ما أنتجوه فهم يريدون دائماً أن يكون عملهم اكثر بساطة مما هو ، ليتفق وعاطفة الحقيقة والشعور الطبيعي

وليست البساطة نقيض الذكاء بل هي نقيض التكلف ، والتكلف رهن الزوال السريع لأنهُ لا يصدر عن الطبيعة ، وكل ما يصدر عن الطبيعة بسيط لأن الطبيعة لا تتكلف ما ليس في طاقتها . وما دامت الطبيعة امّ الحياة فكل ما لا يصدر عن الطبيعة يموت

ومن مزايا الطبيعة أنها لا تقلد ، فهي صورة عن نفسها . فالشعر الجاهلي ما عاش الى يومنا هذا الاّ لانهُ صادق يعبّر عن روح العصر الجاهلي ببساطة ذلك العصر ، وليست قيمة هذا الشعر إلاّ في بساطتهِ الرائعة ، في صدقه الصارخ . وما نقوله عن الشعر الجاهلي نقولهُ عن الشعر في صدر الاسلام وفي الاعصر العباسية الزاهرة . فعمر بن ابي ربيعه لم يخلد في شعره إلاّ لأن شعره صورة عن نفسهِ ولأنهُ هو صورة جريئة لعصره

ولا بدَّ لي بهذه المناسبة أن أعرض لرأي أبداه الاستاذ احمد امين في جريدة الجمهور البيروتية . فقد قال حضرته مفسّراً ظاهرة ضعف الشعر في العالم « ان العالم الآن طغت عليه المادية وكل ما يتعلق بها من علم وسياسة ونحو ذلك ، والمادية

عدو الخيال ولا شعر الاّ بخيال ، ويتصل بذلك ان الشعر يكثر ويغزر قبل ان يكتمل عقل الأمة كما كان الشأن عند العرب في الجاهلية وعند اليونان فاذا تقدمت الأمة في الرقي حلّ المحل الاول عندها الفلسفة والادب النثري ، فالعالم الآن لما تقدم لم يعد للشعر منزلته الاُولى وحلّ محله شيئاً فشيئاً نثر العقل وفلسفة العقل»

فلقد كان يجمل بالكاتب قبل ان يرسل هذا الرأي أن يعرض عصور التاريخ فلو انهُ فعل ذلك لوجد ان ازهرها كانت الاعصر التي ازدهر فيها الشعر على الخصوص . ففي عصر اغسطس الذي كان اجد عصور التاريخ الروماني وضع الشعر تلك الروائع التي تنم على عبقرية اللاتين وقد اقترنت باسماء هوراس وفرجيل واوفيد وغيرهم ، وما نقوله عن عصر اغسطس نقوله عن الاعصر العباسية وعصر لويس الرابع عشر في فرنسا وعصر فيكتوريا في انكلترا ، ولا يسمح لنا المقام هنا بالاسهاب في هذا الموضوع الذي لا يقبل جدلاً ، وكل ما نقوله ان العصور التي سادها اغسطس وهرون العباسي ولويس الرابع عشر وفيكتوريا، لم يكن عقل الامم فيها أقلّ اكتمالاً منهُ في عصر موسوليني وهتلر . وربما كان السبب الاصح في ضعف الشعر في العالم هذا القلق المستحوذ عليهِ ، فالشعر لا يزدهر الاّ في عصور الطمأنينة والرخاء ، والطمأنينة والرخاء لم يعرفهما العالم منذ خمس وعشرين سنة إلاّ في الفترة القصيرة التي عقبت الحرب الكبرى . هذا الى ان الشطر الاكبر من الجهد الانساني ينصرف في الازمنة القلقة الى حل مشاكل هذه الازمنة . وهذه المشاكل لا يحلها الشعر بل السياسة . لذلك تحول جهد الكتّاب في هذا الزمن الى معالجة شؤون العصر توصلاً الى الرخاء والطمأنينة المنشودين اللذين يساعدان الامم على تنمية عقلها . . . فكان أن طغت الأبحاث المادية العقلية على الشعر الذي يتصل مباشرةً بالروح . وأكبر الظن ان الأحداث السياسية التي خبطت مصر وسوريا في الحقبة الاخيرة حولت الاتجاه الادبي فيهما عن الشعر الى الشؤون العقلية البحتة فضعفت الناحية الشعرية في هذين البلدين اكثر مما ضعفت في لبنان الذي لم يصرفه حدث سياسي خطير عما فطر عليه ولامشاحة في ان الشعر ينشأ مع الامة ويسايرها في رقيها ، وهو مرآة الامة وعنوان ازدهارها ، على انهُ قد يهادن في المعضلات الاجتماعية الخطيرة ليفسح السبيل الى الانصراف لحل هذه المعضلات

قلت في المقال السابق الذي جعلته توطئة للفصول المقبلة في الحركة الادبية بسوريا ولبنان ان هذين البلدين لا يملكان من الصحف الادبية الاَّ عدداً قليلاً وأقول اليوم ان هذه الحركة لا تظهر في هذه الصحف وحدها بل في الصحف السياسية ايضاً ، فقد لا تخلو صحيفة يومية من صفحة ادبية في كل اسبوع ، وهذه الصفحة تخص بجانب كبير من العناية ، وقد لا اخطيء اذا قلت انها ارقى صفحة ادبية في الشرق العربي . واحصر كلامي هذا في الصحف اليومية . أما الجمعيات الأدبية فما تزال محاولات لا تعيش عمراً أطول من عمر وردة « دوبرييه » Dupérier أي مدى صباح واحد . وأول جمعية فكر رجال الأدب في تأليفها هي « الجامعة الأدبية » التي عاشت سنة ونصف سنة ولم تثمر إلاَّ مرةً واحدة عندما منحت جائزتها وقدرها مائتا ليرة للشاعر سعيد عقل مكافأةً لهُ على إصداره مسرحيته الشعرية الرائعة « بنت يفتاح » في العام ١٩٣٣ ولدت هذه الجمعية في دار الشاعر شارل القرم وبقيت سنة ونصف سنة تعقد اجتماعات أسبوعية تمهيدية تارة في دار الاستاذ شارل القرم وطوراً في دار رئيستها السيدة الأدبية افلين بسترس حتى انحلت من تلقائها

وفي تلك الاثناء أنشأ بضعة من الادباء والناشئين جمعية باسم « ندوة الاثنى عشر » لا تزال الى يومنا هذا ماضية في النشاط ، وقد أصدر أعضاؤها عدة مؤلفات آخرها « يوميات ميشال سرور » للاستاذ ميشال الاسمر . ويقول الاستاذ فؤاد حداد ، أحد أعضاء هذه الندوة ، إن « يوميات ميشال سرور قصة مستحدثة الاسلوب في العربية ، لكل ما يستوحى من الآداب الاجنبية — هي مجموعة ذكريات وعواطف وأفكار وتصورات ، تعطيك أجزاء خطوط تتمثل فيها شخصية فتىً نزوع للادب وطموح لان يمتليء من الحياة . يصطدم في قريته وبيته بمن لا يفهمه فيهجر محيطه الى حيث يضيع بين مجموع يدعه يعيش على هواه ، فينصرف الى تذوق أحاسيس الدنيا ، محصورة بعاطفة الحب حتى يعرف أخيراً اللذة الكبرى ، بعد كبت طويل ، والحبَّ الامثل ، بقرب فتاة لقي فيها مجموعاً ما كان يتمثله من كمال في المرأة . ولكن الفتاة مصدورة فتموت ويموت معها جنين في احشائها ، بعد ان رجت من الحبيب الذي أدركت مطامحه الادبية ان يستمد من حياتهما القصيرة المشتركة مادة لقصة يخلدان بها ولم يسعدا بالخلود في الكائن الحيّ عصارة

روحيهما ومزيج قلبيهما . » . وفي الشهر الفائت أسس رهط من الادباء « نادي القلم » وعقد حتى الآن عدة اجتماعات تمهيدية برآسة الشاعر الدكتور نقولا فياض

أما دمشق فليس فيها جمعيات أدبية سوى المجمع العلمي ، وجلسات الادب تعقد فيها تارة بمقهى العباسية وطوراً بمقهى الكمال ، ولكن هذه الجلسات سرعان ما يتحول البحث فيها الى السياسة ، والسياسة شاغلة الشام اليوم . ولم يكن في دمشق حتى الشهر الأسبق جريدة تعنى عناية خاصة بشؤون الادب الى أن نشط الاستاذان يوسف العيسى ، صاحب جريدة « الف باء » ، وايليا شاغوري الى اصدار جريدة اسبوعية باسم « الاحد » أخذت على عاتقها سدّ هذا الفراغ في العاصمة السورية . على ان الانتاج الادبي في المطابع عامة ضئيل في سوريا فالجهود مبذولة فيها لتسوية المعضلات السياسية . وقد لا أُخطئ اذا قلت ان المطابع السورية لم تصدر في الاشهر الاخيرة كتاباً جريئاً بالاهتمام ، خلافاً للامر في لبنان ، فقد أُصدرت بمطابع بيروت في شهر دسمبر خمسة كتب هي : « ديوان ابن الساعاتي » للاستاذ انيس المقدسي ، و « هل يخفى القمر » أو قصة عمر بن ابي ربيعة للاستاذ رئيف خوري و « نحن في افريقية » ، للاستاذ كامل مروة ، و « قوة الارادة » للامير يوسف أبي اللمع ، و « يوميات ميشال سرور » للاستاذ ميشال الاسمر . وقد شرع الاستاذ توفيق يوسف عواد بطبع قصته الطويلة « الرغيف » وستظهر في مطلع الشهر المقبل

قال الاستاذ رئيف خوري في المقدمة القصيرة التي وضعها لكتابه عن عمر بن أبي ربيعة : ينبغي للادب ان يعلمنا شيئين : الفرح بالحياة وبناء عالم مفرح . وهذا السفر لا يعلمنا بناء العالم المفرح ، وإنما هو يعيننا على استمراء شيء من الفرح . وأقصى أملي أن يكون نزهة مريحة الاعصاب ، ومجددة القابلية للكفاح في سبيل بناء العالم المفرح » . وقد استهل المؤلف قصته — ولنسمّ كتابه قصة ، فهو من نوع التاريخ المموّه أو ما يسميه الفرنجة (histoire romancée) بنبذة تاريخية عن العصر الذي ربي فيه عمر وشبّ وترعرع فجاءنا بصورة بارزة عن انغماس هذا العصر في حياة النعيم والتماسه العيش المرفه خلص منها الى ايراد الاسباب التي وطّدت أركان الحضارة الاريستوقراطية وافسحت السبيل الى ايثار بعض على بعض وانفتاح ذلك « الخليج العظيم » بين طبقات العرب ، هذا الخليج الذي كان يسير الشأن في

عهد الخليفة عمر بن الخطاب الحريص على «روح المساواة الفطرية التي سقى بذورها الاسلام الخالص» فاتسع في عهد عثمان بن عفان ، الخليفة « الرخو الدمث الاخلاق » وبقي كذلك في زمن معاوية

والاستاذ رئيف خوري معروف بنزعته الديمقراطية الخالصة فهو لا يطرق موضوعاً إلاَّ تكون المبادىء الديمقراطية الانسانية سداه ولحمته

ومن الأدلة على نشاط الحركة الادبية في لبنان مساهمة الدوائر الرسمية والمؤسسات العلمية فيها ، فقد ارصدت وزارة المعارف في ميزانيتها خمسماية ليرة لتنشيط الادب توزعها كل سنة على المؤلفين ، ووضع المجلس البلدي في بيروت جائزة قدرها مائتا ليرة للغاية نفسها ، وفي السنة الفائتة قررت مدرسة الحكمة في العاصمة اللبنانية منح جائزة سنوية قدرها مائتا ليرة لافضل كتاب نثري او شعري يصدر خلال السنة . كما أن جريدة « المكشوف »توزع كل سنة عدة جوائز مالية لتنشيط القصة والشعر ، وقد أعطت هذه البادرة ثمرتها الطيبة . اما محطة الاذاعة فلا تزال ميزانيتها ضعيفة ، ولكنها لا تتورع عن تأدية قسطها للحركة الفكرية في سوريا ولبنان ، ففي كل اسبوع تدعو خطيباً لاذاعة محاضرة أو قصة ، وقد خصصت للمحاضرة خمس عشرة ليرة وللقصة عشر ليرات

وللحركة الأدبية ميدانها المجدي في المعاهد العلمية الكبرى كالجامعة الاميركية ومعهد الحكمة ومدرسة المقاصد الخيرية ومدرسة القديس يوسف اليسوعية وغيرها فلا ينبغ أديب إلاَّ تتعرَّف اليه منابر هذه المعاهد ، ولا يزور أديب لبنان الاَّ نسمع صوته من أحد هذه المنابر . وفي كل سنة تنظم الجامعة الاميركية سلسلة محاضرات في الادب والاجتماع تعهد بها الى صفوة رجال الفكر في البلاد

اما الحركة الشعرية فقد خفتت في الشهرين الفائتين فلم تنشر الصحف ولو قصيدة غزلية . وهذا «حدث» لا عهد للبنان بمثله ... ومما يدعو الى الدهشة ان جريدة «الجمهور» الاسبوعية أرادت اصدار جزء شعري من الدفة الى الدفة فجمعت طائفة من القصائد لثلاثين شاعراً لم نقع فيها على قصيدة جديدة . ولكنها غمة عارضة باذن الله ... ومهما يكن فقد جاء جزء «الجمهور» ديواناً او معرضاً للالوان الشعرية في لبنان وفي سوريا ايضاً

بيروت ١٠ فبراير الياس ابو شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين لهُ في الهند

—٢—

والامير الهندي الوثني الآخر الذي برع في بلاط الملك جلال الدين اكبر في فنون الشعر بالفارسية هو « راجا بهوبت رائي سوائي » واسمهُ الرمزي في الشعر « بيغم » (١) . فقد ذكر لنا الأستاذ امير بيك المتوفى سنة ١٢١١ هجرية في كتابه « حدائق الشعراء » الذي نسختهُ الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الاسيوية بكلكته (الهند) بيتاً واحداً له يدل على حذقه الشعر الفارسي الغنائي . واليك ترجمته قال

في غيابكِ ياراحة قلبي ! ان في ليالي هجركِ
يئنُّ « بيغم » انيناً ضائعَ القلبِ ومنهمرَ الدموعِ

على ان مرور الزمن قرر على هؤلاءِ الهنود أمره ، فدعا إلى الفارسية وادبها قلوبهم ، وشغل بها خواطرهم وفكرهم ، فتصدَّى لدراستها عدد جمٌّ منهم في الحكومات التي تلت حكومة جلال الدين اكبر ، فأصبح حظهم منها اوفر ، حيث برزت شخصية « شندربهانِ » الشهير باسمهِ الرمزي الشعري « برهمن » في عالم العلم والادب ، فنالت محلاً جليلاً ومنزلةً عليا في قلوب معاصريها من علماء اللغة الفارسية وادابها وشعرائها

كان والد « شندربهان » هذا خطاطاً عظيماً وموظفاً لدى الحكومة المغولية فتسنى لهُ ان يصرف عنايته ويبذل جهده في تربية ابنه وتعليمه . فاخذ « شندربهان » العلوم العربية والفارسية عن اكبر العلماء في عصره وأوحد زمانه بلا نزاع وهو العالم العلامة الفيلسوف عبد الحكيم السيالكوتي رحمة الله عليه ، فبرع فيها وتبحر

---

(١) من العادة في الادب الفارسي والادب الهندي ان الشاعر يختار لنفسه اسماً رمزياً غير اسمه الحقيقي فيستعمل هذا الاسم في شعره ويشتهر بهذا الاسم في عالم الشعر والادب

حتى استوقفت بسطتهُ في العلم وقدرته بالفارسية نظر سمو الأمير «داراشكوه»[(١)] ابن الملك شهاب الدين شاه جهان[(٢)] وهو أكثر الأمراء نصرة للعلوم والفنون وأوفرهم تضلعاً منها وأوفاهم تقديراً لها في تاريخ الهند الاسلامي ، فعينهُ كاتم سره الخاص . فترعرعت كفاءة الشاب العالم الشاعر « شندربهان » ولمع نبوغه هكذا في حضن رعاية الامير وتقديره ، حيث صنف كتابه النفيس «جهارجمن» (أي الحدائق الاربع) في انشاء الادب الفارسي وأسلوبهِ . ومهما تكن قيمة « جهارجمن » هذا من وجهة النقد في العصر الحاضر ، فما لا شك فيهِ انهُ أصبح فيما بعد لحقب من الزمن سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع من الكاتب والمنشيء في أحسن الأساليب الفارسية المألوفة حينئذٍ في الهند . فكان كتابَ الطالب والمعلم في المكاتب والمدارس في جنب كتاب الانشاء للعالم الوزير الشهير الآنف الذكر « أبوالفضل » لأجيال كثيرة

كان «شندربهان» شاعراً مفلقاً بالفارسية يعد ديوانه مثالاً في الشعر المطبوع عند أوساط الادب والشعر . وله حكاية طريفة وهي ان الامير « داراشكوه » حين قدمهُ أول مرة الى أبيهِ الملك شاه جهان ورجال حاشيته حوله طلب الملك ان يسمعهُ شيئاً من شعره فقرأ الشاعر بيتاً ترجمتهُ فيما يلي :

إن قلبي يحب الكفر (الى درجة) انني
حملتهُ مراراً الى الكعبة ولكنهُ رجع معي وهو برهمن[(٣)]

فاغتاظ الملك لما في معنى البيت من طعن خفي في الاسلام وهو دين الحكومة وبخاصة في ذلك العهد إذ كان للدين كل الشأن وكاد ان يذهب الشاعر ضحية سوء أدبه هذا ، لولم يتقدم « أفضل خان » أحد كبار رجال الحاشية وينهي الحكاية بقراءة بيت للشاعر الفارسي الشهير « سعدي » . وترجمة البيت كما يلي :

إن حمار سيدنا عيسى لو ذهب الى مكة ورجع
فلا يفتأ حماراً .

---

(١) كان هذا الامير عالماً شاعراً صوفياً خطاطاً رساماً ولد في سنة ١٠٢٥ هجرية ومات قتيلا في سنة ١٠٦٩ هجرية بيد أخيه عالمكير

(٢) تولى الامر من سنة ١٠٣٧ الى سنة ١٠٦٩ هجرية (٣) أي كافر

وغزل « شندربهان » من فيض الخاطر شعر غنائي بليغ يتصف بعضه بشيء من مسحة الافكار الصوفية ، شأن كل شاعر حاسر لثام ما في نفسه من الطموح الى المثل العالي في ذلك العهد. ونحن نزف اليك ترجمة بعض الأبيات منهُ فيما يلي. قال:

ما أشدَّ غفلتي إذ أسد سيل الدموع بالأهداب
أن الطوفان لا يمكن ان يُسَدَّ بحفنة من التبن
ان (الدم) يسيل من (جرح) كبدي فلا غرو
ان يصبح قميصي حديقة شقائق النعمان
ان عذارك في حركة دائمة
فكيف يطمئن قلبي ويسكن
إن طيفك زارني ليلة في الحلم فتسليت بهِ
ولم أفتح لذلك عيوني الباكية غداتها
أيها البرهمن[1] ! أنا أطلب منك الاتصال المباشر
فان الأدلة والبراهين لا يعتمد عليها

ان ما نال « شندربهان » من المنزلة العظيمة في بلاط الملوك ومجالس الامراء واندية الأدب ومسامرة الشعراء لكفاءته وجدارته بالادب الفارسي وشعره حدا اكثرية الهنود الوثنيين على اتقان الفارسية والتضلع من فنونها . ولم يكن الاقبال عليها محصوراً بين اهالي المدن والمقاطعات القريبة من دهلي — حاضرة الامبراطورية الهندية حينئذٍ — بل مهر فيها غير واحد منهم مسجلين آثارهم على صفحات تاريخ الادب الفارسي حتى من اقصى المقاطعات الهندية مثل بنجال . ففي بنجال كما ذكره العالم المؤرخ شاه نوازخان في كتابه « مآثر الامراء » ترعرع الشاعر الخطاط « مئراداس » الذي خدم فن الخط والادب الفارسي خدمة لا يستهان بها في عهد الملك شاه جهان ومن نكد هذا الشاعر انه سجن في اواخر حياته لسوء فهم حدث بينهُ وبين حاكم مقاطعة بنجال « خان زمان » فكتب في السجن قصيدة هي

(١) برهمن اسم الشاعر الرمزي كما قلنا . ومعنى برهمن بالسنسكريتية عابد « برهما » (أي الله) ثم أطلقت كلمة برهمن أحياناً فيما بعد على « برهما » أيضاً على طريق المجاز . وهنا يريد الشاعر بالبرهمن الله وهو ايضاً اسمه الرمزي

آية بالفارسية براعةً وغاية في الشعر بلاغةً استعطف بها الملك وأرسلها بواسطة حكيم ركنا كاشي الى دهلي فأطلق سراحه على اثره

كان في نفس الزمن في الله آباد شاعر مجيد بالفارسية ان اشتهر باسمه الاسلامي محمد علي ولكنه وثني الأصل ، تربى عند فارسي علمهُ اللغة الفارسية ثم تبناه في الآخر . واسمه الرمزي الشعري «ماهر» . فهو استفاد في اوائل حياته من مجالس الشاعرين الكبيرين « قدسي » و « كليم » كان ثانيهما شاعر بلاط الملك شاه جهان . واتصل هو ايضاً بالامير « داراشكوه » فحل بهِ في ظل الجود المديد وآوى الى قصر التقدير المشيد ، فمنح لقب « مراد خان » . ولقد كان للشاعر « ماهر » هذا اليد الطولى في علوم الادب الفارسي وفنونه حيث نجد كبار علماء الفارسية في ذلك الحين مثل محمد افضل خان سركش صاحب الكتاب القيم في تراجم الشعراء الفارسيين من تلامذته

إن كانت غزوة الملك محيي الدين عالمكير اورنك زيب(١) للهند الجنوبية ، وهو الذي باشرها بنفسه زمناً طويلاً ثم فتحها ، حملت كثيراً من اهل العلم والأدب على الانتقال من دهلي — عاصمة الامبراطورية الهندية الى المعسكر الملكي في جنوب الهند ، غير انهُ لم تزل لدهلي جاذبية نزعت الى مؤانستها قلوب العلماء وحنت الى مناسمتها نفوس الادباء فهاجروا من بلادهم اليها . ومن هؤلاءِ المهاجرين العالم الصوفي الشاعر ميرزا عبد القادر بيدل الذي هجر بلدته عظيم آباد وتوطن دهلي . فتلقى عنهُ كثير من الناس في دهلي وتخرج عليهِ عدد كبير من أدباء الهنود الوثنيين وشعرائهم بالفارسية . منهم الذين برزوا في العلم وتركوا أثراً في الأدب والشعر الفارسي ، الشاعر (سيورام)(٢) « حياء » ، والشاعر (جوربخش) « حضورى » ، والشاعر (بندرابن داس) « خوشكو » ، والشاعر (سوخ راج) « سبقت » ، والشاعر (اندرام) « مخاص » . ومؤخر الذكر من الشهيرين في الأدب الفارسي . وفنونه في عصره . فقد ترجمهُ غلام علي آزاد البلغرامي في كتابه « خزانة عامرة » وانتقد شعره . ومما يؤسف له ان عوادي الزمن حالت دون وصول دواوينه الى ايدينا غير ما ذكر في كتب التراجم . وقد نوه بهِ ايضاً العالم المؤرخ الشاعر سراج

(١) تولى الامر من سنة ١٠٦٩ الى سنة ١١١٨ (٢) بين القوسين اسم الشاعر الحقيقي والذي بجنبه اسمه الرمزي الشعري

الدين خان آرزو في كتابه « مجمع النفائس » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الاسيوية بكلكته (الهند) فقال ما هو خلاصته :

« ان وفاء انندرام هو الذي حملني على الاقامة في دهلي . ففي الثلاثين سنة الاخيرة لم يحرمني وفائه وحُبّه الكامل . وفي اوائل شبابه تلقى عن « بيدل » وأخذ الاصلاح منهُ في قصائده ، ومن ذلك الزمن ظل رفيقاً وفيًّا له. وخلاصة القول هو في هذا العصر ممن يشار اليهم بالبنان في العلم والأدب والشعر »

وقد نقل لنا سراج الدين خان آرزو بيتين له يدلان على حذقه الشعر الفارسي. واليك ترجمتها قال :

ايها الحب ! لا تؤذِ مرة اخرى الضعيف مثلي
الغريبَ (في عالمك) المتألمَ وسائمَ الحياة
نحن لا نعرف أحوال العندليب المسكين
غير اننا رأينا حفنة العظام تحت الورد(١)

وما حاز (بندر ابن داس) خوشكو من تقدير العلماء والادباء لطول باعه في الادب الفارسي والشعر لم يكن اقل منزلة لما حازه غيره بين علماء الفارسية من الهنود الوثنيين. فهو تربى مثل غير واحد من معاصريه في مدرستي الاديبين الشاعرين ميرزا عبد القادر بيدل وسراج الدين خان آرزو ، وبلغ في الشعر والأدب الفارسي مبلغاً قل ان بلغه غيره حيث يفضل بعضهم كتابه « تذكرة » في تراجم الشعراء من بعض الوجوه على «مجمع النفائس» لاستاذه سراج الدين خان آرزو . وقد نقل لنا العالم الشاعر الوثني (لكشمي نراين) شفيق في كتابه « تذكرة جل رعنا » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الأسيوية بكلكته (الهند) شواهد كثيرة من شعره ، وروى لنا فيه ايضاً حكاية عن براعته في مجلس ادبي حين اعترض عليه في استعماله الاصطلاح الفارسي « داغ افتادن » (اي التبقع) كيف انهُ نال استحسان المجلس وتقديره على رده بسرعة الخاطر وغاية الظرف والبداهة المليحة بالاستشهاد من الشاعر الفارسي الكبير الذائع الصيت « صائب »

(لها تابع) السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

(١) من أساطير الادب الفارسي ان العندليب يعشق الورد . فمعنى البيت ان الورد أو عشقه أباد العندليب العاشق المسكين لذلك لم نجد الا عظامه تحت الورد

سير الزمان

المؤتمر الدولى

الثامن للعلوم التاريخية

ملخص طائفة من الرسائل النفيسة التي تليت فيه

عن تقرير مسهب وضعه الاستاذ محمد قاسم بك
عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر

السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية ومكانته التاريخية

الثورة الفرنسية واستقلال اليونان

أساس القومية الحديثة

المسألة الشرقية

الفلسفة النفعية وعلاقتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا

الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة

العوامل الثابتة في التاريخ

المؤتمر الدولي

الثامن للعلوم التاريخية(١)

ملخص طائفة من الرسائل النفيسة التي تليت فيه

عقد المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية في سويسرا في الأسبوع الواقع بين ٢٨ أغسطس و٤ سبتمبر سنة ١٩٣٨ لأسباب متعددة أهمها :

أولاً — الصراع السياسي القائم بين الدول الكبرى والرغبة الملحة في أن يعقد المؤتمر في جو تسوده الطمأنينة والهدوء. ثانياً — ما تتمتع به سويسرا من مظاهر الطبيعة التي تتجلى في صور منقطعة النظير . ثالثاً — حياتها الفكرية والسياسية التي ترتفع فوق عوامل الاضطراب الأوربي

٢ — ﴿ تنظيم المؤتمر ﴾ في وسط هذه البلاد التي تمتاز بحياتها الطبيعية والسياسية والفكرية عقد المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية وقد امتاز بالبساطة التامة في اعماله وحفلاته مما يصور الحياة السويسرية أكمل تصوير واشترك فيه ٤٨ دولة يمثلها ١٣٠٠ مندوب وكان أوفر الدول تمثيلاً المانيا ويمثلها ١٨٠ مندوباً وفرنسا ويمثلها ١١٠ مندوبين ، وايطاليا ويمثلها ٩٥ مندوباً ، وبريطانيا ويمثلها ٩٠ مندوباً بحيث كانت الصفة العامة للمؤتمر المانية ايطالية تمثل التعاون الوثيق بينهما في عالم الفكر كما هو ظاهر في عالم السياسة . وقد قسم المؤتمر خمسة عشر قسماً تتناول كافة نواحي الدراسة التاريخية على ماهو مبين بعد

(١) قسم ما قبل التاريخ (٢) قسم التاريخ القديم والآثار الكلاسيكية (٣) قسم المخطوطات التاريخية (٤) قسم العملة وتاريخها (٥) قسم العصور الوسطى وبيزانطه (٦) قسم التاريخ الحديث الى سنة ١٩١٤ (٧) قسم تاريخ الامم غير الاوربية (٨) قسم تاريخ الاديان (٩) قسم تاريخ القانون (١٠) قسم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (١١) قسم التاريخ الحربي (١٢) قسم تاريخ الفكر (الفلسفة والفنون والآداب) (١٣) قسم تاريخ العلوم (١٤) قسم طرق الدراسة التاريخية ونظرية التاريخ وتعليمه (١٥) قسم الكتابة التاريخية

---

(١) عن تقرير مسهب وضعه الاستاذ محمد قاسم بك عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر

وقد عرض في هذا المؤتمر ١٥٠ رسالة بينها رسالتان لمندوبين مصريين وقد استعرضت هذه الرسائل اهم الافكار والآراء السائدة في الدراسات التاريخية في العالم في نواحيها المختلفة ونظم العمل في جميع هذه الاقسام بالاشارات الكهربائية على لوحة تسمح للزائر بأن يدرك بنظرة واحدة الرسائل التي تلقى في شتى اقسام المؤتمر في وقت معين. وسنلخص اهم هذه الرسائل فيما يلي

— ١ —

السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية ومكانته التاريخية(١)

ان ما يعزى عادةً الى السلطان محمد الثاني من المقام التاريخي يحتاج الى إعادة البحث فيه فقد ارتفع هذا المقام عن الواقع في بعض النواحي كما انهُ انتقص في نواحٍ أخرى . مثل هذا الفاتح مثل غيره من ابطال التاريخ ، فقد عزي اليه انهُ بفتحهِ للقسطنطينية قضى على حكم الدولة الرومانية التي ظلت قائمة خمسة عشر قرناً وقضى على الكنيسة المسيحية التي سيطرت على العالم الشرقي اثني عشر قرناً ، كما انهُ قضى على الثقافة الاغريقية التي انتشرت في البحر المتوسط حوالى عشرين قرناً وبينما كان اتباع المسيح يطاردون المسلمين في شبه الجزيرة الاسبانية كان سلطان العثمانيين في الطرف الآخر من البحر المتوسط يبسط راية الاسلام في اوربا تلك الراية التي ظلت خافقة اربعة قرون وهو يعتبر بعد هذا اعظم مؤسس للامبراطورية العثمانية التي اخضعت مناطق واسعة في افريقيا وأوربا وهددت في القرنين السادس عشر والسابع عشر العالم المسيحي بأكمله . كذلك يعزى الى محمد الفاتح انهُ ارغم علماء الاغريق على الهجرة حاملين مخطوطاتهم الثمينة الى ايطاليا حيث انبثقت النهضة الاوربية بكل ما انطوت عليه من النتائج للمدنية من علم وفن واختراع . ويعزى اليهِ ايضاً انهُ اغلق طرق التجارة القديمة بين آسيا وأوربا فحمل خرستوفر كولمبوس وفاسكودي جاما على البحث عن طرق جديدة الى الشرق وبعبارة اخرى عزي اليهِ انهُ الباعث المباشر على الاستكشاف الجغرافي والتوسع الاوربي. فاذا صح هذا كله فان المكانة التي وضع فيها محمد الثاني يجب ان ترقى كثيراً بين ابطال التاريخ حتى ليوضع الى جانب الاسكندر الاكبر ونابليون . ولكن أكثر ما عزي اليهِ ليس في الواقع الاّ نتيجة تطورات تاريخية اقتضت قروناً وأجيالاً عدة . مثال ذلك حركة احياء العلوم وحركة الكشف الجغرافي . أما عظمة محمد الفاتح فترجع في الحقيقة الى إنشائهِ الامبراطورية العثمانية نفسها فاستيلاؤهُ على القسطنطينية أضاف الى سلطانه منطقة ذات شأن عظيم قائمة في وسط الأملاك العثمانية وأزال عقبة من طريق التجارة والحرب براً وبحراً ، ثم انهُ باتخاذه هذه المدينة عاصمة للملك أنشأ مقرّاً مناسباً لحكومته التي كان يمتد سلطانها على البلقان وآسيا الصغرى ، وباحياء القسطنطينية وتجديدها أنشأ مركزاً جديداً للتجارة والثقافة

(١) الاستاذ البيرهوليير «أربانا»

العلمية والفنية ، ووضع الى جانب ذلك أساس الدولة التي هددت العالم الأوربي قرنين من الزمان ولو ان نظم الحكم القائم على بقاء عناصر الامبراطورية وحدات متفرقة ، أدى في النهاية الى انهيارها

— ٢ —

الثورة الفرنسية
واستقلال اليونان (١)

وجدت الثورة الفرنسية في بلاد اليونان أرضاً خصبة لنشر بذورها وبث دعوتها فبعد ان تخلت الروسيا عن عهودها التي قطعتها لليونانيين المرة بعد المرة كان طبيعيًّا ان يتجه هؤلاء الى فرنسا التي أذاعت مبدأ الحرية على لسان المؤتمر الأهلي في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦ وضمنت المعونة لكافة الشعوب التي ترغب في حريتها ، ثم لوَّحت بهذه المعونة بطريقة فعلية حينما وجهت الحملة الفرنسية الى إيطاليا وأصبح لليونان شأن حربي في تنفيذ مشروعات فرنسا الجمهورية في البحر المتوسط، فأوفدت الرسل لتحريك الثورة في البلاد وإيقاظ الفتنة وأنشأت في بوخارست وأنكونا مراكز لدعاة الثورة المنتشرين في البلاد وتوزيع الذخائر على المحاربين

وتقارير وكلاء فرنسا السريين وأنصارهم من اليونانيين تبين مدى نشاطهم واتساع نطاق دعوتهم. وكان انتصار نابليون في ايطاليا بشيراً بتحقيق الآمال الجائشة في صدور اليونانيين وخاصة حينما احتلت جيوش فرنسا الجزائر الايونية وقضت على سيادة البندقيين في هذه الارجاء، فتدفقت حماسة الشعب وظهر نابليون كمبعوث العناية الإلهية لتحرير اليونانيين . ومن ثم أوفدت الرسل الى باريس للمفاوضة في استخدام الجيوش الفرنسية لتحرير اليونان في مقابل استيلاء فرنسا على بعض جزر الأرخبيل واحتكار التجارة في شرق البحر المتوسط بل واحتلال بعض المواقع الحربية على الشواطىء غير ان هذه الأحلام جميعاً لم تلبث ان تبددت حينما تعقد الموقف الدولي وتعذر على نابليون ان يواصل عمله هناك

ومع هذا كانت الثورة الفرنسية والانقلاب الذي أحدثتهُ في العالم أجمع أحد عناصر النهضة الهلينية فالرجال الذين تزعموا الثورة فيما بعد تدربوا على أعمال الحرب في عهد الحكم النابليوني فنهم من اشتغل بنقل المتاجر الى الموانى الفرنسية مخترقين نطاق الحصار الانجليزي ومنهم من اشترك فعلاً في حروب الثورة ونابليون ودرسوا أساليبها ووقفوا على دقائقها حتى اذا انتهت حروب نابليون انتشروا في بلادهم ووضعوا خدماتهم وتجاربهم في خدمة الحرية الهلينية

على أن الثورة الفرنسية أثرت في اليونانيين تأثيراً مباشراً بمبادئها القائمة على الحرية والوطنية فعلى رغم التأثير المستمد من المدنية الكلاسيكية والبزنطية بل وعلى رغم تأثير الكنيسة

(١) الاستاذ ابوستولس داسكالاكيس — أثينا

الارثوذكسية كان اكثر الرجال السياسيين والعسكريين الذين اشتركوا في هذا النضال المقدس مشبعين بمبادىء الثورة الى حد أن اعلان الحقوق الفرنسي اتخذ نموذجاً للدستور اليوناني في كل ما يتعلق بحقوق المواطنين الهلينيين،ذلك الدستور الذي اقره المجلس الاهلي المنعقد في ابيدور في نهاية سنة **١٨٢١** وأصبح يعتبر بداية بعث اليونان

— ٣ —

أساس القومية الحديثة (١)

١ — يرجع عهد القومية الحديثة الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد كانت القوميات موجودة دائماً ولكن باعتبارها مصطلحات جنسية.اما القومية باعتبارها وحدة فكرية ونفسية فترجع الى عهد الثورة الفرنسية.فحينئذٍ فقط وللمرة الاولى أصبح اقتران كل فرد من افراد الشعب بقومية معينة حقيقةً ثابتة . وفي خلال القرن التاسع عشر أصبحت القوميات ارقى وأتم انواع التنظيم السياسي وغدا الوطن مصدر الثقافة والنفع المادي

٢ — وترجع القومية الحديثة في اصولها الى ذلك المصدر الذي يعتبر أساس المدنية الغربية بأكملها ، «المصدر العبري والهليني» . فهذان الشعبان كوّنا بعض المظاهر الجوهرية التي تميز القومية الحديثة لا في ناحيتها السياسية وانما في الناحية الثقافية، فكل فرد من أفراد (القوميات) اليهودية والاغريقية كان يشاطر بني قومه الشعور بمميزات خاصة تفرقهُ عن كل الشعوب الأخرى. فكلاهما أنشأ فكرة الملكية والكهنوتية بما يخالف كافة الشعوب القديمة . وكذلك نشأت بين اليهود مبادىء التعاقد والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ، تلك المبادىء التي أصبحت فيما بعد عناصر القومية الحديثة كما ان الاغريق انشأوا مبادىء الوطنية للمدينة وما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الهلينيين والبرابرة

٣ — على ان قومية اليهود والاغريق القدماء لم تلبث ان فقدت طابعها الثقافي والخلقي حين انشأ الاسكندر الاكبر امبراطوريته العالمية التي أوحت فلسفة (الرواقيين) ولما نشأت على اثرها الدولة الرومانية في وقت كان يعاصر انتشار هذه الفلسفة في روما اضحت الدولة الرومانية الوارث الطبيعي للفكرة العالمية — فكرة التوحيد السياسي التي سيطرت على اوربا الى عصر النهضة

٤ — ولما كانت النهضة والاصلاح الديني يقومان على الرجوع الى المصادر الاصلية فقد اوحت الكتب الكلاسيكية والانجيل مبدأ القومية القديم غير ان اكتشاف فكرة القومية بقي محصوراً في دائرة معينة اي دائرة المتأدبين ولم تنتشر الى الجماهير الجاهلة بآداب النهضة ولذا كان من المتعذر ان تنشأ قومية ثقافية بالمعنى الحديث ، قومية تقوم على اشتراك الشعب بأكمله في اليقظة

(١) للاستاذ هانس كوهين — نورثامتن

القومية . على ان اتجاه النهضة نحو احياء فكرة القومية لم يلبث أن جُرف امام حركة الاصلاح التي سيطرت على اوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وهي حركة تقوم غالباً على أفكار عالمية

٥ — اما في انجلترا فقد انتشرت النهضة متأخرة عن امم القارة بحيث كانت معاصرة للاصلاح ولذا فمبادىء القومية جاءت للانجليز في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عن طريق المصادر الكلاسيكية ، وفي القرن السابع عشر عن طريق الانجيل . ويعتبر كروموبل وملتن اول من يمثل القومية الناشئة تحت ستار ديني مع ادراكهما لكل ما تنطوي عليه من المغزى السياسي ، ولذا نرى الثورة الانكليزية تتضمن جميع مبادىء الانجيل ، مبادىء التعاقد والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ... الخ . ونجد اليقظة القومية في انكلترا لفكرة الشعب الالهي المختار تطغى على الامة باكملها لان الانجيل كان يقرأ في كل مكان بحيث اصبحت انكلترا اول امة بمعناها القومي، وقوميتها هذه لم تتصادم مطلقاً مع الدين بل نراها تغرس نفسها في الخلق الانكليزي حتى اصبحت طبيعة لا يتطرق اليها الشك

٧ — وفي تلك الاثناء نرى القارة الاوربية تكوّن تحت زعامة فرنسا مبدأ الملكية المستنيرة وهو مظهر سياسي لفكرة القومية لانه يملأ هذه الفكرة بحياة ويقظة جديدة يشترك فيها الشعب باكمله ولا ريب ان اقتران المظهر بالفكرة ، فكرة تحويل الجماهير عن طريق العامل الثقافي والسياسي الى امة بالمعنى المعروف، يعين بداية القومية الحديثة

٨ — ولما جاءت الثورة الفرنسية اتمت عمل الملوك في هذه الناحية بقوة وعنف ولذا فالقومية الفرنسية تحمل جميع مؤثرات القرن الثامن عشر كما فعلت القومية الاميركية . ولما انتشرت مبادىء القومية من فرنسا الى الدول الاوربية الاخرى بذلت جهود عظيمة لتحويل الشعب كله الى امة . وهذه الحقيقة وحدها تفسر مظهر القومية المختلف فبينما نراها تتقدم في اوربا على ضياء الثورة وتعاليمها من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨١٤ اذا بها تتحول بعد ذلك وخاصة في المانيا الى مظهر يخالف الصبغة الفرنسية . فالقومية الفرنسية تقوم على مبادىء الحرية والانسانية والنزعة العقلية ولكنها في المانيا قومية محافظة ووجدانية

وكذلك نرى أن القومية تشمل اتجاهات مختلفة سياسيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا . وعلى الرغم من انها تشمل عناصر مشتركة فهنالك تباين عظيم في اتجاهاتها وهو تباين ناشىء عن طبيعة البلاد ونزعاتها الخاصة. وحيث ان القومية ليست ظاهرة طبيعية ولكنها نتيجة تطورات تاريخية واجتماعية فليس هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بانها ظاهرة خالدة . وقد تحل محلها مرة أخرى اتجاهات عالمية مما يطابق التطور الصناعي والاقتصادي في عصرنا

— ٤ — المسألة الشرقية (١)

قلما نرى اجماعاً في مراجع التاريخ على تحديد قاطع للمسألة الشرقية فنراها تتسع احياناً حتى تشمل كافة المنازعات التي شجرت بين البيزنطيين وبين الشعوب الاسلامية في اوروبا وآسيا وافريقيا حالة ان معناها المحدود يقصر نطاقها الجغرافي والسياسي على المسائل المتعلقة بالشعوب المسيحية القائمة في حوزة العثمانيين في البلقان والليڤنت وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل رئيسية

اولاً — مبدأ القومية الذي نادى به اليونانيون معتمدين في ذلك على التساند الاوربي والارتباط الثقافي في اوربا . وثانياً — مراعاة التوازن الاوربي ازاء الامبراطورية الروسية الراغبة في التوسع باسم نصرة الدين وتعزيز التقاليد الموروثة في انتزاع املاك العثمانيين . وثالثاً — البحث في اصلاح الامبراطورية وتجديدها والابقاء عليها وحصر البحث في هذه الاوضاع الثلاثة تضمن بطبيعة الامر قصر المسألة على ظروف لا تتعدى العصر الذي نشأت فيه . اما الحلول التي عرضت لمعالجة هذه المسألة الى نهاية القرن التاسع عشر فهي . اولاً — تقسيم الاملاك العثمانية بين الدول الأوربية وثانياً — اصلاح وتجديد الامبراطورية بما يطابق مقتضيات الروح الأوربي .وقد رفض الحل الاول ابتغاء الاحتفاظ بالتوازن بين الدول . أما الحل الثاني فقد حبط من تلقاء نفسه للتنافر العظيم القائم بين نظام الحكم في الامبراطورية وقواعد المدنية الأوربية . فقد كانت الامبراطورية تقوم على أساس الاحتفاظ بحكم طبقة ممتازة بدينها على حساب الرعايا المسيحيين وهو وضع يؤدي الى القضاء على كل مساواة مدنية اوسياسية او اجتماعية . أما الحل النهائي للمسألة فكان تنفيذ مبدأ القومية بما يلائم الرعايا المسيحيين والدول ذات المصلحة

ولتحديد عصور المسألة الشرقية يجب مراعاة التطورات التي وقعت في سير العلاقات السياسية بين أوربا والامبراطورية العثمانية وعلى هذا الأساس يمكن تمييز عصرين هامين من عصور الحكم العثماني في البلقان والليڤنت . فالعصر الاول هو عصر اتساع الامبراطورية العثمانية الى عهد الحصار الثاني لفينا سنة ١٦٨٣ والعصر الثاني هو عصر التراجع التدريجي الى وقت معاهدة لوزان وهو عصر المسألة الشرقية بمعناها الحقيقي . وفي العصر الاول يمكن تمييز عناصر متعددة هامة . (١) انهيار مقاومة الولايات السربية المستقلة في معركة كوسوفو سنة ١٣٨٩ . (٢) انتهاء مقاومة الدول البلقانية للغزاة العثمانيين سنة ١٥٠٣ (٣) بلوغ السلطنة العثمانية قمتها في حصار فينا وابتداء التراجع بعد الهزيمة الكبرى أمام أسوارها سنة ١٦٨٣ . وفي العهد الثاني (١) انتقال النفوذ النمساوي الى الروسيا في معالجة الشئون العثمانية سنة ١٧٧٤ (٢) بداية الثورات الأهلية

(١) للاستاذ فازلس بوبوفك — بلغراد

في البلقان ونشوب الثورة الصربية سنة ١٨٠٤. (٣) الا تتقاض على خطة التقسيم الروسي والتجديد العثماني التي بدأها سليم الثالث سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٧ . (٤) إيقاف مطامع الروسيا الخاصة وتحويل الشئون العثمانية الى مصلحة أوربية عامة سنة ١٨٥٦ . (٥) انتصار مبدأ القومية للمسيحيين والمسلمين على السواء وهو الحل الحاسم الذي جعل المسألة الشرقية تختفي من الوجود (١٨٧٥ — ١٩٢٣)

— ٥ —

الفلسفة النفعية وعلاقاتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا[1]

تحولت مبادىء الاحرار في انكلترا تحولاً . خطيراً في النصف الاول من القرن التاسع عشر بتأثير مجموعة من الآراء المعروفة باسم آراء النفعيين في تعديل النظام الاقتصادي والاجتماعي. ومبادىء الاحرار لا تعني من الوجهة السياسية فرض نظام معين من انظمة الحكم ولكنها تنطوي على الاخذ بنظام سياسي يضمن الحرية الدينية والمدنية للافراد وانشاء حكومة مسئولة عن طريق مجالس منتخبة . وقد نشأت ارستقراطية من الاحرار بين ثورة سنة ١٦٨٨ وقانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ . وفي خلالها كان يسيطر على البرلمان طبقة الاحرار الملاك وكانت حريات الفرد محدودة من وجوه عديدة غير انه لم يلبث ان نشأت الى جانب الاحرار طبقة متوسطة كان تأثيرها ملحوظاً في سياسة انكلترا التجارية

ذلك ان الثورة الصناعية انشأت نظاماً اجتماعيًّا وسياسيًّا لا يتفق وسياسة الاحرار الارستقراطيين ولذا تحدت مصالح الصناعة مصلحةَ الملاك في الاشراف على الدولة ، وكانت مشكلة الاحرار حينئذٍ هي مشكلة التحول عن الاساس الارستقراطي الى اساس يتفق ومصالح الطبقة الوسطى . واولئك الذين واجهوا المشكلة وقدموا الحلول الناجعة هم جماعة النفعيين وعلى رأسهم بنتام وأتباعه الذين أثروا في سياسة الاحرار تأثيراً لا يقل في خطورته عن تأثير الفلاسفة في الثورة الفرنسية

فقد كان لهذه الجماعة سياسة وبرنامج وخطة للعمل تمثل آراء ومصالح الطبقة الوسطى من الشعب ومن ثمّ كان لهم على قلة عددهم شأن عظيم في توجيه سياسة الاحرار لان مبادئهم القائمة على توجيه العناية الى مصلحة الافراد المادية وتعزيز العمل الفردي في كافة الشئون الاقتصادية صادفت قبولاً من جانب الطبقة الوسطى للشعب

وقد كان الفلاسفة الراديكاليون الأداة السياسية لجماعة النفعيين فنراهم ينادون بالانتخاب

(١) للاستاذ سلون شابرو — نيويورك

العام واخضاع اللوردات لسلطة النواب والانتخاب السري ... الخ مما يعاون على تحويل السلطة من الطبقة الارستقراطية الى الطبقة الوسطى . ولذا تولوا وحدهم دعوة الاصلاح في وجه الهوج Whig والتورى Tory على السواء حتى صدر قانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ ذلك القانون الذي يعتبر فاتحة حكم الشعب في انجلترا . وأما السلاح الاقتصادي للنفعيين فقد شحذه جماعة الاقتصاديين الذين بثوا دعوة مناقضة لمصلحة الملاك ومشايعة لاصحاب رؤس الاموال حتى انتهى الامر باطلاق حرية التجارة التي كانت مقيدة لمصلحة اصحاب الأراضي وحدهم وقد كان اتصال التيارين السياسي والاقتصادي الصادرين من منبع واحد وهو مذهب النفعيين هو الذي ادى الى نشوء حزب الاحرار

وفي النضال الذي شجر بعد سنة ١٨٣٢ بين العمال واصحاب رءوس الاموال كان مذهب النفعيين في جانب رءوس الاموال لان طبيعة مبادئهم تقتضي الدفاع عن حقوق الملكية ولذا استطاع الاحرار الاحتفاظ بقوتهم من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٧٠ . ولما نشأت مبادىء جديدة معارضة لمبادىء النفعيين وهي مبادىء الاشتراكيين انتشرت المبادىء الديمقراطية وتحولت السلطة من الطبقة الوسطى الى الشعب باكمله حتى توفر السعادة لا لطبقة معينة ولكن لجميع الطبقات

— ٦ — الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة (١)

لقد حان الوقت الذي يجب فيه ان تتخذ الفلسفة الاسلامية السياسية مكانها في الفلسفة السياسية العامة . فالى جانب نصوص القرآن التي تتضمن وجوهاً سياسية متعددة تتعلق بالنظام والقانون والاتحاد والتسلية وصيانة مصالح الدولة والمحافظة على المساواة بين الناس ظهر كتّاب متعددون بين القرنين التاسع والخامس عشر عالجوا كثيراً من النظريات السياسية التي تضعهم بحق بين نظرائهم من اقطاب العالم . واليك نموذج من هذه الكتابات مقسمة وفق الاقسام التي تقسم اليها النظريات السياسية عادةً

اولاً — نظرية الدولة

ا — الفارابي ٨٧٠ — ٩٥٠

تكلم عن البواعث التي ادت الى نشوء الدولة فقال ان الانسان يتحلى بملكتين مميزتين له عن غيره وهما ملكة التقدير وملكة النقاش وهما ملكتان تدفعان الانسان الى التجمع بغيره سواء اكان ذلك في مجتمع عادي او مجتمع دولي عام وأهم وحدة في هذه المجتمعات هي وحدة الدولة (السياسة ٣ ، ٤)

(١) للاستاذ شرواني بالجامعة العثمانية بالهند

ب — الماوردي ٩٧٤—١٠٥٨

قال ان الله تعالى قد وضع القوانين العلوية حتى يحسم الخلافات بالحسنى وتشيع مبادىء الحق والصدق بين الناس كما انهُ عهد برعاية بني البشر الى حكومات تتولى ادارة شؤون العالم بحكمة (الأحكام : مقدمة)

ثانياً — نشوء الدولة

أ — وضع الفارابي بعبارات صريحة نظرية التنازل الاجماعي للحقوق فقال حينما رأى الناس ان كيان المجتمع مهدد بالاعتداءات الفردية اجتمعوا وتنازل كل منهم عن جزء من حريته المطلقة فتكونت بذلك الدولة وهذه النظرية تسبق نظرية «العقد الاجتماعي»

اما الغزالي ١٠٥٨ — ١١١١ فوضع نظرية صريحة عن نشوء الدولة على اساس التطور التدريجي فبدأ ببيئة الانسان الخاصة وحاجتها الى التعاون والتبادل الاقتصادي والحماية وانتهى الى انشاء الدولة والحكومة . (الاحياء ٦،٧)

ثالثاً — السيادة وصاحب السيادة (نظام الملك ١٠١٧—١٠٩١)

يقول ان الامير مكلف رعاية مصالح الشعب وتوفير السعادة والهناءة له وعليه واجب حفظ الامن والسلم في البلاد ومن مميزاته مخافة الله والتقوى والطهارة . والفارق الوحيد بين الملك والرعية هو أن اوامر الملك يجب ان تطاع

رابعاً — نظام الدولة

يستعرض الفارابي انواع الدول المختلفة الى حد يقترب كثيراً من النظريات الحديثة ويتكلم عن المبادىء التي تقوم عليها الدولة والمستعمرات ويقترب من مبدأ الحكم الذاتي في حكم المستعمرات بأن يخول لها حق وضع القوانين او تعديل القوانين التي اتى بها المستعمرون من بلادهم الاصلية طبقاً للحاجة (السياسة ٦٤)

ويتكلم ابن خلدون ١٣٢٢ — ١٤٠٦ باسهاب عن تأثير البيئة في نظام الدولة متقدماً بذلك نظريات منتسكيو في كتاب روح القوانين

خامساً — السياسة الدولية

تكلم الفارابي عن الحوائل الطبيعية والصناعية التي تفصل بني البشر فقال ان الاختلافات الطبيعية بين بلد وآخر ترجع الى الاحوال الجوية التي تؤثر في طبائع الشعب وعاداته . واما الحوائل الصناعية فناشئة عن اختلاف اللغة (السياسة ٤١) وتكلم نظام الملك عن مهمة المبعوثين

السياسيين فقال ان تعيينهم يرجع الى غرضين اولاً نقل آراء حكوماتهم الى الحكومات الموفدين اليها وثانياً القيام ببعض الخدمات السرية واستقصاء الحالة السياسية في البلاد التي يوفدون اليها (سياسة ٢١)

وتكلم الفارابي في مواضع كثيرة عن الجمهورية والشيوعية والفردية فوصف الجمهورية بانها نظام يقوم على المساواة امام القانون فضلاً عن المساواة السياسية والاجتماعية رغماً عن ان الدولة تتكوّن من عناصر شتى من الميول والآراء . ووصف الشيوعية بانها نظام يشرك الشعب في مقومات الحياة الاساسية على ان يبقى للفرد حرية العمل وحرية التعليم ووصف النظام الفردي بانهُ نظام يحرر الفرد من كل قيود العمل والصناعة على ان يبقى مع هذا خاضعاً للقواعد والانظمة السياسية

—٧—

العوامل الثابتة
في التاريخ[1]

كل شيء له قيمته في التاريخ حتى التفاصيل الصغرى وكل اثر من آثار الحياة الانسانية يستحق العناية بهِ لذاتهِ وللغرض الاعلى الذي يستخدم فيه ولكن اذا كانت العناصر الانسانية كلها تستحق العناية فهنالك عناصر ثابتة تسيطر على تاريخ العالم على رغم المفارقات التي تسترعي النظر لاول وهلة . فهذه العناصر هي بمنزلة هيكل ثابت لكل ما يدور حولها من وجوهِ التغير والتقلب

فما هي هذه العناصر الثابتة وسط التغيرات الوقتية؟ اولاً — البيئة الطبيعية التي تفرض ارادتها على كافة المؤسسات الانسانية القائمة في وسطها بحيث تنشئ ارتباطاً وثيقاً بينها على ممر العصور . وهنالك عامل ثان هو عامل الجنسية فعلى الرغم من ظهور جنسية ما باسماء مختلفة فان لها في اتجاهاتها ميولاً واغراضاً متماثلة وهذا كله واضح في حالة اوربا الشرقية وفي جمهورية السوفيت . وثالثاً تظهر بين الحوادث التاريخية المتزاحمة عناصر بارزة لها قيمة ثابتة. مثال ذلك المدينة الغالية التي نراها تظهر في العهد الروماني في شكل مقاطعة وتبقى في العصر الوسيط دائرة الاسقفية وفي العصر الحديث تتحول الى مقاطعة من المقاطعات الفرنسية مما يشير صراحة الى ميزة ظاهرة في موقع هذه المدينة. فليوجه البحث دائماً في عناصر التاريخ التي تزاحم بعضها بعضاً الى العوامل الثابتة فهذه العوامل هي الركن الأساسي لفهم التاريخ بأكمله فهماً صحيحاً

(١) الاستاذ نقولا يورجا — جامعة بوخارست

باب المراسلة والمناظرة

نشوء اللغة العربية

اذا نقد المقتطف تأليفاً ، تعرَّض لموضوعهِ وجهاً لوجهٍ ، دون القصد الى ما فيهِ من العبث استطراداً . فلقد وقفنا على نقد بعض المجلات السورية ، فاذا فيها ذمٌّ للغة العربية أشنع ذمّ وتقبيح لاصحاب معاجمها ، وتسديد سهام سامَّة الى هذهِ اللسان ومحبيها . وما ذلك إلاَّ لاننا أثنينا عليها ثناءً طيباً في تضاعيف كلامنا ، فأظهر الكاتب بسوأتهِ هذه انهُ من اقحاح الشعوبية ومع ذلك لم يذكر كلمة واحدة للموضوع الذي وقفنا كتابنا عليهِ اي نشوء اللغة العربية ونموّها واكتهالها . ولذا ارتدَّ سهمهُ الى صدرهِ فصرعهُ شرَّ صرعة

اما المقتطف فقد جرى في الميدان جرياً حثيثاً سديداً مقتحماً اياه بأحسن أسلوب، على مألوف عادتهِ وألطفهِ وأبدعهِ ، ولهذا نجيب على كلمتهِ بما يبدو لنا

قال حضرة الناقد النابه في المجلد ٩٤ : ١٢٥ : « ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابتهِ وبنائهِ على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدة ومتعة »

قلنا : ان في ما ذهبنا اليهِ قواعد وضوابط تجري في اعنَّتها جرياً مطرداً، وليس هناك غرابة ولا افتراض بل كلهُ تحقيق علمي ونظر دقيق، اذ لكل حرف من حروف اليونانية واللاتينية مقابل لا يحيد عن منحاه قيد شعرة . فاذا كان مثل هذا ، يسمى غرابةً وافتراضاً لا علماً ، فلا ندري كيف يكون العلم ، ولا على اي قوائم يقوم او ينهض؟ ولا ما يراد بالعلم في نظر الكاتب الجليل

واما سبب حياة بعض الكلم الدخيلة وتخليدها ، وموت بعضها الآخر وزوالها من عالم اللغة فهو لأن في تلك المفردات مادة وصيغة ووزناً ورشاقة وخفةً مقتبسة كلها من مزايا الضادية وخواصها الخالدة ،على حدّ ما تُرَى في العرب انفسهم ، إذ قاوموا جميع الامم وقارعوا الشعوب القديمة ، فامحوا وانقرضوا ، وناهضت لغتهم سائر الالسنة ، فكتب لها الفوز على ضرائرها .فكانت النتيجة انهم بقوا الى عهدنا هذا مستأنسين بلغتهم ، فكأنهم قُدُّوا من الجلمود ، بل قل الحق من صخرة الخلود !

ففي (البنك) مثلاً اصل عربي وان لم يكن المعنى واحداً . فكفاها حياةً انها اقتبست صحة وقوة من المادة العربية (ب ن ك) الضادية .وقل مثل ذلك على (التلفون) ففيهِ مادة (ت ل ف) والواو والنون من الكواسع المألوفة في منطق بني مُضَرَ ، بخلاف (التلفزة) فاذا سلمنا ان فيها مادة (ت ل ف) العربية ، فالزاي والهاء ليستا من الكواسع ، ولا مما تذيّل بهِ المفردات

العدنانية . زد على ذلك ان السلف منَّا لم يقابلوا الحرف الافرنجي بالفاءِ

اما (المباصرة) ومشتقاتها فقد تدخل في جميع مناحي المعاني . فتقول مثلاً : « نقل المشهد بـ (المُبَاصِر) ، فيرى المشهد في (المباصرات) المستقبلة في دائرة واسعة » فاذا قرأها العربي لاول مرة ، عرف معناها او يكاد يعرفهُ ، وان لم يسمع باللفظ ، اما (التلفزة) فلا يفهم منها شيئاً . وربما رأى فيها شيئاً من الجربزة ، والجرمزة ، والجلهزة والحرمزة ، والدلمزة ، او ما يشمّ منها رائحة الخَرفشة والحَنبشة ! ! !

وإما (الفيزياء) فمخالف لما جاء منقولاً عن العرب وأنها (علم الطبيعيات) فما نعمل بها ؟ فضلاً عن أنها مخالفة لما صرح بهِ اللغويون إذ قالوا : « وردت خمسة ألفاظ على وزن فعلياء وهي : كيمياء ولمياء وهيمياء وسيمياء وريمياء . (راجع روضات الجنات ص ١٥٦) . ومع قلة هذه المفردات الخمس ، لا ترى لها ذكراً ، اللهمَّ إلاَّ كيمياء وسيمياء ولا تَرِد عليهما . فهل نضيف الى لغتنا رطانة على رطانة . وعندنا ما نستغني عنها ؟

وأما قول الناقد الجليل : « إن التعريب جرى عليهِ العرب في القرون الاولى ، فقالوا : قاطغورياس ومالينخوليا وإيساغوجي وأرثماطيقا والأسطرلاب (كذا . أي عطف معرفة على نكرة) ، وأقراباذين (كذا) وغيرها » فنحن لا ننكره ولم ننكره وان ننكره . لكن أيجهل أستاذي العلامة ان جميع المعربات ليست من قبيل واحد ، فبينها الرشيق والمأنوس ، وبينها الوحشي والحوشي ، فالعرب أخذت بناصية الأليف ، ورذلت الغريب المسيخ . فعاش من الدخيل القليل ومات الكثير فلا رحمة عليهِ . أو يجهل صاحبي الامام المنتقد ان معرّبي تلك الحروف كانوا أناساً واقفين على الإِرَمِيَّة واليونانية أكثر من وقوفهم على المُبينة ، إذ كانوا احداثاً فيها . والدليل ان العرب الخلص وضعوا في مكانها حروفاً أخر ونبذوا في العراء تلك الرطانات التي تفزع الشياطين أنفسهم ، ولذا قتلوها قتلاً وحيًّا فقالوا في مكانها : مقولات وسوداء ومدخلاً (إسمٌ ينظر في ايساغوجي علم كتاب في المنطق) وعلم الحساب

بقي الاسطرلاب ، فان ابناء عدنان رأوا فيها روحاً عربية أي (اسطرلاب) على ما يقول صاحب القاموس(١) ، فتركوها بذمائها تقاسي الأمرين ، والاَّ لو تنفَّست تلك الأعجمية تنفّس

(١) يحسن بنا ان نذكر هنا ما يقوله الخوارزمي في من يؤول بعض الالفاظ الاعجمية تأويلا يناسب الاشتقاق العربي ولا يفكر في ان لا مناسبة بين هذا الاصل وذاك . وان ذلك التأويل من قبيل كلام الرجل الخرف . قال في كلامه على الاسطرلاب وتأويله تأويلا عربياً : «الاسطرلاب معناه » «مقياس النجوم» وهو باليونانية (اسطرلابون) . (وأسطر) هو النجم و (لابون) هو المرآة . ومن ذلك قيل لعلم النجوم (اصطر نوميا وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا الاسم مما لا معنى له . وهو أنه يزعمون ان (لاب) اسم رجل . و (أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف » الخ

الاعاجم (لو جاز لنا هذا التعبير) لأجهزوا عليها واوردوها حياض الموارد التي لا مصادر لها

واما (الاقراباذين) فانت أبصر مني فيها وفي اضمحلالها ، فانها لا توجد في معجم ثقة لان العرب الصميم لم تدخلها في جنة كلامهم ، فهي موجودة فقط في تصانيف بعض الاقدمين في العهد الذي كانوا يأتون بكل كلام اعجمي ، ليوهموا الناس ان إغرابهم هذا يرفعهم الى اعلى مراقي العلم ، ويظهرهم للعوام انهم واقفون على أسرار العلم لوقوفهم على رطانة الاجانب !!!

واما الآن فاننا لا نسمع في معناها إلاّ (تركيب الادوية) او « علم الصيدلة او الصيدنة »

واما « علم مظاهر الحياة » فهو كقولك « علم وظائف الاعضاء » ، لأنهُ لا مظاهر الّم يكن ثمَّ وظائف فهما امران متلازمان . زد على ذلك ان بصراء العلماء وحُذاقهم رأوا في (الوظائف) — وهي جمع وظيفة — خروجاً عن معناها الفصيح الصحيح ، الى معنى مولَّد — وقد ولَّدتهُ قابلةٌ غير كسيحة بمهنتها ، فهي « غير قابلة » لان تمتهن مهنتها ، فاصبحت الوليدة « غير قابلة » لتأدية معناها . ولهذا استحسن فريق أن يقولوا (علم مظاهر الحياة)

واما (اللاقطة) فانها — وان كانت تصلح لمعنى آخر عام — تصلح لأن يقيد معناها من باب تخصيص العام . وهذه خاصَّة من خواصّ اللغات الحية . وهو كثير في كلامهم ولا جرم ان حضرة الناقد يدري هذا الامر أحسن دراية ، بل أحسن مني بكثير ، لكنهُ يتجاهل وهذه اللاقطة التي تتكلم عليها ، مأخوذة من المثل العربي الذي اشار اليهِ . فيكون كقولنا : كل كلام ينطق بهِ اللاسلكي قد يلتقطهُ هذا وذاك لسقوطهِ في نصيب الجميع . وفي ذلك من الاشارة الدقيقة اللطيفة ما يقيم العربية في اعلى عرش ينصب لسائر الالسنة

وادخال (اللام) على جواب (لو) المنفي و (ما) ، هو من باب الزيادة اللفظية لا لشيء آخر . وهو — وان كان ضعيفاً — حسن الوقع في السمع

ومجيء (عدة) بمعنى عدد كثير ، وارد في كلام البلغاء الفصحاء قال اللغويون في تفسير اساغ : « اساغ فلان بفلانٍ ، اذا تمّ امره بهِ ، وبهِ كان قضاء حاجته . وذلك انهُ يريد « عدة » رجال او « عدة » دراهم ، فيبقى واحد ، بهِ يتمّ الامر ، فاذا اصابهُ قيل اساغ بهِ » — وفي المخصص في اجناس البُرّ والشعير : « ولسنبله (اي السنبل الجُعْرة) جروف « عدة » — وقال ابن السِكّيت في تهذيب الالفاظ : « يقال أتانا دَهْمٌ من الناس ، اي « عدة من الناس كثيرة » . وهناك غير هذه الشواهد وهي لا تحصى

وقولنا : « ان نفس الكلمة اليونانية » فهو كقول سيبويه في مَذْحج : « الميم من نفس الكلمة » (وراجع اللسان في ذحج) — وقال ابن المبارك وهو من أئمة اللغة والنحو في معنى قفير الطحّان : « هو ان يقول : أطحن بكذا وكذا ، وزيادة قفير من « نفس » الدقيق » —

وقال ابن الأثير في النهاية في مادة (ثرد) : بل اللذة والقوة ، اذا كان اللحم نضيجاً ، في المرق اكثر ما يكون في « نفس » اللحم — وفي الصَّبان في باب التوكيد (٣ : ٧١)!« ويُرَدّ عليه نحو جاءني « نفس زميلي » « وعين » عمرو ، اي ذاتهما . وفي التنزيل : كتب ربكم على « نفسه » الرحمة اي ذاته انتهى . — وقال ابن شُمَيْل : « السهم نفس « الفصل »(راجع اللسان والتاج في سهم) ولو اردنا الامعان في ذكر مثل هذه الشواهد لملأنا جزءا من اجزاء المقتطف .

و (التلغراف) مات حين ظهور (المُبْرق) للآلة . (والبرقية) للنبأ البرقي ، فهي حيَّة فقط على لسان غير العربي الصليب

وقد ذكرنا سبب الرفض لادراج مقالاتنا اللغوية في مجلة مجمع فؤاد الأول ، فلا حاجة في صدرنا الى العود اليه ، اذ لا عظيم جدوى فيه . وسلامٌ على المخلصين في مباحثهم ، كناقد المقتطف العلامة وكنشئه الكاتب الشهير ومنهُ تعالى التيسير

والآن ليسمح لنا حضرة الناقدالجليل الاول ان نسأله كيف جاز لهُ ان يقول في ص ١٢٤ وس ٢٣ : في التاسع عشرة بمعنى التاسعة عشرة

ثم أليس في قوله بعد سطر : في الرومية اليونانية خطأ طبع والصواب في الروميةواليونانية

وهل ورد في كلام « فصحاء » العرب مثل قوله : تتكلم « عنهُ » (ص ١٢٥) وهو يريد « تتكلم « عليه » ! نعمْ يقال : تكلم « عنهُ » اذا تكلم نائباً عن رجل اما في موضوع من الموضوعات فيقال تكلم « عليه »

وقال في تلك ص ٢ س ١٧ : « ولا ادري لماذا يُحلّ الأب شيئاً ويحرّم آخر مثله » — وانا لم احل شيئاً ولم احرم آخر . انما « استحسنت » استعمال بعض الكلم « وهجنت » طائفة اخرى لاغية والفرق ظاهر بين ما قلت وبين ما يعزوه اليَّ حضرتهُ

وقال في تلك ص ٢ س ١٩: « وما دامت الكلمة عن العربية ...» والذي رأيتهُ مستعملاً في كلام بلغاء الفصحاء : « الكلمة على ...» وان لقوله وجه تخريج وتأويل ، لكن الصراط المستقيم اولى من اتباع الصراط المُلْتوي

وفي تلك ص ٢ س ٢٦ : « تثير المناقشة حول هذا الكتاب » . وانا لم اسمع بمثل هذا التعبير الذي يحتاج الى تخريج عميق وغوص بعيد في بحار التوجيه والتأويل ، ذلك التأويل الذي لا يخلو من تعسف انما المسموع ناقشهُ الحساب او في الحساب وناقشهُ الكتاب او في الكتاب والقائل صاحب اساس البلاغة ، وليس لي في هذا الانكار ناقة ولا جمل . والله أعلم

مصر القاهرة
الأب انستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

باب الأخبار العلمية

غرائب الكهربائية البشرية والحيوانية

لعوض جندي

الكهربائية البشرية في نخال مصري

دعاني أحد زملائي في عملي الحكومي بادارة خزانة السكة الحديدية بالقاهرة في ١٠ يناير سنة ١٩٣٩ الى زيارة متجر حضرة محمد افندي السيد بجبح تاجر الدقيق بحارة السيدة زينب بالقاهرة ، وذلك لمشاهدة رجل مُكَهْرَبٍ بكهربائية بشريَّة جليةٍ فاستقبلني صاحب المتجر بكل ارتياح . وبعد التحية والتعارف استوضحته كيف اكتشف الكهربائية البشرية في ذلك الرجل فأجابني قائلاً : — « تبينتها فيه مصادفة » . فقلتُ حسناً ، فان كثيراً من المكتشفات القديمة والمخترعات الحديثة قد تمت عفواً . وسألتهُ : — متى اهتديت الى هذه الظاهرة الطريفة مع أنك لم تقرأ ما كتبتهُ عليها في غير مقالٍ ، في المقتطف . فروى ما معناه :

« منذ عشرين يوماً كان هذا الشاب مكبًّا على عمله العاديّ ، وهو نخل الدقيق كما تشاهده الآن ، فاذا بغلام يدنو منهُ محدثاً اياه في شأن خاص فلمس الغلام عفواً أحد ساعديه وهو ينخل فانتابت اللامس رعدةٌ كهربائية فتقهقر مذعوراً ثم سألنا السبب فلم نستطع تبيانه فلمسنا النَّخال في مواضع متعددة من جسمهِ فأصابنا ما أصاب الغلام وحينئذٍ جعلنا نفكر في كنه تلك الرعدة الغريبة حتى قيض الله لنا أحد معارفنا فأرشدنا اليكم كي تعللوا لنا تلك الظاهرة « الكهربائية » .

وإزاء ذلك لم يسعني الاَّ أن لمست غير مرة ساعد (عبد العزيز محمد امين النخال) المقصود وظهره وعنقهُ ، وهو قائم بعمله فاعترتني كل مرة الهزة الكهربائية وسمعت صوت الشرارة المتولدة من جسمهِ ، فأيقنت أنها كهربائية بشرية فسألتهُ هل تقرأ وتكتب فأجاب ايجاباً وأتشعر بألم عند ما يلمسك امرؤٌ فقال نعم ، اشعر بألم طفيف فنصحتهُ بألا يسمح لأمرىء بلمس عينيه أو أذنيه اجتناباً للضرر الذي يلحقهُ من الشرارة . والفتيةُ شابًّا قوي البنية ، يبلغ من العمر زهاء ٢٩ سنة فالقيت عليه الاسئلة الآتية : —

(١) هل تظهر هذه الكهربائية حينما تقف النخل ؟ فقال : كلاَّ

(٢) هل تحتذي حذاءً من الصمغ المرن وجوارب من الصوف ؟ فقال نعم

(٣) وبماذا تتغذّى — قال ، بالفول المدمَّس والطعمية والجبن والخضراوات والفاكهة ولا آكل اللحم الاَّ مرة واحدة في الاسبوع ولا اتناول مسكراً ولا مخدّراً بل اشرب قليلاً من الشاي ، شأن غيري من العمال الاصاغر الفقراء

ثم طلبت اليه أن يخلع حذاءه ، ففعل مستأنفاً عمله في النخل ، فانقطع حالاً ظهور الشرارة الكهربائية ، فاوضحت للحاضرين ، أن ذلك الحذاء مصدر ظهور الشرارة . فقالوا وكيف ذلك ؟ فأجبتهم بما كان يحضرني وقتئذٍ وهو لا يخرج عن معنى النص ّ المثبت فيما يلي ، غير مدعٍ المعرفة ، وانما انا باحثٌ ينشد العلم في مصادره ومن أربابه اينما وجدوا . وربما عرفت شيئاً وغابت عني أشياء فارجو أن يرشدني اليها خبراء الهندسة الكهربائية من قرائنا الافاضل ولهم الشكر سلفاً . واليك التعليل المشار اليه : وفقاً لمعلوماتي الضعيفة : —

تحول الطاقة

« ينبغي للعامل أن يكون ذا طاقة معينة ليُتاحَ لهُ أداء عمله . وان تدّخرَ تلك الطاقة في عضلاته ، متولدة من الغذاءِ الذي يتغذّى بهِ ، والهواءِ الذي يستنشقه . والطاقة التي تدخر في عضلاتهِ هي طاقة حرارية تتولد من العمليات الكيميائية المختلفة التي تحدث في باطن الجسد . فاذا تعب المرء ، فذلك لان عضلاته ولّدت مقادير كبيرة من المادة الكيميائية المسماة الحامض اللبنيك وحينئذ يحتاج الى الأوكسيجين ليخلصه من ذلك الحامض . وهذا سبب انقطاع العامل عن شغلهِ ريثما يتنفس الصعداء ، لان مجرى الدم ينقل الأوكسيجين من الرئتين ، جهد استطاعته ، الى العضلات لكي تتمكن من إحراق تلك الفضلات جميعها . ومتى يتم ذلك ، يشعر الانسان بالراحة ، ويحس أنهُ قد استعاد طاقتهُ فيستأنف عمله

« إذن عرفنا كيف تستحيل طاقة الجسم الحرارية ، طاقة ميكانيكية عادية . وعندنا في عملية الاحتكاك ، مثال آخر على تحويل الطاقة من حالة الى أخرى . فالاحتكاك يجعل الطاقة الميكانيكية تستحيل طاقة حرارية . وفي الهندسة الكهربائية ، تحول الطاقة الحرارية ، بالذات او بالواسطة ، الى طاقة كهربائية . فاذا أحرقت الفحم الحجري في أتون مرجل ونقلنا البخار الذي يتولد منهُ الى آلة بخارية ، استطعنا جعل هذه الآلة تدير جهازاً يولد لنا الكهربائية ، فيتيسر لنا بتلك الذريعة ، تحويل الطاقة الحرارية أولاً الى طاقة ميكانيكية ثم الى طاقة كهربائية . واذا تناولنا فلزين مختلفي النوع ولحمنا أحدهما بالآخر عند طرفيهما ، ثم حمينا طرفاً منهما ، وتركنا الآخر بارداً ، حصلنا على تيار كهربائي يسري في السلك الذي يوصل طرفي المعدنين أحدهما بالآخر . وتعرف تلك العملية باسم « التوصيل الحراري » وحينئذٍ نستطيع تحويل الطاقة الحرارية بالذات الى طاقة كهربائية . وحينما يسري التيار الكهربائي في سلك فانهُ يحميه . وهذا مثل لتحويل الطاقة

الكهربائية الى طاقة حرارية . اذن أدركنا أيضاً كيفية تحويل نوع من الطاقة الى نوع آخر . وأعظم مصادر الطاقة الشمس . وطاقة الفحم الحجري انما هي طاقة مدخرة أصلها من الشمس . وطاقة الانسان والحيوان تحصل من الشمس أيضاً ، لان الشمس تمدّ النبات بالطاقة فتجعله ينمو ، فيأكل الحيوان النبات ، ثم يأكل الانسان الحيوان والنبات كليهما . والغذاء الذي نتغذى به يمدنا بالطاقة الحرارية التي تجعل عضلاتنا تضطلع بما يفرض علينا من الاشغال . وتسمى السرعة التي تؤدى بها الاشغال ، قوة . »

مشاهدة أخرى للنخال

وقد شاهدت ذلك النخّال مرة أخرى في مساء اليوم التالي اي ١١ يناير سنة ١٩٣٩ إذ كان الجوّ ممطراً فعلمت ان الشرارة الكهربائية لم تظهر في جسمه حينئذ والمعروف ان الجسم البشري موصل للتيار الكهربائي فيسري منهُ الى الارض وإن الكاوتشوك غير موصل ولذلك انقطعت الشرارة المتولدة من اللمس حينما أشرنا على النخال في المقابلة الأولى ، بخلع حذائه في أثناء النخل . وان الهواء الرطب موصل للكهربائية كذلك . وهذا سبب انقطاع ظهور الشرارة الكهربائية في اليوم التالي

وقد رأينا الفلاحين في بعض قرى مديرية المنوفية وغيرها حينما يحتاج أحدهم الى إضرام النيران بلا ثقاب ، يجيء بعود حطب قطن ثخين متين ، فيثقبهُ ثم يأتي بقطعة من عود رفيع آخر مبري محدَّد على شكل قلم الجرافيت (الرصاص) ويعكف على برم هذا القلم المحدَّد بكفيه في ذلك التجويف برماً حثيثاً فتتولد الشرارة الكهربائية في هنيهة من الفرك فتشعل النار . وهذه هي الطريقة عينها التي ما زالت القبائل المتوحشة تتبعها في أوستراليا ونيو زيلندة وغيرها من البلاد النائية غير المتحضرة

كهربائية العيون ترشد الطيور المهاجرة

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية مقالاً بعنوان « العين بوصلة كهربائية للجسم » جاء فيه ما يأتي : — كشفت بضع أقراص دقيقة من صفائح المعدن الرقيقة عن حقيقة لغز قديم أعيى العلماء حلّه منذ قرون اذ وُصّلت تلك الاقراص بأسلاك دقيقة في مختبر علمي من مختبرات جامعة يايل Yale في الولايات المتحدة الاميركية . وذلك أن الدكتور وُلتر . ر . ميلز Walter R. Miles أحد علماء النفس بتلك الجامعة ، قد أبلغ منذ بضعة أسابيع ، مجمع العلوم الاهلي الاميركي ، نبأ اكتشافه العجيب وهو أن العيون حقيقة (بطاريات كهربائية حية) مشحونة بالكهربائية السلبية والايجابية

ويرى العليمون أنهم سيتوسلون بمباحث الدكتور ميلز هذه الى بلوغ الحلّ النهائي

لمعضلة هجرة الطيور . وهي المعضلة التي استعصى تفسيرها منذ القدم . ونعني بها كيفية اهتداء اسراب الطيور الى تعين طرقها تعيناً مضبوطاً في الدجى والضباب والمناطق البحرية الشاسعة

الكهربائية في العيون

وقد جرَّب الدكتور "ميلز" تجاربهُ العلمية المشار اليها ، في مختبره العلمي في نيوهافن حاضرة ولاية كونيكتيكوت ومقر جامعة ييل حيث جاء بالاشخاص المزمع احداث التجربة في عيونهم ، وألصق الاقراص المعدنية الدقيقة على جلودهم بشُرط مصمغة في أعلى عيونهم وأسفلها ثم ربط الاسلاك المتصلة بالأقراص القصدرية بأجهزة قوية مضخمة للتيار وبمقاييس دقيقة لقياسه فأثبتت تلك الاجهزة ان العين السوية تكون مشحونة بشحنة كهربائية تبلغ زهاء جزءين من الف من الفولط . وان هذه الطاقة تبقى ثابتة حقيقة لا تؤثر فيها الظلمة ولا الضياء . وعدسية العين قطب بطاريتها الموجب، وشبكيتها أي الجزء الخلفي من مقلتها، قطب بطاريتها السالب

واستيقن العلماء منذ سنين أن وظائف البدن ، ومنها التنفس واللمز بالعين والمضغ ، تقترن بتدفق طفيف من التيار الكهربائي

وكان اكتشاف الكهربائية المخية التي تتولد في المادة السنجابية في الدماغ منشأ لمجال واسع جديد من مجالات البحث حول ذلك الاكتشاف. (وقد فصلناه في مقالنا في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٦) كما سبق القول . فقد قيّض للدكتور ميلز باكتشافه كهربائية العين الثابتة (ذلك الاكتشاف الذي قدَّم العلم خطوة جديدة في سبيل حل معضلة اهتداء الطيور المهاجرة الى المسالك القويمة عند هجرتها من اوطانها وعودتها اليها في فصول معيَّنة من السنة، وذلك في الجو دون الاستعانة بخرط مرسومة لتلك السبل) تأييد وجود الكهربائية المخية

***

هجرة الطيور

وكان ذلك اللغز الدائم على مدار السنة في علم دراسة طبائع الطيور وحياتها قد شغل افكار علماء التاريخ الطبيعي منذ عهد ارسطوطاليس الفيلسوف اليوناني المشهور ، ففسره فريق من العلماء تفسيرات متباينة . اذ علل بعضهم اهتداء الطيور الى مسالكها عند هجرتها ، بحاسة سادسة خفية في أبدانها ، لا يستطاع ادراكها . وزعم آخرون ان الطيور تطير من جهة الى اخرى مسترشدة بأبصارها دون غيرها

ومع ذلك ظن فريق آخر ان الرياح التوجيهية المرتفعة في الجو ، تؤلف معالم جوية للطريق ، ترشد الطيور المهاجرة الى الصراط المستقيم في رحلاتها الطويلة في الجو الى البلدان السحيقة

وكان يعترض كل فرض من هاتيك الفروض ، تساؤلات مختلفة وهي : —

اذا كانت الطيور المهاجرة تعول على معالم الطرق الارضية وهي على الارض ، فكيف

يتمكن الطائر الدنان [1] الصغير ، الذي لا يكبر الابهام حجماً ، من تعيين منهاجه ، على امتداد ٥٠٠ ميل فوق المياه المتلاطمة في رحلة طيران واحدة على الخليج المكسيكي ؟ وكيف يحدد الزقزاق [2] منهاجه بقطع ٢٤٠٠ ميل من نوفاسكوشيا الى الارجنتين طائراً المسافة كلها فوق سطح البحر بعيداً عن رؤية البر ؟ ؟ وان كانت الطيور ترشد نفسها بنفسها بوساطة تيارات الهواء المرتفعة في الجو ، فكيف يتاح لنا تعليل الخبرة الغريبة الموهوبة لتلك الطيور الصغيرة المهاجرة التي تجعلها تطير طيراناً منخفضاً ثم تعود سنة فأخرى الى الحدائق والبساتين التي بنت فيها أوكارها وألفتها من قبل ؟؟

فقام منذ عشر سنوات فئة من علماء التاريخ الطبيعي ومنهم جون . ت . نيكولس John T. Nichols الاستاذ في متحف التاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك ، بتعليل استرشاد الطيور عند طيرانها بما سموه البوصلة او (ابرة الملاحة) اللاسلكية . فأحدث ذلك المذهب دهشة في الدوائر العلمية . اذ بين ان الخليقة حبت تلك الخلائق بعضو حساس دقيق مجهول يمكنها من توجيه طيرانها الى الجهة المقصودة وذلك بخطوط القوة المغنطيسية المنتشرة حول الارض أسوة بالطيار الذي يطير في طريقه متبعاً الموجة اللاسلكية

وهذا المذهب قد يفسر لنا كيف يطوف حمام الزاجل عدة مرات عند ازماعه قطع مرحلة طويلة ، هائماً كأنهُ يتحسس خطوط المغنطيس الارضي ليهتدي بها في طريقه

ومن الوسائل الكثيرة التي فسر بها العلماء اهتداء الطيور المهاجرة الى السبل المستقيمة ، الخطوط الخاصة بالقوة المغنطيسية الثابتة ، الممتدة شمالاً وجنوباً بين القطبين المغنطيسيين الداميين للأرض

الكهربائية وحمام الزاجل

وقد تأيد هذا الحدس منذ عهد قريب بالتجارب المفيدة التي جربت في انحاء مختلفة من العالم . ففي مدينة ينجستون Youngstown بولاية أوهيو أطلق حمام الزاجل على مقربة من عمود من الأعمدة الباذخة الحاملة موصلات جوية لاسلكية ، في محطة قوية من محطات الراديو ، فحدث عند وقف أمواج الراديو في تلك المحطة ، أن هام الحمام باحثاً عن السبل القويمة بضع ثوان ثم اهتدى اليها فطار متبعاً اياها الى موطنه . ولما أن استؤنف العمل في محطة الراديو وأطلقت موجاتها في الجو ارتبك حمام الزاجل ، وجعل يصفق بأجنحته ويحوم حول ذلك المكان زهاء نصف ساعة ثم تفرق شذر مذر باحثاً عن الطريق المستقيم فأخفق ، وقد ظهرت هذه النتائج نفسها في فرنسا لمجربين آخرين

ولعلك تسألنا قائلاً : ماذا حدث لتلك

(١) الطائر الذبابة او الطائر الذبابي — طائر أميركي وهو اصغر الطيور المعروفة وانواعه كثيرة والطائر الطنان من اوضاع المرحوم الدكتور صروف واقترح الاب انستاس الطائر الذبابة كما يسميه الفرنسيون (معجم الحيوان لمعلوف باشا)

(٢) الزنزاق او القطقاط الذهبي او الدمشق الذهبي (معجم معلوف باشا) لعلم الحيوان

الطيور فقلب قدرتها الخفية ، عجزاً واضحاً عن معرفة طريقها في الجو ؟؟ فنقول « ان التفسير لذلك كون اطلاق الامواج اللاسلكية في الجو ولَّدَ شحنات كهربائية على ابدان الحمام، قضت على الطاقة الكهربائية الطفيفة التي في عضو الحس الذي تتألف منهُ بوصلة ذلك الطائر

فاذا سألتنا : اين مقر ذلك العضو الحساس وما كنهه ؟ وما وظائفه ؟؟ أجبناك أن تلك الأمور كانت من المجهولات في دائرة معارفنا البشرية حتى اماط عنها اللثام حديثاً الدكتور ميلز باكتشافهِ المتقدم وصفه إذ قال ان العيون هي دليل ذلك السر

تولد الكهربائية في الجسم

وجاء في كتاب المخترعات الكهربائية لمؤلفهِ الاستاذ (ا . م . لو) العالم الانكليزي في فصل عقده على الكهربائية الطبيعية ما يأتي :

وفضلاً عن الكهربائية الجوية فان الكهربائية الطبيعية تتولد بوسائل شتى. فحركات عضلاتنا مثلاً تتوقف على الكهربائية ومن المرجح أن المخ يرسل رسائله الى العضلات بوساطة تيارات كهربائية ضئيلة جدًّا تنتقل مصحوبة بتأثيراتها ، بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الساعة . وقد جرَّب المجربون ادخال ابرة صغيرة في عضلاتهم على ان يوصلوا تلك الابرة بسلك عازل الى جهاز مضخم للتيار ، ومنهُ الى مسمعة راديو « بوق لاسلكي » فتبين لهم أنهُ عند تحريك العضلات يخرج الصوت من بوق اللاسلكي « مجهار الصوت »

ثم ان العلامة ماتيوس Matthews الذي درس الكهربائية البدنية دراسة فائقة وقد توغل في هذا البحث حتى علل انقراض الحيوانات الضخمة مثل الدابة المتحجرة برونتوسورس brontausurs البائدة التي كانت تطوف في أنحاء المعمورة ، بكون النبضات الكهربائية كانت تستغرق هنيهة حتى تصل من طرف جسم ذلك الحيوان الى طرفه الآخر فاذا عضه حيوان آخر مثلاً في ذنبهِ كان تأثير تلك العضة لا يصل الى دماغه في أقل من ثانية . وحينئذ كان الحيوان المعضوض يشعر بألم العضة فينبري للدفاع عن نفسهِ ، وعند ذلك يكون الحيوان المعتدي وهو بلا شك أصغر من المعضوض حجماً، قد اختفى من أمامه

والمحقق ان الجسم البشري يحس بالتيارات الكهربائية الضئيلة التي تؤثر تأثيراً عظيماً في صحته. ومن الميسور أن يُعزى النجاح الذي يحرزه احياناً بعض المنقبين عن المناجم والآبار بالمسبار divining-rod الى تفوق احساسهم ببعض أنواع الموجات الكهربائية. وقد استفاد الاطباء من معرفة كون عضلاتنا تتأثر بالكهربائية . فمتى انتاب عضلاتنا اي حادث او استهدفت لعاهة ، عولجت احياناً بالعلاج الكهربائي اي ان العضلات تتقلص وتتمدد بالكهربائية بالتعاقب بحيث يتم ذانك الفعلان دون ان يضطر المرء فعلاً الى تحريك أي عضو من اعضائهِ . وأثبت العلامة ميخائيل فراداي

بالاختبارات التي قام بها أن الكهربائية التي تتولد من السمك الكهربائي ، شبيهة بالكهربائية التي تتولد من البطاريات والدينامو وان اختلفت عنها في المقدار والتيار والضغط. وعلى هذه التفصيلات جميعها يتوقف العلاج الكهربائي الذي يعالج به الناس في هذا العصر

الحركات العضلية تولد الكهربائية

أيدت التجارب العامية الخطيرة التي جربت حديثاً في المانيا ، العلاقة الوثيقة بين الحياة والكهربائية ، حيث استعان المجربون بالمضخمات الكهربائية ، وغيرها من الاجهزة الحساسة جداً ، على تسجيل الكهربائية التي تتولد على الجلد البشري او تحت سطحه مباشرة . فوضع الشخص الذي اجريت فيه التجارب ، في قفص معدني كبير وروقب اشد الرقابة لكي يوقنوا ان الكهربائية صادرة من حركات عضلاته لا من مصدر آخر . فحصلوا على نتائج مدهشة اذ تبين أن ذبذبات الطاقة الكهربائية تبلغ أوجها تدريجاً بدرجات سريعة . وعند مواصلة مجهود المرء تنخفض الطاقة الكهربائية قليلاً وذلك قبل ان ينتاب العاملَ الاعياء . فعزا الباحثون تلك النتيجة الى تبلل جلده بالعرق . وأسفر ذلك الامتحان عن وجود علاقة بين الكهربائية والعمل العضلي وهذا ما يبين لنا مصدر الشرارة في جسم النخال المصري عند اجهاده بالنخل

استمداد التيار الكهربائي

من العيون البشرية

وجاء في أحدث المصادر العامية الانكليزية ما يأتي : — أعلن الدكتور وارد س . هالستد Ward C. Halstead الطبيب في مستوصفات جامعة شيكاغو الطبية أن التيارات الكهربائية الضئيلة التي تقترن بها حركات العين البشرية ، يمكن نقلها بالأسلاك الكهربائية الدقيقة وتضخيمها والاستفادة منها في دراسة بعض أحوال الدماغ الشاذة ، وذلك بطريقة جديدة للدكتور هالستد. ويتوقع ذلك الطبيب البحاثة ان الاستدلال على موضع الآفات التي تعتري المخ ، أو الخلل الذي يصيب نسيجهُ ، ذلك الاستدلال الذي أصبح ميسوراً للاطباء من قبل ، باستمداد التيارات الكهربائية من الدماغ نفسه ، يمكن تأييده بدراسة التيارات الصادرة من العينين. والطريقة الجديدة المشار اليها تلائم على الخصوص دراسة احوال الاشخاص المصابين بالامراض العقلية . وذلك كما وصفها الدكتور هالستد في تقرير نشره في جريدة علم النفس الانكليزية ، اذ يتاح بها الحصول على حقائق يمكن تسجيلها والوثوق بها ، وذلك في اثناء جولان الشخص الذي يقع عليه الفحص ، كما أنهُ يستطاع تسجيل تلك الحقائق حينما يغمض المصاب عينيه

وفي نية المكتشف ان يقوم بتجربة اخرى فيما بعد ، ليتمكن بها من قياس حركات العين ، بذلك الاسلوب في حالة نوم المصاب

«راجع ما كتبناه في هذا الموضوع في الاخبار العامية في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦ »

علاقة الانتاج الزراعي
بتغذية الشعب

(تابع المنشور على الصفحة ٢٧٥ .)

وعلى أساس هذه الاملاح قسم علماء التغذية الأغذية قسمين
١ — أغذية قلوية أو موجبة ٢ — أغذية حمضية أو سالبة

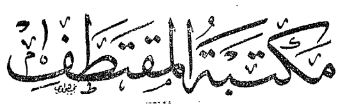
فالأغذية القلوية هي التي بها مقدار زائد من الاملاح القلوية وهي تشمل الفاكهة بشتى أشكالها كالزيتون والتين والزبيب البناتي واليوسفي والليمون الأضاليا والبرتقال والزبيب الدرباني والعنب والبرقوق والبلح والخوخ والمشمش والموز والأناناس والكمثرى والشمام وما الى ذلك وأغلب الخضر،وهذه اما شديدة القلوية كالفجل الاسود والخيار الاخضر والسبانخ أو متوسطة القلوية كالهندبة والخس المكبب والطماطم والبنجر الأحمر وجذور الكرفس وأوراق الكرات أبي شوشه واللفت والجزر الاصفر ورءوس الكرات أبي شوشة والخس الطويل والفجل الاحمر والبطاطس. أوقلويتها أقل من المتوسط كالفول الاخضر والشوكروت والكرنب الابيض والفجل الابيض والقنبيط والبصل وورق الكرفس. أو تقرب من المتعادلة كالقرع الاسطنبولي — ومن الأغذية الموجبة عسل النحل والسكر الجلاب (الغير نقي) وسكر النبات ومن الحبوب القطانية الجافة فول الصويا — ومن الاطعمة الموجبة اللبن بأنواعه كلبن البقر والماعز واللبن الفرز والشرش والقشده ولعلّ لحم المحار oysters هو الوحيد الموجب بين اللحوم

اما الأغذية السالبة أو الحمضية فتشمل جميع الغلال كالشعير والقمح والذرتين الشامية والرفيعة والأرز والدخن وكافة اصناف الدقيق والخبز —واكثرها حموضة الارز المبيّض تبييضاً غير كامل ودقيق الشعير وأقلها حموضة الذرة الرفيعة المقشورة — ومن الاغذية الحمضية الحبوب القطانية كالعدس والفول السوداني والفاصوليا الناشفة واللحوم بكافة اشكالها والاسماك والبيض والجبن بشتى أنواعه والزبد والمرجرين — ومن الخضر السالبة كرنب بروكسل والخرشوف والبسلة الخضراء والقنبيط والكرنب الاحمر وبعض اصناف البصل ومن الفواكه السالبة بعض اصناف من التفاح ومن النقل الجوز واللوز

وكلا الأغذية القلوية والحمضية ضروري جدًّا للتغذية ولكن يجب ان يكون للأغذية الموجبة أي القلوية القدح الأعلى في أطعمتنا

وتجد درجة القلوية والحمضية لكل من الاغذية السالفة مفصلاً في الجداول الآتية التي تبين أيضاً نسبة البروتينات والدهن والكربو ايدرات الذائبة والوحدات الحرارية وما يحويه كل منها من الفيتامينات

[للبحث تتمة]



التأليف العلمي والمؤلفات العلمية
باللغة العربية (١)

على الرغم من قلة الاقبال على المؤلفات العلمية ، في البلدان العربية اللسان ، في وسعي ان اقول ان التأليف العلمي باللغة العربية قد بلغ مستوى جديراً بالاحترام والاعجاب . والفضل في ذلك اولاً وآخراً للمؤلفين انفسهم . ولولا ما يلتهب في نفوسهم من شعلة مقدسة تدفعهم الى النصب في التأليف ، ثم الى تحمُّل الارهاق في الاشراف على الطبع والتصحيح وتكبد النفقات ، لندرت التواليف العلمية التي تتوالى على ادارة المقتطف من جميع انحاء البلدان العربية اللسان

واذا صرفنا النظر عن الكتب العلمية المدرسية — والباعث على العناية بوضعها وطبعها مفهوم — وجدنا المكتبة العربية غير مدقعة الفقر بشتى المؤلفات في علوم الاحياء والطبيعة والكيمياء والنفس والطب على اختلافها . يحضرني منها الآن — وأرجو ان اعذر اذا اكتفيت بالتمثيل دون الحصر — المعجمات العلمية التي وضعها الدكتور محمد شرف بك والدكتوراحمد عيسى بك والفريق الدكتور امين باشا المعلوف ، والمطول في علم البصريات للدكتور مصطفى نظيف والمطول الآخر في الجيولوجيا للدكتور حسن صادق بك الثالث في علم الوراثة للدكتور الخشن وترجمة « اصل الأنواع » لاسماعيل مظهر والمؤلفات الطبية الفخمة التي وضعها طائفة من اساتذة كلية الطب بدمشق والكتب الزراعية التي انشأها الامير مصطفى الشهابي ورجال كلية الزراعة والجمعية الزراعية بمصر والمجلدات التسعة المحتوية على محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية وبعض الكتب التي اخرجتها ادارة المقتطف واهدتها الى قرائها وعشرات غيرها ، تدل دلالة قاطعة على ان التأليف العلمي باللغة العربية ، بلغ مستوى عالياً ، لا اقول انهُ يصحُّ الوقوف عندهُ والاكتفاء بهِ ، فنحن لا نزال في مستهلّ المرحلة لاننا نترجم ونقتبس على الغالب وانما اقول انهُ بشير طيّب بما تنطوي عليهِ النهضة الفكرية الحديثة في بلدان الشرق العربي من بذور القوة الذاتية التي يجب ان تنال من اولي الأمر ومن جمهور المثقفين كل تعهد وتشجيع

والاسلوب في هذه الكتب عالٍ بوجهٍ عام ، ومعظم اصحابها جاهدوا جهاد الابطال في مصارعة الالفاظ الاجنبية ، فعرَّبوها او ترجموها ، فخلَّفوا بذلك لمن يجيء بعدهم ، ولمجمع فؤاد الاول للغة العربية ، تراثاً فخماً يجب المتح من معينهِ

(١) وهو ملخص رد لرئيس تحرير المقتطف على سؤال وجه اليه عن التأليف في العلوم الطبيعية وعلوم الاحياء باللغة العربية

ليس التأليف العامي باللغة العربية جديداً في هذه البلاد ، فأقطاب المصريين الذين نبغوا في شتى العلوم في اواسط القرن الماضي بعد ان تلقوا اصولها في اوربا وضعوا التواليف النفيسة في العلوم المختلفة ولا سيما علوم الطب. وكذلك فعل فريق من المرسلين الاميركيين في لبنان . ولكن التأليف العربي في العلوم اتسع الآن نطاقاً وتنوع فنوناً وألواناً ، مما يدل على ان عدد العلماء والمشتغلين بالعلوم ازداد ازدياداً يتفق من ناحية والهمة المبذولة في نشر العلوم وتخصص المتفوقين، ويساوق من ناحية أخرى حاجة البلاد . والغالب عندي ان ناحية التبسيط في العلوم المختلفة لم توفَ حظها من العناية حتى الآن ، فالمؤلفات العامية في آخر الامر تعتمد في رواجها على الجمهور ، والجمهور لا يقبل الاَّ على ما كان في متناوله ، ومن هنا نرى كيف بلغت كتب بعض المؤلفين من الفرنجة في العلوم المبسَّطة ، ككتب السر جيمز جينز في علم الفلك ، مبلغ الروايات في رواجها

وناحية تبسيط العلم تحتاج الى مرانةٍ خاصة في التخيُّل والكتابة ، علاوة على حاجتها الى التعمق في العلم . ومن هنا أرى وجوب اجتماع طائفة من المشتغلين بالعلوم العصرية ، ووضع برنامج خاص لكتبٍ متعدّدة كلٌّ منها خاصٌ بعلم من العلوم ، على ان يكون العلم فيه مبسطاً تبسيطاً يرضي الخاصة بصحتهِ ويلذ غير المتوفرين بحسن آدائهِ . ولعلَّ كتاب « قصة الميكروب » الذي صنفهُ الدكتور احمد زكي بك معتمداً على كتاب بول دي كروف وكتاب « اساطين العلم الحديث » الذي وضعهُ كاتب هذه السطور معتمداً على عدة مراجع انكليزية، وكتاب « نظرية التطور » للاستاذ سلامه موسى، وكتاب « النجوم في مسالكها » الذي نقله الاستاذ الكرداني بك عن جينز، « وسكان هذا الكوكب » للدكتور محمد عوض محمد من خير الامثلة التي تضرب على هذا النوع من التأليف ، وحبذا الحال لو كثر امثالها في المكتبة العربية

وبعدُ فانني مقتنع اتمَّ الاقتناع ، بان ما طالعتهُ من الكتب العامية باللغة العربية ، دليلٌ على قدرة كتّاب العلوم من اصحاب القلم العربي ، على إخراج او اقتباس دائرة معارف حديثة متوسطة الحجم ، نحن في اشدّ الحاجة اليها الآن ، ولا استبعد بل اني لمتيقّن ان انجازها يكون مرحلة عظيمة الشأن في حياتنا الفكرية، على نحو ما كانت انسكلوبيذيا ديدرو في القرن الثامن عشر

ثم إنني أرجو بعد هذا كلهِ ان ينال المؤلفون العلماء والمشتغلون بالعلم، تشجيعاً وعنايةً من أولي الأمر بشراءِ نسخ من كتبهم لمكتبات المدارس في مختلف البلدان العربية، ومن الجمهور بالاقبال عليها — ولو كان في مطالعتها بعض العناء فاللذة الفكرية العالية لا تؤخذ بغير مشقة — ومن الصحف على اختلافها بذكر هذه الكتب وعرضها على انظار الجمهور . فالمؤلف عندنا لا يزال مؤلفاً وناشراً وطابعاً ومصحح تجارب وموزّع نسخ ، فحسبهُ جزاءً على عملهِ وجهده ، ان ينال شيئاً من الاعتراف والتقدير !

التقدير الانتقادي [١]

فلسفة الجمال فرع من فروع الفلسفة وعر الناحية كثير الشعاب ولكنهُ يستهوي بعض الباحثين لصعوبته ولاتصاله الشديد بالحياة والنقد ، وليست الفلسفة البريطانية غنية في هذا اللون من ألوان البحوث الفكرية مثل ضريبتها الفلسفة الالمانية،ولكبار فلاسفة الالمان جولات بعيدة في هذا المضمار ، وفلسفة الجمال تشغل حيزاً ملحوظاً في فلسفة كانت وهجل وشوبنهور وغيرهم من ممثلي الفكر الالماني ، ورغم ان ادمند بيرك في رسالته عن « الجليل والجميل » يعد من واضعي أسس تلك الفلسفة فان المدرسة الفلسفية في بريطانيا لم تبادر الى اتمام ما بدأه ولم تقبل على بحثه اقبال المفكرين الالمان ، ولقد كان ستيورت مل وسبنسر اكبر ممثلي الفلسفة البريطانية في عصرها وليس لهما مع ذلك أثر مذكور في بحوث فلسفة الجمال

على ان الحال قد تغير منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولمع في سماء الفكر البريطاني مفكرون كبار وجهوا شطراً من عنايتهم الى فلسفة الجمال والفن وفي طليعتهم الفيلسوف المعروف بوزانكين،وتبعهُ في هذا السبيل فريق من الفلاسفة الناشئين أمثال كولنجود وكارِتْ وغيرهما ، ومن ناحية أخرى ظهر بعض النقاد الفنيين وتناولوا الموضوع من نواح أخرى ومن بينهم روجر فراي وكلايف بل وهربرت ريد

والرسالة التي نحن بصددها ترمي الى ايجاد سبيل يستطيع بهِ الانسان ان يفسر لغيره ما يعنيه عندما يقول عن شيء من الاشياء انهُ جميل ولا يترك تقديره لنوبات الحماسة وبوادر الاطراء ولا يكتفي بالاعجاب الصامت والتقدير الأبكم . ومؤلف الرسالة يرى ان ذلك ميسور بالتربية وانماء ملكة التمييز وقوة الحكم على الاشياء ، وذلك رغم ان كل انسان مقيد بذوقه الخاص ومزاجه المحدود وان كنا في الغالب نتأى بأنفسنا عن ان يتخذ ذوقنا الخاص حكماً وفيصلاً لان ذلك لا يحل المعضل ولا يرسل في نواحيهِ ضوءًا ، والتقدير الخالص ضرب من الشعور الفني يستلزم الشرح والتعبير والتعليل والتحليل،ومجرد اعجابنا بالاشياء لا يرينا خصائصها ولا يكشف لنا عن جمالها ، والرسالة تبحث أول الأمر ما هي التقديرات التي يصح ان تصبح مفسرة معبرة وكيف تستعمل كلمة الجمال في الوصف ، والمسألتان في نظر المؤلف متصلتان لان الانسان لا يستطيع ان يسمي الشيء جميلاً إلاَّ اذا كانت عنده فكرة عن الجمال .

والباحثون عن معنى الجمال يؤكدون ان الجمال هو اسم عام للجمال في الموسيقى والشعر والتصوير والنحت والبناء ولكن ما هو ذلك الشيء العام المسمى « الجمال » وما معنى ان الجمال هو صفة مشتركة بين هذه المظاهر التي نصفها بالجمال ؟

(١) Critical Appreciation. By R. W. Church. George Allen & Unwin. London

وفي احد فصول الرسالة تفريق بين الاعمال الفنية الجميلة والاعمال المفيدة فالاعمال الفنية الجميلة تقنعنا وترضينا بنفسها وبنفسها ليس بغيره وأما الاعمال المفيدة فهي ترضينا لأنها وسائل صالحة لغرض آخر

والرسالة مكتوبة بلغة فلسفية صعبة تجعل متابعتها من الامور الشاقة في حين ان مثل هذا الموضوع في حاجة ماسة الى التبسيط والتغيير ولكن مؤلف الرسالة على ما يظهر متأثر بجفاف الاسلوب العلمي وصرامة الطريقة الجامعية. ولا غرابة في ذلك فهو احد اساتذة الفلسفة في احدى جامعات اميركا

علي ادهم

الجيش المصري

العددان — الاول والثاني تصدر كل شهرين — تقوم بنشرها وزارة الحربية والبحرية وبطبعها لمطبعة الاميرية ببولاق

تعني وزارة الحربية اليوم بنشر الثقافة ورفع مستواها بين ضباط الجيش المصري بشتى الوسائل أهمها بإلقاء المحاضرات بنادي الضباط ، وتشجيع تعليم اللغات الأجنبية وكتابة المقالات العسكرية والفنية والتاريخية بمجلة الجيش

أمامنا الآن العددان الأول والثاني من مجلة الجيش المصري . وهما عنوان طيب لصحافتنا الحربية الناشئة في هذا العام . فقد كانت لنا في أيام الخديو اسماعيل جريدة اركان حرب الجيش المصري والجريدة العسكرية قام بتحرير صفحاتها نخبة من ضباطنا الممتازين خلال القرن الماضي وها نحن اليوم نطالع منهم ثمرات قرائح جنودنا النابهين

يحتوي العدد الأول على مجموعة طيبة من المقالات المنوّعة في فنون الحرب والتاريخ العسكري والادارة الحربية وغيرها . اشترك في تحريرها لفيف من كبار الضباط وصغارهم سواء أفي الخدمة العسكرية كانوا أم في التقاعد . وسنلقي نظرة سريعة على محتويات العدد الأول لنبين لقراء المقتطف ما خفي عليهم معرفتهُ من أنواع المعرفة العسكرية

افتتح العدد بكلمة صاحب السعادة اللواء ابراهيم خيري باشا وكيل وزارة الحربية أمام حضرة صاحب الجلالة الملك يوم افتتح نادي ضباط الجيش بالزمالك في يناير ١٩٣٨ ومقال « العصر الذهبي » للأميرالاي حافظ صدقي بك ومقال في الأسلحة الصغيرة للأميرلاي مصطفى بك صادق . ثم هناك مقالات متعددة فنية تاريخية لليوزباشي أحمد حموده تناول فيها التحدث عن النظريات العسكرية والجند والجندية والحرب وفن الحرب والدبابات ومنشإها وبحث في الأسلحة وقطارات السكك الحديدية المدرعة « والشرابنل » والاستعلامات العسكرية وصفوف الجندية الحديثة والمدفعية والتخابر بالاشارات وهانيبال القرطاجني

وهناك مقالات مفيدة للصاغ محمد نجيب في تعميم التدريب العسكري للشبيبة ومقارنتهُ

بالنظم الأوربية . واختيار الضباط للجيش الألماني وخلاصة التجارب التي أجراها الجيش البريطاني عن استعمال الوسائل الآلية وعن اعادة التنظيم والتسليح الجديدين منذ سنة ١٩٣٥ . وديموقراطية الطيران وتعميمه في فرنسا . وكلية الدفاع الوطني في فرنسا

وبحث فني كتبهُ الصاغ المهندس ابراهيم سعد المسيري في الفرق بين الهندسة المدنية والهندسة العسكرية من محاضرة كان سبق لهُ أن القاها أمام جمعية المهندسين الملكية

ومقال في الخطوات الأولى التي يجب اتباعها في تعليم الضابط الحديث لليوزباشي عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي ومقال عن مدفع برتا الالماني للاستاذ توفيق وهبي

وعرض سريع للحرب الأيطالية الحبشية والدروس المستفادة منها للملازم الاول محمد عبد الفتاح ابراهيم

اما محتويات العدد الثاني فنلاحظ فيها التنوع واضحاً وسنذكر رؤوس المقالات وكتابها. صدر العدد بمقال نفيس عن « مصر » بقلم الصاغ المهندس ابراهيم سعد المسيري . الحياة العسكرية الاجتماعية الانكليزية للاميرالاي مصطفى صادق بك . مذكرات في تقدير الموقف للتموين والنقل للقائمقام محمود فهمي عبد الرؤوف بك . جيش تشيكوسلوفاكيا للبكباشي موسى لطفي . اعادة تنظيم كلية اركان الحرب بانكلترا ونصب قيمي ردج التذكاري للصاغ محمد بخيت . السينما والتعليم في الجيش — ونواح عسكرية وجغرافية في عهد اسماعيل لليوزباشي عبد الرحمن زكي. الحرب المقبلة لليوزباشي محمد مجدي الزارع . مشاهدات في الصحراء الغربية لليوزباشي رفعت الجوهري . ماذا كان الحلفاء يعرفون عن خطة ألمانيا . ماذا تحتاج مصر اذا خاضت غمار الحرب . التحصينات والدور الذي لعبتهُ الحصون . ثلاث مقالات نفيسة للملازم الاول محمد عبد الفتاح ابراهيم . تقسيم المدفعية — للملازم الاول محمود حسين فراج . حصون ماجينو — للملازم الاول محمد صفوت . الهجوم الاول بالغاز — للملازم الاول محمد فريد سلامه

وقد قام محرر المجلة الاول بتناول موضوعات متعددة أهمها الاستعلامات العسكرية والهندسة العسكرية والمدفعية الثقيلة والازمة التشيكوسلوفاكية

وفي كل عدد من اعداد المجلة مجموعة نفيسة من الصور المختلفة . وقد صدر العدد الأول بصورة لحضرة صاحب الجلالة الملك . كما صدر العدد الثاني بصورة ملونة لجندي مصري من المشاة بملابسه العسكرية في عصر المغفور له محمد علي باشا وهي من مجموعة الرسوم التي اهداها الى المتحف الحربي حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

والمقتطف يهنئ الزميلة الجديدة والزملاء الجنود . . . . ويشكر لوزارة الحربية هديتها النفيسة الينا . . . .

الصحافة العربية في البرازيل

١ — مجلة الشرق

يحمل الاستاذ موسى كريّم بين جنبيهِ قلباً فيّاضاً بحب الشرق جياشاً بأجمل الذكريات له وهو من خيرة الصحفيين الذين انجبتهم العربية ، ومن أخلص خدّامها وطنية ، انشأ منذ أحد عشر عاماً مجلة «الشرق» للدعاوة عن الشؤون البرازيلية وماَني النزلاء الشرقيين في البرازيل فما لبث أن أحيا بها الحركة الادبية التي كانت تحتضر في العالم الاميركي واجتذب بين خمائل صحيفته أطيار العربية الصادحين في ذلك المهجر النائي فكانت الشرق وما زالت مجمعاً أدبيًّا حافلاً باعذب انغام تلك القيثارة الذهبية التي يتردد صداها في العالم العربي . وما من كاتب أو شاعر هناك إلاَّ وله أثر فيها .وصحيفته برهان ناصع على مقدار الجهد والتضحية اللذين يبذلهما دون ضنّ فهي ولا شك تضارع ارقى المجلات الغربية تفنناً في الطباعة والتصوير وهي الى جانب ذلك افصح لسان عن رقيّ الحالة العربية في البرازيل

ولقد قدرت الحكومة السورية في الاستاذ موسى كريم هذا الجهد في خدمة الشرق فمنحتهُ وسام الاستحقاق السوري . واني أقتطف هنا كلمة من خطاب الاستاذ داود بك الخوري ممثل الحكومة السورية الذي تولى تعليق الوسام على صدر صاحب تلك المجلة في الحفلة الرائعة التي أقيمت في سان باولو لهذا الغرض : « الاستاذ موسى كريم قد خدم أمته من هذه الناحية خدمة جلى مع أنهُ طرق في سبيل هذه الخدمة اصعب الطرق وتصدّى لعمل كان الفوزفيهِ يعدّ من قبيل المستحيلات ولكنهُ بفضل جهاده الكثير وتضحياته الجمة توصل الى جعل ما كان في عداد المستحيلات حقيقة واقعة إذ أبرز الى عالم الصحافة العربي مجلة تضاهي في جمالها وحسن تنسيقها وأهمية منشوراتها أفضل المجلات الاجنبية وقد جعلها معرضاً للأدب والعلم والصناعة . ومساعيهِ الأخيرة في سبيل جمع الاعانات الى منكوبي الطوفان في سورية أقرب شاهد على صحة وطنيته وصدق عزيمتهِ » . ونحن إذ نهنئهُ بهذا التقدير السامي ننتهز الفرصة لتهنئته بالخطوات الواسعة التي خطتها مجلتهُ الغراء في الاحدعشر عاماً الماضية التي توّجت بعدد الميلاد الأخير الذي جمع الى روعة الاخراج تحفاً ادبية بديعة

٢ — مجلة العصبة

أصدرت مجلة العصبة عددها الممتاز الذي ختمت بهِ العام الرابع من حياتها ، وهو في الواقع من الآثار الادبية الرائعة التي غنمتها المكتبة العربية فقد ضم خير ما تفيض بهِ قرائح أدباء العرب في البرازيل والاقطار الشقيقة

ولهذه المجلة خطة فريدة في خدمة الأدب العربي أخذت على عاتقها ان لا تحيد عنهُ . فهي لا تفرد صحائفها الاَّ لكل طريف رائع لا تبالي في سبيل هذه الخطة بالتضحيات التي تبذلها . ولا عجب فصاحبها ورئيس تحريرها الاستاذ حبيب مسعود في طليعة أدباء العربية جمال أسلوبٍ وروعة بيانٍ واتساع أفق

ولقد استطاعت هذه المجلة على حداثة عهدها أن تجتذب اليها أنظار الأدباء في ربوع العربية فقدروا فيها تلك الخطة السامية ، فحفلت صحائفها بأروع آيات البيان العربيّ الى جانب الزهرات الغضّة التي نقلتها من حدائق الغرب . آملين ان تستقبل عامها الخامس بالحفاوة التي هي خليقة بها

الصيرفي

مجلة المسرة

اصدرت مجلة المسرة الزاهرة عدداً ممتازاً بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تأسيسها وقد تصفحناه فوجدناه حافلاً بالمقالات المختلفة في موضوعات طريفة متنوعة ما بين دينية واجتماعية ولغوية وصحية . وفي هذا العدد مقالان نفيسان لحضرة الاب كامل مدور البولسي عن « الفن والذوق في كنائسنا » و« حالة التشريع في مختلف البلاد لمكافحة الشيوعية » ومقالات اخرى بقلم فريق من افاضل الكتاب والباحثين والمصلحين

فنهنىء « المسرة » بعيدها الفضي ونرجو لها المضي في خدمة الدين والعلم بقدم ثابتة حتى تشهد عيدها الذهبي والماسي بهمة حضرات القائمين على تحريرها

مصور الجيش العراقي

١٣٢ صفحة من القطع الكبير — مطبعة المعارف ببغداد

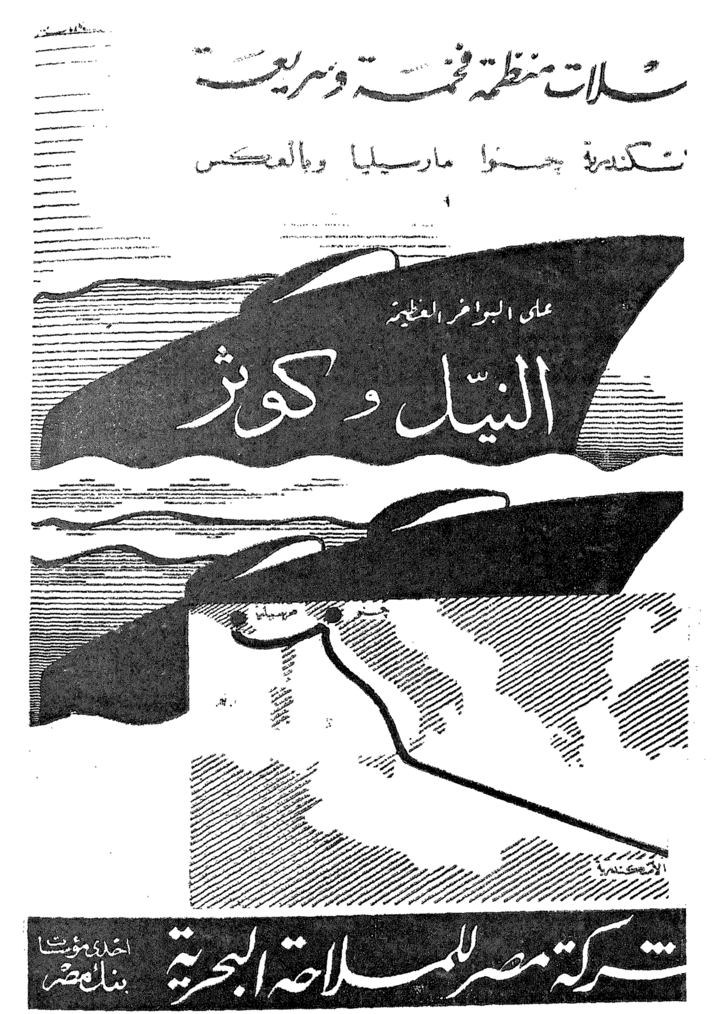
أهدى الينا مكتب الأخبار العراقي للصحافة والدعاية والاستعلامات ببغداد لمديره السائح العراقي الاستاذ يونس بحري نسخة من هذا الكتاب الذي صدر أخيراً وهو يحتوي على مجموعة رسوم متقنة مصورة برسم شعار الدولة العراقية فالعلم العراقي فخريطة العراق فرسم المغفور لهُ الملك فيصل الاول منشىء الجيش العراقي فجلالة الملك غازي الاول القائد العام للجيش العراقي فرسم سمو الامير فيصل ولي عهد المملكة العراقية فرسوم كبار الجيش وغير ذلك من الرسوم المبينة عرض الجيش البري والجوي ومختلف أنواع التمارين وجميع هذه الرسوم تدل على مناحي تقدم الجيش والمراحل التي قطعها في سيره على غرار الجيوش الراقية الحديثة في التدريب والتهذيب وتجهيزه بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية على اختلاف أنواعها

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعاً متقناً في مطبعة المعارف ببغداد على ورق أبيض وقد بذلت لاصداره عناية كبيرة

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الرابع والتسعين


ارتدى يا سيدتى حرير مصر الطبيعى
تبدى عظيمة رائعة
ان أصناف الحرير التى تنتجها مصانع شركة مصر لنسيج الحرير قد تفوقت على جميع أنواع الحرير الأخرى فضلا عن اعتدال الأسعار
اطلبوا حرير مصر الطبيعى من
شركة بيع المصنوعات المصرية
ومن كافة المحلات الأخرى
شركة مصر لنسيج الحرير
اللوزى بك
سابقا



ـسلات منظمة فخمة وسريعة
ـسكندرية جنوا مارسيليا وبالعكس
على البواخر العظيمة
النيل وكوثر
جنوا
مرسيليا
الاسكندرية
شركة مصر للملاحة البحرية
احدى مؤسسات بنك مصر

« حاملة الفاكهة »

للرسام حسين بدوي عرضت في معرضه بفندق السكو نتنتال

[في هذه اللوحة تآلف عجيب بين الجمال وسحر الخيال فتقاسيم جسم الفتاة وهذا الوضع الفاتن . والحركة الموسيقية . والثوب المتموج بغلائله المنسجم مع الجسم والانشاء الكلي للوحة ، اي انسجام — هذه جميعاً بتآلفها وتناسقها تقف بعينيك امام حفل من الجمال المنظور بينما تنتقل بروحك الى مسارح الخيال حيث تسمع كأنما جوقة موسيقية تعزف احد مقاطع « الهارموني »]



المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الرابع والتسعين

١ ابريل سنة ١٩٣٩ — ١١ صفر سنة ١٣٥٨

المتفجرات

الاساس العلمي للمتفجرات الحديثة

النتروجين عنصر اساسي في جميع الكائنات الحيَّة ، فحاجتها اليه دائمة والاستغناء عنهُ مستحيل . ومع ذلك نجد هذا العنصر الحيويّ يفوق جميع العناصر الاخرى في تدمير الحياة لأنهُ عنصر اساسي كذلك في جميع المواد المتفجرة تقريباً

فالبارود خليط من نترات البوتاسيوم (سالتبيتر او ملح البارود) وفحم الخشب والكبريت . وعند ما ينفجر البارود لا يختلف فعلهُ من حيث المبدإ عن احتراق الشمعة . وانما الفرق بينهما ان الاول فعله سريع جدًّا والآخر بطيء . تؤثر الحرارة العالية في مواد البارود فتنحلّ وتتركب تركباً جديداً . ينطلق الاكسجين من نترات البوتاسيوم ويتحد بفحم الخشب فيتركب ثاني اكسيد الكربون ، وينطلق النتروجين حرًّا . ويتحد البوتاسيوم بالكبريت فيتركب كبريتور البوتاسيوم وجميعها مواد غازية . الاَّ ان الاحتراق والتركيب يحدثان بسرعة عظيمة ، وتتولد الغازات في اثناء التركيب الجديد تولداً سريعاً فلا تتصرف على مهل ، كما يحدث في الغازات الناشئة عن احتراق الشمعة . فاذا كان البارود محصوراً في نطاق ضيق ليس لهُ إلاَّ منفذ صغير ، انفجرت الغازات من هذا المنفذ . ولو احترق البارود في مكان طلق لما حدث الانفجار لأنهُ يتاح لهذه الغازات ان تنطلق وتتمدَّد في الفضاء من جميع النواحي ، فاذا وضع البارود في مدفع او بندقية او ثقب عميق في صخر ، حدث الانفجار لأن هذه الغازات المتولدة من احتراقه تتولد بسرعة وتتمدَّد فتحدث ضغطاً عظيماً فاذا كان المنفذ مقفلاً في وجهها مزقت جدران الوعاء الذي يحيط بها

فالمادة المتفجرة هي مادة قوامها جزيئات غير مستقرَّة التركيب . فاذا صدمت صدمة لطيفة أو عنيفة او اذا قرِّب منها ثقاب مشتعل كان ذلك كافياً لسلبها استقرارها الوقتي فتبدأ ذراتها تتركب تركُّباً جديداً تنشأ منهُ الغازات فتحدث الضغط والانفجار او التمزيق

ومن غرائب الامور ان النتروجين في حالتهِ الصرفة عنصر غير فعَّال ، يصعب حملهُ على التفاعل مع عناصر اخرى لاحداث مركبات جديدة . ولكنهُ اذا كان داخلاً في مركبات كيميوية تراهُ مستعدًّا ان ينفصل عن الذرَّات التي اشترك معها في احداث تلك المركبات ، وهذه الخاصة من خواصهِ تجعلهُ من العناصر التي لا يكاد يستغنى عنها في صناعة المتفجرات الشديدة

الامونيا (النوشادر) من مركبات النتروجين التي يحتاج اليها الانسان في ايام السلام ليصنع منها الاسمدة الكيميوية مثلاً ، وهي تصنع بالاسلوب الذي ابتدعهُ البحَّاثة الكيميوي الالماني هابر من نتروجين الهواءِ الصرف . ولكن الحامض النتريك المركَّب من جزءٍ من النتروجين وجزءٍ من الايدروجين وثلاثة اجزاءٍ من الاوكسجين ، هو أساس صناعة المتفجرات

ومن ابرع ما وصف بهِ النتروجين كلام للعالم الاميركي ادوين سلوسن Slosson قال : ان فائدة النتروجين في الحرب ترتدُّ الى كون ذرَّاتهِ تفرُّ من الميدان جملة واحدة . وقد تكون ملايين منها مستقرَّة في بندقية او قنبلة مدفع ، فاذا رجَّت او حرقت ارتجفت ذرَّات النتروجين ارتجافاً عنيفاً وعندئذٍ يتعذَّر حصرها . ثم تسري الرجفة في كتلة المادة المتفجرة كلّها ، فتهجم ذرَّات الايدروجين والكربون على ذرات الاكسجين ، ثم تسرع تبحث عن منفذ تخرج منهُ وهي في حركتها هذه ونشاطها تزداد حرارة . ولما كان المنفذ الوحيد في المدفع هو فوهتهُ ولما كانت هذه الفوهة مسدودة وفي الوسع ازالة سدادتها بشيءٍ من القوة ، فأن ضغط هذه الغازات يزيلها فتنطلق من الفوهة وتقذف اميالاً عنها . واذن فانطلاق المدفع الخارجي يسبقهُ انطلاق داخلي من جزيئات الغازات على مؤخر السدادة او القذيفة والعامل الفعَّال في هذا هو ذرة النتروجين المتحدة بذرتين من الاوكسجين . وهذه الطائفة من الذرَّات يطلق عليها الكيميوي اسم « طائفة النترو »

في المواد المتفجرة القديمة كالبارود كانت جزيئات النترو NO_2 تستخرج بتولُّدها كما قدمنا من نترات البوتاسيوم (ملح البارود) . ولكن عنصر البوتاسيوم نفسهُ غير مرغوب فيهِ في باطن المدفع لانهُ يتلفهُ . ولذلك يستخرج الكيميويون جزيئات « النترو » من نترات البوتاسيوم ثم يضموها الى مركَّب من الكربون والايدروجين يحترق فيولد غازات ولكنهُ لا يترك أثراً وراءهُ . وأشهر هذه المركبات وأبسطها هو مركَّب الغليسرين وهو على ما تعلم سائل لزج صافٍ لا لون له ولكن طعمهُ حلو المذاق وهو الذي تمسح بهِ اليدان عند ما تتقشفان

فاذا خلط الغليسرين بالحامض النتريك والحامض الكبريتيك تولَّدت مادة تدعى

« نتروغليسرين » وهي مادة ثقيلة كالزيت الثقيل . ويقول الدكتور سلوسن في وصفها « انها مادة يسهل تركيبها ولكنني لا اشير على احد بصنعها إلاَّ اذا كان مؤمَّناً على حياته »

فاذا كان « النتروغليسرين » سائلاً كان تناوله ونقله في الصناعة او الحرب شاقاً محفوفاً بالخطر وتسهيلا لتناوله يخلطه الكيميوي بمادة تمتصهُ كالنشارة مثلاً او بمادة تعرف باسم كيزلجور kieselguhr وهي تراب طبيعي قوامهُ بقايا « الدياتوم » وهي أشكال دنية من النبات تعيش تحت الماء وتفرز كثيراً من المادة الرملية (سيليكا) . والدياتوم من الاحياء المعروفة في هذا العصر ولكن (الكيزلجور) ليس إلاَّ بقايا كائنات الدياتوم التي كانت حية في العصور المتغلغلة في القدم

فاذا امتصت المادة الترابية النتروغليسرين، صُنعت عصيًّا وتعرف عندئذٍ باسم « الديناميت » وتستعمل كثيراً في نسف الارض عند شق الطرق في الجبال او فتح المحاجر

ولكن الغليسرين لا يستعمل دائماً في صنع المتفجرات ، وتحلُّ محلَّهُ مادة أخرى قوامها الكربون والايدروجين والاكسجين ونعني مادة « السلولوس » وهي المادة الخشبية في النبات وأشهر أشكالها المستعملة في صناعة المتفجرات هي رُبُّ الخشب والقطن . فاذا صنعت المتفجرات من القطن عرفت باسم قطن البارود gun cotton . ومن غرائب الصناعة ان مادة السلولوس هذه تستعمل في الصناعات السلمية فيصنع منها السكر والورق والحرير الصناعي . ولكنها اذا عولجت بالحامض النتريك والحامض الكبريتيك خرج منها قطن البارود او النتروسلولوس وكلاهما من المتفجرات الشديدة . هذه هي المواد الأساسية في البارود الذي لا دخان لهُ ، وهو البارود الذي لهُ أكبر شأن في الحروب الحديثة . ولكن قطن البارود ، يبدو كالقطن المندوف ولذلك يتعذر حشكهُ في المدفع فيحوّلهُ الكيميويون الى مادة عجينية القوام يسهل افراغها في القالب المطلوب وذلك بحلها في الأثير او الكحول او الاستيون

والاستيون مادة سائلة لا لون لها ولكن رائحتها حريفة وهي شديدة الالتهاب وأهم وجوه استعمالها لحل قطن البارود والسلولويد . فاذا عولج قطن البارود على النحو المتقدم سهل افراغهُ في قوالب عصوية الشكل او جعلهُ حبوباً مختلفة الحجوم

وإذن نحن أمام متفجرين أحدهما سائل وهو النتروغلسرين يجب ان يمتصهُ جسم قابل للامتصاص ، والآخر قطن البارود يجب ان يمتصَّ سائلاً حتى يلين ويسهل افراغهُ في شكل يجعلهُ قابلاً للاستعمال . فلماذا لا يمتصُّ أحدهما الآخر فنفوز بمادة مزدوجة التفجُّر ؟ وهي فكرة معقولة ولكن الفرد نوبل ، صاحب جوائز نوبل المشهورة ، كان أول من فكر في تحقيقها ففاز بما يريد سنة ١٨٧٨ وجنى من ذلك الملايين

وُلد الفرد برنارد نوبل في استوكهلم في ٢١ اكتوبر سنة ١٨٣٣ ومات في سان ريمو في ١٠

دسمبر سنة ١٨٩٦ في الثالثة والستين من عمره . وبموجب الوصية التي تركها وقف جانباً من ثروته على ترقية العلم والادب واحكام روابط الوئام الدولية اذ اشترط ان يقسم ريع هذا الوقف خمس جوائز تمنح للمبرزين من الباحثين في ميادين الطبيعيات والكيمياء والطب والأدب والسلام

وتبدأ قصة هذه المؤسسة سنة ١٨٤٦ إذ اكتشف اسكانيو سوبريرو من سكان مدينة تورين مادة النتروغلسرين ووصف طريقة تحضيرها في رسالة بعث بها الى أكاديمية العلوم بتورين في فبراير سنة ١٨٤٧ وفيها بسط الصفات التي تجعل هذا المركب مادة متفجرة خطرة. وبعيد ذلك ألقى خطبة في مؤتمر علمي ملتئم في البندقية (فينيسيا) فقال فيها : « ولا نستطيع ان نبت الآن في الفوائد التي نستطيع جنيها من هذا السائل الذي يتفجر بصدمة » . وعليه ظل النتروغليسرين الى اواخر العقد السابع من القرن الماضي تحفة علمية في نظر العلماء وظل استعماله كمادة مفرقعة في حيز النظر لما تنطوي عليه معالجتهُ من الخطر الداهم

وكانت سنة ١٨٦٧ وكان نوبل قد اخذ يصنع « النتروغلسرين » في معامله . ولكنهُ كان مهدداً بالخطر من كل ناحية . ذلك ان باخرة من البواخر التي كانت في طريقها الى شيلي مشحونة بهذه المادة حدث فيها انفجار وهي في عرض البحر فغرقت بمن عليها . وما حدث لها حدث لسكك الحديد التي كانت تنقل هذه المادة الفتاكة . حتى معامل نوبل نفسه اصيبت بما اصيبت به الباخرة والسكك الحديدية من قبل فتفجرت المتفرقعات فيها وقتل في الحادث شقيق نوبل الاصغر

قلنا : وكانت سنة ١٨٦٧ وكان نوبل يساعد بعض عماله في تنزيل حمل عربة من عرباته يشتمل على عدة صناديق من النتروغلسرين . وكان أحد هذه الصناديق قد ثقب فخرّت المادة المروّعة على الارض وامتزج قليل منها بالرمل. ولم يلبث ان تجمد هذا المزيج . فسرَّ نوبل لهذه الصدفة الغريبة لأنها كشفت لهُ عن طريقة تمكنهُ من تحضير النتروغلسرين تحضيراً يمكنهُ من حمله ونقله من غير ان يتعرض للانفجار لدى أقل صدمة يصاب بها. وكذلك صنع الديناميت. وبعد ذلك استنبط مفرقعاً جديداً أقوى فعلاً من الديناميت على انهُ رخو وشفاف كالهلام وذلك بمزج النتروغليسرين بمادة مفرقعة أخرى تدعى قطن البارود . وسنة ١٨٨٩ استنبط باروداً لا دخان لهُ سماهُ بلستيت ومن الديناميت وما تلاهُ من المفرقعات جمع ثروتهُ التي مكنتهُ من أن يصبح محسناً للانسانية بعد مماته

وأدرك نوبل حالاً أثر المفرقعات في الحروب مع انهُ طلبها اولاً للاستعانة بها في فروع الهندسة المختلفة. ولولا اكتشافهُ للديناميت وما تلا الديناميت من المفرقعات لكان التقدم الذي تمَّ في فروع الهندسة العملية وأعمال التعدين متعذراً . فان جميع الاعمال الهندسية العظيمة كحفر ترع بناما ، وحفر انفاق القطرات في المدن الكبيرة ، ومد خطوط السكة الحديدية في الجبال ،

وبناء المرافىء الكبيرة وحفر المناجم، اعتمدت على الديناميت وأشباهه في سرعة انجاز الاعمال

ولكن نوبل كان يدرك ان مستنبطاته ومكتشفاته قد تستعمل في غير الاغراض الصناعية التي صنعت لها اولاً اي في الحروب الدولية. وهذا الادراك حلَّ في عقله همّاً تحوّل الى وسواسٍ جعل أثرهُ يزداد على مرّ السنين. فصار السعي لاحكام روابط السلام بين الناس موضوع عنايته الاول، والراجح ان العلم والفلسفة لم يكونا حينئذٍ في مقدمة المسائل التي عني بها

بعد هذا الاستطراد نقول انهُ بعد ضمّ النتروغليسرين الى قطن البارود يضاف اليهما قليل من هلام البترول (الفازلين) فتعرف المادة الجديدة حينئذٍ باسم الكورديت وهي من اهم المتفجرات الحربية في هذا العصر وهي تعرف باسم كورديت لأنها تجهز بعد معالجتها الكيميوية في شكل حبل Cord. وعلاوة على المتفجرات التي اشرنا اليها وماكان من قبيلها هناك صنفان من المتفجرات لها شأن كبير عند رجال الحرب

هناك مركّب يدعى الحامض الكربوليك (الفنيك) وهو المستعمل مطهراً. فهو من هذا القبيل من المواد التي تقي الكائنات الحية من الفساد. ولكنهُ اذا عولج بالحامض النتريك والحامض الكبريتيك تولّدت مادة بلورية صفراء تدعى الحامض البكريك، والكيميويون يفضلون ان يطلقوا عليها اسم (تراي — نترو — فينول). والحامض البكريك متفجر شديد ولكنهُ يمزج مادة بمادة «الكولوديون» وهي شكل من اشكال قطن البلوود. ثم تضغط المادة الجديدة ويطلق عليها اسم يختلف باختلاف البلاد التي تصنع فيها. فالانكليز يدعونها «ليديت» Lyddite والفرنسيون «ميلينيت» Melinite واليابانيون «شيموز» Schimose

والصنف الآخر من المتفجرات قائم على اساس مادة غير مشهورة شهرة الغليسرين او القطن او الحامض الفينيك وهي مادة تولوول Toluol المستخرجة من مادة التولوين toluene وهي من مُستقطرات قطران الفحم الحجري. هذه المادة مركب من الكربون والايدروجين وهي شديدة الالتهاب كالبنزين فاذا عولجت بالحامض النتريك القوي اجتذبت من الحامض جزيئات «النترو» فتصبح مادة تعرف باسم (تراي — نترو — تولوول). ولكن هذا الاسم الطويل اختصر بالحروف الاولى من اجزائه الثلاثة فاصبح مادة .T.N.T المتفجرة المشهورة. وهي تمتاز على المتفجرات المصنوعة من الحامض البكريك. ذلك بأن الحامض البكريك يتلف فلز المدافع وقد يولّد مركبات شديدة الاحساس، فتنطلق المادة المتفجرة من تلقاء نفسها احياناً. اما مادة .T. N. T فلا تتفاعل مع فلز المدافع ويسهل حفظها ومن الممكن ان تقرب منها ثقاباً مشتعلاً او ان تطلق عليها رصاصة مسدَّس فلا تنفجر. ولكن اذا رجَّت رجَّة من ذبذبة معينة انفجرت انفجاراً عنيفاً. يقابل هذا ان تناولها يصبغ اليد صبغاً اصفر ويحدث حروقاً فيها وليس بالنادر ان يصاب متناولوها بالتسمم

اغنية الجندول

في كرنفال فينيسيا

لعلي محمود طه المهندس

أين من عينيَّ هاتيكَ المجالي يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ
أين عشاقُكِ سُمَّارُ الليالي أين من واديكِ يا مهدَ الجمالِ
موكِبُ الغيدِ وعيد الكرنفالِ وسُرى الجندولِ في عرضِ القنالِ

بين كأسٍ يتشهَّى الكرمُ خمرَهْ
وحبيبٍ يتمنى الكأسُ ثغرَهْ
إلتقتْ عيني بهِ اوّلَ مرَّهْ
فعرَفتُ الحبَّ من أوّلِ نظرهْ

أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ

مرَّ بي مستضحكاً في قربِ ساقي يمزجُ الراحَ بأقداحٍ رقاقِ
قد قصدناهُ على غيرِ اتفاقِ فنظرنا، وابتسمنا للتلاقي

وهوَ يَستهدي على المَفْرِقِ زَهرَهْ
ويُسوّي بيدِ الفتنةِ شَعْرَهْ
حينَ مسّتْ شَفَتي أوّلُ قطرَهْ
خِلْتُهُ ذوّبَ في كأسيَ عِطرَهْ

أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ

ذَهبيُّ الشَعرِ شرقيُّ السِّماتِ   مَرِحُ الأعطافِ ، حلوُ اللَّفتاتِ
كلَّما قلتُ لهُ خذْ قال : هاتِ   يا حبيبَ الروحِ ، يا أُنسَ الحياة

أنا من ضيَّعَ في الأوهامِ عُمرَهْ
نَسِيَ التاريخَ أو أُنْسِيَ ذِكْرَهْ
غيرَ يومٍ لم يَعُدْ يذكُرُ غيرَهْ
يومَ أنْ قابلتُهُ أوَّلَ مرَّهْ

أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي   يا عروسَ البحرِ ، يا حُلْمَ الخيال

قالَ : من أينَ ؟ وأصغى ورنا   قلتُ : من مصرَ ، غريبٌ هَهُنا
قالَ : إنْ كنتَ غريباً فأنا   لم تكنْ ڤينيسيا لي مَوْطِنا

أينَ مني الآن أطيافُ البُحَيْرَهْ
وسماءٌ كستِ الشطآنَ نَضرَهْ
منزلي منها على قمةِ صخرهْ
ذاتِ عينٍ من معينِ الماءِ ثَرَّهْ

أينَ من لوزانَ هاتيكَ المجالي   يا عروسَ البحرِ ، يا حُلْمَ الخيالِ

قلتُ : والنشوةُ تسري في لساني   هجتَ بي الذكرى ، فأينَ الهرمانِ ؟
أين وادي السحرِ صدَّاحَ المغاني ؟   أينَ ماءُ النهرِ ؟ أينَ الضفَّتانِ ؟

آهِ لو كنتَ معي نختالُ عَبْرَهْ

بشراعٍ تَسبحُ الأنجمُ إثرَهْ
حيث يَروي الموجُ في أرخمِ نَبرَهْ
حُلْمَ ليلٍ من ليالي كيلوبترَهْ
أين من عينيَّ هاتيك المجالي يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ

أيها الملاحُ قفْ بينَ الجسورِ فتنةِ الدنيا وأحلامِ الدهورِ
صفّقَ الموجَ لولدانٍ وحورٍ يُغرقون الليلَ في يَنبوعِ نورِ
ما ترى الأغْيَدَ وضَّاءَ الأسِرَّهْ؟
دقَّ بالساقِ وقد أسْلمَ صدْرَهْ
لِمُحبٍّ لفَّ بالساعدِ خَصْرَهْ؟
ليتَ هذا الليلَ لا يُطْلعُ فجرَهْ!
أينَ من عينيَّ هاتيكَ المجالي ياعروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ

رَقَصَ الجُندولُ كالنجمِ الوضيّ فاشْدُ يا ملاّحُ بالصوتِ الشجيّ
وترَنَّمْ بالنشيدِ الوثنيّ هذه الليلةُ حُلْمُ العبقريّ
شاعتِ الفرحةُ فيها والمَسَرَّهْ
وجَلا الحُبُّ على العُشّاقِ سِرَّهْ
يَمنْةً مِلْ بي على الماءِ ويَسرَهْ
إنّ للجندولِ تحتَ الليلِ سِحرَهْ
أينَ يا فينيسيا تلك المجالي أينَ عُشاقُكِ سُمّارُ الليالي
أينَ مِن عينيَّ أطيافُ الجمالِ مَوْكبُ الغيدِ وعيدُ الكرنفالِ
يا عروسَ البحرِ، يا حُلْمَ الخيالِ!!



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول في جامعة فؤاد الاول والى يمين جلالتهِ في يسار الصورة كما تواجهها صاحب المعالي وزير المعارف فمدير الجامعة

جامعة فؤاد الاول

تستقبل جلالة الملك فاروق الاول

مغزى الحفلة الجامعية الملكية وأثرها

في يوم ٢٨ فبراير ١٩٣٩ احتفلت جامعة فؤاد الاول في مشهد مهوب جديد بجلالة العلم، باضفاء لقب دكتور فخري على حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول . وهذا الحدث فضلاً عن مكانته التاريخية فان له أثراً عظيماً في توجيه الفكر المصري نحو البحث العلمي وتشجيع حرية الفكر وحث الشباب على المضيّ في البحوث العلمية والعملية المنتجة التي يحتاج اليها الشرق العربي في هذا العصر أشد الاحتياج . فان طابع هذا العصر، وهو طابع المدنية الحديثة التي أخذت مصر بأكثر أسبابها ، انما يحوّل الفكر الى تيار العمل ، ووزن الاشياء العلمية بما لها من الأثر العملي في زيادة الرفاهية البشرية ، وبما لها من المكانة في توسيع آفاق الفكر الانساني . ولا ريب في ان تفضل جلالة الملك المعظم بقبول هذه الاجازة الجامعية السامية دليل على ان جلالته يحيط هذا الاتجاه بتشجيعه السامي ويعزّز في النشء الميول الضرورية للأخذ بالاسباب العلمية البحتة، وجلالته في عمله هذا انما يتأثر خطوات المغفور له والده العظيم الذي كان له على الجامعة اكبر الفضل في انشائها اولاً وتعهدها بما ينمي دوحتها من بعد ذلك . وقد اعرب صاحبا المعالي وزير المعارف ومدير الجامعة عن هذه الحقائق ابلغ تعبير في الخطبتين النفيستين اللتين القياهما في ذلك الحفل الجامعي الملكي الجليل واليك نصهما [محرر المقتطف]

***

خطبة وزير المعارف

مولاي صاحب الجلالة :

ارجو ان تسمحوا لي بأن ارفع الى مقام جلالتكم الأسمى باسم حكومة جلالتكم وباسم مجلس الجامعة وباسم الجامعيين كلهم اساتذة ومتخرجين وطلاباً ابلغ آيات الشكر لتفضلكم

بتشريف هذا الاجتماع وبقبول درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة فؤاد الاول . بل ان عبارات الشكر والحمد يامولاي ليقصر أبلغها دون التعبير عما يخالج نفوسنا وما يفيض عنها من عرفان لجميل جلالتكم ولما يدل عليه تعطفكم السامي على الجامعة من معنى كريم

مولاي: لقد تبنى المغفور لهُ والدكم العظيم هذه الجامعة مذ برزت فكرتها الى حيز الوجود فحاطها من عنايته وعطفه بما زادها نمواً وانتاجاً وبما جعل معاهدها موضع اعجاب العلماء من مختلف الامم ومحل تقديرهم واكبارهم فلا عجب وقد كان ذلك شأنها أن تحظى من رعاية جلالتكم ومن عطفكم بما حظيت به في كل حين . وان يكون تفضل جلالتكم اليوم بما تفضلتم به عليها مما يزيد رجالها وابناءها غبطة وابتهاجاً ومما يجعل المستقبل امامها مشرقاً بالآمال في اطراد نهضتها حتى تبلغ بمصر في أقرب وقت أعز مكان وأكرمه وأمنعه

***

مولاي : لقد كانت غاية البلاد من اقامة الجامعة في اوائل هذا القرن العشرين ان تبلغ مصر بواسطة التعليم الجامعي والبحث العلمي ما بلغتهُ أرقى الامم في سلم الحضارة وان تكشف بنور العلم من اسرار الطبيعة ومن سنة الله في الكون مايزيدها سلطاناً على الحياة في جانبيها المادي والمعنوي وان تصل بذلك الى المقام الانساني السامي الذي يمكنها من مشاركة الامم في العمل على تقدم الانسانية نحو الكمال . واذا كانت الامم التي سبقتنا الى العلم والتي اتخذت من الجامعات موائل للثقافة الانسانية العليا قد استطاعت — بفضل جهود الاجيال المتعاقبة من ابنائها — ان تقيم في العالم هذه الحضارة التي زادتهُ بالعلم رخاء ورفعت العلم والأدب والفن فيه مكاناً علياً ، فان مصر قد حرصت على ان تسرع الخطى بالاستفادة من تجارب هذه الامم ومن علمها مستعينة لذلك برجال العلم والفن من الاجانب وبالبعوث توفد الى جامعات اوربا ليعود ابناؤنا المصريون اليها بثمرات تحصيلهم وبثمرات تفوقهم وابتكارهم . ولقد وجدت هذه الجامعة من جلالة المغفور له والدكم العظيم اعظم العون لها في هذا وفي ذاك مذ تبناها وليدة الى ان تركها قوية ناهضة تجاهد في سبيل العلم والاصلاح عن طريقه وتعمل لتنشر في مصر وفي الشرق العربي كله أنفع الآثار لاحياء الشعوب وان تبث فيهما الثقافة الجامعية التي تبعث الى النفوس قوة الايمان الصادق بالحق وتعوّدها التضحية الخالصة في سبيله

مولاي : لقد كان في مقدور الجامعة ان تكون اسرع سيراً وأغزر في العلم والثقافة انتاجاً لو انها احتفظت بجميع رجالها الذين عادوا اليها بعد ان اوفدتهم كلياتها في بعوثها المختلفة والذين ابدوا في السنوات التي اضطلعوا باعباء البحث والتدريس فيها من الكفاية والمقدرة ما يغبطهم

عليه العلماء الممتازون في ارقى الامم وما كان خليقاً ان يقر نماؤه في لغتنا وبلادنا احدث ما وصل اليه البحث العلمي في نواحيه المتشعبة . لكن الجامعة آثرت ان لا تضن بهؤلاء الرجال على سائر نواحي النشاط في الدولة ليوجهوها وجهة صالحة ولينشروا في جوها روح التقدم وأسباب التفكير السليم وليمهدوا بذلك الى النهوض الصحيح والسير السريع في الطريق السوي . وقد فعلوا. وان من بين رجال الدولة الممتازين اليوم يا مولاي عدداً عظيماً من اولئك اليهم يرجع الفضل في استغناء مصر عن معاونة الاجانب في نواحي النشاط التى يعملون فيها واليهم يرجع فضل أعظم من ذلك في النهوض بهذه النواحي الى مقام حاز رضاء المغفور له والدكم العظيم وحاز رضاء جلالتكم وحاز رضاء الأمة

والآن وقد أنجبت هذه الجامعة جامعة فؤاد الاول نباتاً جديداً هو نواة الجامعة التي تتيمن منذ اليوم باسم جلالتكم الكريم وقد بدأ خريجوها ينبثُّون في مختلف أعمال الدولة والاعمال الحرة وينهضون بها على نحو يتفق وما هو جدير بمن خرجتهم معاهد رعاها والدكم العظيم وهي محل عطفكم وعنايتكم فقد حقّ للجامعة ان تحتفظ بأبنائها الذين يتولون التدريس والبحث فيها لتتم بهم رسالتها ولتشترك مع جامعات العالم في أداء ما علينا من حق للعلم وللثقافة الانسانية

***

مولاي: ان هذه الامور التي تجول بنفوسنا جميعاً قد تضاعفت اليوم فالجامعيون مستبشرون جميعاً بتفضلكم بقبول درجة الجامعة الفخرية العليا وهم يعتبرون هذا اليوم فتحاً للحياة الجامعية مبيناً وأي فتح أعظم من ان تحظى الجامعة بهذه الرعاية السامية من لدن جلالتكم كما حظيت منذ نشأتها بالرعاية السامية من لدن والدكم العظيم

انهُ لفتح يطمعها في ان تقر ثقافتها على أساس من الايمان بالحق عن طريق العلم الصحيح ونوره وان تضاعف الجهد لترفع اسم مصر في ميادين العلم والادب والفن في ربوع العالم كله

مدَّ الله يا مولاي في حياتكم وأحيا العلم والادب والفن في رحابكم أطيب حياة

وبأذنكم الكريم يا مولاي أختم هذه الكلمة شاكراً لجلالتكم التفضل بسماعها مستأذناً جلالتكم في ان تسمحوا لسعادة مدير الجامعة ان يلقي بين يديكم كلمة الجامعة

***

خطبة مدير الجامعة

مولاي

الي جلالتكم أرفع آيات اغتباط الجامعة لتشريفكم إياها بالزيارة وشكرها الصادق على ان

تفضلتم فنزلتم منها منزلة الشرف وتقلدتم رآسة الأسرة الجامعية على سنة رئيسها الاول ونصيرها الأجل والدكم العظيم رضوان الله عليه

إنها ترى في شخصكم الكريم يا مولاي مجد مصر وأملها ماثلين فتستقبلكم وقد استشعرت الاعتزاز بماضيها والثقة بحاضرها والرجاء في مستقبلها

ان الأسرة الجامعية ترى في شخصكم الكريم يا مولاي قوة الشباب ونضرته فحقّ لها ان تتيمن بهذا اليوم السعيد الذي يلتقي فيه شباب الملك بشباب العلم تتيمن بهذا اليوم الذي تتلقى فيه يدكم الكريمة لواء الشباب المثقف لترفعهُ عظيماً كريماً يظل طلاب العلم في أقطار الشرق ويهديهم الى مثلهم الأعلى فيما يحتاج اليه العلم من طموح النفس ونبل الخلق والقدرة على الاحتمال، إن هذا الجيل الناشيء من الجامعيين هو جيل جلالتكم قد عاصركم في النشأة وشارككم في الشعور والأمل، وان مصر لتعرف في جلالتكم ميولكم الديموقراطية الشريفة التي تتجلى آثارها فيما ينبغي إن تتجلى فيه من المواطن باعتبار أن المبادىء الديموقراطية هي الوسيلة للتربية السياسية للأمم الناهضة وتعرف في جلالتكم المساواة بين جميع رعاياكم في عطفكم السامي على جمعياتهم وأفرادهم وتعرف فيكم الحزم وسداد الرأي،كل اولئك يجعلها تكل اليكم راضية مطمئنة ابناءها لتقودوهم الى حيث يبلغون من المجد والعزة والكرامة ما تريدون لوطنكم العزيز

هذه الجامعة يامولاي التي غرضها كما قدره لها ضمير الامة وفرضه عليها القانون خدمة العلم لذاته وتنشئة الشباب المصري وتثقيفه، هذه الجامعة انما هي من عمل والدكم العظيم تلقاها فكرة تجيش بها النفوس واملاً يدفع به الشعور بالكرامة الوطنية فحققها وأنشأها معهداً لتربية العقل وتصفية الذوق واذكاء الشعور بواجب مصر لنفسها وللانسانية والعلم . وقد منحها حبه الخالص وأبوتهُ الكريمة وحباها المعونة والتأييد حتى بلغت الى حيث هي الآن فأصبحت مثابة للعلماء وملاذاً للطلاّب يفدون اليها من مصر ومن الشرق وكثر عددهم فيها الى حد أشفق منهُ بعض الكليات على مستوى التعليم فاقترحت الجامعة انشاء فروع في الاسكندرية للحقوق وللآداب وللطب نواة لجامعة جديدة ستحاط برعاية جلالتكم مدرسة الاسكندرية . وقد شاءت حكومة جلالتكم مشيئة موفقة ان تضاف الى اسمكم الكريم

مولاي : لقد آثر والدكم العظيم جامعته رجالها وابناءها بفضل من عنايته ومكانة ممتازة من قلبه الكبير فآثره الجامعيون بأصفى ما تفيض به القلوب من الحب وأكرم ما تجود به النفوس من الولاء وهم يرون في تفضلكم اليوم بهذا العطف الكريم مضيّاً على سنته ووفاءً بعهده فيملؤهم ذلك غبطة وأملاً ويدفعهم الى ان يؤكدوا لجلالتكم ما أكدوا لوالدكم العظيم من العهد ان تخلص قلوبهم وعقولهم وجهودهم للعلم لا يبتغون بذلك الا مرضاة الحق والملك والوطن



الاساليب العملية

في زراعة النبات بغير تراب

اطلق العلماء لفظ « هيدروبونكس » Hydroponics الاعجمي على هذا الضرب من الزراعة وهو مؤلف من لفظين اولهما «هيدرو» Hydro ويعني ماء والثاني « پونوس » Ponos ويعني عملاً. فاذا شئنا ان نصرف النظر عن استعمال هذا الاسم معرباً صحَّ لنا ان نقول «الزراعة المائية» او «زراعة الاحواض » وهما ترجمة اسمين آخرين غير علميين لهذا الضرب الجديد من الزراعة (١)

اذا زرع النبات في التراب امتصَّ غذاءه من المركبات الكيميوية التي في التراب او ما يضاف اليه من اسمدة كيميوية او طبيعية . والنبات يعتمد على الماء في هذا الامتصاص . لأن الماء يحلُّ هذه المركبات الكيميوية ويتيحها للجذور في شكل قابل للامتصاص. اما في «زراعة الاحواض» فالجذور تغمس في ماء يضاف اليه الغذاء الكيميوي اللازم لنمو النبات ، فيستغنى عن التراب

يصنع الحوض من الخشب او الاسمنت المسلح او الحديد المطلي بالحُمَر (الأسفلت) . ولا قيد لطوله او عرضه وانما يجب ان يكون عمقهُ نحو ست بوصات. ويجدر بالمبتدىء ان يجعل حوضهُ ست اقدام طولاً وقدمين عرضاً وست بوصات (نصف قدم) عمقاً وذلك لانهُ يسهل عليه عمل الحسابات اللازمة لمقادير المواد الكيميوية التي يحلها في مائه وفقاً للحقائق التي نذيعها في هذا الفصل . ثم يملأ هذا الحوض بخمسة وعشرين جالوناً من الماء . وتوضع علامة ظاهرة على داخل جدار الحوض عند المستوى الذي يبلغهُ هذا الماء وذلك لأن الاحتفاظ بهذا المستوى شرط اساسي من شروط هذا الضرب من الزراعة

ثم يؤتى بمشبك من السلك ، تكون كل عين من عيونه بوصة مربعة اونحو ذلك اذا اريدت زراعة النباتات الصغيرة ، ويجب ان تكون نحو بوصتين مربعتين ، اذا اريدت زراعة النبات الكبيرة . ويطلى سلك المشبَّك بالحُمَر حتى لا تتركب منهُ مواد معدنية قد ينحلُّ بعضها في السائل المغذي فيغيِّر من تركيبه بالتفاعل الكيميوي . ثم يوضع على الحوض بحيث يعلو عن سطح الماء الذي فيه ثلاث بوصات ، لان طبقة الهواء بين المشبَّك وسطح الماء لازمة لقدر ضروري

---

(١) راجع على سبيل التمهيد مقال « الزراعة بغير تراب » في مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٣٠٩

من التهوية . ولكن هذه التهوية وحدها غير كافية في زراعة الاحواض فيستطاع دفع مقدار من الهواء في ماء الحوض بمضخة صغيرة كالمضخة التي تستعمل لملء عجل الدرّاجة عادةً، وذلك بوضع طرفها في الماء وتحريك ذراعها بضع دقائق مرتين كل يوم

على سطح المشبَّك السلكي يفرش فرشٌ من القش اوالنشارة وعلى سطحهِ يوضع غطاء من فتات لحاء الصنوبر او غيره من المواد الناعمة غير الفعَّالة. وكثافة هذا الفرش تختلف باختلاف النبات الذي تنوي زرعهُ .فاذا كنت تنوي ان تذرو البذور على سطحهِ فمن المستحسن ان تكون كثافتهُ بوصتين . ولكن اذا شئت ان تزرع بصيلات او فروخاً من النبات او « عُقَلاً » فيجب ان تكون الكثافة من ثلاث بوصات الى اربع

بعد ان نعدّ الحوض والمشبَّك والفرش ونبذر البذور على سطح الفرش او نغرس البصيلات فيهِ يجب ان نزيد مقدار المحلول الذي في الحوض باضافة الماء اليهِ حتى تصبح المسافة الفاصلة بين سطحهِ والمشبَّك بوصةً واحدة بدلاً من ثلاث بوصات. وهذا ضروريٌّ في البدء فقط. وليس يضير المحلول انهُ خفِّف باضافة الماء اليهِ . ولكن بعد ان تتكون الجذور المائية البيض، يجب ان تحتفظ بقوة التركيز الأصلية في المحلول وان تبقي المسافة بين سطح الماء والمشبَّك ثلاث بوصات. واذا كان النبات المزروع في الفرش الذي على المشبَّك متقدماً في نموّهِ ، فلا تلبث ان تموت جذور التربة وهي سمراء اللون ، عندما تنمو الجذور المائية . وعلى كل حال يجب ان تعتني بانزال جذور الفروخ والنباتات المتقدمة من خلال الفرش حتى يغمرها المحلول المغذي

اما في حالة زرع البذور فيجب ان يرطَّب الفرش اولاً ، ثم تنثر البذور على سطحهِ وتغطى بغطاء خفيف . اما الفروخ والعُقَل فتزرع في الفرش كأنك تزرعها في الارض . وفي نقلها من التراب الى فرش المشبَّك يجب ان تعنى عناية خاصة بريّ الارض حتى لا تؤذى جذورها عند انتزاعها منها ، ثم بعد انتزاعها من التراب تغسل جذورها مما قد يكون عالقاً بها منهُ. ثم توضع في الفرش بحيث تتصل جذورها بالماء . والبصيلات تزرع في الفرش كما تزرع في الارض فاذا كانت صحيحة لم تلبث حتى تنطلق منها جذور سليمة . ويجب ان يبقى الفرش رطباً دائماً ولكن لا يجب ان يكون مشبعاً بالماء

وليس في الوسع ان يضمن النجاح الكامل في هذه التجربة ، لأول وهلة ، وعلى المجرّب ان يبدأ وان يعيد وان يتعلَّم بالاختبار كيف تطبَّق القواعد العامة على النبات الخاص الذي يجرّب بهِ ، ودرجات الرطوبة والحرارة وغيرها من عوامل البيئة التي يجرّب تجاربهُ فيها فدرجة الحموضة والقلوية في الماء يجب ان تعرف معرفة وثيقة وكذلك تأثيرها في النبات ، وهذا الاخير لا يتاح الاَّ بالاختبار بورق التموس ،فيزاد من قلوية الماء — او حموضتها — او ينقص وفقاً لحاجة

النبات. فاذا كانت درجة القلوية عالية وجب ان يضاف قليل من الحمض النتريك او الحمض الكبريتيك

ثم على المجرّب ان يختار الاملاح اللازمة لغذاء النبات فيحلُّها في الماء الذي في الحوض وقد وضع غير واحد من الباحثين قواعد جرت عليها البيوتات التي تبيع البذور فركّبتها ووضعتها في ظروف خاصة تباع . واستعمالها يجب ان يكون تجريبيًّا في البدء ، ليعرف الباحث هل المركّب الذي اختارهُ يوافق النبات الذي يريد زرعهُ والبيئة التي يزرع فيها ، والى القارىء بعض هذه المركبات

١ — مونو بوتاسيوم فصفات	٧ ١/٢	ملعقة شاي
نترات الجير	٢٠	»
كبريتات المغنيسيوم	١٢ ١/٢	»
كبريتات الامونيوم	٢ ١/٢	»
٢ — الحمض النتريك (تركيز ٦٩٫٥)	٣٫٨٤	اوقية
ايدروكسيد الامونيوم (تركيز ٥٨٫٦)	٠٫٨٨	»
الحمض الكبريتيك (تركيز ٩٥)	٠٫٦٧	»
الحمض الفصفوريك (تركيز ٩٠)	١٫٢٩	»
ايدروكسيد البوتاسيوم	٠٫٤٨	»
اوكسيد الكلسيوم	٠٫٤٧	»
اوكسيد المغنيسيوم	٠٫٥٥	»
٣ — فصفات الامونيوم	١/٢	»
نترات البوتاسيوم	٢ ١/٢	»
نترات الجير	٢ ١/٢	»
كبريتات المغنيسيوم (ملح انكليزي)	١ ١/٢	»

ولعلَّ المركّب الثاني هو خير مركّب لتغذية النباتات بوجهٍ عام لأنهُ لم يصنع لنبات معيَّن والاوزان المذكورة يجب ان تحلَّ في ٢٥ جالوناً من الماء . وواضع هذا المركّب الدكتور آرنُ وهو يرى ان يضاف قليل من الحديد والبورِ والمنغنيس وذلك بصنع محلولات مركزة من كلوريد الحديد ، والحمض البوريك ، وكلوريد المنغنيس . ثم تضاف عشر قطرات من كلوريد الحديد وعشر قطرات من الحمض البوريك وخمس قطرات من كلوريد المنغنيس الى ٢٥ جالوناً من المحلول ، وليس من الضروري ان تكون الاملاح المستعملة في صنع هذا المحلول الغذائي نقية من كل شائبة من الناحية الكيميوية

ويرى واضعو المركّب الثالث انهُ يصلح لتغذية اصنافٍ كثيرة من النبات وان وجود ملح

الامونيا (النوشادر) فيهِ يؤخر زيادة درجة القلوية في المحلول. ثم يجب أن يضاف قليل من الحديد والبور والمنغنيس والزنك والنحاس. اما الحديد فتؤخذ ملعقة شاي من طرطيرات الحديد وتحل في نحو اربع كوبات من الماء ويضاف ما يملأ فنجان شاي لكل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذي مرة في الاسبوع، او اكثر من مرّة اذا بدا لون النبات شاحباً. واما البور فتؤخذ ملعقة شاي من الحمض البوريك وتحلُّ في جالون من الماء ويضاف نحو ثلاث كوبات من هذا السائل الى المحلول المغذي (٢٥ جالوناً) مرة في الاسبوع. واما المنغنيس فتؤخذ ملعقة شاي من كلوريد المنغنيس النقي وتحلُّ في جالون من الماء ثم تخفف باضافة جالونين من الماء. ويضاف نحو كوبين الى كل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذّي، وتعمل العملية نفسها بكبريتات الزنك النقية ويضاف ما يملأ اربع ملاعق شاي من المحلول الى كل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذي. اما النحاس فتؤخذ ملعقة شاي من كبريتات النحاس النقية وتحلُّ في جالون ماءٍ ثم تخفف في اربعة جالونات ماء ويضاف ما يملأ ملعقة شاي من هذا السائل الى كل ٢٥ جالوناً من المحلول المغذّي

وقد تبسطنا في موضوع اضافة هذه العناصر الى المحلول المغذي لأن النبات يحتاج الى مقادير يسيرة منها لكي ينمو نمواً سويًّا، علاوة على العناصر التي يستمدُّها من الماء والهواء

ثم هناك مسألة اخرى. فبعض النباتات يستنفد من المحلول المغذي مقادير من عنصر معين اكثر مما تستنفده النباتات الاخرى. بل ان النبات الواحد يختلف في ما يستنفدهُ من أحد العناصر في دور من أدوار نموّه اكثر مما يستنفده من العنصر نفسهِ في دور آخر من حياتهِ. فاجتناباً لتحليل الماء في فترات قريبة ومعرفة ما يحتاج اليهِ من العناصر التي استنفدت منهُ، يقترح الباحثون ان يغيَّر المحلول المغذي كلهُ مرة كل أسبوعين، وان يلاحظ المجرّب مستوى الماء في الحوض فيضيف اليهِ ما يبقي سطحهُ عند المستوى المطلوب

وعندما يفرغ الحوض في آخر فترة الأسبوعين، يجب ان يوضع فيهِ أولاً نصف مقدار الماء (اي ١٢ جالوناً ونصف جالون) ثم تضاف المركبات الكيميوية اللازمة اليهِ، ثم يضاف المقدار اللازم من الماء لرفع سطح المحلول الى المستوى المطلوب. ويجب تغيير النبات بمسحوق الكبريت لوقايتهِ من بعض الآفات. وقد نجحت التجارب التي أجريت حتى الآن في الدلالة على ان هذا النوع من الزراعة يصيب نجاحاً كبيراً في الشمام والبطيخ والبنجر والجزر وان الورد و «الكريزانتم» و «البيجونيا» و «الجلاديولي» وغيرها تصيب نجاحاً يبعث على الرضا

إن هذا الأسلوب الجديد في الزراعة يفتح أمام الباحثين ميادين واسعة للتجربة والاختبار. ولا يبعد ان يعمد الباحثون بعد ان تتقن وسائلهُ الى استنباط وسائل جديدة للتحكم باللون والنكهة والرائحة. فالزراعة المائية تهيء لهم السبيل لتجارب دقيقة كانت متعذرة في الزراعة في التراب

****

البحث الرابع

خليل مطران

شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم

عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الاسلامية

****

عصر مطران وطابعه العام

﴿ توطئة ﴾ الجيل الذي نشأ فيه الخليل هو في الحقيقة جيل تداخلت فيه عصور متباينة ، فهو من هذه الناحية ليس بجيل واحد تتناسق فيه الأوضاع والأحوال وان اجتمعت في نطاق واحد من الزمان . هذا الجيل الذي انصرم بانصرام القرن التاسع عشر نسيج لون من الزمان لم ير تاريخ المشرق له مثيلاً من قبل الا في القرن الثاني للهجرة من حيث تداخلت في ذلك العصر أجيال متباينة الألوان وأوضاع مختلفة الأشكال . غير ان هذا الجيل الذي دخل في صفحة التاريخ اجتمعت فيه ثقافات وحضارات — ثقافات العرب المتوارثة عن العصور المختلفة ، والتي تكوّن ثقافة ذلك الجيل التقليدية ، وحضارات الغرب الطارئة وثقافاته التي كانت تنعكس في صورها المتباينة على محيط الجماعة في ذلك الحين — جعلته مضطرباً ، ومنطوياً على أجيال في تضاعيفه

ونحن لا يهمنا من هذا الجيل غير ما اتصل بالخليل من أسبابه . فكوّن بيئته المكانية من الزمان . وخليل مطران وان ولد في الجيل الثالث من القرن التاسع عشر ، فقد نشأ بين ذلك الجيل والجيل الذي لحقه المنقضي بانقضاء القرن الماضي . ثم إنهُ وان ماشى الجيل الأول من قرننا هذا في اتجاهاته فإن شخصيته تقومت بأسباب الجيل الذي نشأ فيه . ذلك ان الانسان ابن نشأته ووليد بيئته الأولى . لأنهُ من الساعة التي يولد فيها حتى يودع أيام الطفولة فان افعاله العكسيّة الأصيلة هي التي تستحكم في سلوكه مستنزلة الأسباب مباشرة من جهازه العصبي ، تلك الأفعال — التي كانت تعرف من قبل بقواسر الطبع وأحكام الغريزة — والتي تكون مطواعة في طفولة الانسان للمؤثرات التي تنطوي عليها بيئتهُ المكانية من الزمان ، والتي تستنزل دوافعه

الأولية على الحركة من قواسر الطبع وأحكام الغريزة . والانسان يخرج من طفولته تحت تأثير هذه العوامل مصبوباً في قالب تتكوّن شخصيته استناداً اليه . هذا القالب يكافىء الحالات التي أحاطت بهِ من جهة ، والدوافع المستنزلة من جبلته والتي تحركه من جهة أخرى

ونظراً لأنهُ في الحالات الاعتيادية تكون الأسباب الطبيعية في تداخلها بالمؤثرات التي تستنزل من الجماعة منتهية الى حالة واحدة عامة بالنسبة لأفراد الجماعة البشرية في فترة من الزمان، فان الناس يخرجون مصبوبين في قالب معيّن . وبعد ذلك فلكل شخص من الجماعة مقوماته الذاتيّة المستنزلة من دوافعه الشخصية التي تدخل في التكافؤ مع الجو الذي يعيش في ظله ، والتي تتكوَّن شخصيته استناداً اليها

ولما كانت المؤثرات التي تتفاعل في قلب المجتمع البشري لا تثبت على صورة واحدة ، وتتحول من جيل الى جيل بما يستجد مع الزمن في محيط الجماعة من العوامل والمؤثرات ، وتتغاير من قبيل الى قبيل بما يتقوم من الانفعالات بروح الجماعات ، فان الحالات الخارجية بالقياس الى الانسان تتغاير ، ويتغاير تبعاً لها المحيط الاجتماعي فتتأثر بتغيرها الجماعة التي تعيش في ظل المحيط وتتنفس في أجوائه . وبعد فعصر الخليل من حيث هو جيل تداخلت فيه عصور متباينة ، فهو من هنا منحلٌّ في روحهِ ، يتكافأ مع صورة كل عصر من هذه العصور التي داخلت الجماعة المتأثرة باسبابها

***

اذن ليس لنا ان ندخل في تفاصيل دقيقة على العصر الذي ولد فيهِ الخليل ، والعصر الذي نشأ فيهِ ، ونسهب في وصفهما واستقصاء حوادثهما ووقائعهما لان الذي يعنينا من هذه الفترة ما اتصل بشخص الخليل من أسبابهِ ، وهي مستنزلة من طابع الجماعة العام ، التي عاش الخليل في ظلها وتنفس النسمات الأولى في أجوائها ، ثمَّ الخلوص بحقيقة ما اتصل من العصر بشخص الخليل خلوص بالعوامل التي تفاعلت مع شخصهِ فكانت سبباً في تكوين شخصيته

ولا شك ان خليل مطران وقد تقلب في اجواءٍ مختلفة بعد ان اكتملت شخصيته ، في موطنه بلبنان وفي تونس وفي باريس التي رحل اليها ، وفي مصر التي استقر بها اخيراً فإن شخصيته مهما تظهر خاضعة للاحوال التي استجدت عليهِ في العوالم الجديدة التي عاش فيها وتقلب ، فان هذا الخضوع كان في حقيقته مماشاة لتلك الاحوال ، وبعد فشخصية مطران التي تكوّنت تحت تأثير التفاعل بين دوافعه الأولية وأسباب محيطهِ البدائي وبيئته الأولى ، هي التي تظهر في خلجات نفسه وفي منحى تأثره بالاشياء طيلة حياته

قد تبدو هذه الفكرات الاولية غريبة على ابناء العربية الاَّ انها في صميمها تستند الى حقائق

ثابتة من علم النفس التجريبي ، حققتها معامل البحث التشخيصي للنفس في روسيا وأميركا بتجارب دقيقة [١] وإذن يكون في الوسع ملاحظة القوى الخفية التي تتفاعل في أطواء النفس البشرية ووجه تفاعلها ، كما يكون في الوسع النزول بالشخصية عند الانسان الى حكم الموازنة العصبية ، وبيان وجه تركز هذه الموازنة في الفعل العكسي الأصيل وما تحول عنهُ من ارتفاقات كوّنت الفعل العكسي المتأصل ، والخلوص من ذلك كله بحقيقة الشخصية الانسانية . ولاشك أنّ للملاحظة أسباب البيئة التي تدخل في مكافأة مع الدوافع الأولية عند الانسان ، الجانب الاكبر من القيمة في معرفة الشخصية الانسانية ، من حيث تحدث الارتفاقات في الرجوع الاصيلة عند الانسان

ومثل هذا التفكير يجهزنا بتكأة علمية لا لدراسة عصر الخليل فحسب ، بل لنفهم من عصر الرجل شخصيته على وجه علميّ مستنزل من قواعد واصول ، يمضي بنا الى أغوار النفس البشرية ويجعلنا على اتصال بنهر المعاني والافكار ، وكيف تتدفق في اطواء النفس البشرية ، بملاحظة آثار الرجل والخلجات التي تظهر في آثاره . الاّ ان مثل هذا النظر يعتبر مبالغة في اتخاذ الجانب العلمي كما وان تطبيقه على درس الآداب يعتبر انصرافاً عن النقد الفني المباشر الموجه للآداب الى بحث حقيقتها والعوامل التي تفاعلت فكيّفتها على هذه الصورة . الاّ ان هذه الاعتبارات خاطئة لان مثل هذه الدراسة وان قامت على أسس من التحليل يخشى معها انقلاب البحث الأدبي علماً تحليليًّا صرفاً فهي من حيث أنها لا تنسى الاعتبارات الفنية لا تفقد الروح الفنية

هذا المنهج في البحث هو الذي يقتضيه منطق الامور . وإذن لا وجه للاعتراض عليه — كما يفعل البعض — بأنهُ يقتل النقد الفني . لأن الآثار الادبية والفنية ، ان كانت تنعكس فيها ظلال روح العصر ، فهي نتيجة للمقدمات الخفية التي تفاعلت في اطواء النفس حيناً حتى برزت ، واذن تكون مهمة النقد الكشف عنها في أصولها ومقدماتها وليس معنى هذا ان يكون درس الأدب نسبيًّا للاسباب التي تتمخض عنهُ ، لانهُ لا يعني اغفال شأن الاعتبارات الفنية . فمثلُ هذا التفكير لا يؤدي الى رفض ما هو مجرد واحلال كل ما هو نسبي ، وانما هو يعمل للكشف عن الأسس النسبية التي يتقوّم بها هذا المجرد المنتزع من اعيان الاشياء النسبية في صورها المختلفة وأشكالها المتباينة . والواقع انهُ ليس هنالك في الحقيقة ماهو مجرد ، وانما كل ما هنالك تحول دائم وصيرورة متواصلة وتعاقب لانهاية له من الفعل وردّ الفعل ، تأخذ الاوضاع النسبية منها الاشياء ، ثم تراجع القسط المشترك منها ، وهو المجرد المنتزع من أعيان متباينة الأوضاع

هذه أوليات لم نجد بدًّا من الكلام عليها والاستطراد فيها قليلاً ، لنمهد بأساس لدراستنا لعصر الخليل ، وما يستنزل من أسباب شخصيته منها ، وما تقوّم من أدبه وفنه بها

---

(١) تجاريب بافلوف وثورندايك وانظر على وجه خاص آثار ماكدوجل عالم النفس المشهور

— ١ —

ولد خليل مطران سنة ١٨٧١ في بعلبك ، فهو في الثامنة والستين من سني حياته وهذه السنون التي جاوزت جيلين من الزمان تمتاز بما انعكس على صفحتها من مختلف الاحساسات المتناقضة ومتباين المشاعر المتضاربة . وقد كانت هذه الانفعالات كلها تأخذ في ظهورها على صفحة العصر صوراً متباينة وأشكالاً مختلفة نتيجة للتقلقل الذي أصاب المجتمع في صميمه ، وهذه طبيعة عصور الانتقال في التاريخ دائماً

إذن نحن إزاء عصر انتقال ، وأظهر سمات هذا العصر تداخل الثقافتين الشرقية والغربية وتشابكهما . ويمكننا ان نتخذ سنة ١٨٦٠ التي كانت بحوادثها الدامية وما أفضت اليه من استقلال جبل لبنان استقلالاً داخليًّا ضمن نطاق الدولة العثمانية ، نقطة ارتكاز لدراسة عصر الخليل . فان هذه السنة تعتبر حدًّا فاصلاً بين عهدين في تاريخ سوريا ولبنان . وتعتبر الفترة التي سبقت عام ١٨٦٠ فترة انتقال ،من عصور الانحطاط الى عصر النهضة الأولى التي ظهرت معالمها الأولى بقوة في ذلك التاريخ في الشرق الأدنى -

لقد كان عهد الانحطاط الثقافي في سوريا يشمل فترة من الزمن تمتد من أيام سقوط العرب عن عرش الخلافة الاسلامية في بغداد وتنتهي بغزوة نابليون بونابرت عام ١٧٩٩ لمصر واجتياحه بعد ذلك أودية سوريا الجنوبية حتى أسوار عكا . وكانت حملة نابليون مقدمة لاستيقاظ أهل سوريا ولبنان . فقد أحسوا بآثار المدنية الأوربية في صورها الثقافية والشعورية والمعاشية . ثم بدأت الصلات تتعزز بين القطر السوري وأوربا وأخذت التجارة وحب التعامل مع الشرق يجذبان بعض الغربيين الى التوافد على الثغور السورية تحدوهم الرغبة من جهة في فتح أسواق جديدة أمام التجارة الأوربية والحصول على مواد أولية من هذه الأسواق من جهة أخرى

والسوريون أهل تجارة من قديم الزمان . بل هم أول من ركبوا السفن وخاضوا عباب البحر وضربوا بالقوافل شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً وامتدت تجارتهم من الهند الى أسبانيا وساروا بسفن سليمان ومن بعده بسفن فراعنة مصر الى جنوبي افريقية . وتقلبت الأحوال وكرّت القرون وأهل سوريا لم ينفكوا عن التجارة برًّا وبحراً . فلما اتصلت بهم أسباب التجارة بأوربا في أوائل القرن التاسع عشر وكان الأمر في سوريا قد استتب للأمير بشير الشهابي المعروف بالكبير ثم لابراهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر ، عاد الناس الى الزراعة والتجارة ، فنقبوا أراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دودة القز وبعثوا بها الى فرنسا فانتعشت الحالة الاقتصادية وسارت القوافل من الجمال والبغال تنقل بضائع المشرق من العراق الى دمشق ومنها الى الثغور السورية على ساحل البحر

كما وأنها كانت تحمل بضائع أوربا الى داخلية البلاد ومنها الى إيران حتى تنتهي الى الهند. فلا تمرّ بك ليلة إلاّ وتسمع غناء المكارين يحدون جمالهم وأجراس بغالهم تحيي ظلمة الليل وتطرب آذان النيام وتنشر الرخاء على جانب كبير من السكان . خلة جرى عليها أهل الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون أخرى والدهر في الناس قلّب (١)

وكان أمراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زراعة التوت وتربية دودة القز فصارت مزارعهم في البقاع التي تنتهي عند حدود بعلبك تأتيهم بما يحتاجون اليه من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوّم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر من زيتونها الزيت فتمتعوا برفاء العيش وظهر ذلك في أعراسهم ومآتمهم . وكانت كثرة الخير في هذه الفترة من الزمن سبباً للالتفات للأرض فكثرت غلاتها وتحسن ما تعطيه من الثمرات . كان العصر ، عصر رخاء مادي ، استتب فيه الأمر والنظام واستقرت الأمور على حال واطمأن الناس الى حياتهم . وكانت الصلات بين أوربا وسوريا تقوى مع الزمن وتتطور الى صلات ثقافية ، وأخذت البعوث تتوافد على الثغور السورية والارساليات تتزاحم ، والكل يحدوه رغبة في نشر الثقافة الأوربية ومن وراء بعضها الرغبة في تبشير بالمعتقدات والمذاهب ، او العمل على نشر اللغات الأوربية ، مقدمة لانشاء نفوذ يكون باباً لاستعمار بلدان الشرق الأدنى

كانت حملة نابليون على مصر وحروب ابراهيم باشا مع جيوش السلطان وفتحه لسوريا باعثاً على اهتمام أوربا بالشرق الأدنى واستيقاظ المشرق. وهكذا فعلت الحوادث فعلها في الربط بين العالمين

كان الاتصال بين الشرق الادنى وأوربا سبباً لنشوء حركة جديدة أخذت تستجمع الاسباب للظهور ، غير ان معالمها الأولى بدت في آثار فارس الشدياق قبل عام ١٨٦٠ ، الا أنها لم تظهر مستجمعة الأسباب للظهور بقوة الاّ بعد عام ١٨٦٠ في آثار كتّاب لبنان ، وربما كانت لحوادث الجبل يد في ظهور الحركة الجديدة بقوة . غير أنهُ بجانب هذه الحركة ظهرت حركة مضادة لها تعمل للرجوع الى الماضي محاولة احياء تراث العباسيين والأندلسيين ومن هنا كانت هذه الحركة بالقياس الى الحركة الأولى رجعيَّة ، لأنها كانت تستجمع الأسباب من الماضي السحيق وتعمل على ان تصلها بالحاضر لتقيم عليه صرح المستقبل . هذه الحركة المحافظة بدأت وجودها كردّ فعل لحركة الجديد (٢) وانتهت بمحاولة جريئة على يد الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) لنقل الأدب العربي من ناحية الأغراض التقليدية التي انتهى اليها في عصور الإنحطاط

(١) يعقوب صروف في امير لبنان ص ٢٧ — ٢٨ (٢) جورجي زيدان في تاريخ الآداب العربية ج ٤ ص ٣١

الى ناحية الأغراض العربية الصحيحة التي كانت على أيام الازدهار للمدنية العربيَّة . ونجح اليازجي ومن بعده ابنه ابراهيم في أن يعيدا للغة العربية قوتها القديمة وبلاغتها السالفة . كما نجح الشيخ نصيف في ان يرجع بديباجة الشعر العربي الى الديباجة العباسية والأموية ومن هنا كانت حركة الإحياء العظيمة لآثار الماضي التي تركت اكبر الآثار في نهضة مصر في ذلك الحين

عادت العربية الجزلة والديباجة القديمة للحياة ، ولكن عادت والاستقرار اساسها ، وظهر بجانب الميل لبعث تراث الماضي والمحافظة عليه في البيئات الإسلامية ، ميل للتخلي عن هذا التراث خصوصاً في بيئات المسيحيين من أهل الجبل ، وذلك تحت تأثير الاتصال الوثيق بأوروبا المسيحيَّة .

***

كان ضعف الدولة العثمانية سبباً لأن تلعب بها أهواء الانتهازيين . وأصبحت محط انظار الطامعين بالاستقلال بشؤون البلاد ، وكانت مصر في شبه استقلال عن الدولة ، وكانت الثورات والفتن تقوم بين الحين والحين في أنحاء الدولة العلية . وبالجملة كان رأس الدولة قد سرى فيه الفساد ، وكان من معالم سريان هذا الفساد ان أدرك بعض الطامعين في دست الحكم ما يجيش بلبنان من الأحقاد والضغائن وان ساعة الفتنة قريبة فمكنوا لها بالتحريض والتشويق يحدوهم الرغبة في احراج الحكومة القائمة عبر البسفور في استانبول اذا قامت الفتنة وتحركت أوروبا . ومن هنا كانت مساعدة أصحاب الغرض من العسكريين للدروز على النصارى والنصارى على الدروز . . ومن هنا شبَّت النار وانتشر حريق الحرب الأهلية وتعدت المعارك حدود الجبل بتشويق أصحاب الغرض فشملت سوريا ، وكان ان تحول الصراع الى نضال ضد النصرانية في كل القطر الشامي (١)

وتدخلت فرنسا وارسلت قواتها وانتهت هذه الحوادث بعد ان ذهب ضحية لها آلاف الأرواح الى إنشاء استقلال داخلي للجبل أرضى نزعة اللبنانيين الاستقلالية وأشعرهم بكرامتهم الذاتيَّة

وقد وقفت حوادث الجبل هذه بجانب الشعور الاقليمي المتوارث عن الآباء سبباً لانعزال الشعور اللبناني عن المحيط العربي ، ورجعت الى لبنان شخصيته تنفض عنها غبارما علق بها من العروبة . وكذلك كان لحوادث الجبل الفضل في اظهار الشخصية اللبنانية للحياة من جديد من حيث حملتها على تقطيع ما كان يغشاها من العقلية العربية (٢)

(١) يعقوب صروف في امير لبنان ٣٣ و ٣٤ و ٥٥ و ٧١

(٢) انظر Danwiki في مبحثه Hist. des Maronites

—٢—

ان لحوادث الجبل التي جرت عام ١٨٦٠ معانيها البليغة من ناحية مقدماتها التي تدل على اضطراب شأن الدولة العثمانية ومن ناحية نتائجها التي ساقت لبنان الى الأخذ بالثقافة الاوربية والعمل على تشربها. والواقع ان هذه الحوادث كانت نقطة تحول خطير في تاريخ المارونيين في الشرق ، اذ دفعتهم نحو الغرب ، فكانوا رسل ثقافتها بعد جيل من تلك الحوادث في الشرق الأدنى . والواقع كما يقول الدكتور صروف :

[شمالي لبنان مقر المردة ومعقل رجال الدين . عصى قياصرة الروم ولم يخضع لخلفاء المسلمين بل كان ينازعهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائه السيادة المطلقة من أورشليم الى انطاكية يحاربون بني أمية كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين أراخنة القسطنطينية فعاون الروم العرب عليهم . وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً . ضعف شأن الامراء رويداً رويداً الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بلا انتخاب فبنوا أديرتهم على كل معقل واستأثروا بجانب كبير من أملاك البلاد .] (١)

وأنت ترى ان المارونيين ظلوا محتفظين بكيانهم الشخصي في ذرى جبال لبنان ، لم تؤثر في شخصيتهم الأحداث التي مرت في كيان الشرق في عشرات القرون المتوالية التي كرت عليه . غير انهم تأثروا بالثقافة العربية التي نجحت في ان تغزوهم من حيث عاشوا جزيرة في خضم عربي متلاطم . فأخذوا اللغة العربية غير أنهم مثلوها فكانت لهجتهم اللبنانية الصميمة امتداداً لأحكام فطرتهم في خلجاتها الدقيقة وفي نبراتها . والواقع ان كل شيء في الجبل كان عميق الاتصال بروحها ، غير ان الاخيلة العربية التي كانت تحملها اللغة العربية كانت تلقي ظلالا على العقلية اللبنانية وتصب خلجاتها ونبراتها الاصيلة في قالب يطغى عليه الشكل العربي ومن هنا كان لبنان في روحه محض لبناني اما في الشكل فكان عربيًّا(٢)

غير ان حوادث الجبل حين تركت في النفوس أثرها دفعت اللبنانيين الى قطيعة العرب والا بتعاد عن العروبة . وكان يساعد على ذلك استقلال داخلي للجبل في نطاق سوريا الكبرى ، اذ جعل له بحسب نصوص مؤتمر بيروت الذي انعقد من معتمدي الدول الست الموقعة على معاهدة بيروت ، حكومة منظمة في جبل لبنان يؤمن بها من العودة الى ما كان من الحوادث . وكان الاتفاق ان يتولى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختاره الدولة العثمانية بالاتفاق مع سفراء انجلترا وفرنسا وروسيا ويساعده مجلس ادارة ينتخب اعضاءه سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية ، وقرروا للجبل دستوراً في غاية من الدقة وقررت فيه المساواة التامة بين جميع سكانه وانفضت جلسات المؤتمر في اوائل مارس سنة ١٨٦١ لتطبيق هذا النظام (٣)

(١) الدكتور يعقوب صروف في امير لبنان ص ٣٣
(٢) I. A. Edham في ثقافة الشرق الادنى مجلة مجرى الفكر م ٣ ج ٤ ص ١٤ — ٣١٥
(٣) الدكتور يعقوب صروف في امير لبنان ص ١١٦ — ١١٧

ان هذه المركزية الخاصة بشؤون الجبل التي تعود لأهلها ومجلس ادارتها المنتخب الذي يساعد المتصرف ، فصلت بين الجبل وبين العالم العربي بحواجز اقتصادية وسياسية ، وكان ان بني نظام التربية والادارة الملكية على اساس من الوحدة لجبل لبنان ، فكان نتيجة ذلك كما يقول العلامة الاستاذ أنيس المقدسي

[حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وماعقبها من استقلال لبنان الداخلي تركت صفة خاصة في الادب العربي على ان لهذه الحركة في الادب ظاهرتين كبيرتين — الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من أهم بواعث الشقاق في الشرق والثانية انفصال لبنان عن السلطة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى . فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال وفي تينك الظاهرتين تكون في نفسه ذلك الشعور الاقليمي في سبيل الوحدة العربية

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة ير شعور ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه ولا ينكر ان بعض اللبنانيين أخذ بعد الحرب الكبرى ينزع نزعة وطنية عامة ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قوياً] (١)

وجاء استقلال لبنان الداخلي سبباً لتأسيس الكليات والمدارس التي تنافس المرسلون من اليسوعيين والاميركيين في اقامتها في بيروت . كما كان التنافس على أشده في الجبل لإنشاء المدارس والمعاهد . وفي الفترة التي انقضت من عام ١٨٦٥ الى عام ١٨٧٥ ، أعني فترة عشر سنين من التي عقبت استقرار الاحوال في لبنان شهدت بيروت وضع الحجر الأساسي لأربع كليات جامعة ، وكان الاب جرجيس عيسى من الطائفة اليونانية الكاثوليكية اول من شق الطريق في تأسيس الكليات إذ وضع في تلك السنة الحجر الاساسي للكلية البطريركية في بيروت التي افتتحت عام ١٨٦٦ والتي كان من خريجيها شاعرنا الخليل . وفي السنة نفسها افتتح الاميركيون ابواب الكلية السورية الانجيلية المعروفة الآن باسم « الجامعة الاميركية » في بيروت . ثم أقام اليسوعيون جامعتهم الكبيرة عام ١٨٧٥ . وفي السنة نفسها وضع المنسنيور جان دبس الحجر الاساسي في كلية الحكمة. وكان تأثير انشاء هذه الكليات الجامعية في النشء اللبناني والسوري بليغاً من حيث عمل على تثقيفه على الطرائق الاوربية وانشاء الصلة بينهُ وبين الآداب الغربية . ولما كان هناك بجانب هذه الكليات ، عشرات من المدارس التي اقامها المرسلون في الجبل وفي انحاء لبنان وسوريا أخذ التصادم بين الثقافتين الشرقية والغربية يميل الى الثقافة الغربية التي كانت تسبغ على النشء السوري والجيل الجديد في لبنان صور الثقافتين اللاتينية والسكسونية التي كانت قد استقرت في ذرى لبنان وفي الشاطىء (٢)

على ان شعور الانعزال عن العالم العربي في لبنان بجانب مدّ المدنية والحضارة الغربية الجارف

(١) أنيس المقدسي المقتطف م ٩٢ ج ٣ ص ٣٠٠

(٢) K. T. Khairallah في La Syrie طبعة Ernst Leroux ، باريس ١٩١٢ ص ٣٢ — ٦٨

عمل على تقطيع العقلية العربية في اهل لبنان ، تلك العقلية التي كانت مسدلة اسدافها على اللبنانيين صابة شعورهم في القالب العربي : وللمرة الأولى في تاريخ لبنان نجح اللبنانيون في ان يظهروا شعورهم وخلجاتهم على حقيقتها في آثارهم ، مستمدة أسبابها من محيطهم الطبيعي . غير ان هذه الخلجات كانت تظهر مشوبة بالشكل الغربي نتيجة لما تركته الثقافة الغربية فيهم من الأثر . غير ان هذا الطابع الغربي أخذ يضعف في لبنان حتى كانت فترة ما بعد الحرب ، فانطلق الشعور اللبناني حرًّا متغلباً على الاحوال التي تتركها عليها أسباب محيطها الطبيعي

وليس لنا ان ندخل في تفاصيل عن هذه الحقائق ، فما يعنينا في بحثنا لعصر الخليل من هذا الموضوع ، غير شأن واحد ، هو تقطع الثقافة العربية ممثلة في الخلجات العربية التي كانت غالبة على على اهل لبنان الى عام ١٨٦٠ من حيث كان كل من يتثقف منهم يقع تحت تأثير المتون العربية فينصبُّ شعوره في القالب العربي

كان هذا العصر من أزهى العصور التي عرفها تاريخ لبنان . فقد أنجحت محاولة اليازجي الكبير وابنه ابراهيم في ان ترجع باللغة العربية الى جزالتها القديمة وبالشعر العربي الى ديباجته العباسية والاموية ، ثم كانت الاحداث التي رجحت جانب الجديد في جوّ لبنان ، فرأينا محاولات في سبيل تمثيل العناصر ذات القيمة في الآداب والفنون والعلوم العربية ولقد حمل اللواء في هذا الغرض بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٩٣) الذي حاول اعادة علوم الماضي في دائرة معارف كانت الأولى من نوعها في تاريخ اللغة العربية ، وفي قاموس (محيط المحيط) الجامع الى جانب غزارة المادة جمال التنسيق . ولقد سار في هذا الطريق من بعده ابنهُ وأحد ابناء عمومته سليمان — فأضافا الى ما تركه بطرس البستاني من الدائرة اربعة اجزاء . وعمل سليمان البستاني (١٨٥٦ — ١٩٢٥) في هذا الميدان ورأى بثاقب نظره ان تطور الأدب العربي وقف على ما يلقح بهِ من طرف الآداب الغربية الكلاسيكية فقام بترجمة (الالياذة) من اللغة اليونانية الى اللغة العربية شعراً في قالب يستطيع تمثيله العالم العربي (١)

اذن فنحن في ذلك العصر ازاء بيئات متباينة تتدرج من بيئة المدرسة القديمة التي ترجع الى ايام الازدهار المدنية العربية تستوحي منها أخيلتها ، الى بيئة المدرسة القديمة التي تمثل عصور الانحطاط المدنية العربية ، الى بيئة مدرسة تخلصت من آثار عهود الانحطاط واتصلت بموجة الغرب ومن هنا عملت على ان تقتبس من الغرب الى الحدّ الذي يستطيع المحيط في ذلك العصر تمثيله . الى بيئة انكرت كل ما كان من الماضي وقطعت صلاتها باصول الثقافة العربية التقليدية ومشت سراعاً وراء الثقافة الغربية تحاول ان تقيمها في عالم الشرق الادنى . على ان هذه البيئات كانت

(١) H. R. A. Gibb في B. S. O. S. م ٤ (١٩٣٨) ص ٧٥

تقوى وتضعف بحسب ما تتقوم من الاحداث والاسباب

يتحدث خير اللهّ خير الله من كتّاب سوريا المعروفين في كتابه « سوريا » المطبوع بباريس عام ١٩١٢ عن البيئات الجديدة في سوريا ، وهو يذكر منها البيئات العثمانية واليونانية والروسية والجرمانية والسكسونية واللاتينية ، الاّ أنهُ يتحدث عن غلبة مدّ البيئة اللاتينية في سوريا ولبنان على غيرها من البيئات الجديدة . والواقع ان البيئة اللاتينية كانت متغلبة في اواخر القرن الماضي في لبنان على كل شيء حتى على البيئة العربيّة ، وكيف لا تتغلب الثقافة الفرنسية وكل المبادىء والعلوم والفنون كانت تدرس في مدارس الإرساليات على العموم باللغة الفرنسية ، ومن هنا خرج ابناء الجيل الجديد في لبنان متشربين الثقافة اللاتينية ومن هنا كانت ميولهم نحو الفرنسيين أيام الحرب

على ان هذه البيئات كانت تتركز في مراكز في لبنان وتخلق حولها جوًّا معيناً ، وكان التضارب بينها على أشده ، من حيث كانت كل بيئة منها تحمل ثقافة تباين بخصائصها الثقافة التي تحملها البيئة الأخرى . وعندك بيئة اليسوعيين الذين يمثلون العقلية المسيحية المحافظة وكانت وسائلهم لتمكين عقليتهم في المحيط اللبناني مدارسهم وكليتهم الجامعة ببيروت . وكانوا يمثلون اقوى سلطة بعد سلطة البطريرك في لبنان ، وكان لهم صحيفة «البشير» اليومية ومجلة «المشرق» الشهرية . وقد وقفت العقلية المحافظة دون ذيوع صور الفكر الجديدة في أوربا واتجاهات الآداب الحديثة . وكانت تنكر على اصحاب « المقتطف » قولهم بدوران الأرض وتحمل عليهم للقول بتسلسل الأنواع ، وتوجّه النقد الى الفيلسوف الدكتور شبلي شميل لآرائه المتطرفة في الدين والاجتماع وتدفعها الى الحملة على الآداب الجديدة التي لا ترجع الى طرائق الأدب الكلاسيكي الفرنسي . ثم عندك بيئة المرسلين الانكليز والأميركيين وهم يمثلون العقلية المسيحية المتحررة، ولكن كانوا يحمّلون بيئتهم جوًّا من الحريّة والاتساق المعروف بهما الانكليز والاميركيون ، وكانت بيئة هؤلاء لا تجد جناحاً في مجاراة تيار العصر والرجوع الى التفسير ليوفقوا بين الكتب المقدسة ونتائج العلم الحاسمة ، فكانوا يقولون بدوران الأرض ويعلمونهُ في دروس الجغرافيا في مدارسهم وفي دروس الفلك في كليتهم . ومن هنا كان تباين العقول ومناهج الأذهان في التفكير واختلاف الأذواق الأدبيّة . وكان بعض المتأثرين ببعض هذه البيئات يذهبون الى أوروبا لاكمال علومهم او للتجارة او السياحة ، وكانوا يرجعون وهم يحملون الآراء المتطرفة والمذاهب الجديدة التي عرفتها عقلية القرن التاسع عشر في الغرب

***

كان العصر بجملة القول يمثل عصوراً متباينة — كما قلنا — ومن هنا كان التباين في الثقافة والعقول ومناهج الأذهان والأذواق

— ٣ —

امتاز كل عصر من العصور التي انتقلت به الإنسانية من دور الى دور ، بروح مشت فيه وأصبحت الطابع الذي يوسم به ذلك العصر . فللمدنية الاغريقية طابع ، وللرومانية آخر ، وللعربية ثالث ، وللقرون الوسطى روحها الكنسية التي تتداخل في كل شيء حتى في الحياة العائلية في المنزل . وكذلك الحال في الأربعة القرون الماضية ، منذ أن بزغ فجر القرن السادس عشر حتى اليوم نرى ان لكل دورة زمانية من دوراتها روحاً خاصَّة . ولكن أظهر ما كان فيها من الآثار نشاط حركة الفكر وتقوي موجة الثقافة وازدياد تيارات العلم ، التي انتهت بالغرب الى مدنيته الواقعية المادية (١)

والعصر الذي نحن بصدده يمتاز بأن الروح التي تتمشى فيه ، هي روح الفكر ، ومن هنا كان أبرز شيء في ثقافة لبنان ، ازدياد حركة الفكر فيها وتقوي موجة الثقافة . غير ان هذه الروح ما كادت تقوى ، وهي متأثرة الأسباب بروح أوربا الواقعية المادية ، حتى قام النضال بين عقلية لبنان المتوارثة المحافظة على روحها الكنسية التي تقرب من روح القرون الوسطى وبين العقلية الجديدة الواقعيَّة الماديَّة التي حملتها الثقافة الغربية اليها

يقول الأديب نشأت المرتيني وهو من شباب سوريا ولبنان المثقفين

[حتى المثقفين منا يرون أننا سنصطنع ما عند الغرب ونفوسنا على ما هي عليه لا تتبدل . وسنفيد كل ما عند الغرب وعقولنا كما خلفها الاقدمون لن تتحول . نغلف عقولنا بالعقول الغربية تغليفاً . ونحيط أدمغتنا بالاساليب الغربية احاطة ، فتبقى عقليتنا خاضعة لاساليبها الغيبية الميتافيزيكية ، ولكنها مستورة بأغشية واقعية مادية] (٢)

هذه كلمات بليغة في دلالتها على حقيقة ذهنية اللبنانيين . والواقع لا ينكر ان العقلية الكنسية المحافظة في لبنان وقفت في سبيل الذهنية اليقينية فلم تسمح للبنانيين ان يتجاوزوا الحدّ الغيبي الى اليقينيات . والحقيقة انه في ذلك الحين لم يقدر على التغلب على هذه الروح الا نفر قليل من مفكري لبنان ، نذكر منهم الدكتور الفيلسوف شبلي شميل والدكتور العالم يعقوب صروف والبحاثة الاديب فرح انطون . وبقي بعد ذلك الطابع العام للذهنية اللبنانية غيبيًّا يظهر في نفس الصورة التي كانت عليها العقلية الكنسية ، والتي تظهر بين صفحات التاريخ في القرون الوسطى

الاَّ ان الروح الواقعية المادية المتمشية في ذلك العصر في الغرب ، كانت تنتهي الى جوّ لبنان على يد المرسلين وقد فقدت أصولها اليقينية . واعتاضت عنها بأصول غيبية ، وبعد ذلك فلا جناح ان بقي الشكل يقينيًّا . وهكذا اجتمعت الاسباب على الذهن اللبناني لتخلع على عقليته الغيبية أستار الأساليب الواقعية المادية وهي في صميمها غيبية . وفي هذا وحده ينحصر الفرق بين

(١) أنظر اسماعيل مظهر في ملقى السبيل ص ١٧ (٢) مجلة المكشوف ، العدد ١٩٠ ص ٩ — ٧

ذهنية لبنان في الجيل الماضي والجيل الذي انصرم بانصرام القرن التاسع عشر وبين ذهنية القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر

والطبيعة اللبنانية من حيث هي أقدر طبيعات الشعوب الشرقية على تشرّب الاشياء وتمثيلها assimilé ، فان هذه الطبيعة كانت تسوق اللبناني الى الانطباع بالذهنية الواقعية ، لو كانت المدارس والكليات التي قامت فيها علمانية ، ولكن مثل هذا المقدر لم يكن ، فتثبّتت العقلية الغيبية وقد اسدلت اغشية واقعية عليها لاءمت بينها وبين روح العصر

الاّ ان الروح الاوربية من حيث حملت معها النقد — لان اوضح شيء في المدنية الاوربية حرية الرأي والفكر — كانت تتقوم بالروح الفردية الاستقلالية ومن هنا كان الصراع بين العقلية الاوربية والعقلية الشرقية التي لبست ثوباً من الاصلاح الديني تارة وثوباً من الدعوة والانتصار للحرية الفردية طوراً

***

المدنية الغربية تغزو الشرق الادنى وعلى وجه خاص لبنان . والمدنية الغربية تترك أثرها في كيان المجتمع الشرقي ، وهذا الاثر يبدو طلاء على وجه المجتمع اللبناني . ومن هنا كان الافتتان الظاهر بأشكال المدنية الاوربية ، وهذا الافتتان وان نجح في اعطاء لبنان الاخلاق والعادات الغربية فانه لم يتعدَّ مظاهر الجماعة ، وبعد فالجماعة بخلجاتها ونبضاتها الداخلية لم تتطور تبعاً للحياة التي يأخذ بها المجتمع الغربي في ذلك العصر . ومن الوهم ان نحمل تعقد العلاقات والصلات على الثقافة والاخلاق الغربية ، لانها ترجع الى اجتذاب المدن اهلَ القرى والدساكر ، وفي المدن يتكاثر الناس ويزيد الازدحام فتزيد العلاقات تعقداً والصلات اشتباكاً . وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها ، وهي تؤدي الى نشوء المشاعر الضامية بدلاً من المشاعر الفردية التي تتجلى في الفردية الاستقلالية للجبلي او ابن الصحراء

مثل هذا الاشتباك في الصلات والتعقد في العلاقات كان يسوق ، نتيجة لما ينتهي اليه المجتمع من التغاير الثقافي ، الى بعض المحذورات التي لا تقبلها الآداب المتعارف عليها والأخلاق القائمة . ولقد كان هذا الانطلاق من قيود الأخلاق القائمة ، وقيام الآداب الاجتماعية على اساس من انتهاز الفرص واقتناص اللذات ، والتكتل الذي كانت تدفع اليه حالة الازدهار الاقتصادي في ذلك العصر كلها ، بجانب ما تتركه الثقافة الغربية من الآثار الثابتة في كيان المجتمع ، والتي تتداخل مع الثقافة التقليدية الشرقية الآخذة في التقطع — كلّها كانت تسوق الى التحلل من قيود الأخلاق القائمة والانطلاق من اوضاع الآداب المتواضع عليها . ولقد كان تكتل الناس في المدن واجتماع مجموع مختلف المشارب والنزعات متضارب الاذواق والحاجات يسوق الى خلق اجواء جديدة

كان من مقوماتها هذه الأخلاق المتحللة والآداب المتقطعة. على ان الطبقات الدنيا بما كان فيها من بقية صالحة من الاخلاق ومسكة عاصمة من الغواية ، بحكم كونها مركز الثقل في الاجتماع كانت تعتبر غوايات العصر ورذائله من مساوىء الجاه والغنى والمدنية الغربية ، فكانت ترى في فقرها ما تعتصم به من غوايات العصر ورذائل المدنية . ومن هنا كان ذيوع الاخلاق الدينية بين الطبقات الدنيا التي تقوم على اساس من الدعوة للاعتصام بالصبر والرجاء امام ملمات الحياة غير ان مغريات العصر كانت اكثر من ان يعتصم منها بالصبر والرجاء والعزاء في عالم اخروي ، فانتشر الرياء والختل والخداع

وهذه طبيعة لعصور الانتقال يجب ألاّ نتحرّج من ذكرها

***

وكانت المدنية الأوربية بما تتركه من الأثر الثابت في محيط المجتمع اللبناني تتفاعل مع المؤثرات التي تفعل صميمه ، فتنتهي الى إحداث رجحان لحالة التغاير الثقافي — التي تكلمنا عنها — وكان من النتائج التي أسفرت عنها ، نشأة مذاهب جديدة تتشعب من الدين الاصلي للجماعة وشكوك تحف بالعقيدة. والواقع ان اختلافات البيئات الثقافية وما كانت مدارس الارساليات تطبع به طلبتها من طابعها الثقافي الخاص ، كانت تمهد لهذا التشعب من جهة ، ولانتشار الشكوك من جهة أخرى. وكان ثمرة هذا كله تقوية ما كان يعرض لمحيط المجتمع اللبناني من عوامل الهدم للعقائد والتشكيك للنحل والأديان . وهذا كله كان يجمع الأسباب ويهيىء الجو حول نزعة النقد التي كانت قرارة روح العصر وبذلك مُهِّد السبيل للمذاهب المادية . والواقع ان المادية وجدت في بعض الطبقات التي اكتملت اسباب ثقافتها وتحررت عقولها واستقلت شخصيتها على نمط من ذاتها مرتعاً خصيباً، حتى ان الجيل الأخير من القرن التاسع عشر شهد الفيلسوف اللبناني الكبير الدكتور شبلي شميل يكتب الرسائل في فلسفة التطور ويشحنها بنقد الأديان والعقائد وكان ان بذر هذا الاتجاه المائل نحو المادية الواقعية بذوره في عقلية النشء العربي فانتهت به الى حركات التجديد في ميدان الدين والفكر والاجتماع

على ان هذا الاتجاه البالغ حد التطرف كان يقابله اتجاه آخر محافظ يستجمع الاسباب من القوى الساكنة في المجتمع يحاول ان يقيم للغيب عالماً في عوالم الشهادة

الاّ ان المجتمع اللبناني في العموم لم يكن يتقبل قبولاً حسناً الحركات المتطرفة في الدين والإجتماع والذاهبة مذهب الماديين من الغربيين، كما وأنهُ لم يكن يسمح بتقبل الصورة الكونية التي رسمتها الكتب المقدسة والشريعة الكنسية المستقرّة ، لان ما كان ينتهي اليهِ من الحقائق

النهائية للعلم اليقيني الأوروبي كان يعارض الصورة الكونية التي ترسمها الكتب المقدسة ، ومن هنا كان الصراع بين الحقائق الجديدة في الكون والصورة القديمة ، وكان مظهر هذا الصراع ، نضالاً بين رجال الدين ممثلي العقلية المؤمنة بالصور القديمة في الكون وبين رجال الفكر من الآخذين بأسباب العلم اليقيني الأوروبي. وامام تيار الافكار العصرية والمستكشفات العلمية اضطر رجال الدين ان يفتحوا باب التأويل والتوفيق بين ما في الكتب المقدسة من صور كونية وبين ما انتهت اليه الحقائق العلمية من رسم صورة للكون . ولا يهمنا ما كان من تفاصيل هذا الصراع ، ففي مجلدات المقتطف الأولى شيء من هذا . وبعد فالدين على ما هو عليه من تشعب المذاهب ، والعقيدة على ما هي عليه من الشكوك التي تحف بها ، كانا من أظهر ما يستوقف النظر من طابع ذلك العصر

***

خاتمة

كان العصر ، عصر إيمان وشك ، عصر يقين وحيرة ، عصر حكمة وجهالة ، عصر اشراق وقتام عصر نور وظلام ، ومن هنا كان ذلك العصر أحسن الأزمان واسوأها . ولهذا لم يكن من المستطاع لتداخل الحالات المتباينة تعريف العصر بحدّ ثابت غير اننا يمكننا ان نقول :

[لقد كان روح ذلك العصر تلباً ، كان الجديد يتحول بعد زمن الى حركة أخذ بالقديم ، والقديم يتحول بعد فترة الى حركة أخذ بالجديد . كان العصر تتجاذبه قوى مختلفة ومن هنا كان متقلقلا يمثل عصور الانتقال أحسن تمثيل . لقد كانت نسمات الصحراء من الحجاز تهب عليه ، وكانت الرياح تحمل اليه من بيت لحم اصداء ما تركه المسيح في أجواء فلسطين . وكانت تشده أمراس الماضي لحالات خرج بها منه ، كما تجـذبه الى أيام ازدهار المدنية العربية ذكريات تخالجه . ثم بعد ذلك الاعصار الذي كان يهب عليه بين الحين والحين من جهة أوربا فتجمع السحب من البحر الابيض المتوسط فوق قمم الجبال في لبنان ، ثم تغسل بها الوادي وتغمرها بسيول المدنية الاوربية فتجري في الوديان والبطاح باعثة الحياة في كيان الشرق الادنى]

كان هذا العصر بطابعه العام خير العصور التي تمهد السبيل من حيث استجماع الأسباب لمثل رسالة الخليل الإبداعيَّة . وليس لنا ان نطنب في الكلام عن الطابع العام لهذا العصر مستقصين عن أسبابه محللين لحوادثه أكثر مما فعلنا ، لأن ما يعنينا — كما قلنا من هذا العصر — هو ما اتصل بشخص الخليل من أسبابه ، وهي مستنزلة من طابع الجماعة العام التي عاش الخليل في ظلها وتنفس النسمات الأولى في أجوائها . ولنا بعد ان ننظر في حقيقة ما اتصل من العصر بشخص الخليل ، ونخلص بالعوامل التي تفاعلت مع شخصه فكانت سبباً في تكوين شخصيَّته .



علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

—٢—

لحسين عنان بك

وكيل وزارة الزراعة



[المقتطف: كان موضوع الجانب الاول من هذا البحث العلمي العملي النفيس (راجع مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٢٦٨—٢٧٥) وصف الشأن العظيم الذي تعلقه الحكومات بتغذية الشعب ثم يليه استقصاء الاغذية المختلفة التي يعتمد عليها الشعب المصري في طبقاته المختلفة وشتى انحاء البلاد. ثم يلي هذه التوطئة جداول عظيمة الشأن من الناحية العلمية العملية تحتوي على تحليل واف لمختلف الاغذية من حيث ما فيها من البروتين والدهن والكربو ايدرات والوحدات الحرارية ودرجة الحموضة والقلوية وهي عناصر لا بد من معرفتها معرفة علمية لتعيين القيمة الغذائية لهذه الاطعمة. ونشرها هنا متعذر على فائدتها العظيمة لانها من اختصاص المطولات. ولذلك ننتقل منها الى ما يليها من هذا البحث وهي العوامل التي يجب توافرها لضمان حسن التغذية في الشعب المصري وقد راعينا في نواح منها اختصار الجداول ايضاً]

إذا راجعنا هذه الجداول رأينا ان الطبقات العاملة في وادي النيل لا تعوزها الأغذية المولدة للطاقة كالغلال وكافة الحاصلات النشوية في شتى أشكالها

وقد عمد أهالي مشله بمركز تلا حيث تكثر زراعة البطاطس الى خلط البطاطس المسلوق بعجينة الذرة الشامية في صناعة الخبز وذلك من تلقاء أنفسهم ومن غير ارشاد وهم يجهلون أنهم قد أحسنوا صنعاً لان البطاطس غذاء قلوي موجب ذو فائدة عظيمة في معادلة حموضة الاغذية النشوية كدقيق الذرة الذي يصنع منهُ الخبز

كما أنهُ لا تعوزهم الحبوب القطانية والزيوت والدهون التي يستخرجونها من مختلف الحاصلات الزيتية كالقرطم وبذر الكتان والسمسم والسلجم وخس الزيت

ولا تعوز أغلبهم الخضر الغضَّة (الطازجة) والفواكه الرخيصة بفيتاميناتها كالبلح والموالح والجوافة وانما تعوزهم الاغذية الحيوانية كاللحوم والألبان ومشتقاتها او ما يعادلها من الاغذية النباتية الغنية في البروتينات المركبة التي تقوم مقام بروتينات اللحوم كفول الصويا مثلاً

والقطر المصري ولله الحمد قطر زراعي لا يضارع في خصبهِ ووفرة مياه الري فيهِ وسطوع شمسه وكثرة الأيدي العاملة فيهِ وطاعتها وكدّها وجدّها وسعيها وراء العيش أي أنهُ يتوافر فيهِ

العوامل الضرورية لانتاج ما يكفي غذاء ساكنيه والاستغناء عن الواردات الاجنبية . ولما كان سكان الديار المصرية في ازدياد مستمر وجب ان تكون مسألة تغذيتهم الشغل الشاغل لعلمائنا ورجال الأمر فينا . ولضمان تغذية الشعب المصري يجب ان تتوافر العوامل الآتية

١ — وفرة الانتاج الزراعي — ٢ — تعدد أنواع الحاصلات والخضروالفاكهة ووفرتها للاستغناء بها عما يرد الينا من الخارج — ٣ — توفير الاغذية الحيوانية — ٤ — المحافظة على المحصول سواء النباتي والحيواني وحفظه من التلف في أثناء النمو والتخزين والشحن الى مكان التوزيع والاستهلاك ٥ — التوسع في الصناعات الزراعية واتقانها — ٦ — ضمان توزيعه في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد الاً يسيراً عن سعر الجملة — ٧ — عمل احصاءات دقيقة سنوية عن الانتاج

﴿ وفرة الانتاج الزراعي ﴾ تتوقف على عوامل أهمها :—١ : توافر الارض الصالحة للزراعة ٢ : كثرة الايدي العاملة المدربة على الشؤون الزراعية — ٣ : توافر الشروط اللازمة لنجاح المحصول ٤ : زراعة الاصناف الكثيرة الغلة . ولنتكلم الآن عن كل بند على حدة

﴿ توافر الارض الصالحة ﴾ زمام اراضي القطر المصري أي وادي النيل بحسب احصاء سنة ١٩٢٩ يبلغ ٨،١١٨،٣٥٣ فدانًا

منها منافع عمومية	٦٩٣،١٩٧	فدانًا
واراض ملك الحكومة	١،٦٠٨،٦٧٧	»
وأراض للأفراد والهيئات	٥،٨١٦،٤٧٩	»

وهذه المساحة مقسمة من حيث زراعتها الى :

(أراض مزروعة)	٥،٦٠٨،٠٠٢	فدانًا منها
محاصيل وخضر	٥،٥٠٧،٦٢٥	»
اشجار فاكهة	٥٤،٢٦٦	»
اشجار خشبية	٢،٦٦٨	»
مراع طبيعية	٤٣،٤٤٣	»
(أراض غير مزروعة)	٢،٥١٠،٣٥١	فدانًا منها
منافع عمومية	٦٧٧،٦٥٧	»
مستنقعات	١٥،٣٧٧	»
بور	١،٧٩٩،١٢٥	»
(اراض مقام عليها مبان أو احواش أو اجران)	١٨،١٩٢	»

في القطر المصري إذن ما يقرب من مليوني فدان من الاراضي البور القابلة للاصلاح وهي كافية للقيام بأود الزيادة المضطردة في السكان إلى امد بعيد

﴿ الأيدي العاملة المدربة ﴾ الأيدي الزراعية العاملةبالقطر المصري وفيرة ولله الحمد وكثير منها ولاسيما في الوجه البحري مدرب على الاعمال الزراعية العادية. ولكن الفلاح المصري ينقصهُ الأساليب الزراعية الحديثة . والطريقة الوحيدة لذلك هي بالتعليم والارشاد العملي — وإلى حضراتكم ما أراه من مقتضيات نهضتنا للنهوض بالزراعة المصرية

١ — يجب أن يوجه التعليم الالزامي والأولي توجيهاً زراعيًّا محضاً فتكون مواد الدراسة جميعاً في موضوعات زراعية

٢ — يجب أن يكون أغلب المدارس الابتدائية مدارس زراعية ابتدائية عامة وتخصيصية بحسب الزراعة السائدة في المناطق المختلفة كمناطق الأرز في شمال الدلتا والقصب في الصعيد وصناعة الألبان في منطقة دمياط والخضر والأزهار في منطقة الاسكندرية الخ ... ومدارس لاخراج بستانيين مدربين علىزراعة الفاكهة وما تتطلبه من فنون التقليم والتطعيموالطرق العملية لمقاومة الآفات والطرق الحديثة للشحن والتصدير

٣ — يجب أن يعدل نظام التعليم الزراعي المتوسط تعديلاً كليًّا بحيث يكون اكثر فائدة للزراعة المصرية من الوجهة العملية الانتاجية فتقسم مدارسه بحسب التخصص إلى

ا — مدارس متوسطة لاخراج نظار العزب ويتدربون فيها على إدارة العزب ومسك الدفاتر وتنظيم العمل الخ ...

ب — مدارس زراعية متوسطة ميكانيكية لاصلاح الآلات الزراعية وادارتها

ت — مدارس زراعية متوسطةلصناعة الألبان وأخرى لتربية النحل والحرير ومثلها لكافة الصناعات الزراعية كحفظ الفواكه والخضر واستخراج الزيوت وصناعة الخمور للتصدير

ث — مدارس زراعية متوسطة للتخصص في تربية الدواجن والماشية

ج — مدارس زراعية متوسطة لفلاحة البساتين

ح — مدارس زراعية متوسطة للحاصلات الأساسية كالأرز والقطن والغلال والقصب الخ

كما انه يجب أن يعاد تنظيم كلية الزراعة على اساس التخصص في فروع الزراعة المختلفة لتستفيد البلاد منهم إلى اقصى حدود الاستفادة

وبذلك يكون في بلادنا جيش من الزراعيين النافعين العمليين المدرَّبين على أصول الزراعة الحديثة بأيدي اساتذة يلتهبون حماسةً لتقدم الزراعة المصرية

اما الإرشاد العملي لوفرة الانتاج فمن خاص اعمال وزارة الزراعة وفيها الآن قسمٌ للدعاية

والارشاد منظم على أحدث النظم وهو يؤدي رسالة الاقسام الفنية بالوزارة الى كافة طبقات الزراع بما يطبعهُ من النشرات الفنية والمجلات الزراعية والبيطرية ومجلة زميل الفلاح والمنشورات والعجالات المصورة واللوحات المصورة والاشرطة السينمائية الناطقة التي تعرض على جمهور الزراع بسيارات وأجهزة والدعاية بالإذاعة اللاسلكية والمحاضرات الشخصية في الأقاليم والمعارض الموسمية والمسابقات والمتاحف الاقليمية وغير ذلك مما يطول شرحه

٣ — ﴿ توافر الشروط اللازمة لنمو المحصول ونجاحه ﴾ وهذه الشروط هي :—

ا — جودة التقاوي وخلوها من جراثيم الأمراض : وتعمل وزارة الزراعة على ذلك بأحدث الوسائل فأنشأت محطة لاختبار البذور على أحدث النظم العصرية وانشأت قسم الاكثار لاكثار ما ينتخب من التقاوي الجيدة لتوزع على جمهور الزراع بمعرفة القسم التجاري

ب — حسن الخدمة باستعمال اوفق الآلات الزراعية للحرث والعزيق وقد توفق الاستاذ حامد البلقيني مدير مزرعة الجيزة سابقاً واستاذ الزراعة بكلية الزراعة حاليًّا الى اختراع آلات زراعية تسد احتياجات الزراعة الحديثة بأيدٍ مصرية ومواد مصرية يسهل وجودها في كل قرية

ت — حسن اختيار السماد الموافق واضافة المقدار المناسب ويقوم الآن قسما الكيمياء والزراعة الفنية بتجارب في ذلك أسفرت عن نتائج عظيمة في الحاصلات الرئيسية

ث — الزراعة في المواعيد المناسبة من أهم العوامل لضمان وفرة المحصول وتقوم الوزارة بتجارب على كافة الحاصلات

ج — توافر مياه الري وهذا من اختصاص رجال الري وقد خطت البلاد في ذلك خطوات سديدة، واضافة مياه الري في الاوقات المناسبة يتعلمها الفلاح بالاختبار والممارسة

ح — حدوث الصرف وتعميمه وهذا ما تعمل الحكومة المصرية على تحقيقه ولا يمكن ضمان احتفاظ الارض بخصبها وانتاجها إلاَّ إذا عممت المصارف ووصلت بالمصارف العامة وهذا واجب صاحب الارض

خ — زراعة الاصناف التي تقاوم المرض في المناطق المناسبة كأن تزرع أصناف القطن التي تقاوم مرض الشلل كجيزة ٧ في الارض الملوثة بهِ وتزرع الأصناف المعرضة للشلل كجيزة ٢٦ في الارض النظيفة منهُ

وقد خطت الوزارة في هذا المضمار خطوات موفقة فأخرجت صنفاً من اللوبيا يقاوم الصدأ ومرض الدودة الثعبانية وصنفاً من الطماطم يقاوم الذبول وهي في طريقها الى استنباط أصناف جيدة من القمح لمقاومة الصدإ ومن الارز لمقاومة مرض خناق السنبلة وغير ذلك

د — الاستعداد لمقاومة الآفات الحشرية والأمراض بالحقل بالوسائل الحديثة بالرش

والتعفير بالمواد الكيميوية وقد توصل قسم الفطريات الى التغلب على مرض صدإ الفول والقمح بالرش بمحلول بردو والتعفير بالكبريت ومقاومة أمراض البياض بمحاليل ومساحيق مختلفة

لذلك يجب لضمان وفرة الغلة من محصولات وخضر وفاكهة ان يلم المزارع بالطرق الحديثة المبسطة لوقاية محصولاته — ووزارة الزراعة بأقسامها المختلفة تقوم بالدعاية اللازمة لذلك بشتى الوسائل — ولكن لنجاح الدعاية يجب ان تكون آذان الفلاح مستعدة لقبولها والعمل على تنفيذها بدقة وإلاَّ فلا فائدة منها ومقاومة الآفات الزراعية الى الآن سواء بالحاصلات أو الخضر أو الفاكهة تقوم بها وزارة الزراعة بناء على نتائج ابحاث قسمي الحشرات والفطريات وهي التي يقوم بتطبيقها في المزارع والبساتين المصابة فرعا الرش والتدخين برشاشاته ومواده الكيميوية. ومع الاسف الشديد ان أغلب الزراع — الاَّ النادر وهذا لاحكم له — يتوسعون مثلاً في إنشاء الحدائق ولا يزودونها بما يلزم من الرشاشات والكيماويات للعلاج عند ظهور المرض لذلك تراهم يتركون الاصابة بدون علاج الى ان يستفحل أمرها وتتعذر مقاومتها فيصرخون طالبين النجدة بعد فوات الوقت من رجال وزارة الزراعة التي تعجز في غالب الاحيان عن المعاونة لتقدم الاصابة فيلومها الزراع وهم في الواقع الملومون وعلى أنفسهم هم الجانون

٩ — اختيار الوقت المناسب لحصاد المحصول والعناية في دراسها شرطان أساسيان لضمان وفرة المحصول والاحتفاظ به الى أقصى مدة في المخزن . فالبطاطس مثلاً اذا قلع قبل ان يتم نضجه او لم يعتن بتقليعه يكون معرضاً لشتى جراثيم العفن

﴿زراعة الاصناف الكثيرة الغلة﴾ وهذا الموضوع من اختصاص قسم تربية النباتات وقد انتخب فعلاً أصنافاً جيدة عظيمة الغلة من القطن والقمح والذرة الشامية والرفيعة والفول والارز وغير ذلك من الحاصلات بأحدث الوسائل الفنية كالتهجين الصناعي في القطن والارز

﴿تعدد أصناف الحاصلات الغذائية والخضر والفاكهة﴾ وهذا شرط أساسي لضمان تغذية الشعب ويتضح من دراسة الاحصاءات الخاصة بمساحات الحاصلات الأساسية المختلفة ومتوسط محصول الفدان وجملة المخصص للاستهلاك والمقادير المستوردة والمصدَّرة في المدة الواقعة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ان القطر المصري يكفي نفسهُ من كافة الحاصلات علاوة على ما يصدرهُ منها ولكنهُ يستورد مقادير قليلة من القمح والحمص والترمس والفول السوداني والسمسم

أما زراعة الخضر في القطر المصري فمساحتها نحو ٢٠٢٫٨٨٩ فداناً يزرع فيها الباذنجان ٢٩٩٦ (فداناً) والباميا (٣٤٣٥) والبصل (٥٥٤١٧) والبطاطا (٢٤٨٨) والبطاطس (٨٧٧٣) والبطيخ (٣٨٣٩٥) والثوم (١١٨٦) والجزر (٧٤٧) والخبيزة (٢١٣٢) والسبانخ (٦٠٢) والشمام والعجور والمقات (١٤١٨٤) والطماطم (٣٤٥٤٥) والفاصوليا (٥٧٢) والفلفل (١٣٣٨) والقرع

العسلي (١٦٢) وقرع كوسة (٣٧٥٦) والقرنبيط (٨٥٠) والقلقاس (٢٦٩٩) والكرات أبو شوشة (٤٥٧) والكرنب (٢٨٧٩) واللفت (١٠٧٣) واللوبيا (٢٥٠٠) والملوخية (١٦٦٣) وخضر أخرى (١٩٠٥٦) ومنتجات هذه المساحة استهلكت منها داخل القطر وصدر مقدار كبير الى الخارج. أما زراعة الفواكه فمساحتها في القطر المصري بحسب تعداد ١٩٢٩ بلغت ٥٤٢٦٦ فداناً وأشهرها البرتقال والليمون الاضاليا والليمون الحلو والليمون المالح والنارنج واليوسفي ومجموع المساحة المزروعة منها ١٧٧٣٤ فداناً. ومنها البرقوق والتفاح والتين والجوافة والخوخ والرمان والزيتون والعنب والكمثرى والمانجو والمشمش والموز والنخيل وأصناف أخرى. ويتضح من دراسة جداول اصدار الفواكه ان مقادير كبيرة من الموالح والموز والبلح والعجوة والبطيخ والقاوون والشمام تصدَّر. وتستورد مقادير كبيرة من البرتقال والليمون المالح (الأضاليا) والتفاح والبرقوق والعنب والكمثرى والرمان والمشمش الغض (الطازج) والمجفف والخوخ والبلح والعجوة والتين المجفف والكرز ومقادير يسيرة من البطيخ والقاوون والشمام والسفرجل

وجميع هذه الفواكه والثمار تنمو وتجود في القطر المصري عدا التفاح والكرز وكافة انواع النقل والتين المجفف والقراصيا والمشمش المجفف وقمر الدين — فواجب مصر التوسع في زراعة هذه الاصناف للاستغناء عن الخارج كما يجب اقامة ثلاجات كبيرة لحفظ الفاكهة والخضر بالتبريد لسد حاجات السوق وقت الشح

ولما كان البلح من الاغذية الغنية بالمواد المولدة للطاقة وبه نسبة لا بأس بها من البروتين، وهو غني كذلك بالفيتامينات . والاملاح المغذية المفيدة كأملاح البوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والفصفور والفلور والكبريت وبهِ مقادير من الجيلاتينيات والبكتينات والحمض الليمونيك ومادة الكومارين التي تكسبهُ طعمه اللذيذ المعروف ولهُ تأثير مدفىء لما يختزنه من قدر كبير من المجهود الشمسي Solar energy حتى انه يوصف في الحالات التي يشكو فيها الشخص بعدم الدفء—اي للاشخاص الذين يشعرون دائماً بالبرد—فانهُ يجب تشجيع استهلاكه بين الطبقات العاملة اذ يكفي لتغذية شخص واحد منهُ ١٨٠ جراماً

لذلك اتخذ قسم البساتين بوزارة الزراعة سياسة من شأنها الاكثار من الاصناف المصرية الجيدة التي تصلح للحفظ — وتحسين الاصناف الاخرى واستيراد الاصناف الجيدة من الاقطار الخارجية . ويبلغ عدد النخيل بالقطر المصري بحسب آخر احصاء ٥٫٠٨٣٫٤٠٠ نخلة

وهذه المقادير لا تكفي لاستهلاك القطر ويجب ان تتضاعف حتى يتيسر للفلاح والعامل المصري ان يجعل البلح غذاءً اساسيًّا له لرخصه وجودته وهذا هو مشروع وزارة الزراعة والسياسة التي يعمل قسم البساتين على تنفيذها. فقد انتخب فعلاً احسن صنف مصري يصلح للحفظ وهو السيوي

واهتم بتجفيفه وحفظه وتعبئته على الطرق الحديثة فنجح في ذلك نجاحاً ملموساً زاد من استهلاك هذا الصنف في المدن وأصبح يصدر منهُ الى الخارج مقادير لا بأس بها

والاتجاه الآن هو نحو اكثار هذا الصنف وزيادة مساحته بالوجه القبلي ولما كان معظم نخيل الوجه القبلي من الاصناف البدرية المجهولة الاصل الرديئة الصنف فقد وضع القسم مشروعاً لاستبدالها تدريجيًّا بفسائل من الصنف السيوي

وقد انشأ قسم البساتين مصنعين في سيوه البحرية لتعبئة البلح بشكل نظيف وبطرق مختلفة منها الطريقة البلدية بعد تحسينها — ولما كان البلح الحياني يوجد منهُ بمصر مقادير كبيرة وهو غذاء عظيم لجمهور الفلاحين وخصوصاً بالوجه البحري وشمال سينا فقد اهتم قسم البساتين بهذا الصنف وبصناعته وتحويله الى مصنوعات كالمربى وقد جفف وعمل منه بلحاً كبيساً لحفظه كما يفعل سكان شمال سيوه اذ يحمصونه في الفرن وينشرونه في الشمس ثم يكبسونه في الخوص — ويرد لمصر مقادير كبيرة من العجوة من العراق بثمن رخيص يجعل من الصعب علينا تصدير عجوة الى الخارج والأمل معقود على احلال العجوة المصرية محلها — ولهذا استورد قسم البساتين اصنافاً من البلح من العراق والحجاز لهذا الغرض وقد نجح بعضها بالقناطر الخيرية وهو يبشر بمستقبل باهر

هذا من جهة البلح أما من جهة الزيتون فقد كانت مصر مقتصرة على الانواع البلدية للتخليل فقط اذ لم تكن توجد صناعة تخليل الزيتون الأسود الذي يرد الينا بكثرة من بلاد اليونان كما أنهُ لا تزال ترد الينا الى الآن مقادير كبيرة من زيت الزيتون لذلك استورد قسم البساتين أصنافاً كثيرة من الزيتون لاستخراج الزيت ولتخليل الأخضر والاسود نجح أكثرها نجاحاً باهراً وأخذ في اكثارها وقد حللت هذه الاصناف وبوبت الى أصناف للزيت وأخرى للتخليل واختط القسم سياسة زيتونية بموجبها تغرس أصناف الزيت في مناطق معينة في البحيرة والفيوم وعلى طريق الاسماعيلية حتى السويس (وقد عمل بها خريطة) أو أصناف التخليل فتزرع في الاراضي المجاورة للمدن الكبيرة وفي مديرية الفيوم وسيستكثر من جميع هذه الاصناف لسد حاجة القطر من الزيت والزيتون المخلل الأسود والأخضر . وهناك أصناف تصلح للغرضين معاً

وستجعل منطقة مريوط والصحراء الغربية والواحات منطقة لزيتون الزيت وستغرس معظمها بالصنف الشملالي وقد انشئت فعلاً معصرتان لاستخراج الزيت احداهما في سيوه والاخرى في برج العرب وستنشأ اخرى في الجيزة وفي الفيوم قريباً وصناعة الزيتون الاسود المخلل قائمة الآن في سيوه وقد نجحت نجاحاً باهراً بفضل الاصناف التي استوردت لهذا الغرض

ويبلغ عدد اشجار الزيتون بالقطر المصري حوالي ربع مليون شجرة تعطي نحو الفي طن — ويخلل قسم البساتين سنويًّا نحو سبعة اطنان من الزيتون

مشكلة السكان

القواعد الاحصائية الصحيحة
لزيادة السكان ونقصهم

للدكتور شريف عسيران

ان قضية معالجة زيادة السكان ونقصهم من القضايا المعقدة التي يعجز عن حلها الاخصائيون بهذا الموضوع . وقد تطوّرت هذه المشكلة تطوّراً عظيماً فبعد ان كانت الزيادة هي الخطر الذي يهدد الامم ويدفعها الى المنازعات والحروب صار نقص السكان شبحاً يهدد كيان الامم ونذيراً بالفناء اذا استمرت على سيرها الحاضر. ولا ندعي اننا نستطيع القول الفصل في هذا الموضوع الذي تعاصى على جهابذة العلماء بل نبسط أحدث الآراء فيه ومختلف النظريات لأعلامه الذين يشار اليهم بالبنان ونشير الى قواعده الاساسية التي تكشف عن الاخطاء التي يتسلح بها السياسيون والمستعمرون والطامعون ويتخذونها مسوغاً للمجازر التي يدفعون اليها زهرة ابنائهم والنخبة الصالحة من شعبهم ممن تحتاج اليهم البشرية وينتفع بهم العلم

﴿ تاريخها ﴾ يظهر ان فكرة احصاء النسل نشأت لغايتين الاولى معرفة عدد الرجال القادرين على حمل السلاح . والثانية معرفة عدد الافراد القادرين على دفع الضريبة . فالقصد الاساسي من احصاء السكان الحرب والجباية . ومما لاشك فيه ان اول من استنبط فكرة الاحصاء احد رؤساء القبائل ليعرف عدد رجاله المحاربين وهذا ما حمل داود ان يأمر موآب باحصاء الشعب فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذي عنده طف في جميع اسباط اسرائيل من دان الى بئر سبع وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب (١) ثم تحوّلت الفكرة ورغب الحكام في معرفة عدد رعاياهم المتمكنين من دفع الضريبة حرصاً على زيادة دخلهم كما يستدل من نص الانجيل وفي تلك الايام صدر أمر من اوغسطس قيصر بان يكتتب كل المسكونة (٢)

ولما سألت مدام دي ستال (Madame de Staëls) نابوليون عن اعظم امرأة في كل عصر اجابها هي التي تجهز وطنها بأكبر قدر من غذاء المدافع حينما تتطلب ذلك حاجة امتها (٣)

---

(١) العهد القديم : صموئيل الثاني الاصحاح ٢٤ العدد الثاني (٢) العهد الجديد : انجيل لوقا الاصحاح الثاني العدد الاول Population, Carr-Saunders 1931, p. 1

(٣) Mankind at the Cross Roads, East, 1926, P.51

ثم تطورت هذه الاحصاءات وشملت جميع مناحي الحياة من صحة ومرض وعلم وجهل وثراء وفقر وتقدم وانحطاط وصارت الارقام هي اللسان الناطق لكل امة والمرآة التي تنعكس فيها حياتها الاجتماعية والدليل الصحيح على مستواها فالارقام الصحيحة هي المعول عليها اليوم في وضع الامم الحقيقي

﴿ تكاثف السكان ﴾ ان قضية تكاثف السكان قضية نسبية تتوقف على حالة الشعب ومستواه الاقتصادي والاجتماعي. وهناك حد لتكاثف السكان يعبر عنهُ بالحد الملائم Optimum density. وهو الحد الذي يتمكن عندهُ الفرد من الحصول على اكبر دخل ممكن ليعيش أرغد عيش مستطاع. فبعض الشعوب تكون أبرع من غيرها في التفنن في الزراعة واستنباط مختلف الصناعات فمهما تكثر ضمن نطاق نتاجها الاقتصادي لا تزدحم بسكانها . وتكون شعوب غيرها اقل منها انتاجاً وليس لديها من مستنبطات العلم ما لدى الاخرى فتتعرض لازدحام السكان

ومما لا شك فيه ان الشعوب البدائية كانت أقل خصباً منا رغماً عن زواجها الباكر ولا تنسب قلة عددها الى المجاعات والحروب فقط بل الى عدة عوامل منها طول امتناعها عن الجماع تقيداً بالتقاليد الدينية والاجتماعية فكانوا يعرضون عنهُ قبل الذهاب الى الصيد وحين يكون القمر بدراً وفي اثناء الرضاع ويتعمدون الاسقاط وقتل الاولاد وغير ذلك من العوامل في تنقيص عددهم. وكانت هذه الاسباب عاملاً في توازن السكان (٢)

﴿ نمو السكان ﴾ يتوقف نمو السكان على عاملين رئيسيين (١) خصب الامة (٢) مقدار وفياتها. فيمثل الاول العوامل التي تشجع التناسل كالقوة الحيوية والميل الشخصي والاحوال الاقتصادية والاجتماعية وما اشبه . والثاني الامراض والاخطار التي تتعرض لها الامم . ومصدر الخطأ في الاحصاءات الاعتماد على معدل الولادات والوفيات البدائية Crude birthrate and crude death rate وهو معدل الولادات والوفيات لكل الف من السكان بالسنة الواحدة . وهذا هو الاحصاء الذي يعرفهُ اكثر الناس ويعوّل عليه السياسيون في تعزيز شعوبهم والزجّ بهم في ميادين القتال

والحقيقة ان هذا الاحصاء لا يغير معدّل زيادة امة او نقصانها وقليل من يدرك انهُ من الممكن ان يزداد شعب ما زيادة ظاهرية لامد محدود بينما تؤول ولاداته ووفياته الى انقراضه اذا استمر على ما هو عليه . ان زيادة الولادات الموقتة على الوفيات لا تدل على نمو السكان كما ان هبوط الوفيات لا يضمن لنا زيادتهم . نعم تمكن العالم المتمدن من القضاء على كثير من الامراض الفتاكة كالهيضة والطاعون والجدري والتيفس والبرداء وغيرها فقللت وفياته ولكن ذلك لا يؤول

(٢) Population, Carr-Saunders p. 34

الى زيادة السكان لان معدل الولادات والوفيات البدائية هو النسبة السنوية للالف من السكان بغض النظر عن العمر والشق والفوارق المحيطية والثقافية والاجتماعية فوفيات الاناث لاسباب احيائية اقل من الذكور [1] فالامة التي نزيد فيها عدد الاناث على الذكور تكون وفياتها اقل والعكس بالعكس. والامة التي يكثر فيها عدد الصغار والطاعنين في السن يكون معدل وفياتها اكثر من غيرها . فخصب الامة يتوقف على المزيج المركبة منه عناصرها من اناث وذكور على مختلف اعمارهم. وليس عدد الولادات بدليل على قوة الامة التناسلية لان سن تناسل البشر محدود فعدد الولادات يتوقف على نسبة الاشخاص بمختلف الاعمار بين السكان وهذا متوقف على نسبة الوفيات بمختلف الاعمار ولا تدل كثرة الوفيات على نقص الامة لان كثرتها وقلتها تتوقفان على تفاوت الاعمار فالشيب اكثر تعرضاً للموت من الشبان والصغار اكثر من الكبار وهلمَّ جرًّا . فالزيادة والنقصان متوقفان على مزيج الامة ويختلف هذا المزيج باختلاف الظروف فقد تكون نسبة الشيب بالالف عند بعض الامم اكثر من غيرها بكثير. ففي سنة ١٩١١ كانت نسبة الذين تجاوزوا سن ال ٦٥ في فرنسا فوق الثمانية بالمائة بينا كانوا في انكلترا اقل من ٦ بالمائة [2]

ويربي عدد الاناث في اكثر انحاء اوربا على عدد الذكور وعكس ذلك في الاقاليم غير الاوربية. وقد زاد عدد الاناث في اثناء الحرب العامة على عدد الذكور حيث فقد ماينيف على الاثني عشر مليوناً اكثرهم ذكور وكان متساوياً عند الامم المتحايدة. وتختلف نسبة الذكور والاناث باختلاف الاعمار وعلى نسبة اختلافها يتوقف خصب الامة او عدمه . فقد زاد عدد الذكور في انكلترا وويلز سنة ١٩٢١ بين طوائف السكان التي في اوائل عمرها بينا زاد عدد الاناث في الطوائف التي تجاوزت سن الخامسة عشرة من العمر. وكلما تقدم العمر كانت زيادة الاناث اكثر ويختلف معدل وفيات الذكور عن الاناث لان الذكور اكثر تعرضاً للاخطار [3] وللعامل الاحيائي الذي ذكرناه

﴿ الاحصاء الصحيح ﴾ يعتقد بعض العلماء ان السكان يتضاعفون كل خمسين او ثلاثين سنة فلنبحث الآن عن صحة هذه الزيادة التي يهدد بها العالم المستعمرون والحاكمون بأمرهم والسياسيون هل هي واقعية او تضخم ارقام منشؤه عيب في طرق الاحصاء القديمة التي استندت الى الولادات والوفيات البدائية والتي لاتدل على قابلية الامة التناسلية لان هذه القابلية محدودة بسن معين من العمر يتراوح بين ١٥ — ٥٠ وانما يتوقف الاحصاء الحقيقي على المزيج المركبة منه عناصر الامة من ذكور وأناث وعلى مختلف اعمار تلك العناصر ومعدل وفياتها بمختلف الاعمار . فالامم المنتشرة

(١) راجع المقتطف ١ مارس سنة ١٩٣٢ ص ٢٨١ عن الجنس

(٢) Population p. 62 (٣) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر تحت لفظة Population

فيها الامراض التي تفتك بالاطفال تدفع ضريبة الموت اكثر من غيرها ممن توفرت عندها الوقاية الصحية فنسبتها عند بعض الامم ١٠ بالالف وعند غيرها ٨٠ بالمائة ويتوقف الاحصاء علاوة على ذلك على نسبة الاناث اللاتي بسن الزواج وعلى السن الذي يتزوجن فيه ومقدار خصبهن وعلى الهجرة والمهاجرة فان الشباب هم الذين يهاجرون عادة فيكثر عددهم في البلاد التي يهاجرون اليها ويقل في التي يهجرونها وعليه لا تتوقف الزيادة او النقصان على عدد الولادات والوفيات البدائية بل على الحاصل الصافي من هذا المزيج الذي يعيش من ابناء الامة الى سن البلوغ ويعوض عما تفقده تلك الامة من عناصرها في جيل كامل ويعبرون عن الجيل بلغة الاحصاء بمقدار ثلاثين سنة وبعبارة اوضح تتوقف الزيادة والنقصان على عدد الآباء والامهات الذين يصيرون أباء وأمهات في الجيل المقبل

استنبط الاقتصادي الانكليزي الشهير كازونسكي R. Kaczunski الذي يعد هو وCarr-Saunders من أشهر الاخصائيين بعلم الاحصاء طرقاً جديدة للاحصاء وهو ثقة يعتمد عليه اكثر العلماء في هذا الموضوع ونلخص طرقه بما يلي (١) يعتمدون في الزيادة والنقصان بالاحصاء الحديث على عدد الاناث البالغات الولودات في الامة ويهملون الذكور ويقدر الاخصائيون سن التناسل بين ١٥ — ٤٥ ويعرضون عن اللاتي يلدن قبل هذا السن وبعده وعن اللقيطات لانهن قليلات بالقياس الى الشرعيات (٢) يقدرون خصب الأمة بمقدار ما تلده كل الف امرأة بسن معين فالنساء اللاتي بسن ١٥ — ١٩ اخصب ممن هن اكبر منهن سناً فيتوقف نمو الأمة على عدد النساء المتزوجات بالالف في مختلف الاعمار وقد اتخذ علماء الانكليز أحصاء الامة السويدية سنة ١٨٩١ مقياساً للتفاوت في الانتاج في مختلف الاعمار نسرده مثالاً لتفاوت معدل الانتاج

السن	عدد الولادات بالالف (١)
١٥	٥١٨
٢٠ — ٢٤	٤٥١
٢٥ — ٢٩	٣٧٥
٣٠ — ٣٤	٣١٢
٣٥ — ٣٩	٢٥٠
٤٠ — ٤٤	١٤٢
٤٥ — ٤٩	٠٢٠

فيظهر من هذا الجدول ان اللاتي بسن ١٥ — ١٩ إخصب من غيرهن وتهبط الولادات

(١) Twilight of Parenthood P. 58

بارتفاع السن ومعدل الولادات في مختلف الاعمار ينبيء عن حقيقة خصب الامة ونموها ويعبد عنهُ بمعدل دليل الخصب (The Index Fertility Rate) وهو عدد الولادات بالالف مقسوماً على عدد النساء الولودات بين سن ١٥ — ٤٥ (١)

استنبط كازونسكي ما سمّاه Gross reproduction rate اي معدل التناسل الاكبر وهو عدد الاولاد الذي يمكن ان تلده كل امرأة طيلة مدة التناسل ويهمل عدد الذكور لاسباب سنوردها فيما بعد فيكون معدل التناسل الاكبر عدد البنات الممكن ان تلدهُ امرأة طيلة مدة التناسل فاذا كان هذا المعدل واحداً حافظت الامة على عددها وتنقص بنسبة نقصه

(٤) ان معدل التناسل الاكبر لايكفي لقياس نمو الامة لانهُ يبين عدد البنات الممكن ولادتهُ طيلة سن التناسل . ولا يغرب عن البال ان بعض البنات لا يتزوج وغيرهُ عقيم وفريق لايعيش طويلاً فاستنبط كازونسكي معدل التناسل الصافي Net reproduction rate وهو مقدار البنات اللاتي يعشنَ طيلة مدة التناسل (اسلفنا ان هذا النوع من الاحصاء يهمل الذكور فيكون معدل التناسل الصافي مجموع الاولاد طيلة مدة الولادة) وهو يتطلب معرفة عدد النساء في مختلف الاعمار وعدد ولاداتهنَّ السنوي ومعدل الولادات لكل الف امرأة واللاتي يعشنَ بالالف من المولودات ومقدار نسل المولودات الجديدات لكل الف فمعدل التناسل الصافي هو القول الفصل في زيادة الامة او نقصانها فاذا كان واحداً حافظت على كيانها واذا زاد زادت او نقص نقصت

والسر في اهمال الذكور واعتبار الاناث الولودات هو ان الاناث هنَّ اللاتي يحملنَ الاولاد لا الذكور فلو فرضنا ان عدد الاناث القابلات الزواج في امة ما مليون وعدد الذكور مليونان فلا يمكن لتلك الامة ان تنتج اكثر من مليون ولد (اذا اهملنا التوائم). حالة انهُ لو كان عدد الاناث مليونين والذكور نصف مليون فمن الممكن ان يلد لتلك الامة ما يقرب المليونين . فالاحصاء الحقيقي يتوقف على عدد الاناث لا الذكور. هذه لمحة سطحية عن اسس الاحصاء اخترنا منها ما يتعلق بناحية اصلاح النسل لنبرهن ان لازيادة حقيقية في السكان عند مختلف الامم توجب تحديد نسلها وتطاحنها . وبعد ان قررنا ان خصب الامة الحقيقي يتوقف على معدل التناسل الصافي الذي هو عدد الاناث الولودات في مختلف الاعمار نبدأ باستنطاق الارقام التي هي القول الفصل في الزيادة والنقصان وهي مأخوذة عن كتاب كازونسكي Population Movements « حركات السكان » الذي صدر سنة ١٩٣٦

﴿ حاصل التناسل الاكبر ﴾ بلغ معدل حاصل التناسل الاكبر في اوروبا الغربية والشمالية منذ خمسين سنة ٢،١ ومعناه انهُ ولد لكل مائة امرأة خلال سن التناسل ٢١٠ بنات و(٢٢٠ صبيًّا) ويشمل هذا العدد المتزوجات وغير المتزوجات. وهبط هذا المعدل سنة ١٩١١—١٩١٤ الى ١،٦

(١) Twilight of Parenthood p. 59

وتدنى الى دون الواحد سنة ١٩٣٣ وبلغ ٩٠، ٠ . وتفسير ذلك بلغة خصب الامة انهُ ولد لكل مائة امرأة خلال سن التناسل ٩٠ بنتاً فقط فامة كهذه لا تستطيع تعويض نفسها على مدى الايام . وبلغ هذا المعدل في انكلترا والنمسا اقل من واحد سنة ١٩٢٦ واستونيا سنة ١٩٣٢ وفرنسا ولاتفيا سنة ١٩٣٣ وهوفوق الواحد بيسير في الدانمارك وتشيكوسلوفاكيا والمجر والولايات المتحدة (١)

ان المانيا التي انخفض معدل تناسلها منذ ١٨٨٠ اكثر من كافة انحاء العالم بلغت منذ ٣٠ سنة اعظم معدل التناسل الاكبر بين امم اوروبا الغربية والشمالية وسنة ١٩٣٣ اوطأ معدل ثم اخذت بالزيادة سنة ١٩٣٤ والشطر الاول من سنة ١٩٣٥ ولكن ارقام الشطر الثاني لهذه السنة تدل على ان هذا المعدل لا يزال دون الواحد واذا استمر على معدل سنة ١٩٣٤ فأن سكان المانيا واوربا الغربية والشمالية مهددون بالفناء ولو بلغت كل مولودة جديدة سن الخمسين . هذه ارقام معدل التناسل الاكبر وهو لا يعني كما بينا ان كل مولودة جديدة تبلغ حقاً سن التناسل وتتزوج وتلد بل معناه مجموع المولودات فقط

﴿ معدل التناسل الصافي ﴾ لننظر الآن الى المعدل الصافي الذي هو القول الفصل في زيادة الامة ونقصانها : بلغ هذا المعدل في المانيا والدانمارك والسويد منذ خمسين سنة ٤، ١ و ٥، ١ خلال جيلين ونفس المعدل ينطبق على أوربا الغربية والشمالية عدا فرنسا وإرلندة حيث كان واحداً وهو دون الواحد في كل من أوربا الغربية والشمالية في الوقت الحاضر . وقد تدنى من ٣، ١ سنة ١٨٨٠ الى ٧٦، ٠ سنة ١٩٣٣ وتفسيره ان كل مائة أم تلد في الحاضر ٧٦ فقط من أمهات المستقبل . وقد وجدوا ان هذا الحاصل لا يتجاوز ٧٥، ٠ في انكلترا سنة ١٩٣٤

بلغ عدد الاناث اللاتي دون الـ ١٥ من العمر في انكلترا سنة ١٩٣٤ (١٠٠و٧١٠و٤) وعدد الإناث بسن ١٥ـ٣٠ بلغ ٤٠٠و٩٩٨و٤ فمن الواضح ان الإناث اللاتي دون سن الـ ١٥ لا يستطعن التعويض عن اللاتي بسن ١٥ — ٣٠ ولو اجتزن جميعاً سن التناسل لأنهن أقل منهن عدداً (٢)

ويقدر علماء الاحصاء أنهُ اذا استمر مزيج السكان بهذا المعدل فان سكان انكلترا وويلز ينقصون ٦٠ مليوناً في خلال مائتي سنة . وصرح المستر كروذر Crowther التصريح الآتي : اذا انتظرنا جيلاً آخر دون ان نحركنا قضية نقص السكان واستمر معدل الولادات بالهبوط فلا تستطيع قوة على وجه الارض منع هبوط السكان الى ثمن او عشر مقداره (٣)

وقدرت الدكتورة إنيد تشارلس ان سكان انكلترا الذين يبلغون الآن أربعين مليوناً وتسعمائة الف سيصبحون سنة ١٩٤٣ أربعة وثلاثين مليوناً وثلاثمائة الف (٤)

(١) Population Movements p. 42 (٢) Population Movements, p. 45
(٣) Eugenic Review, Jan., 1936, p. 273 (٤) Twilight of Parenthood p. 283

وظهر من احصاءات Thomson and Whelpton في الكتاب النفيس «اتجاه الولايات المتحدة الاجتماعي الحديث» بأن سكان الولايات المتحدة سيبلغون ٠٠٠و٥٠٠و١٣٢ — ٠٠٠و٠٠٠و١٣٤ سنة ١٩٤٠ و ٠٠٠و٠٠٠و١٤٠ — ٠٠٠و٠٠٠و١٤٥ سنة ١٩٥٠ و ٠٠٠و٠٠٠و١٤٥ — ٠٠٠و٠٠٠و١٧٠ سنة ١٩٨٠ ثم تأخذ هذه الارقام بالتناقص بعد سنة ١٩٨٠ وينتظر ان تبلغ ١٥٥ مليوناً مع اعتبار الحد الاقصى للمهاجرة [١] ورغماً عن ضخامة هذه الارقام فان دائرة زراعة الولايات المتحدة تقدر ان لديها من الغذاء ما يكفي لاطعام ٣٠٠ مليون ولو بقيت طرق الزراعة على ما هي عليه اليوم دون ان يطرأ عليها أي تحسن [٢]

﴿ اليابان ﴾ جرى اول احصاء معقول لليابان سنة ١٩٢٨ فبلغ عدد سكانها ٦٢ مليوناً. ويقدر ثقاة حكومة اليابان ان سكانهم سيزيدون ثلاثين مليوناً سنة ١٩٥٧ و ٤٨ مليوناً سنة ١٩٦٥. ونسبة الاناث اللاتي بسن ١٥ — ٤٩ يقدر بـ ٤٧ بالالف يقابلها ٥٤ بالالف في انكلترا ويرافق قلة عدد الطائفة القابلة للتناسل ارتفاع في وفيات الطائفة التي دون ١٥ سنة من العمر والتي تربي وفياتها على وفيات ما يقابلها عند غيرها من الامم. ثم تناقص معدل الزواج سنة ١٩٠٨ ومع ان عدد نفوس اليابان كان يزداد في الماضي فانهُ آخذ بالتناقص الآن بالقياس الى المعدل الأول ومصيره مصير الامم الاوربية. ويقدر كروكر ان محصول المواد الغذائية نسبة الى الوسائط الزراعية الحاضرة بلغ الحد في اليابان ويعزو ذلك الى انصباب الثروة وتخصيص الطرق العلمية على المشروعات الصناعية واهمال الزراعة التي بقيت في الحالة البدائية عدا تقدم محسوس في استعمال انواع الاسمدة الكيمياوية [٣]

﴿ روسيا ﴾ يبلغ حاصل الولادات الصافي في روسيا ضعفهُ في انكلترا. وهمة روسيا منصرفة الآن الى تكثير المواد الغذائية واكتشاف نباتات جديدة صالحة للغذاء. ويظهر ان الاتجاه الصناعي الذي يرافقهُ على الأغلب تناقص النفوس اثر في اكثر الامم ماعدا روسيا ولكن عوامل تحديد النسل شائعة في روسيا الآن فانتشرت طرق منع الحمل وصار الاسقاط قانونيًّا وبالوقت نفسه سهلت روسيا على الامهات مسؤولية الاولاد بالمساعدات والامتيازات التي تمنحها لهنّ (وسنأتي على بعضها فيما بعد) فأثر ذلك في زيادة نفوسها ولكن هذه الزيادة اخذت تتناقص الآن بالقياس الى المعدل الاول [٤]. هذه لمحة عن مشكلة السكان ولا نستطيع ان نحيط بها وقد رسمنا صوراً منها يدرك منها المرء اتجاه الامم في هذا الطريق الوعر. وسننتقل الآن الى ناحية اخرى في اتجاه السكان وهي نوعهم لاعددهم وهذه الناحية اهم من الاولى وأعظم تأثيراً في الامم ومصير سكانها

(١) Recent Social Trends in the United States, 1933 p. 2
(٢) Twilight of Parenthood, p. 93—94 (٣) Twilight of Parenthood, p. 97—98
(٤) Twilight of Parenthood p. 104-105

كيف نتقي

حالات الاستهداف الغريبة

سواءٌ أصحَّ التفسير الذي سقناه[1] لحالات الاستهداف المنوَّعة كلِّهِ او بعضهُ ام لم يصحَّ فالإصابات كثيرة ولا بدَّ من البحث عن علاج لها وقد ظلَّ هذا العلاج متعذراً حتى سنة ١٩١١

في سنة ١٩٠٧ كتب الطبيب الالماني دنبار Dunbar في مجلة طبية فقال انهُ جرَّب جميع الاساليب المقترحة لمعالجة « حمَّى التبن »[2] في خلال السنوات العشر السابقة فلم يجد بينها اسلوباً ناجعاً . وفي سنة ١٩٠٥ حقن دنبار حبيبات اللقاح الذي يسبب «حمَّى التبن » في جواد ثم استخلص المصل من دمهِ ورشَّهُ على الغشاء المخاطي في انوف كثير من المصابين اوالمعرَّضين للاصابة بهذه الحمَّى فذهب مسعاه ادراج الرياح . واقتفى اثرهُ طبيب الماني آخر يدعى ويشهارت Weichhardt فأخذ مقادير من حبيبات اللقاح وغذَّى بها طائفة من الماشية ثم اخذ مقداراً من دمها وفصل عنهُ المصل وحاول ان يستعملهُ علاجاً للمصابين « بحمَّى التبن » فأخفق فيما حاول

ولكن في سنة ١٩١١ نشرت مجلَّة « اللانسيت » الطبية مقالاً للدكتور لنرد نون Leonard Noon وصف فيهِ طريقة علمية لمعالجة حمَّى التبن . وهذه الطريقة كانت مبنية على بحث لرجلين يدعيان روزينو واندرسن من اقطاب مختبر الصحة في وشنطن . كان هذان الباحثان يجربان التجارب في ظاهرة « الانافيلكسيس » . فالكلب الذي حقنهُ ريشيه بمادة غريبة اصيب بحالة الانافيلكسيس اي بسقوط قوة المقاومة فيهِ ، فلما حقن ثانية بالمادة نفسها اصيب باعراض التسمم فالموت . اما روزينو واندرسن فوجدا انهما اذا اتبعا الحقنة الاولى بحقن مقادير صغيرة جداً في جسم الكلب ، كانت الاعراض التي يصاب بها خفيفة جدًّا . ثم زادا المقادير رويداً رويداً حتى نشأت مناعة الكلب ضد هذه المادة

هذه المباحث دلَّت الدكتور نون على الطريق . فهو لم يحاول ان يخفف فعل المادة « الاليرجية » التي تحدث اعراض الاستهداف ، بحقنها اولاً في دم الجواد او بتغذية الماشية بها على نحو ما فعل دنبار وويشهارت بل صنع خلاصة مركزة من حبيبات اللقاح ثم أخذ جراماً منهُ وخففهُ مليون

(١) راجع المقال الاول في مقتطف مارس ١٩٣٩ صفحة ٢٦١ (٢) Hay fever

مرَّة ثم قسم المحلول مليون جزء واطلق على كل جزء اسم « وحدة اللقاح » . ثم بدأ تجاربهُ بحقن بضع وحدات من هذا المحلول (بعد حلّها حتى يسهل حقنها) وحقنها تحت جلد المعرَّض لهذه الحمَّى . وبعد بضعة ايام حقنهُ حقنة اخرى تحتوي على عدد من «وحدات اللقاح» اكبر قليلاً من وحدات الحقنة السابقة. ثم تلتها حقن اخرى كلٌّ منها اكبر من سابقتها . وكان يحقن المعرَّض لهذه الحمى قبل حلول الفصل الذي يطير فيهِ اللقاح من الاشجار فيسبب أعراضها . وعند حلول هذا الفصل ثبت ان هذا الرجل لم يصب باعراض المرض . وقد جرَّب نون طريقتهُ هذه على المصابين اصابات مزمنة فشفي بعضهم شفاء تامًّا وتحسنت حالة البعض الآخر فغدت اصابتهُ خفيفة

واذا كان نون اوَّل من طبق هذه الطريقة من العلاج على « حمى التبن » فانها استعملت قبلاً في المانيا ضدَّ شدة الاحساس ببعض العقاقير ، وضدَّ الاستهداف لبعض اصناف الطعام. فالباحث « ياداسون » استعملها في سنة ١٨٩٠ لعلاج مرضى كانوا شديدي الاحساس ببعض العقاقير فلا يطيقون تناولها . وتبعهُ سكوفيلد في انكلترا فاستعملها سنة ١٩٠٨ لعلاج رجل كان يصاب باعراض مرضية اذا كان في طعامهِ آثارة من البيض فصنع سكوفيلد حبوباً وضع في كل حبة منها جزءًا من عشرة آلاف جزء من بيضة نيئة وأوصى الرجل بان يبدأ بتناول حبة واحدة في البدء ثم زاد جرعتهُ رويداً رويداً حتى اصبح الرجل قادراً على ان يطيق البيض في طعامهِ

واقتفى طبيب اميركي يدعى شلوس Schloss خطى سكوفيلد ، ولكنهُ تقدمهُ خطوة . ذلك بان صبيًّا جاء شلوس ففحصهُ ووجدهُ مستهدفاً لتأثير البيض واللوز والزمير . فأخذ المواد البروتينية في المواد الثلاث وحلَّها فوجد فيها بروتيناً مشتركاً بين بروتيناتها الثلاثة. ثم امتحن هذا البروتين فوجدهُ العامل الفعال في احداث اعراض الاصابة في الصبيّ ، فصنع حبوباً اودعها هذا البروتين واوصى الصبيَّ بتناول ثلاث حبَّات منها ثلاث مرات كل يوم مبتدئاً في اواسط اكتوبر عند ما كانت الجرعة تحتوي على مليغرامين من هذا البروتين . فلما اقبل شهر يناير كانت قد اصبحت تحتوي على سبعة غرامات وعندئذٍ وضع الطبيب في غذاء الصبيّ بيضاً فأكلهُ ولم يصب بالاعراض التي كان يصاب بها

على هذه الاسس قامت الطريقة الحديثة في معالجة المستهدفين وقوامها معرفة المادة التي تحدث الاعراض ثم استخراج العنصر الفعَّال فيها الذي تردُّ الاعراض اليهِ ثم تصنع منها حبوب او حقن متدرجة المقادير يتناولها المصاب رويداً رويداً الى أن يصبح قادراً ان يأكل او يشم او يلمس المادة الاصلية نفسها من غير ان يصاب وفي بعض العيادات الطبية حقن وحبوب جاهزة يمتحن فعلها فاذا نجحت فبها وإلاَّ فيجب إجراء بحث خاص على الاسلوب المتقدم

بعض المصابين يشفون شفاء تامًّا باتباع هذه الطريقة وبعضهم لا ينال الاَّ بعض الشفاء وبعضهم يبقى على حالهِ ومن المشكوك فيهِ ان يكون هناك علاج ناجع على اطلاق القول . حتى

اذا استطاع المصاب ان يفيد من هذا العلاج قدرة على تحمّل المادة التي كانت تؤذيه فهو دائم معرّض للاصابة اذا كان شرهاً في تناول المادة ، او تعرّض كثيراً لحبيبات اللقاح او الغبار او غيرها

بعض الاصابات يمكن ردّه الى سبب معيّن كحبيبات اللقاح من نبات الخرقة ، اوالأحياء البحرية ، او عقار خاص وعندئذٍ تكون معرفة العلاج ميسورة . ولكن سبب بعض الاصابات الاخرى يبقى غامضاً لاسبيل الى معرفتهِ الاّ ببحث دقيق . ويمثل الاطباء على ذلك بقصة ربّان كان يصاب بربوٍ شديد وهو في البحر ويبرأ منهُ عندما ينزل الى اليابسة . ولم يُعلم لحالتهِ هذا سبب معيَّن . وبعد البحث الدقيق رُدَّ سبب اصابتهِ الى تأثرهِ بنبات « الكابوك » Kapok الذي تحشى بهِ وسائده ومقاعد حجره في السفينة فلما عرف السبب سهل العلاج

وقد استنبط العلماء غير وسيلة واحدة لكشف استهداف الجسم للتأثر بأحد العوامل التي تحدث فيهِ هذه الحالات المرضية الغريبة من مثل حبيبات اللقاح ودقائق الغبار وأنواع الاطعمة والعقاقير وغيرها . ومن اشهرها ما يعرف « بكاشف الخدش » Scratch test وطريقته ان يخدش الجلد ثم يوضع على الخدش خلاصة مستخرجة من المادة التي يراد معرفة تأثيرها في الجسم وهل هو يتأثر بها او لا . فاذا كان الجسم قابلاً للتأثر بها احمرت البقعة حول الخدش وتورّمت في عشرين الى ثلاثين دقيقة . وقد يطبق هذا الكاشف معدلاً تعديلاً يسيراً بوضع قطرة من خلاصة المادة على الجلد ثم وخزه حيث توضع ومراقبة تأثيرها فيهِ . او قد تحقن الخلاصة تحت الجلد او قد توضع الخلاصة على الجلد السليم بغير خدشه او وخزه وتبقى هناك ساعات او اياماً بلصق قطعة من ورق « السلوفان » عليها . والمبدأ واحدٌ في جميعها

وهناك كاشف آخر قائم على حذف المادة المشتبه فيها من طعام المعرّض لهذا الضرب من الاصابات او من لباسهِ او الوسادة التي ينام عليها . فاذا كانت المادة المشبوهة في احداث الربو ريش الطير مثلاً وكانت وسادة الرجل محشوة بهِ صنعت له وسادة محشوة بالصوف او القطن . اما في الطعام فقد صنع الدكتور الفارز Alvarez طعاماً قوامهُ لحم الضأن والرز والزبد والسكر والكمثرى المحفوظة في العلب . وهذه المواد قلما تسبب ضرراً لآكلها . ثم يبدأ الرجل باضافة الاطعمة الاخرى الى هذا الطعام واحداً واحداً ويراقب تأثيرها فيهِ

الاّ ان هناك فريقاً من الباحثين يرى ان كواشف الجلد مفيدة ولكنها ليست حاسمة . ومنهم الدكتور بركمان احد اطباء عيادة مايو المشهورة وهو يشير الى غير حادثة كان الرجل فيها معرّضاً للتأثر بالبيض فاذا كان البيض في طعامهِ اصيب باحدى هذه الحالات المرضية الشديدة ولكن كاشف الجلد كان سلبيًّا . يقابل هذا انهُ رأى اناساً يتأثرون بالكاشف الخاص بالبيض مثلاً ثم اذا وضع البيض في طعامهم اكلوا هنيئاً مريئاً

انواع النسيب

والتشبيب في شعر العرب

لعبد الرحمن شكري

ربما كان من المستحسن ان نميز في الاسماء والمصطلحات انواعاً من النسيب تختلف في طريقتها وأثرها في النفس وقد لا يوافقني على هذا التقسيم بعض الادباء ولكنني اراه مما يمنع الخلط في الكلام عن الشعر والشعراء وأراه يسهل تذوق طريقة كل منهم وفهم اسلوب فنه

فالنسيب في الشعر أقسام فمنه ماكان مصدره العشق ومنهُ نسيب الوجدان من غير عشق خاص ومنهُ نسيب الصوفية ونسيب التمثيل او القصص التمثيلية ومنهُ نسيب المحاكاة والصناعة الزخرفية ومنهُ النسيب المشوب بالمجون وهناك انواع اخرى بين بين لانها تجمع بين طريقتين او اكثر وأبعد انواع النسيب هي ما بعدت في هذا الترتيب وأقربها ما اقتربت فيه وقد يجمع الشاعر بين المتقاربين كما قد يخلط الناقد بينهما في حكمهِ فقد يخلط الناقد بين نسيب العشق ونسيب الوجدان لان الاول جزء من الثاني وهو وجدان متعلق بانسان جميل وقد يخلط بين نسيب الوجدان ونسيب التمثيل لان الشاعر اذا مثَّل العاطفة في شخصه او في شخصٍ في قصة لا بد ان يكون لهُ من الوجدان الصافي ما يساعد بصيرته الفنية في اتقان ذلك التمثيل ولكن نسيب الوجدان هو شعر قد لا يراد به تمثيل العاطفة وانما قد يأتي من الشاعر عفواً كما يصدح الطائر الغريد فهو قد لا يدل على التعلق بانسان معين وقد لا يدل على تمثيل العاطفة تمثيلاً يأتي بهِ مزاج مؤلف القصص التمثيلية او مزاج الفنان الممثل . وقد يخلط الناقد بين نسيب الوجدان ونسيب الصوفية لان نسيب الصوفية يستمد من الوجدان ولكن الحقيقة ان نسيب الصوفية يجمع اخلاطاً كثيرة من الاحاسيس اما في قصيدة واحدة واما في قصائد مختلفة او شعراء مختلفين فتراه يستمد من إحساس العبادة وقد يكون جلال المعبود فيه غالباً لجمال المحبوب وقد يكون العكس وقد ترى في بعض غزل الصوفية قدرة الفنان الممثل للعاطفة وقد تراه يستمد من الصناعة الزخرفية وقد تختلط فيه الافكار وتهوش اذا حاول الشاعر التوفيق بين امور الحياة والكون المتناقضة توفيقاً

لم ينضجه الفكر المنظم. وقد ترى بعض المجون او ما يشبهُ المجون فيه من ذكر محاسن اعضاء الجسم والوصال واللذات واللمى والريق والخمر ويؤول كل ذلك تأويلاً قدسيًّا والحقيقة المعروفة في علم النفس ان الشهوة الجنسية الخفية قد تجد لها منفذاً بهذه الوسيلة عن طريق التعبد . وقد يكون الشاعر الصوفي المسكين صادقاً في تعبده وقد يكون آخر من يفطن الى حقيقة علم النفس هذه

وكذلك قد يجتمع شعر المحاكاة والزخارف وشعر المجون من غير ان يخالطها وجدان او عبادة صوفية . وقد يخلط الناقد بين نسيب المزاج التمثيلي وبين نسيب المحاكاة والزخارف لان الشاعر الذي ينظم النوع الثاني يدَّعي العاطفة او يدعي وصفها ولكنهُ قد تعوزه بصيرة الفنان النافذة الى اعماق النفوس كما يعوزه الوجدان الرقيق الصافي الذي يساعد البصيرة النفسية (السيكولوجية) فاذا اعوزه الوجدان العميق الصافي وأعوزتهُ البصيرة السيكولوجية كان نسيبه من نوع شعر المحاكاة والزخارف لا من نوع النسيب التمثيلي الذي نراه في القصص التمثيلية وفيما ينحو منحاها وفنها من شعر غير القصص التمثيلية وكما نراه في شعر الشاعر الذي أُتيح له مزاج الممثل الذي يمثل العاطفة فتتملكه العاطفة وقت تمثيلها

وهذه الاقسام التي ميزناها في شعر النسيب ليست خاصَّة كل منها بعصر ففي الجاهلية وصدر الاسلام نرى نسيب العشق في شعر العذريين ونرى نسيب الوجدان اذا لم يتعلق الشاعر الناسب بانسان معين وانما يفيض بوجدانهِ المتعلق بالجمال ويصدح بحنينهِ ويغني بانغامهِ ونرى نسيباً يقرب من نسيب الصوفية وان كان سببه ان فرط الحب أكسب الحب شيئاً من احاسيس العبادة بينما نرى ان العبادة في شعر الصوفيين كانت وسيلة لارضاء عاطفة الحب . ونرى في ذلك العصر ايضاً شعر النسيب التمثيلي الذي يدل على بصيرة فنية بسيكولوجية تنظم شعراً يمثل نسيب العشق او نسيب الوجدان المحض الذين لا يهمها الفن والصنعة ، ونرى ايضاً نسيب المحاكاة التي تفيض فيها العاطفة وقد يجمع الشاعر الى محاكاة الصنعة وصف اللذات اوالمجون فنسيب امرئ القيس نسيب المحاكاة والصنعة . وقد يرق ويلطف ويدل على وجدان وعلى تعلق بانسان جميل من غير ان يكون هذا التعلق عشقاً كما كان عشقاً عميقاً عند قيس بن الملوح او قيس بن ذريح فاذا رق شعر امرئ القيس وقارب شعر العاطفة والوجدان قال في وصف حبيبتهِ : —

تُضيء الظلام بالعشاء كأنها   منارة ممسى راهب متبتّلِ

ولكن اكثر نسيبه نسيب صنعة ووصف للذات . وكذلك نسيب مشهوري الشعراء في ذلك العصر أمثال الاعشى والنابغة وزهير بن ابي سلمى وكعب بن زهير وطرفة بن العبد وغيرهم وهم الذين سنوا سنة غزل المحاكاة لشعراء الدولة الاموية ومحاكاة المحاكاة للعباسيين والمتأخرين وكان العبث اللفظي يزداد كلما بعد العهد بمن سنَّ هذه السنة في صناعة الشعر . وقد فطن جرير في عهد

الدولة الاموية الى ان الصناعة وحدها لا تسيّر الشعر ولا تجعله يأخذ بمجامع القلوب فصار يخلط بين تمثيل العاطفة او محاكاتها وبين الوجدان . ومن أجل ذلك كان شعره أرق وأسير في عهده من شعر الشعراء المنافسين له

ولكننا اذا أردنا ان نجمع مجموعة من شعر النسيب في اللغة العربية نفاخر بها اللغات الاخرى لم نلجأ الى شعر امرئ القيس او الاعشى او أمثالهما ولا الى شعر جرير والاخطل والفرزدق وامثالهم ولا الى شعر ابي نواس ومسلم بن الوليد وابي تمام والبحتري وامثالهم فان هؤلاء امتازوا بالقول في ابواب مختلفة من الشعر ولكن بزهم في النسيب قيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأبو صخر الهذلي وعروة بن حزام وابن الدمينة وجميل بن معمر وكثيّر على قلة ما انتهى الينا من اقوال هؤلاء . وهؤلاء هم الذين قالوا أحسن ما قيل في النسيب في اللغة العربية وبهم نفاخر وهم الذين نرشح ليثوبوا عن النسيب العربي في معرض النسيب بين الامم . انظر مثلاً الى قول قيس بن الملوح من قصيدة في التذكر والتمني وهما موضوعان هامان من موضوعات النسيب قال : —

فوالله ما انساكِ ما هبت الصَّبا ... وما غرَّد الغِرِّيدُ في وَضَحِ الفجر
وما لاح نجم في السماء وما بكت ... مطوَّقةٌ شوقاً على فننِ السدر
وما طلعت شمس لدى كل شارق ... وما هطلتْ سحب على واضح الزهر

الى ان قال : —

تداويتُ من ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
اذا ذُكِرَت يرتاح قلبي لذكرها ... كما انتفض العصفور من بلل القطر
ألا ليتنا كنا غزالين نرتعي ... رياضاً من الجوزان في بلد قفر
ألا ليتنا كنا حمام مفازة ... نطير ونأوى بالعشيّ الى وكر

واستمر في ذكر امانيه المختلفة الى ان قال : —

وداعٍ دعا اذ نحن بالخيف من مِنى ... فهيَّج إطراب الفؤاد ولا يدري
دعا باسم ليلى غيرها . فكأنما ... أطار بليلى طائراً كان في صدري

فهذا الشعر ليس فيه روعة الصنعة التي في غزل اصحاب المعلقات ولكنهُ شعر صادق دافق من القلب يدل على ان قائله شاعر بطبعه وخياله ووجدانه ويدل على عاطفة صادقة تأخذ المألوف من مظاهر الكون والخليقة من تغريد الطيور في وضح الفجر ومن هبوب النسيم وهطول المطر ونضرة الزهر وانتفاض العصفور والحمام في الوكر والغزال في القفر كي تعبر بها عن ذكريات القلب وامانيه وهذه الوسائل التي تستخدمها والتشبيهات هي الوان مادة الشاعر فليس كل شعر يحتويها

بشعر كما ان ليست كل صورة ذات الوان بصورة. وانما العاطفة هي التي تجعلها شعراً . وانظر الى قول قيس بن الملوح ايضاً : —

واحبس عنك النفس والنفس صبة بذكراك والممشى اليك قريب
مخافة ان تسعى الوشاة بظنة واحرسكم ان يستريب مريب
سأستعطف الايام فيك لعلها بيوم سرور من هواك تؤوب

وقوله: — فاصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب

وقوله: — الله يعلم ان النفس هالكة باليأس منك ولكني امنيها
وساعة منك ألهوها وإن قصرت أشهى لديّ من الدنيا وما فيها

وقوله: — وكنت كذبّاح العصافير دائباً وعيناه من وجدٍ عليهن تهمل
فلا تنظري ليلى الى العين وانظري الى الكف ماذا بالعصافير تفعل

وهو لا يعني كل ذباح للعصافير وانما هو فرض كي يمثل معنى فعل الحب به وانظر الى قوله في قصيدته الميمية الكبيرة :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا
وخبرتماني ان تيماء منزل لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا تصرمت فما للنوى ترمي بليلى المراميا
وما طلع النجم الذي يهتدى به ولا الصبح الا هيَّجا ذكرها ليا
اعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
يقولون ليلى بالعراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا
ولم أرَ مثلينا خليليّ جنابة أشد على رغم العداة تصافيا
خليلان لا نرجو لقاء ولا نرى خليلين الا يرجوان التلاقيا
واني لأستحييك ان تعرض المنى بوصلك او ان تعرضي في الدجى ليا
وأنت التي ان شئت أشقيت عيشتي وأنت التي ان شئت انعمت باليا
واني لينسيني لقاؤك كلما لقيتك يوماً ان ابثك ما بيا
اذا سرت في ارض خلاء وجدتني اصانع رجلي أنّ ليلى حذائيا
يميناً اذا كانت يميناً وان تكن شمالاً ينازعني الهوى عن شماليا
واني لاستغشى وما بيَ نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا
هي السحر لولا ان للسحر رقية واني لا الفى لها الدهر راقيا

لا اظن ان شاعراً يستطيع ان يميز الشعر الصادق يقول كما قال بعض الكتاب ان شعر قيس

ابن الملوح من وضع الرواة وان قيساً هذا لم يكن له وجود. نحن نفهم هذا القول لو كان الشعر فاتراً او بارداً اوكاذباً او مصطنعاً (١) يستطيع ان يقولهُ كل انسان اما ان يصنع الرواة شعراً من أصدق وأحسن ما قيل في اللغة العربية من النسيب فهذا رأي لا نستطيع الأخذ بهِ وأما ان بعض ابيات الشاعر نسبت الى اكثر من شاعر فهذا لا يدل على شيء ولهُ مثيل في كل عصر. وهذا شعر ابي تمام فيه ابيات وقصائدمنسوبة الى شعراء آخرين وهذا لا يدل على ان ابا تمام لم ينظم شعراً ولم يكن لهُ وجود وظاهرة انكار الوجود هذه ظاهرة مألوفة فقد انكروا وجود هومير وشكسبير . وهناك مؤلف مؤرخ ينكر وجود سيدنا عيسى عليه السلام وقد اختلف الرواة في نسبة شعر كثيّر فاختلفوا في نسبة قصيدة (صاح في العاشقين يا لكنانه) وفيها البيت المشهور

خطرات النسيم تجرح خدّيـــهِ ولمس الحرير يدمي بنانَـهْ

وهي ليست من شعر المتقدمين حتى يقال ان قدم الزمن هو الذي انسى الرواة ولم يقل احد إنها من صنع الرواة انفسهم واختلفوا في نسبة شعر كثيرٍ للمتأخرين كقصيدة :

يا مطلباً ليس لي في غيره أرب اليكَ آل التقصي وانتهى الطلب

فنسبت لابن الخيمي ونسبت لنجم الدين بن اسرائيل . واختلاف الرواة في نسبة بعض شعر قيس بن الملوح لا يدل على شيء فان شعره يدل على شخصية حية وعلى شاعر من الطراز الاول . ومثله في تلك الخصائص وفي تلك المنزلة قيس بن ذريح انظر الى قوله : —

لقد كان فيها للامانة موضع وللنفس مرتاد وللعين منظر
وللحائم العطشان ري بحسنها وللمرح المختال خمر ومسكر
كأني لها ارجوحة بين أحبلٍ اذا ذكرة منها على القلب تخطر

وقوله:—احبك أصنافاً من الحب لم أجد لها مثلاً في سائر الناس يوصف
فمنهنَّ حب للحبيب ورحمة لمعرفتي منها بما يتكلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر وحبٌّ لدى نفسي من النفس ألطف

والى قوله : —

تعلَّق حي روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً وليس اذا متنا بمنصرم العهد
ولكنهُ باقٍ على كل حادث وزائرنا في وحشة الموت واللحد

وقوله:—اذا طلعت شمس النهار فسلمي فآية تسليمي عليك طلوعها

(١) مثل ذلك اذا قارن القارىء المتذوق معلقة عنترة العبسي (وهي لاشك من شعر شاعر) وبعض القصائد الفاترة الركيكة التي تنسب الى عنترة سهل عليه تمييز الشعر الصادق والشعر الموضوع

وقوله: — بلبنى انادي عند اول غشية ويثني بها الداعي لها فأفيق

صَبوحي اذا ماذرَّت الشمس ذِكرها ولي ذكرها عند المساء غبوق

وقد كان من رأينا دائماً ان شعر العاطفة والوجدان يتقارب في جميع اللغات وانما الذي يتباعد في اللغات شعر الصنعة والمحاكاة بالصنعة لأن هذا أساسهُ العرف والاصطلاح والذوق الاقليمي. أما شعر العاطفة والوجدان فهو واحد في كل إقليم وانك لو نقلت الشعر الذي استشهد نا بهِ من شعر قيس بن الملوح او قيس بن ذريح الى اللغات الأوربية لطرب لهُ القراء كما يطرب قراء العربية اذا نقل اليها شعر العاطفة والوجدان من اللغات الاوربية نقلاً صحيحاً لاسخيفاً.

ويقارب قيس بن الملوّح وقيس بن ذريح في طريقتها يزيد بن الطثرية الذي يقول: —

برغمي أطيل الصد عنها اذا نأت أحاذر أسماعاً عليها وأعينا

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ويقول: أحبك أطراف النهار بشاشة وبالليل يدعوني الهوى فأجيب

أحبك حب اليأس لو ينفع الهوى وإن لم يكن لي من هواك طبيب

ويقول: بنفسيَ من لو مرَّ بردُ بنانه على كبدي كانت شفاءً أناملُهْ

ومن هابني في كل شيء وهبته فــلا هو يعطيني ولا أنا سائلُهْ

ويقول: أليس قليلاً نظرة إن نظرتها اليك وكلاَّ ليس منك قليل

فيا خلة النفس التي ليس فوقها لنا من اخلاء الصفاء خليل

ويا من كتمنا حبه لم يُطَعْ به عدو ولم يؤمن عليهِ دخيل

أما من مقام اشتكي غربة النوى وخوف العــدا فيهِ اليهِ بسبيل

وكنت اذا ما جئت جئت بحاجة فأفنيت علاتي فكيف أقول

ومثل هذا الشعر في صدق التعبير عن الأحاسيس النفسية شعر أبي صخر الهذلي الذي يقول:

لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر

فما هو إلاَّ ان أراها فجاءة فأبهت لا عرف لديَّ ولا نكر

وأنسى الذي قد كنت فيهِ هجرتها كما قد تُنسِّي لبَّ شاربها الخمر

وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الذعر

تكاد يدي تندى اذا ما لمستها وينبت في أطرافها الورق النضر

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بللهُ القطر

فهذا الشاعر لا ينظر في دواوين الشعراء كي يرى ماذا يقال في وصف هذه العاطفة وكيف يقال وانما ينظر في نفسه وأحاسيسها وهواجسها وما يعتري نفسه وجسمه من أثر العاطفة. ومن

شعراءِ هذه الطريقة ابن الدمينة فان شعره يرق ويصفو ويكتسب من وجدانه وعاطفته أنغاماً عذبة أنظر الى قوله : —

أرى الناس يرجون الربيع وانما ربيعي الذي أرجو نوال وصالكِ
أرى الناس يخشون السنين وانما سِنيَّ التي أخشى صروف احتمالكِ
لئن ساءني أن نلتِني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالكِ

والى قوله : —

وقد زعموا ان المحب اذا نأى يمل وأن النأي يشفي من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ود

وقوله : وإني لأستحييكِ حتى كأنما عليَّ بظهر الغيب منكِ رقيب
بنفسي وأهلي من اذا عرَّضوا له ببعض الأذى لم يدرِ كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل بهِ سكتة حتى يقال مريب

وهذه الأبيات الأخيرة انما هي مثل من شواهد الخبرة بعلم النفس التطبيقي التي اكتسبها هؤلاءِ الشعراء لكثرة تأملهم في صفات النفوس وهذه الخبرة بالنفس تقل في شعر المتأخرين أو تعدم إلاَّ ما كان مأخوذاً بالمحاكاة عمن قبلهم: ومن شعراء هذه الطريقة أيضاً جميل بن معمر انظر الى قوله : —

لقد قلتُ في حبي لكم وصبابتي محاسن شعر ذكرهنَّ يطول
فإنْ لم يكن قولي رضاك فعلمي نسيم الصَّبا يا بثنُ كيف اقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنها والخيال يزول

وقوله : — ومما شجاني أنها يوم أعرضت تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما اعادت من بعيد بنظرة اليَّ التفاتاً اسلمتهُ المحاجر

على مثل هذه المشاهد النفسية وأرها كان يعتمد هؤلاءِ الشعراء لا على المبالغة والتشبيهات البعيدة فكان شعرهم على سهولة وبساطة مشاهداتهم أوقع في النفس من المبالغة والتشبيهات البعيدة وانظر الى نصيب كيف يستخدم ما يشاهد من حياة الطيور لتصوير عاطفته في قوله :

كأن القلبَ ليلة قيل يُغدَى بليلى العامرية او يُراح
قطاة غرَّها شَرَكٌ فباتت تُجاذِبُهُ وقد علق الجناح
لها فرخان قد تُرِكا بوكر فعشهما تُصفقهُ الرياح
اذا سمعا هبوب الريح نصَّا وقد أودى بها القدر المتاح

وللشاعر كُثَيّر اشعار عذبة تدل على وجدان ولو انهُ كان يتهم بادعاء العاطفة انظر الى قوله:

وأدنيتني حتى اذا ما ملكتِني بقول يُحلُّ العُصْمَ سهل الاباطح
تناهيتِ عني حين مالي حيلة وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح

وقولهُ في تائيته الكبيرة:

وقلت لها يا عزُّ كل مصيبة اذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفس ذلتِ
واني وتهيامي بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلتِ
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تَبَوَّأ منها للمقيل اضمحلتِ

وقوله: — كريم يميت السر حتى كأنهُ اذا استخبروه عن حديثك جاهلُهْ
ويرتاح للمعروف في طلب العلا لِتُحْمَدَ يوماً عند ليلى شمائله

وفي هذه الابيات ايضاً خبرة بصفات النفوس ودراسة سيكولوجية وتصوير لأثر الحب في النفوس العالية. ومن الشعر العذب الشجي قول ابي بكر الزهري : —

ولما نزلنا منزلاً طلهُ الندى .... انيقاً وبستاناً من النَّوْرِ حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُهُ منىً فتمنينا فكنتِ الامانيا

وقول الحارثي :—

منىً إنْ تكن حقًّا تكن أحسن المنى وإلاَّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

وكأنما كانت هذه الطريقة عاصفة اشترك في اثارتها المرقش وعروة بن حزام وابن الدمينة وابو صخر الهذلي وجميل بن معمر وعمر بن ابي ربيعة (وان كان شعره اقرب الى اللهو والعبث) وكثيّر وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح والعرجي والمخزومي وابو دهبل وابن الرقيات وابن الطثرية وابن ميادة والاحوص ونصيب والمخبّل وذو الرمة والابيرد وابو حية النميري وتوبة ابن الحميّر والنهدي ومزاحم ووضاح اليمن وعروة بن اذينة وغيرهم وامتدت الى عصر الحسين ابن مطير والعباس بن الاحنف. ولم ينعدم شعر العاطفة والوجدان بعد ذلك فانا نرى شعراء الصنعة امثال بشار وابي نواس ومسلم وابي تمام لهم بجانب مجونهم نسيب وجداني رقيق ولكنهُ قليل. وقد كان البحتري ذا مزاج فنيّ يشبهُ مزاج الممثل الذي يتملكه ما يمثل من الاحاسيس. ومن اجل ذلك كان لهُ نسيب رقيق عذب. ولابن الرومي نسيب وجداني صادق ولكنهُ قليل(١) وكان الشريف الرضي ذا وجدان فجاء نسيبه وجداني النزعة وحاكاه مهيار ثم اعتمد الشعراء

(١) من نسيب ابن الرومي الرائع قوله :

اعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تداني
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى ان يرى الروحين يمتزجان

بعد ذلك على المغالاة والتشبيهات البعيدة او الزخارف. وكان اكثر شعرهم محاكاة لمعاني من سبقهم ولم يخلف شعراء الصوفية مجموعة شعر ثمين عالٍ كما كنا ننتظر ولكني اظن ان محيي الدين بن العربي والسهروردي وابن اسرائيل وابن الفارض لو تقدم بهم الزمن او لو تأثروا بوجدان الشريف الرضي واسلوبه لكان شعرهم ارقى منزلة فان فيهم طبع الشعراء ومزاجهم ولكن تعوزهم قوة الاداء ونخامة الاسلوب وحسن الاختيار. فقصيدة السهروردي المشهورة التي مطلعها

ابداً تحنُّ اليكمُ الارواح   ووصالكم ريحانها والراح

تبدأ مبدأ رائعاً ولكنها تفتر متأثرة بطريقة المتأخرين من ضعف في الاداء

وقد اشتهر بهاء الدين زهير شهرة لا تناسب قيمة شعره فما لهُ قوة في الأداء ولا نخامة ولا روعة في الأسلوب ولا وجدان عميق وأنغامه أنغام لفظية رخيصة مثل قوله : —

أنا بالعاذل ألهو   أنا بالعاذل ألعب

وأحسن قصيدة في النسيب قالها شعراء الأندلس والمغرب هي قصيدة ابن زيدون النونية التي يقول في مطلعها : —

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهي تجمع بين علو الصنعة وصفاء الوجدان فليس لمحمد بن هانئ الأندلسي في النسيب ولا لابن حمديس ولا لابن خفاجة قصيدة تدانيها في هذه الصفات. وهذه القصيدة تذكرني بما يحكي عن بعض الطيور التي اذا حان حينها جمعت كل قوى روحها واطلقتها في تغريدة قبل موتها. ونسيب ابن زيدون على العموم اكثر وجداناً من نسيب الآخرين وان كان قد بزه الآخرون في صفات أخرى فبزه ابن خفاجة وابن حمديس في الأوصاف وربما كان قد بزه ابن هانئ الأندلسي في الأسلوب الخطابي وإن لم يكن تحت أسلوب ابن هانئ الاندلسي الخطابي دائماً معنى او مزية. على ان لمحمد بن هانئ قصائد رقيقة يتغنى بها مثل قصيدة (فتكات طرفك أم سيوف أبيك) وقصيدة (قمن في مأتم على العشاق)

أما نسيب ابن سهل فهو نسيب رقيق يتغنى ببعضه ولكنهُ ليس فيه روح العباقرة وثروتهم الشعرية ولا يحاول قائله الاناقة في الاداء التي تزيد النسيب عذوبة وبعض الاناقة يفعل ذلك كما أن بعضها يثقل الشعر. ومما يُتغنى بهِ قوله (سل في الظلام أخاك البدر عن سهري)

ومن التقسيم الذي فصلناه يتضح انهُ ليس من المحتوم ان يطالب الشاعر بعشق كي يجيد النسيب ولكنهُ مطالب بوجدان يصدح ويعبر عن نواحي تلك العاطفة وبمزاج فني سليم وبصيرة سيكولوجية تمكنهُ من فهم أحاسيس النفس ومن تصويرها

عالم وكتاب كانا منسيين

ابن بدر

وكتابه النفيس

لقدري حافظ طوقان

عثر المستشرق التشيكي الدكتور (نيكل) في اثناء زيارته لمدريد عام ١٩٣٣ على الكتاب الآتي : « كتاب فيه اختصار الجبر والمقابلة » تأليف ابن بدر ، فتكرم وأرسله اليّ ، فاستحق بذلك الشكر الجزيل على هذه الهدية العلمية النفيسة

وأول ما استوقف نظري اسم المؤلف «ابن بدر» ، ومع اني من الذين يعنون بتاريخ تقدم العلوم ولا سيما الرياضيات عند العرب والمسلمين لا اذكر اني مررت على هذا الاسم في دراساتي ولدى البحث الدقيق وجدت ان ابن بدر كغيره من علماء العرب اصاب الاهمال تراثه وأحاط الغموض حياته فلا تجد شيئاً يذكر عن مآثره في كتب تاريخ العلوم الرياضية وهو الذي برع فيها ووقف جهوده عليها وأخرج فيها مؤلفاً من انفس المؤلفات كله مادة وكله فائدة وكله متاع

وكل ما استطعنا ان نصل اليه عن ابن بدر انهُ من علماء اشبيلية من اعمال اسبانيا ظهر في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد واسمه ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن بدر

وكتاب «اختصار الجبر والمقابلة» الذي بين ايدينا مطبوع في مدريد عام ١٩١٦ في اللغتين العربية والاسبانيولية وقد وقف على طبعه يوسف شانجاس بيره الجريطي . والطبعة العربية غريبة في اشكال حروفها ، تصعب قراءتها فبعض هذه الاشكال يختلف تماماً عن اشكال الحروف الحالية ، فشكل الحرف (د — دال) هو غير الشكل الذي نعرفه ، وعصا الحرف (ط) مائلة جدًّا ، وكذلك اشكال الحروف (ج ، ح ، خ ، ز ، ك) شملها تعديل بسيط

والكتاب منسوخ عن مخطوطة نسخها عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد من فاس عن مخطوطة قديمة . ويقول في نهاية الكتاب : « . . . أتممت قراءة هذا الكتاب بعد ان كنت فهمتهُ من غير هذه النسخة ، وأصلحت ما ظهر لي فيها من الفساد بسبب فساد النسخة المنقول منها هذه ، وذلك في الرابع من شوال عام اربع وستين وسبعماية (هجرية) قال ذلك وكتبهُ بخط يده الفانية العبد المعترف بذنبه الراجي مغفرة ربه عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد ، لطف الله تعالى به . وذلك بسجانة القصر من داخل مدينة فاس... والحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبده ...»

يبدأ الكتاب بما يدور عليه الجبر من اعداد وجذور وأموال ، والمقصود من الجذر المجهول (س) ومن المال مربع الجذر ($س^{٢}$) ، ويوضح كلاً من هذه الاشياء الثلاثة ، ويذكر المسائل الستة وهي المذكورة في كتاب الخوارزمي وكتب غيره من علماء المسلمين والعرب

فالمسألة الاولى — اموال تعدل جذوراً اي ان : $م س^{٢} = ح س$

والمسألة الثانية — اموال تعدل عدداً اي ان : $م س^{٢} = ب$

والمسألة الثالثة — جذور تعدل عدداً اي ان : $هـ س = م$

والمسألة الرابعة — اموال جذور تعدل عدداً اي ان : $ح س^{٢} + هـ س = ب$

والمسألة الخامسة — اموال وعدد يعدل جذوراً اي ان : $م س^{٢} + ب = ح س$

والمسألة السادسة — جذور وعدد تعدل اموالاً اي ان : $ح س + ب = هـ س^{٢}$

ثم يأتي على كيفية حل كل من هذه المسائل بطريقة لا تختلف عن التي نعرفها الآن . وبعد ذلك نجد ابواباً تبحث في الجذور واضعافها وتجزئتها وضربها وقسمتها وجمعها وطرحها ، ويقصد من الجذور هنا الأعداد التي تحت علامة الجذر التربيعي من التي لها جذر والتي ليس لها جذر اي الجذور الصماء . ومن هذه الموضوعات وما حوتها من أمثلة عددية كثيرة نتبين ان ابن بدر كان ملمّاً الماماً جيداً بنظريات القوى والجذور الصماء وكيفية اجراء الاعمال الاربعة عليها مما نجده الآن في كتب الجبر للمدارس الثانوية . وبعد هذا ينتقل ابن بدر الى ضرب المجاهيل في بعضها والى العلامتين (الزايد والناقص) وما يسودها من قوانين حين الضرب وحين القسمة ، وكذلك الى جمع الاشياء والاموال والكعوب بعضها الى بعض ، وطرحها بعضها من بعض ، وقسمتها بعضها على بعض . وقد أتبع هذه البحوث باباً « في معرفة الجبر والمقابلة » جاء فيه : « الجبر هو الزيادة في كل ناقص حتى لا ينقص والمقابلة طرح كل نوع من نظيره حتى لا يكون في الجهتين نوعان متجانسان .. »

اي انهُ لو كان لديك المعادلة : $١٠٠ - ١٠ س = ٧٠$

فبالجبر تصبح $١٠٠ = ٧٠ + ١٠ س$

وبالمقابلة تصبح $٣٠ = ١٠ س$.

وهناك من علماء العرب من عرف « الجبر والمقابلة » بغير هذا الا أن الاختلاف في التعاريف بسيط جداً حتى يمكننا القول ان الخوارزمي ومن اتى بعده من علماء العرب كأبي كامل وابن البناء والآملي والقلصادي وغيرهم اتفقوا في تفسيرهم الكلمتين — الجبر والمقابلة — . بعد كل هذا اتى ابن بدر على تطبيقات في المسائل الست وهي (على رأيه) : « التي يدور عليها جميع الجبر » كما جاء على مسائل اخرى وضعها في ابواب متنوعة سماها : باب مسألة العشرات ، وباب في مسائل الاموال

وباب في الصدقات ، وباب في القمح والشعير وفي التجارة. وقد يرغب القارىء او بعبارة اصح بعض القراء ان نأتي على امثلة من هذه الاسئلة : جاء في باب العشرات : « عشرة قسمتها الى قسمين فضربت كل قسم في نفسهِ وجمعت الضربين فبلغ اثنين وثمانين » . وجاء في باب مسائل الاموال : « اذا قيل لك مال طرحت منهُ ثلثه وربعه واربعة دراهم وضربت ما بقي في مثله فعاد المال واثنا عشر درهماً .. » . ومن مسائل باب التجارة : « اذا قيل لك رجل كان معهُ مال قاسمهُ رجل وفضله بدرهم ثم قاسمهُ بالباقي رجل ثان وفضله بدرهمين ثم قاسم بالباقي رجلاً ثالثاً وفضله بثلاثة دراهم وبقي معه عشرة دراهم. كم المال ... » . ومن باب الصدقات : « امرأة تزوجت ثلاثة ازواج فأصدقها الاول شيئاً مجهولاً وأصدقها الثاني جذر ما أصدقها الاول ودرهماً وأصدقها الثالث ثلاثة امثال ما أصدقها الثاني واربعة دراهم فكان المجتمع اربعين .. » . ومسائل باب القمح والشعير لا يختلف حلها عن التي تقدمت . وهكذا سار ابن بدر في المسائل وقد حلها جميعها وكان يُرجع المسألة الى حالة من حالات المسائل الست ثم يجري عليها طريقة حل تلك الحالة . ومن غريب الأبواب التي وجدناها في الكتاب باب الجيوش ادخل فيهِ مسائل تحتاج الى استعمال المتواليات العددية وقوانين جمعها ويقول بهذا الشأن : « ... وعلة عمل الجيوش وتفاضل الغلمة نوع من انواع الجمع وهو اذا تفاضلت الاعداد بعدة معلومة دون التضعيف فاضرب التفاضل في عدة الأعداد الاّ واحداً ، فما بلغ فاحمل عليهِ اول الاعداد يكن ذلك آخر الاعداد فاحمل عليه اول الاعداد واضربهُ في نصف العدة أعني عدة الاعداد يكن ذلك المطلوب . . . » . وهنا يأتي ابن بدر على قانون جمع المتواليات العددية وقد كان معروفاً قبله فلو اخذنا المتوالية العددية : ٤و٧و١٠و١٣و١٦ . فالتفاضل هو ٣ وعدة الاعداد في هذه الحالة ٥ وعلى هذا فمجموع هذه الاعداد بحسب ما يقول ابن بدر كما يلي : —

٣ × (٥ — ١) = ١٢

١٢ + ٤ = ١٦ وهو آخر اعداد المتوالية العددية

١٦ + ٤ = ٢٠

٢٠ × $\frac{٥}{٢}$ = ٥٠ وهو مجموع الاعداد

وفي الكتاب ايضاً باب البريد وفيهِ مسائل تتعلق بسير البريد وخروجه واللحاق بهِ منها : « اذا قيل لك بريد خرج من بلدة ، وامره ان يسير كل يوم عشرين فرسخاً فسار خمسة ايام ثم ارسل بعده بريداً آخر وامره ان يسير كل يوم ثلاثين فرسخاً . في كم يوم يلحقهُ ... »

ولا يخفى على مدرسي الرياضيات بالمدارس الثانوية ان هذه المسألة على نمط كثير من المسائل في كتب الحساب الحديثة . ونأتي الآن الى الباب الأخير وقد سماه « باب الالتقاء » ولعل القارىء يدرك نوع مسائله من المسألة الآتية : « اذا قيل لك رجلان التقيا ومع كل واحد

منهما مال ووجدا مالاً فقال احدهما لصاحبه اعطني مما معك درهماً وهذا المال الموجود يكون معي مثل ما بقي معك ، وقال الآخر بل انت ان اعطيتني مما معك اربعة دراهم وهذا المال الموجود يكون معي ثلاثة امثال ما بقي معك ، كم كان مع كل واحد منهما وكم المال الموجود »

اي ان : ص + ١ + ع = س

س + ١ + ٤ + ع = ٣ (ص — ٤)

وهنا فرض ابن بدر ان ما مع الاول ص وما مع الثاني س + ١ والمال الموجود ع

وعند حل هذه المسألة وغيرها من مسائل باب الالتقاء وباب القمح والشعير خرج ابن بدر بمعادلات غير معينة وقد اطلق على هذا النوع من المسائل « المسائل السيَّالة » لانها « تخرج بصوابات كثيرة » او بأجوبة كثيرة . وفي هذه المناسبة ارى ان استعمال « المعادلات السيالة » خير من استعمال «المعادلات غير المعينة » واني أوجه نظر لجنة العلوم الرياضية والطبيعية في مجمع فؤاد الاول للغة العربية الى هذا الاصطلاح الرياضي فلعلهم يأخذونه فيكونون قد احيوا — اصطلاحاً — استعمله اسلافنا ويفي بالمعنى المقصود من « المعادلات غير المعينة » . وقد حلَّ ابن بدر كثيراً من المسائل التي تؤدي الى معادلات سيالة بطرق ملتوية تدل على قوة فكره ورسوخه التام في علم الجبر . ويمكن القول إن اكثر المسائل التي اتى بها ابن بدر في كتابه مسائل عملية تتناول ما كان يقتضيه عصره من معاملات في التجارة او الصدقات واجراء الغنائم والمرتبات على الجيوش كما تطرقت الى البريد وسيره واللحاق به والى طرق البيع والشراء في القمح والشعير . وهذه ميزة امتازت بها المؤلفات العربية القديمة فلقد كان رياضيو العرب يفضلون المسائل العملية والتي تتعلق بحاجات العصر ومقتضياته ، وحبذا لو يتبع المؤلفون هذه الطريقة في وضع المسائل الرياضية ففي ذلك ما يعود على الطلاب باكبر الفوائد مما يجعلهم يدركون مكانة العلوم الرياضية من الوجهة العملية في نواحي الحياة المختلفة واتصالها الوثيق بأعمال الانسان المادية . واخيراً نجد « مسألة من شاذ » يظهر انها من وضع عبد الصمد الناسخ الاول للكتاب وقد وضعت في ذيله وهي : « .. إذا قيل لك مائة وزة تعلف في الليلة الواحدة مائة برشالة ومات منها كل ليلة واحدة الى ان فني عددها . كم توفر من الطعام وكم أنفق من الطعام . . . » ولا يخفى ان حل هذه المسألة يتطلب استعمال قانون جمع المتواليات العددية ، وقد جاء الحل كاملاً في الكتاب . ويقال ان محمداً ابن القاسم الغرناطي في القرن الرابع عشر للميلاد شرح كتاب ابن بدر شعراً ولعله محفوظ في احدى المكتبات في المغرب والآن ... وبعد ان أتممنا تقديم كتاب ابن بدر والتعليق عليه يتبين لنا فضل المؤلف على الجبر وسعة اطلاعه فيه ، وقد صاغ قوانينه واصوله في لغة بليغة واسلوب أخاذ . وعلى كل حال فالكتاب يمثل أثراً من الآثار الخالدة التي تركها العرب للاجيال — كانت من أهم عوامل تقدم الرياضيات العالية وسائر العلوم الطبيعية التي قامت عليها الاعمال الهندسية الكبرى والنهضة الصناعية الحديثة

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

— ٢١ —

لمحمود مصطفى الدمياطي

شَجرَةُ الجَوْز الهِنْديّ

ويقال لثمرها (النَّارجيلُ) و (الشُّعْشُورُ) كما جاء في الفيروزباديّ وفي « البستان » أنهُ (جَوْزُ البَحْر) و (النارجيل البحريّ) اسمها العاميّ (.Cocos nucifera, L) (قوقوس نوسيفرا) وفصيلتها النخلية (Palmeae) (پالمي) وبالانجليزية (Cocoa-nut tree) وبالفرنساويّة (Cocotier commun)

تغرس في جميع بلدان المنطقة الحارة وموطنها الأصليّ بلاد الهند او مجموعة الجزائر المجاورة لها . جذعها ليس بالضخم يرتفع كالعمود الى ٢٥ متراً او أكثر ويثبتها في الارض مجموعة بسيطة من جذورها الدقاق وفي أعلى الساق منها طاقة عظيمة من أوراق (سعف) معقوفة في نظام تام كأنها تاج قد يبلغ طول الواحدة منها ستة أمتار وعرضها متراً . أزهارها ضاربة الى الصفرة تنشأ في إبط الأوراق السفلى على شكل نورة عنقودية . الذكرية منها تشغل الجزء العلويّ والأنثوية وعددها أقل كثيراً توجد في أسفله . ويكون لهذا العنقود قبل الإزهار غلاف عبارة عن قنابة كبيرة تتفتح من جوانبها كقنو النخل العادي . ثمرتها جوزة في حجم رأس الانسان لكنها مثلثة الزوايا قليلاً . قشرتها ليفية ثخينة مغطاة بأخرى ملساء ضاربة الى الخضرة . نواتها بيضية الشكل صلبة جدًّا مع ان سمكها لا يزيد على أربعة ملّيمترات . لوزتها وهي الجوزة التي تؤكل عادة جوفاء تشتمل قبل تمام نضجها على سائل لبنيّ لذيذ الطعم اذا شرب طازجاً . لحمها في أول أمره ذو عصارة ثم لا يلبث ان يصير ذا ألياف كالجلد . وتؤكل جوزة الهند في أواسط نضجها حين تكون مادة اللوزة كالقشدة الثخينة نوعاً كما تؤكل بعدئذ حين تكون لوزتها أشد صلابة وطعمها كطعم البندق . وعلى كل حال يجب الاعتدال في أكلها لأنها عسرة الهضم . ويصنع من جوزة الهند مستحلب منعش كما يتحصل منها على زيت يستعمل وقوداً . وفي الصناعة الحديثة يخلطون دهن جوز الهند مع اللبن فيكون منهُ زبد وهو السمن الصناعي المعروف في التجارة باسم (Cocose, Végétaline) يطهون بهِ الطعام . ويصنع من مبشور اللوز انواع من الحلوى معروفة ومرغوبة . وقشر الجوزة يستعمل كوعاء . والألياف تستعمل في صنع الحبال وفي « جَلْفَطة »

السفن . واذا استقطرت عصارة الشجرة نتج عنها شراب مُسكر كالعرقيّ Eau-de-vie يسمَّى في بلاد الهند (عَرَق المنبوذين) (Arrack de paria) ويصنع من الأوراق سلال وشباك وحصر. هذا ويمكن أكل البرعم الطرفيّ من الشجرة chou palmiste كما يؤكل الجُمَّار في مصر

الأَنَبُ أو الباذِنجان

ويرادفهُ من العربيّ الفصيح (الحَدَق) شبّهَ بحدق المها و(الحَيصَل) و(المَغد) فهو (الباذِنجان) بكسر الذال وقد تفتح كما في المصباح معرَّب (بادنكان) بالفارسية ومعناها بيض الجانّ ويقال لثمره الذي يؤكل (الوَغد)—عشب من جنس عنب الثعلب يزرع سنويًّا وهو في ملمس القطن على نوع ما يتراوح ارتفاع ساقه بين ٣٠ سنتيمتراً و٤٠ متفرّع ومزوّد هنا وهناك بأشواك دقاق صفر اللون أو بيض . أوراقه بيضية الشكل حادة الطرف ذات أعناق وعلى سطحها السفليّ اشواك . أزهاره بنفسجية اللون أو بيض ذات أعناق وتوجد فرادى متقابلة مع الأوراق . ثمرته وهي الجزء الذي يؤكل من النبات تكون في حجم بيضة الأوزة أو البرتقانة كريّة الشكل أحياناً وأحياناً بيضيّة ذات سطح برّاق كثيرة اللحم من الداخل ولونها بنفسجيّ عادة . وأشهرها ما كان مستطيلاً اسود أو بنفسجيًّا ومنهُ صنف أبيض يحشى

اسمهُ العلمي (Solanum melongena) (سولانوم ملونغنا) وفصيلته الباذنجانية وبالانجليزية Egg-plant or Aubergine) وبالفرنسية (Aubergine, Mélongène, Morelle Mélongèn)

يزرع في جنوبي اوربا وجزائر الهند الشرقية والغربية ومصر والسودان وثماره مرغوبة جدًّا تتخذ عند تمام نضجها غذاء وتؤكل مقلوّة او شواء أو تطهى بطرق منوعة كالطماطم

وثمَّ نوع يعرف (بالباذنجان الأبيض) وهو غير المعروف عندنا

اسمه العلمي (Solanum ovigerum) (سولانوم اويغروم) وبالانكليزية (Oval-egg-plant) وبالفرنسية (Plante aux oeufs, Poule pondeuse, Morelle à oeuf ou ovigère)

يزرع للزينة ثماره ذات لون ابيض جميل الواحدة منها تشبه بيضة الدجاجة لكنها لا تؤكل لأن فيها عناصر سامة حرّيفة اهمها (السولانين) (Solanine) فقد يوجد في هذه الثمرة قبل تمام نضجها حتى اذا تعاطاه الانسان صير هضمه رديئاً

الاسقالُ أو الاسقيلُ (العُنصُل)

ويقال له (بَصَلُ العُنصُل) و(بَصَلُ الفأر) نبات ذو بصلة مغشاة بطبقات كبيرة الحجم لها ساق جذرية مستقيمة يبلغ طولها في الغالب ٨٠ سنتيمتراً الى متر تنتهي بشوكة مستطيلة من أزهار بيض ذات بقع خضر . أوراقه الناشئة بعد الازهار بيضيّة الشكل أو شبيهة بالنعل ضيّقة ذات أخاديد طولية يتراوح طول الواحدة منها بين ٣٠ سنتيمتراً و٤٠ . وقد تبلغ البصلة حجماً كبيراً وتزن الى كيلو جرامين . ولونها من الخارج اسمر ضارب الي الحمرة

اسمهُ العلمي (Scilla maritima) (اسكيلا ماريتما) وفصيلته الزنبقية وبالانكليزية (Squill, Sea onion) وبالفرنسية (Scille maritime ou officinale) وهو ينمو في السواحل الرملية من المحيطات وسواحل البحر المتوسط . وحراشيف البصلة منه ذات طعم حرّيف ومرّ وتستعمل في الطب إما مسحوقة أو صبغة لإدرار البول وتنظيف الصدر . ويدخل الإسقال في كثير من المستحضرات الطبيّة منها : اقراص الإسقال ونبيذهُ وخلّهُ وأكسيمله والنبيذ المدر للبول كما يستعمل الإسقال طازجاً مُشَدَّخاً في بعض امراض الجلد . والحراشيف من شأنها ان تحدث إحراراً في الجلد بالاستعمال

بَقلةُ الحمقاء

قيل لها ذلك لأنها تنبت على مجاري المياه فيطفح عليها الماء فيقتلها ثم تعود فتنبت هناك . ويرادفها (الفَرْفَخ) بالخاء المعجمة و(الفرْفير) و(الرِّجْلة) ومنهُ المثل «هو أحمق من رِجْلة»

عشب سنويّ ذو عصارة . أوراقه لحمية مترادفة بيضية الشكل او في صورة الملعقة . أزهاره صفر مجتمعة في خصل كل منها فيهِ بضع زهرات

اسمهُ العلميّ (Portulaca oleracea) (پورتولاكا أولراسيا) وفصيلته الرجلية (Portulacaceae) وبالانجليزية (Purslane) وبالفرنسية (Pourpier commun) ينبت بطبيعته في الهند ومصر والسودان وجميع الأراضي الزراعية بفرنسا وغيرها ويزرع كالخضر في البساتين وتزرع أنواع منهُ للزينة. وليس لهُ نكهة خاصة ويؤكل نيئاً في السَّلاطة أو يطهى بطرق منوعة. وبزوره تستعمل في الطب منعشة ومدرة للبول وقابضة الى حدّ ما

البيقة أو البيقيَّة (الكِرْسنَّة المَزْرُوعَة)

نبات معروف في مصر باسم (الدُّحْريج) زغبيّ يعلق بغيره ويرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ أوراقه ريشية الشكل في الواحدة منها عدد من الوريقات يتراوح بين ٦ و٧ . وريقته بيضية الشكل أو مستطيلة مقطوعة الطرف . أذينات أوراقه شبيهة بالسَّهم حافتها مسنَّنة ويندر أن تكون غير مسننة (كاملة) . أزهاره إما فرادى أو كل اثنتين معاً . تويج زهراته بنفسجيّ اللون طوله سنتمتران . ثمرته قَرْن زغبيّ اصفر أو في لون الصدأ دقيق الاستطالة يتراوح طول القرن بين ٤ سنتمترات و٦ وعرضهُ بين ٥ ملّيمترات و٨

اسمهُ العلميّ (Vicia Sativa) (ويسيا ساتيوا) وفصيلته القرنية وبالانكليزية (Common vetch) والفرنسية (Vesce commune) . يزرع في اوربا والشام وحبّهُ اكبر من الجلبان المعروف في مديرية قنا أخضر يؤكل مخبوزاً ومطبوخاً وتُعلَفهُ البقر . وهو ينبت في الحروث فطريًّا وبخاصة في حقول القمح بمصر ويكون اطول من العدس

من وحي انكلترا

المانش الثائر

[عبر الشاعر بحر المانش في طريقه الى انكلترا . وما هي الا لحظة حتى ثار البحر ثورة أوحت اليه بهذه الابيات:]

غضب البحرُ غضبةً فحسبنا هذه الارضَ زُلزلت زلزالا
وسمعنا الرياح تصفر في الجـــوّ صفيراً يقطّع الأوصالا
وجرى الغيم في السماء عبوساً ساحباً فوق شمسهـــا أذيالا
والصباح الضحوك صار كئيباً والضحى الواقعيُّ أضحى خيالا
وكأنّ السماء خافت من الأر ض فجادت بدمعها هطالا ...

***

أيها البحر ! قد ركبناك رهواً فلقينـــا بمتنك الأهـــوالا
وحسبنا العبور صفواً ولـكن لا المنى أنجزتْ ولا الصفو طالا
ورأينا فيك الأواذيّ تعلو فـكأن الأمواج صارت جبالا
ومشى الرعبُ في النفوس ومالت شُعُب القلب كلما الفُلك مالا
وظننا الخلاص منك بعيداً وحسبنا النجاة فيك مُحالا

***

ذُعر الرَّكب في مطاكَ وضجوا وتمـــادى صُراخهم وتعالى
غمرة لم نُطق عليها اصطباراً ورؤًى لم نُطق لهنّ احتمالا
وسئمنا النضال في شُعَبِ الأر ض فجئنا نعيد فيك النضالا ..!
وحسبنا القفارَ أكثرَ رُعباً فرأينا البحار أســـوأ حالا
أنت يا بحر ساخــر بأناس جهلوا قدرهم وضلوا ضلالا
ملأوا الارض ضجةً وهديراً ثم ما زال كلّـهم أطفالا ....

***

أين مِنْ غمرةِ البحار العوالي غمراتُ السنينَ وهْي تَوالى ؟؟
كلُّ هول يا بحر يأتي ويمضي والليالي تغيّـــر الأحوالا

محمد عبد الغني حسن

الغدد الصم

وتأثيرها في شخصياتنا — شخصياتنا المختلفة — طبيعة
الغدد الصم — وظائف الغدد الصم —
الشذوذ الغددي — علاج
الغدد بالجراحة

لحسن السلمان
مدير ثانوية البصرة

« ان في جسم الانسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً »
«عن العيون ، يصنع الادوية ويصفها ويستعملها بحسب»
« ما تقتضي الحال . ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية »
« وهذا الطبيب لما اجدت مساعي جميع الاطباء — »
« ولعجز اي مخلوق على البسيطة عن الحياة».

« براسلسس »

١ — شخصياتنا المختلفة

اعتاد الناس القول ان فلانة غاية في الجمال لولا ما يعوزها من جاذبية ، وان اختها ممتلئة الجسم مرحة طروب . او ان لفلان شخصية فذة لولا بعض تصرفٍ منحرف ، او ان فلاناً ذو شخصية متسلطة آمرة كأنما خلق لان يكون قائداً عظيماً . فماذا يعنون بأقوالهم هذه ؟

الشخصية في نظرهم صفة جسدية ، ليس لها علاقة ببناء الجسم الداخلي يسبغونها على فلان وينتزعونها من فلانة غير عالمين ان لا فاصل بين بناء الانسان الداخلي وبين شكل جسده وهيئة بنائهِ الخارجي وبين تصرفهِ العقلي . فلقد بين العلم ان لكل فرد من الناس شخصية تولد معهُ وتتكيف بحسب تغير بعض اعضائهِ الداخلية . ومن الاخطاء الذائعة عند الناس ان الشخصية تقسَّم أقساماً مختلفة فيقولون الشخصية الجسمية ويقصدون بها ضخامة الجسم وطول القامة وخشونة الصوت ، والشخصية العقلية ويعنون بها سعة الاطلاع وحدة الذكاء والتروي في الاحكام . والحقيقة ان كلة الشخصية تنطوي تحتها جميع صفات الانسان سواء أجسمية كانت ام عقلية ، عاطفية ام خلقية ، وكل طارىء يطرأ على هذه الصفات فيغيرها تغيراً جزئيًّا او كليًّا إنما هو مغير للشخصية ذاتها . وكما تتفاوت صفات الانسان كذلك تتباين التأثيرات في شخصيته . فقد يزداد طول الانسان او قد ينقص وزنه ومع ذلك لا يظهر عليهِ تغير في خلقهِ او سلوكه ، حتى وان ظهر تغيرٌ بينٌ في اعماله العقلية . وسيتضح لنا في بحثنا هذا ان اي تغير في البناء الداخلي لا بد ان يكون مصحوباً بتغير عقلي ، محسوساً كان ام غير محسوس

والناس وان لم يفرقوا بين صفات الفرد الجسمية والعقلية ، الاَّ أنهم يصنفون الافراد بحسب صفاتهم الفسيولوجية . فالسمين عنوان للفرح ولخفة الروح ، والشيخ والعجوز رمز للوقار وللرزانة . ويكره الناس رؤية سمين لا يهزل وشيخ لا يجد ، ويستحقرون الشيخ عندما يتصابى والفتى عندما يتمشيخ . واذا ما شذَّ احد عن المألوف اهتموا بأمره وجدُّوا في تعليل هذا الشذوذ . وفي احوال كثيرة يتنبؤون عن خلق الفرد بتدقيق صفاته الجسدية فقط . وهذه التنبؤات وان لم تكن جميعها صحيحة الاَّ أنها تدل على مبلغ تعلق الصفات الخلقية والعقلية بالتكوين الجسدي

ولنتساءل الآن لماذا اختلفت شخصياتنا ، سواء اطويلي كنا القامة ام قصيريها ، ممتلئي الجسم ام نحيفيه ، جميلي الصورة ام قبيحيها ، سود الشعر ام صفره ، كاملي العقل ام ناقصيه ، بطيئي الحركة ام سريعيها . إن ذلك ناجم عن افرازات بعض الغدد الصغيرة الحجم في الدم أو في اللمف وهذه الغدد تدعى «الغدد الصم» ، اي التي ليس لها قنوات خاصة تصبُّ فيها افرازاتها . وهذه الغدد هي المكونة لشخصياتنا والمكيفة لها . وعلى هذا فاننا اذا اردنا ان نتفهم شخصياتنا واذا رغبنا في السيطرة عليها ووددنا ضبط أعمالنا وتصرفاتنا فاننا لن نستطيع ذلك ما لم نتفهم حقيقة عمل كلٍّ من هذه الغدد ومقدار ما تفرزه من افرازاتها الباطنية في اجسامنا

٢ — طبيعة الغدد الصم

يحتوي جسم الانسان على الآلاف من الغدد، بعضها كبير وبعضها صغير جداً، بعضها بسيط البناء وبعضها معقد التركيب وهي على اختلاف انواعها وتباين حجومها ضرورية لنمو الجسم ولصحة العقل. فغدد العرق في الانسجة الجلدية وغدد اللعاب في الفم والزغابات المعدية في المعدة والكبد والبنكرياس والكليتان والغدد التناسلية وغير هذه من الغدد مهمة في بناء الجسم وضرورية لسلامة الانسان. وجميع هذه الغدد عدا الغدد التناسلية لا علاقة لها علاقة مباشرة بالشخصية، اللهمَّ الاَّ في حالات عدم قيامها بواجبها. عندئذٍ يتضرر الجسم بأجمعه ويمرض الانسان وربما فقد حياته. وبديهي ان تأثيراً عامًّا كهذا قد يحدث عند ما لا يقوم اي عضو آخر بواجبه حق القيام

وتعرف الغدد المار ذكرها بالغدد «ذات الافراز الخارجي» فهي تستمد المواد الضرورية لها من الدم او اللمف او الامعاء وتصنع منهُ مركباً كيمياويًّا على هيئة سائل تفرزه في الاعضاء المتعلقة بها بواسطة أقنية ظاهرة لا تستطيع الغدد بغيرها افراز مادتها. وبهذه الطريقة تفرز الكليتان البول والكبد الصفراء وغدد اللعاب اللعاب اللازم للهضم في مراحله الاولى

وهناك في الجسم نوع آخر من الغدد لا قنوات لها ولا تمر المواد التي تفرزها بأقنية خاصة تقوم بوظيفة التوصيل، غير ان افرازها تمتصه الاوعية الدموية او الاوعية اللمفية التي تخترقها فينقله الدم واللمف الى جميع اعضاء الجسم. هذه هي الغدد الصم التي نعنيها في دراستنا هذه، ويدعى افرازها بالهورمون Hormone (١)

في طليعة من اهمَّ بدراسة الغدد الصمّ دراسة فسيولوجية طبيب فرنسي من باريس يدعى براون سيكار Brown Sequard. فقد اعتقد هذا الطبيب أن افرازات الخصيتين تعيد للجسم نشاطه وترجع للهرم شبابه. ولكي يحقق فكرتهُ هذه حضَّر خلاصة مائية من افرازات خصيتي كلب قوي البنية، صحيح الجسم وطعَّم نفسه بها وادَّعى ان تلك الخلاصة أعادت اليهِ نشاطه الجسمي وحيويتهُ العقلية وزادت في سرعة دورته الدموية. وقد اثبتت التجارب الدقيقة الحديثة بطلان تجربة براون سيكار، ويؤكد العلماء ان ما شعر بهِ. عندما طعَّم نفسه بتلك الخلاصة انما هو مجرد وهم وتصور. ومع ذلك كان لتلك التجربة من التأثير في علماء الفسيولوجيا ما لا يوصف، لانها اثارت فيهم حب البحث عن الغدد الصم وعن تأثيرها في جسم الانسان مما ادى الى اكتشاف اسرارها والى ابتكار أبسط الطرق لاستخلاص افرازاتها واستعمالها في كثير من الامراض المستعصية

ولدراسة هذه الغدد طريقتان (١) الطريقة التجريبية (٢) والطريقة الكلينيكية. ففي

---

(١) المقتطف: اقترح الدكتور محمد شرف بك لفظ تور بفتح فسكون والجمع اتوار ومعناه الرسول بين القوم ويمكن تخصيصه للمعنى المقصود باللفظ الاعجمي وقد جرينا على استعماله مقروناً بلفظ هرمون حتى يذيع

الطريقة الاولى تستعمل الحيوانات وسائط للبحث. واسلوب العلماء في ذلك ان تزال من حيوان التجربة ، الغدة التي يراد معرفة تأثيرها وفعلها ، ثم تدون ادق الملاحظات عن نموه وحركاته وجميع مظاهر حياته بعد ازالة الغدة ، وتوازن هذه الملاحظات بالملاحظات المدونة عن حيوان سوي لم تنزع منهُ غدته ، او ان يطعم الحيوان الذي نزعت منهُ غدته بخلاصة غدة حيوان آخر ويدرس درساً دقيقاً بعد هذه العملية

ولما كان من الصعب تطبيق الطريقة التجريبية على الانسان اضطرَّ الباحثون لاستعمال الطريقة السكلينيكية . وكيفية ذلك ان تدرس غدد الاشخاص الذين يولدون وهم مصابون بشذوذ في غددهم فهي اما ان تكون اكبر حجماً او اصغره من الغدة السوية او اشدَّ منها نشاطاً او اقل . وينمو بعض هذه الغدد قريباً من الجلد بحيث يستطاع درس شذوذها من الخارج واذا تعذر ذلك فيستعان بأشعة اكس . وقد لوحظ ان الشخص المصاب بتضخم الغدد او بتنكسها او بزيادة فعلها تظهر عليهِ حالات خاصة في جسمه او عقله او في كليهما معاً . وبالاستعانة بالطريقتين السالفتين تمكن الباحثون من جمع اكمل الحقائق عن اشخاص منوا بشذوذ كبير في شخصياتهم مما ساعد على تحضير أنجع الادوية للافاقة شذوذهم والى اعادة صحتهم الى الحالة الطبيعية

٣ — وظائف الغدد الصم

الغدد ذات الافراز الداخلي — الغدد الصم ثمانية مجاميع ، الغدتان الدرقيتان Thyroids والغدد قرب الدرقية Parathyroids وموضع هاتين المجموعتين في الرقبة . والغدة التيموسية (الصعترية) Thymus في الصدر والكظران Adrenals فوق الكلية ، والغدة الصنوبرية Pineal والغدة النخامية Pituitary وموضعهما في الجمجمة قرب الدماغ . وهناك غدد تفرز افرازين احدهما خارجي والآخر داخلي ، اي ان لها قناة ومع ذلك تفرز افرازاً داخليًّا في الدم مباشرة وليس لهذا الافراز علاقة بما تفرزه في الاقنية . وهذه هي البنكرياس (الحلوة) والخصية والمبيض

حسب الاقدمون ان الغدد الصمَّ اجسام زائدة في الجسد ليس لها وظائف مهمة ، ولكي يفسر بعضهم وجودها زعم ان لها وظائف خيالية ، كزعمه ان الغدتين الدرقيتين ترطبان الحنجرة فيكسب الصوتُ رنة موسيقية مع ان الغدة الدرقية أظهر الغدد وظيفة وأوضحها عملاً . وظنوا ان لمواقع الغدد تأثيراً كبيراً في وظائفها . والامر على عكس ذلك ، كما سيتضح لنا فيما بعد ، فالغدتان الصنوبرية والنخامية وان وجدتا تحت الدماغ الاَّ ان تأثيرهما في الدماغ اقل كثيراً من تأثير الغدة الدرقية فيه مع انها مستقرة في الرقبة . وأغرب من هذا ان الغدة الصنوبرية اكثر شبهاً بوظيفتها للغدة التيموسية من جارتها الغدة النخامية

(١) الغدة النخامية : — في قاعدة الدماغ تحت السقف الانفي تستكنُّ غدة صغيرة الحجم يبلغ

وزنها نصف جرام تدعى الغدة النخامية . وقد حجبت الطبيعة هذه الغدة في صندوق عظمي في منخفض داخل الجمجمة لتقيها اي عطب يصيب الرأس

في اواخر القرن الثامن عشر استرعى نظر طبيب انكليزي ، يدعى جون هنتر ، طولُ قامة عملاقٍ إرلندي . فلما توفي العملاق بذل الطبيب مالاً وافراً وجهوداً جبارة لامتلاك جثته وعند ما شرَّحها وفحص دماغه وجد ان غدته النخامية كانت بحجم البيضة ، ومع ذلك لم يدرك الدكتور هنتر سر طول الرجل الارلندي . وفي اواخر القرن الماضي درس خواص هذه الغدة طبيب اميركي اسمهُ هربرت مكلين ايفانز ، وتمكن من تحضير افرازها . و استدل من تجاربه الكثيرة التي اجراها على الفيران ان مقدار الهورمون الذي تفرزه الغدة في الدم يعين شكل الجسم وهيئته ، ومع ان التجارب كثيرة والمحاولات متعددة الاَّ ان الهورمون النقي لم يحضر حتى الآن

وقد اثبتت تجارب الدكتور كوشنغ Cushing ان جسم الحيوان يقف نموه عند ما تستأصل الغدة النخامية منه ، ويكون دماغه قليل النشاط وحركته بطيئة واعضاؤه التناسلية ضامرة جدًّا فاقدة لنشاطها التناسلي . كذلك دلت تجارب الباحثين ان الغدة النخامية مكونة من فصين الفص الامامي ويفرز هورموناً يدعى فيون Phyon ولهُ علاقة كبيرة بنمو الجسم وبنشاطه ، والفص الخلفي ويفرز افرازين احدهما يدعى برولون Prolone وهذا لهُ علاقة كبيرة بنشاط الاعضاء التناسلية والآخر برولاكتون Prolactone وهو الهورمون الذي يثير الثديين في ذوات الاثداء ويزيد لبنهما بعد الولادة زيادة كبيرة ، ويعتقد بعضهم ان افرازات الفص الخلفي من الغدة تحدث قبض عضلات الرحم قبيل الولادة

(٢) الغدة الصنوبرية والغدة التيموسية : — اما الغدتان الصنوبرية والتيموسية فيصح ان تدعوهما بغدد الطفولة ، لان كلاًّ منهما يكون كامل التكوين عند ولادة الطفل ثم يزداد نموًّا في الاعوام الاولى للطفولة ويقف عند سن البلوغ عندما يبدأ نشاط الغدد التناسلية . وفي الانسان السوي تضمحل الغدة الصنوبرية تمام الاضمحلال في دور المراهقة ، ولا يبقى من الغدة التيموسية (الصعترية) بعد هذا الدور الاَّ الشيء القليل

وتستقر الغدة الصنوبرية بين ثنايا الدماغ فوق الغدة النخامية بقليل . ولا يزال العلماء في شك من حقيقة وظيفتها ، ولا يدرون هل هي تفرز هورموناً خاصًّا بها او لا تفرز . ولكنهم مجمعون على انها تقوم بوظيفة الضابط للنمو التناسلي . فان ضمورها وتنكسها يحدثان تغيرات كبيرة في حياتنا التناسلية قبل أوانها ، كنمو الشعر في جسد الاحداث وحول اعضائهم التناسلية ، وبروز النهدين في الفتيات الصغيرات ، وظهور جميع علامات البلوغ عند الاطفال

والغدة التيموسية (الصعترية) رخوة الجسم ، وردية اللون موضعها فوق القلب ويكون وزنها قليلاً عند

الولادة ثم يزداد حتى تغدو كاملة عند سن البلوغ ، ثم تأخذ الغدة في الضمور شيئاً فشيئاً ولا يبقى منها بعد سن المراهقة الاَّ جزء يسير . والمظنون ان خلاصة هذه الغدة تزيد من سرعة نمو الحيوان وتبكر كثيراً في نشاطه التناسلي

(٣) الغدة الدرقية والغدد قرب الدرقية : — في أسفل الحنجرة عند ملتقاها بالقصبة الهوائية تستقر غدة كبيرة مكونة من فصين كل على جانب من القصبة ويصلهما فص ثالث يدعى البرزخ ، وهذه الفصوص الثلاثة تكوّن الغدتين الدرقيتين

لقد لاحظ الباحثون ان تضخم الغدة الدرقية يكون دائماً مصحوباً بجحوظ العينين وخفقان القلب وتضخم العنق (Goitre) . ولاحظ طبيب انكليزي ان المصابين بالكرتينسم (البَلَـه) Cretinism يصابون بمرض الغدد الدرقية وان المصابين بالمكسيديما (الخزَج : شرف) Myxoedema يصابون أيضاً بضعف الغدد الدرقية ، كما أنهم وجدوا ان افرازات الغدد الدرقية من حيوانات سوية تشفي هذه الامراض . وهذا مما يثبت ان الغدة الدرقية من أكثر الغدد تأثيراً في صحة الانسان

ومن أهم وظائف الغدة الدرقية أنها تنظم نمو الاطفال ، وتسير التفاعلات الكيمياوية التي تجري في خلايا الجسم بصورة سوية . وهي وإن لم تزود الجسم بطاقة ما ، الاَّ أن افرازها يزيد فعل الخلايا فتزداد طاقة الجسم وتمكن من تغير الطاقة من نوع الى آخر

وأفراز الغدة الدرقية المدعو ثيروكسين Thyroxine يحتوي على مقادير قليلة من عنصر اليود ، وأن مفعول الأفراز يعود في الأصل الى مفعول هذا العنصر في الخلايا . وتستمد الغدة ما تحتاج اليه من عنصر اليود من الاطعمة التي يتناولها الانسان او من الأملاح اليودية التي توجد مقادير قليلة منها في مياه الشرب . فالبيض واللبن الحليب والبصل والجزر وغيرها من الخضار تحتوي على عنصر اليود بالنسبة الكافية . وقد لوحظ ان تربة بعض المدن يقل فيها عنصر اليود فيقل العنصر كذلك في الخضار التي تزرع هناك وفي مياه الشرب أيضاً فيكثر في تلك المدن تضخم العنق وجحوظ العينين

أما الغدد قرب الدرقية فهي غدد صغيرة الحجم بشكل حبة الفاصوليا تلتصق بالغدد الدرقية او تجاورها وهي زوجان كل زوج منها يستقر عند أحد فصي الدرقية

كان المعتقد أولاً ان هذه الغدد أجزاء من الغدة الدرقية او تصلبات منها غير ان التجارب الدقيقة التي أجريت على الحيوانات آكلة الحشائش اثبت أنها غدد قائمة بنفسها وان لها عملاً خاصًّا يختلف تمام الاختلاف عن الغدد الدرقية . وفي عام ١٩٠٩ لاحظ مكالم MacCallum وفوجتلين Voegtlin ان مرض التيتاني Tetany يكون دائماً مصحوباً بنقص في مقدار الكلسيوم في الدم ، وقد اكتشف كولب Collip عام ١٩٢٥ ان الحيوانات التي تزال غددها فوق الدرقية تصاب بتشنج عصبي وتزداد سرعة حركة القلب وتموت بعد ثمان وأربعين ساعة من جراء

التعب الكثير وان دمها لا يتخثر حتى بعد الممات . وعندما حلل دمها وجد انهُ فاقد لعنصر الكلسيوم . واذا أسرع في حقن الحيوان قبل وفاته بخلاصة هذه الغدد عاد الى الحالة السوية وزالت منهُ جميع أعراض مرض التيتاني . وهذا مما يثبت ان أفراز الغدد فوق الدرقية تنظم مقدار الكلسيوم في الدم ، وبدون ذلك يعرض الاطفال للكساح وللازكام وللنزيف الدموي ويعرض الكهول للسل العظمي

(٤) الكظران : — والكظران غدتان صغيرتان تستقر كل منهن فوق كلية من الكليتين ويختلف بناؤهما عن سائر الغدد الصم بكونهما مكونتين من لب رخو وقشرة سميكة

والسابق الى معرفة شأن الكظرين طبيب انكليزي يدعى اديسون Addison وذلك في عام ١٨٥٥ ، فقد اشار هذا الطبيب فيما كتب ان ضعف الجهاز العضلي والجهاز العصبي يكون مصحوباً دائماً بضعف الكظرين . ومما اكتشفهُ براون سيكار ان ازالة الكظرين من الجسم تعرضهُ لضعف كل من الجهاز العضلي والعصبي ، اي لمرض اديسون ، وعاقبة المريض الموت المحتم . غير ان اول من بحث الكظرين بحثاً دقيقاً العالم الاميركي جون جاكوب ابيل J. J. Abel فكان يضع من غدد الاغنام شرائح رقيقة ثم يعرضها لحرارة لا تزيد على ٦٠ م° حتى تجف ، ويزيل المادة الدهنية التي فيها باذابتها في الاثير فيترسب لديهِ مسحوق رمادي اللون ، وعندما يذاب هذا المسحوق في الماء ويحقن بهِ حيوان ما يرتفع ضغط دمه

وفي اوائل هذا القرن استطاع كيماوي ياباني يدعى تاكامين Takamine من تحضير خلاصة افراز الكظرين بشكل بلورات دعاها بالادرينالين Adrenaline والحقيقة ان ما استحضره تكامين هو افراز اللب من الغدة . فمن خواص هذا الافراز انهُ يرفع ضغط الدم لكثرة الانقباضات الحادثة في الشرايين والاوعية الشعرية ، وانهُ يمكّن القلب الضعيف من الاستمرار في عمله عند ما يضنيهِ التعب . وللادرينالين تأثير كبير في تمثيل المواد السكرية فهو ينتقص من الكلايكوجين في الكبد فيقوم بعمل معاكس لعمل الانسولين ، وانهُ كذلك يمنع النزف في الانف والاذن والحلق ويبطل القصيبات الرئوية عن العمل فيمنع بذلك التشنج في النزلة الشعبية

والكظران هما غدتا الشجاع والجبان . فقد اكتشف كانون Cannon عام ١٩١٠ بطريقة تجريبية غاية في الدقة ان الادرينالين يكثر إفرازهُ عند ما يتهيج الانسان فيجعله في حالة غضب شديد او خوف مميت ، وينجم عن ذلك احتراق زائد في الجسم وتزداد سرعة الدورة الدموية ويكثر خفقان القلب والتنفس . ومقدار الافراز يبين هل الانسان شجاع او جبان . ومن اهم وظائف الادرينالين كما حققها كيلاوي Kellaway وكويل Cowell انهُ يعمل كترياق ضد السموم التي تنشأ من الغازات المتكونة في الامعاء

اما قشرة الـكظرين فتفرز هورمو ناً يدعى الـكورتين Cortine ، وهذا الافراز غني بفيتامين ج ومن وظائفه ان قلته تنتج مرض اديسون وللكورتين علاقة كبيرة بالغدد التناسلية فهو الباعث على زيادة نشاطها

(٥) البنكرياس او الغدة الحلوة : — والبنكرياس غدة كبيرة تقع قرب المعدة من الخلف وهي وردية اللون وتتصل بالاثنى عشري من الامعاء بقناة دقيقة

اكتشف لانجرهانس Langerhans عام ١٨٦٩ ان هذه الغدة تحتوي في وسطها على مجموعة من الخلايا تختلف في شكلها عن باقي خلايا الغدة — ولاحظ منكووسكي Minkowski عام ١٨٨٩ ان الحيوان الذي يزال منهُ البنكرياس يصاب بالمرض السكري الحاد . وبعد هذا بيوم واحد وجد سكوبولو Schobolew ورفيق له ان (الحلوة) اذا ماربطت قناتها ضمرت وفنيت جميع خلاياها عدا الخلايا التي اكتشفها لانجرهانس والتي تدعى اليوم « بجزر لانجرهانس » . ومع ذلك فان الحيوان يبقى سليماً من السكري مما جعل العلماء يدركون ان جزر لانجرهانس تفرز افرازاً داخليًّا خلافاً لما تفرزه سائر خلايا الغدة يقي الجسم من المرض السكري وقد سُمّي الانسولين

ولما كان السكري من الامراض الكثيرة الانتشار بين مختلف طبقات الناس جرب الاطباء مداواة مرضاهم باطعامهم قطعاً من البنكرياس ، وحاول البعض منهم تحضير الانسولين من الغدة بكاملها ولـكنهم لم يفلحوا لان الافراز الخارجي للبنكرياس يحتوي على مادة تدعى تريبسينوجين Trypsinogen وهذه تبطل عمل افراز « جزر لانجرهانس » اما بانتنج Banting مكتشف الانسولين فقد سعى لتحضير الانسولين من جزر لانجرهانس وحدها بعد ان اباد الخلايا الاخرى ، فكللت مساعيه بنجاح تام عام ١٩٢٠ وفاز بتحضير الانسولين نقيًّا . وكذلك استطاع الـكيمياويون انقاذ الآلاف من الناس الذين يقضي عليهم بالمرض السكري

(٦) الغدد التناسلية (الخصية والمبيض) : — من اعظم الغدد شأناً في جسم الانسان الخصية في الرجل والمبيض في المرأة ، وليس شأنهما متعلقاً بظاهرة التناسل او حفظ النوع فحسب وانما بمقدار افرازاتهما الداخلية . لان مقدار الافراز يعين كثيراً من صفات الانسان العقلية والخلقية والجسمية . وهذه الافرازات هي التي تكسب الرجل رجولته والمرأة انوثتها

يبدأ نشاط الغدد التناسلية عندما ينتهي نشاط الغدة السعترية والغدة الصنوبرية ، فطالما غدد الطفولة في اشد نشاطها لا تقوم الغدد التناسلية باي عمل ما ، وما ان تقف تلك عن افراز هورموناتها حتى تتحرك هذه للقيام بوظيفتها فتتغير شخصية الرجل كما تتغير شخصية المرأة ايضاً ويكون كل منهما قد جاوز دور طفولته ودخل سن المراهقة

وفي طليعة من درس خواص الغدد التناسلية وعرف عن اسرارها الشيء الكثير الدكتور

شتايناخ Dr. Steinach فقد اثبتت تجاربهُ الدقيقة اثباتاً قاطعاً لا يحتمل الشك ان الغدد التناسلية تحتوي نوعين من الخلايا مختلفين في وظائفهما : الخلايا الخارجية وعملها افراز النُطف المنوية في الرجل والبويضات في المرأة . وتحيط هذه الخلايا بخلايا اخرى اكتشفها من قبل ليديج Leydig تقوم بافراز الهورمونات التي نحن بصددها

ومما اجراه الدكتور شتايناخ ان انتزع من حيوان غدده التناسلية وزرعها في غير مواضعها فعاشت هذه الحيوانات عيشة سوية ولم يظهر عليها اي شذوذ جسمي إلاَّ أنها لم تستطع القيام باعمالها التناسلية . وانتزع من بعض الحيوانات خصيتها وزرع عوضاً عنها مبائض حيوانات اخرى من نوعها فظهرت على هذه علامات الانوثة واختفت صفات الذكورة منها . ولاحظ الدكتور شتايناخ ايضاً ان الحيوانات التي اجرى عليها تجاربه اخذت تميل الى ذكور من انواعها عند ما اسكنت معها . ومما قام بهِ من التجارب ان ربط الحبل المنوي لحيوانات متقدمة في السن مشرفة على الهلاك فلاحظ ان الخلايا الخارجية للخصية ضمرت بينما تكاثرت غدد ليديج وازداد نشاطها وضاعفت من افرازات هورموناتها فكان من جراء ذلك ان شعرت الحيوانات الهرمة بنشاط جديد وبقوة ما كانت تشعر بها من قبل

وفاز بتحضير هورمون الخصية العالم بيوتيناند Butènandt وسماه تستوستيرون Testosterone ويعرف اليوم باسم پروفيرون Proviron وتأثير البروفيرون انهُ يظهر على الرجل جميع الصفات التناسلية الثانوية كظهور الشعر على الخصية وخشونة الصوت وضخامة الجسم الى غير ذلك من صفات الرجولة الكاملة.. اما هورمون المبيض فقد حضره الدكتور دويزي ويدعى ثيلين Thealin وعمل هذا الهورمون انهُ يكسب المرأة جميع صفاتها التناسلية الثانوية كرقة الصوت وبروز الثديين ودقة الجسم وظهور الطمث وغيرها من صفات الانوثة المغرية

واذا ما حقن البروفيرون في جسم انثى خشن صوتها ونبت الشعر على عارضيها ، اما اذا حقن الثيلين في جسم رجل فقد الكثير من صفات الرجولة فيه وظهرت عليه علامات الانوثة ففي سنة ١٩١٦ اخذ غوديل Goodale المبيض من دجاجة وزرعهُ في ديك ازيلت خصيتاه فتحول الديك دجاجة في مظهره الخارجي وسلوكه ، وذلك لان هورمون المبيض افرز في دم الديك فأكسبهُ صفات الانوثة

٤ — الشذوذ الفردي

الغدد الصمُّ قلما تستقر على حال واحد . فهي تتأثر بعاملي الوراثة والبيئة كما يتأثر اي عضو من اعضاء الجسم . فقد تضمر الغدة قبل اوانها فتتعطل عن القيام بوظيفتها ، وقد تزداد نشاطها زيادة غير طبيعية . وفي كلتا الحالتين تتأثر قوى الانسان الجسمية والعقلية . وكثير من

الشذوذ العقلي والجسمي والخلقي ناجم عن زيادة في افراز الغدد او نقص فيه . وها نحن هنا ندرس الطوارئ التي تطرأ على الانسان عند زيادة نشاط الغدة او عند نقصه

شوهد في بعض البالغين ان الغدة الصعترية والغدة الصنوبرية لا تضمران بعد سن البلوغ كما يجب ان يحدث في الحالة الطبيعية ، فيحدث من جراء ذلك ان يبقى الشخص طفلاً عقلاً وسلوكاً ، ويعيش ضعيف الارادة بطيء التفكير لا يستطيع الكد والتعب في هذه الحياة . وتظل غدده التناسلية غير نامية لا تفرز افرازاتها الداخلية فيكون الانسان اشبه بالخصي بهيكله العظمي الطويل المستدق وبصوته الموسيقي المرتفع الترديد ولا ينبت الشعر في عارضيه

واذا ضمرت الغدتان والطفل في الخامسة من عمره ظهرت عليه جميع علامات البلوغ وهو في اول عمره ، فيشبه الشخص البالغ بظهور الشعر في جسمه وحول اعضائه التناسلية ويتضخم صوته ان كان ذكراً او برقة الصوت وبروز النهدين ان كان انثى ومن الغريب ان الميول التناسلية تظهر على الطفل وهو بهذا السن

وعندما لا تقوم الغدد الدرقية قياماً تامًّا بوظائفها يتشوه الجسم تشوهاً ظاهراً . اذ يتضخم الانف وتتدلى الشفتان ويخشن الجلد ويزداد البعد بين العينين وتفقد العينان بريقهما وشعاعهما ، وتقصر القامة وترخو العظام ويصاب الانسان من جراء قلة افراز الغدد الدرقية بانخفاض ضغط الدم وبطء حركة القلب فتنزل درجة الحرارة حتى تصل الى ٩٦°م فلا يقوى على الشغل الشديد ويعرض للصداع المزمن والامساك الدائم ولمرض المفاصل ولفقر الدم وضيق التنفس ولمختلف الامراض العصبية . وتعرّض المرأة لاضطراب الطمث بحيث ينقطع حيناً ويشتدّ آخر ويكون مصحوباً باوجاع في الظهر فيعتري المرأة من جراء ذلك خمول عام وبطء الحركة

واذا تعطلت هذه الغدة عند الاطفال فانهم يعرضون لمرض الكريتنزم « البله الوراثي » Cretinism ومن علامات هذا المرض تضخم اليدين والرجلين وقصر اصابع الكفين وضخامتها وقلة نمو الاظافر وتشوه الاسنان وتآكلها لفقدان مادة الميناء منهما ، وخشونة الشعر وكثرة تساقطه وجفاف قشرة الجلد وخشونتها ، وظهور البلادة والكسل والبله على الطفل فيكون دون المتوسط في عقليته وذاكرته وله استعداد للخبل والجنون

اما اذا ازداد نشاط الغدد الدرقية ، وكثرت افرازاتها فان اعصاب الانسان تتهيج فيكون كثير الغضب سريع الحدة ، لا يطيق معارضة ولا يتحمل انتقاداً ، وتزداد سرعة حركة قلبه ويرتفع ضغط دمه وتكون درجة حرارته فوق المعدل ، ويتغير شكل رأسه فيستطيل وتختفي وجنتاهُ ويبرز جبينه ، وتجحظ عيناه ، وتستدق شفتاه وتكون اسنانه صغيرة قوية لؤلؤية الشكل ويسترسل شعره ويكون على الغالب كثًّا متموجاً نامياً نموًّا زائداً . ويكون أحد هؤلاء

كثير الخجل قليل الغضب تحمر وجنتاهُ في حالي الحياء والحدة ، يصل دور المراهقة بسرعة وتكون حساسيتهُ الجنسية على أشدها

والكظرأن عند ما يضعفان ويعجزان عن القيام بوظائفهما ، سواء حين الولادة او من جراء مرض طارىء او من أثر الشيخوخة ، يحدثان في الجسم اضطراباً بيناً فينخفض ضغط الدم وتقل حرارة الجسم وتضعف الاعصاب وتضطرب القوى العضلية ، ويعرض الانسان لمرض النورستانيا او للامساك المزمن او للخفقان . وبعكس ذلك عند ما يزداد مقدار افراز الكظرين فان الشخص يكون كثير الغضب سريع الحركة ميالاً للعراك ، مفتول الساعد قوي العضلات ، وتظهر على الفتاة التي هي من هذا النوع سمنة في الصدر وضخامة في الثديين، واما النسوة المتقدمات في السن فيسمنّ سمنة مفرطة وينبت الشعر على ظهورهنّ وفوق شفاههنّ العليا وعلى ذقونهنّ . ويرتفع ضغط الدم في الجسم ارتفاعاً عالياً يعرض الجسم في احيان كثيرة لخطر مفاجىء

واذا ما تعطلت الغدة النخامية عن عملها فان قوى الجسم عقلية كانت ام جسمية تتعطل عن العمل ايضاً فيتناقص افراز الغدد الدرقية ويضعف دماغ الانسان فتقل مداركه وينضب معين تفكيره حتى يصبح اقرب الى البلاهة منهُ الى الذكاء ، فلا يقوى على ضبط نفسهِ ولا يستطيع السيطرة على اهوائهِ ولا يتردد عن ارتباك افظع الجرائم وحتى القتل منها

والاطفال الذين تضمر غددهم النخامية ينشأون على حب الكذب والسرقة وسوء الاخلاق فلا تجديهم تربية الوالدين نفعاً ولا تعدل المدارس من شذوذهم الخلقي شيئاً ، وعلاوة على هذا فان نموهم العقلي والجسدي يتوقف وهم دون الخامسة فيقضون سني الحياة وهم اقزام في هيئاتهم الجسمية اطفال في عقلياتهم ميالون للاتصاف بصفات الاناث ان كانوا ذكوراً او بصفات الذكور ان كنّ اناثاً . ويتوقف نمو الاعضاء التناسلية عندهم وتنعدم فيهم قابلية القيام بالاعمال التناسلية وعند ما تضعف هذه الغدة في المتقدمين بالسن فان اجسامهم تتضخم ويكثر الشحم المترهل في اسفل جذع المرأة ويقل في صدرها وفي ثدييها . اما الرجل فيسقط شعر رأسه وجسده وتتشوه اسنانه ويصفر رأسه وفي حالة توقف الغدة عن الافراز يعرّض الانسان لمختلف الامراض العصبية وبصورة خاصة للعته والجنون ، وللاضطرابات التناسلية فيعشق الشخص ابناء شقهِ Sex ولا يميل الى النوع المخالف لهُ بالشق

ويكون الحال على عكس ما ذكر عند ما يكثر افراز الغدد النخامية ، فيزداد النشاط العقلي والجسدي ويتضاعف الذكاء ويزداد الذهن حدة . ويمثل هذا النوع من الناس المكتشفون والمخترعون والفلاسفة وقادة الرأي . ومن الصفات التي تميز هؤلاء الناس عن غيرهم ضخامة العظام وكبر القدمين والكفين وطول القامة وكثرة الشعر في الرأس وعلى الوجه وفي الاطراف

والجذع وقد يزداد الافراز كثيراً فيزداد طول الشخص ويتضخم عظمه وتأخذ غدده التناسلية بالقيام بوظائفها قبل أوانها. والافرازات الداخلية للغدد التناسلية تؤثر تأثيراً كبيراً جداً في شخصية الانسان وفي افعاله العقلية والخلقية. فعند ما تزال الغدد التناسلية من الجسم تنعدم في الشخص جميع الصفات التناسلية الثانوية. وليس من شك ان الحياة لن تكون سعيدة هانئة ما لم تكن الغدد التناسلية في حالة سوية قائمة بوظيفتها على الوجه الاكمل

وتعتقد طائفة كبيرة من علماء النفس وفي مقدمها العالم النمساوي الكبير سجمند فرويد Freud ان لجميع اعمال الانسان وافكاره عاملاً تناسلياً خفياً وان الشخص السوي في افكاره وفي اعماله لا بد وان تكون اعضاؤه التناسلية في حالة طبيعية سالمة من اي مرض او عطب. ويلاحظ ان الطفل الذي تضعف خصيتاه او تستأصلان منهُ ينشأ ضعيف البنية دقيق العظام رقيق الصوت عالي الترديد ضعيف القوى العقلية اشبه بالمرأة منهُ بالذكر. وكذلك الحال في المرأة التي يضعف مبيضاها فانها تفقد الكثير من انوثتها ورقة صوتها ويخشوشن عظمها ويمتلىء جسمها وينبت الشعر على عارضيها فتميل الى بنات نوعها وتنفر من الرجال. وفي حالة قلة الافرازات الداخلية في المرأة تتعرَّض لاضطراب الحيض Amenorrhea وللهيستريا وفي الرجل يتعرَّض لمرض العزلة او الخوف من الفضاء Agoraphobia وللنورستانيا ولغيرها من الامراض العصبية

٥ — علاج الغدد بالجراحة

من عجائب الطب الحديث ان الجراح بمبضعه الدقيق استطاع ان يبدل من شخصية الانسان ويغير سحنتهُ، ويزيل تشويه جسمه ويرجع عقليته الى الطريق السوي ان كانت ضالة من غير هدى، وان عملية بسيطة يجريها الجراح الحاذق على غدد الانسان عندما تشذ تعيد الى الانسان كثيراً من الصفات التي يجب ان يتصف بها وتكسبه شخصية سوية وتسبغ عليهِ حياة سعيدة هانئة

في عام ١٩٣٣ اصيب شاب في مقتبل عمرهِ من مدينة سنسناتي في الولايات المتحدة الاميركية بمرض لم يتمكن الاطباء من معالجته. فلقد هزل جسم الشاب وضعفت اعصابه وصارت تنتابه نوبات عصبية عصيبة وجحظت عيناه جحوظاً شديداً وانتابت عضلاته رعشة مستديمة ولم تمض بضعة اشهر على ظهور هذا المرض على الشاب حتى فقد عقله، فعزل في مستشفى المجاذيب خوف الفتك بالناس وقيض الله له جراح ادرك بثاقب بصيرته ان الغدد الدرقية عند هذا الفتى لا بد وان تكون اشد نشاطاً مما هي عليهِ في الحالة الطبيعية، وان المقدار الكبير من الثيروكسين الذي يفرز في دمه كان يستنفد جميع المواد المخزونة في الجسم، فقرر ان يقطع قسماً من غدته الدرقية فما ان اجرى الدكتور دي كنورسي Dr. De Conrcy العملية المطلوبة، وهو الطبيب الذي شخص

المرض ، حتى اخذ الفتى يستعيد قواه العقلية والجسمية قليلاً قليلاً . وبعد بضعة اشهر غادر المستشفى وعاد الى الحياة العامة سليماً معافى يزاول عمله اليومي كما كان قبل ان يعتريه مرضه العصبي

والعمليات الجراحية على الغدد الصم يجب ان تجري بكل عناية ودقة بحيث لا يحدث نزف مهما يكن ضعيفاً فحدوث النزف يؤدي في كثير من الاوقات بالمريض الى الهلاك . وتحقيقاً لهذا ابتكر الجراحون مبضعاً جديداً غاية في الدقة يدعى بالسكين الكهربائي Radio Knife . وهو ابرة كهربائية تقطع الغدة وتخيط الاوعية الدموية التي فيها وتعقم الجرح في آن واحد

وفي عام ١٩٢٦ جيء الى المستشفى العمومي بمدينة بوسطن بملاح مصاب بمرض غريب عجز عن تشخيصه أمهر الأطباء . وكلما عرفهُ الأطباء عن هذا المريض انهُ فقد من طوله سبع عقد خلال ثمانية أعوام . فلقد كان طول قامته ستّ أقدام وعقدة واحدة عام ١٩١٨ فأصبحت خمس أقدام وست عقد عام ١٩٢٦ وعلاوة على هذا ضعفت عظامه حتى صارت لا تقوى على حمله . وعندما فحصهُ أحد أطباء المستشفى بأشعة اكس وجد ان مقدار الكلسيوم كان يتناقص في عظامه مما يدل على ان الغدد قرب الدرقية كانت كثيرة النشاط ، فعالجهُ الطبيب المذكور بعملية جراحية أزال فيها غدتين من هذه الغدد فلم يمض على العملية وقت طويلٌ حتى برح المستشفى وهو بكامل صحته

ومما يجب ان يسطر بمداد من الفخر للطب الحديث اكتشافه علاجاً للمرض السكري ، المرض الذي كان يقضي على الآلاف من الناس في مختلف بلاد المعمور . أما اليوم فبفضل الأنسولين زال خطر السكري ، ومع ذلك فان الاطباء المعاصرين يتجهون الى ناحية أخرى من نواحي الطب لمعالجة هذا المرض ، هي ناحية الطب الجراحي

قبل بضعة أعوام قام الدكتور جورج تاكات Takat في مدينة شيكاغو بعملية جراحية لرجل مصاب بالسكري أدت الى نجاته من هلاك محتم . وطريقته في ذلك ان شق الجدار البطني وأزاح المعدة حتى بان البنكرياس فربط القناة البنكرياسية التي توصل العصارة البنكرياسية الى الامعاء الدقيق ، فكانت النتيجة ان ضمرت الغدد الجدارية للبنكرياس وزادت نشاط الخلايا في جزر لانجرهانس فتناقص مقدار السكر في الدم حتى وصل الى المقدار الطبيعي . وقد أجريت عدة عمليات من هذا القبيل نجح بها الجراحون نجاحاً باهراً

وفي عام ١٩٢٩ أتت الى الدكتور كوستر Koster من نيويورك فتاة في ريعان شبابها كانت تشكو السمنة المفرطة . فقد كان وزنها يوم ذاك ٣٣٥ رطلا مصريًّا وكان وزنها يتزايد بمعدل ١٢٥ رطلاً في العام الواحد . فقرر الطبيب بعد الفحص الدقيق وجوب ازالة أحد الكظرين . وعندما أجرى العملية وجد ان الكظر الواحد كان قد تضخم حتى بلغ ثلاثة امثال حجمه السوي . وبعد شفاء الفتاة من العملية الجراحية أخذت تفقد الشحم المتراكم في جسدها بذات السرعة

التي اكتسبتهُ بها . ولم يمر عامان حتى كانت الفتاة بشكل طبيعي جذاب ، واستعادت كثيراً من مظاهر جمالها وجاذبيتها الجنسية

والغدة النخامية وان كانت غاية في الصغر ومنزوية داخل الجمجمة الاّ ان مبضع الجراح وصل اليها واستطاع استئصالها . فالبعض من الاحداث معرَّض لمرض الكائمة (شرف) Acromegaly [1] ومن مظاهر هذا المرض زيادة نمو الكفين والقدمين وتضخمهما . وفي مثل هذه الظروف لا بدَّ من استئصال الغدة النخامية بعملية جراحية . وكذلك الغدة الصنوبرية وان كانت مستقرة بين ثنيات الدماغ فان مبضع الجراح يهددها كلما اعتورها شذوذ ولا سيما حينما يزداد نموها زيادة فاحشة بحيث تضغط ضغطاً شديداً على الدماغ فتسبب الصداع المزمن وأحياناً العمى والموت الفجائي

ومن أشهر العمليات الجراحية التي أُجريت على الغدد هي عملية الدكتور شتايناخ وعملية الدكتور فورونوف Voronoff . أما الأولى فتتلخص في ربط الحبل المنوي لمنع افراز المادة المنوية فتضعف من جراء ذلك الخلايا المختصة بأفراز السائل المنوي في حين ان الغدد التي تفرز الهورمون التناسلي تزداد فعالية . أما العملية الثانية فتتلخص في زرع غدد حيوان بكامل قواه ونشاطه في حيوانات ضعيفة متقدمة في السن

لقد أجرى قبل بضعة أعوام طبيبان مصريان في مستشفى بلبيس عملية شبيهة بعملية فورونوف وذلك أنهما زرعا غدتين مستئصلتين من شابين قويين في شيخ مصاب بضعف عام ورعشة مزمنة . ولم يمض اسبوع واحد على هذه العملية حتى ظهرت بوادر النشاط الجسدي والعقلي على الشيخ واختفت الرعشة التي لازمتهُ مدة طويلة . وقد اجريت عدة عمليات على نسوة اصبنَ بأمراض في مبائضهنَّ مما ادى الى حرمانهنَّ في الحمل وزرعت فيهنَّ قطع من مبائض نسوة سالمات فحملنَ وولدنَ اولاداً كاملي الخلقة سالمين من اي مرض مزمن . ولا ريب ان جراحة الغدد الصم هي اليوم في مرحلتها الأولى وسيأتي اليوم الذي يتغلب فيه الطب الجراحي على كثير من الامراض المستعصية الناجمة عن سبب غددي

البصرة حسن السلمان

مراجع البحث :

1 — Handbook of Physiology. By Halliburton & Mcdowell.
2 — How Glands Affect Personality. By Grace Adams
3 — Eugenics & Sex Harmony. By H. H. Rubin
4 — Outline of Modern Belief. By W. Grierson & J. W. N. Sullivan
5 — Encyclopedia of Modern Knowledge. Edited By Sir John Hammerton
6 — Popular Science Monthly. June, 1933.

٧ — مجلة المقتطف عدد ١ ، ٢ ، ٣ من المجلد التسعين

(١) المقتطف : وضعنا خطأً في السطر ٩ صفحة ٤٥٨ من هذا البحث (الخزج) مقابلا لمكسيديما منسوبة الى «شرف» والواقع أنها في معجمه أوذيما مخاطية واستسقاء لحمي نقلاً عن الخوارزمي

****

الطاقة الذرية

اطلاقها بأسلوب

جديد بارع

****

هل العالم على عتبة عصر جديد يدخلهُ من ناحية تحقيق حلم طالما ساور اذهان العلماء هو حلم اطلاق الطاقة الذرّية واستخدامها ، مستغنياً بذلك عن الفحم والنفط وغيرها

ولسنا نوجّه هذا السؤال توهماً او تخيُّلاً ، وقد سبق لنا ان نفينا قبلاً ان الطاقة المطلقة من تهشيم الذرَّة اقلُّ من الطاقة المنفقة على عملية التهشيم. ولكننا نوجّههُ اليوم بعد اطلاعنا على نباءِ اسلوب جديدٍ لتهشيم الذرَّة ، كانت فيهِ الطاقة المنطلقة من جرَّاءِ التهشيم اعظم جدًّا من الطاقة المستعملة في احداثهِ ، وقد ذهب وطسن دايفس رئيس « مكتب العلم » بوشنطن الى ان هذه التجارب قد تكون اعظم شأناً من كشف النشاط الاشعاعي نفسهِ

واول ما يريد علماءُ الطبيعة توجيه النظر اليهِ في هذا الصدد ألاَّ يسري الذعر الى نفوس الناس عند ما يقرأُون هذا الخبر بجاراتهم لبعض الروائيين الذين ينزعون الى تصوُّر المستقبل وقد اطلقت فيهِ الطاقة من الذرَّات فاستعملت في تدميره ونسفه

اما الجديد في هذه التجارب فهو ان عنصر الاورانيوم على ما يعلم قرَّاء المقتطف اثقل العناصر اطلاقاً ، وهو عنصر مشعٌّ ينحلُّ من تلقاءِ نفسهِ انحلالاً بطيئاً فتنطلق منه طاقة في خلال هذا الانحلال ولكن العلماء استطاعوا ان يشقوا ذرتهُ فأسفر عملهم هذا عن انطلاق قدر كبير من الطاقة منها ، وكانت وسيلتهم الى ذلك الدقيقة المعروفة باسم النوترون (المحايد) وهي الدقيقة المتعادلة الشحنة الكهربائية التي كشفها شدك الانكليزي من نحو سبع سنوات

فاذا اطلقت النوترونات على ذرات الاورانيوم ، حملت الذرات على ان تنشقَّ فتنطلق منها مقادير كبيرة من الطاقة — مهما تكن طاقة انطلاق النوترونات صغيرة — وقد بلغ مقدار الطاقة المنطلقة من الاورانيوم على النحو المتقدم في التجارب التي تمَّت مائة مليون فولط.

وليست المسألة بسيطة كما يتبادر الى الذهن لأنهُ لابدَّ من اعداد الاجهزة اللازمة لتوليد النوترونات وإطلاقها بحيث تصيب أكبر كمية مستطاعة من ذرَّات الأورانيوم . وهذه

الناحية من العمل لم تبلغ بعد حدًّا بعيداً من الاتقان فاذا أتقنت فالغالب ان يزيد قدر الطاقة المنطلقة على مائة مليون فولط لان الحسابات النظرية تجعل هذا القدر ضعف ذلك

وليس في وسع القارىء ان يدرك مغزى هذا القدر الكبير من الطاقة المنطلقة من انقسام ذرات الأورانيوم بتسديد النوترونات اليها ، الاَّ اذا علم ان أكبر قدر من الطاقة استطاع العلماء اطلاقهُ من ذرَّات مادة ما هو ٢٠ مليون فولط . وقد كان ذلك بتسديد الدوتونات (وهي نوى ذرَّات الايدروجين الثقيل) الى مادة الليثيوم

وقد بدأ الفصل الأخير في رواية تهشيم الذرَّة واطلاق طاقتها ، بمباحث العالم الطبيعي الألماني الدكتور أوتو هان (Hahn) ذلك بأنهُ لاحظ حالة اورانيوم الغريبة عند ما تسدَّد اليه النوترونات . ولكنهُ لم يستطع ان يفسّر ما شاهد . وعرف الدكتور لِز ميتنر (Meitner) والدكتور فرتش من علماء كوبنهاغن عاصمة الدنمارك — وأولهما كان زميلاً للدكتور هان وهو من مشردي العلماء الالمان الآن — بما شاهده الباحث الألماني فاقترحا القول بانقسام ذرَّات الأورانيوم وتحوُّلها الى ذرَّات عناصر أخرى، تفسيراً لهُ .وكان هذا الرأي جديداً ، ولكن البحث أثبت صحته . ولما اجتمع مؤتمر علوم الطبيعة النظرية من عهد قريب في جامعة جورج وشنطن بالعاصمة الاميركية كانت نتائج هذا البحث قد نشرت ، فكان موضوعها حديث رجال المؤتمر . فهبت جماعات الباحثين في موضوع الذرَّة الى البحث والتجريب . وقد قرأنا في عدد رسالة العلم الأسبوعية الصادر في ١١ فبراير ان مباحث جماعات أربع قد أيدت أقوال هان وميتنر وزملائهما في برلين وكوبنهاغن ثم علم أيضاً بعد انفضاض مؤتمر وشنطن ان مختبر نيلز بور Bohr العالم الطبيعي المشهور وحائز جائزة نوبل الطبيعية ، أيَّد النتائج السابقة

أما وقد ثبتت هذه الحقيقة في ما يخص ذرَّة الراديوم ، فليس ثمة ريب في ان الباحثين سيقبلون الآن على تسديد النوترونات الى جميع العناصر الثقيلة ليتبينوا تأثيرها فيها من حيث انقسام ذرَّاتها وانطلاق الطاقة منها في خلال الانقسام

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ، أن الرأي اتجه أولاً الى ان الذرَّات التي تسفر عن انقسام ذرات الأورانيوم بتسديد النوترونات اليها ، انما هي ذرَّات نظير isotope من نظائر الراديوم . فحاول الدكتور هان —وهو من أبرع الكيماويين الطبيعيين في العالم — ان يتبين الراديوم بالكواشف المعروفة فعجز عن ذلك ثم ثبت لهُ ان ما أمامهُ ليس إلاَّ نظائر عنصر الباريوم فظن أنهُ أخطأ الحساب والاستنتاج ، فأدخل تعديلاً على طريقته ، غرضهُ امتحان النتيجة فثبت لهُ ان ذرَّة الأورانيوم تنقسم قسمين متقاربين كتلة ، إحداهما ذرَّة نظير من الباريوم وقد تكون الاخرى ذرَّة نظير الكربتون

المروءة

مصدر مطوي

للدكتور بشر فارس

ذهبت المروءة وجاءت في تآليف العرب حتى انتهى بها الأمر أن وقعت موقع الفضيلة . وقد كثر الكلام عليها لاشتباهها . من ذلك تلك الاقوال التي قيلت فيها والتعريفات التي عرفت بها ، وهي متباينة بل متضاربة (١)

واليك فصلاً فيها من «كتاب الفتوة» لأخي أحمد المحب بن شيخ محمد بن ميخائيل الأردبيلي (وتاريخ وفاته مجهول) . وكثيراً ما يذكر الأردبيلي في كتابه هذا أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (٣٣٠ — ٤١٢هـ) صاحب « كتاب الفتوة » ، ثم القشيري (٣٧٦ — ٤٦٥هـ) صاحب « الرسالة » . فالأردبيلي لاحقٌ لهما إذن . أضف الى هذا ان السلمي والقشيري من المتصوفة . ولذلك تدخل الفتوة، على قلم الاردبيلي، في التصوف ، وكذلك المروءة التي هي شعبة من شعبها في كتاب الأردبيلي . هذا وبين المروءة والفتوة أوجه شبه ، سواء في كتب الادب أو في كتب التصوف

وكتاب الفتوة للأردبيلي لا يزال مخطوطاً . وهو مخزون في دار الكتب لآيا صوفيا ورقمهُ ٢٠٤٩ ، ويقع من صفحة ٩٩ الى صفحة ١٠٧ (٢) . وأما الفصل الذي في المروءة وعنوانهُ « باب في بيان المروّة » فيقع في صفحة ١٠٦ (٣) ب. ف.

---

(١) في كتاب من هذا القلم اسمه « مباحث عربية » يظهر في شهر ابريل من هذه السنة في مصر ، مبحث عنوانه « المروءة : كلمةٌ رمزٌ » . وهذا المبحث يتناول لفظة المروءة من نواحيها المتعددة

(٢) وقد وصف هذا المخطوط المستشرق الاستاذ تيشنر F. Taeschner في مبحثه : Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuwwaideals في مجلة Der Islam ١٩٣٧ المجلد ٢٤ ص ٥٨ . وهذا الباب الذي انشره اليوم قد بعث به الي المستشرق تيشنر ، فله الشكر

(٣) تنبيه : ما يقع تحت هاتين العلامتين [ ] يفيد تصويباً من عندي — هذا وقد حافظت على رسم الحروف في المخطوط ، وأما الترقيم فمن عندي

باب في بيان المروّة

« قوله تعالى : (ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون) (١)

وقال النبي صلّى الله عليه وسلم : (ستّة من المروّة فثلثة منها في الحضر وثلثة في السفر ، فأما اللواتي في الحضر فتلاوة كتاب الله تعالى وعمارة مسجد الله واتّخاذ الاخوان [في] الله ، وأما اللواتي في السفر فبذل الزاد وحسن الخلق وكثرة المزاح في غير معصية الله)(٢)

وقال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : (سبع خصال عماد المروّة : أن لا تقاتل المسلمين الاّ مع امام عادل ، وان تؤمن بالقدر خيره وشرّه ، ولا تطلب من علم النجوم الاّ ما تهتدي به في البرّ والبحر فانّها تدعو الى الكهانة ، ولا تسبّ احداً من المسلمين ، ولا تغلل ولا تغرر)

وقال الحسين بن علي رضي الله عنه : (المروّة صيانة دينه والجهد باصلاح نفسه والقيام على صفة الاحسان مع خلق ربّه).

وقال مالك بن دينار : (المروّة ترك الآثام وصلة الارحام ولطف الايتام وموافقة الملك العلاّم)

وقال السرّي : (المروّة كتمان الفاقة ورفع الحاجة) يعني حاجة غيره

وقال الشبلي : (المروّة ان تختار حقّ غيرك على حقّك وان تختار ربّك على دنياك ولا تختار من الدنيا الاّ الدين ولا من الآخرة الاّ الربّ)

وقال النوري : (المروّة بذل الندى وكفّ الأذى وترك الهوى والزهد في الدنيا وطاعة المولى)

وقال ابو بكر الوراق رحمة الله عليه : (المروّة ثلثة : الخلق والصدق والرفق)

وقال فضيل رحمة الله عليه: (المروّة الاستغناء عن الناس وترك واليك ا وتركاك لواليك؟ الحاجة الى الناس) . وقال : (من اختار الدنيا فلا دين له ومن اختار العقبى فلا مرّوة له او اختار غيره عليه)

(١) سورة النحل آية ٩٠

(٢) هذا الحديث مما لم يدون في أصول السنة : راجع مبحثنا « المروءة : كلمة رمز » المذكور قبل

وقال محمد بن واسع رحمة الله عليه : (المروّة تقديم حقّ الحقّ على حقّ الخلق)

وقال الجنيد رحمة الله عليه : (المروّة ترك معصية الله تعالى حياء من الله تعالى ، والمحافظة على طاعة الله تعالى خوفاً من الله تعالى)

وقال الحكيم : (المروّة ان يعامل الغير بما يرضى لنفسه ، ولا يعمل في خلواته ما يستحيي منه في ملواته [جلواته] (١))

قال ابو اسحق الطبري : (المروّة خمسة اشياء : انصاف من النفس وبذل المال وصلة الرحم والتورّع [عن] الشبهات والحلم عن الجاهل [الجاهل]). وقد جمع الله تعالى ذلك في قوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي)

وقال معمر بن كرام رحمة الله عليه : (من لا حياء له لا مروّة له ، ومن لا مروّة له فلا دين له)

وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : (ليس من المروّة ان يربح الرجل على صديقه)

سئل عن [سئل] البوشنجي رحمة الله على [عليه] : (ما المروّة) قال : (حسن السرّ).
قيل لمعاوية : (ما المروّة) فقال : (اطعام الطعام وضرب الهام)

قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ : (لا وفاء لملول ولا مروّة لكذوب)

قال أبو المحامد رحمة الله عليه : (المروّة على ثلثة اوجه : مروّة القلب ومروّة الروح ومروّة السرّ . فمروّة القلب اجتباب [اجتناب] الريب والتهمة ، ومروّة الروح مخالطة اهل الصدق والحكمة ، ومروّة السرّ ادامة الذكر والخدمة . فعلامة مروّة القلب القناعة بالقسمة، وذلك مذكور في قوله تعالى:(من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينّه حيوةً طيّبة) (٢)، والحيوة الطيّبة هي القناعة . وعلامة مروّة الروح الشكر على النعمة ،وذلك مذكور في قوله تعالى :(اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم) (٣) . وعلامة مروّة السرّ الصبر في اول الصدمة ، وذلك مذكور في قوله تعالى:(وبشّر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا انّا لله وانّا اليه راجعون) (٤). »

(١) « الخلوة : محادثة السر مع الحق حيث لا ملك ولا احد سواه — والجلوة: خروج العبد من الخلوة بالنعوت الالهية » عن « اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية » ص ٨ تحت ، طبع ذيلا لتعريفات الجرجاني ، مصر ١٢٨٣

(٢) سورة النحل آية ٩٧ (٣) سورة البقرة آية ٤٠ (٤) سورة البقرة آية ١٥٥ ، ١٥٦

الروابط القديمة

بين بلاد العرب والقطر المصري

للدكتور حسن كمال

مدير الصحة القروية والدعاية الصحية بوزارة الصحة

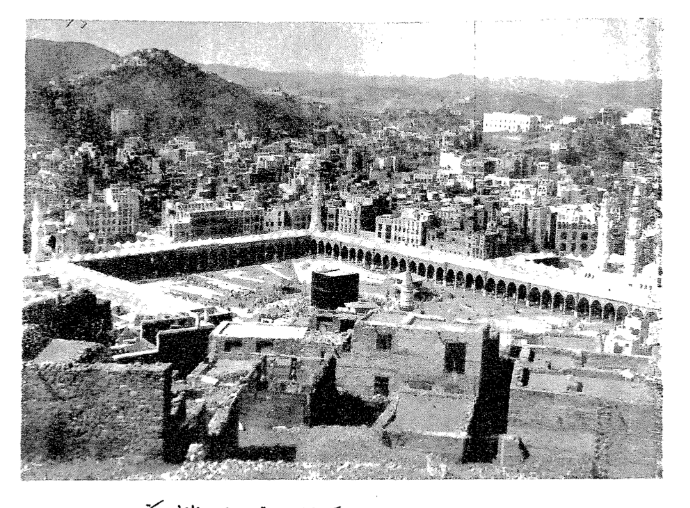
يؤدّي فريضة الحج كل عام حوالي العشرة آلاف نسمة من سكان القطر المصري لأنها الركن الخامس للأسلام فهي واجبة شرعاً على كل مسلم . لكن كلما عاد الحاج المصري المثقف الى وطنه خالجتهُ الرغبة في معرفة الروابط التاريخية القديمة التي كانت تربط القطر المصري بالقطر الشقيق والتى يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام

اما ان هناك روابط عديدة وحوادث تاريخية هامة ونظريات علمية خطيرة ذات علاقة بالموضوع فأمر معروف لدى المشتغلين بالآثار . ورغبةً في اظهار هذه الروابط رأيت ان أجمع الهام منها راجياً بذلك أن أسد فراغاً تتوق اليه أنفس كثير من الباحثين

على الرغم من الرأي الحديث القائل بأن المصريين الاقدمين نشأوا وترعرعوا في القطر المصري ذلك الرأي الذي يطلق عليه الاثريون لفظ (Antochthonism) — فأن هناك اسانيد هامة تشير الى ان المصريين الاقدمين وسكان بلاد العرب من اصل واحد — وهناك رأي كذلك بأن المصريين أتوا من بلاد العرب عن طريق باب المندب فالسودان يعزّز ذلك اولية الجنوب عند قدماء المصريين واشتراك العرب والمصريين في قنا الأنف ودبدبة الذقن ونعومة الشعر

اما رابطة اللغة فأني اترك فيها الكلام للمغفور لهُ احمد كمال باشا الاثري حيث ذكر في (مقتطف سبتمبر سنة ١٩٢١ ص ٢٦٣) تحت عنوان بحث لغوي ما يأتي : —

« ان المصريين القدماء ارادوا تخليد ذكر اصلهم فأثبتوه بالحفر على آثارهم قائلين ان اجدادهم يدعون الاعناء (جمع عنو) اي انهم اقوام من قبائل شتى اجتمعوا في وادي النيل وأسسوا فيه مدناً كثيرة منها مدينة عين شمس ويقال لها بالمصرية العين البحرية ومنها العين الجنوبية وهي



المسجد الحرام بمكة . وترى فيه الكعبة الشريفة و بعض منازل مكة

[تصوير الدكتور حسن كمال سنة ١٩٣٩]

ارمنت ومنها عين التي سميت فيما بعد دندرة . ولما نموا وكثروا تفرقوا في الجهات المجاورة لوادي النيل ففريق منهم وهو المعروف باسم اعناء (الحنو") او اللوبيين توجهوا الى بلاد القيروان وتونس والجزائر وسكنوا فيها وفريق آخر يسمى اعناء (المنتو) هاجر الى بلاد الصومال واجتاز البحر الاحمر الى بلاد العرب وانتشر ممتدًّا الى فلسطين . وفريق ثالث يسمَّى اعناء(السيتو) سكنوا القسم الجنوبي من مصر حيث جنادل النيل . وفريق رابع ويقال له اعناء (الكنوز) وهم اهل النوبة . وهكذا تفرق الاعناء وتوطنوا الجهات التي ذكرناها وبثوا فيها لغتهم مدة من الدهر فكانت هي لغة البلاد التي تتكلم الى الآن بالعربية . فاللغة المصرية اي لغة قبائل الاعناء التي سكنت مصر وما جاورها من الاقاليم هي اصل اللغة العربية بلا مراء ، وعلى هذا الاساس ارجع سعادتهُ في معجمه الضخم كل كلمات اللغة المصرية القديمة الى اللغة العربية

واستنتاج سعادته أي من نصوص الدير البحري — وهو يعزز نظرية النشء الذاتي Autochthonism ومع انه لا يتعارض مع نظرية ارجاع المصريين الاقدمين الى بلاد العرب ومجيئهم من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر إلاَّ انهُ يرجع بالعنصرين المصري والعربي الى أصل واحد بل ولغة واحدة

***

وكم كنا نودّ لو اجريت المباحث الخاصة بالنسب الدموي على عدد كبير من المصريين والعرب لعلنا نستوثق من هل غالبية هذين العنصرين ترجع الى أصل واحد كما هو المظنون . وقد ساهم الاستاذ الفاضل الدكتور علي بك شوشه مدير مصلحة معامل الصحة في بحث هذا الموضوع وشرحه في بعض محاضراته وكذلك الدكتور محمد شرف بك . ونحن نتقدم هنا الى شوشه بك طالبين منهُ ان يضحّي ببعض وقته فيصرفه في تحليل دماء عدد كافٍ من المصريين والعرب علّهُ يصل بنا الى نتيجة علمية حاسمة

هل غزا العرب مصر في اواخر حكم الاسرة الثامنة ؟ (حوالي ٢٤٤٥ ق . م) هذا السؤال لا يزال يتكهن به بعض الباحثين أمثال فلندرز بتري . والمعروف انهُ لما سقطت الاسرة الثامنة تفككت عرى الحكومة المصرية وعمت الفوضى البلاد وساد فيها التلف وكثر الخراب . اما الأشخاص المسؤولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم. ويظن الاستاذ بتري انهم كانوا من عنصر عربي غزا مصر عن طريق برزخ السويس كما يستنتج ضمناً من آثار الملك (خيان) الذي تمصر وادَّعى انهُ حكم جميع القطر المصري كما ادَّعى بعده الرعاة لما دخلوا مصر . وقد عثر على الجزء السفلي لتمثال هذا الملك بمعبد تل بسطة . وهو مصنوع على شكل التماثيل المصرية

القديمة ومن الصوان الاسود . كما عثر على صخرة بجبلين منقوش عليها اسم هذا الملك داخل خانة ملكية وغير ذلك من الآثار . وقد نعت هذا الملك بأنه « امير الجبال » — ويعني امير الصحراء — فهو والحالة هذه يشير الى الحكم الصحراوي . وتل بسطة من اوائل الاماكن المصرية التي يحتلها الاجنبي عند دخوله القطر المصري ، ويلي هذا الملك ملك آخر يقال له (خنزر) وملك ثالث اسمه (يعقوب حر) . وهذه الاسماء الثلاثة اجنبية وليست مصرية . اما الاستاذ برستد فينسب هذه الملوك الى عهد الهيكسوس او الرعاة الذين دخلوا مصر حوالي ١٧٠٠ق.م) وحكموها ومكثوا بها حتى عام ١٥٨٠ ق . م . وقد قال يوسيفوس (Josephus) ان الهيكسوس هم بنو اسرائيل فاذا كان هذا الرأي صحيحاً — وهو على الارجح غير صحيح — فان خروج الهيكسوس من مصر يكون عبارة عن خروج بني اسرائيل . ولم نعثر حتى الآن في آثار هذا العهد عن ذكر لبني اسرائيل قط . وعلى ذلك فيجب اعتبار الهيكسوس غير بني اسرائيل

والهيكسوس او الرعاة من اصل عربي بدليل قول الاستاذ برستد ان معرفة وطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم ليس صعباً وان الغالب ان رواية (مانيتون) القائلة بأن هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة

***

والثابت ان اهالي بلاد العرب كثيراً ما هاجروا الى سوريا . ولذلك لا يبعد ان هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوي وكوّنا مملكة واحدة . وليلاحظ ان السوريين الذين أتوا الى القطر المصري ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٩ — ١٧٨٨ق.م) كانوا متمدينين راقين كما ان حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر أثبتت وجود حضارة عظيمة هناك . والظاهر ان انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في اهالي فلسطين وسوريا استمرت عدة اجيال بعد بسط النفوذ المصري عليها . ولذلك نجد بين اخبار حروب مصر بتلك الجهات بعض معلومات عن امبراطورية الهيكسوس التي تضعضعت

اما هجرة سيدنا ابراهيم من بلاد العراق الى كنعان فحصلت حوالي ١٦٠٠ق.م . ولم نعرف بالضبط تاريخ دخول بني اسرائيل القطر المصري ولا مدة مكوثهم بهِ . لكن يستدل من نصوص الكتاب المقدس ان تاريخ الخروج كان سنة ١٤٩٠ ق . م . وخطابات تل العمارنة التي يرجع تاريخها الى (١٤١٥ — ١٣٦٢ ق . م .) — في عهد اخناطون — تشير الى وجود (عابريا) ؟ العبرانيين في فلسطين

وفي سنة ١٢٢٥ ق . م . قامت ثورة ضد ملك مصر (منفتاح) في فلسطين اخمدت . وورد

ضمن اخبارها « ان الاسرائيليين ابيدوا ولم يبق لهم بذرة » . وفي سنة ١٠١٠ ق . م استولى سيدنا داود على مدينة بيت المقدس وفي عام ٩٣٠ ق . م نهب المصريون بيت المقدس. وفي عام ٥٨٦ ق . م سقطت بيت المقدس في ايدي البابليين. وفي عام ٣٣٢ ق.م خضع العبرانيون لسلطة اسكندر الاكبر . وفي عام ٣٢٠ ق . م استولى بطلميوس على بيت المقدس

***

هذا باختصار بيان بعلاقة مصر القديمة بشمال بلاد العرب حتى عهد بطلميوس الاول — وهي علاقة يعوزها الكثير من البحث والاسانيد والمراجع الوثيقة وغير ذلك . وعلى كل حال فهذا هو كل ما يمكن ان يقدمهُ الكاتب للقارىء في ايجاز يناسب المقام

بقي علينا بعد ذلك ان نبحث في علاقة بلاد العرب بالقطر المصري القديم في العهد اليوناني وقد وفى الاستاذ (تارن — Tarn) هذا الموضوع حقهُ في مجلة العاديات المصرية (عام ١٩٢٩ ص ١٠ — ٢٥) نقتطف منها ما يأتي مما يهم القارىء معرفته : —

لاشك ان معلومات اسكندر المقدوني عن شبه جزيرة العرب وحجمها كانت ناقصة جداً لانهُ أمر هيرون (Hieron) ليطوف حول شبه جزيرة العرب من بابل الى هيروبوليس (خليج السويس) فقام بحراً حتى وصل رأس مسندام فقط وقفل راجعاً وذكر في تقريره ان بلاد العرب لابد وان تكون كبيرة كبلاد الهند . وفي الوقت نفسه امر اسكندر المقدوني بارسال بعثة بحرية للطواف حول شبه جزيرة العرب من خليج السويس الى خليج الفرس فوصلت هذه البعثة حتى باب المندب وقفلت راجعة ايضاً لقلة الغذاء والماء على الارجح ، وقد ذكرت البعثة الاخيرة ان المسافة بين السويس وباب المندب تبلغ ١٤٠٠ فرسخ يوناني وهو تقدير قريب جداً من الصواب اذ انها في الحقيقة ١٣١٢ فرسخاً يونانياً (Stades) . ولما وصلت البعثة الى حضرموت سمعت بوجود ممالك عربية على الساحل العربي مثل مهرا وحضرموت وسبأ

وفي عهد بطلميوس الثاني (٢٨٣ — ٢٤٧ ق . م) عُهد الى بعثتين لاكتشاف ساحلي البحر الاحمر الشرقي والغربي بدقة وعناية اما البعثة التي قامت باكتشاف الساحل الشرقي.فوصلت الى باب المندب وكانت تحت رئاسة ارستون (Ariston) الذي وردفي مذكراته اقدم ذكر لنجود في النصوص اليونانية

***

ولنبحث الآن في سرّ اهتمام اليونانيين بجزيرة العرب . لاشك ان اليونانيين وغيرهم من الممالك المجاورة كانوا كثيري الاهتمام بالاستيلاء على شمال بلاد العرب لان تجارة العطور

كانت تأتي من الهند والشرق الاقصى الى جنوب بلاد العرب بالسفن وتنتقل منها بواسطة القوافل عن طريق سبأ ويثرب (المدينة المنورة) متبعة بعد ذلك طريق السكة الحديد الحجازية حتى (العلا) و(ميدان صالح) ومن ثمَّ تتفرع الطريق فرعين فرع يتجه نحو (غزة) والآخر نحو (طبرة) و(دمشق) . هذا هو السر الذي من اجله ناضلت مصر نفوذ بابل في شمال بلاد العرب وقتئذٍ

***

الى هنا انتهى ما اردت ذكره عن العلاقات القديمة بين شبه جزيرة العرب والقطر المصري بعد ذلك يأتي العهد الروماني والاسلامي وهما معروفان

ولكن قبل الفراغ من هذا البحث يجب ذكر شيء عن رابطة الدين فالمعروف من الآثار المصرية ان الديانة المصرية قبل حكم الاسر كانت تتركز في التوحيد. فقد قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين ص ٥١) ما يأتي : —

لا شك ان سلف اهل مصر كانوا يعتقدون وجود الهواحد يرى ولا يُرى ومعبود صمديٌّ قديم ازليٌّ لا اول له ولا آخر وانهم كانوا يقدسونهُ باجلال نعمه الجليلة ويتقربون اليهِ بعمل الحسنات واجتناب السيئات وبمعرفته واداء شعائر عبادته وانهم ارتقوا في مادة معنى الالوهية الى درجة قصوى . وقد ورد في آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله تعالى وقدرته واحواله وصفاته منها — كل شيء خلقهُ الله العظيم بنفسهِ — ومنها — خالق الكائنات والاشياء — ومنها — الخالق لكل مخلوق الذي لم يخلق (وهو) فاطر السماء والارض . — ومنها — الموجد لكل ما يكون أما ما لم يكن فهو في مكنون علمه — ومنها الله معبود باسمه الأزلي خالق الأرواح في الاشباح — ومنها يمضي الدهور وهو باق دائماً — ومنها — ذو الازلية الذي يمضي دهوراً لا تمضي وهو على حالة وجوده — ومنها — ذو الازلية الذي لا حدَّ له — ومنها — لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد — ومنها — لا تدركه الابصار — ومنها — سميع لمن يتضرع اليهِ — ومنها — الذي يكون والذي لا يكون مختص به — ومنها ما ورد في معنى التوحيد — الواحد الذي لا شريك له

وقد وافق على اعتقاد المصريين بوحدانية الله كثير من علماء اللغة المصرية القديمة — أما تعدد المعبودات التي قالت بها الآثار فليست إلاَّ أمراً ظاهريًّا قصد بهِ بيان مظاهر الذات العلية ليس إلاَّ »

وهكذا — حتى في الديانة — بدأ أهل مصر وأهل شبه جزيرة العرب نشأتهم بالتوحيد وانتهوا بنفس العقيدة على يد سيد المرسلين عليهِ أفضل الصلاة والتسليم

سير الزمان

الفلسفة الماركسية

في الاجتماع والسياسة والاقتصاد

لعلي أدهم

الفلسفة الماركسية

في الاجتماع والسياسة والاقتصاد

لعلي أدهم

الشيوعية مذهب في الاقتصاد وخطة في السياسة وعقيدة فلسفية تدين بها في العصر الحاضر دولة عتيدة كثيرة السكان مترامية الاطراف ، وتحاول تثبيت قواعدها وبسط سلطانها ، ولا معدى لنا اذا حاولنا ان نتعرف طبيعة العصر الحاضر ونلم بمشكلاته البارزة وسياساته المتعارضة من ان نختبر في نزاهة ودقة تعاليمها ودعاويها واتجاهاتها ووعودها ، وقد يتراءى للبعض ان الكتابة عنها تزيدها انتشاراً وتأييداً ولكنني لاارى صواب هذا الرأي ، ولو جارينا القائلين به لأمسكنا عن دراسة الكثير من مسائل الفكر ومذاهب الفلسفة ، وفي الشيوعية كما في سائر المذاهب الفلسفية جوانب صادقة وبها كذلك جوانب من النقص والزيف والباطل ، وبين دعاتها رجال خلقوا من طينة البطولة واحتملوا في سبيل عقيدتهم ألم التشريد والنفي وغضاضة الحاجة ومرارة الحرمان ولكن اصدق الناس اخلاصاً واصفاهم نية قد يقع في الخطأ ويتصور المحال ، وكثير من الآراء التي شقيت من جرائها الانسانية لم تصدر عن اشرار الناس وانما أذاعها قوم لا سبيل الى الشك في صدق سريرتهم ، والشيوعية ترى قلب النظام الاجتماعي وترى الحالة الحاضرة ظالمة فتاكة وانها ستفضي بالعالم الى الفوضى وتؤدي به الى الخراب والدمار فهي اذن امر خطير يستوجب التروية وانعام النظر ، وليس من الحق ان نفرض ضرورة بقاء النظام الحالي وامتناعه على التغيير فالتاريخ كله حركة تحوّل مستمرة ولكنهُ في نفس الوقت ليس سلسلة انقلابات مفاجئة وثورات طارئة وانما هو حركة تطور تندر فيها الثورة

والشيوعية مثل الفاشية تحاول التوفيق بين السياسة والاخلاق وهي تفسير خاص للحياة وطبيعة الوجود وهي تتضمن نظرية للمعرفة وفلسفة للتاريخ

والشيوعية من حيث هي نظرية متماسكة ومذهب فلسفي كان يطلق عليها في اول امرها اسم « المادية الجدلية » وتشير هذه التسمية الى تفرعها من فلسفة هجل ، ويذهب هجل الى ان تقدم الفكر وسائر الاشياء انما ينشأ من الصراع بين العناصر المختلفة المتناقضة، ولنظريته جانبان فهي من جانب تصف الطريق الذي اجتازته الاشياء الى الوجود. ومن جانب آخر تصف السبيل الذي ينبغي سلوكه

اذا اردنا الخلوص الى حقائق الاشياء، ويرى هجل ان العمليتين عملية تقدم الاشياء ونمائها وعملية الاهتداء الى الحق — يكونان جانبين مختلفين للحقيقة الواحدة ، وكارل ماركس يرى اسبقية الجانب الاول ولكن هجل يعزو الاسبقية الى الجانب الثاني . وكل نزعة من النزعات في ابان انتصارها تعمل على خلق نزعة معادية لها ولا تزال هذه النزعة الجديدة تشتد وتقوى حتى تتغلب عليها وتجليها عن الميدان، ومن أمثلة ذلك النزعة الفردية في القرن التاسع عشر فقد بلغت القمة وأوفت على الكمال ولكن انتصارها الباهر كان مدعاة الى خلق النزعة الاجتماعية التي قاومتها وقضت على نفوذها

وكان هجل يعتقد ان القوة الدافعة في هذه العملية قوة فكرية صرفة ولكن ماركس أنكر عليه ذلك لأنهُ بماديته الصميمة كان يرى ان الافكار ان لم تكن أفكاراً صادرة من عقول خاصة فهي أوهام عديمة القيمة. وكان يستمسك بالنظرية المادية التي ترى ان الافكار نفسها تتكون من تأثير البيئة وانعكاساتها ، والافكار التي تقوم بالعقل انما منشؤها الاحداث والحركات التي تعرض في العالم خارج العقل ، فكوائن العالم العضوي هي التي تخلق الحوادث في عقل الانسان ومن ثمَّ تحتم الحركة التي نسميها « التاريخ » وعقل الانسان جزء من هذه الحركة ولكنهُ ليس هو المبتكر لها

ويمزج ماركس المذهب المادي بطريقة هجل الجدلية ويستخرج من هذا المزيج تفسيره للتاريخ وتعليله لحوادثه . وملخص نظريته ان الحوادث تنشأ من الصراع بين النزعات المتباينة، ويمكننا ان نصل الى لباب التاريخ بتفهم النزعتين المتصارعتين ، وكما أننا في عالم الفكر اذا اقتفينا أثر نزعة من النزعات لامفر لنا من الانتهاء الى نقيضها فكذلك في عالم الواقع يقتضي نجاح نزعة من النزعات ظهور النزعة المناوئة لها فنظام الاقطاع مهد السبيل لظهور الرأسمالية ، والنظام الرأسمالي يوحي الى الطبقات الفقيرة الشعور بالتفاوت بين الطبقات وبذلك يطبع السلاح الذي يحارب به ويملي للقوة التي تقضي عليه، والقوة الدافعة وراء العملية الجدلية — في زعم ماركس — ليست عقلية وانما هي حادثة طبيعية مادية ، وليست ارادات الناس ولا أفكارهم هي التي تغير وجه التاريخ وتهيمن على اتجاهاته. وانما هي الفواعل الطبيعية وتكشُّف المواد الخام ومبتكرات الصناعة ، ولما كانت فكرة الاختراعات وتأثيرها البعيد في الفنون والصناعات قد تظهر قوة الفكر الانساني في توجيه الحوادث وصياغة التاريخ لذلك عني ماركس بأن يوضح ان الاختراعات لا تثب من عقل المبتكر تامة التكوين ناهضة الجناح وان ما يبتكره الناس في الواقع لا يبتكرونهُ من تلقاء أنفسهم وبتفكيرهم الفردي وانما يمهد لهم سبيله ويذلل لهم عصيه طبيعة المشكلات التي تستقبلهم بها الظروف المطيفة بهم والأحوال العارضة لهم وفضلاً عن ذلك فان طوارىء العصر وبوادر الأحوال هي التي تخمل الاختراع وتهمله او تذيعه وتعلي شأنه وتعمل على اصلاح عيوبه واستكمال نقصه

ويرى ماركس ان أساس المجتمع قائم على انتاج الوسائل التي تصون الحياة البشرية وتدفع عنها غوائل الحاجة وتوزيع ذلك الانتاج انقسام المجتمع الى طبقات أساسه طريقة توزيع

الانتاج والاسباب النهائية لكل التغيرات الاجتماعية والثورات السياسية لا يبحث عنها في عقل الانسان واهتدائه الى الحقائق الخالدة وادراكه للعدالة وانما في تغير أساليب الانتاج والمبادلة ولا تلتمس في فلسفة العصر وانما في اقتصادياته،فاذا اصبح باطلاً ماكان يراه الناس حقاً وصار ظلماً ماكان يراه الناس عدلاً فانما سبب ذلك التغيرات الصامتة التي تطرأ على طرائق التوزيع والانتاج وتجعلها منافرةللنظام الاجتماعي السائدالذي يرتكز على اسس اقتصادية قد غمرها التغير وهذا التنافر الذي يؤدي الى نسخ نظام المجتمع وتعديل اسسه ليس وليد الذهن او سليل الرغبات الانسانية وانما مصدره الانتاج وهو مسألة ليست مستقرة في عقولنا وانما هي قائمة خارج عقولنا ومستقلة عن ارادتنا واعمالنا والاشتراكية الحديثة ان هي الا انعكاس هذا الصراع في العقول

ومقومات الحياة الثقافية وخصائص المجتمع الاخلاقية والدينية واتجاهاته القانونية والفنية جميعها في رأي الشيوعية مشتقة من الاصول الاقتصادية ، وادوار التاريخ المتعاقبةمنشؤها صراع الطبقات والطبقات المتصارعة من نتاج الاحوال الاقتصادية

وعلى هذا النمط من تحليل بناء المجتمع وعناصر تكوينه وتفسير التاريخ تقوم الافكار الشيوعية وترتكز اسس المذهب ومن منابتها تتفرع فروعه وتطرد احكامه

والانسان لاجل ان يحصل على القوت الذي يقيم اوده ويستحضر الثياب التي تقيه طوارىء الجو وتقلباته قد تعوّد ان يتناول المواد الخام ويحتال فيها حيلته ويعمل فيها فكره لتواتي حاجته وتفي بمطالبه وتشبع غرائزه ومن ثمّ تنشأ علاقة بين الانسان وبين الاشياء وهذه العلاقة بضرورة الحال تتضمن كذلك العلاقة بين الانسان والانسان لان طبيعة تناول تلك المواد تستلزم التخصص وتوزيع العمل وعلى مدى الايام ينهض في آثار ذلك حقوق وامتيازات يدعيها بعض القوم لينفردوا باستغلال بعض الاشياء ويذودون عنها الغير ومن هنا تنشأ الملكية من ناحية والحرمان من ناحية اخرى ، ويرى المالكون ان الاشخاص المجردين من حقوق الملكية يمكن استخدامهم في الاستغلال تحت اشرافهم ورقابتهم لقاء اجر زهيد يدفعونهُ لهم . وقد نشأت من اساليب الاستغلال تلك الصور المختلفة في معاملة الانسان للانسان ، وتلمح من ذلك ان العلاقة بين الناس في مختلف العصور قائمة على اسلوب تملك الاشياء وطريقة تناولها وصنعها وقد ظلت تلك العلاقة طوال العصور المنصرمة ثابتة في جوهرها . ومن جرائها انقسم المجتمع الى فريقين كبيرين يتبادلان العداوة والبغضاء ، وعلاقة الاستغلال ولو انها لم تتغير في الجوهر ولكنها مع ذلك قد اخذت صوراً متعددة ويميز كارل ماركس من بينها ثلاثة انواع رئيسية حدثت في تطور المجتمع التاريخي فهناك الأستغلال الذي اتخذ صورة الرق والاستعباد . وهناك استغلال عهد الاقطاع وقد تلتهما صورة الاستغلال في عهد الرأسمالية والاستغلال ظاهر الظهور كله في الصورتين المتقدمتين سواء في علاقة العبد بسيده او الامير الاقطاعي برعيته وفي العصر الرأسمالي ظلت العلاقة

واحدة في الجوهر ولكن يخفي أثرها ويلطف من وقعها بيع المنتجات لا استعمالها المباشر ووجود الوسطاء بين المنتج والمستهلك وذيوع الحرية السياسية وسريان المبادىء الديموقراطية وتقدم الجماعات رهن بتغير العلاقة بين الانسان والاشياء او بلفظ آخر يتوقف تقدمها على الاسلوب الذي يتناول بهِ الانسان المواد الخام ويحيلها سلعاً تنهض بحاجته وتتكفل بمطالبه ومن آونة لاخرى تنبغ في عالم الصناعة مستحدثات تستتبع صوراً جديدة في المجتمع وكلما سمت الاختراعات في معارج الرقي وكبر نصيب الناس من البراعة الصناعية واستفاضت المعرفة واستنارت الافكار استلزم ذلك صوراً جديدة للنظام الاقتصادي

وسنن الآداب وقواعد السلوك وشرائع القوانين في مختلف المجتمعات تنم على حقيقة النظام الاقتصادي السائد لانها نشأت تبعاً لحاجات الطبقات المتحكمة المستغلة وهي ترمي من ورائها الى تحبيذ العلاقة الخاصة بين الطبقتين وتسويغ استغلال احدى الطبقتين للطبقة الاخرى، وجميع النظم السياسية ومذاهب التشريع مرتبطة بالنظام الاقتصادي فهي ثمرته ومرآته معاً، وقد كانت العبودية مباحة ومعترفاً بها في المجتمعات التي كانت تستغل العبيد. ومن ثمَّ يرى ماركس ان ركون الطبقات المستغلة الى التماس الحق وتعويلها على نشدان العدالة امر لا غناء فيهِ ولا رجاء في مخايله لان تلك العدالة المنشودة قائمة على افتراض صحة النظام الذي يثورون بهِ ويخرجون على ممثليه وليس هناك عدل مطلق ولا حق مجرد — كما يرى ماركس — وانما هناك معايير للحق وتصورات للعدالة ومن بين تلك المعايير والتصورات ما يسوّغ وجهاً خاصًّا من وجوه التقدم الاقتصادي ويرى صلاحه ومطابقته للحق ومسايرته للعدالة

ويقف الشيوعيون من الدين موقفاً بعيداً عن الاعجاب والتقدير بل هم لا يحجمون عن مقاومته وشن الغارة عليه والعمل على تقويضه لأنهُ في عرفهم ضرب من ضروب المخدرات التي تراخي العزيمة وتثلم النشاط وتغري بالزهادة والاستسلام، وهم يرون ان الطبقات المتمولة قد اتخذت الدين وسيلة من وسائلها التي تستعين بها على حشد عقول الطبقات الفقيرة بالأوهام والخرافات وتصرفها عن مجابهة الحقائق وادراك ما ينصب لها من الاشراك وما يحاك لها من الدسائس ويسترعي الشيوعيون النظر الى ما ورد في الكتب المقدسة عن تحبيذ القناعة ومدح التواضع والخشوع وذم الكبرياء والجبروت

ونظر الشيوعيين الى الآداب والفنون وسائر ألوان الحياة الفكرية متأثر بمذهبهم في الاقتصاد والأدب عندهم لا ينظر اليهِ منفصلاً عن السياسة والاقتصاد لأن الأدب الحق في زعمهم هو الذي يزيد الحياة قوة، ولما كانت حياة الانسان ممتزجة بحياة المجتمع وتقوية الحياة تتطلب تسهيل توزيع النشاط الانساني بحيث يثمر ثمرته المرجوة ولا يذهب عبثاً لذلك يرى الشيوعيون ان الأدب الذي ينمو عالقاً بأغصان شجرة الرأسمالية نموًّا فضوليًّا هو أدب قليل المنفعة زهيد

القيمة والأدب الجيد هو الذي يدعو الى زيادة الانتاج الانساني ويعاون العناصر التي تعمل لتحقيق ذلك فمادته اذن الدعاية ودعايته متجهة الى محاولة التغيير المبدع الخالق وقيمة أدب الماضي هي في أنهُ يقدم لنا صوراً أمينة للظروف الماضية وأحوال الطبقات في العصور الخوالي والادب في العصر الحاضر يجب أن يعين على احداث الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وهم يؤثرون الأدب القريب من لغة الشعب وتصوراته ولا يرتضون الروايات التي تدور حول حياة الافراد وانما يفضلون الروايات التي تصف صراع الطبقات لانها تمهد سبيل التقدم نحو الاشتراكية

ويرى الشيوعيون ان الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية لا يتم بالطرق السلمية ولا مناص فيه من اصطناع الشدة واستعمال العنف والقهر وذلك لان النظم السياسية والقانونية والأدبية القائمة على أساس اقتصادي خاص تولد في النفوس الرغبة في الدفاع عنها والاستبسال في سبيلها حتى عندما يكون ذلك الأساس الاقتصادي قد آذن بالسقوط وأشرف على الزوال ، وكل نظام سياسي قد منح طبقة خاصة حقوقاً تحرص عليها وتستمسك بها لا يمكن تبديله دون الاستهداف لمقاومة الطبقة المستمتعة بامتيازاته والمحتكرة لخيراته وهي تحاول ان تقنع الناس من طريق اشرافها على تربية النشء ان النظام الراهن كفيل بتحقيق العدالة وان الخير في بقائه وحياطته وهكذا يبقى النظام السياسي جامداً في حين ان الاختراعات الحديثة في عالم الانتاج قد جعلت الحاجة الى تغييره شديدة ملحة ويقع في روع الطبقات الفقيرة ان وسائل الاقناع واساليب الديمقراطية غير شافية ولا مقنعة وأنهم مضطرون الى احداث الانقلاب بالقوة والصدام

ويرد الشيوعيون الحرب الكبرى الى اسباب اقتصادية وذلك ان قوى الانتاج كانت في تقدم مستمر وزيادة مطردة في حين ان النظام الاجتماعي الراهن ظل بغير تعديل وترتب على ذلك ان أثمان السلع ارتفعت الى ثمن لا يمكن المجتمع من استيعابها جميعها فاشتدت من جراء ذلك الحاجة الى المنافسة لفتح اسواق جديدة تحت ستار الاستعمار وانتج ذلك الحرب

وظهور قوة الطبقات الفقيرة له نظائر في التاريخ لأن كل طبقة استأثرت بالنفوذ استدعى وجودها ظهور طبقة مناوئة لها وهذه الطبقة تزحزحها في النهاية عن مكانتها وتغتصب نفوذها ولكن اشتداد قوة الفقراء في العصر الحديث طراز فريد من الحركات الاجتماعية لان نزاع الطبقات في العصور السالفة كان ينتهي بتغلب طبقة على طبقة واما انتصار طبقة الفقراء في العصر الحديث فانها ستؤدي الى خلاص الانسانية وتقضي على نظام الطبقات وهذا هو مصدر قوة العقيدة الشيوعية لأن انصارها لا يعملون لتغليب طائفة وانما يعملون لتحرير الانسانية ويشعل هذا الاعتقاد حماستهم ويبعث في نفوسهم حب التضحية والتفاني في التبشير بالمبدأ وتدعيم العقيدة

ويرى الشيوعيون ان تحرير الانسانية والغاء الطبقات وازالة الفوارق الاجتماعية يستلزم فترة تمهيدية تستولى خلالها على أعنة الحكم ديكتاتورية جريئة لا تحجم عن استعمال القسوة

والارهاب توطيداً لمكانتها ودفاعاً عن حوزتها ومتى استقرت الاحوال وزال الخطر بطلت وظيفة الحكومة وانتهت مهمة الديكتاتورية

ويشك الشيوعيون في نجاح الديمقراطية لانها في عهد الرأسمالية لا يمكن الاَّ ان تكون خيالاً لا حقيقة له وما دامت اكثرية الناس من الطبقات الفقيرة التي لا تملك شيئاً فمن العبث الكلام عن الحرية الفردية او قدرة الفرد على التأثير في نظام المجتمع الذي يعيش فيهِ، ولا حرية لمن لا يمتلك شيئاً ومهما تكن الحكومة ديمقراطية فان النفوذ سيظل في يد المسيطرين على القوى الاقتصادية لاستيلائهم على وسائل الانتاج الصناعي ، ولا نزاع في انهُ مما يبعث الارتياح والسرور ان يباح للانسان حرية النقد والمناقشة ولكن الذين لا يتغذون تغذية صالحة او يرهقهم العمل المضني لا يرون في حق الاستمتاع بالنقد سوى نوع من الترف لاقبل لهم بهِ ولا رغبة لهم في تذوقه لانهم احوج الى ملء بطونهم منهم الى تحريك ألسنتهم وما دام ينقصهم القوت فهم زاهدون في الحرية ، وحرية التفكير وحرية المناقشة والبحث والتعبير عن الرأي هي أنفس ذخائر الديمقراطية وأسطع آياتها ولكن الشيوعيين يشكون في وجودها وينكرون قيمتها وهم يرون ان الرأسمالية اذا اشتدت بها الازمة وعضتها الحاجة فانها لا تتردد في الغاء هذه الحرية الوهمية وتظهر على حقيقتها سافرة غير متوارية ويضربون لذلك مثل الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا والشيوعية في نظرهم هي وسيلة انقاذ الحضارة في هذا العصر المضطرب الجائش لأن الرأسمالية ستظل في كفاح عنيف وتظل دولها يصارع بعضها بعضاً صراعاً ينذر بأسوإ النتائج ويقوض العمران ويعصف بثمرات الحضارة

ولعل أقوى نقد يوجَّهُ الى الشيوعية هو قيامها على طريقة هجل الجدلية لأن هذه الطريقة صحيحة من ناحية المنطق وما وراء الطبيعة ولكن تطبيقها العملي على الشؤون الدنيوية والحوادث التاريخية لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والاساءة الى التاريخ ، وعند ما نعرض حوادث التاريخ نرى أنها لا تطابق تمام المطابقة الأسلوب الجدلي الذي يقول بهِ هجل والتاريخ مزيج من الضرورة والحرية والنظام والمصادفة والعوامل الهامة الأساسية وكذلك الحوادث التافهة الزهيدة وتياراته مختلفة وعواصفه كثيرة فالطموح له أثره في توجيه التاريخ وكذلك الدسائس والغيرة والمسائل الجنسية والحماسة الدينية والهوسة المثالية ولا يمكن تجاهل اثر الأفراد البارزين الذين نسميهم « ابطال التاريخ » واخضاع التاريخ لعامل واحد يقتضي تجاهل الكثير من حقائقه والالتواء في تفسير حركاتهِ وشؤون الحياة الانسانية ليست جميعها خاضعة للمنطق مترسمة لخطواته ولها ظلال مختلفة وملابسات كثيرة وتاريخ الانسانية يتوقف على كثير من المصادفات التي لو تغير بعضها لتغيرت قصة التاريخ واختلف سير الزمان ومسألة تنازل الديكتاتورية التي تنشأ عقب الثورة الشيوعية عن امتيازاتها وسلطتها امر غير منظور ومن الصعب التسليم بهِ والاعتقاد بصحتهِ



التربين

THE TURBINE

للشاعرة الاميركية هاربيت مونرو

نقلها : زهدي الناجي الفاروقي

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني

« التربين »

THE TURBINE

للشاعرة الاميركية هاريت مونرو

[التربين Turbine مشتقة من Turbo اللاتينية ومعناها الدوار. وTurbinis ومعناها الاعصار وهي تستعمل في الفنون الصناعية الحديثة للدلالة على جهاز خاص استنبط اولاً سنة ١٨٢٣ وصنع سنة ١٨٢٧ وقاعدته توليد طاقة محركة بسقوط الماء على عجلة دائرة وهي في عنوان هذه القصيدة رمز للاجهزة المولدة للطاقة في الحضارة الصناعية — المقتطف]

انظر اليها — تتربع هناك على عرشها —
كأنها تجمع بين كمال الانوثة ، وهدوء الراهبة .
ولكنك إذا تعرضت لها ، فان صواعقها تزعزع الارض .
إنها متشامخة كأي ملكة جميلة تدرك واجبها الملكي :
تضيءُ العالم ... وتفعل ذلك ليلة بعد ليلة ...
عند ما يقلع مولاها الزاهي — الشمس — عن عمله .
أما أنا فعبدها ، استيقظ فأراقبها ...
وأعدو الى جانبها من بدء العتمة حتى بزوغ السحَر ...
وهي تدندن بهدوء ... تهزُّ مبتهجة لان الانسان يحمل ثروة الأرض ليطعم نيرانها الجائعة ...
أنفذ مشيئتها ، ولا اجرؤ على التمرد ..
لأن يمناها هي القوة ... ويسراها الرعب ...وسخطها الدمار .
أنظر ! إذا لقيت خيطاً معدنيًّا يقطع طرفي هذا المفتاح المحوّل ،
إنها تفجر جنّياتها ... وتُمزق قِرابها
وتصرخ إلى أن ينطلق لهيب سقر الحسودة ،
فيدمر عرشها تدميراً .

أما شعبها ، قطيع العمال الجوابين الحالمين — الحمقى والعقلاء الذين ينتظرون منها النور — فسيسيرون مغمورين في ظلام الليل الذائب .

***

أعجب لها أحياناً ، فيمَ تتنازل لتكون صديقتي ؟
تلك التي تحدثني ، وتلاشي وحدتي بترنيمها .
وبالرغم يا صاحبي من أني تافه حقير ، وهي سامية جليلة . . .
أترى أنها قاسية القلب ؟ كلاَّ ! بل رقيقة حنون . . .
كما يكون العظماء جميعاً .
إذ أنها تؤاسي بهدوء كل كآبة طاغية ،
وجميع أفراحي ترقص لها في الليل الطويل الأناة .
انها تتحدث اليَّ ... تنبئني بهمومها ، تماماً كما أنبئها بهمومي .
« ولعلها تشعر بألم عميق لوخزة حصاة موجعة تنال من كُرَيّاتها » (١)
حينئذ يغير صوتها نغمته . . . فتدعوني منتحبة نادبة لأسكن ألمها . . .
فأسرع اليها — لاني عبدها الذي يسبر غورها كالجراح —
ويخفف ألمها .

***

ولنا كذلك مزاحنا — أضاحيك صغيرة ! —
تلك التي لا يدركها سوانا في هذا العالم المحتشد . . .
انها تهزأ بي لتظهر قدرتها . . .
فقد تنضح أغلفة الفحم بخاراً . . .
وإذا بي أعدو حولها بجنون . . .

(١) في الاصل :

Perhaps she feels an ache
Deep down—that agonizing stab
of grit grating her bearings

لأحول دون انفلات شياطينها الجهنمية . . .
وفجأة تخنقهم بصمامها ... وتقهقه بهدوء من مخاوفي !

***

ولكن هناك لحظات يأتي فيها دوري ،
حينئذٍ يستطيع عبدها ان يسودها — ويظفر بها ليتحكم فيها .
اذ انها امرأة ينال منها الضيق فوق عرشها ... والملل من نفسها .
تترنم بالقوة التي لا تلبث ان تنقلب الى شراسة عنيفة . . .
حين يطرأ عليها الخلل فجأة ... انها تهزأ مني ...
وتكيد للاسلاك الواهنة بعناقها الجنوني ...
الذي يهز الفضاء ... ويستنزل آلاف البروق ...
كي تمحق عظمتها ... وتحرر روحها !
حينئذ — بهذه اليد الصغيرة —
ينبغي عليّ — سريعاً كتوعدها —
ان أخمد اضطرابها ... وأقيد من ثورانها المدمر ...
وأنقذها من تهورها العنيف ، ذي الصبغة الطفولية
« وأقيم نفسي — هنيهة — مولى لمن دنا أو بعد من شعبها ،
لأبدد الغموض » (١)
ولقد فعلت ذلك في الليلة الماضية
وحيداً كنت هنا ، ويدي فوق قلبها ..
واجهت ما يسيطر عليها من الجن . . . وطردتها بالسوط !
ولم تخفها بعد ذلك لمحة ظلام من مصابيح المدينة .

***

أنظر يا صاحبي . هنا رمز !

(١) في الاصل :

And make me the lord of for and near
amoment, startling the mystery

ما هذه الكرة البلورية الزجاجية التي أرفعها بخفة !
هذه الفقاعة ذات الوان قزح ...
إن طفلاً صغيراً يستطيع أن يطفئها داخل قصبتها النحاسية ...
أية ألعوبة غريبة هي ؟!
إنها ترقد في يدي باردة جامدة ...
وشرايينها الصغيرة — ذلك الغشاء العنكبوتي المجعد — ترابية ميتة .
ولكن دعها — بدورة أو اثنتين —
تمس ذيل الأهداب البعيدة من ثوب سيدتي ...
وانظر الى الدماء الحية الملتهبة ... تنساب الى قلبها ...
وتبدد الظلام ... مضيئة العالم ...

***

وحين ألمس ثوبها — أنا خادمها في الليل الساكن —
وأتكيء بيدي على حافة برجها ...
أشعر باختلاج نارها ...
إنها تمنحني بعظمة — دون استحقاق —
هذه المرأة الغامضة ، حين تبدد بسنائها ظلامي ،
وحين تقودني بعيداً الى مصانع العالم . . .
حيث أشعر بهاته القوى اللامحدودة، التي تفنيها
كرتنا الصغيرة في الاثير ، بعد أن تختبيء أشعة الشمس ،
وهناك بالقرب من قلب الحياة .. أجد السلام ..

[نقلها : زهدي التاجي الفاروقي]

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين لهُ في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٣ —

حين بدأ يأفل في الهند كوكب المغول الساطع ، وتميل اركان مجدهم الراسخ ، تزلزلت وطائد دولهم الراسية ، فأصبحت كأنها اعجاز نخل خاوية ، قد تشتت نظامها ، وتشعب التئامها ، فتشذب بولاة الامر بَقَـطا ، وصار حكام الاقاليم طرائق قِددا . وما كان هؤلاء قبلاً الاّ اعضاء حكومة كبيرة منظمة ازدهرت في رعايتها العلوم والفنون ، وترعرعت في حمايتها العلماء والادباء والشعراء . لذلك فلم يكد ذلك الطود يهوى ، والقصر العظيم يخوى حتى انتقلت تلك الرعاية والحماية الى مراكز هؤلاءِ الحكام. فكان اهم تلك المراكز اقليم . « اَوَدْه »واقليم« بِهار»

ففي « اَوَدْه » اسس حكامه بلاطاً فاخراً على نهج البلاط الملكي في دهلي، متوسلين بميسمه ، ومتعلقين بشيمته ، ومقتدين بمحاسنه ، ومتحلين باوصافه ، فأمَّه اهل العلم والفن والادب والشعر من دهلى ذرافات ووحداناً . فأصبح البلاط بهم طلعة لا تمل وغرة لا تكره . وكان بينهم علماء الفارسية وادباؤها وشعراؤها واشهرهم من الهنود الوثنيين : (كندن لال) عشقي ، و (راى سنات سنج) بيدار ، و(كنورجسونت سنج) بروانه ، و (راي سراب سنج)ديوانه ،و(ميرزا محمد حسين) قتيل وهو من اصل وثني من شرفاء الطبقة التشطرية (١) . لم يكن الاخيران مجددين لاسلوب خاص بالادب الفارسي فحسب بل مصدري الالهام للكثيرين من الادباء والشعراء «فكنورجسونت سنج »بروانه تلقى العلوم الفارسية عن (راي سراب سنج) ديوانه ، واصبح (ميرزا محمد حسين) قتيل استاذ الفارسية لعدد وفير من المسلمين في بلدة لكهنو ، حاضرة اقليم اَوَدْه . وتصانيفه : « نهر الفصاحة »

(١) ينقسم الوثنيون على حسب دينهم الى اربع طبقات : طبقة البراهمة وهم السادة واصحاب الامر فيهم،وطبقة التشطرية وهم الذين موكل اليهم الدفاع عن الوطن فهم جيش الامة وطبقة الشودرية وهم اهل التجارة والزراعة ، وطبقة المنبوذين وهم اصحاب المهن الحقيرة

و « شجرة الاماني » و « جهار شربت » في الادب الفارسي وفنونه شهيرة وفي غنى عن البيان

نعم انتقد بعضهم من المتأخرين اسلوب (ميرزا محمد حسين) قتيل . فالشاعر الفيلسوف الكبير (ميرزا اسد الله خان) غالب [(١)] مثلاً قال في بيت ترجمته فيما يلي

ان الذي اجتاز هذه المواقف
لا يحتاج الى ان يعرف قتيلاً ولا واقفاً [(٢)]

ولكن العالم الكبير نواب صديق حسن خان يعتبره في كتابه القيم «شمع انجمن» من ذوي البسطة في العلم ومن الادباء الافذاذ في عصره . فالرقعات(اي مجموعة مكاتيبه) تدل على انه لم يكن صاحب اسلوب خاص بالفارسية فحسب بل كان قادراً على كتابة العربية والتركية كذلك وبنفس السهولة

لم يكن شعر (راي سنات سنج) بيدار وتضلعه من فنون الادب الفارسي اقل استيقافاً لنظر اهل العلم والادب ، فقد نوه به العالم الأديب ابو طالب الذي ولد عن أب فارسي هجر ايران وتوطن الهند في اوائل القرن الثامن عشر ، في كتابه « حديقة الافكار » المحفوظة نسخته الخطية النادرة في مكتبة المستشرق الانكليزي هارلي Harley . وهو كتاب جمع فيه المصنف أحوال الشعراء الذين لم تكن آثارهم سهلة المنال وعلى حبل ذراع طلاَّب الفارسية ، فوقف صفحات منهُ على تقدير كفاءة الشاعر (راي سنات سنج) بيدار ، وذكر فيها أنهُ كان من شعراء بلاط أوده ، أدرك عهدين من حكامه — عهد شجاع الدولة وعهد آصف الدولة . وله ديوان كبير احتوى على خمسة آلاف بيت . وكان ذا حظ أكفى من فنون الشعر وبخاصة في القصائد ، كما كان له القدح المعلى في استخراج التاريخ من حروف الأبيات . فقد كتب قصيدة طويلة في التهنئة بزواج ممدوحه آصف الدولة ، استخرج فيها تاريخ الزواج اي سنة ١١٨٤ هجرية من كل شطر واليك بعض الابيات منها قال :

---

(١) كان شاعراً مطبوعاً باللغة الفارسية والاوردية ومنزلته بالاوردية بمثابة منزلة شكسبير بالانكليزية أو جوتيه بالالمانية

(٢) «قتيل» و «واقف» اسمان لشاعرين

تعالى الله عجب أيام عيش جاودان آمد
زبهر راحت گيتي نويـد از آسمان آمـد
دوسرو جويبار حسن يا مهرومه دوران
و يا سعدين كه ازبهر فرح باهم قران آمد

لم تكن انواع الشعر الفارسي المعروفة مثل الغزل والنسيب والقصيدة مظهراً لكفاءة هؤلاء الشعراء الهنود الوثنيين فحسب ، بل كانت انواعه الاخرى ايضاً مثل الملحم والرباعي والمثنوي التي لا توجد في الشعر العربي ، مجتلى براعتهم . نعم كان الذين فاز قدحهم في مضمار هذه الاصناف من الشعر الفارسي حيث لا ترام مساماتهم ولا تُتعاطى مجاراتهم حافظ،وسعدي،ونظامي ، وخيَّام، وفردوسي، ورومي وخسرو ، ولكن الجهد الذي بذلهُ فيها هؤلاء الهنود والشأو الذي ادركوه في حلبة اتقانها وحذقها مما يستوقف النظر . فقد كتب الشاعر « بسمل » الذي درس على الشاعر (راي سراب سنج) ديوانه ، كتابه « سلسله مهابت » من صنف المثنوي كما كتب (بهكوان داس) وهو تلميذ الشاعر « فاخر مبين » كتابه « لعبة الصين » ونظم الشاعر (بندرابن داس) خوشكو تحت قيادة استاذه الشاعر الكبير « بيدل » احوال بلدة « متْرا » وهي من البلاد المقدسة عندهم . وكذلك نظم رفيقه في التلقي (جوربخش) حضوري قصة هندية « كامروب وكامتا » . واضطلع بنقل ملحمتين هنديتين كبيرتين « مها بهارتا » و « راما يانا » الى الفارسية نظماً الاديب الشاعر (لاله مشتاق راي) ، فقام به بمشاركة رفقائه الآخرين مع وعورة مطلبه ،وصعوبة مرامه أحسن قيام . ونظم الشاعر (حكيم شند) ندرت التهاينسوري الأساطير الدائرة حول شخصية الاله « كرشنا »

قبل ان نتكلم عن الكتَّاب بالفارسية يجدر بنا ان نذكر بين هؤلاء الشعراء اسم صديقنا المرحوم الشاعر الهندي الفيلسوف الكبير الدكتور محمد اقبال تغمده الله برحمته ، اذ كان علاوة على ابداعه في لغته الأوردية شاعراً مفلقاً بالفارسية أيضاً، له فيها سبعة دواوين بين صغير وكبير . والمرحوم وإن كان مؤمناً قانتاً ومسلماً مخلصاً ،ومن عشاق النبي العربي عليه الصلاة والسلام،والحضارة العربية الاسلامية،

ومن كبار مفكريها والمدافعين عنها ، كان هندي الأصل ، أسلم أحد أجداده قبل مائتين وثلاثين سنة ولا يزال أفراد نسبه موجودين في الهند على دينهم الى اليوم

ولا اصل بتاتاً لما قاله كاتب مصري في مجلة اسبوعية انهُ من العرب وانهُ قال له ذلك في مصر . ومستبعد جداً بل مستحيل ان يقول اقبال ذلك وهو قد صرَّح في دواوينه عن اصله الهندي . قال في بيت ترجمته ما يلي :

ان السيد والتركي ربطا قلبيهما ودينهما بالسياسة
فاين يوجد عارف الاسرار غير الذي من سلالة برهمن (١)

وقال ايضاً في بيت آخر ترجمته ما يلي :

انظر اليَّ فانك لا تجد في الهند مثلي
من سلالة برهمن ولكنهُ يعرف رموز روم وتبريز (٢)

ثم من غرائب ما وقع في هذه المجلة نقل كل شيء فيها عن مقالاتنا في المقتطف بغير الاشارة اليه ، وكنا ترجمنا النصوص المستشهد بها عن لغتي الاردية والفارسية ولكن الكاتب مع عدم علمه بهما حرَّفها ، مع ان النقل امانة ، وترجم بعض افكار الدكتور عن مجموعة محاضراته بالانجليزية وقال انها هي المحاضرة التي القاها الدكتور في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، وليس فيه من المحاضرة شيء فان موضوع المحاضرة كان « الاسلام كتحول في التاريخ » ولا يزال صديقنا الفاضل الدكتور عبد الوهاب عزام الذي افتتح الحفلة بكلمة وصديقنا الاستاذ محمد احمد الغمراوي الذي كان يقيد المحاضرة وغيرهما كثيرون ممن حضروا المحاضرة وسمعوها يشهدون على ذلك .

ولا حاجة بنا الى ان نتكلم هنا عن وصف شعر اقبال بعد كل ما نشرناه عنهُ

اما النثر الفارسي فلم تكن براعتهم فيه اقل شأناً من النظم فقد ذكرنا آنفاً غير واحد من كتبهم فيه التي شيعت بالحمد وذكرت بالجميل في اندية العلم والادب . ونوه الآن بطائفة اخرى منها وقد كانت بعيدة المدى اثراً حيث طاب نشرها في المحافل وحسن ذكرها في المجالس جيلاً بعد جيل . فمنها « دقائق الانشاء » للاديب (رنجور راي) ، و« جلشن بهار ايران » للاديب الشاعر (بندرابن داس) خوشكو ،

(١) يشير الشاعر الى نفسه (٢) اشارة الى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومي الصوفي المسلم الشهير والى رموز شعر شعراء تبريز مثل شمس الدين التبريزي

و«الانشاء» للاديب (ماد هورام) الذي كان بديوان الامير «جها ندار شاه»[1] محرره الخاص للفارسية . وقد اعتبر كتابه هذا مثالاً للانشاء الفارسي عند الادباء والفضلاء فأصبح كتاب المعلم والمتعلم في المكاتب والمدارس في شمال الهند زمناً

على ان الجمال في النظم والنثر يرجع الى جودة التعبير وحسن البيان والابداع فيهما ولا يمكن ان يتوخى لها وجوه النجح اذا لم يكن الشاعر والاديب راسخَي القدم في اللغة ، غزيرَي المادة وواسعَي الاطلاع فيها . فلم يكن هؤلاء الهنود ممن لا قِوام لهم بها ولا من الراضين بالحرمان عنها ، فقد انضوا اليها ركائب الطلب وسلكوا نحوها سبيل النجاح ، فصنفوا فيها غير واحد من كتب المراجعة الهامة المفيدة التي لا تزال تشهد لهم بفضل المُنَّة وسعة الذرع الى اليوم . ففي بلدة سيالكوت مثلاً صنف اديب منهم « مصطلحات الشعراء » الذي ما برح مصدر العلم للادباء والشعراء. صرف صاحبه في اخراجه خمس عشرة سنة من حياته وجمع فيه الكلمات التي استعملها شعراء الفارسية واستعاراتهم واصطلاحاتهم مع الشواهد الى زمنه فأصبح كتاباً فريداً في بابه جم الفوائد ، قريب المنال ، داني القطوف

اما الكتاب الذي كان ارسخ اصلاً ، وأبسق فرعاً ، وأحلى جنىً ، وأعذب ورداً ، وأكرم نتاجاً فهو القاموس الكبير « بهارِ عجم » للعالم اللغوي الاديب الثبت (لاله اودي بهان) الشهير باسم (تيك شندبهار) . « فبهار عجم » كتاب جليل جامع في اللغة استوعب فيه صاحبه اصول الكلمات وأحاط بفروعها ، وبيَّن مترادفاتها وذكر اضدادها وقدم شواهدها من كبار الأئمة وفطاحل الشعراء ، حيث لا يوجد مثيله حتى بين مصنفات اهل ايران انفسهم . نعم سبقه بعض الكتب ولكن ينقصها هذا الاستقصاء والاستيعاب . وعليه فما لا شك فيه ان (تيك شندبهار) قام بتأليفه هذا من خدمة الفارسية بمثل ما قام ابن منظور بكتابه لسان العرب من خدمة العربية ، او الدكتور جونسون بقاموسه من خدمة الانكليزية . ومما يستوقف النظر ويظهر مكان هذا العالم من الفضل ، ويبين موضعه من الحذق ويبرز منزلته من الذكاء المتوقد انهُ اهتدى في ذلك الزمن — سنة ١٧٧٥ ميلادية — الى طرق الدراسة الحديثة لعلم اللغة المقارن Comparative Philology فقد صنف كتابين جليلين في هذا الموضوع وهما «جواهر الحروف» و «نوادر المصادر» حقق فيهما الكلمات

(١) هو ابن الملك نور الدين جهانكير ولد في سنة ١٠١٤ وتوفى سنة ١٠٥٥ هجرية

الفارسية بالمقارنة والموازنة مع كلمات اللهجات الاخرى الى اصولها الآرية الهندية

من الأمور الغريبة المسلم بها ان التاريخ لا يلائم طبع الفكر الهندي وقد أشار اليه العلامة البيروني أيضاً . فأنت تجد كتباً نفيسة محفوظة عندهم من الزمن القديم الى الآن ولكن لا يمكنك ان تبلغ كنه تاريخها ولو بكلمة ، ولا أن تحيط بنعت أصحابها ولو بلفظة. فهناك عندهم علوم وفنون وحكمة عالية وفلسفة دقيقة ومذاهبها المختلفة ومدارسها المتنوعة ولكن تاريخ ظهورها وأحوال أصحابها مجهولة (١) .

على أنهم لم يقدروا ان يستمروا على تلك الحال . فان المسلمين الذين نزحوا اليهم وتوطنوا بلادهم وحملوا ثقافتهم اليهم وهي اكثر اعتناء بالتاريخ من غيرها فلم يكن لهم بد من ان ينصاغوا بصيغتها ، وينطبعوا بطابعها ، فأخذوا عن كتب منه حروفاً مواتية واجتنوا من اطرافه قطوفاً دانية حتى لم يكن عليهم من وعورته إباء ، ولا في تعاطي صعوبته عناء. فقد كتب غير واحد منهم كتباً قيمة فيه بالفارسية في اواخر عهد المغول ، تحلت بالبهاء فادخر لها الثناء . بعضها في تاريخ الهند العام وبعضها في عهد خاص منه . فمن القسم الاول « لباب التواريخ » للاستاذ المؤرخ (راي بندرابن) صنفه في سنة ١٧٢٣ ميلادية ، و« خلاصة التواريخ » للعالم (سوجن راي) صنفه في سنة ١٧٢٣ ميلادية و« منتخبات التواريخ » للفاضل (جك جيون داس) صنفه في سنة ١٧٥٣ ميلادية . ومن القسم الثاني « فتوحات عالمكيري » للفاضل (ايشور داس) صنفه في سنة ١٧٣٠ ميلادية ، و « تاريخ محمد شاهي » للاستاذ (خوشحال شند) صنفه في سنة ١٧٧٧ ، و « خلاصة التواريخ » للاستاذ (كليان سنج) صنفه في سنة ١٨١٠ ميلادية . وجميع هذه الكتب جزيلة المباحث ، جمة الفوائد لا غناء عنها للباحث المحقق حيث لو لم يكن اصحابها للاحاطة بما فيها في تَـصَـبَ ناصب ، وعناء معن لبقي كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية والعلمية والادبية من ذلك الزمن في خبايا الغيب . استمرت جهود الهنود الوثنيين هكذا مبذولة في خدمة الادب الفارسي الى أوائل القرن التاسع عشر حتى استولى على البلاد المستممرون الغربيون وفرضوا عليهم لغتهم فأمحى أثرها عنهم . وما نوهنا به هنا وفي مقالتينا السابقتين من خدماتهم للادب الفارسي ليس الا نذراً يسيراً من الجم الكثير

(١) أنظر الفلسفة الهندية مجلد أول للعالم الفيلسوف راد هاكرشنن ص ٥٧

باب المراسلة والمناظرة

بين البطريرك

يؤنس الخامس وملكي مصر والحبشة

كان من محاسن الصدف ان المرحوم الدكتور يعقوب صروف احد منشئي مجلة المقتطف الغراء حصل على النسخة الاصلية من كتاب «لباب الآداب» لواضعه أسامة بن منقذ الكناني الملقب بمؤيد الدولة (١) في اواخر القرن السادس للهجرة ، اغلبه نصائح وحكم عالية على ألسنة الملوك والحكماء والفلاسفة . وكان من محاسن الصدف ايضاً ان اخذت صورة الصفحة ٩٦ من هذه المخطوطة و نشرت في مجلة المقتطف بعدد ابريل سنة ١٩٠٨ بالفوتوغرافيا مرتبة طبعاً بالسطور والكلمات كما هي في الاصل وقال منشىء المجلة تعليقاً : —

« وهو أمر جرى منذ ثمانمئة سنة في هذا القطر وفي هذه العاصمة رآه مؤلف هذا الكتاب بعينه وسمع ما قيل فيه بأذنه ، وهو كأنه حدث امس وكتب عنه اليوم ، مرت ثمانمئة سنة والعادات لم تتغير ولغة الكتاب لم تختلف اختلافاً يذكر »

ولئن نظر الى ما جاء بين دفتيه بالنسبة للعادات واللغة فقد يصح النظر اليه هنا بمناسبة ما ورد في هذه العبارة من الناحية التاريخية التي تصادف ان منشىء المجلة رحمهُ الله ان اهتم بتصوير هذه الصفحة فنطقت بما يأتي بالحرف من قول المؤلف

« ... ورع قوي ورعية طايعة قلت اذ كرني قول الحكيم انما سلطان الملك على الأجساد دون القلوب أمراً شهدتهُ بمصر في سنة سبع واربعين وخمس مائة ، وهو ان رسول ملك الحبشة وكتابه وصل الى الملك العادل ابي الحسن علي بن السلاَّر رضي الله عنهُ فسأله ان يأمر البطرك بمصر ان يعزل بطرك الحبشة وتلك البلاد كلها مردودة الى نظر بطرك مصر فأمر الملك العادل باحضار البطرك فحضر وانا عنده فرأيت شيخاً نحيفاً مصفرًّا فأدناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم انحرف فجلس على دكلٍ في الدار وانفذ اليه يقول له ملك الحبشة قد شكا من البطرك الذي يتولى بلاده وسألني في التقدم اليك بعزله ، فقال يا مولاي ما وليته حتى اختبرته ورأيته يصلح للناموس الذي هو فيه ، وما ظهر لي من امره ما يوجب عزله ولا يسعني في ديني ان اعمل فيه بغير الواجب ، ولا يجوز لي ان أعزله . فاغتاظ الملك العادل رحمهُ الله من قوله وأمر باعتقاله فاعتقل يومين ثم أنفذ اليه وانا حاضر ايضاً يقول له لا بد من عزل هذا البطرك لأجل سؤال ملك الحبشة في ذلك فقال .

(١) طبع حديثاً ووقف على طبعه الشيخ احمد شاكر

يا مولاي ما عندي جواب غير ما قلته لك وحكمك وقدرتك انما هي على الجسم الضعيف الذي بين يديك واما ديني فما لك عليه سبيل. والله ما أعزله ولو نالني كل مكروه، فأمر الملك العادل رحمهُ الله باطلاقه واعتذر الى ملك الحبشة » اه . وهنا يجمل بنا الرجوع الى المناسبات التاريخية واهمها ما يأتي :

١ — كان الأنبا يؤانس الخامس هو الثاني والسبعين في عداد الآباء البطاركة ويعرف بابن ابي الفتح من دير ابي يحنس احد الراهبين اللذين كانا مرشحين للبطريركية عند انتخاب البابا ميخائيل الأول سلفه ، رسم في ١٥ بؤنة ٨٦٢ للشهدا وسنة ١١٤٦ للميلاد في عهد خلافة الحافظ . وبعد ان مضى على كرسي الرئاسة الدينية ١٨ سنة و ١٠ شهور و ١١ يوماً توفي في ١٤ بشنس سنة ٨٨٠ ش ١١٦٤ م

٢ — وقد أشير في سير البطاركة [1] الى ذلك الحادث ان دعيًا من غير العائلة المالكة اغتصب مملكة الحبشة وقتل ملكها الشرعي وجلس مكانه فوبخه مطران الحبشة بشدة على هذا الظلم فنفاه وأرسل الى البطريرك يطلب منهُ تعيين غيره مدعياً أنهُ كبير وشاخ فامتنع البطريرك عن اجابة طلبه فعمد المغتصب الى والي مصر وأرسل اليه هدايا ورجاه ان يلزم البطريرك بايفاد مطران آخر فلما تكلم الوالي مع البطريرك قال له إن مطران الحبشة لا يزال حيًّا فاقتنع »

هذه بعض المناسبات التاريخية وقد يحق التساؤل عن طريق المواصلات القديم بين مصر والحبشة في تلك الازمنة الغابرة. فقد وجدت مخطوطاً في كتاب « تكريس كبير الشمامسة ثم قسمة الراهب ولبس الاسكيم وقسمة الراهبة والرئيسة ثم قسمة المطران والاسقف » المحفوظ بمكتبة الدار البطريركية بالقاهرة — حين كلفت تعرُّفها وتبويبها — بعنوان « السفر الى بلاد الحبشة » كلمة نقلتها لما لها من الشأن مع المحافظة على لغتها وحرفها قال :

من نقادة تنزل في المعدية لقوص ومن قوص تنزل في المعدية لقنا ومن قنا للقصير . واما السفر على البر فمن نقادة للقصير خمسة ايام واجرة كل جمل اربعين نصف فضة . وقيل ثلاثين نصف. ومن القصير ينزلوا في المراكب لسواكن سفر خمسة عشر يوم مع الطياب والاجرة عن كل شخص ثلاثة أشرفية ، ويعطوا الهدية للمدبرين صاحب سواكن بساط وبرنس اسود عن الجماعة كلهم ان كانوا كثير او قليل ثم يركبوا الجمال ويسافروا في بر الحبشة خمسة عشر يوم أجرة كل جمل أربعماية وخمسين درهم نقرة ، والعربان السكان في هذا البر تحت حكم الحبشة ثم يوصلوا بعد سفرهم في بر الحبشة الى أول بلاد النصارى الحبش التي فيها الكنائس والاديرة والايمان ثم يسافروا من بلد الى بلد الى ان يصلوا الى مواطنهم بالسلامة ان شاء الله تعالى » اه بالحرف

فاين نحن أبناء القرن العشرين من أمس الغابر قبل صنع البواخر ومدّ السكك الحديدية وإنشاء خطوط الطيران : ولله في خلقهِ شؤون

توفيق اسكاروس

(١) كتاب الكنيسة القبطية المرحوم منسى القمص صفحة ٥٣٧

حول مقال (خليل مطران)

حضرة رئيس تحرير المقتطف

قرأت مقالة الدكتور أدهم وأود ان لا يفهم منها قارىء أني أوافقه على ما جاء فيها خاصًّا بي ومع احترامي للدكتور أبي شادي أرجو ان لا يفهم قارىء اني أوافقه على مذهبه في التفكير او على طريقته في صناعة الشعر فان الاختلاف بيننا أكثر من تفاؤل وتشاؤم ومذهب طبيعي وغير طبيعي . وقد نشرت قبل الآن ان الاستاذ العقاد عندما عرفته كان قد اطلع على الادب العربي والأوربي وكان قد نظم اكثر الجزء الاول من ديوانه وان الاستاذ المازني كان في مدرسة المعلمين يدرّس الادب ولم افده الاَّ باهداء نسخة من ديوان الشريف الرضي اليه

ومع إجلالي واعجابي بالأستاذ خليل بك مطران أقول إني لم أتأثر طريقته أكثر من تأثري طريقة أي شاعر آخر من نوابغ الشعراء وأراني مضطرًّا أن أنشر بعد الآن مقالاً مطولاً اصحح فيه كثيراً من الآراء التي ينشرها الدكتور ابو شادي وأصدقاؤه . هذا وأرجو من الدكتور أدهم أن يسمح لي بنشر هذا البيان الذي يخالف بعض ما جاء في مقالته ولهُ الشكر وتفضلوا بقبول عظيم الأحترام المخلص — عبد الرحمن شكري

حول ترجمة فتى العصر وهكذا تكلم زرادشت

جاءنا من كاتب نقد هذين الكتابين في مقتطف يناير — الاستاذ حبيب الزحلاوي — ردٌّ على ردّ مترجمهما الاستاذ فليكس فارس جاء فيه انهُ كان قد أعدَّ ادلتهُ لتأييد رأيه في الترجمة باختيار نماذج من الأصل وما يقابلها في الترجمة لنشرها مع نقده في المقتطف وانا اعتذرنا بضيق المقام . وهذا صحيح ولكننا لم نطّلع على هذه النماذج . وفيه ايضاً انهُ اطلع صاحب الترجمتين على بعض هذه النماذج فاقرَّ ما في بعضها من المآخذ . فاقتضى التنويه بمضمون كتابه

تصحيح خطأ

سيدي الاستاذ فؤاد صرّوف المحترم

اشكر لك ادراجك في المقتطف مقالتي في (نشوء اللغة) وكنتُ اودُّ ان أصحح بنفسي مسودَّة الطبع لكن لم يتيسر لي الامر . ولذا وجدت فيها اغلاطاً ، اذكر منها

صفحة	سطر	خطأ	صوابه	صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٣٧٠	٧	وإما	وأمَّا	٣٧١	١٠	غير كسيحة	غير حكيمة
»	٣	تنفَّس	تنفُّس	٣٧٢	٢٠	طائفةاخرى	طائفة اخرى
٣٧١	١٠	قابلةً	قابلة			لاغية	لاغير

واختم الكلمة بالسلام والشكر والاحترام · الاب انستاس مارى الكرملي

مكتبة المقتطف

الحركة الادبية في سوريا ولبنان

المشادة بين أدباء مصر ولبنان — حركة النشر والكتب الجديدة

يؤلمني في هذه المرحلة الشاقة التي تسعى فيها الاقطار العربية الى توثيق عرى الالفة والمحبة عن طريق المصلحة والسياسة ان تقوم بين بعض ادباء مصر ولبنان مشادةٌ ثائرة تقطّع عرى الالفة والمحبة عن طريق الأدب والثقافة كأنّ ما تجمعهُ السياسة يفرّقهُ الأدب . ولا أعلم على من يجب أن تلقى تبعة هذه المشادة التي أصبحت محنةً بعد أن أخرجتها فلتاتُ اللسان عن نطاقها الأدبي الى مناوشات لا أجد فيها ما يحيي العصبية لأدب اللغة ، بل ما ينفّر القلوب ويضرم نار البغضاء ويحوّل الجهود المبذولة عن هدفها الصالح الى الأمر الطالح ، فَلأَنْ هون على الامم العربية أن تفرقها السياسات من أن يفرقها الأدب ، فالأدب هو دين القومية ، وما السياسات إلاّ أعراض تزول أو تتبدل مع الرجال

لقد آلمني أن تثور باسم الأدب ضجة فارغة في زمنٍ نحن أحوج ما نكون فيهِ الى التآخي والتعاون سياسيًّا وأدبيًّا واقتصاديًّا ، وأن يكون مثيري هذه الضجة حاملو ألوية الأدب واصحاب الدعوة لتشييد هيكل الفكر على دعائم الوحدة القومية . فبدل أن نلتقي على أشجان الجراحات التي من حقها أن تجمعنا وتؤلف منّا أمة روحية واحدة على تباين مذاهبنا وأدياننا نسعى لنفرق بيننا ونتباعد باسم ادبٍ « مصري » وأدب «غير مصري» خلقهما تنافسٌ أقلّ ما يقال فيهِ انهُ يسيء الى الوحدة العربية الأدبية ، أساس الوحدة القومية في الشرق . فمن دعائم النهضة العربية في الشرق أن تتوثق عرى الشعور بين جميع الأقطار الناطقة بالضاد وأن يعمل الجميع لما فيه خير اللغة متضامنين متكاتفين ، وفي خير اللغة خيرُ الأمة لأن اللغة هي الرابطة الوحيدة بين شعور الجماعات على تباين مذاهبها . ومتى ارتبطت الامم بروابط الشعور الصحيح نشأت عن هذه الروابط الوحدة السياسية والاقتصادية معاً ونجت البلدان العربية من أشد ويلاتها

***

لستّ سنوات خلت أدلى الدكتور طه حسين برأي في إمارة الشعر ، بعد وفاة شوقي ، التوى منهُ القصد على الأديب اللبناني الاستاذ ابراهيم سليم النجار كما التوى على الكثيرين غيره ، فردّ

عليه بمقال لاذع عقبته ثورة عصبية ربما تفاقم أمرها لو لم يستدركها الدكتور طه حسين بحكمة دلت على رحابة عقله وإخلاصه للأدب وعلى انهُ يشعر بشعور الأمة العربية فلا يريد أن يسمع في دولة الأدب دويّ حرب أهلية ، ولا يشوقه كما لا يشوق أيّ حكيم عاقل في الجمهورية العربية الشاخصة الى مستقبلها من بين جراحاتها الدامية — أن يستنشق هواء الخصومة والعداء في دولة الادب يهبّ من مهازل العروش والإمارات

ولسنتين عقد أحد الأدباء اللبنانيين في جريدة « المكشوف » مقالاً عاتب فيه ادباء مصر ، ولكن قلمه طوّح به تطوحاً عنيفاً تنكّر فيه وجه العتاب على الدكتور زكي مبارك فخيّل اليه أن جريدة المكشوف « تشتم المصريين لتملأ صدورهم غيظاً وحقداً » وتدلّف الى القول بأن « حملة الأدباء اللبنانيين على الأدباء المصريين ليست جديدة فقد ظهرت طلائعها منذ سنين . » وكان أن واصلت جريدة « المكشوف » من جهة والأستاذ مارون عبود في جريدة « صوت الأحرار » من جهة أخرى نقدهما لبعض مؤلفات الأدباء المصريين فزعم بعض إخواننا في مصر أن القصد من نقد أدباء لبنان لما يكتبه أدباء النيل هو اعلان « حملة على الأدباء المصريين » ، في حين أن القصد من ذلك ليس كما توهمه هذا البعض ، فالنقادون اللبنانيون يتناولون أدباء مصر بين حين وآخر كما يتناولون أدباءهم وأدباء سائر الأقطار العربية على أنّ ادباء العرب جامعة واحدة على اختلاف أقطارهم

ومما آلمنا حقّاً من هذه المشادة خروجها عن نطاق الأدب والبحوث الأدبية الى نوع من المهاترة نربأ بأي أديب ، مصريّاً كان أو لبنانيّاً ، عن اعتماده للتنويه بفضل أو للاشادة بمأثرة وأي خير يرجى من قول قائل : « اذا كان الله خصّ بلادكم بالأزهار والثمار فقد خصّ بلادنا بحلاوة الأصوات وجمال الأساليب ، والليلة السعيدة هي التي تقضى بين التغاريد المصرية والفواكه الشامية ... » ومن قول آخر ردّاً على هذه الدماثة المعفرتة : « نحن لا نريد أن نعتقد بأن المصريين لا يحبون منا إلاّ فواكهنا وإن نكن نفضل نكاتهم على سائر ما خصّهم به الله ... »

***

على أن هذه المهاترة الخطرة لم تقف عند هذا الحدّ بل تجاوزته الى ما ينذر بأسوإ مغبّة ، فقد أصدرت مجلة « الحديث » الحلبية عدداً خاصّاً بالثقافة المصرية نوّهت فيه بفضل بعض الأدباء المصريين على الأدب العربي متوقعة لمصر الانتداب بثقافتها على الأقطار العربية ، فلم ترقْ كلمة «الانتداب» كاتباً فعقد في جريدة « المكشوف » فصلاً قال فيه : إن الاعتراف لمصر بالانتداب الأدبي معناه رسوب البلدان الأخرى في نطاقٍ من القصور لا يرضاه أدباء لبنان

وحجة أدباء لبنان على إخوانهم أدباء مصرأن هؤلاءِ الأخيرين يصدفون إلاَّ عمَّا تنتجهُ المطابع المصرية فلا يعرفون شيئاً عن الحركة الأدبية القائمة خارج مصر

ويظهر أن مقالة « زهير زهير » في المكشوف أثارت حفيظة الدكتور زكي مبارك فبعث الى الشيخ فؤاد حبيش ، صاحب المكشوف ، بكتاب يقول له فيه : « يجب أن تثق بأن ضمائرنا لا تسمح بأن تتجنَّى على لبنان كما تتجنون على مصر ، لأننا أعرف منكم بأصول الأدب والذوق والعقل ... » وليسمح لي الأستاذ صاحب « المقتطف» بأن أغفرهذه الفلتة لأديب أقدر فضله واكفِّر عنها بما كتبهُ الاستاذ توفيق الحكيم في مجلة « الرسالة » إذ قال بكثير من الأدب التام على كبر في النفس : « اذا كان الواقع هو أن نسيم الثقافة يهبُّ علينا اليوم من جبال لبنان فلا أحب الينا نحن المصريين من هذا ، وهو خير لنا وأشرف من أن يهب علينا من جبال الالب غير أن الذي يؤلمني هو اننا معشر الشرقيين يكبرعلينا دائماً أن نرى الفضل يأتينا من شرقي ، ولا نغضب بل نفخر أن يأتينا الفضل من غربي » .واذا حلَّ لي أن أوجه بعض العتاب البريء الى الاستاذ توفيق الحكيم فلكونهِ يسلك مسلك بعض إخوانهِ في الاعتصام ببرجهم العاجي ، فلو انهُ اطلَّ من هذا البرج الى ماوراء العريش لأدرك أن في الأقطار العربية من أوتي قوة التحرر من الطابع الغربي فلا يجد نسيم جبال الالب سبيلاً الى نفسه

وصفوة القول إن الادباء اللبنانيين ما فكروا يوماً في الاساءة الى اخوانهم في مصر ، وكيف يسيئون الى من أُشربوا محبتهم في قلوبهم قبل أرواحهم ، وخصّوهم بعناية ما خصّوا بمثلها أدباء اي قطر آخر ؟ أما هذه الضجة القائمة في بعض الصحف المصرية واللبنانية فأحرى بها ان تتحول الى ما فيهِ خير الأدب الذي تشق في سبيله من ان تذكي نار الضغينة بين بلدين لا غنى لأحدهما عن مودة الآخر . وأية قيمة لهذا التنافس بين ادباء يدعون الحرص على اللغة ثم يؤدون مفروض الحقوق لهذه اللغة بادعاءِ الفضل عليها في شكل من الاستفزاز يخلق للشعور جراحاً بين بلدين أشد ما يربطهما تراث اللغة العربية وآدابها ؟ إن الاقطار العربية جميعاً تشخص في آدابها الى هدفٍ واحد ، ومهما تتباعد انهرها فلا بدَّ ان تلتقي ، لأنها تنصبُّ في بحر واحد هو اللغة العربية فليكن قصب السبق لمصر، وليكن للبنان ، وليكن للعراق ، وليكن لسوريا ،فالرابح هو واحد مهما تتباين وجوهه ، والنتيجة هي واحدة مهما تختلف السبل اليها

***

لا تزال حركة النشر ماضية في النشاط ، فقد أصدرت مطابع بيروت في الشهر الماضي كتاباً عن « دريفوس » للاستاذ يوسف يزبك ، وقصة طويلة للاستاذ ميشال شبلي عنوانها « تلّ السنديانة » وهذه الاخيرة تدور حوادثها حول شاب لبناني يهجر قريته قبل الحرب الكبرى

الى اميركا تاركاً فيها حبًّا أقسم على الوفاء له . وما ان تضع الحرب أوزارها حتى يعود الى قريته حاملاً من المهجر مالاً وافراً وثقافة جديدة وداء وبيلاً فيجد المرابين قد استولوا على ملك حبيبته غبناً ، فيقيم دعوى الغبن على المرابين ويستعيد الملك بماله ولكن باسم حبيبته . وسرعان مايحوك حولهُ الغاضبون دسائس أحقادهم وينطلقون يحاربونهُ في جبهتين دينية خلقية،وحكومية صحية ... فيسعون به لدى أسقف الأبرشية ويوغرون صدره عليه مدَّعين أنهُ عائد من أميركا ليبثَّ في محيطه اللبناني المبادىء الغربية الملحدة ، ويسعون به لدى السلطة مدعين أنه مصاب بداء وبيل فيجب اقصاؤه عن القرية . على أن كاهن القرية ، وهو من أحرار رجال الدين ،ينتصر للشاب ولا يخشى مجابهة الأسقف ، فتنقسم القرية الى قسمين أحدهما يؤيد المطران والآخر يؤيد الكاهن ، وقبل أن يتفاقم الأمر يكون هواء لبنان قد شفى العليل من علته فيتزوج حبيبته ويعيش العروسان باللذة والنعيم

وهذه القصة الجميلة ترينا صورة صادقة عن الحياة اللبنانية في القرية والمدينة . أما «دريفوس» فمأساة يهودية وضعها الأستاذ يزبك مستنداً فيها الى المصادر التي حاربت هذا الرجل ولم يعكف إلاَّ قليلاً على المصادر الأخرى التي أثبتت براءته ، ومهما يكن فالكتاب موضوع بأسلوب مشوّق وبلغة نقيَّة وبيان رائع . وينصرف الأستاذ أمين نخله الى إعداد العدَّة لجمع فصول بليغة في الأدب نشرها في جريدة صوت الأحرار تحت عنوان « تحت قناطر اريسطو »

وقد تصدر « دار المكشوف » قريباً مجموعة شعرية للأستاذ ميخائيل نعيمة ، ومجموعة قصص لبنانية للأستاذ الشيخ خليل تقي الدين يكشف فيها عن لون جديد في الأدب العربي الجريء

اما الدكتور نقولا فياض فسيصدر قريباً الجزء الثاني من « على المنبر » وفيه مجموعة نفيسة من المحاضرات الاجتماعية والأدبية والطبية التي القاها على منابر مصر ولبنان وسوريا وفلسطين

***

هذا في لبنان ، اما في سوريا فالنشاط السياسي مستغرق جهود معظم الادباء ،على ان الاستاذ معروف الارناؤوط منصرف بعض الانصراف الى وضع قصة عن السيد المسيح بلغة «سيد قريش» وقد مضى عليه نحو من سنتين في الاشتغال بها

ومما يجدر بالقول أن المطابع في هذه البلاد لا تصدر الاّ القليل مما تنتجهُ اقلام الادباء والسبب في ذلك عائد الى ان الاستهلاك ما يزال ضعيفاً بالقياس الى عدد القراء لا بالقياس اليه قبل اليوم . فقبل اليوم كانت الالفا النسخة ترسب في السوق ثلاث سنوات او اربع ، أما اليوم فالالفا النسخة قد يستهلكها القراء في سنة واحدة اذا اوتيت قسطاً وافراً من الدعاية . ولا بدَّ من القول ان للدعاية الصحفية يداً على ترويج الكتب

بيروت : الياس ابو شبكة

الدكتاتورية في العصور المختلفة (١)

لعلّ أول ما يضطرب في خيال الانسان وهو يقرأ تاريخ العظماء هو: كيف استطاع هذا او ذاك من بني الانسان أن يسمو على أترابه ؟ أي ملكة أو أي خلّة ارتفعت بهِ إلى أعلى ثم هو ان امعن في قراءة التاريخ بدت له ثغرات نفذت منها يد القدر ترقى بالرجل ليكون عظيماً يبذّ أقرانه

وفي بطون التاريخ جماعة من العظماء سيطروا على بني وطنهم واستأثروا بالحكم دون سواهم سمّاهم الاغريق بالمستبدين او الطغاة، وأطلقنا نحن عليهم لقب الدكتاتوريين . أفنستطيع أن نسمهم بسمة واحدة، والدكتاتور في العهد الروماني كان قائداً شوريًّا يختاره جماعة ليواجه أمراً ما ثم ليلبث في منصبه ستة أشهر فحسب ، على حين أن الدكتاتور في أيامنا رجل مستبد أشد استبداد فهو يستمتع بسلطان لا يحده زمان ولا قانون ، ويستعبد كيف يشاء امة كانت منذ حين ترفل في ثياب الحرية ؟ لا ضير ، فللحكم المطلق حسناته كما أن له سيئاته ، غير أن صاحب كتاب « قصة الدكتاتورية في العصور المختلفة » ساوى بين كل حكم يستبد بهِ فرد واحد ثم أخذ لنفسه بأن يمقت كل حاكم دكتاتوري ، وراح يستشف من وراء نفسه نظرات الجمهور والفلاسفة والمؤرخين الى مثل هذا الحكم وهي — كما يتراءى له — تنزّى حقداً وبغضاً ، .. تلك ، ولا ريب ، نظرة فيها التحامل والمغالاة. فنحن نرى أن بعض الدكتاتوريين يفوزون بفنون من حب الشعب وتقديره وان كثيراً من الامم لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة في سبيل المجد إلاّ على يدي حاكم مستبد ذي إرادة حديدية ونفس عالية وهمة سامية ، يرى بعيني عقله ويعمل بوحي ضميره ؟ ثم هو لا يفسح للشورى سبيلاً فتتسرب إلى حكمه ، وهي مضيعة للوقت ومكسلة للنشاط ومثبطة للهمم، ومن ورائها الرياء والحقد والضغينة والحسد و ... مما ينحط بالامم إلى الدرك الأسفل ، على أن الحكم الشوري في الأمم الناشئة هو العقبة الكأداء التي تتخبط فيها الأمة فلا تستطيع أن تبلغ بعض غايتها ، وكيف وفي المجلس الشوري جماعة يقضون أيامهم يناقشون أمراً واحداً لا يستقرون على رأي ولا يلقون به في غيابات الإهمال

نعم ، لقد ساوى كيليت بين جميع الحكام المستبدين واتخذ هذا لنفسه مبدأ ثم راح يضرب الأمثال يدلل بها على صدق ما زعم ، فنشر أمام قارئه ثَبَتاً من أسماء أصحاب الحكم الاستبدادي، فأختار من العهد الإسرائيلي أبيمليك ، ومن الأغريقيين كليستنيس و بيسستراتس وبوليكراتس، ومن الصقليين جيلو وهيرو وديونيسيس و ... ثم انطلق يقول إن جميع أولئك طلعوا على الناس في غفلة منهم وفي أنفسهم الأنانية والغرور فما منهم الاّ من يغلظ على منافسيه فيذيقهم وبال

(١) نظرات في كتاب :

The Story of Dictatorship from the Earliest Times till To-day. By E.E. Kellett

أمرهم ثم ينشر على أعين الناس غشاوة صفيقة من الكلام الخلاّب الجميل يأسر به نفوس الناس ، ثم يمضي المعاهدات او يسعر نار الحرب لا يغفل في ذلك ما يصبو اليه من هدوءٍ واستقرار او من مجدٍ وعظمة

وانزلق مستر كيليت دفعة واحدة من القرن الرابع الى عهد النهضة حيث ألفى ما يشبع رغبات مبدئه في حياة الديتشي وقيصر بورجيا في وقت معاً ثم وجد مثلاً في نابليون الذي خطفت عظمته أبصار موسوليني وهتلر والكماليين فاتخذوه أستاذاً ينهجون نهجه ويسيرون على سننه

ولقد أعجز كيليت ان يلمس الفروق بين الحكم المطلق القديم والحديث سوى فرق واحد هو ان الحكم المطلق الحديث يمتاز بأنهُ يرتكن على مذهب يكون هو الغاية التي يهفو الحاكم دائماً نحوها . فمثلاً لينين يتشبث بالمذهب الاشتراكي ، وهتلر بالوحدة القومية والنقاءِ العنصري وموسوليني بالفاشستية

وفي الكتاب حديث طويل عن لينين وهتلر وموسوليني يبدي عن ناحية من نوازع هؤلاء الحكام ويغضي عن ناحية ، ولا عجب فالدكتاتورية أنانية لا تصبر على ندٍ وهي جحود لحرية الأفراد في سبيل التغني بمجد الدولة . كيف إذن ، يستطيع إنسان أن يجهر برأي ومن ورائه القوة التي لا تستشعر الرحمة والقسوة التي لا تحس بالشفقة ؟ تلك هي الدكتاتورية أو هي الحرية التي يسوقها الينا الظلم والاستبداد . أي معنى فيها سوى أن الأمة لا تصل الى ما تبتغي من حرية ومجد الاَّ حين يلبس ابناؤها جميعاً ثوب الرق والاستعباد ؟

ولقد كان لينين — في نظر المؤلف — هو خير الثلاثة

أما موسوليني فزعم أنهُ يبدو نشيطاً عبقريًّا رغم أنهُ اشتطَّ فأودى بناس كثيرين ، والقى بآخرين في أعماق السجون ، ورغم أنهُ تغاضى عن الحرية الفكرية وفتح باب الحرب الحبشية غير أنهُ كان ينفث من روحه الرقَّافة في كل ما يأخذ على عاتقه من عمل ، ولقد بدا ذلك في تقريب وجهات النظر بينهُ وبين الفاتيكان وفي اندفاع ايطاليا الى الاعمال العامة ، ولكن ايطاليا الآن تنحدر إلى هاوية من الخراب المالي تقودها اليها الجيوش الجرارة التي تكلفها مالا طاقة لها ... به أما هتلر فما يزال في موقفه الغموض (كتب هذا الكتاب قبل استباحة النمسا وتشيكوسلوفاكيا)

ومهما يكن في كتاب كيليت من آراء فما تزال الأسئلة تضطرب على شفاهنا عما عساه ان يكون في العصر الحاضر ، عصر الدكتاتوريات ؟ افيجرف هذا العالم تيار الحرب فلا يرتد الاَّ وقد التهم نصف الأرض نصفها الآخر ، ام هذه الدكتاتورية الغالبة ستنسى بعض مطامعها ليستقر الناس في اوكارهم ويطمئنون في حياتهم ؟ لا ريب فالأيام ستحمل الينا — قريباً — الجواب الذي لا يستطيع الحدس ان يرقى اليه . . . !

كامل محمود حبيب

الجيش المصري
في عهد محمد علي باشا الكبير

تحتفل مصر في هذا العام بذكرى انقضاء مائة سنة على انتصار بطلها الفاتح ابراهيم باشا في موقعة نزيب . ولهذه المناسبة المجيدة اصدر اليوزباشي الاستاذ عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي مؤلفاً نفيساً في تاريخ الجيش المصري في عصر المغفور له محمد علي الكبير كتب مقدمته أستاذنا المؤرخ المحقق شفيق غربال وكيل كلية الآداب في جامعة فؤاد الاول

راعى المؤلف تحري الدقة في بحثه ورجع الى اوثق المصادر فأبرز صورة صادقة لجيشنا الحديث لا يسع من يقرؤها الاَّ ان يلمس غيرة الكاتب في احياء ذكرى هذا الجيش ويدرك الشبه العظيم بين مجهودات مصر في ذلك العصر ومجهوداتها الحالية في انشاء جيش قومي قوي

مهد الاستاذ لموضوعه بالكلام عن قوات الدفاع في مصر قبل زمن محمد علي فذكر الوحدات التي تألفت منها الفرق المختلفة وبيَّن كيف تألفت من هذه الوحدات عناصر الفتنة والفساد وكيف عمل محمد علي على التخلص منهم بارسالهم في حرب ضد الوهابيين. ويصف لنا وصفاً ممتعاً محاولة الباشا الاولى في إنشاءِ جيش منظم بعد عودته من حرب الوهابيين وكيف رفض الجند اصلاحه مقتبساً في ذلك عبارات طريفة من مؤرخ ذلك العصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي

« أمر الباشا جميع العساكر بالخروج الى الميدان قبيل الفجر للتعليم على طريقة الافرنج الى الضحوة فأخذوا في الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ورجعوا داخلين المدينة في كبكبة عظيمة وداسوا أشخاصاً بخيولهم بل وحميراً أيضاً — كان قصد الباشا احصاء الجند وترتيبهم على النظام الحديث والباسهم الملابس المقمطة ومن أبى ذلك كان جزاؤه الضرب والنفي بعد سلبه ثيابه فحصل بين الجنود تذمر الخ »

وشرح كيف حاول محمد علي تكوين جيش من أبناء السودان ولم يوفق وكيف أصاب الهدف لما قرر أن يتعلم الفلاح الجندية عنوان القوة ورمز المجد ووجد في الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) عضداً قويًّا فدرَّب الجند المصريين واستعرضهم محمد علي ومعه قنصل فرنسا العام وقنصل انكلترا العام في معسكر التدريب ببني عدي وبعد عودتهم كتب قنصل فرنسا الى حكومته في فبراير سنة ١٨٢٤ يثني على ما رآه من حسن نظام الجيش وبلوغه درجة عظيمة من الدقة في المناورات

وكما وفق المؤلف في شرح محاولة الباشا في انشاء جيش منظم لمصر وفق ايضاً في توضيح نظام هذا الجيش الجديد فتكلم عن ديوان الجهادية وناظره وعن نظام الترقية وما اعتراه من

مساوىء في أول الأمر عند ما كانت المحسوبية العامل الوحيد فيها وتعديل هذه الطريقة المثبطة للهمم وأشار الى مجهودات البعثة العسكرية الفرنسية التي طلبها محمد علي وجاءت الى مصر في أواخر عام ١٨٢٤ برياسة البارون بوييه لتدريب الجيش المصري وتنظيمه وحدثنا عن التسهيلات التي قدَّمتها الحكومة المصرية لاعضائها وعن مرتباتهم وعن تزايد عددهم وكلها موضوعات طريفة لا يسع المرء الاَّ ان يقرنها بمثيلتها في العصر الحاضر

كذلك وصف المؤلف المدارس العسكرية المختلفة التي أنشأها محمد علي وأتى على برامج الدراسة فيها ويلاحظ أنها حوت فيما حوته من المواد الدراسية اللغة الفارسية وبيَّن كيف امتزج تاريخ هذا الجيش بتاريخ الاصلاح المحمدي العلوي امتزاجاً فريداً حتى صار تاريخه كما ذكر الاستاذ الجليل شفيق غربال في مقدمة الكتاب « تاريخ التعليم والسياسة الاقتصادية والسياسة الخارجية فوصف مجهودات محمد علي الجبارة في خلق مصر الحديثة وفي الاستغناء عن الخارج بادخال صناعات كثيرة وانشاء مصانع للاسلحة ثم ارسال البعوث من الشبان المثقفين الى اوربا حتى مصَّر تعليم الجيش واستطاع في مدة اثنى عشر عاماً ان يضع تحت امرة ابنه ابراهيم العظيم جيشاً مستقلاً مؤلفاً من مئتي الف جندي في دولة حديثة لم يتجاوز عدد سكانها اذ ذاك ثلث عدد سكانها الحالي »

وبعد ما انتهى المؤلف من وصف الدور الانشائي على هذا النحو عالج الدور الذي قام بهِ هذا الجيش في ميدان العمل ووفق توفيقاً طيباً في توضيح معالمه فتكلم عن الامبراطورية المصرية في عهد محمد علي وعن انتصارات ابراهيم العظيم في الشام وعن امانيه في الاستقلال واحلامه في مجد العرب — وكلها آمال حالت دون تحقيقها الدول الاوربية — وختم المؤلف بحثه بحديث الارقام ضمنهُ احصائيات عن عدد قوات الدفاع المصرية وتوزيعها في انحاء القطر وعن كادر رجال الجيش في ذلك العصر

وحوى الكتاب فوق كل ذلك صوراً تخطيطية واخرى ملونة لقواد الجيش ولضباطه وجنده بملابسهم واسلحتهم وكذلك خارطات توضيحية مبسطة للامبراطورية المصرية في عصورها المختلفة

***

الحق ان هذا البحث النفيس مزدوج الفائدة فهو كاف لكل من يريد صورة صادقة عن جيش محمد علي وهو أيضاً مثير لهمم الباحثين من القراء فأن المصادر التي استند اليها المؤلف وذكرها في بحثه لا تلبث ان تدفع القارىء الباحث الى صفحاتها حبًّا بزيادة الاطلاع — وكفى المؤلف فخراً ان يصيب الهدف على هذا النحو — هذا فضلاً عن ان البحث في حد ذاته فتح جديد ولا شك في ان اليوزباشي عبد الرحمن زكي قد أسدى باخراجه خدمة جليلة الى بلاده ولا سيما في هذا الوقت الذي أخذت فيه بانشاء جيشها القومي

احمد نجيب هاشم

معلقة الارز

لنعمة قازان

طبع بدار الطباعة والنشر العربية بالبرازيل

للعرب الجاهليين معلقات سبع على قول ، أو عشر على قول آخر . فلماذا لا يكون لعرب القرن العشرين معلقات كذلك ؟

ويقال ان العرب الجاهليين علقوا هذه القصائد الخالدة السبع او العشر على استار الكعبة اشادة بذكرها . فان الكعبة كانت مقصد حجيجهم ومكان اوثانهم

واليوم بطلت فكرة تعليق الشعر على الكعبة الاسلامية . فأين يعلَّق ؟ لقد فكر الشاعر اللبناني وطناً ، البرازيلي إقامة نعمة قازان، في اهداء قصيدته الى الارز الخالد في لبنان لتعلق هناك على أغصانه الخالدة ....

ففكرة الحنين الى الوطن الأول ظهرت واضحة في اختيار اسم الكتاب . فأي شيء أولى من الارز ليعلق لبنانيٌّ الشعر على شجره العتيق ؟

هذه المعلقة قصيدة واحدة من بحر المتقارب . واذا كان لكل عصر مميزاته في التعبير عن المعاني ، فان معلقات هذا العصر يجب ان تكون سهلة الالفاظ ، لا خشنة ولا غريبة ولا حوشية كما كان الشأن في العصر الجاهلي

والفكرة في معلقة الارز سامية نبيلة . فالأخاء يشيع فيها . والوطنية والحنين الى الوطن كذلك . الاَّ أن الشاعر متساهل نوعاً ما في استعمال الالفاظ . ولا نلتمس له العذر بأنهُ بعيد عن وطنه العربي . فان القراءة كفيلة بأن تقوّم اللسان مهما يضرب الانسان في نواحي الارض

وفي معلقة الارز نواح كثيرة من الخلق الكريم . اسمعهُ يقول

وليس التملق من شيمتي ... وليس التأنق من نزعتي
فاني ترعرعت بين الجبال ... على البأس والفقر والشدة
ومن عاش مثلي على جرأة ... فلا يستلذ سوى الجرأة

وحسب الشاعر « نعمة قازان » نبلاً انهُ وقف ربح معلقته على الفقراء والمحتاجين في لبنان والبرازيل

وأشكر لحضرته اهداءه هذا الكتاب اليَّ عن طريق المقتطف الاغر وأرجو ان نرى دائماً من جميل ادبه ما يحفزنا دائماً الى الكتابة عنهُ . وعلى الشاعر السلام

القاهرة محمد عبد الغني حسن

الاطلال

Mahmoud Teymour —Les Amours de Sami (roman égyptien).
Paris, éditions "Les Ecrivains contemporains„ 1938.

ان فن القصة، على وجهه العام، لا ينقاد لكل احد ،وإن ظن بعض المحدثين ان سياقة القصص قوامها ارسال القلم مع قليل من التفكير وكثير من التخيل . وسبب ذلك ان القصة تستلزم التجربة العملية والوقوف على الوان التأليف القصصي وقوة الاداء وبراعة التصوير وشدة التأثر

وكثير من هذه الشرائط مجتمع في فن الاستاذ محمود بك تيمور . ولذلك تراه في طليعة القصاصين عندنا . اما اللون الغالب على قلمه فالواقعية ، ومعنى هذا انهُ يميل الى الوصف الدقيق للمنظورات والتحليل المباشر للمحسوسات والتعبير الوافي عن المدركات والخلجات . بحيث انهُ يمسك بيد قارئه ويفتح عينيهِ وينبه ذهنه مع شيء من الاستئثار بالأمر

هذا وقد رأت دار فرنسية للنشر ان تنقل الى اللغة الفرنسية قصة طويلة للاستاذ تيمور ، عنوانها في العربية « الاطلال » الى جانب عشر أقاصيص . والترجمة الفرنسية قريبة من النص العربي، على غير استكراه ولا تمويه . ولغتها سهلة ، سليمة، وإن بعدت عن مطارح الزخرف والتأنق

ومما يسرُّنا أن تذاع آدابنا في بلدان الغرب بلغات اولئك القوم ،وذلك دليل قائم على جودة أقلام طائفة من كتابنا .وعسى أن يلقى كتاب الأستاذ تيمور في الفرنسية مالقيه من دلائل التقدير في العربية . فثل هذا عليهِ وعلينا جميعاً يعود ب . ف

قنال فاروق الاول

تلقينا من حضرة الباحث المدقق والمؤرخ المحقق الاستاذ عزيز بك خانكي المحامي مقالاً اقترح فيهِ ايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر بقنال نهري يبدأ من ثغر رشيد وينتهي الى ثغر السويس ويمر بفوه فالمحمودية فدسوق فالرحمانية فشبراخيت فتكلة العنب فكفر الزيات فبنها فالقناطر الخيرية الى القاهرة فالسويس عن طريق ترعة الاسماعيلية وقال ان هذه المسافة تقل مائة كيلو متر عن المسافة التي تقطعها السفن الآن من الاسكندرية الى بور سعيد بالبحر ومن بور سعيد الى السويس بالقنال وتنفيذ هذا الاقتراح لا يحتاج الاَّ الى توسيع النيل وتنظيمه وتعميقه لكي يتسع لاكبر البواخر على ان يسمى هذا القنال — بعد درس الفكرة وقبولها — قنال فاروق الاول . وحجتهُ في هذا الاقتراح ان قنال السويس ينتهي امتياز شركته بعد ثلاثين سنة وللشركة الحق في ان تخفض رسوم المرور فيهِ بلا قيد فقد يخطر لها ان تخفض هذه الرسوم

قبل انتهاء امتيازها تخفيضاً ينقص ما تجنيه مصر منهُ انقاصاً كبيراً فلا نجني منهُ اقل نفع

وقد بسط حضرته هذا الاقتراح بسطاً وافياً ودعمهُ بالارقام والاحصاءات والشواهد وعرضهُ اخيراً على الباحثين والمفكرين ليبدوا رأيهم فيهِ

دليل موجز
لمعروضات دار الآثار العربية

ظهر هذا الكتاب النفيس والمقتطف ماثل للطبع . فلا يسعنا اليوم الاَّ ان نشير اليهِ ، وفي العدد المقبل سنتناوله بما يستحقه من النقد

وقد كتبهُ بالفرنسية الأستاذ جاستون ڤييت ونقله الى العربية بتصرف الدكتور زكي محمد حسن ، امين دار الآثار العربية وصاحب التآليف الجليلة في الفن الاسلامي على ألوانهِ

ويقع الكتاب في ١١٥ صفحة. وفي آخره ٢٨ لوحاً مما تخزنهُ دار الآثار العربية من الطرائف والبدائع

أساليب الاجرام في مصر
وطرق الوقاية منها ووسائل منعها — تأليف اليوزباشي صالح زكي — صفحاته ١١٢ صفحة طبع بمطبعة النصر بمصر

يسرنا ان يتجه فريق من ضباطنا النشيطين من رجال البوليس والجيش الى ناحية الأدب والتأليف ويقف الجزء الصغير من وقت فراغه على خدمة وطنه وابناء أمته بكل ما أوتيه من علم وذكاء. وقد أخرج أخيراً الضابط النابه النشيط اليوزباشي صالح زكي معاون مكتب حماية الآداب بالقاهرة كتاباً نفيساً عن أساليب الاجرام في مصر وطرق الوقاية منها ووسائل منعها وهو الاول من نوعه في موضوعه وبحثه ويحوي فوائد جمة تفيد جمهور القراء بوجه عام ورجال القانون والبوليس والمشتغلين بالامن والهيئات المحترمة بوجه خاص وليس الغرض من وضع هذا المؤلف البحث في الجرائم من حيث انواعها واسباب انتشارها او الوصول الى وسائل فعالة لاستئصالها ولكن كيفية الاساليب التي يتبعها المجرمون عند ارتكاب جرائمهم والوسائل الممكنة التي يستطيع الانسان اتخاذها لمنع هذه الجرائم وضبط فاعليها واتقاء شرهم . و الكتاب مقسَّم خمسة أبواب في الباب الاول ذكر المؤلف جرائم القتل وأنواعها. وفي الثاني جرائم السرقات وأنواعها المتعددة وطرقها. وفي الثالث جرائم النشل وأساليبها المختلفة. وفي الرابع حوادث النصب. وفي الخامس جرائم التسول وأساليب المتسولين والوسائل الفعالة لمنع التسول

والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد ويطلب من مؤلفهِ بمصر وثمنهُ ١٠ قروش

باب الأخبار العلمية

الكشف الأثري الجديد

في صا الحجر (تنيس القديمة)

[حديث الدكتور دريوتون عنه]

أفضى الدكتور دريتون مدير مصلحة الآثار المصرية بالحديث التالي عن الكشف الأثري الجديد الذي اتيح للاستاذ مونتيه بعيد منتصف مارس وعن زيارة جلالة الملك فاروق له فقال : —

قبل ان أتحدث اليكم عن الكشف الأثري الجديد في صا الحجر يهمني ان اقول لكم ان ما ذكر عنهُ في الصحف يتضمن كثيراً من التحريف . وقد كان لي شرف مرافقة حضرة صاحب الجلالة الملك في زيارته لهذه المنطقة وكان جلالته قد تفضل فأبدى رغبته السامية في مشاهدة الكشف الجديد

وتشرفت بالسفر في معية جلالته بقطار الديزل الملكي فوصلنا الى فاقوس في الساعة العاشرة صباحاً وركب جلالته السيارة الى تل صا الحجر وكان يقودها بنفسه بسرعة فائقة

وعند وصول الركب الملكي الحفاَّر كان المسيو مونتيه مكتشف المقبرة في استقبال جلالة الملك وتفضل جلالته فهنأ المسيو مونتيه بتوفيقه الى هذا الكشف الأثري

ولقد ذكرت الصحف أن صاحب المقبرة والتابوت الذي عثر عليه في داخلها هو الملك بسوسنس الثاني ولعل ذلك راجع الى ان النقوش الملونة والبارزة على جدران المقبرة ذكر فيها هذا الاسم كما ان هذه الصحف ذكرت ان هناك تابوتين احدهما وهو الخارجي من الفضة والثاني — الداخلي — من الذهب

والحقيقة أن المقبرة لملك اسمه شي شونك وليس هناك سوى تابوت واحد من الفضة يمثل شكل آدمي له رأس صقر وقد وضحت لنا هذه الحقيقة عندما أمر جلالة الملك برفع غطاء التابوت الفضي فلم نجد تابوتاً ثانياً من الذهب كما ذكر في الصحف خطأ وانما وجدنا مومياء محنطة سليمة مغطاة برداء من الذهب بديع النقش رائع المنظر وقد وضع على رأس المومياء قناع من الذهب الأبريز على شكل رأس صقر وتبين لنا من قراءة النقوش الظاهرة على الغطاء الذهبي ان المومياء للملك شي شونك

***

وهناك خمسة ملوك بهذا الاسم حكموا مصر في المدة الواقعة بين سنة ٨٥٠ الى ٧٥٠ قبل الميلاد واولهم الملك شي شونك الاول الذي احتلَّ القدس واستولى على كنوز الملك رحبعام خليفة الملك سليمان وثروته . ولا شك أن هذه المومياء هي لواحد من هؤلاء الملوك الخمسة وسيسفر البحث العلمي عن حقيقته

وشاهدنا بجوار التابوت جثتين باليتين ورأينا مع بقايا الجثة الموجودة الى يسار التابوت عقداً من حجر احمر ثمين مركباً على سلسلة من الذهب . وعلى مقربة منها وجدنا عدداً من التماثيل الجنائزية الصغيرة التي يعثر عليها عادة في مقابر الموتى من قدماء المصريين

وتناول المسيو مونتيه من بين هذه التماثيل تمثالاً جميلاً على شكل صقر من الحجر الازرق بديع الصنع وقدمهُ الى جلالة الملك ففحصهُ جلالته وابدى اعجابه السامي بهِ

ورأينا في هذه الحجرة ايضاً بعض الأواني الجنائزية وهي مغلقة بالطين فأمر جلالته بفتح بعضها ففتح المسيو مونتيه ثلاثاً منها فاذا بداخلها ثلاثة تماثيل من الفضة تمثل الملك شي شونك واتضح انها عبارة عن اوان على هيئة تماثيل وفي داخل كل منها بعض احشاء الميت وكان اسم الملك شي شونك منقوشاً على هذه التماثيل الفضية الثلاثة فأكد ذلك ان المقبرة للملك شي شونك وليست للملك بسوسنس الثاني

ووجدنا في جانب من الغرفة آنية كبيرة من الفخار مسدودة بالطين وبلغ ارتفاعها نحو ١٣٠ سنتيمتراً وقطرها ٣٠ سنتيمتراً ولم تعرف محتوياتها بعد

وتحيط بهذه الغرفة او المقبرة غرف عديدة لم يفتحها المسيو مونتيه بعد ولكنهُ أحدث ثغرة في احداها فشاهد في داخلها تابوتاً كبيراً سليماً من حجر الجرانيت الاسواني

وقال جلالة الملك انهُ لو كان مكان المسيو مونتيه لاستمرَّ في الكشف عن محتويات هذه الغرف في الموسم الحالي

وترجع مكانة هذا الكشف الى العثور على مقابر لملوك الاسرات ٢١ و ٢٢ و٢٣ من ملوك الفراعنة وهي فترة كانت غامضة في تاريخ قدماء المصريين اذ لم يسبق اكتشاف مقابر لملوكها وانما عثر على بعض تماثيل لهم في طيبة ولا شك ان هذا الكشف سيكشف عن الحقائق التاريخية في مدة حكم هذه الاسرات الثلاث وقد ظلت غامضة حتى الآن

كما ان هذه هي المرة الاولى التي يعثر فيها على مقابر لملوك قدماء المصريين في غير الصحراء

ويتضح هذا الكشف ايضاً ما ذكره بعض المؤرخين اليونانيين مثل هيرودتوس من أن احد ملوك الفراعنة ، دفن في معبد المدينة ولم يتحقق هذا الزعم الاَّ بهذا الكشف الجديد لأن المقبرة التي نحن بصددها تقع على مقربة من معبد مدينة تنيس المعروف

وقد ابدى جلالة الملك اعجابه السامي بهذا الكشف وكرر تهنئة المسيو مونتيه ولاحظ جلالته ان المكان في جهة بعيدة عن المواصلات التليفونية والتلغرافيــة فأصدر امرهُ الكريم بتوفير هذه الوسائل فيها وقد استغرقت الزيارة الملكية نحو ساعتين ثم ركب جلالة الملك وحاشيته السيارات الى فاقوس . وفي الطريق توقف الركب قليلاً ريثما تناول جلالته طعاماً خفيفاً في الصحراء ثم استأنف الركب المسير الى قطار الديزل حيث عاد جلالة الملك الى القاهرة

شركات بنك مصر

والمنشآت الصناعية والاقتصادية في مصر

نشر مجلس الادارة لبنك مصر تقريره السنوي وقدخص الجزء الثاني بالكلام عن أعماله في خلال سنته المالية فدلت الأرقام التي سردها التقرير على استمرار تقدم هذا المعهد المالي الوطني وازدياد الثقة به ازدياداً أبلغ الودائع فيه الى مبلغ ١٥ مليون جنيه واتسع نطاق جميع أعماله مع أن البلاد تجتاز أزمة مالية واقتصادية اخذ تأثيرها يبدو في كل مكان

ولا تزال الشركات التي أسسها البنك آخذة في التقدم ولا سيما شركة المحلة الكبرى للغزل والنسج وقد أكملت بانشاء مصانع نسج للصوف والحرير فصار في طاقتها ان تجهز البلاد بجانب كبير من حاجتها الى هذه المنسوجات

ولقيت هذه المصانع بحق مايضاعف عزمها من تفضل جلالة الملك بشراء بعض منتجاتها فكان ذلك نداء عمليًّا عالياً من جلالته الى الجميع بان يحذو حذوه ويؤيدوا هذه المصانع تأييداً فعليًّا

ولا يزال البنك ماضياً في سياسته الصناعية المطلوبة وهي درس المشروعات والتدقيق فيها حتى اذا أعدّ معداتها ووضع أساساً متيناً لها أقدم على مباشرتها بالهمة المأثورة عنه وبعد النظر

ومن هذه الشركات الجديدة شركة لعصر الزيت وصنع الصابون وهاتان صناعتان موجودتان في مصر فالمطلوب من الشركة الجديدة ان لا تقتصر على اخراج الصابون العادي الذي تخرجه المصانع الأخرى لان الاكتفاء بهذا وحده لا يليق بعظمة البنك ولا بمساعي اقطابه . فالمطلوب اذاً هو الابتكار واخراج صابون مستوف للشروط التي يشترطها الناس في هذا العصر حتى تستطيع الشركة الجديدة ان تحل منتجاتها محل ما يأتينا من الصابون من أوربا . وقد عالج المقطم هذا البحث وأثبت ان جميع عناصر النجاح موجودة في مصر فليس هناك ما يمنع النهوض بهذه الصناعة القديمة الى المستوى الذي يليق بها والذي يقتضيه تقدم البلاد على نحو ماصنع المستر ليفر (لورد ليفر هيوم) الانكليزي صاحب مصانع صنليت الكبيرة في بلاده

أما شركة المناجم والمحاجر فهذه يرجى ان تمكن البلاد من الانتفاع بمحاجر الرخام والمرمر التي في انحاء القطر كمنطقة اهرام الجيزة وجبل بني سويف وان تنشط صناعة استنباط المعادن ولا تزال هذه الصناعة القديمة في مستهل نهضتها الجديدة

وأما شركة الدخان فقد قال التقرير ان الغرض منها اعادة سمعة السجائر المصرية الى ما كانت عليه وهذا جهد محمود سيشمل نفعه المدخنين والتجارة المصرية ومصانع السجاير الاخرى نفسها بما يخلق فيها من نشاط لمجاراة هذه النهضة الجديدة

ويسرنا ان نقول اننا سنبدأ في الشهر القادم في نشر مقالات عن المنشآت الصناعية والاقتصادية الكبيرة في مصر نستهلها بمقال عن قطبها طلعت حرب باشا وشركات بنك مصر

تحسين حالة الصحة في المدارس

جاء في انباء الصحف اليومية ان اللجنة التي ألفها وزير المعارف برآسة الدكتور حافظ عفيفي باشا لدرس موضوع تحسين الحالة الصحية في المدارس المصرية ولاسيما الأميرية منها فرغت من هذا الدرس ووضعت مشروعاً عرض على مجلس الوزراء فأحاله الى اللجنة المالية في وزارة المالية . فلما اطلعت عليه رفضت الاعتماد المالي المطلوب له وقدره ٣٥ — على ما قيل — الف جنيه وأبت اقرارهذا الطلب

***

فاذا صحّ الخبر وهو مستقى من مصدر عليم كانت ما صنعته اللجنة المالية من أغرب ما سمع عندنا فقد أهتزّ الرأي العام في جميع طبقاته لما اطلع على ما أذاعته وزارة المعارف عن سوء الحالة الصحية في كليات الجامعة والمدارس الثانوية والأبتدائية وضجّ ذوو الرأي في البرلمان وفي خارجه من وجود هذه الحالة وامكان استمرارها . وعمد وزير المعارف الى مواجهة الأمر فألفت هذه اللجنة من رجال أكفاء واختصاصيين منهم اطباء لدرسه والأشارة بما يحسن أو ما يلزم لوقاية النشء من عوامل المرض والضعف ورأى من جهة أخرى أن يتوسل بو سائل شتى لاستدرار المال من المحسنين وسواهم عسى أن يتوافر له مبلغ من المال يعنه على الأصلاح . وحجة اللجنة المالية هي أن مالية الدولة لا تسمح باجازة هذا الأعتماد

غير ان الرأي العام يقابل هذا القرار بسؤال او أسئلة فيقول اذا كانت مالية الدولة لا تسمح بما يلزم من مال لوقاية تلاميذ المدارس وتلميذاتها فما الفائدة من انفاق بضعة ملايين في كل سنة على مدارس تخرج للأمة شباناً وشابات مزودين بالعلم والمعرفة ولكن تعوزهم الصحة والعافية وهما التاج الموضوع على رؤوس الاصحاء

***

واذا كان اعتماد هذا المال للغاية السامية التي يراد لها غير مستطاع بسبب حالة الخزانة العامة فكيف تسوغ اللجنة المالية اعتماد المال لسيارات الوزراء وكبار الموظفين وسواهم وانفاق المال على الاوبرا وجوقات التمثيل الاجنبية ونحو هذا من الكماليات واي فائدة جنينا من انفاق اكثر من عشرين الف جنيه في السنة على اشتراكنا في جامعة الامم سوى تكليفنا جمع احصاءات واستيفاء معلومات الى آخر القائمة الطويلة التي تبذل فيها بدر المال على كماليات لا تكاد تذكر في جنب المطلوب هنا

***

ان الامر أجل من ان يفصل فيه بقرار اللجنة المالية هذا وعلى وزير المعارف ان يعيد الكرة ويصر على طلب المال والاّ افسد سوء الحالة الصحية معظم الجهود المبذولة لنشر الثقافة واعداد شباب البلاد لما هو منتظر من العمل والجهد الصحيح

خط أنابيب البترول

بين السويس والقاهرة

عرضت احدى احدى شركات البترول العظيمة على الحكومة مشروعاً بمد خط من الانابيب يسيل فيها البترول من السويس الى القاهرة كخطي الانابيب اللذين مدا من شمال العراق احدهما الى حيفا والآخر الى طرابلس الشام من سواحل سوريا

وقد لقي هذا المشروع ارتياحاً في الدوائر الرسمية وهي تدرسهُ الآن بعد ما قبلتهُ مبدئيًّا لوضع الشروط اللازمة. وقلنا كذلك ان مشروعاً كهذا عرض على الحكومة من سنوات فلم تقبلهُ ولأنها رأت فيه اجحافاً بايرادات سكة الحديد

فلما اصلح الطريق الصحراوي بين القاهرة والسويس صار في الامكان نقل الزيت ولاسيما البنزين بفناطيس كبيرة مركبة على سيارات ضخمة وألف الناس منظر هذه الفناطيس وهي قادمة قوافل من السويس تنقل البنزين الى مستودعاته في العاصمة

وقد صار توفير الوقود السائل من اركان الدفاع الوطني ولاسيما اذا تيسر لالمانيا توسيع اتفاقها مع رومانيا على ما يستنبط من زيتها وتوجيههُ الى اسواق المانيا بدلاً من بيعه للبلدان الاخرى وفي جملتها مصر كما هي الحالة الآن . وحيث ان معظم البترول والبنزين في مصر يؤتى به من رومانيا فليس من سداد الرأي الاعتماد على مصدر واحد. بل من الحكمة تدبير مصدر آخر هو هذا الذي يكفله خط الأنابيب الجديد فيستطاع به نقل الزيت المجلوب من منابع شركة الانجلو برشان في بلاد ايران فان الزيت يسيل منها الى جزيرة عبادان بأنابيب فيتصفى هناك ويرسل الى الآفاق

وقد عرض على الحكومة من بضع سنوات مشروع لشراء النصيب الأوفر من أسهم شركة بترول في العراق يؤتى بزيت منابعها لمصر فلم يلق المشروع قبولاً من حكومتنا في ذلك الحين. وقد سمعنا بعض العارفين يأسف الآن على ما مضى ويتمنى لو تيسر اعادة عرض المشروع عليها

بقي أن جهود شركة الأنجلو اجبشن فيلدس في منطقة الغردقة وما يليها على ساحل البحر الأحمر أسفرت عن نجاح فزاد مقدار ما تستخرج من الزيت الطبيعي الى ثلاثة أضعاف ما كان وصار المقدار الأسبوعي يجاوز ١٢ الف متر مكعب وهذا يربي على ستمائة الف طن في السنة ولكن مصر تحتاج الى أكثر من هذا المقدار للأعمال العسكرية والشؤون المدنية. أفلا تستطيع الحكومة أن توسع اتفاقها على توسيع نطاق البحث والتنقيب بعد ما عدلت شروط الرخص تعديلاً ينشط الشركة على مواصلة العمل والمجازفة بما يلزم لجس الأرض من جهد فني ومال

الحالة الصحية في القرى

روّت الصحف ان الدكتور حسن محمد عثمان مدير قسم الملاريا بوزارة الصحة وضع مشروعاً للمراحيض في القرى يوفر نحو مليوني جنيه في السنة وان الوزارة أرصدت مبلغاً لتجربة هذا المشروع الخ

ويتلخص هذا المشروع في التخلص من المواد البرازية في القرى بطريقة صحية وكفيلة بسلامة موارد ماء الشرب من التلوث وللقضاء على جميع الامراض التي تنتقل فيها العدوى من هذه المواد كالكوليرا والتيفوئيد والدسنطاريا والبلهارسيا والانكلستوما

***

وجاء في المشروع انهُ يوجد بالقطر المصري أربعة آلاف قرية يسكنها ما لا يقل عن اثني عشر مليوناً من الريفيين تنتشر بينهم طفيليات معوية

ويرى الدكتور حسن عثمان ان انشاء مجار عمومية في القرى في الوقت الحاضر غير مستطاع فضلاً عن انهُ يكلف الدولة نحو مائة مليون جنيه ولذلك وضع نموذجاً لمرحاض قروي يمكن بواسطته تحويل المواد البرازية الى سماد من غير ان يتكلف القروي نفقات ما ، بل بالعكس فان قيمة السماد الذي ينتج من هذه المواد يبلغ في السنة نحو مليوني جنيه

ولما كان هذا المشروع من المشروعات التي تهم السواد الأعظم من أهالي القرى فسنأتي على تفاصيله في عدد تالٍ لضيق المقام اليوم

مادة كيمياوية كالتور الجنسي

في كثير من النباتات والحيوانات مادة كيمياوية تدعى ترايمثيلامين Trimethylumine وقد أثبت البحث العلمي على يدي الاستاذ لاسكو هافاس بجامعة بروكسل حديثاً ان لهذه المادة فعلاً فسيولوجيًّا شبيهاً بفعل التور الجنسي (الشقي sex—hormone) هذه المادة شديدة الفعل حتى ولو حلت في ٢٥ الف ضعفها الى ٦٠ الف ضعفها من الماء

فاذا حقن نصف أوقية من هذا المحلول في جذوع نبات الطاطم زاد عدد زهراته ٢٢ في المائة واذا وضعت الضفادع في محلولها ، طرحت جلدها استعداداً للمزاوجة مع انقضاء ثلاثة اشهر على فصل المزاوجة

وقد عولجت حيوانات اخرى من القوازب (امفيبية) غير الضفادع ، فكان تأثير هذه المادة فيها واحداً من حيث ايقاظ الغرائز الجنسية الهاجعة فيها

ولكن المادة سامة ، ولذلك اضطر الباحثون لوقف التجربة بعد ايام لكي لا تصاب الحيوانات بضرر

القصص في قالب جديد

أساس مسرحية «كنت هنا قبلاً» في الاوبرا الملكية

بريستلي من أدباء الأنكليز المعاصرين جمع بين التفوق في كتابة «القصة» والتفوق في كتابة «المسرحية» وليس الجمع بينهما بالشيء العادي المألوف في أديب واحد فنفحنا في ميدان القصة بكتابيه المشهورين «جود كومبانينز» و «انجل بيفمنت». أما مسرحياته فقد أحرزت رواجاً عظيماً ولكنهُ لم يكتف بالأسلوب الرائج بعد اتقانه فكان يعمد الحين بعد الحين لي وضع مسرحيات يطويها على أفكار أو آراء فلسفية اجتماعية غير مألوفة ومسرحية «كنت هنا قبلاً» من هذا القبيل . وهي تدور على «معرفة المستقبل» وهل في النفس الأنسانية ما يمكنها من معرفته والتحكم بهِ وهي فكرة قريبة من فكرة أخرى له في مسرحية سابقة اذ شبه الأنسان بملاح زورق في نهر وصل الى منعطف فيه فاستطاع من مكانه أن يرى ما اجتازه من النهر من ناحية . وما لا يزال أمامه . فكأنهُ يرى الماضي والمستقبل في آن

الاَّ ان الفكرة الفلسفية ليست بحثاً مملاً في حوار يضني سامعهُ بل هي شائعة في مسرحية محبوكة الحوادث فيتبين المشاهد ما يريده المؤلف من تتبع حوادث المسرحية وأحوال أشخاصها ومن بعض الأقوال الفلسفية التي تتخلل الحوار

وبريستلي في مسرحيته هذه واقع تحت تأثير القائلين بأن الكون يسير في دوائر معادة متشابهة وأن ما يقع من التغير فيها يرجع الى «تدخل» مشيئة الأنسان . فالذين ينعمون بالمعرفة والمشيئة يستطيعون ان يجعلوا من هذه الدوائر لولباً مرتفعاً الى فوق والذين تعوزهم هذه النعمة تتحول الدوائر فيهم الى لولب متجه الى الدرك الاسفل فالبوار

والمسرحية تدور حوادثها في حانة قديمة في الريف الانكليزي ويسيطر على اشخاصها من رجال ونساء شخص رجل غريب الاطوار يدعى الدكتور جورتلر وقد مثله المستر لويس كاسون ابدع تمثيل وهو الذي مثله عندما اخرجت الرواية في لندن اولاً

ففي الحانة صاحبها واسرته ينتظرون زواراً . واذ هم منتظرون يدخل عليهم الدكتور جورتلر ويسألهم هل الزوار الذي ينتظرونهم شاب وزوج وزوجته فيجيبون بالنفي . ولكن ما يقع فعلاً هو ان الزوار المنتظرين يعتذرون عن المجيء ويجيء غيرهم وفقاً لوصف الدكتور مع انهُ لم يكن على علم مادي بذلك قبلاً . ومن ثم تبتدىء حوادث الرواية في التتابع . وجورتلر يبث في جوها معنى خفيًّا . فهو يقول ما يدل على انهُ عارف بما سيحدث لهؤلاء الناس . وذلك على قوله وفقاً لحلم رأى فيهِ ما يتوقع حدوثه او لان المتوقع يشبه حادثاً حدث قبلا فتذكره اي ان حوادث المستقبل شبيهة — بحسب رأي الدورة في الكون — بما حدث في الماضي

واذن فمعرفة المستقبل من قبيل التذكر. وعندما ترتسم في افق حياة هؤلاء الناس صورة المأساة وفقاً لما يتوقعهُ جورتلر — او لما يتذكره — يبين لهم رأيه في امكان «التدخل» ومنع ما ينتظر حدوثه ثم يتخذ من هذه الخطوة تكأة الى السمو بالحياة الى افق اعلى

فمسرحية «كنت هنا قبلاً» تعد غريبة في الفكرة التي قامت عليها وأطوار أشخاصها ولا سيما الدكتور جورتلر، ولكنها تفتح أمام العقل ابواباً كثيرة التأمل

المكتشفات الاثرية

تؤيد الأقوال الكتابية في الاسفار المقدسة

أثبت علماء الآثار ان جنسي الذكور والاناث في مصر الفرعونية كانا يتحليان بالحلى على السواء. وان تلك الحلى كانت تغدق عليهما من لدن الملك، رمزاً لرضائه عنهما. وأمامنا في المؤلف الانكليزي النفيس الحديث المسمى «تاريخ التوراة» الذي ننقل عنهُ هذه الانباء صورة ضوئية منقولة عن رسم زيتي أثري في حيطان مدافن تل العمارنة، تذكاراً لانعام اخناتون (الملك الذي حكم مصر في سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد) على احد كبار موظفي بلاطه وعقيلته بسلسلتين من الذهب

وجاء في الكتاب المقدس من عدد ٤١ ـ ٤٤ بالاصحاح ٤١ من سفر التكوين ما يأتي:

ثم قال فرعون ليوسف «انظر قد جعلتك على كل ارض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده وجعلهُ في يد يوسف وألبسه ثياباً من كتان. (وقد سمي في الكتاب المقدس بلبوص) ووضع طوق ذهب في عنقه. وأركبهُ في مركبته الثانية ونادوا أمامهُ، اركعوا. وجعله على كل ارض مصر. وقال فرعون ليوسف: انا فرعون فبدونك لا يرفع انسان يده ولا رجله في كل ارض مصر

وقد عثر علماء الآثار ايضاً على صورة زيتية مرسومة على حيطان احد مدافن بني حسن، من عهد الاسرة الثانية عشرة الفرعونية تمثل البدو الساميين، قادمين مصر يحملون المرَّ والبهارات والعسل واللوز والكُنْدُرَ «اللبان الذكر» وهدايا من حيوانات القنص، الى حاكم الصحراء الشرقية في عهد سنوسريت الثاني Senusret II في سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد

وقال الكتاب المقدس في هذا الصدد

فقال لهم اسرائيل أبوهم خذوا من اخر جَنَى الارض في أوعيتكم وانزلوا للرجل «يقصد يوسف ابنه» هدية قليلاً، من البلسان (١) وقليلاً من العسل وكثيراء ولاذناً وفستقاً ولوزاً. وخذوا فضة اخرى في أياديكم. والفضة المردودة في أفواه عدالكم، ردوها في اياديكم لعله كان سهواً. وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا الى الرجل. والله القدير يعطيكم رحمة امام الرجل حتى يطلق لكم اخاكم الآخر وبنيامين. تكوين اصحاح ٤٣ اعداد (١١ ـ ١٤) والمقصود بالبلسان كما حققهُ العلماء المصريون «المصطكى».

أمل جديد

للمصابين بالبول السكري — عصارة الكرنب الاخضر بدل الانسولين

قالت مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي: —

قد يحل عصير الكرنب الأخضر الحقير، محل الانسولين الخطير في علاج مرضى البول السكري. وذلك بناء على تقرير نشره عالمان انكليزيان، رأيا فيه ان خلاصة الكرنب معوان للجسم على هضم السكر الذي يدخله. وهو العمل الذي يعمله الانسولين عند ولوجه البدن حقناً تحت جلد المريض

وجاء في كتابي الصناعات والصناع المطبوع في القاهرة سنة ١٩٢٧ في باب الغدد ما يأتي:

. وبقرب المعدة أيضاً غدة كبيرة تسمى البنكرياس. وهذه تولد عصارة تسمى العصارة البنكرياسية وهي تفرغ في المعى بواسطة قناة. أما الغدد ذات القنوات فبعضها يفرز مفرزات داخلية، عدا ما يسيل من قنواتها. ومنها غدة البنكرياس التي لعصارتها تأثير عظيم في تغذية الجسد من مقدار السكر الطبيعي الموجود فيه. بحيث اذا اعتراها اي خلل فلم تستطع القيام بهذه الوظيفة، أصيب الانسان بمرض البول السكري

وروت مجلة طبيب العائلة الانكليزية في هذا الموضوع ما يأتي: —

اكتشف الأنسولين، وهو الخلاصة البنكرياسية التي تصون حياة المرضى، بداء البول السكري، سنة ١٩٢٢، بيد ان من مساوئه المشهورة، وجوب حقن الجسم به تحت الجلد مباشرة ليمتصه الدم رأساً دون تغيره بدخوله في الجهاز الهضمي. ومن غريب أمر أولئك المصابين أن أغلبهم لا ينزعجون من تواتر غرز إبر محاقن الأنسولين في جلودهم على الدوام. اذ هم يفضلون ذلك على الأحوال السيئة التي كانوا يكابدونها قبل تناولهم اياه

***

ولم يفتُر العلماء في جميع انحاء العالم في استكشاف، مادة طبيعية ايًّا كانت، لتقوم مقام الأنسولين بحيث يستطيع المريض، جرعها فتغنيه عن عذاب محاقن الانسولين، على أن ينتفع بها انتفاعه بالانسيولين، وقد توغَّل الباحثون في نواحٍ كثيرة، باحثين في جميع ضروب المواد، ومنها خلاصة جذور البصل ونخالة الزمير والخميرة والتين الشوكي!! حتى هداهم بحثهم حديثاً الى الكرنب الاخضر اذ نجح عالمان في تشيكوسلوفكيا في استخراج خلاصة قوية جدًّا منهُ تشبه الانسولين. غير ان الوسائل الحالية التي توسَّلا بها الى استخلاصها تقتضي استهلاك عدة أرطال من الكرنب يوميًّا، صوناً لحياة مصاب واحد بالبول السكري. وربما يفضي هذا الى اخفاق هذه الطريقة، ولكننا واثقون كل الثقة بأنهُ ستعلن عما قريب، مكتشفات أخرى عوناً للمصابين بذلك الداء الوبيل. اما الانسولين فليس له نظير حتى الآن

عوض جندي

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الرابع والتسعين

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — المهاجرين الاستاذ عمر افندي الطيبي

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في القدس الشريف ويافا وحيفا الخواجات بولس سعيد ووديع سعيد
اصحاب مكتبة فلسطين العلمية

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في الناصرة وفلسطين القس فريد عوده

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي جريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

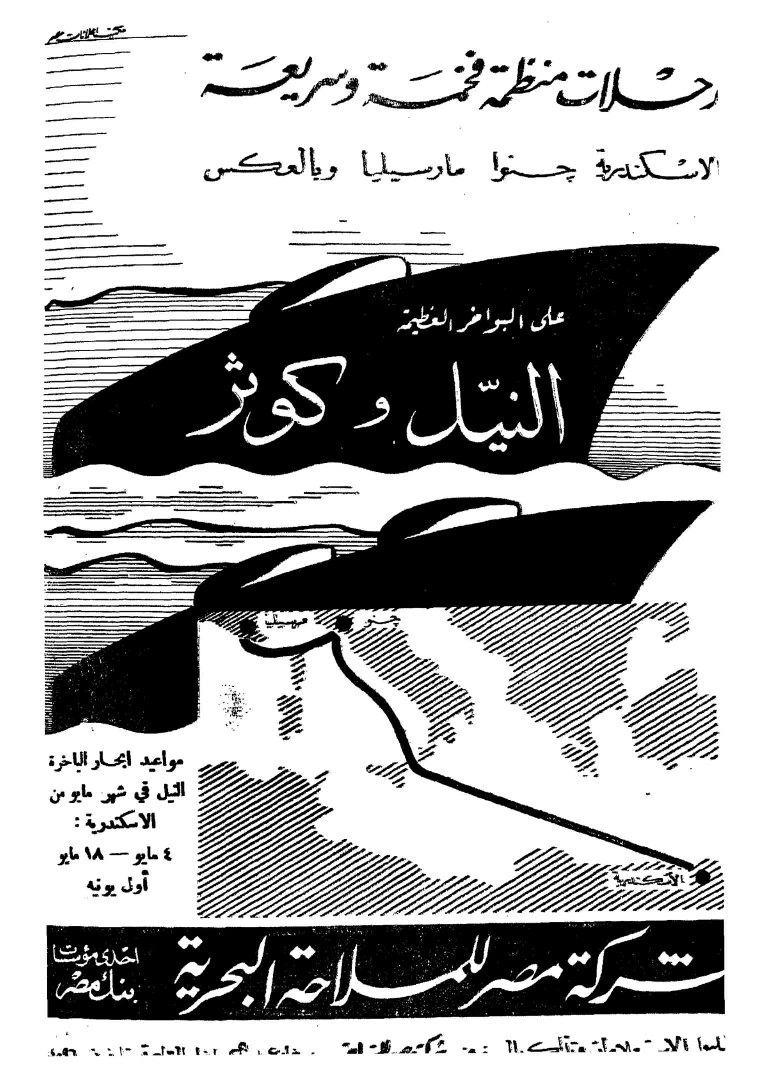
في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

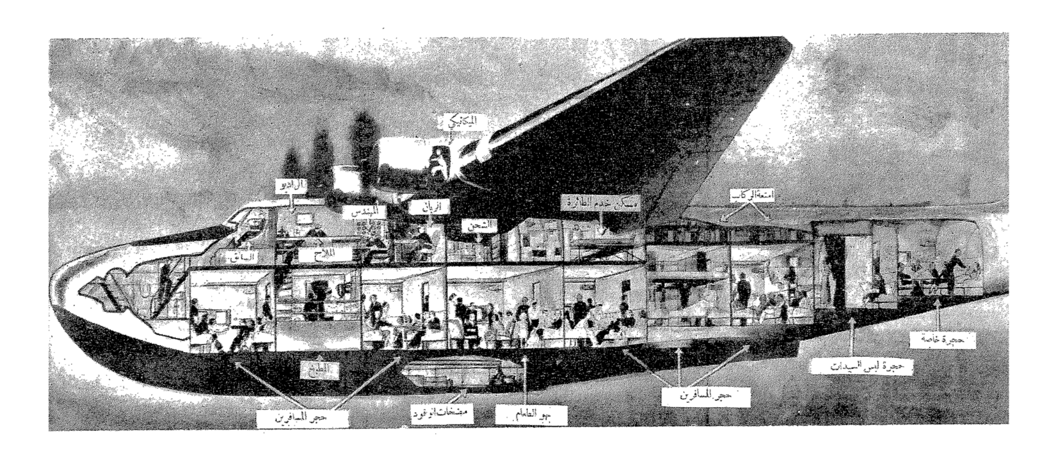
عن سنة م		عن سنتين م
١٠٠	في القطر المصري والسودان	١٨٠
١٢٠	في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»	٢٠٠
١٤٠	العراق «بريد السيارة»	٢٣٠
١٤٠	اي ٧ دولارات لاميركا الشمالية	٢٤٠
١٢٠	اي ٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين	٢٠٠

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }


مكتب اعلانات
ارتدى ياسيدتى حرير مصر الطبيعى
تبدى عظيمة رائعة
ان أصناف الحرير التى تنتجها
مصانع شركة مصر لنسج الحرير
قد تفوقت على جميع أنواع الحرير
الأخرى فضلا عن اعتدال الأسعار
اطلبوا حرير مصر الطبيعية من
شركة بيع المصنوعات المصرية
ومن كافة المحلات الأخرى
شركة مصر لنسج الحرير
اللوزى بك
سابقا



رحلات منظمة فخمة وسريعة
الاسكندرية جنوا مارسيليا وبالعكس
على البواخر العظيمة
النيل وكوثر
مرسيليا
جنوا
الاسكندرية
مواعيد ابحار الباخرة
النيل في شهر مايو من
الاسكندرية :
٤ مايو — ١٨ مايو
أول يونيه
شركة مصر للملاحة البحرية
احدى مؤسسات
بنك مصر



الطائرة الاميركية « يانكي كلبر Yankee Clipper »

(راجع مقال « انتظام السفر الجوي فوق المحيط الاطلنطي » صفحة ٥٢٦)

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع والتسعين

١ مايو سنة ١٩٣٩ — ١١ ربيع اول سنة ١٣٥٨

العقار العجيب

قصة كشف طبي عظيم الشأن

«السلفانيلاميد» ملك العقاقير، وتأثيره في شفاء الامراض

صبية مستلقية على سرير بمستشفى وهي تلهث بغية نفحة من الهواء. لقد بلغت حرارتها اربعين درجة ونصف درجة مئوية وتدل الحركة المتقطعة في مقلتيها على ان العضلات المسيطرة عليهما قد اصيبت ببعض الشلل ففقدت سيطرتها. الصبية مصابة بالحمى الشوكية، وهي مرض قاتل اذا بلغ هذه المرتبة. لقد فحص السائل الذي ينساب في قناتها الشوكية فاذا هو كثيف عكر بدلاً من ان يكون صافياً لا لون له. وهذا دليل على ان ملايين من جراثيم «الستربتوكوكس» ترتع فيه. ولكن الصبية لم تمت. ذلك بأن الاطباء حقنوها بمقادير يسيرة من عقار جديد واخذوا يراقبون تأثير ما فعلوا، فما انقضى اسبوعان حتى كانت الصبية قد برئت مما اصابها

وقد كان هذا العقار مسحوقاً ابيض أطلق عليه مجلس الصيدلة والكيمياء باميركا اسم «سلفانيلاميد Sulfanilamide» وقد روى الدكتور ملون [1] في كتابه الخاص بهذا الموضوع ان اول مريض في اميركا عولج بهذا العقار كان مصاباً بالتهاب البريطون الستربتوكوكي على اثر عملية الزائدة الدودية فشفي

(١) Ralph R. Mellon مدير معهد الباثولوجيا في مستشفى وسترن بنسلفانيا بمدينة بتسبرج الاميركية. وهذا المقال كتبه كاتب علمي أميركي بناء على كتاب الدكتور ملون وما استخلصه منه من الحقائق الجديدة التي حققت بعد ظهور الكتاب. ونصلنا ملخص عنه كما نشر في مجلة هاربرز

كان الباحثون الطبيون يذهبون الى ان البكتريا لا تتأثر بعلاج الامراض المختلفة بمواد كيميائية خاصة . ولكنَّ الاطباء الآن غدوا يملكون مادة كيميائية مركبة Synthetic تحدث تحسناً لا ريب فيهِ في المصابين بالامراض العفنة. ومما يبعث على العجب ان تأثير هذه المادة لا يقتصر على مرض واحد . بل انها والمواد التي من قبيلها تؤثر تأثيراً عجيباً في شفاء طائفة من الامراض المكروبية . وقد بلغ من العجب والاعجاب بتأثيرها ان اقبل عليها الباحثون في كل قطر حتى غدا الاطباء وهم عاجزون عن تتبع التقدم في بحثها وغدا على من يريد التوفر على دراستها ان يطلع على ٣٠٥ رسائل علمية في نواحٍ مختلفة عن طبيعتها وفعلها . والحبل على الجرَّار

١ — نواحي فعله العجيب

﴿ حمى النفاس ﴾ خذ مثلاً الامومة. يقدر عدد المواليد السنوي في الولايات المتحدة الاميركية بنحو مليونين ، يولد نصفهم في بيوت الفقراء من الناس بحيث يتعذَّر على ارباب العائلات الفوز بالعناية الطبية الوافية بزوجاتهم ، فيموت في الولايات المتحدة كل سنة ١٤ الف سيدة عند الوضع. ومن اسباب الوفيات حمَّى النفاس وهي تنشأ عن غزو ضرب معين من المكروبات للجروح الداخلية في المرأة التي تحدثها الولادة . وقد جرَّب السلفانيلاميد اولاً في علاج هذه الحمَّى من سنتين في انكلترا حيث كان معدل وفيات المصابات بحمى النفاس يبلغ ٢٢٫٨ في المائة. فعالج الدكتور كولبروك Colebrook مائتي نفساء مصابات بهذه الحمَّى فخفض معدَّل الوفيات بها الى ٥ في المائة . ثم ثبت ان النفساء المصابة التي عولجت بهذه المادة استطاعت ان تسبق زميلاتها في العودة الى دارها لان العلاج بها عجل في شفائها . ثمَّ دلت التجارب التي اجريت في احد مستشفيات الولادة بباريس ان استعمال السلفانيلاميد يمنع حمى النفاس. وقد عولجت بهِ الف سيدة عند دخولهنَّ المستشفى للولادة او بعيد الوضع ، فحدثت بعض الاصابات بحمى النفاس ولكن لم تحدث وفاة واحدة ، وهو ما لم يقع قبلاً في تاريخ ذلك المستشفى . ويقال ان استعمال هذا العقَّار ينقذ نحو الفي والدة كل سنة في الولايات المتحدة الاميركية

﴿ الحُمْرة ﴾ وتأثير السلفانيلاميد في امراض اخرى ليس اقلَّ من تأثيره في حمَّى النفاس. فالحمرة تقتل عُشْر الذين يصابون بها . وهي على اشدّ ما تكون فتكاً في الصغار والمتقدمين في السن . فمعدل وفيات الاطفال المصابين بها ٧٥ في المائة او اكثر . ولكن البيانات الطبية المحققة عن الف اصابة بالحمرة عولجت بالسلفانيلاميد تدلُّ على ان معدَّل الوفيات فيها أقل من واحد في المائة . ومن الأمراض التي شفيت بهذا العلاج السيلان — بلغ معدَّل الشفاء من ٧٥ الى ٩٠ في المائة من الاصابات التي عولجت ومعظمها في فترة تتفاوت من ثلاثة أيام الى خمسة — وكذلك الحمَّى القرمزية والحمى الشوكية الوبائية والتهاب اللوزتين الحاد والتهاب الحلق السمّي ، وقد تسفر

المباحث الطبية عن عنوّ أمراض أخرى لهذا العقّار العجيب فتنقذ حياة ملايين من الناس

﴿ النومونيا «التهاب رئوي» ﴾ كان أول استعمال لهذا العقّار في علاج النومونيا بمعهد الابحاث التابع لمستشفى وسترن بنسلفانيا بمدينة بتسبرج الاميركية. وقد اختار الباحثون من ضروب النومونيا الاثنين والثلاثين أشدها فتكاً وهو المعروف برقم ٣. فلما وجدوا ان تناول الجرذان لهذا العقار عن طريق الفم يسفر عن نتائج طيبة أعطوه لخمسة وعشرين مصاباً به ، وفي الوقت نفسهُ تركوا ٥٤ مصاباً لا ينالون من الاطباء والممرضات الاّ العلاج المأثور حتى ذلك الوقت في معالجة النومونيا ٣ . فشفي عشرون من المعالجون بالسلفانيلاميد ومات اكثر من أربعين من الفريق الثاني. اي ان نسبة الشفاء في الفريق الاول كان اربعة الى خمسة ونسبة الوفاة في الفريق الثاني كانت اربعة الى خمسة . اما الآن فالسلفانيلاميد يستعمل استعمالاً ناجعاً في علاج جميع ضروب النومونيا

ولكن هذه النتائج سبقها تجارب بالحيوانات . والفئران هي الحيوانات التي يغلب استعمالها في مثل هذه التجارب. الاّ ان الباحثين اختاروا الجرذان . وذلك لأنهم وجدوا ان الجرذان تصاب بضرب من النومونيا شبيه بالنومونيا التي يصاب بها الانسان . ولما كان من المتعذر احداث النومونيا البشرية في الفئران فقد كان هذا الكشف خطوة جديدة في دراسة مادة السلفانيلاميد وتأثيرها في مرض النومونيا قبل تجربتها بالانسان . ومما هو جدير بالذكر ان الباحثين السابقين كانوا قد أهملوا بحث تأثير السلفانيلاميد في النومونيا عند ما اسفرت تجاربهم في الفئران عن نتائج سلبية

﴿ الحمّى الشوكية ﴾ فلنلتفت الآن الى نتائج تطبيق هذا العلاج بواسطة الاطباء المارسين . فمن المعروف ان الحمّى الشوكية التي يسببها مكروب النومونيا تفتك بالذين يصابون بها ، واذن فعلاج هؤلاء المصابين محكٌ لوفاء هذا العقّار بالعلاج

فالسجلاّت الطبية تروي ان ٧٥ اصابة بالحمى الشوكية شفيت منذ سنة ١٨٨٨ الى الآن باساليب مختلفة من العلاج . ولكن المجلات الطبية تبين ان اربعين اصابة بهذا المرض الفتاك شفيت في السنة الماضية بفعل السلفانيلاميد . ولا يمكن ان يسند هذا الى الصدفة . وذلك لأن هذه النتيجة تتفق ونتائج التجارب التي اجريت في بتسبرج على الجرذان ، فقد وجد الباحثون في مستشفى وسترن بنسلفانيا انهُ في الوسع احداث الحمّى الشوكية في الجرذان بجراثيم النوموكوك ، فاذا تركت الاصابات بغير علاج فتكت بجميع المصابين بلا استثناء (مائة في مائة) . ولكن اذا اعطيت الجرذان المصابة مادة السلفانيلاميد عن طريق الفم شفي منها من ٦٠ الى ٧٥ في المائة. واذا قرن اعطاء السلفانيلاميد باستعمال مصل جديد صنع في معهد ركفلر بلغت نسبة الشفاء ٩٠ في المائة . ولا يزال هذا الموضوع في حاجة الى المزيد من البحث والتحقيق حتى تعرف التفاصيل وتقرَّر النسبة الدقيقة بين الاصابات التي تشفى والتي لا تشفى ، ولكن المباحث الدقيقة

التي اجريت حتى الآن ، تقرّر القواعد العامة التي تقدم ذكرها

﴿ المقاومة الطبيعية ﴾ الاّ اننا لا نستطيع ان ننتقل من هذا البحث الى ما يليهِ بغير ان نشير الى ما اسفر عنهُ البحث في ما للسلفانيلاميد من تأثير في النومونيا من توضيحهِ لمعنى « المقاومة الطبيعية » في الجسم . فنحن نعلم انهُ اذا اجتاح وباءٌ جارف منطقة ما اصاب كثيرين من قطانها ، ولكن فريقاً من الناس يبقون غير متأثرين بهِ يروحون ويجيئون ويقومون باعمالهم وقد ينامون في دار مجاورة لدار مصاب او في حجرة واحدةٍ مع مصاب آخر ولا يصابون. وكان ذلك يستوقف النظر فنسأل ما السبب وكيف السبيل الى التفسير القويم فلا نفوز بأكثر من كلمتي « المقاومة الطبيعية » . ولكن ما هي المقاومة الطبيعية ؟ وما اركانها ؟ وكيف تتقوَّم ؟ ان مباحث بتسبرج حوَّلت هذه العبارة الغامضة الى كاشف يبين لك هل جسمك يتمتع بهذه (المقاومة الطبيعية) أو لا

فقد وجد الباحثون أنهم اذا غطسوا الأرانب في ماء بارد ثم راقبوا الفترة التي تستغرقها قبل ان تدفأ صحّ ان تتخذ هذه الفترة مقياساً لمقاومة الأرانب الطبيعية لاصابات النومونيا . فاذا كانت الفترة طويلة فمقاومتها لمكروبات النوموكوك التي تحقن بها تكون ضعيفة . واذا كانت الفترة قصيرة كانت المقاومة قوية . بل أنهم وجدوا ان تسعة أرانب من عشرة تقاوم طائفة كبيرة من ميكروبات النوموكوك اذا كانت الفترة المنقضية بين تغطيسها ودفئها الطبيعي قصيرة. والعلاقة بين هذه التجارب والعلاج بمادة السلفانيلاميد ، ان السلفانيلاميد لا ينقذ من الذين مقاومتهم الطبيعية ضعيفة الاَّ ٢٥ في المائة . فاذا قويت مقاومتهم باضافة فيتامين C و B ١ الى غذائهم زادت نسبة الشفاء الى ٧٥ في المائة . ثم ان الباحثين في مدرسة هارفرد الطبية ومستشفى بوسطن وجدوا ان القلب الضعيف في مدمني الكحول سببهُ الى حدٍّ بعيد ، نقص فيتامين B ١ من غذائهم . ولما كانت الاصابة بالنومونيا ترهق القلب فهم يشيرون بوصف هذا الفيتامين في مثل هذه الأحوال لارتفاع معدل الوفيات بينهم . ومما يؤيد هذه الطريقة ان اضافة فيتامين B ١ الى غذاءِ الأرانب التي ضعفت مقاومتها الطبيعية لمكروب النوموكوك ، يقوي هذه المقاومة فيها

وعلى ذلك يمكن ان يقال ان السلفانيلاميد أنجع ما يكون في اصابات النومونيا اذا كانت مقاومة المصابين الطبيعية عالية . والمتداول الآن ان يفحص المصاب ليعرف بأي ضرب من ضروب النوموكوك اصابتهُ ، ثم يعطى المصل الموافق لنوع اصابتهِ . ولكن الفحص واستعمال المصل الموافق عمل مرهق من ناحية النفقة ولأن المعامل التي يعتمد عليها في فحص البصاق لمعرفة ضرب النوموكوك ، غير متوافرة في الأرياف . فجاء السلفانيلاميد ، وهو عقار غير مسجل يفيد في مقاومة ضروب النوموكوك جميعاً ، ونفقتهُ قليلة

ولا يخفى ان المواد الكيميائية تتحوَّل في ايدي الباحثين والمجرّبين البارعين بعد اضافة او

حذف الى مواد اخرى تتصل بها بصلة القربى من حيث التركيب وقد تفوقها من حيث التأثير . وقد صنع الباحثون في انكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، مادتين جديدتين من السلفا نيلاميد بعد تعديل تركيبه ، فاذا لهما على ما يروى — ولاسيما المادة التي صنعت في انكلترا واسمها M. & B-693 — تأثير فعَّال في مكافحة النومونيا. ولكن المدة القصيرة التي انقضت منذ تفتحت الاعين على فوائد السلفا نيلاميد ومشتقاته لم تتح حتى الآن فرصة وافية للبحث المدقّق الواسع النطاق الذي يلزم في مثل هذه الحالات لمعرفة فائدة هذه المادة معرفة محققة

واذا صحَّ ان هناك مشتقات من السلفا نيلاميد تصلح على وجهٍ خاص لمعالجة ضرب معيَّن من ضروب النومونيا ، فيجب ان نذكر ان السلفا نيلاميد يصلح لمعالجة ضروب النومونيا الاثنين والثلاثين ، ولا تقتصر فائدتهُ على الضرب الثالث كما قيل اولاً

﴿ الامراض الفيروسية ﴾ اصاب السلفا نيلاميد اعظم نجاح في الامراض التي ترتدُّ اسبابها الى الاحياء الدقيقة المعروفة باسم بكتريا . ولكنَّ هناك امراضاً ترتدُّ الى مايعرف باسم « الڤيروس » كمرض النوم وشلل الاطفال والحمى الصفراء والزكام وغيرها . و« الڤيروس »مادة راشحة ولذلك تتعذَّر دراستها بالوسائل المتبعة في دراسة البكتريا . ومع ذلك فقد ثبت ان السلفا نيلاميد قد حمل العلماء على التفكير في فائدة العلاج الكيميائي Chermotherapy في هذه الطائفة من الامراض . والتجارب تجرَّب الآن لمعرفة تأثير السلفا نيلاميد او غيره مما يشبههُ في الامراض « الڤيروسية » .

ففي المعهد الصحي القومي بوشنطن وجد الباحثون ان مركَّباً يحتوي على هذا العقار عاجز عن الفتك بالبكتريا في انبوب الاختبار ، ولكنهُ كان فعَّالاً في قمع مرض ڤيروسي يصيب الفئران ويدعى Chorio-meningitis . ولكن هذا المرض ليس بذي شأن خاص حتى بين امراض الفئران ، وفائدة السلفا نيلاميد في علاجهِ لا تقتضي حتماً القول بانهُ مفيد في علاج الامراض الفيروسية التي تصيب الانسان

ولكن هذه التجربة حملت غير واحد على البحث والاستكشاف وقد ظهر في خلال السنة الماضية ما يشير الى ان التجريب بالسلفا نيلاميد يساعد الباحثين ويرشدهم الى طريق قد يفضي بهم الى كشف مركب كيميائي لقهر الفيروسات والامراض التي تسببها . ففي جامعة كولومبيا مثلاً استعمل الباحثون مركباً جديداً مشتقّاً من السلفا نيلاميد او مبنيَّا عليه يدعى (صوديوم — سلفا نيليل—سلفا نيلات) فكان لهُ تأثير شافٍ عجيب في داءِ distemper في بنات عرس والارانب والهررة وفيروسات الـ distemper في الحيوانات قريبة الصلة بالفيروسات التي تسبب الانفلونزا والزكام في الانسان. وفي الوقت الذي نجد فيه علماء كولومبيا يعدون التجارب للاستفادة من هذه الحقائق نجد غيرهم في بلدان اخرى يجرّبون تأثير مشتقّات السلفا نيلاميد في مكافحة اصابة الانفلونزا

البشرية في الفئران . ومن عهد قريب اذاع فريق من الباحثين نتائج تجارب تمكنوا فيها من احداث مناعة جزئية في الفئران ضد الانفلونزا البشرية باستعمال احد مشتقات السلفانيلاميد . وروى جرّاح في الجيش انهُ عالج بالسلفانيلاميد مرضاً فيروسيًّا يدعى granuloma inguinale يصيب الجنود فيحدث تورُّماً في الغدد اللمفاوية في الحقوين وكان عدد الذين عالجهم خمسة عشر فتحسنت حالة ثلاثة عشر منهم

واذا نظرنا الى هذه الناحية نظرة اجمالية ، صحَّ لنا ان نقول ان ما ثبت حتى الآن يشجع على المضي في بحث السلفانيلاميد وما لهُ ولمشتقاته من اثر في مكافحة الامراض الفيروسية

٢ — كيف كشف وكيف يفعل

يدعى مكتشف السلفانيلاميد جلمو Gelmo وهو ليس بالعالم المشهور او الطبيب العظيم ولكنهُ كان عند كشفهِ هذا العقّار كيميائيًّا صناعيًّا في شركة الاصباغ الألمانية الكبيرة المعروفة باسم (فاربن اندستري)

كان جلمو من نحو ثلاثين سنة معنيًّا شأن غيره من الكيميائيين في معامل تلك الشركة الكبيرة بتركيب مواد كيمائية جديدة وكان أحدها أحد مشتقات قطران الفحم الحجري واسمهُ العامي « بارا — أمينو بنزين — سلفوناميد » وهذا الاسم الضخم اختصر بعد ذلك رحمة بالناس فأصبح « سلفانيلاميد »

ركبت هذه المادة حينئذٍ ولكن أحداً لم يعلم ما لها من تأثير طبيّ لان مادة أخرى كانت موضع عناية الباحثين في ذلك العهد وهي مادة السلفرسان التي كشفها ارلخ لمعالجة الزهري . وفي سنة ١٩٢٠ أخذ بعض أطباء معهد ركفلر بنيويورك مقداراً من هذه المادة وأضافوا اليها مركبات الكينا التي كان البحث قد أثبت ان لها قدرة على الفتك بمكروبات النومونيا . وكان أملهم معلقاً على زيادة قدرة المركبات الكينية على الفتك بهذه الجراثيم باضافة السلفانيلاميد اليها . ولكن ارتباط السلفانيلاميد بجزيئات المركبات الكينية حال دون تأثيره التأثير الطبي الذي يعزى اليهِ الآن ، فظلت فائدتهُ الطبية مجهولة

وفي سنة ١٩٣٢ ربط بعض الكيميائيين الألمان السلفانيلاميد بمركب ينطوي على النفتالين — وهو مركّب يشبه المركّب المستعمل في مطاردة العث — فقاز بصبغ أحمر دعي « بروتنوزيل » وقضى أطباء منطقة الرين ثلاث سنوات يجربونهُ في عياداتهم . وتسرَّبت روايات الى المجلات الطبية عن فائدة هذا الصبغ الاحمر في معالجة اصابات تسمم الدم وغيرها . وعقب ذلك ظهور رسائل طبية متتالية بسرعة أخذت العالم الطبي دهشة واعجاباً

يُستخلص من هذه الرسائل الاولى أنك اذا أضفت البروتنوزيل الى أنبوب يحتوي على

المكروبات الستربتوكوكية ظلّت هذه الاحياء الدقيقة حية كأن شيئاً لم يحدث. ومع ذلك فاضافة هذا الصبغ نفسهِ الى جسم فأرة يعج دمها بالمكروبات نفسها كانت تفضي الى الفتك بالمكروبات. وظلّ الأمر غامضاً حتى جلاهُ علماء معهد باستور بباريس اذ وجدوا ان الجسم الحي يفصم الصلة بين السلفانيلاميد والمركب الآخر المحتوي على النفتالين فينطلق السلفانيلاميد يفعل فعله في المكروبات

وما عرفت هذه الحقيقة حتى أدركت قيمة السلفانيلاميد كعقّار طبي نادر عجيب ومع ذلك فليس هناك ما يدل على ان السلفانيلاميد هو خير مركب من نوعهِ. فكما ان «البرونتوزيل» فعّال لأن السلفانيلاميد داخل في تركيبه وينفصل عنهُ بفعل الجسم الحي فيفعل فعله، كذلك السلفانيلاميد قد يكون فعله ناجماً عن تعديل يحدثهُ الجسم الحي فيهِ. ولعلّ تعديلاً في ترتيب الذرات في جزيء السلفانيلاميد يفضي الى مادة من نوعهِ ولكنها اشد فعلاً منهُ. ولا ريب في ان التقدم في هذه الناحية متصلٌ اتصالاً وثيقاً بمعرفة الطريقة التي يؤثر بها هذا العقار في الجسم الحي. والتجارب التي جرّبت حتى الآن لم تكشف عن الجواب الوافي

فنحن نعلم ان الوف الملايين من الخلايا تجتمع في تركيب الجسم الانساني، وان الخلايا الجديدة تولد لتحلّ محلّ الخلايا المندثرة. ولكن هذه الخلايا تخرج احياناً — كما في السرطان — عن طوقها الطبيعي في النمو فتتكاثر تكاثراً لا ضابطَ لهُ فيتولد ورمٌ سرطاني. ولكن الجسم السليم مجموعة من الخلايا خاضعة لضوابط معينة. فاذا غزاهُ حيوين غريب كالبكتريا قامت بين خلايا الجسم وهذه الاجسام الغريبة حربٌ، تعلّق حياة الجسم بمصيرها

والراديوم يصلح في مكافحة السرطان لأنهُ يفتك بالخلايا الشاذة النموّ دون الخلايا السوية. وكذلك كلُّ عقّار تام الاوصاف يجب ان يكون قادراً على الفتك بالمكروبات دون خلايا الجسم. هذا المبدأ يرجع الى مباحث ارلخ الشهير. ولا يخفى ان هناك عقاقير كثيرة تفتك بالمكروبات في انبوب التجارب على اتم وجه ولكن استعمالها متعذر في الجسم لانها تفتك بخلاياه السليمة كذلك. ولكن نواحي اخرى من رأي ارلخ اخذت تتهاوى بين يدي البحث الحديث. فقد كان يرى العقّار التام مادة تسير توّاً الى الاجسام المسببة للمرض فتفتك بها بغير ان تضرّ بالجسم. وكان شأن الجسم في هذا الكفاح — بحسب رأيهِ — شأن المُشاهِد لا اكثر ولا اقل. فالمعركة دائرة بين العقّار والمكروب. وكان يظن كذلك ان لكل نوع من المكروبات عقّاراً خاصًّا يفتك به

ومع ان الأطباء الباحثين لا يعرفون الآن كيف يفعل السلفانيلاميد فعلهُ الاّ انهم يعرفون ان فعلهُ لا يتسق كلَّ الاتساق مع قواعد الرأي الذي وضعهُ ارلخ منشيء طريقة العلاج بالمواد الكيميائية. فالسلفانيلاميد يفتك بغير نوع واحد من البكتريا وهناك ما يدلُّ على انهُ لا يستطيع ذلك بمعزل عن مساعدة الجسم لهُ في المعركة التي تنشب بينهُ وبين الجراثيم. فقد دلّت

التجارب على ان السلفانيلاميد عاجز عن التأثير في الميكروبات الستربتوكوكية في انبوب التجارب (وهذا يصدق على عجز السلفرسان عن التأثير في مكروبات الزهري في انبوب التجارب). وكل ما هنالك انهُ يبطيء تكاثر الميكروبات ولا يقتلها مباشرةً الاَّ في احوال خاصة

وقد جربت تجارب كثيرة في معهد باستور بباريس وجامعة جونس هبكنز في أميركا، أفضت الى حقيقة غريبة لا يسعنا قبولها الاَّ بعد ان تأيَّد نتائج هذه التجارب بنتائج تجارب أخرى من قبيلها في معاهد أخرى. فقد وجد الباحثون ان الفئران المصابة بالتهاب البريطون — وهو التهاب الغشاء الذي يحيط بالامعاء — لم تفد شيئاً من هذا العقَّار اذا حقنت بهِ في موطن الاصابة. ولكنها تجني فائدة كبيرة منهُ اذا اخذ من طريق الفم. فاذا صحَّ هذا ففهمهُ غير مستطاع الاَّ باحد تفسيرين: — إما ان تكون سوائل الجسم مما يزيد العقَّار قوة وإما ان يكون العقَّار مما يؤثر في تعزيز قوات الدفاع في الجسم ضد البكتريا. وسواء أهذا التفسير صح أم ذاك فالظاهر ان العقَّار وحده عاجز عن الفتك بالمكروبات في الجسم، وهذا مناقض لاحدى القواعد التي قام عليها رأي أرلخ. ولكن تأثير رأي ارلخ لا يزال حيًّا ولذلك يذهب بعضهم الى القول بان للعقَّار تأثيراً مباشراً في المكروبات أو مفرزاتها السامة وان الجسم يدخل ميدان المعمعة بقواتهِ الدفاعية بعد حدوث هذا التأثير

وهم يفسرون فعل السلفانيلاميد باعتمادهم على كريات الدم البيض الطافية في الدم والتي عملها أكل المكروبات الغازية للجسم. ولما كان السلفانيلاميد يبطيء تكاثر المكروبات فالغالب — في رأيهم — ان الميكروبات التي تتأثر به تعجز عن المكافحة ضد الكريات البيض قتلتهمها. ويذهب فريق آخر الى ان العقَّار يمنع الميكروبات عن صنع الغشاء الواقي لها من فعل اللواهم (الكريات البيض التي تلتهم). ويقول غيرهم ان السلفانيلاميد يولّد مركباً كيميائيًّا متعادلاً باتحاده بالسموم التي تفرزها المكروبات، فيوقى الجسم شرَّها

ومن احدث الآراء في تفسير فعل السلفانيلاميد وتأثيره في جراثيم خاصة رأي صادر عن مستشفى وسترن بنسلفانيا في مدينة بتسبرج الاميركية. وهو قائم على القول بأن الجراثيم المتكاثرة تقتل نفسها بنفسها اذا لم تنزح مفرزاتها او يعدَّل فعل هذه المفرزات. ومن غرائب الاتفاق ان من اهم مفرزات النوموكوك والستربتوكوك ثاني اكسيد الايدروجين (بيروكسيد) وهو المطهر المعروف باسم «أو أكسيجنيه». هذه المادة تنحلُّ حال تكونها في الجسم، ولذلك تستطيع المكروبات ان تمضي في نموها غير متأثرة بها. والمادة التي تحل ثاني اكسيد الايدروجين في الجسم من نوع الخمائر او الانزيمات وهي تدعى «كاتالاز» وتوجد عادة في الدم. فاذا استطعنا ان نبطل فعل الكاتالاز تراكم ثاني اكسيد الايدروجين فيمنع نمو البكتريا التي تولده. ومن

غريب ما كشفهُ البحث في هذا الصدد ان السلفانيلاميد يتحول داخل المكروب تحولاً يجعله مبطلاً لفعل الكاتالاز ، فيترا كم ثاني اكسيد الايدروجين ويمنع نمو المكروب ، واذ يكون في هذه الحالة يسهل على اللواهم التهامهُ

ولكن البكتريا لها حيل في الدفاع عن نفسها ، تخدَع بها اللواهم ، ومن حيلها أنها تستكنُّ فترة تطول اوتقصر فتبدو أنها ميتة ولكنها ليست بالميتة ، فاذا بدا لها أن قوى الدفاع في الجسم قد ضعفت فاعت وهاجمت الجسم بكل قواها . وهذا يفسر ما يراه الاطباء ضرورياً من المداومة على اعطاء المريض العقّار حتى بعد أن يتماثل الى النقه . وكذلك يتضح لنا أن بعض المكروبات يموت بتأثير العقار وبعضها يضعف فتلتهمهُ اللواهم وبعضها وهو أوسع حيلة وأرهف احساساً يستكنُّ ثم يفوع إذا سنحت لهُ الفرصة . وهذا يبطل رأياً من الآراء التي كانت سائدة في مستهل القرن العشرين بين علماء المعالجة الكيميائية وهو أنهُ إذا ثبت أن عقّاراً ما يقتل مكروباً معيّناً فانهُ يقتل جميع المكروبات التي من نوعهِ

وبينما العلماء يبحثون عن الاسباب والتفاسير الاصلية لفعل السلفانيلاميد ، يضطرُّ الاطباء ان يواجهوا كلَّ يوم الحالات العملية التي يشاهدونها ولاسيما ماكان ناجماً منها عن استكنان بعض البكتريا ثم فوعتها . ولذلك عمدوا مبالغة في الحيطة الى إعطاء المريض — اذا كانت اصابتهُ حادة على وجه الخصوص — جرعات كبيرة من السلفانيلاميد اولاً ثم تتبعها جرعات صغيرة حتى يقضى على البكتريا المستكنّة . وموالاة الجرعات لازمة لان تأثير هذا العقّار لا يبقى في الجسم بعد انفرازه منهُ

ومما يؤسف لهُ في تاريخ السلفانيلاميد أن أحد البيوت الصيدلية في اميركا صنع مقادير منهُ في شكل سائل فأفضى بيع ما صنع منهُ إلى وفاة ثلاثة وسبعين مصاباً تناولوهُ فأجري بحث علمي وقانوني في المسألة وثبت أن اللوم واقع على المواد الاخرى الداخلة في تركيب السلفانيلاميد السائل لا على مادة السلفانيلاميد نفسها

ومع ما في حديث هذا العقّار من الاعاجيب ، وما أثبتهُ البحث في اميركا من ان وفاة الذين تقدم ذكرهم لم ينشأ عن مادة السلفانيلاميد نفسها ، لا بدَّ للاطباء من اتخاذ الحيطة العظيمة في استعماله . وقد روت المجلات الطبية ان هذا العقار يؤثر في بعض الاحيان تأثيراً يؤذي الخلايا والانساج ، وقد يفضي استعماله الى شكل خطر من اشكال الانيميا (فقر الدم) بزيادة العدد السويّ المندثر كل يوم من كريات الدم الحمر . نعم ان هذه الحوادث ليست كثيرة ، وعند وقوعها يجب ان تتخذ الوسائل الذريعة المبطلة لتأثير النقصان في الكريات الحمر . وفي هذا دليل على وجوب الاعتماد على الاطباء في استعماله

****

انتظام السفر الجوي

عبر المحيط الاطلنطي

****

غلب النسر على دولته وتنحى لك عن عرش الهواء
وأتتك الريح تمشي أمة لك يا بلقيس من أوفى الاماء
روضت بعد جماح وجرت طوع سلطانين علم وذكاء

بعد ظهر اليوم الرابع من شهر ابريل ١٩٣٩ نزلت في ميناء سوثمتن بجنوب انكلترا الطائرة الاميركية «يانكي كلبر Yankee Clipper» بعد ان أتمت المرحلة الاخيرة من رحلتها الاستكشافية الأولى والاخيرة لطريق بلطيمور ، الجزائر الخالدات (الأزورس) ، لشبونة عاصمة البرتغال ، مرسيليا ، سوثمتن . هذه الطائرة تتسع لاربعين راكباً ليلياً في خمس قمرات متسعة ، وثمانية آلاف رطل من الامتعة والبريد . فوزنها وهي محملة ٨٠ الف رطل منها ٤٠٠٠ جالون من البنزين وعشرة آلاف رطل للركاب والامتعة والبريد وما يراد نقلهُ بها من البضائع الثمينة

هذه الرحلة جاءت نتيجة لمباحث وتجارب ومغامرات دامت نحو عشرين سنة ، من سنة ١٩١٩ غداة الحرب الكبرى عندما اجتيز المحيط الاطلنطي أولاً بطائرة الى الآن . في خلال هذه السنين عبرت طائرات كثيرة من أميركا الى أوربا ، ومن أوربا الى أميركا . ولكن السفر الجوي بين القارتين في شمال المحيط لم ينتظم حتى الآن ، مع ان أربع سنوات انقضت منذ قامت شركة « بان أميركان أرويز » بتسيير طائراتها من غرب الولايات المتحدة الاميركية الى ساحل الصين من سان فرنسيسكو الى مانيلا عاصمة الفيليبين الى هنغ كنغ على ساحل الصين الجنوبي . والمسافة بين سان فرنسيسكو وهنغ كنغ تسعة آلاف ميل . وقد جارتها شركة « لفت هانسا » الالمانية في تسيير سفنها الهوائية تسييراً منتظماً من ساحل افريقية الغربي الى ساحل أميركا الجنوبية عابرة جنوب المحيط الاطلنطي حيث المسافة بين الساحلين ٢٦٠٠ ميل

بعيد انتهاء الحرب في سنة ١٩١٨ نظرت لجنة الطيران بالاسطول الاميركي ، في ما تصنعهُ

بالطائرات التي كانت قد صنعت في اميركا لمطاردة الغواصات في عرض المحيط ، فقررت ان تبهر العالم باجتياز المحيط الاطلنطي . وكذلك تمت الرحلة الجوية الاولى بين اميركا وأوربا عبر ذلك المحيط اذ قضت الطائرة NC 4 اثنتين وسبعين ساعة بين لونغ أيلند بنيويورك وبليموث بانكلترا . وكان خط الطيران يشتمل على النزول في تربَاسي بجزيرة نيوفنلند والجزائر الخالدات (الازورس) ولشبونة عاصمة البرتغال . وصحب هذه الطائرة طائرتان NC1 و NC3 ولكنهما لم تتما الرحلة. وما انقضى أسبوعان على رحلة الطائرة الاميركية حتى فاز الكبتن جون الكوك والملازم آرثر برون الانكليزيان باجتياز المحيط الاطلنطي بغير توقف ، وذلك من سانت جون في جزيرة نيوفنلند الى كليفدن بارلندة ، في ست عشرة ساعة . ولكن المصاعب التي عانياها في اثناء الطيران ، لم تشجع على احتذائهما خلال السنوات التي تلت نجاحهما . ومع ان طائرتهما كانت من اجود الطائرات المصنوعة في ذلك العهد ، دلَّ الاختبار على ان اقتحام جوّ الاطلنطي يجب ان يؤجل الى أن يتقن المهندسون والصناع صنع الطائرات الوافية بجهد عظيم كهذا الجهد

وفي يوم ٢١ مايو سنة ١٩٢٧ سرت هزة كهربائية في اعصاب العالم عند ما اذيع ان الطيار الاميركي لندبرج اجتاز المحيط الاطلنطي وحدهُ من نيويورك الى باريس في ٣٣ ساعة

وقد كتبنا في المقتطف غداة فوز لندبرج مقالاً عنوانهُ «غلب النسر على دولته» قلنا: «ان تاريخ الاكتشاف والارتياد بل تاريخ العلم يعيد نفسهُ . نرى الروّاد يسير بعضهم في أثر بعض ، يفوزون آناً ويخفقون آونة ولكنهم مهما تعدَّد وجوه الخيبة والظفر يتخذون من الظفر مرتبة يرقون عليها الى ظفر آخر ، ويتربصون للاخفاق حتى يثأروا لاخوانهم منهُ بظفر جديد .... ثم عدَّدنا ما احرزه الطيارون من الانتصارات الباهرة بعد اخفاق اخوان لهم سبقوهم الى الاقدام فكان نصيبهم الخيبة والموت . ثم قلنا : لقد تقدم طيران بليريو من كاليه الى دوفر انتظام السفر الجوي بين لندن وباريس ومهَّد له السبيل . وتقدم طيران الملازم مينارد من نيويورك الى سان فرنسيسكو انتظام البريد الجوي السريع بينهما ومهَّد له السبيل. وتقدم طيران الكوك وهوكر وريد طيران لندبرج وتشمبرلين ومهَّد لهما الطريق . وتقدم طيران فدرن وكوبهام وضباط الجيش الانكليزي في مصر والعراق انتظام السفر الجوّي بين هليوبوليس وبغداد وأثبت امكان انتظامه بين لندن وهليوبوليس . ومن يدري فقد يكون طيران كوبهام الى مدينة الكاب أولاً ثم من لندن الى استراليا ثانياً ، وطيران امندسن ونوبيلي من سبتسبرجن الى الآسكا ، وطيران لندبرج وتشمبرلين من أميركا الى أوربا، وطيران ده بنيدو من روما الى أميركا الجنوبية، وطيران كوست من باريس الى طوبولسك — قد تكون جميع هذه الرحلات الجوية مقدمة لانتظام خطوط السفر الجوي البعيد المدى فترتبط البلدان المختلفة باسباب سريعة للمواصلات يصحُّ الاعتماد عليها . بل

تتجاوز حدَّ التخمين الى حدّ الترجيح بانها ستكون كذلك

وبعد ان قابلنا بين اجتياز المحيط الاطلنطي بالسفن التجارية في سنة ١٨١٩ — وكان محمولها دون ٧٠٠ طن على الغالب ومدة رحلتها عشرون يوماً تقريباً — وبين اجتيازه الآن بالسفن الفاخرة التي تعدُّ مدناً طافية في اربعة ايام. قلنا: من كان يحلم سنة ١٨٣٨ ان عبور الاطلنطي بالبواخر يبلغ هذا المبلغ من السرعة والانتظام والاتقان وتوفير اسباب الرفاهة والراحة. على ان تقدم الطيران أسرع وأهم. فانهُ لم تنقض الاَّ سنوات قلائل على عبور بليريو لبحر المانش بطيارته — وقد عدَّ عجيبة حينئذٍ — حتى قرأنا ما قاله لندبرغ: «ظهر لي المحيط الاطلنطي كأنهُ مجاز ضيق من الماء». فماذا تكنهُ لنا السنوات العشر القادمة من هذا القبيل؟! انتهى ما اردنا نقلهُ من المقال المذكور

وينتظر ان تتخذ الطائرات الاميركية في اجتيازها المحيط الاطلنطي طريقاً شماليًّا في الصيف من نيوفنلند الى ارلندة وآخر جنوبيًّا الى الجزائر الخالدات (الازورس) فلشبونة فرسيليا فسوثمبتن. وقد اتفقت شركة «بان اميركا ارويز» مع «شركة بونغ Boeing» من ثلاث سنوات على صنع ست طائرات ضخمة للركاب لتسير بين اميركا واوربا وقد صنع منها حتى الآن اربع طائرات احداها الطائرة الاميركية التي وصلت الى ميناء سوثمبتن في اول هذا الشهر وهي التي اسمها «يانكي كليبر» وينتظر ان يتمَّ صنع الباقيتين وتسليمهما في خلال شهر مايو سنة ١٩٣٩

هذه الطائرات اكبر الطائرات التجارية في العالم. طول الجسم في كل منها ١٠٩ اقدام. والمسافة بين طرفي الجناحين ١٥٢ قدماً وهما ثخينان بحيث يستطيع رجل منحنٍ قليلاً ان يسير بين سطحي الجناح، وكذلك يتاح لمهندس الطائرة ان يتصل بالقواعد التي ركبت فيها المحركات في اثناء الطيران. وللطائرة دكتان فيها القمرات للنوم والاكل والجلوس والمطالعة، والسقوف فيها طبيعية الارتفاع، والحجر مربَّعة، والمكان المعدُّ لرجال الطائرة من مهندسين وخدم وغيرهم — وهم اثنا عشر — فسيح ولعلّهُ افسح من المكان المعدّ لجلوس جميع الركاب في طائرة كبيرة الآن

وتتسع الطائرة في اثناء النهار لاربع وسبعين راكباً عدا رجال الطائرة، ولاربعين راكباً في الليل، لان اسرّة النوم وما يتصل بها من فسحة تستأثر من فضاء الطائرة بجانب اكبر مما تستأثر بهِ مقاعد المسافرين الجالسين

وللركاب سبع حجر كبيرة، اكبرها في الوسط تستعمل لتناول الطعام ولشرب المشروبات قبل الغداء او العشاء وللمطالعة واصغرها في المؤخرة وهي لعروسين او لأسرة تستأجر على نحو ما تستأجر جناحاً خاصًّا في فندق. واثاث هاتين الحجرتين كأثاث الحجر الأخرى في الطبقة الاولى جمالاً وجودة. ويرى القارىء أمام الصفحة الأولى من هذا الجزء تصميم إحدى هذه الطائرات



مشروع لتنظيم

السكان في مصر

للدكتور وندل كليلاند

مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة

يعاني المجتمع المصري من كل جانب مشكلات اجتماعية متعددة ، من فقر ومرض وجهل وبطالة . ومع ان هناك بعض الاهتمام بمعالجة هذه المشكلات ، غير ان النشاط المبذول في هذا السبيل بطيء الاثر وغير منتظم السياق ، مما يبعث على التساؤل هل العلاج مفضٍ الى تقويم الامور تقويماً صحيحاً او هو لا يتعدى تهدئة الحالة تهدئة وقتية

نود جميعاً ان نرى سكان القطر المصري متمتعين بالصحة الجيدة والعقل السليم والحياة السعيدة. ولتحقيق هذه الغاية يجب ان نفكر باخلاص ونعمل بنشاط حتى نتمكن من ابتكار الحلول المطلوبة ونقوم بتنفيذها بسرعة وحزم . وسوف لا نستسلم في بحثنا هذا الى الآراء الخيالية والمشروعات التي يصعب تحقيقها . بل سنحاول فيما يلي ان نبحث بعض الحلول التي يمكن ان تؤدي الى تحسين حالة المجتمع المصري ورفع مستوى المعيشة في مصر

وقبل ان نتقدم كثيراً في هذا البحث الخطير يجدر بنا ان نلقي نظرة سريعة على الاعمال التي تمت من هذا القبيل في البلدان الاخرى . فنجد ان بعض الجماعات كثيراً ما يلجأ الى التحكم في عدد النسل او نوعه . وهذه العادة ليست بوليدة اليوم بل اننا نجد لها مثيلاً في صفحات التاريخ . فقد كان من عادة اهل اسبرطه ان يقتلوا المواليد غير الاصحاء ولا يعنوا بغير ذوي البنية القوية والجسم السليم . وما زالت بعض القبائل المتوحشة تلجأ الى تحديد عدد السكان بينها بشتى الوسائل ، منها قتل الاطفال او الشيوخ او الاجهاض وتحديد الاتصال الجنسي والمحرمات الجنسية ونظام الطبقات الاجتماعية . اما وسائل انماء السكان فأهمها عادة الزواج المبكر وتعدد الزوجات

ونجد غير قليل من الدول العصرية يلجأ قصداً الى بعض الوسائل المتقدمة من طريق رسمي او غير رسمي لتوجيه حركة السكان في الناحية المرغوبة ، ومن الامثلة التي يمكن ذكرها عن الدول

الراغبة في تحديد عدد سكانها ، الولايات المتحدة وهي تتشدد في قبول المهاجرين الى بلادها وتفضل المهاجرين من بعض الاجناس على غيرهم ، وقد سنت ٢٩ ولاية في اميركا قوانين لتعقيم غير الصالحين لاخلاف النسل . ونجد ان حكومات بعض الدول لا تعارض في نشر وسائل منع الحمل بين الجمهور . ومن هذه بريطانيا وهولاندا والدانمرك والنرويج وسويسرا وبعض الولايات الاميركية

وهناك دولٌ اخرى تسعى الى زيادة عدد سكانها مع اصلاح النسل . فالحكومة الفرنسية تحرم بتاتاً وسائل منع الحمل وتمنح ارباب الاسر الكبيرة اعانات مالية . وايطاليا تشجع الاكثار من النسل وتنشر الدعاية لذلك وتعاقب كل من يلجأ الى وسائل منع الحمل والاجهاض وتفرض الضرائب الباهظة على العزاب ثم تمنح الاعانات المالية لمن يكثر نسله . والمانيا فضلاً عن تحريمها الاجهاض فانها تقدم مساعدات مالية لراغبي الزواج وتعطي مكافأة لمن له اطفال ولاسيما من يكثر نسله فانها تعفيه من دفع الضرائب

وقد روت الجرائد اليومية ان الهر هتلر أنشأ وساماً خاصًّا يمنح للامهات . يقابل ذلك ان الحكومة الالمانية قائمة بتعقيم ٤٠٠٠٠٠ شخصاً من المصابين بالامراض الوراثية ، وكذلك يحرم على الالمان التزوج من بعض الاجناس « غير الآرية »

وقد قامت الحكومة الروسية اخيراً بسن قوانين ضد الاجهاض وكثرة الطلاق وهي تبدي عناية خاصة بالامهات والاطفال

اما البلدان التي فيها نفوذ الكنيسة الكاثوليكية عظيم فانها لا تشجع اي وسيلة من وسائل تحديد النسل فوسيلته الوحيدة هنالك الامتناع عن الزواج او الامتناع عن الاتصال الجنسي بين الزوجين . وتتبع بلاد السويد الآن سياسة حكيمة ترمي الى تحسين النسل مع الاحتفاظ بنسبة عدد السكان في حالة مرضية (وسكان السويد يبلغ عددهم ٦٣٠٠٠٠٠ نسمة) وذلك بالغاء القوانين التي تكافح ضبط النسل ، ونشر التعاليم الصحية والاخلاقية ، ومنح الاعانات للوالدين والشبان الذين يرغبون في الزواج وتهيئة المساكن الصحية للعائلات وتوزيع الاطعمة المغذية والعلاج المجاني للامهات والاطفال . وتوزع المدارس على طلبتها غذاء الظهر مجاناً ، فضلاً عن توزيع الاطعمة الصحية بأسعار رخيصة جدًّا بين العائلات الفقيرة التي لا عائل لها او التي يكون عائلها عاطلاً عن العمل

ومما يلاحظهُ الباحث ان السياسة الوحيدة التي كان حليفها النجاح في مسألة تنظيم السكان هي التي ترمي الى الاقلال من النسل . فعلى الرغم من القوانين الشديدة والتعاليم الدينية والمكافآت المالية والنداءات الوطنية وغير ذلك من انواع الدعاية فاننا نجد ان عدد المواليد في هبوط مستمر

ولا يستثنى من ذلك الا المانيا فقد ارتفعت نسبة المواليد فجأة فيها فبلغت نسبة الزيادة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٥ نحو ٤ في الالف . ولعل السبب في ذلك يرجع الى قيام حزب النازي في بدء عهده بالحكم بسن قانون يعاقب على الاجهاض ، ولكن العدد أخذ في الهبوط بعد ذلك ، مما يدل على ان أي قانون لتنظيم السكان تضعهُ السلطات على الرغم من رغبة الجماهير لا بد ان يلاقي صعوبات شديدة

العوامل التي تؤثر في نمو السكان

وموقف مصر الحالي

هنالك خمسة عوامل تؤثر تأثيراً كبيراً في حالة السكان ونمو عددهم وهي : — معدل طول العمر بين السكان . والصحة العامة . ومصادر الثروة . ومستوى المعيشة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية . والصلات الدولية

﴿ معدل الحياة الفردية ﴾ من المعروف ان نشاط اي جماعة وروحها المعنوية يتوقفان الى حدٍّ بعيدٍ على معدل أعمار الافراد . فاذا كان السواد الأعظم منهم شباباً فان الحياة العامة تكون مرحة نشيطة . واذا كان الحال عكس ذلك فان الحياة الاجتماعية تكون عديمة البهجة . وفضلاً عن ذلك فان الجماعات الفتية يكون عدد الاطفال بينها كبير . أما الشيوخ فإنجابهم للاطفال يكون ضعيفاً . أضف الى ذلك ان ما يُطلب من الطعام والشراب وغيرها من الحاجيات الأُخرى يختلف بين الشيوخ عنهُ بين الشبان . أما في وسائل اللهو فانهُ لا يمكن المقابلة بين الفريقين

وكذلك الحال في الأمم الكبيرة . فاذا كان نسبة الشباب بين السكان هو الغالب فان عدد المواليد يكون كبيراً . واذا توافرت بيئة اقتصادية حسنة للافراد نشطت الصناعة والتجارة . وعلى الضد من ذلك اذا كان السكان يغلب بينهم الشيوخ انخفضت نسبة المواليد وتعذر ادخال التعديلات الاجتماعية وسارت الحياة الاقتصادية بخطى بطيئة . وقد كتب أحد علماء الاجتماع في مجلة اميركية شهرية مقالاً عنوانه « تدهور نمو السكان » ورد فيه ما يأتي — اذا نقص عدد الاطفال زاد عدد الشيوخ . . . هذا هو مصير أهل الولايات المتحدة . ويمكننا ان نتصور تأثير ذلك في ازدياد سماعات الصم والنظارات واعانات الشيخوخة والضرائب والتعليم وغير ذلك . »

ما موقف مصر من هذه الناحية ؟ . . .

بلغ عدد سكان القطر المصري في عام ١٩٣٧ نحو ١٥٩٠٤٥٢٥ . وكان معدل حياة الفرد في عام ١٩٢٧ ثلاثين عاماً . وبلغت نسبة الشبان الذين يقل عمرهم عن عشرين عاماً نحو ٤٧ر٧ ٪ من مجموع السكان . بينما بلغت هاتان النسبتان للسكان البيض في الولايات المتحدة

عام ١٩٣٠ نحو ٦١ عاماً لمعدل حياة الفرد و ٣٨٫٨ ٪ لعدد الشبان الذين دون العشرين . وفي الواقع ان القطر المصري في وقتنا الحاضر ، ما زال في المرحلة التي بلغتها بلدان غرب اوربا منذ قرن وربع قرن . وهو في مستوى واحد تقريباً مع الهند حيث كان معدل الحياة الانسانية في عام ١٩٣١ نحو ٢٦٫٩ سنة . ويلاحظ ان ثلثي سكان القطر المصري اي ٦٥ ٪ منهم يقل عمرهم عن الثلاثين بينما نجد هذه النسبة في انكلترا وفرنسا بلغت ٥٠ ٪ في عام ١٩٣١ و ٥٣ ٪ في عام ١٩٢١ و ٤٧ ٪ في عام ١٩٢١

ومما يسترعي الانتباه بوجه خاص ان نسبة الاطفال الذين لا يتجاوزون الخامسة من العمر هي ٣ ر ١٤ ٪ بينما هذه النسبة في الولايات المتحدة لم تتعد ٣ ر ٩ ٪ . هذا بينما نسبة الشيوخ الذين تتجاوز اعمارهم الستين هي ٨ ر ٦ ٪ في مصر و ٥ر٨ ٪ في الولايات المتحدة . و ٦ ر ١١ ٪ في انكلترا و ١٤ ٪ في فرنسا . ويمكن تشبيه نسب السكان في مصر بهرم له قاعدة متسعة وقمة ضيقة جداً

ومنذ ١٩٠٧ اخذت نسب الاعمار تتغير فانخفضت نسبة الاطفال الذين دون العاشرة من ٦ ر ٢٩٨ في الالف الى ٢ ر ٢٧٤ في الالف وازداد عدد الاشخاص ما بين العاشرة والاربعين من ٣ ر ٤٨٠ في الالف الى ٩ ر ٥٠٧ في الالف . وهذا دليل على ان سكان مصر يتجهون نحو الشيخوخة شيئاً . ولكن يجب ملاحظة ان ذلك من شأنه ان يزيد في عدد الاشخاص المخصبين من الناحية التناسلية اي البالغين من العمر ما بين الخامسة عشرة والتاسعة والاربعين ، وهذا يؤدي الى احتمال زيادة حالات الزواج والولادة . وفي الواقع انه اذا استمرت الزيادة في عدد المواليد بالنسبة الحالية فلابد ان يتضاعف عدد السكان في مدة الاثنتي والخمسين السنة القادمة . وفضلاً عن ذلك فان تحسن الحالة الصحية وما ينتج عن ذلك من قلة عدد الوفيات بين الاطفال سيؤدي الى زيادة محسوسة في عدد الشباب بين السكان ، ولا بد ان تواجه مصر في المستقبل القريب مسؤولية الاهتمام بتعليم الشبيبة وتهيئة العمل لهم ، وليس هناك ما نخشاه من خطر اتجاه السكان نحو حالة الشيخوخة والاجداب قبل قرن من الزمان . ولا بدَّ لنا من التسليم بان الكلمة العليا في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية ستكون للشباب

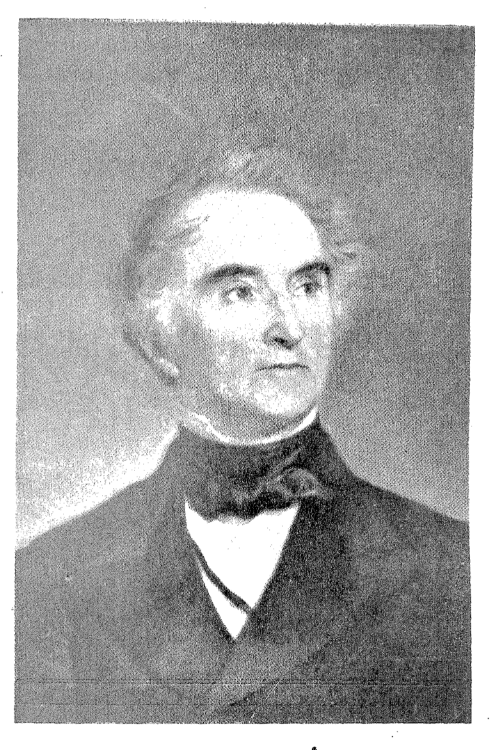
***

﴿ الصحة العامة ﴾ من البديهي ان الروح المعنوية في اية جماعة وتقدمها يتوقفان الى حد كبير على صحة الافراد . ولا يكفي للافراد ان يتمتعوا بصحة جيدة تسمح لهم بالعمل المثمر بل يجب ان يزخر فيهم الشعور بالنشاط الفياض الذي يحفزهم الى التقدم روحيًّا وعقليًّا

ولكن نسبة الوفيات في مصر عالية جداً فهي ٣٠ في الالف اي اعلى نسبة في العالم .



الدكتور وندل كليلند في مكتبه
مدير قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة



الكيميائي الالماني جوستوس فون لايبج
(راجع فصلاً عن حياته وعمله صفحة ٥٦٥)

والسواد الاعظم من الوفيات هو بين الاطفال . فان نسبة الوفيات بين الاطفال بلغت ٢٠٠ في الالف من المواليد في العام

ونجد هذه النسبة بين الامم المختلفة في عام ١٩٣٣ كما يأتي : في الهند ١٧١ وفي اليابان ١٢١ وفي المجر ١٣٦ وفي بلجيكا ٩٢ وفي انكلترا وويلز ٦٤ وفي الولايات المتحدة ٥٨ وفي السويد ٥٠ وفي استراليا ٤٠ وفي زيلندا الجديدة ٣٢ . ولعل البلد الوحيد الذي يزيد فيه عدد وفيات الاطفال عن مصر هو جمهورية شيلي اذ ان النسبة فيها ٢٥٨ . واذا فرضنا انَّ في الوسع انقاذ ٥٠ ٪ من عدد وفيات الاطفال ، فان النسبة تكون ١٠٠ في الالف . وهذه النسبة مرتفعة اذا قابلناها بالبلدان الاخرى . ومن الواضح اننا اذا بذلنا جهودنا للعناية بالاطفال فان نسبة الوفيات بين السكان لا بد ان تنقص نقصاً محسوساً . اذ ان الوفيات بين الاطفال هي بنسبة ٦٥ ٪ من مجموع الوفيات مع ان نسبة عدد الاطفال من السكان لا تعدي ١٤ ٪ . واذا اضفنا الى ذلك ما ينتظر من توصل العلم الى اطالة العمر تبين لنا ان عدد الوفيات ستقل كثيراً بين جميع الاعمار

ولكن مسألة الوفيات ليست الاَّ ناحية واحدة لحالة السكان العامة . فقد يعيش الانسان عمراً مديداً دون ان يتذوق طعم الصحة والعافية ويكون عاجزاً عن القيام بواجبه في المجتمع على أوفى وجه . وفي مصر ملايين من الناس في مثل هذه الحالة . إذ يوجد ١٢٠٫٠٠٠ أعمى و ١٤٫٥٠٠٫٠٠٠ مصاب بالتراخوما ، و ١٠ ملايين مصاب بالبلهارسيا والانكلستوما . هذا فضلاً عن الأمراض الأخرى الشائعة في العالم . ومن حسن الحظ ان مصر بلد زراعي ولذلك فأثر ضعف الصحة العامة فيها غير محسوس كما لو كانت بلداً صناعيًّا ، ومع ذلك فان العامل الزراعي المصري في حالة صحية غير مرضية

ومما يدعو الى التفكير انهُ على الرغم من ضعف الصحة العامة في مصر فلا يوجد فيها سوى طبيب واحد لكل ٥٠٠٠ من السكان . هذا مع العلم بان السواد الاعظم من الاطباء يشتغلون في المدن وليس في القرى الاَّ عدد يسير منهم . فاننا نجد نسبة الاطباء في المدن هي طبيب لكل ١١٠٠ نسمة من السكان بينما النسبة في القرى لا تتجاوز طبيباً واحداً لكل ١٣٫٠٠٠ من السكان ، مع ان ٩٠ ٪ من أهل القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي . وقد بلغ من سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤ ٪ و ١٦ ٪ منهم يصلح للخدمة بعد معالجته . بينما ٨٠ ٪ لا يصلح قط

ونجد ان هذه النسبة في بريطانيا العظمى هي ٣٦ ٪ صالح للخدمة و ٢٢٫٥ في حاجة الى العلاج و ٤١٫٥ ٪ غير صالح للخدمة العسكرية . ومع ما تبذلهُ وزارة الصحة من الجهد في مكافحة امراض العيون وغيرها فان نسبة انتشار هذه الامراض لم تقل كثيراً

﴿ مصادر الثروة الاهلية ﴾ يكثر ذكر الموارد الطبيعية للثروة والخامات وغير ذلك في هذه الايام. ومن الجلي انهُ ليس هناك مجتمع من الناس يمكنهُ ان يعيش بغير ان يتوافر لديه الطعام المغذي الكافي والملابس اللازمة لوقايته من تقلبات الجو . هذا فضلاً عن ضرورة وجود المنتجات بكثرة تفيض عن حاجة السكان حتى يتسنى لهم المتاجرة بها مع غيرهم من البلدان . فما هو مقام مصر من ناحية الانتاج

مصدر الثروة الرئيسي في مصر هو تربتها الخصبة وماؤها الفياض العذب . فنهر النيل المبارك يمنح مصر كل عام ما يزيد عن ٩٠ بليوناً من الامتار المكعبة من الماء . وتبلغ مساحة تربتها ٥٠٠ر١٣ ميل مربع . ويبلغ ما يستعمل منهُ للزراعة ٦٤٪ ما يقرب من ٠٠٠ر٥٠٠ر٥ فدان ، ويمكن زيادتها الى ٠٠٠ر١٠٠ر٧ اذا كان في الوسع تنفيذ بعض مشروعات الري، لانهُ بفضل نظام الري عندنا يمكن للارض ان تنتج محصولاً ونصف محصول لكل فدان مما يجعل قيمة الاراضي الزراعية تعادل ٠٠٠ر٥٠٠ر٨ فدان من ذات المحصول الواحد. وقد يمكن رفع ذلك الى ما يعادل محصول ٠٠٠ر٤٣٠ر١١ ثم ان كثافة السكان في الاراضي المعمورة بالاهالي في مصر تعادل ١١٧٥ نسمة لكل ميل مربع وهذه اعلى نسبة في العالم تعادل ضعف نسبة الازدحام ببلاد البلجيك التي تعتبر اكثر البلدان الاوربية ازدحاماً بالسكان ، ومع ذلك فاننا نجد في مصر ان كل فدان من الاراضي المنزرعة يستخدم لاعالة ثلاثة اشخاص ، وهم يعتمدون على ما تنتجهُ تلك الفدادين الثلاثة للحصول على ما يلزمهم من الطعام والملبس والمسكن والتعليم والملاهي وغير ذلك من كماليات

ونجد بعض التقدم في عالم الصناعة ، فضلاً عن الدلائل التي تبشر بنجاح التعدين في مصر ولاسيما البترول، وكذلك خامات الحديد بالقرب من اسوان غير أنهُ لا يمكن استخدام اكثر من بضعة آلاف من العمال في هذا العمل

ولنبحث الآن في الثروة الاهلية وتوزيعها على الافراد . فقد جاء في بيان اصدرتهُ لجنة دراسة الفاقة في شهر يوليه الماضي ان الايراد الاهلي في عام ١٩٣٥ قدر بمبلغ ١٨٥ مليون جنيه . اي بمعدل ١٢ جنيهاً لكل فرد من سكان القطر المصري الذين يتجاوز عددهم ١٥ مليون ونصف مليون نسمة ، ولا شك ان هذا المبلغ ضئيل جداً اذا قابلناهُ بمثله في الممالك الاخرى ، ففي بلاد السويد مثلاً يبلغ معدل ايراد الفرد نحو ٦٠ جنيهاً (عام ١٩٣٥) وفي الولايات المتحدة نحو ٨٠ جنيهاً (عام ١٩٣٤)

***

غير أن ضآلة الايراد العام ليست أسوأ ما في هذه الناحية من موضوعنا. فقد يصعب علينا ان نصدق أن المصري يعيش بمبلغ جنيه واحد في الشهر على المعدَّل. ومع ذلك فان كثيرين من الناس

كانوا يعيشون في هناءة لو تيسر لهم ذلك . والواقع ان السواد الاعظم يعيش في شقاء وفقر لا يمكن تصوره بسبب سوء توزيع الثروة

فقد بلغ عدد اصحاب الاراضي في عام ١٩٣٥ نحو ٢٫٣٦٥٫٦٠٤ وبلغ ما يملكونه من الاراضي الزراعية ٥٫٨٣٦٫٩٥٩ فداناً . وكانت نسبة الذين يملكون أقل من ٥ فدادين نحو ٩٣٪ من مجموع الملاك. وبلغت نسبة ما يملكون ٣١٪ من مجموع الاراضي . أما عدد الملاك الذين كانوا يملكون أكثر من عشرين فداناً فكانت ١٫٥٪ من مجموع الملاك وبلغ نسبة ما يملكونه ٥٠٪ من جميع الأراضي . وعلى هذا الأساس استولى ١٫٥٪ من مجموع السكان في عام ١٩٣٥ على نصف الايراد الاهلي. أي ان ٢٣٢٫٠٠٠ رجل نال كل منهم ٤٢٠ جنيهاً بينما لم ينل باقي السكان سوى ٦ جنيهات و ٤٠٠ مليم . أما اذا قسمنا ٣١٪ من مجموع الافدنة على سواد الشعب الذي يكوّنون ٩٣٪ من السكان فان نصيب الفرد لا يتعدى مبلغ ٤ جنيهات في العام ومعنى ذلك ان العائلة المصرية العادية التي قوامها خمسة اشخاص تتفاوت ميزانيتها السنوية بين ٢٠ و ٣٢ جنيهاً

ومنذ عهد قريب قدّر الدكتور ويليم ويلسن ان ادنى مبلغ لازم لتوفير غذاء مغذٍ لشخص بالغ يعيش في عائلة هو ١٩ مليماً في اليوم اي ٦٩٣ قرشاً في العام . مع ان هذا المبلغ هو ايراد عائلة كاملة في معظم الحالات

وهذه الارقام تبين بجلاء ان القطر المصري لم يكشف بعد الموارد اللازمة لاعالة عدد من السكان اكبر من العدد الحالي . بل في الواقع ان هذه الموارد لا تكفي السكان كما هم الآن . فما بالك اذا تضاعف عددهم حوالي عام ١٩٩٠ . ولا شك ان هذه الحقائق مما تبعث على التساؤل اذا كان هناك من يعتقد بان كثرة السكان يعتبر من مظاهر التقدم الاهلي اذا لم يجد الناس ما يكفي قوتهم

***

﴿ المستوى الاجتماعي ﴾ المستوى الاجتماعي في أيّ شعب يشمل كل ما له صلة بالحالة المعنوية للافراد من اذواق ورغبات ومطامع وحالة معيشتهم ومدى انتشار التعليم بينهم ومقدار تمسكهم بالدين وحالة المواصلات فضلاً عن العادات الاجتماعية ووسائل اللهو . فان هذه الامور هي التي تجعل للحياة قيمة . اذ اننا نجد ان كثيراً من الناس الذين يحيون حياة البؤس لم يعدموا احدى وسائل التسلية مهما تكن ضئيلة . فيجدون ما يضحكهم او يحفزهم للكفاح والنضال . ان كثيراً مما نسمعهُ من جلجلة السيوف ليس الاَّ وسيلة للتعبير عن طموحهم الى العلا تؤيده دعاية

تخدر الاعصاب قوامها الاقوال الرنانة عن رفع المستوى الاجتماعي وما يلزم لذلك من المستعمرات للحصول على المواد الخام او لتخفيف ضغط السكان فضلاً عما يصحب ذلك من مظاهر المجد والسلطان . وليس هناك وجه لانتقاد اي شعب لما يبدو فيه من دلائل الطموح او عدم القناعة بحياته الحالية وتطلع الى العلا والمجد ولكن ما نعترض عليه هو ان يسعى شعب من الشعوب الى كبح رغبات غيره من الشعوب او السيطرة على شعورهم . هذا ومن الحقائق انهُ لا يمكن لجميع الشعوب ان تستوي في مظاهر التقدم والحياة الاجتماعية، بل ان ما ندعوه بالمستوى الاجتماعي ما هو الاّ مجموع رغبات الافراد الذين يكوّنون الامة ولذلك فهو لا يقاس بالمقاييس المادية

فما هو مستوى المعيشة في مصر . هل يمكننا ان نصدر حكمنا استناداً الى ما نشاهده في المدن الكبرى من عمارات ضخمة وقصور فخمة ومنازل جميلة ومتاحف عامرة وشوارع متسعة وحدائق غناء وغير ذلك من اماكن اللهو والتسلية الجذابة . يحسن بنا ان نزور القرى المصرية ونمر بالاحياء الفقيرة في المدن وان تنفذ بصرنا الى قلب البيوت الفقيرة حيث يعيش ٩٠ ٪ من سكان القطر ! وعندئذٍ يرى الانسان ان اكثر تلك المساكن تتكون من ثلاث غرف صغيرة ارضها وجدرانها مبنية من الطين الاسود وسقفها من القش ، بينما الغرفة الخارجية اتخذت زريبة للماشية وعلى العموم يظهر البناء لمن يشاهده كلطخة من الوحل المجفف على سطح الارض . وقلما يجد الانسان في امثال هذه الاكواخ ما يمكن ان نسميهُ اثاثاً فمتاع العائلة لا يتعدى اناء او اثنين للطعام وكرسيًّا من الخشب لا يكاد يصلح للجلوس وصفيحة للماء وبساط خيش يستعمل للنوم ونادراً ما نجد فراشاً حقيقيًّا للنوم

وفي الواقع ان عائلة الفلاح لا يمكنها ان تجد اكثر من جنيه او جنيهين في الشهر لسد حاجتها من طعام وشراب ولباس ووقود ، فلا عجب اذا كان أفرادها يعيشون حياة أشبه بحياة الحيوان منها بحياة الانسان . ويكسب الفلاح رزقه من محصول قطعة أرض صغيرة او بان يشتغل في حقل غيره بأجرٍ لا يتجاوز قرشين او ثلاثة في اليوم . ومن حسن الحظ ان ما يطلب منهُ من جهدٍ ليس شاقًّا مما يلائم جسمه الضعيف الذي أنهكتهُ ديدان البلهارسيا والانكلستوما وذهنه الخالي من العلم، وجهله بالأمور العامة . ولا شك ان هذه الحالة لا يمكن ان تبعث في نفوس الفلاح أي شعور بالطموح او الرغبة في التخلص من محيطه الضيق . والفلاح بطبيعته يؤمن بالخرافات ويعتقد ان الاقدار هي التي قضت عليه ان يكون في تلك الحالة

سألت منذ أعوام فلاحاً عن رأيه في الصراع السياسي الذي كان قائماً عندئذٍ فكان جوابه مثالاً لأقوال غيره من الفلاحين . فقد أجاب « يا خواجه إحنا مش بتاع سياسة . ما يهمناش مين يحكم في مصر (القاهرة) . كل اللي نطلبه هو أنهم يدونا ميه كثيرة ويسيبونا في حالنا »

ولا شك ان هذه الحالة معناها ان جموع الشعوب بالرغم من الفقر الذي يسودها والامراض التي تعيث في صحتها راضية عن حالتها كل الرضى . ولا يخطر ببالها ان ترفع عقيرتها بالشكوى. ولذا فانهُ من اصعب الامور ان ينفث الانسان في الجمهور روح الطموح والتطلع الى تحسين حالتهم او كسر القيود الاقتصادية والاجتماعية التي تقعدهم عن التمتع بحياة وافرة كغيرهم من بني الانسان . وقد يدعو ذلك الى التساؤل كيف يمكننا ان نشعر هذه الطبقات بخطر ازدحام السكان وضرورة تحديد النسل . ان محاولة حمل انسان على رفع مستوى معيشته شبيهة بمحاولة المنوّم المغنطيسي. وفي كلتا الحالتين لا يمكن التأثير في الشخص بالرغم من ارادته — وكل طبيب في حاجة الى معاونة المصاب

﴿ الصلات الدولية ﴾ مما يزداد وضوحاً لنا ان ليس هناك أمة يمكنها ان تعيش في عزلة عن غيرها من الشعوب . وجميعنا نرى المصاعب التي تعانيها الشعوب التي تحاول ان تعيش بمواردها الذاتية . وقد نسأل ماذا يدعو أية دولة الى اتباع مثل هذه السياسة ما لم تكن ترمي الى شهر الحرب على غيرها من الدول . ولذا فهي لا تريد ان تعتمد على غيرها وتعرقل سياستها . ونتيجة ذلك ان ساءت التجارة العالمية وانكمشت . إذ انهُ من المستحيل على أي شعب ان يقتصر على تجارة الصادر وان يستورد البضائع دون ان يصدر الى الخارج من موارده ومنتجاته، ومما يزيد الحالة سوءًا ما تبديه تلك الحكومات « المعتمدة على نفسها » او « المكتفية بذاتها » من تهديد غيرها من الدول ، مما يبعث تلك الدول بدورها الى الاستعداد للدفاع عن نفسها فتنفق مبالغ فادحة على أدوات التسليح التي ليس لها فائدة عملية ما لم تستعمل لأغراض التدمير . وان سياسة التسابق في التسليح لا بد ان تصل الى عاقبة محزنة مهما يكن امرها

والقطر المصري يجد نفسهُ مرغماً على إنفاق مبالغ هائلة (٢٠ مليون جنيهاً للتسلح فضلاً عن ميزانية سنوية تبلغ ٧ ونصف مليون جنيهاً).وهذه المبالغ تصرف لوسائل الدفاع التي ليس من ورائها اي فائدة انشائية او اجتماعية وهي مدفوعة الى عمل ذلك اقتداءً بغيرها من الدول المجاورة لها . الم يكن الافضل ان تصرف هذه الملايين لتوفير العلاج والتعليم وطرق المواصلات الجيدة والمساكن الصحية وغير ذلك . وقد جاء في مقال نشره حسن صبري باشا وزير الحربية السابق في جريدة الديلي تلغراف ، نجد انفسنا مضطرين الى احتذاء مثال غيرنا من الدول في التضحية بجانب كبير من ايرادنا وانفاقه على التسلح بدلاً من العمل على رفع مستوى شعبنا وتوفير السعادة لافراده . اننا نتساءل هل من المتيسر ان ننقذ الفلاح من حالة الشقاء والبؤس ما لم تعد الثقة المتبادلة بين الدول وتنتعش التجارة العالمية ؟ !

[تتمة البحث في العدد القادم]

منشآت مصر الاقتصادية وأقطابها — ١

طلعت حرب

زعيم النهضة الاقتصادية المصرية

[طلبنا الى أحد المصريين الافاضل الذين يجمعون بين الدراسة المستفيضة لنهضة مصر الاقتصادية والصلة الوثيقة بزعيم هذه النهضة وخالقها وراعيها سعادة طلعت حرب باشا كتابة فصل في هذا الرجل الفذ فتفضل ووافانا بهذه الصورة المشرقة التي لاشك في أنها معبرة عما تكنه قلوب ملايين المصريين نحو بطل نهضتها الاقتصادية — المقتطف]

طلب اليَّ المقتطف ان أكتب فصلاً عن صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا — يستهل به سلسلة مقالاته عن منشآت مصر الاقتصادية واقطابها — وهو الرجل الذي تعرفهُ مصر ويعرفهُ الشرق والعالم. وهأنذا احاول ان أرسم صورة لشخصيته الفذة متخذاً ألوانها من ألوان الصورة المنطبعة في ذهني ونفسي. وفي لفظ المحاولة اعتراف، غير صريح، بالعجز! ولا غريب في ذلك. وإلاَّ فماذا نقول عن الشمس التي نراها وتلمس الارض نورها؟ هل في قدرة مصور ماهر وكاتب بليغ ان يبرزا هذا النور الوهاج الجلي في صورة أبدع وأروع مما يعرفها الناس؟ وأن يأتيا لهم بالجديد، ويكون للحديث جماله وسحره وللوصف قيمته ومعناه!

ومع ذلك يحلو للقلم ان يركب الصعب وان يقدم على الكثير، ففي اقدامه اليوم شرف كبير ومعنى وطنيٌّ سامٍ.

***

عرفت محمد طلعت حرب باشا يوم ان عرفتهُ مصر بأجمعها. يوم ان نادى بأنشاء مصرف مصريّ صميم يحفظ للامة ثروتها وللشعب امواله. وقد مددت لهُ يدي — كغيري — على البعد، قبل ان تراه العين من قرب. فقد كنت عضواً في احدى لجان الطلبة التي تطوعت في ذلك الوقت لحث موسري القاهرة على اقتناء اسهم هذا البنك الجديد. والحق يقال انهُ لو لم تكن لحداثة السن من ميزة غير عدم الاكتراث، لكفاها ذلك صفة لها جليلة! كنا نخرج من بيت الى بيت أو

على الأصح ، من قصر الى قصر ، لا يثنينا رفض الأول عن طرق باب الثاني . واستمرت بنا الحال اياماً واسابيع يدفعنا عزم الشباب وتقودنا الفكرة الوطنية الجليلة التي نادى بها محمد طلعت حرب باشا

من اراد الحديث عن هذه الشخصية ، فليبدأ بعرض ذكريات تلك الايام التي صحبت اخراج فكرة تأسيس بنك مصر الى حيز العمل والوجود

كنا حتى ذلك الوقت امة تضن على نفسها — حتى في أحلامها — بما لها تجده بين أيديها . أما المشروعات القومية المالية والاقتصادية الكبرى فقد كان الحديث فيها يؤخذ على أنهُ قصص من تلك التي ملأت أدمغة الشرق من قديم ، فأصبحت فكاهته ودعابته ومضيعة لوقته . والأجنبي بيننا ، يتغلغل في جسد الامة باحثاً عن مورد يشغله او قطعة من الدهن يمتصها ونحن اهل الارض والماء والهواء ، نفسح له في ارضنا الطريق ، ونعطر له في هوائنا النسيم ، ونقدم له من نيلنا المياه !

امة تعدادها خمسة عشر مليوناً من البشر ، قدمت نفسها قرباناً لجماعة من خليط الامم راضية باسمة ، كأن الطبيعة التي أخرجت للوجود الانسان والحيوان حراً طليقاً ، لم تخطئ في ناموسها الا معهم ! او كأن الله تعالى ، رضي عن اهل الارض قاطبة ، وخص اهل الكنانة بالغضب ، خلقهم ليسيئوا الى أنفسهم بأنفسهم . . . . . . حتى قبلنا النعيم في حياة الذل والخنوع !!

***

هذه كانت حالنا ، وهذا كان مقامنا يوم ان وقف محمد طلعت حرب باشا ينادي بتأسيس بنك مصر

فاين تلك الايام من اليوم ؟

برهة من الزمن قدرها سبعة عشر عاماً مرت ! هي في عمر الامم ثانية أو أقل . فماذا تم في هذه الثانية ؟ ومن ذا الذي ازال الصعاب ، وغلب الاوهام ، وقلب عادات تأصلت في الادمغة والعقول ، وبدّل أنظمة قديمة تمكنت من النفوس ؟

تأسس بنك مصر ! وفي حروف اسمه حرفاً حرفاً ما يغني عن التعريف والوصف ، فهو من مصر ولمصر . أقامتهُ عزيمة جبارة تعاونها أيدٍ مخلصة أمينة على الوطن وأهله . ارتفع بناؤه وعلا بمضي السنين حتى أصبح حجر الزاوية في اقتصاد الأمة ، ومعقل ثقتها ، ورمزاً مجسماً لما فيها من حيوية كامنة ، ظلت نائمة حتى أتاها المحرك القوي والمرشد الأمين فانطلقت حية عاملة

لم يكن لمثل محمد طلعت حرب ان يكتفي بالأساس . بل أنشأ البنك وأحكم بنيانه ، ليقيم عليه صرح الاقتصاد الشامخ ، لا يحد له من طول او عرض

ثلاثة وهبها الله الانسان فيها قوته ومنعته وكرامته

ثلاثة ان هي اغتصبت منهُ ، سلبتهُ الطبيعة شخصيته ومميزاته فساقهُ الغير سوق العبيد والانعام

ثلاثة ، هي الارض والهواء والماء ، لا وجود ولا كيان للانسان بغير حرية امتلاكها وحرية السيطرة عليها

ومصر التي أعزَّها الله بنعمة الاسلام بعد ان مكَّنها في الارض بقوة الفراعنة ، اغتصب الغاصبون — على مرّ السنين والايام — أرضها وماءها وهواءها حتى أصبح زمام أهلها بيد غيرهم

***

بعد ان أسس محمد طلعت حرب باشا بنك مصر ، جعل همه — وهو الذي لا يعرف للهدوء والراحة طعماً — ان يعيد لمصر ولأهلها ما وهبها الله من خيرات هي لهم لا لغيرهم

ولم يكن الأمر أمامه سهلاً ممهداً . فقد كانت الأمة في جوٍّ سياسي غير مستقر ، تلعب بها أهواء داخلية وخارجية . وللعنصر الاجنبي فيها قوته وجبروته وهو دائب على الحد من سلطة الأمة اقتصاديًّا قبل كل شيء ، عاملاً بما امتدَّ له فيها من سلطان على عرقلة كل عمل وطني

ولكن أين جميع هذه العوامل من عزيمة قوية وايمان صادق ووطنية حارة ، لا تعرف وهناً ولا استكانة . واذا ارادت شيئاً كان لها ما تريد !

في خمسة عشر عاماً ، نعم في هذا الزمن القصير ، قهر محمد طلعت حرب هذه القوى التي يمتد اصلها الى عهد اسماعيل اي الى اكثر من سبعين عاماً ! !

أرجع لنا من الارض ثروتها ، وأقام لنا في الهواء مكاناً ، وجعل لنا في الماء عزًّا وسلطاناً :

هل زرت مصانع الغزل والنسج في المحلة الكبرى ؟ (١) وهل رأيت هذه المدينة الصناعية الكبرى التي لا يملك الشرق مثلها ، والتي يعمل فيها اربعون الفاً من الايدي ، تجري في عروقها دماء المصري الصميم ؟

هل زرت دمياط ولمست حرير مصر ورأيت كيف تنسجه اليد المصرية ؟

هل زرت مصنع جلود الاسكندرية ومصبغة الحرير في حلوان ومصنع النسج الرفيع في كفر الدوار ومعاصر الزيوت في بني قرة ومصنع الكتان في القراطين ؟ ؟

(١) المقتطف : في مقتطف يونيو القادم ننشر وصفاً صناعياً اقتصاديا لهذه المصانع العظيمة



حضرة صاحب السعادة طلعت باشا حرب

هل رفعت رأسك الى الهواء وشاهدت العقبان المصرية محلقة في الجو بطائرات تقطع هواء مصر حرة طليقة شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ؟

هل أبحرت الى الارض المقدسة على بواخر مصرية صميمة ؟ والى اوربا على مثيلاتها ؟

من رأى كل هذا وأمضى اياماً بين كل هذا ، وقف حائراً يستعطف العقل الهامه الاجابة على : كيف ومتى وبأية عزيمة قام كل هذا لمصر ولمصر وحدها ! !

هو محمد طلعت حرب باشا الذي انشأ هذه المصانع وأوجدها وهو الذي أعاد لمصر هذه العظمة التي افتقدتها منذ انتهاء عصر الدولة المتوسطة من حكم الفراعنة !! .

***

ثم كان ان اسعدني الحظ بلقائه وجهاً لوجه في جمع — بعيداً عن ارض الوطن — يتحدث فيهم عن صعاب ذللها ، قابلته وهو في طريق انشائه لاحدى شركات بنك مصر. وقد ضم الجمع نخبة من رجال مصر وشبابها في الخارج . أنصت الجمع لحديثه اجلالاً واحتراماً ، ولعلها أبرز لحظة تتمثل لك فيها شخصية هذا الرجل حين يتحدث اليك عن عمل من اعماله الجليلة ، هنا ترى وتلمس صفاته بارزة في كل كلمة ينطق بها . يتحدث ولا يضن بالحديث. وتشعر من حديثه بأنهُ يريد منك ان تعي ما يقول ، لانهُ يتعمد القاء الحديث ، دروساً وتعاليم لمن امامه

ثم كان ان وهبني الله حظ معرفته عن كثب . جهد لا يعرف الهدوء ، وحركة لا تعرف الراحة . لا تفوته صغيرة أو كبيرة في كل عمل من هذه الاعمال الكثيرة المتشعبة . هو رأسها المدبر ويدها المحركة . وهو مع شدته في مراقبة عمل موظفيه ، يملك قلباً ملؤه العطف والحنو

***

مرّت أمامه ذات يوم جموع عمال المحلة الكبرى وقت انصرافهم في المساء ، فما ان شاهدوه حتى تظاهروا امامه في حماسة داعين مهللين

فماذا صنع محمد طلعت حرب باشا ؟ حياهم والدموع تقطر من عينيه !

حنواً ؟ عطفاً ؟ سروراً وبهجةً ؟ ام وطنيةً وايماناً ؟ ؟ هي كل هذا !

هي دموع جمعت كل هذه الصفات في قطرات خرجت من العين وان كان منبعها القلب! قلب هذا الرجل الذي وهب نفسه من الصغر لأمته وشعبه ووطنه

ان اراد الله بالوطن فرجاً بعد شدة ، ويسراً بعد عسر ، وكرامة بعد مذلة ، وقوة بعد ضعف ، امدَّ سبحانه وتعالى في عمر محمد طلعت حرب باشا اعواماً مديدة !

هي لنا وليست له !

※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※

الزجاج الجديد

يُمدُّ خيوطاً ويُصبُّ عجينة رخوة
ويصنع كرات تقفز ككرات المطاط

※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※※

في اساطير القدماء ان حكيماً مثل يوماً امام الامبراطور طيباريوس ليعرض عليه عجيبة الدهور ، زجاجاً تلقيه على الارض فلا ينكسر ، او تطارقهُ بالمطرقة فتصنع منهُ كما تصنع من الذهب ورقاً وسلكاً . فشاهد الامبراطور الروماني ما شاهد معجباً والقى على الحكيم اسئلة علم من رده عليها ان احداً غيرهُ لا يعرف سر هذا الزجاج العجيب، ثم امر بقطع رأسه لانهُ خشي ان تفضي صناعة هذا الزجاج الى بخس جواهره قيمتها

ولكن ما دفن من اسرار ذلك الزجاج في قبر ذلك الحكيم ، كشفهُ علماء الكيمياء الصناعية الحديثة . فهم يصنعون الآن زجاجاً يُمدُّ ويلفُّ كالاسلاك المعدنية الدقيقة، ويُصبُّ كأنه عجينة رخوة او عسل كثيف، ويصنعون منه كرات تضرب بها الارض فتقفز ككرات المطاط . وقد بلغ من عجائب اوصاف هذا الزجاج الجديد ان مشعوذاً هنديًّا كتب الى احدى الشركات التي تصنعه يسألها ما الحيلة التي تمكنهم من هذه الخدعة البارعة! والواقع ان المصانع الاميركية تصنع زجاجاً يقتضي منا ان نغير ما قام في اذهاننا من صورة قديمة عن الزجاج ، وهو انهُ مادة شفافة سهلة التكسر صلبة لا تمد ولا تُلوى

صنع الانسان الزجاج من نحو ستة آلاف سنة ، ونوَّع في شكله ولونه ، واستعملهُ في شتى الاغراض ، اوزاناً ونقداً وآنية وزجاجاً للنوافذ والابواب، ومصابيح وثريات ، ولكن الزجاج لم يصبح مادة حديثة بالمعنى الصحيح الاَّ بفضل الكيمياء الصناعية وفي العهد الاخير

خذ مثلاً على ذلك الخيط الزجاجي . ففي سنة ١٨٨٦ كشف الالمان طريقة لمد الزجاج خيطاً دقيقاً كخيط القطن . ولكنهُ كان قصماً سهل التكسر فظل كذلك حتى خطر لكيميائي مجهول اسلوبٌ يلتقط به الهواء ويجعله فقاعات صغيرة داخل الخيط فجعل الخيط الزجاج ليناً . وفي سنة ١٨٩٢ صنع ثوب نسائي من خيط الزجاج وباعه احد الباعة الى الاميرة اولالي

الاسبانية بستة آلاف جنيه ! اما التقدم الحديث في صناعة الخيط الزجاجي فيتيح الآن شراء الخيط الزجاجي اللازم لثوب نسائي ببضعة قروش ثم يمكن نسجه في مصانع النسيج الخاصة

***

يدفع الزجاج المصهور في ثقوب جهاز خاص بسرعة تفوق سرعة انطلاق الرصاصة من فوهة البندقية . ومن عجائب ما يصنع بهذه الطريقة خيط من الزجاج يمتد ستة آلاف ميل ، ولكنك مع ذلك قادر ان تلفهُ وتمسكهُ في راحة يدك واذا وزنتهُ وجدتهُ لا يتعدّى في وزنهِ رطلاً واحداً . وبلغ من دقة الخيوط التي تصنع ان مائة منها اذا فُتلت أُصبحت في كثافة الخيط الذي تُثبّت بهِ زرّ سترتك . ثخانة لا تزيد على جزء من عشرين جزءًا من الشعرة ومع ذلك فقوة مطّها تعدل قوة مط بعض أسلاك الصلب — نحو مليون رطل للبوصة المربعة

وقد صنعت أثواب نسائية كثيرة وقبعات وأربطة العنق منذ أيام الأميرة الأسبانية في أواخر القرن الماضي . ووجوه استعمال هذا الزجاج لا يحدُّ منها الاَّ خيال المبتكرين من الصناع وقدرة الباعة على اقناع الناس باقتنائها . حتى لقد قيل ان النسيج الزجاجي أخذ ينافس القطن والحرير الصناعي. واذا صحَّ ذلك فانهُ سينافس ولا ريب المطّاط وحجر الفتيلة وغيرها كذلك . لأنهُ يصلح لوجوه من الاستعمال يصلحان لها ولكنهُ يفوقها في رخصهِ . ولعلَّ اكبر عقبة دون ذيوعهِ ، ليست امتياز المنسوجات الأخرى عليهِ ، بل مقاومة الفلاحين والصنّاع الذين تعودوا الاعتماد في دخلهم على القطن والحرير الصناعي والطبيعي وغيرها

***

والزجاج كما لا يخفى مادة غير عضوية ، فهو غير قابل للاشتعال ، ومقاوم لتأثير الأحماض فيه،ولا يتأثر بالحرارة ما زالت دون ٢٢٠٠ درجة مئوية.فهو من أصلح ما يكون لستائر المسارح والدور ، بل وللطنافس التي يكثر دوسها

والنسيج المصنوع من خيط الزجاج عازل من الحرارة فهو يقي قيظ الصيف وقرَّ الشتاء خارج الدار . ولذلك يصنع نسيج منهُ يوضع طبقة داخل الجدار قبل طليهِ . ثم أنهُ يصلح ان يحلَّ محلَّ حجر الفتيلة لان الديدان لا تؤثر فيهِ ولا الجرذان ولا النيران ولا الاحماض ولا التعفن. وهو كذلك عازل للكهربائية . وقد صنعت منهُ مراتب للأسرَّة ، وعصيٌّ لصيد الأسماك ، وعلاوة على هذا وذلك فقد روى احد هواة الطيور ان عصفوراً بنى عشًّا لهُ بخيوط الزجاج أخذها من مصنع قريب

ومن أعجب ما صنع حديثاً زجاج يخترقهُ ٩٩ في المائة من النور الواقع عليهِ

وقد كان افضل زجاج من هذا القبيل لا يخترقهُ الاَّ ٩٢ في المائة من النور الواقع عليه — واهمُّ من ذلك ان هذا الزجاج لا يعكس الضوء مهما تكن زواية وقوع الضوء عليهِ او زاوية النظر اليه ولذلك يبدو لك ، لما يتصف بهِ من شدَّة الشفوف وعدم عكس الضوء ، انهُ غير موجود . ولذلك وصف بأنهُ زجاج خفيٌّ او لا يرى

***

ومن عهد قريب فاز شاب طالب بجامعة هارفرد يدعى « ادون لاند » بصنع زجاج يعرف الآن بالزجاج المستقطب وهو يشبه الزجاج العادي الجيد في جميع خواصهِ ويمتاز عليهِ بخواص بصرية عجيبة . وهو يماثل الزجاج الذي لا يتشظى المصنوع من لوحين من الزجاج بينهما طبقة شفافة من مادة خاصة تلصق احدهما بالآخر وتمسك بشظاياهما عن الانتثار اذا كسر احدهما او كسرا معاً . والزجاج المستقطب قوامهُ لوحان كذلك بينهما طبقة من خلاَّت السلولوس وهي المادة التي يصنع منها الحرير الصناعي . وفي هذه الطبقة التي تلصق اللوحين صفّفت بلورات صغيرة مجهرية باسلوبٍ لا يزال سرُّه مكتوماً . فتفعل هذه البلورات فعل ستار ذي شقوق فلا تسمح باختراقها الاَّ لامواج من الضوء لها خواص معينة وتحجب الباقي . وكذلك تستطيع ان ترى من خلال هذا الزجاج المستقطب الاجسام ، ولكن وهج الضوءِ في الزجاج نفسه يختفي . فاذا كان الحاجز الزجاجي الذي في مقدمة سيارتك منهُ رأيت السيارة المقبلة عليك ولكن الضوء الوهاج من مصباحيها المقدمين لا تراهُ وهَّاجاً فلا يبهر عينيك ولا يحير بصرك . واذا كانت جميع السيارات التي تنطلق على الطرق العمومية في الليل مجهزة بحواجز من هذا الزجاج سهل السير ليلاً وقلَّ الخطر

ولا يخفى ان الزجاج الذي لا يتشظى كان تحفة جديدة من بضع سنوات فغدا الآن وهو الزاميٌّ بحسب القانون في ٢٧ ولاية من الولايات المتحدة الاميركية

وفي الوسع استعمال الزجاج المستقطب في صنع افلام السنما فيؤخذ المنظر الواحد بصورّة ضوئية مزدوجة العدسة يكون الاستقطاب في إحدى العدستين أفقيًّا وفي الأخرى عموديًّا ، ثم تطبع صورتا المشهد إحداهما فوق الأخرى فيبدو المشهد وهو بارز ولهُ عمق المشهد الطبيعي

وهذه مسألة طالما سعى العلماء الى حلّها بعد اتقان السنما الناطقة فعجزوا وسيجدون في الزجاج المستقطب الحلّ المرجوّ

ترى هل كان الامبراطور طيباريوس حكيماً — اذا صحَّت الاسطورة — عند ما أمر بقطع رأس ذلك الحكيم !

فصل من نشأتي الادبية

رأيي في الشعر الحديث

لعبد الرحمن شكري

بعد تركي المكتب بدأت أتعلم اللغة العربية في مدرسة بور سعيد الابتدائية سنة ١٨٩٥ على الطريقة القديمة أي طريقة حفظ الإعراب قبل دراسة قواعد النحو واللغة وكان ذلك بالسنة الاولى الابتدائية فكان الشيخ مصطفى رحمة الله عليه يملي على التلميذ بيتاً من الشعر فيكتبهُ التلميذ الصغير على السبورة ثم يعربهُ الشيخ ويحفظنا إعرابه بالعصا . ونحن لا نفهم معنى ذلك الإعراب لاننا ما كنا درسنا قواعد النحو وارجو أن لا تكون قد خانتني الذاكرة في هذا الأمر فاني أريد الإنصاف ولكن الذي اذكره ان هذه كانت طريقته وكان الشيخ يغرى بالابيات التي تكثر فيها المحسنات البديعية من جناس وغيره. وقد كادت هذه الطريقة تُبَغّضُ اليَّ اللغة العربية وهي على أي حال قد بغضت اليَّ كتب النحو وطريقة الجناس. الاَّ ان تحفيظنا الشعر في الصغر جعلنا نحب الاطلاع عليه. وقد وجدت في مكتبة ابي كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ المرصفي الكبير وكان في الجزء الثاني من كتاب الوسيلة مجموعة صالحة من شعر الشعراء وكان بهِ قصائد كثيرة للبارودي والشعراء الذين احتذى البارودي طريقتهم في قصائد مختلفة مثل الحسن بن هاني والشريف الرضي وغيرهما. وقد أفادني الشيخ المرصفي الكبير لحسن اختياره وسلامة ذوقهِ وموازنتهِ بين الشعراء وسعة اطلاعه وعلو ذهنهِ عن التعصب لشاعر واحد أو طريقة واحدة مهما تكن جليلة . فاذا كنت مديناً لأحد فأنا مدين للشيخ المرصفي الكبير بما أفادني في كتاب الوسيلة الأدبية ومدين للشعراء الذين اختار لهم. وكنت اقدم من الشعراء المعاصرين البارودي بسبب هذا الكتاب ولم اكن قد قرأت في ذلك العهد شعر شوقي أو حافظ أو خليل مطران ولم أكن قد سمعت ببعضهم فاني ما كنت اقرأ الجرائد أو المجلات . وكان اطلاعي على شعراء الوسيلة الأدبية بين سنة ١٨٩٥ و ١٩٠٠ ثم انتقلت الى مدرسة رأس التين الثانوية وكان استاذنا في اللغة العربية الشيخ عبد الحكيم حسن الأختيار والشرح ولا ازال أذكر شرحه لابيات من شعر المعري يصف فيها غديراً وهي قوله :

تَظُن بهِ ذوبَ اللُّجَين فان بدت له الشمس أجرت فوقه ذوب عسجد
تبيت النجوم الزُّهْرُ في حجراتهِ شوارع مثل اللؤلؤ المتبدّدِ
فأطْمَعْنَ في أشباحهن سواقطاً على الماء حتى كدْنَ يُلْقَطنَ باليد
فَمَدَّتْ الى مثل السماء رقابها وعَبَّتْ قليلاً بين نسر وفرقد

ويعني بالضمير في مَدَّتْ الابلَ في القافلة ويعني بمثل السماء الغديرَ الذي انطبعت فيهِ صورة النجوم من نسر وفرقد والتي شبهها في البيت الثاني باللؤلؤ في الغدير ووصف الغدير بانهُ اذا سطع عليهِ القمر ليلاً وسطعت النجوم كان كذَوْب الفضة وبالنهار اذا سطعت عليهِ الشمس كان كذوْب الذهب. وهذا الاختيار الحسن جعلني أغرى بأحسن ما في الشعر العربي . وكان استاذنا في اللغة الانكليزية المستر ستيفنز لا يقتصر على الكتب المقررة بل كان يشجعنا على قراءة كتب أدب اللغة الانكليزية في طبعة سهلة رخيصة وكان يجمع منا نقوداً ويشتريها لنا فأطلعنا على مجموعة صالحة من الكتب التي كان قد سهَّل طبعها للتلاميذ المستر ستيد صاحب مجلة المجلات الانكليزية . ولم يقتصر على الادب بل كان يشجعنا على اقتناء نسخ رخيصة جداً ومتقنة من الصور الفنية واظن ان المستر ستيد كان ايضاً صاحب هذا المشروع. ومما يدل على تأثري بالبارودي اني رثيته عند موته بقصيدة طبعها خليل بك مطران في مجموعة مراثي البارودي ولا اذكرها الآن. ولكن لا احسب انها كانت ذات قيمة . وقد زاد اطلاعي على الادبين العربي والانكليزي في مدرسة المعلمين العليا وكانت الوزارة قد وزعت علينا كتاب الذخيرة الذهبية في الشعر الانكليزي وكتباً اخرى وكتاب الذخيرة يدل على حسن اختيار وسعة اطلاع وهذه هي الكتب التي تأثرت بها في نشأتي الاولى وقد أطلعتُ المرحوم حافظ بك ابراهيم على قصائد من قصائد الجزء الاول من ديواني في حفل حضره ففطن الى اني احتذي شعراء الصنعة العباسية كما في قصيدة البيت الآتي :

عميَ الدجى عن مطلع الفجر في ليلة كسريرة الدهر

وفي هذا البيت احتذاء لقول ابن المعتز

يا ليلة نسيَ الزمان بها احداثه كوني بلا فجر

وفي البيت :

لا تلْحَ مشتاقاً على شجن ان الشباب مطيةُ العذْرِ

احتذاء لقول الحسن بن هانىء : (ان الشباب مطية الجهل)

والقصيدة (أتنكر أشواقي وأنت دليلها) فيها احتذاء ظاهر لقصيدة الشاعر الذي يقول

(وانت ولا منّ عليك حبيبها) وقصيدة (راحة الهوى تعب) فيها احتذاء لقول الحسن بن هاني (حامل الهوى تعب) وقصيدة :

وزاولتُ السباق بها فلما سبقتُ البرقَ جاريتُ المرادا
بلغتُ بها المدى فلو استزادت عُلُوًّا ما وجدتُ المستزادا

فيها احتذاء لقول المعري :

وكم من طالبٍ أمدي سيلقى دوين مكانيَ السبع الشدادا
ليَ الشرف الذي يطأ الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا

والبيت : — أيُّهذا الغريب بالبلد النا زح ماذا دهاك عند الغروب

فيه احتذاء لقول الشاعر ولعله العباس بن الأحنف

يا رحمة للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا

ولو ان الوزن مختلف . وقصيدة

فكأنهن أزاهر منثورة نثر المبشر غُرَّة الخبرِ النَّدي

في بعض أساليبها محاولة احتذاء مسلم في قوله (عاصي الشباب فراح غير مُفنَّد) والبيت :

ذكرتُ به ليلاً كأن نجومه ثقوبٌ نرى منها الصباح المستَّرا

فيه احتذاء لقول ابن المعتز (ثقوب نرى منها الصباح وأنقابا) وقصيدة :

شكوتُ اليه ذلَّتي فتحكما وأرسلت دمعي شافعاً فتبرَّما
وقال له الواشون أنت وصلته بعثك طيفاً في الكرى فتظلَّما
وخبّر اني سوف أخلس نظرة اليه فأضحى بالحياء مُلَثَّما

فيها احتذاء ومعارضة لقول أبي تمام

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنَّبا وقبَّلتُ يوماً ظلَّهُ فتغضَّبا
وخُبِّرَ أني قد مررتُ ببابه لاخلس منهُ نظرة فتحجَّبا

وقصيدة : — وكيف ألوم الدهر فيما يريبني وأحسن شيء في الزمان عيوبه

في بعضها احتذاء لقصيدة للشريف ومعارضة لها وهي التي يقول فيها :

وإني لعرفان الزمان وغدره أبيت ومالي فكرة في خطوبه

ولم يعب حافظ ابراهيم هذا الاحتذاء وهذه المعارضة بل أثنى عليهما وقال أنهما ينتجيان من رطانة الفرنجة وعلى مرّ الزمن قللت من هذا الاحتذاء الظاهر وبقيت في ذهني نصيحة حافظ وأثر الشعر العربي المختار المتنوع الذي احتذيته . وفي هذا الجزء الاول أثر أيضاً لما اطلعت عليه من الشعر الانكليزي مثل قصيدة (تحية للشمس عند شروقها) وقصيدة (حنين الغريب عند

غروب الشمس) وقصيدة (رثاء الحب) وكان احتذائي للشعر الانكليزي في توليد الموضوعات الجديدة لا في أساليبه. وبعد انتهائي من مدرسة المعلمين سافرت في بعثة الى انكلترا سنة ١٩٠٩ اي قبل الحرب العظمى بنحو خمس سنوات وطبعت الجزء الثاني بعد عودتي ولا تغلب عليه نزعة التشاؤم ولا نزعة المذهب الطبيعي ولم افهم تمام الفهم ما يعني الكاتب بالمذهب الطبيعي. ففي الديوان قصائد ونظرات في حياة الامم وفي الايمان والقضاء وفي الحياة والعبادة وفي القلق الذي هو مصدر الرقي وفي الجمال والعبادة وصلتها وفي ضحكات الاطفال وفي وصف البحر وفي معانٍ لا يدركها التعبير وفي لسان الغيب وفي الشاعر وصورة الكمال وفي عيون الندى وفي الانسان والزمن وفي ابتسامات وفي الحسن والآمال النبيلة وفجر الشباب والايمان بالحياة الخ. ولا يقول ان التشاؤم يغلب عليه الاّ من لم يتح له الاطلاع عليه او من يتعمد التضليل. وفي الديوان اثر دراسة شعراء مختلفي النزعة فلا يستطيع مطلع ان يقول انهُ تغلب عليه نزعة شاعر واحد او مذهب واحد فان كان فيه تشاؤم وحزن ففيه أمل وسرور وما يصدق على هذا الجزء يصدق على غيره . ومن المشاهد ان الشاعرين الانكليزيين اللذين تأثرت بهما في اول الامر كانا بيرون وشلي وأعجبت ببيرون لقوة شعره وبشلي لطموحه الى المثل العليا وهما من شعراء المذهب الخيالي لا المذهب الطبيعي ولولا ان التبسط في الشرح يأخذ من المجلة مكاناً أعظم لتبسطنا

***

كان هذا الشرح التاريخي ضرورة كي استخلص منهُ نصيحة للشبان وهي ان لا يقصروا اطلاعهم على شاعر دون شاعر أو على عصر من عصور الأدب دون عصر وان يكون أساس إطلاعهم الأدب العربي واما الأدب الأوروبي فهو لنا في المنزلة الثانية ولا يكون الأطلاع عليه مفيداً الاّ بعد دراسة الأدب العربي في العصور المختلفة وينبغي ان لا يغترّوا بالنظريات التي يذكرها نقاد يكتبون مقالات مطولة من غير ايراد الشواهد العديدة والأمثلة من شعر ونثر ومن غير نظر الى جوانب الموضوع، وينبغي أن لا يخدعهم قول من يريد تلقيح اللغة العربية بأساليب افرنجية الاّ ما كان يمكن قوله على سبيل الاستعارات والتشبيهات بحسب أصول اللغة ولو لم يطلع قائله على الشعر الأوروبي ، ولا أن يخدعهم قول من يفضّل جمال الدين بن نباتة المصري على عبد العزيز بن نباتة السعدي على ضآلة الاول وعظم مرتبة الثاني لان الاول كان مصريًّا ولغته أسهل وأقرب الى لغة الكلام فهذا ليس أجل شيء في الشعر وتعمد جعل لغة الشعر قريبة من لغة الكلام لا يأتي بالسهل الممتنع وإلاّ ماسُمّي ممتنعاً فهو ممتنع لانهُ بعيد عن ركاكة وغثاثة وفتور من يحاكي لغة الكلام ، وأرجو أن لا تخدعهم ايضاً الأزياء التي تذيع في الشعر أو النثر ثم لا تلبث أن تنطوي وتزول كما تنطوي الازياء وربما خلّفت قوةُ الشاعر الممتاز الذي

يكتب على منهج تلك الازياء والعادات المؤقتة قصيدة أو قصيدتين فيهما ثمرة وفكرة وروح من العبقرية والخلود ولكن اكثر شعر هذه العادات المؤقتة يُكنس كما تُكنس بقايا الطعام. ومن هذه العادات والازياء التي ينادى بها مذهب الرمزية فكل شاعر يستخدم الرموز ولكن ليس كل شاعر بشاعر رمزي ولا بد أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن النثر صنعة وليس معنى هذا القول انهم ينبغي أن يثقلوا قولهم بالاساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فان الصنعة شيء والتصنع والتكلف أمران آخران ولا يُعْرَف الفرق الاّ بالاطلاع على العصور المختلفة كي لا يعيش الواحد منهم عالة على شاعر واحد قديم أو حديث مهما يكن كثير الأناقة ولا يغرنهم قول من يريد ان يبشر كالمبشر الديني ببعض الآراء العلمية الحديثة من غير ان تحولها كيمياء النفوس وصنعتها من صيغة العلم الى صيغة الفن ومن غير ان تختمر في وجدان الفنان ومن غير ان يميط ذوقه عنها غثاء المغالاة وقلة الاتزان في المناداة بها فان تعصب الشاعر شلي لآرائه المخالفة للاديان يقلل من قيمة فنه وصنعته حتى لدى من لا يؤمنون بالاديان وانما تقل مرتبة شعره عند هؤلاء لا من اجل غيرتهم على الاديان بل من اجل ان بعض التعصب ضد الأديان يفقد الشاعر اتزانه وقدرته الفنية وذوقه. وكذلك كل تعصب لرأي سياسي او اقتصادي قد يفقد الشاعر بصيرته النفسية وذوقه ويقلل من قيمة شعره فالذوق الفني والبصيرة النفسية المتزنة لازمان حتى للشاعر الذي يريد ان يعبر عن شكوك نفسه. وكذلك احذّر الشبان مما يسمى بالشعر الحر ويعني به اصحابه قصيدة تكتب اشطرها وأبياتها على بحور عروضية مختلفة وهذا الشعر يذكرني قصة ملك زنجي من اواسط افريقيا ومن رعايا الدولة البريطانية زار لندن عاصمة انكلترا فنظمت له وزارة الخارجية حفلة موسيقية وبعد توقيع الأدوار طلب الملك الزنجي ان يعاد توقيع الدور الاول فوقعه العازفون فقال ليس هذا بالدور الأول فأعادوا توقيع كل الادوار وهو يقول ليس هذا بالدور الاول وأخيراً سكت الموسيقيون للاستراحة وجعل كل منهم يصلح آلته الموسيقية وهو في اثناء اصلاحها يُخرج منها صوتاً يختلف عن اصوات الآلات الأخرى فصاح الزنجي ها هو الدور الأول. والشعر الحر المختلف الأوزان في قصيدة واحدة قصيرة وفي البيت الواحد انما هو من قبيل هذا الدور الاول. وقد بلغ من استهتار بعض الأفاضل أنهم يسخرون ممن يتذوّق العبارات كما يتذوّق الشارب شرابه من اللذة. وربما كان فعلهم هذا من قبيل رد الفعل بسبب مغالاة بعض الشعراء في إثقال شعرهم بكابوس من الاساليب العربية الصحيحة التي ليس تحتها طائل والتي يهيلونها حتى تصير اكواماً تخفي تحتها غثاثة المعنى ونضوب العاطفة. وأنا لست ممن يطري طريقة هؤلاء ولا طريقة الساخرين الذين يتجاهلون ان الشعر صنعة وانما يدفعهم الى هذا التجاهل خوفهم من كابوس التصنع

لقد نشرت في المقطم والمقتطف والرسالة قصائد عديدة ففي المقتطف نشرت قصائد موضوعاتها النشوء والارتقاء والحق والحسن وقيد الماضي وحواء الخالدة وحالتان للنفس ونشرت في المقطم قصيدة الى المجهول والخلق العظيم ونشرت في الرسالة قصائد في موضوعات مختلفة وهي مختلفة لاختلاف جوانب الثقافة الفكرية والنفسية التي انشدها . وبالرغم من اجلالي لخليل بك مطران والدكتور ابي شادي اقول انها ليس فيها احتذاء لطريقة خليل بك ولا تقارب من طريقة ابي شادي في الذوق . واهدائي نسخة من ديوان الشريف الرضي للاستاذ المازني سنة ١٩٠٦ يدل على مذهبي في الشعر وان كنت لا اتفانى في أساليب الشريف ولا ارفض ما عداه من شعراء عصره او العصور الاخرى . اما التقارب بيني وبين الاستاذ العقاد في الثقافة الشعرية فسببه اطلاعنا على ثقافة واحدة كما أوضحت . وقد فسر بعض الادباء شيئاً من قولي على غير ما اردت فقصيدة (بين الحب والبغض) في الجزء الثالث وهي القصيدة التي القى عنها الاستاذ المازني محاضرة كما ذكر لي في خطاب انما هي دراسة نفسية اغرت بها ابيات لجميل بن معمر الشاعر العربي يقول فيها (رمى الله في عينيْ بثينة بالقذى) وقصيدة (ليتني كنت السَّهاَ) في الجزء الثاني اغرى بنظمها الاطلاع على الخرافات الاغريقية والتأثر بقدوة هيني الشاعر الالماني وهي ليس فيها تمجيد لعمل ذلك الانسان الراغب في صلاح الكون لانهُ لم يصلحه وفيها تمجيد للفنون ومسراتها ولكن صرف النفس عن الاحاسيس الاخرى غير الفنية مَضَرَّةٌ كما وُصف في هذه القصيدة وكما وصف تنيسون الشاعر الانكليزي في قصيدة (قصر الفن) . وكذلك يأبى بعض الافاضل الاَّ ان يسيء تفسير قصيدة (حُلُمٌ بالبعث) وهي سخر بعيوب النفس الانسانية من تقاتل وتهافت ولمثل هؤلاءِ الافاضل اقول اقرأوا قصيدة (صوت الله) و(الملك الثائر) و (الارواح الطليقة) و(سجن الفضيلة) و(زورة الملائكة) و(المثل الاعلى) و(صلاة مؤمن) و(الكونان) و(الامل) . والظاهر ان القارىء لا يأخذ من قول القائل الاَّ ما يشاء لغرض في نفسه ثم يفسره بما تشاء اهواؤه والاَّ ما ترك قارىء قصيدة (الباحث) وغيرها من القصائد التي تدل على طموح الى المُثُل العليا وعلى امل في الحياة والانسان ولما تغابى احدٌ عن ان الامتعاض والسخر قد يكونان مظهراً من مظاهر الأمل والرجاء ولما ترك القارىء قصائد عديدة في مذاهب جويتي او برونتج الثقافية وتشبث بقصائد فيها وصف خفيف لمقابح النفس الانسانية على طريقة سوينبورن

***

هذا ولست ممن يدعي لنفسه العصمة من خطأ اللفظ أو العقل او النفس ولو اني طبعت شعري لحذفت منهُ اشياء لاقيمة لها ، او يُساء بها الظن على نحو ما اوضحت في هذا المقال

ولعلّ من تمام الفائدة والحجة ان نذكر شواهد أخرى من الجزء الاول للدلالة على ما كان من احتذائي العباسيين في صناعتهم ولابطال زعم الناقد الفاضل ففي الجزء الاول قصيدة عنوانها (شكوى) منها :

ومُطّلِبٍ بالعتب هجريَ لم أزل أداريه حتى عارضتهُ مَذاهِبُهْ
يعالج مني باسم الثغر راضياً وأَخبُرُ غِرًّا أنكرته معائبُهْ
أجود بنفسي في هواه سماحة ويبخل بالنزر الذي أنا طالبُهْ
وما كل أمرٍ تستقيم صدوره لمنْ لم يَرُضْهُ تستقيم عواقبهْ
لقد سامني ان أقبل الذل ضلة هل الغبن الاَّ ما تُقلُّ مطالبهْ
ووكَّل بي الاعراض حتى ألفتهُ وما كل صافي الوجه تصفو مشاربهْ
وليلٍ كاغضاء الحليم ادَّرَعْتُهُ لأَقضيَ او تنجاب عني غَياهِبُهْ

وفي هذه القصيدة احتذاء لقصيدة لبشار على الوزن والقافية والروي وفيها دعوة أيضاً الى التسامح في الاُخاء وهي التي يقول فيها

اذا كنتَ في كل الأُمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهْ
اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأي الناس تصفو مشاربهْ

***

ولعلّ ناقداً يقول كيف يتّفق الاحتذاء وارضاء مطالب النفس وهذا الناقد يفوته ان الاحتذاء شيء والنقل والاخذ بالنص أو شبه النص شيء آخر . والاخير هو الذي لا يُرْضي مطالب النفس والوجدان . وفي قصيدة (خداع الغواني) في الجزء الاول وصف للطبيعة منه

نسمات الربيع تخفق كالعتب برفق فِعْلَ اللبيب الخبيرِ
فهي تغدو ما بين غصنٍ نضير فاتن حسنه وغصنٍ نضير
كالرسول الاديب بين محب وحبيب أو كالحكيم السفير
يعقد الصلح في أناةٍ كما يعقد رب النُّهَى قضاء الامور
وضياء الشمس المنيرة كالبِشْرِ اذا ما احتواه وجه البشير
وهناك الطير المغرّد كالشاعر يتلو حمد الزمان النضير
نغمات لم يحْوِها المطربُ البارع الاَّ دعوى نفاق وزور

الخ . وهي احتذاء لقصيدة المعري التي يقول فيها : —

فهي تختال في زبرجدة خضـــراء تُغْدَى بلؤلوءٍ منثورِ
وغدت كل ربوة تشتهى الرقـــص بثوبٍ من النبات قصيرِ

وفي القصيدة بعض قوافي المعري فدعوى نفاق وزور من قول المعري (دعوى شقاق وزور) وتشبيه النسيم بالعتب فيه التفات الى قول جحظة (عتاب بين جحظة والزمان). ومن فكاهات النقد ان ناقداً انتقد في قصيدة رثاء مصطفى باشا كامل قولي (والمنى دانية والمجد عالي) وقال هذه عبارة تعوزها الفخامة قلت هي من قول شاعر الفخامة الشريف الرضي : (فالبُنى وافية والمجد عالي) في قصيدة له في الرثاء.وزعم ناقد آخر ان عبارة (الأمل المعسول) انكليزية قلت هي من قول ابي تمام

كانت لكم اخلاقه معسولة فتركتموها وهي ملح علقم

وقد استخدمها البحتري وغيرها كثر من مرة في وصف الآمال والاحلام والايام والليالي الخ

وفي الجزء الاول قطعة عنوانها (غُلالة الصهباء) منها :

فتمشّى الحياء في الخد حتى حَجَبَتْهُ غُلالة الصهباء

والمراد احمرار كاحمرار الخمر وهذا احتذاء لغلالة خمر في قول ابي تمام

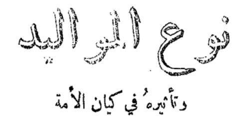
خدش الماء جلدهُ الرطبَ حتى خلتهُ لابساً غــلالة خمر

***

هذه الشواهد تدل على منشأ ثقافتي في الادب العربي كما ان قصيدة (بيرون) شاعر المذهب الخيالي في الجزء الأول تدل على منشأ ثقافتي في الأدب الانكليزي وهي التي قلت فيها :

تقول قولاً فتُذري الدمع من شجن كأنَّ قلبك مدلولٌ على العبرِ
ألبستهُ من سواد الحزن ضافية خلتَها من سواد القلب والبصر

ورثائي البارودي فيه دلالة اخرى كما ذكرت . ولحافظ ابراهيم فضل على الادب العصري حتى ان شوقي بك نفسه في اول امره لم يكن يتذوّق الأساليب ويتوخى الاناقة حتى خشي على شهرته من نبوغ حافظ واشتهاره بتذوق الأساليب فجاراه شوقي وجاراه مطران . وقد اتمت معرفتي بأقوال جويتي الالماني وقدوته ما بدأته معرفتي بسعة اطلاع الشيخ المرصفي الكبير في كتاب (الوسيلة الادبية) من توخي الثقافة المتعددة الجوانب وهذا موضوع يستلزم مقالاً آخر لاثباته بالشواهد والأدلة وسأكتبهُ



نوع المواليد

وتأثيرهُ في كيان الأمة

للدكتور شريف عسيران

بحثنا في مقالنا السابق مشكلة زيادة السكان وبينا بالارقام الصحيحة ان لا زيادة حقيقية في الوقت الحاضر تدعو الامم الى النزاع والخصام وتحديد النسل بالوسائط الوحشية . ونتطرق الآن الى ناحية لها التأثير الاكبر في كيان الامم وقوتها الجسدية والعقلية وهي نوع المواليد لا عددهم

ان الزيادة التي يكثر فيها المجانين والحمقى والبله والعمي وضعفاء الجسم والعقل والخاملون والعاطلون والشحاذون والمجرمون والمدمنون لاخير فيها وهي انتحار مدمن للامة . وقد بينا في مقالنا « العلل الوراثية الجسمية والعقلية » [1] مدى انتشارها في مختلف الامم . ومما لاشك فيه ان الامة التي قِوامُها من اجودعناصرها ،خيرمن التي قِوامُها من أشدّها فساداً

اذا دققنا النظر في مواليد الامم رأينا الطبقة غير المتعلمة اخصب من المتعلمة ويعزى ذلك الى عوامل عديدة أهمها (١) عدم المساواة في انتشار طرق تحديد النسل بين الطبقة المتعلمة وغير المتعلمة فالاولى اكثر الماماً بها واستعمالاً لها (٢) يحصل ارباب الحرف أوالطبقة غير المتعلمة على اعظم حد دخلهم وهم في شرخ الشباب فليس ما يدعوهم الى تأخير سن الزواج حالة ان الطبقة المتعلمة لا تبلغ هذه الدرجة قبل سن الاربعين (٣) ان مشكلة المتعلمين الاقتصادية أعقد من مشكلة غير المتعلمين لان مستوى الطبقة الاولى الاجتماعي أعلى من مستوى الثانية فضلاً عن ان الاخيرة تعتمد على اولادها لاعالتها في شيخوختها اكثر من الاولى [2]. فهذه العوامل وغيرها تشجع كثرة تناسل الطبقات غير المتعلمة وتقلل نسل المتعلمة وتكاد بعض اصناف هذه الطبقة تبلغ العقم كما سنبين

ان عدد خريجات الجامعات اللاتي يتزوجنَ بعد تخرجهنَّ يربي قليلاً على الخمسين بالمائة وقد وجد « هومز » ان نسبة خريجات جامعة كلفورنيا اللاتي تزوجنَ بين سنة ١٨٧٠ — ١٩١٠ كان ٥٦ بالمائة ونسبة غيرها من الجامعات تقاربها . ونجد النسبة نفسها في النساء اللاتي فيهنَّ درجة من الذكاء تجعل كسب العيش لهنَّ ميسوراً [3] اما نسبة الرجال الذين يتزوجون فانها أعلى من

---

(١) المقتطف مارس ١٩٣٨ : ص٣١٣ (٢) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابع عشر تحت لفظة Eugenics (٣) The Engenic Predicament, p. 84

النساء اذ تقرب من تسعين بالمائة وتدل ابحاث Muckermann في جامعات المانيا ومدارسها العالية ان معدل العمر الذي يتزوج فيه اساتذتها هو سن الثلاثين والنساء سن العشرين ويتأخر على الاجمال بسن الزواج اصحاب الحرف العالية اكثر من اصحاب المهن التي تتطلب مهارة يدوية (Skilled artisans) وهؤلاء يتأخروا اكثر من تأخر ارباب المهن التي دون ذلك فيقل نسل الفئة الاولى ويكثر نسل الثانية

ان نقص المواليد الذي ابتدأ في اكثر الممالك الاوربية منذ اواخر القرن التاسع عشر من اهم الحوادث التي تستوقف الانظار في تطور النوع البشري الحديث ومن أبرز صفات هذا النقص ان معظمه بين الطبقات الممتازة . ويظهر من احصاءآت Whetham ان معدل مواليد الاسر الارستقراطية والمثقفة بلغ ٧ في انكلترا في القرن الثامن عشر وهبط سنة ١٨٨٠ الى ٥ و ٤ وسنة ١٨٩٠ الى ٣ ويظهر من استقصاء David and Heron لمواليد لندن ان الاسر الكبيرة كانت منتشرة بين الطبقات الرفيعة والوضيعة والارجحية للاولى ثم هبطت وتدنت سنة ١٩٠١ وهكذا شأن اكثر الامم وقد وجد «كاتل» في اثناء تتبعه ٢٦١ اسرة من الاسر الاميركية المثقفة ثقافة علمية ان معدل مواليد الاسرة الواحدة ١٨٨ ويقدر ان الف اسرة اميركية من هذا النوع لا تخلف اكثر من ٣٥٠ حفيداً اذا حذفنا منها من لا يبلغون سن الزواج . ووجد «مكرمان» ان معدل اولاد اساتذة المدارس العالية في المانيا سنة ١٩١٦ بلغ مقدار ٢٫٢ . وبلغ نسل اسر خريجي جامعات هارفرد سنة ١٨٨١—١٨٩٠ مقدار ٢٫٠٦ لكل اسرة وجامعة ييل ٢٫٠٤ (١) ومن اقوال كاتل المأثورة : لخريج جامعة هارفرد ثلاثة ارباع صبي ولخريج جامعة فاسار نصف بنت

ان جميع الاحصاءات تدل على نقص بارز بين الطبقات المثقفة التي يجب ان يتحدر منها خيرة ابناء الامة . وقد وجدوا بجامعة كليفورنيا ان عدد مواليد تلامذتها ينقص بنسبة درجة تهذيب الآباء فكلما زاد التعليم نقصت المواليد وعكس ذلك نسبة مواليد الذين لم يتجاوز آباؤهم التعليم البسيط فانها تبلغ ٤٫٦٧ واذا كان الابوان متعلمين تعليماً كافياً فتبلغ النسبة ٣٫٣٨ واذا كانا خريجي احدى الكليات فالنسبة ٣٫١٠ وهلمَّ جرًّا . وقد درس Stevenson خصب الطبقات الصناعية في انكلترا وويلز سنة ١٩١١ فتوصل الى النسب الآتية :—

	عدد أولاد الاسرة الواحدة	عدد من عاشوا منهم
الطبقة العليا والوسطى (٢)	١٫٩٠	١٫١٨
الطبقة السفلى	٢٫٤١	٢٫٠٥
طبقة الحرف الصناعية (Skilled)	٢٫٧٩	٢٫٣٢
طبقة الحرف شبه الصناعية (Semi-skilled)	٢٫٨٧	٢٫٣٧
طبقة الحرف الدنيئة	٣٫٣٧	٢٫٦٨

(١) The Eugenic Predicament, Halmes, p.85-68 (٢) The Eugenic Predicament, p. 88

وتوصل غيره الى النتيجة نفسها في المانيا والولايات المتحدة ولا حاجة الى إثبات احصاءاتهم اذ يكفينا النموذج المذكور

ليس من المعقول ان يصير الاحمق استاذاً للرياضيات ولا يستطيع ان ينجح حتى في الحرف البسيطة كالنجارة او تصليح السيارات فحدّهُ الحرف الدنيئة . ومن الممكن ان تلجيء الظروف ذوي المواهب الى احتراف حرف لا تتفق وكفاءتهم ولكن لا بد ان يبلغوا يوماً ما هم اهل لهُ . ان ارتقاء الشخص بارتقاء المهنة ينطبق على البلاد الصناعية التي يتمتع اهلوها بوسائل التعلم على السواء ويتاح لكل منهم نفس الفرص التي تتاح للآخر فيتوصل كل فرد الى الدرجة التي يستحقها والبلاد الاميركية مثال لهذا النوع . ولكن هذا الحكم لا ينطبق على الاقاليم الزراعية حيث معظم الاهلين جهلاء لا تتاح لهم وسائط التعلم والتثقيف كالبلاد الروسية مثلاً (١)

ومن رأي « هومز » ان ذكاء الفرد يتناسب مع علو المهنة يعلو بعلوها ويتدنى بتدنيها وتحصيل ذلك بطريقة غير مباشرة فمن به موهبة للرياضيات او الموسيقى او الرسم تدفعهُ عوامله الطبيعية الى اغتنام الفرص لاعتناقها ومن لا قابلية فيه لا يستطيع احترافها فيحترف ما هو ادنى منها . وهذه القاعدة اجمالية لا كلية وقد ايدتها امتحانات الذكاء في الجيش الاميركي في اثناء الحرب العامة التي مع ما يشوبها من النواقص افادت بعض الفائدة من هذه الناحية . فالاشخاص المنتسبين الى الحرف العالية كانوا أعلى كعباً بمقاييس الذكاء واصحاب الحرف التي لا تتطلب مهارة جاؤوا دونهم والنجارون والبياعون والطباخون والخدامون كانوا بين بين بحسب مهنتهم (٢) واذا استقصينا سير اذكياء الرجال وجدنا نسبة كبيرة منهم متحدرة من طبقة متعلمة ونسبة اقل من طبقة رجال المال والاعمال اي كبار التجار واصحاب الشركات واضرابهم . ومن النادر ان نجد نوابغ متحدرين من طبقة الذين يمتهنون المهن الدنيئة . وقد جاءت تتبعات De Condelle لاعضاء المجمع العامي الافرنسي وتتبع Adin لسير ٦٢٣ من مشهوري فرنسا وغالتون لعلماء انكلترا وهافلوك الس لنوابغ انكلترا مؤيدة لهذه النتائج وتوصل Visper الى النتيجة نفسها بتتبع انساب الرجال المذكورين في كتاب مشهوري اميركا Who's who وقد اجرى Duff and Thomson امتحان الذكاء على ١٣٤١٩ شخصاً بين سن ١٠ — ١٣ في مدارس Northumberland فوجد حاصل الذكاء ينقص كلما تدنت حرف آباء الاولاد الذين اجريت عليهم هذه التجارب بالنسب الآتية

اولاد اصحاب المهن الحرّة Professionel Classes (٣) ١١٢،٢

---

(١) The Eugenic Predicament p. 90-91

(٢) The Eugenic Predicament, p. 92

(٣) عائلتان اميركيتان يضرب بهما المثل بالانحطاط العقلي

نظّار الصناعات Industrial oveseers	١١٠،٠
تجار الجملة	١٠٩،٣
الجنود والشرطة ومستخدمو البريد	١٠٥،٩
تجار المفردات	١٠٥،٠٠
الصناعيّون Technicians	١٠٢،٩
الفلاحون وعمال الزراعة	٠٩٧،٠٦
عمال الحرف البسيطة Unskilled	٠٩٦،٠٠

وتوصل تيرمان الى نتائج تقرب منها وتتبع بروكين Prokein نسب ٣٦٤ تلميذاً من ضعيفي العقول في مدارس مونيخ الخاصة فوجد اكثرهم من سلالة آباء يمثلون الحرف البسيطة وكان عددهم ثلاثة اضعاف الاولاد الذين يمتون الى آباء يمثلون الحرف المهمة التي تقتضي مهارة Skilled

فيتضح مما تقدم ان درجة الذكاء ترتفع وتنخفض على الاجمال بارتفاع وانخفاض المهنة . ويشذ عن ذلك الطبقة التي تمثل اسفل دركات الذكاء ولكن هذه الفئة قليلة في الوسع اهمالها . والطبقة الخطيرة التي تؤثر في مشكلاتنا الاجتماعية هي طبقة ضعاف العقول امثال Jukes و Kallikas (١) واضرابهم في اميركا والنورّ في العالم اجمع فهذه الفئة ضربت الرقم القياسي بالشحاذة والتنقل والبغاء والجرائم ورغماً عن كثرة وفياتها فانها تزداد بصورة مستمرة ونذكر على سبيل المثال نموذجاً واحداً منها اي من ضعاف العقول : Palley وهو اسم متسولة اميركية في انديانا كان لها بحسب رواية الدكتور بطلر احد عشر ولداً لقطاء لكل منهم اب غير اب الآخر . وكان لأحدى بناتها الضعيفة العقل ايضاً ثمانية اولاد غير شرعيين سبعة منهم بمقياسها الذكائي . وقد ولدت احداهنّ اربعة اولاد غير شرعيين فتحدر من هذه الفئة فقط ٢٣ ولداً غير شرعيين وتحدر من صلب بولي ٥٦ شخصاً ٣١ منهم قاصرو العقول و ١٨ من هؤلاء عالة على المعاهد الخيرية وعاش ١٦ منهم ٧٣ سنة على النفقات العامة وكلفوا مقدار ١٠٨٠٠ دولار . هذا فرع من اسرة تبلغ ٤٧٧ فرداً يمثلون سبعة اجيال ويوجد كثيرات من هذا النوع . يقول هويتهام ان النساء القاصرات العقول سواء منهنّ المتزوجات او العازبات ولودات لدرجة قصوى فيلدن من ٥ — ٧ اولاد قبل سن ٢٧ واكثرهنّ يورثنَ ضعف العقل لاولادهنّ ويقول بوبينو ان اشدهنّ نقصاً اكثرهنّ خصباً (٢) . وذكر السير جورج نيومان مدير صحة بريطانيا ان في عُشر الشعب البريطاني من ناقصي العقول (٣)

(١) The Eugenic Predicament, p. 95
(٢) The Engenic Predicament 96-97
(٣) Eugenic Sterilization 1936



صورة تخيلية لارسطو وأفلاطون

الفلسفة الحوادثية

مذهب جديد في الفلسفة الكونية

لا جوهر ولا عرض

ليس في الكون الا حوادث متجاورة

لحنا صبار

برتراند رسل الانكليزي من اعلام الفلسفة الاحياء اليوم ، إن لم اقل انهُ من اعلام الفلسفة في جميع العصور . ولهُ مؤلفات كثيرة لا داعي الى تعدادها هنا ، من أحدثها وأهمها الكتاب المدعو « الفلسفة » Philosophy . أورد في الفصل الثالث والعشرين من ذلك الكتاب موازنة المذاهب الفلسفية ونقدها . وتخلص منها الى الاشارة الى تفكيره الخاص ، او المذهب الفلسفي الذي يأخذ بهِ ، وهو ما دعوتهُ «الفلسفة الحوادثية» ، نسبةً الى الحوادث ، جمع حادثة ، وهو مذهب مطبق على آخر نظريات العلوم الطبيعية والنفسيَّة ، وسأورد بعض اقواله في تبيان ذلك المذهب في آخر هذه المقالة

قال رسل « تعنى الفلسفة بالكون اجمالاً ، لا بالانسان وحده . وانما تقوم مكانة الانسان في انَّهُ الآلة التي بها يمكن فهم الكون »

الثالوث اليوناني

اقول : اذا أحللنا قول رسل هذا محل الاعتبار فأين نضع اول ثواليث الفلسفة . أعني به الثالوث المؤلف من — سقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس — ؟ فإن سقراط لم يُعنَ بغير الانسان من موضوعات هذا الكون في ما نعلم . وخلاصة فلسفته ترد في القول الجامع « اعرف نفسك » . فالانسان ، اخلاقيًّا ونفسيًّا ، هو كل ما عرفناهُ في فلسفة سقراط . ولم يحفظ لنا التاريخ اثراً سقراطيا يثبت انهُ عني بغير الانسان من شؤون هذا الكون

اما تلميذه وخلفه افلاطون — ثاني اقانيم ذلك الثالوث — فكان أوسع تفكيراً ، وأبعد مدًى ، من استاذه وسلفه سقراط . وآثاره أوقع في النفس ، وأخلد في ميدان الجهود البشرية من آثار سقراط . على اننا اذا جمعنا تلك الآثار كتلة واحدة ، فلا نجد فيها غير الانسان ، وما يتعلَّق بالانسان من الابحاث والقضايا والآراء . كما يبدو ذلك واضحاً في كتاب « المائدة »

وهو حديث في الحب . وكتاب« الجمهورية» وهو نظرة في « العدالة » . وكتاب « الشرائع » وهو اسم على مسمًّى . وكذلك سائر مؤلفات افلاطون وهي ما يقرب من اربعين كتاباً سداها ولحمتها الانسان والشؤون الانسانية عمرانيًّا وسياسيًّا ونفسيًّا واخلاقيًّا . فالانسان عند افلاطون ، كما هو عند استاذه سقراط ، محور الفلسفة . وقد ذهب ارسطوطاليس — وهو ثالث اقانيم ذلك الثالوث — الى ابعد مما بلغ سلفاه فخاض ابحاثاً لم تلمسها يراعة افلاطون ، ولا دانتها فكرة سقراط . « كالمنطق » و « علم الاحياء » و « الميتافيزكا » ، علاوة على « السياسة » و « الاخلاق » و « الظواهر الجوية » وترك لنا مائة كتاب تشتمل على خلاصة تفكيره وعلومه. وقد كانت تلك المؤلفات غرراً في جبهة الازمان . على انك اذا أنعمت النظر فيها رأيت ان جلّها ان لم يكن كلّها ، يدور حول الانسان والموضوعات المرتبطة بالانسان كما في كتبه في« السياسة»، وفي «الاخلاق ، وفي« المنطق».وقد خص بعض مؤلفاته بـ « ما وراء الطبيعة »

والخلاصة ان اقانيم الثالوث الاول ، من ثواليث الفلسفة ، وهم اساطين الفلسفة القديمة ، على ما لهم من طول الباع ، وثاقب النظر ، كان همهم منصرفاً ، بالاكثر ، الى النظر في الانسان ومعالجة شؤونه الاجتماعية والنفسية . والانسان جزء صغير من الكون ، وصغير جدًّا . فمع وافر احترامي اولئك الفطاحل الثلاثة لا أرى في تفكيرهم ما ينقع غلة ، او يشفي علة ، من حيث النظر في امر هذا الكون . لذلك عرج رسل عن ذكر هذا الثالوث في معرض الموازنة والنقد في مورد المذاهب الفلسفية . وحصر موازنته ونقدهُ في ثالوثين وفرد آخر . فالثالوثان هما الثالوث الاوربي والثالوث الانكليزي . والفرد الآخر هو « كانت ». فوازن رسل بين هذين الثالوثين ونقد مذاهبهم الفلسفية ، وردها الى وحدتين اساسيتين فنيتين في نظام التفكير . ثم شرح وحلل فلسفة كانت . وفي آخر الكل أورد مذهبه الخاص

الثالوث الاوربي

ديكارت

ديكارت : هو ابو الفلسفة الحديثة ، وزعيم الفلاسفة في التاريخ الحديث . وبهِ يدخل التفكير في طوره الجديد المعروف عندنا بانهُ عبارة عن «الفصل بين الديانة وبين الفلسفة » . او استقلال الفلسفة وتحررها من الدين ،على نحو الفصل الحديث بين الكنيسة وبين السياسة

ذهب ديكارت في تفكيره ، الى وجود جوهرين مخلوقين ، او عنصرين أصليين ، هما المادة والروح.وهما غير الجوهر الخالق الازلي . ويرى ديكارت ان المادة والروح «غيْران» متمايزان. وهما يؤلفان الناسوت ، كما يؤلف عنصرا الاكسجين والايدروجين الماء . فالمادة تؤلف جسد

الانسان . والروح تؤلف نفسه . والناقد النزيه يرى في هذا القول العقيدة الدينية المتوارثة من عهد اوغسطينوس ، وما قبل اوغسطينوس الى عهد باراسلسس ، وما بعد باراسلسس . فالعقيدة الكنسية المأخوذة عن مفكري القدم ، والتي قال بها ابن سينا وابن رشد والفارابي ، هي لحمة فلسفة ديكارت وسداها . وان لم يكن هو يقصد ذلك

لا تناقش الكنيسة في عقيدتها لان مرجعها الوحي وهي مستندة الى الايمان . فهي حرة وهي فوق دائرة البحوث البشرية . وليس للانسان بازائها الاَّ احد امرين ، اما التسليم واما الجحود . فمن شاء آمن ومن شاء كفر . ومن أفدح الاغلاط ، وأشدّها ضرراً الخلط بين العقيدة وبين التفكير او ادماج الفلسفة في الدين ، او الدين في الفلسفة . فمرجع الفلسفة العقل ، ومرجع الدين فوق العقل وهو الوحي والالهام . وسبيل الفلسفة التفكير . وسبيل الدين الايمان . فلا دخل للكنيسة في التفكير ولا لهذا فيها ، فالذي يناقش انما هو الفيلسوف ، وفي مناقشته تقرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان . ثم ان الفلسفة متغيرة والدين لا يقبل التغير والتطور

قال ديكارت بالمادة والروح . وعنده ان صفة المادة «الامتداد» وهو الطول والعرض والعمق ، وهي الصفات التي تؤلف الحجم . اما صفة الروح فهي الفكر . وليس للفكر أبعاد ولا حجم . ويرى ان هذين العنصرين منفصلين تمام الانفصال . فلا تفاعل بينهما . فالرياح تثير الغبار ، وتحمل القش ، والسيول تجرف التراب وقطع الاخشاب او الحصى . على ان الرياح لا تثير الفكر (مادياً) ولا تجرف المياه الشعور والرأي . بل ان الحيوان يجر الاثقال المادية ولكنهُ لا يجر العقل ، والروح تثير الفكر ولكنها لا تثير انواء البحار . فكيف تفعل الروح في المادة ؟ كيف احرك يدي ؟ ما الصلة بين فكري ، او روحي ، وبين العصب المحرك الذي يرفع اليد ويخفضها ؟ هذا هو المشكل الذي يعجز عنهُ ارباب الفلسفة الديكارتية ، ويذهب ديكارت في حله الى وجود سائل في جنبات الدماغ ، او تجوانه ، ويدعى ذلك السائل الارواح الحيوانية Animal Spirits يؤثر في الاعصاب المحركة ويسوقها الى العمل . ولكن هذا القول لا تؤيدهُ الابحاث الفسيولوجية والنواميس الدينامية . والاختبار يرينا ألاَّ صلة بين العقل وبين المادة

ويذهب بعض ذراري ديكارت الى وجود توازٍ بين الروح وبين المادة . ويراد بالتوازي وحدة الميل في الاشياء ، على نحو سير الساعات المتجاورة ، دون اتصالها بعضها ببعض . يقولون هكذا النفس والجسد ، فيهما ميلان متماثلان ، او توازٍ . فحين يريد العقل ان يمشي الجسد تتحرك الرجل في الوجهة التي ارادها العقل . وكذلك حين يروم المرء العمل او الكلام ، فان اليدين واللسان تجريان طبق رغبة العقل .. هذا هو مذهب التوازي الفلسفي ولكن التوازي فرض لا يقوم على صحتهِ دليل . ففلسفة ديكارت تترك مشكلة اتصال المادة بالروح غير محلولة

سبينوزا

ابتكر سبينوزا مذهباً فلسفيًّا بديعاً ، يتمشى على قواعد الهندسة ، او المنطق فهو مستكمل الوضع ، واضح الترابط . يبين لنا كتابه في « الاخلاق » Ethics متانة آرائه ، وسامي مداركه في هذا الشأن . فقد شاد فلسفة معقولة على الاسس التي وضعها ديكارت ، ولذلك حسب من ذراريه . الاَّ انهُ تقدم في تفكيره خطوة ، رمى بها الى حل المشكلة الآنف ذكرها — صلة المادة بالروح — فقال بوجود جوهر واحد في الكون او في الاكوان ، هو الجوهر الازلي ، فقال لا يمكن ان يوجد الاَّ جوهر واحد او عنصر واحد ، وهو الله جلَّ وعلا . فهو الكائن الأوحد ، الفرد الصمد . وعبارة سبينوزا الفلسفية هي « لاموجود غير الله » . اما الكون بأجمعه من مادة وعقل ، فهو صفة « الجوهر الازلي » او صيغتهُ . وان شئت فقل صيغ جمع صيغة ، قال : للجوهر الأوحد مزيتان الفكر والامتداد . يؤلف الفكر عالم الروح . ويؤلف الامتداد عالم الحس او المادة . وعليهِ فكل ما في الوجود جزء منهُ تعالى ، وهذا هو مذهب ، تأليه الكون او الوهية الكون Pantheism . وهو المذهب الذي يوحّد المادة والروح ، ويجعلهما ظاهرتين او صفتين للجوهر الازلي . ولا أرى سبينوزا قد خرج عن حدود العقيدة الدينية المتوارثة . ففلسفته هي فلسفة ديكارت في الجوهر مع حسن الهندام والقالب الهندسي . فديكارت يجعل المادة والروح عنصرين مخلوقين أبدعهما الجوهر الازلي . اما سبينوزا فيجعلهما ظاهرتين لذلك الجوهر السامي الاوحد . فديكارت وسبينوزا سيَّان

ليبنتز

نبذ ليبنتز مذهب ديكارت ، كما نبذ مذهب سبينوزا ، فلم يقل بثلاثة جواهر جوهر خالق وجوهرين مخلوقين ، ولا بجوهر واحد متصف بظاهرتين ، بل ذهب الى وجود ظواهر لا يحصيها العد هي «المونادات» ، مفردها «موناد» . والموناد جوهر عقلي او قوة . وكل موناد مستقل عن كل موناد آخر . فالموناد ككرة مقفلة — صامتة — لا كوة ولا حلقة . لا كوة يطل منها على موناد آخر ، ولا حلقة تصله بموناد آخر . فالله موناد . وكل نفس هي موناد . اما الجسد فليس موناداً ، بل هو عبارة عن كتلة مونادات محطمة فهو يشبه القول ان الجسم العضوي مؤلف من عناصر . ولكن المادة ليست جوهراً عند ليبنتز بل ان الجواهر كلها عقلية فهو يذهب مذهب هيرقليط ، ودمقراط في تعدد الاصول ، او مذهب انيناغوراس القائل «بالهوميوميرا» ، او الخلط « ملغم » الذي منهُ تكوَّن العالمون . ويذهب مذهب التعدد هذا وليم جيمس زعيم الفلسفة العملية « براغماتزم » Pragmatism ولكن اذا كان كل موناد مستقلاً عن كل موناد آخر ، ولا كوة

ولا حلقة ، فكيف امكن انتظام الكون بسير المونادات معاً ؟ فاننا نرى الجماد والنبات والحيوان والانسان والكواكب في حالة من الانتظام توحد مجاريها ، كأنها متفاهمة . يجيب ليبنتز عن ذلك بنظرية الترتيب السابق . يقول : ان هنالك تصميماً مرسوماً على كل موناد . فهو مع انهُ يعمل مستقلاً ، الاَّ انهُ يتبع التصميم المرسوم . والنتيجة انتظام الكون . على قياس جوقة الموسيقى المؤلفة من اشخاص عديدين ، يعزف كل على حدة ، بآلة مماثلة او مخالفة الآلة التي في حيازة اخيه . ولكن جميع افراد الجوقة يتبعون في عزفهم « نوتة » مرسومة امامهم ، فيتفقون في النغم مع استقلال كل فرد منهم

او يشبه طائفة من البنَّائين ، يعمل كل منهم في جهة . ولكن كل واحد يتبع التصميم المرسوم امامه ، وهو رسم يبين صورة اجزاء البناء متحدة . والنتيجة هي انهُ مع ان كل واحد يبني مستقلاً عن كل بانٍ آخر ، فجميعهم يعملون طبقاً « لترتيب سابق » . يقول ليبنتز هذي هي المونادات يعمل كل موناد مستقلاً والنتيجة وحدة النظام . والسر في ذلك ان كل موناد يتبع الترتيب السابق

يقول رسل في نقد هذا الثالوث — ديكارت وسبينوزا وليبنتز — انهُ واحد في جوهرهِ ، واساسهِ ، فسبينوزا يجعل الكائن جوهراً واحداً ازليًّا . وديكارت يجعل الكوائن ثلاثة جواهر ، جوهر ازلي وجوهرين محدثين وليبنتز يجعل الاكوان جواهر لا عدد لها هي المونادات ، ولكن الثلاثة ذوو نزعة واحدة فيدعوهم « الجوهريين » لقولهم بالجوهر والعرض . فهم عنده فلاسفة المبتدا والخبر ، او العين والمعنى . وسآتي في ختام المقالة على نظرية رسل المخالفة الاساس الذي بنى عليهِ هؤلاءِ

الثالوث الانكليزي

اقانيم هذا الثالوث لوك وباركلي وهيوم . الاول انكليزي والثاني ارلندي والثالث اسكوتلاندي . فما هو تفكير كل واحد من هؤلاء ؟

لوك هو صديق اسحق نيوتن الشهير ومعاصره . وقد صدر كتاباهما الشهيران في وقت واحد . كتاب نيوتن في المبادىء Principia وكتاب لوك في تلخيص في « الفهم الانساني »

يقولون : ان لوك من مفاخر انكلترا . وانهُ احد مبدعي الحرية التي انتشرت مبادؤها في القرن الثامن عشر . وان في مؤلفاته جراثيم الثورة الانكليزية سنة ١٦٨٨ والاميركية سنة ١٧٧٦ والفرنسية سنة ١٧٨٩ . فتأثيره عميق وبعيد ، في عصره وبعد عصره ، في مصرهِ وفي غير مصرهِ ، يريدون بذلك تأثيره سياسيًّا واجتماعيًّا . على ان الذي يعنينا هنا انما هو مذهبه الفلسفي ، وذلك المذهب مادي في صورتهِ تصوري في جوهرهِ . وبيانه : ان لوك ينكر التصورات

الذاتية . وعبارته الفلسفية الشهيرة « ليس في العقل ما لم يكن قبلاً في الاختبار » وقد اضاف ليبنتز الى هذي العبارة قوله « الاَّ العقل نفسه » فصارت العبارة هكذا : —

ليس في العقل ما لم يكن في الاختبار الاَّ العقل نفسه :

يقول لوك ان العقل ، يولد، صفحة بيضاء يرسم عليه الاختبار معلوماته الاولى . وهي البدائه. فالبدائه عنده ثمرات الاختبار او الاختبارات . هذا اولاً . وثانياً ينكر لوك الروح . والمفهوم عندي انهُ لا ينكر ما ليس ماديًّا . كلاَّ بل يقول ان وجود المادة ثابت بالحس اما وجود الروح فلا دليل حسيّ عليهِ ، انما هو في العقل لا في الخارج . لان الروح لا تخضع للاختبارات العلمية التي تخضع لها المادة . فثبت عنده وجود المادة وانتفى وجود الروح. يضاف الى الامرين الآنفين امر ثالث وهو انكاره العلة ، او « العلية » . وهو يحسب ان اعتقاد العلة والمعلول من الأوهام المتوارثة التي سادت العقول البشرية ردحاً من الزمن . وسبب وقوع البشر في هذي الهوة هو انهم حسبوا السابق علة والتالي معلولاً . كالليل والنهار . فان من الاوهام أن نحسب الليل علة النهار ، او هذا علة ذاك ! . ففكرة لوك ان السابقات واللاحقات هي متجاورات او متتاليات . وان الجهل جعل المتقدمات علة المتأخرات . فليس في الكون علة ومعلول . انما هنالك سابق وتال

فهذي الامور الثلاثة العلة والبديهة والروح ينكرها لوك . او بعبارة اضبط ينكر أمر اثباتها في الخارج بالاختبار . فهو ينكر ما لا يخضع للاختبار . ولذا تدعى فلسفة لوك المدرسة الاختبارية . اي تعتمد الاختبار لاثبات الحقائق ، ناحياً في ذلك منحى هوب وباكن. والغريب في الأمر هو ان هؤلاء الثلاثة انكليز . فاذا صح ان هنالك فلسفة انكليزية فهي الفلسفة الاختبارية ، أو الحسية

باركلي

هو ثاني اقانيم الثالوث الانكليزي ، وهو اسقف ارلندي . يبني باركلي ، على الاساس الذي وضعهُ لوك ، مذهباً هو ضد مذهب لوك في خط مستقيم . لوك يثبت وجود المادة وينكر وجود الروح ، وباركلي يثبت وجود الروح وينكر وجود المادة . فيقول : لاشيء في الكون الا ما هو عقلي. اما المادة فوجودها في العقل وليس في الخارج . مرَّ بك ان لوك يسلم بوجود المادة في الخارج بشهادة الاختبار . اما الروح فلا دليل حسي ، أو اختباري ، على وجودها . وباركلي يرى ان وجود الروح هو الثابت بالاختبار اما وجود المادة فتصوُّر لا اكثر . قال : — اذا رأيتَ شجرة ، فكل ما تعرفهُ عنها انما هو في نفسك لا في الشجرة . كاللون والشكل او الحجم . فهذي الصفات هي في العقل لا في الخارج

يوافق لوك باركلي في الصفات الثانوية . ولكنهُ يخالفهُ في الصفات الاولية . ولايضاح

ذلك اقول : — قسم الطبيعيون صفات المادة الى قسمين ، اولى وثانية او ثانوية . فالاولى ما لا يمكن تصوُّر المادة بدونها . والثانية ما يمكن تصوُّر المادة بدونها . فالصفات الاولى الامتداد ، وعدم التداخل ونحوهما . والثانوية الليونة والوزن واللون فيقول لوك ان هذي الاخيرة ليست في الجوهر المادي بل في العقل الذي يعالج ذلك الجوهر ، ولكن باركلي يقول ان كل صفات المادة اولية وثانوية ، هي في العقل لا في المادة . فماذا بقي من المادة ؟ لا شيء الاَّ تصورها في العقل . هذا هو مذهب باركلي ، فهو مذهب تصوُّري باعتبار المادة حقيقيٌّ باعتبار الروح

هيوم

يبني هيوم على اساس سلفيه مذهباً يناقض مذهبيهما . فان لوك اثبت المادة وانكر الروح ، وباركلي اثبت الروح وانكر المادة . اما هيوم فانكر كلتا الاثنتين المادة والروح . فقال ان المادة والروح كلتيهما في العقل وليس في الخارج . فهيوم تصوريٌّ في المادة وفي الروح

هذا الثالوث الانكليزي يحبذه رسل ويؤثره على ثالوث القارة المؤلَّف من ديكارت وزميليه ويقول ان حجج الثالوث الانكليزي أوضح ، وأكثر إنطباقاً على العلوم العصرية طبيعية ونفسية ولهذي الفلسفة عنده كل الاعتبار والاحترام . ولكنهُ لا يعتنق هذا المذهب وان حبَّذهُ انما يورد مذهبهُ الخاص وهو الذي ادعوه « الفلسفة الحوادثية ». او مذهب رسل الفلسفي الجديد. هنا يجدر بنا الانتباه ، وصرف الدهشة عن الافكار ليمكننا ان نتفهَّم ما يروم رسل ان يملي على مسامعنا. قال في صفحة ٢٤٣ من كتابه « الفلسفة » ما نصه

ان فكرة وجود جوهر Substance دائم الوجود أو راهن ، على كل حال ، وبأي اعتبار كان ، كجوهر متصف بالاستمرار (في متنوع الحالات) يجب نزعها (الفكرة) من عقولنا ، اذا رمنا انشاء فلسفة مطابقة علم الطبيعيات وعلم النفس في العصر الحاضر ، فقد رجعت الطبيعيات ، سواء كان باعتبار النسبية التي اكتشفها اينشتين ، أو نظرية الذرة التي اوضحها شرويدنجر وهايزنبرغ ، الى نظام الحوادث Events تشغل كل حادثة «زمان مكان» ، أو «مكان زمان». فمعاملتنا الألكترون أو الكهرب معاملة كائنٍ مفرد ، هي خطأ ، كمعاملتنا سكان لندن ونيويورك معاملة شخص واحد . فالذرة ، أو الجوهر الفرد ، وهو لبنة البناء المادي الاولى ، ليست وحدة ، بل هي مجموع وحدات هي الحوادث . فالشحنة الكهربائية الايجابية هي حادثة . والشحنة السلبية حادثة . ودوران هذي حول تلك حادثة . وارتباط الكهارب بالالكترونات بحيث تتألف منها الذرات "Atoms" كذرة الاورانيوم مثلاً ، هي عبارة عن طائفة من الحوادث مجتمعة مترابطة ، وبزوغ النور حادثة او سلسلة حوادث . ومثله هزيم الرعد ، وقصف المدافع ، وغناء العندليب ،

وصياح الديك بل ان المدفع والديك والعندليب —وجميع الكوائن — ليست الاّ سلاسل ومجاميع من الحوادث متجاورة ،مترابطة . فقولنا « مادة » للدلالة على ذاتٍ ، قد انتهى وزال . فلا مادة . ليس الاّ الحوادث . هذا ما يقال في عالم المادة والاجسام العضوية وغير العضوية

وكذلك في علم النفس Psychology قد زالت الذات Ego وليس الاّ الحوادث . فالشخصية عبارة عن طوائف من الحوادث مجتمعةمترابطة ، يؤلف بعضها ما ندعوه العظم . وبعضها ما ندعوه اللحم . وبعضها ما ندعوه الدم ، او الجلد الخ . وكذلك بعضها يؤلف ما ندعوه الفكر ، او الذكر ، او الخيال ، او الارادة . ولكن مجموع الحوادث في صورة معلومة عندنا هي ما ندعوه الشخصية . وليست الشخصية ذاتاً . انما هي عبارة عن حوادث مترابطة في نظام مقرر . فكل ما في العناصر والمركبات انما هو كهارب وبروتونات . وهذي الاشياء حوادث مترابطة في نظام او بحسب نظام

فقواعد المبتدا والخبر تقود الى الضلال في الفلسفة . فليس هنالك مسند ومسند اليه في الكون . انما هنالك متساندات . وليس ثمة ذات وصفة انما هنالك حوادث تؤلف ما ندعوه ذاتاً وما ندعوه صفة او صفات

فالمبتدا والخبر قد دخلا في خبر كان الناقصة لانهما من اوهام الاقدمين . ويجب ان تفهم ان الاسباب الداعية الى انكار الجوهر Substance هي نفسها تدعو الى انكار الاشياء Things والاشخاص Persons فالعبارة النحوية «اجلس الى مكتبي» صارت فلسفيًّا كما يأتي : —

ان احدى سلاسل الحوادث المترابطة ترابطاً عليًّا في نوع يجعلها تدعى شخصاً لها علاقة قضائية بسلسلة اخرى من الحوادث المترابطة ترابطاً عليًّا وحجم هندسي يحمل اسم مكتب»

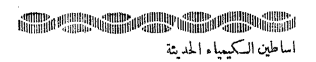
ذلك ما يجب ان يقوله الفيلسوف بدل«قوله اجلس الى مكتبي»

قال رسل في مطلع الفصل السادس والعشرين من كتاب الفلسفة : —

ان كون كل شيء ، في الدنيا مؤلف من الحوادث هو القضية التي اعتصم بها . وعليهِ فقد زالت الجواهر والاعراض،كما زالت العلة والمعلولات وليس ثمةسوى الحوادث المترابطة المتجاورة

فتنتهي نظريات ارسطوطاليس ،وتزول سيطرتها على الفكر البشري ، كما تزول نظريات ديكارت ومن بعده من المفكرين وتحل محلها الحوادث وعلاقاتها كما قال بها منكوفسكي ولورنس واينشتين وبور وبلانك وهايزنبرج وكذلك النظريات الحديثة في علم النفس التي يقول بها فرويد ومكدوجل والمدرسة الالمانية الحديثة «جشتالت» النموذجية ومقررات المجامع السيكولوجية التي تنفي الذاتية الراهنة في مختلف الحالات ، وترى ان الظاهرات النفسية وحدات متجاورة لاصفات ذات مستترة وراءها . هذي هي فلسفة الحوادث التي يقول بها برتراند رسل

ومن رام الوقوف عليها بحذافيرها فليراجع كتابه الذي عنهُ أُخذت وهو Philosophy



اساطين الكيمياء الحديثة

جستوس فون لايبج

Justus von Liebig

١٨٠٣ — ١٨٧٣

لحسن السلمان

انحدر فون لايبج من عائلة فقيرة كانت تستوطن ارياف دارمستات وتعيش على ما تجنيه من فلح الارض وزرعها . كان والده عطاراً يصنع بعض الاصباغ غير العضوية ويبيعها مع ما كان يبيعه من ادوية وعطور . وقد تمكن هذا العطار على جهله بأسرار الكيمياء وقوانينها من تحضير بعض المواد الكيميائية في مختبره الصغير الذي يشغل الطابق الارضي من حانوته ، فقد ورد في بعض رسائل لايبج ان والده حضر غاز الاستصباح قبل ان يكتشفهُ الكيميائيون وانهُ أجرى تجارب عديدة مختلفة على الاسمدة وعلى بعض المواد العضوية.

كان جستوس ثاني ولد لابيه ، وكان لوالده عشرة اطفال لم يوات الحظ احداً منهم مثلما واتى لايبج. واضطرَّ لايبج ان يبرح المدرسة الثانوية قبل إنجاز دراسته لفقر والده ولانهُ عاف الاسلوب الدراسي المتبع يوم ذاك فيها . فلقد كان الهدف الذي ترمي اليه مدرسته هو تحفيظ تلامذتها مفردات اللغة الجرمانية مع استظهار قواعدها ، وهذا ما لم يستسغهُ عقل لايبج ولم تستطبهُ نفسه . فاعتزم ان يطرق ابواب الحياة وهو في الرابعة عشرة من عمره مؤملاً ان تكون دروسها اكثر نفعاً واعمق اثراً. ولما لم يوفق الى عمل يعيش منهُ انتظم بحانوت أبيه يساعده في عمله نهاراً وفي اجراء تجاربه وتحضير مستحضراته ليلاً . ولقد قضى على هذا النحو من الحياة عامين كاملين عرف الشيء الكثير من اسرار الكيمياء وحقائقها ووجد متسعاً من الوقت لمطالعة عدد ليس بالقليل من الكتب الكيميائية . في هذا الحانوت الصغير هذبت عقلية لايبج فاكتسب اسلوباً تجريبيًّا في معالجة القضايا العلمية واسلوباً اديبًّا رصيناً فشبَّ وهو ميال لتحرير الرسائل العلمية وللانتاج الكيميائي

كانت جامعات المانيا يوم ذاك مفتقرة الى الاساتذة البارزين في دوائر العلم ، وكان معظم من يدرس فيها يخلط بين البحث العلمي والمذاهب الفلسفية . وكان في مقدمة من اشهر من الاساتذة الجرمان الاستاذ كاستنر Kastner فقد كان يحاضر بجامعة جايبسن وكانت في طليعة الجامعات الالمانية تقدماً ورقيًّا . فكانت اولى غايات لايبج ان يتصل بهذا الاستاذ عسى ان

يستمد من علمه ويستفيد من خبرته . وما ان تعرَّف به حتى رجاه ان يقدمه الى دوق هس ليساعده على إتمام دراسته باحدى جامعات فرنسا . وكان للدوق المذكور مستشار يعرف والد لايبج وهو متصل بالاستاذ الفرنسي الكبير كوفييه Cuvier . فلما اكتسب رضى الدوق ارسله المستشار برسالة الى صديقه الفرنسي وهذا بدوره قدمه الى الكيميائي الكبير جي لوساك Gay Lussac ليلحقه بمختبره . وقضى لايبج في هذا المختبر بضع سنوات عين بعدها أستاذاً مساعداً للكيمياء بجامعة جايسن وبعد ان قضى عامين ثبت في منصب الاستاذ . وفي عام ١٨٥٣ انتخب للتدريس في جامعة ميونخ حيث قضى واحداً وعشرين عاماً باحثاً عن خواص العضوية ومكتشفاً أسرار التفاعلات بين المواد الكاربونية . وكان في خلال ذلك رمز الاستاذ الكامل الذي أفنى نفسه في سبيل تحقيق نظرياته العلمية . وفي عام ١٨٧٣ فارق هذه الحياة بعد ان استطاع بفضل ما بذل من جهود جبارة من وضع الأسس الثابتة للكيمياء العضوية الحديثة

***

في عام ١٨٣٧ دعي جستوس لايبج لالقاء محاضرة عن « تقدم الكيمياء العضوية » في المجمع البريطاني لتقدم العلوم ، فكانت تلك المحاضرة رسالة وافية اوكتاباً كاملاً طبع عام ١٨٤٠ بعنوان « الكيمياء واستخدامها في الزراعة والفسيولوجيا» ويعترف مؤرخو العلم الحديث بأنهم لا يعرفون لكتاب آخر من التأثير في تقدم الكيمياء العضوية مثل ما كان لهذا الكتاب. فقد رد فيه على المخاوف التي بثَّتها نظرية ملثوس Malthus وأشار الى ان الهواء مصدر أساسي للاسمدة

وتتلخص نظرية ملثوس في أن سكان الكرة الأرضية يتزايدون بنسبة هندسية بينما تتزايد منتجات الارض بنسبة حسابية والفرق بين الزيادتين كبير جدًّا . وهذا معناه ان العالم صائر الى مجاعة هائلة او الى حرب ضروس ستقضي على الحرث والنسل من جراء تناقص المواد الزراعية ولا سيما الاغذية الضرورية لحياة الانسان . وقد دحض هذه المزاعم جستوس مثبتاً ان مياه الامطار تحتوي مقادير ليست بالزهيدة من نترات الامونيوم المتكونة في الجو بتأثير البرق والصواعق وهذه المقادير من النترات كافية لتكثير الانبات ولزيادة المنتجات الزراعية . والذي يؤخذ على لايبج انهُ أغفل مفعول الاسمدة الطبيعية ، ومما يؤسف لهُ انهُ اقتنع برأيه هذا فلم يوال البحث عن الاسمدة الكيماوية بمختلف أنواعها وعن طرق تحضيرها ، ولو فعل لتوصل الى ما كانت الزراعة الحديثة تصبو اليه وتتعطش طوال القرن التاسع عشر . والمعتقد ان صداقته للكيميائي العظيم وهلر Wöhler كانت سبب ذلك الاهمال ، فقد جذبهُ هذا الرفيق اليه واشتغل الاثنان معاً في تحضير رسالة جديدة بعنوان «حامض البوريك — طبيعته وما يشتق منهُ »

كان لافوازييه وبرزيليوس Berzelius وغيرها من الكيميائيين يظنون ان حموضة الحوامض

تعود الى وجود الاكسجين في تركيبها . والحوامض وان كان اكثرها يحتوي على الاكسجين في تركيبه الاّ ان هناك طائفة منها لا تحتوي الاكسجين مطلقاً . وقد توصل لا ييج بعد دراسته لحامض البوريك الى عكس نظرية لافوازييه وبرزيليوس ، فقد أثبت ان الحوامض مركبات تحتوي الايدروجين الذي يمكن ان تحلّ الفلزات محله . والحقيقة ان حموضة الحوامض ترجع الى وجود ذرات الايدروجين في تركيبها . ومع ان بحثه هذا كامل في كثير من النواحي الاّ أنهُ أخطأ في استعمال بعض المصطلحات ، فقد استعمل « المكافىء » عوضاً عن « الجزيئي » واستعمل « الوزن الذري » للحوامض عوضاً عن « الوزن الجزيئي » لها . ومع كل ما ورد بها من اخطاء فان الرسالة كبيرة الشأن لأحتوائها ابحاث تتعلق بقاعدية الحوامض Basicity of Acids ، اي قوة اتحاد الحوامض بالقواعد

فقد قسم لا ييج الحوامض الى ثلاثة اقسام احادية القاعدية وهي التي تحتوي ذرة واحدة من الايدروجين ، وثنائية القاعدية وهي التي تحتوي ذرتين من الايدروجين وثلاثية القاعدية وهي التي تحتوي ثلاث ذرات . واثر هذه الرسالة كان كبيراً جداً في ابحاث الكيميائي كيكولي Kekulé الواضع لتصميم بناء جزيئات البنزين — زيت القطران — وغيره من المركبات البنزينية . فقد كتب في رسالته عن بناء جزيئات المواد العضوية « ان اكثر ما جاء في هذه الرسالة ان هو الاّ توضيح أو استنتاج لما ورد في نظرية تعدد قاعدية الحوامض Polybasicity

وأعظم ماقام بهِ لا ييج بالاشتراك مع صديقه وهلر انهما وضعا نظرية الجذور العضوية ، فكيمياء المواد الكاربونية ليست الاّ كيمياء الجذور المركبة Compounds Radicals . لقد كانا يبحثان في خواص زيت اللوز المر عند ما اكتشفا انهُ مكون من مركب بنزولي . وبعد ان توسعا في البحث ادركا ان كثيراً من المركبات العضوية متصل بعضها بالبعض الآخر بواسطة جذورها المشتركة . فالكحول والفورمالدهايد والاسيتون والحامض الخليك جميعها تشترك بجذر واحد يدعى الجذر المثيلي CH3 وحامض البنزويك وزيت اللوز المر وغيرها من المركبات تشترك بجذر واحد هو الجذر البنزولي C14 H5 O2 . ان لا ييج ورفيقه وهلر بعملهما هذا قد وضعا الأسس الثابتة لكيمياء المواد الكاربونية ولقد صنفا المواد العضوية الى طوائف مشتركة بجذور متماثلة

***

وقبل ان نطوي آخر صفحة من حياة هذا الكيميائي العظيم لابد وان نأتي على حادثة جرت له خلفت في قلبه الحسرة حتى أخريات ايامه .

كان لا ييج شأنه شأن اكثر كيميائيي القرن التاسع عشر يطمح الى اكتشاف عنصر جديد

لا عتقاده ان الخلود ملازم للذين يكتشفون عناصر جديدة دون غيرهم غير دار انهُ سيتوصل الى امنيته ولكن الاقدار ستعاكسه في هذه المرة ، فهو الذي سيكتشف العنصر الجديد الاَّ ان شرف الاكتشاف سينسب الى كيميائي آخر . عرف لا بيج ان هناك عنصراً كثير الشبه بالكلور لم يكتشف بعد ، وعرف ان خواصه مماثلة لخواص الكلور واليود وان مركباته يكثر وجودها مع مركبات هذين العنصرين . فانصرف الى اكتشاف ذلك العنصر . واستطاع من تحضيره باحلال الكلور محله في مركباته ولكن لسبب مجهول حسب ان المادة المحضرة لم تكن الاَّ مركباً من اليود والكلور فجمعها في زجاجة صغيرة وكتب عليها بخط يده « كلوريد اليود » . وبعد عام من هذا الحادث اعلن في الدوائر العلمية ان الكيميائي الفرنسي بلارد Balard توصل الى اكتشاف عنصر جديد سماه برومين باحلاله الكلور محله في مركباته ولقد كانت وطأة ذلك الخبر جد شديدة على لا بيج ولاسيما بعد ان استوثق من ان المادة التي دعاها بكلوريد اليود لم تكن الاَّ عنصر البرومين نفسه

مقام الكربون في الافعال الحيوية

للكربون مقام خاص بين العناصر لانهُ يدخل في مركبات منوعة متعددة تزيد عددها على مركبات جميع العناصر الاخرى . فمن المسلَّم بهِ عند الكيميائيين ان جميع العناصر ما عدا الكربون ، تدخل في تركيب عشرين الفاً الى اربعين الفاً من المركبات مع انها لم تركَّب جميعاً منها. يقابل ذلك ان الكربون يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركَّب ، ولا يبعد ان نزداد هذا العدد في السنوات المقبلة حتى يصبح ٦٠٠ الف . فليس ثمة حدٌّ من الناحية النظرية للمركبات التي يمكن تركيبها من الكربون . ولعلَّ الصفة المميزة لذرَّات الكربون قدرتها على توليد مركبات ذاتية . وهذا يجعل المركبات الكربونية مما لا عدَّ له ، وقد اثبتت التجربة في احوال متعددة وجود مركبات كربونية كان الدليل اليها البحث النظري فقط

وعلى ذلك نرى ان تغييراً يسيراً في بناءِ الجزيء الكربوني من الناحية الكيميائية ، كابدال ذرات بذرات ، او مجموعات من الذرَّات بمجموعات اخرى ، يمكن الباحث من احداث تبديل في الخواص التي يتصف بها ذلك الجزيء . وهذا حمل العلماء على الاعتقاد بان هذا العنصر هو أساس لا غنى لهُ لاعظم ظاهرات الطبيعة ، نعني ظاهرة الحياة . وقد عرّفت الكيمياء العضوية بانها « كيمياء مركبات الكربون »

تعليم الجمهور

اصول الصحة

للدكتور حسن كمال
مدير الصحة القروية والدعاية الصحية بوزارة الصحة (١)

كلمة اجمالية

يجب علينا قبل الكلام في هذا الموضوع ان نفسّر معنى الصحة وقد تبارى في ذلك كثيرون ففسّرها بعضهم بأنها حالة معنوية يشعر فيها الانسان بخلوّه من المرض — وقال البعض الآخر إنها الحالة التي يكون فيها الجسم سليماً في انساجه وأحشائه وأعضائه بحيث يسير فيها الاندثار والترميم بنظام ويحصل فيها النمو والاضمحلال بحسب مقتضيات السن . وهناك كثيرون يفسرونها بغير ذلك . قال بعض الفلاسفة إنها تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الاّ المرضى

والدعاية الصحية نوعان . دعاية الطلبة . ودعاية البالغين. اما دعاية الطلبة فالغرض منها :—

(١) ارشاد الأطفال والشبان الى ما يحفظ صحتهم ويحسّنها (٢) انشاء العادات الصحية فيهم وارشادهم الى اصولها حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بالنشاط والسعادة (٣) التأثير في اولياء امور الطلبة والشبان الآخرين حتى يتعظوا بفائدة العادات الصحية وغيرها (٤) تحسين الحياة الفردية والاجتماعية والعمل على تنشئة جيل اصح واقوى واكثر فائدة للوطن. اما الدعاية الصحية عند البالغين فيقصد بها ما ذكر آنفاً مضافاً اليه (٥) ارشاد الجمهور باستمرار الى ما ينفع صحته حتى يبقى دائماً على علم بتقدم الطب في نواحيه المتعددة (٦) افهام البالغين الذين لم يسبق لهم أن تعلموا اصول الصحة بالمدارس وغيرها والمقصود بالبالغ هنا الشخص الذي اتمّ دراسته او وصل الى السن الذي يترك فيه الطالب مدرسته للدخول في معترك الحياة . وتقوم وزارة الصحة بهذه الدعاية في القطر بكافة الطرق

وقد كانت الدعاية الصحية موضوع نقاش وجدال عظيمين. قال بعضهم : إن افهام الجمهور اصول الصحة لا يفيد بل يضر وأصحاب هذا الرأي متحيزون كثيراً لأنهم يعتقدون ان محاولة افهام الجمهور اموراً فنية خطرٌ ومضرٌ ظناً منهم بأنّ هناك فارقاً بين تعليم اصول الطب وتعليم اصول الصحة. هم يقولون ان قراءة اوسماع اعراض الامراض وطرق تشخيصها وعلاجها يجب الابتعاد عنهما

(١) محاضرة القيت في مدرسة الثقافة الاجتماعية في مارس سنة ١٩٣٩

ونحن مع مشاركتنا اياهم في ذلك نقول انهُ يجب ايضاً افهام الجمهور تركيب جسمه ووظائف اعضائه وطرق الوقاية من المرض وارشاده الى العادات المفيدة والضارة والغذاء الصحي والمكتشفات الطبية الحديثة ونواحي التقدم في الطب والجراحة وامراض الاسنان والتمريض والمستشفيات والهيئات الصحية المتعددة التي تساعد على شفاء الانسان وتزيد من سروره ونعيمه وتقلل من شقائه ومرضه كل هذا يمكن عمله بدون الدخول في الاصطلاحات الطبية أو دقائقها مما يجعل الجمهور يسأمها ويتجنبها والى القارىء بعض الاعتراضات التي توجه ضد تعليم الجمهور أصول الصحة

(١) ان تعليم الجمهور ذلك يسبب لديه حالة انحطاط نفسانيّ والرد على ذلك ان هذا الانحطاط قائم الآن سواء تعلم الجمهور أصول الصحة او لم يتعلمها

(٢) ان تعليم أصول الصحة يساعد كثيراً على معالجة المريض بنفسه وتشخيص مرضه بذاته دون الاعتماد على الطبيب والجواب على ذلك ان الذي يحدث هذا هو التعليم الناقص فيجب علينا اصلاح طريقة التعليم لا ان نتجنبهُ كليةً

(٣) ان تعليم أصول الصحة جعل تعليم الطب أصعب مراساً مما كان ، لأن المريض الذي سبق ان تعلم أصول الصحة يفقد جزءًا كبيراً من ثقته بالطبيب فلا ينفذ نصيحته . وهذا أيضاً ليس نتيجة تعليم أصول الصحة بل نتيجة قلة هذا التعليم او خطأ تعليمه

(٤) ان تعليم أصول الصحة للجمهور لم يثمر الثمرة المرجوة وهذا معناه ان المجهود المبذول أقل من الواجب فيتحتم مضاعفته

(٥) ان تعليم الجمهور أصول الصحة بثَّ أفكاراً خاطئة وآمالاً زائفة . والجواب على ذلك ان مثل هذا التعليم لم يصل الى مواطن الأمور بل اقتصر على قشورها فيجب التعمق فيه حتى يفقه الجمهور معناه

(٦) ان تعليم الجمهور أصول الصحة يساعد كثيراً على تشجيع الدجالين المغررين بأذهان الجمهور . لكن ما يقال عن الطب في هذا المضمار يقال أيضاً عن العلوم الأخرى . والجرائد اليومية طافحة بهذه الأمور على اختلاف أنواعها . وعلى الرغم مما قيل من هذه الأمور المثبطة فان تعليم الجمهور أصول الصحة أصبح حقيقة ملموسة لا نظرية معنوية وقد دلتنا التجارب على ان الجمهور المصري شغوف بفهم أصول الصحة وانهُ بدأ يفهم الدجل ويقدر قيمة الدعاية الصحية

وعليه فاهمال الدعاية يضيع فرصة تحسين الصحة والعلاج الناجع والوقاية من الأمراض والمباحث الطبية والتجارب العلاجية ويحطُّ من المستوى الصحي والانتاجي ويكثر من الموت المبكر . يضاف الى ذلك ما يتبعهُ من كثرة مصاريف العلاج وزيادة البطالة

لذلك اهتمت معظم الدول الراقية بالدعاية الصحية وليس ثمة ريب في ان أساس المشروع

هو تضامن الهيئات الطبية بكافة أنواعها من طبية وجراحية وصحية وتمريضية وغير ذلك

﴿ اين يبحث الجمهور عن وسائل التعليم الصحي ﴾ . هذا سؤال كثيراً ما يسأله الجمهور المثقف . والجواب عنهُ ان هناك كتباً كثيرة يمكن الجمهور الأطلاع عليها . وربما كانت الكتب التي تدرَّس بالمدارس الأبتدائية الأميرية انفعها للجمهور العادي . وتسأل المكاتب العمومية عمَّا يجد في هذا الموضوع . اما الكتب الأفرنكية فكثيرة ولا تقع تحت حصر

وهناك مجلات طبية تكتب خاصة للجمهور تتناول الموضوعات الطبية الأجتماعية باللغة العادية موجود منها في اميركا مثلاً مجلتي (Hygeia) و(Journal of Health & Physical Education) الغرض منهما ارشاد الجمهور الى ما يفيد صحته وهي مجلاة بالصور والرسوم العديدة

وهناك المتاحف الصحية فمتحف فؤاد الاول الصحي يحوى الكثير من النماذج والرسوم والمعروضات المتعددة ذات العلاقة بالصحة العامة والتغذية وغير ذلك

ويحسن بكل شخص ان يزوره ويستعين به . كذلك متحف فؤاد الاول الزراعي بالدقي فأنهُ يحوى التعاليم والنماذج والرسوم الصحية وغير ذلك مما له علاقة بصحة الفلاح والتي تجب عليه معرفتها . وسنشرح الطرق الأخرى التي تتبع في ارشاد الجمهور نحو العناية بصحته

﴿ الأذاعة بالراديو ﴾ الأذاعة اللاسلكية واسطة عظيمة لمخاطبة الجمهور وارشاده الى ما ينفعه ونهيه عما يضره . وقد ساعد الراديو كثيراً في افهام الجمهور اصول الصحة وتذاع الأحاديث الصحية الرسمية وخلافها من محطة العاصمة كل خمسة عشر يوماً على الأقل وتتناول موضوعات متعددة تهم الجمهور . وقد ابتدأت الأذاعة في شكل محاضرات ثم أخذت تتبدل تدريجيًّا الى محادثات تارة بين شخصين مثل طبيب العائلة ورب العائلة . وطوراً بين عدة اشخاص يتناول حديثهم موضوعاً طبيًّا هامًّا

واختيار اوقات الأذاعة اللاسلكية له شأن كبير من حيث موضوع الحديث ففي ساعات الصباح يكاد يكون موجهاً الى السيدات وحينئذٍ يمكننا ان نذيع فيها بعض الأحاديث التي تهمهنَّ مثل صحة المنزل وأدوات الزينة وتأثيرها في الجسم وطرق التغذية وتهيئة الطعام بالطريقة الصحية والعناية بالأطفال الخ . .

اما ساعات العصر فتماثل ساعات الصباح من حيث موضوعاتها الاَّ ان الجمهور يفضل فيها كثيراً من الروايات الصحية . وحوالي الغروب يستحب محادثة الأطفال في اصول الصحة . اما ساعات الصباح المبكرة فجميعكم تعلمون ان بعضها مخصصٌ للألعاب الرياضية . ويشترط في المذيع ان يكون رخيم الصوت سريع الخاطر جذاب النفسية كما يشترط في الحديث الصحي خلوُّهُ من الألفاظ والتعبيرات الفنية التي لا يفهمها الجمهور وان يكون اسلوبهُ مشوقاً سهل الفهم يطابق عقول المستمعين

وعلى كل حال فالمعلومات التي تذاع يجب ان تكون حقائق ثابتة غير قابلةٍ للجدل أو التعديل . ويفضل كثيراً في الأحاديث الطبية ان يقوم بها طبيبٌ .وفي بعض البلدان يستعان بالوسيقى في بداءة الحديث الطبي وبشخص يقدم الطبيب المتكلم للجمهور ويصفهُ لأن ذلك يشوّقُ المستمعين لحديثه .ويشترط في الألقاء ان يكون بطيئاً واضحاً قريباً ما امكن من الطبيعة حتى يتمكن الجمهور من وعي ما يقال وان لا يستغرق الحديث اكثر من عشرين دقيقة

وقد اثبتت التجارب ان الحوار الطبي والروايات الصحية اعم فائدة من المحاضرات ولا سيما اذا قرنت بالموسيقى . وكثيراً ما تسجل هذه الاذاعات على الشريط المتكلم لاعادتها مراراً من المحطة نفسها أو من غيرها في اي وقت . ويشترط لنجاح الاذاعة الصحية الاعلان عنها في الجرائد والمجلات حتى يتمكن من سماعها اكبر عدد ممكن والى القارىء بعض موضوعات الاذاعة :

ففي يناير مثلاً يفضل الكلام عن الزكام واختيار الطبيب ووسائل التدفئة وطرق التهوية والملابس الشتوية .وفي فبراير عن امراض القلب .وفي مارس عن التهاب الرئة .وفي ابريل عن الحصبة ومخاطر الطرق والتطعيم ضدّ الجدري .وفي مايو عن التغذية والألعاب الرياضية والفلاحة الصحية والمأكولات المثلجة .وفي أغسطس عن الأجازات المدرسية والحميات .وفي سبتمبر عن ضرورة فحص الأطفال قبل الدراسة وعن القمل والحصانة ضدّ الدفتيريا . وفي اكتوبر عن النزلات الأنفية ومخاطر السيارات .وفي نوفمبر وديسمبر عن أمراض الشتاء وملابس الشتاء الخ........

﴿ الموضوعات الصحية ﴾ معلومٌ ان الصحة شيء معنويٌ لا يمكن رؤيتهُ بالعين المجردة ويجوز للإنسان ان يظهر نواحي الصحة المتعددة بوسائل كثيرة فعالة من الوجهة الكيميائية والطبيعية والبيولوجية والفسيولوجية والبكتريولوجية وعلم الحيوان وعلم الأجنة وعلم التشريح والتمريض وغير ذلك . وهناك ايضاً نواحٍ عديدة لها علاقة وثيقة بالطب يمكن اظهارها للجمهور مثل الهندسة الصحية والتعداد الصحي وعلم الأسنان والطب البيطري . ولذلك يرى القارىء ان المعروضات الصحية تتناول موضوعات لا تقع تحت حصرٍ .والعرض الصحي نوعان نوع ثابت وهو المعروف بالمتاحف الصحية الثابتة مثل متحف فؤاد الاول الصحي بعابدين ونوع متنقل وهو غير موجود للآن بقطرنا هذا إنما هو مألوف في بعض البلدان كأميركا مهمتهُ الانتقال من بلدٍ الى آخر مصحوباً بكل معروضاته

وتمتاز المتاحف الثابتة بكثرة معروضاتها وضخامتها وثقلها وان اكثرها قابل للكسر لدقته

اما المتاحف المتنقلة فمعروضاتها عادة خفيفةٌ صغيرة غير قابلةٍ للكسر سهلة الوضع والنزع يسيرة الحمل .ويجب قبل البت في معروضات المتاحف الصحية بنوعيها معرفة عقلية الجمهور الذى سيشاهدها لأن التجارب أثبتت لنا ان الجمهور ينفر من المعروضات التي لا تسره نفوره من الاذاعة اللاسلكية

التي لا توافقهُ ، فالطرق الفنية التي تستعمل الآن في تشخيص مرض الدرن الرئوي كثيراً ما ينفر منها الجمهور ولا يفهمها كما ينفر من المعروضات التي لا يفهمها الا الأطباء مثل صور الأشعة السينية والنماذج المرضية الدقيقة المعروفة بدون شرح كافٍ . وهناك حالات مماثلة لهذه أسيء فهمها فأتت بنتيجة عكسية ضارة ولذلك فالمتاحف الصحية يجب ان تحضر بدقة كما يحضّـر المحاضرة محاضر نابغ . وبديهي ان تحضير متحف صحي يقتضي زمناً طويلاً ويشترط في معروضاته ان تكون بسيطة منسجمة حديثة زاهية الألوان متحركة أحياناً كبيرة الحجم مطابقة لآراء رجل الشارع او العزبة سهلة الفهم تعبر عن اشياء جليلة غير حقيرة شاملة لكل ما يساعد على تحسين صحة الانسان ووقايته من الأمراض

وقد ابتدع القوم لهذه المتاحف المعروضات المتعددة مثل الصور الرمزية والشفافة والخارطات والرسوم البيانية والتماثيل المرضية ودورات الدم المتحركة والأدوات الميكانيكية التي تظهر حركات الجسم المتعددة بواسطة العضلات والمفاصل ونماذج الخضراوات والحاصلات الزراعية التي لها علاقة بالتغذية كذلك الحشرات المنزلية وطرق ابادتها ومخاطرها والميكروبات المتعددة المرضية والطفيليات ونحو ذلك

وفيما يلي بيان موجز بالموضوعات التي يجب ان تمثل في المتاحف الصحية الثابتة منها والمتنقلة

(١) تقدم الطب في الجيل الأخير (٢) خطر التشخيص الذاتي (٣) الفحص الطبي الدوري (٤) العقاقير الجاهزة والدجل (٥) الأمراض التي تنتقل بالحشرات (٦) الأمراض المعوية (٧) الأمراض السرية (٨) أمراض التنفس (٩) أمراض الجلد (١٠) الغذاء والتغذية (١١) صحة الطالب (١٢) صحة العامل (١٣) صحة الذاكرة (١٤) أمراض الحيوان ذات العلاقة بالانسان (١٥) تعقيم اللبن (١٦) تعقيم مياه الشرب (١٧) ازالة الفضلات (١٨) الاحصاء الصحي (١٩) العدوى والحصانة (٢٠) التطعيم والمصل (٢١) العزل الصحي (٢٢) وفيات الاطفال (٢٣) الوراثة (٢٤) مراقبة الأغذية (٢٥) الحشرات الناقلة المرض (٢٦) الأمراض المعدية (٢٧) أمراض الشيخوخة (٢٨) موضوعات عامة مثل الأشعة السينية وغيرها كمقياس الحرارة والتعازيم السحرية والزار والأحتراس من الحريق ومخاطر الطرق

وعلاوة على ماذكرته فان هناك الوحدات الصحية المتنقلة وهي عبارة عن سيارات بها آلة سينما ناطقة وجرامافون وراديو وصيدلية متنقلة وسرير لنقل المرضى الى المستشفيات ويلحق بكل سيارة طبيب ومعاون صحة وعامل صيدلية وهذه الوحدات تنتقل في القرى حيث تمكث الواحدة منها حوالي الاسبوعين يمر في خلالها الطبيب على المرضى في منازلهم ويصف لهم الدواء ويطعّم الجمهور ضد الدفتيريا والتيفود ويلقي المحاضرات الصحية وينقل الحالات الخطرة الى اقرب مستشفى

بينما يقوم المعاون بدراسة الاضرار الصحية بالقرية والمنازل منزلاً منزلاً والبحث عن البرك والمستنقعات وعن مورد المياه وتعداد المنطقة ويساعد الطبيب في البحث عن الامراض المتوطنة والمعدية والاجتماعية في القرية

وتقيم الوحدات حفلة سينمائية صحية كل ليلة ويلقي حضرة الطبيب محاضرة صحية كل ليلة ايضاً

وبعد مكوث مدة من الزمن تتقدم الوحدات بتقارير وافية عن تعداد السكان ونسبة الأعمار والحالة الاقتصادية والمحاصيل والصناعات والجمعيات والامراض المتخلفة في القرية ومدارس القرية ومساكنها والاضرار الصحية بها الخ . . . .

﴿ المحاضرات الصحية ﴾ تعتبر المحاضرات الصحية من اهمّ الوسائل لأفهام البالغين اصول الصحة . ويشترط في المحاضر ان يكون ذا شخصية كبيرة من حيث الفن والالقاء وأغلب الموضوعات التي تلقى بالمحاضرات هي الخاصة بالامور الطارئة كالأوبئة فان الجمهور وقتئذ يكون شغوفاً بسماع كل ما يمكن سماعه عنها . ويفضَّل في المحاضرات ان تلقى في مكان معين وفي ساعة معينة وان لا يتجاوز زمنها الساعة الواحدة . والطريقة الناجحة في جمع الجمهور الكبير لسماع المحاضرات في الارياف هي اذاعة الموسيقى او الأغاني بالجرامافون او الراديو ويشاهد ذلك بوضوح عند ما تبدأ الوحدات الصحية المتنقلة في عملها . أما في المدن فان الأماكن الرسمية أو الجوامع او الاندية الأهلية كثيراً ما تصلح لهذا الغرض . وقد بدأنا نطرق طريقة الوعظ الصحي فعملنا الخطب الصحية المنبرية وبدأ الاطباء يحاضرون الجمهور بعد الصلاة في كل ما له علاقة بالبلدة طبيًّا والى القارىء بعض الموضوعات التي تصلح لأن تعمل عنها محاضرات عامة

(١) التخدير (٢) النزلات الأنفية (٣) الأمراض المعدية (٤) العناية بالعينين (٥) الفحص الطبي الدوري (٦) مرض القلب (٧) تقدم الطب (٨) الأمراض السرية (٩) الدرن (١٠) الفحص بالأشعة السينية (١١) البلهارسيا والانكلستوما (١٢) الرمد الحبيبي (١٣) الديدان المعوية (١٤) فائدة الطب (١٥) الاسعافات الطبية المنزلية (١٦) الحشرات المنزلية وأخطارها وطرق ابادتها (١٧) اللبن (١٨) السمنة (١٩) الألعاب الرياضية (٢٠) فائدة أشعة الشمس (٢١) العناية بالاسنان (٢٢) وسائل التهوية . أما النوع الآخر وهو الخطب المنبرية فتقال في الجوامع أيام الجمع حيث لوحظ ان الجمهور كثيراً ما يهتم بها ويستمع اليها بشغف ديني عظيم لذلك وضعت كتاباً في هذه الموضوعات الطبية يجد فيه القارىء خطباً عن

(ا) علم تدبير الصحة (ب) أسرار الشريعة الاسلامية من الوجهة الطبية (ج) الدعاية الصحية (د) الأمراض المعدية (ه) الحشرات الناقلة للأمراض (و) مباحث طبية اجتماعية كالزار والسحر ونحو ذلك

﴿ النشرات الطبية ﴾ وكتابة النشرات تتطلب مهارة كبيرة ومحتوياتها لا يشترط فيها الصحة فقط بل حسن النقاوة ايضاً فلا فائدة من إخطار الاهالي بطريقة عمل خبرة مرض الدرن الجلدية ولا كيفية اجراء عملية التطعيم ضد الدفتيريا أو الجدري مثلاً بل يكتفى باجمال القول عن فوائد هذه الاجراءات على الفرد وعلى المجتمع ويجب ان تكون العبارة صريحة فالنشرة التي تكتب مثلاً عن الحصبة يتحتم ان تشمل بعضاً من اعراض المرض وبعضاً من دور تفريخ المرض والوقت الذي تكون فيه العدوى بالغة منتهاها والوسائل التي تمنع العدوى وفائدة التحصين بالمصل (اذا كان من الممكن استحضاره) وفائدة العناية الطبية في تجنب المضاعفات ويشترط في كل نشرة ان تكون صغيرة قصيرة العبارة . واليكم بيان ببعض النشرات التي قامت بطبعها وزارة الصحة

الحمى المخية الشوكية . الدفتيريا . نصائح لراغبي الزواج . القمل . ارشادات . للمصابين بالزهري . الرمد . نصائح للمحافظة على العيون . الذباب . التيفود . المخدرات . البرغوث . الأمراض السرية . التبول او التبرز . نصائح للحوامل . ارشادات للجمهور عن الغارات الجوية

﴿ الصور الرمزية ﴾ هذه عبارة عن صور ملونة غالباً وغير ملونة احياناً يقصد بها توجيه نظر الجمهور الى موضوع صحي هام بشكل جذاب وقد عملت وزارة الصحة الآن عدة لوحات لهذا الغرض خاصة بخطر الذباب ورعاية الطفل والأمراض السرية والوقاية من السل والبلهارسيا والأنكلستوما وفائدة الماء النقي وبمخاطر القمل وغير ذلك

﴿ الأشرطة السينمائية ﴾ بدأت الأشرطة السينمائية تعرض بشكل تجاري عام ١٨٩٥ وكانت كلها صامتة لغاية ١٩٣٠ لما جعلت متكلمة وقد أظهرت التجارب ان الأشرطة السينمائية وسيلة من الوسائل الهامة لنشر التعاليم الصحية بين الجماهير ولاسيما الاجراءات التي تتطلب حركة . وقد بدأت تظهر أخيراً اشرطة سينمائية بشكل روايات دراماتيكية ثم أدخلت الرسوم الصور المتحركة Animated Drawings على الأشرطة الصحية فأتت بفائدة كبيرة واستعملت السينما أيضاً لاظهار الميكروبات الساكنة منها والمتحركة . ومن أهم الأمكنة لعمل حفلات سينمائية هي المعارض الطبية وغير الطبية حيث يجتمع عدد كبير من الجمهور وقد كثرت الأفلام الصحية الأجنبية كثرة تفوق الوصف ويمكن ايجارها بأسعار زهيدة كما يمكن شراؤها . وها كم أمثلة لمواضيع بعض الأفلام السينمائية الصحية : —

(١) اشرطة سينمائية للأطباء خاصة بالطب والجراحة . (٢) اشرطة سينمائية خاصة للجمهور عن الصحة العامة . (٣) اشرطة سينمائية للطبقة المثقفة عن الصحة العامة . (٤) اشرطة سينمائية للأطباء عن امراض الأسنان . (٥) اشرطة سينمائية للجمهور عن أمراض الأسنان

﴿ الواح خاصة لعرضها بالفانوس السحري ﴾ يمكن استعمالها لعمل محاضرات خاصة يستطيع

الطبيب بواسطتها افهام الجمهور كثيراً من الغامض. ويشترط في عرض هذه الألواح شرح الموضوع باسهاب للجمهور وهناك الواح كثيرة من هذا النوع يمكن شراؤها للدعاية الصحية

﴿ المجلات الطبية للجمهور ﴾ هذه مجلات يحررها هيئات طبية القصد منها ارشاد الجمهور الى ما يفيد صحته وهي مكتوبة بأسلوب سهل خال من العبارات الفنية. ولنذكر لكم على سبيل المثال

(ا) مجلة الصحة (Hygeia) التي تصدرها الجمعية الاميركية الطبية

(ب) Journal of Health & Physical Education مجلة الصحة والرياضة البدنية

(ج) مجلة الصحة والحياة (Life & Health)

والمجلات الطبية ذات تأثير كبير على الجمهور خصوصاً التي يقوم بتحريرها كبار الأطباء الحائزين على ثقة الجمهور الشخصية

﴿ المراسلات ﴾ هذه وسيلة كثيراً ما تأتي بالفائدة الشخصية الا انها محدودة ويجب عند الرد ان تكون الاجابة من شخص له منزلة علمية وان يكون الاسلوب مختصر ومقنع

﴿ طرق اخرى متعددة للدعاية الصحية ﴾ (ا) كثيراً ما تكتب التعاليم الصحية على ظهر القسائم كالشهادات وعلى أغلفة الكراريس ويشاهد ذلك في ظهر شهادات الميلاد وعلى اغلفة كراريس المدارس

(ب) ﴿ الدعاية الصحية بالسيارات ﴾ هذه السيارات تذهب الى المديريات حيث يتولى اطباء المراكز توجيهها الى الجهات اللازمة وفي كل سيارة آلة سينما وعدة افلام سينمائية صحية وهي خلاف الوحدات الصحية المتنقلة السابق الكلام عليها

(ج) ﴿ روايات تمثيلية صحية ﴾ هذه الروايات موضوعة لحث الجمهور على ما يفيد صحته ويرشده الى ما يضره فيتجنبه. وهناك كتب لهذه المواضيع في الولايات المتحدة ولكن للأسف تكاد تكون معدومة في القطر المصري

(د) ﴿ اعطاء مكافآت وشهادات تقدير ﴾ لكل من يهتم بصحة اولاده في المدارس او بصحة عماله في المصانع

(ه) ﴿ منافسات عمومية لصحة العائلة ﴾ كالتي تقام مثلاً في مراكز رعاية الطفل لمعرفة اي الامهات اكثر عناية بطفلها وملبسه وصحته . هذا ملخص للدعاية الصحية في حالتها الراهنة وهو كما ترون متغلغل في كل نواحي الحياة الاجتماعية والعائلية بأسلوب سهل غير ممل بحيث يتمكن الجمهور من معرفة جزء كبير من اصول الصحة في اوقات مختلفة وأساليب متباينة . وقد أثمرت هذه المجهودات ثمارها الطيبة في البلدان المتمدينة وبدأت تؤتي ثمارها ايضاً في القطر المصري ولا غرابة في ذلك فان الدعاية الصحية هي نوع من انواع النهضة القومية ودليل على تيقظ الأمم وانتباه الأذهان وتقدير للصحة والاهتمام بالكيان القومي وكلنا نعرف المثل الذي يقول العقل السليم في الجسم السليم

وحي انكلترا

ديفون الجميلة

[مقاطعة ديفون بانكلترا هي من اجمل بقاعها . ففيها الهضاب الخضر . والغاب الفسيح . والانهار والجداول الجميلة . وألوان تربتها تختلف بين الرمل الاحمر . والجير الابيض . والصخر الاغبر . وتزدحم على شطآنها قوارب الصيد وشباكه . وهنا يصفها الشاعر كما رآها]

الربى تضحك والجدول باكي أين مني يا رُبى الخلد ثراكِ ؟
جلَّ مَن صاغك من فردوسه وتعالى مَن مِن الحسن براكِ !
خفق القلبُ لذكراك فهل تأذنُ الايامُ يوماً فأراكِ ؟

* * *

أين وَقعُ الماء في تُربكِ أم أين همسُ الريح ما بين رُباكِ ؟
كلما مرت عليها نسمةٌ رددتها من جديد شفتاك
وعلى الارض بساط ناضر صبغتــهُ بالاعاجيب يداك
كلُّ لونٍ منهُ لا يبلغهُ فنُّ ذي فنٍّ . ولا يحكيه حاكي

* * *

ما ألذ الليـلَ يجري ساكناً في روابيك وما أحلى دُجاكِ !
ولجين البدر يجري ذائباً فوق بطحائك أو تحت سماكِ
وخرير المـاء في الصخر على نقرات الليل مِنْ رَجع صداكِ
وحفيف الغصن في الغاب على لمحات الضوء من بين قُراكِ
يا رُبَىَ الفردوس سبحان الذي عطر الارضَ بأنفاس نداكِ !
ضمَّخ الزهرُ حواشيك ولم تزل الوديانُ سكرى من شذاكِ
وهناك البحر جيَّاش على تبر حصبائك أو دُرِّ حصاكِ
وترى الفلك على شاطئه غاديات رائحات بالشِّباكِ
وضبابُ البحرِ يمتد الى الـــعالم المجهول من خلف مَداكِ ...

* * *

رحم الله زماناً ماضيــاً قد سقاني الصفو فيــهِ وسقاكِ
لم يعد من هذه الذكرى سوى لمح أحلامك . أو طيف رؤاك ...

محمد عبد الغني حسن

فلسفة المذاهب السياسية والاجتماعية الحديثة

فلسفة

الدمقراطية

لعلي أدهم

من المسائل المعروفة في تاريخ نشوء الفلسفة الحديثة ومراحل تقدمها الباكرة ذلك الخلاف الشديد والنقاش المستفيض الذي ثار بين القائلين بأثر الفكر والقائلين بأثر الاحساس في تحصيل المعرفة وتكوين الافكار ، وقد كان انصار المذهب الحسي يرون ان الاسبقية والفضل للحواس وكانوا يطلقون على انفسهم اسم « التجريبيين » لانهم كانوا يبدأون من التجربة ويتخذونها الاساس الذي يشيدون فوقهُ فلسفتهم ، وكان الفريق المناهض لهم ينبذ الحواس ويراها غير اهل للتعويل عليها والاحتكام اليها . وكان انصار هذا الرأي يستدلون على صحة مذهبهم بان أسمى الافكار وأجلها شأناً مثل فكرة وجود الله ومثل تصورات الرياضة لا يمكن ان ترد الى الحواس او تستمد من مصادرها ولذا كانوا يقولون باستقلال العقل الانساني ومقدرته على استنباط المعرفة من موارده الخاصة واعماق كيانه وكانوا يرون ان أصفى الافكار وأصدقها مطبوعة بهذا الطابع صادرة من هذا المورد ، اما الافكار المسوسة بالحواس فهي أهون شأناً وأنزل منزلة لان الاحساس في رأيهم قرين التفكير المشوّش والآراء المشوبة ، وكانت هذه النزعة من نزعات التفكير تسمى النزعة « العقلية » .

***

وقد نبغ في القرن الثامن عشر الفيلسوف الالماني الكبير « امانويل كانت » فحاول حل هذا المعضل وفض ذلك الخلاف فذهب الى ان الاحساس والتفكير وظيفتان يكملان احدهما الآخر وان المعرفة الحقة تأخذ بنصيبها من هذين الطرفين ، فالحواس تزوّدها بالمادة القابلة للتنظيم والفكر يفرغها في القالب المناسب ويصورها بالصورة الملائمة ، وكل قضية من القضايا في رأي «كانت»

تشمل العنصرين وتفترض وجود عقل فاعل ومنفعل معاً ، فهو منفعل لانهُ يشعر بأثر البيئة ويتلقى منها مواده الخام اللازمة وهو فاعل لانهُ يهبها الصورة ويشق لها المجرى ، والافكار بدون هذه المواد الواردة من الحواس خواء لاخير فيه والاحساسات الخالية من التصورات عمياء لاتبصر ولا تعي وبذلك وفق «كانت» بين النزعتين واستطاع ان ينصفهما ولا يجور على احديهما

***

وفي الحياة العملية خلاف آخر بين « الغريزة » « والارادة » ، فالغريزة تجنح الى ضرب خاص من ضروب العمل من صوره في الحياة البدائية الجوع والظمأ وما اليهما وهي تحد من حرية العقل وتخضع الارادة للضرورات ، ومن هنا نشأ خلاف بين مذهبين متعارضين مذهب عقلي يقول بتمام حرية الانسان واستعلائه فوق نوازع الحاجة ويحاول ان يبين قدرة الانسان على كبح تلك النوازع وسحق هذه الشهوات وينتهي بفكرة التنسك . ومذهب طبيعي يرى انصاره ضرورة الاستجابة لمطالب الغريزة وتلبية نداء الشهوة . ويقولون ان محاولة اخماد الشهوات ومقاومة الميول خروج على الطبيعة والتواء في الفهم وان العقل السليم ينقاد لها ويلبي احكامها لانهُ يعرف انهُ خادم الاهواء . وقد لجأ بعض المفكرين الى التوفيق بين هذين الطرفين ترسماً لخطوات «كانت» وأخذاً بطريقته فالغريزة في رأيهم هوجاء تسير على غير هدى وقد تفضي بالانسان الى الهلاك المحقق وهي تقدم للعقل مادة يستطيع ان ينتفع بها في عمله ، فالعقل — او الارادة — خادمة الرغبة وسيدتها في نفس الوقت ، وكما ان الفكر الخالي من اثر الاحساس فراغ لاغناء فيه والاحساس الخالي من أثر الفكر أعمى ليس لهُ قائد فكذلك الحياة الخالية من اثر الغريزة حياة شاحبة لاسرور فيها ولا متعة والحياة التي تنقاد للاهواء وتستسلم للشهوة حياة مستهدفة للاخطار متخبطة في الظلام ، والحياة الفاضلة المليئة متوقفة على تنظيم الميول والموازنة بينها في ظلال هيمنة العقل وسيطرة الارادة

وما ينطبق على حياة الفرد في جانبيها النظري والعملي يصدق في حياة المجتمعات الانسانية في ظلال الحكومات ، فكل مجتمع أشبه بوحدة مستقلة منسجمة لها صفات التفكير والعمل، واذا كان لأي مجتمع منظم تحت سيطرة حكومة من الحكومات « ارادة » فأن الحكومة هي بلا نزاع التي تتمثل فيها تلك الارادة ، وأقصد بالحكومة هنا السلطات التي تملك اصدار القوانين وتبديلها وتشرف على تطبيقها وسريان احكامها وتقوم بمختلف الاعمال باسم المجتمع ، وهذه الاعمال في مختلف انواعها وشتى ميادينها تعد في منزلة الاعمال الصادرة عن ارادة بعينها متخذة غرضاً خاصًّا ومتبعة سياسة مرسومة

وعلى هذا الاعتبار اذا كان المجتمع سلمياً متحداً وكانت طريقة النيابة والتمثيل في نظام حكمه صحيحة لا غبار عليها فان بت الحكومة في الامور يكون في هذه الحالة نتيجة عاملين عامل ميل افراد الأمة الى الاشتراك في عمل الدولة وسياستها والتعاون مع رجالها في القيام بهذه المهمة وعامل طلب التعاون والتأييد من السلطة المركزية التي تحاول اشباع رغبات الشعب والاضطلاع بمطالبه ، وهذا التبادل المثمر بين الحكومة النيابية الحريصة على شرعية اعمالها وبين رغبة افراد المجتمع في منحها هذا الحق يشبهُ صب المادة في القالب المناسب لانهُ ينظم الدوافع التي تزخر بها نفوس الشعب والميول التي تعتلج بين جوانحه ويمثلها في صور واضحة ورموز ناطقة مثل القوانين واللوائح وسائر الاعمال التي تقوم بها الحكومات

***

والدمقراطية في ابسط صورها معناها مساهمة كل فرد في حكومة بلاده ، والطريقة النيابية تفسح لهُ هذا المجال وتتيح لهُ هذه الفرصة اذ يختار بمحض ارادتهِ من يمثلونهُ ويقومون مقامه في الفصل في الامور وحل المعضلات . ومن ثمَّ فان تناول المجالس النيابية لمختلف الشؤون أو بحث مجالس الوزراء ما يعرض من المشكلات يراعى فيهِ الاستجابة لميول الشعب واتجاهه وتقدير الرأي العام أي ان حرية الفصل في الامور تحد منها المادة الموجودة والمادة هنا هي كتلة الشعب

وأقوى مسوغ لوجود الدمقراطية هو أنها تدعو كل فرد الى ان يأخذ بنصيبه في اختيار نوابه وبذلك يعرف هؤلاء النواب ما يضطرب في النفوس من الحاجات سواء من طريق التأييد او من طريق المعارضة ، ومن شأن هذا الاسلوب ان يجعل القوم معنيين بالمسائل العامة مقبلين عليها حريصين على فهمها وتدبرها ويفرض على الحكومة ان تراعي الاعراب عن أماني افراد الشعب وتتوخى اجابة مطالبهم وتحاول ان تكون من المادة « عملاً »

واذا حرّم على الشعب انتهاج هذا الاسلوب والاخذ بطريقة الانتخاب فانهُ يظل معنيًّا الى حدٍّ ما بالشؤون العامة ، وتراعي الحكومة رغباته الى حدٍّ ما . وذلك لانها لا ترى من الحزم ان ترهقهُ وتضطره الى الخروج عن طوره ، ولكن على مرّ الايام يصبح القائمون بامر الحكم غير متأثرين الاّ بآراء دائرتهم المحدودة ووسطهم الخاص وافكار اصدقائهم والمقربين منهم ، والنزعة الدمقراطية تصلح هذا العيب وتعالجهُ الى حدٍّ كبير وهي تدعو النائب الى ان يتحسس الرأي العام ويجس نبضهُ ويحاول ان يتعرَّف تلك الميول المكظومة والنزعات الخفية ، وحياة النائب السياسية قائمة على هذا التجاوب بينهُ وبين رغبات من يمثلهم وينوب عنهم

وتفسير الدمقراطية على هذا النمط يشابه خطة «كانت» التي اشرت اليها في اول المقال لانها تعمل على الملاءمة بين رأيين جد مختلفين في علاج المشكلة السياسية التي تعرض للمجتمعات في كل حين وتقدر ما في كل من الجانبين المتعاديين من حق جزئي ، فالرأي الاول من شأنه ان يبالغ في ضرورة جعل الحكومة المركزية خاضعة لرغبات الشعب الى اقصى الحدود . ويكاد يقصر وظيفتها على تسجيل تلك الرغبات ومباشرة تنفيذها . والرأي الثاني يرى غموض المطالب الشعبية وترامبها الى المستحيل او المتعذر ومجانبتها في بعض الاوقات لمنطق الاشياء وعلى الدولة ان تتولى مهمة خلق النظم وابداع القوانين وابتكار الخطط السياسية واساليب الحكم الصالح

***

وهذه المغالاة بقيمة الدولة تشابه من بعض الوجوه موقف العقليين في اشادتهم بقيمة العقل ووجوب رفعه عن نزعات الحواس واهواء النفوس ولذا يميل اكثر الفلاسفة العقليين الى هذا الموقف تجاه المسائل السياسية ، ومن قبيل ذلك موقف افلاطون الذي كان يرى ان الفلسفة خير مدرسة للسياسة وان الحاكم الفيلسوف يجب ان يسترشد في سياسته بنماذج هابطة من السماء ويعرض عن حقائق الارض والحكومة المثالية في زعمه لا تشرك الشعب في تصريف الامور فهي تناقض الدمقراطية في اصرارها على ان يلتزم الحاكم مراعاة اماني الشعب ومطالبه ، وهي تنزل بالانسان الى مرتبة الجماد وتعتبره كالمواد الخام التي تصاغ منها التماثيل وتصنع الصور ، ولو ذهب افلاطون الى ان الطبيعة الانسانية في عصره كانت غير صالحة لاحتمال اعباء الحكم لكان لهُ عذره ولكنهُ فرّق تفريقاً حاسماً بين الحكام والمحكومين وبين الاقلية العاملة الفعالة والاكثرية المنفعلة وبذلك قضى على الوحدة والتعاون بينهما ويظهر سوء أثر ذلك عند الانتقال من تفسير الارادة تفسيراً عقليًّا الى تفسيرها تفسيراً غير عقلي . وبذلك تنقلب فكرة الحكم المثالية مادية صارخة وتصبح القوة السياسية مرتكزة على العنف والارهاب معتمدة على الحديد والنار. وهذا هو رأي هوبز ومن لفّ لفه في ايطاليا والمانيا ، فهناك الزعيم المطلق الذي لا يسأل عن مصادر تفكيره ومراجع وحيه وانما على الشعب الطاعة والخنوع والانقياد لأوامره ، وعقول الشعب في زعمه صحيفة بيضاء يرتسم عليها ما يريده قادته وحكامه وهذا هو ما يسمى « الاستبداد المطلق »

وعندما احصى ارسطو الفضائل أظهر ان كل فضيلة هي حالة توسط بين نهايتين متطرفتين كلاهما عيب ونقصان ، ففضيلة الشجاعة مثلاً هي وسط بين رذيلة التهور والطيش ورذيلة الجبن. وقد ذكر ان احد الطرفين المتناقضين في العادة اقرب الى الفضيلة من الطرف الآخر. ولذا

كثيراً ما يشتبه امره بأمرها فالتهور قد يظن شجاعة ولكن الجبن يندر ان يصعب التمييز بينه وبين الشجاعة ، وهذان الطرفان يشبهان طرفي الموضوع هنا. فان الدمقراطية الحقة هي توسط بين انفراد الشعب بالسلطة واستئثار الحكام بها . وان كان حرص الشعب على الاستكثار من السلطة اقرب الى الدمقراطية واشبه بها من محاولة القادة سلب السلطة والانفراد بالامر واشد ما ينعاه بعض كبار نقاد الدمقراطية في العصر الحديث على اساليبها هو محاولتها غل ايدي الحاكمين وعرقلة مساعي السلطة التنفيذية وقصرها على النظر في تفاصيل الامور وهين الشؤون. ويتضح من ذلك ان احد الطرفين يحاول ايجاد القالب او الصورة بدون استحضار المادة على حين ان الطرف الآخر يستحضر المادة ويعنيه امر الصورة وخلق القالب

ومن الخطأ الاعتقاد بأن « الارادة » تهبط من الشعب هبوطاً تلقائياً لان الارادة هي الصورة التي تتصور فيها الرغبات والدوافع والاشواق . والشعب بطبيعته عاجز عن تضمين تلك الرغبات الجائشة والاشواق الفائرة والدوافع الغامضة الصور والقوالب المناسبة لها المعبرة عنها وانما الحكومة المستنيرة هي التي تتكفل بجلاء هذه الرغبات المبهمة وتحديد تلك المطالب الغامضة وتكوين الارادة المنشودة وجوهر الدمقراطية قائم على تبادل الفهم بين السياسيين المسؤولين وبين الافراد والجماعات وليست الحكومة الدمقراطية حكومة منفعلة مقصور عملها على تلقي الوحي من الشعب والتمشي مع رغباته وانما هي تتلقى تلك الرغبات وتصقلها وتصفيها وتضفي عليها النظام وتتولى تنفيذها فعملها عمل الموجد الخلاّق ولو انها كانت غير ذلك لضعفت آلة الحكم واختل النظام وتفشت تلك العيوب التي يحصيها الكثيرون على النظام الدمقراطي ولاضطرّ الشعب الى ان يلتمس الزعامة في اسلوب آخر من اساليب الحكم

***

والدمقراطية الحقة توفق بين زعمين من المزاعم السائدة وهما الزعم القائل بأن الحكمة كامنة في الجماهير وان صوت الشعب من صوت الله والزعم القائل بأن الحكمة انما تهبط على البطل الملهم والزعيم المروّع الذي يجب ان يسند اليه الامور وتسلم لهُ القيادة

وبين الروح الدمقراطية والروح العلمية آصرة نسب وصلة قربى ولذا تأصلت الدمقراطية في الامم التي قويت فيها النزعة التجريبية وليس من قذفات الصدفة ان اصبحت انجلترة وفرنسا أعرق الدول دمقراطية في حين ان المانيا مهد الفلسفات الغيبية ومذاهب ما وراء الطبيعة أشد الامم امتناعاً على النظام الدمقراطي

الاحيـــاء

الارضية الدقيقة

ماهيتها ، طرق معيشتها ، أهميتها في الطبيعة

لرضوان محمد رضوان

حقـا ، لقد كان اختراع الميكرسكوب حدثاً هامًّا وكشفاً مبيناً ، إذ أنهُ أضاف الى مملكة الأحياء عالماً جديداً ، لم يكن معروفاً من قبل ، وماكان ليخطر لأحد : ذلك هو عالم الاحياء الدقيقة ،التي لا ترى بالعين المجردة ، والتي تلعب دوراً جليل الخطر ، بعيد المدى في هذه الحياة. ولقد أبان هذا الكشف عن ناحية عجيبة ، فريدة في بابها ، تدل على عظمة هذا الكون الشاسع ، فان تلك الأحياء متناهية في الصغر ، متضائلة في الحجم ، إلاَّ أنها على جانب عظيم من النشاط والعمل المنتج السريع . ويطلق علم الأحياء الدقيقة (الميكروبيولوجي) على العلم الشامل لدراسة البكتريا عامة والفطر والخمائر وبعض أنواع البروتوزوا ، إلاَّ اننا سنقصر كلامنا هنا على الكائنات الدقيقة التي توجد بالتربة وعملها

ان أغلب العمليات الكيميائية والحيوية التي تحدث في الأراضي ، ناشئة عن فعل الكائنات الحية ، كما سيتضح ذلك فيما بعد ، وتشمل الأحياء الأرضية الدقيقة ، البكتريا والفطر الدنيء وبعض الطحالب وهذه تتبع المملكة النباتية ثم البروتوزوا (الحيوانات الأولية) وتتبع المملكة الحيوانية . وهذه الكائنات لاتوجد كلها بنسبة واحدة في الأراضي ، إذ ان عدد البكتريا يفوق عدد الأحياء الأخرى في الأراضي العادية ، وفي العادة أن كل ١٠٠٠ بكتريوم في التربة ، يقابلها ١٠ — ١٠٠ من الفطر و ١ — ١٠ من البروتوزوا والطحالب . وتكثر الفطريات عادة في الأراضي الحمضية ، اما البروتوزوا والطحالب فتكثر في الأراضي الرطبة

تعتبر البكتريا أهم الكائنات الحية الميكرسكوبية على الاطلاق ، إذ أن عليها تتوقف حياة النبات ، واستمرار نشاطه جيلاً بعد جيل ، ولما كان أغلب كلامنا سيشمل هذا النوع من الأحياء ، لهذا لم نر بدًّا من تعريفها بكلمة موجزة

توضع البكتريا غالباً في المملكة النباتية ، تابعة للنباتات اللازهرية ، وهي تلك النباتات التي

لا يميز لها جذر أو ساق أو أوراق ، وتتركب البكتريا من خلية واحدة ، تحتوي على المادة اللازمة للحياة (البروتوبلاسمة) ، وتحاط بجدار غشائي رقيق قوامهُ مواد أزوتية ، وليس للخلية نواة واضحة . اما شكلها فيختلف اختلافاً بيّناً ، فقد تكون كروية الشكل أو عصوية أو حلزونية ، وقد تأخذ شكلاً غير منتظم ، إذا ما صارت في حالة ضعف وانحطاط شديد ، لعدم ملاءمة الوسط الذي تعيش فيه . ولبعض أنواع البكتريا أهداب رفيعة جداً توجد منفردة أو متجمعة ، وبواسطتها تستطيع البكتريا ان تتحرك في السائل الذي تعيش فيه ، بيد ان البعض الآخر يتحرك بالتواء جسمه كالزواحف

وتعد البكتريا أصغر الأحياء الدقيقة على وجه العموم ، ونحن اذا علمنا أن البكتريا العصوية مثلاً ، يتفاوت طولها من ١ — ١ ١/٢ ، ميكرون وعرضها من ١/٢ — ٣/٤ ميكرون ، وأن الميكرون عبارة عن ١/١٠٠٠ من المليمتر ، أدركنا دقة حجم هذه الكائنات المتناهي في الصغر . ولذلك فهي منتشرة في كل مكان ، فهي توجد في التربة والهواء والغذاء والماء وغيرها . وتكاثر البكتريا ، أمر من السهولة بمكان ، فان الميكروب ، وهو عبارة عن خلية واحدة ، ينقسم الى خليتين ، وكل منها ينقسم بدوره الى اثنتين وهكذا ، ويسمى هذا التكاثر بالانقسام البسيط ، ويحصل في الاحوال الملائمة مرة كل ٢٠ أو ٣٠ دقيقة ، واذا استمرَّ هذا الانقسام بدون توقف مدة يومين او اكثر ، أخلف عدداً عظيماً جدًّا من هذه الكائنات ، وملأ الارض جميعاً . وقد ذكر العلامة فيشر ، أنهُ اذا تكاثر بكتريوم واحد من بكتريا الكوليرا بالانقسام ، وكانت الظروف ملائمة ، بلغ عدد الميكروبات التي تنتج في ٢٤ ساعة ما يقرب من ١٦٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ مليون فرد ، أي ما يبلغ زنته نصف مليون رطل ، ولكن هناك عوامل طبيعية تقف حائلاً في وجه هذا التكاثر الذريع ، منها تناقص المواد الغذائية ، كما ان هناك تخاصماً وصراعاً بين أنواع البكتريا المختلفة

الخلية البكتيرية عديمة الكلوروفيل (اليخضور) ، ولذا فانها تحتاج الى التغذي بأجسام الحيوانات او النباتات ، الحية او الميتة ، والانواع التي تعيش على الكائنات الحية تسمى بالبكتريا الطفيلية ، وتلك التي تستمد نشاطها من الكائنات الميتة تعرف بالبكتريا الرمية . ويمكن لعدد قليل جدًّا من أنواع البكتريا ان يتغذى بمواد غير عضوية . وتمتص البكتريا غذاءها على هيئة سائل او غاز ، وهذا هو السبب في ان العلماء يعتبرونها نباتات وليست حيوانات . وتأخذ البكتريا الأزوت (النتروجين) اللازم لها من البروتين ، وهو يعتبر أحسن مصدر للازوت ، ولذا نجد ان اللحوم معرضة دائماً لغارات البكتريا ، وأما الكربون فان معظم البكتريا تتحصل عليه من المواد العضوية ، في حين ان القليل منها يمكن ان يأخذه من ثاني اكسيد الكربون الجوي . وأما الاكسجين فان بعضاً من أنواع البكتريا يموت اذا ما عرض له ، وتسمى «البكتريا اللاهوائية» وهي تحصل

على المجهود اللازم لها من تحليل المواد العضوية،والبعض الآخر لا بد له من الاكسجين المطلق للتنفس وتسمى « البكتريا الهوائية » . وهناك بعض انواع من البكتريا لها القدرةعلى ان تتحول من هوائية الى لاهوائية وبالعكس وفقاً للاحوال المحيطة بها . وتحتوي الخلية البكتيرية على ٧٥ — ٩٠ ٪ من الماء،ولذلك كانت حياة البكتريا بدون الماء مستحيلة . وهناك ظاهرة غريبة في حياة البكتريا ، اذا ما صادفتها احوال غير مناسبة ، تلك هي ظاهرة تكوين الجراثيم ، فانهُ اذا ما قلّ الغذاء مثلاً ، فان البكتريا لا تهلك مباشرة ، انما يتجمع بروتوبلازم الخلية . ويحيط نفسه بغشاء سميك يقيه المؤثرات الخارجية ، ويبقى كذلك حتى ترجع الاحوال الملائمة . وتعرف في تلك الحالة بالجرثومة ، ويكون لها القدرة في غالب الاحايين على الحياة بدون غذاء في حالة سكون عدة سنين ، كما أنها تقاوم الحرارة والافرازات السامة الى حدٍّ بعيد

وهناك تأثيرات طبيعية، تحدثها البكتريا منها انتاج الحرارة ويشاهد ذلك بوضوح عند تراكم مقادير كبيرة من المواد العضوية ، وقد يزداد الارتفاع في درجة الحرارة الى ٧٠ سنتجراد ومنها انتاج اللون ، والالوان الشائعة هي اللون الاصفر والاحمر والأرجواني ، وهناك نوع من البكتريا يتسبب عن نموه نقط حمر مشابهة جداً لنقط الدم تظهر فجأة على الخبز واللحوم . ولبعض الانواع القدرة على انتاج الضوء ، فقد شوهد في ماء البحر وعلى اجسام أنواع من السمك ، ضوء ناشيء عن فعل انواع معينة من هذه الميكروبات

هذا موجز لحياة البكتريا، ننتقل بعده الى الكلام على أهمية البكتريا في التربة ، ولكي نعطي فكرة عامة عن عددها في الاراضي المختلفة ، نثبت هنا نتائج التجارب التي أجريت في هذا الصدد. فلقد وجد ان التربة الخصبة تحتوي من ٦ — ١٠ مليون بكتريوم في الجرام الواحد . ويقل هذا العدد الى ½ مليون بكتريوم أو أقل في الجرام الواحد من الارض الرملية ، ورأى بعض الباحثين ، أن متوسط عدد البكتريا في الارض المناسبة يتفاوت بين ١ — ٦ مليون في الجرام الواحد . وفي الأراضي المسمدة حديثاً بالاسمدة العضوية يرتفع فيها عدد البكتريا حتى لقد يصل الى ٥٠ — ١٢٠ مليون فرد في الجرام الواحد.وفيما يلي تفصيل لأعمال البكتريا في الاراضي

١ — ﴿ تحليل المواد العضوية غير الازوتية ﴾ من أهم تلك المواد ، السلولوس وهو المكون لجدران الخلايا النباتية ، ثم الكربو ايدرات والاحماض العضوية. والدهون المتخلفة في الارض من بقايا الاسمدة وبقايا النباتات والحيوانات . وتعتبر الميكروبات القادرة على تحليل المواد العضوية المعقدة مثل السلولوس واللجنين، من أهم الاحياء في التربة ، اذ أن اغلب المواد الكربونية التي تضاف الى الارض وتبقى بها ، تكون على حالة سلولوس أو بكتين و ما شابهما ولا يمكن أن يستفيد منها النبات اي فائدة ،اذا لم تتحلل اولاً إلى مركباتها البسيطة بواسطة البكتريا

تنحلّ اذاً المواد العضوية غير الازوتية ، ويتوقف انحلالها على الاحوال المحيطة بها ، فان وجدت في وسط يتخلله الهواء ، كان التأثير للبكتريا الهوائية ، ويكون ناتج التحليل غاز ثاني اكسيد الكربون والماء والدبال ، وترجع اهمية غاز الكربونيك للتربة الزراعية في أن جزءاً منهُ ينفرد في الهواء ، فتستفيد منهُ النباتات الخضر اثناء قيامها بعملية التمثيل الكلوروفيلي وأما الجزء الباقي فيذوب في المحلول الأرضي ، ويتكوّن حامض الكربونيك الذي يؤثر في كثير من المواد المعدنية فيذيبها ، وبذلك يستطيع النبات أن يستعملها في غذائهِ بسهولة تامة

واما ان وجدت تلك المواد العضوية في احوال غير هوائية ، كأن تكون مدفونة في طبقات عميقة من التربة ، أو في ارض مغمورة بالماء ، أثرت فيها البكتريا غير الهوائية فتحولها الى مواد بسيطة ، فتتحول الكربوايدرات والسلولوس الى انواع بسيطة من السكريات مثل سكر الجلوكوز Glucose والمانوز Manose والزيلوز (سكر الخشب) Xylose والى بعض الاحماض العضوية مثل الحمض الخليك والبيوتريك واللبنيك وغيرها كما تتصاعد بعض الغازات غير التامة التأكسد مثل الايدروجين والميثان والايدروجين المكبرت

٢ — ﴿ تحليل المواد العضوية الأزوتية ﴾ تشمل هذه المواد بقايا الكائنات الحية ، ومتخلفات المحاصيل البقولية ، وجميعها تتأثر بالبكتريا الهوائية او غير الهوائية ، بحسب البيئة التي توجد بها ، فان كان التأثير للبكتريا الهوائية سمي بالانحلال . ويسمى بالتعفن إذا ما أثرت عليهِ البكتريا اللاهوائية . وقد تحدث العمليتان معاً ، فتعمل البكتريا الهوائية في الطبقات الخارجية من المواد العضوية المعرضة للهواء ، وتعمل اللاهوائية في الطبقات الداخلية حيث ينعدم الهواء . وفي الانحلال يتحول الكربون والايدروجين الى ثاني اكسيد الكربون وماء ، ويتحول الأزوت الى نوشادر ، وحقيقة المركبات التي تتكوّن اثناء عملية الانحلال ، غير معروفة بالضبط ، وغاية ما علم ، انهُ عند انحلال اللحم (البروتين) في مقادير كبيرة من الاكسجين ، تتكوّن احماض منها الحمض الأوليك والسكسنيك والبالميتيك . وفي عملية التعفن تتكون مركبات عديدة اكثرها سام وغير متحللة تماماً ، فاذا تعفنت البروتينات مثلاً ، تتكون مركبات البيومينية (زلالية) وأحماض أمينية ، ويتصاعد كثير من الغازات مثل الايدروجين المكبرت والميثان وثاني اكسيد الكربون والايدروجين والازوت والفوسفين

اذاً فلكي يستطيع النبات أن يستفيد من المواد العضوية الازوتية التي تضاف الى الأرض ، يجب ان تؤثر فيها الميكروبات اولاً ، والمتحصلات الناتجة هي التي تصلح لتغذية النبات ، وإلى أن تتحوّل تلك المواد العضوية المعقدة ، الى مواد بسيطة ، يجب ان تجتاز عدة حالات يختص بكل حالة منها نوع معين من الميكروبات

وأول تغيير يحدث لتلك المواد ، هو تحويلها الى امونيا ، وتعتبر عمليتا التعفن والانحلال انهما عمليتان تحضيريتان لعملية تكوين النوشادر (النشدرة) Ammonification ويقوم بهذه العملية عدد كبير من البكتريا الهوائية وغير الهوائية ، فمن أهم انواع البكتريا الهوائية ما هو عصوي قصير غير متجرثم مثل الانواع Proteus vulgaris & Fluorescen's وأنواع اخرى متجرثمة مثل B. mycoides . واما الانواع غير الهوائية فأهمها Putrificus ونذكر فيما يلي خطوات تحويل المادة العضوية الى نوشادر متخذين لذلك مثلاً اليوريا (البولينا) لانها جزء كبير من المادة العضوية المضافة للارض .

يوريا + ماء ← نوشادر + ثاني اكسيد الكربون

ك ا (زيد ٢) ٢ + يد ٢ ا ← ٢ زيد ٣ + ك ا ٢

او يوريا + ماء ← كربونات نوشادر ← نوشادر + ثاني اكسيد كربون + ماء

ك ا (ز يد ٢) ٢ + ٢ يد ٢ ا ← (ز يد ٤) ٢ك ا ٣ ← ٢ ز يد ٣ + ك ا ٢ + يد ٢ ا

والنوشادر المتكونة يمكن ان ينتفع بها النبات بان يمثل الازوت اللازم له على حالة نوشادر ، وهناك بعض النباتات كالأرز مثلا ، يفضل استخدام أزوت النوشادر على أزوت الأزوتات

تلي خطوة تكوين النوشادر ، تكوين الأزوتات وهذه تحدث في التربة على درجتين

١ — أكسدة النوشادر الى الحمض الازوتوز بحسب المعادلة الآتية :

نوشادر + أكسجين ← حمض أزوتوز + ماء

ز يد ٣ + ٣ ا ← يد ز ا ٢ + يد ٢ ا

ثم يتحول الحمض الأزوتوز وأملاحه (الأزوتيت) الى أزوتات كما يلي :

حمض أزوتوز + أكسجين ← حمض أزوتيك

يد ز ا ٢ + ا ← يد ز ا ٣

ويقوم بالدرجة الاولى من العملية بكتريا خاصة يطلق عليها اسم B. nitrosmonas وبالدرجة الثانية بكتريا خاصة تسمى Nitrobacter

وعملية « التأزت » من أهم العمليات التي تحدث في التربة على الاطلاق ، وعليها تتوقف حياة النبات ، فمن المعلوم ان عنصر الأزوت هو من أهم العناصر المكونة للبروتوبلاسمة الحية ، وبدونه يموت النبات ، كما ان النباتات الخضر لا يمكنها امتصاص الأزوت الا على حالة أزوتات . ولاتمام عملية التأزت ، لا بد من شروط خاصة يجب توافرها ، فلا بد من وجود نسبة كافية من الهواء وان تكون درجة الحرارة مناسبة ، فانها اذا ارتفعت عن ٤٥° سنتجراد فان B. Nitrosomonas يموت في خمس دقائق ، واذا زادت درجة الحرارة الى ٥٥° سنتجراد فان Nitrobacter

يموت أيضاً ، ولا بد أيضاً من توافر النوشادر كما سبق ان بينا ذلك

وعلاوة على تلك الخدمة الجليلة ، التي تسديها تلك الـكائنات الدقيقة للنبات،اذ تجهز الأزوت من المواد العضوية المعقدة التركيب ، فان هناك أنواعاً أخرى من البكتريا لها القدرة على امتصاص الأزوت الجوي مباشرة وصنع البروتين . ومن غريب قدرة الله تعالى ، ان تثبيت عنصر الأزوت في المعمل الكيميائي ، يستدعي مجهوداً لاغياً ، إذ أن الأزوت عنصر خامل يصعب اتحاده بغيره من العناصر ، لهذا يستعمل في الطرق الصناعية تيارات كهربائية عالية ، ومع ذلك فان مقدار الأزوت الذي يثبت في هذه الحالات ضئيل جداً لا يقاس بجانب المقدار الذي تثبته تلك الميكروبات التي لا ترى بالعين المجردة !

هذه البكتريا التي تثبت الأزوت الجوي ، على نوعين ، نوع يعيش بالاشتراك في جذور النباتات البقولية ، والنوع الثاني يعيش منفرداً . ويعرف النوع الاول بالبكتريا العقدية وأهم أنواعها B. Radicicola ، وهي تصيب جذور نباتات الفصيلة البقولية وتتكاثر فيها وتحدث فيها انتفاخات كثيرة تبرز الى الخارج وتكوّن ما يعرف بالعقد ومعيشة النباتات البقولية والبكتريا العقدية هي معيشة تعاونية Symbiotic ولم يعرف بالتحقيق الحالة التي يستفيد بها النبات من الأزوت الذي يأتيها عن طريق البكتريا. فبعض العلماء يرى أن البكتريا تثبت الأزوت ثم تستعمله أولاً في بناء بروتوبلاسمة الخلية ، ثم بعد موت البكتريا وهضمها ، يمتص النبات المتحصلات المهضومة ، والبعض الآخر يعتقد أن جزءاً من الازوت المثبت تفرزه الميكروبات على حالة ذائبة وبذلك يستفيد منه النبات . نظير ذلك يمد النبات البكتريا بالكربوايدرات كمصدر لمجهودها والنباتات البقولية تفيد الأرض التي تزرع فيها بعد أن تتحلل بقايا جذورها لأنها تزيد مقدار الأزوت في التربة لوجود البكتريا العقدية بها

وأما البكتريا التي تثبت الأزوت وتعيش منفردة فأهمها النوع المعروف باسم Azotobacter وهو اكثر الميكروبات نشاطاً ، ويوجد في جميع الأراضي ماعدا الأراضي الشديدة الحموضة ، كما انهُ اكثر في الأراضي المنزرعة منهُ في الأراضي البكر ، ونشاطه في الربيع اشد منهُ صيفاً وشتاء

ومن الأمثلة ايضاً على ما تقوم بهِ الميكروبات في الأرض ويتصل بتكوين التربة الزراعية نفسها ، تلك الظاهرة التي كانت تعزى إلى تأثير الجير في تفكيك المواد العضوية وتحويلها إلى مركبات معدنية ، ولكن الواقع أن هذه الظاهرة هي من عمل البكتريا ، إذ انها تفضل الأراضي المائلة إلى القلوية لوجود الجير فيها ، فتنشط في تحويل ما قد يوجد بها من المادة العضوية الى دبال ثم إلى مركبات معدنية

يتضح لنا مما سبق أن الأراضي الزراعية فقيرة جداً في عنصر الأزوت ، وان هذا العنصر

لا يوجد في صورة يسهل على النبات الاستفادة منهُ ، اذ أنهُ مركب في المادة العضوية مع الكربون والايدروجين والأكسجين وعلى صورة غير ذائبة فاذا ما تناولتها الميكروبات بفعلها فانها تكفل للنبات غذاءه . وعلى ذلك يمكننا القول أن هذه الكائنات المفيدة تلي النباتات الخضراء شأناً ، لأنهُ اذا كانت هذه أساساً للحياة لأنها تكون المادة العضوية من مواد غير عضوية ، فان البكتريا تقوم بعكس هذه العملية ، فهي تحول المواد العضوية الى أخرى غير عضوية صالحة للنبات

بقي أن نذكر كلمة عن أنواع البكتريا المضرة بخصب الأراضي الزراعية ، فهي تشمل بكتريا عكس التأزت Denitrification وهذه تسبب فصل الأزوت المطلق بأن تأخذ الأكسجين من الأزوتيت والأزوتات تاركةً الأزوت ينفرد ، ولا تعيش هذه البكتريا إلاَّ في احوال غير هوائية

وفي الأراضي الرطبة المغطاة بالمياه ، تحدث عملية أخرى ضارة بخصب الأراضي تعرف باختزال النترات Reduction of nitrate تقوم بها بعض أنواع الميكروبات مثل B. Coli والغرض منها الحصول على الأكسجين اللازم لحياتها وذلك عند ما تكون التهوية محدودة . وكلتا العمليتين يمكن ايقافهما نهائيًّا وذلك بتحسين التهوية في الأراضي وذلك بالعناية بالصرف وخدمة الأرض جيداً

﴿ الفطريات ﴾ ننتقل بعد هذا الى الكلام عن القسم الثاني من الكائنات النباتية التي توجد بالارض وهي الفطريات Fungi . ويتميز الفطر بكونهِ نباتاً لا يحتوي على الكلوروفيل، فلا بدَّ لهُ اذاً من ان يمتص غذاءه الكربوني مجهزاً سواء من الكائنات الحية او الميتة نباتية كانت او حيوانية

ويختلف مسلك الفطر عن مسلك البكتريا ، فاذا كانت هذه تفضل الاراضي القلوية الخفيفة نرى الفطر يفضل الاراضي الحمضية ، كما ان الضوء لا يوافق البكتريا ولكنهُ يلائم الفطر ، وينمو كل من البكتريا والفطر غالباً في طبقات الارض العليا المتفككة ، فتجد بعد عمق ٢٥ سنتمتراً يقل عدد البكتريا كثيراً حتى اذا ما وصلت الى عمق ٥٠ سنتمتراً فان نموها يقف ولكن الفطر يوجد منهُ ما يعيش على مسافات اعمق . ووجود الاكسجين شرط ضروري لنمو الفطر

يكثر وجود الفطر في الاراضي الحمضية على وجه العموم ، وأما الفطر الشعاعي Actinomyces فدائم الوجود في الارض ، وقد تصل نسبته الى ٥٠ ٪ من مجموع الفطريات النامية بالتربة ويرجع ما للفطر من الشأن في التربة الى ان كثيراً من انواعها تحلل فروع النباتات وجذوع الاشجار المتروكة في التربة فتحولها الى مواد عضوية مفيدة بأن تمتص محتويات خلايا الخشب والاشعة النخاعية وتمتد في الاوعية والالياف فتؤثر بذلك في الخشب اذ تفقد جدره اللجنين ، ويذوب الجدار الوسط فيصبح الخشب هشًّا سريع التفتيت . وهناك انواع مثل فطر بينيسلوم Penicillium واسبرجلس Aspergillus لها القدرة على تحليل السليولوز . وبعض الفطريات الاخرى تستطيع الحصول على غذائها من السماد الطبيعي وبذلك تحلله وتساعد في جعله مفيداً للمحاصيل .

ولانواع معينة من الفطر القدرة على تخمير الكربوايدرات اثناء تنفسها اللاهوائي فتحللها الى كحول وثاني اكسيد الكربون بواسطة انزيم الزيماز، وقد سبق بيان تأثير الغاز الكربونيك في التربة على انهُ من اهم الاعمال التي يقوم بها الفطر في التربة، وعلى الاخص الفطر الشعاعي، هو تكوين الدبال Humus (١) ، وتحلل الدبال ينشأ عنه انفراد جزء من الازوت على حالة نشادر وهذه تتأزت بسرعة، وفي الوقت نفسه تخرج كميات كبيرة من غاز ثاني اكسيد الكربون.

ولا شك ان الدبال يكون جزءًا مهمًّا في التربة الزراعية، فهو فضلاً عن كونه غذاء صالحاً للكائنات الدنيئة حيث تستمد منه نشاطها لتأدية العمليات المفيدة، يساعد على خصب الاراضي بما له من تأثيرات مفيدة للنبات، فهو يمنع فقد المواد المعدنية الغذائية في الماء وترشيحها في الطبقات السفلى علاوة انهُ يزيد من قوة حفظ الأرض للماء

يعاون البكتريا في عملية النشدرة أنواع من الفطر مثل Mucor و Penicillium فيمكننا القول اذاً ان التفاعلات المفيدة التي تحدثها البكتريا والفطر هي التي تسبب خصب الارض. ويقول في ذلك الاستاذ رامان «ان الانسان ليستطيع ان يضمن للنبات جودة النمو وسرعته بجعل الارض بيئة صالحة له. وذلك بمساعدة الكائنات الحية الدنيئة». والى ذلك يشير أيضاً الاستاذ Ehrenberg «تعمل هذه الكائنات على توفير حمض الكربونيك وحمض الازوتيك في ماء التربة الزراعية باستمرار فيتكوَّن ما يقابل ذلك من املاح الكالسيوم وايضاً املاح المغنسيوم مما يضمن تجمع المواد الغروية». بقي بعد ذلك من الكائنات الحية بالارض، الحيوانات الاولية Protozoa وهذه قد بين الاستاذ E. J. Russel انها توجد دائماً في الاراضي وتعيش على البكتريا فتنقص عددها وعلى ذلك فهي مضرة بخصب الاراضي، ومن هذا يتضح السبب في معالجة الاراضي المجدبة والقليلة الخصوبة بالحرارة او بالتعقيم الجزئي لاتلاف البروتوزوا وبذا تفسح المجال للبكتريا فتنشط وتقوم بعملها خير قيام

وقد عوملت بعض الاراضي في روثا مستد بالحرارة فقل عدد الكائنات الميكرسكوبية من ٧ مليون في الجرام الواحد الى ٤٠٠ فرد فقط، ووجد ان عددها بعد ترطيبها زاد زيادة عظيمة جدًّا ومن ثمَّ زادت سرعة تكوين النوشادر من المركبات العضوية

الاَّ أن البروتوزوا مع ذلك لا تخلو من فائدة للاراضي، وذلك انه عند موتها وتحللها تكون غذاء صالحاً للاحياء الدنيئة التي تؤدي مهمتها في هذه الحياة ثم تموت بدورها لتتغذى عليها الكائنات الحية الاخرى، وهكذا دواليك

رضوان محمد رضوان

(١) الدبال عبارة عن مخلوط من جملة مواد عضوية ويعتقد بعض العلماء ان تركيبه هو: — ٥٠٠/٠ ك و ٣٥٠/٠ ٢١٠/٠ و ٥٠/٠ ز و ٥٠/٠ رماد. الان طبيعته الكيميائية غير معروفة بالتحديد، ولكن الابحاث الحديثة تشير الى ان مصدره هو اللجنين مع مركبات خاصة ناتجة من التحويل البكتربولوجي Bacterial metabolism وهذه هي منبع الازوت في الدبال وعلى العموم يمكن ان يقال ان الدبال هو مادة عضوية نباتية وحيوانية آخذة في الانحلال

علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

—٣—

لحسين عناد بك
وكيل وزارة الزراعة

٦ — توفير الاغذية الحيوانية

ولا يكون ذلك الا بوضع سياسة خاصة لتربية الماشية وتوليد اصناف منها تصلح للذبيح واخرى للبن والعمل على الاكثار من اراضي الرعي وخاصة في الصيف لضمان وفرة اللبن ومشتقاته. كما أنهُ يجب أن تنظم تربية الدواجن والحيوانات الصغيرة كالاغنام والماعز والأرانب ليتوافر اللحم لعامة الشعب. وقد وضعت وزارة الزراعة فعلاً في عهدها الجديد مشروعاً لكل ذلك فأنشأت قسماً خاصًا بتربية الحيوان والدواجن على اختلافها فأنشأت ثلاث مزارع للدواجن في الجيزة (بالغربية) وجزيرة الشعير (بالقناطر الخيرية) وسدس (ببني سويف) على أحدث النظم ، وفي البلاد نهضة مباركة في هذا المضمار ففيها عدد كبير من الهواة لهم رابطة تلم شملهم وتقوم كلية الزراعة بتجارب عظيمة الشأن بهذا الخصوص

كما انهُ يجب ان يكون في متناول الشعب ما يكفيه من الالبان ومشتقاتها كالجبن بكافة اشكاله والقشدة والزبد والسمن وما يكفيه من لحوم الاسماك والحيوانات البحرية على اختلافها وهذا يستدعي تنظيم مصايد الاسماك والاكثار منها وتشجيعها بكافة الوسائل لتكون صناعة وطنية محترمة

فانهُ من العجب حقًا ان تستورد مصر وهي قطر زراعي عظيم مقادير كبيرة من الاغذية الحيوانية مع أنهُ كان الواجب علينا ان نصدر منها الى الخارج ما يدر على بلادنا الربح العظيم فتستورد مصر الاغنام من فلسطين وسوريا والعراق ونجد والحجاز وتركيا وتونس وقبرص وبلغاريا وتستورد حيوانات الفصيلة البقرية من بلغاريا وقبرص ويوغوسلافيا والعراق ورومانيا وسوريا وفلسطين والحبشة والولايات المتحدة وساحل الصومال الفرنسي وهولندا وتستورد الجمال من الحجاز ونجد وفلسطين وسوريا وتونس وقبرص والعراق

واليكم مقدار ما تستورده مصر من الحيوانات والاسماك ومنتجاتها عن سنة ١٩٣٧

أغنام	٧٠٩٠٠ رأس	ثمنها ٦١١٠٠ جنيه
الفصيلة البقرية	٧٩٠٠ «	« ٤٧٥٠٠ «
جمال	٢٥٠٠٠ «	« ١٤٩٠٠٠ «
لحوم طازجة مبردة		« ٢٩٠٠٠ «
لحوم مملحة او مجففة او مدخنة او مجهزة		« ١١٠٠٠ «
لحوم محضرة او محفوظة في أوعية		« ٤٨٠٠٠ «
ألبان ومنتجات معامل الالبان وبيض وعسل نحل		« ٢٨٨٠٠٠ «
مواد أولية ومنتجات أخرى من أصل حيواني		« ٦٠٠٠٠ «
مواد دهنية وزيوت وشموع وشحوم غذائية		« ٧٠٨٠٠٠ «
أسماك وذوات القشور والمحار		« ٨٧٠٠٠ «
مستحضرات اللحوم والاسماك وذوات القشور والحيوانات الرخوة		« ١٥٩٠٠٠ «

وكل هذه ممكن انتاجها واكثر منها بل اضعافها في بلادنا واغراق الاسواق الاجنبية بها اذ الواقع ان عدد الماشية في بلادنا قليل لا يقوم بسد حاجة البلاد من اللحوم ومشتقاتها والالبان ومشتقاتها وما تتطلبهُ الارض من الاسمدة العضوية

أما عن تربية الدواجن ففي مصر صناعة وطنية للتفريخ الصناعي لا مثيل لها في أي بلد آخر ففي الديار حوالي ثمانمائة معمل للتفريخ يشتغل منها فعلاً الآن ما يأتي : البحيرة ٣٩ الغربية ٦٨ الشرقية ٥٣ القليوبية ٣٩ المنوفية ٧٧ الدقهلية ٧٤ الجيزة ٢٧ الفيوم ٤٩ بني سويف ٣٤ المنيا ٥٤ اسيوط ٩٦ جرجا ٤٥ قنا واسوان ٤٥

وقد يبلغ عدد البيض الذي وضع للتفريخ بهذه المعامل سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ بالقطر المصري ٢٥٢ ر ٤٣٦ ر ١٠١ بيضة اخرجت ٣٠٩ ر ٤٧٦ ر٦٩ فراخ (كتاكيت) والموجود فعلاً من الدواجن سنة ١٩٣٧ بالقطر المصري هو

اوز	١٫٨٩٩٫٤٠٠	أي لكل	٩ اشخاص	وزة
بط	١٫٣٦٣٫٣٠٠	«	١٢ شخصاً	بطة
دجاج رومي	٣٣٠٫٩٠٠	«	٥٠ «	ديك رومي
حمام	٤٫١٠٨٫٣٠٠	«	٤ اشخاص	حمامة
ارانب	١٫٩٦٥٫٦٠٠	«	٨ «	ارنب
دجاج	٢٦٫٨٨٧٫٦٠٠	«	٥ «	٨ دجاجات

ويبلغ عدد خلايا النحل بالقطر المصري سنة (١٩٣٧) ٦٢٤ ر ٤٦٨ خلية بلدية و ٥٩٢٧ خلية افرنكية وهذا عدد غير كاف بحاجة القطر لذلك يجب العمل على اكثار الخلايا الافرنكية وهذا يقوم بالدعاية لهُ فرع النحل بوزارة الزراعة وجماعة من الهواة تجمعهم رابطة النحل بتشجيع وزارة الزراعة

والغرض من الأغذية الحيوانية اعطاء الجسم ما يحتاج اليهِ من البروتينات ولكن الجسم يمكنهُ ان يحصل على ما يحتاج اليهِ منها من فول الصويا Glycine Soya وهو محصول قطاني ينمو في بلاد الصين واليابان وقد جرب قسم البساتين زراعة اصناف متعددة منهُ بالديار المصرية سنة ١٩١٨ فنجح منها صنف اسمهُ « ما نشوكو » وقد جربت زراعته صيفيًّا كالذرة الشامية وهو من جهة المحصول والصنف والصفات لا يقل في مصر عنهُ في البلاد الاخرى التي استورد منها وظهر بالتحليل أن نسبة الزيت فيهِ هي كما في البلاد الاخرى وكذلك البروتين وخلافه إلاَّ انها أقل قليلاً جدًّا عما هي عليهِ في موطنهِ الأصلي

ولم تعمل لهذا الفول الى الآن دعاية كافية في مصر لاننا لم نجد لهُ استعمالاً يشجع الجمهور على استهلاكه كما في اليابان واوربا وأميركا . يستخرج منهُ الزيت والبروتينات وعجينتهُ مفيدة جدًّا لدرجة أنهُ تصنع منها أدوات صناعية كثيرة كازرار الملابس — هذا خلاف التغذية كالزيت واللبن المصنوع منهُ والدقيق المستعمل في مرض البول السكري وكذلك تغذية الماشية بعد خلطه بمواد مخففة وفي بعض البلاد يطهى بطريقة مخصوصة لأكلهِ

وقد ادخلت البكتيريا التي لا بدَّ منها لنموهِ من اميركا وجربت في مصر فنجح بعضها ولم ينجح الآخر . والدليل على ذلك ان المحصول عادي النمو ويكفي لنجاح زراعة هذا الصنف في كافة انحاء القطر ان ينقل بعض التراب من الحقول التي نجحت زراعته فيها الى الحقول الجديدة

وقد سلم قسم البساتين ثلاثة اصناف من التي نجحت بمصر الى قسم الزراعة الفنية والاكثار للتوسع في زراعتها ويجري قسم البساتين الى الآن ادخال اصناف جديدة للتجربة والتحسين والأقلمة

وهذا المحصول كثير الغلة غني في البروتينات التي لها نفس القيمة الغذائية كالبروتينات الحيوانية في اللحم والبيض واللبن وهو من الوجهة الحيوية غذاء كامل بمعنى الكلمة ففي كيلو جرام واحد منه غذاء يعادل ما في ٥٨ بيضة أو ٥ ر ٦ لتر من اللبن او ٥ر٣ كيلو جرام من لحم العجل الخالي من العظم . وبروتين كيلو جرام واحد منه يوازي بروتين ١٥٠ بيضة وهو يحتوي على ٤١ ٪ بروتين و ٢٠ ٪ دهن و ٢٠ ٪ كربوايدرات وهو غني في مادة الليثيسين التي في صفار البيض وهو علاوة على ذلك سهل الهضم مشبع فاذا عمت زراعة هذا الفول وانتشاره بين الطبقات العاملة في القطر المصري فانهُ يسبب اقتصاداً عظيماً جدًّا في

مقادير الفول واللحوم والدهن المستهلكة الآن في البلاد . ودقيق هذا الفول مفيد جدًّا للذين يزاولون اعمالاً بدنية مجهدة فهو لذلك اوفق غذاء للفلاح والعامل المصري — وهو علاوة على ذلك غذاء شديد القلوية (+ ٥ ر ٢٦)

﴿ المحافظة على المحصول من التلف في اثناء نموه وفي اثناء التخزين ﴾ وهذا من اهم العوامل التي تؤثر في تغذية الشعب فقد تعرّضت الامم في الازمان السابقة لمجاعات تشيب من هولها الولدان بسبب الآفات الزراعية والأمراض التي تنتاب الحاصلات فجعلتها اثراً بعد عين كمرض الصدإ في القمح وكمرض اللفحة الارلندية التي أصابت البطاطس بارلندا وسببت فيها مجاعة هائلة وكآفة الفيلوكسيرا التي كادت تقضي على اعناب فرنسا لولا نجدة العلم الحديث وما اتخذه العلماء الزراعيون للقضاء على شرها

ورغماً عن حداثة علوم الآفات النباتية ولاسيا طرق المقاومة فانهُ اصبح في ميسورنا مقاومة الأمراض النباتية الوبائية وغيرها بوسائل كيميائية كتطهير الارض والتقاوي من جراثيم الأمراض ورش النباتات وتعفيرها بمواد سامة لا تضر النبات ولكنها تحميه غائلة ما يسقط على اجزائه الهوائية من جراثيم الامراض وكاستنباط انواع منيعة ضد الأمراض وكرش الاشجار وتدخينها بالغازات السامة لقتل الآفات الحشرية كالبق الدقيقي والحشرات القشرية وغير ذلك

ويقوم بمكافحة الآفات الزراعية الآن قسما الحشرات والفطريات وكلاهما مجهز بمعامل مزوّدة بأحدث ما ابتكره عقول البشر، ومصر اصبحت كأرقى بلاد العالم في هذا المضمار ولها بحوث نفيسة ويعمل اخصائيو هذين القسمين على تبسيط وسائل المكافحة والعلاج ولكن رغماً عن ذلك نرى الفلاح في جمود لا يأخذ بالنصح والارشاد ولا يتحرك إلاَّ بعد نزول النكبة وحلول الفجيعة

وقد نجحت تجارب وزارة الزراعة في تخزين البطاطس للتقاوي في الثلاجات اعظم نجاح وبذلك اصبح في ميسور مصر الاستغناء عما يرد الينا من الخارج لزراعة الخريف كما أن ابحاث قسم الحشرات فيما يتعلق بمكافحة دودة الرمان وسوس المخازن وكافة حشرات التخزين أسفرت عن نتائج باهرة — وقد أخرج فرع المبيدات الحشرية بقسم الحشرات زيوتاً تستعمل الآن على نطاق واسع لمكافحة الحشرات القشرية — كل ذلك محافظة على سلامة المحصول لضمان تغذية الشعب المصري

﴿التوسع في الصناعات الزراعية وتحسينها﴾ وأقصد بالصناعات الزراعية صناعة المربات والشربات على اختلاف أنواعها والفواكه المجففة والمحفوظة في العلب وحفظ الخضر وعصير الفواكه والمخللات وما الى ذلك مما هو معروف . وهذه الصناعات موجودة في بلادنا من قديم الزمان تزاولها ربات البيوت في المنازل ولكنها اصبحت صناعة منظمة سيكون لها شأن عظيم في مستقبل البلد الاقتصادي

ويرجع الفضل في انشاء هذه الصناعات الى قسم البساتين فقد أنشأ مصنعاً للصلصة والشربات والمربى سنة ١٩٣٠ وكانت مقطوعيته قليلة لأنهُ كان في دور التجربة

ثم انشأ معملاً لحفظ البلح وآخر لحفظ الفاكهة والخضر والمخللات بالطريقة المبلولة سنة ١٩٣٣

ولم يكن اذ ذاك بالقطر المصري معامل للصناعات الزراعية قط فاصبح فيه الآن ثلاثة مصانع كبيرة للصلصة احدها في الاسكندرية والآخران في القاهرة وهذه المعامل لا تكفي استهلاك القطر لذلك تعمل وزارة الزراعة جهدها في الدعاية الى تعميم انشاء مثل هذه المعامل وذلك بعرض الاصناف في السوق واعطاء الارشادات الفنية والصناعية واظهار الفائدة والربح التجاري من هذه الصناعة

وقد اتضح من تحليل الصلصة المصرية والاجنبية ، تفوّق المصرية من عدة وجوه فالمصرية خلاصة طماطم طبيعية بينما الاجنبية وجدت مخلوطة بالجزر واللفت والبطاطس وملونة بالالوان الصناعية لتظهر بلون الصلصة الطبيعية

ويوجد الآن بالديار المصرية مصنعان للصلصة ولحفظ الخضر أحدهما بمصر والآخر بالاسكندرية هذا علاوة عما يصنع في المنازل ودكاكين الحلوانية وكلها تبشر بالنجاح

وقد جرب قسم البساتين تخليل الزيتون بنوعيه الاسود الاخضر والخيار والبصل الرفيع والجزر والبنجر واللفت والكرنب (في صناعة الشوكروت) وعمل نموذج الخردل (المسطردة) للمائدة والمسطردة مخلوطة بالمخللات (البكاليلي) وكذلك الـ Mango Chutney, Ketchup وكلها نجحت نجاحاً باهراً

وبالقاهرة الآن معملان كبيران لصناعة المخللات علاوة على معامل الطرشي البلدية وعدة مصانع صغيرة حديثة منتشرة في كافة القطر

وقد اتضح من ابحاث قسم البساتين ان المخللات تحتفظ بجميع موادها الغذائية فهي لذلك غذاء مفيد مهم

أما المحفوظات التي تحفظ بالتعقيم بالحرارة فانها تفقد فيتامين (C.) او جزءاً منهُ والصلصة أقلها فقداناً لهُ والشربات التي تصنع بالطريقة الباردة تحتفظ بجميع خواصها الغذائية وفيتاميناتها

وقد حاول قسم البساتين حفظ كثير من الخضر والفاكهة بالتجفيف فاستورد البامية الأزميرلي الرقيقة فنجحت زراعتها بمصر ونجح تجفيفها فأصبحت كالتي ترد الينا من أزمير واصبح القطر المصري يكتفي في استهلاكه بما يزرع فيه من هذا الصنف فوقف استيراده بتاتاً من الخارج

وجرب القسم تجفيف المشمش والتين المصري فلم يصلحا لارتفاع مقدار الماء فيهما مما يسبب ارتفاع أثمانها عن التي ترد من الخارج . وجرب تجفيف البصل والبطاطا وعمل منها مسحوقاً

وجفف مقادير كبيرة من البسلة الخضراء خصوصاً صنفي Little marvel و Lincoln فنجحا نجاحاً باهراً

وأجريت التجارب على تجفيف البلح الحياني للاستفادة من محصوله الوافر فنجح كما نجح في صناعة المربى منهُ قبل ان يرطب وقد ظهر أنها تفضل مربى البلح السماني

وهذه المصنوعات لا تعطي أكثر من ١٠٪ من استهلاك القطر ورغماً عن ذلك فانه يصدر منها الى بعض البلاد الشرقية كالسودان والحجاز — وقد صدّر معظم محصول البلح المصري المصنوع بقسم البساتين ومحل سرسق الى المانيا

وقد انشأ قسم البساتين صناعة زراعية جديدة هي حفظ الفول المدمس والعدس اما بهيئة خلاصة أوحساء وكذلك اللوبيا والفاصوليا المطبوختين بالصلصة واللحم في العلب فنجح في ذلك نجاحاً باهراً وعرض منها نماذج على التجار فلاقت اقبالاً عظيماً كما انهُ صنع شوربة الطماطم وعصير الطماطم بالتوابل Tomato Cocktail في العلب وعمل تجارب على حفظ فصوص الليمون الهندي في محلول سكري في العلب فنجحت

﴿ ضمان توزيعه في كافة انحاء القطر بين كافة الطبقات من غير تلف وبأسعار متهاودة لا تزيد الاَّ يسيراً عن سعر الجملة ﴾ وهذا من أهم العوامل في تغذية الشعب ولضمان التوزيع يجب ان تنظم اسواق الغلال والحبوب واسواق الخضر والفاكهة وتحسين وسائل نقلها وطرق تعبئتها ليقل تلفها كما يجب انْ تنظم السلخانات ونقط الذبيح وتعمم في جميع انحاء القطر

اما عن أسواق الخضر والفاكهة بالقطر المصري فلا تزال وزارة الداخلية تصدر رخصها ولا يتبع وزارة التجارة منها سوى سوق الجملة للخضر والفاكهة بمدينة القاهرة وهما سوقان احداها بشارع الملكة نازلي والاخرى بساحل روض الفرج . وفي الاسكندرية سوقان للجمعية التعاونية للخضر والفاكهة . وسوق ثالثة للخضر والفاكهة التي ترد من الخارج وجميعها من غير رخص . كما انهُ توجد سويقات كثيرة في المديريات منها ما هو مرخص بهِ من وزارة الداخلية او غير مرخص بهِ . والشكوى عامة منها لعدم وجود لوائح او نظم لها وذلك بسبب عدم وجود تشريع يبيح لوزارة التجارة الترخيص بهذه الاسواق وتحديد طرق التعامل فيها اذ ان التشريع الوحيد القائم هو الخاص بمدينة القاهرة فقط

***

وسياسة وزارة التجارة ترمي الى تعميم الاسواق في جميع المديريات ومناطق الانتاج الرئيسية ولكن الاعتمادات المالية تقف عثرة في سبيل ذلك فقد تقدمت الوزارة بجملة اعتمادات لانشاء سوق عامة في الاسكندرية وبور سعيد فلم يتحقق لها ذلك وهي تحاول نقل السوق الحالية بمصر

الى مكان يتفق واحتياجات التجارة التي أصبح ثلثاها خارج السوق وقد خطت وزارة التجارة خطوات موفقة فتم الاتفاق مع وزارة الاوقاف على المنطقة المزمع بناء السوق فيها

ووسائل نقل الخضر والفاكهة في داخلية القطر تنحصر في ثلاث طرق اساسية :

١ — بالماشية كالحمير والجمال الخ . . . في المناطق المتاخمة للقاهرة والمدن الاخرى وفي الزراعات المحدودة المساحة

٢ — بالسيارات من المزارع المتسعة والتي بالجهات البعيدة اويخشى عليها في اثناء النقل من التلف السريع او بالمراكب في النيل للاصناف التي لا يخشى عليها من التلف السريع كالبصل والبطاطس والبطيخ وأنواع المقات المختلفة وهذه مركزها جميعها في ساحل روض الفرج (الخضرة)

٣ — السكك الحديدية لجميع اصناف الفاكهة التي ترد الى الديار من الخارج ووسائل التعبئة من داخلية البلاد لسوق الخضر بالقاهرة غير متوفرة في جميع الاصناف وخصوصاً فيما يتعامل فيه بالعد كالموالح والمقات والكرنب وأسباب ذلك رخص الصنف وزيادة التكاليف ان عيء مما يعيق استهلاكه

***

وطرق التعبئة المتبعة حاليًا تسبب تلفاً كبيراً وخاصة للخضر والفاكهة الغضة اذ لا يمكن الاحتفاظ بها سوى مدة قصيرة فيتحتم تصريفها بأقصى سرعة خوفاً من الخسارة

وقد عني هذا العام باعتماد مبالغ لانشاء حلقات للاسماك في بحيرة المنزلة وهي مركز الانتاج الهام للاسماك ويرمي المشروع الى تعميم ذلك في جميع مناطق انتاج الاسماك بالمياه المصرية ويتبع ذلك طبعاً انشاء أسواق لتصريف الاسماك

أما بخصوص البيض والطيور والالبان ومشتقاتها فليس لوزارة التجارة سلطة عليها الآن والاتجاه يرمي الى اخضاعها مستقبلاً للمراقبة التجارية والتركيز في مناطق الاستهلاك الرئيسية

ولدى وزارة التجارة الآن مشروع لتخزين الخضر والفاكهة وتقاوي البطاطس إذ البلاد في أشد الحاجة الى ذلك

أما السلخانات ورخص الذبيح فلا تخفى مكانتها في ضمان حصول الشعب على ما يلزمهُ من اللحم المضمون

وتنقسم السلخانات في القطر المصري ثلاثة أقسام

القسم الأول (ا) سلخانة مصر (ب) سلخانة الاسكندرية

القسم الثاني : سلخانات بنادر مديريات الدرجة الأُولى ومحافظة بور سعيد

القسم الثالث : سلخانات بنادر مديريات الدرجة الثانية والثالثة والمراكز

القسم الرابع : سلخانات شركة الاسواق وقد ضمت اخيراً الى وزارة الزراعة بعد الغاء هذه الشركة وهي سلخانات صغيرة لذبح المواشي في أيام الأسواق الاسبوعية

﴿ تبعية السلخانات ﴾ ا — سلخانات مصر وطره وحلوان والزيتون والاسماعيلية تابعة لوزارة الزراعة — كذلك السلخانات التي آلت اخيراً الى الحكومة بعد انتهاء عقد شركة الاسواق

ب — سلخانة الاسكندرية التابعة لبلدية الاسكندرية المختلطة

أما باقي السلخانات بالقطر المصري فتتبع المجالس البلدية والمحلية والقروية

ويقوم بالرقابة البيطرية في سلخانات وزارة الزراعة والبلديات قسم الطب البيطري التابع لوزارة الزراعة التي تستولي على ايرادات السلخانات التابعة لها وترصد في ميزانيتها الاموال اللازمة للصرف عليها — أما السلخانات التابعة للمجالس البلدية والمحلية والقروية فان هذه المجالس تستولي على ايراداتها وتنفق عليها

﴿ نقط الذبيح في القطر المصري ﴾ وهي منتشرة في القرى بشكل منطقة معينة خالية في الغالب من اي نظام صحي فليس فيها وسائل لتصريف المياه — وبعضها مسور بسور من الخشب وأرضه مبلطة بالاسمنت وبها طلمبة للمياه وبئر لتصريف المياه والدم ويقوم بانشاء هذه النقط الهيئات الآتية

١ — مجموعة الجزارين الموجودين في المنطقة

٢ — اصحاب السويقات الاسبوعية

٣ — بعض المزارعين الذين يهمهم الحصول على سماد الدم والفرث

هذه هي العوامل التي بها تضمن البلاد تغذية الشعب تغذية صحيحة كافية لتصد عنهُ غوائل الضعف والمرض وتنفث فيهِ روح القوة والعزم

﴿ عمل احصاءات دقيقة سنوية عن الانتاج ﴾ وهذا من اهم العوامل لضمان تغذية الشعب إذ يمكن البلاد من معرفة حالة حاصلاتها ومقاديرها وكفايتها لسد حاجاتها لتبني بذلك سياستها الزراعية في السنين التالية ، لذلك كان الواجب يحتم وضع سياسة عملية يمكن بواسطتها الحصول على بيانات احصائية صحيحة وافية من الملاك مباشرة عن انواع المزروعات ومساحاتها ومقدار غلتها وغير ذلك من البيانات اللازمة وذلك باعطائهم استمارات تصرف مع ورود الاموال ليملأُوها بمعرفتهم او بمعرفة الصراف مع تفهيمهم ان نتائج هذا الاحصاء هي في مصلحتهم الشخصية لانها تساعد على تحديد الاسعار بما يتفق والانتاج الحقيقي

لهيب !

ما ترى النار استطارت في الضلوع ؟ وصميم القلب مسفوح النجيع ؟ !
إيهِ فاضمُم راحة الكفّ إلى جبهة الصدر ففي صدري نُزوع
يطفر القلب اليها لاثماً لا يبالي بجراحٍ او ضلوع !

***

إيه لا تبخل . فهذا خافقي دائم التسبيح في فيض الدموع
يرسل الشدوَ.. ولكن شدوه .. أنَّةُ المذبوح أو خَفق الصريع
أسمعت الآن في تسبيحه ما حوى التسبيح من شجوٍ مَروع ؟ !
أنهُ يهتف ملتاعاً الى ربه المعبود ذي الحسن الرفيع
هاتِ فاضمم راحة الكف الى جبهة الصدر ففي صدري نزوع
يطفر القلب اليها لاثماً لا يبالي بجراح أو ضلوع . . .

***

. . . . وتمهّل . . ثم دعني أحتضنها وأضمُّ الروح . . . . دعني استطيع !
ايه ماذا قد سرى من كفّه ؟ أي سحرٍ ضُمّن الكفُّ البديع ؟ !
ها هو القلب عليهِ نائماً نومة الطفل . . . بأحلام الرضيع ! . . . .

القاهرة

محمد فهمي

مكتبة بنك مصر

ناحية من النشاط الثقافي
في هذه المؤسسة القومية

ان الذين يحسبون ان نشاط بنك مصر وهذا العديد من الشركات الذي أنشأه مقتصرٌ على الميادين المالية والاقتصادية يخطئون اكبر الخطإ . فلقد كانت هذه المؤسسات منذ ان خرجت الى الوجود حتى اليوم معاهد للتربية الاجتماعية والثقافية تسير فيها الجهود العلمية جنباً الى جنب مع الجهود الاقتصادية

هذه المؤسسات مدارس ومعاهد يتعلم فيها فريق كبير من الشبان فنوناً ما فتئت حاجتنا اليها قائمة ملحة . فيها يدرّبون على هذه الفنون تدريباً عمليًّا على هدى التوجيهات العملية التي لم ين المسؤولون في البنك وشركاته عن تسهيلها على العاملين في هذه المنشآت ، وتوفير أسبابها لهم . فاذا كان هذا المصرف القومي — هو وما ترتب عليه من جهود غالية هي هذه الشركات المتباينة الأغراض — قد سدّ نقصاً كبيراً في الاقتصاد المصري ، فانهُ قد سدَّ كذلك نقصاً لا شك فيه في كثير من الفنون العملية ، فضلاً عن مساهمته في تشجيع كل ما من شأنه أن ينهض بالعلم وأدواته

هذه حقيقة يكاد يعرفها كل من في مصر ، وتشهد عليها الأمثلة الكثيرة من نشاط البنك وشركاته . تشهد عليها هذه البعوث التي يرسلها الى شتى البلاد الأوربية لتدريب العاملين فيه على ما يهمه ان يتوفر لشركاته من الخبرة الفنية وللتزود من العلوم التي تتصل بما أعدوا انفسهم له من فنون. تشهد عليها بعثات شركة مصر للغزل والنسيج التي قوامها عشرات من الشبان ، لدراسة ما يعني شركتهم من الفن والعلم . وتشهد عليها بعثات السينما والطباعة وغيرها التي أوفدها بغية الاستفادة بما يحصله اعضاؤها من البلاد التي تقدمتنا في هذه الفنون ، لاتقانها واجادتها في مصر ، وترقية مستواها ، والوصول بها الى ما يقدر عليه من كمال . تشهد على هذه الحقيقة كذلك تلك الاقسام العلمية الكثيرة التي انشأها فيه او في شركاته ، ورصد لها المختصين فيما يعنيها من فنون وعلوم وهيأ لها كل ما يستطيع للانتاج الذي يفيد البلاد عامة قبل ان يفيد هذه المؤسسات خاصة. فقام بذلك بواحدة من المهام الكبيرة التي اخذ على عاتقه الاضطلاع بها مختاراً منذ ان اعلن رجاله

في سنة ١٩٢٠ وبعد جهد طويل انهم عقدوا عزمهم — معتمدين الله — على ان يكون لمصر وللمصريين مصرف يفتح فتحاً قومياً في عالم الاقتصاد الاجنبي عنها حتى وقتذاك

وان الذين يتتبعون نهضة الاقتصاد المصري ليعلمون ان بنك مصر الذي انشىء في فورة الافكار التي اعقبت سنة ١٩١٩، كان منذ انشائه معهداً قومياً للتربية الاجتماعية طالما سجل من التقاليد الصالحة في هذا الميدان ما هو حقيق بالفخر به. وجميع الذين يعرفون كيف انشئت شركات بنك مصر يعلمون الى جانب ما ذكرنا — ان كل مؤسسة تحمل اسمه لم تكن صدى لحاجة عارضة، ولا رجعاً لفكرة طارئة، او خاطر عابر، ولكنها جميعاً — واحدة واحدة — كانت نتيجة لدرس علمي وفني طويل لم تدخر وسيلة مما يصطنع العلم والفن الا بذلت في سبيل التدقيق فيه، وتمحيصه حتى تخرج هذه المؤسسات الى الوجود اقوى ما تكون ارتكازاً الى تطور العلم والفن في العصر الحديث. كذلك كانت مؤسسات بنك مصر، كل منها — في الميدان الذي اختصت به — ثمرة لثمين الجهود وغالى ما تعرف «الفنية العلمية» من دقة واستقصاء

وفي ابان حياة هذه الدعامة، الوطيدة على الزمن باذن الله، والى الرجال الذين عملوا في بنائها رعاية العلم والاسترشاد به، واستنصاح الخبيرين فيه، حتى يضمنوا لما يقبلون عليه من مشروعات، حياة موفورة البقاء والنماء. وهل أبلغ في الدلالة على هذا الاتجاه الحميد من تلك المكافآت التي رصدوها للمتفوقين في الدراسات الاقتصادية في قسمي الليسانس والدكتوراه بكلية الحقوق، انهاضاً للهمم وحثاً للمجتهدين، وتسهيلاً على الباحثين في الشؤون العلمية الخالصة التي لا غنى للفنون العملية عنها. وهل دليل أوضح كذلك من الجمعيات العلمية التي يؤلفها موظفو شركات بنك مصر، وهذه هي الجمعية العلمية في شركة مصر للغزل والنسج ومجلتها التي تعتبر أولى المجلات المصرية التي تبحث في المسائل الفنية البحت. وهذه مطبعة مصر لا تتأخر عن بذل كل ما من شأنه أن يوسع من انتشار الثقافة، ويرفع من شأن كافة العلوم

كل هذه المجهودات وغيرها يبذلها بنك مصر لنهضة العلم في مصر بذلاً سخياً. فهو يدرّب ويربي ويعلم ويثقف كلما عرضت له الفرصة، بل كلما استطاع ان يخلق الفرصة لنشر ما يراه صالحاً لخير المصريين من المبادىء والتعاليم. ولم يقف بهذه الجهود عند المساهمة في التثقيف العام، ولكنه عمد الى أسرة البنك وشركاته، فهيأ لأعضائها كل ما يملك من وسائل الاستزادة من العلوم بكافة أنواعها. وفي هذا السبيل أنشأ في داره الفخمة مكتبته الثمينة لتكون في متناول موظفيه وموظفي شركاته يجدون فيها ما يستكملون به أسباب تعليمهم، وما يسهل عليهم أعمالهم بما يمدهم به من آخر ما وصلت اليه العلوم في شتى مرافق الحياة

ولقد يكون من الجناية على الحق والتاريخ، ان لا نسجل في هذه السطور، فضل صاحب

الفضل في انشاء هذه المكتبة القيمة . فهي لم تولد مصادفة ، ولكنها أسست بعد تفكير طويل وجمع دائب لثمين المؤلفات والمصنفات

واذا كان سعادة طلعت حرب باشا هو الذي عمل — مع الأبرار الذين استمعوا الى ندائه — على إقامة بنك مصر للمصريين، ثم على رسم الخطط الأساسية لسياسة المصرف القومي والمجموعة الاقتصادية الكبيرة الشأن والعدد التي استندت اليه ، وحرص في هذا السبيل على ان يشمل نشاطه ميادين المال والاقتصاد والاعمال وميادين العلم والفن في وقت واحد ، فانهُ هو كذلك الذي هيأ لبنك مصر ان تكون لهُ مكتبة قليلة النظائر — فيما نعلم — بين مكتبات المنشآت العامة في هذه البلاد

واذا كان يخطىء من لا يلتفت الى الصفة العلمية التي لبنك مصر وشركاته الى جانب الصفة العملية ، فان من لا يلتفت الى جميع وجوه هذه الشخصية الكبيرة التي تزعمت الاقتصاد القومي بحق واقتدار يخطىء كذلك أكبر الخطإ

جمع طلعت حرب باشا هذه المكتبة لنفسهِ أولاً . ولما كان يقدم دائماً أثره الضخم — بنك مصر — على كل ما عداه ، فقد وهبهُ إيَّاها، بجهود سنوات طويلة من جمع واستقصاء

وخصص لهذه النواة المباركة طابقين في دار البنك . أخذت تنمو فيهما — برعايته وتعهده — حتى أصبحت من أغنى المكتبات المصرية في شتى العلوم والفنون

وتحوى مكتبة بنك مصر الآن ما يقرب من الخمسة عشر الفاً من المجلدات العربية والأجنبية ، في جميع فروع المعرفة ، في الأدب والتاريخ والاقتصاد والمحاسبة واللغات والطب والهندسة والفنون الصناعية والزراعية والتجارية ، وفي الفلسفة والدين والاجتماع ، وفي كل ما يتصل بكافة المعارف الانسانية في مختلف البلاد وشتى الأزمان . هذا فضلاً عن مجموعاتها الثمينة ومخطوطاتها القيمة ، الى جانب هذا العدد الوافر من المجلات والمراجع والمستندات التي تصدر بمعظم اللغات الحية مما يردالها بانتظام . وقد بوّبت هذه المجموعة الضخمة من الكتب والمؤلفات والمصنفات والمراجع بطريقة علمية حديثة ، ورتّبت أنواعها وأجناسها وفصائلها ، وفهرست لها الفهارس ، ووضعت لها الجداول في نظام محكم سديد . كما أخذ في تبويب الصحف والدوريات وشتى المراجع المنتظمة الصدور بطريقة « التصنيف العشري » العالمية — وهي الطريقة التي وضعها المعهد الدولي للفنون المكتبية في بروكسل وأُخِذَ بها في جميع أنحاء العالم المتمدين — وهي المرة الأولى التي عملَ فيها بهذا النظام في مصر

هذه هي مكتبة بنك مصر — بعض آثار طلعت حرب باشا — عَلَمٌ على العِلْم ، ومورد للثقافة ، ومنهل لا يغيض لمن أراد استزادة من المعرفة

محكمة تأديب

تنبعقر في سوره

قصة اخلاقية للكاتب الاجتماعي ج . ن . بوبي

ليس من حرفة في عاصمة البلاد الفرنسية ، قد تمتّ الى منابت الشرف الحق بأمتن الأواصر وأوثق الروابط ، كحرفة أولئك النسوة سيدات السوق اللواتي يخفينَ تحت كلامهنّ المرسل على السجية ، وجفاء أسلوبهنّ ، نزعات الأنفس النبيلة ، ولزوم طبائع الاخلاص والكرم

ودارس الاخلاق الممعن المتقصي ، يجد في السوق صورة قد جمعت فأوعت من خسيس المشاهد ومؤثرها معاً ، تحمل على الضحك تارةً ، والاهتمام والعجب تارةً أخرى

وما أنسى لا أنسى ذلك المشهد الرائع البالغ الذي تملأت بهِ عيناي ، يوم تحالفت دول أوربا على أجنادنا المظفرة ، فردّتها لأول مرة ناكصة على أعقابها ، إذ صارت فئة قليلة تقاتل فئة كبيرة لا قبل لها بحربها . وكان (ميدان الابرياء) الفسيح يفيض باجساد الجنود بين شيخ وحدث ، جرحى قد ضرجوا بدمائهم ، ينزلونهم من فوق النقالات على عجل ، وكانت وجوههم ترهقها صفرة، قد بدا عليها الاعياء والتضعضع ، وكنت تقرأ في أحداق عيونهم الكيد والكمد مما أصابهم من خذلان واندحار ، وكان تساقط قوى البعض ، وخمود جذوتهم ، وما يتصاعد من أنين البعض الأليم الموجع ، والدماء الغزيرة التي لا ينقطع تدفقها من جروحهم ، كل ذلك كان يحرك رقة قلوب سيدات السوق ، فكنّ يحملنَ فوق كواهلهنّ أولئك الجنود المبتورة أعضاؤهم لا يراعينَ في ذلك رتبة ولا سنًّا ، ويطرحونهم فوق فرش مهيأة على عجل ، ثم يمضينَ مرقلات الى الأحواض يغترفنَ الماء في راحاتهنّ ليمسحنَ بهِ في رقة جروحهم المترقرقة بدمائها . ويضممنَ بين أذرعهنّ ، ويدفئنَ بانفاسهنّ الذين منهم أخذ برد الموت يفترّ أجسامهم. وكنّ يجأرن بالدعاء الى رب السماء ان يحفظهم ، ويثرْنَ شفقة الناس لاسعافهم ، ويجعلنَ من هذه السوق المعروفة الزاخرة بأشهى ما تخرجه بساتين فرنسا ، ضرباً من مستشفى عسكري

إن الرحمة والانسانية عند أولئك النسوة الفضليات واجب ولذة . وبرّ الآباء خاصة عبادة وتقوى . وانما نشأت هذه الفضيلة فيهنّ من مغالبة الصعاب والأحوال، ومعاناة الشدائد والمشاق ليدّخرن ما يكون منهُ لهنّ في شيخوختهنّ ، بعض الكفاف والغناء . وان الولد الذي يرى امهُ

تزايل مهده ، منذ الصباح ، والحسرات تقطع قلبها ، تمضي تقيم في دكان من ألواح الخشب تعاني فيها تقلبات الفصول ، ويجدها تعود اليهِ لتفيض عليهِ من حنانها وحدبها ، وتلقم على عجل طعاماً جشباً غليظاً ، ثم تقفل عائدة الى حانوتها الذي استودعتهُ الى حين ، احدى جاراتها ، ان هذا الولد الذي يقع في نفسهِ ما يلقى من حنان امهِ وحدبها الدائب ، والذي إذ يحصى ما تلقاه في سبيل ذلك من كد ووصب وبذل لتربية ولدها وإعالة قومها ، لتفيض جوانحه بالمحبة والاكبار النامين على كر الليالي . فيغرسان في قلبه وينميان صدق الرغبة في الوفاء لها يوماً . لهذا انت ترى لدى قُطان الاسواق ، الجم الوفير من شيوخ الرجال والنساء قد احاطهم ابناؤهم بأشد بر وأبلغ رعاية . يلاقون منهم ذلك الحدب وذلك الحنان الذي افاضوه عليهم يوم كانوا احداثاً ناشئين . وتجد لهم عليهم سلطاناً ونفوذاً باقيين ما بقوا هم في قيد الحياة

وذي قصة عجيبة محورها ذلك البر البنوي الذي استكنَّ في ضلوع بائعات السوق واستمسكن بوثيق عراه ، جمعت بين الموعظة والمثل الاعلى ، ملتزماً الدقة والامانة في سرد وقائعها كما جرت ، فانها بذلك حقيقة . عسى ان يكون في سردها حجة بالغة للذين علوا في الناس من ذوي الأبهة والمحتد ، اذ نرى كثيراً من السوقة قد استنوا لهم سنَّة ونظاماً خُلُقيًّا ، لا تجد مثله عند الخاصة ، ولا يمكن ان يجتمع على مثله اهل الوجاهة واليسار ، وأن محكمة الرأي العام هي احياناً أشد صرامة وأشد رهبة لدى أسافل الناس مما هي لدى اكابرهم

***

كانت لويزه حنة من أروج بائعات السمك في هذه السوق وارفههنَّ حالاً ، واجملهنَّ وجهاً ، واجذبهنَّ ملامح ، مع تلك الطلاقة والشقشقة وتلك السيرة التي لاعوج فيها ولا امت مما تمتاز بهِ اكثر نساء حرفتها . وكانت ابتسامتها المرحة الماكرة تنمّ على ارادة فيها قوية واستقلال يكاد لا يحفل بأدنى ما تقتضيهِ اللياقة . فقلما كانت تكترث بمن تحدثهُ نفسه بالوقيعة فيها ولوك سيرتها . فقد كانت ذات خُلُق ومحمود نقيبة ، وكانت بشهادة ضميرها راضية قانعة . بيد انها لفت بصرها واسترعى اهتمامها من ضمن اولئك الفتيان الكثيرين الذين يختلفون الى محلها ، ساعي بريد يدعى بروان . وهو غلام مديد القامة شديدٌ فكِه مراح ، محوط برعاية رؤسائهِ ، مستوثق بالترقية وزيادة المرتب ، ولما كاشفها رغبتهُ في الزواج بها ، دعتهُ الى منزلها وعرَّفتهُ الى ابيها . وكان أبوها واسمه الأب موران ، يشتغل مراكبيًّا في ميناء نهر السين ، واذ ماتت امرأتهُ كف عن العمل واقام لدى ابنته مع امه العجوز المقعدة التي كان جم الحب لها . يجد قرة عينه في توقيرها وحياطتها بأسباب الرعاية

ورحب ابو الفتاة بخطب ابنته وهش له مستبشراً مطمئناً ، وتحدد يوم العقد ، ولكن المراكي الشيخ مرض مرضاً شديداً مات منه . وكان في آخر ايام حياته لا اهتمام له الا بأمه والعناية بها . فلما حضرته الوفاة اوصى ابنته بالقيام مقامه لدى امه ، والتخفيف جهدها ، مما تعاني من آلام الزمانة[١] واكدارها

وكانت هذه الجدة الكريمة قد اصابها الفالج . وكانت تقضي ايامها جاثمة على مقعدها تحوك اذ كانت لا تزال تجد بقية من قوة ، ولكن كان لا بد كل يوم من انهاضها وإنامتها كطفل في المهد ، وكان لا بد من دفعها بمقعدها لدى النافذة لاستنشاق الهواء والانتعاش بأشعة الشمس . ثم كان لا بد من تجهيز طعامها ، والاحتمال احياناً لبوادر الغضب وقلة الصبر ، مما يكون عادة عند الذين بهم مرض او آلام ، والطاعة ولو لأهون ما تأمر به ، اذ كان موران ابنها قد عوّدها الحكم والتسلط . وللشيوخ بذلك هوى واستمساك . وموتُ هذا الولد الفطن اللبيب المنقاد لها ، زاد هذه العجوز المقعدة حنقاً وحدة

وقد احتملتها لويزه حيناً من الزمن لا مستثقلة ولا متذمرة ، إذ كانت لا تفتأ تذكر وصية أبيها الراحل . وكانت بما طبعت عليه من بشاشة وسرعة ردودها المفحمة ، تحمل جدتها على الابتسام وتغصبها على الضحك ، بل كانت كثيراً ما تخمد جمرة اوجاعها . بيد ان لويزه ، لما كانت مضطرة للذهاب الى دكانها في السوق، والتفرغ لشؤون تجارتها ، فانها أنابت عنها في خدمة جدتها ، صبية يتيمة في جوارها كانت تطعمها تصدقاً وزكاة ، فكانت الصبية تقوم بخدمة العجوز خير قيام

وانقضت على ذلك عدة اشهر والعجوز الكريمة لا تشعر بأدنى فتور في العناية بها والتوقير لها . ولكنها لم تلبث ان تبين لها ان لويزه امسكت عنها ما كانت تغدق عليها من تلطف وتبسط وما كانت تلقاه من برها البنوي واحتفالها بتلبية رغباتها وتخفيف اوجاعها . ولا شيء يسرع بالمرء الى التأثر والشعور بالاهانة من كونه عالةً على ناسه وقومه ، ولا شيء يضيق منهُ ذرع الانسان ويفسد عليه نفسه وخلقه كتحكم الاقدار فيه أن يُعنى به ، مَن كأنهم على العناية به مُعْنتون كارهون . وكانت لويزه ، وان كانت لا تقذف جدتها باية كلمة جارحة ، انما تقوم بخدمتها كأنما يؤودها حمل ثقيل ، وتضطلع بواجب عسير كتب عليها اداؤه ، وكثيراً ما تؤديه وهي متبرمة باداثه متضجرة . وما لبث التذمر ان اعقب السكوت والكظم وما عتمت العجوز موران ان زكنت سر هذا التذمر ، وانهُ أثر الفتور امسى يقابل به ساعي البريد خطيبته التي صارحها بانهُ لن يكون

(١) عجز او علة تزمن

لهـا بعلاً ، ما دامت جدتها معها ، وان من كانت في مثل زمانتها وعجزها لتتطلب عناية بليغـة واهتماماً بها شديداً وان خلقها الذي ساء واستعسر لا قبل له باحتماله

ولبثت لويزه حيناً تجالد في موقفها هذا بين جدتها وخطيبها ، ولـكنها لم يسعها الاّ الاذعان والتسليم . وقد ابدت جدتها نفسها رغبتها في الخلاص مما تقاسي من ألم التثقيل على حفيدتها والاعنات لها في خدمتها . فطابت نفساً بالذهاب الى احد الملاجيء فتكفل لها حفيدتها اسباب العناية وتحوطها بضروب الحنان والتخفيف جهدها . وما قيمة الوعود في مثل هذه الحالة . انما تأتي على قدر الرغبة في الخلاص مما يثقل علينا حمله ويشق علينا اداؤه

وما لبثت العجوز المفلوجة ان حملت الى بعض ملاجيء باريس منقطعة عن الاهل والاصدقاء يلي امرها اولئك المرضون والملاحظون الذين توزعت عنايتهم وتشعبت خدمتهم بين العدد الـكبير من هؤلاء العجزة ، فما يصيب كل واحد منهم الاّ جانباً ضئيلاً من تلك العناية . مسكينة ايتها المرأة ! كم تشعرين الآن بشدة آلامك وثقل وطأة ما يرهقك من عجز وسوء حال ! وما اشد ما احاط بك من حرمان ووحدة كوحدة القبور قاصمة !

على ان لويزه لم تكن تألو جهداً في زيارة جدتها في مشرق كل نهار ، حاملة لها من الطيبات والمناعم ما عساه يحلي مرارة عيشها ويهوّن بعض شدتها . وكانت تنهضها بنفسها ، وتساعد على جلوسها . وتوصي بها الممرضين رحمةً وبرًّا . بل لقد رآها الناس غير مرة تنهمر الدموع من مآقيها اذ تفارق جدتها وتغادرها طريحة الوحدة ، فريسة البث والمضض ، وتصعّـد زفرات اللهفة والحسرات ، ثم اذ تودعها بنظرة أخيرة متحيّـرة مشفقة ، تعود الى السوق تأخذ منها موضعها حيث لا تلبث مشاغلها وحضور ساعي البريد ان يمحو من بالها ما كان من امر جدتها

وما انقضت بضعة اسابيع منذ طرحت لويزه جدتها في المستشفى ، حتى نزلت بها نازلة ، وألم بها خطب شديد فعلمت ان الخارجين على حقوق الطبيعة المقدسة لا بدَّ ينالهم القصاص العدل ذلك ان انقيادها لخطيبها والمسارعة في اطاعة أمره واخراج جدتها من بيتها ونبذها في ذلك الملجإ ، ذاع بين جميع بائعات السوق ، ولهؤلاء السيدات ما يشبه محاكم العشائر . تشريع محـكم يقضي في كل ما يتعلق بكرامة الطائفة وشرفها وامتيازاتها . واحكامه نافذة لا تنقض ولا تخالف

فذات صباح اذ كانت لويزه في حانوتها تعرض على الشارين احسن ما لديها من الاسماك وهم بسحر حديثها مأخوذون ، إذا بها قد احاط بها رهط من اقدم بائعات السوق ، واخذت احداهنَّ تسألها هل حقٌّ ما بلغهنَّ من امر طرح جدتها في ملجإٍ

فقالت ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل ، وهي تجاهد في كتمان اضطرابها : ياعجباً لـكنَّ ! ومالـكنَّ وهذا الأمر ؟

فقالت كبيرتهن : ما لنا وهذا الامر ؟ إن لنا أن لا نذر بيننا ابنة جاهرت بالعقوق . تأبى على والديها ما تلقته منهما وهي طفلة ناشئة . قولي لنا يا لويزه ما فعلت بجدتك ؟

قالت : لكن ما منكن احد بحسيب عليَّ

— إنا جئنا موفدات من قبل جميع زميلاتنا بائعات الزهور والفاكهة والسمك ومن ضمتهن السوق في رحابها وجنباتها ، تنذرك بالاقلاع عن موضعك هذا او يُعَطْعِط[1] بك من في السوق ويلطخون وجهك بالوحل إن عادت بك قدم الى هنا

— فقالت المحكوم عليها متلجلجة تحاول كتمان اضطرابها : إن هذا لأمر مريب ! ما حكومتكن هذه الجائرة ! أيسوغ لكن حرماني من عملي ؟

— تعاطيه في مكان آخر . فما أكثر الاسواق في باريس

— ألكن ان تتداخلن في امري وتخضن في سيرتي وشأني ؟

— نعم . ان مسّنا من سيرتك ضير

— وأن تقضين بعاري وفضيحتي

— نعم لندفع عن انفسنا العار والفضيحة . وبعد ، لما كنت قد ضحيت بجدتك ارضاء لشهوة خطيبك وانقياداً لارادته ، ونكثت بالعهد الذي واثقك به ابوك الراحل ، فركبت سوأة النبذ لأمه المفلوجة في بعض الملاجيء ، فقد حرمك اهل السوق من رعايتهم وطردوك من حظيرتهم . ولا يمكنك البقاء بين الصالحين الذين حسنت سيرتهم ممن ضمتهم هذه السوق بين اكنافها

—ومن انبأكن انه في مقدوري ان ابقي جدتي عندي، وآتي لها بممرضة تقوم على خدمتها ابداً

— عذر اقبح من ذنب . انك لأنفق سلعة وأروج بياعة من كل بائعة سمك في هذه السوق. وانك لتربحين في يوم ما يقوم بنفقة بيتك واهلك اسبوعاً

ثم قالت كبيرتهن وهي تومىء الى ما تزينت به لويزه وتبهجت من حلى :

يا ويحك ! أفتجسرين ان تطوقي عنقك بقلادة تُقَوَّمُ بخمسمائة فرنك ، وتتقرطين بقرطين ثمينين، وعلى رأسك عصابة من نسج نفيس ، ثم تطرحين جدتك في ملجإ !.... يا زنيمة يا عاقة !... أعزبي من وجهنا ، حبلك على غاربك .أقيمي حيث شئت الا هذا المكان ، قد لزمك عارك والندم على جريرتك

وتعالت اصوات النساء اللواتي اجتمعن من اركان السوق لمشاهدة ذلك الحادث الغريب ، في لحظة واحدة تقريباً يقلن :

---

(١) من العطعطة وهي حكاية صوت المجان اذا قالوا عيط عيط وذلك اذا غلبوا قوما

— نعم . نعم . فلتعزب على عجل . لقد أخلت بأقدس الواجبات ، وخاست بالعهد وخلال الشرف . تالله ما منا احد يرضى ان تقيم بيننا . بغيض والله الينا مقامها وحلولها ، تغثى منهُ نفوسنا وتمعض ، وان فيهِ لمثل سوء لاولادنا يحملهم يوماً على العقوق والزراية بنا.... فلترحل الساعة ولتذهب الى حيث ألقت

وحاولت السماكة المسكينة دفع هذا الحكم الذي نطق بهِ رفيقاتها ، ومغالبة لَمْـز (١) المجتمعين وصخبهم من حولها عبثاً . فما وسعها الاَّ الانصراف ودمع عينيها سيل منهمر ، وحمرة الخجل تغشى وجهها . تمشي متخاذلة ، نادمة سادمة ، ولكن لات حين مندم . لقد تعجلت في الانقياد لخطيبها . ولكن عسى ان يكون لها من حبه وزواجه بها ، عما لحقها من اهانة بالغة وخسارة متجرها النافق الرائج ، عوض وخَلَف جميل ! ولكن هيهات . انها ما لقيت بعد الاَّ بعض ما حقَّ عليها من قصاص

ذلك ان ساعي البريد ، إذ علم ما حاق بها من إهانة وتحقير على ملأ الناس . ولا سيما ذلك الحكم الذي قضى بهِ عليها اهل السوق كافة ، اخذ حبه لخطيبته يختل ويذوي يوماً فيوماً . ذلك ان المحبة بغير احترام لا تدوم . فجعل بادىء ذي بدء يتباطأ في رؤيتهِ لها ، وشرع يختلق ضروب المعاذير لتأخير زواجه بها . وكان منتهى امره ان صارحها باستحالة زواجه بفتاة امست مهزأة ومضغة في افواه الناس ، فانه بذلك يتعرض لضياع وظيفته ، ولا سيما ما استوثق منهُ من امر زيادة مرتبه ورفع درجته . فصرم حبلها ونأى عنها رغم اعترافه بانهُ كان شريكاً لها في ماصنعت

فما وسعها الاَّ ان تمضي تقيم في احدى اسواق باريس النائية عن السوق الكبرى ، فما صادفت ذلك الرواج والنجاح . وما لبث موت جدتها المسكينة التي اعجزها ان تغالب اشتداد كربها وبثها اذ نبذت في احد الملاجيء ، ان ضاعف ندمها وأجج غمها ، فاذا هي كئيبة قد ذهب عنها مألوف بشاشتها ، واضطرت ان تبيع بعض السمك المملح او سمك الماء الحلو في احدى ضواحي العاصمة حاملة سلعتها من حي الى حي . واخذت تهوي في حالة شبيهة بالبؤس والخلَّة . وما لبثت ان مُنيت بعلة مستعصية بسبب ما استكنَّ في نفسها من غم وكمد شديد ، وهي التي كانت لا تسعها الدنيا مرحاً ورتوعاً (١) فما وجدت الاَّ ان تأوى الى احد المستشفيات حيث ذاقت هجر الاهل والصحاب . وادركت اخيراً ان الله يسم وجوه العاقين من الابناء بوصمة المطرودين المنبوذين ، ويبتليهم عاجلاً او آجلاً بالوحدة القاسية التي أوقعوا فيها آباءهم

[نقلها : أحمد أبو الخضر منسي]

(١) السخرية (١) نعمة العيش وغضارته

المبحث الخامس

خليل مطران
شاعر العربية الابداعي

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكادمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

العصر والرجل

﴿ توطئة ﴾ قلنا ان العصر الذي نشأ فيه خليل مطران كان عصر تحوّل في تاريخ المشرق. ومن هنا كان هذا العصر يسمح للعبقريات ان تظهر وللعقول ان تبدو على حقيقتها وقد أخذ الصدأ الذي تراكم على أذهان أهل المشرق ينجلي تحت تأثير مدنية الغرب الجارفة. ولا شك ان طبيعة الخليل الفنيّة من حيث كانت تتخذ من العالم الخارجي ما تفيض بهِ من صور الحياة على الفكرات والخلجات التي تساوره، كانت تتقوّم بطبيعة عصره المتقلقلة، التي كانت حافلة بصور الحياة وألوان الإحساس. وهكذا كان عصر الخليل صالحاً أيما صلاحٍ لظهور خليل مطران برسالته الشعرية الإبداعية. ومما لا ريبة فيهِ ان الناحية الشاعرية عند الخليل تطغى على بقية نواحيهِ. وشاعريته وان وجدت من العصر ما يساعدها على النضوج، فان الرجل لم يكن ليجد من العصر ما ينضج شخصيته ويجعله أهلاً لدخول معترك الحياة. ولا ريبة ان لطبيعته الفنية أثراً في هذا النكوص الذي كان من أسباب خمول ذكر الخليل في عصره

على أننا حين نتكلم عن هذا الخمول، فإنما نتكلم عن حقيقة لا يتنازع في شأنها. فالرجل خامل الذكر، لان ذكره على الوجه الذي هو عليه من عصر، أضعف من ان يتسق مع خصائص شاعريته، التي لو وجدت في واحد من الذين ينتهزون الفرص ويحسنون خوض معارك الحياة، لبلغ من ذيوع ذكره وشيوع شعره مبلغاً لا يدانيهِ أحد من معاصري الخليل. على ان هنالك بعد ذلك حالات فردية، لا تناقض ما تلبسها من الأثواب، الحالة العامة.

---

(١) أبو شادي — قطرة من يراع في الادب والاجتماع . ج ٢ ص ٣٣

فقد شعر بعض الأفراد بقوة شاعرية الخليل التي لاتجارى من ناحية الخيال والتصوير الشعري، فحفظوا للرجل مكانه من عصره . ولكن مثل هذه الحالات لا تقوم دليلاً على ذيوع ذكر الرجل في عصره الذيوع الطبيعي الذي يكافىء خصائصه

على أن هناك أسباباً أخر وقفت في وجه الرجل وذيوع ذكره اجتمع فيها العامل العنصري مع العامل الديني

اذن فالعصر الذي عاش فيه الخليل وان كان مبرز شاعريته ومجلى فنّه ، الاَّ انهُ كان يقف في سبيل ذيوع اسمه ، والاعتراف بفضله على فن الشعر ، لاسباب يتصل بعضها بشخص الخليل ، والبعض الآخر بما يماشيها من اتجاهات العصر

ليس لنا ان نبحث ونحن بصدد العصر والرجل ، ماذا كان الخليل لو لم يكن شاعراً ؟ ان ان مثل هذا البحث وان كان مجدياً في اظهار نواحي الرجل الاَّ انهُ يقوم على اساس من النظر المجرد لا يسمح بهِ الواقع المحسوس . فيكفي ان يكون الخليل وجد شاعراً لنقول انهُ لم يكن في مستطاعه ان يكون شيئاً غير شاعر . ذلك ان طبيعة الرجل فنية اتصلت بأسباب جعلته يتحول بمنحاه الفني نحو الشعر . آية ذلك أنك تجد طبيعة الرجل الفنية تخلق المواد الشعرية من الطبيعة الخارجية وتسيطر عليها بفكرة متسقة مطردة جزئياتها ، حتى تستوعب الحياة وتطبعها بطابعها الخاص ، ممثلة اياها في صورة العصر التي ادركت نفسها في شخصه

اذن من خطل الرأي ، البحث في الرجل وأي شيء يكون لو لم يكن شاعراً ، لان طبيعة الرجل الفنية لا تجعله غير شاعر

— ١ —

يقول الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب المصرية :

«مطران ثائر على الشعر القديم ناهض مع المجددين وهو قد سلك طريق القدماء فلم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اضطر فعاد اليه وحاول ان يعود اليه مجدداً لا مقلداً . وهو ينبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم لتتبين به مقدار ما وصل اليه من التجديد وهو متواضع لا يزعم انه بلغ من التجديد ما يريد وانما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف وانما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه ان يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وانما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها في حرية كما يتأثر القدماء في اطلاق فطرتهم على سجيتها ، يكظم فطرته ولا يغشيها بالاستار الخداعة الخلابة . وهو فني له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن

(١) I. A. Edham في ثقافات الشرق الادنى — مجلة مجرى الفكر — استانبول م٣ ج٤ ص ٣١٠ — ٣١١ وجريدة برافدا بموسكو — مبحث التقليد وظاهرة الجمود في مصر الحديثة — عدد ٤ — ١ — ١٩٣٩

واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم لانه يمثل شيئاً من المثل الاعلى الفني في هذا العصر فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الابيات وتتنافر وتتدابر ويريد ان تكون القصيدة وحدة ملتئمة الاجزاء» (١)

ولهذا يرى الدكتور طه حسين ان مطران ليس من الطبيعي ان يكون خلفاً لشوقي في امارة الشعر . لأن مذهب مطران في قول الشعر يباين مذهب شوقي . وهذا كلام ظاهره جميل يعتذر عن طه حسين حين كتب عقب وفاة أحمد شوقي أن امارة الشعر انتقلت بعد وفاته من مصر الى العراق . ولكنهُ لا يبين كيف انتقلت امارة الشعر من العراق بعد ذلك على يديه فوضعت على مفرق شاعر مصري يباين مذهبه في نظم الشعر كل المباينة مذهب شوقي . وهذا دليل آخر يتسق مع كلامنا من ان الخليل لم يحظ من أسباب عصره بما يذيع ذكره

هذا وكلام الدكتور طه حسين وان كان صادقاً في عمومه لكنهُ ليس بكل ما ينبغي ان يقال في مطران ، إذ ينقصهُ الاشارة الى الطبيعة الفنية ، وهي كل شيء في الشاعر

هذا والاستاذ احمد الشايب مدرس الادب العربي بجامعة الاسكندرية يقول :

«ليس مطران عندي شاعراً من هذا النوع الذي يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً ، وانما هو طراز جديد في الشعر العربي . هو شاعر العقل والشعور جميعاً . وقلما تجد هذا النوع بين السابقين وان حاول بعد المعاصرين ان يكونه . مطران فيما ارى عالم وأديب معاً . وهو اذن ناقد ، واذا كان لا بد من الافصاح فيجب ان نلاحظ ان الثالوث المقدس — الذي جمع بين حافظ وشوقي ومطران على زعامة الشعر الحديث — ليس متحد المزاج والطبيعة وان تجانس في الدرجة والتسامي ، فهم شعراء كبار يتفقون في ذلك ولكنهم يتمايزون بعد ذلك في كل شيء او في اغلب الاشياء . فاذا كان لحافظ سرعة البديهة وحلاوة النفس وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها ، فان لشوقي براعة الغناء . وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وان لمطران صحة الفكرة ، ووحدة القصيد ، وصدق النظرة ،والثقافة الشاملة ، وسماحة الطبع وسمو الاخلاق . ومعنى هذا المرة الثانية ان مطران ليس شاعراً فقط او هو شاعر من هذا الطراز المثقف ، هو عالم وأديب . صياغة بديعة وشعور صادق ، وخيال عام . وأفكار سديدة . فاذا التمست عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمسه عند مطران والتمس معه اللذة العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة او غذاء النفس جمعاء . مطران هو الخطوة الموفقة السابقة امام شكري وأبي شادي والعقاد والمازني وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة» (٢)

وهذا كلام صادق إذ هو يعدد المناحي الشكلية لاتجاهات مطران الفنية ولكن ينقصهُ الكلام عن معنى الطبيعة الفنية عند مطران . الاَّ انهُ من وجهة عامة يمكن ان يقال انهُ توفق اكثر من الدكتور طه حسين في تعديد المناحي الشكلية لاتجاهات مطران الفنية

والاديب أسعد الكوراني يقول :

« من الانصاف للادب والتاريخ ان نقول ان خليل مطران رأس حركة جديدة في تاريخ الآداب العربية ، وانه قد حول مجرى الشعر العربي من الذاتية الى الموضوعية فكان شعره متحد الاجزاء كامل الوحدة» (٣)

---

(١) طه حسين : حافظ وشوقي ، ص ١٧ (٢) احمد الشايب في ابولو ، م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧—١٣٠٨
(٣) اسعد الكوراني في الكلمة ، م ١٣ (تشرين الثاني وكانون الاول) حلب ١٩٣٨ ص ٤٦٩

وهذا كلام يتسق معناه مع ظاهر المناحي الشكلية التي عددها الاستاذ الشايب من اتجاهات مطران الفنية ولكن ينقصه الكلام عن وجه تقوّم شاعرية مطران من الوجهة الموضوعية التي ولاَّها

ومن الانصاف ان نقول هنا ان كلام الاستاذ الشايب والاديب الكوراني من أعمق ما قيل في مطران . وبعد ذلك تبقى بعض آراء وان كانت لها قيمتها في اظهار بعض المناحي الشكلية لفنّ مطران، الاَّ انها تقصر من جهة اخرى في الدلالة على روحه . من ذلك قول الدكتور ابراهيم ناجي

«الشعر موسيقى واقناع وخيال وصور . وشعر حافظ موسيقية فقط ، والثلاثة الباقية : الاقناع والخيال والصور غير موجودة ، ومطران لا يعنى بالموسيقية كثيراً ، ويعنى بالخيال والصور » . « على ان الخيال واطلاق العنان للتصورات العالية لا للاستعارات والكفايات اللفظية كثير في شعر مطران ، يزخر به ويعلو الى آفاق هائلة » . « ومطران في شعراء العربية ممتاز في هذا : فله قصائد منفردة منقطعة النظير في الصور ترسمها وتنقلها الى الاذهان . خذ مثلا قصيدة « فتاة الجبل الاسود » ، او قصيدة « الجنين الشهيد » وأدبه في العموم مشرق عال مطبوع بطابع الخلود » (١)

وللدكتور احمد زكي ابو شادي رأي في شعر مطران له قيمته ، فهو يقول :

«الميزة الخاصة بشعر مطران نظرته الشاملة للحياة ، بحيث انه يجد اي موضوع — مهما كان تافهاً في ظاهره — صالحاً لان يكون مادة شعرية قيمة ، فالشاعر الحقيقي هو الذي يخلق الموضوع الشعري ، وليس الموضوع هو الذي ينجب الشاعر » (٢)

وفي هذه العبارة الوجيزة يكشف ابو شادي عن الطبيعة الفنية لمطران . وهو يذهب يعدد مناحي شاعرية مطران من الناحية الشكلية ، وهو موفق في هذا التعديد ، الاَّ انهُ لا ينتهي بهِ الى بيان وجه تقوم شاعريته من الطبيعة الفنية . وابو شادي يذكرنا موقفه هذا موقف الاستاذ الشايب ازاء مطران

وهنالك رأي لانطون بك الجميّل رئيس تحرير الاهرام في مطران يمكن ان نلخصهُ في قوله :

« شعر مطران كرسم تتمثل لنا فيه تفاصيل حياة صاحبه . وان هذا ربما كان سر أكثر محاسنه وبعض معايبه ، أعني ان هذا ما جعله مبتكراً في ابراز مكنونات صدره لانه لا يصف الا ما يشعر به ولا ينظم الا عواطف قلبه أي شعوره ، ولهذا فشعره « شعر شخصي » بكل معنى الكلمة . . . لكن ذلك أحياناً يجعله غير مفهوم عند العموم فلا يقف على جليته الا من كان له المام بحياة صاحبه . فكنا نتمنى حينذاك ان ننسى خليلا ولا نرى الا رجلا ونشعر أننا نحن هذا الرجل ، ولعل ذلك ما دعا البعض الى اتهام شعر الخليل بالتعسف . ونحن في بعض قصائده كنا نرى ضياءه من خلال غيوم — غيوم شفافة لا تحجب ذاك الضياء الباهر لكنها تخفف من لمعانه — بيد أننا كنا نرى شمس العواطف لا تلبث ان تمزق أديمها فتعود تسطع بلا كاف في سماء مخيلته » (٣)

ويؤخذ على هذا الكلام انهُ يخطىء في تعيين نوع شعر مطران ، حين يقول بأنهُ « شعر شخصي » والواقع عكس ذلك فشعر مطران غير « شخصي » subjective — لانهُ وان كان ذوب نفسه فانهُ

(١) ابراهم ناجي في أبولو م ١ ج ٤ ص ٣٥٥ — ٣٥٧ (٢) أبو شادي في اصداء الحياة — الاسكندرية ١٩٣٧ ص ٦ — ٢٥ وعلى وجه خاص ص ١٣ و ١٥ (٣) أنطون الجميل في الهلال م ١٦ ج ٩ (يونيه ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٩ وعلى وجه خاص ص ٥٣٨

يلبس صورهُ من الطبيعة لا من النفس . فالشعر وان كان عند مطران ذوب النفس الاَّ انهُ موضوعي objective لانهُ يلبس صوره من عالم الموضوع . ويكاد يتمثل للذهن شبحاً بتهاويله وتصاويره ومبالغاته . وهذا ما انتبه لهُ الدكتور ابو شادي (١) فيما كتب عن مطران

من هنا نرى أن الآراء تكاد تكون قد أجمعت على تقديم مطران على زميليه شوقي وحافظ من الوجهة الفنية (٢) على انهُ رغم هذا لم تعرف مزاياه معرفة تامة من معاصريه . ولم يذع ذكره الذيوع الذي يتكافأ ومزاياه وخصائصه وبعد ذلك يبقى أدب الرجل أمام الأجيال القادمة كاكبر محاولة جرت في تاريخ اللغة العربية بالانتهاء بالشعر العربي الى مكان بين الشعر العالمي يناسب مقام العرب في التاريخ واللغة العربية بين اللغات

— ٢ —

تكاد تكون كل أخبار خليل مطران وتاريخ حياته ، معروفة صحائفها لأصدقاء الرجل وخلانهِ وهم كثر من الأحياء المعاصرين . الاَّ ان هذه الصحائف لم تسجل . وما سجل منها يقف عند حدّ التعميم ولا ينتهي الى حدّ التفاصيل التي تربط بين حياة الرجل وشعره . ونحن يمكننا ان نرد جميع المصادر التي لها صلة بحياة الخليل الى ثلاثة أصول : ما كتبه الخليل عن نفسه ، وما رواه معاصروه عنهُ ، وما نطق بهِ شعره من وقائع حياته

اما عن الأصل الاوّل . فلم يكتب مطران شيئاً يذكر . وقد سألناه مرتين أن يكتب الينا المامة بحياته . ولكنهُ في كل مرة كان يعتذر . حتى جعلنا نولي بالبحث وجهة ، هي أقرب الى دراسة أعلام العصور الغابرة منها لأحد النابهين من المعاصرين . وقد يكون معذوراً في عدم كتابتهِ . ولكن ما عذره حيال نفسه وأدبه ازاء الأجيال القادمة ، وهو يفوّت الفرصة لراغب في دراسة حياته على وجه من التحقيق العلمي . على أنهُ بعد ذلك هنالك بعض فقرات تتصل بحياة الرجل ترد عرضاً في بعض ما كتب ، لو جمعتها بعضها الى بعض لم تدلك على صورة واضحة منسجمة عن حياة مطران ، الاَّ انها بالإضافة الى ما رواه معاصروه وما يمكن ان يستخلص من شعره تعطيك صورة عمومية عن حياة الرجل ، ان حاولت ان تنزل منها الى التفاصيل ، لم تأمن الزلل والوقوع في اخطاءِ الاستنتاج

ونحن يمكننا ان نلخص القول هنا بخصوص الأصل الثاني من المصادر التي عرضت لحياة مطران ، بأنهُ ليس من المصادر التي تحت أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الاَّ بضعة أسطر كتبها الدكتور احمد زكي ابو شادي عام ١٩١٠ في مجلة حدائق الزهور ثم ضمنها فصلاً من كتابه

(١) أبو شادي في اصداء الحياة — ص ١٨—١٩ (٢) أنظر كذلك العقاد في شعراء مصر وبيئاتهم — في ذيل الكتاب

« اصداء الحياة » ، وهذه السطور يمكن ان نوجز القول فيها فيما يلي

ولد خليل مطران سنة ١٨٧١ ، فهو لم يتجاوز الاربعين من سني حياته ، ومع ذلك فهو مكثر منجب ، وقد أنشأ (المجلة المصرية) وهو في الثامنة والعشرين . واتم الجزء الاول من (ديوان الخليل) بعد ذلك بعشر سنين على حين أنه لا يحوي الا قطرة من فيض شعره . وقد حرر في صحيفة (الاهرام) وأسس (الجوائب المصرية) وله كتاب (مرآة الايام) وهو سفر شائق في التاريخ العام . فحياته كلها نشاط ادبي» (١)

وانت كما ترى في هذا الكلام ، التعميم يغلب التخصيص . وماذا يفيدنا هذه السطور في معرفة حياة الرجل . على أننا نذكر لصديقنا الصحافي المعروف توفيق حبيب الذي يكتب زاوية هامش الصحافي العجوز في (الإهرام) بعض الكلام عن مطران ، حدثنا بهِ عصر يوم الاثنين ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨ في مجلس ضمَّ معنا الدكتور احمد زكي ابو شادي والأستاذ سامي الكيالي محرر مجلة الحديث الحلبية ، نذكر منهُ هذا الكلام : —

« نشأ خليل بك مطران من أسرة ثرية في بعلبك . وتعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . ثم مال ككل ابناء عصره من أهل سوريا الى الاشتغال بالتجارة ، فخرج من بيروت وهو شاب ليسافر الى تونس ومنها الى أوربا للتجارة . الا أنه مني بالاخفاق في محاولته هذه ، فرجع الى مصر في طريقه الى بيروت ، وتصادف ان كان يوم وصوله الى الاسكندرية يوم وفاة سليم بك تقلا . فسمع بالخبر ، فجلس وكتب مرثاة للرجل . وخرج مطران مع من خرجوا لتشييع جنازة الفقيد ، وبعد ان ووريت جثته في التراب . وقف مطران ضمن من وقف يلقي مرثاته . فما بلغ من مرثاته البيت الثالث حتى سمرت أقدام المشيعين للجنازة وقد التفتوا لهذا الشاب الشاعر وقد تولاهم الدهشة والعجب

وكان من ضمن المشيعين لجنازة الفقيد أخوه بشارة تقلا باشا صاحب جريدة (الاهرام) ; وطلب من الشاعر الشاب بعد الانتهاء من مراسيم الجنازة ان يمرَّ به في ادارة الاهرام . فما عرف من أمر مطران ما كان ، ومن شأن أسرته مقامها حتى عمل على جعل خليل مطران نائباً عنه في القاهرة — حيث كان هو في ذلك الحين بالاسكندرية ، حيث كان يصدر عنها صحيفة « الاهرام » وقتذاك — وتعرف مطران بكبار رجال مصر في القاهرة . وسرعان ما احتل مكانة بارزة في هيئة المجتمع المصري بأخلاقه الكريمة وسجاياه الطيبة وأدبه العالي . وكانت له في الاهرام كل أسبوع مقالة ، في شأن من الشؤون السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية او الادبية . وكان لمقاله شأن كبير عند الادباء وصفوة القراء . وكان لا يقاس بها في ذلك الحين مقال لكاتب آخر غير ما كان يكتبه دياب بك في صحيفة المؤيد

وحدث ان انتقلت صحيفة « الاهرام » عام ١٨٩٩ من الاسكندرية الى القاهرة ، ورغب صاحبها بشارة تقلا باشا في ان يجعله رئيساً للتحرير غير انه أبي ورفض ، حتى يحفظ لنفسه حريتها في التفكير والعمل ولا يكلفها قيود هذا العمل . وظل مطران يشتغل محرراً ممتازاً في الاهرام . وكانت موارده من الصحافة كثيرة ومن أشغاله الخارجية غير قليلة ، الا أنه على كثرة دخله كانت نفقاته كبيرة ومردُّ ذلك الى بسط يده للمعوزين والذين ضاقت بهم الاحوال من الادباء

كان خليل مطران يقيم في هذه الفترة من حياته في « أوتيل الخديوي » Khedivial Hotel ويقضي ساعاته في محل مدام باربيه Madame Barbier التي كانت تقوم تحت الفندق ، والتي تقوم اليوم على أنقاضها محلات « سليم صيدناوي »

وفي عام ١٩٠٠ أنشأ مطران صحيفة نصف شهرية هي « المجلة المصرية » وكانت تصدر عن الادب المحض ، وبذلك كانت أول مجلة مختصة بشؤون الادب في تاريخ الشرق . وقد صدر منها أربعة مجلدات ، تجد فيها جميع شعر اسماعيل صبري وجانباً كبيراً من شعر أحمد شوقي . وكان أكابر كتاب العربية في مصر يساهمون في الكتابة فيها ، نذكر منهم اخوه جورج مطران الذي كان يتناول المواضيع القصصية والتجارية .

(١) أصداء الحياة — ص ١١

ومن الشعراء الاحياء الذين نشروا فيها شعرهم ابراهيم رمزي واحمد رمزي وعبد الرحمن جميعي

وحدث في ذلك الحين ان أصدر جندي بك ابراهيم صحيفة « الوطن » جريدة يومية وضم اليها بادىء ذي بدء نخبة من المحررين الممتازين ، كان منهم مع مطران وابراهيم سليم النجار ، غير ان ضعف الصحيفة جعل مطران ينصرف عن التحرير فيها

وفي عام ١٩٠٢ أنشأ مطران مع أخيه جورج صحيفة « الجوائب المصرية » وهي صحيفة يومية ، اشترك في تحريرها الشيخ يوسف الخازن . الا ان عدم اقتدار مطران وأخوه جورج على ادارة الجريدة من الناحية الاقتصادية عملياً ، جعلهما يسلمان أمر ادارتها من الناحية المالية الى جماعة من الناس واحداً وراء واحد ، نذكر منهم عطا بك حسني . وكان نتيجة عدم اشراف الاخوين على شؤون الجريدة المالية ان غلبت خسائرها مكاسبها فاضطر خليل مطران ان يحجبها

على انه يمكن ان يقال أن صدور جريدة محايدة لاتميل مع الاحزاب كان من أسباب القضاء عليها ، لان كونها محايدة ان ارضى الكبار ، فانه لن يرضي عامة الناس وهم قراء الصحف وعمادها

في تلك الفترة أصدر مطران كتابه (مرآة الايام) في جزئين وهو سفر جليل في التاريخ العام : كما انه جمع (مراثي الشعراء) لسامي باشا البارودي في كتاب وفاء للرجل

وقد كتب مطران في ذلك الحين جملة روايات تمثيلية ، كما بدأ في ترجمة مسرحيات شكسبير من الفرنسية الى العربية ، الا أن ثمرة ترجمته لم تبد الا بعد الحرب العظمى

وخليل مطران من أرسخ الناس قدماً في الادبين الفرنسي والعربي ، يعرف الادب العربي القديم كأحسن المتخصصين فيه . كما أنه مطلع على الادب الفرنسي كأحسن ابنائه اعتناء بدراسته . على أن مطران متعدد النواحي ، فهو فنان ضرب في الشعر بسهم وافر ، حتى انك لاتجد ضريعاً له في اتجاهاته الفنية في الشعر ، لامن معاصريه ولا من الذين نشأوا في الجيل الذى أتى بعده : كما انه صاحب فن في الكتابة المسرحية وشؤون التمثيل ، وله عدة مسرحيات من أروع القطع المسرحية العربية . وهو الى هذا صاحب اقتدار في فهم شؤون التجارة والمال . وقد اشتغل في التجارة كثيراً ، فكسب وخسر ، وميله للاتجاهات المالية جعل له دربة في الشؤون الاقتصادية ، حتى لقد كلف وضع البرنامج التأسيسي لبنك مصر . ومن مظاهر اتجاهاته الاقتصادية ترجمته مع حافظ ابراهيم كتاب « الموجز في علم الاقتصاد » وهو كتاب ليس لحافظ ابراهيم منه غير الاسم ، قام بترجمته كله مطران . هذا ومن مناحي مطران المتعددة كلفه بالمسائل الزراعية ، وهذا الكلف تظهر آثاره في صحيفة « المجلة المصرية » حيث كان يفرد فيها باباً خاصا للشؤون الزراعية . وهذا الكلف اعطاه مقدرة وكفاءة جعلته يؤسس النقابة الزراعية المصرية . وهو الآن يشغل منها منصب السكرتير المساعد . على اننا اذا ذكرنا كل هذه المناحي لمطران في الشعر والحركة المسرحية وعالم التجارة والمال وشؤون الزراعة فيجب الا ننسى ناحية مهمة من مطران تتصل بحركة التمثيل المسرحي الشيء الذي يتقوم باتجاهه الفني لكتابة المسرحية . ومن مظاهر نشاط مطران في هذا الميدان أن أسس دار التمثيل العربي قبل الحرب ، كما شغل رئاسة الفرقة القومية المصرية للتمثيل

والواقع انه لايوجد اليوم من الاحياء من هو في نشاط مطران ، وان كان يذكرنا بنشاطه تلميذه الدكتور احمد زكي ابو شادي بنواحيه المتعددة : في البكتريولوجيا والشعر والادب والنحالة والصناعات الزراعية وتربية الدواجن وشؤون الاجتماع والاقتصاد

ومما يذكر عن مطران ان المذكرات التي كان يضعها رجال المال والاقتصاد في مصر كانت تعرض عليه ، كما كانت المذكرات القانونية التي يضعها رجال القانون ، وفيها مساس بالشؤون المالية ، تعرض عليه للنظر فيها قبل طبعها وتقديمها للدوائر المختصة . نذكر من هذه المذكرات التي مرت تحت يده المذكرات التي وضعها عبد العزيز باشا فهمي ضد السر برونيت

هذا واشتغال مطران بالادب وكونه رجلا اجتماعياً دفعه لحضور كثير من مجالس الانس والطرب ، وكان هو من هذه المجالس صدرها بأدبه الجم وبروحه الخفيفة وبظله الوارف . وقد اندفع في كثير من الحالات الى وضع الكثير من الاغاني والطقاطيق البلدية لتغنى في هذه المجالس . ولو جمعت هذه الآثار على كل ما أحدثه مطران في عالم الادب والشعر من الأثر ، لكان من ذلك تراث قيم للغة العربية

واتجاهات مطران السياسية وان كانت تجعله محايداً عن كل الاحزاب المصرية ، فقد كان يحس للعائلة الخديوية بالتقدير لخدماتها لمصر ، ومن هنا كان اخلاصه لها ، ومن مظاهر هذا الاخلاص قصائده الرنانة في مدح أم الخديوي عباس حلمي ، الذي كان يجمعه الى مطران الكثير من الاسباب وصلات مطران بالخديوي واخلاصه له ، جعلته متهماً بالموالاة للخديوي بعد خلعه من عرش مصر ولا سيما في الايام الاولى من عهد الملك فؤاد

ومطران من أسخى الناس عطاء . محب لخير الناس ، يعمل على فائدتهم بكل ما أوتي من قوة ، وهذه هي نقطة الضعف فيه . على أنه مع ميله للاحسان ، تجده ابعد الناس عن الاعلان عن اعمال السخاء التي يقوم بها . وهذا راجع الى كرهه الاعلان عن نفسه . وقد يكون ذلك من اسباب خمول ذكره بعد الحرب العظمى حيث انقطعت الصلة بين الفترة التي سبقت الحرب والفترة التي جاءت بعدها ، والتي لم يظهر فيها مطران نشاطاً يقاس لنشاطه في الفترة التي سبقت الحرب الكبرى »

هذه سطور وجيزة عن حياة مطران وهي ان كانت أشمل ما وقفنا عليه عن حياة الرجل من احد معاصريه ، فهي تقف عند حدّ التعميم ولا تصل من حياة الرجل الى الجزئيات التي تفهمنا اياه على حقيقته . ثم عندك فجوات في هذا الكلام ، اذ لا خبر فيها عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن جو أسرته التي نشأ في ظلها وتنفس ، ولا عن شيء من أمور معيشته وحياته الشخصية ، تلك الأشياء التي لا بد منها لبحث جدّي يراد به الترجمة لحياة انسان . على ان هذه القلة في الاخبار والفجوات التي تتخللها كان يمكن ان تعوض وتملأ لو ساعدنا مطران في تحقيق تاريخ حياته باعطائنا المعلومات التي طلبناها منه . ولكن اعتذاراته جعلتنا في موقف حرج من الدراسة . لا يمكننا ان ننكص وقد مضينا منها الى هذا الحدّ وهكذا لم نجد بدًّا من ان نكتفي بهذه الاخبار بالاضافة الى أقواله وأقوال بعض معاصريه التي لها اتصال او دلالة على حياته والتي ترد عرضاً في كتاباته او كتابات معاصريه ، والرجوع اليه في كل ما غمض من المسائل او استوقفنا من المواضيع حتى نلقي على الهيكل العظمي لتاريخ حياته ضوءا وهو الهيكل الذي تكوّن تحت يدنا من هذه الأخبار ، وبعد ذلك لنا ان ننفخ فيها الحياة من شعره

— ٣ —

يقول انطون بك الجميل

«يمكننا ان ندرس حياة خليل مطران شطراً شطراً من مطالعة ديوانه سطراً سطراً . فان شعر الخليل رسم تمثلت لنا فيه كل اطوار صاحبه وارتسمت في صفحاته كل عواطف قلبه » (١)

وهنا كلام اختلط فيه جوانب من الحق مع جوانب من الباطل . اما جوانب الحق فاعتبار ان حياة مطران الشعورية متمثلة في شعره أحسن تمثيل من حيث ان شعره ذوب نفسه وعصارة قلبه ، اما حياته المعاشية فلا يمكنك ان تخلص بها من شعره ، والرجل في هذا كالشعراء الإفرنج من الصعوبة في مكان ان تخلص من شعرهم بتاريخ حياتهم ، لأن الموضوعية في شعرهم تطغى على الذاتية فيهم حتى تتلاشى فرديتهم ، فلا تدور على اغراضها شعرهم . وهم في هذا عكس شعراء

(١) الهلال ، م ١٦ ج ٩ (يونيه ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٢

العرب الذين تدور شاعريتهم حول الأغراض الذاتية من حيث يتلاشى كل شيء فيهم في حياتهم. فأنت لو امكنك ان تخلص من شعر المتنبي او ابن الرومي المتأثر باتجاهات الشعر العربي بتاريخ حياتهما (١) ، فانك واجد في ذلك كل الصعوبة مع الخليل . من هنا نرى ان شعر خليل مطران في حدّ ذاته وان اعتبر مرجعاً عظيماً في فهم حقيقة حياة الرجل الشعورية ، فانهُ في ذاته ليس بالشيء الذي يذكر في دلالته على شؤون حياته المعاشية . الاّ أن شعر مطران بالاضافة الى ما يجمع لدينا من المعلومات والاخبار عنهُ يمكن أن يعتبر شيئاً لدراسة حياة الرجل ، وملء الفجوات التي بين الاخبار المتجمعة عنهُ ، ونفخ الحياة في الهيكل العظمي لتاريخ حياته . وهكذا تتميز معنا جوانب الحق من جوانب الباطل في كلام انطون بك الجميل

ودلالة الشعر الصحيح على الحياة الشعورية لا تحتاج الى اسهاب لأن الشعر ان كان ذوب النفس ، فهو مظهر ما يختلج في الوجدان من نبضات الحياة وخلجات الشعور . من هنا لا نرى في قولنا ان شعر مطران ذو دلالة على حياة الرجل الشعورية ما يحتاج الى الإثبات . فمطران يجعلنا في قصيدته عن بعلبك — مثلاً — نتمثل حياته الشعورية في صباه حين يقول:

نزقاً بينهنّ (٢) غرًّا لعوباً لاهياً عن تبصّر واعتبار
مستقلاً عظيمها مستخفًا ما بها من مهابة ووقار
نتبارى كأنّنا فراشا روضة مالنا من استقرار

كما أنهُ يجعلنا نتمثل من شعره حياته الشعورية وقد كبر وخاض معترك الحياة ،ذلك حين يقول

في هجرة لا أنس فيها للغريب ولا صفاء
تتقاذف الآفاقُ بي قذف العواصف للهباء
وتحيط بي لجج الصروف فمن بلاء في بلاء

وهكذا يمكننا ان ننتقل في شعر مطران ندرس منها أطوار حياته الداخلية في تقبضها ، ومظاهر حياته الوجدانية والشعورية

وانت قد تجد من الشعراء من يجعلك تركب الصعب في قراءة شعره حين تريد ان تستدل منها على حياته الشعورية . ذلك من حيث تبلغ فيه الصنعة حدًّا تجعله يحاكي صدق العاطفة . على ان هذا الحال وان كان معروفاً في شاعر مثل البحتري يجعلك تحترس في دراستك له ، فانهُ متخالط في غيره من شعراء العربية ، ومن هنا جاءت صعوبة دراسة حياتهم من شعرهم ، اللهمّ الاّ الذين

(١) انظر عن المتنبي : محمود محمد شاكر في دراسته ، المقتطف م ٨٨ ج ١ (يناير) ١٩٣٦ وهي خير دراسة كتبت عن المتنبي . وانظر عن ابن الرومي دراسة عباس محمود العقاد ، ص ٧٦ — ٢٦٢
(٢) أي بين آثار بعلبك

بلغ فيهم الاحساس الشعري حدًّا يجعلهم في عصمة عن الارتفاع بالصناعة الى صور لا تمثلها شعورهم ولا تقوم لها في وجدانهم قائمة

ومطران من حيث كون شعره ذوب نفسه وخلاصة ما يضطرب في وجدانه يجعلنا في مأمن من التحرز عند دراسة حياته الشعورية من شعره . ذلك ان الرجل لا يقول الشعر الاّ عن وجدان صادق ، ومراثيه ومدائحه لا تعتمد على جودة الصياغة وقوة الصناعة التي يرتفع بها الى محاكاة العاطفة ، انما يقوم على فيض الشعور ، وشعور الرجل يتلوّن بصلاته الاجتماعية بالناس الذين يقول شعره فيهم في الظروف السارة او الحزينة ،(١) وهو في هذا يمثل في تاريخ الأدب العربي لوناً قائماً بذاته . وهكذا يمكن النزول من شعر الرجل الى الحالات الشعورية التي تتشكل وفقاً لها صلاته الاجتماعية بالناس

وشعر خليل مطران ان كان في عمومه يمكننا من ان ندرس حياته الشعورية والوجدانية، دراسة مفصلة دقيقة تغنينا عن تفحص الاخبار والنظر في دلالاتها الشعورية، فان هذا الشعر كما قلنا ، لا يمكن ان يعتبر مرجعاً قائماً بذاته في دراسة تاريخ حياة الرجل من وجهتها المعاشية على وجه من التفصيل . ومع هذا كما قلنا وسبق الى ذلك الاشارة في الامكان ، بالاضافة الى ما بين يدينا من اخبار الرجل ، ان نستوفي ترجمة حياة الرجل جهد المستطاع ، يتداخل في هذا الاستيفاء الاستنتاج والنظر والتعرف والاستطلاع لما وراء هذه النبضات الذي يحملها شعره والرجوع بها الى ما يمكن ان يتجانس في الهيكل العظمى لتاريخ حياة الرجل المتكون من الاخبار التي جمعناها عن مطران

خاتمة

من وجهة نظر خاصة يمكننا ان نقسم تاريخ حياة مطران بالنسبة للأطوار التي لبسها من عصره ، الى ثلاثة ادوار : تبدأ الأولى من ميلاده وتنتهي باستقراره في مصر . وتبدأ الثانية من حيث ينتهي الدور الاول وينتهي بالحرب الكبرى . ويبدأ الدور الثالث يوم وضعت الحرب أوزارها وهو مستمر الى يومنا هذا

اما عن كون هذا التقسيم هو التقسيم الطبيعي . فذلك ما لا نشك فيه ، لأن هذه القسمة تمثل من جهة مراحل نشاط الرجل ، ومن جهة اخرى تكامل شخصيته وظهور فنه . فالطور الاول هو طور النشوء ، والطور الثاني هو طور النضوج ، والطور الثالث هو طور التكامل والتمام

وسيظهر من بحثنا لحياة الرجل من سبل التحقيق الذي سنأخذ انفسنا به ، ان هذا التقسيم منهجي وانهُ طبيعي في هيكل بحثنا الذي سنقوم بهِ

(١) أبو شادي في أصداء الحياة ، ص ٢٤ ــ ٣٥

سير الزمان

شهر من التاريخ

زوال تشيكوسلوفاكيا

استرداد منطقة ميمل

زيارة المسيو ليبران لانكلترا

المشكلة البولندية تتأزم

انقلاب في سياسة بريطانيا الخارجية

احتلال البانيا

شهر من التاريخ

١٥ مارس — ١٥ ابريل ١٩٣٩

— ١ —

زوال تشيكوسلوفاكيا

بينما الحوادث تجري الى نهايتها المحتومة في اسبانيا [١] على الرغم من القتال بين قوات مجلس الدفاع في اسبانيا المتوسطة وفريق الشيوعيين فيها (في اواخر فبراير واوائل مارس)، وبينما قداسة البابا بيوس الثاني عشر يتوّج [٢] في الفاتيكان متخذاً « العدل اساس السلام » شعاراً لعهده ، كانت الريح تهبّ في اوربا الوسطى ، ثم ما لبثت ان تحوّلت عاصفة هوجاء اضطربت لها مياه النهر — نهر الحوادث الدولية — واصطخبت ، فطغت حوادث تشيكوسلوفاكيا وما يتعلّق بها على كل ما عداها ، فصار حتماً علينا ان نخص الحديث بها ، لأنها تحتلّ مكان الصدر في تطور الحوادث الدولية ، في كل الفترة المنقضية منذ اتفاق مونيخ في آخر شهر سبتمبر سنة ١٩٣٨ الى اواسط مارس ١٩٣٩

وقد بدأت حوادث تشيكوسلوفاكيا في ولاية سلوفاكيا ، يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٩ اذ ارتفعت في مدينة براتيسلافا عاصمة سلوفاكيا صيحة الانفصال مقرونة بصيحة التحية للهر هتلر. وسلوفاكيا على ما تعلم جزء من تشيكوسلوفاكيا واقع في النصف الشرقي منها . يفصل بينها وبين المانيا ولايتا مورافيا وبوهيميا ، وتقع الى الشرق منها ولاية روتينيا المعروفة باوقرانيا الكرباتية. اي اذا شبهنا دولة تشيكوسلوفاكيا — او ماكان دولة تشيكوسلوفاكيا — بسمكة ممتدة في اوربا المتوسطة رأسها الى جهة المانيا وذيلها الى جهة روسيا ، وجدنا فيها خمس مناطق اولاها منطقة السوديت — وقد كانت تحف برأس السمكة كالحاشية وهذه ضمت الى المانيا وفقاً لاتفاق مونيخ الذي عقد في آخر سبتمبر من السنة الماضية — ثم يلي ذلك ولاية بوهيميا وفيها العاصمة براج فولاية مورافيا ، فولاية سلوفاكيا فولاية روتينيا او اوقرانيا الكرباتية ، وهي في الذيل

ففي الاسبوع الثاني من شهر مارس الماضي، حفلت الصحف بانباء حالة مضطربة تسود ولاية سلوفاكيا هذه ، ولا سيما علاقاتها بحكومة براج . حتى لقد ذهبت بعض البرقيات الى القول باحتمال نشوب حرب اهلية في الدولة التشيكوسلوفاكية المذكورة ، وكان سبب الخلاف ، بين

---

(١) في ٢٧ فبراير بين المستر تشمبرلين في مجلس النواب البريطاني البواعث التي حملته على الاعتراف بحكومة الجنرال فرانكو (٢) انتخب يوم ٢ مارس وتوج يوم ١٢ مارس ١٩٣٩

براتيسلافا عاصمة.سلوفاكيا ، وبراج عاصمة الدولة التشيكوسلوفاكية ، ان فريقاً من متطرفي السلوفاك يريدون الانفصال التام عن الدولة التشيكوسلوفاكية . بل زعمت بعض دوائر براج نفسها أنها كشفت مؤامرة مدبَّرة لاحداث هذا الفصل

ولا يخفى ان حديث الانفصال والاستقلال التام في سلوفاكيا ، سبقهُ ان منحت سلوفاكيا على أثر مؤتمر مونيخ ، وبتر تشيكوسلوفاكيا بضم مناطق السوديت الى المانيا ، استقلالاً ذاتيًّا على ان تبقى جزءًا في دولة متحدة (فدرالية) هي دولة تشيكوسلوفاكيا التي عاصمتها الاتحادية مدينة براج

فما ان قامت حركة الانفصال الاخيرة في ولاية سلوفاكيا ، حتى عالجتها حكومة براج بالحزم فأقالت المنسنيور تيسو رئيس الوزارة السلوفاكية ، واصدر المسيو هاخا رئيس الدولة التشيكوسلوفاكية مرسوماً بتأجيل اجتماع البرلمان السلوفاكي ، وعينت وزارة جديدة واتخذت القوات الحكومية تدابير حازمة لحفظ الامن . وصرحت حكومة براج ان كل ما يهمها في الامر هو الاحتفاظ بوحدة الدولة ، وانها مستعدة لتوسيع نطاق الاستقلال الذاتي لسلوفاكيا الى اقصى حد يتفق ووحدة الدولة

وقد صحب حوادث سلوفاكيا ، حملة عنيفة في الصحافة الالمانية على التشيك فقد جاء في البرقيات العامة والخاصة التي نشرت عندنا صباح الثلاثاء (١٤ مارس) ان جميع الصحف الالمانية نشرت في صفحاتها الاولى تحت عنوانات ضخمة ان حالة الاقليات الالمانية في تشيكوسلوفاكيا تزداد خطورة ساعة بعد ساعة على أثر الحوادث الاخيرة وان التشيك ينشرون « ارهاباً وحشيًّا » ويهاجمون الالمان بمنتهى القسوة . وقالت جريدة فولكيشر بيوباختر ان الحالة اصبحت لا تطاق في براتيسلافا وان التشيك غير قادرين على تأليف حكومة سلوفاكية توافق رغبتهم لعداء الاهالي لهم

ثم جاءت الانباء بأن السلوفاك استجاروا بالمانيا ، وان المنسنيور تيسو رئيس الوزارة السلوفاكية المقال ارسل مذكرة الى الهر هتلر يبين فيها عدم شرعية تأليف الوزارة التي تلت وزارتهُ ، وكانت الانباء الاولى التي وردت عن موقف المانيا من هذه الحوادث، ومن استجارة السلوفاك بها ، ان المانيا انكرت تدخلها في الاضطراب التشيكوسلوفاكي تدخلاً عسكريًّا او سياسيًّا ، بل قيل ان السلطات والدوائر الالمانية واقفة بين نزعتين . ففي صحفها عطف بادٍ على السلوفاك وطلباتهم ، تدل عليه العنوانات والاقوال المنشورة . وفي دوائرها حذر من تأييد السلوفاك تأييداً رسميًّا لئلاَّ تنفر حكومات البلدان المجاورة كبولندة وهنغاريا ويوجوسلافيا، لأن عملاً من هذا القبيل يعدُّ تشجيعاً للشعوب المحكومة والاقليات المختلفة التي في هذه الدول وما اكثرها

وعند ما بلغت الحالة هذا الحدّ ، اخذت الحوادث تتوالى بسرعة تخطف البصر ، حتى بتنا نترقب البرقيات الواردة من اوربا ساعة بعد ساعة لنعلم كيف تطورت الحالة واي حدٍّ بلغت

وصارت الحوادث الجديدة تلغي ما سبقها وتنقض ما قيل فيها . ففي البدء كان الموضوع موضوع استقلال سلوفاكيا استقلالاً تامًّا وانفصالها عن الدولة التشيكوسلوفاكية ، على ان تشملها المانيا برعايتها ، ثم أذاعت الصحف في صباح الاربعاء (١٥ مارس) في نصوص البرقيات التي وردتها في اليوم السابق الى منتصف الليل ان المونسنيور تيسو رئيس الوزارة السلوفاكية المقال ذهب الى برلين ، وان البرلمان السلوفاكي الذي كان المسيو هاخا رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية قد أجل اجتماعهُ ، اجتمع فعلاً واعلن استقلال سلوفاكيا فتقطعت بذلك اوصال تشيكوسلوفاكيا كدولة متحدة ، وتألفت وزارة جديدة برئاسة المونسنيور تيسو خلفت الوزارة التي ألفتها حكومة براج ، فطلبت الوزارة الجديدة حماية المانيا

وما لبثنا بعد ذلك حتى قرأنا ان أوقرانيا الكرباتية قد أعلنت استقلالها كذلك وتولى الوزارة الجديدة فيها ، المسيو فولوسين ، وبعد توليه الحكم أرسل برقيتين الى الهر هتلر والسنيور موسوليني يطلب النجدة ومساعدتهُ على حماية الدولة الأوقرانية التي أعلن استقلالها

عند ذلك رأت الوزارة التشيكوسلوفاكية ان ترفع استقالتها الى المسيو هاخا ، وتلا ذلك ان سافر المسيو هاخا يصحبهُ المسيو شفالكوفسكي وزير الخارجية الى برلين لمقابلة الهر هتلر والهر فون ربنتروب ، واذ كانا في طريقهما الى برلين ، وفي أثناء الاجتماعات التي حضراها كانت الجيوش الالمانية قد استعدت للزحف على بوهيميا ومورافيا فزحفت عند صدور الامر ولم تلق مقاومة ، فدخلت براج ، وأعلن زوال الدولة التشيكوسلوفاكية من الخارطة الأوربية ، بعد انقضاء عشرين سنة عليها من الكيان المستقلّ . ويقال ان المسيو هاخا والمسيو شفالكوفسكي أكدا في خلال الاجتماعات التي حضراها في برلين ان الغاية التي ترمي اليها جميع الجهود هي ضمان السكينة والنظام والسلام في هذا القسم من اوربا الوسطى وصرّح المسيو هاخا بأنهُ يضع مصير الشعب التشيكي والبلاد التشيكية بكل ثقة بين يدي زعيم الريخ خدمة لهذا الغرض وتحقيقاً لهُ . فقبل الهر هتلر التصريح وقرّر وضع الشعب التشيكي تحت حماية الريخ

[ثم علم ان المسيو هاخا تعرّض في برلين لمثل ما تعرّض لهُ الدكتور شوشنج في برختسجادن قبل ضم النمسا الى المانيا ، من حملة قوية وتهديد صريح وانهُ سقط اعياء فلما أفاق وقع الوثيقة المعروضة عليه .]

وحدث في أثناء ذلك ان أرسلت حكومة بودابست ، انذاراً الى حكومة براج ، مداهُ اثنتا عشرة ساعة . فلما جاءها الرد لم تقابله بالارتياح ، فقرّرت الحكومة المنغارية التدخل في

أوقرانيا الكرباتية فاجتازت قواتها الحدود صباح الاربعاء ١٥ مارس وفي احدى برقيات هذا الصباح (١٦ مارس) ان القوات المجرية توغلت في كل انحاء أوقرانيا الكرباتية بدون مقاومة تقريباً وينتظر ان تنتهي من احتلالها والوصول الى الحدود البولندية في الساعة الرابعة بعد الظهر (أي بعد ظهر اليوم لان البرقية المشار اليها صادرة من بودابست في ١٥ مارس أي أمس)

وكذلك ما كادت تنقضي سنة كاملة على ضمّ النمسا الى الريخ الاكبر ، حتى ضمت اليه الولايات الثلاث الكبرى من تشيكوسلوفاكيا ونعني بوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا والفرق بين الحادثين ان النمسويين المان حالة ان سكان تشيكوسلوفاكيا—وهم يشملون التشيك والسلوفاك والروتينيين — يبلغون نحو عشرة ملايين وهم من العنصر الصقلبي وليس في البلاد التي يقطنونها بعد ضمّ المان السوديت الاّ أقلية المانية صغيرة . أما أوقرانيا الكرباتية فقد ضمّت الى هنغاريا وعلى ذلك فكل خارطة جديدة لأوربا يجب ان ترسم بحيث تكون بوهيميا ومورافيا وحتى سلوفاكيا أجزاء من الريخ الاكبر

كان الكتّاب الى عهد قريب يختلفون في وصف الجمهورية التشيكوسلوفاكية . فبعضهم وصفها بقوله ، أنها جزيرة دمقراطية في وسط عجاج دكتاتوري . وبعضهم قال انها منارة للحرية في أوربا الشرقية والمتوسطة . وبعضهم وصفها بأنها سدٌّ قائم في وجه التوسع الألماني في شرق أوربا وشرقها الجنوبي . وقد ظلت كذلك حتى اتفاق مونيخ . وعندئذ ظهر الصدع في ذلك السدّ . والآن قد تمَّ انهياره ، فغدا السدُّ قنطرة للعبور

القاهرة : ١٦ مارس ١٩٣٩

— ٢ —

استرداد منطقة ميمل

من أهم الحوادث التي وقعت في النصف الاخير من الأسبوع الماضي (الذي نهايتهُ يوم ٢٥ مارس) ضمّ منطقة ميمل الى المانيا . وهذا الضمّ يصحح خطأ من الاخطاء الكثيرة التي انطوت عليها معاهدات الصلح . فمدينة ميمل مدينة ألمانية شعباً ولغة وتاريخاً . أنشأها فريق من الفرسان الالمان في منتصف القرن الثالث عشر ، وكانت دائماً في حوزة المانيا ، لم تتبع دولة اخرى ، الاّ دولة لتوانيا ، بعد عقد معاهدات الصلح ، وحينئذٍ دخلت في حوزة لتوانيا قوة واقتداراً . ثم ان اكثرية شعبها المان ، واللغة الالمانية لغتهم ، اما اللتوانيو الاصل منهم فيتكلمون اللغة الالمانية كذلك

وأين تقع ميمل ؟ تصور الجانب الشرقي الشمالي من اوربا ، الواقع على ساحل بحر بلطيق تجد بروسيا الشرقية والى الشرق منها منطقة ميمل محاذية لها وواقعة بينها وبين جمهورية لتوانيا وقد نزعت مدينة ميمل والمنطقة المحيطة بها من المانيا ، لتكون منفذاً على البحر لجمهورية

لتوانيا ، اي لتكون للتوانيا في منزلة مدينة دانتزج لبولندة . وكان الرأي اولاً ان تكون مدينة حرّة لها حكومتها الخاصة ، وان تتصل بلتوانيا بروابط اقتصادية . واذ كان الحلفاء ينظرون في مختلف المسائل المعروضة عليهم ، هاجم احد القواد البولنديين مدينة ڤلنا التوانية ، واحتلّها سنة ١٩٢٠ فتلفت التوانيون حولهم فوجدوا ميمل ، فثأروا لڤلنا باحتلال ميمل ، فاعترف الحلفاء بالامر الواقع ولكن انشئ مجلس دولي لادارة مرفإ ميمل . ومنذ قام النظام النازي في المانيا ، تحوّل فريق كبير من المان ميمل نازيين بزعامة الدكتور نومان وهو طبيب بيطري وجعلوا يطالبون بحقوقٍ معيّنة وبالعودة الى احضان امهم الالمانية ، ويقال ان الحكومة التوانية اشتدّت في معاملتهم منذ اشتدوا في مطالبهم ، فلما كانت حوادث تشيكوسلوڤاكيا وضم منطقتي بوهيميا وموراڤيا الى الريخ ووضع منطقة سلوڤاكيا تحت حمايته ، أُنذرت حكومة لتوانيا بوجوب التخلّي عن منطقة ميمل وأُعطيت مهلة خمسة ايام فسلّمت بما طلب منها بغير ان تستشير دولة من الدول ، ودخل الهر هتلر ميمل عن طريق البحر ذاهباً اليها في سفينة حربية تفادياً من اجتياز الرواق البولندي في قطار مقفل النوافذ ، واعلن ضمّها . وبذلك تمَّ عمل يعيد الأمر في هذه المنطقة الى نصابه الطبيعي .

زيارة المسيو لبران لانكلترا

المسيو لبران رئيس جمهورية فرنسا منذ سبع سنوات ، ذهب في ٢١ مارس في زيارة رسمية الى لندن ردّاً للزيارة الرسمية التي قام بها الملك جورج السادس والملكة اليزابت لفرنسا في خلال الصيف الماضي . الزيارة كانت رسميةً كما قلنا ، ولو انها جاءت في اوقات عادية غير الاوقات العصيبة التي تجتازها اوربا الآن ، لما كان لها من الشأن الخاص اكثر مما يكون لهذه الزيارات عادة . ولكنها جاءت نحو اسبوع بعد حادث مسح تشيكوسلوڤاكيا من الخارطة الاوربية فكانت الحفاوة البالغة التي قوبل بها رئيس الدولة الفرنسية في بريطانيا معززاً جديداً لما بين بريطانيا وفرنسا من آصرة ترتدُّ الى وضعهما الجغرافي الذي تنبع منهُ وتستند اليهِ قواعد السياسة الخارجية في كل بلدٍ من بلاد العالم

ومما هو جدير بالذكر ان وزارة الخارجية البريطانية وضعت مذكرة سرية فاز بها ونشرها في سنة ١٩٢٥ رجل يدعى بولدرستن . وقد كانت هذه المذكرة تنطوي على ما يراهُ رجال وزارة الخارجية لازماً لضمان السلامة البريطانية وفي مقدمة هذه القواعد ان لا يتاح لدولة واحدة الاستيلاء والسيطرة على بحر المانش ومرافىء البحر الشمالي وانهُ يجب على الحكومة البريطانية ان تجتنب عداء فرنسا وبلجيكا وهولندة — ومن ورائها الدنمارك والمانيا — أو أية كتلة منها

لأنها تملك هذه المرافىء . وثالثاً يجب ألاَّ يسمح لأية دولة تحارب فرنسا او بلجيكا بغزو هذه المناطق واقلاق الحالة الراهنة فيها مما يعرّض بريطانيا للغزو الجوي .ولذلك تقتضي شؤون الدفاع الامبراطوري التفاهم مع فرنسا وبلجيكا وهذا يقتضي من بريطانيا ضمان سلامة هذه الاراضي وعدم وقوعها في أيدي دول أخرى

هذا الموجز اليسير لتلك المذكرة الخطيرة يبين ما بين فرنسا وبريطانيا من آصرة ترتدُّ الى الوضع الجغرافي ، والمستنبطات الحديثة في فن الطيران الحربي . وسياسة كلّ من فرنسا وبريطانيا بعد الحرب العالمية ، تشهد — على الرغم مما شجر بينهما من الخلافات — بأن هذه القاعدة لم تنسَ في احد البلدين ، بل انها عززت بمختلف التصريحات ، وأشهرها تصريحات ايدن ودلبوس من نحو سنتين ، وتصريحات تشمبرلين وبونيه من نحو شهرين

ومن أظهر مظاهر الحفاوة التي استقبل بها المسيو لبران في لندن ، استقبالهُ في قصر وستمنستر ودار البرلمان التاريخية ، وهذه هي المرة الاولى التي يستقبل فيها رئيس دولة اجنبية في هذا القصر ، والغالب ان مغزى الاستقبال الرمز الى تمسُّك الدولتين بالاوضاع الديمقراطية في لبابها ، لانها في اعتبار الشعبين صفوة التراث الذي فازت بهِ الكرامة الانسانية بعد نضالٍ طويل خلال عصور التاريخ. ومما تحسن الاشارة اليهِ ان اللغة الاولى التي استعملت في هذه الدار التاريخية ، كانت اللغة الفرنسية وذلك على أثر الفتح النورمندي لانكلترا في القرن الحادي عشر

وعلى الرغم من ان الزيارة كانت رسمية ، فأنها أتاحت للمسيو بونيه وزير خارجية فرنسا ، الذي صحب رئيس الجمهورية ان يتصل بأقطاب انكلترا في خلالها ويتداول معهم في تطور الحالة الدولية . ويقال ان من احاديثهِ هذه ما اثار مشكلة في انكلترا ببعث موضوع التجنيد الالزامي من مرقدهِ وما يقال عن انقسام الرأي حياله

[وبعيد عودة المسيو لبران من زيارتهِ الرسمية لانكلترا جدّد انتخابهُ لرآسة الجمهورية في ٥ ابريل]

المشكلة البولندية ترتسم

في اوائل هذا الاسبوع بدأت ترتسم في افق السياسة الدولية الاوربية خطوط مشكلة جديدة من القدر الاول. وهذه الخطوط تزداد وضوحاً كل يوم . نعني بذلك مشكلة بولندة ازاء الريخ الثالث

كانت الانباء قد وردت في اواخر الاسبوع الماضي ان بولندا قد أبت الانضمام الى التصريح المشترك الذي اريد اصداره باسم فريق من الدول هزتهُ حوادث تشيكوسلوفاكيا . وهذا الرفض

من جانب بولندة معقول . لانها واقعة على حدود الريخ الشرقية ، وبجازها المشهور يفصل جسم الريخ عن بروسيا الشرقية وفيها اقلية المانية غير يسيرة ، حالة ان المانيا آخذة في التوسع شرقاً . فاذا وقفت بولندة موقفاً تشتمُّ منهُ رائحة العداء ، فقد يكفي ذلك عذراً لإثارة مشكلات تبعث على القلق حقّاً

ثم جاءت انباء مستفيضة في صباح الثلاثاء (٢٨ مارس) عن مطالب المانية من بولندة خاصة بمدينة دانتزج والمجاز البولندي . نعم ان ما قيل عن ارسال بلاغ نهائي الماني من برلين الى وارسو كذّب ولكن جاء بعد ذلك ان هناك اضطرابات في بولندة وان الصحف الالمانية تقول ان الاقلية الالمانية في بولندة مساء اليها، وان الامر كاد يفلت من يد ولاة الامر او انهُ افلت فعلاً وفي هذه الاقوال نذير بان نواحي من موقف بولندة مطروحة على بساط البحث في برلين ، بل ان برقيات مساء الاربعاء (٢٩ مارس) تعترف بأنهُ نشأت في برلين مشكلة تعرف باسم «المشكلة البولندية»

وسبب ذلك انهُ لما انشئت دولة بولندة على اثر انتهاء الحرب الكبرى — وهي دولة سكانها يربون على الثلاثين مليوناً — رؤي ان يكون لها منفذ على البحر ، فأعطيت منطقة تخترق المانيا الى ساحل بحر البلطيق ، وتشمل مدينة دانتزج المشهورة . واطلق على هذه المنطقة اسم المجاز او الممر البولندي . هذه المنطقة تخترق المانيا وتفصل بروسيا الشرقية عن جسم الريخ فلا اتصال بين المانيا وروسيا الشرقية الاّ عن طريق البحر والاّ عن طريق سكك الحديد التي تجتاز المجاز البولندي وفقاً لقواعد اتفاق خاص

اما دانتزج فقد جعلت مدينة حرَّة لها حكومتها المحلية ولكنها جعلت جزءاً من النظام الاقتصادي البولندي بحسب معاهدة عقدت بين المدينة والدولة . وعلاوة على هذا وذاك منحت بولندة منطقة كبيرة من ولاية سيليزيا ، على اثر استفتاء غير حاسم ، وهذه المنطقة غنية بالمناجم والصناعات

اما الآن وقد ضمَّت النمسا وبوهيميا ومورافيا ومنطقة ميمل الى الريخ ودخلت سلوفاكيا في حمايته واستشعر قوتهُ العظيمة وصولتهُ التي تحاذر فلا يبعدان يطالب بضمّ مدينة دانتزج وبحقوق في المجاز البولندي تضمن لهُ الاتصال المباشر ببروسيا الشرقية . وقد جاء في البرقيات ان الريخ في حاجة الى مثل هذا الضمان حتى يتمكن من ارسال المدد الى بروسيا الشرقية ، المفصولة عنهُ بالمجاز المذكور ، في حالة استهدافها لاعتداء من الشرق . ولمشكلة بولندة ناحية اخرى تتصل بما يقال عن النية على انشاء دولة اوقرانية مستقلّة تحت حماية الريخ ، ولكن المجال لا يتسع لتفصيل ذلك وهي على كل حال ليست من النواحي التي تقتضي المعالجة السريعة الآن

القاهرة : ٣٠ مارس ١٩٣٩

— ٣ —

انقلاب في سياسة بريطانيا الخارجية

في بحار الارض نوعان من التموجات ، النوع الاول يشمل التموجات السطحية من تجعد صفحة الماء بهبوب النسيم الى الأمواج الكبيرة بهبوب الرياح . ولكن هذه التموجات قلما تتعدَّى عمقاً معيناً من سطح الماء . والنوع الثاني يشمل التيارات العميقة القوية التي تسير في الأغوار . وكذلك بحار السياسة . تهبُّ عواصفها فتثير أمواجاً على السطح تتفاوت عنفاً ثم تسكن العواصف فتهدأ الامواج . ولكن التيارات السياسية القوية تسير في ما دون السطح ، وتتصل بطبائع الأمم وتربيتها ومثلها السياسية والاجتماعية وموقعها الجغرافي . فتبيُّن هذه التيارات لازم لفهم اتجاهات السياسة الأصيلة ، لأن الحكم بالاعتماد على الحوادث المنفردة ، والامواج السطحية قد يفضي بنا الى الخطإ

وقد حدث في الاسبوع الماضي (٧ — ١٣ ابريل) حادثان ، اذا أخذا بحدّ نفسهما كان لهما بعض الشأن ، ولكن اذا أخذا على أنهما دليلان على تيارين عميقين او اتجاهين أصيلين في شؤون الأمم وسياساتها ، برز ما لهما من المقام واتضح ما يعلق بهما من خطر الشأن

وقد حدث الحادثان في يوم واحد . نعني يوم الجمعة الماضي (٧ ابريل) . أما الحادث الاول فانتهاء زيارة الكولونيل بيك وزير خارجية بولندة لانكلترا . وأما الثاني فتجمع القوات الايطالية أمام ساحل البانيا وضربها ثغوره ونزولها في احدها

فالحادث الاول اذا أخذ على حدة ، كان كالتجعد اللطيف على سطح الماء يحدثهُ نسيم عليل . ذلك ان رجال السياسة جروا في هذا العهد على وجهٍ خاص ، على التزاور للاتصال الشخصي ، لان مقابلة واحدة بين وزيرين مسؤولين ، قد تغني عن مفاوضات طويلة . ولكن رحلة الكولونيل بيك الى انكلترا ، جاءت على أثر تصريح خطير الشأن أفضى بهِ المستر نفيل تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية ، فقرَّر فيهِ قاعدة في سياسة بريطانيا الخارجية ، طالما امتنع الساسة الانكليز عن الاخذ بها . ذلك أنهُ لما بدا في الأفق الدولي ، ان بولندة قد تتعرَّض من جهة جارتها الغربية الكبيرة — أي ألمانيا — لضغط قد يؤثر في استقلالها صرّح المستر تشمبرلين بأن الحكومة البريطانية تتعهد بنجدة بولندة اذا تعرضت لعدوانٍ . ونصُّ التصريح الذي ألقاه المستر تشمبرلين في هذا الموضوع كما يلي :

« يعلم المجلس ان هناك مشاورات دائرة الآن مع حكومات أخرى . ولكي أوضح موقف حكومة جلالة الملك على أوفى وجه ، في خلال ذلك ، عليَّ ان أنبيء المجلس بأنهُ اذا حدث

في خلال هذه المدة ، عمل ما من شأنه تهديد استقلال بولندة تهديداً تحسبهُ الحكومة البولندية ان مصالحها الحيوية تقضي بمقاومته بقواتها الوطنية ، فحكومة جلالة الملك تشعر حتماً عليها ان تمد الحكومة البولندية فوراً بكل التأييد الذي في مستطاعها . وقد اعطت الحكومة (اي البريطانية) حكومة بولندة تأكيداً بهذا المعنى . وأضيف الى ما تقدم ان حكومة فرنسا اذنت لي في ان اصرّح بأنها تقف نفس الموقف الذي تتخذه حكومة جلالة الملك »

ما مغزى هذا التصريح الخطير ؟

مغزاه انهُ خالف مبدأً من المبادىء العريقة في سياسة بريطانيا الخارجية . بل اضاف اليها مبدأً جديداً . ذلك ان السياسة الخارجية البريطانية امتنعت قبل نشوب الحرب الكبرى عن ان تقطع عهداً حاسماً كهذا العهد الذي قطعتهُ الآن ، من حيث صلتها بفرنسا جارتها المتصلة بها بحكم الوضع الجغرافي . ثم انها امتنعت عن قطعه بعد انتهاء الحرب الكبرى الى عهد قريب . نعم ان انكلترا عنيت بعد الحرب الكبرى ، بما يضمن السلامة والاستقرار في غرب اوربا . واكبر مظاهر هذه العناية الضمان المشترك للحدود الالمانية الفرنسية والالمانية البلجيكية المنطوي في معاهدة لوكارنو المعقودة سنة ١٩٢٥ . ثم في تصريح بلدوين بأن حدود بريطانيا على نهر الرين. فلما نقضت معاهدة لوكارنو صرّح المستر ايدن اولاً ثم المستر تشمبرلين من أشهر بأن الدفاع عن فرنسا وبلجيكا اذا كانتا هدفاً لاعتداء غير مستفزّ ، من القواعد الاساسية التي تقوم عليها سياسة بريطانيا الخارجية . وهذه القاعدة ، متصلة بالوضع الجغرافي في تلك الرقعة من اوربا ، والوضع الجغرافي اصل تنبع منهُ وتستند اليه السياسة الخارجية

اما في شرق اوربا ووسطها ، فان بريطانيا ابت ، على اهتمامها بشؤونها ، ان توسع نطاق التزاماتها هنالك بالاشتراك في اي ميثاق يعقد فيها ، او بضمان اي ميثاق من هذا القبيل . وما زلنا نذكر انهُ لما سعت فرنسا الى انشاء ميثاق خاص بشرق اوربا على نمط ميثاق لوكارنو الخاص بغرب اوربا ، باركت الحكومة البريطانية المسعى ، ولكنها ابت الاشتراك فيه او ضمانهُ . فلما كانت ازمة تشيكوسلوفاكيا في خريف السنة الماضية كان اهتمام بريطانيا بها عامًّا ، من حيث مغزاها الاوسع ، وعاقبتها البعيدة ، ولكنها لم تكن مقيدة شأن فرنسا بنجدة الحكومة التشيكوسلوفاكية اذا اعتدي عليها ، علاوة على كونها كانت ترى بعض الحق في مطالبة المانيا بضمّ ألمان السوديت في نطاق الريخ الاكبر . نعم ان بريطانيا اقترحت قبل اتفاق مونيخ وبعدهُ ، ان تضمن مع غيرها من الدول سلامة تشيكوسلوفاكيا الجديدة ، ولكن هذا الضمان كان مشروطاً وشروطهُ لم تتحقق ، فلم يكن تنفيذ الضمان حتماً على لندن في مارس الماضي

اما الآن ، فالتصريح الذي القاهُ المستر تشمبرلين بخصوص سلامة بولندة واستقلالها ، يعني ان عهد « العزلة الباهرة » قد انقضى . وللمرة الاولى عينت بريطانيا مقدماً ما تفعل في حالة كذا وأخذت

على عاتقها عهوداً عسكرية في شرق اوربا . وكذلك انتقلت حدودها من نهر الرين ، الى منطقة نهر الفستيولا . والغريب في هذا كله ، في هذا الانقلاب التام ، انهُ فاز بتأييد اجماعي من الشعب الانكليزي والامبراطورية البريطانية ، والاحزاب والصحف على السواء . ويقول مؤرخو انكلترا السياسيون ، أنهُ من النادر ان ترى في تاريخ انكلترا في اثناء السلام ، اجماعاً ووحدة ، على انحراف خطير في السياسة الخارجية ، كالاجماع والوحدة اللذين قوبل بهما هذا الانحراف

فكيف نفسّر ذلك ؟ ان الجواب في رأينا يرتدُّ الى نفسية الشعب البريطاني وتقاليده . فهو شعب متأثر بتقاليد ابتعاده عن اوربا — لان الفاصل بينهما بحرٌ — وذلك قبل اختراع الطائرات الحربية ، وشدة الاعتماد على الاسطول البريطاني في الدفاع . وهذا الابتعاد هو ما يطلق عليه في تاريخ بريطانيا السياسي ، اسم « العزلة الباهرة » او « المجيدة » Splendid isolation ثم ان الجمهور البريطاني كان يعتقد ان في معاهدات الصلح نواحي شديدة الجور على المانيا يجب ان تصحَّح . ويضاف الى هذا انهُ من اشق الامور ان تفهّم شعباً كبيراً متأثراً بتقاليد العزلة ، مدى العواقب التي يسفر عنها عملٌ معيَّن في بلد بعيد كتشيكوسلوڤاكيا اذا وقع ضمن نطاق النفوذ الالماني . لذلك كان اتفاق مونيخ ، وبتر تشيكوسلوڤاكيا بضمّ مناطق السوديت الى المانيا . ولكن لما حدثت حوادث تشيكوسلوڤاكيا الاخيرة في منتصف مارس الماضي ، وبدت في الجوّ نذرٌ تدل على ارتسام مشكلة بولندية المانية في الافق الدولي ، تغير الموقف . فالشعب البريطاني مشهور في تاريخه ، بأن المسائل التي لها مغزى ادبي تستثيرهُ ، وكأنهُ بحسه الأدبي يدرك مغزاها ، ولو كان لا يفهم نواحيها التي تتعلّق ببلدان لا يعرفها معرفة طيبة ، ولا يقدر قيمتها كحجر من الاحجار المتنقلة على رقعة الشطرنج . والمسألة كما تبدو لهذا الشعب الآن ، على ما تبسطها صحفهُ المسؤولة ، وبقلم كاتب كان يدعو الى التعاون مع المانيا وايطاليا عندما كانت هذه الدعوة غير محبَّبة ، هي هذه : — « ان السلام على الارض غير منفصل عن الحرية الانسانية . فالتهديد الموجّه الى هذا التراث الانساني ، تحدٍّ ، والتحدي يجب ان يقبل ، وقد قبل » . والامل الوحيد الباقي ان يكون في ايضاح الموقف ما يدعو الى التريث . فقد وُجّه اللوم الى بريطانيا لانها لم توضح موقفها في سنة ١٩١٤ وقيل انهُ لو عمدت الى توضيحه لكان هناك امل في اجتناب تلك الكارثة

هذا هو التصريح من حيث مغازيه ومراميه البعيدة . وقد كان عند القائه موقتاً ، فلما جاء الكولونيل بك الى لندن دارت المفاوضات على اساسه بقصد تحويله من تصريح موقت صادر من جانب واحد الى تصريح متبادل ابوابه مفتوحة لدخول الدول التي ترى فيه ضماناً دفاعيًّا لاستقلالها ويلوح مما نشرته الصحف ان المرمى قد اصيب

وقد نقلت الينا البرقيات العامة — ونحن نكتب هذه السطور مساء الاربعاء (١٢ مارس)

وصباح اليوم (١٣ مارس) — ان سفير بولندة في برلين عاد الى عاصمة بلاده حاملاً طلبات المانيا من بولندة وهي تسوية مسألة دانتزج طبقاً لرغبة الألمان، وشق طريق للسيارات خاص بالمانيا عبر المجاز البولندي وتعديلات أخرى خاصة بأراضي سيليزيا العليا وما يجاورها من الحدود البولندية التشيكوسلوفاكية. ولا نعلم مبلغ هذا من الصحة. فاذا صحَّ فعلى الحكومة البولندية ان تقرر ما التسوية التي تتفق ومصالحها الحيوية واستقلالها، ولكنها مهما يكن من أمر فانها ستدخل المفاوضات الخاصة بهذه المطالب وهي واثقة بأنها اذا هدّد استقلالها ورأت من مصلحتها الحيوية مقاومة هذا التهديد فلن تقف وحدها. هذا من ناحية زيارة الكولونيل والتصريح البريطاني، ودلالتها على اتجاه جديد في تيار السياسة الخارجية البريطانية

احتلال البانيا

وإذ كان الكولونيل بيك يودّع مستقبليه في لندن صباح الجمعة الماضية (٧ ابريل)، كانت ايطاليا قد حشدت قوات كبيرة بحرية وجوية وبرية على سواحل البانيا، وضربت ثغورها وأنزلت فصائل جندها الى البر بعدما انكرت — على ما روي — أنها تنوي ذلك

والبانيا دولة صغيرة يعدُّ أهلها مليون نسمة ثلثاهم من المسلمين، وهي واقعة على الجانب الشرقي الجنوبي من ساحل البحر الادرياتيكي تحدها من الناحية البرية يوجوسلافيا وبلغاريا واليونان. وقد اعترف باستقلالها في سنة ١٩١٣ ولكن الفوضى سادتها خلال الحرب الكبرى. فلما وضعت معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ وهي المعاهدة التي دخلت إيطاليا بمقتضاها غمار الحرب الكبرى الى جانب الحلفاء وعدت ايطاليا بأن تمنح مرفأ فالونا — وهو من أحسن المرافىء على ساحل البانيا — وان يعهد اليها بأن تتولى شؤون البانيا الخارجية

والواقع ان جنوداً ايطاليين كانوا فعلاً محتلين البانيا عند انتهاء الحرب الكبرى. إلاَّ ان الجيش الايطالي لم يحتفظ بهذا الاحتلال، لما بدا في حياة ايطاليا بعيد الحرب من الاضطراب، ولمقاومة بدت من ناحية فريق من الشعب الالباني ومن اليوجوسلافيين الى الشمال. وكان اليوجوسلافيون يعتبرون وجود قوات ايطالية على الساحل الشرقي من البحر الادرياتيكي خطراً على سلامة دولتهم، لان كل سواحل دولتهم واقعة على ذلك البحر، والساحل الايطالي يناوحها من الغرب، فانسحبت الجنود الايطالية من البانيا سنة ١٩٢٠ وانتظمت الحكومة الالبانية في عصبة الامم. ولكن ذلك لم يحلّ مسألة اخرى تتعلّق بالبانيا وايطاليا. فقد زعمت ايطاليا ان الحلفاء وعدوها بالاعتراف بمكانة خاصة لها في شؤون البانيا. فلما اجتمع مؤتمر السفراء، وهو الذي خلف مجلس الحلفاء الاعلى، في شهر نوفمبر من سنة ١٩٢١ بباريس وافق على قرارٍ خاص بهذا الموضوع جاء فيه انهُ اذا استهدف استقلال البانيا الى خطرٍ ما، فان الحكومات البريطانية

والفرنسية واليابانية تبعث بتعليات الى ممثليها في عصبة الامم ليقترحوا على العصبة ان يعهد الى ايطاليا بالمحافظة على هذا الاستقلال ، والواقع ان هذا القرار لم يكن لهُ مغزى عمليٌّ . لانهُ اذا هدّد استقلال البانيا فالغالب ان هذا التهديد يجيء من عبر البحر الادرياتيكي . ولكن ايطاليا فسّرتهُ بانهُ اعترافٌ لها دون غيرها ، بأن البانيا منطقة نفوذ خاصة بها ، وهذا التفسير كان مصدراً من مصادر القلق الذي ساد علاقات ايطاليا بيوجوسلافيا الى عهد قريب . وبعد ذلك عقدت معاهدات بين البانيا وايطاليا وعدّلت غير مرّة ، ولكنها كانت على كل حال مما يمكن قدم ايطاليا في البانيا . ولا يطاليا في البانيا مصالح مالية واقتصادية غير يسيرة في مقدمتها القروض التي عقدتها حكومة روما لحكومة تيرانا — ويقال انها تبلغ ٢٠٠ مليون فرنك ذهب — ثم هناك البترول الذي يستنبط من مناطق في البانيا ولاسيا منطقة برات

الاّ ان المصالح الحربية — الاستراتيجية — تفوق المصالح الاقتصادية والمالية شأناً . ونظرة واحدة الى خارطة البحر الادرياتيكي توضح ذلك . هذا البحر له ساحلان غربي وهو ساحل ايطاليا وشرقيٌّ وهو ساحل يوجوسلافيا في الشمال وساحل البانيا في الجنوب . والساحلان الغربي والشرقي يلتقيان عند ثغر تريسته المشهور . واذا اخذنا بتشبيه الجانب الجنوبي من شبه الجزيرة الايطالية بالقدم ، فالساحل الالباني يناوح عقب القدم الايطالية . وبين الساحلين مضيق ضيق يدعى مضيق اوترانتو لا يزيد اتساعهُ على اربعين ميلاً . فاستيلاء ايطاليا على البانيا يمكنها من ايصاد هذا المضيق في وجه من تشاء ، فتغدو متحكمة او قادرة على التحكم بمصيره ومصير الدول التي على ساحله — أي يوجوسلافيا

ويوجوسلافيا يهمها كل ذلك من الناحية الاستراتيجية ايضاً . لان استيلاء ايطاليا على البانيا يجعل يوجوسلافيا مطوقة بدول كبيرة تستطيع التأثير في مصيرها وكيانها السياسي — الى الشمال المانيا وايطاليا . والى الغرب البحر الادرياتيكي وهو بحيرة إيطالية . والى الجنوب البانيا الايطالية . اما الى الشرق والشرق الجنوبي ، فلها حدود مشتركة مع رومانيا وبلغاريا واليونان

وقد كان الباعث على هذه الحملة « اقرار السكينة والاستقرار والحرية في البانيا » و« حماية الايطاليين » على ماجاء في بعض البيانات الرسمية الايطالية ، وهذا لا ينهض عذراً كافياً ، ولا سيا اذا نظرنا الى ان النفوذ الايطالي كان سائداً البانيا وبقليل من المفاوضة والحزم كان في الوسع الوصول الى تحقيق ذلك . وعلى كل حال فدولة تعد مليون نفس بين شيوخ ونساء واحداث واطفال ، ماكانت تحتاج في إخضاعها الى هذه القوة الحربية العظيمة التي قوامها على ما جاء في البرقيات ١٧٠ قطعة حربية واربعمائة طائرة والألوف من الجيوش

وإذن فيجب ان يلتمس التفسير الحقيقي لذلك في نواح أخرى . هنا نجد رأيين . فأصحاب لاول يقولون ان خطة انشاء كتلة لصدّ الاعتداء — وهي خطة تكاد تكون في صميمها عوداً

الى السلامة الاجماعية — التي سارت عليها بريطانيا على أثر حوادث تشيكوسلوفاكيا في منتصف مارس الماضي ، كانت الباعث على هذه الحملة الكبيرة لثني دول البلقان عن الانضمام اليها. ويضيفون الى هذا ان الاستيلاء على البانيا يتيح لايطاليا ومن كان لها حليفاً قواعد بحرية وجوية ذات شأن استراتيجي عظيم للتوسع في البلقان . ثم يضيفون الى ما تقدم ، انهُ كان لا بدَّ لايطاليا من ان تكسب شيئاً يوازن ويوازي بعض ما كسبتهُ شريكتها في المحور ، فلا تبقى راضية بما كان حتى الآن قسمة ضيزى بينهما . وأصحاب الرأي الثاني — وهو أقلُّ ذيوعاً واضعف احتمالاً — ان إيطاليا فعلت ما فعلت ليكون لها في البلقان — وهو المنطقة التي تحسبها ميداناً طبيعيًّا لتوسعها الاقتصادي والثقافي — ما يمكنها من ان توازن بهِ توسع شريكتها فيهِ

والمشكلة التي اثارتها الغزوة الالبانية ، انما هي جزءٌ من مشكلة اوسع نطاقاً واعظم شأناً من مشكلة بلادٍ احتلت وضمَّت ، هي مشكلة توازن القوى في البحر المتوسط . فايطاليا ترى ، ان البحر المتوسط حياتها . وتردُّ عليها انكلترا وفرنسا بقولها انهُ شريان حيوي في حياتهما كذلك . وانهما لم تفكرا مطلقاً في انكار حق ايطاليا في الحياة . وعلى هذا الاساس عقد اتفاق روما بين انكلترا وأيطاليا في شهر ابريل من السنة الماضية ، عليهِ اليوم سنة الاَّ ثلاثة ايام . ولذلك شاعت اقوال من ايام بان غزوة البانيا وبقاء الجنود الايطاليين في اسبانيا ، وما يحتمل ان ينطوي عليهِ الاتجاه الجديد في البلقان من تهديد لاستقلال بعض دولهِ ، قد تحمل المستر تشمبرلين على نقض اتفاق روما. ولكن ايطاليا انبأت حكومة اليونان بأن لا مطمع لها فيها . وأنها محترمة استقلالها وحدودها . وأنبأت حكومة لندن ان عملها في البانيا مقتصر على البانيا دون غيرها. ولذلك ينتظر ان يلقي المستر تشمبرلين هذا المساء تصريحاً في مجلس النوَّاب البريطاني ، يحدّد فيهِ ما تعنيهِ الحكومة البريطانية بالحالة الراهنة في البحر المتوسط ، وهي الحالة المقصودة في اتفاق روما . وكذلك كان من المنتظر ان يلقي تصريحاً ببيان ما تراهُ بريطانيا من مصلحة حيوية بها وللسلام في المحافظة على استقلال دول البلقان وقد يخص دولة اليونان بالذكر. وكان من المنتظر كذلك ان يلقي المسيو دالاديه رئيس الوزارة الفرنسية بياناً بهذا المعنى. والمهم في جميع هذه التصريحات من الجانبين السؤال « الى اي مدى يصح الاعتماد عليها والاخذ بها » [وقد القي البيانان فعلاً بعد ظهر ١٣ ابريل ، وبمقتضاها شمل الضمان البريطاني الفرنسي استقلال رومانيا واليونان]

وقد ختم يوم امس (١٢ ابريل) بعرض تاج البانيا على ملك ايطاليا من قبل الجمعية التأسيسية الألبانيــة وبأنباء من الخارج والداخل تدل على نشاطٍ حربي عظيم استعداداً للطوارىء . ولكن الحالة لا تبعث على القنوط ، ولا يزال في الميدان متسع للحكمة والعقل

القاهرة : ١٣ ابريل ١٩٣٩

باب المراسلة والمناظرة

الحقيقة

ما من شك ان اللغة العربية هي أدوم اللغات على الغير وأسلمها تعبيراً عن الرأي وأقومها في صوغ العبارات وأسلسها في سرد المقال وأصوبها في التمشي مع روح الكتاب ، بل هي خير لغة تنقل للشرق عن الغرب ما لديهم من فلسفات وعلوم ، بجهود عباقرتهم وعقول جبابرتهم وذلك لتضمنها كل اصناف التعبير في اصولها وجوهرها وملكتها ومعانيها

ولست اتجه في ما ورد اليّ اليوم من وصف ونقد وتحليل الى التحيز لطرف ما خاصًّا بكتاب « هكذا تكلم زرادشت » بل كلمة الحق والانصاف أسطرها فما أحسن ما أبدع وما أبدع ما أحسن من متانة وخطرات وثابة ادّى بها الامانة التي في عنقه خير اداء والقت العروبة حكمها في جنانه واستولى حسن التصريف على قلمه ومشاعره فقاده الى الاصل كما احسن القيادة فأخرج كتاب « للكل ولا لأحد » خير اخراج اذ أدرك الناشر بفطرته السليمة وروحه الملهمة ما لفريدريك نيتشه من نزعات مختلفات وكأني به وهو يترسم خطواته ويقتفي أثره احد تلاميذه المعاصرين ومن قاسموه حياته وشاطروه نزعاته فنقل الينا من نبع وحيه وبريشة المصور الفنان صورة حية لذلك العبقري فلم أر انحرافاً عن حقيقة ولم يمل عن وجه الرأي ولم ينزع الى تقليد ولم يجنح الى تحريف ولم يغره ناقل ولم يخدعه كاتب ولم تتركه مشورة في حل طلاسم ما خفي على المترجم خله كعرضه الأمر على استاذ من الاساتذة الفطاحل في حل رموز نشيد الصحراء حتى تقمصت روح زرادشت تحمل رعد قلبه الحر وانانه الالهية فاشرق البيان اشراقاً وظهر نور نفس زرادشت القوية في سفر جليل ثمرة مجهود قيم ذخر للأدب يسعد بقراءته ابناء العروبة

ولو استعرضنا « هكذا تكلم زرادشت » في كلمة التمهيد التي صدر بها ، كابناء شرق واحد وتخلينا عن الغل في القلب لشاهدنا آية الابداع والتحليل وللمسنا كنه الاطلاع ودقة المترجم لدراسة فلسفة زرادشت التي بسطها على الصفحات بقلم فياض وتفكير خصب وفؤاد جياش

بالاطلاع ناجى فيها العواطف الكمينة والاسرار الدفينة التي كانت تسيطر على روح وجسد نيتشه فمثله مثل الساحر الأخاذ الذي يجلو الحقيقة سافرة للعيان

***

ولا يفوتني بعد ما تقدمت بهِ أن أعرج في هذه الكلمة على ماجاء في عدد المقتطف الاخير من نقد للاستاذ حبيب الزحلاوي لترجمة زرادشت اذ ورد في عبارته « أن المترجم الاستاذ فيلكس فارس قد ماشى نيتشه الجبار العملاق وآثار الاعياء بادية في خطواته » ويظن الناقد أن هذا القصور قد نشأ عن أن الاستاذ « لم يقرأ من نيتشه بعض كتبه المشهورة كفجر الاصنام وما وراء الخير والشر الخ »

وكم كنت ارجو لو راجع الناقد نقده قبل نشره وكفانا مؤونة مناقشته فيما أثاره من حرج وخلط في مؤلفات نيتشه اذ ان نيتشه له مؤلف « الفجر » قائم بنفسه والترجمة الصحيحة لمؤلف نيتشه الواردة في نقد الناقد « غسق الاصنام » لا « فجر الاصنام » اذ في هذا المؤلف تناول نيتشه انتهاء عهد الاصنام والفارق بين الفجر والغسق فارق عظيم كالليل نسلخ منهُ النهار

ولذا يتضح لنا انهُ كان الاحرى بهِ أن يقرأ مؤلف « هكذا تكلم زرادشت » باللغة الفرنسية على الاقل ان لم يكن ملمًّا باللغة الالمانية ولو قرأه بالفرنسية لرأى ما رأينا من ان المترجم سار من أول مراحل زرادشت الى آخرها بخطوات قوية وباسلوب زاده في مواضع كثيرة جلاء وروعة

واذا تقدمنا نحن بهذا القول فانما نقدمهُ عن عقيدة صادقة لقراءتنا مؤلفات عديدة لنيتشه وغيره من الادب الالماني بلغتهِ الاصلية وأني اسأل الله ان يسدد خطوات العاملين ويكثر لنا من الفوارس الأُلى يصولون ويجولون ، بربط الحلقات العلمية والادبية بين الغرب والشرق ورحم الله امرءًا سكت فسلم وقال فغنم

الدكتور
مصطفى حامد نصر

***

جاءنا من الاستاذ فليكس فارس مترجم زرادشت والاعترافات انهُ يشكرنا لتصريحنا بعدم اطلاعنا على نماذج نقد الاستاذ حبيب الزحلاوي وانهُ هو يصرح بدوره بان الناقد أطلعه على قائمة فيها بعض ألفاظ قال أنها مخالفة للاصل فطلب اليهِ نشرها ليرى رأيه فيها لان كتاب الاعترافات الفرنسي لم يكن تحت يده ليتمكن من المقابلة فهو والحالة هذه لا يزال يعتبر النقد الذي نشر عبارة عن تقدير شخصي لا يستند الى أي دليل ولا فائدة منه ويتمنى لو أُتيح لهُ

الاستفادة من نظرات صديقه الزحلاوي ويرجوه ان يرسلها اليهِ اذا امتنع نشرها في المقتطف لضيق المقام

وورد نا أيضاً مقال من حضرة الدكتور مصطفى حامد نصر عن ترجمة زرادشت يقول فيهِ أنهُ طالع مؤلفات نيتشه جميعها بالالمانية وهو يرى ان الاستاذ فارس قد أبدع في تحليل فلسفة المؤلف في مقدمته الرائعة كما انهُ سار من أول مراحل زرادشت الى آخرها بخطوات قوية وأسلوب زاد الاصل في مواضع كثيرة جلاء وروعة وهو المقال المنشور في اول هذا الباب

حول مقال

(خليل مطران)

سيدي رئيس تحرير المقتطف

اطلعت على التعليق الذي نشره الاستاذ عبد الرحمن شكري على ما كتبهُ الدكتور أدهم خاصًّا بهِ وبي .ولا اريد أن أخوض في موضوعه بعد أن أعلنت في سنة ١٩٣٧ اعتزالي الأدب العربي ، وعلى هذا فلا شأن لي بما يكتبهُ الدكتور أدهم أو غيره من بحوث عن الأدب المعاصر، ولا يُعَدُّ سكوتي عنها إقراراً لما فيها ،كما أني لا اعرف أني نشرت شيئاً جديداً في هذا الموضوع أو أن أحداً من اصدقائي — على ما يقول الاستاذ شكري — صنع ذلك

وتفضلوا بقبول تحيتي واحترامي المخلص

الاسكندرية في ٤ ابريل سنة ١٩٣٩ احمد زكي أبو شادي

استدراك

في مقال«المروءة ، مصدر مطوي » للدكتور بشر فارس ، مقتطف ابريل ١٩٣٩

ص ٤٦٩ س ٧ — اقرأ : ميكائيل بدلاً من : ميخائيل

ص ٤٧٠ س ٢١ — « : [وتركك لواليك ؟] « « : وتركك لواليك ؟



عجائب معرض نيويورك العالمي

آلة تتكلم وتغني وتغرد بأصوات كهربائية

ممثلة الاصوات البشرية

بما انه سيحتفل في يوم الاحد ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٩ بافتتاح المعرض العالمي في نيويورك فرأينا ان نصف لقرائنا ، بعض غرائب المعروضات الكهربائية والعلمية وغيرها من مشتملاته مبتدئين في هذا الجزء من المقتطف ، بالآلة الكهربائية «فودر» التي تمثل الصوت البشري حديثاً وغناء ، وسنردفها ان شاء الله بسائر عجائب ذلك المعرض الفذ عوض جندي

قالت مجلة العلم العام الاميركية في فبراير سنة ١٩٣٧ ما يأتي : —

تذرع بالكهربائية ، مهندسو المختبرات العلمية في شركة بل التليفونيّة بمدينة نيويورك ، الى ضمّ الاصوات الصناعية بعضها الى بعض ، وجعلها صوتاً واحداً يكاد يحاكي الصوت البشريّ . ويقوم ذلك التوفيق الصوتي ، بمعاونة دائرة كهربائية لاسلكية لاقطة محكمة ، اخترعت اصلاً لدراسة وسائل النطق البشري والوقوف على كنهها

فاذا ما تكلَّم امرؤٌ امام ذلك الجهاز ، حلَّل الجهاز نغماتِه الى العناصر المؤلفة لكلامه ، وجعل تلك العناصر ، تسيطر على تيارات كهربائية ، تنبعث من بطاريات تخزين ، الى الاجزاء التي يتركب منها الجهاز المؤلف للنطق ، وهو الذي يقلد بذاته كل عنصر . ومن ثمة تختلط الاصوات بعضها ببعض وتسمع من مسمعة راديو

وبما ان عملية توليد الصوت ، الصناعي قد تكون مستقلة كثيراً او قليلاً ، عن الصوت البشري المحرك ، فيتسنى وضع الجهاز بحيث يغير المميزات ، مثل نبرة الصوت وارتفاعه ، فيمكن جعل الجهاز يجاري أي مغنٍّ مختلف النبرة ، في التوقيع فيتاح له ان يغني بمفرده أغنية مما ينشدها فريقان

ويرى المجربون أن بطاريات ذلك الجهاز ، تحل محل الرئتين ، وعناصره التي تولد النبضات ، تشبه الاوتار الصوتية . وحينما تضبط دوائره الكهربائية ، تصبح مماثلة للخلايا الهوائية المرددة للصوت في الفم والمجاري الهوائية البشرية

وأسفرت هاتيك التجارب عن كون الكلام البشري ، المعتاد ، مؤلفاً اصلاً من نغمتين مختلفتين ، وكل منهما ليست موسيقية ولامطربة ، بل ذات نبرة وارتفاع يميز لها ولكنهما متى اختلطتا احداها بالأخرى ، سمع الصوت البشري

ثم جاء في المجلة عينها في ابريل سنة ١٩٣٩ ما يأتي —

بيدرو

أو الآلة الاولى الناطقة حقيقة

هي آلة لا فم لها ولا رئتان ولا حنجرة ومع ذلك تتكلم أتقن الكلام ، واسمها بيدرو الڤودر Pedro the Voder وسيراها الزائرون لمعرضي نيويورك وسان فرنسيسكو العالميين ، العتيدين ، وذلك بين المعروضات الفنية التي ستعرض هنالك

وقوامها انابيب مفرغة من الهواء ودوائر كهربائية . وهي من مخترعات مهندسي مختبرات شركة بل التليفونية وكان اختراعها ، تاجاً تكالت بهِ مجهودات العلماء منذ قرون في تقليد الصوت البشري

وتستعمل مديرة الآلة عند ازماعها الحديث بها ، مفاتيح مثلها في الارغن العتيق الذي كان يوضع في البهو — وتؤلف المفاتيح من ١٣ مفتاحاً ابيض وأسود فاذا لمست مديرتها مفتاحاً اومفتاحين او اكثر منها استطاعت في كل مرة توليد جميع الاحرف المتحركة والساكنة التي يتركب منها الكلام

وفي الآلة مفتاح ينظم ارتفاع ذلك الصوت الصناعي الذي يخرج من مسمعة لاسلكية . وتحتوي الآلة ايضاً على دوّاسة تكيّف في اثناء ذلك . ترخيم الصوت بحيث تصبح الجملة المؤلفة ، دالة على امرٍ واقعيّ أوعلى استيضاح

ويحتاج المرء الذي يدير الآلة الناطقة الى زهاء سنة يقضيها في المرانة عليها حتى يجعلها تنطق بسهولة ، فتتكلم همساً او زعيقاً مقلدة الرجال او النساء او الاطفال ، بأية لغة كلاماً واضحاً مفهوماً وذلك مع ضؤولة نبرتها الكهربائية

ويرى مخترعو هذه الآلة أنها تفوق الممثلة السينمائية البارعة في كشف الاسرار التي تؤلف منها أجهزة النطق البشري

وتتركب الآلة المغنية من أنبوبين مفرغين من الهواء ، يقومان بتقليد النغمتين المؤلفتين للنطق البشري ونعني بهما الدويّ الذي تحدثهُ الاوتار الصوتية عند النطق بأحرف العلة في اللغة الانكليزية مثل a و e ثم الفحيح المتولد من النفس عند مروره بالفم والشفتين عند النطق بالاحرف الساكنة مثل s و f

وتقوم مفاتيح الآلة بتحريك مرشحات كهربائية تحوّل النغمة الاصلية الى اي صوت من اصوات الكلام المقصود بحيث يكاد يضارع تكييف المرء لفمه ليقوي بعض النبضات الكهربائية او النغمات العليا للاوتار الصوتية

وقد وصفنا فيما تقدم (صانعة الكلام الأولى) وذلك بالدوائر الكهربائية وقد كانت تختلف عن الآلة الجديدة بكونها لا تدور الاَّ اذا تكلم فيها امرؤ اما الآلة الحديثة المبينة لعملية الصوت واسمها بالانكليزية voice-operation demonstrator فقد اختصروها بكلمة voder اي بالاحرف الثلاثة المبدوءة بها الكلمات الثلاث مضافاً اليها المقطع الاخير من اللفظ الاخير . وقد اقتبس اسمها ايضاً من Dome Pedro دوم پدرو

الملابس اللبنانية النسوية التاريخية

في الجناح اللبناني بمعرض نيويورك

توفرت الاديبة اللبنانية الكبيرة الفاضلة السيدة افلين بسترس على دراسة الملابس والازياء النسوية اللبنانية في مختلف العصور وراجعت ما ورد في وصفها من فصول في كتب قديمة او صور ونقوش نادرة محفوظة في دور الكتب والآثار، ثم عنيت باعداد مجموعة نفيسة نادرة من هذه الملابس. بعضها مما أخذتهُ من دور الأسر اللبنانية العريقة، وبعضها مما صنعتهُ من نسيج حيك في لبنان باشرافها وفقاً للصور والنقوش القديمة. فجاءت مجموعة ممتازة في جمالها وفي كونها مجلى لتحول الملابس والازياء في لبنان من عهد الفينيقيين الى اواخر القرن التاسع عشر. وستعرض هذه المجموعة في الجناح اللبناني بمعرض نيويورك ثم يصنع كتاب يحتوي على صورها بالالوان، يسهل اقتناؤه على من يريدهُ تحفة في دارهِ للزينة او للفائدة التاريخية. وعمل السيدة افلين بسترس جدير بكل اعجاب وثناء وحبذا الحال لو عنيت هي وغيرها من سيدات الشرق الفضليات بحفظ ما يتهاوى بين ايدينا من مظاهر الحياة الاجتماعية كالاغاني والتقاليد وعادات الحفلات والاجتماعات في بلدان الشرق الادنى

والصورتان التاليتان تمثلان سيدتين لبنانيتين مرتديتين ثوبين من هذه الاثواب

الامبراطور البرازيلي الذي دهش حينما شاهد التلفون الذي اخترعته شركة بل الاميركية فصاح قائلاً «رباه انهُ يتكلم !!»

وقالت مجلة خلاصة العلوم الاميركية في جزئها الصادر في مارس سنة ١٩٣٩ بعنوان آلة تتكلم وتغني ما يأتي :—

عرضت لأول مرة الآلة المسماة ڤودر وهي أولى الآلات الناطقة في العالم ، عرضاً عامًّا على الجمهور ، أمام شهود من العلماء وذلك في معهد فرنكلين بمدينة فيلادلفيا . وقوامها أنبوبان مفرغان من الهواء يحدثان دويًّا وهسهسة . وفي مقدور العاملة البارعة التي تتولى ادارتها ، بضغط مفاتيحها التي تشبه مفاتيح الارغن ،وكذلك بالدوس على دواستها بقدميها ،خلط الاصوات بعضها ببعض والسيطرة على ما يطرأ عليها من التحريف الدقيق ، وذلك على أسلوب الصوت البشري

وقد استعملت هذه الآلة الكهربائية «أوتارها الصوتية» اولاً في توليد الأصوات المفردة لحروف العلة ثم تدرجت منها الى الكلمات المفردة المقاطع ثم الى النطق بالجمل التامة فأدهشت المشاهدين السامعين

اخترعت الڤودر Voder لتعرض في المعرضين العالميين المزمع إقامتهما في مدينتي نيويورك وسان فرنسيسكو ، وذلك ضمن معروضات المختبرات العلمية الخاصة بشركة تليفونات بل الاميركية . وأطلق عليها اسم ڤودر اختصاراً للكلمات الانكليزية الثلاث voice operation demonstrator وهي فتمكنت بسهولة من تقليد أصوات الرجال والنساء والاطفال واستطاعت تقديم برنامج موسيقي اشتمل أيضاً على خوار المواشي وثغاء الشياه وقباع الخنازير وتغريد نقار الشجر . وفي طوق الڤودر ايضاً تقليد سائر أصوات الحيوانات الداجنة بلا عناء يذكر تبذله مديرتها

ويرى صناع المختبر العلمي الذين صنعوها برمتها من الادوات المستعملة كل يوم في اشغال التليفونات ، ما عدا مفاتيحها ، ان في وسع تلك الآلة القيام فعلاً بكل ما يأتيه الصوت البشري ، وذلك من توليد احط النبرات التي تؤلف من ٨٠ او ٩٠ نبضة ، الى النغمات العالية التي تؤلف من ١٠٠٠٠ نبضة وانها تستطيع الغناء ايضاً . وتستغرق ، العاملة التي تديرها ، سنة أو اكثر حتى تحذق تحريك مفاتيحها وتتمكن من تقلد زمامها . اما اذا أريد جعل الڤودر ، مغنية شجية الصوت ، فلا بدَّ من انتقاء مديرة لها ذات ذوق سليم في الاصوات الموسيقية وفوائدها . وتؤلف الڤودر كما هي عليه ،في ردهة الخطابة في معهد فرنكلين ، من مفاتيح تكاد تضارع مفاتيح ارغن من الزي العتيق الذي كانت تزدان بهِ أبهاء البيوت ومن صندوق يحتوي على مصادر الطاقة وهي الأنابيب المفرغة من الهواء ، ومضخمات الصوت ، وثلاث مسمعات لاسلكية ، على ان يحدد عدد هاتيك المسمعات طبقاً لحجم القاعة وغيرها من الشؤون الموضعية . وتؤلف

مفاتيح الڤودر من أحد عشر مفتاحاً أبيض ، عشرة منها تسيطر على المرشحات الكهربائية التي تستعمل للحصول على درجة الاهتزاز الملائمة . اما المفتاح الحادي عشر ، فيتحكم في رفع الصوت وخفضه ويحتوي الڤودر ايضاً على ثلاثة مفاتيح سود تولد اصوات الحروف الساكنة ، وقد جهز المخترعون الڤودر ، بجهاز كهربائي يطابق نوعي اصوات الكلام البشري . اذ المعروف ان النوع الاول من الصوت البشري ، يتولد من اقحام التنفس في الفم ومروره باللسان والاسنان والشفتين . وأن الهسهسة المحتوية على نبضات الاهتزاز ، تتولد من اضطراب مجرى الهواء . وتتقوّى بعض هاتيك النبضات بترديد الصوت في تجويف الفم . وتلك هي الطريقة التي تؤلف بها أصوات الكلام جميعها حينما يتكلم المرء همساً او عندما يلفظ الاحرف s و th و f

وفي الڤودر هسهسة كهربائية ، وببعض مفاتيحها ، تستطيع مديرتها جعلها تكوّن تلك الاصوات ، وبالمفاتيح الاخرى تستطيع النطق بحروف الوقف الساكنة مثل d و k و h

وأتيح للڤودر عند عرضها على الجمهور ، النطق بحرف العلة e ثم بالحرفين الساكنين ch وذلك بصوت التنفس ثم طلب اليها ضم تلك الحروف الثلاثة بعضها الى بعض فركبت منها كلمة each الانكليزية . وداست مديرتها على الدواسة التي تغير نبرة الآلة فتلفظت بكلمة الصبر patience ثم ركبت منها بناء على طلب المشاهدين ، جملة مفيدة وهي الصبر ضروري Patience is necessary وقد قلدت ايضاً ازيز محرك الطائرة ، ودوي القاطرة . وترى مديرة الڤودر ان الحروف التي يعتاص عليها لفظها هي l و r وانها تلاقي اقصى الصعوبة في نطق كلمتي bull و whom

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا في جريدة الاهرام في ١٨ مارس سنة ١٩٣٩ ما يأتي :—

آلة تتكلم وتغني

العجيبة الثالثة بعد الراديو والتلفزيون

نيويورك في فبراير لمراسل الاهرام الخاص :—

اخترع ثلاثة من عمال المعامل الكيماوية التابعة لشركة التليفون ، آلة تحسن النطق كالبشر تماماً اطلقوا عليها اسم (ڤودر) وجرّبوها لأول مرة امام رهط من العلماء اقترحوا عليها التلفظ بكلمات وعبارات مختلفة ففعلت . ولم تنحصر مقدرتها على الكلام في اللغة الانكليزية فقط بل في جميع اللغات وهي تقلد اصوات الحيوانات وتحسن الغناء ايضاً الى حد معلوم

كانت تجربة هذه الآلة العجيبة في معهد فرانكلن بمدينة فيلادلفيا حيث ادهشت المشاهدين الذين سمعوها وستعرض في معرض نيويورك ومعرض سان فرنسيسكو . تتكلم هذه الآلة بواسطة أنبوبتين وتسيطر على لسانها أو ألسنتها ، عدة مفاتيح كمفاتيح البيانو تضغطها الانامل كما تضغط مفاتيح البيانو ، ولها مثلهُ دواسة للرجل تساعد على رفع الصوت

أو خفضه . وقد أدارتها في هذه التجربة فتاة بقيت سنة وستة أشهر تتمرّن لـكي تحسن تكييف ما تريد من الآلة التلفظ به .

وكل أقسام الآلة — ما عدا المفاتيح — تماثل الادوات التي تستعمل كل يوم في الخدمة التليفونية . واسمها «ڤودر »مأخوذ من ثلاث كلمات وهي Voice operation demonstrator وكان اول ما تلفظت به الآلة حروف العلة . ولفظت باقتراح احد الحضور كلمة (الصبر) فاقترح عليها أن تجعلها عبارة ، فقالت « الصبر ضروري » ونطقت عدة كلمات عامية ثم لفظت كلمة انكليزية مؤلفة من ٢٣ حرفاً تخرجت من فمها بأوضح مما يستطيعه الشخص الذي اقترحها عليها . وقال رئيس شركة التليفون للذين سمعوا الآلة انها لا يوجد في جوفها كلمات على اسطوانات أو غيرها ، يدل على ذلك انها تلفظت بكلمات غريبة اقترحها عليها أناس ليسوا من الشركة

وقال ان هذه الآلة ستكون عوناً للذين يفقدون قوة الصوت او الـكلام فيتكلمون بواسطتها

وقد أطلق بعضهم على هذه الآلة الناطقة لقب « بدرو » وهو مأخوذ من اسم « دوم بدرو » امبراطور البرازيل السابق الذي عندما تكلم بالتليفون لأول مرة عام ١٨٧٦ صاح مدهوشاً مبهوتاً وقال « يا الـهي انهُ يتكلم » والذين سمعوا هذه الآلة في فيلادلفيا بالأمس ، قالوا قوله واستعاذوا بالله

إن هذه الآلة هي الأولى من نوعها في تاريخ العالم . والفتاة التي ادارتها كانت كأنها تعزف على البيانو او الأرغن فتضغط بأناملها المفاتيح البيض والسود ، التي تسيطر على الأصوات والانغام المختلفة . وفي الآلة أداة تدار الى جهة معلومة عندما يراد منها ان تقلد صوت رجل او امرأة او ولد او هدير طيارة او قرقعة قطار حديدي

وبعد ان قلدت الآلة صوت الرجل وصوت المرأة ، شرعت في تقليد مدهش لثغاء الغنم ، وخوار البقر والماشية ، ونخير الخنازير . ويقال أنها لا تتكلم فقط بل تحسن الغناء . ولا يبعد ان تبلغ في الاتقان درجة تؤهلها للغناء الرفيع في الأوبرا . انتهى ما روتهُ الاهرام

ووصفت مجلة الميكانيكا العامة في جزء مارس سنة ١٩٣٩ هذه الآلة فقالت :—

الفودر هي الآلة الأولى من نوعها في العالم لصنع الـكلام . وهي جهاز كهربائي عرض حديثاً . ويدور بضغط مفاتيح تكاد تشبهها في الارغنات القديمة التي كانت تزدان بها رداه البيوت . ويتاح لمديرتها البارعة ، إدارتها وذلك بضغط مفاتيحها إما مفردة وإما جماعة ، فتتمكن من جعل تلك الآلة تقوم بالمحادثة في الأمور الواقعية او الاستفهامية او التأكيدية

وتؤلف الفودر من جهاز كالمستعمل في اعمال التليفونات المألوفة . وفيها ادوات تلائم نوعي صوت الـكلام البشري اذ يدفع النَّفَس بأعظم قوة في الفم بحيث يمر باللسان والاسنان

والشفتين فيحدث هسهسة وهذه هي الطريقة التي تؤلف بها جميع أصوات الكلام حينما يهمس المرء كما تتركب منها اصوات الحروف s و th و f وفي الفودر هسهسة كهربائية ، فيتاح للمرء ، بتكييف بعض مفاتيحها ، تأليف تلك الاصوات . وفيها ايضاً مفاتيح اخرى تؤلف حروف الوقف الساكنة وهي d و k و p ونوع الصوت الآخر الذي يدخل في الحديث البشري ، يكون اغلبهُ في الحروف المتحركة وهي a و e و o . وهذا يصدر من الاوتار الصوتية وهو معقد جدًّا ، طفيف الموسيقى

ولذلك يوجد في الڤودر ، دواسة لتغيير نبراتها ولأجل اعطاء الحديث نغمة عالية او منخفضة على هوى مديرتها . فاذا ما رامت تلك المديرة توليد الاصوات التي تؤلفها الاوتار الصوتية ، عوضاً عن الاصوات الهمسية ، او الحروف الساكنة ، ضغطت مفتاحاً من مفاتيح الفودر التي يستقر عليها ساعدها ، فتنتخب حينئذٍ الاجزاء المقصودة الخاصة بذلك الصوت المغني ، وذلك بتحريك المفاتيح الصالحة له . ومصدر ذلك الصوت ما يسمى « رقاص التراخي » في الفودر . وهو الذي يولد موجة مضرسة « كأسنان المنشار » بدلاً من الموجة السلسة المستديرة ذات النغمة الموسيقية البحتة ولتلك الموجة المضرسة نغمة اساسية تعطي الصوت باجمعه ، نبرةً معينة . والتغييرات العظيمة التي تحدث في هذه النبرة ، تبين الفرق بين اصوات الذكور والاناث . ويؤلف التلحين ، من تغير انزلاقي للنبرة في صف صغير من صفوف مفاتيح الآلة . ويتسنى جعل الفودر ، تمثل رجلاً أو امرأة وذلك بتحريك مقبضها المستدير الذي يشبه مفتاح المذياع او ترمسته(١) فتتمكن الفودر من الافصاح عن امر واقعي او القيام بسؤال او توكيد كلمة وذلك طبقاً لحركة دواساتها . وتحتاج اصوات حروف العلة الى انتخاب صف او صفين او ثلاثة صفوف او اربعة من مفاتيح الفودر ذات النغمات العليا (المقامات) أما الصفوف الأخرى فلا تؤدي شيئاً للصوت

وقد تبيَّن ان الهسهسة أو صوت النفس ، المؤلف لعنصر من عناصر الفودر ، انما هي اطلاق الكهيربات في أحد أنبوبي الآلة المفرغين من الهواء . أما الدوي او العنصر الآخر ، فانهُ يتولد في الدائرة الكهربائية للانبوب الآخر ، المفرغ من الهواء اي الرقاص الكهربائي . وفي وسع مديرة الفودر ، توليد ثلاثة وعشرين صوتاً مختلفة ، من مفاتيح الفودر جميعها ، من بيض وسود . وقد تحتاج المديرة أحياناً الى ضغط خمسة مفاتيح دفعة واحدة لتوليد الصوت المقصود . ومع قدرتها على توليد أي صوت من أصوات الكلام فان العدد الصحيح الذي يتاح لاية مديرة الانتفاع به ، يتوقف على خفة أصابعها

(١) وعندي ان لفظة ترمسة افضل من غيرها لترجمة الكلمة الانكليزية knob لان شكل المفتاح المستدير لجهازي الراديو والفودر أقرب الى حبة الترمس

كتاب التصوف الاسلامي

في الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكي مبارك المفتش بوزارة المعارف

يقع هذا الكتاب النادر المثال في نيف واربعماية صفحة من القطع الكبير وهو مطبوع طبعاً جميلاً متقناً ويعد بحق موسوعة عظيمة الشأن في الادب الصوفي وقد أهداه مؤلفه الفاضل الى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول بعد إذ اهدى كتابه الاول « الاخلاق عند الغزالي » الى جلالة الملك الراحل فؤاد الاول ونال على كل من الكتابين من الجامعة المصرية لقب الدكتوراه في الفلسفة

والكتاب مصدر بمقدمة بقلم الاستاذ الجليل محمد جاد المولى بك ذكر فيها كيف عرف الدكتور زكي مبارك أوَّلَ مرة معرفة شخصية حين أدى امتحان الدكتوراه الاولى أمام لجنة الجامعة المصرية في سنة ١٩٢٤ . وكان الاستاذ جاد المولى عضواً في هذه اللجنة من قبل وزارة المعارف قال فرأيته يهجم على حجة الاسلام الغزالي ويقسو عليه فلم يجد بدّاً من ان يتشدد في حسابه ليعجم عوده ويسبر غوره . فعرف عند ذلك ان الدكتور زكي مبارك قد يقضي حياته في المصاولة والمجادلة لما استقر في النفوس من انهُ باحث متعسف مشاغب ولكنهُ حين رآه وهو يؤدي امتحانه امام اللجنة في سنة ١٩٣٧ لنيل اجازة الدكتوراه من الجامعة للمرة الثانية رآه يجادل لجنة الامتحان وهو آية من آيات الذوق والادب ومثال من أمثلة التواضع والاستحياء يستمع السؤال بهدوء ويجيب عليه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس ولما خلت اللجنة للمداولة قررت منحه درجة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف وهي شديدة الضن بالالقاب الاّ على المستحقين لا سيا وان اللجنة التي أدى امتحانه أمامها قد ضمت نخبة من أكابر العلماء من بينهم الاستاذ مصطفى بك عبد الرازق (وزير الاوقاف الآن) والدكتور منصور فهمي بك والدكتور عبد الوهاب عزام

وفي الحق ان كتاب التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق يدل أبلغ دلالة على ان مؤلفه الفاضل قد بذل جهوداً جبارة في تنسيقه وتأليفه حتى جاء ذخيرة أدبية اخلاقية صوفية تضاف الى ثروة الادب العربي . وقد تناول الجزء الاول من الكتاب معالجة موضوعات مهمة منها فصل في اشتقاق كلمة التصوف وعنده ان الأصح ان هذه الكلمة مشتقة من الصوف لشواهد

كثيرة رآها تؤيدهذا الغرض منها ان الانبياء والصالحين كانوا يؤثرون لبس الصوف فمن المحتمل ان يكون الصوفية لبسوا الصوف اول الامر ليصح لهم الاقتداء بتواضع رسول الله . ومنها ان الصوف قديماً كان مظهر التخشن والتقشف كما كان من علامات الزهد ومن شعار الصالحين. ومنها « ان الجماهير كانت لا تمثل الصالحين الاّ في الثياب الصوفية » على ما رواه الزبيدي نقلاً عن كتاب بهجة الناظرين وان الامام الغزالي جعل لبس الصوف من صفات من يصرف اليهم ما يوصى بهِ للصوفية .وختم الدكتور زكي بحثه هذا بقوله ان لبس الصوف كان كذلك من تقاليد النصرانية وهي في اصلها تصوف وروحانية لما ان المسيح عليه السلام كان يؤثر لبس الصوف على ما عداه من أنواع الثياب . ولم يرتضِ الدكتور ما ارتضاه غيره من ان كلمة التصوف قد تكون مشتقة من كلمة سوفيا اليونانية ومعناها الحكمة بل انهُ لا يرى مانعاً من ان تكون كلمة سوفيا ذاتها جاءت من كلمة صوف العربية لانها قديمة في هذه اللغة ولان التصوف قديم جدًّا عند العرب وهو أساس المسيحية ولبس الصوف كان علامة التقشف وكلمة سوفيا اليونانية قد تؤدي معنى الحكمة الروحانية فليس من المستبعد ان ترحل كلمة صوف الى المعابد المسيحية . ولكننا نخالف الدكتور زكي مبارك في الذهاب الى ان التصوف مشتق من الصوف ونميل كل الميل الى تقرير ان هذه الكلمة معربة عن كلمة تيوصوفية اليونانية على ما اوضحناه تفصيلاً في رسالتنا في الصوفية وقد كتبت باللغة الانكليزية ونشر المقتطف ترجمتها العربية في عدد يوليو الماضي فليرجع اليها من يشاء

والمهم هنا ان نقول ان ابحاث الكتاب كلها ناطقة بأن المؤلف ذو عقل فلسفي ظاهر كل الظهور في دراساته وهو يدرس الوجوه المختلفة للرأي الواحد وقد يصل حاله كما ذكر الاستاذ جاد المولى بك الى حد الغرابة حين يعرض علينا عدة صور لرأي من الآراء حتى لتراه متشيعاً لكل صورة منها كأنهُ رأيه الوحيد وكأنهُ اشخاص عدة يتحاورون لا شخص واحد

ومن اهم موضوعات الكتاب التصوف في الأدب العربي والذخائر المنسية في الأدب الصوفي ومحاولة فلسفية في نشأة التصوف في الاخلاق ، والدنيا في اذهان الصوفية وهذه كلها فصول لا شك ممتعة دالة على سعة اطلاع المؤلف ورسوخ قدمه في نقد الأدب وتذوق معانيه الى ابعد حد ممكن مع الوضوح التام والجلاء المستفيض . فعبارات الكتاب صريحة فائقة وحماسة المؤلف رائعة واسلوبه متين ولكنني اصرح بانني وان اثنيت على عقله الفلسفي وأطريتهُ كل الاطراء فاني اخالفه في كثير مما ذهب اليهِ في نقد التصوف والصوفية وفي كثير من آرائه التي بسطها في كتابه واقول انهُ في كتابه هذا العظيم قد عرض للادب والاخلاق في التصوف الاسلامي ولكنهُ لم يعرض للتصوف في ذاته عرض من وقف على حقيقتهِ واسراره . والظاهر

من كلامه في فاتحة الكتاب انهُ اعتمد فيما دوَّنهُ في كتابهِ على ما قرأه مع الاستاذ ماسينيون من فقرات من كتاب الزهرة في سنة ١٩٢٧ فعرف ميله الى درس العلاقة بين الحب العذري وبين التصوف فتسرب الى صدره « بصيص من ضوء الفكرة التي يقوم على أساسها هذا الكتاب » وانهُ في خريف سنة ١٩٣٠ وشتاء سنة ١٩٣١ حضر دروس الاستاذ ماسينيون بالكوليج دي فرانس في العلاقة بين التصوف والحب الرقيق فازدادت عنده الفكرة وضوحاً وصحت عزيمته «على درس أثر التصوف في الادب والاخلاق »

ومن هذا يتضح ان الدكتور زكي مبارك جعل الاساس الذي بنى عليهِ كتابه امرين الاول العلاقة بين الحب العذري وبين التصوف والثاني العلاقة بين التصوف والحب الرقيق وهذا ما جعله يعد جميل صاحب بثينة والمجنون صاحب ليلى كما عد العاشق ابن الدمينه من اقدم الصوفية في عالم الحب العذري او الحب الرقيق

فعند الدكتور ان التصوف خليق بأن يعجب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية وهو يتمثله في صور كثيرة « فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة حين تقوم على مبادىء تتصل بالروح والوجدان » وقد ذكر لكل من هذه الصور ما سماه شواهد تدل على صحة ما ذهب اليه فأورد أبياتاً لكل عاشق منها قول ابن الدمينه يخاطب معشوقته اذ قال :

وإني لأستحييك حتى كأنما عليَّ بظهر الغيب منك رقيب
ولو أنني استغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب عليَّ ذنوب

الى ان قال فلاخير في الدنيا اذا أنت لم تزر محبًّا ولم يطرب اليك حبيب

وقد استخلص من ذلك كله ان هؤلاء العاشقين المترنحين متصوفون قحاح . ولماذا ؟ لأنهم صادقون في حبهم العذري الرقيق لا يبغون من ورائهِ شيئاً دنيًّا

ولعمري ان العشق عذريًّا كان او غير عذري والحب رقيقاً كان او غليظاً كلاهما في واد والتصوف في آخر فالعشق هو العشق لا يحتاج الى تعريف واما التصوف الذي يعرفهُ اهله وتواضع عليه اربابه واصحابه والعارفون دون غيرهم ممن اراد أن يتزيا بزيهم وينسب نفسه زوراً اليهم ودون جماعة المستشرقين وغير المستشرقين ممن كتبوا في التصوف على غير تذوق ومعرفة ، فأساسه حب الله وحده وحب رسوله وايثار هذا الحب على ماعداه ثم الزهد في الدنيا وايثار الحياة الآخرة عليها ويتصل بذلك كثرة ذكر الله في السر والعلانية والصلاة والسلام على رسول الله جهد الطاقة . وهذا مع التمسك بأهداب الشريعة والعض عليها بالنواجذ وجعل احكامها في جميع فروعها ومناحيها دستوراً للمتصوف الصادق لا ينفك عن السير على منهاجها في حياته حتى يلقى الله تعالى فيلقاه كما يلقى المحب حبيبه بعد طول النوى والبعاد

وسواء اكان اسم التصوف مشتقًّا من الصفا على ما ذهب اليه الدكتور ابراهيم ناجي وجماعته ام من الصوف كما ذهب اليه الدكتور زكي مبارك وجماعته ام من التيوصوفية على ما ذهب اليه كاتب هذه الاسطر وجمع آخر فما لا مشاحة فيه ان مؤداه واحد لا يتغير وهو حب الله وكثرة ذكره وحب رسوله وكثرة الصلاة عليه والتمسك بأهداب الشريعة فيما صح نقله وثبت من الكتاب والسنة وعبادة الله في السر والعلانية والظاهر والباطن جميعاً

ولهذا كان من غير المفهوم عند ارباب التصوف قول المؤلف (ان الصوفي المعتدل يقبل من شيخه كل شيء كما يقبل النصراني المعتدل من القسيس كل شيء والصوفي المعتدل يقدم كلام شيخه على القرآن والحديث (حاشا وكلاَّ) كما يقدم النصراني المعتدل كلام الرهبان على كلام الانجيل اما الصوفي الثائر فيرفض جميع النصوص ويتسامى الى مخاطبة الله والفهم عنهُ بلا مرشد ولا دليل وهنا اقول بصراحةٍ (!) ان هذا اساس متين لبناء الشخصية الخلقية وان غضب رجال الدين)

ولسنا ندري من أين عرف الدكتور زكي مبارك ان الصوفي المعتدل او غير المعتدل او الثائر او غير الثائر بل الصوفي مطلقاً يؤثر كلام الشيخ على القرآن او يرفض النصوص ويتسامى الى مخاطبة الله والفهم عنه تعالى بلا حاجة الى مرشد او دليل اللهمَّ ان هذا افتئات على الصوفية والتصوف واي افتئات ونسبة القوم على ما هم منهُ براء فهم اشد الناس تمسكاً بالقرآن والسنة واشدهم قبولاً واذعاناً للنصوص واعتصاماً بها

ولعلَّ الدكتور عرف عنهم ذلك من صحبته لجماعة المستشرقين واخذه التصوف عنهم وقراءتهِ لبعض الكتب التي لا يعول عليها في نقل اخبار القوم ومعرفة حقيقة حالهم ولعله في الطبعة التالية من الكتاب يستدرك هذا الخطأ والشطط والتجني على الصوفية فيعود الى انصافهم ولا يتخذ ذلك الشيخ الذي كان من سوء حظه انٍ صحبه في سنتريس واتخذه شيخاً له ثم رآه غير اهل للمشيخة ولا للارشاد حجة عليهم ودليلاً على حالهم . كما رجع الدكتور عن التجني على الامام الاكبر حجة الاسلام ابي حامد الغزالي فرأيناه في هذا الكتاب يبرأ الى الله مما رماه بهِ من قبل في كتابهِ « الاخلاق عند الغزالي » وجاء يصرح الآن علناً بأنهُ لم ينصفهُ فيما كتبهُ عنهُ ونسبهُ اليهِ فهذا الرجوع الى الحق هو حقًّا من ثمرات العلم الصحيح وحسنات العقل الذي كمل نضجه وليعلم صديقنا الدكتور زكي مبارك ان التصوف لا يوقف عليهِ الاَّ من صحبة الرجال المشتغلين بهِ لا الحاقدين عليه ولا المتصدين لنقده والتصدي — على ما يزعم ارباب البحث الجامعي — الى كشف عيوبهِ ومحاسنه وقوته وضعفه

ثم ان زعم الدكتور ان الصوفية قسموا مريديهم فى الصوم ونحوه الى عوام وخواص وخواص الخواص فقضوا بان صوم الخصوص لا يقع فيه الفطر بالطعام والشراب وانما يقع

بارتكاب المآثم ونهش الاعراض — ونقول ان هذا الزعم لا أصل له عند القوم الاّ من حيث قسمة المريدين الى هذه الاقسام . وأما من حيث أنهم لا يقضون بوقوع الفطر بالطعام والشراب فهذا ما لم يقل به احد قط .وانما هم يشددون على الخواص فيحذرونهم من ارتكاب اي مأثم صغيراً كان او كبيراً مما نهى عنهُ الشرع ولو نهي كراهة فان ارتكابه في حقهم يبطل صومهم كما يبطله تعاطي الطعام او الشراب سواء بسواء

هذه ملاحظات عاجلة او خاطفة كان لا بد لنا منها وهي لا تحول بتاتاً دون تقدير كل منصف لجهود الاستاذ الدكتور زكي والثناء عليه اطيب الثناء على ما افنى من عمره المبارك في سبيل الدرس والبحث والتأليف والتصنيف حبًّا منهُ في خدمة الادب والاخلاق . اكثر الله في الامة من اهل الفضل والتضحية وأثابهم على خدمتهم النافعة وتجاوز عن تقصيرهم ما دام حسن النية وحب الخدمة رائدهم فيما يبحثون ويكتبون ويدرسون ويؤلفون

الفقير احمد غلوش

محاضرة الدكتور كليلند

كان لمحاضرة الدكتور كليلند التي عنوانها « مشروع تنظيم السكان في مصر » وقعٌ كبير في الدوائر المصرية من وطنية وأجنبية التي تعنى بدراسة مشكلات مصر الاجتماعية . ولذلك عنينا بترجمتها ونشر الجانب الاول منها في مقتطف هذا الشهر على ان ننشر تتمتها في مقتطف يونيو القادم . وقد فعلنا ذلك بموافقة الدكتور كليلند نفسه وسماح الدكتور ليفي محرر مجلة « مصر المعاصرة » الفرنسية حيث ينتظر أن ينشر نص المحاضرة كاملاً باللغة الانكليزية في عددها القادم

دليل موجز

لمعروضات دار الآثار العربية

القاهرة ١٩٣٩ — ١١٣ص ، ٢٨ لوحة

قد يعجب القارىء أن تعرض هذه المجلة لنقد دليل موجز لدار من دور الآثار . والحق ان النقد يقع على كل شيء نفيس سواء كان بحثاً او رسالة او ورقة او دليلاً

ويسرنا ان نقول إن هذا الدليل مقطوعة عاصية لها شأنها . ذلك لأنهُ يسرد تاريخ تكوُّن دار الآثار العربية في أسلوب جذاب ثم يفيض في تاريخ الفن الاسلامي على العموم وفي خصائص هذا الفن الجميل. فهنالك التحليل وتدقيق النظر واستخراج النظريات وشرح الاصول

ويتلو هاتين الافاضتين القائمتين مقام التوطئة والتعريف وصف شامل مفصل لجميع ما تضمه دار الآثار العربية في القاهرة . ويجري الوصف من بهوٍ الى بهوٍ على التدريج والترتيب . وليس الوصف في النسخة العربية بالجافّ ولا بالسطحي ، بل هو لطيف المداخل والمخارج ، بعيد المرمى ، كشّاف ، رشيق

وقد كتب هذا الدليل بالفرنسية الاستاذ المستشرق جاستون ڤييت ، و نقله الى اللغة العربية بتصرف واضح الدكتورزكي محمد حسن أمين دار الآثار العربية. وما نظن الترجمة في مثل هذه الحال بأيسر من التأليف. والسبب أن اللغة العربية لا تزال مفتقرة الى أساليب التعبير في صنوف العلوم وضروب الفنون . وقد سبق للدكتور زكي حسن أن ألَّف كتباً في الفن الاسلامي أشار المقتطف الى نفاستها يوم خرجت. وكان في أسلوب تلك الكتب شيء من التقرّي والتحسس. أما هذا الدليل فقد استوى فيهِ الأسلوب الفني وأخذ يدنو من التثبت والاستقرار

ولعلّ الدكتور زكي حسن يخرج لنا في كتبه المستقبلة مسارد نصيب فيها ألوان التعبير الفني ، حتى تتم الفائدة ب . ف

مباحث عربية

تأليف بشر فارس ، الدكتور في الآداب من السوربون

١٥٠ ورقة . من القطع الكبير . مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر الثمن ١٥ قرشاً صاغاً عدا اجرة البريد

تلقينا هذا الكتاب الجليل والمقتطف ماثل للطبع . ومثل هذا الكتاب لا تكفيه الاشارة ولا يظفر بهِ النظر السريع . وفي العدد المقبل سنفرد له نقداً يجدر بهِ . وحسبنا اليوم تقدمه لقراء اللغة العربية. وأول ما يسترعي النظر ما في أسلوب الكتاب من الطرافة مبنىً ومعنىً ومنهجاً. أما المبنى فوضوح العبارة و بلاغتها ودقتها العلمية ، واما المعنى فجدة الموضوعات ومعالجتها بقلم متمكن وذهن مثقف غاية التثقف . واما المنهج فتلك الحواشي المستفيضة والتعليقات الغزيرة والمراجع الوافية وفيها مخطوطات كثيرة ثم تلك العلامات والرموز التي ابتكرها المؤلف تيسيراً للمراجعة ، ثم تلك المسارد للمخطوطات والاصطلاحات العربية وغير العربية

فهذا الكتاب الادبي الموادّ، العلمي الأسلوب والمنهج يُعدّ توجيهاً جديداً في الإنشاء والبحث . ويضاهي جلائل المؤلفات الافرنجية في التأليف العلمي . ولا غرابة في ذلك فالمؤلف ممن له مكانته في الدوائر العلمية الاوربية ، بدليل انهُ يشترك في تحرير دائرة المعارف الاسلامية الصادرة في هولندة وفي مجلات الاستشراق الرفيعة ، وقد سبق للمقتطف أن أشار الى ذلك

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

صدر الكتاب السنوي التاسع لهذا المجمع الجليل محتوياً على المحاضرات التي ألقيت في مؤتمره التاسع السنوي واجتماعاتهِ الشهرية من ابريل سنة ١٩٣٨ الى آخر مارس ١٩٣٩ وهو كجميع الكتب السنوية التي سبقتهُ حافل بالبحوث العلمية المفيدة لكبار المشتغلين بالعلم في مصر . في صدر الكتاب محاضرة الرئيس للدكتور حسن صادق بك وعنوانها « الذهب » وهي بحث تاريخي جولوجي صناعي اقتصادي فيهِ نبذة عن الذهب في مصر في العصور القديمة ، ثم كيف يعدَّن

الذهب ، والجانب الاخير موقوف على مناجم الذهب التي تشغلها الحكومة المصرية او الشركات الاجنبية في الاراضي المصرية وما يستخرج منها وما قيمتهُ وما المصاعب التي ذللتها الحكومة

ويلي ذلك محاضرتان صحيتان الاولى للدكتور عبد الواحد الوكيل بك في اتجاهات علم الصحة. والثانية للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك موضوعها أثر الامراض المتوطنة في كفاءة الجندي المصري. وقد طالعها القراء في مقتطف يونيوسنة ١٩٣٨ . ثم ثلاث محاضرات نفيسة في شؤون مصرية بيولوجية منها القطن المصري للدكتور محمد عزيز فكري . والثانية تمييز الحالة الجنسية في النباتات عامة والنخيل خاصة للدكتور محمد بهجت. والثالثة في بيئة بحيرة المنزلة للدكتور عبد الحليم منتصر . اما المحاضرات الاخرى فهي « ابو الهول » للاستاذ سليم حسن . وتوافق خواطر المكتشفين والمخترعين للاستاذ البرقوقي (انظر مقتطف فبراير ١٩٣٩). وتبسيط الحساب بالطرق الآلية والتخطيطية للاستاذ فريد بولاد بك

فالكتاب يجمع طائفة ممتازة من البحوث العلمية الدقيقة وهو علاوة على ذلك آية في جودة الطبع وصوره مطبوعٌ اكثرها بالروتوغرافور ومنها صور بالالوان لبعض الآنية والحلى الذهبية عند قدماء المصريين نشهد أنها لا يمكن ان تكون أشد اتقاناً مما هي

شهران في لبنان

وبلاد اليونان وايطاليا وطرابلس الغرب

بقلم الصحافي العجوز — صفحاته ٢٦٨ صفحة طبع بمطبعة الامانة مصر — ثمنه ١٠ قروش

الناس فريقان ، فريق يتغرب عن الاهل والاصدقاء ويسافر ولا غاية له الا النزهة وراحة الجسم من عناء الاعمال وفريق آخر يتجشم متاعب السفر ووعثاءه وغايته الاستفادة من رحلاته وتنقلاته وجولاته في البلدان التي يزورها ثم الافادة واطلاع الغير على ما شاهده فيشترك القارىء في رحلاته ومشاهداته عن طريق المطالعة والاستاذ توفيق حبيب الصحافي العجوز صاحب المقالات التي يكتبها في الاهرام الغراء في طليعة الفريق الثاني فقد كانت رحلته الاخيرة في صيف ١٩٣٨ الى لبنان وبلاد اليونان وايطاليا وطرابلس الغرب فأخرج وصفها في كتاب زيَّنهُ بكثير من الصور . يطالعهُ القارىء فيجد نفسه متنقلاً من بلد الى آخر فهذه بلاد اليونان وآثارها ومتاحفها وحمامات لوتراكي ومعبد الاكروبول وتلك نابولي وفينيسيا وفورنسا مدينة الآثار والفنون وروما المدينة الخالدة . أما لبنان فقد خصهُ بفصول عن نهضته الادبية والصحافية ومصايفه المشهورة وأهل العلم والفضل فيه وأخيراً طرابلس الغرب فذكر لمحة تاريخية عن طرابلس القديمة والجديدة ووصف أسواقها الوطنية ومقاهيها وأحياءها وما اجتمع عنده من أخبار النهضة الادبية والصحافية فيها

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الرابع والتسعين

